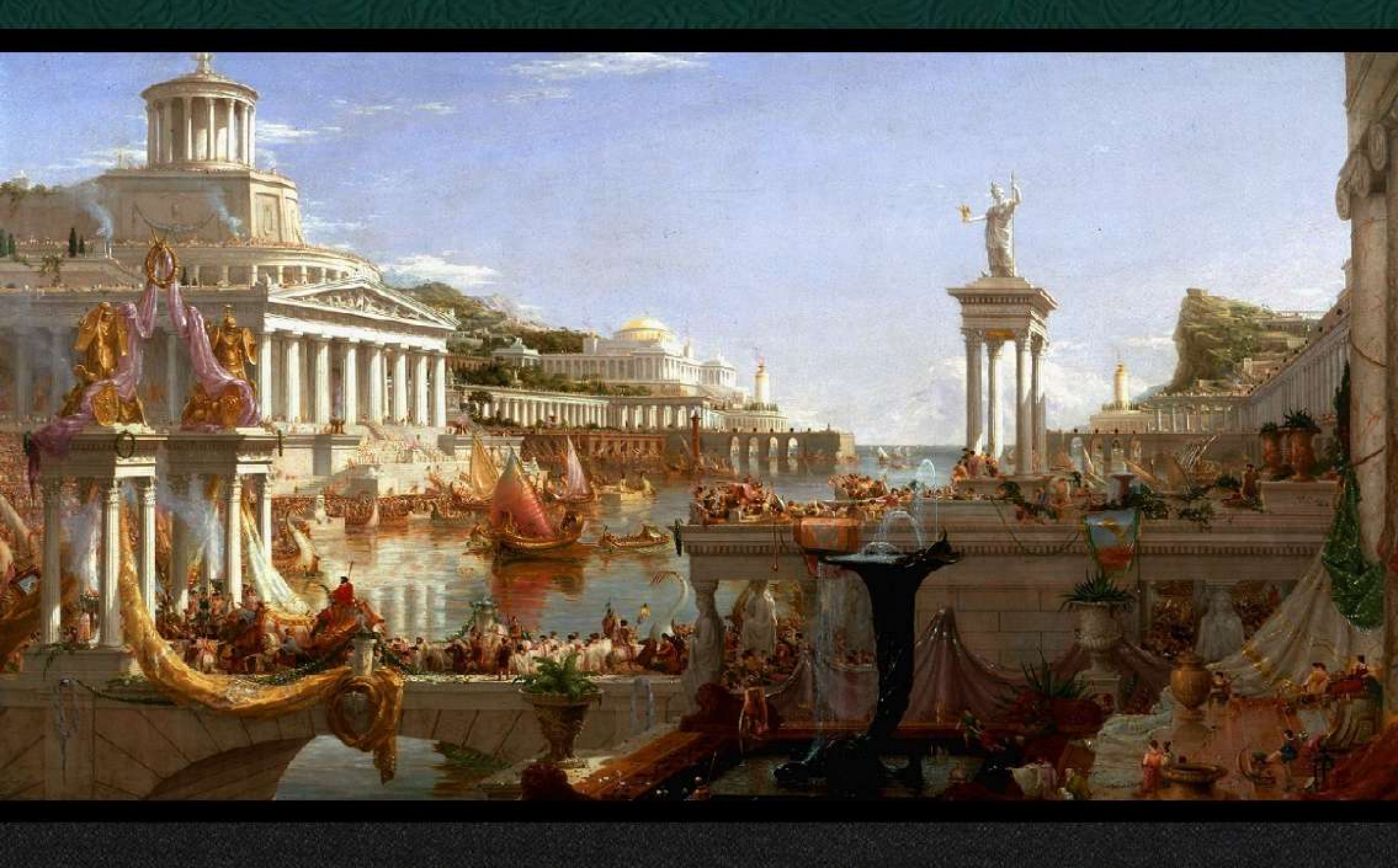
قصة الحضارة



المجلد الثالث

ويل ديورانت

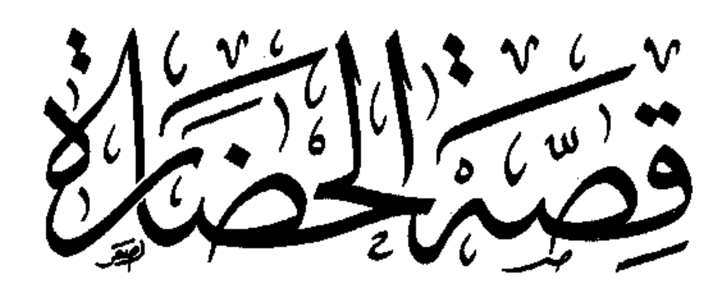
قصة الحضارة

9- قيصر و المسيح (الجزء الأول)

10- قيصر و المسيح (الجزء الثاني)

11- قيصر و المسيح (الجزء الثالث)

ويل ديورانت



ول وايريل ديورانت

قيصر والمسيح
أو
الحضارة الرومانية

ترجمة
محمد بدران

الجزء الأول من المجلد الثالث







تونس
بيروت



هذا المجلد — وإن يكن وحدة مستقلة بذاتها — هو القسم الثالث من كتب تاريخ الحضارة التي كان المجلد الأول فيها تراث الشرق، والمجلد الثاني حياة اليونان. وإذا سمحت لنا ظروف الحرب القائمة(*)، ووهبنا الله نعمة الصحة فسيكون المجلد الرابع وهو عصر الإيمان معداً للنشر في عام ١٩٥٠. والخطة التي نسير عليها في هذا العمل هي الخطة التاريخية التركيبية، التي تقتضي بدراسة النواحي الهامة في حياة الشعب وعمـــله وثقافته وتفاعلها وتأثير كل منها في الأخرى.

أما الطريقة التحليلية في كتابة التاريخ — وهي كذلك طريقة لا غنى عنها من الناحية العلمية ولا تقل الحاجة إليها عن الحاجة إلى الطريقة التركيبية — فهي التي تدرس ناحية واحدة من نواحي النشاط الإنساني — كالناحية السياسية أو الاقتصادية أو الخلقية أو الدينية أو العلمية أو الفلسفية أو الأدبية أو الفنية — في حضارة بعينها أو جميع حضارات العالم. وعيب هذه الطريقة التحليلية أنها تفصل جزءاً من كل فصلا يشوهه. أما عيب الطريقة التركيبية فهو أنها، إذ تتطلب من عقل واحد أن يعتمد على معرفته الشخصية في حديثه عن كل ناحية من نواحي إحدى المدنيات المعقـــدة التي تمتد آلاف السنين، إنما تطلب المستحيل. وليس في وسع من يتصدى إلى هذا العمل أن يتجنب الأخطاء في الدقائق والتفاصيل، ولكن العقل الهائم بحب الفلسفة — وهي إدراك الأشياء عن طريق علاقاتها بعضها ببعض — هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها عقل لا يقدر بغير هذه الطريقة أن يقنع بسبر أغوار الماضي. إن في وسعنا أن نطلب

(*) ظهرت الطبعة الأولى من هـــذا المجلد في عام ١٩٤٤ ونار الحرب العالمية الثانية مشتعلة. (المترجم)

الفلسفة عن طريق العلم، وذلك بدراسة ما بين الأشياء من علاقات فى المكان، أو أن نطلبها عن طريق التاريخ بدراسة ما بين الحوادث من صلات فى الزمان، وفى مقدورنا أن نعرف عن طبيعة الإنسان بدراسة سلوكه وأعماله فى خلال ستين قرناً من الزمان أكثر مما نعرفه عنها بقراءة مؤلفات أفلاطون وأرسطو، وسبنوزا وكانت. وما أصدق قول نتشة فى المغنى: «ما أضيع الفلسفة كلها أمام التاريخ فى هذه الأيام(*)».

وإن دراسة الماضى لتعد بحق عديمة النفع إذا لم يجعل هذا الماضى مسرحية حية، أو إذا لم تضئ لنا دراسته ظلمات حياتنا الحاضرة. أليس قيام مدينة رومة وارتقاؤها من بلدة صغيرة فى مفترق الطرق حتى سادت العالم المعروف وقتئذ، وما أسبغته من أمن وسلام على رقعة واسعة من الأرض تمتد من جزيرة القرم إلى مضيق جبل طارق، ومن نهر الفرات إلى سور هدريان، وما نشرته من أصول الحضارة القديمة فى عالم البحر الأبيض المتوسط وفى غرب أوربا، وما قامت به من كفاح للاحتفاظ بملكها المنظم من أن تطغى عليه بحار الهمجية التى تكتنفه من كل جوانبه، ثم تصدعها الطويل البطىء، وانهيارها آخر الأمر، وترديها المشئوم فى ظلمات الجهالة والفوضى، أليس هذا كله أعظم مسرحية مثلها الإنسان، اللهم إلا إذا ظننا أن أعظم منها وأكثر روعة تلك المسرحية الأخرى التى بدأت حين وقف قيصر والمسيح وجهاً لوجه فى ساحة پيليت pilate والتى دامت حتى أضحت حفنة من المسيحيين المضطهدين المطاردين بما أوتيت من صبر وجلد وما قاست من اضطهاد وما حل بها من رعب وهول، نقول حتى أضحت هذه الحفنة من المسيحيين فى بداية الأمر حليفة لأعظم إمبراطورية فى التاريخ، ثم سيدتها، ثم وريثتها بعد تصرم أجلها

(*) Human, All Too Human الترجمة الإنجليزية طبعة نيويورك سنة ١٩١١ المجلد الثانى ص ١٧.

ولكن لهذه المسرحية الكبيرة بالنسبة لنا معنى أعظم مما يبدو بالنظر إلى فخامتها وطول زمانها واتساع المسرح الذى تمثل عليه : ذلك أنها تشبه شبهاً عجيباً عظيم الدلالة حضارة هذه الأيام ، والمشاكل القائمة فيها ، وتلقى عليها ضوءاً ينذرنا بسوء المصير . وهذا هو ما نفيده من دراسة حضارة من الحضارات دراسة تشمل جميع نواحيها وأدوار حياتها — ففى وسعنا بهذه الدراسة الشاملة أن نوازن كل مرحلة من مراحلها وكل ناحية من نواحيها بما يقابلها من مراحل وعناصر فى مجرى ثقافتنا نحن ، فنتخذ من هذه الموازنة ، وبما أعقب المراحل الماضية الشبيهة بمرحلتنا الحاضرة ، عظة لنا تبعث فينا الحذر أو الإقدام : وما أشبه الكفاح الذى قام بين الحضارة الرومانية والهمجية فى داخل الإمبراطورية وخارجها بالكفاح القائم فى العالم فى هذه الأيام . وفى مشاكل رومة البيولوجية وانحلالها الخلقى معالم تهدينا نحن سواء السبيل ؛ وإن الصراع الطائفى الذى قام بين ولدى جراكس The Cracchi وبين مجلس الشيوخ ثم بين ماريوس وسلا Marius & Sulla ، وبين قيصر وپمپى ؛ وبين أنطونيوس وأكتاڤيان لهو عين الصراع القائم بيننا فى هذه الأيام ، والذى لا تكاد تخبو ناره حتى تشتعل من جديد ، فتلتهم فترات السلم التهاماً ؛ وإن فيما كانت تبذله شعوب البحر الأبيض المتوسط من جهود المستيئس لتحتفظ لنفسها بقبس من ضياء الحرية تنتزعه من تلك الدولة الطاغية لنذيراً بما ينتظرنا نحن من واجب ثقيل .

وإن قصة رومة لهى فى واقع الأمر قصتنا نحن .

المدخل

أصل الرومان

الباب الأول

ديباجة فى التسكان

٨٠٠ – ٥٠٨ ق . م

الفصل الأول

إيطاليـــا

ليتصور القارئ فى خياله صورة ضياع ساكنة فى أودية الجبال ، ومروج فسيحة على منحدراتها ، وبحيرات معلقة فى وهاد التلال ، وحقول خضراء أو صفراء تمتد إلى شُطئان البحار الزرقاء ، وقرى وبلدان يخيم السكون والخمول حين تسطع عليها شمس الظهيرة ، فإذا مالت نحو المغيب انتعشت وسرت فيها الحيـــاة ، ومدن تحيط بها الأتربة والأقذار ولكن كل ما فيها جميل من أصغر الأكواخ إلى أفخم الكنائس الكبرى – لقد كانت هذه هى صورة إيطاليا منـــذ ألفى عام ، ولا تزال هى صورتها فى هذه الأيام . وقد تحدث بلنى **Pliny** الأكبر عن بلاده[1] فقال عنها : « ليس على ظهر الأرض أو تحت قبة السماء بلاد تماثلها فى جمالها وروعة مناظرها » ؛ وأنشد فيها فرجيل يقول : « هنا الربيع الدائم والصيف حتى فى غير أشهره ، هنا تلد الأنعام مرتين فى العام ، وتثمر الأشجـــار مرتين[2] » . ولقد كانت أشجاره الورد فى پيستم **Paestum** تزهر فى الســـنة مرتين وكانت فى شمال البلاد سهولة خصـــبة كثيرة كسهولة منتوا **Mantua**

« يتطعم التم(*) من مجاريها المغشوشبة »(٣) . وتمتد فى شـــبه الجزيرة العظيمة سلسلة جبال الأپنين امتداد العمود الفقرى فى جسم الإنسان ، فيتقى بها شاطئ البلاد الغربى الرياح الشمالية الشرقية الباردة وتنبع منها أنهـــار تروى الأرض بمائها وتنحدر مسرعة لتصبه فى خلجان البحر ذات المنظر الخلاب . وتقوم جبال الألب فى الشمال لتصد عن البلاد المغيرين ، أما فى سائر أطراف البلاد فإن أمواج البحر الصاخبة تتلاطم بشطئان كثير منها وعر قائم صعب المرتقى . لقد كانت هذه البلاد فى تاريخها القديم خليقة بأن تجزى أهلها المجدين خير الجزاء وأوفاه ، وكانت ذات موقع حربى هام فى حوض البحر الأبيض المتوسط يمكنها من السيطرة على العالم القديم .

وكانت جبالها مصدر كوارثها كما كانت مصدر جمالها وروعتها ، ذلك أن الزلازل والثورات البركانية كانت من حين إلى حين تبتلع جهود الأجيال المتعددة وتطمرها فى أطباق الرماد أو تحرقها بحمم البراكين ، ولكن الموت كان فى هذه البلاد ، كما هو فى معظم بلاد العالم ، مصـــدراً للحياة ونعمة من أنعمها . ذلك أن الحمم المختلطة بالمواد العضوية كانت مورداً لإخصاب التربة لا ينضب له على مدى الأيام معين(٤) . لقد كانت بعض الأرضين منحدرة وعرة لا تصلح للزراعة ، وكان بعضها الآخر مناقع تنتشر منها حمى الملاريا ؛ ولكن الكثير منها قد بلغ من خصب التربة ما جعل پوليبيوس Polybius يعجب من وفرة الطعام وقلة ثمنه فى إيطاليا القديمة(٥) ، ويقول إن فى وسع الإنسان أن يدرك مقدار ما تخرجه من الغـــلات ونوعها حين يشـــاهد نشاط أهلها وقوتهم وشجاعتهم . ويظن ألفيرى Alfieri أن « الشجرة — الآدمية » تنتعش فى إيطاليا خيراً مما تنتعش فى سائر بلاد العالم(٦) . بل إن الطالب الهياب فى هذه الأيام نفسها ليعتريه بعض الوجل

(*) هكذا يسميه الدميرى وهو الذى يسميه العامة فى مصر بالأوز العراقى Olor واسمه العلمى Cygnum. (المترجم) .

من هوة مشاعر ذلك الشعب المدهش الخلاب — من عضـــلاته المفتولة ، ومن سرعة حبه وغضبه ، ومن عيونه الكتومة أو البراقة الملتهبة ؛ وإن الكبرياء والحميا اللذين كانا منشأ عظمة إيطاليا ، واللذين قطعا أوصالها فى أيام ماريوس Marius وقيصر Caesar وفى عصر النهضة الأوربية ، لا يزالان يجريان حتى الآن فى الدم الإيطالى فى انتظار قضية عادلة أو حجة أطلية . والرجال كلهم إلا القليل النادر منهم مكتملو الرجولة وسيمو الخلق ، والنساء كلهن تقريباً حسان ، يمتزن بالقوة والشجاعة . وهل فى العالم بلاد أنجبت من العباقرة مثل ما أنجبت الأمهات الإيطاليات طوال الثلاثين قرناً التى يشملها تاريخ تلك البلاد ؟ وهل فى العالم بلاد غير إيطاليا كانت قطب رحى التاريخ — فى نظم الحـكم أولا ثم فى الدين ، ثم فى الفن ؟ لقد ظلت رومه مدى سبعة عشر قرناً — من كاتو الرقيب Cato Censor إلى ميكل أنجلو مركز العالم الغربى .

أما أصل الإيطاليين فيقول عنه أرسطو : « يقول أصدق الناس حكماً فى هذا البلد إنه لما أصبح إيطالس Italus ملك أنترِيا Oenotria بدّل أهل البلاد اسمهم فلم يعودوا يسمون أنفسهم أنثوريين بل تسموا إيطاليين»(٧) ؛ ولقد كانت أنترِيا هى مكان الإصبع الكبرى فى الحذاء الإيطالى ، ومعنى هذا اللفظ هو « أرض النبيذ » لكثرة ما كان فيها من الكروم . ويقول توكيديدس Thucydides إن إيطالس هذا كان ملك الصقليين الذين احتلوا أنترِيا فى طريقهم لاحتلال جزيرة صقلية وتسميتها بهذا الاسم(٨) . وكما أن الرومان قد أطلقوا على الهلينيين جميعاً اسم الأغارقة ، وهو اسم جماعة قليلة هاجرت من شمال أتيكا Attica إلى نابلى ، فكذلك توسع الإغريق فى معنى إيطاليا حتى شمل هذا الاسم جميع أرض شبه الجزيرة من جنوب نهر البو Po إلى أقصى طرفها الجنوبى .

وما من شك فى أن فصولا كثيرة من تاريخ إيطاليا لا تزال مطمورة فى أطباق ثراها المزدحم بالأهلين ، ويدل ما كشف فيها من آثار ثقافة العصر

الحجرى القديم على أن سهولها كانت عامرة بالسكان قبل ميلاد المسيح بثلاثين ألف عام على أقل تقدير . ثم ظهرت فيها ثقافة تنتمى إلى العصر الحجرى الحديث بين عامى ١٠,٠٠٠ ، ٦٠٠٠ قبل الميلاد : وكان أصحاب هذه الحضارة أقواماً طوال الرؤوس تسميهم الروايات القديمة بجورى Liguri أو صقلى Siceli ، وكانوا يصنعون الفخار الساذج الخشن ويزينونه بنقوش مؤلفة من خطوط . كذلك كان هؤلاء الأقوام يصنعون أدوات وأسلحة من الحجارة المصقولة ويؤنسون الحيوان ويصيدونه هو والسمك ، ويدفنون موتاهم . ومنهم من كانوا يسكنون الكهوف ، ومنهم آخرون يسكنون أكواخاً من القش والطين . ومن هذه الأكواخ الأسطوانية تدرج فن العمارة تدرجاً مستمراً حتى وصل إلى « بيت رميولوس Romulus » المستدير القائم على البلاتين Palatine وإلى هيكل فستا Vesta فى السوق العامة Forum وقبر هدريان Hadrian الفخم .

وغزت قبائل من أوربا الوسطى شمالى إيطاليا حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م ولعل هذا الغزو لم يكن الأول من نوعه . وقد أدخلوا فى البلاد عادة إقامة المبانى على قوائم خشبية فى الماء ليتقوا هجمات الوحوش والآدميين ، واستقر هؤلاء الغزاة فى بحيرات جاردا Garda ، وكومو Como ، ومجيورى Meggiore وغيرها من البحيرات الساحرة التى لا تزال تغرى الأجانب بالذهاب إلى إيطاليا ؛ ثم زحفوا فيما بعد إلى جنوب البلاد ، فلما لم يجدوا فيها من البحيرات الكثيرة ما كانوا يجدونه فى الشمال ، أقاموا مساكنهم على الأرض اليابسة ، ولكنهم رفعوها أيضاً على أسس من القوائم الخشبية . وكان من عادتهم أن يحيطوا هذه المساكن بالأسوار والخنادق ، وقد انتقلت هذه العادة إلى غير إيطاليا وأضحت من المظاهر المألوفة فى المعسكرات الرومانية وفى قصور العصور الوسطى . وكانوا يشتغلون برعى الماشية والضأن ، وفلاحة الأرض ، وصناعة النسيج ، وحرق الفخار ، وصناعة العدد الجم من الآلات والأسلحة البرنزية ، ومنها الأمشاط ومشابك الشعر

والأمواس والملاقط وغيرها من الأدوات التي لا يكاد الإنسان يصدق أنها ظهرت فى ذلك العهد البعيد . وكان البرنز قد ظهر فى إيطاليا فى أواخر أيام العصر الحجرى الحديث (حوالى ٢٥٠٠ ق . م)[٩] . وكانوا يتركون فضلات منازلهم تتراكم حول قراهم ، وبلغ من كثرتها أن أطلق على ثقافتهم اسم ثقافة ترامار Terramare — أى النُّطْ(*) الأرضى — وهى نفايات غنية بالعناصر المخصبة . ومبلغ علمنا أن هؤلاء الأقوام هم الأسلاف الأقربون للكثرة العظمى من سكان إيطاليا فى العصور التاريخية .

وأخذ المقيمون فى وادى البو من أبناء أهل هذه الأنماط استخدام الحديد عن ألمانيا ، وصنعوا منه أدوات خيراً من أدواتهم السابقة ، واستعانوا بها على نشر ثقافتهم الفلانوفية من مركزها فى فلانوفا Vilanova القريبة من مدينة بولونيا Bologna إلى أقاصى جنوب إيطاليا . ومن حقنا أن نعتقد أن دماء الأمبريين Umbrians والسبين Sabines واللاتين Latins ولغاتهم ، وأهم فنونهم ، كلها مستمدة من هؤلاء الأقوام . ثم حدثت هجرة أخرى جديدة حوالى عام ٨٠٠ ق . م أخضع أصحابها الفلانوفيين وأنشأوا بين نهر التيبر وجبال الألب أعجب حضارة فى سجلات الجنس البشرى .

(*) النُّطْ الطين الرقيق أو العجين، وقد اخترنا هذا اللفظ لترجمة كلمة Marl الانجليزية .
(المترجم)

الفصل الثانى

الحياة التسكانية

يكتنف تاريخ التسكان غموض شديد يضايق المؤرخ أشد الضيق . لقد حكم هؤلاء الأقوام مدينة رومة مائة عام أو أكثر من مائة ، وخلفوا فى أنماط الحياة الرومانية آثاراً تجعل فهم هذه الحياة وفهم تاريخ رومة متعذرين دون دراسة تاريخهم . ولكن الآداب الرومانية رغم هذه الآثار قد أغفلت ذكرهم كما تغفل المرأة النصف الجهر بأنها جاوزت سن الشباب . ومع ذلك فإن الحضارة الإيطالية ، أو ما سجل منها ، تبدأ من أيامهم ؛ فقد وجد مختلطاً بمخلفاتهم نحو ثمانية آلاف نقش وكثير من أعمال الفن ، كما وجدت شواهد على أدب ضائع يشمل الشعر والمسرحيات وكتب التاريخ (١٠). غير أن لغتهم لم يحل من رموزها إلا عدد قليل من الألفاظ لا غناء فيه ، ولا يزال العلماء الآن حيارى أمام ما يكتنف هذه المعضلة التسكانية من غموض أشد مما كان يكتنف تاريخ مصر الفرعونية قبل شمبليون .

ومن أجل هذا لا يزال الجدل يثور حول التسكانيين : من هم ؟ ومن أين جاءوا إلى إيطاليا؟ ومتى جاءوا إليها ؟ ولعل الباحثين قد عجلوا بنبذ الروايات القديمة أسرع مما ينبغى ؛ ذلك أن المتحذلقين مولعون على الدوم بتفنيد ما يقبله الناس من الآراء ، ويسوءهم ما يبقى فى عقولهم منها . ولقد كان معظم المؤرخين اليونان والرومان يرون أن من القضايا التى لا تحتاج إلى برهان أن التسكانيين قد جاءوا من آسية الصغرى (١١) . والحق أن فى دينهم ، وثيابهم ، وفنهم ، شواهد كثيرة توحى بأصلهم الأسيوى ، وإن كان فيها أيضاً عناصر كثيرة يلوح أنها من أصل إيطالى . وأغلب الظن أن حضارة إتروريا **Etruria** قد نشأت من الثقافة

الڤلانوڤية Villanovan وأنها تأثرت من الناحية التجارية بحضارات اليونان والشرق الأدنى ، وأن التسكانيين أنفسهم ، كما كانوا هم يعتقدون ، قد غزوا البلاد من آسية الصغرى ؛ والراجح أنهم جاءوا من بلاد ليديا Lydia ومهما يكن أصلهم فإن تفوقهم فى التقتيل قد جعلهم هم الطبقة الحاكمة فى تسكانيا .

ولسنا نعرف المكان الذى رسوا فيه حين قدموا بحراً إلى إيطاليا ، ولكننا نعرف أنهم شادوا أو فتحوا أو وسعوا مدناً كثيرة — مدناً لا قرى من القش والطين كما كانت الحال قبل مجيئهم ، بل بلاداً مسورة ذات شوارع منظمة على قواعد هندسية وبيوتاً غير مقامة من اللبن فحسب ، بل مقامة كثرتها من الآجر المحروق أو الحجارة . ثم ارتبطت اثنتا عشرة محلة من هذه المحلات فتكون منها اتحاد غير وثيق تسيطر عليه تاركوناى Tarquinii (المعروفة حتى هذه الأيام باسم كرنيتو Corneto) ، وأرتيوم Arretium (أرزو Arezzo) ، وپروزيا Perusia (بروجيا Perugia) ، وڤياى Veii (ايولا فارنيزى Iola Farnese)(*) .

وتضافرت فى هذه البلاد صعاب النقل فى الجبال والغابات مع التحاسد والتنافر المتأصلين فى الطبيعة البشرية ، كما تضافرا فى بلاد اليونان، على إنشاء دويلات من مدن مستقلة ، إذا اتحدت لصد غارات أعدائها اعتزت كل منها بسلالتها منفردة عن غيرها ؛ وكثيراً ما كانت تقف لتشاهد العدو الخارجي يغير على أخواتها حتى خضعت كلها لرومة واحدة فى إثر واحدة . ولكن هذه المدن المتحالفة ظلت طوال القرن السادس قبل الميلاد أقوى سلطة سياسية فى إيطاليا ، وكان لها جيش حسن التنظيم ، به فرق من الفرسان ذائعة الصيت ، وأسطول بحرى كان فى وقت من الأوقات هو المسيطر على البحر الذى لا يزال إلى اليوم يسمى

(*) هذه هى الأسماء الرومانية ، أما الأسماء التسكانية فغير معروفة .

البحر الترهينى (أو البحر الإتروورى أى التسكانى(*) .

وقد بدأ الحكم فى المدن التسكانية كما بدأ فى رومة بالنظام الملكى ، ثم صار حكماً ألجركيا تقوم به « الأسر الأولى » ، ثم تخلى هذا الحكم تدريجاً للأسر ذات الأملاك عن حق اختيار الحكام الذين كانوا يبدلون فى كل عام . وفى وسعنا أن نستدل مما على قبور الأهلين من رسوم ملونة ونقوش محفورة على أن هذا النظام كان نظاماً إقطاعياً خالصاً يمتلك فيه الأعيان الأرض ويستمتعون بما يخرجه الأقنان والأرقاء الفلانوفيون بكدحهم من خيرات ، بعد أن يتركوا لهم حاجتهم منها . وقد أصلحت أرض تسكانيا فى عهد هذا النظام ، فجففت مستنقعاتها وقطعت غاباتها ، وأنشئ فى قراها نظام للرى ، وفى مدنها نظام للمجارى لم يكشف حتى الآن عما يماثله فى بلاد اليونان فى ذلك العهد نفسه . وقد أنشأ المهندسون التسكانيون مجارى تحت الأرض يسير فيها ما زاد من مياه البحيرات ، وطرقاً فى الصخور والتلال(١٢) . ونرى العمال التسكانيين فى ذلك العهد البعيد وهو عام ٧٠٠ ق . م يستخرجون النحاس من شاطئ إيطاليا الغربى ، والحديد من جزيرة إلبا Elba ، ونرى الحديد الغفل يصهر فى پپولونيا Populonia ، والحديد المطاوع يباع فى جميع أنحاء إيطاليا(١٣)، وكان التجار التسكانيون يتجرون مع جميع البلاد الواقعة على شاطئ البحر الترهانى ويأتون بالكهرمان والقصدير والرصاص والحديد من بلاد أوربا الشمالية ، وينقلونها فى نهرى الرين والرون وفوق جبال الألپ ، ويبيعون المنتجات التسكانية فى جميع ثغور البحر الأبيض المتوسط الكبرى . وما وافى عام ٥٠٠ ق . م أو نحوه حتى أصدرت المدن التسكانية الكبرى عملة خاصة بها .

(*) كان اليونان يسمون الإترسكيين Etruscans الترهينى Tyrrheni والترسينى Tyrseni . أما الرومان فكانوا يسمونهم الإترسكى Etrusci أو التسكى Tusci . ولعل الاسم اليونانى مأخوذ كما أخذ لفظ Tyrant من كلمة ترها Tyrrha وهى اسم غابة فى ليديا . والراجح أن كلمة Tower (البرج) مشتقة هى الأخرى من هذا الأصل .

وتمثل الرسوم التى نراها على القبور هؤلاء الأقوام فى صورة خلائق قصار القامات ، ممتلئى الأجسام ، كبار الرؤوس ، لا يكاد يوجـــد فرق بين ملامحهم وملامح أهل الأناضول ، موردى البشرة وخاصة نساءهم ؛ وإن تكن الأصباغ الحمراء قديمة قدم الحضارة ذاتها(١٤) ؛ واشتهرت نساؤهم بجمالهن (١٥) . وتلمح فى وجوه بعض الرجال الرقة والنبل . وكانت الحضارة فى ذلك العهد قد بلغت من الرقى مرحلة الخطر كما نستدل مما عثر عليـــه فى قبورهم من قناطر للأسنان الصناعية(١٦) ؛ وقد انتقل إليهم طب الأسنان ، كما انتقل الطب والجراحة ، من بلاد مصر واليونان(١٧) . وكانوا جميعاً رجالا ونساء يطيلون شعر الرأس ؛ وكان رجالهم يرسلون لحاهم . أما ثيابهم فكانت على الطراز الأيونى **Ionian** تتكون من قميص داخلى ومئزر خارجى هو الذى تطور حتى أصبح الكساء الرومانى المعروف باسم التوجا **Toga** . وكان الرجال والنساء على السواء مولعين بالتزين ، وقد عثر المنقبون فى قبورهم على كثير من الحلى .

وإذا كان لنا أن نحكم على التسكانيين من الصور المرحة التى نراها على قبورهم ؛ قلنا إن حياة هؤلاء الأقوام كان فيها مشاق الحرب ، ونعيم الترف ، وبهجة الأعياد والألعاب . فكان الرجال يشنون الحرب العوان ، ويمارسون ضروباً من ألعاب الرجولة ، ويصيدون الحيوان ، ويصارعون الثيران فى المجتلد ، ويسوقون بأنفسهم عرباتهم فى الطرق الخطرة ، وكانت تجرها فى بعض الأحيان أربعة جياد تسير فى صف . وكانوا يتبارون فى رمى القرص والحربة ، والقفز من فوق الأعمدة ، والسباق والمصاعة والملاكمة والمجالدة . وكانت هذه الألعاب تمتاز بقسوتها ، لأن التسكان كالرومان كانوا يرون أن من الخطر أن يتركوا الحضارة تبتعد كثيراً عن الوحشية . وكان قليلو الشجاعة منهم يتبارون فى رفع الأثقال ، ولعب النرد ، والنفخ فى الناى ،

والرقص . وتتخلل الرسوم التى فى القبور مناظر من مرح الشراب تزيل ما يخيم عليها من كآبة ، وهى فى بعض الأحيان مقصورة على الرجال دون النساء ، يتحدثون فيها عن الخمر ، وفى بعضها الآخر يختلط الرجال بالنساء ، وهم جميعاً يلبسون أحسن الثياب ويتكئون مثنى مثنى على أرائك وثيرة ، يأكون ويشربون ، ويقوم على خدمتهم العبيد ، وتسليهم الراقصات والمغنيات(١٨)، وتزدان الوليمة أحياناً بمناظر يحتضن فيها الرجال النساء .

وأكبر الظن أن السيدة التى تُحتضن وقتئذ من الخطايا الشبيهات بخطايا اليونان (الهيتيريا) Hetaira . وإذا جاز لنا أن نصدق ما يقوله الرومان فإن فتيات تسكانيا كان يسمح لهن بالحصول على بائنتهن عن طريق الدعارة ، شأنهن فى هذا شأن فتيات آسية اليونانية ، وفتيات السموراى اليابانيات(١٩). وشاهد ذلك أنا نرى شخصية فى إحدى مسرحيات پلوتس Plautus تتهم فتاة تسمى للحصول على بائنة زواجها بامتهان جسمها على الطريقة التسكانية(٢٠) . ولكن النساء مع ذلك كانت لهن منزلة علية فى إترووريا ، وتمثلهن الرسوم تمثيل من لهن مقام عال فى جميع مناحى الحياة ، وكان الأبناء ينتسبون إلى أمهاتهم ، وفى ذلك أيضاً ما يوحى بأن القوم من أصل أسيوى(٢١). ولم يكن التعليم عندهم مقصوراً على الرجال ، وشاهد ذلك أن تناكويل Tanaquil زوجة تاركون الأول Tarquin قد برعت فى العلوم الرياضية والطب براعتها فى تدبير الدسائس السياسية (٢٢) . ويقول المؤرخ اليونانى ثيوبمپس Theopompus إن النســاء فى إترووريا كن ملكا مشاعا(٢٣) . ولكنا لا نجد فيما وصل إلينا من المعلومات ما يثبت وجــود هذه الطوبى الأفلاطونية ، بل إن كثيراً من الصــور تمثل مناظر الروابط الزوجية ، والحياة العائلية ، والأطفال يسرحون ويمرحون حول أبويهم وهم سواء فى سذاجتهم وجهلهم .

وكان فى الدين كل البواعث التى تدعو إلى كبح الشهوات ، فقد خلع التسكانيون على آلهتهم كل الصفات التى تبعث الرهبة فى القلوب وتكبح جماح الفتيان والفتيات ، وتخفف أعباء الآباء والأمهات . وكان أعظم الآلهة هو تينيا **Tinia** المتصرف فى الرعد والبرق . وكان من حوله جماعة من الأرباب يأتمرون بأمره ، لا تأخذهم فى ذلك رأفة ، وهم الأرباب الإثنا عشر ، وقد بلغوا من العظمة حداً يجعل مجرد ذكر أسمائهم جريمة لا تغتفر ، ولهذا نستميح القارئ عذراً إذا أغفلنا نحن ذكر هذه الأسماء .

وكان أشد هؤلاء الأرباب رهبة هما منتوس **Mantaus** مانيا **Mania** سيد العالم السفلى وسيدته . وكان لكليهما حشد عظيم من الشياطين المجنحين يأتمرون بأمرها . وكان أشد الأرباب غضباً لاسا **Lasa** وبين **Mean** إلهة الأقدار التى تمسك بيدها سيفاً أو أفعى تلوح بهما ، وتتسلح بقلم ومداد تستخدمها فى الكتابة ، وبمطرقة ومسامير تدق بها أوامرها التى لا تتحول عنها . وأظرف من هذه الأرباب معبودو البيت ومعبوداته ، وكانت فى صورة تماثيل صغيرة توضع على المدافئ وتمثل أرواح الحقول والدور .

ولعل العلم المقدس ، علم معرفة الغيب بدراسة أكباد الضأن أو طيران الطير ، قد جاء إلى التسكانيين من أرض بابل . ولكن الرواية التسكانية تقول إن الذى كشف لهم عن هذا العلم غلام مقدس هو حفيد تينيا ، وقد خرج إلى الحياة من أخدود محراث ، وفاه ساعته بحكمة الحكماء . وكانت الطقوس التسكانية تنتهى إلى التضحية بالضأن والثيران والآدميين . فكان الضحايا من بنى الإنسان يذبحون أو يدخنون أحياء فى مياتم العظماء . وكان أسرى الحرب يذبحون أحياناً طلباً لرضا الآلهة ، ولهذا السبب رجم الفوقيون **Phoceaxs** فى ألاليا **Alalia** عام ٥٣٥ ق . م فى سوق كايرى **Caere** العامة ، وضحى بنحو ثلثمائة من الرومانيين فى عام ٣٥٨ ق م

فى تاركويناى ، ويلوح أن للتسكانى كان يعتقد أن فى وسعه أن يطلق روحا من الجحيم نظير كل رجل يقتله من أعدائه(٢٤) .

وكان أهم مظاهر الدين التسكانى هو الإيمان بوجود الجحيم فى الدار الآخرة ؛ فقد كانت روح الميت ، كما نراها فى الصور والنقوش التى على القبور ، يسير بها الجن إلى محكمة الدار الآخرة ، حيث تتاح لها الفرصة فى يوم الحساب الأخير للدفاع عن أعمالها فى الحياة الدنيا . فإذا عجزت عن تبرير هذه الأعمال حكم عليها بضروب مختلفة من التعذيب ، كان لها بلا ريب أثر فى شعر فرجيل Virgil (المستمد من قصص متنوا التسكانية) وفى فكرة المسيحيين عن الجحيم ، وفى جحيم دانتى Dante's Inferno التسكانى الذى سرت إليه عن طريق هؤلاء المسيحيين من خلال عشرين قرناً من الزمان ، وكان الأرباب بمنجاة من هذا التعذيب ، كما كان فى وسع الأحياء من أصدقاء الموتى المعذبين أن يقصروا أمد عذابهم بما يقدمون من الأدعية والقرابين . فإذا نجحت الروح من هذا العذاب انتقلت من العالم السفلى إلى صحبة الآلهة الأعلين لتستمتع معهم بالولائم ومظاهر الترف والسلطان التى صورتها آمال الأحياء على القبور .

وكان التسكانيون يدفنون موتاهم فى الأحوال العادية ، وكان الموسرون منهم يوضعون فى توابيت الطين المحروق أو الحجارة حفرت على السطوح العليا أغطيتها صور أشخاص متكئين ، يشبه بعضهم الموتى الذين كانوا فى التوابيت ، ويشبه بعضهم الصورة اليونانية الباسمة التى كان اليونان الأقدمون يصورون بها أپلو Apollo ؛ ولقد كان لهذه الصور أيضاً أثرها فى فن العصور الوسطى . وكان الموتى فى بعض الأحيان يحرقون ، ويوضع رمادهم فى أوعية تزين أحيانا بصور الأموات . وكان الوعاء أو القبر فى بعض الأحيان فى صورة البيت ، وفى بعضها الآخر كان القبر المنحوت فى الصخر يقسم إلى حجرات ، ويهيأ لحياة الميت

فى الدار الآخرة بالأثاث والآنية والمزهريات ، والملابس ، والأسلحة ، والمرايا وأصباغ الزينة والجواهر ، وقد عثر فى قبر فى كارى Caere على هيكل رجل محارب راقد على سرير من البرنز كامل الشكل ، وإلى جانبه أسلحته وعجلته الحربية ، ووجدت فى حجرة خلف حجرة هذا الميت حلى وجواهر لسيدة لعلها زوجته وقد اكتسى التراب — الذى كان فى يوم من الأيام جسمها المحبوب — بثياب عرسها[٢٥] .

الفصل الثالث

الفن التسكانى

يكاد الفن التسكانى أن يكون وحده كل ما نعرف عن تاريخ التسكانيين ، فنى وسعنا أن نتتبع فيه آداب الشعب وأخلاقه ، وما كان للدين والطبقات من سلطان ، وما كان لصلاته بآسية الصغرى ومصر وبلاد اليونان ورومة من أثر فى تبدل أحوال هذا الشعب الاقتصادية والثقافية . لقد كان هذا الفن شديد التقيد بالعرف والتقاليد الدينية ، وإن كانت المهارة الفنية قد أكسبته الكثير من الحرية ؛ وكان يكشف عن حضارة وحشية مظلمة ، ولكنه يعبر عنها فى قوة ؛ وقد حدد أشكاله الأولى وأنماطه الفنُّ الشرقى - الأيونى ، والقبرصى ، والمصرى ، وسيطرت النماذج اليونانية على نحته وخزفه . وأما فى العمارة والتصوير فإن الفن التسكانى كان تسكانياً خالصاً فذاً فى نوعه .

ولا يتعدى ما بقى من آثار فن العمارة التسكانية بضع قطع قليلة مبعثرة وبعض القبور ؛ ولا تزال أجزاء من أسوار المدن الإترورية قائمة حتى اليوم — وهى مبان ثقيلة خالية من الملاط ولكنها شديدة التماسك قوية . وتدل بيوت أغنياء التسكانيين على ما كانت عليه أشكال البيوت الإيطالية فى العهد القديم : فقد كان الواحد منها يتكون من سور خارجى يحجب سكان البيت عن أعين من فى خارجه ، ومن إيوان أو حجرة استقبال فى وسطه ، وفى سقف الإيوان فتحة ينزل منها المطر إلى صهريج فى أسفل البيت ؛ ومن حول الإيوان طائفة من الحجرات الصغيرة يواجهها فى أغلب الأحيان مدخل ذو عمد . وقد وصف فتروفيوس Vitruvius المهندس والبناء هياكل التسكانيين وصفاً ينطبق فى بعض الأحيان على قبورهم أيضاً ويستفاد من هذا الوصف أن الهياكل كانت فى جوهرها تتبع

الطرز اليونانية ، غير أن « الطراز التسكانى » قد أدخل بعض التعديل على الطراز الدورى ، بأن ترك العمد خالية من الحزوز ، وأقامها على قواعد ، وجعل نسبة الطول إلى العرض فى جسم المعبد كنسبة ٦ : ٥ بدل النسبة الأتيكية Attic الرشيقة وهى ٦ : ٣ . وفى وسعنا أن نصف الهيكل التسكانى وصفاً موجزاً بقولنا إنه يتكون من بناء رئيسى من الآجر ورواق من الحجارة ، ومن عوارض فوق العمد ومقصات من الخشب ، ومن نقوش وحلى من الطين المحروق ، ويقوم البناء كله على قاعدة متصلة أو ربوة ، ويطلى بالألوان الزاهية من داخله وخارجه . وكذلك نستطيع أن نقول على قدر ما وصل إليه علمنا بتاريخ التسكانيين إنهم أدخلوا فى إيطاليا العقود والقباب فى الأبنية المقامة لغير الأغراض الدينية — كأبواب المدن، وأسوارها ، ومجارى المياه ومصارفها . ويلوح أنهم جاءوا بهذه الأشكال الفخمة من بلاد ليديا Lydia ، وكانت هذه قد أخذتها عن بلاد بابل(*) ، ولكنهم لم يتبعوا تلك الطريقة البديعة طريقة تغطية مساحات واسعة من الأراضى بالأبنية الخالية من العمد والعوارض الكثيرة المختلطة المقبضة المملة . وقد ظلوا فى معظم الأحوال يتبعون الأساليب التى هيأها لهم اليونان ، وتركوا إلى رومة أن ترتفع بالأقواس والمنحنيات إلى ذروة الكمال فتحدث بذلك انقلاباً عظيماً فى فن العمارة .

والخزف أشهر ما أخرجته بلاد إترووريا ، تزدحم به كثير من متاحف العالم وإن كان من يطوف بهذه المتاحف لا يرى فى هذا الخزف من الكمال ما يبرر أن تحشد هذه الكميات الكبيرة منه . فالمزهريات التسكانية ، إذا لم تكن منقولة عن الأنماط اليونانية ،لا ترتفع فوق الدرجة الوسطى فى تصميمها ، وهى فخمة خشنة فى صنعها ، وبدائية همجية فى زينتها . وليس ثمة فن من

(*) وكانت تستخدم فى المقابر والهياكل المصرية وفى قصور نينوى . وتبلغ بعض العقود الرومانية من القدم ما بلغت أى العقود الباقية فى إترووريا(٢٦) .

الفنون قد شوه الجسم البشرى كما شوهه الخزف التسكانى ، أو أخرج من الوجوه المتنكرة البشعة أو الحيوانات الفظة ، أو الشياطين المهولة ، أو الآلهة المروعة ، أكثر مما أخرجه هذا الخزف . غير أن الآنية السوداء المصنوعة فى القرن السادس قبل الميلاد تسرى فيها قوة إيطالية ، ولعلها تمثل تطوراً محلياً من الأنماط الفلانوفية . وقد عثر على مزهريات جميلة فى فلسى Vulci وتاركويناى — نقلت من أثينة أو صنعت على مثال الزهريات الأتيكية ذات الرسوم السوداء . ويلوح أن مزهرية فرنسوا Francois وهى جرة كبيرة ذات عروتين عثر عليها فى شيوزى Chiusi فرنسى يسمى بهذا الاسم — يلوح أن هذه المزهرية من صنع الفنانين اليونانيَّين كليتيا Clitias وإرجتيمس Ergotimus . أما آنية رماد الموتى التى صنعت فى العهود المتأخرة ، والتى رسمت عليها صور حمراء على أرضية سوداء ، فهى رشيقة الصنع ولكنها أيضاً صناعة يونانية بلا ريب ، وإن كثرتها لتدل على أن صناع الخزف الأتيكيين قد سيطروا على الأسواق التسكانية ولم يبقوا فيها للصناع الوطنيين إلا المصنوعات التى لا تمت إلى الفن بصلة . وفى وسعنا أن نقول عن فن الخزف بوجه عام إن اللصوص كانوا على حق حين تركوا كل هذا الخزف فى القبور التسكانية بعد انتهابها .

لكننا لا نستطيع أن نستخف هذا الاستخفاف كله بفن البرنز التسكانى ذلك بأن الذين كانوا يصبون المصنوعات البرنزية فى إترووريا قد وصلوا بهذا الفن إلى درجة الكمال . ويكاد ما صنعوه منه أن يبلغ من الكثرة ما بلغته الآنية الخزفية ، وحسبنا شاهداً على هذه الكثرة أن مدينة واحدة من مدنهم كان فيها على قولهم ألفا تمثال برنزى . ويرجع معظم ما وصل إلينا من المصنوعات البرنزية إلى عهد سيطرة الرومان على تلك البلاد . وأشهر هذه الروائع الفنية كلها تمثالان هما تمثال الخطيب الذى يقف الآن فى متحف العاديات فى مدينة فلرنس Florence تحف به هالة من المهابة الرومانية والتحفظ البرنزى ، وتمثـال المولة الذى عثر عليه فى

أرزو Arezzo عام ١٥٥٣ الذى أعاد إليه سليني الفنان الإيطالى بعض ما حطم من أجزائه . وثانى التمثالين بشع المنظر ، وأكبر الظن أنه يمثل الوحش الذى ذبحه بلروفون Bellerophon ، له رأس أسد وجسمه ، وذيل أفعى ، وقد نبت له فى ظهره رأس جدى ، غير أن قوته وصقله تنسياننا ما فى خلقه من شذوذ وغرابة . وقد أخرج صناع البرنز التسكانيون آلاف الآلاف من التماثيل الصغيرة والسيوف ، والخوزات ، والدروع ، والحرب ، وآنية للطهو ولحفظ رماد الأموات ، والنقود ، والأقفال ، والسلاسل ، والمراوح ، والمرايا ، والسرر ، والمصابيح ، وحاملات الشموع ، بل صنعوا منه العربات نفسها . ومن يزر متحف الفن فى نيويورك ير فى صدره عربة تسكانية جسمها ودواليبها من الخشب ولكن البرنز يكسو الجسم وإطار الدواليب ، وقد نقش فى أعلى مقدمها صور من البرنز غاية فى الرشاقة . وكان كثير من الأدوات البرنزية يحفر عليه أشكال دقيقة جميلة . وكانت طريقتهم فى هذا أن يغطوا السطح الذى يريدون نقشه بالشمع ، ثم يرسموا عليه الشكل الذى يريدونه بقلم معدنى ذى سن حادة ، يغمسون طرفها فى بعض الأحماض ، فتحفر الخطوط التى يزول عنها الشمع فى معدن البرنز ، ثم يذاب الشمع كله بعدئذ . وكان الفنان التسكانى وارث الفنانين المصرى واليونانى ، وندهما فى النقش على الفضة والذهب والعظام والعاج .

أما النحت فى الحجارة فلم يكن فى يوم ما فناً شائعاً فى إتروريا . فقد كان الرخام فيها نادراً ، ويبدو أن محاجر كرارا Carrara لم تكن قد عرفت بعد . لكن الصلصال الجميل كان فى متناول الأيدى ، وسرعان ما تشكل وظهر فى صور آلاف مؤلفة من نقوش وتماثيل صغيرة وزينات للقبور والدور من الطين المحروق . وقد أنشأ أحد الفنانين التسكانيين فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد مدرسة لتعليم فن النحت فى ڤياى Veii أخرجت على يديه آية الفن التسكانى ، وهى تمثال أپلو ڤياى Apollo of Veii الذى عثر عليه فى عام ١٩١٦ فى موضع هذه المدرسة ، والذى ظل

إلى عهد قريب قائماً فى ڤلاجوليا Villa Guilia فى رومة . وقد صنع هذا التمثال الجذاب على غرار تماثيل أبلو اليونانية والأتيكية المنحوتة فى ذلك الوقت ؛ وهو ذو وجه يكاد يكون وجهاً نسائياً كالذى نشاهده فى صورة مونا ليز Mona Lisa ، ويفتر ثغره عن ابتسامة رقيقة، وأسنان مائلة مقوسة، وجسمه تسرى فيه دلائل الصحة والجمال والحياة . ويطلق الطليان على هذا التمثال اسم « أبلو الذى يمشى il Aqollo che Cammina » . وقد ارتقى المثالون التسكانيون فى هذا التمثال وفى غيره من الصور الجميلة الكثيرة المنقوشة على توابيت الموتى ، ارتقوا بالأنماط الأسيوية من صور الشعر والشباب إلى درجة الكمال . أما فى تمثال الخطيب فقد أوجدوا هم أو وارثوهم الرومان فناً من التصوير الواقعى .

وقد تعاون فن الرسم التسكانى مع فن إيطاليا اليونانية على نقل فن آخر من الفنون إلى رومة . ولقد وصف پلنى الأكبر Pliny المظلات التى وجدت فى أرديا Ardea بأنها « أقدم من رومة نفسها » ، وقال عن مظلات كثيرى إنها « أقدم من السابقة » وإنها « تفوقها روعة وجمالا(٣٧) » واستخدمت فى الرسم الأوانى الخزفية ، وجدران المنازل والقبور من الداخل ؛ ولم يبق لنا إلا مظلات القبور والرسوم على المزهريات ، ولكنها تبلغ من الكثرة حداً نستطيع معه أن نتتبع كل ما مر بفن التصوير التسكانى من أدوار مختلفة — من طرز شرقية ومصرية ، تنتقل عن طريق اليونان والإسكندرية إلى طرز رومة وپمپى . ونجد فى بعض المقابر النماذج الإيطالية الأولى للنوافذ ومداخل الدور ، والأعمدة ، وكلات الأبواب ، وغيرها من الأشكال الهندسية المعمارية ، مصورة بالألوان على الجدران الداخلية ، ولا تفترق فى شىء عما نجده منها فى مدينة پمپى . وكثيراً ما نرى ألوان هذه المظلات حائلة ، ولكن القليل منها يبدو جديداً براقاً إلى حد يدهش له الرائى ، بعد أن مضى عليه أكثر من عشرين قرناً من الزمان . أما من حيث

القواعد الفنية فإن هذه الرسوم لا ترقى إلى ما فوق الدرجة الوسطى ، فالصور القديمة لم تراع فيها قواعد المنظور .

ولم يستخدم الضوء والظل لتمثيل العمق والامتلاء ، والصور رفيعة أشبه من هذه الناحية بالصور المصرية ، ويخيل إلى الناظر إليها أنه يراها من خلال مرآة محدبة أفقية ، والوجوه كلها جانبية أيا كانت الجهة التى تشير إليها القدمان ، غير أن فن المنظور يظهر فى النماذج المتأخرة ، كما أن التناسب بين أجزاء الجسم المختلفة يراعى بمهارة وأمانة . لكن هذه الصور وتلك يبدو عليها نزق ومرح وخبث لا يسع الإنسان معها إلا أن يدهش مما كان يحيط بالحياة التسكانية من بهجة إذا كانت قبورهم مفرحة إلى هذا الحد .

فهنا رسوم تمثل رجالا يقتتلون ، أو يستمتعون بمشاهدة القتال ، أو يتصارعون ويثاقفون فى المجتلدات ، ويصيدون الآساد والخنازير البرية بشجاعة الرجال الذين يراهم النظارة ، أو يتوقعون أن يروهم ، ويلاكمون أو يصارعون فى ساحة الصراع والنظارة يتناقشون بقوة تفوق قوة المصارعين ، ويركبون خيولهم أو يسوقون عرباتهم حول المدرج ، أو يصيدون السمك فى هدوء واطمئنان عظيمين . ويمثل أحد الرسوم زوجين يدفعان قارباً على مهل فى مجرى هادئ المياه : ألا ما أقدم حكمة الحكماء . وفى صورة على قبر من قبور كثيرى يُرى رجل وزوجته متكئين على أريكة ، والرجل متوج الرأس بالغار ، ويعاهد زوجته وفى يده كأس من الشراب على أن يكون وافياً لها مخلصاً على الدوام ، وتبتسم الزوجة وتصدقه وإن كانت تعرف أنه يكذب عليها .

ويرسم المصور التسكانى على جدار مقبرة أخرى، ما ارتسم فى ذهنه من صورة الجنة . ويصور المرح الدائم ، ويصور الولدان يرقصون رقصاً عنيفاً على أصوات المزمار المزدوج والقيثارة . ويلوح أن المزمار ، والقيثارة ، والصفارة والبوق ، كانت مستلزمات كل وليمة ، كل حفلة عرس أو جنازة ، وأن

حب الموسيقى والرقص كان من المظاهر الجميلة فى الحضارة التسكانية ؛ ونرى الصور المرسومة على جدران قبر اللبؤة فى كرنيتو Corneto تدور حول نفسها فى جنون المخمورين(٢٨) .

• • •

وكان طبيعياً أن يوسع التسكان أملاكهم نحو الشمال والجنوب ، وأن يمدوا سلطانهم إلى قواعد جبال الألب ، وإلى مدن كمبانيا Campania اليونانية ، وأن يجدوا أنفسهم بعدئذ وجهاً لوجه أمام رومة الناشئة على الشاطئ الآخر من نهر التيبر Tiber ؛ وقد أنشأوا لهم مستعمرات فى ڤرونا Verona بدوا Padua ، ومنتوا Mantua ، وپارما Parma ، وموديناً Modena ، وبولونيا Bologna ، وفى الجهة الأخرى من جبال أپنين Appenine فى رمينى Rimini ، ورافنا Ravenna ، وأدريا Adria ، وهى فرضة صغيرة سمى باسمها البحر الأدرياوى . وأحاطوا رومة بمستقرات تسكانية فى فيدينى Fidnae ، وبرنيستى Paraeneste (پاسترينا Palestrina) وكپوا Capua ، ولعلهم استقروا أيضاً فى مسكولم Musculum (« تسكانيا الصغرى ») ؛ وما وافى عام ٦١٨ ق . م — كما تقول رواية مشكوك فى صحتها ولكنها تحدد هذا التاريخ تحديداً عجيباً — حتى استولى أحد المغامرين التسكان على عرش رومة ، وظلت الأمة الرومانية مدى قرن كامل تسيطر عليها قوة التسكانيين ويشكلون حضارتها .

الفصل الرابع

روما تحت حكم الملوك

وعبر نهر التيبر حوالى عام ١٠٠٠ ق . م جماعة مهاجرون من ڤلانوڤا واستقروا فى لاتيوم Latium ، ولا يعرف أحد هل غلب هؤلاء المهاجرون من وجدوهم فى تلك البلاد من السكان الأصليين الذين كانت ثقافتهم فى ذلك العهد لا ترقى عن ثقافة أهل العصر الحجرى الحديث ، أو أبادوهم ، أو اكتفوا بالاختلاط بهم والزواج منهم . ومهما يكن ما فعلوه بهم فقد أخذت القرى الزراعية التى كانت قائمة فى هذا الإقليم التاريخى العظيم بين نهر التيبر وخليج نابلى Naples تجتمع وينضم بعضها إلى بعض حتى تكون منها عدد قليل من دويلات المدن المستقلة المتحاسدة التى لم تكن تتحد بعضها مع بعض إلا فى الأعياد الدينية السنوية أو فيما كان يقوم بينها من حروب . وكان أكبر هذه المدن هى ألبا لنجا Alba Longa القائمة عند سفح جبل ألبان Mt. Alban ، والراجح أن موضعها كان فى موضع قصر جندلفو Castel Gandlfo الذى يأوى إليه البابا فى أيام الصيف فى الوقت الحاضر . ومن ألبا لنجا تحرك جماعة من اللاتين — ولعل ذلك كان فى القرن الثامن قبل الميلاد — مدفوعين بحب الغزو أو بازدياد عددهم لكثرة من ولد لهم من الحفدة والأبناء ، تحركوا قرابة عشرين ميلا نحو الشمال الغربى ، وأنشأوا المدينة التى صارت فيما بعد أعظم مدن العالم وأوسعها شهرة .

ولسنا نعرف عن نشأة روما أكثر مما ذكرناه فى الفقرة السابقة التى ليس فيها إلا ما هو فروض غير موثوق بصحتها . ولكن القصص الرومانية تروى عن ذلك الأصل الشيء الكثير . ذلك أنه لما حرق الغاليون المدينة فى عام ٣٩٠ ق . م احترقت فى أغلب الظن معظم سجلاتها التاريخية ، فاتسع المجال

أمام خيال أهليها، وأغرتهم وطنيتهم إلى تصوير أصل المدينة فى صورة مطلقة من كل القيود ، فحددوا تاريخ بنائها فى اليوم الذى يوافق اليوم الثانى والعشرين من شهر إبريل عام ٧٥٣ ق.م، وأخذوا يؤرخون الحوادث «من عام تأسيس المدينة» A.U.C. auno urbis conditae ، وأخذت مائة قصة وألف قصيدة تصف خروج إينياس Aeneas ابن أفروديتى — ڤينوس (الزهرة) Aphrodite-Venus من طروادة المحترقة ، ومجيئه إلى إيطاليا بآلهة مدينة برام Priam(*) وما كان فيها من صور مقدسة ، بعد أن قاسى الأهوال فى البلاد الكثيرة التى مر بها ، ولاقى ألوان العذاب من سكانها . وتزوج إينياس من لاڤينيا Lavnia ابنة ملك لاتيوم ، وتقول القصة إن نمتور Numitor أحد أحفادهما جلس على عرش ألبا لنجا حاضرة لاتيوم بعد ثمانية أجيال من هذا الزواج . ثم اغتصب العرش منه رجل يدعى أمليوس Amulius وأخرجه من المدينة ، وأراد أن يقضى على أسرة إينياس كلها فقتل جميع أبنائه الذكور ، وأرغم ابنته الوحيدة ريا سلڤيا Rhea Si via على أن تصبح كاهنة لڤستا Vesta ، وأن تترهب وتقسم أن تظل عذراء حتى الممات . ولكن ريا رقدت يوماً على شاطئ مجرى ماء ، «وفتحت صدرها لتتلقى النسيم»[٢٩] واستغرقت فى النوم وهى واثقة أكثر مما يجب بطهارة الآلهة والآدميين . وأسر جمالها قلب المريخ Mars فحملت منه بتوأمين ، فلما وضعتهما أمر أمليوس بإغراقهما فى النهر ، فوضعا فوق رمس ، وأشفقت عليهما الأمواج فحملتهما إلى البر ، وأرضعتهما ذئبة (Lupa) أو — فى رواية أخرى — زوجة راع تدعى أكا لارنتيا Acca Larentia ويكنونها لوپا Lupa لأن حبها عارم كحب الذئاب . فلما شب رميولوس Romulus وريموس Remus قتلا أمليوس ، وأعادوا نمتور إلى العرش ، وسارا تحدوهما قوة الشباب وعزيمته لكى ينشئا لهما مملكة على تلال رومة .

(*) يقصد طروادة . (المترجم)

ولم يكشف علم الآثار عن شيء يؤيد هـذه القصص التي تروى عن نشأة رومة وعهدها الأول ؛ ولعل في هذه القصص شيء من الحقيقة ، فليس ببعيد أن يكون اللاتين قد أرسلوا نفراً منهم ليشيدوا مدينة رومة لكي يتخذوها حصناً يقيهم شر التسكان الذين كانوا يوسعون رقعة بلادهم في ذلك الاتجاه . وكان موقع المدينة على بعد عشرين ميلا من شاطئ البحر ، ولم يكن موقعاً ملائماً للتجارة البحرية ، ولكنـه كان من المستحب في تلك الأيام أيام القرصان المغيرين النهابين أن تكون مواقع المدن بعيدة عن شاطئ البحر قليلا . أما من حيث التجارة الداخلية فقد كانت رومة عنـد ملتقى طريقي التجارة ، طريق النهر والطريق البرى الممتد من الشمال إلى الجنوب ؛ ولم يكن موقعها بالموقع الصحى ، فقد كانت الأمطار وفيضانات الأنهار ، ومياه العيون ، تملأ المناقع الكثيرة في السـهل المحيط بالمدينة ، ومن ثم كانت شهرة التلال السبعة ؛ وتقول الرواية إن أول ما استوطنه المهاجرون من هذه التلال هو تل بلاتين Palatine ، ولعل سبب ذلك أن جزيرة قرب سفح هذا التل قد يسرت للمستعمرين عبور نهر التيبر وإقامة جسر عليه ؛ ثم استوطنوا بعدئذ سفوح التلال المجاورة واحداً في إثر واحد ، وما لبثوا أن عبروا النهر وشادوا الفاتيكان Vatican والجانكيولوم Janiculum (*) . ثم تحالفت القبائل الثلاث ـ اللاتين والسبينيون والتسكان ـ التي اسـتوطنت التلال وأنشأت منها اتحاداً يسمى السبتيمنيوم هو الذى نشأت فيه على مهل مدينة رومة .

وتقول القصة القديمة بعدئذ إن رميولوس أراد أن يأتي بأزواج لرجاله، فأعد ألعاباً عامة دعا إليها السبنيين وغيرهم من رجال القبائل الأخرى ، وبينا كان السباق جارياً في مجراه إذ انقض الرومان على نساء السبنيين فاستولوا

(*) لقد كان في رومة أكثر من هذه التلال السبعة المتواضعة ، ولم تكن هذه « السبعة » هي بعينها في جميع الأوقات . غير أنها في أيام شيشرون كانت هي Palatine Capitoline, Caelian, Esquiline, Aventine, Viminal, quirinal.

عليهن ، وطردوا الرجال من حلبة السباق ، فما كان من تيتس تاتيوس Titus Tatius ملك قبيلة الكيوريين Curites السبنية إلا أن شن الحرب على رومة ، وسار بجيوشه لغزوها . وفتحت ترپيا Tarpeia ابنة الرومانى الموكل بإحدى القلاع القائمة على الكپتولين باب القلعة إلى الغزاة . وقد جازوها على عملها بأن دقوا عظامها بدروعهم ، وأطلقت الأجيال التى جاءت من بعد اسمها على « صخرة ترپيا » التى كان يلقى من فوقها المقضى عليهم بالإعدام ليلقوا حتفهم . ولما اقترب جنود تاتيوس من تل الپلاتين سعت نساء السبنيين — اللاتى كن يشعرن بنعم الأسر — إلى عقد هدنة بين الطرفين ، وحجتهن فى هذا أنهن سيخسرن أزواجهن إذا انتصر الكيوريون ، وسيخسرن إخوتهن أو آباءهن إذا انهزموا . ونجح النساء فى سعيهن وأقنع رميولوس تاتيوس ملك السبنيين بأن يشاركه ملكه ، وأن تنضم قبيلته إلى اللاتين ، فتصبح من مواطنى رومة ، ومن ذلك الوقت سمى أحرار رومة بالكيوريين أو الكويريين (Quirites Curites)[٣٠] . ولعل فى هذه القصة الخيالية كلها هى الأخرى بعض الحقائق — أو لعل النعرة الوطنية قد صاغتها لتخفى بها فتح السبنيين مدينة رومة .

وحكم رميولوس رومة زمناً طويلا رفع بعدها إلى السماء فى عاصفة ، واتخذ من بعد ذلك إلهاً من آلهة الرومان المحببين ، يعبدونه باسم كويرينوس Quirinus[٣١] . ولما مات تاتيوس أيضاً اختار رؤساء الأسر الكبيرة رجلا من السبنيين يدعى نوما پمپليوس Numa Pompilius ملكاً على رومة . والراجح أن السلطة السياسية الحقيقية فيما بين تأسيس رومة وسيطرة التسكان عليها كانت فى أيدى هؤلاء الرؤساء أو السناتوريين ، على حين أن أعمال الملك كانت كأعمال الأركان باسليوس Archon basileus فى مدينة أثينة فى هذا الوقت عينه ، ولا تخرج عن أعمال الكاهن الأكبر[٣٢] . وتصور الأقاصيص الملك نوما السبينى فى صورة شبيهة بالإمبراطور ماركس أوريليوس Marcus Aurilius ، تصوره فيلسوفاً وقديساً معاً . ويقول عنه ليفى Livy إنه :

«عمل على أن يبعث فى قلوب الشعب الخوف من الآلهة ، ويجعل ذلك الخوف أقوى أثراً فى قلوب ... الأقوام الهمج : وإذ كانت جهوده فى هذه السبيل لا توصله إلى الهدف الذى يسعى إليه إلا إذا كان مرجعها إلى حكمة غير حكمة البشر ، فقد ادعى أنه كان يلتقى فى الليل بإيجيريا Egeria الحورية المقدسة ، وإنه يعمل بنصيحتها حين ينظم الطقوس والمراسم الدينية التى هى أحب الطقوس إلى السماء ، ويعين الكهنة لكل إله من كبار الآلهة(٣٢) .

ولما أفلح نوما فى توحيد دين قبائل رومة المختلفة ، وإزالة ما بينها من فروق فى العبادات ، قوى بذلك وحدة الدولة وزادها استقراراً (٣٣) ، ويقول شيشرون إن نوما، حين وجه اهتمام الرومان المولعين بالحرب والقتال إلى شئون الدين ، نشر لواء السلام بين شعبه مدى أربعين عاماً (٣٤) .

وأعاد خليفته تلس هستليوس Tllus Hostilius إلى الرومان حياتهم العادية التى ألفوها من قبل « ولما رأى أن قوى الدولة آخذة فى الانحلال لطول عهدها بالخمول أخذ يتطلع إلى حجة يتذرع بها لإيقاد نار الحرب(٣٥) » ، واختار عدواً له مدينة ألبا لنجا التى كانت هى أصل مدينة رومة ومنشأها ، فغزاها ودمرها عن آخرها . ولما نكث ملك ألبا بوعده أن يحالفه أمر به تلس فشد إلى عربتين سارتا فى اتجاهين متضادين فمزق جسمه إرباً(٣٦) ؛ ولم ير خليفته أنكس مارتيوس Ancus Martius بأساً فى اتباع هذه الفلسفة العسكرية ، فقد كان أنكس يعلم كما يقول ديوكاسيوس Dio Cassius :

أنه لا يكفى من ينشدون السلم أن يمتنعوا عن أذى الناس ... بل إنه كلما اشتدت رغبة الإنسان فى هذا السلم اشتد تعرضه للأذى . وكان يرى أن الرغبة فى الهدوء لا تحمى الإنسان من الأذى إلا إذا صحبها الاستعداد للحرب ، وكذلك كان يعتقد أن الابتهاج بالبعد عن المشاكل الخارجية سرعان ما يقضى على الذين يسرفون فى حماستهم لهذا البعد(٣٧) .

الفصل الخامس

سيطرة التسكانيين

وتروى الأقاصيص بعدئذ أن دمراتس Demaratus ، وهو تاجر ثرى نقى من كورنث ، جاء ليعيش فى تاركويناى حوالى عام ٦٦٥ ق.م ، وتزوج بامرأة تسكانية[٣٨] ثم هاجر ابنه لوسليوس تاركوينيوس Lucius Tarquinius إلى رومة وارتفعت مكانته فيها ، ولما مات أنكس اغتصب العرش أو رفعه عليه حلفه من الأسر التسكانية فى المدينة ، والاحتمال الثانى أرجح من الأول . فيقول ليفى Livy إنه أول ملك سعى إلى التاج وألقى خطبة يطلب فيها معونة السوقة أى المواطنون الذين لا يستطيعون أن يثبتوا انتسابهم إلى الآباء الذين أسسوا المدينة ؛ وزاد سلطان الملكية على الأشراف فى عهد تاركوينيوس برسكس Tarquinius Priscus ، كما زاد نفوذ التسكانيين فى شئون رومة السياسية والهندسية والدينية والفنية ؛ وحارب تاركون السبنيين وانتصر عليهم ، وأخضع لاتيوم Latium كلها لسلطانه ، ويقال إنه استخدم موارد رومة ليجمل بها تاركوناى وغيرها من المدن الإترورية ، ولكنه جاء أيضاً بالفنانين التسكانيين واليونان إلى عاصمة ملكه وزينها بالهياكل الفخمة(*) ويلوح أنه كان يمثل سلطان الأعمال التجارية والمالية المتزايد على سلطان الأشراف ملاك الأراضى الزراعية .

وحكم تركون الأول ثمانية وثلاثين عاماً ثم قتله الأشراف غيلة لأنهم أرادوه

(*) ولعله أيضاً أنشأ فيها المجارى لتنظيفها ، ويعزو إليه المؤرخون الرومان إنشاء الكلواكا مكسيما Cloaca Maxmal أو البالوعة الكبرى ، ولكن بعض العلماء يعزون هذا الفضل إلى القرن الثانى قبل الميلاد[٤٠] .

أن يحدوا من سلطان الملكية ويفرضوا عليها سلطان الدين ، ولكن تناكويل Tanquil أرملة تاركون تولت الأمر بنفسها ، واستطاعت أن ترفع ابنها سرفيوس تليوس Servius Tallius على العرش . ويقول شيشرون إن سرفيوس هذا هو أول ملك روماني استطاع « أن يتولى الملك دون أن يختاره الشعب »(٤١) أي أن تختاره الأسر الكبيرة . وحكم هذا الملك البلاد حكماً صالحاً ، وأنشأ حول رومة خندقاً وسوراً ليحميها من الغارات ، ولكن كبار الملاك لم يرضوا عن حكمه ودبروا المؤامرات لخلعه ، فقابل هذا بأن تحالف مع الأثرياء من العامة (Plebs) وأعاد تنظيم الجيش والناخبين ليقوى بذلك مركزه ، فبدأ بإحصاء السكان والأملاك ، وقسم الأهلين طبقات على أساس ثروتهم لا على أساس مولدهم ، فترك بذلك الأشراف القديمة محتفظة بكيانها ، ولكنه رفع تجاهها طبقة من الإكويتي equites ومعناها الفرسان — أي الرجال الذين كان في مقدور كل منهم أنه يعدله جواداً وسلاحاً ينخرط بهما في سلك فرقة الفرسان في الجيش(*) . وتبين من الإحصاء أن هناك ٨٠,٠٠٠ شخص يستطيعون حمل السلاح . وإذا قدرنا أن أسرة كل جندي من هؤلاء الجنود تتألف منه ومن زوجه وولد واحد ، وأن لكل أسرة من أربع أسر عبداً رقيقاً ، فإنا لا نكون مخطئين إذا قدرنا سكان رومة والبلاد المحيطة بها الخاضعة لسلطانها حوالي عام ٥٦٠ ق . م بنحو ٢٦٠,٠٠٠ نسمة ؛ وقسم سرفيوس هؤلاء السكان إلى خمس وثلاثين قبيلة جديدة ، ورتبها حسب مسكنها لا حسب طبقتها أو ما بينها من صلات القرابة ، وفعل بذلك ما فعله كليستنيز Ctleisthenes في أتيكا Attica بعد جيل من الوقت ، فأضعف ما كان للأشراف — أي الطبقة التي كانت تضع نفسها بفضل مولدها فوق سائر الطبقات — من تماسك سياسي وقوة انتخابية . ولما قام تاركون آخر

(*) وهذا اللفظ بمعناه القديم ذو صلة بكلمة Knight (فارس) الإنجليزية ، ولكن سرعان ما فقد لفظ equites معناها الأول وأصبح معناه الطبقة الوسطى العليا أو طبقة رجال الأعمال .

هو حفيد تاركوينيوس برسكس Tarquinius Priscus واتهم سرفيوس Servius بأنه يحكم حكماً غير شرعي ، استفتى سرفيوس الشعب فنال « ثقته الاجتماعية » كما يقول ليفي Livy[٤٢]، غير أن تاركوين لم تقنعه نتيجة هذا الاستفتاء فعمل على اغتيال سرفيوس ، ونادى بنفسه ملكاً على رومة(*).

وأصبحت الملكية في عهد تاركوينيوس سوبربس Tarquinius Superbus « المتكبر » مطلقة السلطان ، كما أصبح للتسكانيين النفوذ الأعلى في البلاد ؛ ولكن الأشراف كانوا من قبل يرون أن الملك Rex إن هو إلا السلطة التي يكل إليها مجلس الشيوخ Senate تنفيذ أحكامه ، وأنه الكاهن الأكبر للدين القومي ، ولذلك لم يستطيعوا أن يصبروا طويلا على سلطانه غير المحدود . ومن أجل هذا قتلوا تاركوينيوس برسكس ولم يحاولوا الدفاع عن سرفيوس . ولكن هذا الملك الجديد كان شراً من الملك الأول ، فقد أحاط نفسه بحرس خاص وحقر الأحرار بأن فرض عليهم السخرة شهوراً طوالا ، وأمر بصلب المواطنين في السوق العامة ، وقتل عدداً كبيراً من زعماء الطبقات العليا في البلاد ، وحكم حكماً وحشياً ساخراً أغضب جميع أصحاب الرأي فيها(**)[٤٤] . وظن هذا الملك أن النصر في ميدان القتال يكسبه حب الشعب ورضاه ، فهاجم الروتليين Rutili والفلشيين Volscians . وبينا كان هو مع الجيش في الميدان اجتمع مجلس الشيوخ وأعلن خلعه (٥٠٨ ق.م) ، وكان ذلك انقلاباً خطيراً في تاريخ رومة .

(*) قل أن يوجد من العلماء من يميل إلى الأخذ بأقوال إتوربيس Ettor Pais المسرفة في التشكك ، والتي تأبى تصديق كل ما يروى من تاريخ رومة قبل عام ٤٤٣ ق . م لأنه حسب زعم هذا المؤرخ مجرد أساطير . وهو يعتقد أن تاركوين الأول والثاني علمان على شخص واحد لم يوجد قط (٤٣) . ويرى بعضهم أن الرواية المأثورة عن تاريخ رومة بعد رمولوس يمكن قبولها مع تعديل في بعض أجزائها ، وأن قبوله هذا « يفسر الظاهرة » تفسيراً خيراً مما يفسره أي افتراض آخر .

(**) أكبر الظن أن ما يروى عن تاريخ آل تاركوين قد سوأته الدعاوة التسكانية ودعاوى الأرستقراطية الرومانية . ذلك أن معظم تاريخ رومة الأول قد كتبه رجال يمثلون طبقة الأشراف أو يعجبون بهذه الطبقة ، كما كان كتاب تاريخ الأباطرة فيما بعد من أشياع مجلس الشيوخ أمثال تاستس Tacitus .

الفصل السادس

مولد الجمهورية

وهنا تستحيل الرواية التاريخية أدباً ، ويمتزج نثر السياسة بشعر الغرام . انظر مثلا إلى ما يقوله ليفي وهو أن سكستس تاركوين Sextus Tarquin ابن الملك كان فى معسكر أبيه فى إحدى الليالى يناقش لوسيوس تاركوينيوس كلاتنس Lucius Tarquiniu Collatinus أحد أقربائه فى فضائل زوجتيهما وأيهما خير من الأخرى ، فعرض ليــه كلاتنس أن ينطلقا على ظهرى جواديهما إلى رومة ويفاجئا زوجتيهما بزيارتهما فى أواخر الليل . فوجدا زوجة سكتس فى وليمة مع بعض صاحباتها ، أما لكريشيا Lucretia زوجة كلاتنس فكانت تغزل الصوف لتنسج منــه ثياباً لزوجها . وتاقت نفس سكتس ليجرب وفاء لكريشيا ويستمتع بحبها ، فما كان منه إلا أن عاد فى السر بعد بضعة أيام من ذلك الوقت إلى بيت لكريشيا وتغلب عليها بدهائه وقوته . وأرسلت لكريشيا تستدعى أباها وزوجها ، وأخبرتهما بما حدث لها ، ثم انتحرت بطعنة خنجر . وعلى أثر ذلك أهاب لوسيوس چونيوس بروتس Lucius Junius Brutus أحد أصدقاء كلاتنس جميع الصالحين من الرجال أن يطردوا آل تاركوين كلهم من رومة . وكان هو نفسه ابن أخى الملك ، ولكن تاركوين كان قد قتل أباه وأخاه ، وتظاهر هو بالجنون حتى يبقى تاركوين على حياته فيثأر لمقتل أبيه وأخيه ، ولذلك سمى بروتس Brutus أى الأبله . فلما وقعت هذه الحادثة ركب مع كلاتنس إلى العاصمة ليقص قصة لكريشيا على مجلس الشيوخ ، وما زال به حتى أقنعه بوجوب إخراج الأسرة المالكة كلها من رومة . وكان الملك فى أثناء ذلك قد ترك الجيش وعاد مسرعاً إلى العاصمة . وعلم بروتس بهذا فسار إلى الجيش على ظهر جواده وقص عليه مرة أخرى

قصة لكريشيا وكسب بذلك معونته وتأييده . وفر تاركوين إلى بلاد إتروريا وطلب إلى أهلها أن يعيدوه إلى عرشه (٤٥)(*) .

ودعيت فى رومة وقتئذ جمعية من أهلها الجنود فاختارت بدل الملوك الذين كانوا يختارون مدى الحياة قنصلين (**) متعادلين فى السلطان، كلاهما رقيب على الآخر ومنافس له، يحكمان مدة عام واحد . وتقول الرواية إن القنصلين الأولين كانا بروتس وكلاتنس ولكن ثانيهما استقال من منصبه فاختير بدله پبليوس ڤاليريوس Publius Valirius الذى لقب فيما بعد پبلكولا Publicola — أى « صديق الشعب » — ، لأنه تقدم إلى الجمعية بعدة قوانين ظلت من القواعد الأساسية فى دستور رومة وهى : أن كل من يحاول أن ينصب نفسه ملكا يجوز قتله من غير محاكمة ؛ وكل من يحاول أن يتولى منصباً عاماً من غير رضاء الشعب يعاقب بالإعدام ؛ وكل مواطن يحكم أحد الحكام بإعدامه أو جلده يحق له أن يعرض أمره على الجمعية . وڤاليريوس هو الذى سن السنة التى كانت تحتم على القنصل إذا أراد أن يدخل الجمعية أن يفصل رأس البلطة عن مقبضها ويخفضها إشارة إلى سيادة الشعب وإلى أن عقوبة الإعدام فى وقت السلم من حق الشعب وحده .

وأهم نتائج هذه الثورة اثنتان : أولاهما أنها حررت رومة من سلطان التسكانيين ، والثانية أنها استبدلت بحكم الملوك حكم الأشراف الذين ظلوا يحكمونها إلى عهد قيصر . أما الفقراء من المواطنين فلم تنصلح أحوالهم بعد الثورة بل ساءت عما كانت عليه ، فقد طلب إليهم أن ينزلوا عن الأراضى التى وهبها لهم سرڤيوس

(*) يرى معظم العلماء من أيام نيبهر Niebuhr أن قصة لكريشيا من خلق الخيال وشيكسبير . ولسنا نعرف ما فى هذه القصة من حقيقة وما فيها من خيال الشعراء . ويرى البعض أن بروتس نفسه شخصية خرافية ، ولكن أكبر الظن أن الذين يقولون بهذا يسرفون فى تشككهم .

(**) أو قائدين يلقب كل منهما بريتور Praetor — كما تقول رواية أخرى .

وخسروا ذلك القسط الضئيل من الحماية من سلطان الأشراف وهو الذى كان لهم فى عهـــد الملكية(٤٧) . وقال الظافرون إن الثورة كانت نصراً مؤزراً للحرية ، ولكن الحرية فى لغة الأقوياء لا يقصد بها فى بعض الأحيان إلا التحرر من القيود التى تحول دون استغلال الضعفاء .

وكان إخراج آل تاركوين من رومة ، مضافاً إلى هزيمة التسكانيين على يد المستعمرين اليونان فى كومية Cumae عام ٥٢٤ نذيراً بزوال زعامة التسكانيين من وسط إيطاليا . ومن أجل هذا فإنه لما لجأ إليهم تاركوين ، استجاب لدعوته لارس پورسنا Lars Porsena ، أكبر الحكام فى كلوزيوم Clusium فجمع جيشاً كبيراً من مدن إترووريا المتحدة وزحف به على رومة . ودبرت فى رومة نفسها وفى الوقت نفسه مؤامرة ترمى إلى إعادة آل تاركوين إلى عرشها . وقبض على المتآمرين ، وكان من بينهم ابنا بروتس ، وضرب هذا القنصل لكل من جاء بعده من الرومان أحسن الأمثلة فى الجلد والخضوع لحكم القانون ، إذ شـــهد بعينه ولديه يجلدان ثم يضرب رأساهما وهو صامت لا ينبس ببنت شفة — أو لعل هذه قصـــة تروى وليست حقيقة واقعة . ودمر الرومان الجسر العام على نهر التيبر قبل أن يصل إليهم پورسنا ؛ وقد خلد هوراشيس ككليز Horatius Cocles اسمه فى الأغانى اللاتينية والإنجليزية بدفاعه عن رأس هذا الجسر(*) . ولكن رومة استسلمت لپورسنا(٤٨) . على الرغم من هذه الأسطورة وغيرها من الأساطير التى أراد بها المهزومون أن يكللوا هاماتهم بالمجد . ونزلت عن بعض أملاكها إلى ڤياى veii والمدن اللاتينية التى كان ملوك رومة قد انتهبوها(٤٩) . وأظهر پورسنا للمدينة المغلوبة بعض المجاملة إذ لم يطلب إعادة تاركوين إلى عرشها . وكان الأشراف فى إترووريا قد طردوا منها أيضاً الملوك وظلت رومة بعد هذه الاضطرابات ضعيفة

(*) انظر قصيدة لورد مكولى فى مجموعة قصائده المسماة Lays of Ancient Romeeut
(المترجم)

مدى جيل من الزمان ، ولكن ما خلفته الثورة من نتائج ظل باقياً دائم الأثر .

وقضت هذه الثورة على قوة التسكانيين ، ولكن آثار النفوذ التسكانى ودلائله ظلت باقية فى الحضارة الرومانية إلى آخر أيامها . ولعل أقل هذا النفوذ أثراً هو ما كان فى اللغة اللاتينية ؛ بيد أن الأرقام الرومانية هى فى أغلب الظن أرقام تسكانية[٥٠] ، ولعل لفظ رومة نفسه مشتق من اللفظ التسكانى رومون **Rumon** ومعناه نهر[٥١] . وكان الرومان يعتقدون أنهم أخذوا عن إتروريا الاحتفالات التى كانت تقام عند عودة قائد رومانى منتصر ، والأثواب الموشاة بإطار أرجوانى ، والمقعد العاجى (الشبيه بمقاعد العربات) الذى يجلس عليه الحكام ، والعصى والفؤوس التى كان يحملها أمام كل قنصل اثنا عشر ضابطا ، والتى كان يرمز بها إلى حقه فى ضرب الناس وقتلهم[*] . وكانت عملة رومة تزدان بمقدم سفينة قبل أن يكون لرومة سفن بزمن طويل — وكانت هذه الصورة ترسم على العملة التسكانية رمزاً لنشاطها التجارى وسلطانها البحرى . وكان من عادة الأشراف الرومان من القرن السابع إلى الرابع قبل الميلاد أن يرسلوا أبناءهم إلى المدن التسكانية ليتلقوا فيها التعليم العالى ، وكان من بين ما يتلقونه فيها من العلوم الهندسية والمساحة والفنون المعمارية[٥٥]. وكانت الملابس الرومانية مأخوذة عن الملابس التسكانية أو لعل هذه وتلك مأخوذتان عن أصل واحد .

وجاء الممثلون الأولون إلى رومة كما جاء إليها اسمهم **historiones** من إتروريا . وإذا جاز لنا أن نصدق ليفى فإن تاركوينيوس پرسكس هو

(*) وقد وجدت فى أحد القبور التسكانية فى فتيولونيا **Vetulonea** بلطة من حديد ذات رأسين ، ويد محاطة بثمانية قضبان حديدية (٥٣) . وكانت البلطة ذات الرأسين تتخذ رمزاً للسلطان من عهد لا يقل فى القدم عن عهد الحضارة المينوية فى كريت . وكان الرومان يطلقون على البلطات والقضبان المحيطة بها اسم الحزم — (الفاشات) . أما عدد الضباط الاثنى عشر الذين يحملون هذه البلطة والذين يسمون بالرومانية لكتورين **Lictors** (من **Ligare** ومعناها يربط) فيرجع إلى الاثنى عشر مدينة التى كانت يضمها الاتحاد التسكانى ، وكانت كل واحدة منها ترسل ضابطاً يصحب الرئيس لهذا الاتحاد(٥٤) .

الذى بنى أول ساحة كبرى **Circus Maximus** ، واستورد خيول السباق والمصارعين للألعاب الرومانية من إتروريا ؛ والتسكانيون هم الذين أدخلوا فى رومة المصارعات الوحشية ، ولكنهم هم الذين وضعوا النساء فيها فى منزلة لم تكن لهن فى بلاد اليونان . وقد شاد المهندسون التسكانيون أسوار رومة ومصاريف الفضلات من بيوتها ، وهم الذين استحالت على أيديهم من مناقع وخمة إلى حاضرة محمية متمدينة . وأخذت رومة عن إترووريا معظم مراسمها الدينية ؛ كما أخذت عنها عادات زجر الطير والعرافة والإنباء بالغيب : ولقد ظلت وظيفة المتنبئ بالغيب جزءاً مقرراً فى كل جيش رومانى إلى أيام الإمبراطور يوليان **Julian** (أى إلى عام ٣٦٣ ب . م) وكان الاعتقاد السائد أن رميولوس **Romulus** قد خطط حدود رومة حسب المراسم والطقوس التسكانية . وعن إترووريا أخذ الرومان حفلات عرسهم وما فيها من رموز إلى عادة الأسر القديمة وحفلات جنائزهم كما أخذوا عنها موسيقاهم وآلات طربهم[٥٦] . وكان معظم فنانى رومة من التسكانيين ، كما كان الشارع الرومانى الذى يعمل فيه الفنانون يسمى **Vicus Tuscus** (البيوت التسكانية) ، ولعل الفنانين أنفسهم قد تسربوا إلى رومة عن طريق لاتيـــوم من إغريق كمپانيا **Campania** . وكان فن النحت فى رومة متأثراً أعمق الأثر بأقنعة الموتى التى كانت تغطى بها صور الأسر — وهى عادة أخذت من إترووريا .

وزين المثالون التسكانيون هياكل رومة وقصورها بالتماثيل البرنزية وبالصور المجسمة على الآجر والمحفورة فيه . وخلف مهندسو البناء التسكانيون فى رومة « طرازاً تسكانياً » لا يزال حتى اليوم باقياً فى كنيسة القديس بطرس . ولعل ملوك رومة التســكانيين هم الذين شادوا فيها أولى العمارات الكبيرة وحولوها من طائفة من الأكواخ الطينية أو العشش الخشــبية إلى مدينة مشيدة من الخشب والآجر والحجارة . ولم تشهد رومة مثل ما شهدته من المبانى فى عهد التسكانيين إلا فى عهد قيصر .

ولكن ينبغى لنا ألا نغلو فى هذا الوصف ، فمهما يبلغ ما أخـــذته رومة عن جيرانها من الكثرة فقد ظلت فى جميع مظاهر الحياة الأساسية محتفظة بطابعها الخاص ، فليس فى التاريخ التسكانى ما يوحى بمميزات الخلق الرومانى ، وهى التأديب الذاتى وما فيه من جد ، ووقار ، والقسوة ، والجرأة ، والوطنية ، والإخلاص ، والصفتان الأخيرتان هما اللتان استطاع بهما الرومان على طول الزمن أن يفتحوا بلاد البحر الأبيض المتوسط ، وأن يحكموها فيما بعد ، فلما تحررت رومة من ســيطرة التسكانيين انفسح المجال أمامها لتمثيل تلك المسرحية الفذة مسرحية عظمة الوثنية ثم اضمحلالها فى العالم القديم .

الكتاب الأول

الجمهورية

٥٠٨ - ٣٠ ق. م

جـــدول تاريخى

ق . م

٨١٣ –	تأسيس قرطاجنة .
٥٥٨ وما بعدها –	قرطاجنة تستولى على غرب صقلية وسردانيا وقورسقة الخ .
٥٠٩ –	تأسيس الجمهورية الرومانية .
٥٠٨ –	حروبها مع التسكانيين ؛ هوراشيس ككليز .
٥٠٠ –	هانو يرتاد ساحل إفريقية الغربى .
٤٩٤ –	انشقاق العامة الأول ، إنشاء منصب التربيون(*) .
٤٩٢ –	كوريولانس .
٤٨٥ –	الحكم على اسبوريوس كاسيوس .
٤٥٨ – ٤٣٩	سنسناتس يعين دكتاتوراً (حاكما بأمره) .
٤٥١ –	لجنة العشرة الأولى .
٤٥٠ –	الجداول الاثنى عشر .
٤٤٩ –	الانشقاق الثانى للعامة .
٤٤٥ –	شريعة كانيوليا فى الزواج .
٤٤٣ –	إنشاء نظام الرقابة .
٤٣٢ –	القانون الأول لمنع تزييف الانتخابات .
٣٩٦ –	الرومان يستولون على فياى .
٣٩٠ –	الغالة ينهبون رومة .
٣٦٧ –	قانون ليكينيا يخفف قانون الدين .
٣٤٣ – ٣٤١	الحرب السمنية الأولى .
٣٤٠ – ٣٣٨	حرب اللاتين ؛ وانحلال الحلف اللاتينى .
٣٣٩ –	قانون پبليا يقضى على حق مجلس الشيوخ فى الرفض .
٣٢٧ – ٣٠٤	الحرب السمنية الثانية .
٣٢٦ –	قانون پاليتليا يخفف قانون الدين .
٣٢١ –	هزيمة الرومان فى مشاعب كودين .

(*) آثرنا إبقاء الأسماء الرومانية لهذه المناصب كما هى ، لأن كل ترجمة لها لا تدل على حقيقتها ، ولعل لفظ أطربون الذى جاء فى بعض أشعار العرب هو تعريب للفظ تربيون .
(المترجم)

ق . م	
٣٠٠ —	قانون ڤاليريا وحق استئناف الأحكام ؛ قانون أوجليا وحق الانتخاب لوظائف الكهنة .
٢٩٨ — ٢٩٠	الحرب السمنية الثالثة .
٢٨٧ —	انشقاق العامة الأخيرة ؛ قانون هورتنسيا وسلطان الجمعية .
٢٨٣ —	روما تحتل معظم أجزاء إيطاليا اليونانية .
٢٨٠ — ٢٧٥	پيروس فى إيطاليا وصقلية .
٢٨٠ — ٢٧٩	انتصارات پيروس فى هرقليا وأسكيولم .
٢٧٢ —	رومة تستولى على تارنتم .
٢٦٤ — ٢٤١	الحرب البونية الأولى .
٢٤٨ —	هملكار برقة يغزو صقلية .
٢٤١ —	هزيمة الأسطول القرطاجنى قرب جزائر إجاديا ، صقلية ولاية رومانية .
٢٤١ — ٢٣٦	حرب الجنود المرتزقة على قرطاجنة .
٢٣٦ —	مسرحية ليڤيوس أندرونكس Levius Andronens الأولى .
٢٣٩ —	قرطاجنة تسلم سردانية وقورسقة إلى رومة .
٢٣٧ —	هملكار فى أسبانيا .
٢٣٥ —	مسرحية نڤيوس Naevius الأولى .
٢٣٠ —	محاربة قرصان إليريا Illyris .
٢٢٢ —	رومة تستولى على غالة الجنوبية .
٢٢١ —	هانيبال يتولى القيادة فى أسبانيا .
٢١٩ — ٢٠١	الحرب البونية الثانية .
٢١٨ —	هانيبال يعبر جبال الألب ويهزم الرومان فى واقعتى تسينس Ticeinus وتريبيا Trebia .
٢١٧ —	هانيبال يهزم الرومان عند بحيرة ترزمينى Trsimene ؛ فابيوس مكسمس Fabius Maximus يصبح دكتاتورا .
٢١٦ —	انتصارات هانيبال عند كانى Canne .
٢١٥ —	معاهدة هانيبال وفليب الخامس .
٢١٤ —	بلوتس Plautus.
٢١٤ — ٢٠٥	الحرب المقدونية الأولى .
٢١٣ —	الرومان يستولون على سرقوسة .
٢١٠ — ٢٠٩	سپيو أفريكانس الأكبر فى أسبانيا .

ق . م	
٢٠٧ —	هزيمة هزدروبال فى موقعة متورس .
٢٠٣ —	استدعاء هانيبال إلى إفريقية .
٢٠٢ —	سپيو يهزم هانيبال فى اقعة زاما Zama ؛ كونتس فابيوس پكتور ينشر تاريخ رومة الأول .
٢٠١ —	أسپانيا وولاية رومانية .
٢٠٠ — ١٩٧	الحرب المقدونية الثانية .
١٩٩ —	إنيوس Innius .
١٨٩ —	واقعة مجنيزيا Magnesia .
١٨٦ —	تحريم عبادة باكس Bachus
١٨٤ —	كاتو الأكبر يتولى الرقابة .
١٧١ — ١٦٨	الحرب المقدونية الثالثة .
١٦٨ —	واقعة پدنا Pydna .
١٦٧ —	پوليبيوس فى رومة .
١٦٠ —	الأدلفى الترنسى Teh Adelphi of Terance .
١٥٥ —	كريندس يحاضر فى رومة .
١٥٥ — ١٣٨	الحرب على اللوزيتانيين .
١٥ — ١٤٦	الحرب البونية الثالثة .
١٤١ — ١٤٠	انتصارات ڤرياثس على الرومان فى أسپانيا .
١٤٦ —	سپيو أفريكانس الأصغر يدمر قرطاجنة ؛ موميوس Mummius كورنثة Corinth ؛ امتداد الحكم الرومانى إلى شمال إفريقية بلاد اليونان .

الباب الثانى

الكفاح فى سبيل الديمقراطية

٥٠٨ – ٢٦٤ ق . م

الفصل الأول

الأشراف والعامة

ترى أى الرومان كانوا هم الأشراف Patricians ؟ يرى ليفى[1] أن رميولوس اختار مائة من رؤساء العشائر فى قبيلته ليعينوه على تشييد رومة وليكون منهم مجلس شيوخه . وقد سمى كل واحد من هؤلاء الرجال فيما بعد پاتر أى « الأب » وسمى أبناءهم وأحفادهم پتريشى – أى « المنحدرين من الآباء » . أما النظرية الحديثة التى تستمد حياتها من تجريح التقاليد المأثورة ، فيحلو لها أن تفسر وجود هؤلاء الأشراف بأنهم غزاة غرباء لعلهم سهنيون Sabines غزوا لاتيوم Latium وحكموا العامة (Plebs) اللاتين بعد هذا الغزو ووضعوهم فى منزلة دون منزلتهم هم . ولنا أن نعتقد أنهم كانوا يتألفون من عشائر تملكوا خير الأراضى بفضل تفوقهم الاقتصادى أو الحربى ، ثم حولوا زعامتهم الزراعية إلى سيطرة سياسية ، وقد ظلت هذه العشائر المنتصرة – المنلى Manlii ، والفاليرى Valerii ، والإميلى Aemaelii ، والكرنيلى Dornelii ، والفابى Fabii ، والهوراشى Horatii والكلودى Claudii والليولى Lulii الخ – خمسة قرون كاملة تمد رومة بالقواد العسكريين والقناصل، والقوانين . ولما انضمت القبائل الثلاث الأولى بعضها إلى

بعض تكون من رؤساء عشائرها مجلس للشــيوخ يتألف من ثلثمائة من الأعضاء . ولم يكن هؤلاء الأعضاء رجال نعيم وترف كما كان خلفاؤهم فيما بعد ، فكثيراً ما كانوا يمسكون بأيديهم الفأس والمحراث ، ويعيشون على أبسط الطعام ، ويرتدون أثواباً من غزل بيوتهم ، وكان العامة يعجبون بهم حتى وقت كفاحهم . ويصفون كل ما يتصل بهم تقريباً بأنه « من الطراز الأول أو الطبقة الأولى Classicus »(٢) .

وكان يدانيهم فى الثراء ، وينقص عنهم نقصاً كثيراً فى الســلطة السياسية رجال الأعمال equites ». ومن هؤلاء من بلغوا من الثراء درجة أمكنتهم من أن يشقوا طريقهم إلى مجلس الشيوخ ، ويكونوا فيه القسم الثانى من الرجال « الأشراف والمسجّلين معهم » . وكان يطلق على هاتين الطبقتين اسم « الرتبتين » ويلقبون « بالصالحين » Boni ، وذلك لأن الحضارات القديمة كانت تقرن الفضيلة بالمرتبة والكفاية والسلطان ؛ وكان معنى الفضيلة Virtus عند الرومان هو الرجولة أى الصفات التى يتكون من مجموعها الرجل vir . ولم تكن كلمة Populus « الناس » تشمل غــير هاتين الطبقتين العاليتين ، وكان هذا هو المعنى الذى يفهم فى بداية الأمر من هذه الحروف الأربعة S P Q R (Senatus Populusque Romanus) التى كانت تنقش فى زهو وخيلاء على عشرات الآلاف من الآثار(٣) لما شقت الديمقراطية طريقها فى رومة تغير معنى كلمة Populus تدريجاً حتى شملت عامة الشعب أيضاً .

وكانت الكثرة الغالبة من المواطنين الرومان تتكون من هــذه الطبقة ، وكان منها الصناع والتجار ، ومنها الأرقاء المحررون وكثير منها فلاحون ، ولعلهم كانوا فى بداية أمرهم أهل تلال المدينة الذين غلبوا على أمرهم ، وكان منهم من يتصل بوصفه مولى Clintes أو تابعاً بشريف Patronus

من طبقات عليا ، وكان هؤلاء الأتباع يساعدون الشريف فى وقت السلم ويعملون تحت إمرته فى وقت الحرب ، ويقترعون فى الجمعية كما يأمرهم أن يقترعوا وذلك فى نظير حمايته إياهم وما يمنحهم من الأرض الزراعية .

وكان من الأرقاء أدنى الطبقات ، وكانوا فى عهد الملوك قليلى العدد كثيرى الأكلاف ، ولذلك كان سادتهم يحسنون معاملاتهم ويعدونهم أعضاء ذوى نفع كبير فى أسرهم . فلما كان القرن السادس قبل الميلاد ؛ وبدأت رومة حياة الغزو والفتح ، بيع عدد من أسرى الحرب مطرد الزيادة إلى الأشراف ورجال الأعمال وإلى العامة أنفسهم ، وانحطت منزلة الرقيق . وكانت القوانين تبيح معاملة العبد كما يعامل الإنسان متاعه ، ذلك أنه من الوجهة النظرية ، وطبقاً لعادات القدماء ، قد فقد حقه فى الحياة حين وقع فى الأسر ، وإن استعباده لم يكن إلا رحمة به وتخفيفاً لحكم الموت الذى استحقه بهزيمته . وكان يعهد إليه فى بعض الأحيان أن يدير أملاك سيده وأعماله التجارية وتصريف أمواله ، وكثيراً ما كان يصبح معلما أو كاتباً أو ممثلا أو صانعاً أو عاملاً أو تاجراً أو فناناً ، ويؤدى إلى سيده بعض ما يحصل عليه من أجر عمله ، وكان فى وسعه بهذه الطريقة وبغيرها من الطرق أن يحصل من المال على ما يكفيه لشراء حريته ، ومن ثم يصبح عضواً فى جماعة العامة .

ولم تكن طبقات كثيرة من الأهلين راضية عن حالها قانعة بحظها ، ذلك أن القناعة من الصفات النادرة بين بنى الإنسان بقدر ما هى طبيعية بين الحيوان ، ولم تستطع حكومة من الحكومات أن ترضى جميع رعاياها . وفى رومة كان رجال الأعمال يألمون لحرمانهم من عضوية مجلس الشيوخ ، والأثرياء من العامة يألمون لحرمانهم من أن تكون لهم حقوق رجال الأعمال ، والفقراء يألمون لفقرهم وحرمانهم من الحقوق السياسية وتعرضهم للاسترقاق إذا عجزوا عن الوفاء بما عليهم من الديون . وكانت قوانين الجمهورية فى عهدها الأول تبيح للدائن أن

يسجن المدين الذى يتكرر عجزه عن الوفاء بدينه فى سجن انفرادى ، وأن يبيعه بيع الرقيق بل أن يقتله . وقد جاء فى القانون أن فى وسع الدائنين لشخص ما مجتمعين أن يقطعوا جسد المدين العاجز عن الوفاء ويقسموه فيما بينهم — وهو إجراء يلوح أنه لم ينفذ قط[٤] . وطلب العامة أن تلغى هذه القوانين ، وأن يخفف عنهم عبء ما تراكم عليهم من الديون ، وأن توزع الأرض التى تنال بالحرب وتمتلكها الدولة على الفقراء بدل أن توهب للأغنياء أو تباع لهم بأثمان اسمية ، وأن يكون من حق العامة أن يختاروا حكاماً وكهنة ، وأن يتزوجوا من الأشراف ورجال الأعمال ، وأن يكون لهم ممثل من طبقتهم فى أعلى الوظائف الحكومية . وحاول مجلس الشيوخ أن يقف هذه الحركة بإثارة الحروب الخارجية ، ولكنه دهش إذ رأى أن الدعوة إلى حمل السلاح لم يستجب لها أحد . وفى عام ٤٩٤ ق . م « انشق » عليهم عدد كبير من العامة ونزحوا إلى الجبل المقدس على نهر أنيو Anio على مسيرة نحو ثلاثة أميال من المدينة ، وأعلنوا أنهم لن يعملوا أو يحاربوا من أجل رومة حتى تجاب مطالبهم . ولجأ مجلس الشيوخ إلى جميع الحيل السياسية أو الدينية لإغراء العامة بالرجوع إلى رومة ، ولكن هؤلاء أصروا على مطالبهم ؛ فلما خشى أن تقع البلاد فى القريب بين نارى الغزو الخارجى والشقاق الداخلى وافق على إلغاء الديون أو تخفيضها ، وعلى تعيين تربيونين(*) وثلاثة إيديلين Aediles يختارون من بين العامة للدفاع عن مصالحهم . ورجع العامة إلى رومة ولكنهم أقسموا قبل رجوعهم بأحرج الأيمان أن يقتلوا كل رجل يعتدى على ممثليهم فى الحكومة[٥] .

وكانت هذه هى المعركة الأولى فى حرب الطبقات التى لم تنته إلا بانتهاء عهد الجمهورية وبعد أن قضت عليها . وحدث فى عام ٤٨٦ أن اقترح القنصل

(*) التربيون محام عن العامة يختار من بينهم والإيديل موظف يشرف على المبانى العامة والألعاب والأسواق والشرطة .

أسپيوريوس كاسيوس Spurius Cassius أن توزع على الفقراء الأراضى التى استولت عليها رومة فى الحرب ، فاتهمه الأشراف بأنه يتحبب إلى الشعب ليكون ملكا على البلاد ، وقتلوه . والراجح أن هذا الاقتراح لم يكن أول الاقتراحات الزراعية الكثيرة التى لاقى أصحابها حتفهم على يد أعضاء مجلس الشيوخ ، والتى انتهت بمأساة ابنى جراكس Gracchi وقيصر. وفى عام ٤٣٩ وزع أسپيوريوس ميليوس Spurius Maelius قمحاً على الفقراء بأثمان مخفضة أو بغير ثمن فى أثناء قحط أصاب رومة ، فما كان من مجلس الشيوخ إلا أن بعث برسول اغتاله فى منزله بتهمة أنه يعمل لينصب نفسه ملكا(٦) . وفى عام ٣٨٤ قتل ماركس مانليوس Marcus Manlius ، وكان قد صد الغزاة اليونان عن رومة ودافع عنها دفاع الأبطال، بهذه الحجة نفسها ، وذلك بعد أن أنفق ماله فى أداء ديون المدينين العاجزين عن الوفاء .

وكانت الخطوة التالية التى خطاها العامة فى سبيل نيل حقوقهم أن طالبوا بأن تكون القوانين المدنية واضحة محددة مدونة . ذلك أن الكهنة والأشراف قد ظلوا حتى ذلك الوقت هم القائمين بتدوين القوانين المكتوبة وتفسيرها ، وكانوا يحتفظون بسجلاتها سراً لا يطلع عليه غيرهم من الأهلين ، ويتخذون من هذا الاحتكار ، وبما تتطلبه القوانين من مراسم ، أسلحة يقاومون بها كل دعوة إلى الإصلاح الاجتماعى . وعارض مجلس الشيوخ فى هذه المطالب الجديدة معارضة طويلة ، ولكنه وافق فى آخر الأمر (عام ٤٥٤) على أن يرسل إلى بلاد اليونان لجنة مؤلفة من ثلاثة من الأشراف لدراسة شرائع صولون Solon وغيره من المشترعين . وكتابة تقرير عنها . فلما عاد الأعضاء اختارت الجمعية (فى عام ٤٥١) عشرة رجال — دسمفراى Decemviri — لوضع قانون جديد ، وخولتهم أعلى سلطة حكومية فى رومة مدى سنتين . وكان رئيس هذه اللجنة رجلا رجعياً قوى الشكيمة يدعى أپيوس كلوديوس Appius Claudius ، وكانت نتيجة أعمالها

أن حولت قوانين رومة القديمة القائمة على العادة والعرف إلى الاثنتى عشرة لوحة الذائعة الصيت ، وعرضت على الجمعية فوافقت عليها بعد أن عدلتها بعض التعديل ، وعرضتها فى السوق العامة لمن يريد أن يقرأها — وكان قادراً على قراءتها . وكانت هذه الحادثة التى تبدو فى ظاهر أمرها تافهة غير جديرة بالعناية من الحوادث الهامة البالغة الأثر فى تاريخ رومة بوجه خاص وفى تاريخ العالم كله بوجه عام ؛ ذلك أنها كانت أول ما دون من ذلك الصرح القانونى العظيم الذى كان أهم ما قامت به رومة من الأعمال وما قدمته إلى الحضارة من هبات .

ولما انتهى العام الثانى من العامين اللذين تولت اللجنة فيهما السلطة العليا أبت أن تعيد الحكم إلى قنصل الأشراف وتريبيونى العامة ، وظلت تمارس السلطة العليا — وكانت سلطة أقل قيوداً من سلطة القنصل والتريبيون وأكثر منها تحرراً من التبعات . وتروى قصة أخرى نرتاب فى صحتها — ارتيابنا فى قصة لكريشيا — إن أبيوس كلوديوس شغف حباً بفرجينيا الحسناء إحدى بنات العامة ، وعمل على أن تعد من الجوارى الرقيقات ليتمكن بذلك من الاستيلاء عليها لنفسه ، وغضب لذلك أبوها لوسيوس فرجينيوس **Luciuis Virginus** واحتج على هذا العمل ، ولما أبى كلوديوس أن يصغى إلى احتجاجه قتل الرجل ابنته ، وهرول إلى فرقته واستعانها على خلع الطاغية الجديد . « وانسحب » العامة الغاضبون مرة أخرى إلى الجبل المقدس ، ونهجوا كما يقول ليفى « نهج آبائهم وحذوا حذوهم فى اعتدالهم ، فامتنعوا عن كل عنف[٧] » . وعلم الأشراف أن الجيش يناصر العامة ، فاجتمعوا فى دار مجلس الشيوخ ، وخلعوا العشرة الحكام ، ونفوا كلوديوس ، وأعادوا نظام القنصلين وزادوا سلطان التريبيونين ، واعترفوا بتحريم الاعتداء عليهما ، وأيدوا حق العامة فى الالتجاء إلى مجلس المائة لاستئناف ما يصدره كبار الموظفين أيا كانت منزلتهم من أحكام[٨] . وبعد أربعة أعوام من ذلك الوقت (٤٤٥) عرض المحامى كيوس كنيوليوس **Caius Canuleius** اقتراحاً يطالب فيه

أن يكون للعامة حق الزواج من الأشراف ، وأن يختار منهم قناصل . ورأى مجلس الشيوخ أن البلاد مهددة مرة أخرى بأن يغزوها جيرانها ليثأروا لأنفسهم منها ، فأجابوا أول المطلبين وتخلصوا من المطلب الثاني بأن رضوا أن يكون لستة من التريبونين الذين تختارهم جمعية المئة سلطة القناصل . ورد العامة على هذا الجميل بمثله فاختاروا الستة tribuni militum consulari Potestate من بين طبقة الأشراف .

وضمت الحرب الطويلة التي قامت بين رومة وفياى (٤٠٥ — ٣٩٦) ، وهجمات الغاليين عليها ، صفوف الأمة إلى حين ، فهدأت ثائرة النزاع الداخلي ، ولكن النصر والهزيمة على السواء تركا العامة فقراء معدمين ، فقد أهملت أراضيهم أو انتزعت منهم وهم يدافعون عن بلادهم ، وتراكمت عليهم فوائد الديون حتى لم يعد في وسعهم أن يوفوا بها . ولم يرجهم الدائنون أو يصغوا لشكاياتهم ، بل أصروا على طلب حقهم من رؤوس أموال وأرباح ، وإلا كان الإسترقاق والسجن جزاء المدينين . وفي عام ٣٧٦ اقترح التريبونان ليسنيوس Licinius وسكستيوس Sextius أن تخفض أصول الديون بقدر ما وفى به من فوائدها ، وأن يؤدى الباقي بعدئذ في خلال ثلاث سنين ، وألا يحق لإنسان فيما بعد أن يمتلك أكثر من خمسمائة يجيرا iugera (نحو ثلثمائة فدان) من الأرض ، وألا يتجاوز العبيد الذين يعملون فيها نسبة معينة من العمال الأحرار ، وأن يختار أحد القنصلين من العامة على الدوام . وظل الأشراف يعارضون في هذه المطالب عشر سنين ؛ وكانوا في أثناء ذلك على حد قول ديوكاسيوس Dio Cassius « يثيرون حرباً في إثر حرب حتى يشغلوا بذلك الشعب فلا يثير مطالبه الخاصة بامتلاك الأرض[٩] » . ولما تهددهم العامة آخر الأمر بانسحاب(*) جديد قبل

(*) كان عمل الرقيب في رومة هو حفظ السجلات المحتوية على أملاك المواطنين وفرض الضرائب عليهم ومراقبة أخلاقهم . وكان منصب البريتور يلي منصب القنصل في المرتبة .

مجلس الشيوخ « قوانين ليسنيوس » وخلد كمايلوس Camillus زعيم المحافظين هذا الاتفاق بين الطبقات بإنشاء هيكل وفاق فخم فى السوق العامة .

وكانت هذه الخطوة من أكبر الخطى فى نماء الدمقراطية الرومانية المقيدة ، وأخذ العامة من ذلك الوقت يتقدمون تقدماً سريعاً فى سبيل المساواة بالطبقتين الممتازتين — طبقتى الأشراف ورجال الأعمال — فى الشئون السياسية والقانونية . ففى عام ٣٥٦ عين أحد العامة دكتاتوراً مدة عام ، وفى عام ٣٥١ كان منهم رقباء Censors ، وفى عام ٣٣٧ كان منهم البريتور Praetor ، وفى عام ٣٠٠ كان منهم كهنة . وكانت آخر هـذه الخطوات أن وافق مجلس الشيوخ فى عام ٢٨٧ على أن تكون لأحكام الجمعية القبلية The Tribal Assembly أيضاً قوة القانون ، وإن تعارضت هذه الأحكام مع قرارات مجلس الشيوخ وإذا كان من السهل على العامة فى هذه الجمعية أن يتفوقوا على الأشراف عند الاقتراع فإن هذا القانون المعروف بقانون هورتنسيا Lex Hortensia كان خاتمة انتصار الدمقراطية الرومانية .

لكن مجلس الشيوخ لم يلبث أن استعاد سلطانه بعد هذه الهزائم فأسكت المطالبون بتوزيع الأراضى بإرسال الرومان لاستعمار البلاد المفتوحة . وكان ما يلزم من المال للحصول على المناصب الحكومية والبقاء فيها — وكانت هذه المناصب لا يؤجر عليها أصحابها — فى حد ذاته حائلا بين الفقراء وبين توليها . يضاف إلى هذا أن الأثرياء من العامة ، بعد أن أصبح لهم ما للأشراف من سلطان سياسى وفرص متكافئة ، لم يلبثوا أن انضموا إلى الأشراف فى معارضة التشريعات المتطرفة ؛ واستكان الفقراء من العامة الذين أصبحوا لا موارد لهم فظلوا قرنين كاملين وليس لهم حظ كبير فى تصريف شئون رومة . ووافق رجال الأعمال على سياسة الأشراف لأن اتفاقهم معهم يتيح لهم فرص التعاقد على القيام بالمنشآت العامة ، ويفتح لهم أبواب استغلال الولايات ، والمستعمرات الرومانية ، وتكليفهم بجباية الضرائب للدولة . وظلت جمعية المئات ، التى كانت طريقة الاقتراع

فيها تمكن الأشراف من أن يكون لهم فيها السلطان الأكبر ، هي التي تختار الحكام وكبار الموظفين ، وتختار تبعاً لذلك أعضاء مجلس الشيوخ . واتخذ التريبيونون ، الذين كانوا يعتمدون على الأثرياء من العامة ، سلطان وظيفتهم للحد من التطرف ، وأصبح كل قنصل ، ولو كان ممن يختارهم العامة ، من أشد الناس محافظة على القديم ، حين يصير عضواً في مجلس الشيوخ مدى الحياة بعد أن تنتهي سنة توليه منصبه . وصار مجلس الشيوخ هو الذي يبدأ باقتراح القوانين ، وقوى العرف والعادات المأثورة من سلطانه فجعلاه فوق منطوق القانون . ولما ازدادت أهمية شئون الدولة الخارجية ، وكان مجلس الشيوخ هو الذي يتولى تصريفها ، كان حزمه مما زاد في مكانته وسلطته . ولما أن اشتبكت رومة في عام ٢٦٤ في حرب مع قرطاجنة دامت مائة عام للسيطرة على عالم البحر الأبيض المتوسط ، كان مجلس الشوخ هو الذي تولى قيادة الأمة إلى النصر في كل مأزق من المآزق ، ولذلك خضع الشعب البائس المعرض للأخطار لسلطان هذا المجلس وزعامته دون احتجاج أو اعتراض .

الفصل الثانى
دستور الجمهورية

١ — المشترعون

والآن فلنرسم لأنفسنا صورة من هذه الدولة المعقدة النظام بعد أن قضت خمسة قرون تنمو وتتطور . وقبل أن نفصل القول فى نظامها نقول إن العالم كله مجمع على أن حكومتها كانت من أقدر ما شهده من الحكومات ومن أعظمها نجاحا ؛ بل إن پوليبيوس Pollibius كان يرى أنها تكاد أن تحقق تحقيقاً تاماً دستور أرسطوطاليس المثالى ؛ وقد رسمت هذه الحكومة الخطوط الرئيسية للتاريخ الرومانى كما رسمت فى بعض الأحيان ميادين القتال فى هذا التاريخ .

ترى أى الأهلين فى هذه الدولة هم الذين كان يحق لهم أن يسموا أنفسهم « مواطنين » ؟ . فأما من الوجهة الرسمية القانونية فقد كان المواطنون هم أبناء إحدى القبائل الثلاث الأصلية فى رومة ، أو الذين تبنتهم إحدى هذه القبائل . وكان معنى هذا القول من الوجهة العملية أن المواطنين هم جميع الذكور الذين تزيد سنهم على الخامسة عشرة ، والذين لم يكونوا أرقاء أو غرباء ، مضافاً إليهم جميع الغرباء الذين منحتهم رومة حق المواطنة فيها . ولم يشهد العالم قبل رومة أو بعدها دولة من الدول حرصت مثل حرصها على حق المواطنية أو قدرته مثل تقديرها . لقد كان معنى هذا الحق أن يكون المستمتع به عضواً من أعضاء الجماعة الصغيرة التى لم تلبث إلا قليلا حتى حكمت جميع البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط ، وكان هذا الحق يحصن صاحبه من التعذيب القانونى ، والتعرض للقصر والإرغام ، ويمكنه

من أن يشكو أى موظف فى الإمبراطورية إلى الجمعية الوطنية فى رومة — أو إلى الإمبراطور نفسه فيما بعد .

وكانت هذه الحقوق تستلزم بعض الواجبات ؛ فقد كان من حق الدولة على المواطن — إلا إذا كان فقيراً معدماً — أن تدعوه إلى الخدمة العسكرية من سن السادسة عشرة إلى سن الستين ، ولم يكن فى وسعه أن يشغل منصباً سياسياً إلا إذا قضى فى الجيش عشر سنين . وكانت حقوقه السياسية وثيقة الارتباط بواجباته العسكرية ، وبلغ من هذا الارتباط أنه كان يؤدى حقه فى التصويت فى أهم الأمور بوصفه عضواً فى فرقته أو فى « مائته » ، وكان فى عهد الملوك يعطى صوته أيضاً فى مجلس العشرة **Comitia Curiata** أى أنه هو وغيره من زعماء الأسر قد اجتمعوا فى مجلس الأقسام الثلاثين التى انقسمت إليها القبائل الثلاث . وقد ظل مجلس العشرة إلى آخر أيام الجمهورية هو الذى يخلع سلطة الحكم على الحكام ، وبعد سقوط الملكية بزمن قليل فقد مجلس العشرة سائر حقوقه الأخرى وآلت هذه الحقوق إلى مجلس المئين — فكان الجند يجتمعون جماعات تتألف كل واحدة منها فى بادئ الأمر من مائة جندى . وكانت هذه المجالس المئوية هى التى تختار كبار الحكام ، وتنظر فى الإجراءات التى يعرضها عليها الموظفون أو مجلس الشيوخ فتجيزها أو ترفضها ، وتنظر فيما يرفع إليها من استئناف الأحكام التى يصدرها كبار الحكام ، وتنظر بنفسها فى جميع القضايا التى يحكم فيها بالإعدام إذا كان المتهمون فيها مواطنين رومان ، وتعلن الحرب وتعقد الصلح ، ومن ثم كانت هذه الجمعية هى الأساس العام للجيش الرومانى والحكومة الرومانية . ولكن سلطانها مع ذلك كان محصوراً فى أضيق الحدود ، فلم يكن من حقها أن تجتمع إلا إذا دعاها إلى الاجتماع قنصل أو تربيون ، ولم يكن من حقها أن تقترع إلا على الأمور التى يعرضها عليها كبار الحكام أو مجلس الشيوخ ، ولم يكن لها أن تناقش الاقتراحات أو تعدلها ، وكل ما كان من حقها أن تقبلها أو ترفضها .

وكان تنظيم أعضائها على أساس الطبقات ضماناً قوياً لجعل قراراتها محافظة بعيدة عن التطرف . فكان على رأس هذه الجمعية ثمان عشرة مائة من الأشراف ورجال الأعمال (الطبقتين الممتازتين) . ويلي هؤلاء رجال « الطبقة الأولى » — الذين لهم أملاك تبلغ قيمتها ١٠٠,٠٠٠ آس(*) . وكان عدد ممثلي هذه الطبقات في الجمعية ثمانين مائة أي ثمانية آلاف رجل ، وكانت الطبقة الثانية تشمل المواطنين الذي تقدر أملاكهم بين ٧٥,٠٠٠ و ١٠٠,٠٠٠ آس ، والطبقة الثالثة تشمل من كان لهم ثروة تقدر بين ٥٠,٠٠٠ وكان لكل طبقة من هـــذه الطبقات عشرون مائة . وكانت الطبقة الخامسة تشمل المواطنين الذين يملكون بين ١١,٠٠٠ و ٢٥,٠٠ آس وكان لهؤلاء ثلاثون مائة . أما المواطنون الذين تقل أملاكهم عن ١١,٠٠٠ آس فكانت تمثلهم مائة واحدة[١٠] ، وكان لكل مائة عند الاقتراع صوت واحد هو صوت أغلبية أعضائها ؛ وكان في وسع أغلبية قليلة في إحدى المئات أن تعطل قرار أغلبية كبرى في مائة أخرى وتجعل الفوز في جانب أقلية عددية . وإذا كانت كل مائة تقترع بترتيب مركزها المالي ، وكانت نتيجة اقتراعها تعلن عقب هذا الاقتراع ، فقد كان اتفاق الطائفتين الأوليين يجعل لها ٩٨ صوتاً ، وهي أغلبية أصوات الجمعية كلها . ومن أجل هذا فإن الطبقات الدنيا قلما كانت تقترع قط . وكان نظام الاقتراع هو النظام المباشر أي أن المواطن كان يعطي صوته بنفسه ، ومن ثم فإن المواطنين الذين لم يكونوا يستطيعون القدوم إلى رومة ليحضروا اجتماع الجمعية لم يكن لهم من يمثلهم فيها . ولم يكن ذلك كله مجرد أساليب وحيل لحرمان الفلاحين والسوقة من حقوقهم السياسية ، فقد كان نظام المئات نظاماً وضع بعد إحصاء السكان ليقدر على أساسه ما يؤدونه من الضرائب ومن الخدمة العسكرية .

(*) الآس عملة رومانية من النحاس كانت قوة شرائها في عام ١٩٤٢ تساوي نحو $\frac{1}{2}$ من الريال الأمريكي . انظر الفصل السادس من الباب الرابع من هذا الكتاب .

وكان الرومان يرون العدل كل العدل أن يكون حق الاقتراع للأهلين متناسبا مع ما يؤدونه من الضرائب وما يطلب إليهم أداؤه من الخدمة العسكرية ، وعلى هذا الأساس لم يكن لمن يملكون أقل من مائة ألف آس إلا صوت مئوى واحد ، ولكنهم فى نظير هذا لم يكونوا يؤدون إلا قدراً ضئيلا لا يؤبه له من الضرائب ، وكانوا فى الأوقات العادية معفين من الخدمة العسكرية[11] . وقد ظلت الطبقات الفقيرة إلى أيام ماريوس معفاة من كل شىء إلا من إنتاج أكبر عدد تستطيعه من الأبناء ، وظل مجلس المائة رغم ما أدخل على نظامه من التعديل فيما بعد هيئة أرستقراطية محافظة لا تستنكف أن تجهر بمبادئها .

وما من شك فى أن هذه الحال قد جعلت العامة يقيمون لهم من بداية عهد الجمهورية مجالسهم الخاصة المعروفة **بمجالس العامة** **concilia plebis** . ولعل الجمعية المعروفة **بمجلس قبائل الشعب** **omitia populi tribvta** التى نراها تمارس حقوقا تشريعية منذ عام ٣٥٧ ق . م قد نشأت من هذه المجالس نفسها ، وكان المقترعون فى هذه الجمعية الشعبية القبلية ينظمون حسب القبيلة التى ينتمون إليها والمسكن الذى يقيمون فيه على أساس الإحصاء الذى حدث فى عهد سرفيوس سادس ملوك رومة ، وكان لكل قبيلة صوت واحد ، وكان الأغنياء فيها والفقراء سواء . وأخذت سلطة الجمعية القبلية تزداد بعد اعتراف مجلس الشيوخ بحقوقها التشريعية فى عام ٢٨٧ ق . م ، وما وافى عام ٢٠٠ ق . م حتى كانت هى مصدر الشرائع الخاصة فى رومة . وكانت هى التى تختار تريبونى الشعب **Tribuni Plebis** (الذين يمثلون القبائل) وهم غير التريبونين العسكريين **Tribuni militares** الذين كانت تختارهم المئات . على أنه فى هذه الجمعية نفسها لم يكن الأعضاء يناقشون . فقد كان أحد كبار الموظفين يقترح قانوناً ويدافع عنه ، ثم يقوم موظف كبير غيره يعارضه إذا شاء ، وتستمع الجمعية لهذا وذاك ثم تقترع عليه بالقبول

أو الرفض وكانت هذه الجمعية بحكم تكوينها ذات نزعة تقدمية أكثر من الجمعية المئوية ، ولكنها كانت أبعد ما تكون عن التطرف ؛ وذلك أن إحدى وثلاثين قبيلة من قبائلها الخمس والثلاثين كانت قبائل ريفية ، وكان معظم أعضائها من ملاك الأراضى ، فكانوا لذلك رجالا حذرين ، ولم يكن لمن فيها من عامة الحواضر ، ولم يكونوا يتجاوزون أربع قبائل ، وشيء من السلطة السياسية قبل زمن ماريوس Marius أو بعد قيصر .

وهكذا ظل مجلس الشيوخ صاحب السلطان الأعلى فى رومة . وكان أعضاؤه الأولون وهم رؤساء العشائر يجددون بقبول القناصل والرقباء (Censors) السابقين أعضاء فيه . وكان يعهد إلى الرقباء أن يعملوا حتى يظل أعضاؤه ثلثمائة عضو على الدوام ، وذلك بأن يرشحوا لعضويته رجالا من طبقة الأعيان أو الفرسان . وكانت العضوية فيه تدوم مدى الحياة ؛ ولكن كان من حق مجلس الشيوخ ومن حق الرقيب أن يفصل أى عضو يضبط متلبساً بجناية أو بجريمة خلقية خطيرة . وكان هذا المجلس الأعلى يجتمع إذا دعاه إلى الاجتماع أحد كبار الحكام فى الكوريا Curia أو بناء المجلس المواجه للسوق العامة . وكان من العادات اللطيفة أن يأتى الأعضاء معهم بأبنائهم ليحضروا الاجتماع وهم صامتون ، ليتعلموا السياسة والمحاكة عن قرب . وكان حق المجلس من الوجهة النظرية مقصورا على مناقشة ما يعرضه عليه أحد كبار الحكام من المسائل وإصدار قرار فيها ، وكانت قراراته فى هذه المسائل استشارية محضة senatus consulta ليس لها قوة القانون ، ولكن المجلس كان له من عظم المكانة ما جعل الحكام يعملون بتوصياته فى جميع الحالات تقريباً ، وقلما كانوا يعرضون على غيره من الجمعيات مسائل لم يقرها هو من قبل ؛ على أنه كان من حق أى تربيون أن ينقض قرارات المجلس كما كان من حق الأقلية المنهزمة فى المجلس أن تستأنف القرار إلى الجمعيات الأخرى[١٣] . ولكن هذه الإجراءات كانت نادرة الحدوث إلا فى أيام الثورات والانقلابات .

ولم يكن كبار الحكام يبقون فى مناصبهم أكثر من عام واحد فى حين أن الشيوخ كانوا يحتفظون بعضوية المجلس مدى الحياة . ولم يكن ثمة مفر من أن يكون صاحب هذا السلطان الخالد المسيطر على صاحب السلطان القصير الأجل . ولهذا كانت الصلات الخارجية ، وعقد المحالفات والمعاهدات ، وإعلان الحرب ، وحكم المستعمرات والولايات ، وإدارة الأراضى العامة وتوزيعها بين الأهلين ، والإشراف على أموال الخزانة العامة وإنفاقها — كانت هذه الشئون كلها يختص بها مجلس الشيوخ وحده ، وقد أكسبه انفراده بها سلطة لا تكاد تعرف لها حدود . فكان هذا المجلس صاحب السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية مجتمعة ، وكان هو الحكم الفصل فى الجرائم الكبرى كجريمة الخيانة الوطنية ، والتآمر والاغتيال ، وكان يختار من بين أعضائه قضاة للنظر فى معظم القضايا المدنية الهامة ، وكان فى وسعه إذا حدثت أزمة من الأزمات أن يصدر أعظم قراراته وأقواها وهو sensatus-consultum ultimatum وهو « أن من واجب القنصلين أن يعملا على ألا تصاب الدولة بأذى » وهو قرار يفرض الأحكام العرفية ويمنح القنصلين سلطة مطلقة على جميع الأفراد وعلى كل الأملاك .

وكثيراً ما كان مجلس الشيوخ فى عهد الجمهورية يسىء استعمال سلطانه ، فكان يحمى الموظفين المرتشين(*) ، ويعلن الحرب بلا تدبر وتفكير ، ويستغل البلاد المفتوحة استغلالا شرها ، ويقمع بالقسوة رغبة الشعب فى أن يشترك بنصيب أوفر مما كان له فى رخاء رومة . ولكن تاريخ العالم لم يشهد فى غير رومة وفى غير عهـــد الجمهورية — إذا استثنينا من هذا التعميم عهد الأباطرة من ترجان Trajan إلى أورليوس Aurilius — ما شهده فى هذا العهد من نشـــاط وحكمة ومهارة فى

(*) لقد كان الرومان يطلقون اللفظ اللاتينى المقابل للفظ جمهورية Respublica ومعناه الملك العام على أشكال دولتهم الثلاثة — الملكية و « الدمقراطية » ، والإمارة ؛ ولكن المؤرخين فى هذه الأيام قد اتفقوا على أن لا يطلقوا هذا اللفظ إلا على الفترة المحصورة بين عامى ٥٠٨ ، ٤٩ ق . م .

تصريف الشئون السياسية ، كما لم يشهد فى غير ذلك العهد ما شهده فيه من سيطرة فكرة خدمة الدولة على جميع أعمال الحكومة وأعمال الشعب

ولسنا ننكر أن الشيوخ لم يكونوا ملائكة معصومين من الزلل ، وأنهم كانوا يرتكبون أخطاء خطيرة ، وأنهم كانوا فى بعض الأحيان متقلبين لا يثبتون على سياسة واحدة ، يعميهم حب الكسب عن رؤية مصالح الدولة . ولكن الذى لا شك فيه أن معظم أعضاء هذا المجلس كانوا من كبار الحكام ، والمديرين والقواد العسكريين ، وكان منهم الولاة الذين حكموا ولايات لا تقل سعة عن الممالك ، ومنهم أبناء أسر ظلت مئات الأعوام تنجب لرومة ساسة وقواداً . ولهذا كان من المستحيل ألا يخلو مجلس فيه رجال من هذا الطراز من قسط غير قليل من السمو والعظمة ، وكان مجلس الشيوخ فى أسوأ حالاته فى أيام الانتصار وفى أحسنها أيام الهزيمة . وكان فى وسعه أن يسير على سياسة واحدة مدى آجال وقرون كثيرة ، كما كان فى مقدوره أن يبدأ حرباً فى عام ٢٦٤ ق . م لا تضع أوزارها إلا فى عام ١٤٦ ق . م . وحسبنا دليلا على عظمته أنه لما جاء الفيلسوف سينياس Cineas إلى رومة موفداً من قبل پيرس Pyrrhus (عام ٢٨٠ ق . م) وسمع مناقشات المجلس ورأى رجاله ثم عاد إلى بلاده ، قال للإسكندر الجديد إن الذى رآه لم يكن مجرد اجتماع من ساسة مأجورين ولم يكن مجلساً من عقول عادية جمعتها المصادفات المحضة ، بل كان فى مهابته وحسن سياسته « مجمعاً للملوك بحق[١٣] » .

٣ — الحكام

وكان كبار الحكام تختارهم الجمعية المئوية ، أما صغارهم فكانت تختارهم الجمعية القبلية . وكان يعين فى كل منصب زميلان متساويان فى السلطة ، ولا يبقيان فيه أكثر من عام واحد ما عدا منصب الرقيب . ولم يكن يجوز لشخص ما أن يتولى المنصب نفسه أكثر من مرة واحدة كل عشر سنين ، وكان لا بد

أن يمضى عام بين خروجه من منصب وتوليه منصباً آخر ، وكان من حق الدولة أن تحاكمه فى فترة تعطله إذا أساء استعمال سلطة وظيفته . وكان الرومانى الذى يريد أن يشق لنفسه طريقاً فى الحياة السياسية ، إذا كان قد قضى فى الجيش عشر سنين ، يرشح نفسه لأن يختار محاسبا (كوستُرا quasstor) ينظر تحت إشراف مجلس الشيوخ والقنصلين فى نفقات الدولة ، ويعاون المقدمين praetors فى منع الجرائم ومحاكمة المجرمين ، فإذا نال رضاء الناخبين أو ذوى النفوذ من مؤيديه فقد يختار فيما بعد واحداً من الأربعة الإيدليين الذين كانوا يشرفون على المبانى العامة وقنوات مياه الشرب ، وشوارع المدن ، والأسواق ، والمسارح ، والمواخير ، والأسهاء العامة ، ومحاكم الشرطة ، والألعاب العامة . وإذا اطرد بعدئذ نجاحه فقد يكون واحداً من الأربعة المقدمين الذين كانوا يتولون فى الحرب قيادة الجيوش ويشغلون فى السلم مناصب القضاة وشراح القانون(*) .

فإذا وصل المواطن إلى هذه الدرجة فى سلم الوظائف cursus honorum واشتهر بالأمانة وأصالة الرأى كان فى وسعه أن يكون أحد الرقيبين censors اللذين تختارهما الجمعية المئوية كل خمس سنين ، ويتولى أحدهما الإحصاء الدَّورى للسكان ، وهو الإحصاء الذى كان يُعمل كل خمس سنين ، ويسجل أملاكهم ليقدر بذلك مكانتهم السياسية والعسكرية ، وما يجب أن يؤدوه من الضرائب ؛ وكان من واجبات الرقيب أن يتعرف أخلاق كل طالب منصب ، ويفحص عن سجل أعماله ، ويعمل على صيانة أعراض النساء ، ويشرف على تعليم الأطفال ومعاملة الأرقاء وجباية الضرائب أو التزامها ، وإقامة المبانى العامة ، وتأجير أملاك

(*) والكلمة اللاتينية المقابلة للمحاسبين Quaestor مشتقة من Quaerer ومعناها يؤدى أما الكلمة المقابلة للمفتشين Aediles فهى مشتقة من Aedes ومعناها البناء . أما praetor (المقدم) فمأخوذة من prae-ire ومعناها يتقدم أو يقود ومن أجل ذلك كانت الفرقة العسكرية التى تتولى حراسته تسمى « حرس المقدم praetorian Guard »

الحكومة والتعاقد عليها ، والتأكد من العناية بزراعة الأرض . وكان فى مقدور الرقيبين أن ينقصا منزلة أى مواطن ، أو يخرجا أى عضو من مجلس الشيوخ لسوء أخلاقه أو لارتكابه جريمة . ولم يكن فى وسع أى الرقيبين أن يلغى حق الرقيب الآخر فى هذه الناحية . وكان فى وسعهما أن يمنعا الإسراف بفرض ضرائب على الكماليات . وكانا يعدان ميزانية نفقات الدولة على أساس مشروعات تمتد إلى خمس سنوات ، وكانا عند انتهاء الفترة التى يتوليان فيها منصبهما ، ومدتها ثمانية عشر شهراً ، يجمعان المواطنين فى احتفال مهيب يدعى احتفال التطهير القومى Lustrum يتخذانه وسيلة للاحتفاظ بالعلاقات الودية بينهم وبين الآلهة . وكان أپيوس كلوديوس كيكس Appius Claudius Caecns (الأعمى) ابن حفيد أحد الرجال العشرة أول من جعل لمنصب الرقيب منزلة لا تقل عن منزلة القنصل ، وهو الذى شاد إبان توليه هذا المنصب المجرى المائى والطريقين المعروفين بمجرى أپيوس وطريقه ، ورقى الأغنياء من العامة أعضاء فى مجلس الشيوخ ، وأصلح القوانين الزراعية ومالية الدولة ، وعمل على إضعاف ما كان يتمتع به الكهنة والأعيان من احتكار حق وضع القوانين وتصريف الشئون القضائية ، وترك له أثراً خالداً فى النحو والشعر الرومانيين والبلاغة الرومانية ، ووجه الرومان إلى فتح جميع إيطاليا بخطابه الذى ألقاه وهو على فراش الموت .

ولقد كان المفروض من الوجهة النظرية أن يكون أحد القنصلين من العامة . أما من الوجهة العملية فإنه لم يختر من العامة إلا عدد قليل جداً من القناصل ، وذلك لأنهم كانوا يؤثرون على أنفسهم رجالا أوتوا حظاً موفوراً من التعليم والمران ليعالجوا كل الشئون التنفيذية فى جميع البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط فى حالتى الحرب والسلم . وكان الموظف الكبير الذى يشرف على اختيار القنصل — إذا ما حان موعد الاختيار — يرقب النجوم ليعرف مَن مِن المرشحين الكثيرين يحسن أن يعرض اسمه

ليختار لهذا المنصب ؛ فإذا عرف هذا رأس اجتماع الجمعية المئوية فى اليوم التالى ، ولم يعرض عليها إلا أسماء الذين تبين من نظرته فى النجوم أنهم صالحون(١٤) . وبهذه الطريقة كان الأعيان يحولون بين الحديثى النعمة والزعماء المهرجين وبين تسنم هذا المنصب الرفيع ، وكانت الجمعية فى معظم الحالات تلتزم هذا الخداع الصالح حتى لا تقع فى الزلل ، أو لأنها ، لا تجرؤ على مخالفة الأوامر الصادرة إليها . وكان المرشح يحضر الاجتماع بنفسه مرتدياً ثوب الترشيح ، وهو ثوب أبيض بسيط ، علامة على بساطة حياته وخلقه ؛ ولعله كان يختار ليسهل على المرشح أن يظهر للأعضاء ندب الجروح التى أصيب بها فى ميادين القتال . فإذا نجح تولى منصبه فى اليوم الخامس عشر من شهر مارس التالى ليوم الانتخاب . وكان القنصل يخلع القداسة على منصبه بتوليه رياسة الطقوس الدينية الخطيرة . وكان فى وقت السلم يدعو مجلس الشيوخ والجمعية المئوية إلى الانعقاد ، ويرأس جلساتهما ، ويقترح القوانين وينفذها ، ويوزع العدالة بين الناس . وكان فى أوقات الحرب يجيش الجيوش ، ويجمع ما يلزمها من الأموال ، ويشترك مع زميله القنصل الثانى فى قيادة الفيالق العسكرية ؛ فإذا مات القنصلان كلاهما أو وقعا فى الأسر أثناء السنة التى يتوليان فيها عملهما أعلن مجلس الشيوخ قيام فترة خلو المنصبين Interregnum ، وعين من يتولى تصريف الأمور Interrex (ملك فترة) مدة خمسة أيام تتخذ العدة فى أثنائها لانتخاب جديد . ويدل هذا اللفظ الأخير على أن القنصلين قد ورثا فى مدة عملهما القصيرة سلطات الملوك .

وكانت سلطة القنصل تحددها سلطة زميله القنصل الثانى المساوية لسلطته ، وما يفرضه عليه مجلس الشيوخ ، وبما كان للتربيون من حق الاعتراض على قراراته . وقد اختير فى عام ٣٦٧ ق . م أربعة عشر تربيوناً عسكرياً لقيادة القبائل فى الحرب وعشرة « تربيونين من العامة » يمثلونهم فى أوقات السلم ، وكان هؤلاء جميعاً يعدون أشخاصاً محصنين إذا مسهم أحد بسوء إلا فى عهد الدكتاتورية القانونية عد ذلك خروجا على الدين وجريمة يعاقب مرتكبها

بالإعدام . وكان عملهم أن يحموا الشعب من عدوان الحكومة ، وأن يقفوا بكلمة واحدة منهم هى كلمة ڤيتو Veto ومعناها « أحَرِّم » كل دولاب الحكومة إذا بدا لأحدهم أن هذا التحريم مرغوب فيه . وكان من حق التربيون أن يحضر اجتماع مجلس الشيوخ بوصفه مشاهداً صامتاً ، وأن ينقل للشعب ما يدور فيه من النقاش ، وأن يجرد بما له من حق الاعتراض قرارات المجلس من كل ما لها من قوة قانونية : وكان باب بيته المحصن يظل مفتوحا ليلا ونهاراً يلجأ إليه كل مواطن يطلب إليه المعونة أو الحماية . وهذا الحق — حق الحماية أو القداسة — شبيه بحق الحصانة habeas coapus الذى يمنحه القانون الإنجليزى لسكان إنجلترا فى هذه الأيام . وكان فى وسعه وهو جالس على دكته أن يصدر أحكاماً قضائية لا معقب لها ، ولا تستأنف إلا لجمعية القبائل وكان من واجبه أن يضمن لكل متهم محاكمة عادلة ، وأن يحصل على عفو للمحكوم عليه إذا كان ذلك فى استطاعته .

تُرى كيف استطاع الأشراف أن يحتفظوا بسلطانهم وتفوقهم على العامة رغم هذه القيود التى فرضت عليهم ؟ لقد كان أول أسباب هذا الاحتفاظ أن القيود المفروضة عليهم كانت مقصورة على مدينة رومة نفسها وعلى أوقات السلم وحدها ، أما فى زمن الحرب فقد كان التربيونون خاضعين للقناصل . والسبب الثانى أن الأشراف كانوا يحملون الجمعية القبلية على اختيار التربيونين من بين أغنياء العامة ؛ وكان ما للثروة فى رومة من منزلة ، وما يصحب الفقر من ضعة ، يغريان الفقراء باختيار الأغنياء لحمايتهم والدفاع عنهم . وثالث الأسباب أن زيادة عدد التربيونين من أربعة إلى عشرة قد جعل فى مقدور الواحد منهم ، إن أمكن إغراؤه بالمال أو استمع لصوت العقل ، أن يُلغى بما له من حق الاعتراض قرار التربيونين الباقين[١٥] . وقد سلس قيادهم على مر الزمن حتى أصبح فى الإمكان أن تعهد إليهم دعوة مجلس الشيوخ إلى الاجتماع وأن يسمح لهم بالاشتراك فى

مناقشاته ، وأن يصبحوا أعضاء فيه مدى الحياة بعد أن تنتهى مدة بقائهم فى مناصبهم .

وإذا لم تفلح هذه الوسائل كلها فى إضعاف سلطان التربيون كانت هناك وسيلة أخرى لوقاية النظام الاجتماعى أعظم منها أثراً . ذلك أن الرومان كانوا يعتقدون أن جميع ما يتمتعون به من الحريات والامتيازات الاجتماعية ، وكل ما وضعوه لحماية أنفسهم من قيود وتوازن بين السلطات ، كانوا يعتقدون أن هذا كله قد يعوق فى إبان الاضطراب والخطر القومى ما يتطلبه إنقاذ الدولة وحمايتها من عمل سريع موحد . وكان من حق مجلس الشيوخ فى هذه الحال أن يعلن قيام حالة الطوارئ ، كما كان من حق كل من القنصلين أن يرشّح حاكما مطلقاً يتولى جميع السلطات . وقد اختير أولئك الحكام المطلقون فى جميع الحالات إلا حالة واحدة من طبقة الأشراف ، ولكن من واجبنا أن نقول إنصافاً لهذه الطبقة إنها قلما كانت تسىء استخدام هذا المنصب ؛ وكان للحاكم المطلق سلطة تكاد أن تكون غير محدودة على جميع الأشخاص والأملاك ، ولكنه لم يكن من حقه أن يستخدم الأموال العامة إلا بموافقة مجلس الشيوخ . وكانت مدة ولايته الحكم مقصورة على ستة أشهر أو سنة . وقد تقيد الحكام المطلقون جميعهم ، ما عدا اثنين منهم ، بهذه القيود متبعين فى ذلك السنة الحسنة التى سنها لهم سنسناتس Cincinnatus كما تقول الرواية المأثورة ، فقد دعى هذا الرجل من وراء المحراث لينقذ الدولة (عام ٤٥٦ ق . م) ، فلما أدى مهمته عاد من فوره إلى مزرعته ولما أن خرج صلا Sulla وقيصر على هذه السنة عاد الحكم الجمهورى إلى الملكية التى نشأ منها .

٣ — بداية القانون الروماني

وكان كبار الحكام يهيمنون على توزيع العدالة فى نطاق هذا الدستور الفذ تطبيقاً للألواح الاثنى عشر التى سجلتها فيها لجنة العشرة ؛ ولقد كان تسجيل القانون الرومانى فى هذه الألواح حادثاً هاماً فى التاريخ الرومانى ؛ وكان القانون الرومانى قبل هذا التسجيل خايطاً من العادات القبلية ، والمراسيم الملكية ، والأوامر الكهنوتية ؛ وبقيت أساليب القدماء — Mos Maiorum — إلى آخر أيام رومة الوثنية القدوة الخلقية الصالحة ، والمعين الذى تستمد منه القوانين ؛ ومع أن الخيال ، والرغبة فى الإصلاح والتهذيب ، قد أعليا من شأن سكان المدن القساة فى عهد الجمهورية الأول ، وجعلا منهم مثلا أعلى يطلبون إلى المواطنين أن يعملوا للوصول إليه ، فإن القصص التى كانت تروى عن أخلاق أولئك السكان قد أعانت المربين على غرس فضيلتى الصبر وقوة الاحتمال فى أخلاق الشباب فى رومة . أما فيما عدا هذا فإن القانون الرومانى القديم كان مستمداً من القواعد والعادات الكهنوتية ، فكان بذلك فرعاً من الدين ، يغمره جو من الطقوس الرهيبة والحدود المقدسة ؛ وكان هذا القانون أوامر تصدر وعدالة تطبق ؛ ولم يكن يحدد العلاقة بين الناس بعضهم بعضاً فحسب ، بل كان يحدد فوق ذلك العلاقة بين الآلهة والناس . وكانت الجريمة سبباً فى اضطراب هذه العلاقة ، وفى تعكير صفو سلام الآلهة ؛ وكان الغرض من القانون ومن العقاب من الوجهة النظرية هو الاحتفاظ بهذه العلاقة أو إعادتها هى والسلام إذا اضطربا وتعكر صفوهما ؛ وكان الكهنة هم الذين يعلنون ما هو حق وما هو باطل fas et nefas ، ويقررون فى أى الأيام تفتتح المحاكم وتعقد المجالس . وكانت كل المسائل المتعلقة بالزواج والطلاق ، والعزوبة والزواج بالأقارب . والوصايا ونقل الملكية ، وما للأطفال من حقوق ، كانت كل هذه المسائل لا بد من عرضها على الكهنة كما لا بد من

عرض الكثير منها على المحامين فى هذه الأيام ، وكان الكهنة وحدهم الذين يعرفون القوانين والسنن التى لا يكاد يستطاع عمل شيء مشروع إلا باتباعها . وكانوا فى رومة هم المستشارين القانونيين ، وكانوا هم أول من يبدى الرأى القانونى responsa فى مهام الأمور . وكانت القوانين تسجل فى كتبهم ، وكانوا يحتفظون بهذه الكتب بعيدة عن متناول العامة ، وبلغ من حرصهم عليها أن اتهموا فى بعض الأحيان بتغيير نصوص القوانين لكى تتفق مع أغراض الأشراف أو رجال الدين . ولقد أحدثت الألواح الاثنا عشر انقلاباً قضائياً مزدوجاً ، ذلك أنها أذاعت القانون الرومانى ونشرته وأنها صبغته بالصبغة الدنيوية غير الدينية . وتمثل هذه الألواح — كما تمثل غيرها من كتب القانون التى دونت فى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد كقوانين كارنداس Charondas ، وزليكس Zalcucus ، ليقورغ Lycurgus ، وصولون Solon — مرحلة انتقال من العادات غير الثابتة غير المكتوبة إلى مرحلة القانون المحدد المدون ، وكان هذا العمل نتيجة انتشار القراءة والكتابة بين الناس وتمكن الروح الدمقراطية فيهم ؛ يضاف إلى هذا أن « قانون المواطنين » ius civile « كما هو مدون فى الألواح الاثنى عشر ، قد تحرر من الصبغة الدينية أو « القانون الدينى » ius divinum كما يقول الرومان أنفسهم ، وكأن رومة بعملها هذا قد استقر رأيها على ألا تكون دولة كهنوتية ؛ وضعف سلطان الكهنة فوق هذا الضعف وحرموا من احتكارهم تفسير القوانين وتنفيذها حين نشر أمين سر أپيوس كلوديوس Appius Claudius « الأعمى » فى عام ٣٠٤ تقويماً يشتمل على أيام اجتماع المحاكم يعرف « بأيام الأقوال dies fasti » ، ومرسوماً بما يجب اتباعه من الإجراءات القضائية ، ولم يكن يعرف هذه وتلك من غير الكهنة إلا عدد جد قليل . وخطا الرومان خطوة أخرى فى صبغ القانون بالصبغة الدنيوية حين بدأ كرنكانيوس Coruncanius فى عام ٢٨٠ ق . م يعلم الشعب القانون الرومانى وهو أول عمل

من نوعه معروف فى التاريخ . ومن ذلك الوقت حل رجل القانون محل الكاهن وأصبحت له هو السيطرة على عقل رومة وحياتها . وما لبثت هذه الألواح أن أصبحت أساس برامج التعليم فى رومة ، وظل تلاميذ المدارس إلى أيام شيشرون يحفظون ما تحتويه عن ظهر قلب ؛ وما من شك فى أنها كانت من العوامل التى بثت فى نفوس الرومان مبادئ الصرامة وحب النظام ، والاستمساك بالقانون وعدم التفريط فى الحقوق . ولقد ظلت الألواح الاثنا عشر بما أدخل على نصوصها من تعديل ، وبما أضيف إليها من قوانين جديدة عن طريق التشريع والمراسيم البريترية والقنصلية والإمبراطورية ، ظلت هذه الألواح مدى تسعة قرون أساس القانون الرومانى .

وكان قانون المرافعات فى كتاب القوانين الرومانى وافياً شديد التعقيد . وكان فى وسع أى موظف كبير — إلا فى القليل النادر — أن يكون قاضياً ، لكن المحاكم العادية لم تكن تتألف إلا من البريتورين praetors وكان إصلاحهم للقوانين وشرحها من أكبر العوامل التى أكسبت القانون الرومانى حيوية ونماء وحالت بينه وبين أن يصبح جثة هامدة من الإجراءات . ذلك أن كبير حكام المدينة praetor urbanus كان يعد فى كل عام ثبتاً أو « لوحة بيضاء » يحوى أسماء أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان الذين يصح اختيارهم ليكونوا محلفين ؛ وكان رئيس الجلسة فى كل قضية يختار المحلفين فيها من بين أصحاب هذه الأسماء ، على أن يكون للمدعى والمدعى عليه الحق فى أن يرفضا قبول بعضهم وإن كان هذا الحق لم يستخدم إلا فى عدد محدود من المرات . وكان يسمح للمحامين القضائيين أن يقدموا مشورتهم للمتقاضين ويدافعوا عنهم فى ساحة القضاء ، كما كان من حق أعضاء مجلس الشيوخ أن يقدموا المشورة القضائية فى بيوتهم أو فى مجالس عامة . وكان قانون سنسيوس Cincius الصادر فى عام ٢٠٤ ق . م يحرم على من يقدم المشورة القضائية أن يتقاضى عنها أجراً ، ولكن المهارة القانونية كانت تجد

كثيراً من السبل للتخلص من هذا القيد القائم على النزعة المثالية ؛ وكثيراً ما كان الأرقاء يعذبون لحملهم على الاعتراف .

وكانت مجموعة القوانين التي تحتويها الألواح الاثنا عشر من أشد القوانين التي شهدها التاريخ ، ذلك أنها كانت تحتفظ بالسيطرة الأبوية الكاملة القديمة التي كانت للأب في المجتمعات الزراعية العسكرية ، فكان يسمح للأب بمقتضاها أن يجلد ابنه أو يربطه بالأغلال ، أو يسجنه أو يبيعه أو يقتله — وكل ما قيد به سلطته أن حرر الابن من سيطرة أبيه إذا بيع هذا الابن ثلاث مرات[16] . واحتفظ القانون بما بين الطبقات من فروق بتحريم الزواج بين الأشراف والعامة ؛ وكان للدائنين على المدينين حقوق مطلقة من كل قيد[17] ؛ كما كان للملاك الحرية الكاملة في أن يتصرفوا في أملاكهم عن طريق الوصية ، وكانت حقوق الملكية تبلغ من القداسة حداً يجعل السارق الذي يضبط متلبساً بجريمة السرقة عبداً للمسروق منه ، وكانت العقوبات تتفاوت من الغرامة البسيطة إلى النفي ، أو الاسترقاق أو الإعدام ، ومنها ما كان يجرى بطريق القصاص (lex talionis) ، وكثيراً ما كانت الغرامات تحدد تحديداً دقيقاً حسب طبقة المعتدى عليه : « فكانت عقوبة كسر عظام الحر ٣٠٠ آس ، وكسر عظام العبد ١٥٠ آساً[18] » وكان القذف والرشوة والحنث في الأيمان ، وسرقة المحصولات الزراعية ، وإتلاف غلات الجار ليلا ، وخديعة المحامي للمتقاضين ، وممارسة السحر ، ودس السم في الطعام ، والاختيال ، « والاجتماع في المدينة ليلا لتدبير الفتن والمؤامرات » كانت هذه كلها يعاقب عليها بالإعدام[19] . وكان الابن الذي يقتل أباه يوضع في كيس ومعه في بعض الأحيان ديك ، أو كلب ، أو قرد ، أو أفعى ، ويلقى في النهر[20] . على أنه كان من حق المواطن في العاصمة نفسها أن يستأنف الحكم الصادر عليه بالإعدام من أية جهة قضائية عدا حكم الدكتاتور نفسه إلى الجمعية المئوية ، وإذا رأى المتهم أن الأمور في الجمعية تسير في غير مصلحته كان له أن يخفف

الحكم الصادر عليه إلى النفى وذلك بالخروج من رومة[٢١] . ولهذا فإن عقوبة الإعدام رغم صرامة الألواح الاثنى عشر قلما كانت تنفذ فى عهد الجمهورية الرومانية ؟

٤ — جيش الجمهورية

وكان الأساس الذى يعتمد عليه الدستور الرومانى فى آخر الأمر هو النظام العسكرى الذى كان أكثر الأنظمة العسكرية نجاحاً فى تاريخ العالم كله . لقد كان الجيش هو والمواطنون وحدة وثيقة الارتباط ، وكان الجيش مجتمعاً فى المئات هو الهيئة الرئيسية التى تسن قانون الدولة . وكان الفرسان يؤخذون من المئات الثمان عشرة الأولى ، أما « الطبقة الأولى » فكانت تكون فرق المشاة الثقيلة ، وكان كل جندى فيها يسلح بحربتين وخنجر وسيف ، ويلبس خوذة من البرنز ، ودرعاً من الزرد ، وجرموقاً ، ومجناً . وكان لرجال الطبقة الثانية كل هذه العدد عدا الدروع الزردية وأما رجال الطبقتين الثالثة والرابعة فلم يكن لهم سلاح ، ولم يكن لرجال الطبقة الخامسة غير المقاليع والحجارة . وكان الفيلق الرومانى هيئة مختلطة تتألف من ٤٢٠٠ من المشاة ، ٣٠٠ من الفرسان ، وعدة كتائب أخرى إضافية[٢٢] ؛ وكان جيش القنصل يتألف من فيلقين . وكان كل فيلق يقسم إلى كتائب ، وكانت كل منها فى بادئ الأمر تتألف من مائة جندى ، ثم أصبحت فيما بعد تتألف من مائتين ، ويقودها قواد المئات . وكان لكل فيلق علمه الخاص vexillum . وكان مما يخل بالشرف أن يسقط هذا العلم فى أيدى الأعداء . وكان مهرة الضباط فى بعض الأحيان يلقون العلم بين صفوف الأعداء ليثيروا حماسة جندهم فيعملوا على استعادته مهما كلفهم ذلك من بذل وتضحية . وإذا نشبت المعركة فلقت صفوف المشاة الأمامية العدو ، الذى لم يكن يبعد عنهم أكثر من

عشر خطوات أو عشرين خطوة ، بوابل من الحراب ، وهى رماح من الخشب تنتهى بأطراف من الحديد ، وهاجمه فى الجناحين أصحاب النبال والمقالع بالسهام وبالحجارة ، وهجمَ الفرسان بالأسنة والسيوف ، وكانت الواقعة تنتهى بقتال حاسم يدور بين الأفراد بالسيوف القصار . أما أعمال الحصار فكانت تستخدم فيها المجانيق الخشبية التى تدار بالجذب أو اللىّ وتقذف من الحجارة ما زنته عشرة أرطال إلى أبعد من ثلثمائة ياردة . وكانت كباش حربية ضخمة معلقة فى حبال تشد إلى الوراء ، ثم تخلى فتنطح أسوار الأعداء . وكان يقام رصيف مائل من الطين والخشب تدفع وتجر عليه أبراج ذات عجل ترمى منها القذائف على الأعداء[٣٢] . وقد عدل فى عام ٣٦٦ ق . م تشكيل الفيالق التى كانت فى عهد الجمهورية الأول تتألف من ستة صفوف متراصة فى كل واحد منها ٥٠٠ جندى ، فكانت لذلك ضخمة كبيرة العدد يصعب تحريكها وتسييرها ، فقسم كل فيلق إلى كوكبات(*) فى كل كوكبة مائتا جندى . وكان يترك فراغ بين كل كوكبة والتى تجاورها ، وتقف الكوكبة التى فى كل صف خلف الفراغ المتروك فى الصف الذى قبله . وبهذه الطريقة يمكن الإسراع فى إمداد كل صف من الصف المجاور له ، وتحويل كوكبة أو عدة كوكبات لمواجهة أى هجوم جانبى ، كما كان من شأن هذا النظام أن يفسح المجال للحرب الفردية التى كان الجندى الرومانى يعد لها أحسن إعداد

وكان أكبر العوامل فى قوة هذا الجيش وانتصاراته هو حسن نظامه ذلك

(*) كان الرومان يطلقون على كل كوكبة اسم Manipulus ومعنى هذا اللفظ فى الأصل حفنة من الدريس أو الرعس أو ما إليهما . ويلوح أن حفنة من إحدى هذه المواد مشدودة إلى قائمة خشبية كانت تتخذ علماً حربياً بدائياً . ومن ثم صار هذا اللفظ يطلق على جماعة من الجند يظلهم علم واحد .

أن الشاب الرومانى كان يعد للحرب منذ طفولته ، فكان أهم ما يدرسه العلوم التى تؤهله لأن يكون جندياً صالحاً ، وكان يقضى عشر سنوات من عمره فى ميادين القتال أو فى المعسكرات ، وكان الجبن فى هذا الجيش هو الجريمة التى لا تغتفر وكان يعاقب عليها بجلد من يرتكبها حتى الموت(٢٤) . ولم يكن من حق قائد الجيش أن يحكم بالإعدام على أى جندى أو ضباط للفرار من القتال فحسب ، بل كان من حقه أيضاً أن يحكم عليه بهذه العقوبة نفسها إذ خالف ما يصدر إليه من الأوامر ولو أدت مخالفته إياها إلى أحسن العواقب ، وكان الذى يفر من الجندية أو يرتكب جريمة السرقة يعاقب بقطع يده اليمنى(٢٥) . وكان الجند فى المعسكرات يطعمون طعاما بسيطا يتكون من الخبز وحساء الخضر وقليل من الخضر والنبيذ ، وقلما كان يضاف إليه شيء من اللحم ، وبذلك فتح الجيش الرومانى العالم المعروف وقتئذ معتمداً على الغذاء النباتى ، ولما أن نقصت كمية القمح اللازمة لجيش يوليوس قيصر واضطر هذا الجيش لأكل اللحم شكا الجند من هذه الحال(٢٦) . وكان العمل الذى يكلف به الجنود مجهداً طويلا ، حتى كان الجند يفضلون عليه الذهاب إلى ميدان القتال ، وحتى كانت البسالة أسلم الخطط ، وظل الجند حتى عام ٤٠٥ ق . م لا يتناولون أجوراً أو مرتبات ، ولم يكن ما يتناولونه بعد ذلك العام بالشيء الكثير . ولكن كل جندى كان يسمح له بنصيب من الغنائم حسب مرتبته سواء كانت هذه الغنائم سبائك معدنية أو نقوداً أو أرضاً أو أسرى أو بضائع . ولم يكن هذا التدريب ليخلق من الرومان محاربين بواسل تواقين إلى القتال فحسب ، بل خلق منهم فوق ذلك قواداً شجعاناً . ذلك أن الطاعة قد خلقت فيهم المقدرة على الأمر والنهى ، ولسنا نكرر أن جيش الجمهورية قد خسر بعض الوقائع الحربية ، ولكنه لم يخسر قط حرباً ، وهؤلاء

الرجال الذين نشأوا فى هذا النظام الصارم ، وتطبعت به نفوسهم ، واعتادوا رؤية الموت بأعينهم ، وألفوه حتى أصبح من الأمور التى لا قيمة لها فى نظرهم ، هؤلاء الرجال هم الذين كسبوا الوقائع التى مكنتهم من الاستيلاء على إيطاليا ، ثم فتح قرطاجنة واليونان ، والسيطرة على عالم البحر الأبيض المتوسط .

هذه هى الخطوط الرئيسية فى ذلك « الدستور المختلط » الذى أعجب به پولبيوس ووصفه بأنه « خير الحكومات القائمة » فى العالم ، فهو من حيث سيادة الجمعيات فى الناحية التشريعية دمقراطية مقيدة ، ومن حيث زعامة مجلس الشيوخ المؤلف من أشراف البلاد حكم أرستقراطى ، وهو « حكم ملكى مزدوج » شبيه بالحكم الأسبرطى إذا نظرت إليه من ناحية سلطان القنصلين القصير الأجل ؛ وهو حكم ملكى مطلق يصبح فى بعض الأحيان حكما دكتاتورياً ، وهو فى جوهره حكم أرستقراطى تولت فيه السلطة أسر قديمة غنية بفضل ما كان لها من كفاية وامتياز مئات السنين ، وصبغت السياسة الرومانية بصبغة الدوام والثبات ، وبفضلها استطاعت أن تقوم بما قامت به من جلائل الأعمال .

ولكنه لم يخل من عيوب . فقد كان هذا الدستور خليطا مسمجا غير متناسق من العوائق والموازين ، يستطاع فيه أيام السلم إبطال كل أمر تقريباً بأمر معارض له ومساو له فى القوة . ولقد كان ما فيه من تقسيم السلطة بين عدد من الهيئات عوناً على الحرية ، كما كان — إلى أجل محدود — مانعا من إساءة استعمالها ؛ ولكن هذا الحكم نفسه هو الذى أدى إلى الكوارث العسكرية أمثال كارثة كانى Canae ، وإلى انحلال الدمقراطية حتى أضحت حكم الغوغاء وجاء آخر الأمر بالدكتاتورية الدائمة فى أيام الأباطرة . والذى يدهشنا فى هذه الحكومة هو بقاؤها ذلك العهد الطويل (من ٥٠٨ إلى ٤٩ ق . م) ، وكثرة ما قامت به من الأعمال . ولعل سبب بقائها هو قابليتها المدهشة للتغير ،

والروح الوطنية الفخورة التي كانت تبث في نفوس الرومان في البيت والمدرسة ، والهيكل والجيش ، والجمعية ومجلس الشيوخ . وكان الولاء للدولة أهم الصفات في أيام مجد الجمهورية ، كما كان الفساد السياسي المنقطع النظير مؤذناً بسقوطها . لقد ظلت رومة عظيمة طوال العهد الذي كان لها فيه أعداء يرغمونها على الاتحاد والشجاعة والتبصر في العواقب ؛ فلما أن ظفرت بأعدائها جميعاً انتعشت برهــة من الزمان ثم بدأت في الاحتضار .

الفصل الثالث

فتح إيطاليا

لم يكن الأعداء فى يوم من الأيام يحيطون بروما أكثر مما كانوا يحيطون بها حين خرجت من عهد الملكية دولة صغيرة تشمل مدينة واحدة ضعيفة لا تزيد رقعتها على ٣٥٠ ميلا مربعاً — أى مساحة لا تزيد على تسعة عشر ميلا فى تسعة عشر . ولما أن تقدم لارس پورسنا **Lars Porsena** ليهاجمها استعادت كثير من العشائر التى كان ملوك رومة قد أخضعوها لسلطانهم ما فقدته من حرية وكونت حلفاً لاتينياً للوقوف فى وجه رومة . وكانت إيطاليا فى ذلك الوقت تتألف من خليط من المدن أو القبائل المستقلة لكل منها حكومتها ولهجتها الخاصة بها . فكان فى شمالها اللجوريون ، والغاليون ، والأمبريون ، والتسكانيون ، والسبنيون ؛ وكان فى جنوبها اللاتين ، والفلشيون ، والسمنيون ، واللوكانيون والبريتانيون ؛ كان على شاطئيها الجنوبى والغربى مستعمرون من اليونان فى كرمية ، ونابلى ، وبمپى وپستوم ، ولكرى ، وريجيوم ، وكروتونا ، ومثاپنتم ، وتارنتم(*) . وكانت رومة فى وسط هذه العشائر والمدن جميعها ، ذات موقع حربى يمكنها من التوسع وبسطة الملك ، ولكنها كانت معرضة للغزو من جميع جهاتها فى آن واحد . وكان سبب نجاتها أن أعداءها لم يتحدوا عليها . وقد حدث فى عام ٥٠٥ بينا كانت رومة مشتبكة فى حرب مع السبنيين أن وفدت عليها إحدى العشائر السبنية — عشيرة الكلوديين — فمنحتها رومة حق مواطنيها نظير شروط مرضية . وفى عام ٤٤٩ هزمت رومة السبنيين ، ولم يحل عام ٢٩٠

(*) **Ligures, Gauls, Umbrians, Etruscans & Sabines, Latins Volscians Samnites, Lucanians, Brutians, Cumae, Naples, Pompeii, paestum, Locri, Rhegium, Crotona, Metapontum, & Tarentum.**

حتى ضمت كل أراضيهم إليها ، وما وافى عام ٢٥٠ حتى كان لهم كل ما لأهل رومة من الحقوق .

وفى عام ٤٩٦ أغرى آل تاركوين بعض مدائن لاتيوم وهى تسكولوم ، وأرديا ، ولنوفيوم ، وأريسيا ، وتيبور(*) وغيرها بالانضمام فى حرب تشنها على رومة ؛ ورأى الرومان أنفسهم أمام هذا الحلف البادى القوة ، فأقاموا عليهم أول دكتاتور منهم ، وهو أولس پستوميوس **Aulus Postumius** ، وانتصروا على هذا الحلف اللاتينى عند بحيرة رجيلس **Regillus** نصراً مؤزراً كان سبباً فى نجاتهم . ويؤكد الرومان أنهم قد تلقوا العون فى هذه الواقعة من الإلهين كستر وپلكس **Castor & Pollux** إذ غادرا جبال أولمپس ليحاربا فى صفوفهم . وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت عقدت رومة مع الحلف اللاتينى معاهدة تعهد فيها الطرفان أن « يدوم السلم بين الرومان ومدن اللاتين ما دامت السموات والأرض . . . . . وأن يشتركا على قدم المساواة فى جميع غنائم الحرب(٢٧) » . وكانت رومة فى بادئ الأمر عضواً فى هذا الحلف ثم أمست زعيمته ، ثم سيدته المسيطرة عليه . وفى عام ٤٩٣ حاربت الڤلشيين **Volscians** ؛ وفى هذه الحرب ظفر كيوس مارسيوس **Cains Marcius** بلقب كريلانس **Coriolanus** بعد أن استولى على كريلاى **Corioli** عاصمة الڤلشيين(**) . ويضيف المؤرخون إلى هذا — ولعل للخيال والقصص شأن كبير فيما يضيفون — أن كريلانس أصبح من ذلك الوقت رجعياً شديد الرجعية ، فنفى من رومة بناء على طلب العامة وإصرارهم (٤٩١) ، فلجأ إلى الڤلشيين ، وأعاد تنظيم جيوشهم ، وسار على رأسهم لحصار رومة . ثم تقول الرواية إن الرومان المحاصرين بعد أن عضهم الجوع بعثوا رسولاً فى إثر رسول ليثنوه عن عزمه ، ولكنه لم ينثن ، فلما جاءته

(*) **Tibur Aricia Lanuvium, Ardea, Tusculum.**

(**) لقد خلد شيكسبير هذه القصة فى روايته الشهيرة كريلانس . (المترجم)

أمه وزوجته تتوسلان إليه وردهما خائبتين أنذرتاه بأنهما ستسدان الطريق أمامه بجسديهما ، فلم يسعه أمام ذلك إلا أن يرتد بجيشه عن رومة . وكان جزاؤه أن قتله الفلشيون ، وفى رواية أخرى أنه عاش بينهم معيشة ضنكا ، حتى بلغ من العمر أرذله[٢٨] . وفى عام ٤٠٥ قام النزاع على أشده بين رومة وفياى Veii للسيطرة على نهر التيبر ، وحاصرت رومة مدينة فياى ودام الحصار تسع سنين ، وشجع هذا مدن إتروريا فانضمت إلى فياى ضد رومة ، وهوجم الرومان من كل ناحية وتعرضوا لخطر الفناء ، فأقاموا عليهم دكتاتوراً يدعى كاملس Camillus ، فجند جيشاً جديداً استولى به على فياى ووزع أرضها على مواطنى رومة . وفى عام ٣٥١ ضم جنوب إترووريا إلى رومة بعد عدة حروب أخرى متفرقة وسميت من ذلك الوقت باسم تسكيا Tuscia وهو اسم لا يكاد يفترق عن اسم المقاطعة فى الوقت الحاضر .

وفى هذه الأثناء واجهت رومة فى عام ٣٩٠ خطراً جديداً أشد من الأخطار السابقة ، وقام الصراع بينها وبين بلاد الغالة ، وهو الصراع الطويل الذى لم يلته إلا فى عهد يوليوس قيصر . وذلك أنه بينا كانت الحروب الأربع عشرة قائمة بين رومة وإترووريا تسللت قبائل كلتية من بلاد الغالة ومن ألمانيا منحدرة من جبال الألب ، واستقرت فى إيطاليا ، وانتشرت جنوباً حتى نهر البو Po . ويطلق المؤرخون القدامى على هؤلاء الغزاة اسم كلتائى — أو سلتائى ، أو جلتائى أو غالى(*) دون تمييز بينها ، ولسنا نعرف شيئاً عن أصل هذه القبائل ، وكل ما نستطيع أن نصفها به أنها ذلك الفرع من السلالة الهندوربية التى سكنت ألمانيا الغربية وغالة وإسبانيا الوسطى ، وبلجيكا ، وويلز ، واسكتلندة ، وإيرلندة ، وأدخلت فيها اللغات التى وجدها الرومان فى تلك البلاد . ويصفهم پولبيوس Polybius بأنهم « طوال القامة ، حسنو الوجوه » ، يحبون القتال ، ويحاربون

(*) Keltai ، Celtae ، Galatae ؛ Galli

وهم عراة الأجسام إلا من تمائم وسلاسل ذهبية(٢٩) . ولما أن ذاق الكلت سكان بلاد غالة الجنوبية طعم النبيذ الإيطالى سرهم مذاقه كل السرور فاعتزموا أن يزوروا الأرض التى تخرج تلك الفاكهة اللذيذة . ولعل أصدق من هذا أنهم أقبلوا على تلك البلاد طلباً للمرعى وللأرض الجديدة ، فلما دخلوها وأقاموا فيها وقتاً ما مسالمين على غير عادتهم المألوفة ، يحرثون الأرض ويرعون الماشية ، ويتثقفون بما كان فى المدن من ثقافة تسكانية . ثم غزوا إتروريا فى عام ٤٠٠ ق . م ونهبوها ، وقاومهم التسكان مقاومة ضعيفة ، لأنهم كانوا قد أرسلوا جنودهم إلى فياى ليصدوا عنها الرومان . وفى عام ٣٩١ وصل ثلاثون ألفاً من الغاليين إلى كلوزيوم Clusium ؛ وبعد عام واحد التقوا بالرومان على نهر أليا Allia وهزموهم هزيمة منكرة بددت شملهم ، ودخلوا رومة فاتحين دون أن يلقوا فى ذلك مقاومة ، ونهبوا المدينة وحرقوا كثيراً من أحيائها ،وظلوا سبعة أشهر يحاصرون فلول الجيش الرومانى المعسكر على الكبتول Capitol — وهو قلة تل الكبتولين Capitoline — حتى استسلم لهم الرومان آخر الأمر ، وأدوا للغاليين ألف رطل من الذهب نظير انسحابهم(*) ؛ وغادر الغاليون رومة ولكنهم عادوا إليها فى أعوام ٣٦٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٠ ؛ وصدهم الرومان فى كل مرة فقنعوا أخيراً بشمال إيطاليا الذى أصبح من ذلك الوقت يعرف بغالة الألبية الجنوبية .

وألفى من بقى من الرومان مدينتهم مخربة تخريباً حمل الكثيرين منهم على أن يتمنوا لو استطاعوا أن يغادروها ويتخذوا فاى عاصمة لهم . ولكن كمليوس أثناهم عن عزمهم ، وقدمت لهم الحكومة ما يحتاجونه من المعونة المالية لبناء بيوتهم من جديد . وكانت السرعة التى تم بها هذا البناء،وهم يواجهون الأعداء

(*) والمؤرخون الآن مجمعون على رفض القصة التى يرويها ليفى(٣٠) ، والتى تقول إن كمليوس رفض فى اللحظة الأخيرة أن يعطى الغاليين الذهب ، وأنه طردهم من رومة قوة واقتداراً . ويرون أن هذه القصة قد اخترعت اختراعاً إجابة لنعرة الرومان الوطنية وكبريائهم القوى . وما من أمة من الأمم تهزم فى كتب تاريخها .

من حولهم ، سبباً من الأسباب التي جعلت رومة مدينة قائمة على غير نظام مرسوم ذات شوارع ضيقة ملتوية . وكانت الشعوب الخاضعة لسلطانها ، إذ رأتها موشكة على الدمار والخراب ، ثارت عليها ثورة فى إثر ثورة واستلزم إخضاع هذه الشعوب وشفاؤها من نزعة الحرية خمسين عاماً من الحروب المتقطعة ولقد هاجمها اللاتين، والإكويون ، والهرنيشون ، والفلشيون مجتمعين أو متفرقين . ولو انتصر الفلشيون لفصلوا رومة عن جنوب إيطاليا وعن البحر ، ولربما استطاعوا بذلك أن يقضوا على تاريخها ؛ ولكن رومة انتصرت عليهم وانتصرت على مدن الحلف اللاتينى فى عام ٣٤٠ . وبعد عامين من انتصارها عليها حلت الحلف وضمت مدن لاتيوم جميعها إلا القليل منها إليها(*) .

وفى هذه الأثناء كان ما نالته رومة من النصر على الفلشيين سبباً فى وقوفها وجهاً لوجه أمام القبائل السمنية القوية . وكانت هذه القبائل تمتلك قطاعاً مستعرضاً فى إيطاليا يمتد من نابلى حتى البحر الأدرياوى ، ويشمل مدناً غنية مثل نولا **Nola** وبنفنتم **Beneventum** ، وكومية **Cumae** ، وكپوا **Capua** . وكانت قد استولت على معظم المستعمرات النسكانية واليونانية الممتدة على الساحل الغربى ، وكان لها من الحضارة الهلينية ما يكفى لخلق فن كمپانى **Campanian** ، متميز عن غيره من الفنون ، ولعلها كانت أكثر حضارة من الرومان أنفسهم . واشتبكت رومة مع هذه القبائل فى ثلاث حروب طويلة طاحنة رغبة منها فى الانفراد بالسيادة على إيطاليا . ومنى الرومان فى مشاعب كودين **Coudine Forks** (٣٢١) بهزيمة من أكبر هزائمهم ، ومر جيشهم المنهزم « تحت النير » — أى تحت قوس من خراب الأعداء — رمزاً لخضوعهم . ووقع القنصلان فى ميدان القتال شروطاً

(*) ومن الحوادث التى تروى عن هذه الحرب حادثان أكبر الظن أنهما من نسج الخيال أولهما أن قنصلا يدعى پبليوس ديسيوس **Publius Decius** لقى حتفه بعد أن انطلق على جواده بين صفوف الأعداء مضحياً بنفسه ليظفر بمعونة الآلهة لرومة . أما القنصل الثانى تيتس مانليوس تركواتس **Titus Manlius Torquatus** فقد قطع رأس ولده لأنه انتصر فى واقعة ، وكان سبب انتصاره أن خالف الأوامر الصادرة إليه .

لصلح مذل رفض مجلس الشيوخ أن يصدق عليه ، ونجح السمنيون فى أن يضموا إليهم التسكانيين والغاليين ، وأنفت رومة نفسها وقتاً ما تواجه إيطاليا كلها تقريباً شاكية السلاح . ولكن الفيالق الرومانية انتصرت انتصاراً حاسماً فى سنتينوم Sentinum (٢٩٥) ضمت روما على أثره كمبانيا Campania وأمبريا Umbria إلى أملاكها . وبعد عامين من ذلك الوقت طردت الغاليين إلى ما وراء نهر البو وأخضعت إتروريا مرة أخرى لسلطانها .

وبذلك أصبحت رومة سيدة إيطاليا الممتدة من مقاطعات الغاليين فى الشمال إلى المقاطعات اليونانية فى الجنوب . لكن عدم اطمئنانها إلى سلامتها من جهة ، ورغبتها فى مواصلة الفتح من جهة أخرى ، قد حملاها على أن تخير مدن « اليونان الكبرى » Magna Graecia بين الحرب وبين محالفتها حلفاً تقر فيه لرومة بالزعامة . وفضلت مدن توريای Thurii ولكرى Locri وكروتونا Crotona أن تحالف رومة على أن تتعرض للاندماج فى القبائل « المتبربرة » (أى الإيطالية) ، التى كانت تتكاثر من حولها وبين أهلها ؛ ولعلها هى أيضاً كانت تمزقها كما تمزق لاتيوم حرب الطبقات ، واستقبلت الحاميات الرومانية لتصد عن الملاك مطامع العامة الذين كان سلطانهم آخذاً فى الازدياد[٣٢] . لكن تارنتم Tarentum وقفت وقفة المعاند ، واستعانت بيرس Pyrrhus ملك إپيروس Epirus . وثارت فى نفس هذا المحارب الباسل ذكريات أخيل Achilles والإسكندر فعبر البحر الأدرياوى بقوة إپيروسية ، وهزم الرومان فى هرقلية Heraclea (٢٨٠ ق . م) ؛ ولكن ما ناله من النصر كان غالى الثمن غلواً حمل القائد المظفر على أن يرثى لحاله[٣٣] وانضمت إليه وقتئذ جميع المدن اليونانية فى إيطاليا ، وحالفه اللوكانيون ، والبوتيون ، والسمنيون . وبعث سنياس Cineas إلى رومة يعرض عليها الصلح ، وأطلق سراح الألفى أسير رومانى الذين كانوا فى قبضته بعد أن وعدوه بأن يعودوا إذا فضلت رومة الحرب

على السلم . وأوشك مجلس الشيوخ أن يقبل شروطه ولكن أپيوس كلوديوس Appius Claudius ، الشيخ الأعمى المسن الذى كان قد اعتزل الحياة العامة من زمن طويل ، طلب إلى بعض الناس أن يحملوه إلى دار المجلس ، فلما دخل على الأعضاء طلب إليهم ألا تعقد رومة قط صلحاً مع جيش أجنبى فى أرض إيطالية . ورد مجلس الشيوخ إلى پيرس من أطلقهم من الأسرى وبدأت الحرب من جديد . وانتصر الملك الشاب على الرومان مرة أخرى ، ثم عافت نفسه جبن أحلافه وضعفهم وترددهم ، فأبحر مع من بقى معه من جيشه إلى صقلية ورفع عن سرقوسة حصار القرطاجنيين ، وطردهم من أملاكهم فى الجزيرة حتى لم يبق لهم فيها إلا قليل . ولكنه أغضب بحكمه القوى اليونان سكان صقلية ، وكانوا يظنون أن فى وسعهم أن يستمتعوا بالحرية دون أن يؤدوا لها ثمناً من النظام والشجاعة ، فقبضوا عنه معونتهم ، فعاد بيرس إلى إيطاليا وهو يقول عن صقلية : « ما أعظمها من غنيمة تتنازعها قرطاجنة ورومة ! » والتقى جيشه بالجيش الرومانى فى بنفنتم ومنى بالهزيمة لأول مرة (٢٧٥) . واتضح فى هذه الواقعة أن الألوية الخفيفة السلاح السريعة الحركة أصلح من الصفوف المتراصة البطيئة ، وبدأت بذلك صفحة جديدة فى تاريخ الحروب . وأهاب بيرس بأحلافه الإيطاليين أن يمدوه بجيوش جديدة ، فلم يلبوا نداءه لارتيابهم فى إخلاصه ومثابرته . فعاد إلى إپيروس ومات فى بلاد اليونان ميتة المغامرين . وفى السنة التى مات فيها (٢٧٢ ق . م) غدرت ميلو Milo بتارنتم وانضمت إلى رومة . وما لبثت المدن اليونانية كلها أن خضعت لرومة واستسلم لها السمنيون وهم كارهون محزونون ، وأمست إيطاليا بعد حروب دامت قرنين كاملين سيدة إيطاليا لا ينازعها فيها منازع .

وسرعان ما ثبتت رومة أقدامها فى البلاد المفتوحة بما كانت ترسله إليها من الجاليات ، بعضها من أهلها وبعضها من بلاد الحلف اللاتينى . وقد أفادتها هذه الجاليات فوائد كثيرة : فقد خففت عنها خطر التعطل ، وقللت من تزاحم الأهلين

على موارد الرزق ، وما ينشأ عن هذا التزاحم من نزاع بين الطبقات فى رومة . وكذلك كانت كل جالية فيها نواة موالية لرومة بين الأهلين الغضاب ، كما كانت مراكز أمامية ومصارف للتجارة الرومانية ، تنتج الطعام للبطون الجياع فى العاصمة ، ذلك أن المحراث قد تم ما بدأه السيف من الفتوح . وبهذه الوسائل كلها وضعت رومة الأسس التى أدت إلى صبغ مئات من المدن التى لا تزال قائمة إلى اليوم بالصبغة الرومانية ، فانتشرت اللغة اللاتينية والثقافة اللاتينية فى جميع أنحاء شبه الجزيرة التى كان معظمها لا يزال فى طور الهمجية يتكلم أهله لغات شتى . وسارت إيطاليا بخطى وئيدة فى طريق الوحدة الدولية ، وكانت الخطوة الأولى فى سبيل الوحدة السياسية وحشية فى طريقتها عظيمة فى أثرها وغايتها .

لكن كان فى قورسقة وسردانية وصقلية وإفريقية قوة أشد من رومة بطشاً وأقدم منها عهداً ، تسد على التجارة الرومانية مسالك البحر الأبيض المتوسط الغربى ، وتترك إيطاليا سجينة فى بحارها . تلك هى قرطاجنة .

الباب الثالث

هنيبال يحارب رومة

٢٦٤ - ٢٠٢ ق . م

الفصل الأول

قرطاجنــة

كشف التجار الفينيقيون — وهم قوم ديدنهم البحث والتنقيب — عن ثروة أسبانيا المعدنية قبل ألف ومائة عام من تلك الأيام . ولم يمض على هذا الكشف إلا قليل من الوقت حتى كان أسطول من السفن التجارية يمخر عباب البحر الأبيض المتوسـط بين صيدا وصور وبيلوس من ناحية وطارطسوس Tartessus عند مصب نهر الوادى الكبير من ناحية أخرى ؛ وإذ كانت هذه الأسفار مما يتعذر القيام بها من غير أن تكون فيها محاط كثيرة فى الطريق ، وإذ كانت سواحل البحر الأبيض الجنوبية أقصر الطرق وآمنها . فقد أنشأ الفينيقيون مراكز وسطى ومحاط تجارية على ساحل إفريقية الشمالى عند لبتس مجنا Leptes Magna (لبدة الحالية) وهدرومنتم Hadrumentum (سوسة) وبوتيكا (بوتيك) وهپو ديرهيتس Hppo Diarrhytus وهپو رجيوس Hppo Regius (بونة) ، بل إنهم عبروا مضيق جبل طارق وأقاموا مركزاً لهم فى لكسوس Lixus (جنوب طنجة) ؛ وتزوج التجار الساميون الذين أقاموا فى هذه المراكز من الأهالى وأسكنوا غيرهم بالمال ، وفى عام ٨١٣ ق . م أقامت جماعة جديدة من المستعمرين —

قد يكونون من فينيقية وقد يكونون من يتيكا Utica التى أخذت وقتئذ فى الاتساع — أقامت هذه الجماعة بيوتا لها على نتوء فى البحر على بعد عشرة أميال من مدينة تونس الحالية . وكان الدفاع عن شبه الجزيرة الفينيقية أمراً سهلا ، وكانت مياه نهر بجرداس (مجردة) تروى أرضها وتفيض عليها الخصب والنماء ، ولذلك كانت تعود إلى الانتعاش بسرعة بعد ما كان يحل بها من التخريب المتكرر . وتعزو الروايات القديمة إنشاء هذه المدينة إلى إليسا Elissa أو ديدو Dido ابنة ملك صور ، فتقول إن أخاها قتل زوجها فأبحرت مع طائفة أخرى من المغامرين إلى إفريقية . وسمى المكان الذى استقرت فيه كارت هدشت — أى المدينة الجديدة — تمييزاً لها عن يتيكا ، وحول اليونان هذا الاسم إلى كارشدون وبدله الرومان إلى كرثاجو . وأطلق اللاتين اسم إفريقية على الإقليم المحيط بقرطاجنة ويتيكا وسموا أهلها الساميين ، كما كان يسميهم اليونان ، البونى أو الفونى ، أى الفينيقيين . وهاجر كثيرون من سراة أهل صور إلى إفريقية عقب حصار سلمانصر ، ونبوخذ نصر والإسكندر ، واستقر معظمهم فى قرطاجنة ، فأصبحت بسبب هذه الهجرة مركزاً جديداً للتجارة الفينيقية ، وأخذت قوة قرطاجنة وعظمتها فى الازدياد كلما أخذت صور وصيدا فى الاضمحلال .

ولما ازدادت المدينة قوة دفعت أهل إفريقية الأولين إلى الداخل شيئاً فشيئاً ، وامتنعت عن أداء الجزية لهم ، بل أرغمتهم على أن يؤدوها هم واستخدمتهم أرقاء وأقناناً فى بيوتها ومزارعها . وكانت نتيجة هذا أن نشأت لأهل قرطاجنة ضياع واسعة كان يعمل فى بعضها عشرون ألف رجل[1] ، وأضحت الزراعة عنـــد الفينيقيين العمليين علماً وصناعة ، ولخص قواعدها ماجو الكاتب القرطاجنى فى كتاب ذائع الصيت . وشق الأهلون القنوات فأخصبت الأرض ونشأت فيها حدائق ذات بهجة ، وحقول من القمح والكروم ، وبساتين تنتج الزيتون والرمان والكمثرى والكرز والتين[2] ، وربوا الخيل والأنعام والضأن والمعز ،

واستخدموا الحمير والبغال فى حمل الأثقال ، وأنسوا كثيراً من الحيوانات ومنها الفيل . أما الصناعات فى المدن فلم تزدهر ازدهار الزراعة اللهم إلا صناعة المعادن ؛ ذلك أن القرطاجنيين ، كآبائهم الأسيويين ، كانوا يفضلون أن يتجروا فيما يصنعه غيرهم ، فكانوا يجوبون الأقطار ، يقودون بغالهم شرقاً وغرباً ، ويضربون فى قفار الصحراء طلباً للفيلة والعاج والذهب والعبيد . وكانت سفنهم الضخمة تحمل المتاجر من مئات الموانى بين آسية وبريطانيا وإليهما ، لأنهم لم يكونوا يرضون أن يعودوا كما عاد معظم الملاحين عند أعمدة هرقول Pillars of Hercules (مضيق جبل طارق) ؛ وأكبر الظن أنهم هم الذين أنفقوا على رحلة هنو Hanno البحرية التى ارتادت ألفين وستمائة ميل من ساحل إفريقية الغربى ، ورحلة هملكو Himilco التى ارتادت سواحل أوربا الشمالية . ويلوح أنهم كانوا أول من أصدر عملة من نوع العملة الورقية — فى صورة رقائق من الجلد مطبوع عليها ما يدل على قيمتها ويتعامل بها فى جميع أنحاء الدولة القرطاجنية ، وإن لم يكن من المستطاع تمييز عملتهم المعدنية عن عملة غيرهم من الأمم .

والراجح أن التجار الأثرياء لا الأشراف أصحاب الضياع هم الذين قدموا الأموال اللازمة لتجييش الجيوش وإنشاء الأساطيل التى حولت قرطاجنة من مركز التجارة إلى إمبراطورية استولت على ساحل البحر الأبيض الجنوبى من سيرنيكا Cyrenaica إلى جبل طارق وإلى ما بعد جبل طارق عدا يتكا . استولى القرطاجنيون كذلك على طارطسوس وجادير (قادز) وغيرهما من المدن الأسپانية ، وأثرت قرطاجنة بمـــا أخذته من ذهب أسپانيا وفضتها وحديدها ونحاسها . وتملكت جزائر البليار ، بل إنها وصلت إلى جزائر ماديرة ومالطة وسردانية وقورسقة ونصف صقلية الغربى . وكانت تعامل البلاد الخاضعة لحكمها معاملة مختلفة الدرجات فى قسوتها ، فكانت تفرض عليهـــا جزية سنوية ، وتجند الأهلين فى جيوشها ، وتقيد تجارتها وعلاقتها الخارجية بأشد من القيود . ولكنها فى

نظير هذا كانت تحميها من أعدائها عسكرياً ، وتمنحها استقلالا ذاتياً محليا ، واستقراراً اقتصاديا . وفى وسعنا أن نقدر ما كان لهذه البلاد الخاضعة لقرطاجنة من ثراء إذا عرفنا أن واحدة منها هى لپتس Leptis Minor كانت تؤدى إلى خزانة قرطاجنة ٣٦٥ وزنة (أى ما يعدل ٠٠٠ر٢١٤ر١ ريال أمريكى من نقود هذه الأيام) .

واستغلت قرطاجنة هذه الإمبراطورية استغلالا جعلها فى القرن الثالث قبل الميلاد أكثر مدائن البحر الأبيض المتوسط ثراء ، فقد كان يدخلها كل عام من الضرائب الجمركية ومن الخراج نحو ٠٠٠ر١٢ تالنت أى قدر ما كان يدخل فى خزائن أثينة أيام مجدها عشرين مرة ؛ وكان سراتها يسكنون القصور ويلبسون الملابس الغالية الثمن ويطعمون الأطعمة الشهية يأتون بها من خارج بلادهم . وازدحمت المدينة بسكانها البالغ عددهم ربع مليون نسمة واشتهرت بما أقيم فيها من الهياكل الفخمة والحمامات العامة ، ولكن أكثر ما كانت تشتهر به موانيها الأمينة وأحواضها الواسعة . وكان فى مقابل كل حوض من أحواضها البالغة ٢٢٠ حوضاً عمودان أيونيان Ionic ؛ ومن ثم أضحى الميناء الداخلى ذا شكل مستدير فخم يحيط به ٤٤٠ عموداً ، وكان يوصل هـــذا الميناء بالسوق العامة طريق واسع به ميدان ذو عمد ، تزينه تماثيل يونانية ، وتقوم على جانبيه الأبنية المحتوية على المصالح الحكومية ، والمكاتب التجارية ، ودور القضاء والعبادة . أما الشوارع التى تجاور هذا الطريق فكانت ضيقة كمعظم شوارع البلاد الشرقية ، وكانت ملأى بالحوانيت التى تقوم فيها الصناعات المختلفة وتعقد فيها آلاف الصفقات التجارية . وكانت بيوتها ترتفع فى الجو إلى ستة أطباق ، وكثيراً ما كانت الحجرة الواحدة تضم أسرة بأكملها . وكان فى وسط المدينة ربوة عالية أو قلعة — كانت هى وغيرها من المعالم مما أوحى إلى الرومان بالصورة التى أقاموا عليها مدينتهم — تسمى « البورصة Byrsa » ، وتضم بيت المال ، ومضرب

النقود ، وكثيراً من المزارات والعمد ، وأفخم معبد في قرطاجنة كلها وهو معبد الإله العظيم إشمون Eshmun ، وكان يحيط بالمدينة من ناحيتها الأرضية غير البحرية سور من ثلاثة جدران يرتفع خمساً وأربعين قدماً في الهواء ، ومن فوقه أبراج وشرفات ، ومن داخل الأسوار فضاء يتسع لأربعة آلاف حصان وثلثمائة فيل ، وعشرين ألف رجل[٣] . وفي خارج الأسوار كانت مزارع الأغنياء ومن بعدها حقول الفقراء .

وكان القرطاجنيون من الجنس السـامى وثيقي الصلة باليهود الأقدمين في دمهم وفي ملامحهم ، وكانت تظهر في لغتهم أحياناً ألفاظ عبرية ، مثال ذلك أنهم كانوا يسمون القضاة شفيتى وتلك هي الكلمة العبرية شفتيم . وكان الرجال يرسلون لحاهم ولكنهم كان من عادتهم أن يحلقوا شفتهم العليا بشفرات من البرنز . وكان معظمهم يضعون على رؤوسهم قلانس أو عمائم ، ويتخذون أحذية أو أخفافاً ، ويلبسون جلابيب طويلة فضفاضة ؛ ولكن الطبقات العليا من الأهلين قلدت اليونان في ملابسهم ، وصبغت أثوابها باللون الأرجـوانى ووشت أطرافها بالخرز الزجاجى . أما النساء فكن في الغالب متحجبات يحيين حياة العزلة ؛ وكان في وسعهن أن يبلغن مناصب كهنوتية عالية ، أما فيما عدا ذلك فكان عليهن أن يأسرن الرجال بجمالهن . وكان الأهلون جميعاً — رجالا كانوا أو نساء — يتحلون ويتعطرون ويضعون أحياناً حلقات معدنية في أنوفهم . ولسنا نعرف إلا القليل عن أخلاقهم من غير أعدائهم ، فالكتاب اليونان والرومان يصفونهم بالإسراف في الطعام والشراب ، وبأنهم يحبون أن يجتمعوا في نوادى الطعام ، وأنهم إباحيون في علاقاتهم الجنسية فاسدون في شئونهم السياسية ؛ وكان الرومان المعروفون بالغدر يستعملون لفظ الوفاء القرطاجنى Fides Punica مرادفاً للفظ الخيانة . ويقول بوليبوس أن « لا شيء ينتج عنه كسب يعد عاراً في قرطاجنة[٤] » ويتهم فلوطرخس ، أهل قرطاجنه بأنهم « خشنو الطباع مكتئبون ،

سلسو القيادة فى أيدى حكامهم ، قساة على الشعوب الخاضعة لسلطانهم ، إذا خافوا بلغوا منتهى الجبن ، وإذا غضبوا بلغوا منتهى الوحشية ، عنيدون لا يرجعون عن شىء أقروه ، صارمون ، لا يستجيبون إلى دواعى اللهو أو مباهج الحياة(٥) . ولكن فلوطرخس رغم ما عرف به من العدل فى أحكامه كان يونانياً على الدوام ، وأما پولبيوس فكان صديقاً حميماً لسپيو الذى حرق قرطاجنة ومحا آثارها من الوجود

ويبدو القرطاجنيون فى أسوأ صورهم فى دينهم ، وإن كان كل ما نعرفه عنهم من هذه الناحية قد وصل إلينا عن طريق أعدائهم . لقد كان أسلافهم فى فينيقية يعبدون بعل مُلُك وعشتروت بوصفهما ممثلين لعنصرى الذكر والأنثى فى الطبيعة وللشمس والقمر فى السماء ، وعبد القرطاجنيون إلهين مماثلين لهما وهما بعل هامان وثانيث . وكانت ثانيث بصفة خاصة تثير حبهم وتقواهم ، فكانوا يملأون هياكلها بالهدايا ويقسمون باسمها . ويلى هذين الإلهين فى التعظيم ملكارت « مفتاح المدينة » ثم إشمون رب الثروة والصحة ، ويأتى من بعد هذه كلها حشد كبير من الآلهة الصغرى تسمى « البعول » أو الأرباب . بل إن ديدو نفسه كان من هذه المعبودات(٦) . وكانوا فى الأزمات العصيبة يضحون لبعل — هامان بالأطفال الأحياء ، وكان عدد من يضحى بهم لهذا الإله فى اليوم الواحد يبلغ أحياناً ثلثمائة طفل . وكانت طريقتهم فى هذه التضحية أن يضعوا الأطفال فوق ذراعى هذا الوثن المبسوطتين ، ثم يدحرجونهم إلى النار المتقدة أسفل الذراعين ، وكان يطغى على صياحهم أصوات الأبواق والدفوف ، ويطلب إلى أمهاتهم أن يشهدن هذا المنظر دون توجع أو بكاء لئلا يتهمن بالكفر ويخسرن ما هو خليق بهن من رضاء الآلهة . وتطورت الأمور بعد ذلك فكان الأغنياء يأبون أن يضحوا بأطفالهم ويبتاعون بدلا منهم أطفال الفقراء ، فلما أن حاصر أجثكليز **Agathocles** صاحب سرقوسة **Syracuse** مدينة قرطاجنة خشيت الطبقات العليا من أهل المدينة أن يكون احتيالها وتهربها من واجبها المقدس قد أغضب الآلهة فألقت فى النار مائتين

من أبناء الأشراف(٧) . على أن من واجبنا أن نضيف إلى هـــذا أن تلك القصص إنما يقصها علينا ديودور وهو يونانى من أهل صقلية لا يستنكف أن يشهد ما اعتاده اليونان من قتل أطفالهم وهو هادئ مطمئن . وليس ببعيد أن يكون منشأ هذه العادة القرطاجنية عادة التضحية بالأطفال أن أولئك القوم أرادوا أن يصبغوا ما يبذلون من الجهد لضبط النسل بصبغة التقى والصلاح .

ولما أن دمر الرومان قرطاجنة أهدوا ما وجدوه فيها من المكتبات إلى أحلافهم من أهل إفريقية . ولكن هذه الكتب لم يبق منها إلا كتاب هنو الذى سجل فيه رحلته وشذرات من كتاب ماجو فى الزراعة . ويؤكد لنا القديس أوغسطين تأكيداً يكتنفه شيء من الغموض أنه « كان فى قرطاجنة كثير من الأشياء التى خلدت ذكراها فى عقول من خلفهم من الناس(٨) » ، وقد استعان سلست Sallust وجوبا Juba بما كتبه المؤرخون القرطاجنيون ، ولكنا لا نجد لدينا تاريخاً لقرطاجنة كتبه مؤرخ من أبنائها . أما عمارتها فحسبنا أن نقول عنها إن الرومان لم يتركوا فيها حجراً على حجر . ويقص علينا بعضهم أن طراز مبانيها كان مزيجاً من الطرازين الفينيقى واليونانى ، وأن هياكلها كانت ضخمة مزخرفة ، وأن هيكل بعل — هامان وتمثاله كانا مصفحين بألواح من الذهب تقدر قيمتها بألف وزنة (تالنت) ، وأن اليونان أنفسهم مع ما عرف عنهم من زهو وكبرياء كانوا يعدون قرطاجنة من أجمل العواصم فى العالم كله . ويحتوى متحف تونس على قطع من توابيت الموتى وجدت فى مقابر بالقرب من موقع قرطاجنة ، أجملها كلها صورة جميلة واضحة المعارف ، لعلها صورة تانيث ، يونانية الطابع فى جوهرها . وثمة تماثيل صغرى استخرجت من القبور القرطاجنية فى جزائر البليار ، ولكنها فجة خالية من الدقة ، وكثيراً ما تكون بشعة لا تطيق العين رؤيتها كأنها صنعت لإرهاب الأطفال أو طرد الشياطين . أما ما بقى من الخزف فيدل على أن هذا الفن كان يقصد إلى النفع لا إلى الجمال الفنى ، ولكنا نعرف أن الصناع

القرطاجنين قد أخرجوا نماذج طيبة من المنسوجات ، والحلى ، والنقش على العاج والأبنوس والكهرمان والزجاج .

وليس فى استطاعتنا فى الوقت الحاضر أن نرسم أية صورة واضحة للحكومة القرطاجنية . وقد أثنى أرسطوطاليس على دستور قرطاجنة ووصفه بأنه « أرقى من سائر دساتير العالم فى كثير من نواحيه » ، وذلك « لأن الدولة تعد حسنة النظام إذا كان العامة أوفياء لدستورها على الدوام ، وإذا لم يثر فيها نزاع أثيم يستحق الذكر ، وإذا لم يستطع أحد أن ينصب نفسه دكتاتوراً فيها[١٠] » ؛ وكان أهلها يجتمعون من آن إلى آن فى جمعية وطنية من حقها أن تقبل أو ترفض ما يعرضه عليها من الاقتراحات مجلس الشيوخ المكون من ثلثمائة من أهل المدينة الكبار ، ولا حق لها فى مناقشتها أو تعديلها . على أن مجلس الشيوخ نفسه لم يكن يحتم عليه أن يعرض على الجمعية أى مشروع فى وسع أعضائه أن يتفقوا عليه[١١] . وكان السكان هم الذين يختارون الشيوخ ، غير أن الرشا العلنية قد أنقصت من مزايا هذه الإجراءات الدمقراطية ومن أخطارها ، وأحلت ألجاركية المال محل أرستقراطية المولد . وكانت الجمعية الوطنية تختارها فى كل عام شفيتين Shofetes ليرأسا الناحيتين القضائية والإدارية فى الدولة . وكان من فوق الهيئات القضائية والإدارية جميعاً محكمة مؤلفة من ١٠٤ من القضاة يبقون فى مناصبهم مدى الحياة ، وإن كان القانون لا يجيز هذا البقاء . وإذ كان من حق هذه المحكمة أن تشرف على جميع فروع الإدارة ، أن تستدعى كل موظف عمومى بعد انتهاء مدة خدمته لتحاسبه على أعماله ، فقد أصبحت قبيل الحروب البونية هى المسيطرة على جميع الإدارات الحكومية والمشرفة على جميع المواطنين .

وكان مجلس الشيوخ هو الذى يرشح القائد الأعلى للجيش ، على أن تختاره الجمعية من بين المرشحين . وكان مركزه خيراً من مركز القنصل فى رومة لأنه كان فى وسعه أن يبقى فى منصبه طوال المدة التى يرغب مجلس الشيوخ أن يبقى

فيه ؛ لكن الرومان قد سيروا على قرطاجنة جحافل من ملاك الأراضى الوطنيين ، على حين أن الجيش القرطاجنى كان مؤلفاً من مرتزقة الجند الأجانب معظمهم من اللوبيين الذين لا يشعرون نحو قرطاجنة بأقل عاطفة وطنية ، ولا يدينون بالولاء إلا لمن يؤدى إليهم أجورهم ، ولقائدهم فى بعض الأحيان . وما من شك فى أن الأسطول القرطاجنى كان فى أيامه أقوى أساطيل للعالم على الإطلاق ، فقد كانت خمسمائة سفينة ذات خمسة صفوف من المجذفين ، زاهية الألوان ، رفيعة ، سريعة ، ترد المعتدين على مستعمرات قرطاجنة وأسواقها ومسالكها التجارية . وكان فتح هذا الجيش القرطاجنى لصقلية ، وإقفال هذا الأسطول حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى فى وجه التجارة الرومانية ، منشأ الصراع المرير الذى دام نحو مائة عام والمعروف باسم الحروب البونية الثلاث .

الفصل الثانى

رجيولوس Regulus

لقد ظلت الأمتان صديقتين طالما كان لإحداهما من القوة ما تستطيع به أن تسيطر على الأخرى . وقد عقدتا فى عام ٥٠٨ معاهدة اعترفتا فيها بسيادة رومة على شاطئ لاتيوم وتعهد فيها الرومان ألا يسيروا سفنهم فى البحر الأبيض المتوسط غربى قرطاجنة ، وألا ينزلوا فى سردانية أو لوبية إلا فترات قصيرة يصلحون فيها سفنهم أو يموّنونها[12] . ويقول أحد الجغرافيين اليونان إن القرطاجنيين اعتادوا أن يغرقوا كل بحار أجنبى يجدونه بين سردانية وجبل طارق[13] . وكان اليونان فى مساليا Massalia (مرسيليا) قد نشأت لهم تجارة شاطئية سلمية بين جنوبى غالة وشمالى أسبانيا الغربى ؛ وتروى الأخبار أن قرطاجنة كانت تحارب هذه التجارة حروب قرصنة ، وأن مساليا كانت حليفة وفية لرومة (ولسنا ندرى ما فى هذه الأخبار من دعاوة حربية يسمونها تاريخاً تكريماً لها وتعظيما) . أما وقد سيطرت رومة على جميع إيطاليا فإنها لم تكن تشعر بالأمن والطمأنينة إلى سلامتها ما دامت هناك قوتان معاديتان لها — اليونان والقرطاجنيون — تتملكان صقلية ، وهى لا تكاد تبعد عن ساحل إيطاليا بميل واحد . يضاف إلى هذا أن صقلية خصبة التربة ، فى وسعها أن تمون نصف إيطاليا بالحبوب ؛ وإذا ما استولت رومة على صقلية سقطت سردانية وقورسقة فى يدها من تلقاء نفسهما . فهاهو ذا طريق لا بد من سلوكه وهو الطريق الطبيعى لتوسع رومة وبسطة ملكها .

وقد بقى أن توجد الحجة التى تتذرع بها رومة لإشعال نار الحرب . وقد جاءت هذه الحجة فى عام ٢٦٤ ق . م حين استولى جماعة من مرتزقة السمنيين يسمون أنفسهم المرتيين Mamertines أى « رجال المريخ » على بلدة مسانا

Messana الواقعة على أقرب سواحل صقلية لإيطاليا ، وذبحوا السكان اليونان أو أخرجوهم من البلدة ، واقتسموا فيما بينهم نساء هؤلاء الضحايا وأبناءهم وأملاكهم ، وجعلوا ديدنهم الإغارة على المدن اليونانية القريبة من تلك البلدة . فما كان من هيرو الثانى Hiero II دكتاتور سرقوسة إلا أن حاصرهم ، ولكن قوة قرطاجنية نزلت فى مسانا وردت هيرو على أعقابه واستولت على المدينة . واستغاث المرتيون برومة وطلبوا إليها أن تعينهم على من أنقذوهم من عدوهم ، وتردد مجلس الشيوخ فى تقديم هذه المعونة لأنه يعرف ما لقرطاجنة من قوة وثروة ، ولكن الأثرياء من العامة الذين كانوا يسيطرون على الجمعية المئوية أخذوا يدعون للحرب وللاستيلاء على صقلية ، وقر قرار رومة أن تبعد القرطاجنيين عن هذا الثغر ذى الموقع الحربى الهام القريب كل القرب منها مهما كلفها هذا من ثمن ؛ وجهزت رومة أسطولا وعقدت لواءه لكيوس كلوديوس Caius Claudius وسيرته لإنقاذ المرتيين ، ولكن القرطاجنيين استطاعوا فى هذه الأثناء أن يقنعوا المرتيين بالعدول عن طلب مساعدة رومة ، وأرسلوا رسالة بهذا المعنى إلى كلوديوس فى ريجيوم Rhegium . غير أن كلوديوس لم يلق بالا إلى هذه الرسالة ، وعبر المضيق الذى يفصل إيطاليا عن صقلية ، ودعا أمير البحر القرطاجنى إلى المفاوضة ؛ فلما جاءه قبض عليه وسجنه ، وبعث إلى الجيش القرطاجنى يقول إنه سيقتل أمير البحر إذا أبدى الجيش أية مقاومة ، ورحب الجنود المرتزقة بهذه الحجة التى تتيح لهم فرصة تجنب القتال مع الفيالق الرومانية ، وتظهرهم فى الوقت نفسه بمظهر الشهامة ، وسقطت مسانا فى يد رومة .

وبرز فى هذه الحرب البونية (الفينيقية) الأولى بطلان عظيمان هما رجيولوس الرومانى وهملكار القرطاجنى . ولعل فى وسعنا أن نضيف إليهما بطلا ثالثاً ورابعاً هما مجلس شيوخ رومة والشعب الرومانى . فأما مجلس الشيوخ فلأنه ضم هيرو صاحب سرقوسة إلى جانب رومة وضمن بذلك وصول العتاد والزاد إلى الجنود

الرومان فى صقلية ، هذا إلى أنه قد نظم الأمة أحسن تنظيم قائم على الحكمة والسداد ، وقوى عزيمتها ، وقادها إلى النصر وسط الخطوب والأهوال الجسام هذا فضل مجلس الشيوخ ، أما الرومان أنفسهم فقد أمدوا الحكومة بالمال والعتاد والأيدى العاملة ، وبالرجال الذين بنوا لرومة أسطولها الأول — وكان مؤلفاً من ٣٣٠ سفينة كلها تقريباً ذات خمسة صفوف من المجدفين ، ويبلغ طول الواحدة منها ١٥٠ قدما ، فى كل منها ٣٠٠ مجدف و ١٢٠ جنديا ، ومعظمها مجهز بخطاطيف من الحديد لم تكن معروفة من قبل ، وبجسور متحركة تمكنهم من الإمساك بسفن الأعداء والنزول إليها . وبهذه الطريقة بدل الرومان الحرب البحرية التى لم يألفوها من قبل حربا برية يقاتلون فيها أعداءهم يداً بيد ، وتستطيع فيها فيالقهم أن تستفيد بكل ما تمتاز به من مهارة وحسن نظام . ويقول پولبيوس فى هذا : « ويدل هذا الحادث أكثر مما يدل غيره من الحوادث على ما للرومان من جرأة وبسالة إذا ما اعتزموا القيام بعمل خطير . . . ذلك أنهم لم يفكروا قط قبل هذا الحرب فى إنشاء أسطول ؛ فلما أن استقر رأيهم على إنشائه بذلوا فى ذلك جهد الجبابرة ، وهاجموا به من فورهم القرطاجنيين الذين ظلوا عدة أجيال سادة البحار لا ينازعهم فيها منازع — مع أن الرومان لم تكن لهم فى حرب البحار خبرة ما[14] » . والتقى الأسطولان بالقرب من إكنوموس Ecnomus أحد الثغور الواقعة على ساحل صقلية الجنوبى ؛ وكانا يحملان من الجند ثلثمائة ألف . ودارت بينهما أكبر معركة بحرية فى التاريخ القديم (٢٥٦) . وانتصر الرومان فيها انتصاراً مؤزراً حاسماً ساروا بعده إلى إفريقية لا يلوون على شىء ، ونزلوا إلى البر دون أن يعنوا باستطلاع الأرض ، فالتقوا بقوة تفوق قوتهم كادت تفنيهم عن آخرهم ، وأسرت قنصلهم الطائش المتهور . وبعد قليل من ذلك الوقت دفعت العواصف الأسطول الرومانى إلى شاطئ صخرى فتحطمت منه ٢٨٤ سفينة وغرق ٨٠,٠٠٠ من رجاله . وكانت هذه أعظم كارثة بحرية عرفها الناس فى التاريخ . وأظهر

الرومان بعدها ما فى طباعهم من عزيمة فبنوا فى ثلاثة أشهر مائتى سفينة جديدة ذات خمسة صفوف من الجذفين ، ودربوا لها ثمانين ألف بحار .

واحتفظ القرطاجنيون برجيولوس فى الأسر خمس سنين ثم سمحوا له بأن يرافق بعثة قرطاجنية إلى رومة تعرض عليها الصلح بعد أن وعدهم بأن يعود إلى الأسر إذا رفض مجلس الشيوخ الشروط التى عرضوها عليه . فلما سمع رجيولوس هذه الشروط أشار على المجلس بأن يرفضها ، ثم عاد مع البعثة إلى قرطاجنة غير عابئ بتوسل أسرته وأصدقائه . وعذبه القرطاجنيون عذابا شديداً بأن حرموا عليه النوم حتى فارق الحياة[١٥] . وأمسك أبناؤه فى رومة بأسيرين من ذوى المكانة فى بلادهما ووضعوهما فى داخل صندوق ثبتت فيه حراب من الحديد ، وحرموا عليهما النوم حتى قضيا نحبهما[١٦] ، وليس فى مقدورنا أن نصدق كلتا القصتين إلا حين نذكر ما حدث من التعذيب الهمجى فى هذه الأيام[*] .

(*) يريد فى الحروب العالمية الثانية .

الفصل الثالث

هملكار

لقد كان فى قرطاجنة عدد كبير من أهلها يحملون أسماء هملكار وهزدروبال وهنيبال ، ذلك بأن هذه الأسماء لا يخلو منها جيل من الأجيال ، وكانت من الأسماء الشائعة فى أقدم أسرها . وكانت أسماء تدل على التقى والصلاح ، ومشتقة من أسماء الآلهة : فأما هملكار فمعناه : « من يتمتع بحماية ملكارت » وأما هزدروبال فمعناه : « من فى معونته بعل » ومعنى هنيبال « الفضل لبعل » . ولقب هملكار الذى نتحدث عنه فى هذا الفصل بهملكار برقة(*) — « الصاعقة » وذلك لأنه كان من طبيعته أن يعجل بضرب عدوه ويفاجئه حيثما وجده . وكان لا يزال شاباً فى مقتبل العمر حين ولته قرطاجنة فى عام ٢٤٧ القيادة العليا لجيوشها ، فسار ومعه أسطول صغير نحو إيطاليا وأخذ يغير على سواحلها ويفاجئها بالنزول فى أراضيها ، ويدمر المراكز الرومانية الأمامية ، ويأسر كثيراً من جنودها . ثم أنزل جنوده إلى البر فى مواجهة جيش رومانى كبير كان يحمى مدينة پنورمس Panormus (پلرمو Palermo الحالية) ، واستولى على ربوة تشرف على المدينة . وكانت القوة التى يقودها أصغر من أن تجازف بالاشتباك مع الرومان فى واقعة كبرى ، ولكنها كانت تعود بالأسلاب كلما قادها لمهاجمتهم . وأخذ يرجو مجلس الشيوخ القرطاجنى أن يبعث إليه بالأمداد والزاد ؛ ولكن المجلس لم يستجب لرجائه وقبض يده فلم يسعفه بالمال الذى كان يكنزه ، وأمره أن يطعم جنوده ويكسوهم من مال البلاد التى حوله ،

(*) وأكبر الظن أن كلمة « البرق » العربية ترجع هى وهذا اللفظ إلى أصل واحد . (المترجم)

وكان الأسطول الرومانى فى هذه الأثناء قد انتصر فى واقعة بحرية أخرى ، ولكنه هزم هزيمة منكرة عند دربانا Drepana (٢٤٩) ، وأضعفت هذه الحروب قوة الفريقين على السواء فاستراحا تسعة أعوام . ولم تفعل قرطاجنة شيئاً فى هذه التسع السنين لأنها كانت تعتمد على عبقرية هملكار ، وأما رومة فإن جماعة من أبنائها قدموا للدولة طائعين عمارة مؤلفة من مائتى سفينة حربية وعليها ستون ألف جندى . وأبحرت هذه العمارة القوية ، دون أن يعلم أحد بإبحارها ، وباغتت الأسطول القرطاجنى عند جزائر إيجاديا Aegadian Isles بالقرب من ساحل صقلية وأحدقت به فاضطرت قرطاجنة إلى طلب الصلح (٢٤١) ، ونزلت عن أملاكها فى صقلية إلى رومة ، وتعهدت أن تؤدى لها غرامة حربية مقدارها ٤٤٠ تالنتا فى كل عام مدى عشر أعوام ، وألغت كل ما كان مفروضاً على التجارة الرومانية من قيود . وكانت الحرب قد دامت عشرين عاماً أو نحوها وأشرفت رومة فى خلالها على هاوية الإفلاس حتى اضطرت إلى تخفيض قيمة نقدها بنحو ٨٣ ٪ ، ولكنها برهنت على ما فى أخلاق الرومان من صلابة لا تلين ، وعلى تفوق الجيش المكون من رجال أحرار على مرتزقة الجند الذين يسعون للحصول على أعظم المغانم بأقل ما يمكن إراقته من الدماء .

وأوشكت قرطاجنة أن تقضى عليها شراهتها وأطماعها ؛ ذلك أنها كانت قد قبضت يدها بعض الوقت عن جنودها المرتزقين ، فلم تؤد إليهم أجورهم ، ولم تستثن من هؤلاء من أخلصــوا فى خدمة هملكار . فأقبلت جموعهم على المدينة يطالبون بتلك الأجور . ولما تلكأت الحكومة فى إجابة مطلبهم وحاولت أن تفرقهم تمردوا عليها جهرة . وانضمت الشعوب الخاضعة لقرطاجنة إلى هؤلاء العصاة ، وكانت قد ابهظها عبء الضرائب الفادحة الذى رزحت تحتــه طوال الحرب وباعت نساء لوبيا حليهن لتمد الثوار بالمال ، وحاصر قرطاجنة عشرون ألفاً من الجنود المرتزقين والثوار يقودهم ماثو Matho وهو لوبى محرر و اسپنديوس

Spendius وهو عبد كمپانى Campanian وكان ذلك الحصار فى وقت لا يكاد يوجد فيها جندى يحميها . وارتعدت فرائص التجار الأغنياء فرقاً وخشوا أن يقضى عليهم الثوار ، فأرسلوا فى طلب هملكار ليؤمنهم على حياتهم . وألفى هملكار نفسه يتنازعه عطفه على جنوده المرتزقة وحبه لمدينته ، ولكنه آثر مدينته على جنده وجند جيشاً من عشرة آلاف قرطاجنى ودربهم ، وقادهم بنفسه ، ورفع الحصار عن المدينة . وارتد الجنود المرتزقون المهزومون إلى الجبال ، وقطعوا يدى چسكو Gesco أحد القواد القرطاجنيين وقدميه ، وكسروا ساقيه ، وفعلوا ذلك الفعل نفسه بسبعمائة أسير غيره ، ثم ألقوا بمن بقى منهم أحياء فى قبر واحد بلا تمييز بينهم[١٧] . واحتال هملكار على أربعين ألفاً من العصاة حتى اضطرهم إلى الالتجاء إلى مضيق ، وسد عليهم مسالكه حتى أوشكوا على الهلاك من الجوع ، فأكلوا من بقى لديهم من الأسرى ، ثم أكلوا عبيدهم ، واضطروا فى آخر الأمر أن يرسلوا أسپنديوس Spendius بطلب الصلح ، فما كان من هملكار إلا أن صلب أسپنديوس وألقى بمئات من الأسرى تحت أرجل الفيلة ، وظلت تطؤهم حتى قضوا نحبهم . وحاول العصاة أن يشقوا لهم بالقوة مخرجاً من مأزقهم الذى وقعوا فيه ، ولكن جيش هملكار قطع أصلابهم ، وقبض على ماثو وأرغمه على أن يعدو فى شوارع قرطاجنة وأهلها من ورائه يضربونه بالسياط ويعذبونه حتى مات[١٨] . ودامت « حرب المرتزقة » هذه أربعين شهراً (٢٤١ — ٢٣٧) ، ويقول پولبيوس إنها كانت أفظع الحروب وأشدها وحشية ، وإن ما سفك فيها من الدماء لم يسفك مثله فى التاريخ كله[١٩] » . ولما أن خمدت نار الفتنة وجدت قرطاجنة أن الرومان قد احتلوا سردانية . فلما احتجت على هذا الاعتداء أعلن الرومان الحرب عليها . واضطر القرطاجنيون فى يأسهم إلى طلب الصلح ولم ينالوه إلا بأن يؤدوا لرومة فوق ما كانوا يؤدون لها من الغرامة ١٢٠٠ تالنت ، وأن يتخلوا عن سردانية وقورسقة .

وفى وسعنا أن نتصور غضب هملكار من هذه المعاملة القاسية التى عوملت بها بلاده . فعرض على حكومته أن تمده بالجند والمال ليعيد قوة قرطاجنة فى أسپانيا وليستعين بها على مهاجمة إيطاليا . وعارض الملاك الأشراف فى هذه الخطة لأنهم كانوا يخافون مغبة الحرب ، ولكن طبقة التجار التى حز فى نفوسها ما فقدته من الأسواق والثغور الأجنبية أيدته . وتراضت الفئتان بعدئذ على أن يعطى هملكار قوة صغيرة عبر بها البحر إلى أسپانيا (٢٣٨) ، واستولى على المدن التى كان ولاؤها لقرطاجنة قد تزعزع فى أثناء الحرب ؛ وقوى صفوف جيشه بأهلها ، وجهزه وأمد بالمال من غلات المناجم الأسپانية ، ومات وهو يقود هجوماً على إحدى قبائل تلك البلاد (٢٢٩) .

وترك وراءه فى معسكره هزدروبال زوج ابنته وأولاده هنيبال وهزدروبال وماجو — الملقب « بابن أسده » . واختير زوج ابنته قائداً فى مكانه ، وظل ثمانى سنين يحكم البلاد بحكمة وسداد كسب فى أثنائها معونة الأسبان ، وأقام بجوار مناجم الفضة مدينة عظيمة يعرفها الرومان باسم قرطاجنة الجديدة (Nova Carthage) وهى مدينة قرطاجنة الباقية إلى اليوم . ولما اغتيل فى عام ٢٢١ اختار الجيش لقيادته هنيبال أكبر أبناء هملكار ، وكان وقتئذ فى السادسة والعشرين من عمره . وكان أبوه قد جاء به قبل أن يغادر قرطاجنة ، وهو لا يزال غلاماً فى التاسعة من عمره ، إلى مذبح بعل — هامان واستحلفه أن يثأر لبلاده من رومة فى يوم من الأيام . فأقسم هنيبال ولم ينس قط قسمه .

الفصل الرابع

هنيبال

ترى لمَ سكتت رومة حتى عادت قرطاجنة إلى فتح أسبانيا ؟ لقد أرغمها على هذا السكوت أن النزاع بين الطبقات كان يمزق أحشاءها ، وأنها كانت تمد سلطانها على شواطئ البحر الأدرياوى ، وكانت مشتبكة فى حرب مع الغاليين . ذلك أن أحد التربيونين وهو كيوس فلامينيوس Gaius Flaminius قد سبق ابنى جراكس Gracchii فأقنع الجمعية فى عام ٢٣٢ بالموافقة على اقتراح يقضى بتوزيع أراضى غنمتها رومة من الغاليين على فقراء المواطنين ، وذلك بالرغم من معارضة مجلس الشيوخ الشديدة لهذا الاقتراح . وفى عام ٢٣٠ خطت رومة الخطوة الأولى لفتح بلاد اليونان ، وذلك بتطهير البحر الأدرياوى من القراصنة وباستيلائها على جزء من سواحل أليريا Illyria لتحمى بذلك التجارة الإيطالية من العدوان . ولما أن اطمأنت على سلامتها من ناحيتى الجنوب والشرق اعتزمت أن تطرد الغاليين إلى ما وراء جبال الألب ، وتجعل من إيطاليا بأكملها دولة متحدة كل الاتحاد . وأرادت أن تضمن سلامتها من ناحية الغرب فعقدت معاهدة مع هزدروبال تعهد فيها القرطاجنيون بأن يبقوا جنوب نهر الإبرة Ebro ، وعقدت فى الوقت نفسه حلفاً مع مدينتى سجنتم Saguntum وامبورياس Ampurias الأسبانيتين الإغريقيتى الصبغة . ولكن جيشا غالياً مؤلفا من خمسين ألفاً من المشاة وعشرين ألفاً من الفرسان انقض على شبه الجزيرة من الشمال . وارتاع سكان العاصمة أشد الارتياع ، ولجأ مجلس الشيوخ إلى العادة البدائية عادة التضحية البشرية ، ودفن اثنين من الغالة حيين فى السوق العامة مرضاة للآلهة[٢٠] . والتقت الفيالق الرومانية بالغزاة قرب تلامون Telamon وقتلت منهم أربعين ألفاً وأسرت عشرة

آلاف ، وزحفت نحو الشمال لتخضع جميع بلاد الغاليين الواقعة فى جنوب جبال الألب ، وأتمت هذا العمل فى ثلاث سنين وأنشأت مستعمرات رومانية عند پلاسنتيا Placentia وكرمونا Cremona لحماية البلاد من الغاليين وبذلك أصبحت إيطاليا دولة واحدة تمتد من جبال الألب فى الشمال إلى صقلية فى الجنوب .

ولكن هذا النصر قد جاء فى غير أوانه ؛ فلو أن الغاليين قد تركوا فى أماكنهم بضع سنين أخرى لكان فى وسعهم أن يقفوا فى وجه هنيبال ؛ أما والحال كما هى فإن بلاد الغالة كلها كانت تضطرم بنار الثورة على رومة . ورأى هنيبال أن هذه هى الفرصة التى طالما تاقت نفسه إليها — فرصة اجتياز بلاد الغاليين دون أن يلقى مقاومة تستحق الذكر ، وغزو إيطاليا ومعه القبائل العالية تحالفه وتشد أزره .

وكان القائد البونى يومئذ فى الثامنة والعشرين من عمره ، وفى عنفوان شبابه ، وثيق الأركان ثبت الجنان . وكان قد جمع إلى ثقافة السادة القرطاجنيين ، وتمكنهم من لغتى فينيقية واليونان وآدابهما وتاريخهما[٢١] ، جمع إلى هذه الثقافة تدريباً عسكرياً دام تسعة عشر عاماً فى المعسكر الحربى ، أدب فى خلالها نفسه أحسن تأديب ، فعود جسمه شظف العيش ومغالبة الصعاب ، وأخضع شهواته لعقله ، وعود لسانه السكوت ، كما عود أفكاره أن تركز فيما يهدف إليه من الأغراض . ولم يكن يضارعه أحد فى الجرى أو فى سباق الخيل ، وكان فى مقدوره أن يخرج إلى الصيد أو القتال مع أشجع الشجعان ؛ ويصفه ليفى وهو من أعدائه بأنه : « كان أول من يدخل المعمعة ، وآخر من يخرج من الميدان[٢٢] » . وكان محبباً إلى القواد والجنود الذين ضرستهم الحروب ، لأنهم إذا كانوا فى حضرته تملكتهم هيبته وثاقب نظراته فخالوا أن هملكار قائدهم الأكبر قد عاد إليهم فى عنفوان الشباب . وأحبه المجندون الجدد لأنه لم يكن يرتدى ثياباً يميز

بها نفسه منهم ولا يستريح حتى يكفل للجيش كل حاجاته ، وكان يقاسمهم كل ما يصيبهم من شر وخير . أما الرومان فكانوا يتهمونه بالبخل والقسوة والغدر ، لأنه لم يكن يتقيد بمبدإ من المبادئ يحول بينه وبين الاستيلاء على المؤن لجنده ، وكان يجازى على الخيانة وعدم الولاء أشد الجزاء ، وكان ينصب لأعدائه كثيراً من الشراك . ولكننا كثيراً ما نجده مشفقاً رحيما ، ونراه على الدوام شهماً ذا مروءة . ويقول عنه ممسن Mommsen ذلك القول الحكيم وهو « أنه ليس فيما يروى عنه شيء لا يمكن أن تبرره ظروف وقته والقوانين الدولية التي كانت سائدة فى أيامه[٣٣] » . ولم يكن فى وسع الرومان أن يرضوا عنه لأنه كان يكسب الوقائع الحربية بعقله بدماء رجاله ، ذلك أن الحيل التي كان يحتال بها عليهم ، ومهارته فى التجسس عليهم ومعرفة أسرارهم ، وعلمه بفنون الحرب والحركات العسكرية ، وقدرته على مباغتة أعدائه ، كل هذا ظل فوق إدراكهم وتقديرهم حتى دمرت قرطاجنة .

وحدث فى عام ٢١٩ ق . م أن دبر عمال رومة فى سجنتم انقلاباً سياسياً أقام فى المدينة حكومة وطنية معادية لقرطاجنة . ولما أساء أهل المدينة معاملة بعض القبائل الموالية لهنيبال ، أمرهم بالكف عن هذه المعاملة السيئة ، فلما رفضوا طلبه حاصر المدينة ، فاحتجت رومة على قرطاجنة وأنذرتها بالحرب ؛ فكان رد قرطاجنة أن سجنتم تبعد عن نهر إبره Ebro مائة ميل نحو الجنوب ، وأن ليس من حق رومة أن تتدخل فى هذا النزاع ، وأنها إذ وقعت معاهدة مع تلك المدينة أخلت بشروط معاهدتها مع هزدروبال . وواصل هنيبال الحصار ، وامتشقت رومة الحسام مرة أخرى ، وهى لا تدرى أن هذه الحرب البونية الثانية ستكون أشد هولا من جميع الحروب التي خاضت غمارها فى تاريخها كله .

وقضى هنيبال فى إخضاع أهل سجنتم ثمانية أشهر كاملة ، وذلك لأنه لم يكن يجرؤ على التقدم لغزو إيطاليا ويترك لرومة من ورائه ثغرا هاما

تستطيع أن تنزل جنودها فيه . فلما تم له الاستيلاء عليها عبر نهر الإبرة فى عام ٢١٨ وتحدى الأقدار كما تحداها قيصر من بعده حين تخطى الريبكون(*) Rubicon وكان تحت قيادته جيش يتألف من خمسين ألفاً من المشاة وتسعة آلاف من الفرسان ، ليس فيهم أحد من الجنود المرتزقين ، ومعظمهم من الأسبان واللوبيين . ولكن ثلاثة آلاف من جنوده الإسبان نكصوا على أعقابهم حين علموا أنه ينتوى عبور جبال الألپ ؛ وسرح هو نفسه سبعة آلاف غيرهم لأنهم احتجوا على هذه المغامرة ، وقالوا إنها مستحيلة التحقيق[٢٤] . وكان اختراق جبال البرانس نفسها من أشق الأعمال ؛ ولم يكن يتوقع قط أن يلقى ما لقيه من المقاومة الشديدة من بعض قبائل الغاليين أحلاف مرسيلية ؛ واقتضاه الوصول إلى نهر الرون حروباً دامت ثمانية أشهر ، فلما وصله كان لا بد له من معركة عنيفة ليتمكن من اجتيازه . وما كاد يبتعد عن شاطئيه حتى وصـــل جيش رومانى عند مصبه .

واتجه هنيبال بجيشه شمالا نحو ڤين Vienne ثم اتجه به شرقا نحو جبال الألپ . وكانت جموع من الكلت قد عبرت هذه السلاسل الجبلية من قبله . وكان فى مقدوره هو أن يعبرها دون أن يلقى فى سبيل ذلك صعاباً غير عادية لولا عداء القبائل الألپية وما عاناه من الصعاب فى تسيير فيلته فى الممرات الضيقة أو الشديدة الانحدار . وقضى هنيبال فى تسلق الجبال تسعة أيام وصل بعدها فى أوائل شهر سبتمبر إلى قممها فوجدها مغطاة بالثلوج ؛ وبعد أن استراح هو ورجاله ودوابه يومين شرع فى النزول فى ممرات أشد وعورة من التى سلكها فى الصعود ، وطرق مغطاة فى بعض الأحيان بجلاميد من الصخر ومرصوفة فى أحيان أخرى بالجليد . وكثيراً ما كانت تزال أقدام الجنود والدواب فتتردى فى هاويات سحيقة تلقى فيها حتفها . وكان هنيبال يستحث جنوده اليائسين بأن يشير إلى الحقول الناضرة والمجارى المتلألئة التى تنتشر من بعيد فى جنوب الجبال ، ويقول

(*) انظر هذا فى تاريخ قيصر فيما بعد . (المترجم)

إن هذه الجنة التى وعدهم بها سوف تكون لهم بعد قليل . وبعد أن قضوا سبعة عشر يوماً فى الصعود والهبوط وصلوا إلى السهول ، وألقوا عصا التسيار ليستريحوا ، وقد خسر الجيش فى هذه المجازفة الخطيرة كثيراً من الرجال والجياد حتى لم يبق من الجنود إلا ستة وعشرون ألفا أى أقل من نصف القوة التى غادر بها قرطاجنة الجديدة منذ أربعة شهور . ولو أن هنيبال لقى من الغاليين فى جنوب الأرض مثل ما لقيه من مقاومة الغاليين فى غربها لكان الأرجح أن تنتهى حملته قبل أن يتقدم جنوباً فى إيطاليا ولكن البوئى Boii وغيرهم من القبائل رحبوا به ورأوا فيه منقذاً لهم ، فتحالفوا معه وانضووا تحت لوائه ، وأما المستعمرون الرومان المحدثون الذين أسكنتهم رومة فى تلك البلاد فقد فروا أمامه نحو الجنوب ، ولم يقفوا حتى عبروا نهر البو Po .

وهكذا واجه مجلس الشيوخ هذا الخطر الثانى يهدد رومة بالدمار والفناء ولما يمض على الخطر الأول إلا نحو سبع سنين ، فاستعان بموارد البلاد كلها ، وأهاب بالولايات الإيطالية أن توحد جهودها للدفاع عن بلادها . وبفضل ما لقيته من معونتها جندت رومة جيوشا بلغت عدتها ثلثمائة ألف من المشاة ، وأربعة عشر ألفاً من الفرسان ، وستة وخمسين ألفاً وأربعمائة ألف من الجنود الاحتياطيين . والتقى أحد الجيوش الرومانية بقيادة سپيو Scipio — وهو واحد من كثير من مشهورى القواد المسلمين بهذا الاسم — على شاطئ نهر تسينو Ticino ، وهو رافد صغير من روافد نهر البو يلتقى به عند باڤيا Pavia . وهاجم فرسان هنيبال النوميديون Numidian جنود سپيو وولوهم الأدبار ، وجرح سپيو جرحاً خطيراً ، وكاد أعداؤه يجهزون عليه لولا شجاعة ولده الذى شاءت الأقدار أن يلقى هنيبال مرة أخرى عند زاما Zama بعد ستة أشهر من ذلك الوقت . والتقى هنيبال بجيش رومانى آخر عند بحيرة ترزميني Trasimene تبلغ عدته ثلاثين ألف مقاتل يقوده التربيون كيوس فلامنيس Caius Flaminius ، ويتبعه عدد من النخاسين

يحملون الأغلال ليسلكوا فيها الأسرى الذين يأملون أن يبيعوهم فى الأسواق، بيع العبيد . واستطاع هنيبال ومعه جزء من جيشه أن يخدع جيش فلامينيوس فيستدرجه إلى سهل تكتنفه التلال والغابات اختبأ فيها معظم جنوده ؛ فلما ضمه هذا السهل أشار إلى طوابيره المختبئة فانقضت على الرومان من كل الجهات وأفنتهم عن آخرهم تقريباً ، وقتل فلامينيوس نفسه (٢١٧) .

وبذلك سيطر هنيبال على شمال إيطاليا كله ، ولكنه كان يعرف أن أمامه عدواً عنيداً يبلغ عدده عشرة أضعاف عدد رجاله ، وكان أمله الوحيد فى التغلب على هذا العدو هو أن يقنع بعض الولايات الإيطالية بالخروج على رومة . وكانت وسيلته إلى هذا أن أطلق سراح كل من وقع فى أسره من أحلاف رومة ، وقال إنه لم يأت ليحارب إيطاليا بل جاء ليحررها من الاستعمار . ثم خاض إتروريا التى كانت تغمرها المياه ، وظل أربعة أيام كاملة لا يجد أرضا جافة يقيم فيها معسكره ، فعبر جبال الأپنين إلى شاطئ البحر الأدرياوى ، حيث سمح لجنوده أن يقضوا فترة طويلة يستعيدون فيها نشاطهم ، ويداوون فيها جراحهم ، وكان هو نفسه مصابا برمد خطير فى عينيه ، ولكنه لم يعالجه فانتهى بفقد إحداهما . وبعد أن استراح جيشه اتجه به نحو الجنوب بمحاذاة ساحل إيطاليا الشرقى ، وأخذ يعرض على القبائل الإيطالية أن تنضوى تحت لوائه ، ولكن واحدة منها لم تستجب لدعوته ، بل فعلت عكس هذا فكانت كل مدينة تغلق أبوابها دونه وتتأهب للقتال . وحينما اتجه إلى الجنوب أخذ حلفاؤه الغاليون يتخلون عنه لأنهم لم يكن يعنيهم إلا مصير موطنهم فى الشمال وبلغ من كثرة المؤامرات التى دبرت لاغتياله أن صار يتخفى فى كل يوم بشكل جديد . وأخذ يتوسل إلى حكومته أن ترسل إليه المدد والعتاد والزاد عن طريق أحد الثغور الواقعة على البحر الأدرياوى ، ولكن حكومته خيبت رجاءه ، فطلب إلى هزدروبال أخيه الأصغر — وكان قد تركه فى أسپانيا — أن يعد فيها جيشا يعبر به بلاد غالة وجبال الألپ وينضم

إليه ؛ ولكن الرومان كانوا قد غزوا أسبانيا ، فلم يجرؤ هزدروبال على مغادرتها ؛ ومضت عشر سنين قبل أن يخف إلى نجدته .

واستعانت رومة على عدوها الأكبر بخطته هو نفسه ، خطة المراوغة والحيطة والإفناء البطيء . واختير كونتس فابيوس مكسموس Quintus Fabius Makimus دكتاتوراً لعلاج الموقف فى عام ٢١٧ ، فاتبع خطة تقضى بأن يؤخر ما استطاع الالتحام فى واقعة فاصلة مع هنيبال . ونجح فى هذا نجاحاً اشتق معه من اسمه وصف لهذا النوع من القتال . وكان فابيوس يرى أن الغزاة سيتناقص عددهم على مر الأيام بفعل الجوع والمرض والشقاق ، ولكن الشعب الرومانى لم يطق صبراً على خطة « السكون السديدة » أكثر من عام ؛ وتغلبت الجمعية المئوية على مجلس الشيوخ وعلى منطق الحوادث والسوابق جميعها ، واختارت منوسيوس روفوس Minucius Rufus دكتاتوراً مع فابيوس . وسار منوسيوس لملاقاة العدو على الرغم من نصيحة فابيوس ، فوقع فى كمين وهزم هزيمة منكرة أدرك بعدها لم قال هنيبال إنه يخشى فابيوس الذى لم يحاربه أشد مما يخشى مرسلس Marcellus الذى يبغى حربه(٢٥) . وبعد عام واحد أسقط الرومان فابيوس وعهدوا إلى لوسيوس إمليوس پولوس Lucius Aemilius Paulus ، وكيوس ترتنيوس ڤارو Caius Terentius Varro قيادة الجيوش الرومانية . وأشار پولوس الأرستقراطى بالحيطة والتريث ، أما ڤارو مختار العامة فكان شديد الرغبة فى العمل العاجل ، وحدث ما يحدث عادة فى مثل هذه الأحوال فتغلب الرأى الأخير ، وأخذ ڤارو يبحث عن القرطاجنيين حتى وجدهم عند كانى Cannae من أعمال أپوليا Apulia على بعد عشرة أميال أو نحوه من شاطئ البحر الأدرياوى . وكان قوام الجيش الرومانى ثمانين ألف راجل وستة آلاف فارس ؛ أما هنيبال فكان لديه تسعة عشر ألف جندى ممن ضرستهم الحروب ، وستة عشر ألفاً من الغاليين الذين لا يوثق بهم ، وعشرة آلاف من الفرسان ؛ وكان قد خدع ڤارو حتى جعله يحاربه فى سهل

متسع هو أحسن المواضع لحرب الفرسان ، وكان قد وضع الغاليين فى القلب لظنه أنهم سيتخلون عن مواقعهم ؛ وقد صدق ظنه فتراجعوا واقتفى الرومان أثرهم فى الثغرة التى حدثت بانسحابهم ، فأمر القائد القرطاجنى الماكر مضرسة جنده بالإطباق على جناحى الجيش الرومانى ، وخاض بنفسه غمار المعمعة فى أشد أماكنها هولا ، كما أمر فرسانه باختراق صفوف فرسان العدو ومهاجمة الفيالق الرومانية من خلفها ، وبذلك أحاط القرطاجنيون بالجيش الرومانى ، ولم يجد له فرصة للتحرك ، وكاد يفنى عن آخره ؛ فقد قتل من رجاله أربعة وأربعون ألفاً ، من بينهم پولوس Paulus وثمانون من الشيوخ الذين تطوعوا فى الجيش ، وفر عشرة آلاف إلى كنوزيوم Canusium ومن بينهم ڤارو وسپيو الذى لقب فيما بعد بالإفريقى الأكبر Africanus Major (٢١٦) . أما هنيبال فقد خسر من رجاله ستة آلاف ثلثاهم من الغاليين . وكان نصره هذا شاهداً فذاً على براعته فى القيادة التى لم يتفوق عليه أحد فيها فى التاريخ كله . ولم يعد الرومان بعد هذا النصر يعتمدون قط على الجنود المشاة ، كما أن هذا النصر وجه الحركات العسكرية الفنية وجهة لم تتحول عنها مدى ألفى عام .

الفصل الخامس

سبيو

وزعزعت هذه الكارثة هيبة رومة فى جنوبى إيطاليا وضعضعت سلطانها ، فانضم السمنيون والبروتيون واللوكانيون وأهل متابنتم ، وثوراى ، وكروتونا ، ولوكرى ، وكپوا(*) إلى الغاليين الجنوبيين فى حلفهم مع هنيبال ، ولم يثبت على الولاء لرومة إلا أمبريا ، ولاتيوم ، وإتروريا . وظل هرو صاحب سرقوسة وفياً حتى مماته ، ولكن خلفه جهر بانضمامه إلى قرطاجنة . وتحالف فيلب الخامس ملك مقدونية مع هنيبال لأنه كان يخشى أن تبسط رومة سلطانها على البلاد الواقعة فى شرق أوربا عن طريق إليريا Illyria ، وأعلن الحرب على رومة . وأظهرت قرطاجنة نفسها شيئاً من الاهتمام بالأمر فبعثت إلى هنيبال بقليل من الزاد والعتاد ؛ وظن بعض الشبان من النبلاء الذين نجوا من كارثة كنوزيوم أن لا أمل لرومة فى النجاة ، وفكروا فى الهرب إلى بلاد اليونان ، ولكن سيپو ظل يندد بموقفهم حتى استحوا ودبت فيهم روح الشجاعة ؛ وقضت رومة شهراً كاملا وهى فى أشد حالات الروع ؛ ولم يكن فيها إلا حامية قليلة تدفع عنها هنيبال إذا ما هاجمها . وهرعت كرائم العقائل إلى الهياكل يبكين وينظفن بشعورهن تماثيل الآلهة ، وعاشرت بعض النساء اللائى قتل أزواجهن وأبناؤهن فى الحروب الأجانب والرقيق خشية أن ينقطع نسلهن ؛ وظن مجلس الشيوخ أن الآلهة غضبى فأحل مرة أخرى التضحية بالآدميين مرضاة لها ، وأمر بدفن اثنين من الغاليين واثنين من اليونان أحياء(٣٦) .

ولكن الرومان على حد قول بولبيوس إنما « يُخشون أشد الخشية فى ساعة

(*) Samnites, Bruttians, Lucanians, Metapontum, Thurii, Cotona, Locri, Capua

المحنة ... وشاهد ذلك أنهم وإن منوا بأشد الهزائم ، وخسروا سمعتهم الحربية ، استطاعوا ، بفضل ما كان لدستورهم من المزايا التي لا يشاركه فيها دستور غيره ، وبالاستماع إلى حسن المشورة ، أن يستردوا سيادتهم على إيطاليا ... . وأن يصبحوا بعد قليل من السنين سادة العالم[٣٧] » وفي هذه الساعة الرهيبة سكنت حرب الطبقات ، وتدافعت كل الطوائف للعمل على إنقاذ الدولة . وكانت الضرائب قبل ذلك الوقت قد ارتفعت حتى ظن أنهم لن يطيقوها ، ولكن السكان ، ومنهم الأرامل والأطفال ، تقدموا راضين لخزانة الدولة بما كانوا قد ادخروه لأيام الشدة ؛ وجند كل رجل قادر على حمل السلاح ، وحتى الأرقاء قد قبلوا في الفيالق ووعدهم أسيادهم بأن يهبوهم حريتهم إذا كتب النصر لروما ، ولم يرض جندي واحد أن يتناول عن عمله أجراً ، واستعدت رومة لتنازع أسد قرطاجنة الجديد كل شبر من أرضها .

وانتظرت رومة مجيء هنيبال ، ولكن هنيبال ، لم يأت إليها فقد ظن أن قوته المؤلفة من أربعين ألف مقاتل أقل من أن تحاصر مدينة تتجمع للدفاع عنها جيوش من جميع الولايات التي لا تزال موالية لها ، ولا يستطيع الاحتفاظ بها لو أنه استولى عليها . هذا إلى أن أحلافه من الإيطاليين لم يكونوا مصـــدر قوة له بل كانوا مصدر ضعف ، فقـــد كانت رومة وأصدقاؤها يعدان العدة لمهاجمة أولئك الأحـــلاف ، وإذا لم يخف هو لنجدتهم فسيقضى عليهم . وقد لامه رجاله على حذره وبطئه ، وقال له واحد منهم والأسف يحز في نفسه : « إن الآلهة لم تمنح كل مواهبها لرجل واحد ، إنك ياهنيبال تعرف كيف تنال النصر ، ولكنك لا تعرف كيف تنتفع به[٣٨] » . لكن هنيبال استقر رأيه على أن ينتظر حتى تنضم إليه قرطاجنة ومقدونية ، وسرقوسة فيؤلف منها حلفاً ثلاثياً يستعيد به صقلية وسردانية ، وقورسقة ، وإلبريا فلا يكون لرومة قوة إلا في إيطاليا . وبدأ بإطلاق الأسرى جميعهم عدا الرومان ، وحتى هؤلاء عرضهم على رومة نظير فدية قليلة

فلما رفض مجلس الشيوخ أن يفتديهم أرسل معظمهم عبداً إلى قرطاجنة ، وأرغم الباقين على أن يسلوا رجاله بأن يصارع بعضهم بعضاً فى حلبة الجلاد حتى الممات كما يفعل الرومان . ثم أحاط بعدة مدن واستولى عليها وسار بجيوشه ليقضى الشتاء فى كبوا **Capua** .

وكانت كبوا أجمل المدن التى كان فى مقدوره أن يختارها لهذه الغاية وأشدها خطر عليه . ذلك أن هذه المدينة ، وهى ثانية المدن الإيطالية ، والتى تبعد عن نابلى نحو اثنى عشر ميلا إلى الشمال ، قد أخذت عن التسكانيين واليونان رذائل الحضارة كما أخذت عنهم فضائلها ؛ وأحس جنود هنيبال أن من حقهم أن يستمعوا فى ذلك الفصل بالملاذ الجسمية بعدما قاسوا من الصعاب وما أثخنوا من الجراح ؛ ولم يعودوا كما كانوا من قبل أولئك الجند الشداد الذين لا يقهرون ، والذين احتفظوا طوال ما خاضوه من الحروب بالصورة الاسپارطية التى كانت فى اعتقاد قائدهم هى وحدها صورة الجندى الحق . وقادهم هنيبال فى خلال الخمس السنين التالية وانتصر بهم فى بعض الوقائع الصغيرة ، وفى هذه الأثناء ضرب الرومان الحصار على كبوا . وأراد هنيبال أن يرفع عنها الحصار فتقدم إلى رومة حتى لم يبق بينه وبينها إلا بضعة أميال ؛ وجند الرومان خمسا وعشرين فرقة جديدة — أى مائتى ألف رجل ، ولم تكن قوة هنيبال قد زادت على أربعين ألفاً ، فاضطر إلى الانسحاب نحو الجنوب . وسقطت كبوا فى أيدى الرومان عام ٢١١ ، وقطعت رؤوس زعمائها الذين أباحوا قتل من كان من الرومان فى المدينة ؛ ومن لم يقتل منهم انتحر ؛ وشتت أهلها الذين ناصروا هنيبال فى جميع أنحاء إيطاليا ، وكان مرسلس **Marcellus** قبل عام واحد من ذلك الوقت قد استولى على سرقوسة وبعد عام منه استسلمت أرجنتم لرومة ؛

وأرسل إلى أسپانيا فى هذه الأثناء جيش رومانى بقيادة سپيو وأخيه الكبيرين ليناوشا هزدروبال ويشغلاه . فهزماه عند نهر أبره (٢١٥) ، ولكن القائدين قتلا فى الميدان بعد قليل ، وكادت تضيع ثمار ما كسباه

من النصر لولا أن أرسل إلى اسبانيا سپيو الإفريقى Scipio Afrcanus ، ابن أحد القائدين وابن أخ الثانى ، ليتولى قيادة الجيوش الرومانية فيها ، ولم يكن سپيو هذا قد تجاوز الرابعة والعشرين من عمره فى ذلك الوقت ، ولم تكن هذه السن تجيز له من الوجهة القانونية أن يشغل هـذا المنصب الخطير ؛ ولكن مجلس الشيوخ كان فى ذلك الوقت لا يرى ضيراً فى أن يتجاوز عن حرفية الدستور إذا كان فى ذلك التجاوز نجاة للدولة ، وكانت الجمعية قد رضيت مختارة أن تخضع لإرادة مجلس الشـيوخ ، ولم يكن الشعب يعجب به لبهاء طلعته وفصاحة لسانه وذكائه وشـجاعته فحسب ، بل كان يعجب به كذلك لتقواه ، وعدالته ، وبشاشته . وكان من عادته قبل أن يقدم على أمر خطير أن يناجى الآلهة فى الهياكل المقامة على الكپتول ، كما كان من عادته بعد أن ينال النصر أن يكافئها بذبح مئات من الثيران قرباناً لها . وكان يعتقد ، أو لعله كان يتظاهر بالاعتقاد ، أنه محبوب الآلهة ؛ وكانت انتصاراته سبباً فى انتشار هـذه العقيدة بين أتباعه فملأت قلوبهم ثقة به . ومالبث أن أعاد النظام إلى الجيش، واستولى على نوڤا كرتاجو (قرطاجنة الجديدة) بعد حصار طويل ، وحرص على أن يبعث إلى خزانة الدولة بما وقع فى يديه بعد سقوطها من المعادن الثمينة والحجارة الكريمة ، واستسلمت له بعدئذ معظم المدن الأسبانية ، ولم يحل عام ٢٠٥ حتى كانت أسبانيا ولاية رومانية .

ولكن قوة هزدروبال الرئيسية كانت قد أفلتت من يد سپيو واجتازت بلاد غالة وعبرت جبال الألب إلى إيطاليا . ووقعت الرسالة التى بعث بها القائد الشاب لهنيبال فى يد الرومان وعرفت رومة خططه الحربية ، والتقى بجيش رومانى بذاته الصغيرة عند نهر متورس Metaurus (٢٠٧) وهزمته رغم مهارته فى القيادة . ولما رأى هزدروبال أن قد حاقت به الهزيمة وأن لا أمل له فى الوصول إلى أخيه ، قفز فى وسط الفيالق الرومانية حيث لقى حتفه . ويقول المؤرخون الرومان — ولعـل ما يقولونه من نسج الخيال — إن القائد المنتصر قطع رأس القائد الشاب ،

وبعث بها بطريق أپوليا ليقذف بها من فوق الأسوار فى معسكر هنيبال ولما علم ذلك القائد بما حل بأخيه ، وكان يحبه أشد الحب ، فت فى عضده ، وطفشت بجرته ، فسحب قواته ، وكانت قد قل عديدها ، إلى بروتيوم Bruttium : ويقول ليفى إن « الرومان لم يشتبكوا معه فى حرب فى ذلك العام ، وإنهم لم يجرؤوا على مناوشته ، وذلك لما عرف عن قواته من البسالة وإن كان ركنه قد تضعضع وأخذت الأقدار تعاكسه ، وبدأ نجمه فى الأفول[٢٩] » . وأرسلت إليه قرطاجنة مائة سفينة محملة بالزاد والرجال ؛ ولكن عاصفة هوجاء ساقتها إلى سردانية فالتقت فيها بعمارة بحرية رومانية أغرقت وأسرت منها ثمانين ، وانطلقت السفن الباقية عائدة إلى بلادها .

واختير سپيو الأصغر قنصلا فى عام ٢٠٥ ولما يمض على انتصاره فى أسپانيا إلا وقت قصير ، فجند جيشاً جديداً وأبحر به إلى إفريقية . وطلبت الحكومة القرطاجنية إلى هنيبال أن يعود إلى بلاده ليدافع عن المدينة التى ظلت زمناً طويلا ترفض معاونته . ترى ماذا كان شعور هذا الجندى الأعور وقد تألب عليه أعداء لا حصر لهم فساقوه إلى ركن قصى فى إيطاليا ، وشاهد بعينيه ما بذله من الجهد وما عاناه من المشاق خلال خمسة عشر عاماً كاملة ينتهى إلى لا شىء ، وكل ما ظفر به من نصر حربى يقضى عليه فلا تكون له نتيجة إلا الفرار من الميدان ؟ لقد أبى نصف جنوده أن يعودوا معه إلى قرطاجنة ، ويقول بعض من يعادونه من المؤرخين إنه أمر بقتل عشرين ألفاً منهم عقاباً لهم لأنهم خالفوا أمره ، ولأنه كان يخشى أن تضمهم رومة إلى فيالقها[٣٠] ؛ فلما أن وطئت قدماه أرض بلاده ، بعد أن غاب عنها ستة وثلاثين عاماً بادر إلى حشد جيش جديد وسار على رأسه لملاقاة سپيو عند زاما Zama على بعد خمسين ميلا جنوبى قرطاجنة (٢٠٢) : وتقابل القائدان فى بداية المعركة مقابلة ودية ، فلما وجد أن لا سبيل إلى الاتفاق بينهما أصدرا أمرهما ببدء القتال

وهزم هنيبال للمرة الأولى فى حياته ، فقد تضعضع القرطاجنيون ، وكان معظمهم من الجند المرتزقة ، أمام مشاة الرومان وفرنسا ومسينسا Massinissa ملك نوميديا المجازفين الأبطال . وقاتل هنيبال وهو فى سن الخامسة والأربعين كما كان يقاتل وهو فى نضرة الشباب ، فهجم على سپيو بنفسه وجرحه ، ثم ثنى بمسينسا ، وأعاد تنظيم قواه بعد أن اختل نظامها أكثر من مرة ، وقادها فى هجمات مضادة شديدة على الأعداء . فلما لم يبق له أمل فى النصر أفلت من الأسر وسار على ظهر جواده إلى قرطاجنة ، وأعلن أنه لم يخسر الموقعة فحسب بل خسر الحرب كلها معها ، وأشار على مجلس الشيوخ بأن يطلب الصلح . وعامل سپيو القرطاجنيين معاملة الكرام فرضى أن تحتفظ قرطاجنة بأملاكها فى إفريقية ، ولكنه طلب إليها أن تسلم لرومة جميع سفنها الحربية عدا عشر من ذات الثلاثة الصفوف من المجذفين ، وألا تشتبك فى حرب خارج إفريقية أو داخلها إلا بعد موافقة رومة ، وأن تؤدى إليها غرامة حربية سنوية مقدارها مائتا تالنت أى ما يقرب من ٧٢٠,٠٠٠ ريال أمريكى مدى خمسين عاماً . وأعلن هنيبال أن هذه الشروط عادلة وأشار على مجلس الشيوخ بقبولها .

وغيرت الحرب البونية الثانية وجه البحر الأبيض المتوسط من ناحيته الغربية ، فقد سيطرت رومة بعدها على أسپانيا كلها وما فيها من ثروة فأمدتها بما يلزمها من المال لفتح بلاد اليونان ، وأعادت إلى إيطاليا وحدتها تحت سيادة رومة لا ينازعها فيها منازع ، وفتحت جميع الطرق والأسواق للسفن والبضائع الرومانية ؛ ولكنها كانت أكثر الحروب القديمة جميعها نفقة ، فقد خربت مزارع إيطاليا الجنوبية أو ألحقت بها أشد الأضرار ، رهدمت أربعمائة من مدنها ، وأهلكت ثلثمائة ألف من رجالها[31] ؛ ولم تفق إيطاليا الجنوبية حتى اليوم من جميع ما أصابها من هذا الدمار . يضاف إلى هذا أن هذه الحرب قد أضعفت الديمقراطية إذ ظهرت أن الجمعيات الشعبية عاجزة عن أن تحسن اختيار القواد أو إدارة دفة الحروب ؛ وكانت سببا فيما طرأ على حياة الرومان وأخلاقهم من انقلاب ، فقد

أضرت بالزراعة وشجعت التجارة ، وانتزعت الرجال من الريف ، وعلمتهم عنف الحروب ومفاسد حياة المعسكرات ، وجاءت بمعادن أسبانيا النفيسة لتنفق على ملاذ الحياة وعلى التوسع الاستعمارى وأمكنت إيطاليا من أن تعيش على ما اغتصبته من قمح أسبانيا وصقلية وإفريقية ، وقصارى القول أن هذه الحرب كانت المحور الذى يدور حوله تاريخ رومة من جميع نواحيه .

هذه آثار الحرب فى رومة ، أما فى قرطاجنة فقد كانت بداية نهايتها . لقد كان فى وسعها ، وقد احتفظت بجزء كبير من تجارتها وإمبراطوريتها ، أن تحل ما يواجهها من مشاكل الإنعاش ؛ ولكن حكومتها الألجركية قد بلغت من الفساد مبلغاً جعلها تلقى على كاهل الطبقات الدنيا عبء الغرامة الحربية ، وأن تختلس جزءاً من هذه الغرامة . وطلبت طوائف الشعب إلى هنيبال أن يخرج من عزلته وينقذ الأمة من محنتها ، واختير فى عام ١٩٦ حاكماً عاماً لها . فلما تولى منصبه روع سراة المدينة إذ اقترح ألا يبقى قضاة المحكمة البالغ عددهم ١٠٤ فى مناصبهم أكثر من سنة واحدة ، وألا يعاد انتخابهم إلى هذه المناصب إلا بعد عام من خروجهم منها . فلما رفض مجلس الشيوخ هذا الاقتراح عرضه على الجمعية الشعبية فأجازته ، وكانت نتيجة هذا القانون وما اتبع فيه من إجراء أن أنشأ من أقصر طريق نوعاً من الدمقراطية لا يقل عن مثيله فى رومة . ثم حارب الرشوة واجتثها من أصولها ، وأنزل بالمرتشين أشد العقاب ، ورفع عن الأهلين ما فرض عليهم من الضرائب الإضافية ، ودبر موارد الدولة تدبيراً استطاعت به قرطاجنة قبل أن يحل عام ١٨٨ أن تؤدى جميع ما فرضته عليها رومة من غرامة حربية .

لكن أرباب الأموال أرادوا أن يتخلصوا منه فبعثوا فى السر إلى رومة يقولون إن هنيبال يعد العدة لاستئناف القتال . وبذل سپيو كل ما له من نفوذ ليحمى عدوه القديم ، ولكنه غلب على أمره واستجاب مجلس الشيوخ إلى رغبة أغنياء القرطاجنيين ، بأن طلب تسلم هنيبال إلى

رومة ، ولكن الجندى القديم مر من بلاده ليلا ، واجتاز على ظهر جواده مائة وخمسين ميلا حتى وصل إلى ثبسوس Thapsus وركب منها سفينة إلى أنطاكية (١٩٥) حيث وجد أنتيوخوس الثالث Antiochus متردداً بين حرب رومة ومسالمتها ، فأشار عليه بحربها وأصبح فيها من قواد الملك . فلما هزم الرومان أنتيوخوس فى مجنيزيا (١٨٩) اشترطوا لعقد الصلح معه أن يسلم هنيبال ، فما كان من هذا القائد إلا أن فر أولا إلى كريت ، ثم إلى بيثونيا Bithynia . فأخذ الرومان يطاردونه فى كل مكان يلجأ إليه حتى أحاطوه فى مكمنه بالجند . وآثر هنيبال الموت على الأسر ، وقال فى هذا : « دعونى أخفف عن الرومان ما يشغل بالهم من زمن طويل ؛ فهم يظنون أنهم لا يطيقون الصبر حتى يلاقى شيخ مثلى منيته »[٣٢] ، وتجرع السم الذى كان يحمله معه ومات فى عام ١٨٤ ق . م فى السابعة والستين من عمره ، وما هى إلا بضعة أشهر حتى تبعه إلى الراحة الأبدية سبيو قاهره الذى كان شديد الإعجاب به .

الباب الرابع

رومة الرواقيـــة

٥٠٨ – ٢٠٢ ق . م

ترى أى صنف من الخلق كان أولئك الرومان البواســل الذين لا يقهرون ؟ وأى نظم صاغتهم حتى كانت لهم هذه القوة فى الأخلاق والسياسة المنقطعة النظير ؟ كيف كانت بيوتهم ومدارسهم ؟ وكيف كان دينهم ومبادئهم الخلقية ؟ وكيف استخرجوا من الأرض تلك الثروة التى كانوا فى حاجة إليها ليعمروا بها مدنهم النامية ويعدوا بها جيوشهم المتجددة على الدوام والتى لم تعرف الراحة فى يوم من الأيام ؟ وبأى نظام اقتصادى وأية مهارة انتفعوا بهذه الثروة خير انتفاع ؟ وكيف كان هؤلاء الناس فى طرقاتهم وحوانيتهم ، وفى هياكلهم ومسارحهم ، وفى علمهم وفلسفتهم ، وفى شيخوختهم وموتهم ؟ إنا إذا لم نلم كل الإلمام بما كانت عليه رومة فى عهد الجمهورية الأول ، عجزنا عن فهم ذلك التطور الشامل فى العادات والأخلاق والأفكار ، الذى أنتج فى جيل من الأجيال كاتو Cato الرواق وفى جيل بعده نيرون الأبيقورى ، ثم بدل آخر الأمر الكنيسة الرومانية بالإمبراطورية .

الفصل الأول

الأسرة

كان ميلاد الأطفال نفسه مغامرة خطيرة في رومة ؛ فقد كانت العادات المألوفة تبيح للأب إذا ولد له طفل مشوه أو كان أنثى أن يعرضه للموت[1] . أما إذا لم يكن كذلك فقد كان يرحب بمولده ؛ لأن الرومان حتى في ذلك العهد البعيد ، وإن مارسوا عادة ضبط النسل إلى حد ما ، كانوا شديدي الرغبة في أن يكون لهم أبناء . ذلك أن الحياة الريفية قد جعلت الأبناء مصدراً من مصادر الثروة ، ولذلك كان الرأي العام يندد بالعقم ، كما كان الدين يشجع على الإكثار من النسل بما يدخله في عقول الرومان من أن الواحد منهم إذا مات ولم يكن له ولد يعنى بقبره ، قاست روحه ألوان الشقاء والعذاب إلى أبد الدهر . وكانوا إذا مضى على مولد الطفل ثمانية أيام احتفلوا حول موقد الدار احتفالا رسمياً مهيباً بضمه إلى الأسرة والعشيرة . وكانت العشيرة (gens) تتألف من طائفة من الأسر الحرة تنتمي إلى أصل واحد ، وتسمى باسمه ، وتشترك بعضها مع بعض في العبادة ، وتتبادل العون في السلم والحرب . وكان الولد الذكر يعرف باسمه الخاص الأول (praenomen) مثل پبليوس Publius ، أو ماركس Marcus ، أو كيوس Caius ، وباسم عشيرته (nomen) مثل كرنليوس Cornelius أو تليوس Tutlius ، أو يوليوس Julius ؛ وباسم أسرته مثل سپيو Scipio ، وشيشرون Cicero ، وقيصر Caesar . أما النساء فكن في أغلب الأحيان يتميزن بأسماء عشائرهن وحدهن مثل كرنليا Cornelia ، وتليا Tullia ، وكلوديا Claudia ، ويوليا Julia . وإذ لم يكن للذكور في الأيام القديمة الأولى من الأسماء الأول ما يزيد على خمسة عشر اسماً ،

وكانت هذه الأسماء تتكرر فى الأسرة الواحدة جيلا بعد جيل تكراراً يجعل التمييز بين مسمياتها من أصعب الأمور ، فقد اعتاد الرومان أن يختصروا هذه الأسماء الأولى فيستعيضوا عنها بالحروف الأولى منها ويضيفوا إلى أصحابها اسماً رابعاً — وخامساً فى بعض الأحيان — ليسهل تمييزهم بعضهم من بعض . ومن أمثلة ذلك أنهم كانوا يميزون سپيو قاهر هنيبال من سميه الذى دمر قرطاجنة بتسمية الأول پ ، كرنليوس سپيو الإفريقى الأكبر P. Cornelius Scipio Africanus Major ، والثانى پ . كرنليوس سپيو إيمليانس الإفريقى الأصغر P. Cornelius Scipio Aemilianus Africanus Minor .

وكان الطفل يجد نفسه وقد اندمج كل الاندماج فى أخص النظم الرومانية الأساسية وأقواها أثراً وهو نظام الأسرة الأبوية . وتكاد سلطة الأب فى هذه الأسرة أن تكون سلطة مطلقة من كل القيود ، كأنما الأسرة قد نظمت لتكون وحدة عسكرية من جيش فى حرب دائمة ، وكان الأب وحده دون سائر أفراد الأسرة هو الذى له حقوق قانونية فى عهد الجمهورية الأول ، فهو وحده الذى كان من حقه أن يشترى الملك ويحتفظ به أو يبيعه ، وأن يتعاقد باسمه ؛ وحتى بائنة زوجه كانت فى ذلك العهد ملكا له . وإذا ما اتهمت زوجته بجريمة أحيلت إليه ليحاكمها ويعاقبها بنفسه ؛ وكان فى مقدوره أن يحكم عليها بالإعدام إذا خانته أو سرقت مفاتيح خزائن خمره . وكان له على أبنائه حق الحياة والموت أو بيعهم فى الأسواق بيع الرقيق . وكان كل ما يكسبه الابن يصبح فى نظر القانون ملكاً خالصاً لأبيه ، ولم يكن من حقه أن يتزوج من غير موافقة والده . وكانت البنت إذا تزوجت بقيت تحت سلطان أبيها ، إلا إذا سمح لها أن تتزوج زواجا Cum manu أى أسلمها بنفسه إلى يد زوجها أو وضعها تحت سلطانه . وكان له على عبيده سلطة لا حد لها ؛ فكان هو وزوجته وأبناؤه « ملك يده » mancipia ؛ ومهما يبلغ هؤلاء العبيد من السن أو المنزلة فإنهم يبقون تحت سلطانه حتى يحررهم هو

أو « يطلقهم من يده » emancipate them ، على أن العادات ، والرأى العام ، ومجلس العشيرة ، وقانون البريتورين (المقدمين) كانت تقيد حقوق « رب الأسرة » إلى حد ما . أما فيما عدا هذه القيود فقد كان يحتفظ بهذه الحقوق إلى أن يموت ، وكانت تبقى له ولو ذهب عقله أو أراد هو أن يتخلى عنها . وكان من آثارها أن قويت وحدة الأسرة فكانت هى الأساس الذى قامت عليه أخلاق الرومان وحكومتهم ، وأن أدب الرومان تأديباً بعث فى أخلاقهم صلابة وقوة خير ما توصف به أنها قوة رواقية وكانت قوانينهم فى حرفيتها أشد منها صرامة فى تطبيقها ، وقلما كانوا يطبقون أقسى هذه القوانين ، وقلما أساءوا استخدام ما كان منها أقل قسوة ؛ فلم يكونوا يقفون فى سبيل حنان الآباء القوى الطبيعى على أبنائهم أو تعظيم الأبناء لآبائهم ، حتى لقد كانت شواهد القبور فى رومة تبلغ من الرقة ما بلغته فى بلاد اليونان وما بلغته عندنا نحن(*) فى هذه الأيام .

وإذ كانت حاجة الرجل إلى المرأة — وهى أشد من حاجتها إليه — تكسبها من الحقوق ما لا تستطيع القوانين أن تقف فى وجهه ، فليس لنا أن نحكم على مكانة المرأة فى رومة من القيود التى يفرضها عليها القانون . فقد كان يحرم عليها أن تظهر فى دار المحكمة ولو كانت شاهدة . وإذا مات زوجها لم يكن لها أن تطالب بأى حق لها فى ماله ؛ وكان له إذا شاء أن يحرمها من أن ترث شيئاً من هذا المال . وكانت فى كل أدوار حياتها تحت رقابة رجل — أبيها أو أخيها ، أو زوجها ، أو ابنها أو وصى عليها — لا تستطيع أن تتزوج أو تتصرف فى مالها بغير رضاه . لكنها كان من حقها أن ترث وإن حدد هـــذا الميراث بما لا يزيد على مائة ألف سسترس Sesterce أى نحو (١٥,٠٠٠ ريال أمريكى) . أما التملك فلم يكن مقيداً بحد أقصى وكثيراً ما أصبحت النساء فى تاريخ الجمهورية

(*) يقصد الأمريكيين . (المترجم)

المتأخر من ذوات الثروات الطائلة لأن أزواجهن كانوا يهربون لهن أملاكهم ليتخلصوا بذلك مما عليهم من التزامات إذا أفلسوا في تجارة ، أو حكم عليهم بتعويض ، أو ليتملصوا من ضرائب الشركات ، وغير ذلك من الأخطار التي لا نهاية لها . وكان لها في شئون الدين شأن غير قليل ؛ فكان لها أن تكون كاهنة ؛ وكان من الواجبات المفروضة على كل كاهن تقريباً أن تكون له زوجة ، فإذا ماتت حرم من منصبه . أما في المنزل فكانت هي سيدته المعظمة **mea domina** ؛ ولم تكن كالزوجة في الحياة اليونانية تحجز في جناح الحريم بل كانت تتناول الطعام مع زوجها وإن كانت تجلس منتصبة ويجلس هو متكئاً . وكانت لا تقوم إلا بأقل قدر من الخدمة المنزلية ، وذلك بأنه كان لكل مواطن تقريباً عبد يقوم على خدمته . وكان لها أن تغزل لتدل بذلك على دماثة أخلاقها ، ولكن أهم واجباتها المنزلية هو مراقبة خدمها . على أنها مع ذلك كانت تحرص على أن تربي بنفسها أطفالها . وكان هؤلاء الأبناء يجزونها على صبرها وقيامها بواجبات الأمومة بما يقدمونه لها من دلائل الحب العميق والإجلال العظيم ، وقلما كان زوجها يجعل سيادته الشرعية عليها تطغى على حبه لها .

وكان الأب والأم ، ودارهما وأرضهما وأملاكهما ، وأطفالها الصغار وأبناؤهما المتزوجون ، وأحفادهما أبناء هؤلاء الأبناء وزوجاتهم وعبيدهم ومواليهم — كان هؤلاء كلهم يؤلفون الأسرة الرومانية **Familia** ؛ ولم تكن هذه الكلمة عندهم تعني أسرة بقدر ما تعني بيتاً بكل من فيه ، وما فيه . فلم يكن هذا المعنى مقصوراً على جماعة من ذوي القربى ، بل كان يعني مجموعة من الأشخاص المملوكين والأشياء المملوكة ، يخضعون كلهم ، وتخضع كلها ، لأكبر الذكور سناً . وفي نطاق هذا المجتمع الصغير الذي يضم في داخله وظائف الأسرة ، والكنيسة ، والمدرسة ، والنظم الصناعية والحكومية ، شب الطفل الروماني وترعرع على حب الطاعة والتقوى ، فكان منه مواطن قوي صلب العود في دولة لا تغلب .

الفصل الثانى

دين رومة

---

١ — الآلهة

لقد كانت الأسرة الرومانية رابطة بين الأشخاص والأشياء ، كما كانت رابطة بين الأشخاص والأشياء من جهة والآلهة من جهة أخرى . وكانت هى المركز الذى يلتف حوله الدين ، والخلق ، والنظام الاقتصادى ، وكيان الدولة بأجمعها ، كما كانت هى المنبع الذى تستمد منه هذه المقومات كلها . وكان كل جزء من أملاكها مهما صغر وكل مظهر من مظاهر وجودها يرتبط ارتباطاً وثيقاً جدّياً بالعالم الروحى ؛ فكان الطفل يعلم بالقدوة الصامتة الفصيحة أن نار الموقد التى لا تخمد ليست إلا رمز الإلهة ڤستا Vesta ومادتها ، وأنها ، هى الشعلة المقدسة التى ترمز إلى حياة الأسرة وإلى دوامها ؛ ومن أجل هذا كان من أوجب الواجبات ألا تنطفئ هذه النار ، وأن يُعنى بها العناية « المقدسة » وأن تغذى بنصيب من كل وجبة . وكان الطفل يرى فوق الموقد النصبات (*) تتوجها الأزهار وتمثل آلهة الأسرة أو أرواحها المقدسة : اللار ، Lar (**) الذى يحرس حقولها ومبانيها وسعادتها ومصيرها ؛ والپينات Penates أو الآلهة الداخلية التى تحمى ما تجمع للأسرة فى مخازنها وأصونتها وبيادرها ؛ وكان الإله يانوس Janus يحوم حول

(*) النصبة الصورة تعبد . (المترجم)

(**) اللار : أحد الآلهة المحليين وهو تسكانى الأصل ولكن الرومان جعلوه فيما بعد أحد الآلهة الراعية للأسرة .

عتبة الدار وإن كانت الأعين لا تراه ، وكان ذا وجهين ، وليس معنى هذا أنه كان مخادعاً بل معناه أنه كان يرقب الداخلين والخارجين من كل باب . وكان الطفل يعلم أن أباه هو الحافظ للأسرة وأنه رمز القوة الخلاقة الداخلية (genius) التي لا تفنى بفناء الجسم بل يجب أن تتغذى على الدوام عند قبر الأب . وكانت الأم هي الأخرى تحمل ربًّا من الأرباب ، وكان عليه أن يعاملها أيضاً معاملة الآلهة . وكان فيها يونو Juno وهو روح قدرتها على الحمل يقابل قدرة الأب على الخلق . وكان للطفل أيضاً يونوه Juno وهو ملاكه الحافظ وروحه أو النواة الإلهية في غلافه الفاني . وكان يقال له فولا يبعث في قلبه الرهبة ، إنه يحيط به من كل مكان أطياف رحيمة Di Manes هي أطياف الذكور من أسلافه التي كانت أقنعة وجوههم الرهيبة معلقة على جدران المنزل تحذره من أن يتنكب طريق هؤلاء الأسلاف ، وتذكره بان الأسرة لا تتألف فقط من أولئك الذين كانوا في الأيام الحالية أو سيكونون في الأيام المقبلة أعضاء فيها بأجسامهم ، والذين يكونون لهذا السبب جزءاً من مجموعها الروحي ووحدتها الأبدية .

وكانت أرواح أخرى تأتي لمعونته كلما كبر : فكوبا Cuba تحرسه وهو نائم وأبيونا Abeona تهدي خطاه ، وفبيلينا Fabulina تعلمه الكلام . وإذا ما غادر المنزل وجد نفسه مرة أخرى في حضرة الآلهة أينما حل . وكانت الأرض نفسها آلهة فهي تارتا تلس Tellus وتارة تراماتر Terra Mater أي الأرض الأم ، وكانت أحيانا هي المريخ Mars أي الأرض التي يطؤها بقدميه وخصبها المقدس ، وأحياناً تكون هي الآلهة الصالحة Bona Dea التي تمد النساء والحقول بالأرحام الخصيبة . وكان في المزرعة إله معين لكل عمل وكل بقعة فيها ، پومونا Pomona للبساتين ، وفونس Faunus للماشية ، وپالس Pales للمراعي ، واستركيولس Sterculus لأكوام السماد ، وزحل Saturn للزرع ، وسيرز Ceres للحاصلات ، وفرناكس Fornax لتحميص الذرة في التنور ، وفلكان Vulcan لإيقاد النار .

وكان يشرف على الحدود الإله العظيم ترمنس Terminus وهو يتمثل ويعبد فى الحجارة والأشجار التى تحدد المزارع ، وإذا كانت الأديان غير الرومانية تتطلع إلى السماء ، فإن الرومان أنفسهم لم يكونوا ينكرون أن فيها هى الأخرى آلهة ، ولكن المحور الذى كانت تدور حوله أعظم مظاهر تقواه وإيمانه وأخلص كفاراته واستعطافه كان هو الأرض أم حياته ومصدرها ، ومنزل أمواته ، والمربية الساحرة للبذور النامية ؛ وإذا ما حل شهر يناير من كل عام أقيمت الصلوات للارات Lares الأرض فى عيد ملتقى الطرق Compitalia أو Crossroads البهيج ؛ وإذا أقبل شهر يناير قدمت الهدايا الغالية مرضاة لتلس Tellus واستدراراً لعطفه على كل المزروعات ؛ وفى شهر مايو من كل عام يسير كهنة « إخوان أرفال Arval » إلى إخوان الحرث فى موكب غنائى حول حدود المزارع المجاورة لم يطوقون الحجارة بتيجان من الزهر ، ويرشون عليها دماء الأضاحى ، ويدعون المريخ (الأرض) أن تخرج الفاكهة الموفورة . ويرى من هذا أن الدين كان يؤمن الملكية ، ويزيل أسباب الشحناء ، ويكرم العمل فى الحقول ، فينشئ فيه الشعر ، ويؤلف فيه المسرحيات ، ويقوى الجسم والروح بالإيمان والعمل .

ولم يكن الرومانى ، كما كان الإغريقى ، يفكر فى آلهته كأن لها صوراً كصور الآدميين ، ولم يكن يسميها إلا نمينا Mumina أى الأرواح ، وكانت هذه الآلهة فى بعض الأحيان معنويات مجردة كالصحة ، أو الشباب ، أو الذاكرة ، أو الحظ ، أو الشرف ، أو الأمل ، او الخوف أو الفضيلة ، أو العفاف ، أو الوفاق ، أو النصر ، أو رومة ؛ وكان منها أرواح للمرض يصعب استرضاؤها كالأطياف وأرواح الموتى ؛ ومنها أرواح فصول السنة ، مثــل Maia روح شهر مايو ؛ ومنها آلهة الماء مثل نبتون Neptune ، وأرواح للغابات أو الآلهة التى تسكن الأشجار مثل سلفانس Sivanus . وكان بعضها يتقمص الحيوانات المقدسة كالحصان أو الحيوان الذبيح ، أو الإوز المقدس الذى كان المتقون يحتفظون بها فوق الكيتول

لا يناله أحد بأذى ، ومنها أرواح التناسل والإنتاج : تتومس يشرف على الحمل ، ولوسينا تحمى الحيض والولادة ، وكان پرياپس Priapus إلها للإخصاب عند اليونان ، ولكنه سرعان ما سكن رومة ، وكانت العذارى والأمهات (إذا كان لنا أن نصدق القديس أوغستين الغاصب) يجلسن على قضيب تمثاله ليضمن بذلك استعدادهن للحمل[٢] . وكانت صور خليعة فاحشة لهذا الإله تزين كثيراً من الحدائق . وكان السذج من الأهلين يلبسون صوراً صغيرة منه ظاهر فيها قضيبه لتهبهم القدرة على التناسل أو ترد عنهم « العين الحاسدة » . وجملة القول أننا لا نعرف قط دينا يبلغ فيه عدد الآلهة ما بلغه عند الرومان ، ويقدرها ڤارو بثلاثين ألفاً ، ويشكو پترونيوس من أن بعض المدن الإيطالية كان فيها من الآلهة أكثر ممن فيها من الرجال ؛ لكن الذين يسميهم پترونيوس deus لم يكونوا كلهم آلهة ؛ لأن كلمة deus كانت تعنى عند الرومان قديساً أو إلهاً .

وكان يكمن تحت هذه الأفكار الأساسية حشد من العقائد الشعبية المتعددة الأشكال ، من عبادة الطبيعة ، والدكاكيرية (feteshism) ، والطوطمية والإيمان بالسحر ، والمعجزات ، والرقى ، والخرافات ، والمحرمات ، ومعظمها عقائد باقية من أيام سكان إيطاليا فيما قبل التاريخ ، ولعلها باقية من أيام أسلافهم الهندوريين جاءوا بها من موطنهم القديم فى قارة آسية . وكان الكثير من الأشياء والأماكن والأشخاص مقدساً (sacer) محرماً مسه أو تدنيسه ، ومن هؤلاء الأشخاص الأطفال الحديثو الولادة ، والنساء فى وقت الحيض ، والمجرمون إذا أدينوا . وكانت مئات من الصيغ اللفظية أو المبتكرات الآلية تستخدم للوصول إلى غايات طبيعية بوسائل خارقة للطبيعة ، فكانت التمائم شائعة بينهم لا يكاد يخلو منها واحد منهم ؛ وكان كل طفل تقريباً يلبس « بُلّة » Bulla أو طلمساً ذهبياً معلقاً فى عنقه ، وكانت تماثيل صغيرة تعلق على الأبواب أو الأشجار لترد الأرواح الخبيثة ، وكانت الرقى والتعاويذ السحرية تستخدم لمنع الأخطار ،

وللشفاء من الأمراض ، وإنزال المطر من السماء ، وإهلاك جيوش الأعداء ، وإتلاف محصولات العدو أو إهلاكه هو نفسه . ومن أقوال پلنى Pliny فى هذا : « كلنا نخشى أن تصيبنا اللعنات أو الطلاسم بالسوء(٤) » . كذلك يرد ذكر الساحرات فى أقوال هوراس Horace ، وفرچيل Virgil ، وتبيلوس Tibulus ، ولوشيان Lucian . وكان الاعتقاد السائد أنهن يأكلن الأفاعى ويطرن فى الهواء ليلا ، ويعصرن السم من أعشاب لا يعرفها غيرهن ، ويقتلن الأطفال ، ويحيين الموتى . ويلوح أن الرومان جميعاً ، إلا قليلا من المتشككين ، كانوا يؤمنون بالمعجزات ، وبالفأل والطيرة ، وبأن التماثيل تتحدث وتعرق(٥) ، وبأن الآلهة تنزل من جبل أولمپس Olympus لتحارب فى صف الرومان ، وبأن الأيام الفردية الأسماء محظوظة ، والزوجية الأسماء منحوسة ، وبأن الحوادث الغريبة تنبئ بالمستقبل . ويحتوى تاريخ لِڤى على عدة مئات من أمثال هذا الإنباء يسجلها كلها بوقاره الفلسفى . وفى مجلدات پلنى الأكبر Pliny من التنبؤات ووسائل العلاج السحرى ما يصح لنا أن نسمى تاريخه « تاريخ خوارق الطبيعة » . وكثيراً ما كان يحدث أن تؤجل أهم الأعمال التجارية أو الحكومية أو الحربية أو تلغى إلغاء تاماً إذا تشاءم الكاهن بأن وجد شيئاً غير مألوف فى أمعاء ذبيحة ، أو سمع قصف رعد فى السماء .

وكانت الدولة تبذل كل ما فى وسعها لتحد من الإسراف فى هذه العادات ، وكان يطلق عليها ذلك اللفظ الذى يعبر عنها أدق تعبير وهو لفظ Supersitis أى العقائد الدينية المفرطة . ولكنها كانت لا تقعد قط عن استغلال تقوى الشعب لتثبيت دعائم الحكم والنظام الاجتماعى فكيف آلهة الريف لتوائم حياة الحضر ، وشادت موقداً قومياً للإلهة ڤستا ، وعينت طائفة من العذارى الڤستيات لتقوم على خدمة نار المدينة المقدسة . وأخرجت من مجموع آلهة الأسرة والمزرعة والقرية الآلهة القومية للدولة di indigetes ، ونظمت لهذه الآلهة عبادة جديدة جميلة المنظر تقوم بها الدولة باسم جميع المواطنين ؛

وكان أحب هذه الآلهة القومية الأولى إلى قلوب الشعب الإله چوپتر أو چوف Jupiter or Jove وإن لم يكن هذا الإله قد أصبح ملكها كما أصبح زيوس Zeus عند اليونان ، بل كان فى القرون الأولى من حياة رومة لا يزال قوة نصف معنوية يمثل رقعة السماء المتلألئة وضياء للشمس والقمر وقصف الرعد ، وكان فى صورة چوپتر فلوڤيوس Jupiter Fluvius يمثل شؤبوبا من المطر المخصب . وقد كان ڤرجيل وهوراس نفساهما يستعملان فى بعض الأحيان لفظ « Joue » مرادفاً للفظ المطر أو السماء(٦) . وكانت أكثر نساء رومة ثراء إذا أجدبت السماء يسرن حافيات فى موكب كبير إلى تل الكپتولين حيث هيكل چوپتر توناز Jupiter Tonans — چوف المرعد — ليستسقين . ولعل لفظ چوپتر محرف عن ديسپاتر Diuspater أو ديسپتر Diespeter أى إله السماء . ولعل يانوس Janus الذى كان فى الأصل يسمى ديانوس Dianus كان يؤلف هو وچوپتر فى بداية الأمر إلهاً واحداً ، وكان يرمز به أولا إلى روح باب الكوخ ذى الوجهين ثم إلى باب المدينة ، ثم إلى أية فتحة أو بداية كبداية اليوم أو السنة . وكانت أبواب هيكله لا تفتح إلا فى أيام الحرب ليخرج منها مع جيوش رومة لهزيمة آلهة الأعداء . وكان المريخ Mars إلهاً معظماً عند الشعب مذ بدأ يعظم چوپتر . وكان أولا إله الحرث ، ثم أصبح إله الحرب ، ثم كاد أن يكون هو فيما بعد رمز رومة وشعارها ؛ وكانت كل قبيلة فى إيطاليا تطلق اسمه على شهر من الشهور ؛ ولم يكن زحل الإله القومى للبذرة الحديثة الزرع (Sata) أقل قدماً من چوپتر والمريخ ، وكانت الأساطير تصوره على أنه ملك من ملوك ما قبل التاريخ أخضع القبائل كلها لقانون واحد وعلمها الزراعة وأقر السلام والمشايعة فى العهد الذهبى من عهد زحل Saturnie Regina.

وكانت إلهات رومة أقل قوة من آلهتها ، ولكنهن كن أحب إلى قلوب الشعب من الآلهة الذكور . وكان من هذه الإلاهات يونو رجينا Juno Regina

ملكة السماء وحامية الأنوثة والزواج والأمومة . وكانوا يوصون بالزواج فى شهرها — شهر يونيو[٧] — ويقولون إن الزواج فيه أسعد الزيجات ؛ وكانت منيرڤا Minerva إلهة الحكمة (mens) أو الذاكرة ، والصناعات اليدوية وطوائف الصناع ، والممثلين والموسيقيين والكتبة . وكانت البلاديوم Palladium التى تقف عليها فى اعتقادهم سلامة رومة صورة صغيرة للإلهة بلاس منيرڤا Pallas Minerva مدججة بالسلاح جاء بها إنياس Aeneas فى زعمهم من طروادة إلى رومة بأساليب الحب والحرب . وكانت ڤينوس Venus (الزهرة) إلهة الشهوة ، والزواج ، والإخصاب . وكان شهرها المقدس هو شهر إبريل شهر تفتح الأزهار Aperire . وكان الشعراء أمثال لكريشيوس Lucretius وأوڤد Ovid يرون فيها المنشأ الغرامى لجميع الكائنات الحية . وكانت ديانا Diana إلهة القمر والنساء والولادة والصيد والغابات وسكانها من الوحوش ؛ وكانت فى زعمهم روح شجرة جيء بها من أريشية (Aricea) حينما خضع هذا الإقليم من أقاليم لانيوم لحكم رومة . وكان بالقرب من أريشيا بحيرة نيمى Nemi وأيكتها ، وكان فى هذه الأيكة مزار ديانا ملجأ الحجاج الذين كانوا يعتقدون أن هذه الإلهة قد ضاجعت فى هذا المكان ڤربيوس Virbius ملك الغابات الأول ، ولكى يضمن دوام إخصاب ديانا وإخصاب الأرض كان خلفاء ڤربيوس — وهم كهنة الصالدة وأزواجها — يستبدل بهم جميعاً واحداً بعد واحد أى عبد قوى يعوذ نفسه بغصن (يسمى عندهم بالغصن الذهبى) يأخذه من شجرة البلوط المقدسة إحدى أشجار الأيكة ويهاجم الملك(*) ويذبحه . وقد بقيت هذه العادة إلى القرن الثانى بعد ميلاد المسيح[٨] .

هذه إذن هى الآلهة الكبرى لدين رومة الرسمى ؛ وكان للأهلين غير هؤلاء أرباب قومية أصغر منها ولكنها لم تكن تقل عنها محبة لدى الرومان : ومن هذه

(*) يقصد ملك الأيكة أى صورة له .   (المترجم)

الأرباب الصغرى هرقول Hercules إله الفرح والخمر الذى لم يتورع عن أن يقامر وهو مبتهج مع قندلقت هيكله لينال منـــه محظية(٩) . وكان عطارد (Mercury) راعى التجار والممثلين واللصوص . وكانت أپس Aps إلهة الثروة وبلونا Bellona إلهة الحرب ، وكان غير هؤلاء أرباب ذكور وإناث يخطئهم الحصر . ولما أن بسطت رومة سلطانها جاءت إليها آلهة جديدة . وكانت فى بعض الأحيان إذا غلبت مدينة جاءت منها بآلهتها لتضمها إلى مجمع الآلهة الرومانى دليلا على غلبتها وضماناً لهذه الغلبة كما فعلت بيونو إلهة ڤياى حين قادتها أسيرة إلى رومة ؛ وكان سكان الأقاليم النائية إذا جاءوا إلى العاصمة أتوا معهم بآلهتهم ليثبتوا فيها أقدامهم حتى لا تجتث أصول أولئك السكان الجدد الروحية والأخلاقية اجتثاثاً مفاجئاً لسبب من الأسباب ، وكذلك يفعل اليوم المهاجرون إلى أمريكا فيأتون إليها بآلهتهم . ولم يكن الرومان يأبهون بمجئ هؤلاء الآلهة الأجانب ؛ وكان معظمهم يعتقدون أنهم إذا أزاحوا التمثال من مكانه أزاحوا الإله معه ، ومنهم كثيرون كانوا يؤمنون بأن التمثال نفسه هو الإله(١٠) .

على أن بعض الآلهة الجديدة لم تغلب ، بل كانت هى الغالبة . فقد تسربت إلى العبادات الرومانية بطريق التجارة والصلات الحربية والثقافية التى نشأت بين الحضارتين الرومانية واليونانية . وقد حدثت هذه الصلات أول الأمر فى كمپانيا ثم جنوبى إيطاليا ثم صقلية ، وانتهت آخر الأمر فى بلاد اليونان نفسها . وكان فى آلهة دين الدولة شىء من التجرد المعنوى وبرود الطبع ؛ وكان من المســـتطاع رشوهم بالقرابين والتضحيات ، ولكنهم قلما كانوا يمدون عُبادهم بالراحة أو الإلهام الفردى ؛ وكانوا من هذه الناحية يختلفون عن آلهة اليونان ذوى الصفات البشرية الممتلئين مغامرة وفكاهة وشعراً . ومن أجل هذا رحب الشعب الرومانى بآلهة اليونان وأقام لهم الهياكل ، وسره أن يتعلم ما يتطلبه أولئك الآلهة من مراسم وطقوس ، وكذلك سر الكهنة الرسميين أن يجندوا أولئك الجند الجدد لبث

النظام والطمأنينة فى النفوس ، فضموهم إلى أسرة روما المقدسة ومزجوهم كلما استطاعوا بأقرب الآلهة الوطنية المماثلة لهم . فجاء من عهد بعيد أى من عام ٤٩٦ ق . م دمتر Demeter وديونيسيوس Dionysius ومُزجا بسيريس Ceres وليبر Liber (إله العنب) واستقبل كاستر Castor وپلكس Pollax بعد اثنى عشر عاماً من ذلك الوقت وصارا حاميي رومة : وشيد فى عام ٤٣١ هيكل لأپلون Apollo الشافى لعله يخفف من وباء طاعون فشا فى رومة وقتئذ ؛ وفى عام ٢٩٤ جىء إلى رومة من إپدورس Epidaurus بإسكلاپيوس Aesculapius إله الطب عنـــد اليونان فى صورة أفعوان ضخم[11] ، وشيد على جزيرة فى نهر التيبر معبد فى صورة مستشفى تكريماً له وجىء بكرونس Cronus اليونانى وقيل إنه لا يختلف فى شىء عن زحل، ومزج پوسيدن Poseidon بنبتون Neptune وأرتميس Artemis بديانا Diana وهفستس Hephaestus بڤلكان Vulcan ، وهرقل Heracles بهرقول Hercules ، وهيدس Hades بپلوتون Pluto وهرمس Hermes بعطارد Mercury ، وارتفع جوبتر بفضل الشعراء إلى زيوس غير زيوس اليونان ، فصار شاهد الأيمان الصارم وحارسها ، وقاضى الأخلاق الملتحى ، والقيم على القوانين ، وإله الآلهة ؛ وهيئت عقول الرومان المتعلمين على مهل لقبول عقائد التوحيد الرواقية واليهودية والمسيحية .

٣ — الكهنة

واستخدمت إيطاليا نظاماً من الكهنوت محكم الوضع لتضمن به معونة هؤلاء الأرباب . وكان الأب فى منزله كاهناً ، ولكن الصلوات العامة كان يرأسها جماعات (Collegia) من الكهنة ، تملأ كل منها ما يخلو فى صفوفها من الأماكن ويرأسها كلها حبر أعظم Pontifex maximus تختاره الجمعية المئوية . ولم تكن عضوية هذه الكليات المقدسة تحتاج إلى تدريب

خاص ؛ بل كان فى وسع كل مواطن أن ينضم إليها أو يخرج منها ؛ ولم تكن تؤلف مرتبة أو طبقة منفصـــلة عن سائر المراتب أو الطبقات ، ولم يكن لها أى سلطان سياسى عدا أن الدولة كانت تستخدمها أداة من أدواتها . وكانت تستولى على إيراد بعض أراضى الدولة لتستعين به على العيش ، وكان لها عبيد يقومون على خدمتها ؛ وقد أصبحت بتوالى الأجيال عظيمة الثراء بما كان يحبسها عليها أتقياء الناس من الأموال .

وكانت الكلية الدينية الكبرى فى القرن الثالث قبل المسيح تضم تسعة من الأعضاء ، وكان هؤلاء الأعضاء يحتفظون بالحوليات التاريخية ، ويسجلون القوانين ، ويقرعون الغيب ، ويقربون القرابين ، ويطهرون رومة مرة فى كل خمس سنوات . وكان يساعد هؤلاء الأحبار فى القيام بالمراسم الرسمية خمسة عشر كاهناً آخر يسمون فلمينى flamine — أى موقدى نيران الأضاحى . وكان ثمة طوائف من الأحبار أقل من هؤلاء شأناً يؤدون واجبات خاصة : فالساليون Salii أو القافزون كانوا يستقبلون العام الجديد بنوع من الرقص المقدس للمريخ ، والفتيالى fetiales يصدقون على عقد الصلح ، وإعلان الحرب ، واللوپرسى Luperci أو إخوان الذئاب يقومون بطقوس لوپركاليا Lupercalia العجيبة . وكانت طائفة العذارى القسمية Vestal Virgins تعنى بموقد الدولة وترشه فى كل يوم بالماء المقدس تأخذه من عين الحورية المقدسة إجيريا Egeria ؛ وكان هؤلاء الراهبات ذوات الثياب البيض والخُمُر البيض يُختَرن من بين الفتيات اللاتى تتراوح سنهن بين السادسة والعاشرة ، وكن يقسمن بأن يظللن عذارى فى خدمة الإلهة فستا ثلاثين سنة ، وينلن فى نظير هذا ضروباً من الامتيازات والتكريم وإذا اقترفت إحداهن جريمة العلاقات الجنسية ضربت بالعصى ودفنت وهى على قيد الحياة ، وقد سجل المؤرخون الرومان اثنتى عشرة جريمة من هذا النوع ، فإذا قضين الثلاثين عاماً كان لهن أن يتركن خدمة الإلهة ويتزوجن ، ولكن قل منهن من كانت تتاح لها هذه الفرصة أو تغتنمها إذا أتيحت لها[١٢] .

وكانت أعظم طوائف الكهنة نفوذاً طائفة العرافين التسعة الذين كانوا يدرسون إدارة الآلهة ومقصدهم باتجاه الطيور فى الأيام الأولى(*) ، وبالفحص عن أحشاء الحيوانات المضحاة فيما بعد : فكان كبار الحكام « يستطلعون الطلع » قبل كل عمل هام من أعمال السياسة أو الحكم أو الحرب ، ثم يفسر العرافون ما يجده الحكام ، أو يفسره لهم مفتشو الأكباد **hauruspices** الذين تلقوا فنهم هذا من بلاد الكلدان أو من أمم قبلهم عن طريق إترووريا . ولم يكن الكهنة على الدوام بمنجاة من الإغراء بالمال ، ولذلك كانوا فى بعض الأحيان يوفقون بين أقوالها وبين حاجات من يذهب لاستشارتهم . من ذلك أن أى قانون لا يتفق مع مصلحة طائفة أو جماعة من الناس كان يمكن تعطيله إذا قيل إن اليوم الذى ينظر فيه القانون يوم مشئوم لا يصلح العمل فيه ، وكان فى الاستطاعة إقناع الجمعية بالموافقة على إعلان الحرب اذا قيل لها إن اليوم الذى يطلب إليها إعلانها فيه يوم سعيد(١٣) . وكانت الحكومة فى الأزمات الخطيرة تدعى أنها تعرف ما تريده الآلهة بالرجوع إلى الكتب السبيلية **Sibylline** ، وهى الكتب التى سجلت فيها نبوءات سيبيل **Sibyl** أو كاهنة أپلون **Apollo** فى كومية **Cumae** . وكان فى وسع الأعيان أن يؤثروا فى الشعب بهذه الوسائل وبالرسل الذين كانوا يرسلونهم إلى هاتف دلفى **The oracle at Delphi** فى بعض الأحيان وبذلك يوجهونهم فى أى اتجاه يشاءون ، ويكادون يبلغون كل غاية يبغونها(١٤) .

ولم يكن يقصد بطقوس العبادات إلا أن تقدم هدية أو ضحية للآلهة لكسب عونها أو اتقاء غضبها . وكان الكهنة يقولون إن الاحتفالات التى تقام لهذا الغرض لا تثمر ثمرتها إلا إذا روعى فيها منتهى الدقة فى الأقوال والحركات ، وهى

(*) ومن ثم اشتقت من هـذا اللفظ **Augurs** ومعناها حامل الطيور **aves-gero** ، و **Auspices** فحص الطيور **aues-specio** . ولعل الإنسان البدائى قد عرف كيف يتنبأ بأحوال الجو من حركات الطير .

دقة لا يستطيع غير الكهنة أن يشرفوا عليها . وإذا وقع خطأ فى طقس من هذه الطقوس أيًّا كان نوعه وجبت إعادته من جديد ولو تطلب ذلك إعادته ثلاثين مرة ، وكان معنى لفظ Religio هو أداء الطقس الدينى بالعناية التى يحتمها الدين(١٥) . وكان أهم ما فى الاحتفال هو التضحية Sacrifice ؛ ومعنى اللفظ مشتق من كلمة Cacer اللاتينية ومعناها ملك للإله . وكانت التضحية فى البيت تتخذ عادة شكل قطعة من كعكة توضع على الموقد أو كمية من النبيذ تلقى فى نار البيت ، وتكون فى القرية أول ثمرة تخرجها الأرض ، وقد تكون كبشاً أو كلباً أو خنزيراً ، وتكون فى المناسبات الهامة فرساً أو خنزيراً أو شاة أو ثوراً ، وكانت الثلاثة الحيوانات الأخيرة تذبح جميعها فى أكبر المناسبات أهمية فى عيد السو أوفى طوريليه Su - ove - taur - illa (أى عيد الخنزير والشاة والثور) . وكانوا يعتقدون أنه إذا تليت صيغ خاصة على التضحية استحالت إلى الإله الذى يراد منه أن يتقبلها ؛ وعلى هذا الاعتبار كان الإله نفسه هو الذى يضحى به(١٦) ؛ وإن كانت أحشاء الحيوان وحدها هى التى تحرق على المذبح ؛ وكان الكهنة والناس يأكلون كل ما بقى منه ، فقد كان هؤلاء يأملون أن تنتقل قوته ومجده إلى عبيده المحتفلين بعيده . وكان يضحى بالآدميين فى بعض الأحيان ، ومما يجدر ذكره أنه كان لا بد من صدور قانون فى عام ٩٧ بعد الميلاد لتحريم هذه العادة . ثم حورت هذه الكفارة تحويراً يبيح للرجل أن يضحى بحياته للدولة كما فعل القنصل پبليوس ديسيوس Publius Decius وولده ، وكما فعل ماركس كورتيوس Marcus Curtius إذ ألقى بنفسه فى أخدود شقه زلزال فى السوق العامة ليسكن بذلك غضب القوى الأرضية الخفية ، وتقول القصة بعد ذلك إن الشق قد التحم وإن الأمور قد عادت إلى مجاريها(١٧) ؛

وكان احتفال التطهير أكثر من هذه الطقوس متعة ؛ وكان هذا التطهير يحدث للمحصولات الزراعية أو لقطعان الماشية أو للجيش أو المدينة . وكانت

الطريقة المتبعة فى هذا الاحتفال أن يطوف موكب بالشىء المراد تطهيره ، ويقدم له الصلوات والذبائح ، فيتطهر بذلك من المؤثرات السيئة ويرد عنه الشر . ولم تكن الصلوات قد خلصت كل الخلاص من الرقى السحرية ؛ وكان اللفظ الذى يطلق عليها وهو كارمن Carmen يعنى الأنشودة والرقية جميعاً ؛ ويعترف پلنى صراحة بأن الصلاة ضرب من الأقوال السحرية(١٨) .
وإذا ما تليت الصيغة حسب الأصول المرعية ووجهت إلى الإله الذى يجب أن توجه إليه حسب سجل الآلهة indigitamenta الذى جمعه الكهنة واحتفظوا به ، فإن الرجاء لا بد أن يجاب ؛ فإن لم يجب فإن غلطة ما قد حدثت فى الطقوس المرعية . وقريب من السحر وذو صلة به الڤوتا vota أو النذور التى كان الناس يطالبون بها معونة الآلهة ، وكانت هياكل عظيمة تشاد فى بعض الأحيان وفاء بهذه النذور . وتوحى النذور الكثيرة التى كشفت بين مخلفات الرومان على أن الدين كان يملأ قلوبهم ، وعلى أنه كان يمتزج به ويلطفه تقى وشكر على النعم ، وشعور بالصلة القوية بين الناس وبين قوى الطبيعة الخفية ، ورغبة أكيدة فى أن يكون الناس على وفاق مع هذه القوى جميعها . هذا ما كان للدين من أثر فى قلوب الشعب ، أما دين الدولة فكان على النقيض من هذا ، كان شكلياً جامداً ، لا يعدو أن يكون نوعاً من العلاقة القانونية التعاقدية بين الحكومة والآلهة . ولما أن تسربت إلى البلاد أديان جديدة من الشرق المغلوب ، كان أول ما تضعضع فى الدولة الرومانية هو الدين الرسمى ، أما الإيمان العميق ذو المظاهر الجميلة الجذابة ، والطقوس المنتشرة فى الريف ، فقد ظلت تقاوم الأغلال فى صبر وعناد طويلين .
ولما تغلب الدين المسيحى فى آخر الأمر استسلم بعض الاستسلام إلى هذا الإيمان الريفى القديم فأخذ عنه كثيراً من عقائده وطقوسه ، وكان ذلك الأخذ عن حكمة وأصالة رأى ، ولا تزال هذه الطقوس باقية فى العالم المسيحى إلى هذه الأيام ، وإن تشكلت بأشكال جديدة وعبر عنها بألفاظ غير الألفاظ القديمة .

٣ — الأعياد

إذا كانت العبادات الرسمية مكتئبة صارمة فإن ما كان فيها من أعياد قد عوضها عن هذه الصرامة وصَوَّر الناس والآلهة فى صورة أبهى وأجمل منظراً . فقد كانت السنة تزدان بأكثر من مائة يوم مقدس (feriae) من بينها اليوم الأول من كل شهر ، وقد تشمل أحياناً اليومين التاسع والخامس عشر . وخصصت بعض هذه الأعياد لتقديس الموتى وأرواح العالم السفلى ؛ وكان يقصد بالأعياد وما يقام فيها من احتفالات استرضاء الموتى وإقصاء غضبهم ، فكانت الأسر الرومانية تحتفل فى الأيام ما بين ١١ ، ١٣ من شهر مايو احتفالا رهيباً بعيد الأرواح الميتة **Lemures** ، فكان الأب فى هذا العيد يبصق من فمه فولا أسود وهو ينادى : « بهذا الفول أنجى نفسى وأبنائى . . . إذهبي يا أطياف أسلافى ! »[١٩] ولم تكن أعياد الپارنتاليا **parentalia** والفراليا **Feralia** التى تقام فى شهر فبراير إلا محاولات أخرى من هذا النوع لاسترضاء الأموات المخيفين ؛ لكن معظم الأعياد كانت مناسبات للمرح وملء البطون ؛ وكثيراً ما كان العامة يتخذونها فرصاً للإباحية الجنسية ، وشاهد ذلك ما يقوله أحد الأشخاص فى مسرحية هزلية لپلوتس : « فى وسعك أن تأكل ما تشاء ، وتذهب حيث تشاء ، وتحب من تشاء ، وعلى شريطة أن تمتنع عن الاتصال بالأرواح والأرامل والعذارى ، والغلمان الأحرار[٢٠] » ويلوح أنه كان يحس بأن ثمة بعد هذا مجالا واسعاً للاختيار .

وكانوا يحتفلون فى اليوم الخامس عشر من شهر فبراير بعيد عجيب هو عيد لوپركاليا المخصص للاله فونس **Faunus** الحامى من الذئاب **lupercus** ، وكان يضحى فى هذا العيد بالمعز والضأن ، وكان اللوپرسى **luperci** — وهم كهنته لا يلبسون على أجسادهم إلا مناطق من جلد المعز — يهرولون حول الپلاتين

Palatine يدعون الإله ڤونا أن يبعد عنهم الأرواح الشريرة ، ويضربون وهم يهرولون من يلقون من النساء بسياط من جلود الحيوانات المضحى بها ليطهروهن ويزيدوا فى قدرتهن على إنجاب الأبناء ، ثم يلقون بعد هذا دمى من القش فى نهر التيبر لاسترضاء إله النهر أو ختله ، ولعل هذا الإله فى الأيام التى كانت أكثر من ذلك الوقت همجية كان يتطلب أن تلقى فيه ضحايا بشرية . وفى اليوم الخامس عشر من شهر مارس كان الفقراء يخرجون من أكواخهم ، ويفعلون ما كان يفعله اليهود فى عيد المظلات ، فيقيمون لهم خياماً فى حقل المريخ ، ويحتفلون بالسنة الجديدة ، ويدعون الإلهة أنا پرنا Anna Perenna (حلقة السنين) أن تهبهم سنين بعدد ما يحتسون من أكواب الخمر[٢١] . وكان فى شهر أبريل وحده ستة أعياد آخرها كلها عيد فلوراليا Floralia . وكان هذا العيد وهو عيد فلورا Flora إلهة الأزهار والينابيع يدوم ستة أيام كلها مرح وسكر وعربدة . وفى اليوم الأول من شهر مايو كان يحتفل بعيد الآلهة الصالحة Bone Dea ، وفى التاسع والحادى عشر والثالث عشر من هذا الشهر يحتفل باللبراليا Liberalia عيد لِبر Liber ولِبرا Libera إله العنب وإلهته ؛ وكان جماعات من الرجال والنساء فى ذلك اليوم يمجدون جهرة عضو التذكير فى الرجال وهو رمز الإخصاب[٢٢] . وفى آخر شهر مايو كان الإخوان الأرڤال Arval يقودون الناس فى مواكب عيد الأمبرڤاليا Ambarvalia وهو عيد رهيب وإن لم يكن يخلو من المرح . ثم تهمل الأرباب فلا تقام لها أعياد فى أشهر الخريف بعد أن تكون المحصولات قد أدخلت فى المخازن ، حتى يقبل شهر ديسمبر فيزدحم بالأعياد مرة أخرى . فكان عيد السترناليا Saturnalia يدوم من اليوم السابع عشر إلى اليوم الثالث والعشرين من ذلك الشهر . وكانوا يحتفلون فيه ببذر بذور العام المقبل ويحيون ذكرى حكم زحل Saturn الذى لم يكن الناس ينقسمون فيه طبقات ، والذى يتبادلون فيه الهدايا ، ويتحررون من كثير من القيود ، ويلغى فيه أو يعكس إلى حين ما بين

الأحرار والعبيد من فروق ، فكان فى مقدور العبيد أن يجلسوا بجوار سادتهم ، ويصدروا إليهم الأوامر ، ويتهكموا عليهم ، وكان السادة يقفون على الموائد لخدمة العبيد ، ولا يأكلون حتى تمتلئ بطونهم بالطعام[٢٤] .

وكانت هذه الأعياد زراعية النشأة ولكنها مع ذلك ظلت منتشرة بين أهل المدن ، وبقيت رغم ما طرأ على العقائد من تقلبات حتى القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد . وقد بلغت من الكثرة والاضطراب حداً جعل من أول واجبات التقويم الرومانى إحصاءها وترتيبها لإرشاد الشعب . وكان من عادة الإيطاليين فى عهدهم الأول أن يدعوا الكاهن الأكبر المواطنين فى أول يوم من كل شهر ويذكر لهم ما فيه من الأعياد التى يجب عليهم أن يحتفلوا بها فى الثلاثين يوما ؛ وقد اشتق من هذه الدعوة (Calatis) اسم Calendae الذى سمى به اليوم الأول من كل شهر . وكان معنى التقويم عند الرومان — وهو معنى لا يزال يحتفظ به إلى حد ما عند الكاثوليك المسيحيين وعند اليهود المتدينين — ثبتاً كهنوتياً لأيام الأعياد وأعمال العمل ، يتخلله قليل من المعلومات المقدسة القانونية ، والتاريخية والفلكية . وتقول الروايات المأثورة إن نوما Numa ثانى ملوك رومة هو واضع للتقويم الذى ظل يضبط التواريخ والحياة الرومانية إلى أيام يوليوس قيصر . وكانت السنة حسب هذا التقويم تنقسم إلى اثنى عشر شهراً قمرياً ، تضاف إليها عدة أيام وأجزاء من أيام بنظام معقد يجعل متوسط مجموعها ٣٦٦ يوماً . ثم خول للأحبار فى عام ١٩١ م أن يعالجوا الأخطاء المتزايدة بإعادة النظر فى هذه الإضافات ، ولكنهم استخدموا السلطة التى منحت لهم لإطالة حكم من يرضون عنه من الحكام ، وتقصير حكم من لا يرضون عنه منهم ، ومن أجل هذا فإنه لم يكد ينتهى عهد الجمهورية حتى كان التقويم ، وقد تجمع فيه من الأخطاء ما يبلغ ثلاثة أشهر ، مثالا للفوضى ووسيلة إلى التلاعب والخداع .

أما ساعات النهار فكانت فى الأيام الأولى لا تقدر بغير ارتفاع الشمس فى

السماء ، وظل هذا هو النظام المتبع حتى مجىء فى عام ٢٦٣ ق . م بمزولة شمسية من قطانا Catana فى صقلية ووضعت فى السوق العامة . ولكن هذه المزولة لم تكن تبين الوقت على حقيقته لأن قطانا كانت على بعد أربع درجات جنوبى رومة ، وقد ظل الكهنة مائة عام عاجزين عن أن يضبطوا هذه المزولة حتى تبين الوقت الحقيقى فى عاصمة البلاد . وفى عام ١٥٨ أقام سپيو ناسيكا Scipio Nasica ساعة شمسية عامة ، وكان الشهر يقسم إلى ثلاث فترات يفصلها بعضها عن بعض اليوم الأول ، واليوم الخامس أو السابع واليوم الثالث عشر أو الخامس عشر . ويسمى اليوم الأول الكالند Kalend والخامس أو السابع النون none والثالث عشر أو الخامس عشر الأيد ide . وكانت الأيام تسمى بطريقة سمجة عجيبة أساسها البعد عن هذه الأيام المحدّدة لأقسام الشهر . مثال ذلك أن اليوم الثانى عشر من شهر مارس كان يسمى « اليوم الثالث قبل أيد مارس » . وكان « الأسبوع » عندهم يتكون من تسعة أيام أو نحوها وينتهى بيوم النندنى nundinae أو اليوم التاسع ، وهو اليوم الذى يذهب فيه القرويون إلى أسواق المدن . وكانت السنة تبدأ بابتداء فصل الربيع ، ويسمى الشهر الأول منها مارتيوس Martius باسم إله البذر ، ثم يليه أبريلس Aprilis أى شهر النَّبْت ، ثم مايوس Maius أى شهر مايا Maia أو لعله شهر الوفرة ، ويونيوس Junius شهر يونو Juno ، أو لعله شهر النجاح ، ثم كونكتلس Quinctilis ، فسكستلس Sextilis ، فسپتمبر فأكتوبر فنوفمبر فديسمبر . وقد سميت بترتيبها العددى فى السنة ، ثم يليها ينير January ليانوس Janus وفبراير لفبروا Februa أو الأشياء السحرية التى يطهر بها الإنسان . وكانت السنة نفسها تسمى أنس Annus أى الحلقة كأنهم يريدون أن يقولوا إنه لا توجد للزمن فى واقع الأمر بداية ولا نهاية .

٤ — الدين وأثره فى الأخلاق

ترى هل أعان هذا الدين على تقويم الأخلاق ؟ لقد كان من بعض النواحى مبعث الفساد الخلقى . فاهتمامه بالطقوس والمراسم يوحى بأن الآلهة لا تجزى الشخص لصلاحه بل لما يقدمه لها من الهدايا وما يتلوه من الصيغ ، وكانت الأدعية والصلوات يطلب بها على الدوام النفع المادى أو النصر الحربى . وكان ما يقام من الحفلات يمثل حياة الإنسان وتربة الأرض فى صورة المسرحية ، ولكن هذه الاحتفالات كثرت وزاد عديدها كأن هذه الأعياد ، لا صلة الجزء بالكل وإخلاصه له ، هى أساس الدين وجوهره ، وكانت الآلهة ، عدا قلة صغيرة منها ، أرواحاً رهيبة مجردة من النبل والأخلاق الفاضلة .

ولكن الدين القديم مع هذا كله كان يدعو إلى فضائل الأخلاق ، وإلى النظام والقوة فى الفرد والأسرة والدولة . وكان هذا الدين يصوغ أخلاق الطفل ، قبل أن يتسرب إليه الشك ، ويعوده التأدب وأداء الواجب ولطف المعاشرة . كذلك كان يجعل للأسرة حقوقاً وضمانات ومعونة مقدسة : فكان يغرس فى قلوب الآباء والأبناء أقصى درجات الاحترام المتبادل والتقوى ، ويجعل للمولد والوفاة كرامة ومعنى قدسيًّا خاصًّا ، ويدعو إلى الوفاء بيمين الزواج ويشجع على التناسل إذ يجعل الأبوة شرطا أساسيا لطمأنينة روح الميت وتمتعها بالهدوء والسلام . يضاف إلى هذا أن الدين ، بما كان يفرضه من المراسم والحفلات قبل كل حملة ومعركة حربية ، يرفع قوى الجندى المعنوية ويحمله على الاعتقاد بأن القوى الروحية تحارب إلى جانبه ، وأنه كان يثبت القانون ويزيده قوة بما يعزو إليه من أصل سماوى وصورة دينية ، وبقوله إن الجرائم تخل بنظام السماوات وبسلمها

وبوضع سلطان جوف وراء كل قسَم . وكان الدين يخلع على كل ناحية من نواحى الحياة العامة جلالا دينيًّا ، ويحتم أن يسبق كل عمل من أعمال الحكومة طقوس وصلوات ، ويربط الدولة والآلهة برباط متين ، وحد بين التقوى والوطنية ، وسما بحب الوطن فجعله عاطفة أقوى مما كان فى أى مجتمع آخر يعرفه التاريخ . وبهذا كله كان الدين يشترك مع الأسرة فى شرف تكوين ذلك الخلق الحديدى الذى كان هو السر فى سيادة رومة على العالم ، وفى تحمل تبعة هذا التكوين .

الفصل الثالث

الأخـــلاق

ترى أى مبادئ خلقية نشأت من هذه الحياة التى كانت تحياها الأسرة الرومانية بين هذه الأرباب المختلفة ؟ لقد كانت الآداب الرومانية من أيام عهد إنيوس Enniüs إلى عهد جوڤنال Juvenal تجعل تلك الأجيال القديمة مثلا أعلى وتندم على الأيام الحالية أيام البساطة والفضيلة القديمتين . وستوحى إلينا صحف هذا الكتاب أيضاً بما كان هناك من فوارق بين رومة فبيوس الرواقية ورمة نيرون الأبيقورية ، ولكن علينا ألا نغالى فى هذه الفوارق بتحيزنا فى اختيار الشواهد التى ندلل بها على وجودها ؛ ذلك «أنه كان فى عهد فبيوس أبيقوريون كما كان فى عهد نيرون رواقيون »

ولقد ظلت الأخلاق الجنسية عند الرجل العادى واحدة لم يطرأ عليها تغيير من بداية التاريخ الرومانى إلى نهايته : ظلت خشنة طليقة ولكنها لا تتعارض مع الحياة الناجحة فى ظل الأسرة « وكان يطلب إلى الفتيات فى جميع الطبقات الحرة أن يحافظن على بكارتهن ، وما أكثر القصص القوية التى كانت تروى لرفع شأنها ؛ ذلك أن الرومانى كان قوى الإحساس بحق الملكية ، شديد التمسك به ، ولهذا كان يتطلب زوجة قوية الأخلاق غير متقلبة الأهواء تضمن له أنه لن يرث متاعه بعد موته أبناء من غير صلبه . ولكن الرجال فى رومة لم يكونوا يلامون كثيراً على عدم العفة قبل الزواج إذا أظهروا الاحترام الواجب لرياء بنى الإنسان ونفاقهم ، شأنهم فى هذا شأن الرجال فى بلاد اليونان . وإنا لنجد فى أقوال كتابهم وخطبائهم من عهد كاتو الأكبر إلى شيشرون عبارات صريحة يبررون

بها هذا النوع من الدنس(٢٥) ؛ وليس الذى يزيد بتقدم المدنية هو فساد الطبع وإنما الذى يزيد هو الفرص التى تتاح لإظهار هذا الفساد والتعبير عنه . ولم تكن العاهرات كثيرات فى رومة فى أيامها الأولى ، وكان يحرم عليهن لبس مئزر الأمهات وهو شعار الزوجة المحترمة ، وكن محصورات فى الأركان المظلمة من رومة ومن المجتمع الرومانى . ولم تكن قد نشأت فيها وقتئذ طائفة المحظيات المتعلمات الشبيهات بطائفة المطربات فى أثينة ، كما لم يكن قد نشأ فيها بعد أولئك المومسات الرقيقات اللائى تغنى بهن أوفد Ovid فى شعره .

وكان الرجال يتزوجون فى سن مبكرة قبل السنة العشرين من عمرهم فى العادة ، ولم يكن الباعث على الزواج هو الحب الروائى ، بل كان هو الرغبة الصادقة السليمة فى أزواج يعاونهم فى عملهم ، وأبناء ذوى فائدة لهم ، وأن يستمتعوا بحياة جنسية سليمة . وكان يقال فى حفلة الزفاف إن الغرض من الزواج هو إنجاب الأطفال . وكان للأطفال فى المزرعة كما كان للنساء فائدة اقتصادية كبرى ولم يكونوا كما هم اليوم لعباً حية . وكان الآباء هم الذين يزوجون أبناءهم وبناتهم ، وكانت عقود الزواج تعقد أحياناً على الأبناء فى طفولتهن ، وكان رضا أبوى الزوج والزوجة ضرورياً لإتمام عقد الزواج . وكانت تصحب الخطبة مراسم وتقاليد معينة ، تعد رابطة قانونية بين الزوجين . وكان أقرباء الزوجين . يجتمعون فى وليمة ليشهدوا عقد الزواج ، وكانت قشه stipula تكسر بين أهل العروسين علامة على اتفاقهما : وكانت شروط الزواج وبخاصة ما يتصل منها بالمهر تسجل كتابة ، وكان الزوج يضع خاتماً من الحديد فى الإصبع الرابعة من أصابع اليد اليسرى للزوجة لاعتقادهم أن عصباً يسير من تلك الإصبع إلى القلب(٢٦) . وكانت أصغر سن يباح فيها الزواج هى الثانية عشرة للفتاة والرابعة عشرة للفتى ، وكان القانون الرومانى القديم يجعل الزواج إجبارياً(٢٧) ، ولكن اعتقادنا أن هذا

القانون قد أغفل ولم يكن يطبق قبل عام ٤١٣ ق . م حين فرض الرقيب، كملس Camillus ضريبة على العزاب .

وكان الزواج نوعين زواجا كم مانو Cum manu وزواجا سن مانو sin manu أى زواجا يتبعه وضع العروس وما تملك تحت سلطان زوجها أو والده وزواجا لا يتبعه هذا الوضع . وكان زواج السن مانو (من غير تسليم) فى غير حاجة إلى حفلة دينية ، ولا يتطلب أكثر من رضاء العروس والعريس . أما زواج وضع اليد فكان يتم إما بالمعاشرة مدة عام (usus) وإما بالشراء (Coemptio) . وكان هناك نوع ثالث يعرف بالزواج بطريق الكنفرياشيو (Confarreatio) والمعنى الحرفى لهذا اللفظ هو (أكل كعكة معا) . وكان هذا النوع الأخير يتطلب حفلا دينياً ، ولا يتم إلا بين الأشراف . وقد اختفى الزواج بالشراء الفعلى فى عهد مبكر ، أو أنه انعكس فكانت الزوجة فى واقع الأمر كثيراً ما تشترى الزوج ببائنتها . وكانت هذه البائنة توضع عادة تحت تصرف الزوج ، ولكن قيمتها ترد إلى الزوجة إذا طلقت أو مات زوجها . وكان يصحب العرس كثير من الحفلات والأغانى الشعبية ، وكانت أسرتا العروسين تطعمان فى بيت العروس ، ثم يسير أفرادهما فى موكب مرح بهيج إلى بيت والد العريس على أنغام المزامير والأناشيد والمزاح الماجن . فإذا وصلوا إلى بابه المتوج بالأزهار تقدم العريس إلى العروس وسألها : « من أنت ؟ » فأجابته بعبارة بسيطة تشعر بوفائها ومساواتها وانضمامها له وهى قولها «حيث تكون كيوس Caius أكون أنا كايا Caia » ثم يرفعها فوق عتبة بيته ، ويقدم لها مفاتيحه ، ويضع عنقها وعنقه تحت نير إشارة إلى الرابطة المشتركة بينه وبينها ؛ ومن ثم سمى الزواج كنيوجيوم Coniugium أى الاشتراك فى النير . ثم تشترك العروس فى الصلاة لآلهة البيت دلالة على أنها قد انضمت إلى الأسرة الجديدة .

وكان الطلاق عسيراً ونادراً فى الزيجات التى تعقد بالكنفرياشيو ؛ وفى زواج

الكم مانو كان الزواج وحده هو الذى يستطيع فصم عرى الزوجية ، أما فى زوج السن مانو فكان لكل من الزوجين حق الطلاق إذا أراد دون أن يتطلب هذا موافقة الدولة . وقد سجل أول طلاق فى تاريخ الرومان فى عام ٢٦٨ ق . م ؛ وتقول إحدى الروايات المشكوك فى صحتها « إنه لم يحدث قبل هذا طلاق قط منذ أسست مدينة رومة(٢٨) » وكانت عادات العشائر الرومانية تتطلب من الزوج أن يطلق الزوجة الخائنة أو العقيم » . وفى هذا يقول كاتو الكبير « إذا وجدت زوجتك تزنى ، فإن القانون يبيح لك أن تقتلها من غير محاكمة ؛ وإذا ما فاجأتك مصادفة وأنت ترتكب هذه الجريمة نفسها فليس لها أن تمسك حتى بأطراف أصابعها ، لأن القانون يحرم عليها هذا (٢٩) » . ويلوح أنه كانت هناك زيجات سعيدة كثيرة على الرغم من هذا التفريق ؛ فشواهد القبور تنطق بالكثير من عبارات الحب والإخلاص التى كتبت عليها بعد وفاة الأزواج . وها هى ذى عبارة مؤثرة تعظم إحدى السيدات التى أخلصت فى خدمة زوجها :

« لقد كنت ياستاتليا Statilia بارعة الجمال إلى أبعد حد وفية لأزواجك ! ، ولو أن أول من جاء إليك قد استطاع أن يقاوم الأقدار لأقام إليك هذا الحجر ؛ أما أنا الذى نعمت بقلبك الطاهر هذه السنين الست عشرة فقد فقدتك ، ألا ما أشد أسفى عليك »(٣٠) .

والراجح أن فتيات رومة فى عهدها الأول لم يبلغن من الجمال ما بلغته أخواتهن فى عهودها المتأخرة واللائى يصفهن كاتلس Catullus وصف الرجل الخبير بأنهن laneum latusculum manusque mollicellas أى أن لهن « جانبين نحيلين أملسين كالصوف ، ويدين صغيرتين ناعمتين » . أو لعل الفتيات فى العهدين لم يكن بينهن هذا الفرق ولكن الكدح والهم فى الأيام الأولى أيام العمل فى الحقول كانا يطغيان بعد زمن يسير على جمال المراهقة . وقد اشتهرت نساء الرومان بتناسب معارفهن ، فكانت لهن أنوف صغيرة رفيعة ، وكن فى العادة

ذوات شعر أسود وعيون داكنة . وكان للشقراوات عندهن منزلة رفيعة ، وكذلك كان للصبغات الألمانية التي تكسب الفتيات هذا اللون قيمة كبيرة عند الرومانيات . أما الرجل الروماني فكان يتصف بالقوة والمهابة أكثر مما يتصف بالوسامة ، فقد قسا وجهه من أثر تربيته الصارمة والحياة العسكرية الطويلة ، ثم نعم واسترخى بعد انهماكه في الملاذ في الأيام الأخيرة . وما من شك في أن كليوبطرة قد أحبت أنطونيوس لسبب آخر غير خديه المنتفخين من احتساء الخمر ، وأحبت قيصر بسحر آخر غير سحر أنفه ورأسه الشبيهين برأس النسر وأنفه . لقد كان الأنف الروماني كالخلق الروماني حاداً منحرفاً ، وظل الرومان يلتحون ويطيلون شعر رؤوسهم حتى عام ٣٠٠ ق . م حين بدأ الحلاقون يمارسون مهنتهم في رومة . أما ملابسهم فكانت في جوهرها كملابس اليونان ، فكان الأولاد والبنات والحكام وكبار الكهنة يلبسون التوجا پراتكستا **Toga Praetexta** أي الجبة ذات الأهداب الأرجوانية . فإذا أتم الشاب السادسة عشرة من عمره استبدل بها التوجا ڤريلس **toga virilis** « جبة الرجولة » البيضاء دلالة على أنه قد أصبح من حقه أن يقترع في الجمعيات الوطنية ومن واجبه أن يخدم في الجيش . وكانت النساء في داخل البيوت يلبسن ثوباً (استولا **stola**) يربطنه بمنطقة تحت الثديين ، ويصل إلى القدمين ؛ فإذا خرجن من البيوت لبسن فوقه **Palla** أو عباءة . وكان الرجال وهم في البيوت يلبسون قميصاً بسيطاً **tunica** ، فإذا خرجوا منها أضافوا إليه جبة على الدوام وعباءة في بعض الأحيان . وكانت الجبة (**tegere** أي يغطي) رداء من الصوف تتكون من قطعة واحدة يبلغ عرضها ضعفي عرض لابسها ، وطولها ثلاثة أضعاف طوله . وكانت تلف حول الجسم ويلقى ما زاد منها على الكتف اليسرى ، ثم تلف من تحت أبط اليد اليمنى ، وتعود مرة أخرى فتلقى فوق الكتف اليسرى . وتستخدم ثناياها التي فوق الصدر كما نستخدم نحن الجيوب ، وكانت تترك ذراع لابسها اليسرى حرة في حركتها .

وكان الرجل الروماني يصطنع المهابة الصارمة (gravitas) ويراها خلة ثقيلة لا يستغني عنها الأشراف الذين يحكمون شعباً ، ثم شبه جزيرة ، ثم إمبراطورية . وكان ما يتصف به من رحمة وعاطفة رقيقة مقصوراً على الحياة المنزلية ؛ أما في الحياة العامة فقد كان على رجل الطبقة العليا أن يكون راسخاً جافاً كتمثاله ، وأن يخفي وراء قناع من الهدوء الصارم ما في طبعه من تهيج وفكاهة لا نراهما واضحين ساخرين في مسرحيات بلوتوس الفكهة فحسب بل نراهما كذلك في خطب شيشرون . لقد كان يطلب إلى الروماني حتى في الوقت الذي نتحدث عنه أن يعيش عيشة اسپارطية ؛ فكان الرقيب يستهجن الترف في الملبس والمأكل ؛ بل إن الزارع إذا أهمل زرعه كان معرضاً لأن يفاجئه الرقيب ليحاسبه على هذا الإهمال . وليس أدل على تقشف الرومان من أن السفراء القرطاجنيين حين عادوا من رومة بعد الحرب البونية الأولى أخذوا يسلون أثرياء التجار في بلدهم بقولهم إنهم شاهدوا مجموعة بعينها من الصحاف الفضية في كل بيت دعوا إليه ، أي أن مجموعة واحدة تنقل سراً من بيت إلى بيت كانت تكفي طبقة الأشراف جميعها ؛ وكان أعضاء مجلس الشيوخ في ذلك الوقت يجلسون على مقاعد خشبية صلبة في بهو Curia لا يدفأ قط حتى في فصل الشتاء .

بيد أن الثروة والترف قد بدءا وسارا سيراً حثيثاً بين الحربين البونيتين الأولى والثانية ؛ وشاهد ذلك أن هنيبال جمع من أصابع الرومان الذين قتلوا في معركة كاني عدداً كبيراً من الخواتم الذهبية(٣٢) ، وأن قوانين عدة قد وضعت لتحرم الجواهر المنقوشة ، والملابس المبهرجة ، والواجبات الغالية الثمن ، ولكن هذه القوانين رغم تكررها ظلت عديمة الجدوى . لقد ظلت وجبات الروماني العادي حتى القرن الثالث قبل الميلاد وجبات بسيطة ؛ فكان فطوره (ientaculum) يتكون من الخبز وعسل النحل أو الزيتون أو الجبن ؛ وكان غذاؤه (prandium)

وعشاؤه Cena يتكونان من البقول والخضر والفاكهة . أما السمك واللحم فكان يختص بهما الأغنياء[٣٣] ، وقلما كانت مائدة ما تخلو من النبيذ المخفف ، أما شرب النبيذ المركز فكان يعد إفراطاً . وكانت الأعياد والولائم من المتع الضرورية فى هذا العهد الرواق ، وكان العاجزون عن التمتع بها يخفون عن هذا العجز ويظهرون ما يحل بهم بسببه من إجهاد عصبى فى تماثيلهم التى خلفوها لمن جاءوا بعدهم .

ولم يكن للصدقات مجال فى هذه الحياة المقتصدة المتقشفة . وقد بقيت الضيافة من العادات التى يتبادلها الرومان لتيسر عليهم أسفارهم طالما كانت النزل فقيرة ومتباعدة ، ولكن پولبيوس يقول : « إن أحداً فى رومة لا يقدم شيئاً ما لأى إنسان إذا كان ذلك الامتناع فى مقدوره »[٣٤] — وما من شك أن فى هذا كثيراً من المغالاة : وكان الصغار يشفقون عن الكبار ، ولكن الظرف والكياسة لم يصلا إلى رومة إلا فى آخر أيام الجمهورية ؛ وقد غيرت الحروب والفتوح أخلاق الرومان فجعلتهم فى الغالب غلاظاً قساة إلى حد بعيد ، لا يأنفون من أن يقتلوا دون أن يؤنبهم ضميرهم على القتل ، وأن يقتلوا دون أن يشكوا منه . وكان أسرى الحرب يباعون فى الأسواق آلافاً مؤلفة ، عدا الملوك وقواد الجند فكانوا يقتلون عقب النصر أو يتركون ليموتوا موتاً بطيئاً من أثر الجوع . أما فى دوائر الأعمال فكانت أخلاق الرومان خيراً من هذه الأخلاق . نعم إن الرومان كانوا يحبون المال ، ولكن پولبيوس (حوالى ١٦٧ ق . م) يصفهم بأنهم رجال مجدون شرفاء ؛ ويقول هذا المؤرخ اليونانى إن أحداً لا يستطيع أن يمنع اليونانى من الاختلاس مهما كان عدد الكتبة الذين يعيشون لمراقبته ، أما الرومان فكانوا يتصرفون فى مبالغ طائلة من الأموال العامة ولم يثبت عليهم الاختلاس إلا فى حالات جد نادرة[٣٥] . على أننا رغم هذا القول نجد أن قانوناً قد صدر فى عام

٤٣٢ ق . م لمنع الغش فى الانتخابات . ويقول المؤرخون الرومان إن النزاهة السياسية قد بلغت أوجها فى الثلاثة القرون الأولى من عهد الجمهورية ، ولكنهم يثيرون الريبة بما يكيلونه من المدح لفاليريوس كورفوس Valerius Corvus بقولهم إنه شغل واحداً وعشرين منصباً من مناصب الحكام ، ثم عاد إلى حقوله فقيراً كما كان حين خرج منها ؛ ولكيوريوس دنتاتوس Curius Dentatus الذى لم يحتفظ لنفسه بشىء من الغنائم التى استولى عليها من الأعداء ؛ ولفابيوس بكتور Fabius Pictor ورفاقه الذين قدموا للدولة ما أعطى لهم فى مصر من الهدايا الثمينة حين ذهبوا إليها فى بعثة رسمية . وكان الأصدقاء يقرضون بعضهم بعضاً من غير فائدة ؛ وكثيراً ما كانت الحكومة الرومانية تلجأ إلى الغدر فى معاملتها للدول الأجنبية ، ولعل الإمبراطورية كانت أشرف من الجمهورية فى علاقاتها الخارجية . ولكن مجلس الشيوخ أبى أن يتغاضى عن تسمم بيرس Pyrrhus ، وحذره من المؤامرة التى كانت تدبر له[٣٦] . ولما أن أرسل هنيبال بعد معركة كانى عشرة أسرى إلى رومة ليفاوضوها فى افتداء ثمانية آلاف أسير آخرين ووعده هؤلاء العشرة بالعودة إليه ، وفوا كلهم عدا واحداً منهم بما وعدوه به ، فما كان من مجلس الشيوخ إلا أن ألقى القبض على هذا العاشر وصفده بالأغلال ، وأعاده إلى هنيبال ، ويقول بولبيوس إن سرور هنيبال لنصره « لم يبلغ من الشدة ما بلغه حزنه حين رأى ما يتصف به الرومان من ثبات وشهامة[٣٧] » . وقصارى القول أن الرومانى العادى فى ذلك العهد كان محباً للنظام ، محافظاً ، وفياً ، لا يفرط فى الشراب ، وقوراً بخيلا ، قاسياً ، عملياً . وكان يعجب بالنظام ويسر منه ولا يستمع إلى ما يقال من الهراء عن الحرية ؛ وكان مطيعاً يرى أن الطاعة خير سبيل إلى اعتياد الأمر والنهى . وكان يسلم بلا جدال بأن من حق الحكومة أن تتثبت من أخلاقه كما تتثبت من إيراده ، وأن قدره عندها لا يوزن إلا بما يقدمه للدولة من خدمات ، وكان لا يؤمن بالفردية ولا يثق بالعبقرية . ولم يكن يتحلى بشىء من الجاذبية ،

وخفة الروح وطلاقة اللسان التي يتصف بها يونانيو أتيكا Attica . وكان إعجابه بالأخلاق الفاضلة والإرادة القوية يماثل إعجاب اليونان بالحرية والذكاء . وكان النظام مصدر تفوقه على غيره . وكان يعوزه الخيال إلى حد عجز معه عن أن ينشئ له أساطير خاصة به . وكان يحمل بعض الجهد على أن يحب الجمال ، ولكنه قلما استطاع أن يخلق هذا الجمال خلقا . وقلما كان يجد لديه فائدة للعلوم البحتة ، وكان يرتاب في الفلسفة ، ويرى أنها وسيلة شيطانية للقضاء على الأخلاق والأساليب القديمة . ولم يكن في مقدوره بأية وسيلة كانت أن يفهم أفلاطون أو أركميدس أو المسيح ، وكل ما كان يستطيعه أن يحكم العالم .

الفصل الرابع

الآداب

لم تكن الأسرة والدين والقانون الأخلاقى وحدها هى التى تكون أخلاق الرومانى ، بل إن المدرسة واللغة والآداب كان لها هى الأخرى شأن فى تكوين خلقه وإن يكن أقل من شأن العوامل الثلاثة الأولى . ويقول أفلوطرخس إن أول مدرسة رومانية أنشئت فى عام ٢٥٠ ق . م[٣٨] ، ولكن ليفى يقول فى وصف فرچينيا Viirginia محبوبة أحد الحكام العشرة ، ولعل لخياله الخصب شأن فى هذا الوصف ، إنها « كانت تذهب إلى مدرسة فى السوق العامة » فى تاريخ مبكر جداً وهو عام ٤٥٠ ق . م . وإن مطالبة الشعب بتدوين القوانين ، ونشر الألواح الاثنى عشر ، ليوحى بأن كثرة المواطنين فى رومة كانت فى تلك الأيام تعرف القراءة والكتابة .

وكان المدرس فى العادة من العبيد أو من العبيد المحررين تستخدمه عدة أسر لتعليم أبنائها ، أو ينشئ هو لنفسه مدرسة خاصة يقبل فيها من يتقدم إليه . ويعلم فيها القراءة والكتابة والنحو والحساب والتاريخ والطاعة . وكانت التربية الخلقية مادة أساسية فيها تعلم على الدوام ، وكان يعنى بالنظام والتأديب أعظم عناية . وكان فى حفظ الألواح الاثنى عشر عن ظهر قلب تدريب للذاكرة وتقويم للأخلاق جميعاً . ومن أقوال هين Helne فى وصف الصعود التى يلقاها من يريد تعلم اللغة اللاتينية إنه « لو اضطر الرومان لتعلم اللغة اللاتينية لما وجدوا لديهم من الوقت ما يسمح لهم بفتح العالم[٤٠] » . ولكن الرومان أيضاً قد اضطروا إلى دراسة تصريف الأفعال اللاتينية الشاذة ، ولم يلبثوا أن اضطروا إلى دراسة اللغة اليونانية ؛

وكان الطالب اليونانى يدرس سير أبطال الرومان وما قامت به بلاده من جلائل الأعمال بدراسة آثار كتابها وشعرائها ، وكان يتلقى دروساً فى الوطنية بدراسة حوادث لم تحدث قط ؛ ولم يكن الرومان يعنون بالألعاب الرياضية لأنهم كانوا يفضلون أن يقووا أجسامهم ويتعودوا تحمل المشاق بالقيام بالأعمال المجهدة النافعة فى الحقول والمعسكرات ، لا بالمباريات فى المجتلدات والملاعب الرياضية .

وكانت اللغة - كما كان الشعب - اقتصادية عملية محددة المعانى ، مختصرة ، جملها الأصلية والتبعية منظمة تنظيما يوصل إلى هدف محدد . وثمة آلاف من الروابط بينها وبين اللغتين السنسكريتية واليونانية واللغات الكلتية التى كان ينطق بها الغاليون الأقدمون وسكان ويلز وأيرلندة ؛ وهذه اللغات كلها من أسرة اللغات الهندوربية ؛ وكانت اللغة اللاتينية أضيق من اللغة اليونانية خيالا ، وأقل منها مرونة واستعداداً لتكوين الكلمات المركبة ؛ وكان لكريشيوس وشيشرون يشكوان من قلة مفرداتها ، ومن عجزها عن بيان الفروق الدقيقة فى المعنى الواحد . لكنها مع ذلك كانت ذات نغمة طنانة فخمة وقوة أضحت بفضلهما من أصلح اللغات للخطابة ؛ كما أن أسلوبها الجزل الموجز ، وعبارتها المنطقية ، قد جعلاها صالحة لتدوين القانون الرومانى . وقد انتقلت الحروف الهجائية اللاتينية إلى رومة من جزيرة خلقيس العوبية Euobeana Chalcis[*] عن طريق كومية وإترووريا[41] . ومن أجل هذا نرى الحروف اللاتينية كلها يونانية الشكل فى أقدم نقش لاتينى معروف يعزى إلى القرن السادس قبل الميلاد ، وكان حرف C فى اللاتينية القديمة ينطق كافا مثل حرف K فى الإنجليزية كما كان حرف V ، U ينطقان مثل U ، W ؛ أما الحروف الدالة على الحركات فكانت شبيهة بمثلها فى اللغة الإيطالية الحديثة . وكان معاصرو قيصر ينطقون اسمه يوليوس قيصر Yooleous Keyssar كما كان اسم شيشرون Cicero ينطق به كيكرو Keekero .

(*) من مجموعة جزائر عوبية فى شرق بلاد اليونان . (المترجم)

وكان الرومان يكتبون بالحبر ببراعة معدنية مشقوقة (calamus,stilus) على أوراق الأشجار في بادئ الأمر (folia) ، ومن ثم كانت الكلمتان الإنجليزيتان Leaf , folio ، ومعناهما صفحتان) ؛ ثم كتبوا فيما بعد على باطن لحاء الشجر (liber) ؛ وكثيراً ما كانوا يكتبون على ألواح بيضاء من الخشب المطلى بالشمع (Album) ، وكتبوا بعد ذلك على الجلد المدبوغ ، وعلى الورق . وإذ كانت لغة الكتابة اللاتينية أشد مقاومة للتغير من لغة الكلام ، فإن لغة الأدب أخذت تختلف شيئاً فشيئاً عن اللغة التي كان يتكلمها الشعب ، كما يحدث الآن في أمريكا وفي فرنسا . ولذلك نشأت اللغات الرومانسية الرخيمة : الإيطالية والأسبانية والبرتغالية ، والفرنسية ، ولغة رومانيا ، نشأت هذه اللغات من اللغة اللاتينية الخشنة غير المهذبة التي جاء بها إلى هذه الأقاليم الجنود والتجار ، والأفاقون المغامرون ، ولم تنشأ من اللغة التي جاء بها الشعراء والنحويون . ولهذا اشتقت الكلمات التي معناها حصان في اللغات الرومانسية — Cheval, ، Cavallo, ، Caballocal — من اللفظ اللاتيني العامي Caballus لا من اللفظ الفصيح equis . وكان لفظ ille في اللغة اللاتينية العامية مكوناً من مقطع واحد كلفظ il في اللغتين الفرنسية والإيطالية ، وكان حرف S وحرف M يحذفان أو لا ينطق بهما إذا كانا في آخر الكلمات كما هي الحال في هاتين اللغتين . وعلى هذا فقد جاءت خير اللغات من مسخ أسوئها : Corruptio pesimi optima .

ترى ما هو الأدب الذي كان يقرؤه الشاب الروماني في هذه الثلاثة القرون الأولى من عهد الجمهورية ؟ لقد كان في وسعه أن يقرأ ترانيم وأغاني دينية كأغنية إخوان أرفال The Arval Brethren ، وكان لديه أيضاً قصائد شعبية تقص ماضي رومة التاريخي أو الأسطوري . وكان في ذلك العهد سجلات رسمية — معظمها مما كتبه الكهنة — للانتخابات ، والمناصب الكبرى ،

والحوادث الشهيرة ، وعلامات التشاؤم والتفاؤل ، وأيام الأعياد(*) .

وقد اعتمد ك . فابيوس پكتور Q. Fabiue Pictor على هذه السجلات في كتابة تاريخ لرومة خليق بالاعتبار ، وإن كان قد كتبه باللغة اليونانية ؛ ذلك بأن اللغة اللاتينية لم تكن تعد في ذلك الوقت صالحة لأن يكتب بها النثر الأدبي ، ولم يكن يكتب بها المؤرخون حتى زمن كاتو .

لقد كان هناك خليط من النثر يسمى ساتوري Saturae ، وهو خليط من الكلام المطرب الأجوف والغزل الهزلي — صاغ منه لوسلس Lucilius فيما بعد صورة جديدة كتب بها هوراس Horaec وجوڤنال Juvenal وكان لديهم مجون هزلي فاحش أو تقليد صامت يقوم به في العادة ممثلون من إتروريا .

وقد أطلق لفظ استريوني istiriones على بعض هؤلاء الممثلين القادمين من مدينة استريا Istria ومن هذا الاسم اشتق لفظ histrio (ممثل) اللاتيني ومشتقاته في اللغات الحديثة . كذلك كانت تمثل في أيام الأسواق والأعياد مسرحيات هزلية فجة شبه مرتجلة ، أخذت عنها كثير من المسرحيات الهزلية الإيطالية القديمة والحديثة آلافاً من شخصياتها : كالأب الغني الأبله ، والشاب المتلاف صريع الحب ، والعذراء المفترى عليها ، والخادم الدساس الماهر ، والنهم الدائب السعي إلى وجبة ، والمهرج المرح الصخاب .

وفي ذلك العهد البعيد كان المهرج يتباهى برقع ثيابه الزاهية الألوان ، وبسراويله الطويلة المنتفخة ، وبصديرته الواسعة الأكمام ، وبرأسه الحليق ، وهي الصورة التي لا نزال نذكرها من أيام شبابنا . ولقد وجدت على مظلمات خرائب پمپي صورة لا تفترق في شيء عن صورة « القركوز » المعروفة .

وكان أول دخول الأدب في رومة على يد عبد يوناني في عام ٢٧٢ ق . م .

(*) annal,esmaximi, libri magistratum, fasti consulares fasti calendares

ففي ذلك العام سقطت تارنتم في يد الرومان وذبح كثير من أهلها اليونان ، ولكن ليفيوس أندرينيكوس Levius Andrenicus أسعده الحظ بأن نجا من القتل وصار في عداد العبيد ، ثم جيء به إلى رومة فأخذ يعلم أبناء سيده وغيرهم من الأطفال اللغتين اللاتينية واليونانية ، وترجم لهم الأوذيسة بالشعر اللاتيني الساتورني Saturnian وهو عبارة عن أبيات ذات أوزان مفككة غير منتظمة تقاس أوتادها بالنبرات لا بالطول . ثم تحرر من الأسر جزاء له على جهوده وعهد إليه إيديلّ بكتابة مأساة ومسلاة تمثلان في ألعاب (ludi) سنة ٢٤٠ ق . م . فكتب المسرحيتين على النمط اليوناني ، وأرشد ممثليهما ، ومثل هو الأجزاء الهامة فيهما ، وغنى ما فيهما من الأناشيد على نغمة مزمار حتى بحّ صوته .

ثم جاء بشخص آخر يغنى الأبيات وهو يمثل — وهي طريقة اتبعت في مسرحيات كثيرة بعدهما مثلت في رومة ، وكان لها أثر كبير في نشأة المسرحية الصامتة المضحكة ، وسرّت الحكومة أيما سرور من دخول المسرحية الأدبية في رومة فكرّمت ألدرمكس ، بأن أباحت للشعراء أن يؤلفوا اتحاداً لهم ، وأن يعقدوا اجتماعاتهم في هيكل منيرفا على الأفنتين ومن ذلك الحين جرت العادة بتمثيل مسرحيات ذات مناظر في الأعياد العامة(٤٣) .

وبعد خمس سنين من هذه البداية التاريخية جاء جندي قديم من عامة الشعب ومن أهل كمبانيا يدعى كنيس نيفيوس Cnaeus Naevius فأثار غضب الأهلين المحافظين على تقاليدهم القديمة بتمثيل مسلاة سخر فيها من المفاسد السياسية التي كانت متفشية في العاصمة في أيامه ، سخرية لا تقل في صراحتها عن سخرية أرسطوفان Aristophanes .

وشكت الأسر الكبيرة من هذه السخرية فزجّ نيفيوس في السجن ثم اعتذر عن عمله هذا وأطلق سراحه ، ولكنه عاد فألف مسرحية أخرى لا تقل في سخريتها اللاذعة عن مسرحيته الأولى ، أخرج على أثرها من رومة ، وكتب

فى منفاه وهو شيخ طاعن فى السن ملحمة شعرية فى الحرب البونية الثانية التى خاض هو نفسه غمارها ، تفيض وطنية وحماسة . وتبدأ هذه الملحمة بذكر تأسيس رومة على أيدى اللاجئين الطرواديين ، وقد استمد منها فرچيل موضوع ملحمته وكثيراً من مناظرها .

وخليق بنا أن نقول إن الحكم الذى صدر بنفيه كان مأساة مزدوجة ؛ ذلك أن الملهاة الرومانية قد فتّ فى عضدها عنت الرقابة التى كانت تعد السبّ جريمة يعاقب عليها بالإعدام ، وإن السياسة الرومانية قد فقدت فيه ناقداً عاما جريئاً كان فى وسعه أن يطهرها من مفاسدها .

وكتب نيڤيوس أيضاً مسرحية شعرية تعتمد على تاريخ رومة ؛ ووقفت هذه التجربة هى الأخرى عنده ، وظلت المآسى الرومانية بعد أيامه محصورة كلها فى دائرة الأساطير اليونانية التى نضب معينها ولم تجد لها منها مخرجاً إلى غيرها من الموضوعات . ولم يبق مما كتبه نيڤيوس إلا قطع قليلة متفرقة تشهد ببراعته ، ومنها قطعة تصف فتاة لعوباً يقول فيها :

« إنها تنتقل من شخص إلى شخص تنقل من يلعب كرة فى حلقة ، وهى كل شىء لكل رجل ، تلقاهم بألفاظها ، وغمزات عينها ، ودلالها ، وعناقها . هذا تضغط عليه بيدها ، وذاك بقدمها ، وثالث تريه خاتمها ، ورابع ترسل له قُبلة حارة مغرية من شفتيها ، وهنا أغنية ، وهناك لغة الإشارات »(٤٤) .

وخليق بنا أن نقول إن النساء لم يكنّ فى ذلك الوقت أقل جمالا وسحراً مما هنّ الآن ، وإن الرومان لم يكونوا كلهم متزمتين كما كان « كاتو » ، وإن الفضيلة كانت تتنحى عن مكانها فى ظلال أبواب الهياكل نفسها .

ولم يكن للعلوم شأن فى تربية المواطن الرومانى أو ثقافته إذا استثنينا قواعد الحساب الأساسية ، وما يكفى من الهندسة لتخطيط مزرعة أو معبد . وكان

الأولاد يعدون على أصابعهم (digita) ، ولم تكن الأرقام التى يستخدمونها فى العد والحساب إلا صورة للإصبع ممتدة (I) ، ولليد (V) ، أو اليدين متصلتين عند الرسغ X ، وكانوا يكتفون فى تكوين الأعداد الأخرى بتكرار هذه الرموز (III ، II) وبإضافة أرقام قبل V ، X أو بعدهما للدلالة على ما هو أقل منها فى الحالة الأولى أو أكثر منهما فى الحالة الثانية .

ومن هذا الحساب « اليدوى » وضع النظام العشرى القائم على أجزاء العشرة ومضاعفاتها ، أى الأصابع العشر . وأجاد الرومان استخدام الهندسة فى أعمال البناء وغيرها من الأعمال الهندسية ، ولكنهم لم يضيفوا نظرية واحدة جديدة إلى النظريات التى ابتكرها العقل اليونانى . ولسنا نسمع شيئاً عن الفلك الرومانى فى هذا العهد إلا ما يتصل منه بالتقويم المليء بالأخطاء ، وبالتنجيم شقيق الفلك أو موجده .

أما الطب فقد ظل معظمه حتى القرن الثالث مقصوراً على استخدام الأعشاب والسحر والصلوات فى البيوت ، وكان الاعتقاد السائد أن الآلهة وحدها هى القادرة على شفاء المرضى ، وكانوا يبتهلون فى كل داء إلى إله خاص ، كما نلجأ نحن إلى الطبيب الإخصائى ، لكى يضمنوا لأنفسهم الشفاء من هذا المرض[٤٥] ، فبعوض المناقع الرومانية كان يلجأ فى اتقاء أذاه إلى الإلاهتين فبريس Febris ومفتيتس Mephtitis ، كما ظل الرومان إلى القرن العشرين بعد الميلاد يلتمسون الشفاء من الحمى من « سيدة الحميات » La Madonna della Febbre[٤٦] . وكانت الأضرحة الشافية والمياه المقدسة شائعة شيوعها فى هذه الأيام .

وكان هيكل اسكيولاپيوس Aesculapius مركزاً كبيراً للعلاج الدينى يعتمد فيه على التغذية المناسبة ، والمياه المعدنية ، والوسط الهادئ والنظام الرتيب الخالى من الضجيج ، والدعوات الصالحات ، والمراسم الدينية والمهدئة للأعصاب ،

ومعونة الأطباء الجبرين العمليين ، ولطف مهرة الممرضين ، يعتمد فيه على هذه العوامل كلها لإعادة الثقة إلى نفس المريض ولشفائه من مرضه شفاء يظنون أنه إنما جاء عن طريق المعجزات[٤٧] .

على أنه كان فى رومة إلى جانب هذه الوسائل أطباء حقيقيون ودجالون من العبيد قبل المسيح بخمسمائة عام ، وكان بعضهم يمارسون طب الأسنان لأن الألواح الاثنى عشر كانت تحرّم دفن الذهب مع الموتى إلا إذا كان مستخدماً فى تغطية الأسنان[٤٨] . ونسمع فى عام ٢١٩ ق . م عن أول طبيب من الأحرار فى رومة ، وهو أرشجاتوس البلوپونيزى **Archagathus Le Peloponnes** . وقد أعجب الأشراف بجراحاته إعجاباً حمل مجلس الشيوخ على أن يطلب له مسكناً رسمياً ويمنحه حرية المدينة . وكان « شغفه الشديد الذى يبلغ حد الهوس بالتقطيع والتحريق » سبباً فى تلقيبه فيما بعد بالجزار **Carnifex**[٤٩] ، وأخذ الأطباء اليونان من ذلك الوقت يهرعون إلى رومة حتى أصبحت صناعة الطب فى تلك البلاد وقفاً على اليونان .

الفصل الخامس

الزراعــة

قلما كان الرومانى فى تلك العصور يحتاج إلى الطب ، لأن حياته النشيطة فى الزراعة والجندية تكسبه صحة وقوة ؛ وكان يجدُ فى فلح الأرض كما يجدُ اليونانى فى خوض عباب البحر ؛ وكانت الزراعة أساس حياته ، يقيم المدن لتكون مجتمعا للزراع يتبادلون فيها محصولات أرضهم ، وينظم جيوشه ودولته على أساس استعداده للدفاع عن أملاكه وتوسيع رقعتها ، ويفكر فى آلهته على أنها أرواح الأرض الحية والسماء المغذية .

ونجد الملكية الفردية قائمة فى رومة من أقدم العصور المعروفة(٥٠) ؛ على أن بعض الأراضى كانت تعد من الأملاك العامة **ager publicus** التى تستولى عليها الدولة عن طريق الفتح وتحتفظ لنفسها بملكيتها . وكانت أسرة الزراع فى عهد الجمهورية الباكر تمتلك فدانين أو ثلاثة أفدنة ، يشتغل فيها جميع أفرادها وعبيدها إن كان لها عبيد ، وتعيش عيشة متقشفة على ما تنتجه من الغلات . وكانوا يفترشون القش(٥١) ، ويصحون من نومهم مبكرين ، ويخرجون إلى عملهم ونصف جسمهم العلوى عار من الملابس ، ليحرثوا الأرض ويمهدوها خلف ثيران تسمدها بفضلاتها ؛ وتتخذ لحومها قرابين دينية وطعاما فى الأعياد والولائم . وكانت فضلات الآنية تتخذ هى الأخرى سماداً ، ولكن المخصبات الكيميائية كانت نادرة فى إيطاليا قبل عهد الإمبراطورية ؛ وقد استورد الرومان فى ذلك العهد كتبا فى الزراعة العملية فى بلاد اليونان ومن قرطاجنة . وكانت الأرض تزرع حبا ثم خضراً ، ثم تترك من حين إلى حين لتكون مراعى حتى لا يستنفد خصبها وكانت الفاكهة والخضر موفورة ، وكانت بعد البقول أهم غذاء للأهلين ، وكان

الثوم من أحب المشهيات ، وقد بلغ من شأن الزراعة عندهم أن بعض أسر الأشراف قد اشتقت أسماؤها من الخضر التي تعنى بزراعتها . ومن أمثلة ذلك أسر Caepiones و Fabii و Lentuli ، وهي مشتقة من ألفاظ معناها العدس ، والبصل ، والفول أو الحمص • ثم طغت زراعة التين والزيتون والكروم شيئاً فشيئاً على زراعة الحبوب والخضر ، واستبدل زيت الزيتون بالزبد في الطعام ، وبالصابون في الاستحمام ، واستخدم للإضاءة في المشاعل والمصابيح ، كما كان العنصر الأساسي في أدهان الشعر والجلد التي كانت رياح البحر الأبيض المتوسط الجافة وشمسه المحرقة في فصل الصيف تحتم عليهم استعمالها . وكان الضأن أهم قطعانهم لأن الإيطاليين كانوا يفضلون نسيج الصوف على غيره من المنسوجات . وكانت الخنازير والدجاج تربى في ساحة المزرعة ، وكان لكل أسرة تقريباً حديقة للأزهار(٥٤) •

ثم غيرت الحروب هذه الصورة القروية وما فيها من كدح ، ذلك أن كثيرين من الزراع الذين استبدلوا السيف بالمحراث قد غلبوا على أمرهم في ميدان القتال أو اجتذبتهم حياة المدن فلم يعودوا قط إلى حقولهم ؛ وكثيرون غيرهم وجدوا أن أرضهم أتلفها الإهمال ، أو الجيوش ، فلم يجدوا لديهم من الشجاعة ما يحملهم على أن يبدأوا العمل فيها من جديد ؛ ومنهم من قصمت ظهورهم الديون الباهظة ؛ فاضطر هؤلاء كلهم إلى أن يبيعوا أرضهم بأثمان زهيدة إلى الأشراف أو الممولين الزراع ؛ وضم هؤلاء المزارع الصغيرة بعضها إلى بعض وكونوا منها ضياعا واسعة كبيرة Latifundia ، واستبدلوا بزراعة الحبوب في هذه الضياع مراعي للضأن والماشية ، وبساتين وكروما ، وحشدوا فيها عبيداً من أسرى الحروب يعملون فيها على أعين مشرفين ، كانوا هم أيضاً عبيداً في أغلب الأحيان وكان الملاك يأتون إلى هذه الضياع بين الفينة والفينة ليلقوا نظرة على

أملاكهم ؛ ولم يكونوا هم أنفسهم يقومون فيها بعمل من الأعمال ، بل كانوا يعيشون عيشة الملاك الغائبين عن أملاكهم فى منازل ذات حدائق فى الريف ، أو فى قصور فى رومة . وقد بدأ هذا الاتجاه الجديد قبل القرن الرابع ، حتى إذا حل القرن الثالث قبل الميلاد نشأت فى الريف طائفة من المستأجرين الذين أثقلتهم الديون ، وفى العاصمة طائفة من الصعاليك الذين لا ملك لهم ، وانتشرت بينهم روح التذمر والغضب من وضعهم ؛ وما لبث هذان التذمر والغضب أن قضيا على الجمهورية التى أقامها كدح الفلاحين .

الفصل السادس

الصناعة

لم تكن أرض إيطاليا غنية بمعادنها — وكان لفقرها فى هذه المعادن أكبر الأثر فى تاريخ إيطاليا الاقتصادى والسياسى ؛ فلم يكن فى البلاد ذهب قط ، وكانت الفضة جد نادرة ، وكان فيها قدر لا بأس به من الحديد ، كما كان بها بعض النحاس والرصاص ، والقصدير ، والخارصين ، بكميات قليلة لا تكفى لقيام الصناعات . وكانت جميع المناجم فى الإمبراطورية كلها ملكاً للدولة ، ولكنها كانت تؤجرها للأفراد يستغلونها استغلالا مجزياً على أيدى آلاف من العبيد . ولم تتقدم صناعة التعدين أو الفنون الصناعية فى البلاد إلا قليلا ؛ ولكن البرنز فى ذلك العهد كان لا يزال أكثر استعمالا من الحديد ؛ ولم تكن الآلات الرافعة والدلاء ذات السلاسل التى أقامها أركميدس Archimedes وغيره من العلماء فى صقلية ومصر تستخدم إلا فى خير المناجم الإيطالية وأحدثها . وكان الخشب أهم أنواع الوقود تقطع له الأشجار كما تقطع أيضاً لاستخدامها فى بناء البيوت وصنع السفن والأثاث ؛ ومن أجل هذا أخذت الغابات تتناقص مساحتها وتنعدم شيئاً فشيئاً من سفوح الجبال ، حتى وصل التقطيع إلى الحد الأعلى الذى لا تنمو فوقه الأشجار . وكانت أروج الصناعات وأكثرها ازدهاراً صناعة الأسلحة والعدد فى كمبانيا . ولم يوضع قط نظام للمصانع إذا استثنينا مصانع الأسلحة والفخار ، ولم يكن الفخرانيون يصنعون الصحاف وحدها بل كانوا يصنعون معها الآجر ، والقرميد ، والأنابيب ، والقنوات التى تجرى الماء إلى البيوت . وكان فى أريتيوم وغيرها يقلدون النماذج اليونانية ويتعلمون صناعة الآنية الفنية . ولم يحل القرن السادس قبل الميلاد حتى كانت صناعة النسيج قد تخطت المرحلة المنزلية فى نقش

التيل والصوف وإعدادهما وصبغهما ، وذلك على الرغم من أن صناعة الغزل كان يقوم بها البنات والأزواج والعبيد . أما النساجون الأحرار وغير الأحرار فقد جمعوا فى مصانع صغيرة لا تنتج للأسواق المحلية وحدها بل تنتج كذلك ما يلزم منها لتجارة التصدير .

أما الإنتاج الصناعى للاستهلاك غير المحلى فقد كانت تعطله صعاب النقل . ذلك أن الطرق كانت رديئة والقناطر غير مأمونة ، والعربات التى تجرها الثيران بطيئة ، والنزل فى الطرق نادرة ، وكان اللصوص كثيرين ، ومن ثم اتجهت حركة النقل إلى القنوات والأنهار ، أما المدن الساحلية فكانت تستورد حاجتها من البضائع بطريق البحر لا من المدن الواقعة خلفها بطريق البر . وما أن حلت سنة ٢٠٢ ق . م حتى كان الرومان قد أنشأوا ثلاثة من الطرق « القنصلية العظيمة » وقد سميت طرقاً قنصلية لأنها كانت تسمى عادة باسم القناصل أو الرقباء الذين كانوا يبدأونها . وما لبثت هذه الطرق العامة أن فاقت فى صلابتها واتساعها الطرق الفارسية والقرطاجنية التى اتخذها الرومان نماذج لهم فى بادئ الأمر . وكان أقدم هذه الطرق طريق ڤيا لاتينا **via Latina** الذى خرج به الرومان حوالى عام ٣٧٠ ق . م إلى تلال ألبان . وبدأ أپيوس كلوديوس **Appius Claudius** الضرير فى عام ٣١٢ طريق ڤيا أپيا **via Appia** أو الطريق الأپياوى الذى يصل رومة بكپوا **Capua** واستخدم فى إنشائه آلافاً من المجرمين(**) ، ثم مد هذا الطريق فيما بعد إلى بنفنتم ، وڤنوزيا **Venusia** ، وبرنديزيوم **Brundisium** ، وتارنتم . وكان هذا الطريق البالغ طوله ٣٣٣ ميلا إنجليزيا يربط ساحلى شبه الجزيرة الشرقى والغربى ، وييسر التجارة مع بلاد اليونان والشرق كما كان هو وغيره من الطرق عاملا كبيراً فى توحيـد إيطاليا . وفى عام ٢٤١ ق . م شرع الرقيب أورليوس كوتا **Aurilius Cotta** فى إنشاء الطريق الأورليلى الممتد من رومة إلى أنتيبيس **Antibes** مخترقاً مدينتى پيزا **Pisa** ،

وجنوى Genoa . وافتتح كيوس فلامينوس Caius Flaminus فى عام ٢٢٠ الطريق الفلامينى المؤدى إلى أرمينوم Ariminnm ، ثم أنشئ حوالى ذلك الوقت نفسه الطريق الفليرى Valerian بين تيبور Tipur وكرفينيوم Corifinium . وهكذا أخذت شبكة الطرق الفخمة تتسع شيئاً فشيئاً : فصعد الطريق الإميلى Aemilian نحو الشمال من أرمينيوم مخترقاً بونونيا Bononia وموتينا Mutina إلى بلاسنتيا Placentia (عام ١٨٧) ، وربط الطريق البستونى Postumian جنوى بفرونا Verona (١٤٨) وسار طريق پوپليا Via Popilia من أرمينيوم مخترقاً راڤنا Ravenns إلى پدوا Padua (١٣٢) ثم أنشئت الطرق فى القرن التالى من إيطاليا إلى خارجها — إلى يورك York ، وڤينا Vienna ، وتسلونيكا Thessalonica ، ودمشق ، كما امتدت على طول ساحل إفريقية الشمالى . وأفادت هذه الطرق فى الدفاع عن الإمبراطورية وتوحيدها ، وبعث الحياة فيها ، وذلك بمساعدتها الجيوش على سرعة الحركة ونشر الأنباء والعادات والأفكار فى ربوعها ، كما أضحت مسالك عظيمة للتجارة ، وكان لها شأن أيما شأن فى تعمير إيطاليا وأوربا وزيادة ثرائهما .

لكن التجارة لم ترج فى إيطاليا على الرغم من هذه الطرق الكبرى رواجها فى شرق البحر الأبيض المتوسط . ذلك أن رجال الطبقات العليا كانوا ينظرون بعين الاحتقار إلى الشراء بأثمان بخسة والبيع بأثمان مرتفعة ، ولذلك تركوا التجارة الداخلية لليونان والمحررين من أبناء الشرق ؛ هذا فى المدن ، أما الريف فقد كان أهله يكتفون بالأعياد التى تقام من حين إلى حين ، وبأسواق اليوم التاسع فى المدن .

كذلك لم تبلغ التجارة الخارجية شأواً عظيما لأن النقل البحرى كان معرضاً للأخطار ، فقد كانت السفن صغيرة الحجم لا تزيد سرعتها على ستة أميال فى الساعة سواء أكانت تسير بالشراع أم بالمجاذيف ، ولم تكن تبعد عن الشاطئ

ولا يجرؤ معظمها على الخروج من الموانى من شهر نوفمبر إلى شهر مارس كذلك كانت قرطاجنة تسيطر على غربى البحر الأبيض المتوسط والممالك الإغريقية تسيطر على شرقيه ، وكان لصوص البحار ينقضُّون من مكامنهم من حين إلى حين على التجار الذين هم أكثر منهم شرفاً إلى حدما ؛

وفوق هذا كله كان نهر التيبر دائب العمل على طمر مصبه وسد مدخل ميناء رومة عند أستيا Ostia ؛ وقد حدث أن غرقت مئتا سفينة فى هذا الميناء على أثر عاصفة هوجاء . يضاف إلى هذا وذاك أن التيار كان قوياً بحيث يجعل سير السفن صاعدة فيه إلى رومة عملا لا يوازى ما يتطلبه من مشقة وما يتكلفه من مال ، ومن أجل هذا بدأت السفن حوالى عام ٢٠٠ ق . م ترسو عند بتيولى على بعد مائة وخمسين ميلا جنوبى رومة ، ومنها تنقل حمولتها براً إلى العاصمة ؛

وكان لا بد لتيسير هذه الحركة التجارية الداخلية والخارجية من وضع نظام للنقود ، والمقاييس ، والمكاييل ، والموازين ، مضمون من الدولة(*) .

لقد ظلت الماشية حتى القرن الرابع قبل الميلاد تتخذ وسيلة للتبادل ، ذلك لما لها من قيمة عند جميع الناس ، ولأنها كان يسهل نقلها من مكان إلى مكان . فلما اتسع نطاق التجارة استخدمت قطع من النحاس ، خشنة الصنع غير مهذبة تسمى الإيس Aes واسطة للتعامل (حوالى ٣٣٠ ق . م) ؛ وقد اشتقت الكلمة الإنجليزية الدالة على القيمة estimate من كلمتى Aes timare أى تقويم النحاس . وكانت الوحدة المستعملة فى تقويم الأشياء هى الآس As (الواحد) وكان وزنها رطلا من النحاس ، ولما أن سكّت

(*) وإلى القارئ بعض المقاييس والمكاييل الرومانية : الموديوس Modius ومقداره ربع بوشل (والبوشل يساوى ٣٥ر٢٤ لترا) ، والقدم ومقدارها ٥/٨ ١١ بوصة إنجليزية ؛ وكانت خمس أقدام رومانية تساوى خطوة (Passus) ، وألف خطوة يساوى ميلا (Mil a passum) ومقداره ١٦١٩ ياردة إنجليزية ، وكان الأيوجيرم (iugerum) يساوى ٥/٨ فدان إنجليزى Acre تقريبا ؛ وكانت (اثنتا عشرة أوقية (Unciae) تساوى رطلا.

الدولة عملة نحاسية حوالى عام ٣٣٥ ق . م كانت تطبع عليها فى الغالب صورة ثور ، أو شاة ، أو خنزير ، ومن ثم سميت پيكونيا **pecunia** (من پيكس **pecus** أى ماشية) .

ويقول پلنى إنه لما شبت الحرب اليونية الأولى « ولم تجد الجمهورية من الأموال ما يفى بحاجاتها ، خفضت وزن الآس إلى أوقيتين من النحاس ، وبهذه الوسيلة اقتصدت ٥/٦ قيمته ، وأفلحت فى تصفية الدين العمومى »[٥٦]. وما أن وافى عام ٢٠٢ حتى كان وزن الآس قد نقص إلى أوقية واحدة ، ثم خفض فى عام ٨٧ إلى نصف أوقية لتستعين الدولة بذلك على تمويل الحرب الاجتماعية . وفى عام ٢٦٩ سكت قطعتان من النقود الفضية أولاهما الديناريوس **Denarius** وكان يساوى عشرة آسات ، أى قيمة الدرخمة الأثينية فى صورتها الحلينية المخفضة ، والأخرى السترتيوس ومقدارها آسان ونصف آس أو ربع ديناريوس . وفى عام ٢١٧ ظهرت أول عملة ذهبية رومانية — الأورى **aurei** — وكانت قيمته عشرين أو أربعين أو ستين سسترتيوس ؛

أما من حيث قيمة المعادن التى تحتويها كل قطعة من هذه النقود فقد كان فى الآس ما قيمته ٢/١٠٠ والسستر ٥/١٠٠ والديناريوس ٢٠/١٠٠ من الريال الأمريكى .

وإذ كانت المعادن الثمينة أقل كثيراً منها فى هذه الأيام ، وكانت قيمتها الشرائية لهذا السبب أضعاف قيمتها فى الوقت الحاضر[٥٧] ، فإن فى وسعنا إذا غضضنا النظر عن تقلبات الأثمان فى عهد نيرون أن نقوم الآس والسسترتيوس والتالنت (٦٠٠٠ ديناريوس) فى عهد الجمهورية الرومانية بـ ٦/١٠٠ ، ١٥/١٠٠ ، ٦٠/١٠٠ ، ٣٫٦٠٠ ريال أمريكى على التوالى حسبما كانت قيمة الريال فى عام ١٩٤٢[*] .

(*) وكان البوشل من القمح فى شمالى إيطاليا يباع حوالى عام ٢٥٠ ق . م بنصف ديناريوس (أى ٢٠/١٠٠ من الريال) وكان المبيت والطعام فى النزل مدة يوم يتكلفان نصف آس (٣/١٠٠ من الريال)[٥٨] ، وكانت أجرة المنزل المتوسط القيمة فى ديلوس **Delos** فى القرن الثانى قبل الميلاد أربعة دنانير (٢٫٤ ريال) فى الشهر ، وكان ثمن الطبق والفنجال فى رومة عام ٥٠ ب . م نصف آس (٣/١٠٠ من الريال)[٥٩] .

وكان إصدار هذه العملة المضمونة عاملا مهماً فى تدعيم الأعمال المالية فى البلاد ، فقد كان الرومان الأولون يستخدمون الهياكل فى أعمال المصارف ، كما نتخذ نحن المال إلهاً لنا والمصارف هياكل نعبده فيها من دون الله . وقد ظلت الدولة نتخذ الأضرحة القوية البناء مستودعات للأموال العامة ، ولعلها كانت ترى أن الدين قد يلقى الرعب فى قلوب اللصوص فلا يقدمون على السرقة . وكان إقراض المال من أقدم الأعمال فى رومة ، وشاهد ذلك أن الألواح الاثنى عشر تحرم الربا إذا زاد على ٨⅓ ٪ فى السنة[٦٠] ، ثم خفض سعر الفائدة القانونى فى عام ٣٤٧ إلى خمسة فى المائة ، ثم حرم الربا على الإطلاق فى عام ٣٤٢ ق . م

ولكن المرابين كان فى وسعهم أن يروغوا من هـــذا التحريم الأرسطاطيلى ، وكان أقل سعر للفائدة يتقاضونه فعلا لا يقل عن ٢ ٪ . وفضلا عن هذا فقد كان الربا الفاحش (الذى يزيد على ١٢ ٪) واسع الانتشار ، وكان يحدث من حين إلى حين أن يتخلص المدينون من ديونهم بالإفلاس أو التشريع . وحدث فى عام ٣٥٢ : ق : م أن استخدمت الحكومة وسيلة جد حديثة للتخفيف عن المدينين : ذلك أنها تكلفت هى بالرهون التى كان الوفاء بها مرجحاً أكثر من غيرها ، وأقنعت الراهنين بأن يقبلوا عن الرهون الأخرى فوائد أقل من التى تعاقدوا عليها[٦١] ، وأصبح أحد الشوارع المجاورة للسوق العامة Forum حى رجال المصارف ، وازدحمت فيه حوانيت المقرضين (argentarii) والصيارفة مبدلى النقود (trapezitae) . وكان فى وسع الأهلين أن يقترضوا المال بضمان الأرض والمحاصيل الزراعية والأوراق المالية ، والعقـــود الحكومية ، كما كان فى وسعهم أن يقترضوا لتمويل المشروعات التجارية والرحلات البحرية ، وكان يحل محل التأمين الصناعى السائد فى أيامنا الحاضرة نظام الإقراض التعاونى ؛ وكان يحدث أن يشترك عدد من أصحاب المصارف فى تقديم الأموال اللازمة لمشروع ما بدل أن ينفرد واحد منها بتمويله . وكانت هناك شركات مساهمة أشهر ما كانت تقوم به من الأعمال تنفيـــذ

العقود الحكومية التى يبرمها الرقيب بعد أن تقدم إليه عنها عطاءات . وكان أصحاب هذه العطاءات يحصلون على المال اللازم لقيامهم بهذه الأعمال ببيع ما لديهم من الأسهم والسندات للجمهور فى صورة « أجزاء صغيرة » أى أسهم particulae أو (partes) . وقد اضطلعت هذه الشركات المؤلفة من رجال يقومون بالمشروعات العامة أو مشروعات الدولة بعمل خطير فى تموين الجيش والأسطول فى الحرب البونية الثانية بما يحتاجانه من المؤن والعتاد ونقلها إليهما ، ولم يفتها فى هذا العمل أن تحاول ما يحاوله غيرها من الشركات ، وهو أن تخدع الحكومة[٦٢] ، وكان رجال الأعمال equites هم الذين يديرون هذه المشروعات الكبرى ، أما ما كان أصغر منها فكان يديره الأرقاء المحررون ؛ وكانت المشروعات غير الحكومية يديرها مديرو الأعمال negotiatunes وكان هؤلاء يدبرون لأنفسهم ما يلزمهم من المال .

وكانت الصناعة فى أيدى صناع مستقلين يشتغل كل منهم فى حانوته الخاص ، وكان معظم هؤلاء الصناع من الأحرار ولكن كان إلى جانبهم عدد من المحررين ومن الأرقاء أخذ يتزايد على مر الأيام ؛ وكانت الأعمال التى يقوم بها هؤلاء الصناع مختلفة كل الاختلاف ، وكان أكثر ما ينتجون للسوق لا للعميل الخاص . وقد أدى التنافس بين العمال الأحرار والأرقاء إلى خفض أجور الأولين ، فانحط مستوى العمال إلى درجة من البؤس لا تقل عن بؤس أفقر عمال المدن الذين يعيشون فى أقذر الأحياء فى هذه الأيام . ولم يكن إضراب هؤلاء العمال عن العمل ذا فائدة لهم ولذلك كان نادر الحدوث[٦٣] ، غير أن الفتن بين الأرقاء كانت كثيرة ؛ ولم تكن « حرب الأرقاء الأولى » (١٣٩ ق . م) أولى هذه الفتن . ذلك أن التذمر إذا اشتد وضاق الناس ذرعاً بمعيشتهم ، كان من السهل تلمس سبب للحرب تهيئ أعمالا للمتعطلين ، وتيسر انتشار النقود المنخفضة القيمة ، وتوجه غضب الشعب نحو عدو خارجى يطعم الرومان من أرضه إذا انتصروا ،

أو تستعبلهم هذه الأرض موتى أو أسرى إذا هزموا(٦٤) . وكان للأحرار من العمال اتحادات أو جماعات طائفية (Collegia) . ولكنها قلما كانت تعنى بمسائل الأجور أو ساعات العمل أو ظروفه . وتعزو الروايات المتواترة إلى نوما Nums فضل إنشاء هذه الاتحادات أو الاعتراف بمشروعيتها . وسواء صح هذا أو لم يصح فإننا نعرف أنه كان فى القرن السابع قبل الميلاد منظمات للزمارين ، والصائغين ، والنحاسين ، وطارق الحديد ، والحذائين ، والفخرانيين ، والصباغين ، والنجارين(٦٥) . وكانت جماعات « الفنانين الديونيزيين » Dionysian Artists — الممثلين والموسيقيين — من أكثر الجماعات انتشاراً فى العالم القديم . وقد كان فى رومة قبل بداية القرن الثانى قبل ميلاد المسيح جماعات طائفية للطباخين ، ودابغى الجلود ، والبنائين ، وصناع البرنز ، والحدادين ، وصانعى الحبال ، والنساجين ، ولكن الراجح أن هذه الطوائف كانت قديمة قدم الطوائف السالفة الذكر . وكان أهم أهداف هذه الاتحادات وأمثالها مجرد السرور الذى تبعثه الصلات الاجتماعية فى قلوب أعضائها . وكان الكثير منها جمعيات تعاونية تتكفل نفقات دفن الموتى .

ولم تكن الدولة تنظم شئون هذه الاتحادات والجماعات الطائفية وحسب ، بل كانت تنظم كذلك كثيراً من النواحى فى حياة رومة الاقتصادية ، فكانت تشرف على استغلال المناجم وعلى غيرها من الامتيازات والعقود التى كانت تبرمها الحكومة ، وكانت تهدئ الاضطرابات التى يثيرها العامة باستيراد الطعام وتوزيعه بأثمان اسمية على الفقراء أو على كل من يطلبه . وكانت تفرض الغرامات على الاحتكارات ؛ وقد أممت صناعة تعدين الملح لتقضى بذلك على احتكار هـذه الصناعة ، بعد أن ارتفع ثمن الملح بسبب هذا الاحتكار ارتفاعاً جعله فى غير متناول طبقة العمال . وكانت رومة تتبع سياسة حرية التجارة ، ولذلك فإنها لما تغلبت على قرطاجنة فتحت غرب البحر المتوسط لتجارة الأمم جميعها ؛ وقررت حماية يتكا Utica ثم دياوس مشترطة عليها فى نظير هذه الحماية أن يظلا ميناءين

حرين تدخل فيهما البضائع وتخرج منهما دون أن تؤدى لهما رسوماً ، على أنها كانت فى بعض الأحيان تحرم تصدير السلاح ، والحديد ، والخمر ، والزيت ، والحبوب . وكانت تفرض على معظم الغلات التى تدخل رومة عوائد جمركية تقدر عادة باثنين ونصف فى المائة من قيمتها ، ثم امتدت هذه الضريبة القليلة فيما بعد إلى غيرها من المدن ، وظلت حتى عام ١٤٧ ق . م تفرض ضريبة على الأملاك (tributum) فى جميع أنحاء إيطاليا . ويمكن القول بوجه عام إن إيرادات الدولة لم تكن كثيرة وإن أهم ما كانت تستخدم فيه هو نفقات الحرب ، شأنها فى هذا شأن غيرها من الدول المتحضرة(٦٦) .

الفصل السابع

المدينـــة

أصبحت رومة في عام ٢٠٢ ق . م من كبريات المدن الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، بفضل ماكان يدخل خزائنها من الضرائب والغرامات التي تفرضها على أعدائها ، وبفضل من كان يفد إليها من الخلائق ليسكنوا فيها .

وقد سجل فيها الإحصاء الذي أجرى في عام ٢٣٤ قبل الميلاد ٢٧٠ر٧١٣ من المواطنين – أي من الذكور الراشدين الأحرار . ثم نقص هذا العدد نقصاً فجائياً خــلال الحرب الكبرى ، ولكنه ارتفع في عام ١٨٩ إلى ٢٥٨ر٣١٨ وإلى ٣٢٢ر٠٠٠ في عام ١٤٧ ، وفي وسعنا أن نقدر سكان دولة المدينة في عام ١٨٩ ق . م بما يقرب من ١ر١٠٠ر٠٠٠ ولربما كان ٢٧٥ر٠٠٠ من هؤلاء يسكنون في داخل أسوار رومة . وكان في إيطاليا جنوب الروبيكون Rubicon نحو ٥ر٠٠٠ر٠٠٠ من السكان [٦٧] . وكانت الهجرة وامتصاص الشعوب المغلوبة ، وتدفق السكان ، وتحرير الأرقاء ومنحهم الحقوق السياسية – كانت هذه العوامل كلها قد أخذت تحدث في رومة تلك التغيرات العبقرية التي جعلتها في عهد نيرون نيويورك الزمن القديم ، نصف سكانها من البلاد الأصليين والنصف الآخر خليط من كافة الأجناس .

وكان في المدينة شارعان رئيسيان متقاطعان يقسمانها إلى أحياء منفصلة ، لكل منها موظفوه الإداريون وأربابه الواقون . وقد شيدت إلى آلهة ملتقى الطرق Lares Compitales معابد عند ملتقى للطرق الهامة وأقيمت لها تماثيل عند ملتقى الطرق الأقل من هذه أهمية – وهي عادة لطيفة لا تزال متبعة في

إيطاليا . وكانت معظم الطرق بحالها الطبيعية ، وكان بعضها مرصوفاً بحجارة ملساء مستخرجة من أقواع الأنهار ككثير من مدن البحر الأبيض المتوسط فى هذه الأيام ، وقد دامت هذه الحال حتى شرع الرقيب حوالى عام ١٧٤ يغطى أرض الشوارع الكبرى بكتل من الحمم البركانية . وقد بنى أبيوس كلوديوس الأعمى فى عام ٣١٢ أولى القنوات المعروشة لجر المياه العذبة إلى المدينة التى ظلت حتى ذلك الوقت تعتمد على العيون والآبار ومياه التيبر العكرة .

وأقام الأشراف صهاريج تستمد الماء من هذه القنوات ، ومدت منها الأنابيب فى بيوتهم ، وركبت عليها الصنابير ، فاستطاع الأشراف أن يستحموا بمائها أكثر من مرة فى الأسبوع ؛ ثم افتتحت رومة حماماتها الأولى التابعة للبلدية بعد هزيمة هنيبال بزمن قليل . وشاد المهندسون الرومان أو التسكان فى وقت غير معروف المجرى الأكبر **Cloaca Maxima** لنقل مياهها القذرة ، وقد بلغت العقود الحجرية الضخمة لهذا المجرى درجة من الاتساع تسمح بمرور عربة محملة بالدريس من تحتها[٦٨] . ثم أنشئت مجارى صغرى لصرف مياه المناقع التى كانت تحيط برومة وتغمر عليها فى بعض الأوقات ، وكانت مياه الأمطار والمياه القذرة تجري من فتحات فى الشوارع إلى هذه المصارف ، ثم تنتقل منها إلى نهر التيبر . وقد ظلت مياهه الملوثة مشكلة المشاكل فى الحياة الرومانية .

وربما كانت المعابد هى مظاهر الزينة الوحيدة التى كانت فى المدينة . ذلك أن البيوت ظلت مستمسكة بالطراز التسكانى البسيط الذي وصفناه من قبل ، لا يفترق عنه إلا فى شىء واحد وهو أن جدرانها الخارجية كانت تبنى فى الغالب من الآجر أو تطلى بمسحوق الجبس الناعم ، وكثيراً ما كانت هذه الجدران تشوه بما يخدش عليها من الشعر أو النثر فى ذكر حادث من الحوادث التافهة التى لا يلبث الناس أن ينسوها بعد وقوعها . ولم يكونوا يقصدون بكتابتها إلا أن يدلوا على ازدياد نسبة من يعرفون

منهم القراءة والكتابة ؟ وكانت الهياكل تبنى فى الغالب من الخشب ، وكانت واجهاتها وزينتها من الطين المحروق ، وكان طرازها هو الطراز التسكانى . وقد أقيمت على تل الكپتولين هياكل لجوبتر ، ويونو ، ومنيرڤا ، وأقيم هيكل آخر لديانا على الأفنتين Aventine ، وأقيمت هياكل غيرها (قبل عام ٢٠١ ق . م) ليونو ، والمريخ ، وبيانوس Janus ، والزهرة ، وللنصر ، والحظ السعيد ، والأمل وما إليها . وفى عام ٣٠٣ ق . م أضاف كيوس فابيوس إلى اسم عشيرته النباتى لقب پكتور Pictor أى المصور . وذلك لأنه عمل مظلمات فى هيكل الصحة القائم على الكپتولين . وأقام المثالون اليونان فى رومة تماثيل للآلهة الرومانية والأبطال الرومانيين من الآجر ، والرخام والبرنز ؛ وقد أقاموا فى عام ٢٩٣ على الكپتول تمثالا لجوبتر بلغ من ضخامته أن كان يراه الواقف عند تلال ألبان Alban التى تبعد عنه عشرين ميلا . وفى عام ٢٩٦ أقام الأيديلون (الموظفون الرومان المشرفون على المبانى العامة والألعاب وغيرها) تمثالا من البرنز للذئبة أضاف إليه الفنانون فيما بعد صورتين لرميوليوس وريموس . ولسنا نعرف أهذه هى المجموعة التى جاء وصفها على لسان شيشرون أم أنها مجموعة أخرى ، وإن لم تكن فهل هذه أو تلك هى بعينها « ذئبة الكپتول » التى لا تزال باقية إلى هذا اليوم . ومهما يكن من شىء فإن هذا التمثال الأخير آية فنية أوفت على الغاية فى الإتقان ؛ فهى تمثال من الجماد ينبض بالحياة فى كل عضلة من عضلاته وكل عصب من أعصابه .

وبينا كان الأشراف يخلدون انتصارهم ويمتدحون أسلافهم كان العامة يتأسون بسماع الموسيقى ، وبالرقص ، والمسرحيات المضحكة ، والألعاب . وكانت طرقات إيطاليا وبيوتها تردد أصداء الأغانى الفردية والجماعية ، فكان الرجال يغنون فى المآدب والأولاد والبنات يرددون الترانيم فى المواكب الدينية ، وكانت حفلات الزواج لا تخلو قط من الأناشيد كما كانت الأغانى تصحب جنازات الأموات . وكان المزمار أكثر آلات الطرب شيوعاً ولكن القيثارة أيضاً كان

لها من يهواها حتى أضحت الآلة المحبوبة التى ينشد على نغماتها الشعر الغنائى .
وكان الرومان فى أيام الأعياد الكبرى يجتمعون فى المدرجات وساحات اللعب يكتوون بنار الشمس ، بينا كان المستأجرون والأسرى والمجرمون والأرقاء يعدون ، أو يقفزون ، أو يقتتلون ، ويموتون . وكان الاقتتال والموت أحب إلى الجماهير من العدو والقفز . وكان فى المدينة مدرجان كبيران هما الساحة الكبرى (ويقال إن الذى أنشأها هو تاركوين الأول) وساحة فلامينوس (٢٢١ ق . م) — وكان يدخلهما من غير أجر كل من يصل إليهما من الرجال والنساء فى الوقت الذى يمكنهم من أن يجدوا فيهما مكاناً . وكانت الدولة فى بادئ الأمر هى التى تتكفل بالإنفاق على الملعبين ، ثم تكفل بهما بعدئذ الإيديلون ، أما فى العهد المتأخر من حياة الجمهورية فكان ينفق عليهما المرشحون لمنصب القناصل ، وأخذت هذه النفقات تزداد جيلا بعد جيل حتى أضحت فى واقع الأمر سداً منيعاً يحول بين الفقراء وبين التقدم لمناصب القناصل

ولعل من واجبنا أن نضم إلى هذه الألعاب « حفلات النصر » التى كانت تقام للقواد العائدين من ميادين القتال . ولم تكن هذه الحفلات تقام إلا لمن انتصروا منهم فى حرب قتل فيها من الأعداء خمسة آلاف أو يزيدون . أما القائد المنحوس الذى انتصر ولكنه لم يقتل من أعدائه هذا العدد كله فلم يكن يلقى هذا النوع من الترحيب ، ولم يكن يضحى له بثور بل بشاة ovis . وكان الناس ينتظمون فى الموكب خارج المدينة ، وكان يطلب إلى القائد هو وجنوده عند حدودها أن يلقوا أسلحتهم ، ثم يدخلها الموكب من تحت قوس نصر ، اتخذ فيما بعد طرازاً لعشرات المئات من الآثار . وكان النافخون فى الأبواق يتقدمون الموكب ثم تأتى من بعدهم أبراج أو أرماث تمثل المدن التى استولى عليها ، وصور تدل على ما قام به المنتصرون من أعمال البطولة . ثم تكر من بعدها عربات مثقلة بالذهب والفضة ، ومنتجات الفن وغيرها من الأسلاب . وقد اشتهر

موكب النصر الذى أقيم لمرسلس بما كان فيه من التماثيل المسروقة من سرقوسة (٢١٢) ؛ وعرض سپيو الإفريقى فى عام ٢٠٧ أربعة عشر ألف رطل من الفضة ، وفى عام ٢٠٢ مائة وثلاثة وعشرين رطلا استولى عليها فى أسپانيا وقرطاجنة ، وتبعها سبعون ثوراً أبيض تسير إلى مصرعها سير الفلاسفة ، ومن ورائها زعماء العدو المأسورون ثم الجلادون ، والضاربون على القيثار ، والزمارون ، وحاملو آنية البخور ، ومن بعد هؤلاء كلهم يمر القائد نفسه فى عربة زاهية مزينة ويلبس جبة أرجوانية ، وعلى رأسه تاج من الذهب ، وفى يده صولجان من العاج وغصن من شجر الغار ، وهما رمز النصر ، وشعار چوڤ jove . وكان يركب معه فى العربة أحياناً أبناؤه ، ويركب فى عربة تسير بجوارها أقاربه ؛ ثم يأتى من خلفهم أمناء سره من المدنيين والعسكريين ، ويأتى فى آخر الموكب الجنود يحمل بعضهم ما نالوه من الأعطية ، وعلى رأس كل منهم تاج ، يمتدحون قوادهم ، وبعضهم يسخرون منهم . ذلك أن التقاليد المرعية التى لا يمكن خرقها كانت تترك للجنود فى هذه الفترات القصيرة كامل الحرية فى أن ينطقوا بما يريدون أن ينطقوا به دون أن يعاقبوا عليه ، وذلك لكى يذكروا المنتصرين المزهوين بنصرهم أنهم كسائر الناس معرضون للأخطاء ، وكان القائد يصعد الكپتول إلى چوبتر ، ويونو ، ومنرڤا ، ويضع قدمه عند أقدام الآلهة ، ويضحى بحيوان ما ؛ وكان يأمر عادة بأن يذبح زعماء من الأسرى مبالغة فى شكر الآلهة . وكان هذا الموكب منظماً تنظيماً يثير فى النفس المطامع العسكرية ، ويجزى القواد والجند أحسن الجزاء على جهودهم الحربية ؛ ذلك أن زهو الإنسان وغروره لا يخضعان إلا للجوع والحب .

الفصل الثامن

بعـــد الموت

لقد كانت الحرب أروع النواحي الروائية فى حياة الرجل الرومانى ، ولكنها لم يكن لها ذلك الشأن الخطير الذى تحدثنا عنه صحف المؤرخين الرومان . ولعل حياة الرومانى كانت تدور كلها حول أسرته وبيته أكثر مما تدور حولها حياة الرجل منا فى هذه الأيام . وكانت أخبار العالم لا تصل إليه إلا متأخرة ، ومن أجل هذا لم يكن ما يتجمع فى العالم من اضطراب يستثير عواطفه فى كل يوم ، ولم تكن الحوادث العظمى التى تمر به فى حياته هى السياسة والحرب ، بل كان أهم ما يعنى به مولد الأطفال وحفلات الزواج وأخبار الموت المحزنة .

ولم يكن كبر السن تلازمه تلك الوحشية والهجران اللذان ينغصان على الكبار حياتهم فى العصور التى تشيع فيها الفردية . ذلك أن الصغار كانوا يرون أن من الفروض الواجبة عليهم أن يعنوا بالكبار ، وقد ظـل هؤلاء إلى آخر عهود الجمهورية أجدر الناس بالرعاية وأعظمهم سلطاناً ، وكانت قبورهم بعد وفاتهم مواضع التكريم ما دام لهم أبناء أو أحفاد على قيد الحياة . ولم تكن الجنائز تقل فخامة وتعظيما عن مواكب الأفراح ، فكان يسير فى طليعتها جماعة من النادبات المأجورات فلما تغالين فى عويلهن وهوسهن قيد هذا التغالى بنص فى الألواح الاثنى عشر(٧١) يحرم عليهم اقتلاع شعرهن . ويتلو هؤلاء النسوة الزمارون وقد حدد القانون عددهم باثنى عشر ، ثم الراقصون يمثل الميت واحد منهم . ويأتى من بعد هؤلاء عرض عجيب لجماعة من الممثلين يلبسون أقنعة الموت أو وجوهاً من الشمع فى صورة آباء الميت الذين شغلوا مناصب ذات شأن فى الدولة . ثم تتلو هؤلاء جميعاً جثة الميت محوطة بمظاهر تبلغ من الفخامة ما يبلغه موكب القائد المنتصر ، وعليها كامل

اللباس المخصص لأعظم منصب شغله صاحبها فى حياته ، وموضوعة فى نعش بسطت عليه أغطية مطرزة باللونين الأرجوانى والذهبى ، ومن حولها الأسلحة والدروع التى غنمها ممن قتلهم من الأعداء ، ويسير خلف النعش أبناء المتوفى وعليهم أثواب وأقنعة سوداء ، وبناته سافرات ، وأقاربه وأبناء عشيرته وأصدقاؤه ومواليه وعبيده . فإذا وصلت الجنازة إلى السوق العامة وقفت ورثى الميت أحد أبنائه أو أقاربه . لقد كانت الحياة فى تلك الأيام خليقة بأن يحياها الإنسان ولو لم ينل منها إلا هذا التكريم بعد الوفاة .

وكان الموتى من أهل رومة فى القرون الأولى من حياتها يحرقون ، ثم جرت العادة بعدئذ بأن يدفنوا وإن كان بعض المحافظين من أبنائها ظلوا يفضلون إحراق موتاهم . وسواء اتبعت هذه السنة أو تلك فقد كانت بقايا الميت تدفن فى قبر أضحى فيما بعد مزاراً ومكاناً للعبادة ، كان الأتقياء من أبناء الميت وأحفاده يضعون عليه من حين إلى حين طاقات الزهر وقليلا من الطعام . وكان لعبادة الأسلاف والاعتقاد بأن أرواحهم تحيا فى مكان ما وترقب الأحياء أكبر الأثر فى استقرار الأخلاق والمجتمع الرومانى ، كما كان لها نفس الأثر فى بلاد اليونان والشرق الأقصى . وكان الموتى حسب الأساطير الرومانية التى اصطبغت بالصبغة الهلينية ينتقلون إلى جنات النعيم أو إلى جزائر المقيمين ؛ على أنهم كلهم تقريباً كانوا ينزلون إلى الأرض ليستقروا فى مملكة الأشباح التى يسيطر عليها أوركوس Orcus وپلوتون Pluto . وكان ثانيهما — وهو الصورة اليونانية للإله هيديز Hades اليونانى — يحمل فى يده مطرقة يضرب بها الميت حتى يغيب عن وعيه . أما أوركوس (وهو الاسم الذى اشتقت منه الكلمة الإنجليزية ogre أى الغول) فكان هو الهولة التى تلتهم جثة الميت بعدئذ . وإذا كان پلوتو أعظم الأرباب فى باطن الأرض وأعلاها مقاماً ، وإذا كانت الأرض هى المورد الأخير للثروة ؛ وهى فى كثير من الأحيان مستودع ما يتجمع من الطعام والسلع ، فقد كان پلوتو يعبد

أيضاً على أنه إله الثروة والأثرياء ، وأضحت زوجته – پرسپرپينا Prosperpina الضالة – ابنة سيريز Ceres إلهة الحب النامى . وكان الرومان يتمثلون الجحيم فى بعض الأحيان على أنها موضع العقاب[٧٢] ، وكانوا يصورونها فى الأغلب الأعم على أنها مسكن الأشباح النصف المجردة التى كانت فى حياتها رجالا يمتاز بعضهم عن بعض بثواب أو عقاب بل يعانون كلهم على السواء عذاب الظلام الأبدى والنسيان النهائى . « وهنالك » كما يقول لوسيان Lucian « يجد الإنسان فى آخر الأمر الدمقراطية المنشودة[٧٣] » .

الباب الخامس

فتح بلاد اليونان

۲۰۱ – ۱٤٦ ق. م

الفصل الأول

الاستيلاء على بلاد اليونان

لما تحالف فليب ملك مقدونيا مع هنيبال على رومة (٢١٤) ، كان يأمل أن تسير فى ركابه بلاد اليونان كلها لإهازق روح ذلك الجبار الناشئ فى الغرب ؛ ولكن الشائعات ما لبثت أن انتشرت تقول إنه كان يعتزم إذا ما انتصرت قرطاجنة أن يفتح أرض اليونان كلها بمعونة حلفائه القرطاجنيين ؛ ومن أجل ذلك وقعت العصبة الإيتولية Aetolian ميثاقاً تعهدت فيه أن تساعد رومة فى حربها ضد فليب ؛ واستطاع مجلس الشيوخ بفطنته أن يستفيد من هذا الخذلان فيقنع فليب بعقد صلح منفرد مع رومة (٢٠٥) . وما كاد الرومان ينتصرون فى معركة زاما حتى أخذ مجلس الشيوخ — وهو الذى لم ينس قط إساءة وجهت إلى بلاده — يكيد لمقدونية ويستعد للثأر منها . ذلك أن هذا المجلس كان يشعر بأن رومة لا تستطيع أن تأمن على نفسها ما دام من ورائها تلك القوة العظيمة التى لا يفصلها عنها إلا بحر ضيق . ولما أن عرض مجلس الشيوخ اقتراحاً بإعلان الحرب اعترضت الجمعية على هذا الاقتراح وقام أحد التريبونين يتهم الأشراف بأنهم يريدون أن يحولوا أنظار الشعب عما فى البلاد من فساد[1] ؛ ولكن المعارضين

فى الحرب سرعان ما أخمدت أصواتهم واتهموا بخور العزيمة وضعف الوطنية ؛ وما وافى عام ٢٠٠ ق . م حتى أبحر ت . كونكتوس فلامينوس T. quintus Flaminus إلى مقدونية .

وكان فلامينوس فتى فى الثلاثين من عمره ، وكان من أفراد تلك الدائرة الحرة المعينة بصبغ البلاد بالصبغة الهلينية ، والتى كانت تتجمع فى رومة حول آل سپيو . والتى بفليپ عند سينوسفلى Cynoscephalae بعد عدة حركات عسكرية ماهرة ، وهزمه هزيمة منكرة (١٩٧) . ثم أدهش جميع أمم البحر الأبيض المتوسط ، ولعله أدهش رومة نفسها أيضاً ، بأن أعاد فليپ ، بعد أن عاقبه على فعلته ، إلى عرشه المفاس المزيل ، وعرض على بلاد اليونان كلها أن يعيد إليها حريتها . واحتجت العصبة الاستعمارية من أعضاء مجلس الشيوخ ولكن الأحرار تغلبوا إلى وقت ما ؛ وأعلن رسول من قبل فلامينوس فى عام ١٩٦ إلى حشد كبير اجتمع فى الألعاب التى كانت قائمة فى البرزخ اليونانى أن بلاد اليونان ستحرر من سيطرة رومة ومقدونية ، وستعفى من أداء الجزية ، وأن الحامية الرومانية نفسها ستنسحب منها . ويقول أفلوطرخس إن الجمهور المحتشد هتف له هتافاً عالياً بلغ من شدته أن ماتت الغربان التى كانت تطير فوق الملعب وهوت إلى الأرض[٢] . ولما أظهر العالم المتشكك ريبته فى نيات القائد الرومانى ، بدد شكوكه بسحب جيشه إلى إيطاليا ، وكان هذا العمل صفحة ناصعة البياض فى تاريخ الحروب .

ولكن الحرب تستتبع الحرب على الدوام ، فقد استاء الحلف الإيتولى من تحرير المدن اليونانية التى كانت من قبل خاضعة له ، وطلب إلى أنتيوخوس الثالث Antiochus III أن يحرر بلاد اليونان من حريتها . واغتر أنتيوخوس

بما حازه من نصر رخيص فى بعض المعارك التى خاض غمارها فى الشرق ، فسولت له نفسه أن يبسط سلطانه على غرب آسية بأجمعه . وخشيت برجموم عاقبة بغيه فلجأت إلى رومة تستعينها عليه ، وأرسل مجلس الشيوخ سپيو الإفريقى وأخاه لوسيوس Lucius مع أول جيش رومانى تطأ أقدامه أرض آسية ، والتحم الجيشان عند مجنيزيا Magnesia (١٨٩) وانتصر الرومان نصراً كان بداية الفتوح التى شملت بلاد الشرق ذى الصبغة اليونانية . وزحفت الجيوش الرومانية نحو الشمال وردوا الغاليين إلى جلاشيا Jalatia (الأناضول) وكانوا من قبل يهددون برجموم وحمد لهم اليونان سكان الجزائر الأيونية حسن صنيعهم هذا .

لكن اليونان فى أوربا لم يعجبهم هذا العمل لقد أضحت الجيوش الرومانية تحيط ببلاد اليونان من الشرق والغرب ، وإن كانت لم تطأ بعد أرضها ، ولقد حررت رومة اليونان من عدوهم ولكنها اشترطت أن يضعوا حداً لحرب الطبقات وللحروب الخارجية . غير أن حياة الحرية بغير حرب كانت حياة جديدة شاقة على دول المدن التى تتكون منها هلاس ، وكانت الطبقات العليا تتوق إلى فرض سلطانها السياسى على المدن المجاورة لبلادها ، كما أن الطبقات الفقيرة أخذت تتهم رومة بأنها أينما حلت تعين الأغنياء على الفقراء . وكانت نتيجة هذه العوامل مجتمعة أن عقد پرسيوس Perseus بن فليب الخامس وخليفته على عرش مقدونية حلفا مع سلوقس الرابع Seleucus IV ومع أهل جزيرة رودس ، وأهاب باليونان فى عام ١٧١ أن يثوروا معه على رومة ، ولكن لوسيوس إيمليوس پولس ابن القنصل الرومانى الذى قتل فى معركة كانى هزم پرسيوس فى پدنا Pydne بعد ثلاث سنين من ذلك العام ، وخرب سبعين مدينة مقدونية ، وأسر پرسيوس نفسه وسار به مصفداً يزين موكب نصره فى شوارع رومة — وعوقبت رودس بتحرير كل المدن الأسيوية التى كانت تؤدى إليها الخراج ، وبإنشاء ميناء منافس لها فى ديلوس . وقبض على ألف

من اليونان ومنهم المؤرخ پولبيوس Polybius واتخذوا رهائن فى إيطاليا ، وظلوا فى النفى ستة عشر عاماً مات منهم فى خلالها سبعمائة(*) .

وسارت العلاقات بين اليونان والرومان خلال العشرة الأعوام التالية سيرا حثيثا نحو العداوة السافرة ، ذلك أن المدن والأحزاب والطبقات المتنافسة فى بلاد اليونان لجأت إلى مجلس الشيوخ فى رومة تطلب إليه العون ، وهيأت لرومة بطلبها هذا سبيلا للتدخل انتهى بأن أضحت بلاد اليونان خاضعة خضوعاً فعلياً إلى رومة وإن ظلت بالاسم حرة مستقلة .

ولم يستطع أشياع سپيو وأسرته فى مجلس الشيوخ أن يصمدوا أمام الواقعيين الذين كانوا يشعرون أن النظام والسلام لا يستتبان فى بلاد اليونان إلا إذا خضعت خضوعا كاملا لحكم الرومان وبينا كان النزاع قائما بين رومة من جهة وقرطاجنة وأسبانيا من جهة أخرى خرجت مدائن الحلف الآخر على رومة وثارت مطالبة بحريتها ، وتزعم الحركة زعماء الطبقات الفقيرة ، فحرروا العبيد وسلحوهم ، وأجلوا الوفاء بالديون ، وأشعلوا مع الحرب نار الثورة فى البـــلاد . ولما دخل الرومان يقودهم مميوس Mummius بلاد اليونان وجدوا أهلها منقسمين على أنفسهم ،

(*) وقد وجه پولوس Paulus ، وهو سائر إلى هذه الحرب ، تحيته المشهورة إلى الهواة الخبيرين فى الفنون الحربية والتى قال فيها : « إن فى المناصب العامة جميعها ، وفى الأحزاب الخاصة : رجالا يعرفون أين يجب أن تحشد الجيوش فى مقدونية ، وأى النقط الحربية ذات المنعة يجب أن تحتلها جيوشنا ... وهم لايكتفون بأن يقرروا ما يجب علينا أن نفعله ، ولكنهم يتجاوزون ذلك إلى السخرية من القنصل إذا ما استقر الرأى على شىء لا يتفق مع آرائهم ، سخرية لا تقل عن اتهامه بالخيانة ... وهذا عمل يعطل سير الحرب إلى غايتها المرجوة تعطيلا خطيرا ... فإذا كان (أحد منكم) يحس بأن فى وسعه أن يسدى إلى النصح السديد فليسر معى إلى مقدونية ... أما إذا ظن أنه لا يطيق هذا السير فعليه ألا يعمل عمل المرشدين فى البحار وهو على ظهر الأرض(٢) » :

وكان من السهل عليهم أن يهزموا الجيوش اليونانية غير المدربة وحرق موميوس كورنثة Corinth وذبح رجالها وباع نساءها وأطفالها بيع الرقيق ، ولم يكن يترك فيها شيئاً من الثروة المنقولة أو الآثار الفنية بل نقلها كلها تقريباً إلى رومة . وأصبحت مقدونية وبلاد اليونان من ذلك الحين ولاية تابعة لرومة يحكمها حاكم رومانى ، وكانت أثينا واسپارطة هما المدينتين الوحيدتين اللتين سمحت لها رومة بأن تحتفظا بشرائعهما . واختفت اليونان من تاريخ العالم السياسى مدى ألفى عام .

الفصل الثانى

تبدل أحوال رومة

ونمت الإمبراطورية الرومانية نمواً تدريجياً ، ولم يكن معظم هذا النماء نتيجة خطة موضوعة عن قصد وتدبير ، بل كان الدافع إليه ضغط الظروف وتراجع الحدود تراجعاً يتطلبه سلامة البلاد . فقد أخضعت الفيالق الرومانية مرة أخرى بلاد غالة الجنوبية فى معركتى كرمونا Cremona (٢٠٠) وموتينا (١٩٣) ، ودفعت حدود إيطاليا الشمالية حتى أوصلتها إلى جبال الألب ؛ كذلك كان لا بد لرومة أن تحتفظ بسيطرتها على أسپانيا بعد أن استعادتها من قرطاجنة كيلا تعود هذه إلى الاستيلاء عليها ، هذا إلى ما فى تلك البلاد من ثروة معدنية عظيمة تشمل الحديد والفضة والذهب . وقد فرض عليها مجلس الشيوخ جزية سنوية باهظة من المعادن الغفل والنقود ، وكان حكامها الرومان يعوضون أنفسهم تعويضاً سخياً عن السنة التى يقضونها فيها بعيدين عن موطنهم . وحسبنا أن نذكر دليلا على هـذا أن كونتس منوسيوس Quintus Minucius ، لما عاد إلى رومة بعد فترة قصيرة قضاها قنصلا فى أسپانيا ، جاء إليها بأربعة وثلاثين ألفاً وثمانمائة رطل وخمسة وثلاثين ألف دينار من الفضة ؛ وكان الأسپان يجندون فى الجيش الرومانى فكان منهم أربعون ألفاً فى القوة التى استولى بها سپيو إيمليانوس Scipio Aemilianus على نومانتيا Numantia الأسپانية . ولما ثارت على الحكم الرومانى ثورة عنيفة فى عام ١٩٥ ق . م أخضعها ماركس كاتو Marcus Cato ولكنه جرى فى إخضاعها على سنة الرومان الأفاضل الذين كان جيلهم آخذاً فى الانقراض ، فكان عادلا رحيما . ووفق تيبريوس سمپرونيوس جراكس Tiberius Sempronius Gracchus (١٧٩) توفيقاً مشوبا بالعطف والرأفة بين

حكمه وبين أخلاق الأهلين وحضارتهم ، واتخذ له أصدقاء من زعماء القبائل ، ووزع الأراضى على الفقراء . ولكن واحداً من خلفائه يدعى لوسيوس لوكلس Lucius Lucullus (١٥١) أخل بشروط المعاهدات التى عقدها جراكس وهاجم من غير سبب كل قبيلة يستطيع أن يجد عندها مالا يغتصبه منها ، وقتل أو استعبد آلافاً من الأسبان دون أن يكلف نفسه عناء البحث عن حجة يبرر بها هذا الاعتداء . واتبع هذه السنة نفسها سلپسيوس جلبا Sulpicius Galba (١٥٠) فاستقدم إلى معسكره سبعة آلاف من الأهلين بعد أن عقد معهم معاهدة يعدهم فيها بأنه سيوزع عليهم بعض الأراضى ؛ فلما جاءوا أمر أعوانه بأن يحيطوا بهم ثم ذبحهم أو استرقهم . وفى عام ١٥٤ شنت قبائل لوزتانيا Lusitania (البرتغال) على رومة حرباً دامت سبع سنين . وظهر بين هذه القبائل زعيم قدير يدعى ڤرياثوس Viriathus قوى البنية ، فارع الطول ، شجاعاً ، صبوراً ، شهماً ، نبيلا . وظل ثمانى سنين يكيل الضربات إلى كل جيش رومانى يرسل لقتاله ويوقع به الهزيمة حتى ابتاع الرومان آخر الأمر من يقتله غيلة . وصبر الكلتبريان Celtibrians الثائرون أهل أسبانيا الوسطى على الحصار فى نومانتيا خمسة عشر شهراً ، لا يتناولون من الطعام إلا جثث موتاهم ، حتى أرغمهم سپيو إيمليانوس فى عام ١٣٣ على التسليم . ويمكن القول بوجه عام إن السياسة التى سارت عليها الجمهورية الرومانية فى أسبانيا قد بلغت من الوحشية والغدر حداً جعل ضررها برومة أكثر من فائدتها لها . وفى هذا يقول ممسن Mommsen المؤرخ الألمانى « إن التاريخ كله لم يشهد حرباً تضارع هذه الحرب الأسپانية فيما انطوت عليه من ضروب الغدر والقسوة والجشع[4] » .

وكانت الثروة المنتهبة من الولايات هى التى أمدت رومة بالمال الذى تتطلبه حياة التهتك والفساد والأنانية التى أشعلت نار الثورة فى البلاد ، وقضت آخر الأمر على الجمهورية ؛ ذلك أن الغرامات الحربية التى فرضتها رومة على قرطاجنة

وسوريا ، والعبيد الذين سيقوا إليها من جميع ميادين النصر ، والمعادن الثمينة التي استولت عليها بعد فتح بلاد الغالة الجنوبية وأسبانيا ، والأربعمائة ألف ألف سسترس (وهي تساوي ستين مليون ريال أمريكي) التي انتزعها من أنتيوخوس ، وپرسيوس ، والـ ٤٥٠٣ رطل من الذهب ، والـ ٢٢٠٫٠٠٠ رطل من الفضة التي اغتصبها مانليوس ڤلسو Manlius Vulso في حروبه الأسيوية ، هذه كلها وغيرها من أسباب الثراء الفجائي الذي ساقته إليها المقادير بدلت طبقات الملاك في رومة في مدى نصف قرن من الزمان (٢٠٢ — ١٤٦ ق . م) من رجال ذوي موارد وسطى مكتسبة إلى أشخاص مترفين يستمتعون بثراء ونعيم لم يعرفها قبلهم إلا الملوك . وكان الجند يعودون من هذه الغارات يجر الحقائب بالمال والأسلاب ، ولما أخذت النقود يتضاعف مقدارها في رومة أسرع من المباني فإن أصحاب الأملاك العقارية تضاعفت ثروتهم ثلاثة أضعاف دون أن يحركوا في سبيل ذلك عضلة أو عصباً . واضمحلت الصناعة وراجت التجارة ، ولم تكن رومة في حاجة إلى إنتاج السلع ، فقد كانت تأخذ أموال العالم لتؤدي منها أثمان بضائعه . وازدادت الأعمال العامة زيادة لا عهد للرومان بها ، وأثرى منها المكاسون الذين كانوا يعيشون من العقود التي تبرمها الحكومة ، وزاد عدد أصحاب المصارف المالية وأثروا . وكانوا يصرفون فوائد عن الودائع ، ويقبضون التحاويل المالية (praescriptions) ، ويخصمون السفاتج لعملائهم ، ويقرضون المال ويقترضونه ، ويستثمرون ما يتجمع لديهم من الأموال أو يديرون المشروعات المالية ، وأثروا من الربا الفاحش الذي كانوا ينتزعونه بلا رحمة حتى أصبح القاتل (sector) والمرابي يعبر عنها بلفظ واحد[7] . وهكذا أخذت رومة تخطو خطوات واسعة في أن تكون المركز المالي والسياسي — لا المركز الصناعي والتجاري — للعالم الذي يسكنه الجنس الأبيض .

وبهذه الوسائل وأمثالها انتقل الأشراف ومن يلونهم من رجال الطبقة

الوسطى بخطى واسعة من البساطة الرواقية إلى التنعم والترف الطليق ، وبلغ هذا التبدل أقصى مداه أو كاد فى أيام كاتو (٢٣٤ — ١٤٩) ؛ فاتسعت البيوت ، وتناقصت الأسر ، وتسابق الناس فى تأسيس دورهم بأفخم الأثاث وأغلاه ثمناً ، فأخذوا يشترون الطنافس البابلية بأغلى الأثمان ، ويبتاعون الأسرة المطعمة بالعاج أو الفضة أو الذهب ؛ وكانت الأحجار والمعادن الثمينة تتلألأ على النضد والكراسى وأجسام النساء ، وسروج الخيل . ولما قل المجهود الجسمى وزاد الثراء استبدل الناس بغذائهم القديم البسيط وجبات ثقيلة طويلة من لحوم الحيوان والطير وغيرها من ألوان الطعام الشهى والتوابل والمشهيات ، وأصبحت الأطعمة النادرة المستوردة من خارج البلاد لا تخلو منها موائد ذوى المكانة فى المجتمع ومن يدعون أن لهم فيه مكانة . وحسبنا شاهداً على هذا الإسراف أن أحد كبار الموظفين قد ابتاع حيوانات بحرية فى وجبة واحدة بألف سسترس ، واستورد آخر « أنشوجة » بألف وستمائة سسترس للبرميل ، وابتاع ثالث كمية من البطارخ بألف ومائتى سسترس ، وكان الطاهى الماهر يباع بأغلى الأثمان فى سوق النخاسة . كذلك كان شأن الشراب ، فقد انتشر وزادت مقاديره . وكان لا بد أن تكون الكؤوس كبيرة ومصنوعة من الذهب قدر المستطاع ، وقل مقدار ما يمزج به الخمر من ماء ، بل إنه كان يشرب أحياناً بلا ماء على الإطلاق . وسن مجلس الشيوخ قوانين صارمة تحدد مقدار ما ينفق من الأموال على المآدب والملابس ، ولكن الشيوخ أنفسهم كانوا يتجاهلون هذه القوانين ولذلك لم يأبه بها غيرهم من الأهلين . وفى ذلك يقول كاتو فى ألم وحسرة : « إن المواطنين لم يعودوا يستمعون النصح لأن البطون لا آذان لها[٩] » وأخذ الناس يشعرون بأنهم أفراد لا شأن للدولة بهم ، وثاروا عليها وعلى تدخلها فى شئونهم ، كما ثار الابن على أبيه ، وكما ثارت المرأة على الرجل .

وقد جرت العادة من قديم الزمان أن يقوى سلطان المرأة كلما زادت ثروة

المجتمع ؛ ذلك أنه إذا امتلأت البطون أخلى الجوع الميدان للحب ، ولذلك فشت الدعارة فى رومة وانتشر اللواط حين اتصل الرومان ببلاد اليونان وبلاد آسية ، فكان كثير من الأغنياء يدفع الواحد منهم تالنتا (٣٦٠٠ ريال أمريكى) ثمناً للغلام الوسيم ، وشكا كاتو من أن ثمن الولد الجميل يزيد على ثمن مزرعة[١٠] . على أن النساء لم يخلين الميدان لهؤلاء الغزاة اليونان والسوريين ، فأخذن يتجملن بكل وسائل التجميل التى هيأتها لهن الثروة الجديدة ، وأصبحت الأدهان ضرورة لا غنى لهن عنها ، وشرعن يستوردن من غالة أنواعاً من الصابون تخفى لون شعرهن الأشيب وتحيله أحمر[١١] . وكان الثرى من أهل الطبقة الوسطى يتباهى بأن يزين زوجه وبناته بالملابس والجواهر الغالية ويطلقهن فى المدينة يعلن عن ثروته ، وزاد شأن النساء فى دور الحكم نفسها ، وفى ذلك يقول كاتو : « إن الرجال فى جميع أنحاء العالم يحكمون النساء ، أما نحن الرومان الذين نحكم جميع الرجال فإن نساءنا يحكمننا[١٢] » . وحدث فى عام ١٩٥ ق . م أن خرجت نساء رومة الحرائر إلى السوق العامة ونادين بإلغاء قانون أپيوس **Appius** الصادر فى عام ٢١٥ والذى يحرم على النساء التحلى بالذهب والملابس الكثيرة الألوان وركوب العربات . وأنذر كاتو الرومان بأن رومة سيحل بها الخراب إذا ألغى هذا القانون ، وينطقه ليفى بهذه الخطبة التى قرأها كل جيل من الأجيال من ذلك الوقت إلى هذه الأيام :

« لو أننا كلنا قد استمسكنا فى بيوتنا بحقوق الأزواج وسلطانهم ، لما تورطنا الآن فى هذه المشاكل مع نسائنا . أما ونحن لم نستمسك بهذه الحقوق وهذا السلطان فإن نفوذنا الذى قضى عليه استبداد النساء فى البيت قد وطئته الأقدام وقضى عليه هنا فى السوق ... ألا فلتذكروا جميع النظم والقوانين الخاصة بالنساء ، والتى حاول بها آباؤنا أن يقللوا من فجورهن ويجعلوا منهن زوجات طائعات لأزواجهن ؛ ومع ذلك فإنكم رغم هذه القيود لا تستطيعون أن تكبحوا جماحهن .

فما بالكم إذا ما تساوين بأزواجهن ؟ هل تظنون أنكم فى هذه الحال ستطيقونهن ؟ إن الساعة التى يصبحن فيها مساويات لكم ستكون هى الساعة التى يصرن فيها ذوات الأمر والنهى عليكم »(١٣) . وسخر منه النساء والزمنه الصمت وأصررن على طلبهن حتى ألغى القانون . وانتقم كاتو لنفسه وهو رقيب بأن زاد الضرائب المفروضة على السلع التى يحرمها قانون أبيوس إلى عشرة أضعاف ما كانت عليه . ولكن التيار كان جارفاً ، ولم يكن فى وسع أحد أن يصده ، فألغيت القوانين الأخرى التى كانت تحد من حرية النساء أو عدلت أو أغفلت ، فأصبح للنساء الحق المطلق فى الإشراف على استثمار ممتلكاتهن ، وصرن يطلقن أزواجهن أو يجرعنهم السم فى بعض الأحيان ، وبدا لهن أن ليس من سداد الرأى أن يلدن الأبناء فى عصر ازدحمت فيه المدن بالسكان وكثرت فيه حروب الفتح والاستعمار .

وكان كاتو وپولبيوس قد أدركا فى عام ١٦٠ ق . م أن السكان يتناقصون ، وأن الدولة عاجزة عن أن تجند من الجيوش ما استطاعت أن تجنده لقتال هنيبال ، وورث الجيل سيادة العالم ، ولكنه لم يجد لديه من من الوقت أو الرغبة ما يستطيع بهما أن يدافع عنه ؛ ذلك أن الاستعداد لتلبية نداء الحرب كلما دعا لها الداعى ، وهو الاستعداد الذى كان من خصائص الملك الرومانى ، لم يعد له وجود ، بعد أن تركزت الملكية فى أيدى أسر قلائل ، وغصت أقذر أحياء رومة بالصعاليك الذين لا مصلحة لهم فى البلاد يخافون عليها أو يدافعون عنها وأصبح الناس شجعاناً بالنيابة إن صح هذا التعبير . فقد كانوا يهرعون إلى المدرجات ليشاهدوا الألعاب التى تجرى فيها الدماء ، وكانوا يستأجرون المجالدين ليصطرعوا أمامهم فى ولائمهم . وأنشئت مدارس للبنين والبنات يتعلم فيها كلا الشبان والشابات الغناء والموسيقى والمشى الرشيق(١٤) . ورقت طباع الطبقات العليا بعد أن فسدت أخلاقها ؛ أما الطبقات الدنيا فقد ظلت طباعها غليظة خشنة قوية ، وكانت وسائل لهوها فى الغالب عنيفة ولغتها بذيئة . وإنا لنشم رائحة هذه البذاءة فى پلوتس Plautus

وندرك السبب فى أن الجماهير كانت لا تطيق مشاهدة مسرحيات ترنس Terence ، ولما أن حاولت فرقة من الموسيقيين أن تعزف فى أحد مواكب النصر فى عام ١٦٧ أرغم النظارة أولئك الموسقيين على أن يستبدلوا بعزفهم مباراة فى الملاكمة(١٥) .

وسيطرت النزعة التجارية على الطبقات الوسطى المطردة الزيادة ، ولم يعد أساس ثرائها هو العقار كما كان من قبل ، بل أصبح هذا الأساس هو الاستثمار التجارى أو إدارة الأعمال التجارية . ولم يكن فى وسع القانون الأخلاقى القديم أو فى وسع حفنة من الرجال من طراز كاتو أن يحولوا بين هذا العهد الجديد عهد رؤوس الأموال المتحركة أن يصبغ الحياة الرومانية كلها بصبغته . فكان كل إنسان يسعى جاهداً للحصول على المال ، وكان كل إنسان يقدّر ويقدَّر غيره بما عنده من المال ، وكان المتعاقدون على الأعمال يغشون ويخدعون ، وبلغ من غشهم وخداعهم أن تخلت الحكومة عن كثير من أملاكها — كمناجم مقدونية — لأن المتعاقدين معها على استغلالها كانوا يسخرون العمال ويبتزون أموال الدولة ابتزازاً أصبحت معه المشروعات مصدر بلاء للدولة لا مورد ربح لها(١٦) . وتخلق الأشراف بالخلق الجديد ، وشاركوا غيرهم فى الثروة الجديدة — إذا جاز لنا أن نصدق أقوال المؤرخين ، ومن واجبنا ألا نصدقهم — بعد أن كانوا من قبل يرون أن الشرف أعلى قدراً من الحياة . وأصبحوا لا يفكرون فى الأمة ، بل يفكرون فى امتيازاتهم ومطالبهم الطائفية والفردية ، وصاروا يقبلون الهدايا والرشا الكبيرة لكى يمنحوا عطفهم على الأفراد والدول ، وما أسهل ما كانوا يجدون سبباً لشن الحرب على البلاد التى فيها من الثروة أكثر مما فيها من القوة . وكان الأشراف يعترضون العامة فى الطرقات ويستجدونهم أصواتهم أو يبتاعونها منهم ؛ وأصبح من الأمور المألوفة أن يختلس الحكام الأموال العامة كما أصبح من غير المألوف أن يحاكم هؤلاء على ما يختلسون

منها . ومنذا الذى يعاقب اللصوص من زملائه إذا كان نصف أعضاء مجلس الشيوخ قد ائتمروا على خرق المعاهدات ، وسرقة الأحلاف ، وانتهاب الولايات ؟ وفى ذلك يقول كاتو : « من يسرق مال مواطن يقضى بقية أيامه مكبلا بالسلاسل والأغلال ؛ ولكن من يسرق مال المجتمع يقضى بقية أيامه رافلا فى أفخر الثياب ومتحلياً بالذهب الوهاج »[١٧] .

ومع هذا فإن منزلة مجلس الشيوخ قد علت عما كانت عليه من قبل ، ذلك بأن رومة بقيادته قد خرجت ظافرة من الحربين البونيتين ومن الحرب المقدونية الثلاث ، وتحدت كل منافسيها ، وتغلبت عليهم ، وكسبت صداقة مصر ، وبسطت عليها نفوذها ، واستولت على جزء كبير من ثروة العالم أمكنها به أن ترفع عن إيطاليا كلها فى عام ١٤٦ عبء الضرائب المباشرة . وقد اغتصب مجلس الشيوخ فى خلال أزمات الحرب والسياسة كثيراً من اختصاصات الجمعيات والحكام ، ولكن النصر الذى نالته رومة قد برر هذا الاغتصاب ؛ وفوق هذا فإن تحول البلاد إلى إمبراطورية متسعة الرقعة قد جعل الجمعية أداة سمجة غير صالحة للحكم ؛ ذلك أن الشعوب الثائرة التى خضعت وقتئذ لحكم مجلس شيوخ كثرة أعضائه من الساسة المحنكين والقواد الظافرين ، لم يكونوا يقبلون أن يتصرف فى شئونهم بضعة آلاف من الإيطاليين الذين يستطيعون حضور الجمعيات الوطنية فى رومة . إن الحرية أساس الدمقراطية ، والنظام أساس الحرب ، وكلاهما لا وجود له مع الآخر . ذلك أن الحرب تتطلب قدراً عظيما من الذكاء والشجاعة ، والحزم والسرعة فى اتخاذ القرارات ، والعمل الجماعى المتحد ، والطاعة العاجلة لأوامر الرؤساء ؛ ومن أجل هذا قضت كثرة الحروب على الدمقراطية . وكان القانون ينص على أن من حق الجمعية المئوية وحدها أن تعلن الحرب وتعقد الصلح ؛ ولكن مجلس الشيوخ كان يستطيع بما له من حق الهيمنة على صلات الدولة الخارجية أن يدفع الأمور إلى حيث لا تجد الجمعية مناصاً من الخضوع لرأيه[١٨] . وكان مجلس الشيوخ هو المشرف على خزانة الدولة ، كما كان هو المسيطر على

الشئون القضائية ، وذلك بحكم القاعدة المتبعة من قديم الزمن وهى أن جميع المناصب القضائية الهامة كان يختار شاغلوها من أعضاء المجلس أو المرشحين لعضويته ، يضاف إلى هذا كله أن وضع القوانين وشرحها كانا من اختصاص طبقة الأشراف .

وكان فى داخل هذه الأرستقراطية ألجركية محصورة فى الأسر ذات السلطان ، ذلك أن التاريخ الرومانى قد ظل إلى عهد صلا Sulla سجلا لأعمال الأسر لا أعمال الأفراد ؛ فلسنا نرى فيه أسماء ساسة عظماء بارزين ولكنا نرى جيلا فى إثر جيل أسماء بعينها تشغل أعلى مناصب الدولة ؛ ترى من بين مائتى قنصل شغلوا هذا المنصب الخطير بين عامى ٢٣٣ ، ١٣٣ ق . م مائة وتسعة وخمسين ينتمون إلى ست وعشرين أسرة ، ومائة ينتمون إلى عشرة أسر . وكانت أقوى أسرة فى ذلك العهد هى آل كورنيليوس Cornelius . وليس تاريخ رومة الحربى والسياسى من أيام پبليوس كورنيليوس سپيو Publius Cornelius Scipio الذى خسر معركة تريبيا Trebia فى عام ٢١٨ أيام ولده سپيو الإفريقى قاهر هنيبال وأيام حفيد ثانيهما وتبناه سپيو إمليانوس الذى دمر قرطاجنة فى عام ١٤٦ ؛ نقول ليس تاريخ رومة الحربى والسياسى طوال ذلك العهد فى جملته إلا تاريخ هذه الأسرة ، ولقد بدأت الثورة التى قضت على طبقة الأشراف على يد ابنى جراكس وهما حفيدا إمليانوس . ولقد أصبح سپيو الإفريقى بعد انتصاره فى واقعة زاما التى أنجت رومة من الدمار محبباً لجميع الطبقات ، وظلت رومة فترة من الزمان على استعداد لأن تمنحه أى منصب يرغب فيه ،

فلما أن عاد هو وأخوه لوسيوس Lucius من ميدان القتال فى آسية (١٨٧) طلب أشياع كاتو أن يعرض على المجلس حساب الغرامة الحربية التى أداها إليه أنتيوخوس ليبعث بها إلى رومة ، وأبى سپيو الإفريقى أن يجيب أخوه هذا الطلب ، ومزق سجلات الحساب أمام مجلس الشيوخ ، وحوكم

لوسيوس أمام الجمعية وحكم عليه بأنه اغتصب الأموال العامة ، ولم ينجه من العقاب إلا رفض التربيون تيبيريوس سمبرونيوس جراكس Tiberius Sempronius Gracchus زوج ابنة سبيو الإفريقي أن يجيز هذا العقاب بما له من حق الرفض . واستدعى سبيو الإفريقي إلى المحاكمة فما كان منه إلا أن عطل الإجراءات القضائية بأن دعا الجمعية وسار أمام أعضائها إلى هيكل چوپتر للاحتفال بذكرى معركة زاما . ولما دعى مرة ثانية أبى أن يجيب الدعوة وسافر إلى ضيعته في ليترنوم Liternum وبقي فيها بقية أيامه لا يجرؤ أحد على أن يمسه بسوء ؛ وكان يقابل هذه النزعة الفردية في السياسة نمو الفردية في التجارة وفي الأخلاق . وما لبثت الجمهورية الرومانية أن قضى عليها نشاط عظماء رجالها وجهودهم الطليقة من جميع القيود

وقد رفع من شأن الأرستقراطية ومن شأن هذا العهد كله ، ما سرى في نفوس تلك الطبقة من تقدير للجمال . ذلك أن اتصال الرومان بالثقافة اليونانية في إيطاليا وصقلية وآسية قد جعلهم على علم بكل مستلزمات الحياة المترفة ، وبكل ثمار الفنون الجميلة في العالم القديم . ولما عاد الفاتحون إلى بلادهم جاءوا معهم بكثير مما اشتهر في أنحاء العالم من روائع الصور الملونة ، والتماثيل ، والكؤوس ، والمرايا ، والمعادن المنقوشة ، والمنسوجات الغالية ، والأثاث الثمين . وقد ارتاع الجيل القديم حين رأى مرسلس Marcellus يزين الميادين الرومانية بالتماثيل التي اغتصبها من سرقوسة . ولم يكن ما يشكو منه أهل ذلك الجيل اغتصاب قائدهم لهذه التماثيل ، بل كانوا يشكون « البطالة ولغو الحديث » اللذين أصبحا عادة لازمة للمواطنين المجدين الذين يقفون الآن « ليفحصوا عن السفاسف وينتقدوها[19] » . واغتصب فلفيوس Fulvius ١٠١٥ تمثالا من مجموعة تماثيل پرس pyrrhus في أمبراشيا Ambracia . وشحن إميليوس پولس خمسين غربة في موكب نصره بالكنوز الفنية التي استولى عليها من بلاد اليونان ضمن ما استولى عليه منها نظير تحريرها . وفعل هذا الفعل نفسه صلا Sulla ، وڤريس Verres ، ونيرون Nero ومئات

غيرهم من الرومان خلال مائتى عام من تاريخ البلاد جردوا منها بلاد اليونان من روائع فنها ليكتسى بها العقل الرومانى .

وطغى هذا الغزو على الفن الإيطالى فنبذ صفاته الأصلية ، وطرازه الوطنى واستسلم بأجمعه — إلا فى شىء واحد — إلى الفنانين اليونان وإلى الموضوعات والأشكال اليونانية . وأقبل المثالون ، والمصورون ، والمهندسون اليونان إلى رومة حيث كان الذهب يتدفق فى جيوبهم ، وما لبسوا أن صبغوا عاصمة فاتحى بلادهم بالصبغة اليونانية . وشرع سراة الرومان يشيدون قصورهم على الطراز الرومانى حول فناء غير مسقوف ، ويزينونها بالعمد ، والتماثيل ، والصور اليونانية ، وبالأثاث اليونانى . أما الهياكل فقد تحولت على مهل حتى لا تغضب الآلهة من هذا التحول وبقى جسم الهيكل القصير والقاعدة المرتفعة للتماثيل — وهما من مميزات الفن التسكانى — القاعدة المتبعة فى بناء الهياكل ونحت التماثيل . فلما أن زاد عدد الآلهة الأولمبية ، رأى الرومان أن من حق تلك الآلهة أن تبنى بيوتها على الطراز الهلينى الرفيع . غير أن الفن الرومانى قد ظل فى ناحية واحدة جوهرية يعبر بوسائله الخاصة وبقوته الفذة عن الروح الإيطالية الفنية ، وإن ظل يسترشد بالفن اليونانى . أما فيما عدا هذا فقد استبدل المهندسون الرومان القوس بالعارضة الراكزة على الأعمدة فى الأبنية التى خلدوا بها نصرهم أو زينوا بها دورهم ، وفى القنوات التى تجر الماء لدورهم وفى أبنية محاكمهم . وعلى هذا النحو شاد كاتو من الحجارة فى عام ١٨٤ الدار المعروفة باسم باسلكا پورشيا **Bacilica portia** ، وبعد خمس سنين من ذلك العام شاد إمليوس پولس باسلكا إمليا **Bacilica Aemilia** فى صورتها الأولى التى أصلحها فيما بعد أبناؤه وأحفاده جيلا بعد جيل ، وجملوها أحسن تجميل(*) . وكانت الباسلكا الرومانية النموذجية

(*) وكانت الباسلكا تطبيقاً من جانب اليونان المقود على هندسة القصور الفارسية والأبهاء المصرية ذات السقف المرتكزة على العمد . وكانت ديلوس وسرقوسة قد أقامتا مثل هذه المبانى فى القرن الثالث قبل الميلاد .

داراً تقام لتصريف الأعمال التجارية والقضائية ، وتتألف من بناء فى شكل مستطيل طويل يقسمها إلى ممشى وأفنية صفان من الأعمدة الداخلية ، يعلوها فى العادة سقف فى صورة قبة مصندقة ، وهو طراز أخذ فى الأصل من الإسكندرية[٢٠] . وإذ كان الممشى مرتفعاً عن الأفنية فقد كان من المستطاع حفر شبكة من الفتحات فى الحجارة فوق كل فناء يدخل منها الضوء والهواء ، ذلك بطبيعة الحال هو الشكل الأساسى للجزء الداخلى من الكنائس الكبرى فى العصور الوسطى . وبهذه الصروح الضخمة شرعت روما تتخذ لنفسها مظهر القوة والفخامة الذى امتازت به فى مستقبل أيامها حتى بعد أن لم تكن عاصمة العالم كله .

الفصل الثالث

الآلهة الجدد

ترى ماذا كان شأن الآلهة القديمة فى ذلك العهد ، عهد التحول السريع الذى لا يبقى ولا يذر ؟ يلوح أن شيئاً من الكفر بهذه الآلهة قد سرى من الأشراف إلى عامة الشعب ، وإلا فكيف يرضى شعب لا يزال يؤمن بالآلهة القديمة عن هذه المسرحيات الهزلية التى يسخر فيها بلوتس plautus — مهما كانت حجته فى أنه إنما يحاكى النماذج اليونانية — من أعمال جوبتر مع ألكمينا Alcmena ، ويجعل من عطارد مهرجا ضحكة ، ثم هو لا يرضى عن هذا فحسب بل يحيى هذه المشاهد بالصخب والضجيج . إن كاتو نفسه وهو الحريص على العادات القديمة ، كان يعجب من قدرة اثنين من العرافين إذا التقيا على ألا يسخر كلاهما من الآخر[٢١] . لقد طالما خضع هؤلاء العرافون لأساليب الختل السياسية ، وكثيراً ما كان الفأل والطيرة ينطق بهما لتكييف الرأى العام كما يهوى الزعماء ، وكثيراً ما كانت أصوات الشعب فى الاقتراع على أمر من الأمور تكفيها وسائل التهريج والشعوذة الدينية . ولطالما رضى الدين بأن يُحَوِّل استغلال الشعب إلى واجب مقدس تتطلبه الآلهة .

ولقد كان من الدلالات السيئة أن يكتب پولبيوس حوالى عام ١٥٠ ق . م ، بعد أن عاش سبعة عشر عاماً فى أرقى المجتمعات فى رومة ، ما يستدل منه على أن الدين الرومانى لم يكن إلا أداة طيعة من أدوات الحكم :

« إنى أرى أن الميزة التى تمتاز بها الجمهورية الرومانية ، والتى ترفع من قدرها فوق سائر بلاد العالم ، إنما هى طبيعة دينها ، ذلك أن ما يعد عند الأمم الأخرى عيباً من العيوب وسبة فى الأعقاب — وهو الخرافات — هو نفسه

العامل الأكبر فى تماسك الدولة الرومانية . فهذه الشئون تكتسى بثوب من الأبهة والفخامة ، وتسرى فى الحياة الخاصة والعامة سرياناً لا يضارعها فيه غيره من الأديان . . . ويقينى أن الحكومة قد نهجت هذا النهج لخير الشعب . ولو أنه كان مستطاعاً إقامة دولة كل رجالها من الحكماء ، لما كان هذا النهج واجباً محتوماً . ولكن الجماهير كلها بلا استثناء متقلبة الأهواء لا تثبت على حال ، تملأ قلوبها الرغبات الطليقة التى لا تتقيد بقانون ، والشهوات التى لا تخضع لحكم العقل ، والانفعالات العنيفة ؛ ومن أجل هذا كان لا بد من وجود أسباب للإرهاب لا تراها العين ، ومواكب ومظاهر دينية فخمة تمسك هذه الجماهير بعضها ببعض » .

ولعله كان فى وسع پولبيوس أن يؤيد قوله هذا بحوادث فى أيامه تثبت أن الخرافات لا تزال هى المسيطرة على عقول الرومان ، على الرغم من پلوتس وعلى الرغم من الفلسفة . من ذلك أنه لما حلت بالرومان كارثة كانى **Cannae** ، ولاح أن رومة لن يعصمها عاصم من هنيبال ، استولى الرعب على الشعب الرومانى المهتاج ونادى : « أى إله نرتجيه لينجى رومة من البلاء الذى هى فيه ؟ »

وحاول مجلس الشيوخ أن يسكن هذا الذعر بالتضحية البشرية ، ثم بالصلاة إلى الآلهة اليونانية ، ثم باستخدام الطقوس اليونانية فى عبادة الآلهة كلها الرومانية منها واليونانية على السواء . ثم قرر المجلس فى آخر الأمر أنه إذا كان قد عجز عن القضاء على الخرافات فإنه سينظمها ويسيطر عليها . من ذلك أنه أعلن فى عام ٢٠٥ أن الكتب السبيلية **Sibylline** تنبئ بأن هنيبال سيغادر إيطاليا إذا جيء بالأم الكبرى **Magna Mater** — وهى صورة من الإلهة سيبيل **Cybele** — من پسينس **pessinus** فى فريجيا **Phygi** إلى رومة . ووافق على ذلك أتالس **Attalus** ملك برجوم ونقل الحجر الأسود الذى كان فى اعتقادهم جسد الأم الكبرى إلى أستيا حيث استقبله سپيو الإفريقى وطائفة من فضليات

السيدات بمظاهر التكريم . ولما أن ارتطمت السفينة التى كانت تحمله بطين نهر التيبر رفعتها العذراء كلوديا القستية ، وجرتها فى النهر صعداً إلى رومة بما للعفة من قوة سحرية ، ثم أمسكت السيـــدات جميعهن كل واحدة بعد الأخرى بالحجر فى يدها وحملته فى موكب رهيب إلى هيكل النصر ، وأخذ الأهلون الأتقياء يحرقون البخور أمام بيوتهم أثناء مرور الأم الكبرى . وارتاع مجلس الشيوخ حين وجد أن المعبود الجديد لا بد أن يقوم على خدمته كهنة يخصُون أنفسهم . وكان من المستطاع العثور على رجال يقبلون هذا ، ولكن الرومان لم يكن يسمح لهم بأن يكونوا من بينهم . وشرعت رومة من ذلك الوقت تحتفل فى شهر إبريل من كل عام بعيد الآلهة الكبرى **Magalesia** ، واتخذ الاحتفال فى بادئ الأمر صورة الحزن العنيف ، ثم انقلب بعدئذ إلى المرح العنيف . ذلك أن سيبيل كانت إلهة نباتية ، وتروى الأساطير أن ابنها أتيس **Attis** رمز الخريف والربيع مات وانتقل إلى الجحيم **Hades** ، ثم عاد إلى الحياة من بين الأموات ٥

وغادر هنيبال إيطاليا فى عام ٢٠٥ ، وهنأ مجلس الشيوخ نفسه على الطريقة التى اتبعها فى علاج الأزمة الدينية ، ولكن الحروب التى دارت مع مقدونية قد فتحت لرومة أبواب اليونان والشرق . وقد جاء أثر الجنود اللذين عادوا بأســلاب الشرق وأفكاره وأساطيره أفواج من الأسرى اليونان والأسيويين ، ومن الرقيق واللاجئين ، والتجار والسياح ، والرياضيين والفنانين والممثلين والموسيقيين ، والمدرسين والمحاضرين ، والناس إذا هاجروا جاءوا معهم بآلهتهم . واغتبطت الطبقات الدنيا فى رومة بما عرفته من ديونيسس باخوس **Dionysus Bacchus** ؛ وأرفيوس **Orpheus** ويريديس **Eurydice** ، والطقوس الغامضة الخفية وهى فى اعتقادهم مصدر الإيحاء الإلهى ، والخمر القدسى ، والاتصال الروحى ، الذى يكشف عن الآلهة التى تبعث حيَّة وتمجد عبادها الخلود . وارتاع مجلس الشيوخ فى عام ١٨٦ حين علم أن من الشعب أقلية كبيرة قد اعتنقت الطقوس الديونيسية ،

وأن الإله الجديد تقام له حفلات تدار فيها كؤوس الخمر على المحتفلين . وإذ كانت هذه الحفلات تقام سراً وفى الليل فقد راجت الإشاعات القائلة بأنها كانت حفلات حمراء يصحبها الخمر والفجور الطليق ، وقد وصفها ليفى بقوله : « إن الفسق بالرجال كان أكثر من الفسق بالنساء » ؛ ثم يقول بعد هذا — ولعله فى ذلك ينزل لغو القول منزلة التاريخ المحقق : « ومن لم يكن يرضى بالدنس . . . كان يضحى به قرباناً للإله »[٣] . وحرم مجلس الشيوخ هذه الطقوس الدينية ؛ وقبض على سبعة آلاف من القائمين بها ، وقضى بإعدام مئات منهم . وكان هذا نصراً مؤقتاً فى الحرب العوان التى خاضت رومة غمارها لصد تيار الأديان الشرقية(*) .

(*) يريد أديان اليونان .

الفصل الرابع

بداية عصر الفلسفة

كانت الطريقة التى غزت بها بلاد اليونان رومة أن بعثت إلى عامتها بالدين اليونانى والمسرحيات الهزلية اليونانية ، وإلى الطبقات العليا من أبنائها بالأخلاق وبالفلسفة اليونانية . وائتمرت هذه الهدايا اليونانية مع الثروة الرومانية ومع الإمبراطورية الرومانيـــة على تقويض دعائم دين رومة وأخلاقها ، وكان هذا إحدى السبل التى اتبعتها هلاس فى انتقامها الطويل المدى من غزاتها . وبلغ هذا الغزو غايته فى الفلسفة اليونانية من أبيقورية لكريشيوس الرواقية إلى رواقية سنكا الأبيقورية . وفى الدين المسيحى غلبت فلسفة ما وراء الطبيعة اليونانية الآلهة الإيطالية ، ولـــا نشأت القسطنطينية كانت الغلبة فيها للثقافة اليونانية ، فنافست فى بادئ الأمر الثقافة الرومانية ، ثم حلت فى آخر الأمر محلها ؛ ولما أن سقطت القسطنطينية عادت الآداب والفلسفة والفنون اليونانية فغزت إيطاليا وأوربا كلها فى عصر النهضة . ذلك هو المجرى الرئيس فى تاريخ الحضارة الأوربية ، أما ما عداه فتيارات فرعية وروافد جانبية . وفى ذلك يقول شيشرون : لم يكن منشأ الفيض الذى أقبل من بلاد اليونان إلى مدينتنا مجرى صغيراً بل كان منشؤه نهراً خضما من الثقافة والعلم »[٢٤] ، أصبحت حياة رومة الذهنية والفنية والدينية من بعده جزءاً من العالم المصطبغ بالصبغة الهلينية(*) .

ووجد الغزاة اليونان فى مدارس رومة وقاعات المحاضرات فيها ثغرة طيبة ينفذون منها إلى رومة ، وموقعاً صالحا يثبتون فيه أقدامهم . فجاء فى أعقاب

(*) من أقوال هوراس ذلك القول الذى ملت الأذن سماعه « أسرت بلاد اليونان المغلوبة غالبها الهمجى »[٢٤] .

الجيوش الرومانية التي عادت من بلاد الشرق تيار دافق من « اليونان الصغار » Graeculi كما كان يسميهم الرومان استهزاء بهم . وكان منهم أرقاء كثيرون استخدموا معلمين فى الأسر الرومانية ، ومنهم النحاة الذين أنشأوا الدراسات الثانوية فى رومة بما افتتحوه من المدارس لتعليم لغة اليونان وآدابهم ؛ ومنهم البلغاء الذين كانوا يلقون محاضرات عامة فى فن الخطابة والأدب والإنشاء والفلسفة ، أو يعطون فيها دروساً خاصة . وشرع الخطباء الرومان — حتى من كان منهم يبغض الثقافة اليونانية أمثال كاتو — يتخذون خطب ليسياس Lysias ، وإيسكين Aeschines ودمستين Demosthenes نماذج لهم ينسجون على منوالها .

ولم يكن لهؤلاء المدرسين اليونان دين يؤمنون به إلا القليلين منهم ، وأقل من هؤلاء المتدينين من كانوا يبثون فى قلوب تلاميذهم شيئاً من العقيدة الدينية . وكانت منهم أقلية صغيرة تحذو حذو أبيقور ، وتسبق لكريشيس فى وصفه الدين بأنه أكبر الشرور فى حياة البشر . وأدرك الأشراف مهب العاصفة وحاولوا أن يسدوا عليها الطريق ، فنفى مجلس الشيوخ من البلاد فى عام ١٧٣ اثنين من الأبيقوريين ، وأصدر فى عام ١٦١ قراراً يقضى بأن لا يبقى فى رومة أحد من الفلاسفة أو البلغاء » . ولكن العاصفة لم تسكن ، فقد جاء إلى رومة فى عام ١٥٩ كراتس الملوسى Crates of Mallus مدير المكتبة الملكية الرواقى فى برجموم فى عمل رسمى ، وكسرت فيها ساقه ، فأقام بها ، وأخذ وهو فى دور النقاهة يلقى محاضرات فى الأدب والفلسفة . وفى عام ١٥٥ بعثت أثينة إلى رومة سفراء من أهلها كانوا زعماء المدارس الفلسفية الثلاث العظيمة : كارنيدس Carneades الأكاديمى أو الأفلاطونى ، وكرتولوس Critolaus المشائى أو الأرسطاطيلى ، وديوجين Diogenes الرواقى السلوسى (of Selucia) . وكان قدوم هؤلاء إلى رومة مبعث نهضة علمية وفلسفية لا تكاد تقل فى قوتها عما بعثه قدوم كرسولوراس Chrysoloras إلى إيطاليا فى عام ١٤٥٣ . وتحدث كارنيدس عن البلاغة

بفصاحة حملت الشبان على أن يجتمعوا حوله فى كل يوم ليستمعوا له[٢٥] . وكان الرجل شكاكا إلى أقصى حد ، فكان يشك فى وجود الآلهة ، ويقول إن فى الإمكان تبرير الظلم بأسباب لا تقل فى وجاهتها عن الأسباب التى يبرر بها العدل . وفى هذا تسليم من جانب الفلسفة الأفلاطونية بآراء ترازيماكس Thrasymachus

ولما سمع كاتو — وكان وقتئذ شيخاً طاعناً فى السن — بهذا القول طلب إلى مجلس الشيوخ أن يأمر بإعادة السفراء الثلاثة إلى بلادهم ، فعادوا ولكن بعد أن ذاق الجيل الجديد لذة الفلسفة ؛ ومن ذلك الحين أخذ الأثرياء من شباب رومة يذهبون إلى أثينة ورودس ليستبدلوا فيها بإيمانهم القديم أحدث ما فيها من تشكك .

وكان الذين فتحوا بلاد اليونان هم أنفسهم الذين نشروا الثقافة اليونانية والفلسفة اليونانية فى رومة ، وكان فلامينوس Flaminus يحب الآداب اليونانية قبل أن يغزو مقدونية ويحرر اليونان ، فلما أن غزاها تأثر كثيراً بما رأى فى بلاد اليونان من فنون ومن مسرحيات . وخليق بنا أن نذكر لرومة أن بعض قوادها العسكريين كانوا يستطيعون فهم پوليكليتس polycleitus وفيدياس Pheidias وإن كانوا قد تغالوا فى تقدير هذين الفنانين إلى حد السرقة . ولما أن انتصر إيمليوس پولس على پرسوس لم يستبق لنفسه من كل ما جاء به من الغنائم إلا مكتبة الملك ليرثها أبناؤه من بعده ، وقد حرص على أن يتعلم هؤلاء الأبناء الآداب والفلسفة اليونانية حرصه على أن يتعلموا فنون الصيد والحرب الرومانية ، وكان يشترك معهم فى هذه الدراسات بالقدر الذى تسمح له به واجباته الرسمية .

ولما مات پولس تبنّى أصغر أبنائه صديقة پ . كرنليوس سپيو ابن الإفريقى واتخذ الابن المتبنى اسم الرجل الذى تبناه جرياً على عادة الرومان وقتئذ ، وأضاف إليه اسم عشيرة أبيه فأصبح اسمه بعدئذ ، كرنليوس

سپيو إيمليانوس وهو الذى سنطلق عليه اسم سپيو فى صحائف هذا الكتاب ، وكان شابا وسيم الطلعة قوى البنية ، بسيطا فى عاداته ، متزناً فى حديثه ، رقيق القلب ، كريماً ، شريفاً طاهر اليد ، ولم يترك وراءه عند وفاته إلا ثلاثة وثلاثين رطلا من الفضة ورطلين من الذهب ، وإن كانت جميع غنائم قرطاجنة قد مرت بين يديه ، وإن كان قد عاش عيشة العالم المتقشف لا عيشة الرجل الثرى ، وقد التقى فى شبابه ببولبيوس اليونانى الذى نفى من بلاده وأسداه پولبيوس النصح والكتب القيمة ، وكانت هذه يد حفظها له الشاب طول حياته . وذاعت شهرته وهو لا يزال شابا يحارب تحت إمرة أبيه فى بدنا pydna ، ولما استخف به عدوه فى أسپانيا وطلب إليه أن يبارزه قبل هذا التحدى وانتصر فى المبارزة(٢٧) .

وقد جمع حوله فى حياته الخاصة طائفة من الرومان الممتازين الذين شغفوا بالأفكار اليونانية . ومن أعظم هؤلاء شهرة جايوس ليليوس Gaius Laelius وهو رجل حكيم فى رأيه ، وفىّ فى صداقته ، عادل فى أحكامه ، تقى السيرة ، طاهر السريرة ، لا يفوقه فى فصاحة اللسان وجمال الأسلوب إلا إيمليانوس نفسه . وقد أحب شيشرون ليليوس وأعجب به بعد مائة عام من وفاته ، وسمى باسمه مقاله عن الصداقة ، وكان يتمنى أن لم يعش فى عصره المضطرب بل فى تلك الدائرة الرفيعة التى كانت تضم شباب روما المفكر .

وكان لهذه الدائرة أبلغ الأثر فى الأدب الرومانى ، ولقد كسب ترنس Terence بفضل اشتراكه فيها ما امتازت به لغته من دقة فى التعبير وجمال فى الأسلوب ، ولعل جايوس لوسليوس (١٨٠ — ١٠٣) قد أفاد منها قدرته على أن يجعل لهجائه اللاذع الذى كان يسلطه على رذائل عصره وترفه هدفاً اجتماعياً .

وكان اللذان يشرفان على هذه الفئة من اليونان رجلين هما پولبيوس Polybius وپانيتيوس Panaetius . وقد عاش أولهما سنين كثيرة فى بيت سپيو . وكان رجلا واقعياً عقلياً ، قليل الاغترار بالناس وبالدول . أما پانيتيوس فقد جاء من

رودس ، وكان كزميله پولبيوس من الأشراف اليونان . وعاش كثيراً من السنين مع سپيو ينعم بصداقته ويشاركه فى نفوذه وسلطانه . وهو الذى غرس فى نفس سپيو فضائل الرواقية ونبلها ، وأكبر الظن أن سپيو هو الذى حمله على أن يلطف من المطالب الخلقية المتطرفة لهذه الفلسفة ، ويجعل منها عقيدة عملية . ولقد شرح پانيتيوس فى كتاب له « فى الواجبات » المبدأين الأساسيين للفلسفة الرواقية وهما أن الإنسان جزء من كل يجب أن يتعاون معه — مع أسرته ، وبلده ، ومع روح العالم القدسى ؛ وأنه لم يوجد فى العالم ليستمتع بملاذ الحواس وإنما وجد ليؤدى واجبه من غير أن يشكو أو يتململ . ولم يكن پانيتيوس كالرواقيين الأولين يدعو إلى الفضيلة الكاملة أو عدم المبالاة التامة بطيبات الحياة ومتعها . واستمسك الرومان المتعلمون بهذه الفلسفة واتخذوها بديلاً كريماً مقبولاً من دينهم القديم الذى لم يعودوا يؤمنون به ، ووجدوا فى مبادئها قانوناً أخلاقياً يتفق كل الاتفاق مع تقاليدهم ومُثلهم العليا .

وهكذا أصبحت الرواقية هى الملهمة لسپيو والمطمح الذى يصبو إليه شيشرون ، كما كانت هى خير ما فى سنكا ، والمرشد الهادى لتراجان Trajan ، والمواسية لأوريليوس Aurelius . وجملة القول أنها أصبحت هى ضمير رومة .

الفصل الخامس

النهضة الأدبية

لقد كان الغرض الذى يهدف إليه سپيو وجماعته أن يناصروا الفنون والفلسفة ، وأن يجعلوا اللغة اللاتينية لغة رقيقة سلسة أدبية ، وأن يجتذبوا ربات الشعر الرومانية إلى ينابيع الشعر اليونانى المتدفقة ، وأن يهيئوا للكتاب والشعراء الناهضين مستمعين وقراء . من ذلك أنه لما أن جاء كاتو — وهو العدو الألد لكل شىء يمثله سپيو وأكرم مثواه . وكان هذا الشاعر هو كونتس إنيوس Qnintus Ennius . وكان قد ولد فى عام ٢٣٩ بالقرب من برندزيوم Brundisium من أبوين أحدهما يونانى والآخر إيطالى . وتلقى علومه فى تارنتم ، وكان ذا روح حماسية تأثرت أشد التأثر بالمسرحيات اليونانية التى كانت تعرض على مسرح تلك المدينة . واسترعت شجاعته العسكرية فى سردينيا التفات كاتو . ولما جاء إلى رومة أخذ يشتغل بتدريس اللغتين اليونانية واللاتينية ، وينشد أشعاره لأخصائه . وسرعان ما وجد سبيله لجماعة سپيو وأصدقائه ؛ ولم يكن ثمة بحر من بحور الشعر إلا حاوله ، وكتب عدداً قليلا من المسالى وما لا يقل عن عشرين مأساة ، وكان يعجب بيوربديز ويعبث مثله بالآراء المتطرفة ، ويغيظ الأتقياء بما ينطق به من الأمثال التهكمية الأبيقورية كقوله : « أسلم معكم أن ثمة آلهة ولكنهم لا يبالون بما يفعله الآدميون ، وإلا لكانت عاقبة الطيبين الخير وعاقبة الخبيثين الشر — وهذا قلما يحدث[٢٨] » . ويقول شيشرون إن من استمعوا لهذا القول طربوا له وصفقوا له استحساناً[٢٩] . وقد ترجم أو شرح كتاب « التاريخ المقدس » تأليف يوهمروس Euhemerus وهو الكتاب الذى يثبت فيه كاتبه أن الآلهة ليسوا إلا أبطالا أمواتاً ألهتهم

عواطف الشعب وتعلقه بهم . على أنه لم يكن مجرداً كل التجرد من الآراء الدينية ، وآية ذلك أنه أعلن فى وقت ما أن روح هوميروس قد تنقلت فى عدة أجساد منها جسم فيثاغورس ومنها جسم طاووس ثم استقرت فى جسم إينيوس Ennius . وقد كتب تاريخاً حماسياً لرومة فى صورة ملحمة كبيرة تبدأ من مجىء إيلياس Aeneas إلى پيرس Pyrrhus ، وقد ظلت هذه الحوليات إلى أيام ڤرجيل الملاحم القومية لإيطاليا ؛ وبقيت منها قطع صغيرة قليلة العدد أشهرها كلها بيت لا يمل المحافظون الرومان ترديده وهو :

قوام الدولة الرومانية أخلاقها القديمة ورجالها العظماء » .

وكانت القصيدة من حيث الوزن تعد ثورة على الأوزان الشعرية القديمة . فقد استبدل فيها بالوزن المهلهل غير المنتظم الذى كان يستخدمه نيڤيوس Naevius الشعر المرن السداسى الأوتاد الذى كان يستخدم فى الملاحم اليونانية . وصاغ إينيوس الشعر اليونانى فى صور جديدة ، وبث فيه قوة جديدة ، وغمر أبياته بالأفكار ، وأعده من حيث طريقته وألفاظه وموضوعه وأفكاره للكريشيس وهوراس وڤرجيل . وقد توج أعماله الأدبية برسالة عن ملاذ الفم ، ومات بذات الرئة فى سن السبعين بعد أن ألف هذه القبرية التى يفخر فيها بنفسه :

لا تبكوا على ولا تحزنوا لوفاتى ؛ فإن أبقى على شفاه الرجال وأحيا[٣٠] .

ونجح إينيوس فى كل شىء عدا المسلاه ، ولعل سبب إخفاقه أنه عنى بالفلسفة عناية جدية فوق ما يجب ، ونسى نصيحته التى قال فيها « يجب على الإنسان أن يتفلسف دون أن يسرف فى فلسفته[٣١] » . وكان الناس يفضلون الضحك على الفلسفة وكانوا فى ذلك على حق ؛ وقد أغنوا بهذا التفضيل بلوتس وأفقروا إينيوس . ولهذا السبب عينه لم تلق المآسى المسرحية شيئاً من التشجيع فى رومة . نعم إن الأشراف قد أعجبوا بمآسى پكوڤيوس Pacuvius وأكيوس Accius ، ولكن الشعب تجاهلها والزمان لم يبق على ذكراها .

وكان موظفو الدولة يعرضون المسرحيات على الجماهير في روما ، كما كان أمثالهم يعرضونها عليه في أثينة ، على أنها جزء من الحفلات التي تقام في الأعياد الدينية أو في جنائز المواطنين الممتازين . وكان الملهى الذي تمثل فيه مسرحيات پلوتس وترنس يتكون من محالة(*) خشبية تعلوها خلفية مزخرفة scaena أمامها طوار مستدير للرقص جزؤه الخلفي هو المسرح Proscaenium . وكان هذا البناء الهش الرقيق يهدم عقب كل حفل كما نفعل نحن بالمقاعد والحواجز التي نقيمها للاستعراض في هذه الأيام . وكان النظارة يشاهدون الألعاب وهم وقوف أو جلوس على مقاعد يأتون بها معهم ، أو يتربعون على الأرض في العراء . ولم تبن في رومة دار كاملة للتمثيل قبل عام ١٤٥ ق . م ، وحتى في ذلك الوقت كانت الدار لا تزال بناء خشبياً لا سقف له ، ولكن به مقاعد مصفوفة على نظام المدرجات اليونانية نصف الدائرية . ولم يكن النظارة يؤدون لدخولها أجراً ، وكان في مقدور الأرقاء أن يدخلوا دون أن يكون لهم حق الجلوس ، أما النساء فلم يكن يسمح لهن إلا بالجلوس في المقاعد الخلفية ، ولعل النظارة في ذلك العهد كانوا أخشن من شهدهم تاريخ التمثيل كله وأشدهم غباوة — فكانوا جماعة من الصخابين المتزاحمين الوضيعين . وكثيراً ما كان يطلب إليهم في بداية التمثيل أن يراعوا قواعد الأدب والأخلاق ، كما أن الفكاهات والنكات السمجة والأفكار البسيطة العادية كان يطلب تكرارها لكي يستطيع النظارة إدراكها . وكان يطلب إلى الأمهات في بعض الأحيان أن يتركن أطفالهن في منازلهن ، وكانت الخطب الافتتاحية تنذر الأطفال بالعقاب إذا أحدثوا شيئاً من الضجيج ، أو تحذر النساء من الثرثرة في أثناء التمثيل . وترى هذه المطالب كلها مدونة حتى في وسط المسرحيات التي نشرت فيما بعد[٣٢] . وإذا حدث أن صحب التمثيل صراع ينال المتفوق فيه جائزة ، أو ألعاب بهلوانية على الحبال ، فقد كان التمثيل ينقطع أحياناً حتى ينتهي الصراع

(*) المحالة الخشبية التي يستقر عليها الطيانون وهي المعروفة بالسقالة . (المترجم)

أو تنتهي الألعاب ، وهما أشد إثارة لحماسة النظارة من التمثيل ؛ وعند ختام تمثيل مسلاة رومانية كانت تلقى العبارة الآتية : « والآن فليصفق الجميع » أو ما فى معناها للدلالة على أن الرواية قد انتهت وأن التصفيق مباح ؟

وكان التمثيل خير ما فى المسرح الرومانى ، وكان مدير المسرح من الأحرار ، وكان هو الذى يمثل الدور الرئيسى عادة ، أما غيره من الممثلين فكان معظمهم من الأرقاء اليونان . وكان كل مواطن يتخذ التمثيل حرفة له يفقد بذلك حقوقه المدنية — وهى عادة ظلت قائمة إلى أيام ڤلتير ؛ وكان الرجال يمثلون أدوار النساء ؛ وكان النظارة قليلى العدد ، ومن أجل ذلك لم يكن الممثلون يلبسون أقنعة بل كانوا يكتفون بالأصباغ والشعر المستعار ؛ فلما أن ازداد عدد النظارة أصبحت الأقنعة واجبة لتمييز أشخاص المسرحية بعضهم من بعض ، وكان يطلق على القناع لفير پرسونا **persona** وهو فى أغلب الظن مشتق من الكلمة التسكانية فرســو **ph rsu** بمعنى قناع ؛ وكانت الأدوار تسمى دراماتيس پرسونى **dramatis personae** أى أقنعة المسرحية . وكان ممثلو الأدوار المحزنة يلبسون أحذية عالية **cothurnus** أما ممثلو الأدوار المضحكة فكانوا يحتذون نعالا وطيئة **soccus** ؛ وكانت بعض أدوار المسرحية تغنى على أنغام المزمار ، وكان المغنون فى بعض الأحيان يغنون الأدوار ، والممثلون يمثلونها تمثيلا صامتاً بالإشارات .

وقد كتبت ملاهى پلوتس بالشعر السهل المكون من أسباب وأوتاد يتلو بعضها بعضاً تقليداً لأوزان الشعر اليونانى وموضوعاته ، ومعظم الملاهى اللاتينية التى وصلت إلينا مأخوذة من المسرحيات اليونانية مباشرة ، أو بمزج مسرحيتين يونانيتين أو أكثر بعضها ببعض ، وهى مأخوذة فى الغالب من مسرحيات فيلمون **Philemon** ومناندر **Menander** أو غيرهما من كتاب «المسلاة الجديدة» فى أثينة ، وكان اسم المسرحية الرومانية واسم مؤلفها يكتبان عادة على الصفحة الأولى . وقد حظر الاقتباس من مسرحيات أرسطوفان و«المسلاة القديمة» بمقتضى

قانون الألواح الاثنى عشر الذى كان يعاقب على الهجاء السياسى بالإعدام[٣٣].
ولعل خوف كتاب المسرحيات اللاتين أن يطبق عليهم هذا التشريع الرهيب هو الذى حدا بهم إلى الاحتفاظ بالمناظر والشخصيات والعادات والأسماء ، وحتى النقود ، كما كانت فى الأصل اليونانى . ولولا بلوتس لكان القانون الرومانى قد أبعد الحياة الرومانية كلها تقريباً عن المسرح الرومانى . ولكن هذه الرقابة الصارمة لم تمنع فحش القول وبذيئه أن ينطق به على المسرح ، فقد كان الهدف الذى يبتغيه المشرفون على التمثيل هو تسلية النظارة لا رفع مستواهم ، ولم يكن جهل العامة ليسوء قط الحكومة الرومانية ، وكان النظارة يفضلون المزاح السمج على الفكاهة الرقيقة ، ويعجبهم الهزل والتهريج أكثر مما يعجبهم الحذق والدهاء ، ويطربهم فحش القول أكثر مما يطربهم الشعر ، وكان بلوتس أحب إليهم من ترنس .

وكان أول دخول تيتس مكسيوس بلوتس **Titus Maccius Plautus** أى تيتس المهرج ذى القدم الكرشاء(*) فى أمبريا **Umbria** عام ٢٥٤ ق . م ؛ ولما قدم إلى رومة عمل فيها خادماً من خدم المسرح وادخر بعض المـــال وحرص على استثماره ولكنه أضاعه . واضطره العيش إلى كتابة المسرحيات ، وسر الجماهير بما كان يبثه من الإشارات الرومانية فى مسرحياته المقتبسة من المسرحيات اليونانية . واستطاع بهذه الطريقة أن يجمع بعض المال وأن يمنح مواطنية رومة . وكان بلوتس رجلا شعبياً شديد المرح ضحاكاً صخاباً ، يضحك مع كل إنسان على كل إنسان ، ولكنه كان طيب القلب عطوفاً على الناس جميعاً . وقد بلغ عدد ما كتبه أو صقله من المسرحيات مائة وثلاثين بقيت منها إلى الآن عشرون . ومن هذه المسرحيات الباقية مسرحية **Miles Gloriosus** وهى صورة مرحة لجندى صخاب يغذيه خادمه وينفحه بالأكاذيب .

(*) القدم الكرشاء هى التى استوى أخمصها وانبطحت على الأرض فى عرض وغلظ فيها .
(المترجم)

الخادم : أرأيت الفتاتين اللتين استوقفتانى بالأمس ؟
الضابط : ماذا قالتا لك ؟
الخادم : لما مررتَ بنا سألتانى :
« يا عجبا ! هل هنا أخيل العظيم ؟ » فأجبتهما :
« كلا ! وإنما هو أخوه » . ثم قالت الأخرى :
« فى الحق إنه لجميل ! ياله من رجل نبيل !
« ما أبهى شعره ! » . . . وتوسلت إلىّ كلتاهما :
. . . أن أطلب إليك أن تخرج اليوم مرة أخرى .
حتى تستطيعا رؤيتك عن قرب .

الضابط : ألا ما أكثر ما يجره الجمال على الإنسان من متاعب(٣٤) !

وفى مسرحية أمفتريون **Ampitryon** تنصب السخرية على چوف **Jove** فهو يتنكر فى صورة زوج الكمينا **Alcmena** ويدعو نفسه ليستمع إلى قسمه ، ويقرب القربان إلى چوبتر(٣٥) . وفى اليوم التالى يغرر بهذه السيدة فتتم . ويطلب پلوتس إلى الإله فى آخر المسرحية أن يعفو عنه وأن يتقبل من الجماهير أكبر قسط من الثناء . وقد نالت هذه القصة من إعجاب الجماهير فى رومة أيام پلوتس بقدر ما نالت فى أثينة أيام منانلدر **Menander** وفى باريس أيام مليير **Moliére** ، وما تناله فى نيويورك فى الوقت الحاضر ، أما مسرحية أولولاريا **Aulularia** فهى قصة رجل بخيل يكنز المال ، وفيها من العطف عليه أكثر مما فى رواية البخيل **Avare** لمليير . وترى البخيل فيها يجمع قلامة أظفاره ويتحسر على ما خسره من الماء فيما أذرفه من الدموع . ومسرحية منكمى **Menaechmi** هى القصة القديمة : قصة التوأمين اللذين يختلط أمرهما على الناس ثم يتبينونهما ، ويرى لسنج **Lessing** أن مسرحية الأسير **Captive** خير مسرحية مثلت فى ملهى(٣٥) . وقد أعجب بها پلوتس أيضاً ويقول فى مستهلها :

ليست مبتذلة ولا هي كغيرها من المسرحيات :
وليس فيها سطور قذرة يستنكف الإنسان أن ينطق بها .
وليس فيها قواد كاذب ولا مومس خبيثة .

وهو قول حق ، ولكن حبكة المسرحية معقدة غاية التعقيد ، وتعتمد كل الاعتماد المصادفات غير المتوقعة ، وعلى الرؤى العجيبة التي لا يلام صاحب العقل الحريص على صدق التاريخ أن يمر بها دون أن يعيرها أية عناية . ولم يكن سر نجاح هذه المسرحيات هو حبكاتها القديمة بل كثرة ما فيها من الحادثات الفكهة المضحكة والنكات اللفظية المرحة التي لا تقل فحشاً عما في مسرحيات شيكسپير ، والصخب القذر البذيء ، والنساء الطائشات وما يظهرنه في بعض الأحيان من عواطف طيبة : وقد كان في وسع النظارة في كل مسرحية أن يثقوا من وجود حادثة من حوادث الحب ، وتغرير بفتاة ، وبطل وسيم فاضل ، وعبد أرجح عقلا من كل من فيها من الشخصيات مجتمعة . وفي هذه المسرحيات نرى الأدب الروماني منذ بدايته تقريباً وثيق الارتباط بالرجل العادي ، ويصل بما اقتبسه من المسرحيات اليونانية إلى حقائق الحياة ، ويبلغ في هذا حداً لم يبلغه قط فيما بعد .

وفي السنة التي توفي فيها پلوتس على الأرجح (١٨٤ ق . م) ولد في قرطاجنة پبليوس ترنتيوس آفر Publius Terentius من أصل فينيقي ، ولربما كان من أصل إفريقي . ولسنا نعرف عنه شيئاً قبل أن يكون عبداً من عبيد ترنتيوس لوكانس Terentius Lucanus في رومة . فقد أدرك هذا الشيخ مواهب الشاب الحي فعلمه ووهبه حريته ، وتسمى الشاب باسم سيده اعترافاً منه بفضله عليه . وفي وسعنا أن نعرف شيئاً من أخلاق الرومان الطيبة حين نسمع أن ترنس « الفقير الخلق الثياب » جاء إلى بيت كاسليوس استاتيوس Caecilius Statius — وكانت مسرحيات هذا المؤلف المضحكة هي المسيطرة في ذلك الوقت على المسرح

الرومانى — وقرأ عليه المشهد الأول من مسرحية أندريا ، وأعجب كاسليوس بهذا المشهد إعجاباً حمله على أن يستبقى الشاعر إلى العشاء معه وأن يستمع إلى بقية المسرحية فى طرب وإعجاب(٢٧) . وما لبث ترنس أن استرعى أسماع إيمليوس Aemilius وليليوس ، وقد حاول كلاهما أن يصقل أسلوبه فيجعله هو الأسلوب اللاتينى الحبيب إلى قلبه . ومن ثم راجت الإشاعة القائلة بأن ليليوس هو الذى كان يكتب لترنس مسرحياته ، وهى إشاعة رأى المؤلف كياسة منه وحصافة إلا يؤيدها أو ينكرها(٢٨) . واستمسك ترنس فى أمانة وإخلاص بأصول المسرحيات اليونانية التى نقلها إلى اللاتينية وأطلق على هذه المسرحيات أسماء يونانية ، وتحاشى أن يشير فيها إلى الحياة الرومانية ، ولم يدع لنفسه أكثر من أنه مترجم لهذه الروايات — وهو تواضع منه وبخس لأعماله(٢٩) . ولعل الذى دفعه إلى هذا هو تأثره بالهلينية المتغلبة على سپيو وجماعته .

ولسنا نعرف ماذا كان مصير تلك المسرحية التى كان كاسليوس يحبها ويعجب بها أشد الإعجاب ، ولكنا نعرف أن هسيرا **Hecyra** مسرحية ترنس الثانية قد أخفقت لأن النظارة غادروا الملهى فى أثناء التمثيل ليشهدوا صراعاً للدببة . ثم بسم له الحظ فى عام ١٦٢ حين كتب أشهر مسرحياته كلها وهى مسرحية « المعذب نفسه » **Heauton Timoroumenos** وهى تروى قصة أب منع ابنه أن يتزوج الفتاة التى اختارها لنفسه ، ولكن الابن تزوجها رغم هذا ، فما كان من الأب إلا أن تبرأ منه ونفاه من البلاد ، ثم أنبه ضميره وندم على فعلته وعاقب نفسه على ما فعل بامتناعه عن أن يمس ثروته وبأن يعيش عيشة الكدح والفقر ، ثم عرض عليه جار له ن يتدخل فى الأمر ليحل مشكلته ، فيسأله الأب عما يدعوه إلى الاهتمام بغيره والإشفاق عليهم ، فيرد عليه الجار بهذه العبارة المعروفة فى جميع أنحاء العالم والتى صفق لها النظارة طرباً وإعجاباً وهى : **Hums sum humani njhil a me alienum puo** « إنى إنسان ، ولا أرى أن شيئاً مم

يتصل بالإنسان غريب على» . ومثلت فى السنة التالية مسرحية «الخصى» وبلغ من إعجاب النظارة بها أن مثلت مرتين فى يوم واحد (ولم يكن ذلك مألوفاً فى تلك الأيام) ، وربح منها ترنس ثمانية آلاف سسترس (نحو ١٢٠٠ ريال أمريكى) فى يوم وليلة(٤٠) . وظهرت بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت رواية «الفورميو» وقد سميت كذلك نسبة إلى الخادم الفكه الذى أنقذ سيده من غضب أبيه ، والذى أصبح فيما بعد نموذجاً لشخصية فيجارو Figaro القوية فى رواية بومارشيه Beaumarchais . وفى عام ١٦٠ ق . م مثلت آخر مسرحية لترنس وهى مسرحية أدلفى أو «الإخوة» فى الألعاب التى أقيمت بمناسبة وفاة إيمليوس پولس . وبعد قليل من ذلك الوقت سافر الكاتب بطريق البحر إلى بلاد اليونان ، ثم مرض وهو عائد منها ، ومات فى أركاديا فى الخامسة والعشرين من عمره .

وانصرف الجمهور بعض الانصراف عن مسرحياته الأخيرة ، لأن الصبغة الهلينية التى اصطبغت بها قد أعلت من قدره فوق ما يجب . فقد كان يعوزه مرح پلوتس وخفة روحه وفكاهته ؛ هذا إلى أنه لم يعن فى مسرحياته بمعالجة الحياة الرومانية ، فلم يدخل فى المضحك منها أنذالا فاسدين أو مومسات طائشات ، بل صور كل النساء فى تلك المسرحيات فى صور رقيقة ، حتى العاهرات منهن كن يحمن على حافة الفضيلة . وقد احتوت تلك المسرحيات سطوراً تعد من جوامع الكلم ، وعبارات جرت مجرى الأمثال ، منها hinc illae lacrimae («ومن ثم كانت تلك الدموع») ومنها fortes Portuna adiuvat («الحظ يواتى الشجعان») ، quot homines tot sententiee («عدد الآراء كعدد الرجال») ، وعشرات العشرات من أمثالها . ولكن هذا الحكم لا يقدرها إلا أصحاب الذهنية الفلسفية أو الحساسية الأدبية ، وهما ما لم يجدها العبد الإفريقى فى جمهرة الشعب الرومانى . ومن أجل هذا النقص لم يعبأ ذلك الشعب بعسالية التى توشك أن تكون مآسى ، وبحبكاته المتقنة البناء ولكنها تسير فى بنائها على مهل ،

وبدراسته الدقيقة للشخصيات الغريبة ، وبحواره الهادئ ، وبأسلوبه المفرط في الهدوء ، وفي نقاء لغته نقاء يكاد أن يكون إهانة للشعب الروماني ؛ وكأن النظارة وهم يشاهدون هذه المسرحيات كانوا يشعرون بأن قد حدث بينهم وبين الأدب الروماني صدع لن يلتئم قط . وقد كان شيشرون — وهو القريب من كتلس قرباً لا يمكنه من أن يراه عن حقيقته ، والحصيف حصافة تحول بينه وبين الإعجاب بلكريشيوس — نقول كان شيشرن يظن أن ترنس أرق شعراء الجمهورية . وكان قيصر أعدل في حكمه عليه حين أثنى عليه بقوله إنه « المحب للكلام الطاهر » ، ولكنه آسف لأنه لم يوهب القدرة على الضحك vis csmica ووصفه بأنه « نصف مناندر Dimitiatus Menander . على أن ترنس قد أفلح في شيء واحد على الأقل ؛ ذلك أن هذا الرجل السامي الأجنبي ، الذي تشبع بروح ليليوس وبلاد اليونان ، قد صاغ من اللغة اللاتينية أداة أدبية هي التي استطاع بها شيشرون في القرن التالي أن يكتب نثره وفرجيل أن ينشئ شعره .

الفصل السادس

كاتو والمعارضون المحافظون

وامتلأت قلوب الرومان أصحاب النزعة المحافظة خوفاً كما امتلأت نفوسهم اشمئزازاً من هذا الغزو اليونانى لآداب الرومان ، وفلسفتهم ، ودينهم ، وعلومهم ، وآدابهم ؛ ومن هذا الانقلاب العنيف فى أخلاقهم ، وعاداتهم ، ودمائهم . وكان من هؤلاء الرومان القدامى المحافظين شيخ متقاعد يدعى فاليريوس فلاكوس Valerius Flaccus يقيم فى مزرعة سبينية ؛ وأخذ هذا الشيخ يأسف لما أصاب الأخلاق الرومانية القديمة من ضعف وانحلال ، وما أصاب السياسة من فساد ، ومن حلول الأفكار والأساليب اليونانية محل « أساليب أجدادنا » . وكان الرجل شيخاً طاعناً فى السن لا تمكنه قواه من أن يكافح بنفسه هـــذا التيار الجارف ، ولكن اتفق أن كان فى مسكن بالقرب منه وفى جوار بلدته ريت Reate ، وفى خارج حدودها ، شاب مزارع من العامة اجتمعت له كل الصفات الرومانية القديمة ، فكان يحب فلاحة الأرض ولا يمل العمل المجهد الشاق ، وكان مقتصداً يعيش عيشة البساطة القديمة ، ولكنه مع ذلك يتحدث حديث المتظرفين النابهين . وكان اسم هذا الرجل ماركس پورسيوس كاتو Marcus Porcius Cato وكان سبب تسميته پورسيوس أن أسرته ظلت أجيـــالا عدة تربى الخنازير ، أما سبب تسميته كاتو فإن أفراد هذه الأسرة كانوا على جانب عظيم من الدهاء . وأشار عليه فلاكوس أن يدرس القانون ، فعمل كاتو بنصيحته وكسب ما رفعه جيرانه من القضايا فى المحاكم المحلية . ثم نصحه فلاكوس أن يسافر إلى رومة ، ففعل ، وما زال يرقى فى المناصب العامة حتى أصبح كوسترا يشرف على الشئون المـــالية Quaestor ولمـــا يبلغ الثلاثين من عمره (٢٠٤) . وفى عام ١٩٩ عين إيديلا مشرفاً على

الأشغال العامة والملاعب والأسواق والشرطة . وما وافت سنة ١٩٨ حتى كان بريتوراً Praetor يلى القنصل فى المرتبة ، ثم صار قنصلا فى عام ١٩٥ ، ثم تربيوناً فى عام ١٩١ ، ثم رقيباً Censro فى عام ١٨٤ . وكان فى هذه المدة قد خدم فى الجيش ستة وعشرين عاماً ، وكان فيها كلها جندياً شجاعاً وقائداً محنكاً ، قاسى القلب شديد البأس . وكان من رأيه أن النظام أساس الأخلاق والحرية ، وكان يحتقر الجندى « الذى يستخدم يديه فى المشى وقدميه فى الحرب ، والذى يعلو غطيطه فى النوم على صراخه فى الحرب » . ولكنه كسب احترام جنده بسيره إلى جانبهم على قدميه ، وبإعطاء كل منهم رطلا من الفضة من غنائم الحرب ، وعدم احتفاظه بشىء من هذه الغنائم لنفسه(٤١)

وكان فى فترات السلم يندد بالخطابة والخطباء ، وأصبح بهذا العمل أقوى خطباء زمانه ؛ وكان الرومان يستمعون إليه وهم مأخوذون على الرغم منهم بسحر بيانه ، لأن أحداً من قبله لم يتحدث إليهم بمثل ما تحدث به هو من الإخلاص الواضح والفكاهة اللاذعة . وكان فى مقدوره أن يسلط سوط لسانه على أى إنسان يستمع خطبه ، ولكن من يستمعه كان يسره أن يرى هذا السوط يسلط على جاره ، وظل كاتو يكافح الفساد والرشوة فى رومة غير عابئ بما يصيبه فى هذا الكفاح ، ولم تغرب عليه شمس يوم من الأيام إلا وقد خلق له فيه عدواً جديداً . وقلما كان أحد يحبه لأنه كان يقلق بال الناس بوجهه الكثير الندب ، وشعره الأحمر الأشعث ، ويخيفهم ويهددهم بأسنانه الكبيرة ، ويخجلهم بتقشفه ، ويسبقهم بجده وكدحه ، وتنفذ نظراته التى يلقيها عليهم من عينيه الخضراوين خلال ألفاظهم إلى مكنون صدورهم ، فيطلع فيها على أنانيتهم . وحاول أعداؤه من الأشراف أن يقضوا عليه بما وجهوه إليه من التهم العلنية ، ولكنه فى كل مرة كان ينجيه من هذا الاتهام اعتراض الزراع الذين كانوا لا يقلون عنه بغضاً للفساد والترف(٤٢) . ولما أن رفعته أصوات العامة إلى منصب الرقيب وجفت قلوب

الرومان أجمعين . وما أن تولى هذا المنصب حتى أخذ ينفذ النذر التى أنذر بها ، والتى كسب بها المعركة الانتخابية ، ففرض الضرائب الباهظة على الكماليات ، وأوقع غرامة على أحد أعضاء مجلس الشيوخ لإسرافه ، وأخرج من هذا المجلس ستة من أعضائه وجد فى سجلاتهم أحكاماً قضائية . وطرد منه مانايوس لأنه قبل زوجته علناً ، وقال عن نفسه أنه لم يعانق قط زوجته إلا وقت قصف الرعد - وإن كان يسره أن يقصف الرعد . وأتم كاتو نظام المجارى فى المدينة ، وقطع الأنابيب التى تأخذ الماء خفية وخيانة من القنوات المبنية العامة ، وأجبر الملاك على أن يهدموا ما كان يمتد من مبانيهم فى عرض الطريق أو فوقه ، وخفض ما كانت تؤديه الدولة ثمناً للأعمال العامة ، وأرغم جباة الضرائب على أن يؤدوا لخزانة الدولة نصيبا أوفى مما كانوا يجنونه من الأهلين(٤٨) . وبعد أن قضى خمس سنين يجاهد جهاد الأبطال فى أعمال تتعارض مع طبيعة الإنسان ، اعتزل منصبه واستثمر ما كان له من المال استثماراً ناجحا ، وملأ ضيعته التى اتسعت رقعتها فى ذلك الوقت بالعبيد ، وأخذ يقرض المال بربا فاحش ويبتاع الرقيق بأبخس الأثمان ، ثم يدربهم على بعض الأعمال التى تتطلب شيئا من المهارة ، ويبيعهم بأغلاها ، وبذلك أثرى إثراء مكنه من أن ينقطع لتأليف الكتب - وهى مهنة كان يزدريها

وكان كاتو أول كاتب عظيم من كتاب النثر اللاتينى ، وقد بدأ كتاباته بنشر مجموعة خطبه ، ثم أصدر كتابا فى فن الخطابة دعا فيه إلى التزام الأسلوب الخشن الرومانى بدل أسلوب الخطباء الإزوقراطى Isocratean(*) الرقيق ، وعرّف الخطيب بأنه «رجل صالح برع فى الكلام vir bonus dicendi peritus» وهما صنفان قل أن اجتمعتا فى إنسان » ، وبهذا التعريف أوجد مجالا لجدل كونتليان quintilian

---

(*) نسبة إلى إيزوقراطيس الخطيب والكاتب الأثينى البليغ (٤٣٦ - ٣٣٥ ق . م) (المترجم)

ولقاشة ، وكتب رسالة جمع فيها تجاربه فى الزراعة وسماها De agricultura ؛ وهى الكتاب الوحيد الذى وصل إلينا من كتب كاتو ، وأقدم كتاب فى اللغة اللاتينية الأدبية أبقى عليه الدهر ، وقد كتب هذا الكتاب بأسلوب سهل رصين مركز تركيزا يجعله من جوامع الكلم : فهو لا يسرف فى الألفاظ ، وقلما ينزل فيه إلى استخدام حرف من حروف الوصف ، وفى هذا الكتاب يقدم النصائح المفصلة لمن يريد أن يشترى أو يبيع الرقيق (فيقول مثلا : إن كبار السن منهم يجب أن يباعوا قبل أن يصيروا مصدر خسارة لسادتهم) ، ولمن يؤجر الأرض بجزء من غلتها ، ولزراع الكروم والأشجار ، وتدبير شئون المنازل والصناعات ، وصنع الأسمنت وطهو أصناف الطعام النادرة الشهية ، وعلاج الإمساك والإسهال ، ومداواة لسع الأفاعى بروث الخنازير ، وتقريب القربان للآلهة . ويسأل كاتو نفسه فى هذا الكتاب عن أحكم الطرق للإفادة من الأرض الزراعية ، ثم يجيب عن هذا السؤال بقوله إنها « تربية الماشية المربحة » ، وتليها « تربية الماشية المتوسطة الربح » ، وتليها « تربية الماشية العديمة الربح » ويليها كلها « حرث الأرض وزرعها » . وهذه هى الحجج التى أوجدت الضياع الواسعة فى إيطاليا .

ولعل أهم كتبه كلها هو كتاب « الأصول » Oaigines الذى لم يعثر عليه حتى الآن ، وهو محاولة جريئة للبحث فى آثار إيطاليا ، وشعوبها ، ونظمها ، وتاريخها منذ نشأتها إلى السنة التى مات فيها كاتو ، ولا نكاد نعرف من هذا الكتاب أكثر من أن مؤلفه أراد أن يغيظ الأشراف بالسخرية من أسلافهم فلم يذكر فيه اسم أحد من قواد الحرب ، ثم ذكر فيلا باسمه ، وأثنى عليه لأنه قاتل بيرس Pyrrhus قتال الأبطال(٤٥) . وكان الغرض الذى يهدف إليه كاتو من تأليف هذا الكتاب ومن مقالاته عن الخطابة ، والزراعة والصحـــة العامة ، والعلوم العسكرية ،

والقانون ، أن يؤلف دائرة معارف يستعين بها على تربية ولده . وكان يرجو من الكتابة اللاتينية أن تحل الكتب المكتوبة بهذه اللغة محل الكتب المدرسية اليونانية التي كان يرى أنها تربك عقول شباب الرومان وتفسدها ويلوح أنه ، وإن كان هو نفسه قد درس اليونانية ، كان مخلصا في اعتقاده أن دراسة الأدب اليوناني والفلسفة اليونانية ستعجل بالقضاء على العقائد الدينية لدى شباب الرومان ، فلا يكون في حياتهم الخلقية ما يحميها من الشراهة والخصام والغرائز الجنسية ، وكان يسخط على سقراط كما يسخط عليه نقشه ، ويصفه بأنه أشبه بالقابلة العجوز الثرثار ، ويقول إن قتله مسموماً كان جزاء حقا على إفساده أخلاق أثينة وشرائعها(٤٦) . وحتى الأطباء اليونان أنفسهم كانوا من أبغض الناس إليه ، وكان يفضل على طبهم العلاج المنزلي القديم ، ولا يثق بالجراحين الذين يعجلون باستعمال المبضع في أكثر الحالات . وقد كتب إلى ولده يقول :

« اليونان جنس مجرم عنيد وأؤكد أن هذا الشعب إذا ما غمر أدبه رومة سيقضي على كل شيء فيها . . . . وسيكون هذا القضاء عاجلا إذا ما بعث إليه بأطبائه ؛ لقد أجمعوا أمرهم بينهم على أن يقتلوا كل « البرابرة » . . . . حذار أن تكون لك صلة بالأطباء »(٤٧)

وكان وهو الذي يعتنق هذه الآراء العدو الطبيعي الأكبر للندوة السبيونية ، وهي التي كانت ترى أن انتشار الآداب اليونانية في رومة عاملا لا بد منه لرفع الآداب اللاتينية والعقلية الرومانية إلى كمال نموها ؛ وكان كاتو ممن أشاروا بمحاكمة سبيو الإفريقي وأخيه ، وقال إن القوانين التي تحرم الرشوة والفساد يجب ألا يفرق فيها بين الأشخاص . أما الدول الأجنبية فكان ينادي بأن تعامل جميعها ، إلا واحدة منها بالعدل ، وألا تتدخل رومة في شئونها ، وكان يحتقر اليونان وإن كان يعظم بلادهم ويجلها . ولما أن قام دعاة الاستعمار النهابون من أعضاء مجلس الشيوخ يدعون إلى محاربة رودس الغنية ألقى عليهم خطبة قوية يدعو فيها إلى

السلام وإلى مصالحة أهل تلك الجزيرة . أما الدولة التي كان ي
استثنائها من المعاملة العادلة ، ومن عدم التدخل في شئونها فهي — كما
يعلم العالم كله — قرطاجنة . ولما أرسل إليها في بعثة رسمية عام ١٧٥ هاله
ما رأى من انتعاش المدينة واستعادتها حياتها بعد الذى أصابها في حروب
هنيبال ، وما وقعت عليه عيناه من بساتين الفاكهة والكروم ، وما
يتدفق فيها من الثروة الناتجة من انتعاش تجارتها ؛ وما كانت تخرجه دور
الصناعة فيها من أسلحة . فلما عاد أمسك أمام المجلس بكمية من التين الطازج
قطفها من أشجار قرطاجنة منذ ثلاث أيام ليتخذها رمزاً لرخاء المدينة
وقربها من رومة ، وهما القرب والرخاء اللذان كانا نذيرى شؤم لرومة ؛
وتنبأ بأنه إذا تركت قرطاجنة وشأنها فإنها لا تلبث أن يكون لها من الثراء
ومن القوة ما يحفزها إلى العودة إلى كفاحها للسيطرة على البحر الأبيض
المتوسط . وظل من ذلك اليوم يختم كل خطاب له في مجلس الشيوخ أيا كان
موضوعه بتلك العبارة التي تنم عن عقيدته وعناده ، ويصر عليها
إصراراً عجيباً : « هذا إلى أني أعتقد أن قرطاجنة يجب أن تدمر »
Ceterum censes delendnm esse Carthaginem ، وكان دعاة الاستعمار
في مجلس الشيوخ متفقين معه في رأيه ، ولم يكن ذلك لأنهم يطمعون
تجارة قرطاجنة ، بل لأنهم كانوا يرون في حقول شمالي إفريقية ،
وهي الحقول الخصبة التربة الجيدة الإرواء ، مجالا جديداً يستثمرون فيه
أموالهم ويفلحونه على أيدى الرقيق . وكانوا والحالة هذه ينتظرون على
أحر من الجمر حجة يتذرعون بها لخوض غمار الحرب البونية الثالثة .

الفصل السابع

يجب أن تمحى قرطاجنة من الوجود

وجاءتهم هـذه الحجة من أعجب حكام ذلك الوقت — مسينسا Masinissa ملك نوميديا Numidia — وهو ملك عمر تسعين عاماً (٢٣٨ — ١٤٨) ورزق ولداً وهو فى السادسة والثمانين من عمره(٤٨) ، ووضع لنفسه نظاماً صارماً لحياته استمسك به كل الاستمساك ، واستبقى به صحته وقوته إلى آخر أيامه تقريباً . وقد أفلح هذا الملك فى تنظيم رعاياه البدو ، وبدلهم من حياة الترحال حياة الاستقرار الزراعية ، وأنشأ منهم دولة منظمة ظل يحكمها حكماً صالحاً مدى ستين عاماً ؛ وجمل مدينة سرتا Cirta حاضرة البلاد بما أنشأه فيها من المبانى الفخمة . ودفن بعد وفاته فى قبره وهو الهرم العظيم الذى لا يزال باقياً إلى اليوم قرب مدينة قسطنطينة فى بلاد تونس . واستطاع هـذا الملك أن يكسب صداقة رومة ، وكان يدرك ما عليه قرطاجنة من ضعف سياسى ، فأخذ يغير المرة بعد المرة على أراضيها ، وينقصها من أطرافها ، فاستولى على لِبتس Leptis العظيمة وغيرها من المدن ، وما زال على هذه الخطة حتى سيطر بها على جميع المسالك البرية المؤدية إلى العاصمة المنهوكة القوى . وإذا كانت المعاهدة المعقودة بين رومة وقرطاجنة تحرم على ثانيتهما الاشتباك فى حرب إلا برضاء أولاهما فقد أرسلت قرطاجنة سفراء من عندها إلى مجلس الشيوخ فى رومة ليحتجوا على عدوان مسينسا . فما كان من هذا المجلس إلا أن نبه هؤلاء السفراء إلى أن الفينيقيين على بكرة أبيهم دخـلاء فى إفريقية ، وأنهم ليس لهم فيها حقوق تضطر أية أمة مسلحة أن تحترمها . فلما أدت قرطاجنة إلى رومة آخر الإقساط السنوية الخمسين من الغرامة المفروضة عليها بمقتضى معاهدة زاما وهى ٢٠٠ تالنت ظنت أنها بهذا الأداء قد تحررت من التزاماتها ، وأعلنت الحرب على

نوميديا فى عام ١٥١ ، وفى السنة التالية أعلنت رومة الحرب على قرطاجنة
ووصل هذا النبأ الأخير إلى مسامع القرطاجنيين ، ووصل معه أن الأسطول الرومانى قد أقلع إلى إفريقية . ولم تكن المدينة القديمة مستعدة لخوض غمار حرب عوان مهما يكن من كثرة سكانها وضخامة تجارتها ؛ ذلك أن جيشها كان صغيراً وأن أسطولها كان أصغر من جيشها ، ولم يكن لها جنود مرتزقة ولا حلفاء يضاف إلى هذا أن رومة كانت تسيطر على البحار ، ومن أجل هذا أعلنت أتكا انضمامها إلى رومة ، وحال مسينسا بين قرطاجنة وبين الاتصال بالأرض التى خلفها فى القارة الإفريقية ، وأرسلت قرطاجنة بعثة عاجلة إلى رومة وأمرتها أن تجيبها إلى جميع مطالبها فوعدها مجلس الشيوخ الرومانى بأنه إذا أسلمت قرطاجنة إلى القنصلين الرومانيين فى صقلية ثلثمائة من أبناء أشرف الأسر فيها ليكونوا رهائن لديهما ، وأجابت القنصلين إلى جميع مطالبهما أيا كانت هذه المطالب ، احتفظت فى نظير ذلك بحريتها وسلامة أرضها ؛ وأرسل مجلس الشيوخ أوامر سرية إلى القنصلين لينفذا ما صدر إليهما قبل من الأوامر . وأسلم القرطاجنيون أطفالهم بقلوب واجفة وعيون باكية ، واحتشد آباؤهم عند شاطئ البحر يودعونهم ، وهم فى أشد الألم والحسرة ، وحاولت أمهاتهم فى آخر لحظة أن يمنعن السفن من المسير ، وألقت بعضهن أنفسهن فى الماء ، وأخذن يسبحن فيه ليلقين آخر نظرة على أطفالهن . وأرسل القنصلان الأطفال إلى رومة ، وعبر البحر إلى يتكا Utca على رأس الجيش والأسطول ، واستدعيا سفراء قرطاجنة ، وطلبا أن تسلم بلدهما كل ما بقى لها من السفن ، وكمية كبيرة من الحبوب وجميع الأسلحة والمعدات الحربية . فلما أجيبت هذه المطالب كلها ، طلب القنصلان بعدئذ أن يخرج جميع سكان قرطاجنة منها ، وأن يقيموا على بعد عشرة أميال من المدينة ، لأنهما سيأمران بإحراقها عن آخرها . وحاول السفراء عبثاً أن يقنعوا الرومان بأن تدمير مدينة أسلمت إلى أعدائها رهائن من أهلها وجميع أسلحتها من غير قتال غدر وخيانة

لا نظير لهما فى التاريخ كله . وعرضوا ان يقدموا حياتهم فداء لمدينتهم وتكفيرا عما عساها أن تكون قد اقترفته من الذنوب ، وخروا على الأرض سجداً وأخذوا يضربونها برؤوسهم . فأجابهم القنصلان بقولهم إن هذه هى شروط مجلس الشيوخ وإنهما لا يستطيعان أن يغيرا منها شيئاً .

ولما سمع أهل قرطاجنة بما هو مفروض عليهم جن جنونهم ، وطاشت أحلامهم ، فأخذ آباء الأطفال الذين أسلموا رهائن إلى رومة يقطعون أجسام القواد الذين أشاروا بتسليمهم ، وقتل آخرون القواد الذين أشاروا بتسليم السلاح ، وأخذ غيرهم يجرون السفراء العائدين فى شوارع المدينة ويرجمونهم بالحجارة ، ومنهم من قتلوا كل من وجدوهم فى المدينة من الإيطاليين ، ومنهم من وقفوا فى دور الصناعة الخالية من السلاح يبكون وينتحبون . وأعلن مجلس شيوخ قرطاجنة الحرب على رومة ، وأهاب بكل من فيها من البالغين رجالا ونساء ، أرقاء وأحراراً ، أن يجيشوا جيشاً جديداً ، وأن يصنعوا أسلحة جديدة يدافعون بها عن المدينة . وثبت الغضب قلوبهم ، وقوى عزائمهم ، وأخذوا يهدمون المبانى العامة لينتفعوا بما فيها من خشب وحديد ، وصهرت تماثيل الآلهة الأعزاء لتصنع منها السيوف ، وجزت شعور النساء لتصنع منها الحبال ، ولم يمض على المدينة المحصورة إلا شهران حتى أخرجت ٨٠٠٠ درع ، ١٨٠٠٠ سيف ، ٣٠٠٠ر٧٠ حربة ، وستين ألف قذيفة منجنيقية ، وبنت فى مينائها الداخلى عمارة بحرية مؤلفة من ١٢٠ سفينة(٤٩) .

وقاومت المدينة الحصار براً وبحرا ثلاث سنين ، كان القنصلان فى خلالهما يهاجمان أسوارها بجيوشهما ، وكانا فى كل مرة يرتدان عنها خائبين . ولما كان سيبو إيمليانس وحده — وهو أحد التربيونين العسكريين — هو الذى أظهر فى هذا الحصار براعة ودهاء ؛ فقد عينه مجلس الشيوخ الرومانى والجمعية قنصلا وقائداً فى عام ١٤٧ ، ولم يعارض هذا التعيين أحد حتى كاتو نفسه . ولم يمض على ذلك إلا قليل حتى نجح ليليوس فى تساق أسوار المدينة . ودافع القرطاجنيون

عنها شارعاً شارعاً ، وإن كان الجوع قد أضناهم وأهلك الكثيرين منهم ، ولكنهم واصلوا دفاعهم ستة أسابيع كاملة ، وأعداؤهم يحصدونهم حصداً بلا شفقة ولا رحمة . ولما رأى سپيو أن قناصة الأعداء يصيدون رجاله وهم كامنون وراء الجدران ، أمر أن تشعل النيران فى كل الشوارع التى يستولون عليها ، وأن تدك مبانيها دكاً ، فاحترق فى اللهب كثير من الجنود المختبئين فى الدور . ووجد القرطاجنيون آخر الأمر أن لا بد لهم من التسليم بعد أن نقص عددهم من خمسمائة ألف إلى خمسة وخمسين ألفاً . وطلب قائدهم هزدروبال أن يؤمن على حياته فأجابه سبيو إلى ما طلب ، ولكن زوجته عيرته بجبنه وألقت بنفسها وبأولادها فى اللهب . وبيع من بقى من الأهالى حياً فى سوق الرقيق ، وأسلمت المدينة إلى الجيوش الرومانية ينهبونها ويعيثون فيها فساداً . وأحجم سبيو عن تدميرها ، وأرسل إلى مجلس الشيوخ يسأله رأيه الأخير ، فرد عليه المجلس بأن قرطاجنـــة نفسها وكل ما انضم إليها فى الحرب من البلاد التابعة لها يجب أن تدمر عن آخرها ، وأن تحرث أرضها وتغطى بالملح ، وأن تصب اللعنات على كل من يحاول بناء شىء فى موضعها ، وظلت النار مشتعلة فى المدينة سبعة عشر يوما كاملة .

ولم يعقد صلح أو توقع معاهدة ، لأن الدولة القرطاجنية لم يبق لها وجود ، وتركت يتكا Utica وغيرها من مدن إفريقية التى ساعدت رومة حرة تحت حمايتها ؛ وأما ما بقى من أملاك قرطاجنة فقد جعل ولاية خاضعة لرومة وسمى ولاية « إفريقية Africa » . وجاء الممولون الرومان وقسموا الأرض ضياعاً ، وورث التجار الرومان التجارة القرطاجنية ، وأضحى الاستعمار العامل المحرك الدافع للسياسة الرومانية ، والغرض السافر الصريح الذى تعمل له عن قصد وتدبير ، وضمت سرقوسة إلى ولاية صقلية الرومانية ، وأخضعت بلاد غالة الجنوبية لتكون هى الطريق البرى لأسبانيا بعد أن خضعت كلها لرومة ، ولم تجد رومة

صعوبة فى إقناع مملكتى مصر وسوريا المصطبغتين بالصبغة الهلينية بالخضوع لى رغبات رومة — كما اضطر بوبليوس **Popilius** أنتيوخوس **Antiochus** الرابع — إلى الخضوع لها بلا قتال . وإذا نظرنا إلى تدمير قرطاجنة وكورنثة فى عام ١٤٦ من الناحية الأخلاقية — وهى نظرة لها شأنها على الدوام فى السياسة الدولية — حكمنا دون تردد بأن هذا العمل من أفظع الفتوح وأشدها وحشية فى التاريخ كله . أما من ناحية الاستعمار وبناء الإمبراطوريات — أى من ناحية السلامة والثراء — فقد كان هذا الفتح حجر الزاوية فى سيادة رومة التجارية والبحرية ، فقد أضحت منذ تلك اللحظة هى المسيطرة على البحر الأبيض المتوسط ، والمتصرفة فى مصائره ، وارتبط تاريخه بتاريخها أوثق ارتباط .

ومات فى أثناء هـــذه الحرب من أشعلوا نارها تحيطهم هالة من النصر والفخار : فمات كاتو فى عام ١٤٩ ، ومسينسا فى عام ١٤٨ ، وترك الرقيب الطاعن فى السن(*) أثراً عميقاً فى التاريخ الرومانى وظل الناس قروناً كثيرة يرون فيه الرومانى النموذجى فى عصر الجمهورية ، واتخذه شيشرون فى كتابه **De Senectute** المثل الأعلى للرجال ، وحاول حفيد حفيده أن يأخذ نفسه بفلسفته خالية من فكاهته كما حاول ماركس أورليوس أن يتخذه نموذجا له ينسج على منواله ، وكان فرنتو **Fronto** يهيب بالأدباء اللاتين أن يعودوا إلى أسلوبه البسيط الخالى من الالتواء والتعقيد . ولكنه مع ذلك لم يفلح إلا فى أمر واحد وهو تدمير قرطاجنة ، أما مقاومته للهلينية ومحاولته أن يمنعها من السيطرة على الحياة الرومانية فقد أخفق فيهما كل الإخفاق ، واستسلمت كل نواحى الحياة الرومانية من أدب ، وفلسفة ، وخطابة ، وعلم ، وفن ، ودين ، وأخلاق وعادات ، وملابس ، استسلمت هذه كلها لتأثير اليونان . لقد كان كاتو يكره الفلاسفة اليونان ؛ ولكن حفيده الشهير كان يحيط نفسه بهم ، وظلت العقيدة الدينية التى فقدها هو تضمحل رغم ما بذل من الجهود

(*) يريد كاتو .

لإحيائها وأهم من هذا كله أن الفساد السياسى الذى قاومه فى شبابه أخذ ينتشر ويعظم كلما زادت مخاطر المناصب الحكومية باتساع رقعة الإمبراطورية . وكان كل فتح حربى جديد يزيد فى ثراء رومة كما يزيد فى فسادها ووحشيتها ، وكانت قد كسبت كل حرب خاضت غمارها عدا حرب الطبقات ، وأزال تدمير قرطاجنة آخر عائق قائم فى سبيل الانقسام والفتن فى المدينة ، وجوزيت رومة على تملكها العالم بثورات طاحنة وفتن صماء دامت قرناً من الزمان .

الكتاب الثاني

الثورة

١٤٥ – ٣٠ ق . م

جدول للحوادث التاريخية

مرتبة حسب أزمانها

ق . م

١٣٩ — حرب الرقيق الأولى فى صقلية .

١٣٣ — تعيين تيبريوس جراكس تربيوناً واغتياله

١٣٢ وما بعدها — لوسليوس بانيتوس فى رومة .

١٢٤ — ١٢٣ كيوس جراكس تربيون .

١٢٢ — كيوس جراكس يبدأ نظام توزيع الحبوب من قبل الدولة .

١٢١ — انتحار كيوس جراكس تربيون .

١١٩ — ماريوس تربيون .

١١٦ — ثم بريتور .

١١٣ — ١٠١ حروب رومة ضد السمبريين والتيوتون .

١١٢ — ١٠٥ الحرب اليجرثية .

١٠٧ ، ١٠٤ — ١٠٠ ، ، ٧٨ ماريوس قنصل .

١٠٦ — مولد شيشرون وپمپى .

١٠٥ — السمبريون يهزمون الرومان قرب أروسيو .

١٠٣ — ٩٩ حرب الرقيق الثانية فى صقلية .

١٠٣ — ١٠٠ ستر نيوس تربيون .

١٠٢ — ماريوس يهزم السمبريين عند أكواسكستيا .

١٠٠ — ماريوس يقهر ستر نيوس ؛ مولد يوليوس قيصر .

٩١ — إصلاحات م . ليفيودروسس واغتياله .

٩١ — ٨٩ الحرب الاجتماعية فى إيطاليا .

٨٨ — صلا قنصل ؛ فرار ماريوس .

٨٨ — ٨٤ الحرب المثرداتية الأولى .

٨٧ — تمرد سنا وماريوس ؟ حكم الإرهاب المتطرف .

٨٦ — صلا يستولى على أثينة ويهزم أركيلوس فى كيرونية .

٨٦ — ماريوس وسنا يخلعان صلا ؛ موت ماريوس .

٨٥ — ٨٤ القنصليتان الثالثة والرابعة وموت سنا .

٨٣ — ٨١ الحرب المثرداتية الثانية .

ق . م	
٨٣ —	صلا ينزل فى برنديزيوم .
٨٢ —	صلا يستولى على رومة . حكم الإرهاب الرجعى .
٨١ —	القوانين الكرنيلية لصلا .
٨٠ — ٧٢	ثورة سرتوريوس فى أسبانيا .
٧٩ —	استقالة صلا وموته فى عام ٧٨
٧٦ وما بعدها — فرو .	
٧٥ — ٦٣	الحرب المثرداتية الثالثة — انتصارات لوكس وپمپى .
٧٥ —	شيشرون يعين كوسترا فى صقلية .
٧٣ — ٧١	حرب الرقيق الثالثة : إسپارتكوس وپمپى .
٧٠ —	كراسس وپمپى قنصلان للمرة الأولى . محاكمة فرس . مولد فرجيل .
٦٩ —	تيتس پمپن نپوس أتكس .
٦٨ —	قيصر كوستر فى أسبانيا .
٦٧ —	پمپى يخضع القراصنة .
٦٦ —	كتاب شيشرون **Pro lege manilia** .
٦٣ —	شيشرون يفضح كتلين . مولد أكتاڤيوس .
٦٣ — ١٢	م . ڤ أجرپا .
٦٢ —	قيصر پريتور مهندس . مسلك كلوديوس السيىء .
٦١ —	قيصر حاكم فى أقاصى أسبانيا . عودة پمپى . وانتصاره .
٦٠ —	الحكومة الثلاثية الأولى : قيصر وكراسس وپمپى .
٦٠ — ٥٤	قصائد كاتلس ؛ كورنليوس نپوس .
٥٩ —	قيصر قنصل .
٥٨ —	كلوديوس تربيون يخرج شيشرن من البلاد ؛ قيصر يهزم هلڤتى وأريوڤستس فى غالة .
٥٧ —	عودة شيشرون ؛ قيصر يهزم بلجا .
٥٦ —	التقاء أعضاء الحكومة فى لوكا .
٥٥ —	پمپى وكراسس قنصلان ، ملهى پمپى؛ قيصر فى ألمانيا وبريطانيا .
٥٤ —	غزو قيصر لبريطانيا للمرة الثانية .
٥٣ —	أعمال العنف التى قام بها كلوديوس وميلو فى رومة ، هزيمة كراسس فى كارهى .
٥٢ —	مقتل كلوديوس ؛ محاكمة ميلو ؛ پمپى ينفرد بالقنصلية ؛ ثورة ڤرسنجتركس .
٥١ —	شيشرون حاكم قليقية ؛ كتاب شيشرون **de re publica** ، كتاب قيصر **de bello Gallico**

رقم

٥٩ — قيصر يعبر الربكون ويستولى على رومة .

٤٨ — معركتا دراكيوم وفرسالس .

٤٨ — ٤٧ قيصر فى مصر وسوريا ؛ فتروڤيوس المهندس المعمارى ؛ كولوملا النباتى .

٤٧ — انتصار قيصر فى زيلاوثبسوس ؛ انتحار كاتو الأصغر .

٤٦ — قيصر يعين دكتاتورا لمدة عشر سنوات ، تعديل التقويم ، سالست المؤرخ كتاب شيشرون **Pro marcello** .

٤٥ — قيصر يهزم أنصار پمپى فى أسبانيا ؛ كتابا شيشرون **Academica De Finibus** .

٤٤ — اغتيال قيصر ؛ كتب شيشرون **Disputationes Tusculanaec De hature pecorum, De officii** .

٤٣ — الحكومة الثلاثية الثانية ؛ أنطونيوس ، رأكتاڤيان وليبدوس ، مقتل شيشرون .

٤٢ — موت بروتس وكاسيوس فى فلپاى .

٤١ — أنطونيوس وكليوبطره فى طرطوس .

٤٠ — صلح أنطونيوس وأكتاڤيان فى برنديزيوم ، نشيد الرعاة الرابع لفرجيل .

٣٦ — أنطونيوس يغزو بارثيا .

٣٢ — أنطونيوس يتزوج كليوبطرة .

٣١ — أكتاڤيان يهزم أنطونيوس فى أكتيوم .

٣ — انتحار أنطونيوس وكليوبطرة ؛ ضم مصر إلى الإمبراطورية ؛ أكتاڤيان يحكم رومة بمفرده .

الباب السادس

الثروة الزراعيـــة

١٤٥ ـ ٧٨ ق . م

الفصل الأول

العوامل التي هيأت البلاد للثورة

كان للثورة أسباب كثيرة ، وكان لها نتائج يخطئها الحصر ، وكانت الشخصيات التي أطاحت بها الأزمة من ابتداء ابني جراكس إلى أغسطس من أقوى الشخصيات في التاريخ ، ولم تنشب قط قبل الحرب أو بعدها إلى أيامنا هذه حرب كان لأهدافها من الخطر مثل ما كان لتلك الحرب ، ولم تمثل على المسرح العالمي في يوم من الأيام مأساة ما تمثيلا أقوى مما مثلت به مأساة تلك الأيام ، وكان أول أسباب هذه الثورة تدفق الحبوب الناتجة من عمل الرقيق في صقلية وسردانية وأسبانيا وإفريقية ، وما أحدثه تدفقها من خراب حـــل بالزراع الإيطاليين ، إذ خفض ثمن الحبوب التي تنتجها أراضيهم إلى أقل من تكاليف إنتاجها . وكان سببها الثاني تدفق الرقيق الذين حلوا محل الزراع في الريف والعمال الأحرار في المدن ، وكان ثالث هذه الأسباب زيادة عـــدد الضياع الواسعة ، وكانت الدولة قد أصدرت في عام ٢٢٠ قانوناً يحرم على أعضاء مجلس الشيوخ أن يتعاقدوا على الأعمال العامة أو يستثمروا أموالهم في التجارة ، فلما أن زاد ثراؤهم من غرائم الحرب اشتروا بهذه الأموال مساحات واسعة من الأراضي الزراعية ، وكانت الأرض في البلاد المفتوحة تقسم في بعض الأحيان قطعاً صغيرة وتباع للرومان

المستعمرين ، وقلت بذلك حدة الفتن والنزاع القائمين فى المدن ؛ وأعطى جزء كبير من هذه الأراضى للممولين وفاء ببعض ما أقرضوه للدولة من أموال فى أثناء الحروب ، أما الجزء الأكبر منها فقد ابتاعه أعضاء مجلس الشيوخ ورجال الأعمال أو استأجروه بشروط حددها مجلس الشيوخ نفسه ، وكان من أثر انتشار هذه الضياع الواسعة أن اضطر المالك الصغير إلى اقتراض المال بأرباح فاحشة يستحيل عليه الوفاء بها ، فلم يلبث أن وقع فى هاوية الفقر أو الإفلاس أو فقد أرضه ونزح إلى المدن ليسكن فى أحيائها القذرة الحقيرة الوبيئة . وآخر ما نذكره من أسباب الثورة ما طرأ على حال الفلاح نفسه من تغيير كبير لقد جند هذا الفلاح فى فى الجيش وهيأت له انتصاراته سبيل انتهاب الثروة من العالم ، وأصبح يكره العمل الانفرادى الرتيب الخالى من المغامرات فى الحقول ولا يستطيع الصبر عليه ، وكان أحب إليه من هذا العمل أن ينضم إلى صعاليك المدينة المشاغبين ، ويرقب الألعاب المثيرة فى المجتلدات بلا أجر ، ويأخذ الحبوب من الحكومة بأرخص الأثمان ، ويبيع صوته فى الانتخابات لمن يبتاعه بأغلى الأثمان أو لمن يمنيه بأعظم الأمانى ، ويختفى فى غمار الجماهير المعدمة الخاملة الوضيعة .

وأصبح المجتمع الرومانى يزداد اعتماده شيئاً فشيئاً على الانتهاب من الخارج واسترقاق فى الداخل ، بعد أن كان فى أول الأمر مؤلفاً من زراع أحرار . فأما فى المدن فكانت كل الخدمات المنزلية ، وكان كثير من الصنائع اليدوية . ومعظم الأعمال التجارية ، وكثير من الأعمال المصرفية ، وكل أعمال المصانع والأشغال العامة ، كانت هذه الأعمال كلها يقوم بها الأرقاء ، وقد أدى ذلك إلى انخفاض أجور العمال الأحرار انخفاضاً يكاد يجعل الكدح والبطالة فى الكسب سواء ، وكان الأرقاء فى الضياع الواسعة يفضلون على العمال الأحرار لأنهم لم يكونوا يلزمون بالخدمة العسكرية ، لأن عددهم كان يمكن الاحتفاظ به جيلا بعـــد جيل نتيجة المتعة الوحيدة التى كان يسمح لهم بها أو نتيجة الرذيلة التى كان ينهمك فيها

سادتهم(*) ؛ وكانت الغارات لا تنقطع على بلاد البحر الأبيض المتوسط كلها للمجيء بالأداة الحية اللازمة للمزارع التي تصنعت . وكان يضاف إلى أسرى الحرب الذين يساقون إلى رومة بعد كل معركة تنتصر فيها جيوشها ضحايا القراصنة الذين كانوا يقبضون على العبيد أو الأحرار على سواحل آسية أو بالقرب منها ، وضحايا الموظفين الرومان الذين كانوا يقتنصون الناس اقتناصاً منظماً ويستعبدون من أهل الولايات كل من لا يجرؤ حكامها المحليون على حمايته(١) . ولم يكن يمضي أسبوع لا يأتي فيه النخاسون بفرائسهم البشرية من إفريقية ، واسپانية ، وغالة ، وألمانية ، والبلاد الواقعة على ضفتي نهر الطونة ، والروسيا ، وآسية ، واليونان — من هذه الأقاليم كلها إلى ثغور البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود . ولم يكن من هذه الحوادث غير المألوفة أن يباع في ديلوس مائة ألف من الأرقاء في يوم واحد . وقد قبضت الجيوش الرومانية في عام ١٧٧ على أربعين ألفاً من أهل سردانية ، وفي عام ١٦٧ على مائة وخمسين ألفاً من أهل أپيروس ، بيعوا في أسواق النخاسة . وكان ثمن الواحد منهم في الحالة الثانية لا يزيد على ما يعادل ريالا أمريكياً(٢) . وكان مما خفف من شقاء الأرقاء في المدينة ما كان يبرم من العقود الإنسانية بينهم وبين سادتهم ؛ وما كانوا يطمعون فيه من نيلهم حريتهم ؛ أما في الضياع فلم يكن يسمح للصلات الإنسانية بأن تتدخل في أعمال الاستغلال ؛ فلم يعد العبد في تلك الضياع عضواً في الأسرة كما كان في بلاد اليونان أو في رومة نفسها في عهدها الأول ؛ وقلما كان العبد يرى مالكه ، وكان يطلب إلى الحراس أن يعتصروا من هذه الآلات البشرية الموكولة إلى أسواطهم كل ما يستطيعون اعتصاره منها ، وبقدر هذا الاعتصار يكون أجر هؤلاء الحراس . أما أجر العبد نفسه في الضياع الواسعة فلم يكن يزيد على ذلك القدر من الطعام والكساء الذي يمكنه من أن

(*) يقصد بهذه العبارة تناسل هؤلاء الأرقاء فيما بينهم أو بين النساء وأسيادهن .
(المترجم)

يكدح كدحاً متواصلا فى كل يوم من شروق الشمس إلى غروبها — عدا بعض أيام الأعياد — حتى تدركه الشيخوخة . فإذا شكا أو عصى أمر حارسه ألزم أن يعمل ورجلاه مكبلتان بالأغلال ، وأن يقضى الليل فى جب تحت الأرض ergastulum لا تكاد تخلو منه كل ضيعة واسعة . لقد كان فى هذا النظام من التلف والخسارة الاقتصادية بقدر ما فيه من الوحشية ، لأنه لم يكن يعول إلا نحو جزء من عشرين جزءاً من الأسر التى كانت تعيش من قبل على هذه الأرض نفسها معيشة الأحرار من الناس .

وإذا ذكرنا أن نصف هؤلاء الأرقاء ، إن لم يكن أكثر من نصفهم ، كانوا من قبل أحراراً (لأن الأرقاء قلما كانوا يشتركون فى الحروب) ، كان مقدورنا أن نتصور ما يشعر به هؤلاء البائسون المحطمون من مرارة ، ولا يسعنا إلا أن نعجب من ندرة ما كانوا يلجئون إليه من الثورات . وقد حدث فى عام ١٩٦ ، أن ثار أرقاء الريف فى إتروريا وعمالها الأحرار ، ولكن الجيوش الرومانية أرهبتهم « وقتلت الكثيرين منهم أو أسرتهم ومنهم من جلدوا أو صلبوا عقاباً لهم على فعلتهم » كما يقول لفى[٣] . وحدثت مثل هذه الثورة عام ١٨٥ فى أپوليا ؛ فقبض على سبعة آلاف من العبيد وحكم عليهم أن يعملوا فى المناجم[٤] . وكان أربعة آلاف من الأرقام الأسپان يعملون فى مناجم قرطاجنة الجديدة وحدها . وفى عام ١٣٩ شبت نار « حرب الأرقاء الأولى » فى صقلية[٥]، فقد لبى دعوة إينوس Eunus أربعمائة من الأرقاء وذبحوا الأحرار من أهل مدينة إنا Enna ، ثم أقبلت أفواج العبيد من الضياع ومن الأجباب الخاصة فى صقلية ، فضاعفوا عدد الثوار حتى بلغ سبعين ألفاً . وما لبثوا أن احتلوا أجرجنتم Agrigentum ، وهزموا الجيوش الرومانية التى كانت فى الولاية ، واستولوا على الجزيرة كلها تقريباً ،

واحتفظوا بها حتى عام ١٣١ : وفى تلك السنة حاصرهم جيش القنطل فى إنا ومنع الزاد حتى اضطرهم الجوع إلى الاستسلام : وسيق لينوس إلى رومة ، وألقى فى جب تحت الأرض ، وبقى فيه حتى قضى عليه الجوع والقمل(٥) . وقامت للثورات أقل من هذه شأناً انتهت بإعدام مائة وخمسين من الأرقاء فى رومة ، وأربعمائة وخمسين فى منتورنا Menturnae وأربعة آلاف فى سينوسا Sinuessa . وفى تلك السنة استصدر تيبريوس جراكس Tiberius Dracchus القانون الزراعى الذى فتح باب الثورة الرومانيـــة على مصراعيه .

الفصل الثانى

تيبيريوس جراكس

هو ابن تيبيريوس سمبرنيوس جراكس Tibèriue Sempronius Oraccus الذى تدين له أسبانيا بالشكر لأنه حكمها حكماً عادلا كريما ، والذى عين قنصلا مرتين ورقيباً مرة ، والذى أنقذ من الهلاك أخا سپيو الإفريقى وتزوج ابنته ، وأنجبت كرنليا اثنى عشر طفلا توفوا كلهم إلا ثلاثة منهم قبيل البلوغ ، وتحملت هى بعد وفاته عبء تربية تيبريوس وكيوس وأخت لهما - تدعى أيضاً كرنليا - صارت فيما بعد زوجة سپيو إيمليانس ؛ وكان للزوج والزوجة نصيب من الثقافة الهلينية ، وكان ممن يعطفون على الدائرة الثقافية السپيونية ؛ وكان لكرنيا ندوة أدبية ، وكتبت رسائل بأسلوب سليم رشيق جعلها من خير ما كتب فى الآداب اللاتينية ، ويقول أفتوطوخس إن ملكا من ملوك مصر عرض عليها بعد أن ترملت أن تتزوجه ، وأن ينزل لها عن عرشه ؛ فأبت وآثرت أن تبقى ابنة لسپيو ، وحماة لسپيو آخر وأماً لجراكس .

ونشأ تيبريوس وكيوس جراكس فى جو مشبع بطرائق الحكم والفلسفة عرفا فيه مشاكل الحكومة الرومانية ونظريات الفلسفة اليونانية . وقد تأثرا بآراء بلسيوس Blossius وهو فيلسوف يونانى من كومى Cumae بعث فيهما نزعة حرة قوية استخفت بقوة المحافظين فى رومة . ويكاد الأخوان أن يكونا متماثلين فى طموحهما ، وكبريائهما ، وإخلاصهما وفصاحتهما التى لا يكاد يصدقها العقل ، وشجاعتهما التى لا تشوبها قط شائبة . ويحدثنا كيوس أن تيبيريوس شاهد مأساة الزراع ، وتأثربها أشد التأثر حين كان مسافراً فى إتروريا ، فرأى قلة السكان ولاحظ أن الذين كانوا يحرثون

الأرض ويرعون قطعان الضأن هم العبيد الأجانب »[٦] ، وإذ كان تيبريوس يعرف وقتئذ أن الملاك وحدهم هم الذين يجندون للخدمة فى الجيش فقد سأل نفسه كيف تستطيع روما أن تحتفظ بزعامتها أو استقلالها إذا حل محل زراعها الأقوياء الذين كانوا يؤلفون الكثرة الغالبة فى الفيالق الرومانية عبيد غرباء لا تربطهم بها صلة ما ؟ وكيف تكون الحياة الرومانية حياة طيبة ، الدمقراطية الرومانية دمقرطية صالحة ، إذا غصت بصعاليك المدن المعدمين بدل الزراع الأباة الأعزاء الذين يمتلكون الأرض ويفلحونها بأنفسهم ؟ وخيل إليه أن توزيع الأرض على المواطنين الفقراء هو الحل الصحيح البين الذى لا بد من الالتجاء إليه لحل المشاكل الثلاث القائمة وقتئذ فى البلاد : الاسترقاق فى الريف ، والازدحام والفساد الخلقى فى المدن وضعف الروح الحربية بين المواطنين .

وما كاد تيبريوس جراكس يختار تربيونا فى مستهل عام ١٣٣ حتى أعلن أنه يعتزم أن يعرض على الجمعية القبلية ثلاثة اقتراحات (١) ألا يسمح لأى مواطن أن يمتلك أكثر من ٣٢٣ فدانا — أو ٦٦٧ فدانا إذا كان له اثنان من الأبناء — من الأراضى المشتراة أو المستأجرة من الدولة (٢) وأن يُرد إلى الدولة كل ما عدا هذا القدر من الأرض العامة التى باعتها أو أجرتها للأفراد ، على أن ترد الدولة لهم أثمانها أو الإيجار الذى أدوه مضافاً إلى قدر من المال نظير ما أنفقوه فى إصلاحها (٣) وأن تقسم هذه الأراضى التى ترد إلى الدولة إقطاعيات مساحة كل منها عشرون فدانا توزع على المواطنين الفقراء على شرط أن يعهدوا بألا يبيع أحد منهم نصيبه من هذه الأرض ، وأن يؤدوا عنها ضريبة سنوية إلى خزانة الدولة ولم يكن هذا الإصلاح الزراعى خيالا متعذر التنفيذ ، بل كان مجرد محاولة لتنفيذ قوانين لسنيوس كالفس Licinius Calvus الصادرة فى عام ٣٦٧ ق . م والتى ألغيت ولم تنفذ قط . وقد قال تيبريوس للعامة الفقراء فى إحدى خطبه الشهيرة التى تعد من أعظم الخطب فى التاريخ الرومانى كله :

« إن لحيوانات الأرض جحورها ولطير الهواء أوكارها وغاباتها ، أما الرجال الذين يحاربون ويموتون من أجل إيطاليا فلا يستمتعون فيها إلا بالضوء والهواء . إن قواد الجيش ينادون جنودهم أن يقاتلوا دفاعاً عن قبور آبائهم وأضرحتهم ، ولكن نداءهم هذا نداء سخيف باطل ، إذ ليس فى وسعك أن تدلم على مذبح لآبائهم يقربون فيه لآلهتهم ، وليس للفقراء مقابر لأسلافهم . إنكم أيها الفقراء تقاتلون وتموتون لينعم غيركم بالثروة والترف ، ويقال لكم : إنكم سادة العالم ، ولكنكم لا تجدون فى هذا العالم موضعاً لقدم ، فى وسعكم أن تقولوا إنه ملك لكم »(٧) .

وأعلن مجلس الشيوخ أن هذه الاقتراحات ليست فى واقع الأمر إلا مصادرة لأموال الناس ، واتهم تيبريوس بأنه يعمل ليكون طاغية حاكماً بأمره ، وأقنع إكتافيوس وهو تريبون آخر أن يستخدم ماله من حق الاعتراض فى منع عرض المشروع على الجمعية ، فما كان من جراكس إلا أن تقدم باقتراح يقضى بأن كل تريبون يعمل ضد مصالح من يمثلهم يجب أن يسقط على الفور من عداد أعضاء الجمعية . ووافقت الجمعية على هذا الاقتراح وأخرج حراس تيبريوس أكتافيوس قوة واقتداراً من قاعة الجمعية على الفور ، ووافقت الجمعية بعدئذ على الاقتراحات الأصلية فأصبحت قانوناً واجب التنفيذ ، ثم أوصلته محروساً إلى منزله لخوفها أن يغتاله مغتال فى الطريق(٨) .

غير أن تحكمه غير المشروع فى حق التريبون فى الاعتراض ، وهو الحق الذى جعلته الجمعية نفسها من أقدم الأزمان حقاً مطلقاً غير مقيد بقيد ما ، قد وضع فى معارضيه سلاحاً يشهرونه فى وجهه ويقضون به على قانونه ، فجهروا بعزمهم على أن يتهموه فى نهاية العام الذى يتولى فيه منصبه بالخروج على دستور البلاد واستخدام العنف ضد أحد التريبونين . وأراد تيبريوس أن يحمى نفسه بالسخرية من الدستور مرة أخرى ، وذلك بترشيح نفسه

لأن يعاد اختياره تربيونا فى عام ١٣٢ . وإذا كان إيمليانس وليليوس وغيرهما من الشيوخ الذين عضدوا اقتراحه الأول قد تخلوا عنه الآن ، فقد لجأ بكليته إلى العامة ووعدهم بأن ينقص إذا اختاروه مدة الخدمة العسكرية ويلغى استئثار الشيوخ بأعمال المحلفين ، وأن يجعل حلفاء رومة من الإيطاليين مواطنين رومانيين . ورفض مجلس الشيوخ فى هذه الأثناء اعتماد الأموال التى طلبتها اللجنة الزراعية التى نيط بها تنفيذ قوانين تيبيريوس فلما أوصى أتلس الثالث Atallus III ملك برجموم Pergamum بمملكته لرومة فى عام ١٣٣ عرض جراكس على الجمعية أن تباع أملاك أتلس الخاصة والمنقولة ، وأن يوزع ما يتحصل من بيعها على من نالوا إقطاعات من أراضى الدولة ليبتاعوا بها ما تحتاجه مزارعهم من أدوات ؛ وأثار هذا الاقتراح غضب مجلس الشيوخ لأنه رأى أن ما له من سيطرة على الولايات وعلى الأموال العامة قد أخذت تنتقل إلى جمعية قوية الشكيمة غير ممثلة للبلاد ، معظم أعضائها من أصل وضيع ومن غير أبناء البلاد الأصليين ، فلما كان يوم الانتخاب ظهر جراكس فى السوق العامة بملابس الحداد ومن حوله حراس مسلحون للدلالة على أن هزيمته فى الانتخاب ستؤدى إلى اتهامه وإعدامه . وحدث فى أثناء الاقتراع أن لجأ كلا الطرفين إلى العنف . ونادى سپيو نسكا Seipio Nasica بأن تيبيريوس يريد أن ينصب نفسه ملكاً ، وقاد الشيوخ إلى السوق العامة مسلحين بالهراوات . وارتاع أنصار جراكس حين شاهدوا أثواب الأشراف الفخمة فتخلوا عنه ، وأصيب تيبيريوس بضربة على أم رأسه خر على أثرها صريعاً وهلك معه بضع مئين من أتباعه . ولما طلب كيوس Caius أخوه الأصغر أن يؤذن له بدفنه لم يجب إلى طلبه ، وألقيت جثث العصاة الموتى فى نهر التيبر وكرنليا فى أثناء ذلك حزينة باكية .

وأراد مجلس الشيوخ أن يهدئ من ثورة العامة فوافق على تنفيذ قوانين جراكس . ويستدل من ازدياد عدد المواطنين المدونة أسماؤهم

فى السجلات بمقدار ٧٦٠٠٠ من عام ١٣١ إلى ١٢٥ على أن مساحات واسعة من الأراضى قد وزعت حقاً على الزراع ، ولكن اللجنة الزراعية وجدت نفسها أمام عقبات كثيرة . ذلك أن كثيراً من الأراضى التى يراد توزيعها كانت قد أخذت من الدولة قبل ذلك الوقت بعدة سنين أو بعدة أجيال ، وأصبح لمن يمتلكونها وقتئذ حقوق اكتسبوها بوضع أيديهم عليها زمناً طويلا ، وأن منها أراضى كثيرة أخرى قد ابتاعها الملاك الجدد بأثمان غالية ممن اشتروها من الحكومة بأثمان منخفضة . ولجأ أحلاف رومة الإيطاليون الذين أضرت القوانين بحقوقهم التى اكتسبوها بوضع اليد إلى سبيو إميليانس ليحميهم من اللجنة الزراعية ، واستطاع بما له من النفوذ أن يؤجل عمالها فاستشاط الرأى العام غضباً عليه لهذا العمل ، واتهمه بالخيانة وعدم الوفاء بذكرى جراكس التى أضحت وقتئذ ذكرى عزيزة مقدسة . وفى صباح يوم من أيام عام ١٢٩ وجد الرجل ميتاً فى فراشه ، وأكبر الظن أن يداً أثيمة قد اغتالته ولم يعرف أحد من هو هذا المغتال

الفصل الثالث

كيوس جراكس

وأخذ النامون الذين خلت قلوبهم من الرحمة يشيعون أن كرنليا قد ائتمرت مع ابنتها زوجة سپيو المشوهة المكروهة على قتل تيبريوس ؛ وأخذت كرنليا وسط هذه الكوارث الفادحة تواسى نفسها بالعكوف على العناية بابنها الذى لم يبق لها فى هذا العالم عزيز سواه . ولم يكن ما أثاره مقتل تيبريوس فى قلب أخيه كيوس هو مجرد الرغبة فى الانتقام ، بل أثار فيه صادق العزم على أن يتم ما بدأه أخوه . وكان قبلئذ قد أظهر كثيراً من الذكاء والشجاعة فى أثناء خدمته بقيادة إيمليانس فى نومانتيا ، ونال إعجاب الناس على اختلاف مشاربهم باستقامته وبساطة معيشته ، وكان رجلا حاد المزاج جياش العواطف ، إذا ثار زادت حدتها لطول كبتها ، وقد أصبح بفضلها أعظم خطباء الرومان قبل أيام شيشرون ، وفتحت أمامه أبواب المناصب كلها تقريباً فى مجتمع كان للفصاحة فيه المحل الثانى بعد الشجاعة فى رقى الرجال وبلوغهم أسمى المراتب . لهذا كله اختير تربيونا فى خريف عام ١٢٤ .

وكان كيوس رجلا واقعياً أكثر من أخيه ، ومن ثم أدرك أن لا بقاء لأى إصلاح إذا لم يقو على مغالبة القوة الاقتصادية أو القوة السياسية فى الدولة ، ولذلك استقر رأيه على أن يضم إلى جانبه خمس طبقات من طبقات الشعب المختلفة : طبقة الزراع ، والجيش وعامة المدن ورجال الأعمال . فأما الطبقة الأولى فقد ضمها إليه بالعودة إلى القوانين الزراعية التى سنها أخوه ، ووسع مداها بأن طبقها على الأراضى الزراعية التى تمتلكها الدولة فى الولايات التابعة لها ، ثم أعاد تشكيل لجنة الأراضى ، وأشرف بنفسه على أعمالها . وحقق مطامع الطبقات الوسطى بإنشاء مستعمرات جديدة فى كبوا ، وتارنتم وناربو Narbo ، وقرطاجنة ، وبتنمية هذه

المستعمرات وجعلها مراكز مزدهرة للتجارة . وأرضى الجنود بأن قرر أن تؤدى أثمان ملابسهم من الخزانة العامة ، وأرضى عامة المدن بإصدار قانون الحبوب lex frumentaria وبمقتضاه أخذت الحكومة على نفسها أن تعطى القمح لكل من يطلبه بسعر ستة آسات وثلث آس لكل موديوس Modius (أى بما يعادل ٣٫٦ من الريال الأمريكى لكل جالونين) وهو نصف ثمنه فى السوق . وكان هذا العمل الأخير صدمة عنيفة للمبادئ الرومانية القديمة — مبادئ الاعتماد على النفس — كما كان له آثار خطيرة فى التاريخ الرومانى كله . وكان كيوس يعتقد أن تجار الحبوب يبيعونها للجمهور بضعفى نفقات إنتاجها ، وأن الإجراء الذى اتخذه لن يكلف الدولة خسارة ما لأن توحيد عمليات البيع والشراء سينزل بالنفقات إلى حد كبير . وسواء كان هذا أو لم يكن فإن القانون قد جعل الفقراء من سكان المدن الأحرار يناصرون ابنى جراكس ويناصرون من بعدهما مارينوس وقيصر بدل أن كانوا موالى للأشراف وأتباعاً لهم ، يعملون لإطعامهم وتوفير أسباب الترف لهم ، كما كان عماد الحركة الدمقراطية التى بلغت ذروتها فى كلوديوس Clodius وقضى عليها فى أكتيوم .

وكان الإجراء الخامس يهدف إلى تثبيت سلطان الحزب الذى ينتمى إليه بالقضاء على السنة المتبعة من زمن قديم والتى تجعل الأغنياء يقترعون فى الجمعية المئوية قبل غيرهم من الطبقات ، فاستبدل كيوس بهذه السنة تقليداً جديداً يجعل المئات فى الجمعية يعطون أصواتهم حسب نظام يعين بالقرعة . ثم استرضى رجال الأعمال بأن جعل لهم وحدهم حق العمل محلفين عند النظر فى جرائم الولايات ، فأصبحوا بذلك حكاماً فى قضاياهم إلى حد بعيد . ولم يكتف بهذا بل أراد أن يستثير مطامعهم فاقترح أن تفرض على جميع غلات آسية الصغرى ضريبة توازى عشر هذه الغلات يجبونها هم أنفسهم . ثم زاد ثراء المقاولين ، وأنقص عدد المتعطلين ، بأن وضع برنامجاً لإنشاء الطرق فى كافة أنحاء إيطاليا . ولقد

كانت هذه القوانين فى جملتها — رغم ما يغشى بعضها من خداع سياسى — أعظم مجموعة من التشريع الإنشائى سنت لرومة قبل أيام قيصر .

واستطاع كيوس باعتماده على هـذا العون المتعدد النواحى أن يطرح ما جرت به العادة من قديم ، وأن يُختار تربيوناً للمرة الثانية . وأكبر الظن أنه قد فكر فى ذلك الوقت فى السيطرة على مجلس الشيوخ بإضافة ثلثمائة عضو جديد إلى أعضائه الثلثمائة ، تختارهم الجمعية من بين رجال الأعمال . واقترح كذلك أن يعطى حق الانتخاب كاملا لجميع الأحرار من سكان لاتيوم ، وأن يعطى هذا الحق منقوصاً إلى سائر الأحرار من سكان إيطاليا . وكانت هذه أجرأ حركة قام بها فى طريق الدمقراطية السياسية ، ولكنها كانت أيضاً أول ما ارتكب من أغلاط فى خططه . ذلك أن من كان لهم حق الاقتراع لم يتحمسوا كثيراً لأن يشترك معهم غيرهم فى هذه الميزة التى اختصوا بها حتى ذلك الوقت ، ولو كان شركاؤهم فيها قوم لا يستطيع حضور جلسات الجمعيات فى رومة إلا أقلية صغيرة منهم ، ولم يدع مجلس الشيوخ هذه الفرصة تفلت من بين يديه ، ذلك أن كيوس كاد يتجاهله ولا يحسب له حساباً حتى ظن أنه قد فقد كل ما كان له من قوة ومكانة فى البلاد ، ولم ير فى هذا التربيون النابه لا زعيماً شعبياً مستبداً يريد أن يستحوذ لنفسه على أكبر قسط من السلطة بتوزيع أملاك الدولة وأموالها ذات اليمين وذات الشمال ؛ ولاح له فجأة حليف جديد هو صعاليك رومة الغيورون على حقهم القديم ، وانتهز فرصة غياب كيوس ، وكان قد غادر رومة ليثبت قواعد مستعمرته الجديدة فى قرطاجنة ، فأشار على تربيون آخر هو ماركس ليفيوس دروسس **Marcus Livius Drosus** أن يضم إليه الزراع الجدد بإصدار قانون يلغى به الضرائب المفروضة على أراضيهم بمقتضى قوانين جراكس ، وأن يسترضى صعاليك المدن ويضعفهم فى الوقت نفسه بأن يقترح إنشاء اثنتى عشرة مستعمرة جديدة فى إيطاليا تتسع كل واحدة منها لثلاثة آلاف من رجال رومة . ووافقت الجمعية من فورها

على هذين المشروعين ، ولما عاد كيوس وجد دروسس قد كسب قلوب الشعب ، ينازعه الزعامة عند كل خطوة يخطوها . ورشح كيوس نفسه لأن يختار تربيونا مرة ثالثة ولكنه هزم ، وقال أصدقاؤه إنه انتخب ولكن أصــوات الناخبين قد تناولها الغش والتزوير ، غير أنه نصح أتباعه بألا يلجئوا إلى وسائل العنف واعتزل السياسة وفضل عليها الحياة الخاصة .

وأشار مجلس الشيوخ فى العام الثانى أن تجلو رومة عن المستعمرة المنشأة فى قرطاجنة ، وفسرت الأحزاب جميعها هذا الاقتراح — سراً أو جهراً — بأنه مقدمة لحرب يشنها المجلس على قوانين جراكس لإلغائها . وجاء بعض أنصار جراكس إلى الجمعية مسلحين ، وقتل أحدهم رجلا من المحافظين همّ بالقبض على كيوس . فما كان من أعضاء مجلس الشيوخ إلا أن خرجوا فى اليوم الثانى على استعداد تام للقتال ، ومع كل منهم عبدان مسلحان ، وهاجموا أنصار جراكس المتحصنين فوق تل الأفنتين . وبذل كيوس كل ما فى وسعه لتسكين الفتنة ، ومنع اعتداء كلتا الطائفتين على الأخرى ؛ فلما عجز عن ذلك ولى هارباً وعبر نهر التيبر ، ولما أن لحقه أعداؤه أمر خادمه أن يقتله ، وصدع الخادم بالأمر ثم قتل نفسه . وقطع أحد أصدقاء كيوس رأس صديقه ، وحشاها بالرصاص المصهور ، وحملها إلى مجلس الشيوخ ، وكان المجلس قد أعلن أنه يكافئ من يأتيه بهذا الرأس بما يساوى وزنه ذهباً[٩] . وقتل من أنصار كيوس فى المعركة مائتان وخمسون ، وأعدم ثلاثة آلاف غيرهم تنفيذاً لقرار أصدره مجلس الشيوخ ؛ ولما ألقيت جثته وجثث أتباعه فى نهر التيبر لم يحتج على هذا العمل غوغاء المدينة الذين كان يعمل لخيرهم ، ذلك أن هؤلاء الغوغاء كانوا وقتئذ فى شغل عن هذا الاحتجاج بنهب بيته[١٠] ؛ وحرم مجلس الشيوخ على كرنليا أن تلبس ثياب الحداد حزناً على ولدها .

الفصـــل الرابع

ماريوس

واستخدم الأشراف الظافرون كل ما وهبوا من ذكاء لهدم العناصر الإنشائية من تشريعات كيوس لا العناصر التي أراد بها كسب محبة الشعب الروماني . فلم يجرءوا مثلا على إخراج رجال الأعمال من منصب المحلفين في القضايا ، أو أن يحرموا المكاسين والمقاولين مرابح صيدهم الوفيرة في آسية ، ورضوا بأن يظل توزيع الحبوب على الأهلين كما كان حتى لا يثور الشعب . ثم أفسدوا ذلك القرار الصالح قرار توزيع الأراضي على الفقراء بأن أضافوا إليه مادة تجيز لملاك هـــذه الأراضي الجديدة أن يبيعوها ، فلم يمض إلا قليل من الوقت حتى باع آلاف منهم ما يمتلكون إلى كبار ملاك الرقيق ، وأخذت الضياع الكبيرة تعود إلى سابق عهدها . ثم ألغيت لجنة الأراضي في عام ١١٨ ، ولم تحتج الجماهير في العاصمة على الإلغاء ، لأن الجماهير قد عقدت النية على أن الأكل من قمح الدولة في المدينة خير من فلح الأرض أو الكدح في المستعمرات الناشئة . وتعاون الكسل والتخريف (ونقول التخريف لأن أرض قرطاجنة كانت في زعمهم أرضاً منحوسة ملعونة) على إبطال كل محاولة بذلت قبل أيام قيصر للتخفيف من حدة الفقر بالهجرة إلى خارج البلاد . وزاد ثراء الأثرياء ولكن عدد الأثرياء لم يزد على ما كان من قبل ، وقد قرر أحد الدمقراطيين المعتدلين في عام ١٠٤ أن عدد الملاك من المواطنين الرومان لا يزيد على ألفي مالك[11] . وفي ذلك يقول أبيان Oppian : « إن الفقراء قد أصبحت حالهم أسوأ مما كانت من قبل وقد كانت من قبل سيئة » . . . فقد خسر العامة كل شيء . . وظل عـــدد المواطنين والجنود يتناقص تناقصاً مطرداً »[12] وكان لا بد من سد النقص في صـــفوف الجند بمجندين من الولايات

الإيطالية ، ولكن هؤلاء لم يكن لهم صبر على القتال ، ولم تكن قلوبهم عامرة بحب رومة ؛ وأخذ عدد الفارين من الجند يتضاعف على مدى الأيام ، واختل النظام فى الجيش وانحطت قدرة المدافعين عن الجمهورية إلى أدنى حل:

ولم تلبث أن هاجمها الأعداء ، وكاد هجومهم عليها أن يكون من الشمال ومن الجنوب وفى وقت واحد . ذلك أن قبيلتين من قبائل الكلت وهما قبيلتا السمبرين والتيوتون انحدرت جموعهما كالسيل الجارف فاخترقت للاليا عام ١١٣ فى عربات مغطاة ، وكانت عدتهم ثلثمائة ألف من المحاربين ، ومعهم أزواجهم وأبناؤهم ودوابهم ، وكأنهم أرادوا أن يشعروا رومة بما يتهددها من أخطار فى المستقبل القريب . ولعل هؤلاء الأقوام قد تراءى إليهم من فوق جبال الألب أن رومة قد افتتنت بالثروة وكرهت الحرب . وكان القادمون الجدد طوال القامة ، أقوياء البنية ، شجعاناً لا يجد الخوف سبيلا إلى قلوبهم ، وكانوا بيض البشرة شقر الشعر حتى قال عنهم الإيطاليون إن شعر أطفالهم أبيض كشعر الشيوخ . والتقوا بجيش رومانى فى نوريا Noreia وهى نورماكت Neurmarkt الحالية فى كارنثيا) وأفنوه عن آخره ؛ ثم عبروا نهر الرين وهزموا جيشاً رومانياً آخر ، ثم تدفقوا غرباً إلى غالة الجنوبية وبددوا شمل جيش رومانى ثالث ورابع وخامس . وأسفرت معركة أروسيو Arausio (أورنج) عن قتل ثمانين ألفاً من الجيوش الرومانية النظامية ، وأربعين ألفاً من المدليين الذين يعقبون معسكرات الجنود[١٣] . وتفتحت أبواب إيطاليا بعد هذه المعارك أمام الغزاة ، واستوى الرعب على رومة وكان رعباً لم تعرف له مثيلا منذ أيام هنيبال .

وفى الوقت عينه تقريباً شبت نار الحرب فى نوميديا . وذلك أن يوجورثا Jugurtha حفيد ماسنسا عذب أخاه تعذيباً انتهى بموته وحاول أن يحرم أبناء عمه حقهم فى الملك ، فأعلن مجلس الشيوخ الحرب عليه فى عام ١١١ لعله يستطيع أن يجعل نوميديا ولاية رومانية ويفتح أبوابها للتجارة ولرؤوس

الأموال الرومانية ، واستطاع يوجورثا أن يبتاع بالمال بعض الأشراف ليدافعوا عن قضيته وعن جرائمه أمام مجلس الشيوخ ، وأن يرشوا القواد الذين أرسلوا لقتاله ، فعقدوا معه صلحا مواتيا أو اكتفوا بمناوشات لا تلحق به أذى . ولما استدعى إلى رومة كان أكثر سخاء منه قبل قدومه إليها ، واستطاع بذلك أن يعود إلى عاصمته دون أن تقام فى سبيله العقبات[١٤] .

ولم يخرج من هذه الحروب موفور الكرامة سليم الشرف إلا ضابط واحد هو جايوس ماريوس Gaius Marius . وقد ولد هذا القائد كما ولد شيشرون فى أربينوم Arpinum وكان والده عاملا يتقاضى أجراً يومياً قليلا ، وتطوع فى الجيش وهو صغير السن ، وأصيب بعدة جراح فى نومنتيا Numantia ، وتزوج من عمة لقيصر ، واختير تربيونا رغم جهله وسوء أخلاقه أو بسبب جهله وسوء أخلاقه ، ولما عاد من الخدمة العسكرية فى خريف عام ١٠٨ ، وكان وقتئذ ياوراً لكونتس متلس Quintus Metellus القائد الضعيف العاجز فى إفريقية ، اعتلى منصة للخطابة وطلب أن يختار قنصلا بدل متلس ، وقطع على نفسه عهدا إذا اختير لهذا المنصب أن يقود الجيوش الرومانية إلى النصر فى الحرب اليوجورثية . فأجابه الشعب إلى طلبه ، وتولى قيادة الجيش ، وأرغم يوجورثا على الاستسلام له فى عام ١٠٦ ، ولم يعلم الشعب وقتئذ أن أكبر من عمل للنصر فى هذه الحرب شاب جرىء من الأشراف هو لوسيوس صلا Lucus Sulla وإن كان قد عرف منه ذلك فيما بعد ، أما فى ذلك الوقت فقد استمتع ماريوس بأعظم ما يستمتع به القائد المنتصر ، وبلغ من حب الشعب له أن تجاهلت الجمعية نصوص الدستور المختصر ، وصارت تنتخبه قنصلا عاماً بعد عام (من ١٠٤ — ١٠٠) . وناصره رجال الأعمال لأن انتصاراته قد فتحت آفاقا جديدة لمشروعاتهم الاستغلالية من جهة ، ولأنهم رأوه الرجل الوحيد الذى كان فى استطاعته أن يرد جحافل الكلت من جهة أخرى . وتبينت رومة من ذلك الوقت

فى حم قيصر منافع القيصرية — ذلك أن الدكتاتورية الممثلة فى قائد محبوب من الشعب ، ومن ورائه جيش مخلص له ، قد بدت للكثيرين من الرومان المنهوكى القوى البديل الوحيد من المساوئ الألجركية التى تلازم الحرية .

وكانت الجافل السمبرية بعد انتصارها فى أروسيو قد أجلت زحفها على رومة ، وعبرت جبال البرانس ، وعاثت فى أسپانيا فساداً ، غير أنها عادت إلى غالة فى عام ١٠١ ، وهى أكثر عدداً مما كانت قبل ، واتفقت مع التيوتون على أن يهاجما السهول الغنية فى شمال إيطاليا من طريقين مختلفين . ولجأ ماريوس فى صد هذا الخطر المحدق بالمدينة إلى طريقة جديدة من طرق التجنيد أحدثت انقلاباً خطيراً فى الجيش أولا وفى الدولة نفسها فيما بعد ، ذلك أنه دعا إلى الخدمة العسكرية كل من شاء من المواطنين سواء كان له ملك أو لم يكن . وعرض أجوراً مغرية على المتطوعين ، ووعدهم أن يطلق سراحهم وأن يقطعهم أرضاً فى نهاية الحرب . وكان معظم الجيش الذى جمع بهذه الطريقة مكوناً من فقراء المدن ، وكانت عواطفه معادية لجمهورية الأشراف ، وكان إذا حارب لا يحارب دفاعاً عن بلاده بل يحارب فى سبيل قائده ومن أجل الغنائم ؛ وبهذه الوسيلة وضع ماريوس الأساس العسكرى للثورة القيصرية ، ولعله فعل ذلك على غير علم منه . وكان ماريوس جندياً لا رجلا سياسياً ، ومن ثم فإنه لم يكن يتسع وقته لتدبر العواقب السياسية البعيدة ؛ فلما أن ألف الجيش بهذه الطريقة السالفة الذكر قاده فوق جبال الألب وقوى أجسام جنده بالسير الطويل والتدريب ، كما قوى قلوبهم بالهجوم على مواقع كان من السهل التغلب عليها ، وكان يرى أن من المجازفة أن يلتحم وإياهم فى حرب حقيقية إلا بعد أن يتم تدريبهم على هذا النحو . ومر التيوتون بمعسكره دون أن يلقوا مقاومة ما ، وكانوا يسألون الرومان ساخرين هل يريدون أن يبعثوا معهم برسائل إلى زوجاتهم اللائى يوشك هؤلاء أن يستمتعوا بهن ؛ وفى وسع القارئ أن يتصور عدد هؤلاء التيوتون إذا علم أنهم قضوا فى مرورهم بمعسكر

الرومان ستة أيام كاملة . فلما أن تم مرورهم أمر ماريوس جنده بالانقضاض على مؤخرتهم ؛ ودارت بين الجيشين معركة عند أكوا سكستيا Sextiea Aquae (١٠٢) (وهي مدينة إكس Aix في مقاطعة بروڤانس Provence) وبلغ عدد القتلى والأسرى من جيوش التيوتون مائة ألف . وفي ذلك يقول أفلوطرخس : « ويقال إن أهل مرسيليا أقاموا حول كرومهم أسواراً من عظام القتلى وإن الأرض بعد أن تحللت فيها أجسامهم وهطلت عليها أمطار الشتاء أخصبها ما تسرب إليها من المواد المتعفنة ، حتى بلغ محصولها في الموسم الذي تلا ذلك الفصل درجة من الوفرة لم يكن لها مثيل من قبل[١٥] » . وبعد أن أراح ماريوس جيشه عدة شهور رجع على رأسه إلى إيطاليا والتقى بالسمبريين في ڤرسلا Vercellae بالقرب من نهر البو (١٠١) في المكان الذي انتصر فيه هنيبال على الرومان في أول معركة خاض غمارها معهم . وأراد البرابرة أن يظهروا قوتهم وبأسهم ، فساروا عراة الأجسام وسط الثلوج ، وتسلقوا الجبال المكسوة بالجليد ، وخاضوا مناسفه العميقة إلى قلل الجبال ، ثم انزلقوا منها وهم يهللون ويضحكون فوق المنحدرات الوعرة ، واستخدموا دروعهم مزالق في أقدامهم[١٦] ؛ فلما دارت المعركة بعدئذ بينهم وبين الرومان لم يكد يبقى منهم أحد على قيد الحياة .

واستقبل ماريوس في العاصمة المبتهجة كأنه « كمليوس ثان » صد عنها غارة كلتية ، « ورميولوس » آخر أنشأ رومة من جديد » ووهبته جزءاً من الغنيمة التي جاء بها مكافأة له على عمله ؛ فأصبح بذلك من أثرياء المدينة يمتلك من الضياع ما « يكفي لأن يكون وحده مملكة » . وفي عام ١٠٠ ق . م اختير قنصلا للمرة السادسة . وكان زميله في القنصلية لوسيوس ستورنينس Lucius Saturninus وكان رجلا متطرفاً حاد الطبع عقد النية على أن يبلغ الهدف الذي كان يسعى له إبنا جراكس بالتشريع إن استطاع وبالقوة إن لم يستطع . وكسب ود ماريوس بأن عرض على الجمعية قانوناً يقضي بتوزيع بعض أراضي المستعمرات على الجنود

المصريين الذين اشتركا في المعارك الحديثة ؛ ولما أنقص ثمن القمح الذى توزعه الدولة على العامة من ستة آسات وثلث آس (أى ما يعادل ٣٩ر من الريال الأمريكى) إلى خمسة أسداس آس (أى نحو ٥٠ر من الريال الأمريكى) لكل موديوس لم يعارض ماريوس فى هذا الإجراء . وأراد مجلس الشيوخ أن يحمى خزانة الدولة ، ويحمى نفسه بتحريض أحد التربيونين على أن يمنع الاقتراع على هذين المشروعين . ولكن ستورنينس لم يعبأ بهذا الاعتراض وتقدم بهما إلى الجمعية : واحتدم النزاع بين الطرفين ، ولجأ كلاهما إلى العنف . ولما أن قتل أنصار ستورنينس كيوس ممبوس Caius Memmius ، وكان من أكبر الأشراف مقاماً ، لجأ مجلس الشيوخ إلى آخر سهم فى كنانته واستخدم حقه فى حماية الشعب senatus consultum de re publica defendeuda وأمر مريوس بوصف كونه قنصلا أن يخمد الفتنة .

وكان على ماريوس أن يختار بين أمرين ليس فيهما حظ لمختار ، وكان هذا الاختيار أسوأ ما مر عليه طول حياته ، فقد كان شديداً على نفسه أن يختم جهاده الطويل لخدمة العامة من أهل رومة هذه الخاتمة التعسة فيهاجم زعماءهم وأصدقاءه السابقين ، على أنه هو أيضاً كان لا يرضى عن استخدام العنف ويعتقد أن الثورة تنتج من الشرور أكثر مما تستطيع علاجه . وأخيراً سار على رأس قوة لمهاجمة الثوار وسمح بأن يقتل ستورنينس رجماً بالحجارة ، ثم طلق السياسة وعاش فى عزلة عيشة نكدة يائسة ، يحتقره العامة الذين دافع عنهم وأخذ بناصرهم ، والأشراف الذين أنجاهم من البلاء .

الفصل الخامس

ثورة إيطاليا

كانت الثورة فى ذلك الوقت تتطور إلى حرب أهلية داخلية . ولما استعان مجلس الشيوخ أحلاف روما من ملوك الشرق لصد غارات السمبريين رد عليه نقوميدس ملك بثينيا بقوله إن جميع الرجال القادرين على حمل السلاح فى مملكته قد بيعوا فى سوق الرقيق للوفاء بمطالب جباة الضرائب الرومانيين الفادحة . ورأى مجلس الشيوخ أن الجيش فى ذلك الوقت أفضل من الرقيق فأصدر قراراً يقضى بتحرير كل من أصبحوا أرقاء لعجزهم عن أداء الضرائب . فلما سمع الأرقاء بهذا القرار اجتمع مئات منهم فى صقلية ، وكان كثيرون منهم من يونان بلاد الشرق الهلنستية ، وتركوا سادتهم واحتشدوا عند باب قصر البريتور وطالبوا بحريتهم ، فعارض أسيادهم فى ذلك الطلب واحتجوا عليه ، واستمع البريتور إليهم وأجل تنفيذ قرار التحرير ، ونظم الأرقاء أنفسهم بقيادة دعى دينى يسمى سلفيوس Salvius وهاجموا مدينـــة مورجنتيا Morgantia . واستطاع مواطنو المدينة أن يضمنوا وفاء معظم عبيدهم حين وعدوهم بأن يحرروهم إذا صدوا هجمات المغيرين ؛ فلما صدوها أخلف سادتهم وعدهم ولم يحرروهم ، فانضم معظمهم إلى الثائرين . وثار حوالى ذلك الوقت نفسه (١٠٣) نحو ستة آلاف من الأرقاء فى طرف الجزيرة الغربى بقيادة أثنيون Athenion ، وهو رجل متعلم ذو عزيمة ماضـــية ؛ وهزمت هذه القوة تباعاً عدداً من الجيوش التى سيرها البريتور لإخماد ثورتها ، ثم تحركت نحو الشرق وانضمت إلى الثوار الذين كانوا تحت قيادة سلفيوس . وتغلبت جموعهم على جيش بعثت به روما من إيطاليـــا نفسها ، ولكن سلفيوس مات فى ساعة النصر ، ثم عبرت جيوش رومانيـــة أخرى مضيق صقلية

بقيادة القنصل مانيوس أكوليوس (١٠١) ، فبارز أثليون هذا القنصل وقتله فى المبارزة وأصبح الأرقاء بلا قائد ، فهزموا وقتل آلاف منهم فى الميدان ، وأعيد آلاف آخرون إلى سادتهم ، ونقل مئات منهم على ظهور السفن إلى رومة ليقاتلوا الوحوش فى الألعاب التى أقيمت احتفالا بانتصار أكوليوس ، ولكن الأرقاء لم يقاتلوا الوحوش بل أغمد كل منهم خنجره فى قلب زميله وماتوا عن آخرهم .

وبعد بضع سنين من هذه الحرب - حرب الأرقاء الثالية - امتشقت إيطاليا كلها الحسام . وسبب ذلك أن رومة - وهى أمة صغيرة بين كومى وكيرى Caere ، وبين جبال الأپنين والبحر - قد ظلت نحو قرنين من الزمان تحكم سائر إيطاليا كما تحكم الشعوب المغلوبة ؛ وبلغ من أمرها أن مدناً قريبة منها مثل تيبور Tibur وبرانستى Praeneste لم يكن لها من يمثلها فى الحكومة التى تصرف أمورها ، بل كان مجلس الشيوخ والجمعيات والقناصل يصدرون المراسيم والقوانين إلى الهيئات الإيطالية كأنها ولايات أجنبية مغلوبة على أمرها ؛ وكانت موارد هؤلاء « الأحلاف » من مال ورجال تستنزف فى الحروب التى لم يكن لها هدف إلا ملء خزائن عدد قليل من الأسر فى رومة ، ولم تنل الولايات التى ظلت موالية لها فى صراعها المرير مع هنيبال على هذا الولاء جزاء يستحق الذكر ، أما التى قدمت إلى هنيبال فى هذا الصراع شيئاً من المعونة أيا كان نوعها فقد كان عقابها أن أخضعت إلى رومة خضوعاً أذلها إذلالا جعل كثيراً من أهلها ينضمون إلى الأرقاء فى ثورتهم عليها . وكان عدد قليل من أثرياء المدن قد منحوا حق مواطنى رومة ، وكانت رومة نفسها تستخدم سلطانها فى كل مكان لمساعدة الأغنياء على الفقراء ؛ وفى عام ١٢٦ حرمت الجمعية على سكان المدن الإيطالية أن يهاجروا إلى رومة ، وفى عام ٩٥ أخرجت هـذه العاصمة الغنية كل من لم يكن من أهلها مواطناً رومانياً بل كان مواطناً إيطالياً فحسب

وحاول أحد الأشراف أن يصلح هذه الحال فكان جزاؤه على هذه

المحاولة الإعدام . كان م . لڤيوس دروسس **M. Livius Drusus** ابن التربيون الذى كان ينافس تيبريوس جراكس ؛ ولما كان متهناه قد أصبح والد زوجة أغسطس ، فإن الأسرة ربطت مصيرها بمبادئ الثورة ، وجرياً وراء هدفها هذا عرض لڤيوس دروسس ، بعد أن اختير تربيوناً فى عام ٩١ ، ثلاثة إجراءات وهى (١) أن يوزع مقدار آخر من أراضى الدولة على الفقراء (٢) أن ترد إلى مجلس الشيوخ حقوقه القضائية التى كانت مقصورة عليه ، مشترطاً أن يضم إليه فى الوقت نفسه ثلثمائة من رجال الأعمال (٣) أن يمنح جميع الأحرار فى إيطاليا حقوق المواطنين الرومانيين وأجازت الجمعية الاقتراح الأول وهى مغتبطة ، وأجازت الثانى دون أن تبدى اغتباطاً أو استياء ؛ ولكن مجلس الشيوخ رفض الاقتراحين كليهما وأعلن أنه لا يرتبط بشىء منهما ، أما الاقتراح الثالث فلم يعرض للاقتراع لأن مغتالا مجهولا طعن دروسس طعنة قاتلة فى منزله .

وبعثت هذه الاقتراحات الأمل فى نفوس الولايات الإيطالية وأيقنت مما حل بها أن مجلس الشيوخ والجمعية لن يقبلا بطريقة سلمية أن يشترك غيرهما معهما فيما يعود عليهما من المزايا بفضل هذه الاقتراحات . فأخذت هذه الولايات تستعد للثورة . وتألفت منها جمهورية اتحادية ، عاصمتها كنفرنيوم **Confiniuim** ، وعهدت بالحكم إلى مجلس الشيوخ مؤلف من خمسماية عضو يختارون من جميع القبائل الإيطالية عدا التسكان والأمبريان الذين رفضوا الانضمام إلى هذا الاتحاد . فلم يسع رومة إلا أن تعلن الحرب من فورها على المنشقين . واشتركت أحزاب العاصمة كلها فى الحرب التى كانت فى رأيهم دفاعاً عن وحدة إيطاليا ؛ وملأ الخوف قلوب الرومانيين على بكرة أبيهم من انتقام الدول المتمردة إذا انتصرت فى هذه « الحرب الاجتماعية »(*) القائمة بين الإخوة بعضهم وبعض » وخرج ماريوس من عزلته ،

(*) هذه هى الترجمة الخاطئة للعبارة اللاتينية **Bellum Sociale** — أى حرب الأحلاف (**socii**) ضد رومة . وهى ترجمة أكسبتها الأيام حرمة لا تستحقها .

وتولى القيادة ، وانتصر فى معركة بعد معركة مع أن جميع القواد الرومانيين — ما عدا صلا — قد منوا بالهزيمة . وقتل فى ثلاث سنين حوالى ثلثمائة ألف نفس ، وخربت إيطاليا الوسطى أشد تخريب . ولما أوشكت إتروريا وأمبريا أن تنضما إلى الثوار استرضتهما رومة بأن منحت أهلهما جميع حقوق المواطنين الرومانيين ، وفى عام ٩٠ منحت حقوق الرومان السياسية لجميع الأحرار والمحررين الإيطاليين الذين يقسمون يمين الولاء لرومة . وكان من أثر هذه الامتيازات القليلة أن ضعفت قوة الأحلاف المناوئين لرومة ، فألقت المدن واحدة بعد الأخرى سلاحها ، ولم يحل عام ٨٩ حتى كانت هذه الحرب الوحشية الضروس قد وضعت أوزارها ، واختتمت بسلام نكد لا خير فيه للطرفين . ذلك أن الرومان قد قضوا على ما منحوه للولايات الإيطالية من حقوق سياسية ، بأن جمعوا المواطنين الجدد فى عشر قبائل جديدة لا تقترع إلا بعد أن تفرغ الخمس والثلاثون قبيلة التى كانت موجودة قبل من الاقتراع ، وبذلك لم يكن لاقتراعها هذا قيمة فى معظم الأحيان ، يضاف إلى هذا أنه لم يكن فى وسع المواطنين الجدد أن يحضروا الجمعيات فى رومة إلا قلة ضئيلة منهم . لذلك صبرت الجماعات التى غرر بها والتى أضلتها الحرب وخربت بلادها على مضض ، فلما أن مضت على ذلك الوقت أربعون سنة فتحت أبوابها لقيصر يعرض عليها حقوق المواطنين فى جمهورية لا وجود لها .

الفصل السادس

صلا السعيد

ولم يلبث النزاع بين الرومانيين والإيطاليين أن قام من جديد بعد بضع سنين قلائل ساد فيها السلام ، وكل ما فى الأمر أن تبدل اسم هذا النزاع من نزاع « اجتماعى » إلى نزاع « أهلى » وأن تبدل ميدانه من المدن الإيطالية إلى رومة نفسها . وتفصيل ذلك أن لوسيوس كرنليوس صلا اختير ليتولى فى عام ٨٨ ق . م منصب القنصلية . وتولى قيادة الجيش الذى كان يعبأ لقتال مثرداتس Mithridates حاكم پنتس Pontus ، ولكن التربيون سلپيسيوس روفس Sulpicius Rufus لم يكن يرضى أن يتولى رجل محافظ مثل صلا قيادة هذه القوة العظيمة ، وأقنع الجمعية بأن يتولى القيادة ماريوس ، وكان وقتئذ رجلا بديناً فى التاسعة والستين من عمره ، ولكنه مع ذلك لم تفارقه مطامعه العسكرية . وأبى ماريوس أن تفلت من عمره ، ولكنه مع ذلك لم تفارقه مطامعه العسكرية . وأبى ماريوس أن تفلت من يده فرصة القيادة التى طال انتظارها ، وأن تفلت منه لما لاح له أنه نزوة من نزوات جمعية خاضعة لتأثير زعيم شعبى مهرج ، وللرشا التى لم يكن يشك فى أنها قد تلقتها من التجار الذين يحبون ماريوس . فلم يكن منه إلا أن فر إلى نولا Nola وكسب ولاء الجيش وزحف به على رومة .

وكان صلا رجلا فذاً فى منشئه ، وأخلاقه ، ومصيره . فقد ولد فقيراً ولكنه أصبح المدافع عن الأشراف ، كما أصبح ابنا جراكس ودروسس Drusus وقيصر وهم من الأشراف زعماء الطبقات الفقيرة ، وثأر لنفسه من الحياة إذ جعلته شريفاً ومعدماً ؛ وذلك بأنه حين أصبح رب المال استخدمه فى قضاء شهواته ، فأطلق لها العنان ، ولم يتقيد فيها بعرف ، ولم يؤنبه على إسرافه فيها ضمير . وكان دميم الخلق — له عينان زرقاوان براقتان فى وجه أبيض

تلطخه بقع شديدة الحمرة — كأنه توت منثور عليه دقيق[١٧] » ؛ لكن هذه الملامح كانت تخفي وراءها تعليماً راقياً ، فقد كان يتقن الآداب اليونانية والرومانية ، وكان مولعاً بجمع روائع الفن دقيقاً في اختيارها (مستعيناً على ذلك في العادة بالوسائل العسكرية) . وأمر أن تحمل له من أثينة مؤلفات أرسطوطاليس ، واختص بها نفسه لتكون جزءاً من أثمن غنائمه ، ووجد خلال أيام الحرب والثورة من الوقت ما استطاع فيه أن يكتب مذكراته ليضل بها الناس من بعده . وكان رقيقاً مرحاً لطيفاً ، وصديقاً كريماً ، يدمن الخمر ، ويشتهي النساء ، ويولع بالحرب ، ويطرب للغناء ؛ ويقول عنه سلست Sallust إنه «كان يعيش عيشة البذخ ، ولكن ملذاته لم تحل قط بينه وبين أداء واجباته ، إذا استثنينا من ذلك التعميم أنه كان في وسعه أن يجعل سلوكه مع زوجته أشرف مما كان[١٨] » . وسلك الرجل طريقه إلى المجد سلوكاً سريعاً ، وخاصة في الجيش وسيلته الموفقة إلى أغراضه . وكان يعامل جنوده معاملة الزميل لزميله ، يشترك معهم في أعمالهم وفي سيرهم ، ويتعرض لما يتعرضون له من الأخطار ؛ « وكان همه الوحيد ألا يسمح لإنسان ما أنه يفوقه في حكمته وشجاعته[١٩] » . ولم يكن يؤمن بآلهة الرومان ، ولكنه يؤمن بالخرافات . وفيما عدا هذا كان الرجل من أكثر الرومان واقعية كما كان أشدهم قسوة ، خياله ومشاعره خاضعة لسلطان عقله . ومما قيل عنه أنه كان نصف أسد ونصف ثعلب ، وأن الثعلب فيه كان أشد خطراً من الأسد[٢٠] . قضى نصف أيامه في ميادين القتال ، وقضى العشر السنين الأخيرة منها في الحروب الأهلية ، ولكنه رغم هذا ظل محتفظاً بفكاهته ومرحه إلى آخر أيام حياته ، يوشي قسوته ووحشيته بكتابة المقطوعات الشعرية الفكاهية ، ويملأ رومة ضحكا ، خلق لنفسه مائة ألف عدو ومات في فراشه .

وكان يلوح أن هذا الرجل الذي يتألف من مزيج كيميائي من الفضائل والرذائل هو الذي تحتاجه البلاد لقمع الثورة في الداخل والقضاء على مثرداتس في الخارج ؛ وكان من السهل على رجاله المدربين البالغ عددهم ٣٥,٠٠٠ أن

يبدوا شمل الأشتات غير المتجانسين الذين جمعهم ماريوس ارتجالا فى رومة .
فلما أيقن ماريوس بحرج موقفه فر إلى أفريقية ، وقتل سلبسيوس إذ غدر به
خادمه . وأمر صلا أن يدق رأس التربيون فى منبر الخطابة الذى كان منذ
قليل تتجاوب فيه أصداء خطبه البليغة ؛ وحرر العبد مكافأة له على خدمته ،
ثم أمر بقتله جزاء له على غدره . وبينا كان جنوده يسيطرون على السوق
العامة أصدر قراراً بألا يعرض أى أمر على الجمعية إلا بإذن مجلس الشيوخ ،
وأن يكون نظام الاقتراحات هو النظام المقرر فى « دستور سرڤيوس » ،
وهو الذى يجعل الأولوية والميزة للطبقات العليا ؛ ثم عمل على أن يكون هو
القنصل الأول وسمح بأن يختار نيوس أوكتاڤيوس **Cnaeus Octavius**
وكرنليوس سنا **Cornelius Cinna** قنصلين (٨٧) ، ثم سار للقاء
مثرداتس العظيم .

ولكنه لم يكد يغادر إيطاليا حتى قام النزاع من جديد بين طبقة العامة
وطبقتى الأشراف والفرسان الممتازين ، ونشب القتال فى السوق العامة بين
أنصار أكتاڤيوس المحافظين وأتباع سنا المتطرفين ، وقتل من الفريقين فى
يوم واحد عشر آلاف رجل ، وانتصر أكتاڤيوس فى آخر الأمر وفر سنا
لينظم الثورة فى المدن المجاورة ، ثم أبحر إلى إيطاليا بعد أن قضى الشتاء
مختفياً ، وأعلن تحرير الرقيق ، وسار على رأس قوة مؤلفة من ستة آلاف
رجـــل لقتال أكتاڤيوس فى رومة . وانتصر الثوار وذبحوا آلافاً مؤلفة
من أعدائهم ، وزينوا منابر الخطابة برؤوس الشيوخ المقتولين ، وساروا
فى الشوارع صفوفاً صفوفاً ورؤوس الأشراف فوق رماحهم ، وأضحت
هذه سنة جرى عليها الثوار فيما بعد . واستقبل أكتاڤيوس الموت فى هدوء
واطمئنان وهو جالس على كرسى التربيون مرتدياً ملابسه الرسمية . ودامت
المذبحة خمسة أيام بلياليها ، كما دام الإرهاب عاماً كاملا ، واستدعت محكمة
الثورة الأشراف للمثول أمامها ، وقضت بإدانتهم إذا كانوا قد قاوموا ماريوس
وصادرت أملاكهم . وكانت إماءة ماريوس تكفى لأن تطيح برأس أى إنسان

مهما كانت منزلته ، وكان يقتل فى أغلب الأحيان لساعته قبل أن يبرح مكانه . وقتل بهذه الطريقة أصدقاء صلا جميعهم ؛ وصودرت أملاكه ، وعزل من قيادة الجيش ، وأعلن أنه عـدو الشعب . ولم يسمح بدفن الموتى بل تركت جثثهم فى الشوارع تلتهمها الكلاب والطيور الجارحة . وانطلق الأرقاء المحررون فى البلدة ينهبون ، ويفسقون ، ويقتلون الناس بلا تمييز بينهم ، وظلوا على هذه الحال حتى جمع سنا أربعة آلاف منهم ، وأحاطهم بجنود من الغاليين وأمر بقتلهم عن آخرهم[21] .

ثم اختير سنا قنصلا مرة ثانية ، كما اختير ماريوس للمرة السادسة ، ولكن ماريوس توفى فى الشهر الأول بعد توليه منصبه وهو فى الواحدة والسبعين من عمره . منهوك القوى من فرط ما لاقى من الشدائد وضروب العنف . وانتخب ڤلريوس فلاكوس Valerius Flaccus قنصلا بدلا منه ، وأصدر مرسوماً بإلغاء ثلاثة أرباع الديون جميعها ، ثم زحف شرقاً على رأس جيش مؤلف من اثنى عشر ألفاً لخلع صلا من القيادة ، وبقى سنا فى رومة يتولى فيها الحكم بمفرده ، فاستبدل بالجمهورية دكتاتورية ، وعين جميع موظفى المناصب الكبرى ، وعمل على أن ينتخب قنصلا أربع سنين متتالية .

ولما غادر فلاكوس إيطاليا كان صلا يحاصر أثينة لأن هذه المدينة انضمت إلى مثرداتس فى ثورته على رومة . ولما حبس عنه مجلس الشيوخ المال اللازم لمرتبات جنوده عمد إلى الهياكل والكنوز فى أولمبيا وإپدورس ودلفى فنهبها ليمون بها جنده وينفق منها على حروبه . وفى شهر مارس من عام ٨٦ اقتحم الجند أحد الأبواب فى أسوار أثينة ، وتدفقوا منه إلى داخل المدينة ، وانتقموا لما عانوه من طول الحصار ومشاقه بأن عاثوا فى المدينة فساداً ، يقتلون وينهبون . ويقول أفلوطرخس « إن عدد القتلى كان يخطئه الحصر . . . وقد جرت الدماء أنهاراً فى شوارع المدينة ، وخرجت منها إلى الضواحى النائية[22] » . وأخيراً أمر صلا

بوقف المذبحة ، وقال إنه « يصفح عن الأحياء إكراماً للموتى » . ثم قاد جنوده نحو الشمال بعد أن استراحوا من متاعب القتال ، وهزم قوة كبيرة عند قيرونية **Chaeronea** ، وأركومينس **Orchomenus** ، وطارد فلولها إلى آسية مجتازاً مضيق الهلسبنت (الدردنيل) ، وأخذ يعد العدة للقاء القسم الأكبر من جيش ملك بنت(*) ، ولكن فلاكوس كان قد وصل فى هذه الأثناء إلى آسية على رأس جيشه ، وأبلغ صلا مرة أخرى أن عليه أن يتخلى عن القيادة ، ولكنه استطاع أن يقنع فلاكوس بأن يتركه حتى يتم حملته ، وكانت نتيجة هذا أن قتل فلاكوس بيد ياوره فبريا **Fimbria** ، ثم نصب هذا الضابط نفسه قائداً للجيوش الرومانية كلها ، وتقدم شمالا لملاقاة صلا . فما كان من صلا أمام هذا الخرق إلا أن عقد مع مثرداتس صلحاً (٨٥) يتنزل هذا الملك بمقتضاه عن كل ما ظفر به من الفتوح فى تلك الحرب ، ويسلم إلى رومة ستين سفينة حربية ، ويؤدى لها غرامة مقدارها ألفى تالنت . ثم اتجه صلا بعدئذ نحو الجنوب والتقى بفمبريا فى ليديا ، فانضمت جنود فبريا إلى صلا ، وانتحر قائدها وأصبح صلا سيد بلاد الشرق اليونانية ، ففرض عليها غرامة حربية مقدارها عشرون ألف تالنت ، وشرع يجبى الضرائب من مدائن أيونيا الثائرة . ثم سارع مع جيشه بطريق البحر إلى بلاد اليونان ، وزحف على پترى **Patrae** ووصل إلى برانديزيوم فى عام ٨٣ . وحاول سنا أن يقف زحفه ولكن جنوده قتلوه .

وحمل صلا إلى خزائن رومة خمسة عشر ألف رطل من الذهب ، ومائة وخمسة عشر رطلا من الفضة ، مضافة إلى ما حمله من النقود ومن روائع الفن التى خص بها نفسه . ولكن الزعماء الدمقراطيين ، وكانوا لايزالون أصحاب الأمر والنهى فى رومة ، ظلوا يتهمونه بأنه عدو الشعب ، ووصفوا المعاهدة التى عقدها مع مثرداتس بأنها مذلة قومية ، واضطر صلا على الرغم منه أن يزحف بجنوده

(*) يقصد ملك البلاد الواقعة على شاطىء البحر الأسود . (المترجم)

الأربعين ألفاً على رومة ، وواصل هذا الزحف حتى بلغ أبوابها ، وخرج كثيرون من الأشراف لينضموا إليه ، وجاء إليه أحدهم وهو نيوس بمبي بفيلق يتألف كله من موالي أبيه وأصدقائه . وسار ابن ماريوس على رأس جيش لملاقاة صلا ، فهزم وفر إلى برانست ، بعد أن أرسل إلى البريتور الشعبي يأمره بأن يقتل كل من لا يزال في العاصمة من زعماء الأشراف ، وصدع الرجل بالأمر فجمع مجلس الشيوخ وقتل جميع هؤلاء الزعماء وهم جلوس في مقاعدهم أو في أثناء فرارهم . ثم جلت القوات الديمقراطية عن رومة ودخلها صلا دون أن يلقى مقاومة ، ولكن جيشاً من السمنيين قوامه مائة ألف مقاتل زحف من الجنوب وانضم إلى فلول القوات الدمقراطية ليثأر للولايات الإيطالية ويغسل عار الهزيمة التي منيت بها في « الحرب الاجتماعية » . وخرج صلا لملاقاتهم وانتصر عليهم عند باب كلين Colline بجيشه البالغ خمسين ألفاً في معركة تعد من أشد معارك التاريخ القديم هولا ، جرت فيها الدماء أنهاراً . وبعد أن تم له النصر أمر بقتل ثمانية آلاف من الأسرى رمياً بالسهام بحجة أنهم وهم أحياء يسببون له من المتاعب أكثر مما يسببون له منها وهم أموات . ورفعت رؤوس من أسر من الزعماء على أسنة الرماح أمام أسوار برانست ، حيث كان آخر جيوش الدمقراطيين محصوراً . ثم سقطت برانست ، وانتحر ماريوس الصغير ، وعرض رأسه مسمراً في السوق العامة — وهو عمل كانت السوابق الكثيرة قد جعلته في نظر الناس أمراً مألوفاً مشروعاً .

ولم يجد صلا بعدئذ صعوبة في إقناع مجلس الشيوخ بأن ينصبه دكتاتوراً ، فلما تم له ذلك أصدر من فوره حكماً بإعدام أربعين من الشيوخ ، وألفين وستمائة من رجال الأعمال ، وكان هؤلاء الرجال ممن أعانوا ماريوس عليه وابتاعوا أملاك الشيوخ الذين قتلوا في أثناء حكم المتطرفين . وعرض صلا مكافآت لمن يبلغونه عن أسماء هؤلاء الرجال ، كما عرض مكافآت قدرها اثنا عشر ألف دينار (٧٢٠٠ ريال أمريكي) على من يأتونه بالمحكوم عليهم أمواتاً كانوا أو أحياء . وزينت السوق

العامة رؤوس القتلى وبقوائم بأسماء المحكوم عليهم تتجدد من آن إلى آن ، ولم يكن يسع المواطنين إلا الاطلاع عليها بعد الفينة والفينة ليعرفوا مصيرهم أهو الموت أم الحياة . وانتشرت أهوال المذابح والنفي ومصادرة الأملاك من رومة إلى الولايات ، وكان ضحاياها هم الثوار الإيطاليين وأتباع ماريوس أينما وجدوا ، وكان عدد من قتلوا فى هـذا الإرهاب الأرستقراطى حوالى أربعة آلاف وسبعمائة نفس . ويصف أفلوطرخس هذا الإرهاب بقوله : « وكان الأزواج يذبحون بين أحضان زوجاتهم ، والأبناء فى حجور أمهاتهم » . وقد حكم على كثيرين ممن وقفوا على الحياد أو كانوا من المحافظين ، فنهم من قتل ومنهم من نفى ، وقيل إن صلا قد فعل بهم ذلك لحاجته إلى أموالهم ، ينفقها على جنوده أو فى ملذاته . أو يكا ء بها أصدقاءه . وكانت الأملاك المصادرة تباع لمن يعرض فيها أغلى الأثمان ، أو للمقربين ذوى الحظوة عند صلا ، وأضحت هذه الأملاك أساساً لثراء كثيرين من الناس أمثال كراسس Crassus وكتلين Catiline .

واستخدم صلا حقوقه الدكتاتورية فى إصدار طائفة من المراسيم — تعرف بالقوانين الكرنيلية نسبة إلى العشيرة التى ينتمى إليها — كان يرجو أن ينشىء بها دستوراً أرستقراطيا يظل دستور رومة طوال حياتها . وأراد أن يسد ما طرأ على عدد مواطنى رومة من النقص بسبب الموت ، فأعطى حق المواطنين لكثير من الأسپان والكلت ولبعض الأرقاء السابقين ، فأضعف من سلطان الجمعيات بحشد هؤلاء الأعضاء الجدد فيها وهم المدينون له بعضويتها ، وبتجديد القانون القديم القاضى بألا يعرض قانون على الجمعية إلا بموافقة مجلس الشيوخ . ثم عمل على وقف نزوح الإيطاليين إلى رومة فوقف توزيع الغلال من قبل الدولة على الأهلين ثم قلل ازدحام السكان فى المدينة بتوزيع الأراضى الزراعية على اثنى عشر ألفاً من جنوده الأقدمين . وأراد أن يمنع القنصل الذى يختار لمنصبه جملة مرات متتالية أن يكون دكتاتوراً فعليا ، فأصر على تنفيذ السنة القديمة التى كانت تحرم على أى موظف أن يشغل منصبه مرة

ثانية إلا بعد مضى عشر سنوات على خروجه منه فى المرة السابقة : وأنقص مكانة التربيون بتقييد حقه فى الرفض وحرمان التربيون السابق من حق التعيين فى أى منصب من المناصب الكبرى ، واسترد من رجال الأعمال حقهم الذى كان مقصوراً عليهم فى أن يكونوا محلفين فى المحاكم العليا ، ورد هذا الحق إلى مجلس الشيوخ ، واستبدل بنظام الالتزام فى الضرائب نظام جبايتها من الولايات نفسها وإرسالها إلى خزانة الدولة مباشرة . ثم أعاد تنظيم المحاكم ، وزاد فى عددها ضماناً لسرعة البت فى القضايا ، وحدد اختصاصها ومدى سلطتها تحديداً دقيقاً ، ورد إلى مجلس الشيوخ كل ما كان له قبل ثورة ابنى جراكس من مزايا تشريعية وقضائية وتنفيذية واجتماعية ، وحق أعضائه فى لبس زى خاص . وقد فعل ّصلا كل هذا ليقينه أن الحكم الملكى أو الأرستقراطى هما اللذان يصلحان دون غيرهما من النظم لحكم الإمبراطوريات حكماً حازماً حكيماً ؛ ثم عمل على زيادة عدد أعضاء مجلس الشيوخ إلى الحد المقرر ، فأجاز للجمعية القبلية أن ترقى إلى عضويته الثمانية من طبقة « الفرسان » ، وأراد أن يبرهن على ثقته بعدالة هذا الإجراء الشامل واطمئنانه له فسرح جيوشه وقرر ألا يسمح ببقاء جيوش فى إيطاليا كلها . وبعد أن ظل حاكماً بأمره عامين تخلى عن سلطته بأجمعها ، وأعاد الحكم القنصلى ، واعتزل الحياة العامة (عام ٨٠ ق . م) .

وكان فى حياته الجديدة آمناً على نفسه ، لأنه قد قتل قبل كل من يستطيعون الائتمار به . ولذلك سرح حرسه وقواصيه ، وكان يسير فى السوق العامة لا يخشى أذى ، وعرض أن يفسر أعماله الوطنية لكل مواطن يطلب إليه أن يفسرها ؛ ثم ذهب ليقضى أيامه الأخيرة فى قصره الصغير فى كومى ، بعد أن مل الحرب والسلطان والمجد ، ولعله قد مل أيضاً صحبة الناس ، فأحاط نفسه بالمغنين والمغنيات والراقصين والراقصات ، والممثلين والممثلات ، وأخذ يكتب شروحه Commentarii ويتسلى بصيد الحيوان والسمك ، والانهماك فى الطعام والشراب ؛ وأطلق عليه الناس

من ذلك الوقت اسم « صلا السعيد » لأنه انتصر فى كل معركة ، واستمتع بكل لذة ، واستحوذ على كل سلطة ، وعاش عيشة لا يساوره فيها خوف ولا ندم ، وتزوج خمس نساء طلق منهن أربعاً واستكمل متعته بالمحاظى . ولما بلغ الثامنة والخمسين من عمره أصيب بخراج فى القولون بلغ من شدته « أن اللحم النتن استحال قملا ، بلغ من الكثرة حداً كان لا بد معه من استخدام كثير من الرجال والنساء لقتله ، ولكن القمل أخذ يزداد ويتضاعف حتى لم تتلوث به ثيابه ، وحماماته . وآنيته فحسب ، بل تلوث به أيضاً طعامه نفسه »[٢٣] على حد قول أفلوطرخس » ومات صلا على أثر نزيف فى الأمعاء ، ولم يكد يقضى فى عزلته عاماً واحداً (٧٨ ق . م) ولم يفته أن يملى قبريته قبل وفاته : « لم يخدمنى قط صديق ، ولم يسئ إلى أبداً عدو ، إلا جزيت الأول على خدمته والثانى على إساءته الجزاء الأوفى » .

الباب السابع

الحركة الرجعية الألجركية

٧٧ – ٦٠ ق . م

الفصل الأول

الحكومة

على أن صلا قد أخطأ مرتين بإسرافه فى الكرم ، وكان خطؤه الأول أنه أبقى حياة رجل كان ابن عدو له وابن أخى عدو آخر . ذلك هو كيوس يوليوس قيصر المرح النابه الذى كان يوشك أن يبدأ العقد الثالث من عمره فى سنى الإرهاب . وكان صلا قد طلب إعدامه فيمن طلب إعدامهم ، ولكنه عفا عنه استجابة لشفاعة أصدقائه وأصدقاء الشاب . على أنه لم يكن مخطئا فى حكمه حين قال : « إن هذا الشاب هو ماريوس مكررا » . ولعله أخطأ كذلك إذ عجل باعتزال الحياة السياسية وأسرف فى الملاذ فقرب إسرافه أجله . ولو أنه أوتى من الصبر وبعد النظر بقدر ما أوتى من القسوة والشجاعة لأنجى روما من الفوضى التى ضربت أطنابها فيها خمسين عاما ، ولأمكنها أن تستمتع فى عام ٨٠ ق . م بالأمن والسلام والنظام والرخاء التى أعادها إليها أغسطس قيصر حين عاد إليها من أكتيوم ، ولكان ما عمله أغسطس خلقاً وإبداعاً لا إرجاعاً للقديم .

ولم تكد تمضى على وفاته عشر سنين حتى ذهبت كل أعماله . ذلك أن الأشراف قد غرهم ما أوتوا من نصر فى صراعهم المرير ، فأهملوا واجبات الحكم وسعوا لكسب المال من طريق التجارة لينفقوه فى ترفهم وشهواتهم . واستمر

النزاع بين الأشراف والعامة قوياً مريراً لا ينقصه إلا فرصة تتاح حتى يلجأ الطرفان فيه إلى أشد ضروب العنف . وكان الأشراف : « خيار الناس » optimates يستمسكون بنبلهم ، ولكن لم يكن معنى استمساكهم به أن يترفعوا بسبب هذا النبل عن ارتكاب الدنايا ، بل كان معناه فى نظرهم أن الحكم الصالح يطالب قصر المناصب العليا فى الدولة على الذين تولوها أسلافهم من قبل ، فإذا تقدم لمنصب منها رجل لم يكن آباؤه ممن تولاها قبله سخروا منه وسموه « رجلا حديثا » Novus homo أى « حديث النعمة » ، وكان من هؤلاء الحديثي النعمة ماريوس وشيشرون . أما العامة فكانوا يطلبون أن تتاح الفرصة لذوى المواهب والكفايات ، وأن تكون السلطة كلها فى يد الجمعيات ، وأن توزع الأراضى الحرة على الفقراء والجنود المسرحين . ولم يكن الأشراف ولا العامة ممن يؤمنون بالدمقراطية بل كانت كلتا الطبقتان تسعى لأن تكون هى الحاكمة بأمرها ، وتلجأ إلى ضروب الإرهاب والفساد والرشوة على ملأ الناس بلا خوف ولا وخز ضمير . واستحالت الجماعات التى كانت من قبل جمعيات خيرية لتبادل البر بين أعضائها وكالات لبيع أصوات العامة فى الانتخابات كُتَلاً كتلا . وارتقت عملية ابتياع الأصوات حتى تطلبت درجة كبرى من التخصص ، وطائفة من الإخصائيين ، فكان منهم المشترون divisores الذين يبتاعون الأصوات ، والوسطاء interpretes والحراس sequestres الذين يحتفظون بالمال حتى تعطى الأصوات[٢] . وفى أقوال شيشرون وصف للمرشحين وهم يسيرون بين الناخبين فى حقل المريخ وأكياس نقودهم فى أيديهم[٣] . واستطاع بمپى أن يحمل الناس على اختيار صديقه أفرانيوس Afranius قنصلا بدعوة زعماء القبائل إلى حدائقه ، وفيها أعطى كل زعيم أثمان أصوات قبيلته[٤] . وبلغ ما كان يستدان من المال لشراء أصوات الناخبين حدا رفع سعر فائدة الأموال التى تقترض فى أثناء الحملة الانتخابية إلى ثمانية فى الشهر الواحد[٥] .

وكانت المحاكم نفسها — بعد أن اختص بها أعضاء مجلس الشيوخ — لا تقل فساداً عن عمليات الانتخاب ، وفقدت الأيمان كل ما كان لها من قيمة فى الشهادة ، وفشت شهادة الزور كما فشت الرشوة . ولما أن اتُّهم ماركس مسالا Marcus Messala بأنه ابتاع بالمال الأصوات التى انتخب بها قنصلا فى عام ٥٣ برىء بالإجماع ، وإن كان أصدقاؤه أنفسهم شهدوا عليه واعترفوا بجريمته[٦] . وكتب شيشرون لابنه يصف هذه الحال بقوله : « لقد أصبح المال أساس كل المحاكمات ، ولذلك لن يحكم على إنسان إلا فى جرائم القتل »[٧] ، وكان خليقاً به أن يقول « إنسان ذى مال » ، « فبغير المال وبغير المحامى القدير » كما قال محام آخر فى ذلك الوقت « قد يتهم إنسان ساذج برىء بأية جريمة لم يرتكبها قط ، ثم يحكم عليه ما فى ذلك شك »[٨] . ولما برئ لنتولس صورا Lentulus Sura بأغلبية صوتين حزن أشد الحزن على ما أنفق من مال فى رشوة قاض أكثر من العدد الذى كان يجب عليه أن يرشوه[٩] . ولمـــا أدان المحلفون من أعضاء مجلس الشيوخ البريتور كونتس كليدس Quintus Calidus قال « إنهم لم يكن فى وسعهم مع احتفاظهم بشرفهم أن يطلبوا أقل من ثلثمائة ألف سسترس إذا أريد منهم أن يحكموا على بريتور »[١٠] .

وكان ولاة الأقاليم من أعضاء الشيوخ السابقين ، وجباة الضرائب ، والمرابون ، ووكلاء التجار ، يبتزون الأموال من الأقاليم تحت حماية هذه المحاكم ابتزازاً لو سمع به أسلافهم لغضبوا له غيرةً من هؤلاء وحسداً لهم . ولسنا ننكر أنه كان من بين حكام الأقاليم طائفة من الكفاة الأشراف ، أما كثرتهم العظمى فماذا عسى أن ينتظر منها ؟ لقد كانوا يعملون بلا أجور ، وكانت العادة المألوفة أن يظلوا فى مناصبهم عاماً واحداً ، وكان عليهم فى خلال هذه الفترة القصيرة أن يجمعوا من المال ما يكفى للوفاء بديونهم ، وابتياع منصب جديد ، وأن يضمنوا لأنفسهم فيما بعد عيشاً رغداً يليق بالرومانى العظيم . ولم يكن البلاد

من يحول بينهم وبين أطماعهم إلا مجلس الشيوخ ، وكان فى وسع الحكام أن يثقوا بأن الشيوخ وهم سادة مهذبون يمنعهم كرم محتدهم أن يكونوا سبباً فى لغط غير محبوب لأنهم كلهم قد فعلوا مثل ما فعله هؤلاء الحكام ، أو يرجون أن يفعلوا مثله بعد قليل . ولنضرب لذلك مثلا يوليوس قيصر نفسه ، فقد ذهب ليحكم أسبانيا فى عام ٦١ ق . م وعليه من الديون ما يعادل ٠٠٠ر٥٠٠ر٧ ريال أمريكى . فلما عاد فى عام ٦٠ ق . م وفى بهذا الدين كله دفعة واحدة . وكان شيشرون يظن أنه رجل شريف متزمت شرفه إلى حد يؤلمه أشد الألم ، لأنه لم يجمع فى السنة التى ولى فيها حكم قليقية أكثر من ٠٠٠ر١١٠ ريال أمريكى ، وكان يملأ رسائله بالدهشة من اعتداله .

وكان القواد الذين يفتحون الولايات أول من يستفيد منها . فقد كان لوكلس بعد حروبه فى الشرق مضرب المثل فى الترف ؛ وجاء بمبى من تلك البلاد نفسها بما قيمته أحد عشر مليون ريال أمريكى لنفسه ولأصدقائه ، وإذا قلنا إن قيصر جمع لنفسه من بلاد الغالة ملايين يخطئها الحصر فإن قولنا هذا لا يعدو الحقيقة إلى المجاز . ويلى هؤلاء الحكام فى ابتزاز المال الملتزمون وكانوا يجمعون من الأهلين ضعفى ما يرسلونه إلى رومة . فإذا عجزت مدينة أو ولاية عن أن تجمع من سكانها ما يكفى من المال لأداء ما يجب عليها أن تؤديه من الخراج أو الضرائب أقرضها الماليون أو الساسة الرومان ما تحتاجه من المال بفائدة تتراوح بين اثنى عشر وأربعين فى المائة ، على أن يتجشم منها رأس المال وفائدته ، إذ لزم الأمر ، الجيش الرومانى نفسه بحصارها أو فتحها أو نهبها . وقد حرم مجلس الشيوخ على أعضائه أن يشتركوا فى هذه القروض ، ولكن عظماء الأشراف أمثال بمبى ، والصالحين منهم أمثال بروتس ، لم يعدموا وسيلة للاحتيال على القانون باستخدام الوسطاء فى إقراض المال . وحسبنا دليلا على ما وصلت إليه هذه الحال أن أقاليم آسية

الرومانية قد أدت إلى الرومان فوائد على ما اقترضته منهم ضعفى ما أدته إلى الملتزمين وإلى الخزانة الرومانية[11] . وفى عام ٧٠ ق . م بلغ ما أدته وما لم تؤده مدن آسية الصغرى من فوائد على الأموال التى اقترضتها للوفاء بمطالب صلا فى عام ٨٤ ستة أضعاف هذه القروض ؛ ولم تجد العشائر والجماعات وسيلة لأداء أرباح هذا الدين الفادح إلا أن تبيع أبنيتها العامة وتماثيلها ، وأن يبيع الآباء أطفالهم فى أسواق الرقيق ، وذلك لأن المدين الذى يعجز عن أداء دينه كان يعذب على العذراء ؛ فإذا ما بقى فى الولاية شىء من موارد الثروة بعد هذا كله هرعت إليها من إيطاليا وسوريا وبلاد اليونان جماعات من المقاولين ، تعاقد معهم مجلس الشيوخ على « تنمية » ثروة الولاية المعدنية والخشبية وغيرهما ؛ وكانت التجارة تسير على الدوام فى ركاب العلم الرومانى ، فمن التجار من كانوا يشترون الأرقاء ، ومنهم من كانوا يشترون السلع أو يبيعونها ، ومنهم من كانوا يشترون الأرض وينشئون فى الأقاليم ضياعاً أوسع رقعة من ضياع إيطاليا . وفى ذلك يقول شيشرون فى عام ٦٩ ق . م مبالغاً فى قوله كعادته : « لا يستطيع رجل من الغاليين أن يقوم بعمل تجارى إلا عن طريق مواطن رومانى ، ولا ينتقل درهم واحد من يد إلى يد دون أن يمر بسجل أحد الرومان » .

وقصارى القول أن التاريخ القديم لم يشهد فى جميع أدواره حكومة تضارع حكومة ذلك العهد فى ثرائها وسطوتها وفسادها .

الفصل الثاني

أصحاب الملايين

ورضى رجال الأعمال بحكم مجلس الشيوخ لأنهم كانوا أكثر من الأشراف استعداداً لاستغلال موارد الولايات ، وبهذا تم « ائتلاف الطبقات » أو تعاون الطبقتين العاليتين وهو المثل الأعلى الذى كان ينادى به شيشرون والذى أصبح حقيقة واقعة فى شبابه ؛ فقد اتفقت الطبقتان على الاتحاد والغزو . وكان رجال الأعمال ووكلاؤهم المعتلون يملأون أروقة رومة وطرقاتها ، وتغص بهم أسواق الولايات وحواجزها . وكان رجال المصارف يصدرون خطابات الاعتماد إلى الهيئات المالية المرتبطة بهم[١٣] ، ويقرضون المال لكل غرض من الأغراض حتى لخوض غمار الحياة السياسية ؛ وكان التجار يتذبذبون بين العامة والأشراف فيعينون بنفوذهم الأولين إذا زادت أنانية الشيوخ ، ثم يعودون إلى الشيوخ إذا حاول الزعماء الدمقراطيون أن يبروا بوعودهم التى قطعوها للطبقات الفقيرة قبل الانتخاب .

ويعد كراسس Crassus ، وأتكس Attcus ولوكلس Lucullus نماذج صادقة لمظاهر الثراء الرومانى الثلاثة : الحصول عليه ، والمضاربة به ، ثم استخدامه للتنعم والترف . كان ماركس ليسينيوس كراسس Marcus Licinius Crassus ينحدر من أسرة شريفة ؛ فقد كان أبوه خطيباً مصقعاً ذائع الصيت ، وقنصلا ، ورقيباً ، حارب إلى جانب صلا ثم فضل الانتحار على التسليم لماريوس ؛ وكافأ صلا ابنه بأن سمح له بشراء أملاك المحكوم عليهم المصادرة بطريق المساومة ؛ وكان ماركس فى شبابه قد درس الأدب والفلسفة ، واشتغل بجد فى الأعمال القضائية ، ولكن رائحة المال أسكرته فى تلك الأيام الأخيرة ، فأنشأ فرقة لإطفاء الحريق — وكان ذلك عملا جديداً لم تألفه رومة من قبل ؛

وكانت إذا شبت النار سارعت إلى مكانها ، وعرضت أن تستأجر لإطفائها ، أو ابتاعت المبانى المعرضة لخطر الحريق بأثمان اسمية . ثم أطفأت الحريق . وحصل كراسس بهذه الطريقة على مئات من البيوت والمساكن كان يؤجرها بأجور مرتفعة . واشترى كذلك عدداً من مناجم الدولة حين أخرجها صلا عن نطاق الأملاك العامة . وما لبثت ثروته أن ارتفعت بهذه الطريقة من سبعة ملايين سسترس إلى مائة وسبعين مليوناً (أى نحو ٢٥٫٥٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) — أو ما يقرب من جميع دخل الخزانة العامة فى عام كامل . ويقول كراسس إنه لا يحق لإنسان ما أن يعد نفسه غنياً إذا لم يكن فى مقدوره أن يجند لنفسه جيشاً ، ويعد له كل ما يلزمه من سلاح وعتاد ويحتفظ به[14] . وقد شاءت الأقدار أن يكون هلاكه بسبب ثرائه الذى يحدده هذا التحديد . ذلك أنه بعد أن أصبح أغنى رجل فى رومة ظل حليف الشقاء ، شديد الرغبة فى أن يشغل منصباً عاماً ، وأن يكون والياً على أحد الأقاليم وقائداً لحملة أسيوية . ومن أجل ذلك كان يطوف الشوارع يستجدى الناس أصواتهم فى ذلة وخضوع ، ويحتفظ بالأسماء الأولى لعدد لا حصر له من المواطنين ، ويتظاهر بشظف العيش ، ويعمل على ضم ذوى النفوذ من رجال السياسة إليه بإقراضهم المال من غير فائدة على شرط أن يؤدوه له متى طالبهم بأدائه . على أنه رغم حرصه وطمعه كان طيب القلب ، لا يصد عن بابه من يريد لقاءه ، يكرم أصدقاءه إلى أقصى حدود الكرم ، يسدى للنصيحة لكلا الحزبين السياسيين بالحكمة التى امتاز بها أمثاله من الرجال على مدى الأيام ، وقد حقق فى حياته كل آماله ، فاختير قنصلا فى عام ٧٠ ق . م ، واختير إلى هذا المنصب مرة أخرى فى عام ٥٥ ، وحكم سوريا ، وأعان على تجييش الجيش العظيم الذى قاده لفتح پارثيا parthia . وهُزم فى كارهى Carrhae وأسر غدراً وخيانة ، ثم قتل قتلة وحشية فى عام ٥٣ ، فقطع رأسه ، وصب أعداؤه الذهب المصهور فى فمه .

وكان تيتس پمپونيوس أتكس Titus Pomponius Atticus أصدق

أرستقراطية من كراسس ، ومن طراز من أصحاب الملايين أسمى من طرازه : فقد كان يضارع فى الشرف والأمانة ماير أنشل سليل آل رتشيلد Meyer Anschel of the rot Schild ولا يقل علماً عن لورنزو ده مديتشى Lerenzo de Medici وكان حاذقاً فى الشئون المالية حذق ڤلتير Voltaire . ونحن نسمع به فى بادئ الأمر وهو يطلب العلم فى أثينة حين سحر بحديثه وبقراءته للشعر اليونانى واللاتينى لب صلا ، فألح عليه هذا القائد السفاح أن يعود معه إلى رومة ليكون فيها رفيقاً له ، فأبى تيتس أن يستجيب لإلحاحه . وكان عالماً ومؤرخاً ، كتب تاريخاً موجزاً للعالم[١٥] . وعاش معظم حياته فى الأوساط الفلسفية فى أثينة ، وسمى أتكس لعلمه الغزير ببلاد أتكا وحبه العظيم لأهلها . وورث الرجل عن أبيه وعمه أموالا تبلغ قيمتها نحو ٩٦٠,٠٠٠ ريال أمريكى استثمرها فى مزرعة عظيمة لتربية الماشية فى إبيروس Epirus وفى شراء الدور فى رومة وتأجيرها ، وفى تدريب المصارعين وأمناء السر وتأجيرهم ، وفى نشر الكتب : وكان إذا تهيأت أسباب المشروعات النافعة أقرض المال بفوائد مجزية ، ولكنه كان يقرض أثينة وأصدقاءه قرضاً حسناً من غير فائدة[١٦] . وكان شيشرون وهورتنسيوس Hortensius وكاتو الأصغر يودعون عنده ما ادخروه من المال ، ويعهدون إليه تدبير شئونهم ، ويجلونه لبعد نظره واستقامته وعظم ما يؤديه إليهم من الأرباح .

وكان يسر شيشرون أن يستشيره فيما يبتاعه من البيوت ، وفيما يختاره لتزيينها من التماثيل وفيما يملأ به مكتباته من الكتب . وكان أتكس يولم الولائم فى قصد واعتدال ، ويعيش فى تواضع الأبيقورى الحق ، ولكن بشاشته لأصدقائه وحديثه المطرب المثقف جعلا بيته ملتقى العظماء من رجال السياسة . وكان يعاون الأحزاب جميعها ، وقد نجا من اضطهادها جميعاً . ولما بلغ السابعة والسبعين من عمره . وأصيب بداء عضال آلمه ويئس من شفائه منه أمات نفسه جوعاً .

وأبخر لوسيوس لوسيليوس لوكلس Lucius Lucinius Lucullus وهو

رجل من أسرة من كبريات الأسر الشريفة ، عام ٧٤ ليتم ما بدأه صلا من حرب مثرداتس : وظل ثماني سنين يقود جنوده القلائل في شجاعة ومهارة حتى أوشكت حملته أن تظفر بالنصر المؤزر على عـــدوه ؛ ثم تمرد جنوده المتعبون ، فقادهم هو وهم مرتدون من أرمينية إلى أيونيه وسط مخاطر لا تقل عن المخاطر التي خلدت اسم زينوفون Zenophon . ولما أفلحت الدسائس في إبعاده عن قيادة الجيش ، عاد إلى رومة حيث قضى بقية حياته في هدوء وترف ونعيم . وشاد على تل پنسيوس Pincius قصراً واسع الأبهاء ، وبوائك ، ودور كتب ، وحدائق . وكان له في تسكولم Tusculum ضيعة تمتد عدة أميال ، وابتاع له في ميسينيوم قصراً صغيراً ذا حديقة بعشرة ملايين سسترس (أي نحو مليون ونصف مليون ريال أمريكي) ، وحول جزيرة نسيدا Nesida بأكملها إلى مصيف له لا يشاركه فيه سواه . وذاعت شهرة حدائقه بما حوت من غروس لم يكن لها نظير من قبل في رومة . من ذلك أنه هو الذي أدخل شجرة الكرز إلى إيطاليا من بلاد پنتس ، ومن إيطاليا نقلت هذه الشجرة إلى شمالي أوربا وإلى أمريكا . وكانت موائده من الحادثات الهامة التي يتناقل الناس أخبارها في رومة طوال العام . ولقد حاول شيشرون في يوم من الأيام أن يعرف كيف يتعاطى لوكلس طعامه إذا كان بمفرده ، فطلب إليه أن يدعوه هو وجماعة من أصدقائه ليتعشى معه ذات ليلة ، ولكنه استحلف لوكلس ألا يخبر بذلك أحداً من خدمه . ووافق لوكلس على هـــذا ولم يشترط إلا أن يسمح له بأن يخبر رجاله بأنه سيتعشى في « قاعة أپلون تلك الليلة » .

ولما أقبل شيشرون ومن معه وجدوا مائدة فخمة . ذلك أنه كان للوكلس عدة حجرات للطعام في قصره بالمدينة يختار كل واحدة منها حسب فخامة الوليمة . وكانت قاعة أپلون مخصصة بالواجبات التي تكلف الواحدة

منها مائتى ألف سسترس أو أكثر(١٧) . ولكن لوكلس لم يكن بالرجل النهم ، وكانت بيوته بمثابة معارض لروائع الفن المختارة أحسن اختيار ، وكانت مكتباته مورداً عذباً للعلماء والأصدقاء ، وكان هو نفسه ضليعاً فى الآداب القديمة وفى الفلسفة على اختلاف أنواعها ؛ وكان يفضل منها بطبيعة الحال فلسفة أبيقور ؛ وكان يسخر من حياة بمبى الشاقة المجهدة ، ويرى أن حسب المرء طول حياته حملة حربية واحدة ، وأن كل ما زاد على ذلك غرور لا خير فيه .

وحذا حذوه كثيرون من أثرياء رومة وإن لم يكن لهم ذوقه ، وسرعان ما أخذ الأشراف والأثرياء يتنافسون فى مظاهر الترف والنعيم ، على حين كان وميض نار الثورة يلوح فى الولايات المفلسة ، والناس يموتون جوعاً فى أكواخهم القذرة الحقيرة . وكان الشيوخ لا يستيقظون من نومهم إلا وقت الظهيرة ، وقلما كانوا يحضرون جلسات المجلس . وكان بعض أبنائهم يتزيون بأزياء العاهرات ، ويختالون فى الطرقات كاختيالهن ، على أجسامهم ثياب مطرزة مزركشة ، وفى أرجلهم صنادل كصنادل النساء ، متعطرين متحلين بالجواهر ، لا يقبلون على الزواج ، وإذا تزوجوا عملوا على ألا يكون لهم أبناء ، وينافسون شبان اليونان فى التخنث ؛ وكان الشيخ الواحد فى رومة ينفق على بيته ما لا يقل عن عشرة ملايين سسترس . وقد بنى كلوديوس زعيم العامة قصراً كلفه ١٤٫٨٠٠٫٠٠٠ . وكان المحامون أمثال شيشرون وهورتنسيوس **Hortensius** يتنافسون فى تشييد القصور تنافسهم فى الخطابة رغم قانون سنسيوس الذى يحرم الأجور القضائية ؛ وكانت حدائق هورتنسيوس تحوى أكبر مجموعة من الحيوانات فى إيطاليا كلها . وكان لكل رجل ذى مقام منزل ذو حديقة فى بايا **Baiae** أو بالقرب منها ، حيث كان الأشراف يتمتعون بحمامات البحر وجمال خليج نابلى ،

ويطلقون لشهواتهم الجنسية العنان ، وقامت قصور أخرى من نوعها على التلال المجاورة لرومة . وكان لكل ثرى عدد من هذه القصور ، فكان يتنقل من قصر إلى قصر فى فصول السنة المختلفة . وكانت الأموال تنفق جزافاً فى تزيينها من الداخل ، وفى تأثيثها وشراء ما يلزمها وما لا يلزمها من الصحاف الفضية وحسبنا أن نذكر أن شيشرون أنفق خمسمائة ألف سسترس على نضد من خشب الليمون . ولم يكن غريباً أن ينفق أمثاله مليون سسترس على نضد آخر من خشب السرو ، ولقد قيل إن كاتو الأصغر ، وهو الذى كان مضرب المثل فى الفضائل الرواقية بأجمعها ، قد ابتاع من مدينة بابل أغطية خوان بثمانمائة ألف سسترس[١٨] .

وكان يقوم بالخدمة فى هذه القصور جيوش من الأرقاء إخصائيون فى أعمالهم المختلفة — منهم خدم حجرة السيد نفسه ، ومنهم حاملو رسائله ، وموقدو مصابيحه ، وموسيقيوه ، وأمناء سره ، وأطباؤه ، وفلاسفته ، وطهاته . وأصبح الأكل وقتئذ أهم أعمال الطبقات العليا فى رومة . وكان القانون الأخلاقى عندهم هو قانون مترودورس القائل بأن : « الشىء الطيب هو ما له صلة بالبطن » . وحسبنا دلالة على فهم أهل ذلك العصر وتفننهم فى ملء بطونهم أن نذكر أن وليمة أقامها كاهن كبير فى عام ٦٣ ق . م وحضرها خليط من الجلسين منهم قيصر وعذارى فستا ، كانت المشهيات فيها بلح البحر ، وطيور الدج بالخنجل (الاسفراغ) والطيور السمينة ، وفطائر البطلينوس(**) ، وحشيشة القريض البحرية ، وشرائح البطارخ والسمك الصدفى الأحمر ، والطيور المغردة . ثم يجىء بعد هذا كله الطعام نفسه ويتكون من أثداء الخنازير ، ورؤوسها ، والسمك ، والبط المنزلى والبرى ، والأرانب ، والدجاج ، والفطائر والحلوى[١٩] . وكانت الأطعمة الشهية النادرة تستورد من جميع أجزاء الإمبراطورية ومن البلاد الخارجية ، فالطواويس تستورد

(*) فيلسوف أبيقورى يونانى (؟ — ٢٧٧ ق . م) .
(**) حيوان بحرى . (المترجم)

من جزيرة ساموس Samos ، والقطا من فريجيا ؛ والكركى من أيونيا ، والتن (التونة) من خلقدونية Chalcedon والشبق(*) من جاديز Gades ، والبطلينوس من تارنتم Tarentum والدخس(**) من رودس . وكانت الأطعمة التي تنتجها إيطاليا نفسها تعد حقيرة بعض الشيء لا تليق إلا بالسوقة ؛ وقد أولم الممثل أيزوپس Aesopus وليمة أكل فيها من الطيور المغردة ما ثمنه خمسة آلاف ريال أمريكي بنقود هذه الأيام[20] . وظلت القوانين تصدر بتحريم الإسراف في الطعام ، ولكن أحداً لم يكن يأبه بها . وحاول شيشرون أن يتقيد بهذه القوانين فلا يأكل إلا الخضر المباحة شرعاً ، وظل عشرة أيام يشكو زحار البطن » .

وأنفقت بعض الثروة الجديدة في إقامة الملاهي الرحبة والألعاب على أوسع نطاق ؛ من ذلك أن إعليوس اسكورس Aemilius Scaurus شاد ملهى يحتوى ثمانية آلاف مقعد ، وثلثمائة وستين عموداً ، وثلاثة آلاف تمثال ، ومسرحاً ذا ثلاث طبقات وثلاثة صفوف من الأعمدة منها صف من الخشب ، وصف من الرخام ، وثالث من الزجاج . وتمرد عبيده لشدة ما أرهقهم من العمل فحرقوا الملهى بعد الفراغ من بنائه ، وحاوه دينا يبلغ مائة مليون سسترس[23]. وقدم بمبي في عام ٥٥ ما يلزم من المال لإقامة أول ملهى حجري دائم في رومة — وكان يحتوى على ١٧٫٥٠٠ مقعد ، وعلى بستان فسيح ذى أروقة يتنزه فيها النظارة بين الفصول . وأقام اسكريبونيوس كوريو Scribonius Curio أحد قواد قيصر عام ٥٣ ملهيين من الخشب كلاهما على شكل نصف دائرة يتصلان بظهريهما . وكان الملهيان يعرضان مسرحيات في الصباح ، فإذا انتهى التمثيل دار البناءان ، والنظارة لا يزالون في مقاعدهم ، على قطبيهما وعجلهما فاستحال نصفا الدائرتين مدرجاً ،

(*) نوع من السمك ويسمى أيضاً مرينة و « أبو مرينا » .

(**) نوع آخر من السمك Sturgeon (المترجم)

وأضحى المسرحان حلبة للمصارعة(٢٤) . ولم تبلغ الألعاب فى بلد من البلاد أو فى عصر من العصور من الكثرة وعظم النفقة وطول الزمن مثل ما بلغته وقتئذ فى رومة(٢٥) : وحسبنا دليلا على ذلك أن ألعاباً أقامها قيصر اشترك فيها يوم واحد عشرة آلاف مجالد ، وقتل فيها الكثيرون منهم . وعرض صلا قتالا للآساد اشترك فيه مائة أسد ، وعرض قيصر قتالا آخر كان فيه أربعمائة ، وعرض بمبي قتالا كان فيـــه ستمائة . وكانت الوحوش فى هذه الألعاب تقاتل الرجال والرجال يقاتل بعضهم بعضاً ، والنظارة الذين تغص بهم الساحات يشاهدون مناظر الموت وهم مغتبطون .

الفصل الثالث

المرأة الجديدة

كان ازدياد الثراء وفساد الأخلاق من أكبر العوامل فى الانحلال الخلقى وانفصام رابطة الزواج . وظلت الدعارة منتشرة فى البلاد رغم ازدياد التنافس من النساء ومن الرجال . وازداد عدد المواخير والحانات التى تأوى هؤلاء العاهرات زيادة جعلت بعض الساسة يلجئون فى الحصول على أصوات الناخبين إلى اتحاد أصحاب المواخير (٣٥) . وأصبح الزنى من الأمور العادية ، وألفه الناس حتى لم يعد يستلفت أنظار إنسان ما إلا إذا استخدم للأغراض السياسية . ولم يكن ثمة امرأة موسرة إلا طلقت مرة على الأقل ؛ ولم يكن اللوم فى ذلك واقعاً على النساء ، فقد كان أكبر أسباب انتشار الطلاق أن الزواج عند الطبقات العليا أصبح خاضعاً للمال وللسياسة . ذلك أن الرجال كانوا يختارون أزواجهم أو كانت الأزواج يخترن للشبان ليحصلوا منهن على أكبر البائنات أو على صلات يفيدون منها جاها ومالا ؛ وقد تزوج صلاح وبمبى خمس مرات ؛ وأراد صلا أن يضم بمبى إلى جانبه فأقنعه بالتخلص من زوجته الأولى والاقتران بإميليا ربيبة صلا ، وكانت وقتئذ متزوجة وحاملا . ووافقت إميليا على هذا الزواج مكرهة ولكنها ماتت فى أثناء الوضع عقب انتقالها إلى بيت بمبى . وزوج قيصر ابنته يوليا Julia إلى بمبى ليضمن بذلك انضمامه إليه فى الحلف الثلاثى . وأغضبت كاتو هذه الحال فوصفها بقوله « إن الإمبراطورية أصبحت توكيلا لإدارة شئون الزواج »(٢٥) . ولم تكن هذه الزيجات إلا زيجات سياسية ، إذا تم النفع المرجو منها تطلع الزوج إلى زوجة أخرى يرقى على كتفيها إلى منصب أعلى أو مال أوفر . ولم يكن ثمة حاجة إلى سبب يبديه ، وحسبه أن يرسل إليها خطابا يبلغها فيه أنها أصبحت حرة فى شئونها كما أصبح

هو حراً فى شئونه . وامتنع بعض الرجال عن الزواج امتناعاً تاماً ، وكانت حجتهم فى هذا أن المرأة الجديدة قد ذهب حياؤها وأسرفت فى حريتها ، واكتفى كثيرون منهم باتخاذ السرارى والإماء . وكان الرقيب متلس المقدونى Metellus Macedonicus (١٣١) يرجو الرجال أن يتزوجوا وينجبوا الأبناء لأن هذا واجب تفرضه عليهم الدولة مهما ضاقت نفوسهم بالزوجات(٢٦) ، ولكن عدد الأعذاب والزيجات العقيمة أخذ بعد هذا النصح يزداد أسرع من ازدياد قبله ، وأصبح الأطفال من الكماليات التى لا يطيقها إلا الفقراء .

وهل تلام المرأة وهى تعيش فى هذه الظروف إذا استخفّت بقسم الزواج ووجدت فى الصلات الجنسية غير المشروعة الحب والعطف اللذين لم ينلها إياهما الزواج السياسى . لقد كانت هناك بطبيعة الحال كثرة من النساء الصالحات حتى بين الأغنياء أنفسهم ، ولكن الحرية الجديدة أخذت تحطم ما كان للأب من سيطرة تامة على أسرته Patria Potestas كما أخذت تحطم كيان الأسرة بأكمله . وخلعت النساء الرومانيات العذار ، وكان لهن من الحرية مثل ما للرجال سواء بسواء ، واتخذن لهن أثواباً من الحرير المهلهل الشفاف المستورد من الهند والصين ، وأرسلن رسلهن يجوبون أسواق آسية ليأتوهن بالحلى والعطور ، واختفى الزواج الذى يتبعه انتقال الزوجة إلى دار زوجها Marriahe cum manu ، وكانت النساء يطلقن أزواجهن كما يطلق الرجال زوجاتهم . وأخذت طائفة متزايدة من النساء تنفس عن نفسها بالأعمال الثقافية . وأخذت طائفة متزايدة من النساء تنفس عن نفسها بالأعمال الثقافية ، فتعلمن اللغة اليونانية ، ودرسن الفلسفة ، وكتبن الشعر ، وألقين المحاضرات العامة ، ولعبن وغنين ورقصن ، وأقمن الندوات الأدبية واشتغل بعضهن بالتجارة والشئون المالية ، ومارست فئة قليلة منهن صناعة الطب أو المحاماة .

وكانت كلوديا Clodia زوج كونتس كاسليوس متلس Quintus Caecilius Metellus أشهر النساء اللاتى أكملن ما فى أزواجهن من نقص بالقيام بطائفة

من أعمال الفروسية والشهامة ، فقد تملكتها نزعة قوية للدفاع عن حقوق النساء ، وهزت مشاعر الجيل القديم بسيرها بعد زواجها مع أصدقائها الرجال دون أن يكون معها مَحْرَم ، وكانت تستقبل من تعرف من أصدقائها وتقبلهم أحياناً على ملأ من الناس ، بدل أن تغض الطرف وتنزوى فى عربتها شأن النساء الراقيات فى عرف تلك الأيام ، وكانت تولم الولائم لأصدقائها من الرجال ، وكان زوجها يتعمد الغياب فى أثنائها كما كان يفعل بعدئذ ماركيز ده شاتليه Marquis ds châtelet ؛ ويصف شيشرون — وهو الرجل الذى لا يوثق بوصفه — « حبها ، وزناها ، وعهرها ، وأغانيها ، وما كانت تقيمه من حفلات موسيقية وولائم الطعام ، ومقاصف الشراب فى بايا Baiae براً وبحراً »[٣٧] . وكانت فى الحق امرأة ماهرة إذا زلت فى ظرف وكياسة ، يعجز الإنسان عن ألا يزل معها ، ولكنها أخطأت فى الاستخفاف بأنانية الرجال . لقد كان كل واحد من عشاقها يحب أن يستأثر بها حتى تفتر شهوته ، كما كان كل واحد منهم يصبح عدوها الألد حين تتخذ لها صديقاً غيره . ومن أجل ذلك لطخها كتلس Cutullius (إذا كانت هى التى يسميها لزبيا Lesbia) بالنكات البذيئة ، وذكرها كاليوس Caelius فى حديث له عن الذى تُبتاع به أفقر العاهرات ، ووصفها علنا فى المحكمة بأنها المرأة التى تُبتاع بربع آس Quadrantaria (أى ما يعادل $\frac{١٥٠}{١٠٠}$ من الريال الأمريكى) ، ذلك بأنها كانت قد اتهمته بأنه حاول قتلها بالسم ، واستأجر هو شيشرون للدفاع عنه ، ولم يتورع الخطيب المدره عن اتهامها بالفسق مع محارمها وبالقتل ، وقال فى خلال دفاعه إنه رغم هذا « ليس عدوا للنساء وأولى له ألا يكون عدوا لامرأة هى صديقة لكل الرجال » . وبرئ كتلس مما اتهم به وجوزيت كلوديا بعض الجزاء لأنها أخت پبليوس كلوديوس أشد الزعماء تطرفا فى رومة وألد أعداء شيشرون .

الفصل الرابع

كاتو ثانٍ

وقام في وسط هذا الفساد والانحلال رجل كان بقية من رجال الأيام الخالية وداعية للسير على سننها. ذلك هو ماركس پورسيوس كاتو Marcus Porcius Cato الأصغر. وكان قد خرج على مبدأ من مبادئ جده الأعلى فدرس اللاتينية وأفاد منها تلك الفلسفة الرواقية التي بعثت فيه مع عقيدته الجمهورية إخلاصه القوى الذي لم يفارقه قط طول حياته. وورث كاتو من المال مائة وعشرين تالنتا (أي ما يعادل ٤٣٢٫٠٠٠ ريال أمريكي) ولكنه عاش عيشة بسيطة كلها جد ونشاط، وكان يقرض المال ولكنه لا يتقاضى عن قروضه فوائد. وكانت تعوزه فكاهة جده الأعلى الخشنة، وقد أزعج الناس بما كان يتصف به في ظنهم من الاستقامة الصارمة العنيدة والاستمساك بالمبادئ استمساكاً لا يتفق في رأيهم مع روح العصر الذي يعيش فيه. ذلك أن حياته نفسها كانت اتهاماً لحياتهم لا يغفرونه له، وكانوا يتمنون أن لو مال قليلا نحو الرذيلة، ولو لم يكن هذا إلا احتراماً لعادات بني الإنسان وتأدباً في حقهم. وما من شك في أنهم قد ابتهجوا حين فعل كاتو فعلة تكاد تنم عن سخريته بالمرأة واعتقاده أنها ليست إلا أداة للتناسل « فأعار » زوجته مارسيليا إلى صديقه هورتنسيوس Hortensius — أي طلقها وحضر زواجها بالخطيب الذائع الصيت — ولما مات هورتنسيوس بعدئذ أعادها إلى عصمته[٢٨]. ولم يكن في وسع معاصريه أن يحبوه لأنه كان ألد أعداء الخيانة والسفالة. وأشد المدافعين عن حقوق الآباء على أبنائهم وأسرهم. وكان نقده لأخلاق ذلك العصر أقسى وأشد صرامة من نقد الرقيب كاتو الأكبر نفسه. وقلما كان يضحك أو يبتسم، ولم يحاول

قط أن يكون لطيفاً بشوشاً ، وكان يؤنب كل من يجرؤ على تملقه أشــد التأنيب . وقد قال شيشرون إنه أخفق فى أن ينتخب قنصلا لأنه كان يحيا حياة مواطن فى جمهورية أفلاطون لا حياة رومانى بين حثالة أبناء رميولوس »(٢٩) ،

ولما عين كوسترا كان سوط عذاب يصب على العجز وعلى استغلال سلطان الوظيفة ، وحفظ أموال الخزانة العامة من جميع الغارات السياسية ، ولم تضعف يقظته وحرصه على هذه الخزانة بعد أن انقضت فترة توليه منصبه . وكان يصب تهمه على جميع الأحزاب على حد سواء ، وقد أفاد من هــذه التهم آلاف المعجبين ولكنها لم تترك له صديقاً واحداً . ولما كان بريتورا أقنع مجلس الشيوخ بأن يصدر قراراً بأن يأمر كل مرشح للقنصلية أن يحضر إلى ساحة القضاء ، وبعد أن يقسم اليمين يعرض على القضاة بياناً مفصلا بما أنفقه أثناء الحملة الانتخابية ، وما اتبعه فيها من الوسائل ، وأزعج هذا القرار كثيراً من السياسيين لأن الكثرة الغالبة منهم كانت تعتمد فى انتخابها على الرشا ، فلما أن ظهر كاتو بعدئذ فى السوق العامة أخذوا هم ومواليهم يسبونه ويرمونه بالحجارة ، فلم يكن منه إلا أن اعتلى المنصة وواجه المجتمعين وهو ثابت الجنان ، وما زال يخطب فيهم حتى خضعوا له . ولما اختير تربيونا سار على رأس جيش إلى مقدونية ، وامتطى خدمه وأتباعه الجياد ، أما هو فسار راجلا . وكان يهزأ برجال الأعمال ويدافع عن الأرستقراطية أو حكم أبناء الأسر الشريفة ، ويرى أنه إن لم يحكم البلاد هؤلاء الأشراف فلا مفر من أن يحكمها ذوو الثراء ، وهذا شر أيما شر . وشن حرباً شعواء لا هوادة فيها على الذين كانوا يفسدون السياسة الرومانية بالمال والأخلاق الرومانية بالترف ، وظل إلى آخر أيام حياته يقاوم كل خطوة يخطوها بمبى أو قيصر نحو الطغيان الفردى . ولما أن قضى قيصر على الجمهورية تخلص كاتو من حياته بيده وإلى جانبه كتاب من كتب الفلسفة .

الفصل الخامس

اسبارتكوس

ووصل سوء الحكم وقتئذ إلى غايته كما تأصلت الدمقراطية فيه بدرجة قلما نجد لها نظيراً فى تاريخ الدول . وحدث فى عام ٩٨ ق . م أن أعاد القائد الرومانى ديديوس Didius مافعله من قبله سلپسيوس جلبا Swpicius Galba فقد خدع قبيلة كاملة من الأسپان المشاغبين حتى استدرجهم إلى معسكر رومانى فى أسپانيا مدعياً أنه يريد أن يسجل أسماءهم ليوزع الأرض الزراعية عليهم ، فلما دخلوا المعسكر هم وأزواجهم وأبناؤهم أمر بهم فذبحوا عن آخرهم ، ولما عاد إلى رومة احتفل بعودته احتفال الظافرين[٣٠] : ولم يطق هذه الفظائع وأمثالها من ضروب الوحشية التى كان يقترفها رجال الإمبراطورية ضابط سبينى فى الجيش الرومانى يدعى كونتس سرتوريوس Quintus Sertorius فذهب الأسپان ، ونظم صفوفهم ودربهم على القتال وقادهم من نصر إلى نصر على الجيوش الرومانية التى سيرت لإخضاعهم ، وظل ثمانى سنين (٨٠ — ٧٢) يحكم مملكة ثائرة خارجة على حكم الرومان ؛ كسب فى خلالها قلوب الأسپان بحكمه العادل وبإنشاء المدارس لتعليم أبنائهم ؛ وعرض متلس القائد الرومانى مائة تالنت أى ما يقرب من ٣٦٠٫٠٠٠ ريال أمريكى ، وعشرين ألف فدان من الأرض مكافأة لأى رومانى يقتل سرتوريوس ، وكان لهذا العرض السخى أثره فدعاه پرپنا Perpenna ، وهو لاجئ رومانى فى معسكره ، إلى وليمة ، واغتاله ، وتولى قيادة الجيش الذى دربه سرتوريوس . وأرسل پمپى لقتال پرپنا ولم يلق صعوبة ما فى التغلب عليه . وأسر پرپنا وأعدم وعاد الرومان إلى استغلال أسپانيا من جديد .

وكان العمل الثانى من أعمال الثورة من فعل الأرقاء لا من فعل الأحرار ؛

ذلك أن لنتولس بتياتس Lentulus Batiates قد أنشأ فى كپوا مدرسة للمصارعين ، رجالها من الأرقاء أو المجرمين المحكوم عليهم ، ودربهم على صراع الحيوانات أو صراع بعضهم بعضاً ، فى حلبة للصراع العامة أو فى البيوت الخاصة . ولم يكن ينتهى الصراع حتى يقتل المصارع . وحاول مائتان من هؤلاء المصارعين أن يفروا ، ونجح منهم ثمانية وسبعون ، وتسلحوا واحتلوا أحد سفوح بركان ڤيزوف ، وأخذوا يغيرون على المدن المجاورة طلباً للطعام[٣٧] . واختاروا لهم قائداً من أهل تراقية يدعى اسپارتكوس Spartacns يقول فيه أفلوطرخس إنه « لم يكن رجلا شهماً شجاعاً وحسب ، بل كان إلى ذلك يفوق الوضع الذى كان فيه ذكاء فى العقل ودماثة الأخلاق »[٣١] . وأصدر هذا القائد نداء إلى الأرقاء فى إيطاليا يدعوهم إلى الثورة ، وسرعان ما التف حوله سبعون ألفاً ، ليس منهم إلا من هو متعطش للحرية وللانتقام . وعلمهم أن يصنعوا أسلحتهم ، وأن يقاتلوا فى نظام أمكنهم به أن يتغلبوا على كل قوة سيرت عليهم لإخضاعهم . وقذفت انتصاراته الرعب فى قلوب أثرياء الرومان ، وملأت قلوب الأرقاء أملا ، فهرعوا إليه يريدون الانضواء تحت لوائه ، وبلغوا من الكثرة حداً اضطر معه أن يرفض قبول متطوعين جدد بعد أن بلغ عدد رجاله مائة وعشرين ألفا لأنه لم يكن يسهل عليه أن يعنى بأمرهم . وصار بجيوشه صوب جبال الألب ، وغرضه من هذا « أن يعود كل رجل إلى بيته بعد أن يجتاز هذه الجبال »[٣٢] . ولكن أتباعه لم يكونوا متشبعين مثله بهذه العواطف الرقيقة السلمية ، فتمردوا على قائدهم ، وأخذوا ينهبون مدن إيطاليا الشمالية ، ويعيثون فيها فساداً . وأرسل مجلس الشيوخ قوات كبيرة بقيادة القنصلين لتأديب العصاة . والتقى أحد الجيشين بقوة منهم كانت قد انشقت على اسپارتكوس وأفنتها عن آخرها . وهوجم الجيش الثانى قوة العصاة الرئيسية فهزمته وبددت شمله . ثم سار اسپارتكوس بعدئذ صوب جبال الألب والتقى فى أثناء سيره بجيش ثالث يقوده كاسيوس فهزمه شر هزيمة ، ولكنه وجد جيوشاً

رومانية أخرى تقف فى وجهه وتسد عليه المسالك فولى وجهه شطر الجنوب وزحف على رومة .

وكان نصف الأرقاء فى إيطاليا متأهبين للثورة ، ولم يكن فى وسع أحد فى العاصمة نفسها أن يتنبأ متى تنشب هذه الثورة فى بيته ، وكانت تلك الطائفة الموسرة المترفة التى تتمتع بكل ما فى وسع الرق أن يمتعها به ، كانت تلك الطائفة كلها ترتعد فرائصها فرقاً حين تفكر فى أنها ستخسر كل شىء — السيادة والملك والحياة نفسها : ونادى الشيوخ وذوو الثراء يطالبون بقائد قدير ، ولكن أحـــداً لم يتقدم للاضطلاع بهذه القيادة ، فقد كان القواد كلهم يخافون هـــذا العدو الجديد العجيب ، ثم تقدم كراسس Crassus آخر الأمر وتولى القيادة ، وكان تحت إمرته أربعون ألفاً من الجنود ، وتطوع كثير من الأشراف فى جيشه لأنهم لم ينسوا كلهم تقاليد الطبقة التى ينتمون إليها ولم يكن يخفى على اسپارتكوس أنه يقاتل إمبراطورية بأكملها ، وأن رجاله لا يستطيعون أن يصرفوا شئون العاصمة بله الإمبراطورية نفسها إذا استولوا عليها : فلم يعرج فى زحفه على رومة وواصل السير حتى بلغ ثورياى Thurii مخترقاً إيطاليا كلها من شمالها إلى جنوبها ، لعله يستطيع نقل رجاله إلى صقلية أو إلى إفريقية : وظل سنة ثالثة يصد الهجمات التى يشنها عليه الرومان ، ولكن جنوده نفد صبرهم وسئموا القتال ، فخرجوا عليه وعصوا أوامره ، وأخذوا يعيثون فساداً فى المدن المجاورة : والتقى كراسس بجماعة من أولئك النهابين وفتك بهم ، وكانوا اثنى عشر ألفاً وثلثمائة ظلوا يقاتلون إلى آخر رجل فيهم . وفى هذه الأثناء كان جنود پمپى قد عادوا من أسپانيا فأرسلوا لتقوية جيوش كراسس ، وأيقن اسپارتكوس أن لا أمل له فى الانتصار على هذه الجيوش الجرارة ، فانقض على جيش كراسس وألقى بنفسه فى وسطه مرحباً بالموت

فى وسط المعمعة ، وقتل بيديه ضابطين من ضباط المئين ، ولما أصابته طعنة ألقته على الأرض وأعجزته عن النهوض ظل يقاتل وهو راكع على ركبتيه إلى أن مات وتمزق جســمه لم يكن من المستطاع أن يتعرف عليه . وهلك معه معظم أتباعه ، وفر بعضهم إلى الغابات ، وظل الرومان يطاردونهم فيها ، وصلب ستة آلاف من الأسرى فى الطريق الأبياوى الممتد من كپوا إلى رومة (٧١) . وتركت أجسامهم المتعفنة على هذه الحال عدة شهور تطمينا لجميع السادة وإرهاباً لجميع العبيد .

الفصل السادس

پمپي

ولما عاد كراسس وپمپي من هذه الحملة لم يسرحا جنودهما أو يجرداهم من سلاحهم عند أبواب رومة استجابة لرغبة مجلس الشيوخ وإطاعة للقانون ، بل عسكرا بهم خارج أسوار المدينة ، وطالبا أن يؤذن لهما بأن يرشحا نفسيهما للقنصلية دون أن يدخلا المدينة — وخالفا بذلك مرة أخرى كل السوابق المألوفة . وزاد پمپي على ذلك أن طلب أرضاً لجنوده وموكب نصر لنفسه . ولكن مجلس الشيوخ لم يجبه إلى طلبه ، وكان يرجو أن يفرق بين القائدين ويثير كلا منهما على الآخر . غير أن كراسس وپمپي اتفقا فيما بينهما ، وعقدا حلفاً فجائياً مع الطبقات الدنيا ومع رجال الأعمال ، ونجحا بفضل الرشا السخية فى أن يختارا قنصلين فى عام ٧٠ ق . م وقد ناصرهما رجال الأعمال لغرضين عاجلين أولهما رغبتهم فى أن يستعيدوا ما كان لهم من سلطان فى مناصب المحلفين الذين يحاكمونهم ، وثانيهما أن يستبدلوا بلوكلس Lucullus — الذى كان يحكم الشرق حكماً صالحاً لا نفع فيه لهم رجلا من طبقتهم يعمل بمبادئهم . وقد وجدوا فى پمپي ضالتهم المنشودة .

وكان پمپي وقتئذ فى الخامسة والثلاثين من عمره ولكنه كان جنديا ضرسته الحروب وخاض معارك كثيرة . وكان من أسرة غنية من طبقة الفرسان ، نال إعجاب مواطنيه لشجاعته واعتداله وحذقه كل ضروب الألعاب وفنون الحرب . وكان قد طهر صقلية وإفريقية من أعداء صلا ولقبه القنصل الفكه بلقب « العظيم » جزاء له على زهوه وانتصاره فى الحروب . وقد أحرز بعض النصر وهو شاب أمرد[٣٣] . وقد بلغ

من الجمال حدا أنطق فلورا Flora إحدى سرارى ذلك الوقت بقولها إنها لم تكن تستطيع أن تفارقه قط دون أن تعضه(٣٤) . وكان مرهف الشعور ، شديد الحياء ، يحمر وجهه من شدة الخجل إذا اضطر إلى خطابة فى اجتماع عام ، أما فى الحرب فقد كان فى تلك الأيام باسلا مقداماً يخوض غمارها ولا يبالى بما يتعرض له من الأخطار . ولما تقدمت به السن أثر حياؤه كما أثرت بدانته فى قدرته على القيادة ، وكان تردده سبباً فى هزائمه . ولم يكن ألمعياً سريع الخاطر أو عميق التفكير ؛ ولم يكن هو الذى يرسم الخطط التى يسير عليها ، بل يضعها غيره — كان يضعها له فى أول الأمر السياسيون من طبقته العامة ثم الأثرياء من الشيوخ . وكان ثراؤه الواسع سبباً فى انتشاله من المغريات السياسـية الدنيئة ؛ فكان وهو فى وهدة الفساد والأنانية التى يتردى فيها أهل زمانه علماً فى الوطنية والاستقامة ؛ ويلوح أنه كان فى أعماله يستهدف الصالح العام مع صالحه الخاص ؛ وكان أبرز عيوبه غروره وكبرياؤه ، ومنشأ ذلك أن انتصاراته الأولى قد جعلته يغالى فى تقدير مواهبه ، وكان مما يعجب له ولا يستطيع فهمه أن تتلكأ رومة هـذا التلكؤ الطويل فى أن تجعله يستمتع بكل ما يستمتع به الملوك إلا الاسم وحده .

ولما تسنم صنيعتا صلا منصب القنصلية أخذا يعملان ما فى وسعهما لتقويض أركان الدستور الذى وضعه ولى نعمتهما . وأراد بمبى وكراسس أن يوفيا بما عليهما من دين للعامة فأقرا مشروع قانون يهدف إلى إرجاع ما كان للتربيون من سلطات ، ووطدا دعائم حلفهما مع رجال الأعمال فأمرا لوكلس أن يخول الملتزمين الإشراف التام على جباية الضرائب فى بلاد الشرق ، وأيدا التشريع الذى يقضى بأن توزع مناصب المحلفين بالتساوى بين أعضاء الشيوخ وطبقتى الفرسان ورجال المال . ومضى على كراسس خمسة عشر عاماً قبل أن يلقى جزاءه — وهو أن يصب الذهب فى جوفه صبا فى بلاد آسية . أما بمبى فقد نال جزاءه فى عام ٦٧ حين خولته الجمعية سلطة تكاد أن تكون مطلقة من كل قيد فى

تأديب قراصنة قليقية . ذلك أن جزيرة رودس قد استطاعت فى الأيام السالفة أن تطهر بحر إيجة من هؤلاء القراصنة ؛ فلما أن ذلت رودس وافتقرت على يد رومة وديلوس لم يكن فى مقدورها أن تحتفظ بالعمارة البحرية التى تمكنها من هذا العمل، ولم يكن الأشراف ملاك الأراضى المسيطرون على مجلس الشيوخ شديدى الحرص على أن تبقى مسالك التجارة البحرية آمنة من الأخطار. أما التجار والعامة فقد تأثروا بهذه الحال أشد التأثر ، فقد تعذرت التجارة أو كادت فى بحر إيجة بل وفى القسم الأوسط من البحر الأبيض المتوسط ، ونقص المستورد من الحبوب نقصاً سريعاً ارتفع بسببه ثمن القمح فى رومة حتى بلغ عشرين سسترس لكل موديس(*) أو نحو ثلاثة ريالات أمريكية لكل جالونين . وتباهى القراصنة بنصرهم فرفعوا على سفنهم التى تبلغ عدتها ألف سفينة الساريات المذهبة والأشرعة الأرجوانية ، وجهزوها بالمجاذيف المصفحة بصفائح الفضة ، وقد استولوا على أربعمائة من المدن الساحلية ، واحتفظوا بها ، ونهبوا الهياكل فى سمثريس Samothrace . وساموس Samos ، وإپدورس Epidaurus ، وأرجوس Argos ولوكاس Leucas وأكتيوم Actium ، وعمدوا إلى اختطاف الموظفين الرومان ، وبلغت بهم الجرأة أن هاجموا سواحل أپوليا Apaulia وإتروريا .

وأراد جابينيوس Gabinias صديق پمپى أن يعالج هذا الموقف ، فتقدم بمشروع قانون يجعل له السيطرة التامة مدى ثلاث سنوات على جميع الأساطيل الرومانية وعلى جميع الأشخاص المقيمين على مدى خمسين ميلا من شاطئ البحر الأبيض المتوسط . وعارض كل الشيوخ ، ما عدا قيصر ، هذا الإجراء العجيب ، ولكن الجمعية أجازته فى حماسة بالغة ووافقت على أن تمد پمپى بجيش مؤلف من ١٢٥٫٠٠٠ مقاتل وأسطول مؤلف من ٥٠٠ سفينة ، وأبلغت خزانة

(*) مكيال رومانى سعته نحو جالونين . (المترجم)

الدولة أن تضع تحت تصرفه ٠٠٠ر٠٠٠ر١٤٤ سسترس . وكان هذا المشروع في واقع الأمر سلباً للسلطة من مجلس الشيوخ ، وختاماً لعودة « صلا » إلى الحكم ، وإقامة لملكية مطلقة موقتة كانت فاتحة لملكية قيصر ومثلا له يحتذيه .

وكانت نتيجة هذا العمل مؤيدة لهذه السابقة الخطيرة ، فلم يمض على تنصيب پمپي إلا يوم واحد حتى أخذ ثمن القمح في الانخفاض ، وقبل أن يمضي عليه في هذا المنصب ثلاثة شهور أتم العمل الذي نيط به — فاستولى على سفن القراصنة ومعاقلهم وأعدم زعماءهم وإن لم يسيء استعمال السلطة غير العادية التي وضعت بين يديه . وتشجع التجار فانشطت التجارة الخارجية ، ومخرت السفن عباب البحار ، وتدفق على رومة سيل من الحبوب .

وقبل أن يعود پمپي من قليقية عرض صديقه منليوس **Manilius** على الجمعية مشروع قانون بنقل قيادة الجيوش وحكم الولايات التي كان يقودها ويحكمها لوكلس[٦٦] إلى پمپي ، وإطالة الفترة التي حددها قانون جابينيوس لسلطاته المتعددة . وعارض مجلس الشيوخ في هذا المشروع ، ولكن التجار والمرابين أيدوا الاقتراح تأييداً قوياً ، ذلك أنهم كانوا يؤملون أن يكون پمپي أقل ليناً من لوكلس لمدينيهم في آسية ، وأن يعيد إلى الملتزمين حق جباية الضرائب ، وأنه لن يكتفي بفتح بثينيا وپنتس بل سيفتح كذلك كبدوكيا وسوريا وبلاد اليهود ، وأن هذه الحقول الغنية ستُفتح أبوابها إلى التجارة والأموال الرومانية تحت حماية الجيوش الرومانية . وقام « رجل جديد » هو ماركس تليوس شيشرون **Marcus Tullius Cicero** كان قد اختير بريتورا في ذلك العام بمعونة رجال الأعمال فأيد « قانون منليوس » وهاجم العصبة المالية الحاكمة في مجلس الشيوخ بفصاحة وتهور لم يسمع بمثلهما في رومة من أيام ابني جراكس ، وبصراحة لم تعهد قط في السياسيين » . ومن أقواله في هذا الهجوم :

« إن جميع النظم الخاصة بالمال والائتمان التي تسير عليها رومة ترتبط بخراج

الولايات الأسيوية ارتباطاً لا انفصام له ، فإذا ما حجز هذا الخراج انهارت جميع نظم المال والائتمان فى هذه البلاد . . . وإذا ما خسر بعض الناس أموالهم كلها جرّوا معهم كثيرين غيرهم . فأنقذوا الدولة من هذه الكارثة . . . وابذلوا فى الحرب على مثرداتس كل ما استطعتم من جهود حتى تحتفظوا بشرف رومة وسلامة أحلافنا ، وبأثمن جزء من مواردنا ، وبثروة عدد لا يحصى من المواطنين » .

وأجازت الجمعية من فورها مشروع القانون ، ولم يكن ذلك لأن العامة يعنون أقل عناية بأموال الماليين ، بل لأنهم كان يسرهم أن يجدوا فى تخويل قائد من القواد سلطات واسعة غير محدودة وسيلة لإلغاء تشريعات « صلا » والقضاء على سلطان مجلس الشيوخ عدوّهم القديم .

ومن ذلك اليوم أخذ أجل الجمهورية ينصرم ، وأخذت حياتها تقترب من نهايتها . ذلك أن الثورة الرومانية مستعينة بفصاحة عدوها الألد ، كانت قد خطت خطوة أخرى نحو طغيان قيصر .

الفصل السابع

شيشرون وكاتلين

يقول أفلوطرخس إن ماركس تليوس إنما سمى شيشرون لأن أحد أجداده كانت له على أنفه ثؤلولة تشبه الحمصة الجبلية (cicer) . ولكن أرجح من هذا التعليل أن آباءه قد اكتسبوا هذا اللقب لما كانوا ينتجونه من حمص ذائع الصيت . ويصف شيشرون فى كتاب « القوانين » وصفاً رقيقاً يخلب الب بيته الصغير المتواضع الذى شهد مولده بالقرب من أربينوم Arpinum فى منتصف المسافة بين رومة ونابلى على التلال المتصلة بجبال أبنين Appenine . وكان لوالده من الثروة ما يكفيه لأن يعلم ولده خير تعليم يستطيع أن يناله فى ذلك الوقت ، فاستأجر الشاعر اليونانى أركياس Archias ليعلم ماركس الأدب واللغة اليونانية ، ثم أرسله ليدرس القانون مع كونتس موسيوس أسكيفولا Quinuts Mucius Scaevola أعظم رجال القانون فى عصره .

وكان شيشرون يستمع فى شوق وانتباه إلى المحاكمات والمناقشات التى تدور فى السوق العامة ، وسرعان ما أتقن الفنون والأساليب المتبعة فى الخطب القانونية . وقد قال فى إحدى المناسبات : « من أراد النجاح فى القانون فعليه أن يتخلى عن جميع مسراته ، ويتجنب كل ضروب اللهو . ويودع التسلية والألعاب والطرب ، وأكاد أقول إن عليه أن يقطع صلاته أصدقائه[٣٦] » .

وسرعان ما كان هو نفسه يشتغل بالقانون ويلقى خطباً رنانة حوت من البلاغة والشجاعة ما أكسبه شكر الطبقات الوسطى والدنيا . وقد قاضى أحد صنائع صلا وشهر بما كان يرتكبه من الاضطهاد حين كان حكم الإرهاب

الذى أقامه صلا على أشده (٨٠ ق . م)(٣٧) . ثم سافر بعد قليل من ذلك الوقت إلى بلاد اليونان ، ولعله سافر إليها فراراً من غضب ذلك الطاغية ، وظل فى تلك البلاد يدرس الفلسفة وفن الخطابة . وبعد أن قضى ثلاث سنين فى أثينة هنيئاً سعيداً انتقل إلى رودس حيث استمع إلى محاضرات أپولونيوس بن مولون Appollonius Molon فى البلاغة ، وإلى محاضرات پوسيدونيوس Poseidonius فى الفلسفة ، وتعلم من أولهما تراكيب الجمل المتعاقبة وعفة اللفظ وهما الصفتان اللتان كان يمتاز بهما أسلوبه ؛ وتعلم من ثانيهما تلك الرواقية المعتدلة التى نادى بها بعدئذ فيما كتبه من مقالات عن الدين وفن الحكم والصداقة والشيخوخة .

ثم عاد إلى رومة فى سن الثلاثين وتزوج ترنشيا Terentia واستطاع بيائنتها السخية أن يشتغل بالسياسية ، وعلا شأنه ونبه ذكره بعدله وحسن إدارته حين كان كوسترا فى صقلية عام ٧٥ ق . م ولما عاد إلى الاشتغال بالمحاماة فى عام ٧٠ ق . م أهاج عليه طبقة الأشراف إذ قبل أن يوكل فى قضية أقامتها مدن صقلية على كيوس ڤيرس Caius Verrs عضو الشيوخ ، واتهمته فيها بأنه وهو صاحب الخراج فى تلك الجزيرة (٧٣ — ٧١) كان يبيع المناصب والأحكام ، ويخفض الضرائب بنسبة ما يناله من الرشا ، وأنه لم يكن يبقى فى سرقوسة شيئاً من تماثيلها ، وأنه وهب إيراد مدينة بأكملها إلى إحدى سراريه ، وأسرف فى الظلم ، وابتزاز الأموال والمسروقات حتى غادر الجزيرة وهى أكثر خراباً مما كانت بعد حربين من حروب الرقيق ، وشر من هذا كله أن ڤيرس قد اختص نفسه ببعض ما كان يختص به الملتزمون عادة ، وناصر رجال الأعمال شيشرون فى اتهاماته ، أما هرتنسيوس الزعيم الأرستقراطى للمحامين الرومان فقد تولى زعامة المدافعين عن ڤيرس ، وأجيز لشيشرون أن يقضى فى صقلية حوالى مائة يوم يجمع فيها الأدلة ؛ ولكنه اكتفى منها بخمسين يوماً ، وعرض فى خطبته الافتتاحية من الأدلة الدامغة ما جعل هرتنسيوس — وكان قد زين حدائقه ببعض ما نهبه

فيرس من التماثيل — يتخلى عن موكله . وحكم على فيرس بغرامة قدرها أربعون مليون سسترس ، ففر إلى خارج البلاد . ونشر شيشرون بعدئذ الخمس الخطب الإضافية التى كان قد أعدها ، وكانت كلها هجوماً عنيفاً على فساد الحكم الرومانى فى الولايات . وبلغ ما أحرزه من تأييد الشعب بجده وشجاعته أنه حين رشح نفسه للقنصلية فى عام ٦٣ ق . م انتخب بحماسة بالغة منقطعة النظير .

وكان شيشرون من أبناء طبقة الفرسان ، ولذلك كانت ميوله بطبيعة الحال مع الطبقة الوسطى ، وكانت تشمئز نفسه من كبرياء الأشراف ويستنكر امتيازاتهم سوء حكمهم ، ولكنه كان يخشى أشد خشية أولئك الزعماء المتطرفين ، فقد كان يرى أن منهجهم ، بوضعه أزمة الحكم فى أيدى الغوغاء ، يعرض الملكية لأشد الأخطار . ولهذا كانت الخطة السياسية التى وضعها لنفسه حين تولى الحكم أن يقيم « حلفا من الطبقات » — أى تعاوناً بين الأشراف ورجال الأعمال ، يحول دون عودة تيار الثورة الجارف .

على أن أسباب التذمر وقواه كانت أعمق وأكثر من أن يقضى عليها بسهولة . فقد كان كثيرون من الفقراء يستمعون إلى الخطباء ينادون بوجوب قيام دولة مثالية ، وكان بعض من يستمعون إليهم على استعداد لأن يستخدموا أساليب العنف فى تحقيقها . وكان يعلو عن هؤلاء قليلا جماعات من العامة خسروا أملاكهم لعجزهم عن أداء ما عليها من رهون . وكان بعض جنود صلا القدامى قد عجزوا عن استغلال أراضيهم استغلالا مربحاً ، وكانوا مستعدين للاشتراك فى أى اضطراب يتيح لهم فرصة لانتهاب المال بلا كد . وكان بين الطبقات العليا طائفة من المدينين المفلسين العاجزين عن أداء ديونهم ، والمضاربين الذين فقدوا كل أمل أو رغبة فى الوفاء بالتزاماتهم ، ومنهم من كانت لهم مطامع سياسية ولكنهم وجدوا سبل الرقى تسدها عليهم طائفة من المحافظين طالت آجالهم فوق ما ينبغى لها أن تطول . وكان إلى جانب هؤلاء كلهم عدد قليل من الثوار المخلصين لمثلهم العليا الذين

لا يخالجهم شك فى أنه لا سبيل إلى تلطيف ما تئن منه الدولة الرومانية من فساد وظلم إلا بانقلاب كامل وثورة جارفة .

ولم يحاول أحـد جمع هذه الطوائف المشتتة وضمها كلها فى قوة سياسية مؤتلفة إلا رجل واحد هو لوسيوس سرجيوس كاتلين Lucius Sergius Catiline ، وهو رجل لا نعرف عنه إلا ما يصفه به أعداؤه — أى ما نستقيه من تاريخ حركته كما كتبها سلست Sallust الغنى صاحب الملايين ، وما نقرؤه من اتهامات ومثالب مقذعة فى خطب شيشرون ضد كاتلين . فأما سلست فيصفه بأنه « روح ملطخ بالإجرام ، هو والآلهة والناس على طرق نقيض ، لا يجد الراحة فى نومه ولا فى يقظته لأن ضميره قد قسا عليه فأتلف عقله المضنى المنهوك ، وكان هذا سبباً فى صفرة وجهه ، وحمرة عينيـه ، وهرجلته فى مشيه ، فتارة يسرع وتارة يبطئ ؛ وملاك القول أن وجهه ونظراته لا تترك مجالا للشك فى أن بعقله خبالا »[٣٨] . ذلك وصف يوحى بالصورة التى يرسمها لأعدائهم فى الحرب أقوام يكافحون فى سبيل الحياة والسلطان ، حتى إذا ما وضعت الحرب أوزارها هذبت الصورة شيئاً فشيئاً . أما صـورة كاتلين فلم تهذب قط ؛ فقد اتهم فى شبابه بافتراع عذراء فستية ، وهى أخت غير شقيقة لزوجة شيشرون الأولى ، وبرأت المحكمة العذراء من هذه التهمة ولكن ألسنة السوء لم تبرئ منها كاتلين ، بل فعلت عكس هذا إذ أضافت إلى التهمة الأولى تهمة ثانية هى أنه قتل ابنه ليرضى بقتله عشيقته الغيور[٣٩] . ولسنا نجد ما نعارض به هذه القصص إلا قولنا إن عامة النـاس فى رومة — « الغوغاء اليائسين الجياع » كما يسميهم شيشرون — ظلوا أربع سنين بعد وفاة كاتلين ينثرون الأزهار على قبره[٤٠] . وينقل لنا سلست هـذه الفقرة وهى كما يلوح فحوى خطبة له :

« منذ وقعت الدولة فى قبضة عدد قليل من أقوياء الرجال . . . أصبح لهم فيها كل النفوذ والمنزلة والثروة ، ولم يتركوا لنا فيها إلا الخطر والهزيمة والمحاكمات

والفقر : : : وماذا بقى لنا فى الحياة إلا الأنفاس التى تتردد فى صدورنا ؟ . . . أليس خيراً لنا أن نموت شجعاناً من أن نفقد حياتنا اليائسة الذليلة بعد أن نصير لعبة فى أيدى السفهاء »(٤١) .

وكانت الخطة التى يريد أن يضمها لضم عناصر الثورة المتعارضة خطة سهلة بسيطة تتلخص فى كلمتين هما « سجلات جديدة » ، ويقصد بهما إلغاء الديون كلها إلغاء تاماً بلا قيد ولا شرط . وأخذ يعمل لهذه الغاية بهمة لا تعادلها إلا همة قيصر ، والحق أنه نال إلى حين عطف قيصر إذا لم يكن قد نال فى السر معونته . وقد قال فيه شيشرون : « لم يكن ثمة شىء لا يستطيع فعله ، ولم تكن ثمة آلام لا يقاسيها فى سبيل تعاون عناصر الثورة ويقظتها وكدحها . وكان فى وسعه أن يتحمل البرد والجوع والعطش »(٤٢) . ويقول لنا أعداؤه إنه نظم فرقة قوامها أربعمائة رجل عهد إليها قتل القنصلين والاستيلاء على أزمة الحكم فى أول يوم من عام ٦٥ ق . م فلما حل ذلك اليوم لم يحدث شىء غير عادى ، وفى عام ٦٤ ق . م رشح كاتلين نفسه للقنصلية ضد شيشرون وشن عليه حملة انتخابية شديدة(*) ، روعت أصحاب رؤوس الأموال ، وبدأت أموالهم تتسرب من إيطاليا . واتحدت الطبقات العليا لتأييد شيشرون وتحقق بذلك ما كان ينادى به من « تعاون الطبقات » ، ودام هذا التعاون عاماً كاملا ، وكان هو ممثل هذا التعاون وصوته الناطق .

ولما وجد كاتلين أبواب السياسة موصدة أمامه ولى وجهه شطر الحزب ، فجهز أتباعه سراً جيشاً فى إتروريا من عشرين ألف مقاتل ، وجمعوا فى رومة عصبة من المتآمرين كان فيها ممثلون لجميع الطبقات من الشيوخ إلى الرقيق . وكان نبها

(*) وفى هذه الحملة الانتخابية وضع كونتس شقيق شيشرون له دستوراً يسير عليه فى حملته فقال : « عليك بالإسراف فى الوعد ، لأن الوعد الكاذب أحب إلى الناس من الرفض الصريح . . . واخترع فضيحة جديدة تذيعها عن منافسيك جريمة كانت أو رشوة أو فضيحة خلقية »(٤٣) .

بريتوران هما سثيجس Sethegus ولنتولس Lentulus ، وتقدم كاتلين للقنصلية مرة أخرى فى شهر اكتوبر التالى .

ويقول لنا المترجمون له من المحافظين إنه أراد أن يضمن لنفسه النجاح فى هذا الانتخاب ، فدبر قتل منافسه فى أثناء الحملة ، واغتيال شيشرون فى الوقت عينه . وادعى شيشرون أنه علم بهذا التدبير فملأ « ميدان المريخ » بحرس مسلح ، وأشرف بنفسه على عملية الانتخاب ، وهزم كاتلين للمرة الثانية رغم تأييد الطبقات الدنيا وتحمسهم له . ويحدثنا شيشرون أنه فى اليوم السابع من نوفمبر طرق بابه عدد من المتآمرين ، ولكن حراسه صدوهم عنه وأبصر شيشرون فى اليوم التالى كاتلين فى مجلس الشيوخ فأخذ يكيل له ذلك السباب الذى كان كل تلميذ ينطق به فى وقت من الأوقات . وبينما كان الخطيب يصب اللعنات على كاتلين خلت المقاعد التى حوله واحداً بعد واحد حتى لم يبق فى المجلس غيره . وتحمل وهو صامت سيل التهم الجارف والألفاظ المقذعة القاسية تنصب انصباب السياط على رأسه .

وأخذ شيشرون يستثير كل عاطفة من عواطفه ، فشبه الأمة بالأب العام وشبه كاتلين بقاتل أبيه ، واتهمه غمزاً وضمناً بغير دليل بأنه يأتمر بالدولة ، وبالسرقة ، والزنى ، والأفعال الجنسية الشاذة ، وتوجه آخر الأمر إلى چوف Jove أن يقى رومة السوء ، وأن يصب عذابه السرمدى على كاتلين .

ولما أتم شيشرون خطبته خرج كاتلين من المجلس دون أن يعترضه أحد ، وانضم إلى قواته فى إترووريا . وأرسل قائده لوسيوس منليوس Lucius Manlius آخر نداء له إلى مجلس الشيوخ وقال فيه :

إنا لنُشهد الآلهة والناس على أننا لم نمتشق الحسام لنقاتل به بلدنا ، أو نهدد به سلامة بنى وطننا . وكل الذى يدفعنا نحن المعدمين البائسين الذين تضافر علينا عنف المرابين وقسوتهم فشردونا من أوطاننا ، وحكم علينا

بالفاقة والحرمان ، وأصبحنا سخرية للساخرين — كل الذى يدفعنا إلى ما نحن فاعلوه هو رغبتنا فى أن نحمى أنفسنا من الظلم .. وأما المال وأما السلطان ، وهما أكبر أسباب النزاع بين بنى الإنسان ، فلا مأرب لنا فيهما ، بل كل الذى نطلبه هو الحرية ، ذلك الكنز الذى لا يفرط فيه الإنسان إلا حين يسلم الروح . وإنا لنتوسل إليكم أيها الشيوخ أن تستشعروا الرحمة على بنى وطنكم المعذبين[٤٤] !

وخطب شيشرون فى اليوم الثانى خطبة وصف فيها أتباع منافسه العاصى بأنهم طائفة ملتفة حول عصبة من الضالين المارقين المتعطرين ، وأطلق العنان لعبقريته فاخترع كل ما أسعفته به من سخرية وسباب ، وختم خطبته مرة أخرى بنغمة دينية . وعرض على مجلس الشيوخ فى الأسابيع التالية ما زعم أنه براهين تثبت أن كاتلين قد حاول أن يشعل نار الثورة فى بلاد الغاليين ، وأفلح فى اليوم الثالث من ديسمبر أن يقنع أولى الأمر بالقبض على لنتولس ، وستيجس وخمسة غيرهما من أتباع كاتلين . وصرح فى خطبة ثالثة له بالجريمة التى ارتكبوها ، وأعلن أنهم قد زجوا فى السجن ، وأبلغ المجلس والشعب أن المؤامرة قد أخفقت ، وأن فى وسعهم أن يعودوا إلى بيوتهم آمنين مطمئنين . وفى اليوم الخامس من ديسمبر دعا مجلس الشيوخ إلى الاجتماع وسأله عما يفعله بالمعتقلين ، فاقترح سلانوس أن يقتلوا ، وأشار قيصر أن يكتفى بسجنهم ، وذكر الشيوخ بأن قانون سمپرونيوس يحرم إعدام المواطن الرومانى . ونصح شيشرون فى خطبة له رابعة أن يعدموا ، وكان فى هذه المرة رقيقاً فى نصحه ، غير عنيف فى عرضه . وأيد كاتو بفلسفته هذا الرأى ، ورجحت كفة القائلين بالإعدام . وحاول بعض الشبان من الأشراف أن يغتالوا قيصر وهو خارج من قاعة المجلس ولكنه نجا من شرهم .

وذهب شيشرون ومعه رجال مسلحون إلى السجن الذى كان فيه المعتقلون ، وهناك نفذ الحكم على الفور ، ثم أرسل ماركس أنطونيوس زميل شيشرون فى القنصلية ، ووالد ماركس أنطونيوس الذائع الصيت — أرسل على رأس جيش

روماني للقضاء على قوة كاتلين . ووعد مجلس الشيوخ أن يعفو عن كل رجل يترك صفوف الثوار ، وأن يمنحه فوق ذلك مائتي ألف سسترس ، ولكن « أحداً لم يفر من معسكر كاتلين » على حد قول سلست . ودارت رحى القتال بين الجيشين في سهول بستويا Pistoia (٦١) . وقاتل الثوار ، وكانوا ثلاثة آلاف رجل ، قتال الأبطال ، ودافعوا عن أعلامهم — نستور ماريوس — العزيزة عليهم إلى آخر رجل منهم رغم ما كانوا عليه من قلة بالنسبة لأعدائهم . ولم يستسلم واحد منهم أو يفر من الميدان ، بل ماتوا جميعاً في المعركة كما مات بينهم كاتلين نفسه .

وإذ كان شيشرون من رجال الفكر لا من رجال العمل ، فقد أدهشه وأثر فيه ما أظهره من المهارة والشجاعة في القضاء على هذه الفتنة الصماء . ومن أقواله في مجلس الشيوخ : « إني ليخيل إليّ أن تدبير هذا العمل العظيم يتطلب حكمة فوق حكمة الآدميين »[٤٥] وشبه نفسه برميولوس ، ولكنه قال إن حفظ رومة أعظم من تشييدها[٤٦] .

وتبسم الشيوخ وكبار الموظفين ضاحكين من قوله ، ولكنهم كانوا يعلمون أنه هو الذي أنجاهم ، وهتف له كاتو وكاتلس ولقباه بأبي الوطن Pater Patriae . ويحدثنا هو عن نفسه بقوله إنه لما اعتزل منصبه في عام ٦٣ ق . م قدمت له جميع الطبقات ذوات الأملاك شكرها ، ولقبته بالرجل الخالد ، وسارت من حوله إلى بيته[٤٧] . ولم يشترك صعاليك المدينة في هذه المظاهرة ، ذلك أنهم لم يغفروا له اعتداءه على قوانين رومة بقتله المواطنين دون أن يتيح لهم فرصة استئناف حكم الإعدام ، وأحسوا بأنه لم يحاول قط إزالة أسباب ثورة كاتلين أو تخفيف أعباء الفقر عن جمهرة الشعب ، ومنعوه أن يخطب في الجمعية في آخر يوم من حكمه ، وكانوا يستمعون له وهم غضاب حين أقسم أنه قد حافظ على المدينة . والحق أن الثورة لم ينقض عهدها في ذلك الوقت بل اندلعت نيرانها فيما بعد حين أصبح قيصر قنصلا .

الباب الثامن

الأدب في عهد الثورة

١٤٥ – ٣٠ ق . م

الفصل الأول

لكريشيوس

لم يغفل الناس الأدب وسط هذا الانقلاب العنيف فى أحوال البلاد الاقتصادية ونظم حكمها وأخلاقها ، كما أنه لم يكن بمنجاة من حمى ذلك العهد وما فيه من دوافع قوية . من ذلك أن ڤارو Varro ونيپوس Nepos قد وجدا السلامة فى دراسة الآثار القديمة وفى البحوث التاريخية . وعاد ببلست من حروبه ليدافع عن حزبه ويغشى أخلاقه بستار من المقالات الأدبية الرائعة . ونزل قيصر من عليائه على رأس الإمبراطورية ليكتب فى النحو ويواصل حروبه فى شروحه Commentaries ، وحاول كاتلس وكلڤس Calvus أن يجدا فى الحب وفى الغزل ملجأ يعصمهما من أعاصير السياسة ، وفر لكريشيوس وأمثاله من ذوى القلوب الضعيفة والنفوس المرهفة الحس إلى حدائق الفلسفة ، وغادر شيشرون من آن إلى آن حرارة السوق العامة ليهدئ أعصابه ويروح عن نفسه بين صفحات الكتب ، ولكن أحداً من هؤلاء لم يجد ما ينشده من السلام لأن الحروب والثورات كانت تطغى عليهم جميعاً . وما من شك فى أن لكريشيوس نفسه قد أحس بالقلق الذى يصفه فى الفقرة الآتية :

« إن عبثاً يثقل عقولهم وجبلا من الشقاء يرسو فوق قلوبهم . . . » ذلك أن

كلا منهم لا يعرف ما يريد فيعمل دائباً لتبديل مكانه ظناً منه أن فى استطاعته أن يلقى حمله عن عاتقه : فهاك رجلا قد مل الحياة فى منزله ، فتراه يخرج من قصره بين الفينة والفينة ، ولكنه لا يجد نفسه فى خارج الدار أحسن منه حالا فى داخلها فيعود إليها فجأة . فتراه مسرعاً يسوق جياده إلى بيته الريفى لا يلوى على شىء . . . . ولكنه لا يكاد يجتاز عتبة الدار حتى يتثاءب أو يحاول نسيان متاعبه فى النوم العميق . وقد يبلغ به الأمر أن يعود من فوره إلى المدينة . وهكذا يفر كل امرىء من نفسه ، ولكن نفسه التى لا يستطيع الفرار منها تزيد التصاقاً به رغم إرادته كما هو المنتظر منها ؛ وهو يكره نفسه لأنه وهو إنسان مريض لا يعرف سبب شكواه . وكل من يستطيع أن يرى هذا بوضوح يطرح عمله من ورائه ظهرياً ، ويسعى قبل كل شىء لفهم طبيعة الأشياء ».

وكل ما نعرفه عن حياة تيتس لكريشيوس كارس Titus Lucretius Carus هو قصيدته . ولم يشأ أن يذكر فى هذه القصيدة شيئاً عن نفسه ؛ أما فيما عداها فإن الأدب الرومانى يغفل إغفالا عجيباً شأن رجل من أعظم رجاله إذا استثنينا إشارات قليلة فى مواضع منه مختلفة . وتحدد الرواية المأثورة تاريخ مولده بعام ٩٩ أو ٩٥ ، وتاريخ وفاته بعام ٥٥ أو ٥١ ق . م . ، أى أنه عاش نحو خمسين سنة من سنى الثورة الرومانية : سنى الحرب الاجتماعية ، ومذابح ماريوس ، وإرهاب صلا ، ومؤامرة كاتلين ، وقنصلية قيصر . وكانت الأرستقراطية التى ينتمى إليها فى الأغلب الأعم آخذة فى الانحلال البادى للعيان ؛ وكان العالم الذى يعيش فيه يتصدع ويتردى فى الفوضى التى لا يأمن فيها أحد على حياته أو ماله . وقصيدته حنين منه إلى الراحة الجسمية والسلامة العقلية .

ولجأ لكريشيوس من متاعب العالم إلى الطبيعة والفلسفة والشعر . ولعله أيضاً قد عرج على الحب ، فإذا كان قد وقع له شىء منه فما من شك فى أنه لم يوفق فيه ، لأنه يقسو فى كتابته على النساء ، ويشهر بفتنة الجمال ،

وينصح الشباب المتعطش لإشباع شهواته بأن يسد مطالب الجسد بالاختلاط الجنسي الهادئ الطليق[٢] . وكان يجد في الغابات والحقول ، وفي النبات والحيوان ، وفي الجبال والأنهار والبحار ، كان يجد في هذه كلها بهجة لا يعادلها إلا شغفه بالفلسفة . وكان مرهف الحس سريع التأثر كوردسورث Wordsworth ، قوى الإدراك مثل كيتس Keats ، توحي إليه المدرة أو ورقة الشجرة ، كما توحي لشلي Shelley ، علم ما وراء الطبيعة . وكان بجمال الطبيعة ورهبتها وكل ما يتصل بهما أثره فيه ، فكانت تحرك عواطفه صور الأشياء وأصواتها ، وروائحها ومذاقها ؛ وكان يحس بصمت المرابض الخفية ، وسدول الليل الهادئ ، وطلوع النهار المتثاقل . وكان كل شيء طبيعي أعجوبة الأعاجيب في نظره — ماء ينساب على مهل ، ونبات يخرج من البذور ، وتغير دائم في الجو ، ونجوم في السماء ثابتة لا تحول ، وكان يرقب الحيوانات في شغف وعطف ، ويحب ما فيها من صور القوة والجمال ، ويحس بآلامها ، ويعجب من فلسفتها التي لا تعبر عنها الألفاظ . ولم يرقباه شاعر عبر عن جلال العالم وما حواه من تباين دقيق وقوة متناسقة ملتئمة ، بمثل ما عبر عنه هو . فهنا كسبت الطبيعة في آخر الأمر معاقل الأدب ، وأفاضت على شاعرها قدرة على الوصف لم يفقه فيهما إلا هومروس وشيكسبير .

وما من شك في أن هذه الروح الحساسة التي تستجيب إلى ما حولها من المؤثرات قد تأثرت تأثراً عميقاً بخفايا الدين ومظاهره الخلابة ، ولكن الدين القديم الذي كان فيما مضى دعامة قوية لكيان الأسرة والنظام الاجتماعي قد فقد ما كان له من سيطرة على الطبقات المتعلمة في رومة . فقد كان قيصر مثلا يبتسم في لطف وهو يمثل دور الكاهن الأكبر ، كما كانت مآدب الكهنة متعة الأبيقوريين الرومان . وكان من الأهلين أقلية صغيرة تكفر بالآلهة الرومانية جهرة ، وكان بعض الساسة الرومان يقوم بالليل ويحطم أصنام الآلهة ، كما كان يفعل ألقبيادس Alcibiades في أثينة[٣] . أما الطبقات الدنيا فإن الطقوس الرسمية لم تعد تلهم

الكثيرين من أفرادها أو تخفف عنهم أحزانهم ، فأخذوا يهرعون إلى الهياكل الملطخة بالدماء والتي كانت تعبد فيها « الأم الكبرى » الفريجية ، أو الإلهة ما الكپدوكية ، أو بعض الآلهة الشرقية التي جاء بها الجنود أو الأسرى من بلاد الشرق إلى إيطاليا . وتطورت الفكرة الرومانية القديمة عن « أوركوس » Orcus ، وهي التي كانت تمثلها في صورة مكان تحت الأرض يأوي إليه الموتى بلا تمييز بينهم ، فصاروا يعتقدون بوجود جحيم حقيقي « ترتاروس Tartarus » أو أكيرون Acheron يعذب فيه الناس جميعاً عذاباً أبدياً إلا طائفة قليلة تولد من جديد وتبدأ حياة جديدة في مجتمع جديد[4] . وقد نظر إلى الشمس والقمر على أنهما إلهين ، وكان كل كسوف وخسوف يحدث لهما يبعث الرعب في القرى المنعزلة وفي قلوب الكثيرين من الأهلين ، وأقبل العرافون والمتنبؤون الكلدان على إيطاليا يجوسون خلالها ويستطلعون طلع المعدمين والأثرياء على السواء ، ويكشفون عن الكنوز المخبأة وعما يخبئه المستقبل ، ويفسرون الأحلام والفؤول تفسيراً ماؤه الحذر والغموض ، أو الملق النافع . وكانوا يبحثون كل ظاهرة طبيعية غير مألوفة ، ويدعون أنها نذير تنذرهم به الآلهة . وكان الدين الذي يعرفه لكريشيوس هو هذا الحسد العظيم من الخرافات والطقوس والنفاق .

فلا عجب والحالة هذه إذا اشمأزت نفسه منه ، وثارت عليه ، وهاجمه بكل ما في قلب المصلح الديني من جرأة وحماسة .

وفي وسعنا أن نحكم على مقدار ما كان يعمر قلبه أيام شبابه من تقى وإيمان ، وما أصابه بعدئذ من خيبة رجاء ، إذا عرفنا مقدار ألمه الشديد من حال الدين وقتئذ . فقد أخذ يبحث لنفسه عن دين يعوضه عما فقده من إيمانه بالدين القديم ، فتنقل من تشكك إنيوس Ennius إلى قصيدة أنبادقليس الرائعة التي شرح فيها مبدأ التطور وتنازع الأضداد . ولما عرف آراء أبيقور خيل إليه أنه عثر على جواب المسائل التي كانت

تحير عقله ، وبدا له أن الرجل الحر يجد فى ذلك الخليط العجيب من المادية وحرية الإرادة ، ومن الآلهة المرحة والعالم الذى لا يؤمن بالآلهة ، جواباً عما ينتابه من شكوك ومخاوف . ولاح أن نسمة من نسمات التحرر من المخاوف السماوية تنبعث من حدائق أبيقور ، وتكشف عن سلطة القانون العليا واستقلال الطبيعة بشئونها وسلطانها على مصائرها ، ومن أن الموت أمر طبيعى لا تلام عليه . ولذلك اعتزم لكريشيوس أن ينتزع هذه الفلسفة من النثر القبيح الذى صاغها فيه لكريشيوس ويصهرها فيخرجها شعراً ، ثم يقدمها لمعاصريه على أنها هى الطريقة المثلى ، وهى الحقيقة ، بل هى الحياة نفسها . وكان يحس أن فى نفسه قوة نادرة مزدوجـة — فيها إدراك العالِم الموضوعى ، وعاطفة الشاعر الذاتية ، ويرى فى نظام الطبيعة بأكمله سمواً ، وفى عناصرها جمالا ، يشجعان ويبرران هـذا التزاوج بين الفلسفة والشعر . وقد أبرز هذا الهدف العظيم الذى كان يعمل له جميع قواه الكامنة وسما به إلى مستوى رفيع فذ من الرقى الفعلى ، ثم تركه قبل أن يبلغ هذا الهدف منهوكا خائر القوى ، أو لعله تركه ناقص العقل مخبولا . غير أن كدحه الطويل المبهج المطرب قد حباه بسعادة استحوذت عليه فصب فيها كل ما كان كامناً فى روحه الدينية من إخلاص عميق .

ولم يختر لكريشيوس لقصيدته عنواناً شعريا بل اختار لها عنواناً فلسفيا هو : De Rerum Natura « فى طبيعة الأشياء » ، وهى ترجمة بسيطة لعبارة Peri Physeos (عن الطبيعة) التى اختارها الفلاسفة قبل سقراط اسماً عاماً لرسالاتهم . وبعد أن كتبها قدمها لأبناء كيوس ميومى Caius Memmius فى عـام ٥٨ ق . م لتكون لهم سبيلا هادياً يخرجهم من الخوف إلى الإدراك . وقد حذا فى طريقة عرضه لمـا احتوته من الآراء طريقة أنبادقليس فى ملحمته ، كما احتذى فى تعبيره لغة إنيوس العجيبة الخالية من الزخرف والتجميل ، واختار لهد

الوزن السهل الصالح للتعبير عن مختلف الأغراض ، وهو الوزن السداسى الأوتاد ، ثم نسى إلى حين إهمال الآلهة شئون الناس وتباعدها عنهم فبدأ بدعوة حارة موجهة إلى ڤينوس إذ خالها رمزاً للرغبة المبدعة ، واطرائق السلم كما كانت محبوبة أنبادقليس فقال :

يا أم شعب إنياس ، يا بهجـــة الخلق والآلهة ، أى ڤينوس المغذية المربية ! ... إن جميع الأحياء تحمل بها أمهاتها وتلدها ، ثم تنظر إلى الشمس عن طريقك أنت . وإذا أقبلت فرت الرياح أمامك ، وتبددت سحب السماء ؛ إليك ترفع الأرض ذات المعجزات أزهارها الجميلة ، وإليك تضحك أمواج البحر وتتلألأ السماء الصافية بالضياء الشامل . ذلك أنه إذا ما بدت تباشير النهار فى فصل الربيع وهبت ريح الجنوب المخصبة فأكسبت كل الأشياء نضارة وخضرة ، هللت لك طيور الهواء أولا ورحبت بقدومك ، أيتها الإلهة المقدسة ، لأن قوتك قد نفذت فى قلبها ؛ ثم أخذت القطعان البرية تقفز فوق المراعى التى تفرح بقفزها ، وتعبر الجداول السريعة الجريان ، وهكذا يصبح كل واحد منها أسير جمالك ويسير فى ركابك أينما سرت ، ثم تبعثين بالحب الجميل فى صدور كل المخلوقات من خلال البحار والجبال والأنهار الجارية ، وأوكار الطير بين أوراق الشجر والحقول الخضراء ؛ وتوحين إليها بأن تتناسل وتخلد أنواعها . وإذ كنت أنت وحدك تتحكمين فى طبيعة الأشياء ، وبغيرك لا يرتفع شىء إلى شواطىء الضوء اللامعة ، ولا يوجد شىء بهيج أو جميل ؛ فإن نفسى تتوق إليك لتكونى شريكتى فى كتابة هذه الأبيات ... ألا فامنحى أيتها الإلهة ألفاظى جمالا لا يدركها الفناء ، واجعلى فى خلال ذلك الوقت أعمال الحرب الوحشية تنام وتسكن ... وإذا ما استند المريخ إلى جسمك المقدس فانحنى حوله من عليائك ، وصبّى الألفاظ الحلوة من فمك ، واطلبى نعمة السلام إلى الرومان(٥) .

الفصل الثانى

فى طبيعة الأشياء

إذا حاولنا أن نصوغ ما فى جدل لكريشبوس من اضطراب حماسى فى صورة منطقية ، فإن فكرته الأساسية تتمثل فى ذلك البيت المشهور :

Tantum religio potint suadere malorum

« ما أكثر ما بعثه الدين فى قلوب الناس من شرور ! »(٦) .

فهو يروى قصة إفجينيا فى أوليس ، والضحايا البشرية التى يخطئها الحصر ، والذبائح التى تقدم قرباناً للآلهة التى يمثلونها فى صورة البشر النهمين ، ويذكرنا بالأهوال التى تحيط بالسذج والشبان حين يضلون فى أجام الآلهة المنتقمة الجبارة ، وما يقذفه فى قلوبهم الرعد والبرق والموت والجحيم من رعب ، وبالأهوال السفلى التى يصورها الفن الإتروري والقصص الشرقية الغامضة الخفية ، وهو ينحي باللائمة على بنى الإنسان لأنهم يفضلون مراسم التضحية على التعقل الفلسفى ويقول :

« أيها الخلائق البائسون ما بالكم تعزون إلى الآلهة هذه الأعمال الشائنة وهذا الغضب المرير ! كم من أحزان يهيئها الناس لأنفسهم (بهذه العقائد) وكم من جراح تثخن بها أجسامنا ، ودموع تذرفها أعين أبنائنا ! ذلك أن التقوى لا تكون فى كثرة توجيه الرأس المقنع إلى الأحجار ، ولا فى الاقتراب من جميع مذابح القربان ، ولا فى الركوع والسجود . . . أمام هياكل الآلهة ، ولا فى إسالة دماء الحيوانات على المذابح . . . بل التقوى هى أن يكون فى طاقة الإنسان أن ينظر إلى الأشياء جميعها بعقل هادئ مطمئن »(٧) ؛

ولا ينكر لكريشيوس وجود الآلهة ، ولكنه يقول إنها تقيم بعيدة عنا ، سعيدة كل السعادة فى عزلتها وبعدها عن أفكار البشر ومتاعبهم ، هنالك « وراء أسوار العالم المشتعلة » **(extra flammantia moeina mundi)** بمنأى عن ضحايانا وصلواتنا ، وهى تعيش كما يعيش أتباع أبيقور بعيدة عن الشئون الدنيوية ، فائقة بتأمل الجمال وعمل ما تتطلبه الصداقة والسلام[٨] . وليست الآلهة فى رأيه هى التى خلقت العالم ، وليست هى سبب ما يقع فيه من الأحداث ، فمنذا الذى يظلمها ذلك الظلم الصارخ فيتهمها بأنها سبب ما فى الحياة على الأرض من تلف ، واضطراب ، وآلام ، ومظالم ؟ كلا إن هذا الكون اللانهائى الذى يشمل عدة عوالم مستقل عما سواه ، ولا شأن له بغيره ، ولا يسيطر عليه قانون خارج عنه ؛ فالطبيعة تفعل كل شىء من نفسها . منذا الذى أوتى من القوة ما يستطيع به أن يتصرف فى الأشياء مجتمعة ، ويقبض بيده على ذلك العنان القوى عنان الأبدية التى لا قرار لها ؟ منذا الذى يستطيع أن يحرك السموات كلها دفعة واحدة . . . ويهز السماء الصافية بالرعد القاصف ، ويقذف بالبرق فيزلزل به فى كثير من الأحيان هياكل الآلهة ، ويرسل الصواعق فيقضى بها على البرىء وينجو منها المجرم »[٩] . إن إله الكون الذى لا إله سواه هو القانون ، وأصدق العبادات ، والسبيل الوحيدة إلى السلام أن يعرف الناس ذلك القانون ويحبوه . إن مخاوف العقل وظلمته لا تبددها أشعة الشمس . . . بل يبددها النظر فى قوانين الطبيعة[١١] .

وهكذا « يمس » لكريشيوس « برحيق ربات الشعر » مادية دمقريطس الخشنة ، ويصرح بأن مبـــدأه الأساسى المقرر أن لا وجود إلا للذرات والفراغ »[١٢] أى المادة والفضاء ، ثم ينتقل من فوره إلى مبدإ جوهرى (وافتراض) من مبادىء العلم الحديث ، وهو أن ما فى العالم من مادة وحركة لا يتغير أبداً ، وألا شىء ينشأ من لا شىء ، وأن ليس الإتلاف والتحطيم إلا تغيراً فى الشكل ، وأن الذرات لا تتحطم ، ولا تتبدل ، وأنها

صلبة ، مرنة ، عديمة الصوت والرائحة والذوق واللون ، وأنها لا حدود لها ، يتدخل بعضها فى بعض ليتكوّن منها مُركبات وصفات لا حصر لها ، وتتحرك حركة لا انقطاع لها ، فى سكون الأشياء العديمة الحركة البادى للأنظار :

« فكثيراً من نرى على سفوح الجبال » . . الأغنام ذات الأصواف تزحف حيث يغريها بالزحف الكلأ الذى تتلألأ عليه قطرات الندى ، وترى الحملان التى شبعت ورويت تلعب وتتناطح فى لعبها برؤوسها . ولكن هـذه كلها تنطمس للبعيد عنها حتى لا تستطيع العين أن تميزها ، وتبدو لطخة بيضاء على تل أخضر . وتنتشر الجيوش الجرارة فى بعض الأحيان فى ميادين واسعة ؛ وتتحرك حركات تمثل بها الحروب ، تسطع دروعهم البرنزية فتضىء ما حولها ، وتنعكس على قبة السماء ، وتزلزل الأرض وتجلجل تحت أقدام الجند وسنابك الخيل ، وتصطدم هـذه الأصوات بالجبال فتدفع بها مرة أخرى إلى نجوم السماء . ومع هذا فإن فى قلل الجبال مكاناً تبدو منه هذه الجيوش كأنها ساكنة لا تتحرك ؛ ولا تعدو أن تكون بقعة صغيرة بيضاء مستقرة فوق السهل »[١٣] .

وتحتوى الذرات(*) على المنيات minima أو « أصغر الأشياء » ، وكل منيمة minimum جسم نهائى صلب ، لا يقبل الانقسام ، ولعل اختلاف ترتيب هذه الأجزاء هو السبب فى اختلاف أحجام الذرات وأشكالها ، وهو الاختلاف الذى ينشأ منه تباين الطبيعة تبايناً يسر النفوس وينعشها . والذرات لا تتحرك فى خطوط مستقيمة أو منتظمة ، بل إن فى حركتها انحرافاً أو زيغاً دقيقاً لا يستطاع قياسه ، وفيها تلقائية عنصرية تسرى فى جميع الأشياء وتصل إلى غايتها فى إرادة الإنسان الحرة(**) .

(*) لم يستعمل لكريشيوس هذا اللفظ قط ، ولكنه يطلق على جزيئاته الأولية اسم « الأوليات » أو العناصر أو البذور primordia, elementa. Semina .

(**) قارن هذا بمبدأ « الحتمية » التى يعزوها بعض علماء الطبيعة فى هذه الأيام للكهارب (الإلكترونات) . (المترجم)

لقد كانت كل الأشياء من قبل عماء ، ولكن التوزيع التدريجى للذرات المتحركة حسب أحجامها وأشكالها قد أنتج — عن غير قصد — الهواء والنار والماء والتراب ومن هذه كلها نشأت الشمس والقمر والكواكب والنجوم ؛ وفى الفضاء اللانهائى تنشأ باستمرار عوالم جديدة وتفنى عوالم أخرى قديمة ، والنجوم نيران مثبتة فى حلقة من الأثير (وهو ضباب من ذرات أرق من الذرات السابقة) المحيطة بكل مجموعة كوكبية . وهذا الجدار الكونى النارى هو الذى يكون « أسوار العالم الملتهبة » ؛ ثم انفصل جزء من الضباب البدائى عن هذه الكتلة وأخذ يدور وحده ويبرد فتكونت منه الأرض . وليست الزلازل ناشئة من صراخ الآلهة بل من تمدد الغازات والمجارى التى تحت الأرض . كما أن الرعد والبرق ليسا صوت الإله وأنفاسه بل هما نتيجتان طبيعيتان لتكاثف السحب واصطدامها بعضها ببعض ؛ وليس المطر مرحمة من جوف بل هو رجوع الرطوبة التى بخرتها الشمس إلى الأرض .

والحياة فى رأيه لا تختلف فى جوهرها عن غيرها من خصائص المادة ، فهى نتيجة حركة الذرات التى لا حياة فى كل منها بمفردها . وكما أن الكون قد اتخذ صورته الخاصة به طوعا لقوانين المادة المتأصلة فيها ، فكذلك أخرجت الأرض كل أنواع الكائنات الحية وأعضاءها بطريقة الانتخاب الطبيعى لا بغيرها من الطرق .

لا شىء ينشأ فى الجسم ويقصد به أن نستخدمه ، ولكن ما ينشأ فيه ينتج بعد وجوده الغرض الذى يستخدم فيه[١٤] . . . فلم يكن هدف الذرات هو الذى جعلها ترتب نفسها ترتيبا قائما على الذكاء والفطنة ، بل السبب فى ترتيبها هذا أن كثيرا من الذرات منذ الأزل قد تحركت والتقت بطرق مختلفة لا حصر لها ، وجربت كل التراكيب المختلفة . . . ومن ثم نشأت مبادئ الأشياء العظيمة . . ، وأجيال الكائنات الحية[١٥] . وما أكثر ما حاولت الأرض أن توجده من الهولات ، فنها ما لم تكن له أقدام ، ومنها ما لم تكن له يدان أو فم أو وجه أو أطراف ملتصقة بجسمه . . . ولكن هذه المحاولات

كلها ذهبت أدراج الرياح ، فقد ضنت عليها الطبيعة بالنماء ، ولم تستطع هي أن تجد لنفسها الطعام ، أو أن تتصـــل بعضها ببعض اتصالا مبعثه الحب ... وما من شك فى أن كثيراً من الحيوانات قد بادت فى ذلك الوقت لأنها عجزت عن الاحتفاظ بأنواعها عن طريق التزاوج والتناسل ، وسبب ذلك أن الأنواع التى لم تهبها الطبيعة صفات « تحميها من أعدائها » كانت تحت رحمة غيرها ، وسرعان ما هلكت وانقرضت(١٦) .

وليس العقل (Animue) إلا عضواً كالقدمين والعينين ، وهو مثلهما أداة أو وظيفة لتلك الروح (Anima) أو النسمة الحيوية ، وهى مادة جد رقيقة تنتشر فى الجسم كله ، وتبعث الحياة فى كل جزء من أجزائه . وعلى الذرات الشديدة الحساسية التى يتكون فيها العقل تسقط الصـــور أو الأشرطة التى لا ينقطع خروجها من سطوح الأشياء ، وهذا هو منشأ الإحساس . وينشأ الذوق والشم والسمع والبصر واللمس من جزيئات تخرج من هذه الأشياء وتقع على اللسان أو الحالق أو الخياشيم أو الأذنين او العينين أو الجلد . والحواس كلها صـــور اللمس . وهى المحك النهائى للحقائق ، فإذا ما ظن أنها أخطأت فليس ذلك إلا نتيجة لسوء التفسير ، ولا يصحح خطأ إحدى الحواس إلا حاسة أخرى ، ولا يمكن أن يكون العقل محك الحقائق لأن العقل يعتمد على التجارب أى على الإحساس .

وليست النفس شيئا روحيا ، ولا هى خالدة ، فهى لا تستطيع تحريك الجسم إلا إذا كانت ذات جسم ، وهى تنمو وتشيخ مع الجسم ، وتتأثر بما يتأثر به من مرض ودواء وخمر ، وتتبدد ذراتها تبددا ظاهريا حين يموت ، ولو وجدت النفس بغير الجسم لكانت عديمة الإحساس عديمة المعنى ؛ وما فائدة النفس بغير أعضاء اللمس والذوق والشم والسمع والبصر ؟ والحياة لا توهب لنا لتكون ملكا خالصا لنا بل هى عارية نستعيرها ونحتفظ بها ما دمنا قادرين على الانتفاع بها ، فإذا ما استنفدنا قوانا وجب علينا أن نغادر مائدة الحياة مغتبطين شاكرين ، كما يغادر

الضيف الوليمة . وليس الموت نفسه أمراً مخيفاً رهيباً ، بل الذى يسبب رهبته هو خوفنا مما نلقاه فى الدار الآخرة . ولكن الدار الآخرة لا وجود لها ، والجحيم هو جحيم هذه الدنيا ، فهو العذاب الناشئ من الجهل والانفعالات والتخاصم والشره ؛ والجنة توجد على ظهر هذه الأرض ، وهى معابد الحكماء الصافية sapientum templa serena [١٧] .

وليست الفضيلة فى خوف الآلهة ، ولا فى تجنب الملذات وخشيتها . بل هى فى تناسق أعمال الحواس والمواهب بإرشاد العقل ؛ ومن الناس من يفنون أعمارهم من أجل تمثال يقام لهم ، أو شهرة يتحدث بها الناس عنهم ، ولكن « ثروة الإنسان الحقة هى أن يعيش عيشة بسيطة وعقله فى سلام » (vivere parce Aequo Animo)[١٨] ، وخير من العيش الجامد المعنت فى الأبهاء المذهبة « الرقود فى جماعات على الكلأ الناعم بجوار غدير تحت أشجار باسقة »[١٩] ، أو سماع الألحان الموسيقية العذبة اللطيفة ، أو أن يفقد الإنسان ذاته فى حب أطفاله والعناية بهم . والزواج خير ولكن الحب المثير للعواطف جنون ، يجرد العقل من صفائه وتدبيره : « فإذا أصابت الإنسان سهام ڤينوس — سواء أطلق هذه السهام غلام له أعضاء فتاة ، أو أطلقتها امرأة بشع الحب من جسمها كله — فإنه ينجذب نحو مصدر الضربة ويتوق إلى الاتحاد معه » [٢٠] . ولا يستطيع زواج ولا مجتمع أيا كان نوعه أن يجد قاعدة سليمة يقوم عليها فى هذا الغرام الجنونى .

ولما كان لكريشيوس قد وجه عواطفه كلها نحو الفلسفة ولم يجد فى قلبه متسعاً للحب ، فإنه أبى أن يعود إلى العهد الروائى العاطفى القديم الذى يقول به اليونان الذين كانوا يمجدون الحياة البدائية ، وينادون بالعودة إلى الطبيعة ، كما مجدها روسو ونادى بالعودة إليها .

نعم لقد كان الناس فى ذلك الوقت أصلب عوداً ، ولكنهم كانوا يعيشون فى الكهوف ، ولا يعرفون الناس ، ويتناكحون بلا زواج ، ويقتل بعضهم

بعضاً بغير قانون ، ويموت منهم جوعاً بقـــدر من يموت من المتحضرين بالتخمة[٢١] .

أما الطريقة التي تمت بها الحضارة فيشرحها لكريشيوس في خلاصة موجزة لتاريخ الإنسان الطبيعي يقول فيها إن التنظيم الاجتماعي قد وهب الإنسان القدرة على البقاء بعد أن بادت الحيوانات التي كانت أشد منه قوة وبطشاً . وقد اهتدى إلى النار حين رآها تندلع من احتكاك أوراق الأشجار وأغصانها ، وأنشأ من الإشارات والحركات لغة ، وتعلم الغناء من الطير ، وأنس الحيوان لمنفعته ، كما استأنس هو بالزواج والقانون ؛ ثم شق الأرض ، ونسج الملابس ، وصهر المعادن وصنع منها أدواته ؛ ثم رصد كواكب السماء ، وقاس الزمن وتعلم الملاحة ؛ ثم رقى فن القتل ، وتغلب على الضعفاء ، وشاد المدن ، وأقام الدول .

وليس التاريخ إلا موكب الدول والحضارات التي تنشأ وتزدهر ثم تضمحل وتفنى ، ولكن كلا منها تخلف وراءها تراثاً من العادات والأخلاق والفنون تتلقاه عنها الحضارات التي تأتي من بعدها « فهي كالمدائين في سباق يسلم كل منهم مصباح الحياة إلى غيره »[٢٢] (et quasi cursores vitai lampada tradunt) وكل ما ينمو من الأشياء يضمحل : الأعضاء ، والكائنات الحية ، والأسر ، والدول ، والأجناس ، والكواكب ، والنجوم . والذرات وحدها هي التي لا تموت أبداً ، وتوجد إلى جانب قوى الخلق والنماء قوى أخرى تعادلها وتوازنها وهي قوى التدمير ، وهذه لا تنقطع عن العمل ما بين دفع وجذب وتراخ وانقباض ، وحيات وموت . وفي الطبيعة خير وشر ، والآلام يلقاها كل كائن حي وإن لم يستحقها ، والانحلال يتبع خطى كل تطور ، وأرضنا نفسها في طريقها إلى الموت والفناء ، وها هي ذي الزلازل تخربها وتدمرها ، والأرض تفقد قدرتها على الإنتاج والأمطار والأنهار تقرضها وتفتتها ، وتنقل الجبال نفسها آخر الأمر إلى البحار ، وسيأتي على عالمنا النجمي كله يوم يفنى فيه كما تفنى هذه الجبال ؛

فتهاجم جدران السماء من كل جوانبها وتتصدع ثم تتهدم وتتخرب[٢٣] ؛ ولكن ساعة الفناء نفسها تكشف عما فى العالم من حيوية لا تقهر ، ويمتزج بالعويل على الموتى البكاء على الطفل الوليد »[٢٤] وتتكون عوالم جديدة ونجوم وكواكب جديدة ، وتنشأ أرض أخرى وحياة غير الحياة الأولى ، ويبدأ التطور من جديد .

وإذا ألقينا نظرة عامة على هذه القصيدة التى تعد « أروع نتاج الأدب القديم كله »[٢٥] ، فقد نلاحظ لأول وهلة ما فيها من عيوب : كاضطراب موضوعاتها التى حال موت الشاعر فى مقتبل العمر دون مراجعتها ، وتكرار عباراتها وأبياتها وفقرات منها برمتها ، واعتقاده أن الشمس والقمر والنجوم ليست فى حقيقتها أكبر مما تبدو للناظر إليها[٢٦] ، وعجز النظام الذى تشرحه القصيدة عن أن يفسر كيف تستحيل الذرات الميتة إلى حياة وإدراك ، وإغفال الشاعر ما يبعثه الإيمان فى المؤمن من نظر ثاقب وطمأنينة وسلوى ، وإلهام وشاعرية قوية محركة ، كما أغفل ما للدين من آثار اجتماعية . ولكن ما أقل هذه الأغلاط وما أضعف شأنها أمام المحاولة الجريئة التى بذلها الشاعر لتفسير العالم والتاريخ والدين والمرض تفسيراً منطقياً معقولا(*) ، وأمام ما صور به الطبيعة من أنها عالم يسيطر عليه القانون لا يعترى المادة والحركة فيه زيادة أو نقصان . وأمام عظمة الموضوع الذى تحدث عنه ونبل الطريقة التى عرض بها ؛ وأمام قوة الخيال المتصلة التى تشعر فى كل مكان « بجلال الأشياء » وتسمو برؤى أنبادقليس ، وعلم دمقريطس ، ومبادئ أبيقور الأخلاقية ، إلى شعر يبلغ من الروعة والجمال أسمى ما بلغه الشعر المعروف فى جميع العصور . فها هى ذى لغة كانت لا تزال بعد غير مصقولة ولا ناضجة تكاد فى ذلك الوقت أن تكون

(*) توجد كثير من بذور الأشياء التى تعيننا على الحياة ، ولكن لا شك أيضا فى أن ثمة بذوراً أخرى كثيرة تتطاير حولنا وتؤدى إلى المرض[٢٧] .

خلواً من المصطلحات الفلسفية والعلمية ، ولكن لكريشيوس لم يخلق فيها مفردات جديدة فحسب ، بل خلقها ثم وجه الكلام القديم وجهات جديدة من حيث الوقع والجرس ، وصاغ الوزن السداسى صياغة أكسبته حيوية وقوة لم تكن له فى أية لغة أخرى من اللغات المعروفة ، وسما به بين الفينة والفينة إلى درجة من الرقة والجمال والسلاسة لا تقل من نظائرها فى شعر ڤرچيل . وإن ما فى قصائد لكريشيوس من حيوية لا نفارقه فى وقت من الأوقات ليدل على أنه قد استمتع بحياته كلها ، لم يكد يترك فيها فترة قصيرة أو طويلة من يوم مولده إلى يوم وفاته إلا عاش خلالها على الرغم مما كان يحيط به من آلام متعددة وخيبة مريرة .

وكيف مات لكريشيوس ؟ يقول القديس چيروم Saint Jerome إن « لكريشيوس قد جن على أثر تجرعه دواء يولد الحب ، بعد أن كتب عدة كتب . . . ثم مات منتحراً فى الرابعة والأربعين من عمره »[٢٨] . وليس لهذه القصيدة ما يؤيدها ، ويشك الكثيرون فى صحتها ، ولسنا نعتقد أن قديساً يستطيع أن يروى رواية عن حياة لكريشيوس منزهة عن الهوى . وقد وجد بعضهم ما يؤيد هذه القصة فى قصيدته نفسها ؛ ذلك أن منها شواهد على الذهن المكدود غير الطبيعى ، فضلا عن أن موضوعاتها مهوشة غير منظمة ، وأنها مقتضبة تنتهى انتهاء فجائيا غير متوقع[٢٩] . ولكن الإنسان ليس فى حاجة إلى أن يكون لكريشيوس — ولكريشيوس دون غيره — لكى يكون حاد المزاج سريع التهيج ، مهوشاً ، ولكى يموت .

لقد كان لكريشيوس كما كان يوريپديز رجلا من الطراز الحديث ، وكان تفكيره وإحساسه يوائمان عصرنا الحاضر أكثر مما يوائمان القرن الأول قبل ميلاد المسيح . وقد تأثر به هوارس وڤرچيل فى أيام شبابهما ، وهما يذكرانه من غير أن يبوحا باسمه فى كثير من عباراتهما الجزلة ، ولكن الجهود التى كان يبذلها أغسطس لإعادة الدين القديم قد جعلت هذين الشاعرين وهما صنيعتا أغسطس يريان أن

ليس من الحكمة أن يعبرا فى صراحة عن إعجابهما بلكريشيوس ويعترفا بما فى عنقهما له من دين يضاف إلى هذا أن الفلسفة الأبيقورية لم تكن توائم العقل الرومانى ، كما كانت أعمال الأبيقوريين توائم الذوق الرومانى فى عصر لكريشيوس(*) ، فقد كانت رومة فى حاجة إلى رجل ذى فلسفة ميتافيزيقية يمجد القوى الصوفية الباطنية لا القوانين الطبيعية ، وإلى عالم أخلاق ينشئ شعباً حربياً كامل الرجولة لا شعباً من أصحاب النزعة الإنسانية المحبين للسلم والهدوء ، وكانت فى حاجة إلى فلسفة سياسية شبيهة بفلسفتى ڤرچيل وهوراس ، تبرر سيطرة رومة الإمبراطورية . ولما بعث الدين من جديد بعد سنكا كاد الناس ينسون لكريشيوس ، ولم يبدأ يظهر أثره فى الفكر الأوربى إلا بعد أن كشفه بجيو Poggio من جديد فى عام ١٤١٨ ب . م . وقد أخذ طبيب من مدينة ڤيرونا Varona يدعى چيرولامو فراكستورو Girolamo Fracastoro (١٤٨٣ — ١٥٥٣) عن الشاعر نظريته التى يقول فيها إن المريض ينشأ من « بذور » Semina خبيثة تسبح فى الهواء ، وفى عام ١٦٤٧ أحيا جاسندى Gassndi الفلسفة الذرية . وكان ڤلتير يقرأ فى طبيعة الأشياء فى خشوع ويقول كما قال أوفد Ovid إن ما فيها من أبيات ثورية سيبقى ما بقيت الأرض[٣٠] :

وقد خاض لكريشيوس بمفرده أقسى الوقائع فى زمانه ونعنى بها إحدى وقائع الحرب الأبدية بين الشرق والغرب ، بين « القلب الحنون » والإيمان الباعث للسلوى المخفف للأحزان من جهة ، والعقل العنيد الجاسى والعلم المادى من جهة أخرى . ولسنا فى حاجة إلى القول بأنه أعظم الشعراء الفلاسفة ، وأنه هو الذى سما بالأدب اللاتينى كما سما به كاتلس وشيشرون إلى ذروة مجده ؛ وبه انتقلت زعامة الأدب نهائياً من بلاد اليونان إلى رومة .

(*) سنستخدم لفظى أبيقورى ورواق فى هذه المجلدات بمعنى المؤمن بفلسفة أبيقور وزينون فيما وراء الطبيعة وفى الأخلاق . وقد نستعملها فى بعض الأحيان لوصف الشخص الذى يميل إلى الدعة والنعيم فى الحالة الأولى أو إلى تجنبهما الحالة الثانية .

الفصل الثالث

حبيب لزبيا

فى عام ٥٧ ق . م غادر رومة كيوس مميوس Caius Memmius الذى أهدى إليه لكريشيوس قصيدته ليكون بريتورا اولا فى بثينيا Bithynia ، وكان حكام الولايات الرومان قد أخذوا فى ذلك الوقت يعتادون عادة جديدة هى أن يصطحب كل منهم عند سفره إلى ولايته أحد المؤلفين . ولم يأخذ هذا الحاكم معه لكريشيوس بل أخذ شاعراً يختلف عنه فى كل شىء عدا قوة عاطفته ويدعى كونتس (أوكيوس) فليريوس كاتلس Quintus Valerius Catullus . وكان كونتس هذا قد قدم إلى رومة من مدينة ڤيرونا موطنه الأصلى ، وكان لأبيه فيها من المنزلة ما يجيز له أن يكون ضيفاً كثير التردد على قيصر ، وما من شك فى كونتس نفسه كان على جانب كبير من الثراء ، فقد كانت له بيوت ذات حدائق بالقرب من تيبور Tibur وعلى شواطئ بحيرة جاردا Garda ، وكان له بيت جميل فى رومة . وهو يقول عن هذه الأملاك إنها كانت مستغرقة فى الدين ، ولا ينفك يعلن أنه فقير ، ولكن الصورة التى نستطيع أن نرسمها له من قصائده هى صورة الرجل المهذب الذى لا يهتم بكسب العيش ، ولكنه يمتع نفسه بطيبات الدنيا من غير حساب فى صحبة أمثاله المترفين فى عاصمة الدولة . وكانت هذه الفئة تضم طائفة من العقول وأبرع الخطباء السياسيين من الشبان أمثال ماركس كثيليوس Marcus Caeliua وهو شريف أصبح فيما بعد شيوعيا ، وليسينيوس كلفس Licinius Calvus الشاعر النابه والقانونى الضليع ؛ وهلڤيوس سنا Helvius Cinna الشاعر الذى كاد الغوغاء من أنصار أنطونيوس يحسبونه أحد قتلة قيصر وينهالون عليه ضربا حتى يقضى نحبه . وكان هؤلاء يعارضون قيصر ويوجهون له كل ما تسعفهم

به عقولهم من نكات لاذعة ، وهم لا يعرفون أن ثورتهم الشعرية إنما تعبر عن الثورة التي يعيشون في جوها ؛ وكان هؤلاء جميعا قد ملوا الأدب القديم ، ولم يطيقوا فجاجة نيفيوس Naevius وإنيوس Ennius وألفاظهما الطنانة المزوقة . وتاقت نفوسهم لأن يغنوا عواطف الشبان في أوزان جديدة غنائية في لفظ عذب رقيق عرف يوما من الأيام في الإسكندرية أيام كلمكس Calimachus ولكن رومة لم تشهد مثله قبل أيامهم هذه . ولم يكونوا راضين عن المبادئ الأخلاقية القديمة وعن تقاليد السلف التي كانت تلقى على أسماعهم في كل حين من أفواه الكبراء المنهوكين . وكانوا ينادون بقدسية الغرائز ، وبراءة الشهوات وعظمة التهتك والانغماس في الملاذ ، ولم يكونوا هم وكاتلس أسوأ من غيرهم من أدباء الشبان الذين كانوا يعيشون في ذلك الجيل وفي الجيل الذي يليه : من هوراس Horace وأوفد Ovid وتيبلس Tibullus وبروبرتيوس Propertius ، بل ومن فرجيل الخجول في أيام شبابه ، أولئك الذين جعلوا الشعر يدور حول كل امرأة متزوجة أو غير متزوجة ، تقدم لربات شعرهم حبا سهلا عابرا .

وكانت كلوديا Clodia أرشق فتاة في هذه الفئة ، وهي من سلالة أسرة كلوديوس التي لم تذهب عنها حتى تلك الأيام عظمة الأباطرة(*) . ويؤكد لنا أبوليوس Apeulius(٣١) أنها هي التي سماها كاتلس باسم لزبيا Lesbia إحياء لذكرى سابفو Sappho التي كان يترجم قصائدها أحيانا ، ويحاكيها كثيرا ، ويحبها دائما . ولما جاء كاتلس إلى رومة في الثانية والعشرين من عمره اتخذها صديقة له ، بينا كان زوجها حاكما في بلاد غالة الإيطالية . وقد سحرت لبه من ساعة أن وضعت « قدمها البراقة على عتبة داره التي أبلتها أعتاب الناس من قبل ، وكان يدعوها إلهته المتألقة ذات الخطوة الرشيقة » . ولا غرابة في أن تفتنه خطاها ، فإن مشية المرأة قد تكفي وحدها لتفتن الرجل كما يفتنه صوتها . وقد عطفت عليه فرضيت

(*) انظر ما قلناه عنها قبل في هذا الكتاب .

أن يكون من بين عبادها . ولم يكن فى وسع الشاعر الهائم بها أن يضارع فى غير ميدان الشعر مواهب منافسيه فوضع تحت قدميها أجمل ما فى اللغة اللاتينية من القصائد الغنائية ، وترجم لها أحسن ترجمة وصفت بها سابقو لجنون الحزين وهو الجنون الذى كان يتملكه وقتئذ(٣٢)، وكتب فى الطائر الذى كانت تضمه إلى صدرها أبياتاً تعد من خير ما كتب فى وصف الغيرة :

أيها الطائر يا بهجة حبيبتى
التى تلعب معك وتضمك إلى صدرها
والتى تمد لك سبابتها إذا طلبتها ،
وتغريك بأن تعضها عضة قوية .
لست أدرى أية دعابة لطيفة يلذ لحبيبتى الوضاءة
أن تداعب بها أمنيتى . . .(*) .

وقد أحس وقتاً ما بأن السعادة قد غمرته ، وظل يتردد عليها كل يوم ينشدها قصائده ، ونسى كل شىء إلا حبه إياها وافتتانه بها .

أى لزبياى حبيبتى هيا بنا نعيش ،
ولا تلق بالاً إلى شىء مما ينطق به العجائز القساة
ونراه حقيرا غير جدير بالاعتبار :
قد تغرب الشموس ثم تعود ؛
أما نحن فإذا غربت شمسنا القصيرة الأجل
غلب علينا السبات الطويل فى ليلنا الأبدى .
ألا فاعطنى ألف قبلة ثم مائة
ثم ألفاً أخرى ، ثم مائة ثانية

(*) لم يترجم أحد حتى الآن قصيدة كاتلس شعراً إنجليزياً والعبارة العربية التى فى هذه الصفحة تكاد تكون ترجمة حرفية لما يقابلها فى اللاتينية .

ثم ألفاً بعدها ، ثم مائة

حتى إذا بلغت القبلات آلافا مؤلفة

تعمدنا الخطأ فى العد والحساب لكيلا نعرف نحن عديدها

أو تحسدنا عليه نفس حقيرة

إن عرفت عدد قبلاتنا الكثيرة :

ولسنا نعرف كم من الوقت دامت هذه النشوة ، وأكبر الظن أنها قد ملت آلافه المؤلفة ، فرأت أن تروح عن نفسها بعد أن خانت زوجها من أجله بأن تستبدل به عاشقا غيره . واتسعت وقتئذ دائرة عشاقها حتى خالها كاتلس فى نوبة من نوبات الجنون « تعانق ثلاثة آلاف زان مرة واحدة »[٣٥] . وأبغضها فى الوقت الذى كانت فيه نار الحرب تلتهم فؤاده (adi et Amo)[٣٦] ، وأبى أن يستمع إلى ما كانت تحدثه به من وفاء وإخلاص ، وصور لنا هذا الإباء بالصورة المأثورة عن كيتس Keats :

إن الألفاظ التى تفوه بها المرأة للمحب الواله الجائع ،

يجب أن تنقش على صفحة الرياح السافية ،

وتحفر على مجارى الماء الدافقة[٣٧] .

ولما أصبح الشك اللاذع يقيناً لا مرية فيه ، استحال هيامه بها حقداً عليها ورغبة قوية فى الانتقام منها ، فاتهمها بأنها تسلم نفسها لرواد الحانات ، وأخذ يندد بمحبيها الجدد ولا يتورع عن سبهم بأفحش الأقوال وفكر فى الانتحار ، على حد قوله فى شعره .

وقد أظهر فى الوقت نفسه عواطف أشرف من هذه وأدل منها على نبله : فقد وجه إلى صديقه مانليوس فى يوم عرسه أغنية يقول فيها إنه يحسده على ما يتيحه له زواجه من صحبة طيبة صالحة ، وبيت آمن مستقر ، ومن متاعب سعيدة هى متاعب الأبوة . ثم انتزع نفسه من مكان مأساته بأن صحب ميمس Memmius

إلى بيثينيا **Bithynia** ، ولكنه لم يحقق ما كان يرجوه فيها من استعادة نشاطه وماله . ثم خرج عن طريقه يوماً من الأيام ليبحث عن قبر أخ له مات بجوار طروادة ، وأدى لهذا الأخ الميت فى خشوع مراسم الدفن التى يؤديها الأبناء لآبائهم ، ثم أنشد بعدئذ بقليل أبياتاً رقيقة من الشعر أضحت بعض ألفاظها من الأقوال الخالدة :

أيها الأخ العزيز لقد تنقلت فى كثير من الدول وجبت البحار .
وجئت لأقدم لك هذا القربان المحزن .
وأهدى إليك آخر ما يهدى إلى الأموات ،
فتقبل هذه الهدايا التى تبللها دموع الأخوة ؛
ووداعاً يا أخى إلى أبد الدهر .

وبدل مقامه فى آسية حاله ، وهدأ من طبعه ، وأثرت أديان الشرق القديمة واحتفالاته فى هذا المتشكك الذى وصف الموت من قبل بأنه « سبات الليل الأبدى » ، فوصف فى « أتيس » **Atys** وهى أعظم قصائده كلها وأعذبها لفظاً وأوضحها تصويراً عبادة سيبيل **Cybele** وصفاً رائعاً قوياً ، وامتلأت نفسه حمية وحماسة وهو يقرأ عويل عبادها الذين يضحون من أجلها برجولتهم ، وحزنهم على متع الصبا وأصدقاء الشباب . وقد قص فى قصيدته « بليوس وثيتس **Peelus and Thetis** » قصة بليوس وأردياني **Ariadne** فى شعر سداسى الأوتاد حلو النغم لا يكاد يجاريه شعر فرجيل نفسه . وابتاع بعدئذ فى بلده أمستريس **Amastris** يختاً صغيراً طاف به البحر الأسود وبحر الأرخبيل والبحر الأدرياوى وسار به صعداً فى نهر البو **Po** حتى وصل إلى بحيرة جاردا **Garda** وإلى بيته فى سرميو **Sirmio** ؟ وهنا أخذ يسأل نفسه قائلا : « وهل ثمة سبيل للفرار من متاعب العالم أحسن من أن نعود إلى مواطننا الأولى ومعابدنا ، وأن نستريح فوق فرشنا المحبوبة ؟ »(٣٩) إن الناس يبدأون حياتهم بالبحث عن السعادة ثم يقنعون آخر الأمر بالسلام .

إن علمنا بكاتلس لأوفى من علمنا بمعظم شعراء الرومان لأنه يكاد فى جميع الأحوال يتخذ من نفسه موضوعاً لشعره ؛ وإن هذه الصرخات الغنائية ، صرخات الحب والكره ، لتكشف عن نفس رحيمة حساسة قادرة على أن تكون ذات عواطف كريمة حتى للأهل والأقارب ؛ ولكن الذى لا يسرنا منه أنه يجعل نفسه على الدوام موضوع شعره ، ويتعمد الفحش فى القول ، ويقسو على أعدائه فينشر على الناس أخص خصائصهم ، ويشنع على ميلهم للواط ، وعلى رائحة أجسامهم النتنة ، ويقول عن واحد منهم إنه يغسل أسنانه بالبول متبعاً فى ذلك عادة أسپانية قديمة[٤٠] ، ويقول عن آخر إنه أبخر إذا فتح فاه مات كل من حوله [٤١] . فهو والحالة هذه يتذبذب فى غير عناء بين الحب والقذارة ، يقبل ويلوط ، وينافس مارتيال Martial فى قيادة الناس إلى أقذار رومة ومباذلها فى أركان شوارعها ؛ ويمثل ما يتصف به معاصروه وأبناء طبقته من مزيج بين خشونة البداوة ورقة الحضارة ، كأن الرومان المتعلمين مهما برعوا فى آداب اليونان لم يستطيعوا قط أن ينسوا الاصطبلات والمعسكرات . ويدافع كاتلس عن نفسه بمثل ما يدافع به مارتيال فيقول إنه لا بد له أن يمزج أبياته الشعرية بالأقذار لكى يسترعى بها انتباه مستمعيه .

على أنه قد كفّر عن هذه السيئات بما كان يبذل من العناية الفائقة فى الوصول بشعره إلى درجة الكمال . ففى أبياته الإحدى عشرية الأوتاد من الجمال الطبيعى غير المتكلف ما تعجز عنه صنعة هوراس وتكلفه ، وما يسمو فى بعض الأحيان فوق أناقة ڤرجيل نفسه ، وقد كلفه إخفاء فنه كثيراً من التفنن . وكثيراً ما يشير كاتلس إلى ما كان يعانيه من الجهد المؤلم والعناية الشديدة اللذين جعلا شعره سريع الفهم بين السهولة ؛ وقد يسر له بلوغ هذه الغاية ما كان يعرفه من مفردات اللغة فقد كان يصوغ الألفاظ التى يتداولها الناس شعراً رقيقاً . وقد أغنى الآداب اللاتينية بألفاظ التصغير الرقيقة ، كما أغناها بلغة الحانات الدارجة .

وكان يتجنب قلب الألفاظ وتبديل مواضعها ، كما كان يتجنب الإبهام والغموض ؛ وكانت أبياته سلسلة سهلة ، خفيفة على السمع ، ترحب بها الآذان . وقد عكف على دراسة شعراء الإسكندرية الهلنستيين(*) ، وشعراء أيونيا الأقدمين ، وأتقن ما يمتاز به شعر كلمكس **Callimachus** من عبارات سهلة وأوزان متعددة ، وما فى شعر أركلوكس **Archelochus** من قوة واتجاه مباشر نحو الغرض ، وما فى شعر أنكريون **Anacreon** من خمريات قوية ، وما فى شعر سابفو من حب ونشوة ؛ والحق أننا إذا أردنا أن نحذر كيف كان أولئك الشعراء يكتبون معظم أشعارهم ، فإن علينا أن ندرس كاتلس ، فقد درس هذا الشاعر أشعارهم ، وأجاد فهم دروسهم إجادة رفعته من مرتبة تلاميذهم حتى أصبح فى مرتبتهم ، وقد فعل فى الشعر اللاتينى ما فعله شيشرون فى النثر اللاتينى ، تسلمه قوة فجة فصاغها به حتى أصبح فنا لا يفوقه فيه أحد غير فرجيل .

(*) الذين لم يكونوا يونانيى الأصل ولكنهم اصطبغوا بالصبغة الهلينية (اليونانية) . (المترجم)

الفصل الرابع

العلمـــاء

كيف كانت الكتب اللاتينية تكتب وتوضح بالرسوم ، وتجلّد وتنشر وتباع ؟ لقد كان الرومان من أقدم الأزمان يكتبون التّمارين المدرسـية ، والرسائل القصيرة ، والسجلات التجارية التي لا يقصد بها أن تبقى طويلا ؛ كانوا يكتبون هذه كلها بقلم معدنى ذى طرف رفيع على ألواح مطلية لطيفة من الشمع ، ويمحون ما يكتبونه عليها بإبهامهم . وأقدم ما وصل إلينا من الأدب اللاتينى مكتوب بريش الطير والحبر على ورق مصنوع فى مصر من أوراق نبات البردى التى يضم بعضها إلى بعض ويضغط ويلصق بالغراء . ثم بدأ الرق المتخذ من جلود الحيوان المجففة ينافس نبات البردى فى القرن الأول الميلادى لكتابة الآداب والوثائق الهامة . وكانت **الدبلوما** (المزدوجة) تتكون من ورقة مطوية من الرق . وكان الكتاب الأدبى يصدر عادة فى صورة ملف (Volumen أى الملفوف) وتفك طياته فى أثنـاء قراءته . وكان النص يكتب عادة فى عمودين أو ثلاثة أعمدة فى كل صفحة ، خالياً فى كثير من الأحيان من علامات الترقيم والفواصل بين الجمل أو بين الكلمات نفسها . وكانت بعض المخطوطات توضحها رسوم بالحبر ، فقــد كان كتاب Imagines لفارو Varro مثلا يتألف من سبعمائة صـــورة لعظماء الرجال ، ومع كل صورة ترجمة لصاحبها . وكان فى وسع أى إنسان أن ينشر أى مخطوط يشاء باستئجار الأرقاء لنسخ صور منه ، وأن يبيع النسخ بعد كتابتها . وكان للأغنياء كتبة ينسخون لهم ما يشاءون من الكتب ، ويطعمونهم ، ولكنهم يؤجرونهم على عملهم ؛ ولذلك كانت الكتب رخيصة : وقد جرت العادة فى أول الأمر أن تكتب

ألف نسخة من كل مخطوط . وكان بائعو الكتب يشترون النسخ جملة من الناشرين أمثال أتكس Atticus ثم يبيعونها فرادى فى محال بيعها . ولم يكن الناشر أو البائع يعطى المؤلف شيئاً ، اللهم إلا كلمة طيبة أو هدية فى بعض الأحيان ، ذلك أن الرسوم التى تؤدى الآن إلى مالك الكتاب لم تكن معروفة فى ذلك الوقت . وكانت المكتبات العامة كثيرة العدد ، وقد جعل أسنيوس پليو Asinius Pollio فى عام ٤٠ ق . م مجموعته الخاصة أولى المكتبات العامة فى رومة . وفكر قيصر فى إنشاء مكتبة أخرى أكبر منها وجعل ڤارو مديراً لها ، ولكن هذه الفكرة لم تنفذ إلا فى عهد أغسطس ، شأنها شأن كثير من أفكار قيصر ومشروعاته .

وكان من أثر هذه الوسائل المشجعة التى خففت كثيراً من المتاعب عن طلاب العلم ، أن أخذ الأدباء والعلماء الرومان ينشطون نشاط علماء الإسكندرية وأدبائها ، فغمر البلاد سيل جارف من القصائد والنشرات ، وكتب التاريخ ، والكتب المدرسية ، لا يقل فى قوته عن فيضان نهر التيبر نفسه . فكان كل شريف يزين مغامراته بالشعر ، وكانت كل سيدة تكتب وتلحن ، وكل قائد يدون مذكرات ، وكان العصر عصر « الملخصات » ، تخرج فى كل موضوع من الموضوعات لتفى بحاجات ذلك العصر التجارى السريع . وقد اتسع وقت ماركس ترنتيوس ڤارو Marcus Terentius Varro ، رغم حملاته الحربية الكثيرة ، خلال حياته التى دامت تسعة وثمانين عاماً (١١٦ — ٢٦ ق . م) ، لتلخيص كل فرع من فروع العلم يعرفه أهل زمانه . وكانت ملفاته البالغ عددها ٦٢٠ ملفاً (نحو ٧٤ كتاباً) دائرة معارف عصره كتبها رجل بمفرده . وقد افتتن بالبحث فى أصول الكلمات فكتب مقالا « فى اللغة اللاتينية » لا يزال حتى الآن أكبر ما يهدينا إلى معرفة لغة الرومان الأولى . ولعله أراد أن يعاون أغسطس على تحقيق بعض أغراضه فحاول فى رسالته « عن الحياة الريفية » De Re Rustica

٣٦ ق . م) أن يشجع الناس على العودة إلى الأرض لتكون خير ملجأ يعصمهم من فوضى النزاع المدنى . وقد جاء فى مقدمة هذه الرسالة : « إن السنة الثمانين تنذرنى بأن على أن أحزم متاعى وأستعد للخروج من هذه الحياة »[٤٢] ، وهو يرى أن تكون آخر وصبته له مرشداً يهديه إلى الحياة الريفية الهادئة السعيدة ، ويعجب بالنساء القويات اللائى يلدن فى الحقول ثم يواصلن عملهن من فورهن [٤٣] . ثم يبدى حزنه وأسفه على نقص نسبة المواليد بين الوطنيين ، وهو النقص الذى أخذ يبدل سكان رومة ويقول : « لقد كانت نعمة الأطفال سبب فخر المرأة وإعجابها بنفسها ، أما الآن فإنها تفخر بما يفخر به إنيوس Ennius فتفضل أن تواجه الحرب ثلاث مرات على أن تلد طفلا واحداً » . ويقول فى « عاديات المقدسة » Divine Antiquities إن كثرة النسل والنظام والشجاعة فى أمة ما تتطلب مبادئ أخلاقية تؤيدها عقيدة دينية . ويأخذ بقول المشرع العظيم كونتس موسيوس أسكيفولا Q. Muciu Scaevola إن الدين نوعان — أحدهما للفلاسفة والثانى لعامة الشعب ، وينادى بأن ثانيهما يجب أن يقوى وتثبت دعائمه ، على الرغم مما فيه من عيوب ونقائص لا يرتضيها العقل ، ويشير إلى بذل الجهود لإرجاع عبادة آلهة رومة القديمة إلى عهدها الأول ، وإن كان هو نفسه يؤمن بنوع غامض من وحدة الوجود(*) . ولقد تأثر بكاتو وبولبيوس فألقى بنفسه فى تيار سياسة أغسطس الدينية وإن لم يكن من المؤمنين بعبادتها ، كما نهج منهج فرجيل فى تقواه الريفية .

وكأنما أراد فارو أن يتم أعمال كاتو الأكبر فى جميع الميادين فأكمل كتاب الرقيب المعروف باسم « الأصول Oirgines » فى كتابه هو المسمى « حياة الشعب الرومانى » — وهو كتاب فى تاريخ الحضارة الرومانية . ومما يؤسف له أن الدهر

(*) « روح العالم هو الله وأجزاؤه التى يكون منها أرباب حقه »[٤٥] .

لم يبق على هذا الكتاب بل أباده كما أباد كل مؤلفات ڤارو تقريباً ، على حين أنه أبقى التراجم التى كتبها كرنليوس نيپوس Cornelius Nepos ، والتى لا تزيد قيمها على ما يكتبه صبية المدارس . لقد كان التاريخ فى رومة فناً ، لم يضم إلى صفات الفن خصائص العلم ، ولم يرق حتى فى كتابات ڤاستس Tacitus إلى درجة البحث الانتقادى وإلى تلخيص المصادر . ولكن التاريخ بوصفه ميداناً من ميادين البلاغة قد وجد فى ذلك العصر من يمارسه على خير وجه ونعنى به كيوس سلستيوس كرسپس Caius Sallustius Crispus (٨٦ — ٣٥ ق . م) ، وقد قام كيوس بعمل هام فى السياسة والحرب إلى جانب قيصر ، وحكم نوميديا وبرع فى السرقة ، وأنفق كثيراً من المال على النساء ، ثم ركن إلى حياة الترف والآداب فى بيت له فى رومة اشتهر فيما بعد بحدائقه الغناء وأصبح مسكناً للأباطرة . وكانت كتبه كما كانت سياسته مواصلة للحرب بوسائل غير وسائلها . فقد كانت « التواريخ وحرب جوجرثين ، وكتلين » كلها دفاعاً مجيداً عن العامة وهجوماً عنيفاً على « الحرس القديم » . وقد أظهر فيها كلها ما كان فى رومة من انحلال خلقى(*) ، واتهم مجلس الشيوخ والمحاكم بأنها ترفع حقوق الملكية فوق الحقوق الإنسانية ، ويُنطق ماريوس Marius بخطبة يؤكد فيها ما لطبقات الناس جميعاً من حقوق متساوية ، ويطالب بأن تفتح السبيل لذوى المواهب أيا كان مولدهم[٤٦] . ويزيد فى تأثير قصصه بما يورده فيها من تعليقات فلسفية وتحاليل أخلاقية نفسية . وأوجد أسلوباً من الهجاء وجزءاً واضحاً سريعاً أصبح هو المثل الذى احتذاه تاستس Tacitus .

(*) يدعى ڤارو أن أنيوس ميلو Annius Milo قد ضبط سلست متلبساً بجريمة الزنى فانهال عليه ضرباً بالسياط ، ولم يطلقه إلا بعد أن أدى مبلغاً من المال[٤٦] . ولكن هذا أيضاً قد يكون سياسة لا تاريخاً .

وقد استمد هذا الأسلوب لونه ونغمته من الخطب التي كانت تلقى السوق العامة وفى الحكم ، شأنه فى هذا الشأن جميع النثر الرومانى فى القرن الذى كان يعيش فيه سلست وفى القرن الذى يليه . ذلك أن تقدم مهنة القضاء ونشأة الدمقراطية الكلامية قد زادا حاجة الناس إلى الخطابة العامة ، فأخذت مدارس الخطابة يتضاعف عديدها على الرغم من عداء الحكومة لها . وفى هذا يقول شيشرون إنك تجد « الخطابة فى كل مكان » ، وكان أول ظهور أساتذة هذا الفن فى النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد ، ومن أشهرهم ماركس أنطونيوس (ابن أنطونيوس الشهير) ، ولوسيوس كراسس Lucius Crassus ، وسلپسيوس روفوس Sulpicius Rufus ، وكونتس هورتنسيوس Quintus Hortensius . وفى وسعنا أن نتصور ما كان لهؤلاء الخطباء من رنات قوية إذا علمنا أن الذين يستمعون لهم كانت لا تتسع لهم السوق العامة ، بل كانت تغص بهم الهياكل والشرفات المجاورة لها . وكانت بلاغة هورتنسيوس واستعداده لأن يبيع مواهبه وضميره بالمال مما جعله محبوب الأشراف كما جعله من أغنى أغنياء رومة . وقد ترك لورثته بعد وفاته عشرة آلاف دن من الخمر[٤٦] ، وكان إلقاؤه قويا حيا حتى كان روسيوس وإيسيوس وغيرهما من كبار الممثلين الذائعي الصيت يحضرون المحاكمات التي يترافع فيها ليتعلموا ما ينقصهم من فن التمثيل بدراسة حركاته وطريقة إلقائه ؛ وقد حذا حذو كاتو الأكبر فراجع خطبه ونشرها ، وهو الفن الذى وصل به منافسه شيشرون إلى ذروة الكمال ، والذى جعل للخطابة أبلغ الأثر فى النثر الرومانى كله .

ولقد بلغت اللغة اللاتينية عن طريق الخطابة الدرجة القصوى فى البلاغة والرونق والقوة والجمال الذى يبلغ جمال اللغات الشرقية ؛ والحق أن الخطباء الشبان الذين جاءوا من بعد هورتنسيوس وشيشرون كانوا يعيبون على ما يسمونه الأسلوب « الأسيوى » إسرافه فى المحسنات اللفظية ، وفى إثارة عواطف السامعين ، حتى لقد أخذ قيصر وكلفس Calvus

وبروتس Brutus وبليو Polio على أنفسهم أن يلتزموا أسلوب الخطابة « الأتكي » الذى يمتاز بالهدوء والعفة والاعتدال . وهنا قام الخلاف من زمن بعيد بين النزعتين « الإبداعية » و « الاتباعية » أى بين النظرة العاطفية والنظرة العقلية إلى الحياة ، وما تستلزمه هذه النظرة الأخيرة من سيطرة على الأسلوب . وكان الشباب أصحاب المذهب الاتباعى يجأرون بالشكوى من أن الشرق قد أخذ يغلب رومة على أمرها فى كل شىء حتى فى الخطابة نفسها .

الفصل الخامس

قلم شيشرون

كان شيشرون يفخر بخطبه ويدرك أن هذه الخطب تهيئ السبيل إلى الأدب الرومانى ، ولذلك أحس بوقع انتقادات المدرسة الأتيكية ، فلم يسعه إلا أن يدافع عن نفسه ، فكتب عدة رسائل طويلة فى فن الخطابة ، وقد لخص فى بعضها تاريخ البلاغة الرومانية فى حوار واضح بارع وضع فيه القواعد التى يجب اتباعها فى تأليف الخطب وفى الإيقاع والإلقاء . ولم يسلم فى هذه الرسائل بأن أسلوبه «أسيوى» ، وقال إنه قد حذا فيه حذو دمستين Demosthenes واتهم «الأتيكيين» بأن خطبهم الفاترة الخالية من العواطف تنيم السامعين أو تجعلهم يفرون منهم .

وتوضح السبع والخمسون التى وصلت إلينا من خطب شيشرون جميع الحيل التى يلجأ إليها الخطباء الناجحون ، فهى توفق على الغاية فى عرض ناحية واحدة من نواحى الموضوع الذى يتحدث عنه الخطيب عرضاً يفيض حرارة وحماسة ؛ وفى إدخال السرور على المستمعين بالفكاهات والنوادر ؛ وفى إثارة كبريائهم وأهوائهم ، وعواطفهم ، ووطنيتهم ، وتقواهم ؛ وفى عرض أخطاء المعارض له أو أخطاء مولاه سواء كانت صحيحة أو مما يرويها الناس عنه ، وسواء كانت تمس الشئون العامة أو تمسه هو نفسه ؛ وبحذقه فى تحويل انتباه السامعين من النقط التى فى غير صالحه ، وغمرهم بفيض من الأسئلة الخطابية يضعها بحيث تكون الإجابة عنها صعبة أو مؤذية ، ثم يكيل التهم فى جمل موزونة عباراتها قوية قوة السياط ، وتيارها الجارف يغمر المستمعين ؛ ولا تدعى هذه الخطب أنها عادلة منصفة بل إن فيها من التجريح أكثر مما فيها من التصريح ، وهى خلاصات يستغل من

يلقيها حرية القذف التي كانت محرمة في المسارح ، ولكنها مباحة في السوق العامة وفي ساحات القضاء . ولا يتردد شيشرون في أن يصف ضحاياه بألفاظ مثل « الخنزير » و « الوباء » و « الجزار » و « القذارة » ، ويقول لبيزو Piso إن العذارى يقتلن أنفسهن ليتقين شر عُهره ، ويصب اللعنات على أنطونيوس لأنه يظهر حبه لزوجته على ملأ الناس ؛ وكانت هذه المثالب تسر المستمعين والمحلفين ولم يكن أحد من الناس يأخذها مأخذ الجد ؛ ولم يأنف شيشرون نفسه من أن يكتب إلى بيزو رسائل تفيض ودا وصداقة بعد بضع سنين من هجومه الوحشي عليه في In Pisonem . وجدير بنا فوق هذا أن نقر بأن في خطب شيشرون من الأنانية والبلاغة الخطابية أكثر مما فيها من الإخلاص الخلقي أو الحكمة الفلسفية ، بل إن فيها من الأنانية والبلاغة أكثر مما فيها من الفطنة أو التعمق القانوني ، ولكنها بلاغة ليس كمثلها بلاغة قط . إن خطب ديموستين نفسه لم يكن فيها هذا التصوير الواضح ، الحيوي ، وهذه الفكاهة الغزيرة ، وهذا القذف اللاذع لبني الإنسان ؛ ومما لا جدال فيه أنا لا نجد أحداً قبل شيشرون أو بعده قد أكسب اللغة اللاتينية ما أكسبها هو من سحر وسلاسة فاتنة ، وقوة عاطفية وجمال ؛ لقد كانت خطبه أسمى ما وصل إليه النثر اللاتيني ؛ وقد كتب إليه قيصر الكريم وهو يهدي إليه كتابه « في التشبيه » يقول : « لقد كشفت كل كنوز الخطابة ، وكنت أنت أول من استخدمها ، وبذلك كانت لك اليد الطولى على جميع الرومان ، وكنت مفخرة وطنك ؛ لقد نلت نصراً دونه نصر أعظم القواد ، لأن الذهن البشري أنبل من توسيع رقعة الإمبراطورية الرومانية »(٤٧) .

وتكشف خطب شيشرون عن أخلاقه السياسية ، أما رسائله فتكشف عن إنسانيته ، وتجعل المرء يعفو عن جميع عيوبه السياسية . لقد أملى هذه الخطب كلها إلا قلة منها على أمين سره ، ولم يراجعها بنفسه ، ولم يكن يفكر وهو يكتب معظمها أنها ستنشر على الملأ ، ومن أجل هذا فإن الناس لم تعرض عليهم نفسية إنسان

وسريرته كاملتين ، كما عرضت عليهم نفسية شيشرون وسريرته » وفى ذلك يقول نيپوس Nepos « لا حاجة لمن يقرأ هذه الرسائل بقراءة تاريخ تلك الأيام » ، ذلك أن فى وسع قارئها أن يطلع على أهم الفصول الحيوية من المسرحية الثورية من داخلها ، والستائر كلها مرفوعة عنها ، وأسلوبها فى الغالب صريح قـــديم ، خال من الفن والتكلف ، ملىء بالملح والفكاهات[٤٩] ، ولغتها مزيج جذاب من الرقة الأدبية ، وسلاسة اللغة الدارجة . وهى أكثر ما بقى من آثار شيشرون بل من النثر اللاتينى كله طرافة ومتعة ؛ ومن الطبيعى أن نجد فى هذه المجموعة الكبيرة من الرسائل (وهى تشمل ٨٦٤ رسالة تسعون منها كتبت لشيشرون) بعض المتناقضات وغير قليل من الشواهد الدالة على عدم الإخلاص . وليس فيها كلها أثر واحد للتقى والإيمان اللذين يطالعاننا كثيرا فى مقالات شيشرون أو فى تلك الخطب التى يجعل الآلهة فيها ملجأه الأخير ، ويتبين لنا من هذه الرسائل أن رأيه الخاص فى كثير من الناس ، وخاصة فى قيصر ، لا يتفق على الدوام مع ما يصفهم به جهرة[٥٠] ، وفيها يظهر غروره الشديد الذى لا يكاد يصدقه العقل ألطف وأحب إلى النفس مما يظهر فى خطبه ، حيث يبدو لنا وكأنه يحمل معه تمثاله أينما ذهب . وهو يقر مبتسما بأن « تقديرى لنفسى وثنائى عليها أعظم الأشياء قدراً عندى »[٥١] ، ويؤكد لنا فى سذاجة ساحرة أنه « إذا كان فى الناس من لا يتصف بالغرور فهو أنا »[٥٢] ؛ ومما يلهو به القارئ ما يجده فيها من رسائل كثيرة عن المال ، ومن أقوال كثيرة عن بيوته المتعددة . فقد كان له فضلا عن بيوته ذات الحدائق فى أربينوم Arpinum وأستورى Asturae وپتيولى وپمپى Pompeii كان له فضلا عن هذه البيوت ضيعة فى فورميا Formiae تبلغ قيمتها ٢٥٠٫٠٠٠ سسترس ، وأخرى فى تسكولوم Tusculum تساوى ٥٠٠٫٠٠٠ ، وقصر على تل پلاتين

Palatine كلفه ٣٫٥٠٠٫٠٠٠(*) ألا إن هذه المتع وأسباب الترف لتبدو شنيعة مشينة إذا ما اتصف بها الفيلسوف .

ولكن هل فى الناس من بلغت فضائله درجة تبقى معها سمعته إذا ما نشرت رسائله الخاصة ؟ والحق أن الإنسان إذا أمعن فى قراءة هذه الرسائل يكاد يحب هذا الرجل . إنه فى واقع الأمر لم يكن له من الأغلاط ، ولعله لم يكن له من الغرور ، أكثر مما لنا ، ولكنه أخطأ إذ خلد هذه الأغلاط وهذا الغرور فى نثر أوفى على الكمال . وخير ما نستطيع أن نصفه به أنه كان عاملا مجداً ، وأبا رحيما ، وصديقا وفيا ؛ وفى وسعنا أن نراه فى بيته مولعا بكتبه وبأبنائه ، يحاول أن يحب زوجه ترنتيا **Terentia** الغضوب المصابة بالرثية والتى لم تكن تقل عنه ثروة أو فصاحة . ولقد أوتى هو وزوجه من الثروة ما يبعد عنهما السعادة ، وكانت متاعبهما ومنازعاتهما تنشأ على الدوام من حساباتهما الضخمة ، وظلت هذه المنازعات تزداد حتى طلقها بسبب تشاحن على المال نشأ بينهما ، ولم يلبث بعد أن طلقها أن تزوج ببليا **Publia** ؛ وقد استلفت نظره إليها أنها ذات ثروة طائلة وليست كبيرة السن ، فلما أن أظهرت بغضها لابنته تليا **Tullia** طلقها هى الأخرى ، وكان يحب تليا أشد الحب ، فلما ماتت حزن عليها حزنا كاد يذهب بعقله ، وأراد أن يشيد لها معبداً كمعابد الآلهة . ومن ألطف رسائل شيشرون رسائله التى كتبها إلى تيرو **Tiro** كبير أمناء سره والتى كتبها عنه . وكان تيرو يكتب ما يمليه عليه مختزلا ، ويشرف له على أمواله بقدرة وأمانة كافأه عليهما شيشرون بتحريره من الرق . وأكثر الخطابات عدداً هى التى كتبها إلى أتكس **Atticus** الذى كان

(*) وهذا المبلغ الأخير اقترضه شيشرون من أحد عملائه . ولسنا نعرف هل رده له أو لم يرده . وقد كان المحامون يقترضون المال من عملائهم لأن القانون يحرم عليهم أن يتقاضوا منهم أجوراً . وكان من الوسائل الأخرى التى يستحوذون بها على المال من عملائهم ألا ينسى هؤلاء فى وصاياهم . وقد ورث شيشرون بهذه الوسائل وغيرها عشرين مليون سسترس فى ثلاثين عاما(٥٣) . إن أخلاق الناس وطباعهم لتبدل دساتير الدول .

يستثمر لشيشرون أمواله المدخرة والذى أنجاه من عدة ورطات مالية ، ونشر له مؤلفاته ، وأسدى إليه من النصح السديد ما لم يعمل به . وقد كتب شيشرون إلى أتكس ، وكان غائبا فى بلاد اليونان عن حكمة وفطنة حين بلغت الثورة عنفوانها ، خطابا يعد مضرب المثل فى الوفاء وعذوبة اللفظ قال فيه :

لست أشعر بحاجة أشد من حاجتى إلى من أستطيع أن أفضى إليه بكل ما يتصل بى ، ومن يحبنى ، ومن أثق بحزمه وحصافة رأيه ، ومن أستطيع أن أتحدث إليه بلا ملق ولا رياء ولا تحفظ . إن أخى الذى يفيض صراحة وحناناً غائب عنى . . . وأنت يا من أنجيتنى من متاعبى وأسباب قلقى برأيك السديد ، ويا من كنت رفيقى فى الشئون العامة وموضع ثقتى فى جميع شئونى الخاصة . وشريكى فى جميع أقوالى وأفكارى — أين أنت؟(٥٤)

وبينا كانت بلاد الرومان تمر بتلك الأيام العصيبة حين عبر قيصر الروبكون وهزم بمبى ، ونصب نفسه حاكماً بأمره ، اعتزل شيشرون الحياة العامة إلى حين وأخذ ينشد الراحة من عنائها فى قراءة الفلســفة والكتابة فيها . وقد كتب إلى أتكس فى ذلك الوقت يقول له : « تذكر ما وعدتنى به فلا تعط كتبك لإنسان ما بل احتفظ بها لى . إنى أحبها أعظم الحب ، وتشمئز نفسى أشد الاشمئزاز من كل ما عداها »(٥٥) . وقد عمل وقتئذ بما كان ينصح به غيره ، وأصدر فى فترة لا تزيد إلا قليلا على سنتين ما يكاد يكون مكتبة فى الفلسفة(*) . ذلك أن ضعف العقيدة الدينية لدى الطبقات العليا قد خلف وراءه فراغاً أخلاقياً لاح معــ

(*) De Republica, ٥٤ ق . م De Legibus ٥٢ Academiça De Consolatione and De Finibus ٤٥ De Narure Dcorum, De Divinatioen, De Fato, De Virtutibue, De Officüs De Amicitla, De Senectute, De Go oria, Disputationes Tuscnlanne

وكل هذه فى سنة ٤٤ ق . م وفى عامى ٤٥ — ٤٤ ألف شيشرون خمسة كتب فى فن الخطابة .

أن رومة تتردى فى مهاوى الانحلال الخلقى والاجتماعى . وكان شيشرون يأمل أن تحل الفلسفة محل الدين فتهدى هذه الطبقات إلى الحياة الطيبة ، وتحفزها لأن تحيا هذه الحياة ، ولم يكن يعتزم أن يضيف إلى النظم الفلسفية السابقة نظاما جديداً ، بل كان كل ما يهدف له هو تلخيص تعاليم حكماء اليونان وتقديمها للرومان لتكون آخر ما يهديه لهم فى حياته[٥٧] . وقد بلغ من أمانته العلمية أن أقر فى غير خفاء أنه يستمد فلسفته من رسائل بانتيوس Panaetiue وبوسيدونيوس Poseidonius وغيرهما من فلاسفة اليونان المحـــدثين[٥٨] ، وأن عمله لا يزيد على تكييف رسائلهما تكييفاً جديداً ؛ بل إنه فى بعض الأحيان لا يفعل أكثر من ترجمة هذه الرسائل ؛ ولكنه قد حول نثر هؤلاء الفلاسفة الجاف الممل إلى لغة لاتينية سهلة ، واضحة ، جذابة ، وجمل بحوثه بالحوار . وكان يتنقل فيها تنقلا سريعاً من بيداء المنطق وما وراء الطبيعة الجدباء ، إلى المشاكل الحية ، مشاكل السلوك وحكم البلاد . وقد اضطر كما اضطر لكريشيوس إلى ابتكار مصطلحات فلسفية جديدة ، ونجح فى هذا نجاحا جعله صاحب الفضل على اللغة والفلسفة كلتيهما . والحق أن الحكمة لم يزنها من أيام أفلاطون مثل الذى ازدانت به فى عهد شيشرون . وكان أفلاطون هو الذى استمد منه شيشرون معظم أفكاره ؛ ذلك بأنه لم يكن يحب تحكم الأبيقوريين الذين « يتحدثون عن الأمور الإلهية حديث الواثقين ، حتى ليخيل إليك أنهم قد جاءوا اساعتهم من مجتمع الآلهة » . وكذلك لم يكن يعجبه تحكم الرواقيين الذين يلوون الحجج عن قصد وتعمد حتى ليخيل إليك أن الآلهة أنفسها إنما وجدت لمنفعة الآدميين »[٥٩] وتلك نظرية لم ير شيشرون نفسه فى بعض أطواره أنها بعيدة عن حكم العقل . وكانت النقطة التى بدأ منها فلسفته هى بعينها بداية فلسفة الأقدمية الجديدة The New Academy — أى التشكك الهين الذى لا يعترف بأن شيئاً ما مؤكداً كل التأكيد ، والذى يرى فى الاحتمالات الراجحة ما يكفى مطالب الحياة البشرية ؛

وفى ذلك يقول فى بعض كتاباته : « إن فلسفتى فى معظم الحالات هى فلسفة الشك[٦٠] . . . . ولعلكم تأذنون لى ألا أعرف ما لا أعرفه »[٦١] . ويقول فى موضع آخر : « إن الذين يريدون أن يعرفوا رأيى الشخصى يظهرون قدراً من التشوف لا يقره العقل »[٦٢] . ولكن ما أوتى من قدرة فائقة على التعبير سرعان ما كان يتغلب على حياته ؛ فيهزأ بالتضحيات الدينية ، والهاتفين والعرافين . ويخصص رسالة بأكملها لإنكار القدرة على التنبؤ بالغيب ، ويتساءل فى معرض استنكار الاعتقاد بالتنجيم ، وهو الاعتقاد الذى كان واسع الانتشار فى تلك الأيام ، هل كل من قتلوا فى واقعة كانى قد ولدوا فى مطلع نجم واحد[٦٣] . بل إنه ليشك فى أن العلم بالمستقبل خير لمن يعلمه ، وذلك لأن المستقبل نفسه قد يكون كريها كغيره من الحقائق الكثيرة التى يدفعنا حمقنا إلى الجرى وراءها . ويظن شيشرون أن فى مقدوره أن يقضى على العقائد القديمة كلها قضاء مبرما بالسخرية منها والاستهزاء بها . فيقول مثلا : « إذا سميت الحب سريز Ceres(*) وسميت الخمر باخوس Bachus كانت هذه التسمية استعارة من الاستعارات المألوفة ، ولكن هل تظن أن أحداً من الناس قد بلغ به الجنون إلى الحد الذى يعتقد معه أن ما يأكله إله بحق »[٦٣] . على أن شكه فى الإلحاد لم يكن يقل عن شكه فى أية عقيدة تحكمية أخرى . فهو يرفض العقيدة الذرية(**) التى كان يقول بها دمقريطس ولكريشيوس ، ويقول إن من أبعد الأشياء أن تنظم الذرات نفسها بلا هاد يهديها ولو ظلت تفعل كذلك أبد الدهر ، ثم ينشأ من هذا التنظيم عالمنـــا الذى نعيش فيه . وشأنها فى ذلك شأن الحروف الهجائية فإن من أبعد الأشياء كذلك أن تتجمع هذه الحروف من تلقاء نفسها فينشأ من تجمعها « حوليات إنيوس » [٦٤] . ويقول إن

(*) سيريز هو الاسم الرومانى لدمتر Demeter إلهة الحرث والحب عند اليونان .

(**) هى العقيدة القائلة بأن الذرات قد تجمعت ونظمت نفسها فنشأ الكون من ذينك التجمع والتنظيم . (المترجم)

جهلنا بالآلهة ليس بالدليل القاطع على عدم وجودها ، بل إنه ليذهب إلى أبعد من هذا فيقول إن إجماع الناس على وجودها يكفى فى حد ذاته لترجيح وجود قوة مدبرة : ويستخلص من هذا أن الدين نظام لا بد منه للأخلاق الشخصية والنظام العام ، وأنه نظام لا يمكن أن يهاجمه إنسان عاقل(٦٥) ؛ ولذلك فإنه ظل يقوم بواجبات العراف الرسمى فى الوقت الذى كان يكتب فيه ضد التنبؤ والعرافة . ولم يكن يعد هذا نفاقاً بمعناه الصحيح ، ولعله كان يسميه سياسة وحسن تصرف . ذلك أن الأخلاق الرومانية ، والمجتمع الرومانى ، ونظام الحكم فيه ، كانت كلها وثيقة الارتباط بالدين القديم ، وأنه إذا أريد لها البقاء وجب ألا يترك هذا الدين كى يموت . (وكان الأباطرة يبررون اضطهاد المسيحيين بمثل هذه الحجج) . ولما توفيت تليا التى كان يحبها أعظم الحب ، اشتدت به نزعة الأمل فى الخلود . وكان قبل ذلك بعدة سنين كثيرة قد استعار من فيثاغورس وأفلاطون وإيكسودس فى « حلم سپيو » الذى اختتم به « الجمهورية » أسطورة معقدة بليغة عن حياة بعد الموت ، ينعم فيها الموتى من العظماء الصالحين بالنعيم الأبدى . أما فى رسائله الخاصة — وحتى فى رسائله التى يواسى فيها الثاكلين من أصدقائه — فإنه لا يذكر قط شيئاً عن الحياة الآخرة .

وإذ كان على علم بما يسرى فى أيامه من نزعة التشكك فإن الأسس التى أقام عليها بحوثه فى الأخلاق والسياسة كانت أسساً دنيوية محضة ، لا تعتمد قط على تأييد غير تأييد القوى الطبيعية : فهو يبدأ (فى De Finbus) بالتساؤل عن الطريق الموصل إلى السعادة ، ثم يوافق الرواقيين فى شىء من التردد على أن الفضيلة وحدها لا تكفى للوصول إليها . ومن أجل هذا تراه (فى De Effciis) يبحث عن طريق الفضيلة . ويفلح بفضل جمال أسلوبه فى أن يجعل الواجب محبباً ممتعاً إلى حين ، وفى ذلك يقول : « الناس جميعاً إخوة ، وخليق بنا أن نعد العالم كله مدينة مشتركة للآلهة والبشر على السواء »(٦٦) . ثم يواصل حديثه قائلا إنه

اسمى المبادئ الخلقية هى الولاء لهذا الكل ، ولاء يكون الحافز له هو الضمير الحى . وأول ما يجب على الإنسان لنفسه وللمجتمع ، أن يقيم حياته على أساس اقتصادى سليم ، وعليه بعدئذ أن يؤدى واجباته بوصفه مواطناً فى بلده . والسياسة الحكيمة أعظم شرفاً من أعمق البحوث الفلسفية(٦٧) .

وهو يرى أن الملكية المطلقة خير أنواع الحكومات إذا كان الملك صالحا ، وأكثرها شراً وفساداً إذا كان الملك فاسداً — وتلك حقيقة سرعان ما تأيدت فى رومة نفسها . وعنده أن الحكومات الأرستقراطية تصلح إذا كان الحاكمون فيها هم أحسن الناس حقا ؛ ولكن شنشرون ، وهو من أفراد الطبقة الوسطى ، لا يسلم تسليما مطلقاً بأن الأسر القديمة المحافظة على أرستقراطيتها خير الأسر . والحكم الدمقراطى فى رأيه يصلح إذا كان الشعب فاضلا ، وهذا فى ظنه لا يكون أبداً . هذا إلى أن هذا الحكم يفسده الافتراض الكاذب بأن الناس متساوون . ولذلك كان خير الحكومات هى التى تقوم على دستور يجمع بين هذه الأنواع كلها كحكومة رومة قبل عهد ابنى جراكس ، فقد جمعت بين سلطة الجمعيات الدمقراطية ، وسلطة مجلس الشيوخ الأرستقراطية ، وسلطة القنصلين التى لا تكاد تقل عن سلطة الملوك فى السنة التى يتوليان فيها منصبهما . والملكية إذا لم تكن لها ضوابط وموازين تصبح حكومة استبدادية ، كما أن هذه الظروف نفسها تجعل الأرستقراطية ألجركية ، وتجعل الدمقراطية حكم الغوغاء وتستحيل إلى فوضى وطغيان ؛ وقد كتب بعد خمس سنين من تولى قيصر منصب القنصلية ، وكأنه فيما كتب كان يصوّب السهم إلى صدر قيصر :

يقول أفلاطون إن الحكام المستبدين ينبتون من مغالاة الناس فى التحلل من القيود تحللا يسميه الناس حرية ، كما ينبت النبات من الجذور . . . وإن هذه الحرية تهوى بالأمة آخر الأمر إلى درك الاستعباد . . . إن كل شىء يزيد على

حده ينقلب إلى ضده . . . وذلك لأن العامة التي ليس لها حاكم يسيطر عليها تختار من بينها في العادة زعيماً يقودها . . . وهو إنسان جرىء لا ضمير له . . . يسعى لنيل رضاء الناس بما يعطيهم من أموال غيرهم . ولما كان هذا الرجل يخشى أشد الخشية أن يظل فرداً كغيره من الأفراد فإنهم يخلعون عليه حماية المنصب العام ، ويجددون له هذه الحماية على الدوام ، فيحيط نفسه بحرس مسلح ، وينتهي به الأمر إلى أن يصبح طاغية يستبد بالشعب الذي حباه القوة والسلطان[٦٨] »

ولكن قيصراً رغم هذا نال بغيته ، ورأى شيشرون أن خير ما يفعله هو أن يكظم غيظه ويرفه عن نفسه بالقول المعاد في القانون ، والصداقة ، والمجد ، والشيخوخة ، وبأن « القوانين تلتزم الصمت في أيام الحروب » Silent lege enter arma على حد قوله هو نفسه . على أنه كان في وسعه على الأقل أن يستسلم للتفكير في فلسفة القانون ، وقد عرفه كما عرفه الرواقيون بأنه « التفكير الصحيح المتفق مع الطبيعة »[٦٩] أي أن القانون يعمل بجعل الصلات التي تنشأ من دوافع الناس الاجتماعية صلات منظمة مستقرة . وفي ذلك يقول إن « الطبيعة قد غرست في نفوسنا الميل إلى حب الناس » (المجتمع) ، « وهذا هو أصل القانون »[٧٠] ويرى شيشرون أن الصداقة يجب ألا تقوم على المنافع المتبادلة بل على المصالح المشتركة التي تدعمها ، وتحدوها الفضيلة والعدالة ، وأن قانون الصداقة هو « ألا يطلب الإنسان إلى صديقه أن يعمل أشياء غير شريفة ، وألا يعملها هو إذا طلب إليه عملها[٧١] » ، وعنده أن الحياة الشريفة هي خير ضمان للشيخوخة السارة ، وأن الاستهتار والإسراف في أيام الصبا يتركان الشيخوخة جسماً محطماً منهوكا قبل الأوان . أما الحياة التي تقضى على خير وجه فقد يبقى الجسم والعقل فيها سليمين حتى يبلغ المرء مائة من السنين ، ولنضرب لذلك ماسينسا Masinassa « والانكباب على الدرس قد يجعل الإنسان « يغفل عن اقتراب الشيخوخة منه خفية »[٧٢] . والشيخوخة أمجادها كما للشباب أمجاده — ففيها الحكمة المتسامة ،

وفيها حب الأطفال آباءهم وإجلالهم إياهم ، وفيه تهدأ حتى الرغبات والمطامع . وقد تخشى الشيخوخة الموت ولكن ذلك لا يحدث إذا كان العقل قد كوّنته الفلسفة ، فأدرك أن وراء القبر ، فى أحسن الأحوال ، حياة جديدة أسعد من الحياة الدنيا وفى أسوئها راحة من عنائها(٧٣) .

وفى وسعنا أن نحكم على مقالات شيشرون فى الفلسفة بأنها كلها ضئيلة الأثر ، وأنها كآرائه فى الحكم والسياسة تستمسك فوق ما يجب بالسنن القديمة والتقاليد المرعية . وسبب ذلك أنه وإن أوتى تشوف العالم فقد أوتى معه حذر أبناء الطبقة الوسطى وضعف عزيمتهم ، ولذلك ظل فى فلسفته نفسها سياسيا يكره أن يسىء إلى شخص واحد من الناس ، خشية أن يفقد بذلك صوته يوم الانتخاب . وكان ديدنه أن يجمع آراء غيره ويجيد الموازنة بين ما لها وما عليها ، فإذا انتهى من هذه الموازنة خرج السامع بعدها من نفس الباب الذى دخل منه ، لا يدرى أى الكفتين ترجح على الأخرى . ولولا ما امتازت به هذه الكتب الصغيرة من أسلوب سهل جميل لعفى عليها الزمان ، ولما بقى لها ذكر الآن . فما أجمل لاتينية شيشرون وما أسهل قراءتها ، وما أسلس لغتها وأوضحها ! لقد كان إذا قص حادثة أسبغ عليها من الحيوية التى تسرى فى خطبه فتسترعى الأسماع وتسحر الألباب ، وإذا وصف شخصاً أظهر فى هذا الوصف من البراعة ما يجعل القارئ يأسف معه لأنه لم يجد متسعاً من الوقت يمكنه من أن يكون أعظم مؤرخى رومة(٧٤) ، وإذا انطلق فى الخطابة أفاض على السامع جملا متزنة ، جميلة اللفظ ، قوية العبارة ، مما أخذه عن إزوقراطيس Isocrates ، وجعل السوق العامة تدوى بالتصفيق والاستحسان .

إن آراء شيشرون هى آراء الطبقات العليا ، أما أسلوبه فقد أراد به أن يصل إلى قلوب الشعب ؛ ومن أجل هذا تراه يبذل جهده لكى يكون

هذا الأسلوب واضحاً لا غموض فيه ، وأن تكون الحقائق التي يوردها مما يهز مشاعر السامعين هزاً ، وهو يمزج المعنويات بالنوادر والفكاهات .

وملاك القول أن شيشرون قد خلق اللغة اللاتينية خلقاً جديداً ، فوسع نطاق مفرداتها ، وصاغ منها أداة مرنة للتعبير عن الفلسفة ، وجعلها صالحة لاستيعاب الآداب والعلوم في أوربا الغربية سبعة عشر قرناً من الزمان . وإن الأجيال التي جاءت بعده لتذكره على أنه مؤلف أكثر منه رجل سياسة . ولما أن نسى الناس ما قام به وهو قنصل من أعمال مجيدة ، أو كادوا ينسونها ، على الرغم مما فيها من ذكريات طيبة ، ظلوا يمجدون فتوحه في عالم الأدب والفصاحة . وإذ كان من عادة الناس أن يمجدوا الصورة كما يمجدون المادة ، وأن يعظموا الفن كما يعظمون العلم والسلطان ، فقد نال شيشرون ، دون سائر الرومان ، من الشهرة ما لم ينل أكثر منه إلا قيصر وحده ، ولم يغفر هو لرومة هذا الاستثناء الوحيد .

الباب التاسع

قيصر

١٠٠ – ٤٤ ق . م

الفصل الأول

الرقيع

يقول يوليوس قيصر إنه ينتمى إلى يولوس أسكانيوس **Julus Ascanius** ابن إينياس **Aeneas** ابن ڤينوس **Venus** الزهرة) ابنة چوپتر : أى أنه بدأ حياته إلها واختتمها إلها . وكان آل يوليوس من أقدم الأسر فى إيطاليا وأعلاها شرفاً ، وإن كان الدهر قد عدا عليها فذهب بمالها وأفقرها . فقد كان أحد أفراد هذه الأسرة يوليوس قنصلا فى عام ٤٨٩ ، وكان منها قنصل آخر فى عام ٤٨٢ ، وكان ڤوبسكس يوليوس **Vopiscus Julius** قنصلا فى عام ٤٧٣ ، وسكستس يوليوس **Sextus Julius** فى عام ١٥٧ ، وآخر فى عام ٩١[1] . وقد ورث عن عم لزوجته يدعى ماريوس – كما يرث الناس فى بعض الأحيان عن أعمامهم – ميلا إلى المبادئ السياسية المتطرفة . وكانت أمه أورليا سيدة وقورة حكيمة مقتصدة فى تدبير شئون بيتها الصغير ، وكان هذا البيت فى حى سابورة – وهو حى من الطراز القديم ، ومن الأحياء التى تكثر فيها الحوانيت والحانات والمواخير . فى هذا البيت

ولد قيصر فى عام ١٠٠ ق . م ، وكان مولده نتيجة لجراحة هى التى كانت سبباً فى تسميته باسمه الأول(*) .

ويقول سيوتونيوس Suetonius فيما نقله عنه هلند Holland إن قيصر هذا كان شخصاً مطيعاً سلس القياد إلى حد يدعو للعجب ، كما كان شديد الميل إلى التعلم » ، وكان المعلم الذى يتولى تعليمه اللغتين اللاتينية واليونانية وعلوم البلاغة رجلا من الغاليين . وشرع قيصر مع هذا المعلم يعد نفسه على غير علم منه للفوز بأعظم فتوحه كلها . ذلك أن الشاب أظهر استعداداً عظيماً للخطابة ، وبدأ فى شبابه يكتب ويؤلف . ثم أنقذه من هذه النزعة تعيينه ياوراً حربياً لماركس ثرمس Marcus Thermus فى آسية . وأحبه نقوميدس Nicomedes والى بيثينيا Bithynia حباً دفع شيشرون وغيره من الثرثارين المغتابين إلى أن يعيروه بأنه « أسلم عذرته للملك »(٢) . ولما عاد إلى رومة فى عام ٨٤ تزوج كوساتيا Cossutia استجابة لرغبة أبيه . فلما أن توفى والده بعد زواجه منها بزمن قليل طلقها وتزوج كورنليا Cornelia ابنة سنا Cinna الذى تولى قيادة الثورة بعد ماريوس . ولما تولى صلا زمام السلطة أمر قيصر أن يطلق كورنليا ، فلما أبى أن يطيع هذا الأمر صادر صلا أملاكه التى ورثها عن أبيه كما صادر بائنة كورنليا وسجل اسمه فى المحكوم عليهم بالإعدام .

ولما علم قيصر بذلك هرب من إيطاليا وانضم إلى الجيش المحارب فى قليقية ، حتى إذا مات صلا عاد إلى رومة (٧٥) . ولما رأى أن أعداءه هم أصحاب الأمر والنهى فيها غادرها مرة أخرى إلى آسية . وأسره القراصنة فى الطريق واقتادوه إلى كمين لهم فى قليقية ، وعرضوا عليه أن يطلقوا سراحه نظير فدية قدرها عشرون

(*) وكانت الجراحات حتى فى ذاك الوقت البعيد وسيلة قديمة من وسائل الولادة . وقد ورد ذكرها فى القوانين المعزوة إلى نوما Numa . على أن اسم قيصر لم يكن مشتقاً من هذه الجراحة (Caesus ad utero matris) فقد سمى به من قبله كثيرون من أسرة اليوليوسيين

تالنتا (٧٢٫٠٠٠ ريال أمريكى) ، فلما سمع ذلك لاسهم على أنهم لم يقدروه حق قدره ، وعرض عليهم هو نفسه أن يعطيهم خمسين تالنتا . وأرسل خدمه ليأتوه بالمال ، وأخذ فى هذه الأثناء يسلى نفسه بكتابة القصائد وقراءتها على آسريه . فلما لم تعجبهم قصائده سماهم برابرة همجا ، وأوعدهم بأنه سيشنقهم فى أول فرصة تتاح له . ولما جاءه الفداء أسرع بالذهاب إلى ميليطس Miletus وأعد السفن والملاحين ، وطارد القراصنة وقبض عليهم ، واستعاد منهم الفداء ، وصلبهم ؛ ولكنه وهو الرجل الشفيق الرحيم قطع رقابهم أولا[٣] . وذهب بعدئذ إلى جزيرة رودس ليدرس فيها البلاغة والفلسفة .

ولما عاد إلى رومة وزع جهوده بين السياسة والحب . وكان وسيم الوجه وإن كان سقوط شعر رأسه فى هذه السن المبكرة أخذ يشغل باله . ولما توفيت كرنليا فى عام ٦٨ تزوج بمپيا ابنة حفيدة صلا . وإذ كان هذا الزواج زواجاً سياسياً محضاً فإنه لم يتورع عن العلاقات الجنسية غير المشروعة حسب عادة ذلك الوقت ؛ ولكن هذه العلاقات بلغت من الكثرة ومن التنوع الشاذ حداً جعل كوريا Curia (والد قائده الأخير) يصفه بقوله إنه « زوج كل امرأة وزوجة كل رجل ommium mulierum vir et ommium virorum mulier »[٤] . وظل يتبع هذه العادات نفسها فى حروبه فيعبث مع كليوبطرة فى مصر ، ومع الملكة إيونو Eunoe فى نوميديا ، ومع كثيرات من النساء فى غالة ، حتى كان جنوده يلقبونه فى مزاحهم بلقب « الزانى الأصلع » . ولما تم له النصر فى بلاد الغاليين أخذ جنوده ينشدون بيتين من الشعر المقفى يحذرون فيهما جميع الأزواج بقولهم إن عليهم أن يغلقوا الأبواب على زوجاتهم ما دام قيصر فى المدينة . وكان الأشراف يحقدون عليه لسببين أولهما أنه قضى على امتيازاتهم ، وثانيهما أنه أفسد زوجاتهم ؛ وطلق بمپى زوجته لاتصالها بقيصر ، ولم تكن كراهية كاتو الشديدة له منبعثة عن أسباب فلسفية خالصة بل كان من أسبابها أن أختا له غير شقيقة تدعى

سرڤليا Servilia كانت أحب عشيقات قيصر له ؛ ولما ارتاب كاتو فى صلات قيصر بكاتلين وظنه شريكا له فى مؤامرته طلب إليه فى مجلس الشيوخ أن يقرأ جهرة رسالة جيء بها إليه فى تلك اللحظة ، فما كان من قيصر إلا أن أوصلها إليه دون تعليق عليها ، فإذا هى رسالة حب بعثت بها إليه سرڤليا(٥) . وظلت تهيم بحبه طوال حياته ؛ وكانت ألسنة السوء القاسية تتهمها فى أخريات أيامها بأنها أسلمت ابنتها ترشيا Tertia إلى قيصر لتشبع شهواته . وحدث فى مزاد علنى أثناء الحرب الأهلية أن باع قيصر إلى سرڤليا ضياعاً صادرها من جماعة من الأشراف المعاندين بثمن اسمى زهيد . ولما أظهر بعضهم دهشته من ضآلة الثمن قال شيشرون فى سخرية لاذعة كانت خليقة بأن تطيح برأسه إنه tertia deducta ، وهى عبارة تحتمل معنيين فقد يكون معناها أن الثمن « ينقص ثلثه » وقد تكون إشارة منه إلى الإشاعة الرائجة وقتئذ وهي أن سرڤليا قد جاءت بابنتها ترشيا إلى قيصر . وأصبحت ترشيا فيما بعد زوجاً ليكيوس القاتل الأول لقيصر ، وهكذا يختلط عشق الخلائق بالفتن التى تندلع نيرانها فى الدول .

ولعل هذه الظروف قد ساعدت على رفع قيصر إلى أعلى الدرجات ، ولعلها أيضاً قد أعانت على سقوطه . فقد كانت كل امرأة فاز بحبها صديقة له عظيمة النفع ، وبخاصة فى معسكرات الأعداء ؛ وقد حافظت معظمهن على وفائهن له حتى بعد أن هدأت عاطفة حبه لهن وأضحت لا تزيد على المجاملات المألوفة من الرجال إلى النساء ؛ من ذلك أن كراسس أقرض قيصر أموالا طائلة ليستخدمها فى الدعاية لنفسه وهو يطالب بالقنصلية فيرشو بها الشعب ، ويقيم له الألعاب ، وذلك على الرغم مما كان يشاع وقتئذ من أن زوجته ترتلا كانت تعشق قيصر .

وحسبك دليلا على مقدار هذه الأموال أن قيصر كان فى يوم ما مديناً له بثمانمائة تالنت (٢٫٨٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) . ولم يكن الباعث على هذه القروض هو الكرم والصداقة ، بل كانت بمثابة اشتراك من أصحابها فى الحملات

تود إليهم فى صورة مساعدات سياسية أو غنائم حربية ؛ فقد كان كراسس — كما كان أتكس — فى حاجة إلى من يحمى ملايينه وتتيح له فرص استثمارها . وكان معظم الساسة الرومان فى ذلك الوقت ينوءون بمثل هـــذه « الديون » . فقد كان ماركس أنطونيوس مثلا مديناً بنحو ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ سسترس ، وشيشرون بستين مليوناً ، وميلو Milo بسبعين مليوناً على أن من الجائز أن تكون هذه الأرقام افتراء على هؤلاء الساسة .

وجملة القول أنّ علينا أن نتمثل قيصر فى أول حياته فى صورة السياسى الذى لا ضمير له ، والرقيع المستهتر ، الذى بدلته السنون والتبعات شيئاً فشيئاً فجعلته من أقدر رجال الحكم وأرعاهم للحرمات فى تاريخ العالم . وينبغى لنا — ونحن نطرب من عيوبه ونقائصه — ألا ننسى أنه كان رجلا عظيما على الرغم من هذه العيوب والنقائص . وليس فى وسعنا أن نسوى بين أنفسنا وبين قيصر بقولنا إنه كان يضلل بالنساء ، ويرشو الزعماء ، ويؤلف الكتب .

لإحيائها وأهم من هذا كله أن الفساد السياسى الذى قاومه فى شبابه أخذ ينتشر ويعظم كلما زادت مخاطر المناصب الحكومية باتساع رقعة الإمبراطورية . وكان كل فتح حربى جديد يزيد فى ثراء رومة كما يزيد فى فسادها ووحشيتها ، وكانت قد كسبت كل حرب خاضت غمارها عدا حرب الطبقات ، وأزال تدمير قرطاجنة آخر عائق قائم فى سبيل الانقسام والفتن فى المدينة ، وجوزيت رومة على تملكها العالم بثورات طاحنة وفتن صماء دامت قرناً من الزمان .

الفصل الثانى

القنصل

بدأ قيصر حياته السياسية بأن تحالف مع كاتلين سراً واختتمها بأن أعاد الحياة إلى رومة . ذلك أنه لم يكد يمضى عام واحد على موت صلا حتى قدم للمحاكمة نيوس دلابلا Gnaeus Dolabella أحد العاملين فى حركة صلا الرجعية ، وكان قرار المحلفين على غير ما يشتهيه قيصر ، ولكن العامة هللت له حين هاجم ذلك القرار فى خطبة بليغة ردد فيها المبادئ الدمقراطية ، نعم إنه لم يكن يضارع شيشرون فى تحمسه وفكاهته ، أو فى جمله الموزونة القوية ، أو فى حدة لسانه . والحق أن قيصر كان يبغض أسلوب شيشرون « الأسيوى » لأنه اعتاد من أول الأمر ذلك الأسلوب الموجز القوى ذا البساطة الصارمة التى امتازت بها فيما بعد « تعليقاته » على الحربين الغالية والأهلية . على أنه رغم هذا كله لم يلبث أن صار أفصح الفصحاء فى رومة إذا استثنينا شيشرون نفسه(٦) .

واختير قيصر كوسترا فى عام ٦٨ ، وأرسل للعمل فى أسبانيا حيث تولى قيادة الحملات العسكرية التى سيرت لتأديب القبائل الوطنية ، فخرب مدنها ، ونهب من الأموال ما استطاع أن يوفى به بعض ما عليه من الديون . على أن هذه المدن قد حمدت له فى الوقت نفسه أن خفض فوائد قروضها من المالين الرومان ، ولما قدم إلى مدينة جادز وشاهد فيها تمثالا للإسكندر الأكبر أخذ يلوم نفسه على أنه لم يعمل إلا القليل فى مثل السن التى فتح الفتى المقدونى حين بلغها نصف عالم البحر الأبيض المتوسط .

ثم عاد بعدئذ إلى رومة واندفع فى الصراع القائم وقتئذ فى سبيل المنصب والسلطان . فاختير إيديلا أو مشرفاً على المبانى العامة فى عام ٦٥ ، وأنفق أمواله

— أى أموال كراسس — فى تزيين السوق العامة بما أقامه فيها من المبانى والأعمدة الجديدة ؛ وأخذ يتودد إلى العامة بما كان ينفقه عن سعة على الألعاب . وكان صلا قد أزال من الكبتول ما جمعه فيـه ماريوس من شارات النصر كالأعلام والصور والمغانم التى تمثل صفات الرجل المتطرف القديم وانتصاراته ، فأعادها كلها قيصر إلى مواضعها واغتبط بعودتها جنود ماريوس القدامى أشد الاغتباط ، وأظهر بهذا العمل وحدة سياسته المناقضة لسياسة ماريوس . واحتج المحافظون على هذه السياسة ، وعرفوا من ذلك الوقت أنه رجل يجب عليهم أن يعملوا للقضاء عليه .

وكان فى عام ٦٤ ق . م رئيساً لإحدى اللجان التى عينت للنظر فى بعض قضايا القتل ، فاستدعى للمثول أمام اللجنة من كان حياً من عمال صلا الذين عاونوه على وضع قوائم من حكم عليهم هذا القنصل ، وقضى على الكثيرين من هؤلاء العمال بالنفى أو الإعدام . وفى عام ٦٣ ق . م اقترع فى مجلس الشيوخ ضد إعدام من اشتركوا مع كاتلين ، وقال فى عرض خطابه إن الشخصية البشرية لا بقاء لها بعد الممات(٧) ؛ ويلوح أن قوله هذا كان الجزء الوحيد من خطابه الذى لم يسئ فيه إلى أحد . واختير فى تلك السنة نفسها رئيساً أعلى الدين الرومانى pontifex maximus ثم اختير فى عام ٦٢ بريتورا praetor وأمر فى ذلك العام بمحاكمة أحد زعماء المحافظين لاختلاسه بعض الأموال العامة . وفى عام ٦١ عين والياً على أسبانيا ولكن دائنيه حالوا بينه وبين السفر إليها ، وأقر فى ذلك الوقت أنه فى حاجة إلى ٢٥,٠٠٠,٠٠٠ سسترس إذا أراد ألا يمتلك شيئاً قط ، فتقدم كراسس لمعونته وضمنه فى جميع ديونه . وبذلك استطاع أن يسافر إلى أسبانيا ، ويشن حملات حربية مروعة على القبائل الثائرة ذات النزعة الاستقلالية . وعاد بعدها إلى رومة ومعه من الغنائم ما يكفى لأداء ديونه وملء خزائن الدولة بالمال ، فما كان من مجلس الشيوخ إلا أن اقترح أن يقام له احتفال بنصره العظيم . ولعل

الأشراف قد أظهروا بعملهم هذا كثيراً من الدهاء وحصافة الرأى ، فقد كانوا يعرفون أن قيصر سيرشح نفسه لمنصب القنصلية ، وأن القانون ينص على ألا يرشح لها من كان غائباً عن البلاد ، وأن من يقام له احتفال بالنصر يجب أن يظل بحكم القانون بعيداً عنها إلى يوم الاحتفال — وحرص مجلس الشيوخ على أن يحدده بعد موعد الانتخاب . ولكن قيصر استبق يوم الاحتفال بنصره ، ودخل المدينة وأدار المعركة الانتخابية بجد ومهارة عجز معارضوه عن مقاومتهما .

وكان سبب نجاحه مهارته فى ضم بمبى إلى قضية الحرية . وكان بمبى قد عاد تواً من بلاد الشرق بعد أن قام فيها بسلسلة من الأعمال الحربية والسياسية المجيدة ، فقد طهر البحر من القراصنة ، وأمن بذلك سبل التجارة فى البحر الأبيض المتوسط ، وأعاد الرخاء إلى المدن التى كان رخاؤها يعتمد على هذه التجارة . وكان قد أرضى أصحاب المال فى رومة بفتح بيثينيا وبنتس وسوريا ، وكان قد خلع ماوكا وأجلس على العرش آخرين ، وأقرضهم الأموال من غنائمه الحربية بفوائد باهظة ، وقبل رشوة كبيرة من ملك مصر الذى دعاه إلى القدوم إليها لإخماد فتنة اندلع لهيبها فى تلك البلاد . ثم عاد فامتنع عن تنفيذ ما اتفق عليه بحجة أنه عمل غير مشروع(٩) ؛ ونشر لواء السلام فى ربوع فلسطين وجعلها ولاية خاضعة لنفوذ رومة ، وأنشأ تسعا وثلاثين مدينة جديدة ، وأقر حكم القانون والنظام والسلام . وقصارى القول أنه كان قد سلك قبل ذلك الوقت مسلك السياسى الحكيم والحاكم القدير وأن مسلكه عاد على البلاد بالمال الوفير . فلما رجع إلى رومة حمل إليها ثروة عظيمة من الضرائب ، والخراج ، والبضائع التى غنمها فى حروبه ، ومن الأموال التى افتدى بها الأرقاء أو بيعوا بها ، فاستطاع بذلك أن يعمر خزانة الدولة بمائتى مليون سسترس ، وأن يضمن لها إيراداً سنوياً قدره ثلثمائة وخمسون مليوناً ، وأن يوزع على جنوده ثلثمائة وأربعة وثمانين مليوناً ، وأن يستبقى لنفسه رغم هذا كله من المال ما ينافس به كراسس فيكون أحد رجلين هما أغنى أغنياء رومة .

وكان خوف مجلس الشيوخ من هذه الأعمال أكثر من سروره منها ، فلما علم أن بمبي قد نزل في برندزيوم(٦٢) ومعه جيش يدين له بالولاء والإخلاص ، ويستطيع بكلمة من قائده أن يجعله حاكما بأمره على البلاد ، لما علم مجلس الشيوخ ذلك تملكه الرعب . ولكن بمبي كان رجلا كريماً عظيما ، فسرح جنوده ودخل رومة وليس معه إلا أتباعه الأخصاء . ودام الاحتفال بنصره يومين كاملين ، ولكن هذه الفترة على طولها لم تكف لعرض الحفلات التي تصور انتصاراته وتظهر مغانمه .

وكان مجلس الشيوخ حقوداً ضنيناً ، فرفض طلبه القاضي بتوزيع الأرض على جنوده ، ولم يقر الاتفاقات التي عقدها مع الملوك المغلوبين ، وأعاد النظم التي أقامها من قبله لوكلس في بلاد الشرق والتي أغفلها بمبي . وكانت نتيجة هذه الأعمال أن تمزق اتفاق شيشرون المعروف بحلف الطبقات Concordi ordinum ، وأن ألقى بمبي والرأسماليين في أحضان الطبقات الدنيا واغتنم قيصر هذه الفرصة السانحة فألف منه ومن بمبي وكراسس الحكومة الثلاثية الأولى(٦٣) وتعهدوا جميعاً أن يقاوموا كل تشريع لا يرضى عنه أي واحد منهم . واتفق بمبي أن يساعد قيصر في أن ينتخب قنصلا ، كما تعهد قيصر ، إذا ما اختير لهذا المنصب ، أن ينفذ الاقتراحات التي عرضها بمبي ورفضها مجلس الشيوخ .

وكانت الحملة الانتخابية شديدة مريرة استخدمت فيها الرشوة من كلا الجانبين . ولما سمع كاتو زعيم المحافظين أن حزبه يبتاع أصوات الناخبين تحلل من مبادئه الأولى ووافق على هذا العمل بحجة أنه وسيلة إلى غرض نبيل ، واختار العامة قيصر كما اختار الأشرف ببياوس Pibulus .

وما كاد قيصر يتسلم مقاليد منصبه (٥٩) حتى عرض على مجلس الشيوخ

المطالب التي تقدم بها بمبي : وهي توزيع الأرض على عشرين ألفاً من المواطنين الفقراء ومنهم جنود بمبي ، والتصديق على الاتفاقات التي عقدها بمبي في بلاد الشرق ، وتخفيض المبالغ التي تعهد ملتزمو جمعها من ولايات آسية بمقدار ثلثها .

ولما عارض المجلس كل مطلب من هذه المطالب بجميع ما لديه من وسائل فعل قيصر ما فعله ابنا جراكس ، فعرضها على الجمعية مباشرة . واستطاع المحافظون أن يقنعوا بيبلوس ، كما أقنعوا العرافين بأن يعلنوا أن الحظ غير موات لإجابتها . ولم يأبه قيصر لأقوال العرافين ، وحمل الجمعية على أن تتهم بيبلوس بالخيانة ، وقام رجل متحمس من العامة فأفرغ وعاء من البراز على رأس بيبلوس .

ثم وافقت الجمعية على مشروعات قيصر ، وكانت تجمع ، كما تجمع مشروعات ابني جراكس ، بين السياسة الزراعية وخطة مالية ترضي رجال الأعمال . وأعجب بمبي بوفاء قيصر بعهده ، واتخذ يوليا ابنته زوجة رابعة له ، وأصبح الاتفاق بين العامة والطبقة الوسطى رابطة حب وصداقة . وتعهد أعضاء الحكومة الثلاثية للنجاح المتطرف من أتباعهم أن يؤيدوا پبليوس كلوديوس Publius Clodius في أن ينتخب تربيونا في خريف عام ٥٩ ، وأخذوا يعملون من ذلك الحين للمحافظة على رضاء الناخبين بما يقدمونه لهم من ضروب اللهو والألعاب الكثيرة .

وتقدم قيصر بمشروعه الثاني الخاص بتوزيع الأراضي في شهر إبريل من ذلك العام نفسه . وكان هذا المشروع يقضي بتوزيع الأراضي التي تملكها الدولة في كمپانيا على من كان له ثلاثة أبناء من المواطنين الفقراء ؛ وتجاهل قيصر مجلس الشيوخ مرة أخرى ، وأجازت الجمعية المشروع ، وبذلك تمت الموافقة على سياسة ابني جراكس بعد جهود دامت مائة عام كاملة . ولزم ببيلوس Bibulus في ذلك الوقت بيته واكتفى بأن أخذ يصـــدر من حين إلى حين تصريحات يقول فيها إن الطوالع غير مواتية للتشريعات الجديدة . أما قيصر فكان يصرف الشئون العامة

من غير ان يستشيره فيها ، وبلغ من إهماله إياه أن كان الفكهون من أهل المدينة يصفون هذا العام بأنه « قنصلية يوليوس وقيصر » . وأراد أن يفرض رقابة الشعب على مجلس الشيوخ ، فأنشأ أول صحيفة إخبارية ، بأن جعل الكتبة يسجلون أعمال الشيوخ وغيرهم ، مضافة إلى الأخبار اليومية ، ثم تعلق هذه « الأعمال اليومية » Acta Diurna على جدران السوق العامة ، وتكتب التقارير من هذه « الأعمال اليومية » ، يحملها إلى جميع أجزاء الإمبراطورية رُسل يخصصون لهذا العمل .

وقبل أن تنتهي فترة هذه القنصلية التاريخية أفلح قيصر في أن يعين والياً على بلاد الغالة الجنوبية وغالة ناربونة في الخمس السنين التي تلي سنة القنصلية . وإذ كان القانون يحرم إقامة الجنود في إيطاليا نفسها فإن قيادة الفيالق المقيمة في شمال إيطاليا قد جعلت لصاحبها السيطرة العسكرية على شبه الجزيرة بأكملها . وأراد قيصر أن يستوثق من بقاء تشريعاته السابقة ، فعمل على أن ينتخب صديقاه جابنيوس Gabinius وبيزو Piso قنصلين في عام ٥٨ ، وتزوج كلپرنيا Calpurnia ابنــة بيزو ؛ ولكي يضمن استمرار العامة على تأييده بذل جهوده الموفقة لانتخاب كلوديوس تربيونا في عام ٥٨ . ولم يجز لنفسه أن تتأثر مشروعاته بطلاقه الحديث لزوجته الثالثة پمپيا بسبب ارتيابه في صلاتها غير المشروعة بكلوديوس .

الفصل الثالث

الأخلاق والسياسة

كان پبليوس كلوديوس پلشر Publiws Claudius Pulcher أى پبليوس كاديوس الجميل فرعاً من دوحة آل كلوديوس . وكان شابا أرستقراطيا باسلا لا يهاب الردى ولا يتورع من الناحية الخلقية عن اقتراف أية موبقة . وقد نزل من مرتبته السامية ، كما نزل منها كاتلين وقيصر ، ليقود العامة فى كفاحهم ضد الأغنياء ، وأراد أن يكون من حقه أن يختار تربيونا فأقنع إحدى الأسر الفقيرة فى أن تتبناه ،وأراد أن يعيد توزيع الثروة التى تجمعت فى أيدى بعض الطبقات فى رومة ، وأن يقضى على شيشرون — وكان قد استطال فى عرض أخته كلوديا وأخذ يدافع عن حرمة المِلْكية — فعمل جندياً عادياً تحت إمرة قيصر حتى يستطيع أن يستولى على زمام السلطة . وكان يعجب بخطط قيصر ويعشق زوجته ، واحتال للوصول إليها بأن تزيى بزىّ امرأة ودخل بيت قيصر ، ثم تزيى بزىّ كاهن واشترك فى المراسم الدينية التى يقيمها النساء وحدهن إلى الآلهة الطيبة Bona Dea . ثم افتضح سره ووجهت إليه تهمة الاعتداء على حرمة الإلهة وأسرارها ، وحوكم على هذه التهمة . ولما نودى على قيصر ليشهد عليه قال إنه لا يوجه تهمة ما إلى كلوديوس . فلما سأله المدعى العمومى عن سبب طلاقه پمپيا قال إن سبب هذا الطلاق هو « أن زوجتى يجب أن تكون بعيدة عن الشبهات » .

وكانت هذه إجابة لبقة تسىء إلى ذلك العون السياسى القيم ، ولا تسىء إليه هو ؛ وشهد كثيرون من الشهود بأن كلوديوس كان على اتصال بكلوديا ، وأنه ضاجع أخته ترشيا بعد زواجها من لوكلس : واحتج كلوديوس بأنه كان غائباً عن رومة فى ذلك اليوم الذى يعزى إليه فيه ذلك الاتهام المزعوم الدنىء ، ولكن

شيشرون شهد بأن كلوديوس كان معه فى رومة فى ذلك اليوم نفسه . وظن الشعب أن المسألة كلها مؤامرة من مجلس الشيوخ للقضاء على زعيم من زعمائه ، وأخذ يطالب ببراءته من التهمة الموجهة إليه ؛ ورشا كراسس عدداً من القضاة — بتحريض قيصر كما يقول بعضهم — ليحكموا فى صالح كلوديوس ، واستطاع المتطرفون للمرة الأولى أن يقدموا من المال أكثر مما يقدمه المحافظون ، وبرئ كلوديوس ؛ ولم يدع قيصر هذه الفرصة السانحة تفلت من يده فاستبدل بزوجة من أبناء المحافظين ابنة أحد الشيوخ المناصرين لقضية الشعب .

ولم يكد قيصر يعتزل منصبه حتى اقترح بعض المحافظين إلغاء كل التشريعات التى أصدرها إلغاء تاما ؛ ولم يكتم كاتو رأيه فى هذه « القوانين اليوليوسية » وطالب بمحوها من سجلات القوانين الرومانية . وتردد مجلس الشيوخ فى الاستجابة إلى هذا التحدى الصريح لقيصر ومن ورائه الجحافل الرومانية ، ولكلوديوس المسيطر على التربيونية ؛ وكان كاتو فى عام ٦٣ قد خطب ود الشعب وحاول ضمه إلى جانب المحافظين بإعادة النظام القاضى بتوزيع الغلال على الأهلين بثمن بخس . وأراد كلوديوس أن يكون أكثر منه استرضاء للعامة فأخذ يوزع الغلال من غير ثمن على كل من يطلبها ، وأقرت الجمعية بناء على طلبه مشروعات قوانين تحرم رفض الإجراءات التشريعية بالاستناد إلى الحجج الدينية وتجعل تأليف الهيئات النقابية من الحقوق المشروعة ، وكان مجلس الشيوخ قد حاول من قبل حلها ، وقد أعاد هو تنظيم هذه الهيئات وجعل لها حق الاقتراع مجتمعة ؛ وكسب بذلك ولاءها وإخلاصها له ، فعينت له من أعضائها حرساً مسلحاً . وإذ كان يخشى أن يحاول كاتو وشيشرون ، بعد أن تنتهى فترة توليه منصبه ، إلغاء ما قام به قيصر من الأعمال فقـد أقنع الجمعية بتعيين كاتو مندوباً رومانيا فى قبرص وإصدار قرار يقضى بنفى كل من يتسبب فى قتل أى مواطن رومانى دون أن يحصل على موافقة الجمعية ، كما تتطلب ذلك قوانين الدولة . ورأى شيشرون أنه هو المقصود بهذا القانون ، ففر إلى

بلاد اليونان حيث خذت المدن والشخصيات الكبيرة تتنافس فى تكريمه والاحتفاء بمقدمه . وكان رد الجمعية على هذا القرار أن قررت مصادرة أملاك شيشرون ، وهدم بيته القائم على تل البلاتين Palatine .

وكان من حسن حظ شيشرون أن كلوديوس قد غره ما ناله من نصر ، فأخذ يهاجم بمبي وقيصر ، ويحاول الانفراد بزعامة الشعب . وكان جواب بمبي على خطط كلوديوس أن أيد الطلب الذى تقدم به كونتس Quintus أخو شيشرون بالسماح لخطيب رومة أن يعود إليها . ودعا مجلس الشيوخ جميع المواطنين الرومان إلى الاجتماع فى عاصمة الدولة ليبدوا رأيهم فى هذا الاقتراح . وجاء كلوديوس بعصابة مسلحة إلى ميدان المريخ لتشرف على عملية الاقتراع ، واستخدم بمبي رجلا فقيراً من الأشراف يدعى أنيوس ميلو Annius Milo لتنظيم عصابة أخرى لمناوأتها ، وكانت نتيجـــة ذلك حدوث شغب واضطراب سفكت فيه الدماء ، فقتل عدد كبير من الناس ولم ينج كونتس نفسه من القتل إلا بمعجزة من المعجزات . على أنه أفلح فيما كان يرمى إليه ، وعاد شيشرون ظافراً إلى رومة بعد نفى دام عدة شهور (٥٧) ، وحيته فى طريقه من برنديزيوم إلى رومة جماهير غفيرة بلغت من الكثرة حداً تظاهر معه شيشرون بالخوف من أن يتهم بأنه قد دبر أمر نفيه ليحظى بهذا التكريم العظيم عند عودته[11] .

ويلوح أنه قد تعهد بمناصرة بمبي ، ولعله أيضاً قد تعهد بمناصرة قيصر ، نظير سماحهما بعودته . وشاهد ذلك أن قيصر أقرضه أموالا كثيرة لينظم بها شئونه المالية من جديد ، وأبى أن يتقاضى عليها فائدة[12] ؛ وظل شيشرون بعد عودته عدة سنين المدافع عن أقطاب الحكومة الثلاثية والناطق بلسانهم مجلس الشيوخ .

ولما لاح فى أفق رومة خطر نقص الحبوب مرة أخرى (٥٧) استطاع أن

يحصل لبمبي على تفويض عجيب ، هو أن تكون له السلطة الكاملة مدى ست سنين على كل موارد الطعام فى رومة ، وعلى جميع الدولة وتجارتها الخارجية . واستطاع بمبي مرة أخرى أن يفيد من هذه السلطة أعظم إفادة ، ولكن دستور الجمهورية أصيب مرة أخرى بطعنة نجلاء ، وظل حكم الأفراد يحل محل حكم القانون . وكذلك استطاع شيشرون أن يقنع مجلس الشيوخ بالموافقة على اقتراح عرض عليه بتقديم مبلغ كبير من المال لأداء مرتبات جنود قيصر فى غالة . وفى عام ٥٤ أفلح فى دفاعه عن حكم أولس جابنيوس Aulus Gabinius ، حاكم إحدى الولايات وصديق رجال الحكومة الثلاثية ، حتى برئ من تهمة ابتزاز أموال الولايات واستخدام العنف فى الحصول عليها . وفى عام ٥٥ خسر كل ما كسبه من عطف قيصر ومعونته بهجومه العنيف على وال رومانى آخر يدعى كالپرنيوس پيزو Calpurnius Piso ؛ ذلك أنه لم ينس قط أن پيزو هذا كان من الذين اقترعوا على نفيه ، ونسى أن ابنة پيزو كانت زوجة قيصر .

ولما عاد كاتو من قبرص عام ٥٧ ق . م بعــد أن أعاد تنظيم شئونها على خير وجه شرع المحافظون يلمون شعثهم ويعيدون تنظيم صفوفهم ، وكان كلوديوس قد أضحى وقتئذ عدو بمبي الألد فقبل ما عرضه عليه الأشراف من أن يعيرهم محبة الشعب وعصاباته السفاحة ؟ واتجه الأدب من ذلك الوقت وجهة معادية لقيصر وأخذت قصــائد كلفس Calvus وكاتلس Catullus الهجائيــة تصوّب كالسهام المسمومة إلى معسكر الحكومة الثلاثية . وكلما توغل قيصر فى بلاد الغاليين ، وتواترت أنباء ما كان يلاقيه فيها من الأخطار الكثيرة ، أخذ الأمل يدب من جديد فى صدور الشخصيات النبيلة ، وقال شيشرون وقتئذ إن « من لم يمت بالسيف مات بغيره » .

وإذا جاز لنا أن نصدق ما قاله قيصر ، فإن عدداً من المحافظين قد أخذوا يأتمرون مع أريوفستس Ariovistus القائد الجرمانى على اغتيال قيصر(١٣) . وسارع دمتيوس Domitius يرشح نفسه للقنصلية ، ويعلن أنه إذا ما فاز بها فسيقترح من فوره على المجلس استدعاء قيصر — أى أن قيصر سيتهم ويحاكم . وتلوّن شيشرون بلون الزمان ، فاقترح أن ينظر مجلس الشيوخ فى يومى ٢٥ ، ٢٦ من شهر مايو فى إلغاء قوانين قيصر الخاصة بالأراضى الزراعية .

الفصل الرابع

فتح بلاد غالة

تسلم قيصر فى عام ٥٨ ق . م مهام منصبه ، منصب حاكم بلاد غالة الجنوبية والنربونية ، أى شمالى إيطاليا وجنوبى فرنسا . وكان أريوفستس قد سار فى عام ٧١ ق . م على رأس خمسة عشر ألفاً من الجرمان إلى بلاد الغالة حين استعانته إحدى قبائلها على قبيلة أخرى . وقدم لها القائد الألمانى المعونة التى طلبتها ولكنه لم يغادر البلاد ، بل بقى فيها ليبسط حكمه على جميع القبائل الضاربة فى شمالى غالة الشر . واستنجدت قبيلة الإيدوى Aedui إحدى هذه القبائل برومة لتعينها على الألمان (٦١) . وخول مجلس الشيوخ الحاكم الرومانى على بلاد غالة النربونية حق إجابة هذا الطلب ، ولكنه فى الوقت نفسه تقريباً ضم أريوفستس إلى طائفة الحكام الموالين لرومة . وكان مائة وعشرون ألفاً من الألمان قد عبروا فى هذه الأثناء نهر الرين ، واستقروا فى فلاندرز فشدوا بذلك أزر أريوفستس ، وأخذ يعامل أهل البلاد معاملة الشعوب المغلوبة ، وشرع يمنى نفسه بالاستيلاء على بلاد غالة بأجمعها[١٤] .

وبدأت فى الوقت عينه قبائل الهلفتى Helvetti الضاربة حول جنيفا تهاجر نحو الغرب ، وكانت عدتها نحو ٣٦٨٫٠٠٠ ، وأنذر قيصر بأن هذه القبائل تعتزم اختراق بلاد غالة النربونية فى طريقها إلى جنوبى فرنسا الغربى . ويصف ممسن Mommsen حركات هذه القبائل بقوله : « لقد كانت القبائل الألمانية الضاربة تتحرك فى جميع الأصقاع الممتدة من نهر الرين إلى المحيط الأطلنطى ، وكانت هذه اللحظة شبيهة باللحظة التى انقضت فيها قبائل الألمانى والفرنجة على إمبراطورية القياصرة المتداعية . . . بعد خمسمائة عام من ذلك الوقت »[١٥] وأخذ قيصر يحتال لإنقاذ رومة بينا كانت رومة نفسها تدبر المؤامرات للقضاء عليه .

وجند قيصر من ماله الخاص . ومن غير أن يرجع فى ذلك إلى مجلس الشيوخ — وكان الدستور يحتم عليه الرجوع إليه — نقول جند ثلاث فرق جديدة كاملة العدة زيادة على الأربع الفرق التى كانت تحت إمرته . ثم أرسل يدعو أريوفستس أن يحضر إليه من فوره ليبحث الموقف معه . ورفض أريوفستس الدعوة كما كان قيصر يتوقع وأقبلت وقتئذ على قيصر وفود كثيرة من القبائل الغالية تتطلب إليه حمايتها ، فأعلن الحرب على أريوفستس وقبائل الهلفتى ، واتجه بجيوشه نحو الشمال ودارت بينه وبين جحافل الهلفتى معركة حامية عند ببركتى Bibracte عاصمة الإيدوى ، ومكانها الآن بالقرب من بلدة أوتون Autun الحالية . وانتصرت جيوش قيصر فى هذه المعركة انتصاراً غير حاسم ، أقرب ما يكون إلى الهزيمة ، كما يقول قيصر نفسه ، ونحن مضطرون أن نأخذ عنه هو معظم هذه الأنباء . وعرض الهلفتى أن يعودوا إلى موطنهم فى سويسرا ، ووافق قيصر على أن يؤمنهم فى عودتهم إليه ، ولكنه اشترط عليهم أن تخضع البلاد التى كانوا يحتلونها إلى حكم رومة . وبعثت بلاد الغالة جميعها وقتئذ تشكر له تخليصها من أعدائها ، وترجوه أن يساعدها على طرد أريوفستس . والتقى قيصر بالألمان عند أستيم Astheim(*) ، ودارت بينه وبينهم معركة انتهت بقتلهم أو أسرهم عن آخرهم تقريباً ، كما يقول هو نفسه (٥٨) . وفر أريوفستس من الميدان ولكنه مات بعد ذلك بقليل .

واعتقد قيصر أن تحرير غالة من أعدائها لا يفترق فى شىء عن فتحها ، فشرع من فوره يعيد تنظيمها على أساس خضوعها لسلطان رومة ، وحجته فى ذلك أن هذا التنظيم هو الوسيلة الوحيدة لحمايتها من الألمان . ولم تقنع هذه الحجة بعض الغاليين فثاروا ، واستعانوا عليه البلجى Belgae وهم قبيلة ألمانية كلتية

(*) على بعد عشرة أميال من شاطىء نهر الرين الغربى وعلى بعد ١٦٠ ميلا جنوبى كولونى .

قوية تسكن شمال غالة بين نهرى السين والرين ؛ والتقى بهم قيصر على شواطئ نهر الآين Aisne وهزمهم ، ثم سار بسرعة خاطفة لم تمكن أعداءه من لم شعثهم ، والتقى بالسويسيون Suissiones ، والأمبيانى Ambiani ، والنرفياى Nervii ، والأدوتيشى Aduatici ، وهزم كلا منهم على انفراد ، ونهب بلادهم ، وباع أسراهم لتجار الرقيق الإيطاليين . وأعلن فى ذلك الوقت فتح بلاد الغالة ، وكان فى إعلانه هذا متعجلا بعض الشيء ، وجاراه مجلس الشيوخ فأعلن أن غالة ولاية رومانية ، ورفع العامة فى رومة — ولم يكونوا يقلون فى نزعتهم الاستعمارية عن أى قائد من القواد — عقيرتهم يمجدون بطلهم البعيد . وعاد قيصر فعبر الألب إلى بلاد غالة الجنوبية ، وأخذ يعمل على تنظيم شئونها الإدارية ، وسد ما حدث من النقص فى فيالقه ، ودعا بمبي وكراسس أن يقابلاه فى لوكا ليضع معهما خطة مشتركة للدفاع عن أنفسهم ضد الحركة الرجعية التى يقوم بها المحافظون .

وأرادوا أن يقطعوا الطريق على دمتيوس Domitius فاتفقوا على أن يتقدم بمبي وكراسس للقنصلية فى عام ٥٥ ق . م منافسين له ؛ وعلى أن يعين بمبي والياً على أسبانيا وكراسس على سوريا لمدة خمس سنين (٥٤ — ٥٠) ؛ وأن يظل قيصر والياً على غالة خمس سنين أخرى (٥٣ — ٤٩) ، وعلى أن يسمح له بعد انتهاء هذه الفترة أن يتقدم مرة أخرى للقنصلية .

وأمد قيصر زميليه وصديقيه بما يلزمهما من الأموال التى غنمها من الغاليين لخوض المعركة الانتخابية ؛ وبعث أيضاً بمبالغ طائلة إلى رومة ليوجد ببعضها أعمالا للمتعطلين ، ويدفع منها مكافآت لمؤيديه ، وليرفع ببعضها مكانته فى أعين الشعب بالإقدام على تنفيذ منهاج واسع من المنشآت العامة . وحيا الشيوخ الذين جاءوا ليفحصوا عن غنائمه بالرشا السخية ، فأدى ذلك إلى إخفاق الحركة التى كانت ترمى إلى إلغاء ما أصدره من القوانين . واختير بمبي وكراسس قنصلين بعد أن قدما الرشا السخية المعتادة ، وعاد قيصر يعمل على إقناع الغاليين أن السلام أحلى من الحرية .

وأخذت الأحوال على نهر الرين شمالى كولونى تنذر بالشر المستطير ، عبرت النهر قبيلتان ألمانيتان إلى غالة البلجيكية ، وزحفتا فيها إلى أن وصلتا لييج Liege ، واستعانهما الحزب الوطنى فى غالة على الرومان ، والتقى قيصر بالغزاة عند أكسانتن Xanten (٥٥) ، وصدهم إلى نهر الرين ، وقتل منهم كل من لم يمت فى النهر غرقاً رجالا كانوا أو نساءً أو أطفالا . ثم أقام مهندسوه فى عشرة أيام جسراً على النهر العظيم ، وكان عرضه وقتئذ ١٤٠٠ قدم ، وعبرت عليه فيالق قيصر ، وحاربت أعداءها فى الأراضى الألمانية زمناً يكفى لجعل نهر الرين حداً آمناً للدولة الرومانية ، ثم عاد بعد أسبوعين إلى بلاد غالة .

ولسنا نعرف السبب الذى حدا به إلى غزو بريطانيا فى ذلك الوقت ، ولعله قد أغراه بهذا الغزو ما وصل إلى علمه من الشائعات عن كثرة الذهب واللؤلؤ فيها ، أو لعله كان يرغب فى الاستيلاء على ما فى بريطانيا من قصدير وحديد لتصدره رومة إلى البلاد الخارجية ، أو لعله قد أغضبه ما قدمته بريطانيا من عون إلى الغاليين ، وأنه رأى أن يجعل السلطة الرومانية فى غالة آمنة من جميع جهاتها . ومهما يكن السبب فقد سار على رأس قوة صغيرة عبر بها بحر المنش فى أضيق أجزائه ، وهزم البريطانيين الذين لم يكونوا مستعدين لحربه ، وأخذ عن البلاد بعض المعلومات القليلة ، ثم قفل راجعاً (٥٥) . لكنه عبر البحر إليها مرة أخرى فى العام الثانى وهزم البريطانيين بقيادة كسفلونس Cassivelaunus ، ووصل إلى نهر التاميز ، وانتزع من أهل البلاد وعداً بأن يعطوا الجزية ، ثم رجع إلى غالة .

ولعل سبب رجوعه أنه سمع أن الثورة يكاد يندلع لهيبها مرة أخرى بين القبائل الغالية ، فلما عاد أخضع أولا الإبورون Eburones . ثم زحف على ألمانيا (٥٣) . ولما عاد منها ترك الجزء الأكبر من جيشه فى غالة الشمالية ، ثم ذهب مع من بقى من هذا الجيش ليقضى الشتاء فى شمالى إيطاليا ، وكان يرجو أن يخصص بضعة شهور لإصلاح أسواره فى رومة ، ولكنه سمع فى أوائل عام ٥٢ أن

ڤرسنجترِكس **Vercingetorix** أقدر الزعماء الغاليين قد حشد كل القبائل الغالية تقريباً فى حرب تبغى بها أن تستعيد استقلالها ، وبذلك أصبح مركز قيصر شديد الحرج لأن الجزء الأكبر من جيشه كان فى شمال إيطاليا ، والأقاليم الواقعة بينه وبين هذا الجيش فى أيدى الثوار . ولكنه سار على رأس قوة صغيرة فوق ثلوج جبال السفن **Cevennes** وهاجم مدينة أوڤرنى **Auvergne** . ولما جاء ڤرسنجترِكس بقوته ليدافع عنها ولى قيصر دسمس بروتس **Decimus Brutus** قيادة جنوده الذين كانوا يهاجمونها ، وسار هو متخفياً ومعه عدد كبير من الفرسان مخترقاً بلاد غالة من الجنوب إلى الشمال ، وانضم إلى جيشه الرئيسى ، وقاده من فوره إلى القتال ، وحاصر أڤريكوم **Avaricum** (بورج **Bourgas**) وسنابوم **Cenabum** (أورليان **Orleans**) ، واستولى عليهما ، وأعمل فيهما السلب والنهب ، وقتل أهلهما ، وملأ بكنوزهما خزائنه الخاوية . ثم زحف بجيشه على جرجڤيا **Gergovia** حيث قاومه الغاليون مقاومة عنيفة اضطرته إلى الانسحاب وفى ذلك الوقت تخلى عنه الأدويون الذين أنجاهم قبل من الألمان ، والذين بقوا حتى ذلك الوقت أنصاراً له وحلفاء ، ثم استولوا على قواعده ومخازن ميرته فى سواسون **Soissons** ، وشرعوا يستعدون لرده إلى بلاد غالة النربونية .

وكان هذا هو الوقت الذى ساءت فيه أحوال قيصر كما لم تسؤ من قبل ولا من بعد ، ومرت به بعض الأيام فقد فيها كل أمل فى النجاة . وفى هذا الوقت العصيب ضرب الحصار على أليزيا **Alesia** (أليز سنت رين **Alise Ste-Reine**) ، وجازف بكل شىء فى هذا الحصار لأن ڤرسنجترِكس جمع فيها ثلاثين ألفاً من جنوده . وما كاد قيصر يوزع مثل هذا العدد من الجند حول المدينة حتى وصلته الأنباء بأن ٢٥٠,٠٠٠ من الغاليين بدءوا يزحفون نحو المدينة من الشمال . فما كان منه إلا أن أمر جنوده بأن يقيموا حول المدينة سورين دائريين من التراب ، أحدهما من أمامهم والآخر من خلفهم ، وانقضت جيوش ڤرسنجترِكس وحلفائه

على هذين السورين وعلى الجيوش الرومانية الباسلة وهاجمتها المرة بعد المرة ، ولكنها باءت فى كل هجماتها بالخسران . وواصل الجيش المنقذ هجماته على هذا النحو أسبوعاً كاملا ، ثم تبدد شمله لاختلال نظامه ونقص طعامه وعتاده ، واستحال هذا الجيش فلولاً لا حول لها ولا طول فى الساعة التى نفذت فيها موارد الرومان ، ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى بعثت المدينة الجائعة فرسنجتركس نفسه بناء على طلبه إلى قيصر أسير حرب ، ثم استسلمت الرومان ووضعت نفسها تحت رحمتهم (٥٢) . وعفا قيصر عن المدينة فلم يمسسها بسوء ، ولكنه أسلم جنودها لرجال جيشه ليكونوا رقيقاً لهم . وسيق فرسنجتركس مكبلا بالأغلال إلى رومة حيث سار فيما بعد يزين موكب نصر قيصر ، وجوزى بالقتل على حبه للحرية .

وقرر حصار إلزيا مصير بلاد غالة ، كما قرر خصائص الحضارة الفرنسية . ذلك أنه أضاف إلى الإمبراطورية الرومانية بلاداً تبلغ مساحتها ضعفى مساحة إيطاليا وفتح خزائن خمسة ملايين من الناس وأسواقهم إلى التجارة الرومانية . يضاف إلى هذا أن ذلك الحصار أنجى إيطاليا وعالم البحر الأبيض المتوسط مدة أربعة قرون من غارات البرابرة ، وانتشل قيصر مرة أخرى من حافة هاوية الخراب إلى ذروة المجد والثروة والسلطان . وظلت بلاد غالة عاماً آخر تثور ثورات متفرقة عقيمة ، أخمدها قيصر بقسوة لم تألفها منه ، ثم خضعت لرومة وأسلمت لها أمورها . وما كاد يتم له النصر حتى عاد قيصر كما كان الفاتح الشهم الكريم ، فعامل القبائل المغلوبة معاملة لينة كان من آثارها أن هذه القبائل لم تتحرك قط لتخلع عن كاهلها نير رومة حين شبت فيها نار الحرب الأهلية ، ولم يكن فى مقدورها ولا فى مقدور قيصر أن يؤدبا هـذه القبائل . وظلت بلاد غالة بعـدئذ ثلثمائة عام ولاية رومانية يعمها الرخاء فى ظلال السلم الرومانية ، وتعلمت فى خلالها اللغة اللاتينية ، وأدخلت عليها كثيراً من التغيير حتى أصبحت الأداة التى نقلت بها ثقافة العهود الغابرة إلى

شمالى أوربا . ولا جدال فى أن قيصر ومعاصريه لم يكونوا يدركون ما سوف تتمخض عنه انتصاراته الدموية من نتائج بعيدة المدى ، فقد كان أقصى ما يظنه أنه أنقذ إيطاليا ، وضم لها ولاية جديدة ، وأنشأ لها جيشاً قوياً ، لكنه لم يدر بخلده أنه منشئ الحضارة الفرنسية .

ودهشت رومة إذ وجدت أن قيصر إدارى قادر لا يعتريه ملل ، وقائد محنك واسع الحيلة ، بعد أن لم تكن تعرف عنه أكثر من أنه رجل متلاف رقيع ، وسياسى ، ومصلح . ثم أدركت فى الوقت عينه أنه مؤرخ عظيم . ذلك أنه وهو فى ميادين القتال تقض مضجعه الهجمات المتوالية عليه من رومة ، كان يسجل فتوحه فى غالة ، ويدافع عن هذه الفتوح فى شروحه Commentaries ، وقد سما بها إيجازها العسكرى — إذا جاز أن نصفها بهذا الوصف — وبساطتها الفنية من منزلة النشرات الحزبية إلى أسمى مكان فى الأدب اللاتينى . وحتى شيشرون نفسه ، بعد أن تقلب مرة أخرى فى مبادئه السياسية ، أخذ يتغنى بمدح قيصر ويستعجل فى ذلك الوقت ما حكم به عليه التاريخ فيما بعد إذ قال :

ليست معاقل الألب المنيعة ، ولا مياه الرين الفياضة الصاخبة ، هى الدرع الحقيقى الذى صد عنا غارات الغاليين والقبائل الألمانية الهمجية ، بل الذى صدها فى اعتقادى هو قيادة قيصر وقوة ساعديه . ولو أن الجبال دكت وسويت بالسهول ، والأنهار جفت ، لاستطعنا أن نحتفظ ببلادنا حصينة منيعة بفضل ما نال قيصر من نصر مؤزر وما قام به من أعمال مجيدة . ألا ما أعظم فضله علينا[١٦] .

ويجب أن نضيف إلى هذا ما أثنى به عليه ألمانى عظيم إذ قال :

إذا كان ثمة جسر يربط ماضى هلاس ورومة المجيد بتاريخ أوربا

الحديث ، الذى هو أعظم منه مجداً وأسمى قدراً ، وإذا كان غرب أوربا رومانياً ، وإذا كانت أوربا الألمانية قد صبغت بالصبغة اليونانية والرومانية القديمة ... فما ذلك كله إلا من عمل قيصر ؛ وإذا كان ما أوجده سلفه العظيم(*) فى بلاد الشرق قد كادت تمحو معالمه كلها زعازع العصور الوسطى ، فإن الصرح الذى شاده قيصر ظل قائماً آلاف السنين التى تبدلت فيها الأديان وتغيرت الدولة[17]

(*) يريد الإسكندر الأكبر . (المترجم)

الفصل الخامس

فساد الدمقراطية

انحطت السياسة الرومانية فى خلال الخمس السنين الثانية من ولاية قيصر على غالة إلى الدرك الأسفل من الفساد والعنف ، فقد كان القنصلان بمپى وكراسس يسيران فى حكمهما على خطة شراء أصوات الناخبين ، وإرهاب المخالفين ، والالتجاء إلى القتل فى بعض الأحيان(١٨) ، ولما انقضت مدة ولايتهما جند كراسس جيشاً كبيراً وأبحر به إلى سوريا ، ثم عبر نهر الفرات ، والتقى بالپارثيين عنـــد كرهية Carrhae ، ودارت الدائرة عليه لتفوق فرسان الپارثيين ، وقُتل ولده فى المعركة .

وبينا كان كراسس يرتد بقواته بنظام ، دعاه قائد الپارثيين إلى الاجتماع به ، فأجاب الدعوة ، ولكن القائد الپارثى غدر به وقتله ، وأرسل رأسه ليمثل به دور بنثيوس Bentheus فى احتفال فى بلاط ملك الپارثيين ، مثلث فيه مسرحية باخية Bacchae ليورپديز Euripidis . وأصبح جيشه بغير قيادة ، وكان قد مل القتال ، فانحلت عراه وتبدد شمله (٥٣) .

وكان بمپى فى هذه الأثناء قد جمع له جيشاً ، ولعله كان يبغى به إتمام فتح أسبانيا ، ولو أن قيصر نجح فى خططه لفتح بمپى أسبانيا القاصية ، ولأخضع كراسس أرمينية وپارثيا ، ولبسطت رومة سلطانها على هذه البلاد جميعها فى الوقت الذى كان فيه قيصر يمد حدود الإمبراطورية الرومانية إلى نهرى التامز والرين . ولكن بمپى أبقى فيالقه فى إيطاليا بدل أن يقودها إلى أسبانيا ، إلا فيلقاً واحداً أعاره قيصر إبان الأزمة التى نجمت عن ثورة الغاليين . وحدث فى عام ٥٤ أن انفصمت العروة الوثقى التى كانت تربطه بقيصر على أثر وفاة زوجته يوليا فى أثناء

الوضع ، وعرض عليه قيصر أن يزوجه أكتافيا حفيدة أخيه وأقرب قريباته في ذلك الوقت ، وطلب أن يتزوج هو بابنـــة بمبي ، ولكنه رفض كلا العرضين . وأخلت النكبة التي حلت بكراسس وجيشه في العام التالي من الميدان قوة أخرى كانت تعمل على إيجاد التوازن فيه . ذلك أن نجاح كراسس كان من شأنه أن يحول دون طغيان قيصر أو بمبي . وعقد بمبي من ذلك الوقت حلفاً صريحاً مع المحافظين ، ولم يبق أمامه لنجاح خططه التي كان يبغي بها الحصول على السلطة العليا بالطرق المشروعة في الظاهر إلا عقبة واحدة ، هي مطامع قيصر وجيشه . وكان يعرف أن قيادة قيصر للجيش تنتهي في عام ٤٩ ، فاستصدر مراسيم تقضي بمد أجل قيادته هو إلى آخر عام ٤٦ ، وطلب إلى جميع الإيطاليين القادرين على حمل السلاح أن يحلفوا يمين الولاء العسكري له هو شخصياً ، وكان يعتقد بعد هذا أن الزمن كفيل بأن يجعله سيد رومة[١٩] .

وبينا كان القائدان اللذان يبغي كلاهما أن يكون الحاكم بأمره في رومة يضعان خططهما على هذا النحو كانت الديمقراطية تحتضر في عاصمة البلاد ، فكانت الأحكام القضائية ، ومناصب الدولة ، وعروش الملوك الخاضعين لسلطانها ، تباع إلى من يعرض فيها أغلى الأثمان . من ذلك أن القسم الأول من المقترعين في الجمعية قد استولى في عام ٥٣ على عشرة ملايين سسترس ثمناً لأصوات أفراده [٢٠] . ولما لم ينفع المال لم يتورع ذوو الشأن عن الالتجاء إلى الاغتيال[٢١] أو كشف الستار عن ماضي الناس ، والتهديد بالكشف عن فضائحهم ، فلم يروا أمامهم سبيلا غير الإذعان . وفشا الإجرام في المدينة كما انتشرت السرقات في الأقاليم ، ولم يكن في هذه ولا في تلك قوة من الشرطة تطمئن الناس على أنفسهم أو أموالهم ، فكان الأغنياء يستأجرون عصابات من المجالدين يدفعون عنهم الأذى أو يؤيدونهم في الجمعية . واستهوت رائحة المال أو هبات الحبوب أحط الطبقات في إيطاليا فهرعت إلى رومة ، وجعلت اجتماعات الجمعية مهزلة من المهازل ، فكان كل من يقبل

الاقتراع كما يطلب إليه يؤذن له بدخولها سواء كان من مواطنى رومة أو من غير مواطنيها ؛ وكان يحدث فى بعض الأحيان ألا يكون من بين من أعطوا أصواتهم إلا أقلية صغيرة هى التى لها حق الاقتراع . وكثيراً ما كان الخطباء يحصلون على حق الخطابة فى الجمعية بالهجوم على المنصة والاستيلاء عليها قوة واقتداراً . وأضحت العصابة التى ترفعها قوتها على سائر العصابات المنافسة لها هى التى تشرع للدولة ، كما كان الذين يقترعون على غير هواها يضربون حتى يكاد يقضى عليهم ، ثم تشعل النار بعد الضرب فى بيوتهم . وقد كتب شيشرون بعد جلسة من هذه الجلسات يقول :

« لقد امتلأ التيبر بجثث المواطنين كما سدت بها البالوعات العامة ، واضطر الأرقاء إلى امتصاص الدم بالإسفنج من السوق العامة »(٢٢) .

وكان كلوديوس وميلو أعظم الخبراء الممتازين فى هذه المهزلة البرلمانية ؛ فقد كانا ينظمان عصابات من أحط الطبقات ليصلوا بها إلى أغراضهم السياسية ، وقلما كان يوم واحد يمر دون أن توضع قوة هذه العصابات موضع الاختبار ؛ من ذلك أن كلوديوس هاجم شيشرون فى أحد شوارع المدينة فى يوم من الأيام ، وحرق أجراؤه بيت ميلو فى يوم ثان ، ثم قبضت عصابات ميلو على كلوديوس نفسه فى يوم آخر وقتلته (٥٢) ، غير أن صعاليك المدينة الذين لم يكونوا يجهلون ما يدبره من المؤامرات رفعوه إلى مقام الشهداء ، واحتفلوا بجنازته احتفالا عظيما ، وجاءوا بجثته إلى مجلس الشيوخ ، وحرقوا البناء فوقها كأنه كومة الحطب التى تحرق عليها جثث الموتى .

وجاء بمبى بجنوده ففرقوا الغوغاء ، ثم طلب إلى المجلس جزاء له على عمله هذا أن يعينه « قنصلا بغير زميل » ، وهى عبارة نصح بها كاتو وقال إنها أخف على السمع من لفظ دكتاتور ؛ ثم عرض بمبى على الجمعية ، بعد أن أرهبها بجنده ، عدة اقتراحات يبغى بها القضاء على الرشوة والفساد السياسيين المنتشرين فى البلاد ، كما عرض عليها

اقتراحاً بإلغاء حق المرشح لمنصب القنصل أن يفعل هذا وهو غائب عن رومة ، (وكانت الجمعية قد منحت قيصر هذا الحق بناء على مشروع قانون عرضه عليها بمبي نفسه فى عام ٥٥) . وأخذ يشرف بنفسه على قوة الدولة العسكرية ، وعلى أعمال المحاكم ؛ ولم يؤخذ عليه فى هذا الإشرا شيء من الهوى أو المحاباة . وحوكم ميلو على جريمة قتل كلوديوس وأدين على الرغم من دفاع شيشرون عنه(*) ثم هرب إلى مرسيليا . وغادر شيشرون رومة ليحكم قليقية (٥١) ، وحكمها بكفاية ونزاهة أدهشتا أصدقاءه وأغضبتهم عليه . ثم استسلمت عناصر الثروة والنظام كلها فى عاصمة البلاد إلى دكتاتورية بمبي ، أما الطبقات الفقيرة فظلت صابرة تتلهف على عودة قيصر

(*) وقد أدخل كثير من التعديل على نص الخطبة الذى وصل إلينا ، حتى بلغ الاختلاف بينه وبين النص الأصلى – وكانت عباراته قد اضطربت بسبب ما ساد من الهرج بفعل أعدائه حين إلقائها – مبلغاً حمل ميلو حين قرأها على أن يصيح قائلا : « أى شيشرون ! لو أنك نطقت بما كتبت لما كنت الآن آكل السمك الجيد فى مرسيلية »(٢٣) .

الفصل السادس

الحرب الأهليـــة

دامت الفتن والثورات فى الدولة الرومانية مائة عام ، حطمت فى خلالها كيان الطبقة الأرستقراطية الأنانية القليلة العدد التى كانت تتولى شئون الحكم فى البلاد ، ولكنها لم تحل حكومة أخرى محلها . فأما الجمعية فقد أفسدها التعطل والرشوة والخبز ومجالدة الوحوش ، فأحالتها إلى جماعة من الغوغاء الجهلة تسيطر عليهم أهواؤهم وشهواتهم ، فكانت بذلك عاجزة أشد العجز عن حكم نفسها بله حكم إمبراطورية واسعة الرقعة . وانحطت الدمقراطية حتى أضحت وكأنها هى المعنية بقول أفلاطون : « صارت الحرية إباحية ، وأخذت الفوضى تتوسل أن يوضع حد للحرية »[٢٤] . ولم يختلف قيصر مع ممبى فى أن الجمهورية قد ماتت ، وأنها أصبحت على حد قوله : اسماً على غير مسمى لا جسم لها ولا صورة » .[٢٥] ولم يكن ثمة مفر من الدكتاتورية ، ولكنه كان يريد أن يضع أزمة الأمور فى أيدى قيادة تعمل لتقدمها ورقيها ، قيادة غير جامدة لا تبقى البـــلاد على حالها التى تردت فيها ، بل تبذل جهودها لتخفيف ما يتغلغل فيها من مفاسد ومظالم وفاقة أفسدت الدمقراطية وهوت بها إلى الحضيض .

وكان قيصر وقتئذ فى الرابعة والخمسين من عمره ، وما من شك فى أنه قد أوهنته حروبه الطويلة فى غالة ، وأنه لم يكن يحب أن يتورط فى محاربة مواطنيه وأصدقائه السابقين ، ولكنه كان على علم بالمؤامرات التى تحاك له ، والفخاخ التى تنصب لاقتناصه ، وكان يؤلمه أشد الألم أن تكون هذه المؤامرات والفخاخ هى الجزاء الذى يجزى به من أنجى إيطاليا من الدمار والخراب . وكانت مدة حكمه فى غالة تنتهى فى اليوم الأول من شهر مارس سنة ٤٩ ق . م ، ولم يكن فى وسعه أن يتقدم للقنصلية إلا فى

خريف ذلك العام ، وفى الفترة الواقعة بين الزمنين يفقد الحصانة التى يسبغها عليه منصبه ، ولا يستطيع دخول رومة دون أن يعرض نفسه للاتهام بأنه خارج على القانون ، وهو السلاح المألوف الذى كانت تلجأ إليه الأحزاب المختلفة فى رومة فى نزاعها على السلطة . وكان ماركس مارسلس Marcus Marcellus قد عرض قبل ذلك الوقت على مجلس الشيوخ أن يعزل قيصر من الولاية قبل انتهاء مدتها ، ومعنى هذا العزل هو البقاء خارج البلاد أو المحاكمة ، وكان التربيونان قد أنجياه من هذه المكيدة باستخدام ما لهما من حق الاعتراض ، ولكن مجلس الشيوخ كان بلا ريب راضيا عن هذا الاقتراح ، وقال كاتو بصريح العبارة إنه يرجو أن توجه التهمة إلى قيصر ، وأن يحاكم وينفى من إيطاليا .

أما قيصر نفسه فلم يدخر جهداً فى العمل على إزالة أسباب النزاع بينه وبين خصومه . فلما أن طلب مجلس الشيوخ بإيعاز بمپى أن يتخلى له كلا القائدين عن فيلق يرسله لقتال پارثيا ، أجابابه قيصر من فوره إلى طلبه ، وإن لم تكن القوة التى لديه كبيرة . ولما طلب بمپى إلى قيصر أن يعـــيد إليه الفيلق الذى أرسله له قبل عام من ذلك الوقت ، بادر أيضاً بإرساله إليه ، وإن كان أصدقاؤه قد أبلغوه أن الفيلقين لم يرسلا إلى پارثيا بل بقيا فى كاپوا . وطلب قيصر على لسان مؤيديه فى مجلس الشيوخ أن يعاد العمل بقرار الجمعية السابق الذى كان يجيز له أن يرشح نفسه لمنصب القنصلية وهو غائب عن رومة ، ولكن المجلس رفض الاقتراح وطلب إلى قيصر أن يسرح جنوده . وأحس هو أن ليس له سند يحميه إلا فيالقه ، ولعله لم يكن يعمل لكسب ولائهم له إلا ليقفوا إلى جانبه فى مثل هذه الأزمة . غير أنه فى ذلك الوقت عرض على مجلس الشيوخ أن يعتزل هو وبمپى منصبيهما — وبدا هذا العرض معقولا لا غبار عليه فى نظر الشعب ، حتى أنه كلل جبين رسوله بالأزهار ووافق المجلس على هذه الخطة بأغلبية ٣٧٠ ضد ٢٢ ، ولكن بمپى أبى أن يخضع لهذا القرار ، حتى إذا أشرف عام ٥٠ على الانتهاء ولم يبق منه إلا بضعة

أيام ، أعلن أن قيصر عدو الشعب إذ لم يتخل عن القيادة قبل اليوم الأول من شهر يولية : وفى أول عام ٤٩ قرأ كوريو Curio على المجلس رسالة من قيصر يعلن فيها استعداده لتسريح جيشه كله عدا فيلقين اثنين إذا سمح له بأن يظل والياً على غالة حتى عام ٤٨ ، ولكنه أفسد هذا العرض بأن أضاف إليه أنه يرى فى رفضه إعلاناً للحرب عليه ، ودافع شيشرون عن هذا الاقتراح ، ووافق عليه بمبى ، ولكن القنصل لنتولس Lentulus تدخل فى الأمر وأخرج كوريو Curio وأنطونيوس نصيرى قيصر من المجلس[٢٦] ، وبعد نقاش طويل أصدر المجلس على كره منه وبإلحاح لنتولس وكاتو ومارسلس إلى بمبى أمراً وسلطة « يعمل بهما على ألا تصاب الدولة بسوء » : وتلك عبارة رومانية معناها الدكتاتورية والحكم العسكرى .

وتباطأ قيصر وتردد أكثر مما كانت عادته : فقد كان مجلس الشيوخ من الوجهة القانونية على حق فيما فعل ، ولم يكن من حقه هو أن يعرض الشروط التى يعتزل بمقتضاها منصبه وقيادته ؛ وكان يعرف أن الحرب الأهلية قد تثير الفتنة فى غالة وتخرب إيطاليا بأجمعها ، ولكنه كان يعلم أيضاً أن استسلامه معناه إسلام الإمبراطورية للعجز والرجعية ، وترامى إليه فى أثناء تفكيره أن صديقاً من أقرب الأصدقاء إليه ومن أقدر مؤيديه وهو تيتس لبيلس Titus Labienus قد انشق عليه وانضم إلى بمبى ، فما كان منه إلا أن استدعى الفيلق الثالث عشر ، أكثر فيالقه ولاء له وأحبها إلى قلبه ، وعرض الأمر كله على رجاله . وكانت أول كلمة نطق بها أمامهم وهى « زملائى الجنود : Commilitones » كافية لكسب قلوبهم ، ولم يكونوا ينكرون عليه حقه فى استعمال هذا اللفظ لأنهم رأوه من قبل يشترك معهم فى الصعاب ويتعرض معهم للأخطار ، وكثيراً ما شكوا هم أنفسهم من أنه يجازف بحياته ويعرضها للخطر فوق ما يجب . وكان هو على الدوام يخاطبهم بهذا اللفظ بدل اللفظ المقتضب الجاف الذى كان ينطق به من هم أقل منه مجاملة

من القواد . وكان معظم رجاله من بلاد الغالة الجنوبية ، وهى البلاد التى جعل لأهلها حق المواطنين الرومان ، وكانوا يعرفون أن مجلس الشيوخ قد أبى أن يعترف لهم بهذه المنحة ، وأن أحد أعضائه قد جلد رجلا من أهلها ليدل بذلك على احتقاره لعمل قيصر ، على الرغم من أن جلد المواطن الرومانى كان عملا لا يجيزه القانون . وكان قيصر قد علمهم فى أثناء حروبهم الطويلة أن يحترموه – بل أن يحبوه على طريقتهم الخشنة الصامتة فى الحب . وكان قاسياً على الجبناء ومن لا يرعون النظام ، ولكنه كان سمحاً ليناً لا يقسو عليهم جزاء لهم على أغلاطهم التى تدفعهم إليها طبيعتهم البشرية ، وكان يتغاضى عن أخطائهم الجنسية ويجنبهم ما لا ضرورة له من الأخطار ، وكثيراً ما أنجاهم من الهلاك بحنكته وحسن قيادته . هذا إلى أنه ضاعف أجورهم ، ووزع عليهم كثيراً من غنائمه الحربية ، ولما جاءوا إليه شرح لهم ما عرضه على مجلس الشيوخ ، وكيف قابل المجلس هذه العروض ، وذكر لهم أن الأرستقراطية المتعطلة الفاسدة لا تستطيع أن توفر لرومة النظام والعدالة والرخاء ، وسألهم هل يتبعوه ؟ فلم يعارض واحد منهم ، ولما قال لهم إنه ليس لديه مال يؤدى منه أجورهم جاءوا إلى خزائنه بكل ما كان مدخراً لديهم .

وفى اليوم العاشر من شهر يناير من عام ٤٩ ق . م عبر بأحد فيالقه الروبيكون وهو مجرى صغير بالقرب من أريمينوم Ariminum كان هو الحد الجنوبى لغالة الجنوبية . ويقال إنه قد نطق فى ذلك الوقت بقوله المأثور : « لقد قضى الأمر » Iacta est alea [٢٧] ، وخيل إلى الناس أن هذا العمل هو الحمق بعينه لأن الفيالق الخمسة الباقية من جيشه كانت لا تزال بعيدة عنه فى بلاد غالة لا تستطيع اللحاق به إلا بعد عدة أسابيع ، على حين أن بمپى كان لديه عشرة فيالق ، أى ستون ألف جندى ، وكان من حقه أن يجند ما يشاء من الفيالق الأخرى ، ولديه من المال ما يكفى لتسليحهم وإطعامهم . وانضم بعدئذ إلى قيصر الفيلق الثانى عشر من فيالقه عند پسينوم Picenum ، والفيلق الثامن عند كورفنيوم Corfinium ، ثم

أنشأ ثلاثة فيالق جديدة من أسرى الحرب ومن المتطوعين ومن أهـــل البلاد ؛ ولم يكن يلقى صعوبة فى جمع الجنود لأن إيطاليا لم تكن قد نسيت بعد ما قاسته فى الحرب الاجتماعية (٨٨) ، كانت ترى فى قيصر البطل المدافع عن حقوق الإيطاليين ، فكانت مدائنها تفتح أبوابها لاستقباله واحدة بعد أخرى ، وكثيراً ما خرج سكان بعض هذه المدائن على بكرة أبيهم ليحيوه ويرحبوا به[٢٨] ، وقد كتب شيشرون فى ذلك يقول : « إن المدن تحييه كأنه إله معبود»[٢٩] ، وقاومت كورفنيوم مقاومة قصيرة الأجل ، ثم استسلمت له ولم يسمح لجنوده أن ينهبوها ، وأطلق سراح من قبض عليهم من الضباط ، وبعث إلى معسكر بمپى بكل ما تركه لبينس Labienus من المال والعتاد . ولم يشأ أن يصادر ضياع من وقع فى يده من الأعداء وإن كان فى ذلك الوقت معدماً فقيراً لا يكاد يملك شيئاً من المال — وكانت هذه خطة حميدة يمتاز بها قيصر ، كان من أثرها أن وقفت كثرة الطبقة الوسطى من الأهلين على الحياد . وأعلن فى ذلك الوقت أنه سيعد كل المحايدين أصدقاء له وأنصاراً . وكان فى كل خطوة يخطوها إلى الأمام يعرض عروضاً للصلح على أعدائه : من ذلك أنه أرسل إلى لنتولس Lentulus رسالة يرجوه فيها أن يستخدم ما يخلعه عليه منصب القنصل من نفوذ ليعيد السلم إلى البلاد ، وعرض فى رسالة كتبها إلى شيشرون استعداده لاعتزال الحياة العامة وترك المجال إلى بمپى على شرط أن يسمح له بأن يعيش آمناً على حياته[٣٠] ، وبذل شيشرون جهده فى التوفيق بين القائدين ، ولكن منطقه لم يجده نفعاً أمام تعسف الثورة ودعاواها المتعارضة[٣١] .

ولما تقدم قيصر نحو العاصمة انسحب بمپى هو وجنوده منها وإن كانت جيوشه وقتئذ لا تزال أكثر من جيوش قيصر عدداً . وانسحب من ورائه فى غير نظام عدد كبير من الأشراف تاركين وراءهم زوجاتهم وأبناءهم تحت رحمة قيصر . ورفض بمپى عروض الصلح جميعها ، وأعلن أنه سيعد كل من

لم يغادر رومة وينضم إلى معسكره عدوًّا له . ولكن الكثرة العظمى من أعضاء مجلس الشيوخ بقيت فى رومة ، وتذبذب شيشرون بين الفريقين ، وكان يحتقر تردد پمپى وخور عزيمته ، فقسم وقته بين ضياعه فى الريف وسار پمپى إلى برنديزيوم وعبر بجنوده البحر الأدرياوى . وكان يعرف أن جيشه يعوزه النظام ، وأنه فى حاجة إلى كثير من التدريب قبل أن يستطيع الصمود فى وجه فيالق قيصر ، وكان يرجو أن يستطيع الأسطول الرومانى الذى يسيطر هو عليه أن يجوّع إيطاليا فى هذه الأثناء ويدفعها إلى إبادة عدوه .

ودخل قيصر رومة فى اليوم السادس عشر من مارس دون أن يلقى فى دخولها أية مقاومة ، دخلها وهو مجرد من السلاح لأنه ترك جنوده فى البلدان المجاورة لها ، وأعلن حين دخولها العفو العام عن جميع أهلها ، وأعاد إليها الإدارة البلدية والنظام الاجتماعى . ودعا التربيونان مجلس الشيوخ إلى الانعقاد وطلب إليه قيصر أن يعيّنه حاكماً بأمره (دكتاتوراً) ، ولكن المجلس لم يجبه إلى طلبه ، ثم عرض على المجلس أن يبعث رسلا إلى پمپى ليفاوضوه فى عقد الصلح فرفض ذلك أيضاً . فطلب المال من الخزانة العامة فوقف فى سبيله التربيون لوسيوس متلس **Lucius Metellus** فلما قال قيصر إن النطق بعبارات التهديد أصعب عليه من تنفيذها خضع متلس ؛ واستطاع من ذلك الوقت أن يكون حر التصرف فى أموال الدولة ، ولكنه كان نزيهاً كل النزاهة ، فأودع فى الخزانة العامة كل ما غنمه من الأموال فى حروبه الأخيرة . ولما تم له ذلك عاد إلى جنوده واستعد لملاقاة الجيوش الثلاثة التى كان پمپى وأنصاره يعدونها فى بلاد اليونان وأفريقية وأسپانيا ، وأراد أن يضمن لإيطاليا كفايتها من الحبوب التى تعتمد عليها فى حياتها ، فأرسل كوريو **Curio** المتهور العنيف ومعه فيلقان من جيشه ليستولى على صقلية ، فلما نزل فى الجزيرة سلمها إليه كاتو وانسحب منها إلى أفريقية ، فاندفع وراءه كوريو اندفاع رجيولوس **Regulus** ، واشتبك معه فى معركة

لم يكن قد كمل استعداده هو لها ، فهزم وقتل فى ميدان القتال . ولم يندم عند وفاته على ما أصابه بل ندم أشد الندم على ما ألحقه من الأذى بقيصر.

وكان قيصر فى هذه الأثناء قد سار على رأس جيش إلى أسپانيا ، وكان غرضه من هذا الزحف أن يضمن عودتها إلى تصدير الحبوب إلى إيطاليا ، وأن يحول بينها وبين الهجوم على مؤخرته حين يزحف لملاقاة پمپى ، وارتكب فى إيطاليا كما ارتكب فى غالة عدة أغلاط عسكرية فنية[٣٢] ، كانت عاقبتها أن تعرض جيشه — الذى كان أقل من جيش أعدائه عدداً — للهزيمة وللهلاك جوعاً ؛ ولكنه أنجاه وأنجى نفسه ، كمألوف عادته ، بسرعة خاطره وشجاعته[٣٣] ، فقد حوّل مجرى أحد الأنهار واستحال الحصار الذى كان مضروباً عليه حصاراً على أعدائه ، وظل صابراً زمناً طويلا حتى يستسلم له الجيش المحاصر وإن كان جنوده قد ملوا الانتظار وأخذوا يطالبون بالهجوم على العدو . ثم استسلم أنصار پمپى آخر الأمر وخضعت أسبانيا كلها إلى قيصر (أغسطس سنة ٤٩) . وعاد بعدئذ إلى إيطاليا براً ، ولكنه وجد الطريق مغلقاً فى وجهه عند مرسيليا ، وقد وقف أمامه جيش يقوده لوسيوس دمتيوس **Lucius Domitius** وهو القائد الذى أسره فى كورفنيوم ثم أطلق سراحه . واستولى قيصر على المدينة بعد أن حاصرها حصاراً شديداً ، ثم أعاد تنظيم الإدارة فى غالة ، ولم يحلّ شهر ديسمبر حتى عاد ظافراً إلى رومة .

وقوت هذه الحملات مركزه السياسى ، كما طمأنت البطون المتخوفة فى العاصمة على كفايتها من الطعام ، فلم يمانع مجلس الشيوخ وقتئذ فى أن يعينه دكتاتوراً . ولكن قيصر تخلى عن هذا اللقب بعد أن اختير أحد القنصلين فى عام ٤٨ ق . م . ولما وجد أزمة النقد مستحكمة فى إيطاليا ، لأن اختزان النقود قد سبب انخفاض الأثمان ، وأبى المدينون أن يؤدوا بالنقود الغالية ما استدانوه بالنقود الرخيصة — لما وجد هذا أصدر قراراً

يبيح أداء الديون سلعاً بقدر أثمانها محكون من قبل الحكومة كما كانت تقدر قبل الحرب . وكان يرى أن هذه « خير وسيلة للاحتفاظ بشرف المدينين ولتبديد أو تقليل الخوف الذى كان يساور البعض من أن تلغى هذه الديون إلغاء تاماً ، وهو الإلغاء الذى يحتمل حدوثه فى أعقاب الحروب »(٣٤) .

ومن الشواهد الدالة على بطء سير الإصلاح فى رومة قبل ذلك العهد أنه اضطر مرة أخرى أن يحرم استعباد المدين إذا لم يؤد دينه ، وأنه أباح خصم الفوائد التى دفعت قبل ذلك الوقت من أصل الدين ، وحدد سعر الفائدة بواحد فى المائة كل شهر . وأرضت هـذه الإجراءات معظم الدائنين لأنهم كانوا يخشون أن تصادر أموالهم ، ولكنها أغضبت المتطرفين الذين كانوا يرجون أن يسير قيصر على خطة كاتلين فيلغى الديون كلها ويعيد توزيع الأراضى على السكان ، ووزع قيصر الحبوب على المعوزين وألغى جميع أحكام النفى ما عدا الحكم الصادر على ميلو ، وعفا عن كل من يعود إلى البلاد من الأشراف . ولكن أحداً لم يحمد له اعتداله ، ذلك أن المحافظين الذين عفا عنهم عادوا يأتمرون به ليقتلوه ، وبينا كان يواجه بمبى فى تساليا Thessaly تخلى عنه المتطرفون وانضموا إلى كئيليوس Caelius بعد أن وعدهم بإلغاء الديون إلغاء تاماً ، وبمصادرة الأملاك الواسعة ، وتوزيع الأراضى على الأهلين توزيعاً جديداً .

وفى أواخر عام ٤٩ انضم قيصر إلى الجنود وإلى الأسطول اللذين جمعهما أنصاره فى برنديزيوم . وكان عبور جيش من الجيوش البحر الأدرياوى شتاء فى تلك الأيام عملا لم يسمع به أحد قط . ولم يكن فى استطاعة الاثنتى عشرة سفينة التى تحت تصرفه أن تقل من جنوده إلا ستين ألفاً فى كل مرة ، وكانت أساطيل بمبى التى تفوقها عدة وعدداً تغدو وتروح بين ثغور الشاطئ المقابل له والجزائر المجاورة لهذا الشاطئ . ولكن قيصر رغم هذا أقلع بجنوده ، ونزل فى إبيروس ومعه عشرون ألفاً منهم . غير أن سفنه تحطمت وهى عائدة إلى إيطاليا . ولم يعرف

قيصر السيب الذى أخر بقية جيشه ، فحاول أن يعبر البحر مرة أخرى فى زورق صغير . وأخذ الملاحون يجدفون والموج يعاكسهم حتى كادوا يغرقون ، ولكن قيصر لم تهن عزيمته رغم ما كان يحيط به من أهوال جسام ، وأخذ يقوّى قلوبهم بهذه العبارة التى لا يبعد أن تكون من نسج خيال المؤلفين :

« لا تخافوا إنكم تحملون قيصر وحظه »[٣٥] .

ولكن الريح والموج قذفا بالقارب إلى الشاطئ الذى بدأ منه ، واضطر هو أن يعود من حيث أتى .

وكان بمبى فى هذه الأثناء قد استولى بأربعين ألفاً من رجاله على دِرشيوم Dyrrhachium ومخازنها الغنية ، ولكنه عجز عن مهاجمة جيش قيصر الذى تناقص عدده وقلّت مؤونته ، وكان بمبى فى تلك الأيام قد سمن وابتلى بالتردد وخور العزيمة . وبينا كان هو فى تردده جمع ماركس أنطونيوس أسطولا جديداً حمل عليه ما كان باقياً من جيش قيصر فى إيطاليا .

وبذلك أصبح قيصر متأهباً للقتال ، ولكنه ما زال يكره أن يقاتل الرومانى رومانيا ، فأرسل رسولا إلى بمبى يعرض عليه أن يتخلى القائدان كلاهما عن قيادتيهما ، ولكن بمبى لم يرد عليه(*) ، فهاجمه وأخفق فى هجومه ، غير أن بمبى عجز أن يتبع النصر بمطاردة عدوه . ثم قتل ضباط بمبى جميع من وقع فى أسرهم من أعدائهم الضباط على الرغم من نصيحة قائدهم الأعلى ، أما قيصر فلم يقتل أحداً من أسراه[٣٧] ، وهو عمل رفع من قوة جنوده المعنوية بقدر ما أضعف من قوة جنود بمبى . وطلب رجال قيصر إلى قائدهم أن يعاقبهم على ما أظهروه من الجبن فى حربهم الأولى ضد الفيالق الرومانية ، فلو لم يجبهم إلى ما طلبوه توسلوا إليه

(*) وقيصر هو المرجع الوحيد الذى نعتمد عليه فى أخبار هذه البعثة .

أن يعود بهم إلى ساحة القتال ، ولكنه رأى من الحكمة أن يرتد إلى تساليا ليستريحوا فيها بعض الوقت .

واستقر رأى بمبى وقتئذ على القرار الذى قضى على حياته . فقد أشار عليه أفرانيوس Afranius أن يعود إلى إيطاليا الخالية من وسائل الدفاع ويستولى عليها ؛ ولكن معظم مستشاريه ألحوا عليه أن يطارد قيصر ويقضى عليه . وبالغ الأشراف الذين كانوا فى معسكر بمبى فيما أحرزه من النصر فى درهشيوم وظنوا أن القضية الكبرى قد فصل فيها فى ذلك المكان . وهال شيشرون — وكان قد انضم إليهم آخر الأمر — أن يسمعهم يتنازعون فيما سيعود على كل منهم بعد أن يعودوا إلى ما كانوا فيه ، وأن يرى ما يتقلبون فيه من الترف وهم فى ميدان القتال ، فقد كان الطعام يقدم لهم فى صحاف من الفضة ، وكانت خيامهم مفروشة بالطنافس الوثيرة تزينها الصور الرائعة وطاقات الزهر الجميلة .

وكتب شيشرون فى ذلك يقول :

« وكان البمبيون ، ما عدا بمبى نفسه ، يحاربون بوحشية شديدة ، وينطقون فى أحاديثهم بمبادئ القسوة ، حتى كان الرعب يستولى علىّ إذا ما فكرت فى نصرهم . . . إنهم قوم ليس فيهم ما هو خير إلا قضيتهم . . . ؟ لقد كانوا يفترضون أن يعدم أعداؤهم جملة لا أفراداً متفرقين . . . وقدر لنتلس نفسه أن يستولى على بيت هورتنسيوس وعلى حدائق قيصر وپايانى »(٣٨) .

وكان بمبى نفسه أميل إلى التريث وعدم الاشتباك فى معركة فاصلة ، ولكنه اضطر إلى العمل برأى مستشاريه لما أن عيروه بالجبن والخور ، فأصدر أمره بالزحف .

ودارت رحى المعركة الفاصلة فى فارسالس فى اليوم التاسع من شهر أغسطس عام ٤٨ ق.م ، وكانت معركة طاحنة دام فيها القتال حتى نهايتها المريرة ، وكان

جيش بمبي يتألف من ثمانية وأربعين ألفاً من المشاة ، وسبعة آلاف من الفرسان ؛ أما جيش قيصر فلم يكن يزيد على اثنين وعشرين ألفاً من المشاة ، وألف من الفرسان . ويقول أفلوطرخس تعليقاً على هذا الموقف .

« وكان عدد قليل من أنبل رجال رومة يشاهدون المعركة عن كثب ... ويفكرون فيما صارت إليه الإمبراطورية بسبب المطامع الشخصية ... لقد التقت فى هذا المكان زهرة شباب المدينة الواحدة وعماد قوتها فى صراع عنيف ، وحسبنا هذا برهاناً قاطعاً على ما فى الطبيعة البشرية من عمى وجنون إذا ما أثيرت شهواتها »[٤٠] .

لقد كان أقرب الأقارب ، بل كان الإخوة أنفسهم ، يقاتل بعضهم بعضاً فى الجيشين المتعادين . وقد أمر قيصر رجاله أن يبقوا على حياة كل من يستسلم من الرومان ، أما الشباب الأرستقراطى ماركس بروتس فقد أمرهم قيصر أن يقبضوا عليه دون أن يصيبوه بأذى ، فإذا لم يجدوا سبيلا إلى هذا فليسمحوا له بالفرار[٤١] . وروع البمبيون لتفوق أعدائهم القيادة ، والتدريب ، والقوة المعنوية . وقُتل منهم وجُرح خمسة عشر ألفاً ، واستسلم عشرون ألفاً ، وولى الباقون الأدبار . ونزع بمبى شارة القيادة عن ملابسه ، وفر مع من فروا من رجاله . ويخبرنا قيصر أنه لم يفقد من رجاله إلا مائتين[٤٢] — وهو قول يحملنا على الشك فى كتبه كلها . وأخذ رجاله يتندرون بما فى خيام أعدائهم من وسائل الزينة ، وبما وجدوه فيها من الموائد المثقلة بالطعام الشهى الذى أعد لساعة الاحتفال بالنصر . وأكل قيصر عشاء بمبى فى خيمة بمبى نفسه .

وسار بمبى على ظهر جواده الليل كله حتى وصل إلى لارسا **Larissa** ، وركب منها سفينة أقلته إلى الإسكندرية ، وعرج فى طريقه على متلينى **Mytilene** حيث انضمت إليه زوجته ، وطلب إليه سكانها أن يقيم معهم ، ولكنه رفض طلبهم فى أدب ومجاملة ، ونصحهم أن يستسلموا للفاتح فى غير

خوف لأن « قيصر » على حد قوله « رجل عامر القلب بالصلاح والرحمة »[٤٣] ،
وفر بروتس أيضاً إلى لارسا ، ولكنه أطال المكث فيها ووجّه منها رسالة
إلى قيصر . وأبدى القائد المنتصر أشد الاغتباط حين سمع أن بروتس ،
حي يرزق ، وعفا عنه من فوره ، كما عفا عن كاسيوس استجابة لرغبة
بروتس . وكان كذلك ليناً فى معاملة أمم الشرق التى أبدت بمبى مدفوعة
إلى ذلك بمشيئة الطبقات العليا المسيطرة عليها . ووزع ما جمعه بمبى من الحبوب
على سكان بلاد اليونان الجياع ، ولما جاءه الأثينيون يطلبون إليه أن يعفو
عنهم ، أجابهم وعلى شفتيه ابتسامة اللوم بقوله : « إلى متى ينجيكم مجد
آبائكم الأولين من موارد الهلاك التى توردونها أنفسكم ؟ »[٤٤] .

وأكبر الظن أن بعضهم قد حذر قيصر من أن بمبى يفكر فى معاودة
القتال معتمداً على جيش مصر ومواردها ، وعلى القوة التى كان كاتو
ولبينس Labienus ومتلس سبيو يعدونها فى يتكا Utica . ولكن حدث
بعد أن وصل بمبى إلى الإسكندرية أن أمر پوثينس Pothinus خصى
الشاب بطليموس الثانى عشر ووزيرُه خدمه أن يقتلوه ، ولعله فعل ما فعل
رجاء أن يكافئه عليه قيصر . فقد طعن القائد طعنة نجلاء حين وطئت قدماه
شاطئ مصر ، بينا كانت زوجته تنظر إليه فى هلع وهى على ظهر السفينة
التى أقلتهما إلى تلك البلاد . فلما جاء قيصر أهدى إليه رجال پوثينس رأس
القائد الذى فصل عن جسده ، فولى وجهه عنهم فى هلع ، وأخذ يبكى من
فرط تأثره بهذا الشاهد الجديد على أن الناس كلهم يلقون مصيراً واحداً ،
وإن اختلفت الوسائل المؤدية إلى هذا المصير . ونزل قيصر فى قصر
البطالمة الملكى وشرع ينظم شئون تلك المملكة القديمة .

الفصل السابع

قيصر وكليوبطرة

وأخذت مصر بعد وفاة بطليموس السادس (١٤٥) تسير مسرعة فى طريق الاضمحلال وعجز ملوكها عن الاحتفاظ بنظامها الاجتماعى أو حريتها القومية ؛ وأخذ مجلس الشيوخ الرومانى يقوى فيها سلطانه ويملى عليها إرادته ، بل إنه أقام حامية رومانية فى الإسكندرية . وكانت مقاليد الحكم قد آلت بعد وفاة بطليموس الحادى عشر الذى أجلسه بمبى وجابليوس على العرش إلى ابنه بطليموس الثانى عشر وابنته كليوبطرة ، وذلك لأن والدهما قد أوصى قبل وفاته أن يرثا الملك من بعده ، وأن يتزوج الأخ أخته ويشتركا فى حكم البلاد معاً .

وكانت كليوبطرة من أصل يونانى مقدونى ، وأكبر الظن أنها كانت أقرب إلى الشقرة منها إلى السمرة[٤٥] ، ولم تكن بارعة الجمال ولكن قوامها الرشيق المعتدل ، وخفة روحها ، وتنوع ثقافتها ، ودماثة خلقها ، وحسن صوتها ، مضافة إلى مقامها الملكى قد جعلتها فتنة لكل من رآها تسلبه لبه وإن كان قائداً رومانياً . وكانت على علم بتاريخ اليونان وآدابهم وفلسفتهم ، تجيد الحديث باللغات اليونانية والمصرية والسورية ، ويقال إنها كانت تتقن لغات أخرى غير هذه . وقد جمعت إلى فتنة أسپازيا الذهنية فتنة المرأة المتحللة إلى أقصى حد من القيود الخلقية . ويقال إنها ألفت رسالة فى مستحضرات التجميل ، وأخرى فى المقاييس والموازين والنقود المصرية ، وموضوع الرسالة الثانية موضوع مغر جذاب[٤٦] . وكانت إلى هذا حاكمة قديرة وإدارية ماهرة ، نجحت فى نشر التجارة المصرية ، وارتقت على يديها الصناعة ، وكانت تجيد تدبير الشئون المالية حتى فى الوقت الذى كانت تنصب فيه شراك الحب . وقد جمعت إلى هذه الصفات شهوة جسدية قوية ، ووحشية

عنيفة تصب على أعدائها العذاب والموت صباً ، ومطامع سياسية بعيدة ، تحلم ببناء إمبراطورية واسعة ، ولا تحترم فى سبيل الوصول إلى غايتها قانوناً إلا قانون النجاح . ولو أنها لم يجر فى عروقها دم البطالمة المتأخرين الداعرين لكان من الجائز أن تحقق غرضها وتصبح ملكة تحكم دولة واسعة الرقعة تضم بلاد البحر الأبيض المتوسط . وكانت تدرك أن مصر لم تعد قادرة على البقاء مستقلة عن الدولة الرومانية ، ولم تر ما يمنعها أن تكون هى المسيطرة على الدولة المتحدة .

وقد استاء قيصر حين عرف أن پوثينس نفى كليوبطرة ، ونصب نفسه نائباً عن بطليموس الشاب يحكم البلاد باسمه ، ولذلك أرسل إليها سراً ، وجاءته سرا وقد احتالت على الوصول إليه بأن أخفت نفسها فى فراش حمله تابعها أپولودورس Apollodorus إلى مسكن قيصر . وذهل القائد الرومانى حين رآها ، وأسرته بشجاعتها وسرعة بديهتها ، وهو الذى لم يدع انتصاراته فى ميدان القتال تربى على انتصاراته فى ميادين الحب . ووفق بينها وبين بطليموس وأجلسها هى وأخاها على عرش مصر كما كانا من قبل . وعرف قيصر من أخيه أن پوثينس هو والقـــائد المصرى أخلاس Achillas كانا يأتمران به ليقتلاه ويبيدا القوة العسكرية الصغيرة التى جاءت معه إلى مصر ، فدبر فى الخفاء اغتيال پوثينيس ، وفر أخلاس ، واتصل بالجيش المصرى ، وحرضه على الثورة . وسرعان ما امتلأت الإسكندرية بالجنود ينادون بالويل والثبور لقيصر ، ويحرض ضباط الحامية الرومانية التى وضعها مجلس الشيوخ فى تلك المدينة على الانضمام إلى الجيش الثائر ضد هذا الدخيل الخائن الذى سولت له نفسه أن يقرر وراثة عرش البطالمة ، وأن يعمل على أن يولد من صلبه من يرث هذا العرش فى المستقبل .

وعمل قيصر فى هذا الظرف الحرج ما كانت تسعفه به سعة حيلته ، فأحال القصر الملكى والملهى المجاور له إلى قلعتين تحصن فيهما هو ورجاله . ثم أرسل يطلب المدد من آسية الصغرى وسوريا ورودس . ولما أدرك أن أسطوله الضعيف

الذى لم يكن فيه من يحميه لن يلبث أن يقع فى يد أعدائه ، أمر به فحرق والتهمت النار جزءاً من مكتبة الإسكندرية لا نعرفه على وجه التحديد ورأى أن لا بد له من الاستيلاء على جزيرة فاروس لأنها هى المدخل الذى يمكن أن يصل إليه منه المدد المنتظر ، فهاجمها هجوم اليائس ، واستولى عليها ، ثم جلا عنها ، ثم عاد فاستولى عليها ؛ وحدث فى إحدى هذه المعارك أن اضطر إلى السباحة فى البحر لينجو من الموت بعد أن صوبت إليه عاصفة من السهام ، وذلك حين قذف المصريون به وبأربعمائة من رجاله إلى البحر بعيداً عن الحاجز الذى كان يصل الجزيرة بأرض المدينة . وظن بطليموس الثانى عشر أن الثوار قد حالفهم النصر ، فخرج من القصر وانضم إليهم واختفى من التاريخ . ولما جاء المدد إلى قيصر هزم به المصريين وحامية مجلس الشيوخ فى معركة النيل ، وكافأ كليوبطرة على إخلاصها له فى هذه الأزمة بأن عين أخاها الأصغر بطليموس الثالث عشر ملكاً معها على مصر ، فجعلها بذلك حاكمة البلاد الحقيقية .

ويصعب علينا أن ندرك السر فى بقاء قيصر تسعة أشهر فى الإسكندرية ، والجيوش تجيش لقتاله فى يتكا Utica ، ورومة فى أشد الحاجة إلى يده الصناع ، لأن كئيليوس Caelius وميلو ينفخان فيها نار الثورة عليه . فلعله كان يحس بأنه جدير ببعض الراحة واللهو بعد حروب دامت عشر سنين ؛ وفى هذا يقول سيوتونيوس Suetonius إنه كثيراً ما كان يقضى الليل كله حتى مطلع الفجر يلهو مع كليوبطرة ، وكان بوده أن يسير معها فى قاربها من أقصى مصر إلى أقصاها حتى يصلا إلى بلاد الحبشة لولا أن هددة جنوده بالخروج عليه »(٤٧) ، لأن كل واحد منهم لم يجد له فتاة لعوباً ؛ أو لعل شهامته قد أجبرته على أن ينتظر حتى تفيق كليوبطرة من آلام الوضع ، فقد وضعت طفلا فى عام ٤٧ ق . م سمى قيصريون Caesarion ، ويقول ماركس أنطونيوس إن قيصر اعترف بأنه ولده(٤٨) . ولا يبعد أن تكون قد أسرت إليه تلك الفكرة الجميلة فكرة أن يكون ملكاً

ويتزوجها فيجتمع بذلك عالم البحر الأبيض المتوسط تحت فراش واحد ؛

ذلك كله ظن وهو إلى ذلك إثم ؛ فليس ثمة ما يؤده إلا ما نستخلصه من الشواهد والقرائن المفصلة . وما من شك فى أنه عاد إلى نشاطه حين عرف أن فرناسس Pharnaces بن مثرداتس قد استولى مرة أخرى على بنتس Pontus وأرمينية الصغرى ، وأنه أخذ يدعو بلاد الشرق إلى الثورة من جديد على رومة المنقسمة على نفسها . ووضحت فى ذلك الوقت حكمته فى « تهدئة » أسپانيا وغالة قبل لقائه بمبى ؛ فلو أن الغرب ثار عليه وقت أن ثار الشرق لكان من المرجح أن تتصدع أركان الدولة وأن يزحف « البرابرة » نحو الجنوب ، وألا تشهد رومة قط عصر أغسطس . لكن قيصر حال دون ذلك كله ؛ فقد بدأ بإصلاح أمر فيالقه الثلاثة ، ثم غادر مصر فى شهر يونية من عام ٤٧ ق . م ، وسار بسرعته المعتادة على طول شواطئ مصر وسوريا وآسية الصغرى إلى بلاد بنتس وهزم فرناسس فى واقعة زيلا Ziela (٢ أغسطس) ، وبعث من ميدان القتال إلى صديق له بهذا الخبر القصير البليغ : « جئت ، ورأيت ، وهزمت » veni, vidi, vici[49] وقابله شيشرون عند تارنتم (٢٦ سبتمبر) ، وطلب إليه أن يعفو عنه وعن غيره من المحافظين ، فأجابه إلى ما طلب وأظهر له الرضا والود ؛ وهاله بعد أن عاد إلى رومة أن الحرب الأهلية قد استحالت فى العشرين شهراً التى قضاها بعيداً عنها إلى ثورة اجتماعية ، وأن دلابلا Dolabella زوج ابنـــة شيشرون انضم بقوته إلى كثيليوس وعرض على الجمعية مشروع قانون بإلغاء جميع الديون ، وأن أنطونيوس أطلق جنوده على صعاليك دلابلا المسلحين ، وأن ثمانمائة من الرومان قتلوا فى السوق العامة . وكان كثيليوس قد استخدم سلطته وهو بريتور Praetor فأعاد ميلو إلى رومة ، ونظما معاً جيشاً فى جنوبى إيطاليا ، وطلبا إلى الأرقاء أن ينضموا إليهما فى ثورة جائحة على النظام القائم . ولم يلقيا فى هذه الثورة إلا قليلا من النجاح ، ولكن روح الثورة كانت قد أشربت بها جميع النفوس ، فكان المتطرفون فى رومة

يحتفلون بذكرى كاتليتا وينثرون الأزهار مرة أخرى على قبره : وكان جيش بمبى فى أفريقية قد ازداد عدده حتى أضحى فى قوة الجيش الذى هزم فى فرسالس ، وكان سكستس Sextus بن بمبى قد أنشأ فى أسبانيا جيشاً جديداً ، وتعرضت إيطاليا مرة أخرى لخطر انقطاع الحبوب عنها : تلك هى الأحوال التى كانت قائمة فى شهر أكتوبر من عام ٤٧ حين عاد قيصر إلى رومة وإلى زوجته كلپرنيا Calpurnia ومعه كليوبطرة وأخوها — زوجها الغلام وقيصريون .

وشرع فى الأشهر القليلة التى أتيحت له بين الحروب يعيد النظام إلى رومة ، ولما عين حاكما بأمره من جديد لسترضى المتطرفين إلى حين بإلغاء القانون الأخير من قوانين صلا ، وألغى فى رومة كل ما قل عن ألفى سسترس من أجر الأراضى ، وحاول فى الوقت نفسه أن يهدئ مخاوف المحافظين فعين ماركس بروتس حاكما على بلاد غالة الجنوبية ، وأكد لشيشرون وأتكس أنه لن يثير حرباً على نظام الملكية ، وأمر بإعادة تماثيل صلا التى حطمها الرعاع . ولما وجه أفكاره نحو بمبى وأنصاره ساءه وثبط من همته أن يسمع أن أكثر جنوده ولاء له قد ثاروا عليه ، لأنهم لم يتسلموا مرتباتهم من زمن بعيد وأنهم يرفضون الإبحار إلى أفريقية . وكانت خزائن الدولة وقتئذ خاوية أو شبه خاوية ، فجمع ما يحتاجه من المال بمصادرة أموال الأشراف الذين خرجوا عليه وبيعها . ولما سئل فى ذلك قال إنه قد تعلم أن الجند يعتمدون على المال ، وأن المال يعتمد على القوة ، والقوة تعتمد على الجند . ثم ظهر فجاءة بين الجنود المتمردين ، وجمعهم حوله وقال لهم فى هدوء إنه قد سرحهم ، وإن فى مقدورهم أن يعودوا إلى منازلهم ، وإنه سيؤدى إليهم كل ما تأخر من رواتبهم بعد أن يتم له النصر فى أفريقية على يد « غيرهم من الجنود » .

ويقول أپيان إنهم « لما سمعوا هذا القول استولى عليهم الخجل جميعاً لأنهم تخلوا عن قائدهم فى الساعة التى يحيط به العدو من كل جانب . . . فصاحوا بأنهم نادمون على خروجهم عليه ، وتوسلوا إليه أن يحتفظ بهم فى خدمته »(٥١) فأجابهم إلى ما طلبوا فى إباء ساحر ، وأبحر بهم إلى أفريقية ،

والتقى فى اليوم السادس من شهر إبريل سنة ٤٦ ق . م بقوى متلس سپيو Metellus Scipio فى ثبسوس وكاتو ولبيلس Labienus وجوبا الأول Juba I ملك نوميديا مجتمعة . وخسر المعركة الأولى فى هذه المرة أيضاً ، ولكنه فعل ما فعله من قبل ، فأعاد تنظيم صفوفه وهجم بها على عدوه وانتصر عليه . ولامه جنوده المتعطشون للدماء على ما أظهره من رأفة بأعدائه فى فرسالس ، واعتقدوا أنه لولا هذه الرخة لما اضطروا إلى قتال هؤلاء الأعداء مرة أخرى ، ولذلك قتلوا من جنود عدى الثمانين ألفاً نحو عشرة آلاف ولم تأخذهم بهم رأفة ، لأنهم لم يريدوا أن يلتقوا بهؤلاء الجنود مرة أخرى فى ميدان القتال . وانتحر جوبا وفرّ سپيو ومات فى مناوشة بحرية ، وهرب كاتو ومعه سرية من جنوده إلى يُتيكا .

ولما اقتفى قيصر أثره وأراد الضباط أن يصدوه عن المدينة ، أقنعهم كاتو بأنه لا جدوى من عملهم هذا ، وأعد المال لمن أرادوا القتال ، ولكنه أشار على ابنه بالاستسلام لقيصر . أما هو نفسه فقد رفض كلتا الخطتين ، وقضى السهرة فى بحوث فلسفية ، ثم آوى إلى حجرة نومه ، وقضى شطراً من الليل يقرأ فيدون Phaedo لأفلاطون . وأيقن أصدقاؤه أنه سيقتل نفسه فأخذوا سيفه من جانبه . فلما غفلت عنه أعينهم أمر خادمه أن يأتيه بالسيف ، وتظاهر بالنوم ساعة من الليل ، ثم قام فجاءة وأمسك بسيفه وبقر به بطنه ، وهرول إليه أصدقاؤه ، وأعاد الطبيب أحشاءه إلى بطنه ، وخاط الجرح ، وضمده ، ولكنهم لم يكادوا يخرجون من الحجرة حتى رفع كاتو الضمادات عن الجرح وأعاد فتحه وأخرج منه أحشاءه ، وقضى نحبه .

ولما جاء قيصر كان أشد ما أحزنه أنه لم تتح له الفرصة للعفو عن كاتو ، وأن كل ما يستطيع أن يفعله أن يعفو عن ولده .

وشيع أهل يُتيكا الرواقى المنتحر فى مشهد حافل كأنهم يعرفون أنهم يدفنون معه جمهورية كادت تبلغ من العمر خمسة قرون .

الفصل الثامن

قيصر الحاكم

عاد قيصر إلى رومة فى خريف عام ٤٦ بعد أن نصب سلست والياً على نوميديا ، وأعاد تنظيم ولايات أفريقية . وأوجس مجلس الشيوخ خيفة من هذه العودة ، وأدرك أن البلاد مقبلة على الحكم الملكى المطلق ، فاختاره حاكما بأمره مدة عشر سنوات . واحتفلت رومة بعودته احتفالا لم تشهد له مثيلا من قبل ، وكافأ قيصر كل جندى من جنوده بخمسة آلاف درخمة أتيكية (حوالى ثلاثة آلاف ريال أمريكى) ، أي أكثر كثيراً مما كان قد وعدهم به ، وأولم وليمة كبرى للمواطنين الرومان احتوت على اثنين وعشرين ألف مائدة . وأعد لتسليتهم معركة بحرية صورية ، اشترك فيها عشرة آلاف رجل . ثم غادر رومة إلى أسبانيا فى أوائل عام ٤٥ وهزم آخر جيش من جيوش بمبي عند مندا Munda .

ولما عاد إلى رومة فى شهر أكتوبر وجد إيطاليا كلها تسودها الفوضى . ذلك أن الحكم الألجركى الفاسد ، والثورات التى دامت مائة عام كاملة ، قد أشاعا الاضطراب والفوضى فى الأعمال الزراعية والصناعية والمالية والتجارية . أضف إلى هذا أن استنزاف موارد الولايات ، وحبس رؤوس الأموال ، وزعزعة أركان الاستثمار ، أدت كلها إلى اضطراب سوق المال . هذا إلى أن آلاف الضياع قد حل بها الخراب ، لأن مائة ألف من الرجال سيقوا من الأعمال المنتجة إلى ميادين القتال ، وأن آلافاً مؤلفة من الزراع أرغمتهم منافسة الحبوب المستوردة من خارج البلاد أو التى تنتجها الضياع الكبرى التى يعمل فيها العبيد على الانضمام إلى صعاليك المدن والاستماع وبطونهم خاوية إلى الوعود التى يمنيهم بها الزعماء المهرجون . وأخذ من أبقت عليهم رحمة قيصر من الأشراف

يأتمرون به في قصورهم ونواديهم ، ولما أن طلب إليهم في مجلس الشيوخ أن يعترفوا بضرورة الدكتاتورية ويعاونوه على أن يعيد النظام إلى البلاد ويأسو جراحها ، سخروا مما يعرضه عليهم هذا المغتصب .وبسطوا ألسنتهم في استضافته لكليوبطرة في رومة ، وأخذوا يشيعون سراً أنه يعيد العدة ليكون ملكا ، ولينقل عاصمة الدولة إلى الإسكندرية أو إلى إليوم Ilium .

ومن أجل ذلك شرع قيصر ، وقد أدركته الشيخوخة ولما يتجاوز بعد الخامسة والخمسين من عمره ، يعمل بهمة الرومان الأصيل ليحيي موات الدولة الرومانية . وكان يعلم أن انتصاراته لن تكون لها قيمة إن لم يكن في مقدوره أن يشيد في مكان الحطام التي أزالها صرحا أحسن منها وأثبت دعامة . ولما أن مد أجل دكتاتوريته في عام ٤٤ من عشر سنين إلى دكتاتورية تدوم مدى الحياة لم ير فرقا كبيراً بين الحالين ، وإن لم يكن قد أدرك في ذلك الوقت أن أجله لن يطول أكثر من خمسة شهور .

وأخذ مجلس الشيوخ يتملقه وحباه بكل ما يستطيع من ألقاب التعظيم ، ولعله كان يهدف بذلك إلى أن يشيع كراهيته في قلوب الشعب الذي كان يبغض الملكية ولا يطيق حتى اسم الملك . وأجاز له المجلس أن يلبس إكليل الغار الذي كان يواري به صلعته ، وأن يحمل حتى في وقت السلم رمز سلطات الإمبراطور imperator . وبفضل هذه السلطات كان يسيطر على خزائن المال ، كما كان منصب الحبر الأكبر Pontifex Maximus يمكن من السيطرة على الشئون الدينية في البلاد ، وكان له ، بوصفه قنصلا ، أن يقترح القوانين وينفذها ، وبوصفه تريبونا كانت ذاته مصونة لا تمس ، وبوصفه رقيبا كان له أن يعيّن أعضاء مجلس الشيوخ ويسقطهم . واحتفظت الجمعيات بحقها في الاقتراع على القوانين المعروضة عليها ، ولكن دلابلا وأنطونيوس رجلي قيصر كانا يسيطران عليهـا ، وكانت توافق عادة على سياسته . وكان هو من ناحيته يجتهد في أن يقيم

دكتاتوريته على محبة الشعب له ورضائهم عنه. شأنه فى هذا شأن غيره من الطغاة الحاكمين

وأنزل مجلس الشيوخ حتى صار أشبه شىء بمجلس استشارى له ، ورفع عدد أعضائه من ستمائة عضو إلى تسعمائة ، وكان يجدده على الدوام باستبدال أربعمائة عضو جديد بمثل عددهم من أعضائه السابقين : وكان كثيرون من هؤلاء الأعضاء الجـــدد من رجال الأعمال ، وكثيرون منهم من المواطنين البارزين فى المدن الإيطالية أو مدن الولايات الرومانية ، ومنهم من كانوا من أعضاء المئين أو الجنود أو أبناء العبيـــد . وارتاع الأشراف حين رأوا زعماء غالة المغلوبة يدخلون مجلس الشيوخ وينضمون إلى حكام الإمبراطورية ، بل إن الماجنين من أهل العاصمة قد ساءهم هذا التصرف ونشروا فى طول المدينة وعرضها مقطوعة شعرية يقولون فيها « إن قيصر يقود الغاليين فى موكب نصره ، ثم يدخلهم مجلس الشيوخ ؛ لقد خلع الغاليون سراويلهم القصيرة ولبسوا المئزر العريض الأطراف ، الذى يلبسه الشيوخ(٥٢) » .

ولعل قيصر قد تعمد أن يجعل المجلس الجديد هيئة ضخمة عاجزة عن المداولة الجدية المنتجة أو المقاومة الموحدة : ولذلك اختار طائفة من طائفة من أصدقائه هم بلبس Balbus ، وأپيوس Oppius ، وماتيوس Matius وغيرهم ، ليتخذ منهم وزراء له غير رسميين ينفذون سياسته ؛ وأدخل النظام البيروقراطى فى الدولة بأن وضع الشئون الكتابية فى دولاب الحكومة ودقائق الأعمال الإدارية فى أيدى من كان فى بيته من المحررين والرقيق . وسمح للجمعية أن تختار نصف كبار الحكام فى المدينة ، واختار هو النصف الباقى بطريق التوصية ، وكانت الجمعية تأخذ بهذه التوصيات على الدوام . وكان من حقه ، بوصفه تربيونا ، أن يعترض على قرارات غيره من التربيونين والقناصل ويبطلها ، ورفع عدد البريتوريين Praetors إلى ستة عشر ، والكوسترين Quaestors إلى أربعـــين لينجز بهذا

أعمال البلدية والأعمال القضائية ، وراقب بنفسه شئون المدينة كلها على اختلاف أنواعها ، وقضى على كل ما كان فيها من عجز وفساد وإتلاف ، ونص فى جميع العهود التى منحها للمدينة على الأوامر الصريحة والعقوبات الشديدة التى يتعرض لها كل من يحاول إفساد الانتخابات أو الوظائف العامة . وأراد أن يقضى على السُّنة القديمة سُنَّة السيطرة على الشئون السياسية بابتياع أصوات الناخبين جملة . ولعله أراد أيضاً أن يحصن نفسه من ثورة الرعاع ، فألغى الاتحادات والنقابات ولم يبق منها إلا ما كان ذا أصل قديم ، وإلا الجماعات اليهودية ذات الأغراض الدينية الخالصة ؛ وقصر وظائف المحلفين على الطبقتين العليين واحتفظ لنفسه بحق النظر فى أهم القضايا وأخطرها شأنا ، وكثيراً ما كان يجلس للقضاء بنفسه ، وليس ثمة من ينكر ما تتصف به أحكامه من حكمة ونزاهة . وقد اقترح على المشترعين فى أيامه أن يجمعوا القوانين الرومانية المعمول بها وقتئذ فى كتاب واحد منظم ، ولكن موته العاجل حال دون إتمام هذا المشروع .

ثم سار على خطة ابنى جراكس ، فوزع الأرض على جنوده القدامى وعلى الفقراء ، وسار أغسطس نفسه على هذه السياسة ، فهدأت الاضطرابات بين الزراع كثيراً من السنين . وأراد أن يمنع عودة الملكية الزراعية إلى التركز فحرّم بيع الأراضى الجديدة قبل مضىّ عشرين عاما ، كما أمر أن يكون ثلث العمال فى المزارع من الأحرار ، وذلك لكى يحول دون استغلال الأراضى كلها على أيدى الأرقاء . وكان من قبل قد أنقص عدد الرعاع المتعطلين فى المدينة بمن جنده منهم فى الجيش ، وبإقطاعهم الأرض الزراعية بعد تسريحهم . ثم أنقص عددهم مرة أخرى بأن أرسل ثمانين ألفا من المواطنين ليستعمروا قرطاجنة وكورنثة وأشبيلية وأرليس وغيرها من المراكز . ولم يكتف بهذا بل أراد أن يضمن العمل للباقين من المتعطلين فوضع برنامجاً ضخماً للبناء رصد له ١٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سسترس . من ذلك أنه أمر بإنشاء بناء جديد فى ميدان المريخ لاجتماع الجمعيات ، وإضافة مبنى

جديد للسوق العامة يدعى سوق أبوليوم لتخفيف الزحام عن السوق القديمة ؛ ثم جمل كثيراً من المدن فى إيطاليا وأسبانيا وغالة وبلاد اليونان ؛

وبعد أن خفف أعباء الفقر بهذه الوسائل أراد أن يعرف أثرها فى الناس ، فطلب إلى من شاء من الفقراء أن يتقدم إلى الدولة بالحصول على إعانات من الحبوب ، فوجد أن عدد الطالبين قد نقص على الفور من ٣٢٠٫٠٠٠ إلى ١٥٠٫٠٠٠ .

وقد ظل حتى ذلك الوقت نصيراً للعامة ، يهدف إلى إسعادهم فى جميع ما وضعه من المشروعات . ولكنه كان يعلم أن الثورة الرومانية ثروة زراعية أكثر منها صناعية ، وأنها موجهة فى الغالب إلى طبقة الأشراف التى تسخر لخدمتها الأرقاء ، ثم إلى المرابين ، وأنها لم يوجه إلا القليل منها لرجال الأعمال . فواصل خطة ابنى جراكس الزراعية ، ودعا رجال الأعمال إلى تأييد الثورة الزراعية والمالية .

وكان شيشرون قد حاول أن يعقــد حلفاً بين الطبقات الوسطى والأشراف ، أما قيصر فحاول أن يؤلف بين أولئك وبين العامة ، وأمده بالمال كثيرون من المموّلين على اختلاف درجاتهم من كراسس إلى بلبس ، كما أمد الكثيرون من أمثالهم بالمال الثورتين الأمريكية والفرنسية . ولكن قيصر رغم هذه المعونة قضى على مصدر من أكبر مصادر الاستغلال المالى والربح غير المشرع — وهو جباية الضرائب فى الولايات على أيدى جماعات الملتزمين . ثم خفض الديون بدرجات متفاوتة ، وسنّ قوانين صارمة لتحريم الربا الفاحش . وأسعف العاجزين عجزاً شديداً عن الوفاء بديونهم بوضع قانون للإفلاس لا يختلف فى جوهره عن القانون المعمول به فى هذه الأيام ؛ وأعاد إلى العملة استقرارها بجعل الذهب أساسا لها ، وبصك قطعة ذهبية تدعى أوريوس Aureus كانت تساوى فى قوّتها الشرائية الجنيه الاسترلينى فى القرن التاسع عشر ، وكانت صورته تطبع على النقود

الحكومة وتزيّن برسوم لم تعرفها رومة من قبل :

وقد نظمت الإدارة المشرفة على مالية الدولة تنظيما جديداً ، وطعمت بكفايات جديدة كانت نتيجتها أن وجد فى خزائنها حين قتل قيصر ٧٠٠،٠٠٠،٠٠٠ سسترس ، وفى خزينته الخاصة ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠

وأراد أن يقيم نظام الضرائب والإدارة على أساس علمى سليم ، فأجرى إحصاء عاما فى إيطاليا وأعد العدة لإحصاء عام مثله فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، ثم أراد أن يعوّض النقص الكبير الذى أحدثته الحروب فى عدد المواطنين الرومان ، فتوسع إلى أقصى حد فى منح حق المواطنية الرومانية — وكان ممن شملهم هذا الحق الأطباق والمعلمون فى رومة . وكان النقص المطرد فى المواليد قد أقضّ من قبل مضجعه ، فقرر فى عام ٥٩ ق . م أن تكون الأولوية فى امتلاك الأراضى التى توزعها الحكومة لآباء الثلاثة الأبناء . والآن قرر منح مكافآت للأسر الكبيرة ، وحرم على من ليست لهن أبناء من النساء أن يركبن المحفات أو يتحلين بالجواهر — وكان هذا التشريع أضعف تشريعاته كلها وأقلّها نفعاً .

وظل قيصر كما كان رجلا لا أدريا وإن لم يكن عقله بعيداً كل البعد عن الخرافات(٥٣) . ولكنه بقى الرئيس الأعلى لدين الدولة ولم يبخل على هذا الدين بما يحتاجه من الأموال ، فأعاد بناء الهياكل القديمة وأنشأ هياكل أخرى جديدة . وكانت فينوس أمه الحنون تلقى منه أعظم ضروب التكريم ، لكنه مع هذا كان يطلق للناس كامل الحرية فى الفكر والعبادة ، وألغى ما كان قد صدر من الأوامر بتحريم عبادة إيزيس ، ومنع التعرض لليهود فى ممارسة شعائر دينهم . ولما رأى أن تقويم الكهنة لم يعد يتفق مطلقاً مع فصول السنة أمر سوسجينس Sosigenes العالم اليونانى الإسكندرى السنة من ذلك الحين تشتمل على ٣٦٥ يوماً ، يضاف إليها يوم فى آخر شهر فبراير كل أربع سنين . وأخذ شيشرون يشكو من هذا

التغيير ويقول إن قيصر لم يقنع بحكم الأرض فتطاول إن تنظيم النجوم والتحكم فى شئونها ، ولكن مجلس الشيوخ قبل هذا الإصلاح أحسن قبول ، وأطلق اسم يوليوس وهو اسم أسرة قيصر على شهر كونكتيلس **Quinctilis** (الشهر الخامس) وكان هذا الشهر هو الشهر الخامس حين كان شهر مارس بداية العام :

ولم تكن الأعمال التى شرع فيها قيصر أو فكر فيها ووقفت بسبب قتله أقل شأناً من الأعمال التى تمت فعلا . ومن هذه الأعمال الأولى أنه وضع أساس ملهى عظيم ، ومعبد للمريخ يتفق وما عرف عن هذا الإله من شره ونهم ، وعين ثارو على رأس هيئة تعمل لإنشاء دور كتب عامة . وعمل على إنقاذ رومة من وطأة الملاريا بتجفيف بحيرة فوسينس **Fucinus** ومنافع پنتين **Pontine** ، واستصلاح الأراضى المجففة وزرعها . وأشار ببناء جسور حول التيبر ليمنع طغيان مياهه على الأرض المجاورة له ، واقترح تحويل مجرى هذا النهر لإصلاح ميناء أستيا **Ostia** الذى كان غرين النهر يسده من آن إلى آن . وأمر مهندسيه بأن يعدوا مشروعاً يرمى إلى إنشاء طريق يخترق وسط إيطاليا من الشرق إلى الغرب وإلى حفر قناة فى برزخ كورنثة **Corinth** .

وكان أشد ما أغضب أهل رومة من أعماله أن منح أحرار الإيطاليين كلهم ما لأهل رومة نفسها من حقوق ، وأن سوى بين الولايات وبين إيطاليا . ذلك أنه منح حق الانتخاب لأهل غالة الجنوبية فى عام ٤٩ ، ثم وضع فى عام ٤٤ ميثاقاً يدل ظاهره على أنه لجميع مدن إيطاليا وأنه يسوى بين هذه المدن وبين رومة ، ولكن أكبر الظن أنه كان يفكر فى إقامة حكومة نيابية من نوع ما تجعل لهذه المدن نصيباً دمقراطياً فى حكومته الملكية(٥٥) . ثم انتزع حق تعيين الولاة من مجلس الشيوخ المرتشى الفاسد ، ورشح هو لهذه المناصب رجالا عرفوا بالمقدرة والكفاية ، وجعلهم فى كل آن عرضة للعزل بأمر منه وحده . وخفض الضرائب فى الولايات إلى ثلثى ما كانت

عليه ، وعهد جبايتها إلى موظفين مسئولين أمامه . ولم يأبه باللعنات القديمة التى كانت تصب على من يعيد بناء كپوا وقرطاجنة وكورنثة ؛ وأتم فى هذه الناحية أيضاً ما شرع فيه ولدا چراكس ، وأعطى حقوق الرومان أو اللاتين للمستعمرين الذين أرسلهم لإنشاء عشرات المدن الممتدة من جبل طارق إلى البحر الأسود ، أو لتعمير ما كان قائماً منها من قبل . ولا جدال فى أنه كان يريد أن يمنح حق المواطنية الرومانية لجميع الذكور الراشدين فى الإمبراطورية كلها ، وبذلك لا يكون مجلس الشيوخ ممثلا لطبقة واحدة فى رومة بل يكون ممثلا لعقلية الولايات جميعها وإرادتها . وهذه الفكرة التى سيطرت على عقل قيصر فيما يجب أن يكون عليه نظام الحكم ، مضافة إلى تنظيمه الجديد لرومة وإيطاليا ، تكمل فى رأينا تلك المعجزة المنقطعة النظير — المعجزة التى جعلت من الشاب المتلاف العربيد رجلا من أقدر رجال السياسة المشئومة فى جميع العصور وأعظمهم شجاعة وعدلا واستنارة .

وكان قيصر كالإسكندر لا يعرف أين تقف جهوده وإصلاحاته ؛ فلما أن رسم فى ذهنه صورة لدولته فى نظامها الجديد ساءه أن يجدها معرضة للغزو عند أنهار الفرات والدانوب والرين ، فأخذ يفكر فى إرسال حملة عظيمة لإخضاع پارثيا والأخذ بثأر كراسس الذى أمده بالمال فى أزماته ، وفى الزحف حول البحر الأسود لتهدئة سكوذيا Scythia ، وفى ارتياد نهر الدانوب وفتح ألمانيا[16] . حتى إذا ما أمن الإمبراطورية على هذا النحو عاد إلى رومة مثقلا بالمجد والمغانم ، ومعه من المال ما يستطيع به أن يقضى على الكساد الاقتصادى فى البلاد ، وله من القوة والجاه ما يستطيع به أن يغض الطرف عن كل معارضة ؛ ومن الحرية ما يمكنه من أن يعين من يخلفه ، وأن يموت بعد أن يورث العالم « السلم الرومانية » Pax Romana ، وهى أعظم تراث يستطيع أن يورثه إياه

الفصل التاسع

بروتس

ولما تسربت أنباء هذه الخطة إلى رومة رحب بها العامة الذين يحبون المجد ، وتلمظ لها رجال الأعمال إذ شموا فيها رائحة الحرب ، وتصوروا المطالب تنهال عليهم لصنع العتاد ، وتصوروا الولايات تنهب وتتكدس فى فى خزائنهم الأموال ؛ أما الأشراف فرأوا الفناء يحل بهم عند عودة قيصر ، ولذلك عقدوا النية على قتله قبل أن يغادر البلاد .

وكان قيصر قد عامل هؤلاء الأشراف معاملة كريمة أطلقت لسان شيشرون بالثناء عليه . وكان قد عفا عن كل من استسلم له من أعدائه ، ولم يحكم بالإعدام إلا على عدد قليل من الضباط الذين خانوا عهده فحاربوه بعد أن هزمهم وعفا عنهم ؛ وكان قد أحرق كل الرسائل التى عثر عليها فى خيمة بمبى وسپيو من غير أن يقرأها ، وأرسل ابنة بمبى وأحفاده الأسرى إلى سكتس ابن بمبى ، وكان لا يزال فى حرب معه ، وأصلح تمثال بمبى وأقامه فى موضعه بعد أن طرحه أتباعه على الأرض ؛ وعين بروتس وكاسيوس والبين على اثنتين من الولايات ، كما عين غيرهما من الأشراف فى بعض المناصب العليا ، وصبر على كثير من الأذى والمثالب دون أن يشكو أو يتذمر ، ولم يتخذ شيئاً من الإجراءات ضد من كان يظن أنهم يأتمرون به ليقتلوه . أما شيشرون الذى طالما لبس لكل حالة لبوسها ، وأدار شراعه لكل ريح ، فإن قيصر لم يكتف بالعفو عنه بل كرمه ولم يبخل عليه بشىء مما طلبه الخطيب العظيم لنفسه أو لأصدقائه البمبيين ، بل إنه انصاع لإلحاف شيشرون ، فعفا عن ماركس مرسلس وهو الرجل الذى خرج على قيصر ولم يندم على فعله ؛ وقد امتدح شيشرون فى خطبة له رنانة عنوانها « إلى مرسلس »(٥٦)

« كرم قيصر الذى لا يصدقه العقل » ، وقال عن بمپى إنه لو انتصر لكان أشد منه انتقاما من أعدائه . ثم أضاف إلى ذلك قوله : « لقد سمعت مع الأسف الشديد عباراتك الفلسفية المشهورة Iam satis vivi لقد نلت كفايتى من طول الحياة ومن الشهرة . . . ورجائى إليك أن تطرح حكمة الحكماء . . . ولا تكن حكيما إذا عرضتاك هذه الحكمة للأخطار . . . إنك لا تزال بعيداً كل البعد عن إنجاز أعمالك العظيمة ، بل إنك لم تضع بعد أسسها » ثم وعد قيصر وعداً صادقاً باسم مجلس الشيوخ كله بأنهم سيسهرون على سلامته ويصدون بأجسامهم كل اعتداء عليه(٥٧) . وأثرى شيشرون فى ذلك الوقت ثراء جعله يفكر فى شراء قصر آخر له ولم يكن هذا القصر غير قصر صلا نفسه . وكان يستمتع بالمآدب التى يدعوه إليها أنطونيوس ويلبس وغيرهما من أعوان قيصر ، ولم تكن رسائله فى أى وقت مضى أكثر بهجة مما كانت فى ذلك الوقت(٥٨) . غير أن قيصر لم ينخدع بهذا كله ، فقد كتب إلى ماربوس يقول : « إذا كان فى الناس من هو ظريف فذلك شيشرون ولكنه يبغضنى أشد البغض »(٥٩) . وكان قيصر صادقا فى قوله ، فلما أن عاد البمپيون إلى مناوأة قيصر بعد أن أمنوا جانبه ارتمى هذا الأديب التلرانى(*) فى أحضانهم وكتب يثنى على كاتو الأصغر ثناء ما كان أجدره بأن ينبه قيصر إلى ما يحيط به من الأخطار . غير أن قيصر لم يفعل أكثر من أن يرد على شيشرون بكتابة ضد كاتو Anti-Cato لا تدل على حصافة عقله . ذلك أنه بعمله هذا أمكن خصمه من أن يختار السلاح الذى ينازله به ، وكانت نتيجة هذا أن انتصر الخطيب عليه ، وأثنى الرأى العام على أسلوب شيشرون كما أثنى على الحاكم الذى اختار أن يكتب رسالة وهو قادر على أن يوقع أمراً بالإعدام .

وبعد فإن الذين حرموا ما كان لهم من سلطان لا يمكن أن تستل سخائمهم

(*) الشبيه فى أخلاقه بتلران السياسى الفرنسى الشهير (١٧٥٤ — ١٨٣٨) .

بالعفو عن مقاومتهم لمن حرمهم هذا السلطان ، وليس عفوك عمن عفا عنك بأقل صعوبة من عفوك عمن آذيته . ومصداق هذا أن الأشراف في مجلس الشيوخ الذي لم يكن يجرؤ على رفض المقترحات التي عرضها عليه قيصر حسب الأصول الدستورية أخذوا يتبرمون ويندون تنديد الوطنيين الصادقين بالقضاء على الحرية التي أتخمت بالمال خزائنهم ، وعز عليهم أن يقروا بأن عودة النظام تتطلب التضحية ببعض حريتهم . وقد روعهم وجود كليوبطرة وقيصريون في رومة . نعم إن قيصر كان يعيش مع زوجته كلبرنيا وإنهما كانا يتبادلان المحبة في الظاهر ، ولكن منذا الذي يعرف — ومنذ الذي تطاوعه نفسه على ألا يذيع — ما كان يحدث في أثناء زياراته الكثيرة للملكة العظيمة الجميلة ؟ وأكدت الشائعات أنه يريد أن ينصب نفسه ملكا ، وأن يتزوج كليوبطرة ، وأن ينقل عاصمة دولتهما المتحدة إلى بلاد الشرق . ألم يأمر بأن يقام له تمثال على الكپتول بجوار تماثيل ملوك رومة الأقدمين ؟ — ألم تطبع صورته على النقود الرومانية ؟ وهي وقاحة لم يسبق يسبق لها نظير . ألم يلبس جلابيب أرجوانية من اللون الذي كان يحتفظ به عادة للملوك ؟ لقد جاءه القنصل أنطونيوس يوم عيد لبركاليا في الخامس عشر من فبراير عام ٤٤ عاري الجسد إلا من جلود الماعز التي كان يلبسها الكهنة في ذلك العيد(*) ثملا من كثرة ما احتسى من الخمر ، وحاول ثلاث مرات أن يضع التاج الملكي على رأس قيصر ، ورفضه قيصر في المرات الثلاث ؛ ولكن ألم يكن سبب هذا الرفض أن الجماهير قد أبدت غضبها من هذا العمل وإن أبدته همساً ؟ ألم يقص التريبونين عن منصبيهما لأنهما رفعا عن تمثاله الإكليل الملكي الذي وضعه عليه أصدقاؤه ولما أقبل عليه الشيوخ وهو جالس في هيكل ڤينوس لم يقم واقفاً لاستقبالهم . وقال بعضهم إنه قد أقعدته وقتئذ نوبة صرع ، وقال غيرهم إنه كان يشكو إسهالا شديداً ، وإنه ظل جالساً حتى لا تتحرك أمعاؤه في هذه اللحظة غير

(*) انظر ما قلناه عن الأعياد في الفصل الثاني من الباب الرابع .

الموانية[٦٠] ، ولكن كثيرين من الأشراف كانوا يخشون أن ينادى به ملكا فى أى يوم .

وأقبل كيوس كاسيوس ، وهو رجل مريض الجسم — « أصفر نحيل » كما يصفه أفلوطرخس[٦١] ، على ماركس بروتس واقترح عليه اغتيال قيصر . وكان قبل ذلك قد عرض خطته على جماعة من الشيوخ وعلى بعض المموِّلين الذين قل ما ينهبونه من الولايات مذ وضع قيصر القيود الشديدة على الملتزمين ، بل عرضها أيضاً على بعض القواد فى جيش قيصر الذين أحسوا بأن ما حباهم به من المناصب والغنائم كان أقل مما يستحقون ، وكان هؤلاء كلهم قد وافقوه عليها . وكان المتآمرون فى حاجة إلى بروتس ليكون هو رافع لواء المؤامرة ، لأنه اشتهر بين الناس كافة بأنه أعظم الناس استمساكا بالفضيلة ، وكان الناس يقولون إنه من سلالة بروتس الذى طرد الملوك قبل ذلك الوقت بأربعمائة وستة وأربعين عاماً . وكانت أمه سرفليا أختا غير شقيقة لكاتو ، وزوجته پورشيا ابنة كاتو وأرملة بيبولس عدو قيصر ؛ ويقول أپيان « إن الناس كانوا يظنون أن بروتس نفسه ابن قيصر لأن قيصر كان عشيق سرفليا فى الوقت الذى ولد فيه بروتس »[٦٢] . ويضيف أفلوطرخس إلى ذلك أن قيصر كان يعتقد أن بروتس ولده[٦٣] ؛ ولا يبعد أن يكون بروتس نفسه ممن يعتقدون هذا الاعتقاد ، وأنه كان يحقد أشد الحقد على قيصر لأنه أفسد أخلاق أمه وجعله مضغة فى أفواه الرومان ، يقولون عنه إنه ابن زانية بدل أن يكون من نسل آل بروتس ؛ وكان هو على الدوام مكتئباً يميل إلى الصمت كأن ظلماً حل به يجثم على صدره ويشغل باله ، وذلك فى الوقت الذى كان فيه فخوراً معجباً بنفسه ، لأنه أيا كان مولده يجرى فى عروقه دم الأشراف ؛ وكان يجيد اللغة اليونانية ويحب الفلسفة ، وكان فى علم ما وراء الطبيعة من القائلين برأى أفلاطون ، وفى الأخلاق من أتباع زينون ؛ وكان مما انطبع فى ذهنه أن الرواقية تتفق مع المبادئ اليونانية والرومانية فى الحث على قتل الطغاة الظالمين ، وقد كتب

في هذا إلى صديق له يقول : « إن آباءنا كانوا يعتقدون أنه لا ينبغي لنا أن نخضع للمستبد ولو كان هذا المستبد أبانا نفسه »[٦٤] . وقد ألف رسالة في الفضيلة وخلط الناس في المستقبل بينه وبين هذا الوصف ، وإن كان بعيداً عنه . فقد أقرض أهل سلاميس Salamis في قبرص عن طريق بعض الوسطاء أموالا بسعر ثمانية وأربعين في المائة ، ولما تذمروا من أداء ما تراكم عليهم من الفوائد ألح على شيشرون ، وكان وقتئذ قنصلا في قليقية ، أن يستعين بالجيوش الرومانية على جمع المال[٦٥] . وقد حكم غالة الجنوبية حكماً صالحاً يمتاز بحسن الإدارة والكفاية ، ولما عاد إلى رومة عينه قيصر بريتوراً Praetor على الحواضر .

وقد ثار كل عنصر طيب فيه على مقترحات قيصر ، وأخذ كاسيوس يذكره بآبائه الذين ثاروا على الظلم ، ولعل بروتس قد شعر بأنه يتحداه بأن يثبت أنه من نسلهم وبأن يحذو حذوهم . وكان هذا الشاب الحساس يحمر وجهه خجلا حين يرى تمثال بروتس الأكبر أمثال هذه العبارة :

« أي بروتس ! هل مت ؟ وإلا فإن آباءك برآء منك »[٦٦] .

وقد أهدى إليه شيشرون عدة من رسائله كتبها في تلك السنين ، وسرت في ذلك الوقت بين الأشراف شائعة فحواها أن لوسيوس كتا Lucius Cotta سيعرض على مجلس الشيوخ في اجتماعه المقبل الذي سيكون في الخامس عشر من شهر مارس اقتراحا بتنصيب قيصر ملكا ، لأن عرّافة سيبيل قالت إن البارثيين لن يهزموا إلا على يد ملك[٦٧] . وقال كاسيوس إن المجلس ، وقد أصبح نصف أعضائه ممن عينهم قيصر ، سوف يوافق على هذا الاقتراح ، وإنه لن يبقى بعد ذلك أمل في عودة الحكم الجمهوري . وتأثر بروتس بهذا كله ، واستسلم ، وأخذ المتآمرون بعد ذلك يحكمون أمرهم ويضعون خططهم ، واستخلصت پورشيا

السر من زوجها ، بأن طعنت نفسها بخنجر فى فخذها لتبرهن بذلك على أنه ما من أذى يصيبها فى جسمها يحملها على أن تنطق بشىء رغم إرادتها . وأصر بروتس فى لحظة غير مواتية له على ألا يمس أنطونيوس بأذى .

وحدث فى مساء اليوم الرابع عشر من شهر مارس أن عرض قيصر على من كانوا مجتمعين فى منزله أن يكون موضوع حديثهم « ما هى خير طريقة للموت ؟ » وأجاب هو عن ذلك السؤال بقوله : « إنها الميتة المفاجئة » . وتوسلت إليه زوجه فى صباح اليوم الثانى ألا يذهب إلى مجلس الشيوخ ، وقالت إنها رأته فى نومها ملطخاً بالدماء ؛ وحاول خادم آخر ، كان يرى مثل رأيها ، أن يفتعل نذيراً يمنع قيصر من الذهاب ، فتسبب فى سقوط صورة لأحد أسلافه معلقة على جدار ، ولكن دسمس بروتس **Decimus Brutus** ، وهو صديق حميم لقيصر وأحد المتآمرين ، ألح عليه أن يحضر الاجتماع وإن لم يفعل فيه أكثر من أن يطلب بنفسه فى رقة ومجاملة تأجيل الجلسة إلى وقت آخر . وأقبل صديق لقيصر عرف نبأ المؤامرة ليحذره فوجده قد غادر داره فى طريقه إلى المجلس . وقابل فى طريقه عرافا كان قد أسر إليه من قبل أن « يحذر اليوم الخامس عشر من شهر مارس » وقال له قيصر وهو يبتسم ، إن الخامس عشر من مارس قد جاء ولم يصب فيه بسوء ، فأجابه اسبورنا **Sburinna** « نعم ولكنه لم يمض بعد » .

وبينا كان قيصر يقرّب القربان الذى كان من المألوف تقريبه قبل الجلسة أمام ملهى بمبى حيث يعقد المجلس اجتماعه إذ وضع أحدهم فى يده لوحة صغيرة يحذره فيها من المؤامرة ولكنه لم يعبأ بها . وتقول الرواية المأثورة إن هذه اللوحة وجدت فى يده بعد مقتله(*) .

(*) وردت هذه القصص الخاصة باليوم الخامس عشر من مارس فى مؤلفات سيوتونيوس وأفلوطرخس وأبيان (٦٨) ، ولكنها رغم ورودها فى هذه المؤلفات كلها قد لا تكون إلا خرافة من الخرافات .

وشَغَل تربونيوس Trebonius — وهو أحد المتآمرين ، وكان من قبل أحد قواد قيصر المقرّبين — أنطونيوس بالحديث فعطله عن حضور الاجتماع ؛ ولما دخل قيصر الملهى واتخذ فيه مجلسه هجم « دعاة الحرية » من فورهم عليه ؛ ويقول سيوتونيوس : « لقد كتب بعضهم يقولون إنه حين هجم عليه ماركس بروتس قال باللغة اليونانية Kai su teknon — « وأنت أيضاً يا ولدي »[٦٩] ؛ ويقول أبيان إن قيصر حين طعنه بروتس امتنع عن كل مقاومة ، وغطى وجهه ورأسه بثوبه ، واستسلم للضربات ، وسقط عند قدمي تمثال بمبي[٧٠]؛ وهكذا تحققت رغبة واحدة من رغبات أكمل إنسان أنجبته الأيام الخالية(*).

(*) يقصد بهذه الرغبة ميتته المفاجئة . وقد روى شيكسبير في مسرحيته الذائعة الصيت هذه الحوادث كلها ووصفها أروع وصف . (المترجم)

الباب العاشر

انطونيوس

٤٤ – ٣٠ ق . م

الفصل الأول

أنطونيوس وبروتس

لقد كان مقتل قيصر مأساة من مآسى التاريخ الكبرى ، وليس السبب فى عظم هذه المأساة مقصوراً على أنها حالت بينه وبين إتمامه عملا من أجل الأعمال السياسية والإدارية ، وأدت إلى امتداد عهد الفوضى والحروب خمسة عشر عاما أخرى . ولو كانت نتائجها مقصورة على هذا وذاك لهان الخطب ، فقد عاشت الحضارة بعده ، وأتم أغسطس ما بدأه قيصر ، بل إنه مأساة من نوع آخر وهو أن الحزبين المتعارضين فى مجلس الشيوخ كان كلاهما فى أغلب الظن على حق : فالمتآمرون محقون فى اعتقادهم أن قيصر كان يعتزم أن ينصب نفسه ملكاً ، كما أن قيصر نفسه كان محقاً فى ظنه أن الفوضى والنظام الإمبراطورى قد جعلا الملكية أمراً محتوما . وقد انقسم الناس بين الرأيين ولا يزالون منقسمين منذ اللحظة الرهيبة التى مرت بمجلس الشيوخ ، وقد استولى عليه الهلع من وقع الحادث ، ثم فر أعضاؤه مذعورين مضطربين من قاعة الاجتماع . وأقبل أنطونيوس على مكان الحادث بعد وقوعه ، ورأى أن الحكمة هى عين الشجاعة ، فاحتمى فى بيته ؛ وخانت شيشرون فصاحته حتى

فى الوقت الذى حياه بروتس وخنجره يقطر دماً فى يده قائلا له مرحباً «بأبى بلده». ولما خرج المتآمرون وجدوا الشعب هائجاً فى الميدان العام، وأرادوا أن يضموه إلى جانبهم بألفاظ الحرية والجمهورية، ولكن العامة الذين جن جنونهم من هول الحادث لم يعبؤوا بهذه الألفاظ التى طالما استخدمت لستر المطامع والشره. ولجأ القتلة إلى البناء القائم على الكپتول ليعتصموا به خوفاً على حياتهم، وأحاطوا أنفسهم بحراسهم من المصارعين. وانضم إليهم شيشرون فى آخر النهار، وأرسلوا رسلهم إلى أنطونيوس يستطلعون طلعه فأجابهم جواباً ودياً.

واحتشد فى اليوم الثانى جمع غفير فى السوق العامة وأرسل المتآمرون صنائعهم ليبتاعوا تأييدهم وينظموا من هذا الحشد جمعية شرعية. ثم استجمعوا شجاعتهم، ونزلوا من فوق الكپتول، وألقى بروتس على المجتمعين خطبة كان قد أعدها من قبل ليلقيها فى مجلس الشيوخ. غير أن هذه الخطبة لم يكن لها أثر فى السامعين، وحاول كاسيوس أن يؤثر هو فيهم ولكنهم قابلوه بصمت وفتور، فعاد المحررون إلى الكپتول، حتى إذا ما نقص عدد العامة المحتشدين تسللوا إلى بيوتهم. واعتقد أنطونيوس أنه وارث قيصر، فحصل من كلپترنيا — وقد أذهلتها الفاجعة وكادت تذهب بعقلها — على كل ما تركه قيصر فى القصر من أوراق وأموال، ثم دعا فى الوقت نفسه جنود قيصر القدامى المضرسين للحضور إلى رومة. وفى اليوم السابع عشر دعا مجلس الشيوخ إلى الاجتماع مستخدماً فى ذلك حقه بوصفه تريبيوناً، وأدهش الأحزاب جميعها بلطفه وهدوئه، فقبل ما عرضه عليه شيشرون وأصدر عفواً عاماً، ووافق على أن يعين بروتس وكاسيوس واليين لاثنتين من الولايات، (أى أن يفرا وينجوا ويستمتعا بالسلطان)، على شرط أن يقر مجلس الشيوخ جميع الأوامر والقوانين والتعيينات التى أصدرها قيصر. وإذ كانت كثرة الشيوخ مدينة بمناصبها وأموالها إلى هذه القرارات نفسها فقد وافقت على هذا الشرط، لما فض الاجتماع أثنى الجميع على أنطونيوس وقالوا إنه هو السياسى

الذى انتزع السلم من بين أنياب الحرب . وفى مساء ذلك اليوم نفسه أولم وليمة عشاء لكاسيوس ؛ وعاد مجلس الشيوخ إلى الانعقاد فى اليوم الثامن عشر وأقر وصية قيصر ، ووافق على أن يحتفل بجنازته احتفالا عاما ، واختار أنطونيوس ليؤبنه التأبين المألوف .

وفى اليوم التاسع عشر حصل أنطونيوس من العذارى الفستية على وصية قيصر ، وكان قد أودعها عندهن ، وقرأها لجماعة صغيرة فى بادئ الأمر ثم لجماعة أخرى أكبر من الأولى عدداً . وقد جاء فيها أنه يوصى بجميع أملاكه الخاصة لثلاثة من أحفاد إخوته (وكان ذلك مثار دهشة أنطونيوس وغضبه) وسمى واحداً منهم بالذات وهو كيوس أكتافيوس متبناه ووريثه ؛ وجعل الدكتاتور حدائقه متنزهاً عاماً للشعب ، وأوصى لكل مواطن فى رومة بثلثمائة سسترس . وسرعان ما انتشر نبأ هذا الإحسان فى جميع أنحاء المدينة ، ولما جيء فى اليوم العشرين من الشهر بجثة قيصر إلى السوق العامة ، بعد أن حنطت فى بيته ، لإجراء المراسم النهائية احتشد حولها جمع غفير من الناس ومن بينهم جنود قيصر القدامى ليكرموه . ويظهر أن أنطونيوس قد تحدث إلى هذا الجمع فى بادئ الأمر بحيطة فلم يطلق للسانه العنان ، ولكن عواطفه المكبوتة لم تلبث أن تغلبت عليه فأطلقت لسانه وأكسبت ألفاظه فصاحة أيما فصاحة . ولما رفع من النعش العاجى الثوب الممزق الملطخ بالدماء والذى مزقته الطعنات التى وجهت إلى قيصر ، ثارت عواطف المجتمعين ثوراناً لم يكن فى وسع أحد أن يكبح جماحه ، وعلا النحيب والعويل ، وأخذ كل واحد يجمع الأحطاب اللازمة لإشعال النار التى ستحرق بها الجثة . وألقى الجنود القدامى أسلحتهم فوق كومة الأحطاب لتكون قرباناً يقـــربونها إلى قيصر ، كما ألقى الممثلون ملابسهم والموسيقيون آلات عزفهم ، كما ألقت النساء أغلى ما يمتلكن من الحلى . وانتزع بعض المتحمسين مشاعل من النار وذهبوا بها ليحرقوا بيوت المتآمرين ، ولكنهم وجدوا الحراسة شديدة على

هذه المبانى ، ووجدوا أن أصحابها قد فروا من رومة . وظلت طائفة كبيرة من الشعب بجوار الأحطاب المحترقة طوال الليل ، كما لازمها اليهود ثلاثة أيام كاملة اعترافاً منهم بفضل قيصر وعطفه عليهم فيما أصدره من قوانين ، ولم ينقطعوا طوال هذه الأيام الثلاثة عن ترديد أناشيدهم الجنازية ؛ وظلت العاصمة فى هذه الأيام الثلاثة تجتاحها الفتن والقلاقل حتى أمر أنطونيوس جنوده فى آخر الأمر أن يعيدوا إليها النظام ، وأن يلقوا بكل من لا يرتدع عن السلب والنهب من فوق صخرة تربيا Tarpeia .

وكان أنطونيوس نصف ما كان قيصر كما سيكون أغسطس نصفه الثانى ؛ فقد كان أنطونيوس قائداً عظيما كما كان أغسطس حاكما فذًّا ممتازاً ، ولكن الصفتين لم تجتمعا فى واحد منهما . وقد ولد أنطونيوس فى عالة ٨٢ ق . م ، وقضى الشطر الأكبر من حياته فى المعسكرات كما قضى أكثرها فى معاقرة الخمر ، ومجالس النساء ، والاستمتاع بالمرح وشهى الطعام .

وكان رغم كرم محتده وبهاء طلعته يتصف بفضائل عامة الناس . كان قوىّ الجسم ، حيوانى الروح ، طيب القلب ، كريماً ، شجاعاً ، وفيًّا . وقد أساء إلى سمعته وسمعة قيصر نفسه إذ احتفظ فى داره برومة بطائفة كبيرة من النساء والغلمان ، وبعشيقة يونانية فى محمله كلما غادر رومة[1] . وكان قد ابتاع منزل بمپى فى المزاد العام وأقام فيه ، ثم أبى أن يؤدى ثمنه[2]؛ وها هو ذا يجد فى أوراق قيصر — أو يسجل فيها على ما يقول بعضهم — كل ما يستفيد من وجوده — مناصب لأصدقائه ، ومراسيم يصل بها إلى أغراضه ، وخيراً كثيراً لنفسه ، فلم يمض على مقتل قيصر أسبوعان حتى وفّى بديون كانت عليه يبلغ مقدارها نحو ٥٠٠ر٠٠٠ر١ ريال أمريكى ، وأصبح بعد عشية وضحاها رجلا ثريا . واستولى على الخمسة والعشرين مليون ريال التى كان قيصر قد أودعها فى هيكل أبس Aps وعلى خمسة ملايين أخرى من أموال قيصر الخاصة . ولما رأى أن دسمس بروتس ،

الذى عينه قيصر قبل مقتله والياً على غالة الإيطالية ، قد تولى هذا المنصب المربح رغم اشتراكه فى اغتيال قيصر ، استصدر قراراً من الجمعية بتعيينه هو والياً على هذه الولاية ذات الموقع العسكرى الخطير ، يعوض دسمس عنها بولاية مقدونية . ثم استصدر قراراً آخر بأن يتخلى ماركس بروتس وكاسيوس عن مقدونية لدسمس ، وعن سورية لدلابلا ، وأن يقنعا بقورينة وكريت .

وارتاع مجلس الشيوخ من قوة أنطونيوس المتزايدة ، فدعا إلى رومة كيوس أكتافيوس متبنى قيصر لكى يقضى على هذه القوة ، وقد صار كيوس فى مستقبل الأيام أعظم الساسة الحاكمين فى التاريخ الرومانى ، أما فى عام ٤٤ فلم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من العمر ، وقد تسمى باسم الرجل الذى تبناه كما جرت بذلك العادة المألوفة وعدله بإضافة اسمه هو فصار اسمه الكامل كيوس يوليوس قيصر أكتافيانوس ، وظل ذلك اسمه حتى ضم إليه بعد سبعة عشر عاما من ذلك الوقت اسم أغسطس ، وهو اللقب العظيم التى تعرفه به القرون التالية . وكانت جدته هى يوليا Julia أخت قيصر ، أما جده فكان صرفيا من أصل عامى فى فلترا Velitrae من أعمال لاتيوم . وكان أبوه قد عمل إيديلا شعبيا ثم بريتوراً ثم عين فيا بعد والياً على مقدونية .

وقد نُشِّئ الغلام على البساطة الاسبارطية ، وتعلم الآداب والفلسفة اليونانيتين والرومانيتين ، وقضى معظم الثلاث السنين الأخيرة فى قصر قيصر . ولقد كان من أسباب حزن قيصر أنه لم يكن له أبناء شرعيون ، كما كان من أكبر الشواهد على حصافة رأيه أن تبنى أكتافيوس ، فأخذه وهو غلام معه إلى أسبانيا فى عام ٤٥ ، وسره أن رأى الشاب المريض ، العصبى ، الضعيف الجسم ، قد تحمل أخطار الحرب وشدائدها بشجاعة عظيمة . وعمل قيصر على أن يدرب الشاب على فنون الحرب والحكم[٣] . وإنا لنعرف ملامحـــه من التماثيل الكثيرة التى أقيمت له : فهو رقيق ، نحيل ، جاد ، حيىّ وحازم معاً ، مستســلم وعنيد ، مثالى اضطرته الظروف

لأن يكون واقعيا ، ومفكر علّمته صروف الدهر أن يكون من رجال العمل . وكان أصفر الوجه ، هزيل الجسم ، ممعوداً يشكو سوء الهضم ؛ ولذلك لم يكن يأكل إلا قليـــلا ، ولا يشرب إلا أقل ؛ وعاش أطول مما عاش من حوله من الأقوياء بالحِمية وتنظيم الحياة .

وجاء فى أواخر مارس عام ٤٤ عبد محرَّر إلى أپولونيا **Appolonia** من أعمال اليريا **Illyria** حيث كان اكتافيان مع جيشه يحمل إليه نبأ مقتل قيصر ووصيته .

وارتاع الشاب المرهف الحس لجحود الناس وكفرهم بنعم المنعم عليهم ، وثار فى نفسه كل ما كان كامناً فيها من حبه لأخى جدته الذى كان يعزه أعظم إعزاز ، والذى كان يعمل جاهداً لإقامة صرح الدولة المحطمة ، وعقد النية فى صمت على أن يواصل جهود قيصر وأن ينتقم من قاتليه . ثم ركب من فوره إلى شاطئ البحر وعبره إلى برنديزيوم وأسرع إلى رومة ، وأشار عليه أقاربه فيها أن يظل مختفياً عن الأنظار لئلا يهلكه أنطونيوس ، ونصحته والدته ألاَّ يقوم بعمل من الأعمال ولكنها ابتهجت حين سخر من هذه النصيحة . وكان كل ما أشارت به عليه أن يصبر كلما كان الصبر فى مقدوره ، وأن يلجأ إلى الختل بدل الحرب السافرة . وقد عمل بهذه النصيحة الحكيمة إلى آخر أيامه

وتوجّه لزيارة أنطونيوس وسأله عما هو فاعل بقتلة قيصر . وهاله أن يرى أنطونيوس مشغولا بإعداد جيش يزحف به على دسمس بروتس ، لأنه أبى أن يتخلى عن بلاد غالة الجنوبية ؛ وطلب إلى أنطونيوس أن يوزع ما تركه قيصر حسب وصيته ، وخاصـــة ذلك الجزء الذى يوصى بإعطاء كل مواطن خمسة وأربعين ريالا . غير أن أنطونيوس وجد أسبابا كثيرة تدعو إلى تأخير تنفيذ الوصية ، فما كان من أكتافيان إلا أن وزع على جنود قيصر القدامى أموالا استدانها من أصدقاء قيصر وأعدّ بنفسه جيشه

واغتاظ أنطونيوس من وقاحة هذا « الولد » على حد قوله : وأعلن أن بعضهم قد حاول قتـله ، وأن الذى كان يريد اغتياله قد قال إن أكتافيان هو المحرض له . وأنكر أكتافيان هذه التهمة ، وقال إنه برىء منها ؛ وانتهز شيشرون فرصة هذا النزاع وأدخل فى روع أكتافيان أن أنطونيوس فظ غير مهذب يجب أن يهزم . ووافق أكتافيان على هـذا الرأى ، وضم فيلقيه إلى فيالق القنصلين هرتيوس Hirtius وپنسا Pansa ، وزحف بها كلها شمالا لقتال أنطونيوس . وأمد شيشرون هذه الحرب الأهلية الجديدة بطائفة من الاتهامات المقذعة ضمنها أربع عشرة « فلپية(*) قوية » فى الطعن على سياسة أنطونيوس العامة وحياته الخاصة ، ألقى بعضها فى مجلس الشيوخ أو فى الجمعية ، ونشر بقيتها للدعاوة ضد أنطونيوس على أحسن الصور التى صارت الدعاوة الحربيـة تنشر بها فى مستقبل الأيام . ولما التقى الجيشـان فى موتينا Mutina (مودينا Modena) هزم أنطونيوس وفر من الميدان (٤٤) ؛ ولكن هرتيوس وپنسا قتلا فى المعركة . وعاد أكتافيان إلى رومة وأصبح القائد الأوحد سيالق مجلس الشيوخ وفيالقه هو ، وأرغم المجلس وهو مؤيد بهذه القوة على أن يعينه قنصلا ، وأن يلغى العفو الذى أصدره عن المتآمرين وأن يحكم عليهم جميعاً بالإعدام . ولما تبين له أن شيشرون ومجلس الشيوخ من ألد أعدائه ، وأن كل ما فى الأمر أنهما يتخذانه أداة مؤقتة للقضاء على أنطونيوس لما تبين له هذا سوى النزاع القائم بينه وبين أنطونيوس ، وكون منه ومن أنطونيوس ولپدس الحكومة الثلاثية الثانية . (٤٣ — ٣٣ ق . م) ، ثم زحفت جيوشهم المتحالفة عـلى رومة واستولت عليها دون أن تلقى مقاومة ، وفر كثيرون من الشيوخ ومن المحافظين إلى جنوبى إيطاليا وإلى الولايات الخارجية ، واعترفت الجمعية بهذه الحكومة الثلاثية ، وخولتها سلطات كاملة مدى خمسة أعوام .

(*) كان هذا اللفظ يطلق أولا على كل خطبة من خطب ثلاث لديموستين ضد فليب المقدونى ، ثم صار علماً على كل خطبة فيها طعن — واتهام كخطب شيشرون ضد أنطونيوس . (المترجم)

ولكي يستطيع الحكام الثلاثة أداء رواتب جنودهم ، وملء خزائنهم ، والانتقام من قتلة قيصر ، بسطوا على رومة حكماً لا يماثله فى تاريخ الرومان كله حكم آخر فى الإرهاب وسفك الدماء ؛ فقد أعدوا قوائم تحتوى على أسماء من لا بد من إعدامهم ، وكانوا ثلثمائة من الشيوخ ، وألفين من رجال الأعمال ، وعرضوا على كل حر يأتيهم برأس واحد من هؤلاء ٢٥٫٠٠٠ درخمة (١٥٫٠٠٠ ريال أمريكى) ، وعلى كل عبد ١٠٫٠٠٠[4] ، وأضحى امتلاك المال جريمة يعاقب عليها بالإعدام فكانوا يحكمون بقتل الأطفال الذين يرثون مالا ، وينفذون فيهم الحكم ، وكان ينتزع من الأرامل ما يرثنه من الأموال ، وقد أرغمت ١٤٫٠٠٠ امرأة على أن ينزلن للحكام الثلاثة عن الجزء الأكبر من أملاكهن ، ثم استولوا آخر الأمر على الأموال المدخرة المودعة عند « العذارى الفستية » . وقد عفوا عن أتكس لأنه ساعد من قبل فلڤيا Fulvia زوجة أنطونيوس ، ولكنه رغم اعترافه بهذا الفضل أرسل مبالغ طائلة من المال إلى بروتس وكاسيوس . وأقام الحكام الثلاثة جنودهم حراساً على كل مخارج المدينة ، واختبأ المحكوم بإعدامهم فى الآبار والبالوعات والحجر العليا فى الدور والمداخن . ومنهم من ماتوا وهم يدافعون عن أنفسهم ، ومنهم من استسلموا لقاتليهم وهم هادئون ، ومنهم من أماتوا أنفسهم جوعاً أو شنقاً أو غرقاً ، ومنهم من قفزوا من فوق الأسطح أو ألقوا بأنفسهم فى النار . ومن الناس من قتل خطأ ، ومن غير المحكوم عليهم من انتحروا فوق أجسام من قتلوا من أقاربهم . وكان التربيون سلڤيوس Salvius يعلم أنه من المقتضى بإعدامهم ، فأقام وليمة وداع لأصـدقائه ، ودخل عليه رسل الحكام الثلاثة فى أثناء الوليمة ، وقطعوا رأسه وتركوا جسمه أمام المائدة ، وأمروا المدعوين أن يستمروا فى طعامهم وشرابهم . وانتهز العبيد هذه الفرصة للتخلص من سادتهم ، ولكن كثيرين منهم قضوا نحبهم وهم يدافعون عن ملاكهم ، وقد تخفى واحد منهم فى زى سيدة وقتل بدلا منه . ومات

بعض الأبناء دفاعاً عن آبائهم ، ونم بعضهم على آبائهم ليرثوا نصيباً من أموالهم . ومن الزوجات الزانيات أو اللاتى خانهن أزواجهن من نمت عليهم ، وأنقذت زوجة كوبونيوس Coponius بعلها بالنوم مع أنطونيوس . وكانت فلفيا زوجة أنطونيوس قد حاولت أن تشترى منزل جارها رفوس Rufus ، فأبى ذلك عليها ثم حاول فى ذلك الوقت أن يقدمه لها هبة من غير ثمن ، ولكنها استطاعت أن تضع اسمه بين أسماء المحكوم بإعدامهم ، فلما قطع رأسه أمرت به فدق بالمسامير على باب بيته الأمامى(٥)

ووضع أنطونيوس اسم شيشرون بين الأسماء الأولى من المحكوم عليهم . وذلك لأن أنطونيوس كان زوج أرملة كلوديوس ، وابن زوجة لنتولس الكتاليناري Lentulus the Catalinarian الذى قتله شيشرون فى السجن ، وقد ساءه بحق ما احتوته « فلپات » شيشرون من تجريح وطعن شديد . وعارض أكتافيان فى هذا ولكنه لم يستمر طويلا فى معارضته ، ذلك أنه لم يكن فى وسعه أن ينسى تمجيده لقتلة قيصر ، كما لم ينس العبارة التى قالها للمحافظين يبرر بها مغازلته لوريث قيصر(*) وما فيها من تورية . وحاول شيشرون الفرار ، ولكنه لم يتحمل دوار البحر فغادر المركب وقضى الليل فى بيته الريفى فى فورميا Formiae ؛ وأراد أن يقضى فيه اليوم الثانى فى انتظار مقتله لأن ذلك فى نظره خير من البحر المائج المضطرب ، ولكن عبيده دفعوه إلى داخل هودج ، وساروا به نحو السفينة ، وبيناهم فى طريقهم إذ أقبل عليهم جنود أنطونيوس . وأراد العبيد أن يقاوموهم ولكن شيشرون أمرهم أن يضعوا الهودج على الأرض ويستسلموا . ثم مد الرجل رأسه « وجسمه يعلوه الغبار ، وشعر رأسه ولحيته منفوش ، ووجهه قد أضناه القلق والتعب »(٧) ، حتى يسهل على الجنود قطعه (٤٢) . وكانت أوامر أنطونيوس تقضى بأن تقتطع أيضاً يده اليمنى .

(*) كان شيشرون قد قال عن أكتافيان : « إن الغلام جدير بالثناء والتزيين والسمو » laudandum adolescentem, ornandum, tollendum ، ولكن tollendum تعنى أيضاً القتل .

فقطعت وجيء بها مع رأسه إليه . وضحك أنطونيوس ضحكة الفوز ، ووهب القتلة ٢٥٠٫٠٠٠ درخمة ، وأمر بتعليق الرأس واليد فى السوق(٨) .

وفى أوائل عام ٤٢ عبر الحكام بقواتهم البحر الأدرياوى واخترقوا مقدونية إلى تراقيا حيث جمع بروتس وكاسيوس آخر الجيوش الجمهورية ، واستعانا على تموينه بالمال ينتزعونه بطرق لا تماثلها فى قسوتها حتى السوابق الرومانية . فقد طلبا من الولايات الشرقية للإمبراطورية ضرائب عشر سنين مقدما ، وحصلا بالفعل على تلك الضرائب ؛ ولما أظهر أهل رودس شيئا من المعارضة فى هذه المطالب هاجم كاسيوس ثغرهم العظيم ، وأمر الأهلين جميعهم بتسليم ثروتهم ، وقتل كل من تردد منهم ، وحمل معه عشرة ملايين ريال أمريكى . وفى قليقية أنزل جنوده فى بيوت طرسوس Tarsus ، ولم يبارحوها حتى أدت إليه تسعة ملايين ريال ، ولم يستطع السكان أداء هذا المال حتى باعوا بالمزاد جميع أراضى البلدية ، وصهروا جميع آنية الهياكل وحليها ، وباعوا كل الأحرار عبيداً — فباعوا أولا الأولاد والبنات ، ثم النساء والشيوخ ، وباعوا آخر الأمر الشبان ؛ وانتحر الكثيرون من الأهلين حين علموا أنهم بيعوا ؛ وجمع كاسيوس من بلاد اليهود أربعة ملايين ريال ، وباع سكان أربع من المدن عبيداً ؛ ولم يتحرج بروتس أيضاً عن جمع المال بالقوة ، من ذلك أنه لما رفض سكان أكسانثوس Xanthus من أعمال ليثيا مطالبه حاصرهم حتى نفدت مؤونتهم ولم ينفد عنادهم فانتحروا جميعاً(٩) . وأطال بروتس المكث فى أثينة لحبه الفلسفة ؛ ولكن المدينة كانت غاصة بالشبان الرومان النبلاء الذين كانوا ينادون بالحرب التى تعيدهم إلى أوطانهم . ولما أن جمع بروتس كفايته من المال طوى كتبه وانضم بجيوشه إلى كاسيوس ونزل إلى الميدان .

والتقت جيوش الطرفين المتقاتلين فى فلباى فى شهر سبتمبر من عام ٤٢ ؛

وزحف جناح بروتس على جناح أكتافيان وزحزحه عن موضعه واستولى على معسكره ، ولكن جيوش أنطونيوس هزمت جيوش كاسيوس هزيمة منكرة ، وأمر كاسيوس حامل درعه أن يقتله ففعل ، ولم يستطع أنطونيوس أن يواصل انتصاره على الفور ؛ لأن المرض أقعد أكتافيان فلزم خيمته واختل نظام جيشه ، فاضطر أنطونيوس إلى إعادة تنظيم الجيش كله ، وبعد أن استراح بضعة أيام قاده لقتال بروتس ، وأوقع بمن بقى من الجيوش الجمهورية هزيمة ولّوا على أثرها الأدبار . ورأى بروتس رجاله يستسلمون فأدرك — ولعله قد سرّه أن يدرك — أنه خسر كل شيء ، فألقى بنفسه على سيف صديق له ومات .

ولما أقبل أنطونيوس على جثته غطاها بثوبه الأرجوانى ؛ فلقد كان هو وبروتس صديقين فى يوم من الأيام .

الفصل الثانى

أنطونيوس وكليوبطرة

لقد كانت معركة فلپاى آخر معركة برية للأشراف القدامى ، وقد حذا الكثيرون منهم — ابن كاتو ، وابن هورتنسيوس ، وكونتليوس ڤارس ، Quintilius Varue ، وكونتس لبيو Quintus Labeo — حذو بروتس وكاسيوس فانتحروا . وقسم المنتصرون الإمبراطورية فيما بينهم : فأعطى ليدس أفريقية وأخذ أكتاڤيان الغرب ، واختار أنطونيوس مصر وبلاد اليونان والشرق . وكان أنطونيوس دائم الحاجة إلى المال ، فعرض على مدائن الشرق ألا يؤاخذها على ما أمدت به أعداءه من المال إذا هى أمدته بمثله — أى بعشرة أمثال الضريبة السنوية فى مدى عام . وعاد قديم مرحه وبشاشته إليه حين ظن أن النصر قد أعاد إليه أمنه وطمأنينته ، فأنقص مطالبه من الإفزين حين أقبلت عليه نساؤهم فى ثياب كاهنات باخوس يحيينه ويسمينه الإله ديونيسس ؛ ولكنه وهب طاهيه بيت موظف مجنزى Magnesian كبير مكافأة له على عشاء شهى أعده له . وعقد مجلساً من أهل المدن الأيونية فى إفسوس وأقر فيه حدود تلك الولايات ، وحسم ما بينها من خلاف بحكمة لم ير معها أغسطس بعد عشرة أعوام من ذلك الوقت ما يدعو إلى تعديل ما اتخذ فى هذا المجلس من قرارات . وعفا عن كل من حاربه إلا الذين اشتركوا فى مقتل قيصر . ومد يد المعونة للمدن التى لاقت العذاب على يد كاسيوس وبروتس ، ورفع عنها جميع الضرائب الرومانية ، وحرر كثيرين ممن باعهم المتآمرون أرقاء ، كما حرر مدن سوريا من الطغاة الذين قضوا على حكوماتها الدمقراطية[1] .

وبينا كان أنطونيوس يظهر هذه الكياسة المنبعثة من طيبة قلبه وبساطة

خلقه ؛ استسلم للشهوات الجنسية استسلاما أفقده احترام رعاياه لسلطته . فقد أحاط نفسه بالراقصات والموسيقيات والعشيقات ، والمهرجين والصخابين ، واتخذ له زوجات ومحظيات كلما لاحت له امرأة وأعجبته . وكان قد أرسل الرسل إلى كليوبطرة يدعوها للمثول بين يديه فى طرسوس لتجيب عما اتهمت به من مساعدتها كاسيوس على جمع المال والجنود . وجاءت كليوبطرة ، ولكنها جاءت فى الوقت الذى اختارته وعلى الطريقة التى اختارتها . فبينا كان أنطونيوس جالسا على عرش فى السوق العامة ، ينتظر منها أن تحضر وتدفع عن نفسها ما اتهمت به ، ثم يقضى لها أو عليها — ركبت هى نهر سندس Cyndus فى قارب ذى أشرعة أرجوانية ، وسُكان مذهب ، ومجاديف من فضة ، تضرب الماء على أنغام الناى والمزمار والقيثار . وكانت وصيفاتها هن بحارة القارب ، ولكن فى زى حور البحار وربات الجمال . أما هى فقد تزينت بزى الزهرة (فينوس) ورقدت تحت سرادق من قماش موشى بالذهب .

ولما انتشر بين أهل طرسوس نبأ هذا المنظر الفتان أقبلوا على شاطئ النهر زرافات ووحداناً ، وتركوا أنطونيوس وحده جالسا على عرشه . ودعته كليوبطرة إلى العشاء معها فى قاربها ، فأقبل عليها ومعه حاشيته الرهيبة ، فأولمت وليمة فاخرة ، وقدمت لهم فيها أشهى الطعام والشراب ، وأفسدت الفؤاد بما قدمت لهم من الهدايا والابتسامات . وكان أنطونيوس قد أوشك أن يقع فى حبها وهى لا تزال فتاة حين شاهدها فى الإسكندرية ، فلما أبصرها فى تلك اللحظة وهى فى التاسعة والعشرين من عمرها رآها قد اكتملت مفاتنها ؛ وبدأ حديثه معها يلومها على ما فعلت ؛ واختتمه بأن أهدى إليها فينيقية ، وسوريا الوسطى ، وقبرص ، وأجزاء من قليقية وبلاد العرب واليهود[11] : وكافأته هى بما يشتهى ، ودعته إلى الإسكندرية ، فأجاب الدعوة ، وقضى فى تلك المدينة شتاء بعيداً عن الهموم والأكدار (٤١ — ٤٠) يعب حب الملكة عبـاً ، ويستمع إلى المحاضرات فى

متحف ، ناسيا أن له إمبراطورية فى حاجة إلى من يحكمها . أما هى فلم تكن أسيرة حبه . بل كانت تعرف أن مصر الغنية الضعيفة لن تلبث أن تجتذب إليها روما الشرهة القوية ، وأن السبيل الوحيدة لنجاة بلادها وعرشها هي أن تتزوج بسيد روما . ولقد حاولت من قبل أن تفعل هذا بقيصر ، وهى تحاول الآن أن تفعله بأنطونيوس ، ولم يكن له هو سياسة غير سياسة قيصر . فمال إلى تحقيق الحلم القديم ، وهو توحيد روما ومصر ، ونقل عاصمته إلى بلاد الشرق الفتان الجميل :

وبينا كان أنطونيوس يلهو ويلعب فى الإسكندرية ، كانت زوجته فلفيا وأخوها لوسيوس يأتمران بأكتافيان ليسقطاه وينتزعا سلطانه على روما . والحق أن أكتافيان كان أبعد ما يكون عن السعادة فى ذلك البلد : فقد أضحى مجلس الشيوخ بؤرة للمغامرين والقواد ، ودب التذمر بين العمال المتعطلين ، واختل نظام الشعب كل الاختـــلال . وكان سكستس عمى يحول بين المدينة وبين استيراد ما يلزمها من الطعام ، ووقف دولاب الأعمال التجارية لما ساد البلاد من خوف ، وقضى النهب والضرائب الفادحة على الثروات فلم يكد يبقى منها شىء ، وأخذ الكثيرون من الناس يعيشون عيشة الاستهتار والفساد الجنسى الطليق ، محتجين بأن الغد قد يأتى بإلغاء العملة ، أو بانتهاب جديد ، أو بالموت .

وكان أكتافيان نفسه من أبعد الناس طهارة الذيل فى ذلك الوقت ، وكأنما أرادت فلفيا وأراد لوسيوس أن يبلغا بالفوضى غايتها القصوى فجيشا جيشاً ودعوا إيطاليا إلى القضاء على أكتافيان ، فحاصر ماركس أجربا **Marcus Agrippa** قائد جيوش أكتافيان لوسيوس فى بروزيا **Perusis** حتى اضطره إلى الخروج منها بعد نفاد مؤونته (مارس عام ٤٠) . وماتت فلفيا من شدة مرضها . وعدم تحقيق مطامعها ، وحزنها على إهمال أنطونيوس لها . وعفا أكتافيان عن لوسيوس لعله بذلك يحتفظ بالسلام بينه وبين أنطونيوس ، ولكن أنطونيوس عبر البحر وحاصر جيوش أكتافيان فى برنديزيوم . وكان الجيشان أكثر حكمة من قائديهما

فامتنع كل منهما عن قتال الآخر ، واضطراهما إلى أن يسويا ما بينهما من نزاع تسوية سلمية (٤٠) . وتعهد أنطونيوس أن يكون حسن السلوك ، فزوجه أكتافيان أخته أكتافيا اللطيفة الطاهرة ، وسر كل إنسان بهذه النتيجة إلى حين ، وتنبأ فرجيل — وكان وقتئذ يكتب لشيده الرابع — بعودة حكم « زحل » العادل المثالى .

وفى عام ٣٨ وقع أكتافيان فى حب ليڤيا Livia زوجة تيبيريوس كلوديوس نيرون Tiberius Cladius Nero وكانت وقتئذ حاملا ، فطلق من أجلها زوجته الأولى اسكريبونيا Scriponie ، وأقنع نيرون بالتخلص من ليڤيا ، وتزوج بها ، واستطاع بفضل إصغائه إلى نصائحها المقنعة ، وصلاتها بأشراف البلاد — لأنها من سلالة أسرة كلوديوس النبيلة — استطاع بذلك أن يحسن صلاته بطبقة الملاك ، فخفض الضرائب ، وأعاد ثلاثين ألفاً من العبيد الآبقين إلى سادتهم . وشرع يعمل فى صبر وأناة لإعادة النظام إلى إيطاليا . وأمكنه بمعونة أجريا وبمائة وعشرين سفينة أمده بها أنطونيوس أن يحطم أسطول سكتس بمپى ، ويستورد الطعام إلى رومة ، ويقضى على مقاومة البمپيين (٣٦) . وحمد له مجلس الشيوخ عمله واختاره تربيونا طول حياته .

وذهب أنطونيوس إلى أثينة مع أكتافيا بعد أن زُفَّت إليه باحتفال رسمى فى رومة . وفى ذلك البلد استمتع أنطونيوس إلى حين بتلك المتعة الجديدة متعة الحياة مع امرأة صالحة ، وتخلى عن مشاغل السياسة والحرب ، وأخذ يستمع إلى محاضرات الفلسفة وأكتافيا إلى جانبه على أنه كان فى هذه الأثناء يدرس الخطط التى وضعها قيصر لفتح پارثيا . وكان لبينس Labienus ابن قائد من قواد قيصر قد دخل فى خدمة ملك پارثيا ، وقاد جيوشه من نصر إلى نصر فى قليقية وسوريا — وهما ولايتان من أغنى ولايات الدولة الرومانية وأعودها عليها بالمال (٤٠) . وألفى أنطونيوس نفسه فى حاجة إلى الجند لمواجهة هذا التهديد الخطير ، كما وجد فى حاجة إلى المال لأداء مرتبات الجنود ، والمال عند كليوبطرة

موفور ، ومل فجأة حياة الفضيلة والسلم ، فأعاد أكتافيا إلى رومة وطلب إلى كليوبطرة أن تقابله فى أنطاكية ، وجاءت إليه كليوبطرة بعدد قليل من الجنود ، ولكنها عارضت فى مشروعاته الضخمة الواسعة ، ويبدو أنها لم تعطه من مالها الكثير إلا النزر اليسير. وزحف أنطونيوس على بارثيا بمائة ألف جندى (٣٦) ، وحاول عبثاً أن يستولى على قلاعها ، وفقد نحو نصف رجاله فى تقهقر يدل على منتهى الجرأة والبطولة مدى ثلثمائة ميل فى بلاد معادية له . وضم أرمينية إلى الإمبراطورية الرومانية فى أثناء تقهقره ، وأقام لنفسه موكب نصر ، وصدم مشاعر الإيطاليين صدمة عنيفة بإقامة هذا الموكب فى الإسكندرية ثم أرسل رسالة طلاق إلى أكتافيا (٣٢) ، وتزوج كليوبطرة ، وثبتها هى وقيصريون حاكمين معاً على مصر وقبرص ، وخلع الولايات الشرقية من الإمبراطورية على ابنه وابنته من كليوبطرة ، وإذ كان يعرف أنه لابد أن يسوى الأمور بينه وبين أكتافيا فى القريب العاجل أطلق لنفسه العنان فى اللهو والترف ، وشجعته كليوبطرة على أن يغامر آخر مغامرة فى سبيل السلطة العليا ، وساعدته على حشد جيش وأسطول ، وأقسمت له بقسمها المحبب إليها أنها واثقة من النصر وثوقها بأنها ستتولى الحكم فى الكپتول يوماً من الأيام[13] .

الفصل الثالث

أنطونيوس وأكتاڤيان

صبرت أكتاڤيا على هجرها صبر الكرام ، وعاشت ساكنة هادئة في بيت أنطونيوس في رومة ، تربي أطفاله الذين رزقهم من فلڤيا وابنتها منه . وكان منظرها المحزن أمام أكتاڤيان في كل يوم ، وصمتها الفصيح ، يثيران كوامن غضبه ، ويؤكدان له أنه هو وإيطاليا جميعاً مقضي عليهما إذا نجح أنطونيوس في خططه ، فأخذ يعمل على أن تدرك إيطاليا حقيقة الموقف ، تدرك أن أنطونيوس قد تزوج ملكة مصر ،وأنه وهبها هي وأطفالها غير الشرعيين أكثر ولايات الإمبراطورية خراجاً ، وأنه سيضع رومة وإيطاليا بأجمعها في المقام الثاني بعد مصر .

ولما بعث أنطونيوس برسالة إلى مجلس الشيوخ — وكان قد تجاهله سنين طوالا — يقترح فيها أن يعتزل هو وأكتافيان الحياة العامة ، وأن تعود جميع النظم الجمهورية إلى سابق عهدها ، تخلص أكتافيان من هذا الموقف الحرج بأن قرأ على المجلس ما ادعى أنه وصية لأنطونيوس انتزعها هو قسراً من العذارى الفستية ، وفيها يوصي أنطونيوس بأن يكون ولداه من كليوبطرة وريثيه دون غيرهما ، ويأمر بأن يدفن إلى جانب الملكة في الإسكندرية(١٤) . وكانت الفقرة الأخيرة من هذه الوصية حاسمة في نظر المجلس بقدر ما كان يجب أن تكون مثيرة للارتياب في صحتها . ذلك أنها لم تثر في نظر المجلس الشك في أن وصية تودع في رومة تشترط هذه الشروط ، بل أقنعته وأقنعت إيطاليا أن كليوبطرة تستخدم أنطونيوس في خططها التي تبغي بها الاستيلاء على الإمبراطورية . ولجأ أكتافيان إلى الأساليب الخداعة التي هي من أخص خصائصه ، فأعلن الحرب (٣٢) على كليوبطرة لا على أنطونيوس ، ليجعلها بذلك كفاحاً مقدساً في سبيل استقلال إيطاليا .

وأبحر أسطول أنطونيوس وكليوبطرة فى شهر سبتمبر من عام ٣٢ إلى البحر الأيونى ، وكان مؤلفاً من خمسمائة سفينة حربية ، ولم يكن أسطول بهذه القوة قد ظهر على متن البحر من قبل . وكان يؤيده جيش مؤلف من ثلثمائة ألف من المشاة ، واثنى عشر ألفاً من الفرسان ، أمدهما بمعظمه أمراء الشرق وملوكه يرجون من وراء ذلك أن تكون هذه الحرب وسيلة للتحرر من نير رومة . وعبر أكتافيان البحر الأدرياوى بأربعمائة سفينة وثمانين ألف جندى من المشاة واثنى عشر ألفاً من الفرسان . وظلت القوات المتعادية عاماً أو نحو عام تستعد للمعركة الفاصلة وتضع خططها ؛ فلما كان اليوم الثانى من شهر سبتمبر عام ٣١ التحم الجيشان والأسطولان عند أكتيوم فى الخليج الأمبراسى فى معركة من المعارك الحاسمة فى التاريخ ؛ وبرهن أجريا على أنه أبرع من أعدائه فى وضع الخطط ، وكانت سفنه الخفيفة أسهل وأخف حركة من سفائن أنطونيوس الضخمة ذات الأبراج العالية . وقد أحرقت النار هذه السفن إذ ألقى عليها بحارة أكتافيان مشاعل متقدة . ويصف ديوكاسيوس Dio Cassius ما حدث وقتئذ بقوله :

« وأهلك الدخان بعض البحارة قبل أن تصلهم النيران ، ومنهم من نضج لحمهم فى دروعهم التى احمرت من شدة اللهب ، ومنهم من شوتهم النار شيئاً فى سفنهم كما تشوى اللحوم فى الأفران . وألقى الكثيرون منهم أنفسهم فى البحر ، ومن هؤلاء من التهمتهم الحيتان ، ومنهم من قتلوا رمياً بالسهام ، ومنهم من قضوا نحبهم غرقاً . ولم يمت من هذا الجيش كله ميتة يستطيعون تحملها إلا من قتل بعضهم بعضاً[١٥] » .

ورأى أنطونيوس أن الدائرة قد دارت عليه ، وأشار إلى كليوبطرة أن تنفذ خطة الانسحاب التى اتفقا عليها من قبل . فوجهت ما بقى من أسطولها نحو الجنوب ، وانتظرت قدوم أنطونيوس . ولما عجز من إنقاذ السفينة المعقود لواؤها له ، غادرها وركب قارباً أقله إلى كليوبطرة ، وجلس هو وحده فى مقدم السفينة

أثناء عودتهما إلى الإسكندرية ورأسه بين يديه ، فقد أدرك أنه خسر كل شيء حتى الشرف .

وسار أكتافيان من أكتيوم إلى أثينة ومنها إلى إيطاليا ليخمد فتنة ثارت بين جنوده الذين أخذوا يطالبون بأن يباح لهم نهب مصر ، ثم رجع إلى آسية ليعاقب بعض من انضموا من أهلها إلى أنطونيوس ، وليجمع أموالا جديدة يسعف بها المدن التى طال عليها عهد الشقاء والحرمان ؛ ثم اتجه بعدئذ نحو الإسكندرية (٣٠) . وكان أنطونيوس قد ترك كليوبطرة وأقام فى جزيرة قرب فاروس ، وأرسل منها رسلا يطلب الصلح ، ولكن أكتافيان لم يعبأ بهم ، وأرسلت كليوبطرة إلى أكتافيان على غير علم من أنطونيوس صولجانا وتاجاً وعرشاً من الذهب دليلا على خضوعها له ، وكان جوابه لها — على حد قول ديو — أنه يتركها ويترك مصر دون أن يمسها بأذى إذا قتلت أنطونيوس.[16]

وكتب الحاكم المهزوم إلى أكتافيان مرة أخرى يذكره بصداقتهما الماضية وبكل المرح الطائش الذى اشتركا فيه أيام الصبا ، وقال إنه يرضى بأن يقتل نفسه إذا عفا هو عن كليوبطرة ، ولم يرد عليه أكتافيان فى هذه المرة أيضاً ؛ وجمعت كليوبطرة كل ما استطاعت جمعه من أموال مصر فى أحد أبراج القصر ثم أبلغت أكتافيان أنها ستتلف هذه الأموال كلها وتقتل نفسها إذا لم يعقد معها صلحاً شريفاً . وسار أنطونيوس على رأس القوة الصغيرة التى كانت باقية لديه ليحارب عدوه فى المعركة الأخيرة ، واستطاع بشجاعة اليائس أن يكسب نصراً مؤقتاً ، ولكنه أبصر فى اليوم الثانى جنود كليوبطرة المرتزقة تستسلم للعدو ، وترامى إليه أن كليوبطرة قد ماتت ، فطعن نفسه طعنة قضت على حياته . ولما علم أن الخبر مكذوب طلب إلى أتباعه أن ينقلوه إلى البرج الذى آوت الملكة ووصيفاتها إلى حجرته العليا وأغلقت عليهن الأبواب ، فأدخل إليها من النافذة ومات بين ذراعيها وسمح لها أكتافيان أن تخرج من البرج وتدفن حبيبها ، ثم أجاز لها

المثول بين يديه ، ولم يتأثر بما كان باقياً من المفاتن فى إمرأة محطمة مهزومة فى التاسعة والثلاثين من عمرها ، وعرض عليها شروطاً للصلح بدت معها الحياة عديمة القيمة لمن كانت من قبل ملكة ، ولم يخالجها شك فى أنه يعتزم أخذها أسيرة إلى رومة لتزين موكب نصره ، فما كان منها إلا أن لبست ثيابها الملكية ، ووضعت صلا على صدرها ، وماتت . وحذت حذوها وصيفتاها شارميون Charmion وإريس Iris فانتحرتا[17] .

وسمح أكتافيان أن تدفن إلى جوار أنطونيوس ، وقتل هو قيصريون وأكبر أبناء أنطونيوس من فلفيا أما ابنا أنطونيوس والملكة فقد أبقى على حياتهما وأرسلهما إلى إيطاليا حيث ربتهما أكتافيا وعنيت بهما كما لو كانا ابنيها . ووجد الظافر الخزانة المصرية سليمة وفيها من المال الموفور ما كان يحلم به . ونجت مصر من المذلة التى كادت تلحق بها لو أنها سميت ولاية رومانية . ذلك أن كل ما فعله أكتافيان أن جلس على عرش البطالمة وورث أملاكهم ، وترك فى مصر حاكما يدير شئون البلاد باسمه .

وهكذا غلب وريث قيصر وريثة الإسكندر ، وضم مُلك الإسكندر إلى مُلكه ، وانتصر الغرب على الشرق مرة أخرى ، كما انتصر من قبل فى مراثون وبجنيزيا ، وانتهى صراع الجبابرة ، وكان الفوز فيه لرجل عليل ؛

وقُضِى على الثورة فى أكتيوم ، كما قضى على الجمهورية فى فرسالس وأتمت رومة الدورة المشئومة التى يعرفها أفلاطون ونعرفها نحن : ملكية ، فأرستقراطية ، فاستغلال ألحركى ، فدمقراطية ، ففوضى ثورية ، فدكتاتورية ؛ وانتهى مرة أخرى ، فى جزر التاريخ ومده ، عهد من عهود الحرية ، وبدأ عهد من عهود النظام

(انتهى الجزء الأول)

المراجع مجملة

يوصى المؤلف بقراءة الكتب التى أمامها هذه العلامة (*) لمن أراد التوسع فى دراسة موضوع هذا الكتاب .

ABBOTT, F., The Common People of Ancient Rome, N.Y., 1911.

ACTON, LVRD, The History of Freedom, London, 1907.

ALCIPHRON, Letters, London, n.d.

ANDERSON, W., and Spiers, R., The Architecture of Greece and Rome, London, 1902.

APOCRVPHA AND PSEUDEPIGRAPHA OF THE OLD TESTAMENT. Oxford, 191. 32v.

APPIAN, Roman History, Loeb Classical Library. 4v.

APULEIUS, The Golden Ass, tr. W. Adlington, N.Y. 1907.

STOTLE, Physics, Load Library 2v.

politics, Everyman Library.

ARNOLD, W., Roman System of Provincial Adminisration, Oxford, 1914.

ARRIAN, Anabasis of Alexander, London, 1893.

ATHENAUS, The Deipnosophists, London, 1854, 3v,

AUGUSTINE. St., The City of God, London, 1934.

Select Letters, Loeb Library.

AUCUSTUS, *Res gestae*, Loeb Library.

BAILEY, C., The Legacy of Rome, Oxford, n.d.

BALL, W.W., Short History of Mathematics, Londod, 188.

BALSDON, J., The Emperor Gaius, Oxford. 1934.

BARNES, H. E., History of Western Civilization, N.Y., 1935 2v.

BARON, S, Social and Religious History of the Jews, N.Y.. 1937. 3v.

BATTIFOL L., The Century of the Renaissance, N.Y., 1935.

BDARD, M., History of the Business Man, N.Y., 1938.

BEVAN, E., The House of Seleucus, London, 1602, 2v,

The Legacy of Israel, Oxford, 1927.

*BIBLE, Revised Version of the King James Translation.

BIEBER, M., History of the Greek and Roman Theater, princeton, 1939.

BIGG. C., Neo - Platonism, London, 1935.

BOISSIER, G., L'Afrique romaine, Paris 1895.
Cicero and His Friends, N.Y., n.d.
La fin du paganisme, Paris, 1894.
L'opposition sous les Césars, Paris, 1875.
La religion romaine, Paris, 1909. 2v.
Rome and Pompeii, London, 1896.
Tacitus and Other Roman Studies, London, 1906.

BOOKS OF ENOCH AND WISDOM, cf. Apocrypha.

BOUCHIER, E., Life and Letters in Roman Africa, Oxford, 1913.

BREASTED, J., Ancient Times, Boston 1916.
Oriental Forerunners of Byzantine Painting, Chicago, 1924.

BRECCIA, E., Alexandrea ad Aegytum. Bergamo, 1922.

BRITTAIN, A., Roman Women, Philadelphia, 1907.

BUCHAN, J., Augustus, N.Y., 1937.

BUCKLAND, W, Textbok of Roman Law, Cambridge U.P., 1921.

BURCKHARDT, J., Di[illegible]it Constantins des Grossen, Phaidon Verlag, Wien, n.d.

AURY, J., History of the Roman Empire, N.Y. n.d.
History of Freedom of Thought, N.Y., n.d.

CAESAR, J., De bello civili. Loeb Library.
De bello Gallico, Loeb Library.

CAMBRIDGE ANCIENT HISTORY, N.Y., 1924f. 12v.

CAMBRIDGE MEDIEVAL HISTORY, N.Y., 1924f. 8v.

CAPES, W., University Life in Ancient Athens. N.Y., 1922.

CARPENTER, EDW., Pagan and Christian Creeds, N.Y., 1920.

CARTER, T., The Invention of Printing in China, N.Y., 1925.

*CASTIGLIONE A., History of Medicine, N.Y., 1941.

CATHOLIC ENCYCLOPEDIA, N.Y., 1913. 16v.

CATO, M., De agri cultura, Loeb Library.

CATULUS, Poems, tr. Horace Gregory, N.Y., 1931.

*CATULLUS, Tibullus, and Pervigilium Veneris, Loeb Library.

CHARLESWORTH. M., Tradė Routes and Commerce of the Roman Empire, Cambridge U.P., 1926.

CICÉRO, Academica, Loeb Library.
De divinatione, Lobe Library.
De finibus, Loeb Library.

De legibus, Library.

De natura Deorum, Loeb Library.

De officiis, Everyman Library.

De re publica, Loeb Library.

De Senectute and De amicitia, Loeb Librory.

Disputationes Tusculanae, Loeb Library.

Letters, tr. Melmoth ; cf. Middleton.

Pro Milone and Other Speeches, Loeb Library

CLEMNT OF ALEXANDRIA, Writings and Opinions'ed. Kaye, London, n.d.

COLLINGWOOD, R., and MYRES, N., Roman Britian, Oxford. 1937.

COLUMELLA, De re rustica, Loeb Library.

CONYBEARE, W. J., and HOWSON, J. S. Life. Times, and Travels of St. Paul, N. Y., 1869. 2v.

COULANGES, F. DE. The Ancient City, Boston, 1901.

CUMONT. F., Oriental Religions in Roman Paganism, Chicaho 1911.

CUNNINGHAM. W. C., Western Civilization in its Economic Aspects, Campriogu U. P. 1900. 2v.

DAVIS, W. S, Influence of Wealth in imperial Rome, N. Y., 1918.

DAVIS, W.S. and WEST. W.M. Readings in Ancient History, Boston,1912.

DECLAREUIL, J., Rome the Eaw. Giver. N.Y. 1926.

DENNIS. G., Cities and Cemeteries of Etryman Everyman Library. 2v.

DILL, SIR S., Roman Society from Nero to Marcus Aurelius, London 1911.

DIO CASSIUS, History of Rome. Troy, N. Y., 1905. 8v

DIO CHRUSOSTOM, Orations. Loeb Library. 3v

DIODORUS SICULUS, Library of History, Leob Library 10v

DIONYSIUS OF HALICARNASSUS, Roman Antiquities, London, 1758. 4v.

DOUGHTY. G., Travels in Arabia Deserta, N.Y., 1923. 2v

DUCHESNE. MON. L., Early History of the Christian Church London 1922. 3v

DUFF, J., Literary History of Rome. London, 1909.

Literary History of Rome in the Silver Age, N. V., 1930.

DURUY. V., History of the Raman People, Boston, 1883. 6v.

EDERSHEIM, A., Life ond Times of Jesus the Mesiah, N.Y., n.d. 2v.

ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA, 14th ed. 24v.

EPICTETUS, Works, Loeb Library. 2v.

Encheiridion, Girard, Kan ., n.d.

EUSEBIUS PAMPHILUS, Ecclesiastical History, N.Y., 1868.

Historical View of the Council of Nice, in preceding.,

Life of Constantine, In Ancient Ecclesiastical Histories

London, 1650.

Praeparatio evangelica, Oxford, 1843.

FATTORUSSO, J., Wonders of Italy, Florence, 1930.

FERRERO, G., Ancient Rome and Módern America, N.Y., 1914.

Greatness and Decline of Rome, N.Y., 1909. 5v.

The Ruin of Ancient Civilization, N.A., 1921.

The Women of the Caesars, N.Y., n.d.

FINKELSTEIN, L., Akiba, N.Y., 1963.

FLAUBERT, G., Salammbo, Modern Library.

FLICK, A. C., Rise of the Medieval Church, N.Y., 1909.

FOAKES-JACKSON, F., and LAKE, K., Beginnings of Christianity, London 1920. 5v.

FOWLER, W.W., Religious Experience of the Roman People, London, 1933.

Roman Festivals of the Period of the Republic, N.Y., 1899.

Social Life at Rome, N.Y., 1927.

FRANK, T, Economic History of Rome, Baltimore, 1927.

Roman Imperialism, N.Y., 1914.

Economic Survey of Ancient Rome, Baltimore. 1933f 5v

FRAZER, SIR J., Adonis, Attis, and Osiris, London, 1907.

The Magic Art, N.Y., 1935. 2v.

The Scapegoat, N.Y., 1935.

Sprits of the Corn and Wild, N.Y., 1935 2v.

FRIDLANDER, L., Roman Life and Manners under the Roman Empire, London, 1928. 4v.

FRONTINUS, Stratagems and Aqueducts, Loeb Library.

FRONTO, M., Correspondence, Loeb Library.

GAIUS, Elements of Roman Law, ed. Poste, Oxford, 1875.

GALEN, On the Natural Faculties, Loeb Library.

GARDINER, E., Athletics of the Ancient World, Oxford, 1930.

GELLIUS, AULUS, Attic Nights, Loeb Library. 3v.

GARRISON, F., History of Medicine, Phila., 1929.

GATTESCHI, G., Restavri della Roma Imperiale, Rome, 1924.

GEST, A., Roman Engineering, N.Y., 1930.

GIBBON, E., Decline and Fall of the Roman Empire, Everyman Library 6v.
Ed. Bury, J.B., London 1900. 7v. Only when so specified.

GLOVER, T.R., The Conflict of Religions in the Early Roman Empire, London, 1932.

GOGUEL, M., Lifeof Jesus, N.Y., 1933.

GOODSPEED, E.J., The New Testament: An American Translation, Univ. of Chicago, 1937.

GRAETZ, H., History of the Jews, Phila., 1891. 6v.

GREEK ANTHOLOGY, Loeb Library.

GUHL, E., and KONER. W., Life of the Greeks and the Romans, N.Y., 1876.

GUIGNEBERT, C., Christianity Past and Present, N.Y., 1927.
Jesus, N.Y., 1935.

GUMMERE, Seneca the Philosopher, Boston, 1922.

HADZSITS G., Lucretius and His Influence, London, 1935.

HAGGARD. H., Devils, Drugs, and Doctors N.Y., 1929.

HALLIDAY, W.R., The Pagan Background of Early Christianity, London, 1925.

HAMMERTON, J., Universal History of the World, London, n.d. 8v.

HARRISON, JANE, Prolegomena to the Study of Greek Religion, Cambridge U.P., 1922.

HASKELL, H., The New Deal in Old Rome, N.Y., 1939.

HASTINGS, J., Encyclopedia of Religion and Ethics, N.Y., 1928. 12v.

HATCH, E., Influence of Greek Ideas and Usagee upon the Christian Church, London, 1890.

HAVERFIELD. F., The Romanization ot Roman Britain, Oxford, 1923.
The Roman Occupation, of Britain, Oxford, 1924.

HEATH, SIR T., History of Greek Mathematics, Oxford, 1921. 2v.

HEINE H., Memoirs, London, 1910. 2v.

HEITLAND, W., Agricola, Cambridge U.P., 1921.

HELODORUS, Longus, etc., Greek Romances, London, 1901.

HENDERSON, B., Life and Principate of the Emperor Hadrian. N.Y., n.d.
Life and Principate of the Emperor Nero, Phila; 1903.

HERODIAN, History of Twenty Caesars, London, 1629.

*HERODOTUS, History, ed. Rawlinson, 1862. 4v.

HIMES, N , Medical History of Contraception, Baltimore, 1936.
HISTORIAE AUGUSTAE, Loeb Library, 2v.
HOLMES, T.R., The Architect of the Roman Empire, Oxford, 1928. 2v.
HOMO, L. Primitive Italy, London, 1927.
Romam Political Institutions, N.Y. 1930.
*HORACE, Odes and Epodes, Loeb Library.
Satires and Epistles, Loeb Library.
HOWARD, C., Sex Worship, Chicago, 1909.
INGE, DEAN W.R., The Philosophy of Plotinus, London, 1929. 2v.
IRENAEUS, Adversus haereses, Oxford, 1872.
JEROME, Select Letters, Loeb Library.
JONES, A., Cities of the Eastern Roman Provinces, Oxford, 1937.
JONES, H , Companion to Roman History, Oxford 1912.
JONES, W , Malaria and Roman History, Manchester U.P., 1909.
JOSEPHUS Works, tr. Whiston, Boston, 181', 2v.
JULLIAN, C, Histoire de la Gaule, Paris, 1908. 6v.
JUSTINIAN, Digest ; cf Scott, S P.
JUVENAL AND PERSIUS, Satires, Loeb Library.
JUVENAL, PERSIUS, SULPICIA, AND LUCILIUS, Satires, tr. Gifford London, 1852.
KALTHOFF, A., Rise of Christianity, London, 1907.
KAUTSKY, K., Ursprung des Christentums, Vienna, 1908.
KLAUSNER, J , From Jesus to Paul, N.Y., 1943.
Jesus of, N Y., 1929.
KOHLER, C., History of Costume, N. Y., 1928.
LACTANTIUS, Works, in Ante-Nicene Christian Library, vols. XXI-II, London 1881.
LAKE, K., ed., The Apostolic Fathers, Loeb Library, 2v.
LANCIANI, R., Ancient Rome, Boston, 1899.
LANG, P., Music in Western Civilization, N Y., 1941.
LEA, H.C., Historical Sketch of Sacerdotal Celibacy, Boston, 1884.
LECKY, W., History of European Morals, N.Y., 1926 2v.
LESLIE SHANE, The Greek Anthology, N.Y., 1929.
LIVINGSTONE, R. W., The Legacy of Greece, Oxford, 1924.

LIVY, T., History of Rome, Everyman Library. 6v

LONGINUS ON THE SUBLIME, Loeb Library.

LOT, FERDINAND, End of the Ancient World, N. Y., 1931.

LUCAN, Pharsalia, Loeb Library.

*LUCIAN, Works, tr. Fowler, Oxford, 1905. 4v.

*LUCRETIUS, De rerum natura, Loeb Library.

MAC GREGOR, R., The Greek Anthology London, n.d.

MACKENNA, STEPHEN, The Essence of Plotinus, N.Y., 1934.

MACROBIUS, Works, French tr., Paris, 1827.

Opera, London, 1694

MAHAFFY, J., The Silver Age of the Greek World, Chicago, 1906.

MAINE, SIR H., Ancient Law, Everyman Library.

MAIURI, A., Les fresques de meii, Paris, n.d.

Pompeii, Rome, Rome, n.d.

MANTZIUS, K., History of Theatrical Art. N.Y., 1937. 6v.

*MARCUS AURELIUS, Meditations, tr. Long, Boston, 1873.

MARTIAL, Epigrams, Loeb Library 2v.

MATTHEWS, B., Development of the Drama, N.Y., 1921.

MAU, A., Pompeii, N Y., 1902.

MERIVALE, C., History of the Romans under the Empire, London, 1865, 8v.

MIDDLETON, C., Life of Marcus Tullius Cicero, London, 1877.

MINUCIUS, FELix, Octavius, in Tertullian, Apologeticus, Loeb Library.

MOMIGLIANO, A. Claudius, Oxford, 1934.

*MOMMSEN, T. History of Rome London, 1901 5v.

The Provinces of the Roman Empire, N.Y., 1887. 2v.

MONROE, P., Source Book of the History of Education for the Greek and Roman Period, N Y. 1932.

MONTESQUIEU, CHARLES DE, Grandeur et Décadence des Romains. Paris, 1924.

MOORE, G.F., Judaism in the Fist Centuries of the Christian Era, Cambridge, Mass., 1932. 2v.

MULLER-LYER, F., Evolution of Modern Marriage, N.Y., 1930.

MURRAY, G., Five Stages of Greek Religion, Oxford, 1930.

NEPOS, CORNELIUS, Lives N.Y., 1895.

OVID, Ars amatoria, Loeb Library.

Fasti, Loeb Library.
Heroides and Amores, Loeb Library.
Love Books of, tr. May, N.Y., 1930.
Metamorphoses, Loeb Library. 2v.
Tristia and x Ponto, Loeb Library
OWEN. JOHN, Evenings with the Sceptics, London, 1881. 2v.
PATER, WALTER, Marius the Epicurean, n.d.
PAUL-LOUIS, Ancient Rome at Work, N.Y., 1927
PFUHL, E., Masterpieces of Greek Drawing and Painting, London, 1926.
PHIDO, Works, Loeb Library. 9v.
PHILOSTRATUS, Life of Apollonius of Tyana, Loeb Library. 2v
PHILOSTRATUS AND EUNAPIUS, Lives of the Sophists, Loeb Library,
PLAUTS, Comedies, London, 1889.
PLINY THE ELDER, Natural History, London, 1855. 6v
PLINY THE YOUNGER, Letters, Loeb Library,
PLOTINUS, Select Works, London, 1912.
PLUTARCH, De Iside et Osiride, French tr., Paris, 1924.
De tranquillitate animi, tr. Harvard U.P., 1931.
Lives, Everyman Library. 3v.
Moralia, Loeb Library.
Quaestiones Romanae, tr. Holland, London, 1892.
POLYBIUS, Histories, Loeb Library. 6v.
POPE, A.U., Survey of Persian Art, London 1938. 6v.
PORPHYRY, Life of Plotinus, in MacKenna, S., The Essence of Plotinus, N.Y., 1934.
PROPERTIUS. Poems, Loeb Library.
QUINTILIAN, Institutes of Oratory, Loeb Library. 4v.
RAMSAY, W.M., The Church in the Roman Empire, N.Y., 1893.
RANDALL-MAC IVER, D., The Etruscans, Oxford, 1927.
RAWLINSON, G., The Sixth Great Oriental Monarch, N.Y., n.d.
REID, J., Municipalities of the Roman Empire, Cambridge U.P., 1913.
REINACH, S., Apollo, a History of Art, N.Y., 1917.
A Short History of Christianity, N.Y., 19 2.
RENAN, E., Antichrist, London, n.d.

The Apostles, London, n.d.
The Christian Church, London, n.d.
Lectures on the Influence of Rome on Christianity, London. 1884
Life of Jesus, N.Y., n.d.
Marc Aurèle, Paris, n.d.
St. Paul, Paris, n d.
ROBERTSON, J.M., Short History of Freethought, London, 1914 2v.
RODENWALDT, O, Die Kunst der Antike: Hellas und Rom, Berlin, 1927.
ROSTOVTZEFF, M, History of the Ancient World, Oxford, 1928. 2v.
Mystic Italy, N.Y., 1927.
Social and Economic History of the Hellenistic World N Y, 1924. 2v.
Social and Economic History of Roman Empire, Oxford, 1926.
SACHAR, A, History of the Jews, N.Y., 1932.
SALLUST, Works, Loeb Library.
SANDYS, SIR J., Companion to Latin Studies, Cambridge U.P., 1925.
SARTON, G., Introduction to the History of Science, Baltimore, 1930 Vol. I.
SCHÜRER, E., History of the Jewish People in the Times of Jesus, N.Y., 1890. 9v.
*SCHWEITZER, A., The Quest of the Historical Jesus, London, 1967.
SOCTT, E. F., First Age of Christianity, N.Y 1935.
SCOTT, S.P., The Civil Law of Rome, Cincinnati, 1932. 17v.
SENECA, Epistulae Morales, Loeb Library. 2v
Moral Essays, Loeb Library. 3v.
Quaestiones naturales, tr. in Clarke, Physical Science in the Times of Nero, London, 1910.
Tragedies, Loeb Library. 2v.
SETTUS EMPIRICUS, Works. Loeb Library 3v
Opera, Leipzig, 1840. 2v.
SHOTWELL, J., Introduction to the History of N.Y., 1936.
SHOTWELL, J, and LOOMIL, L., The See of Peter, Columbia U P., 1927
SIDONIUS APOLLINARIS, Poems, Loeb Library.
SIMPSON, F., History of Architectural Development, London, 1921. Vol I.
SMITH, R.B., Carthage and the Carthaginians, N.Y., 1908.

SMITH, WM., Dictionary of Greek and Romon Antiquities, Boston 1859
ELLAR., W., Horace and the Elegiac Poets, Oxford, 1937.

Roman Poets of the Augustan Age : Virgil, Oxford, 1877.

Roman Poets of the Republic, Oxford, 1881.

SOCRATES, Ecclesiastical History. London, 1892.

STATIUS, Poems, Loeb Library. 2v.

STRABO, Geography, Loeb Library. 8v.

STRONG, E., Art in Ancient Rome, N. Y., 1928. 2v.

SUETONIUS, Works. Loeb Library 2v.

*SUMNER, W G. Folkways, Boston, 1906.

War and Other Essays Yale, U P., 1911,

SYME, R., The Roman Revolution, Oxford. 1939.

SYMONDS, J. A., Studies of the Greek Poets, London, 1920.

*TACITUS, Annals, Loeb. Library.

Histories, Loeb Library.

Works tr. Murphy, London 1830.

TAINE. H., Essai sur Tite Live, Paris, 1874.

Modern Regime, N.Y., 1890 2v.

TALMUD, Babylonian tr., London, 1935f. 24v.

TARN, W.W., Hellenistic Civilization, London, 1927.

TAYLOR, H., Cicero, Chicago, 1916.

TERENCE, Comedies, London, 1898.

TERTULLIAN, Apologeticus, etc., Loeb Library.

THIERRY, A., Histoire de la Gaule sous l'administration romaine Paris, 1840 3v.

TAOMPSON, SIR E., Introduction to Greek and Latin Paleography, Oxford, 1912

THORNDIKE, L., History of Magic and Experimentel Science N.Y., 1929 2v.

THUCYDIDES, History of the peloponnesian War, Everyman Library.

TIBULLUS, Poems, cr Catullus.

TOUTAIN, J., Economic Life of the Ancient World, N.Y., 1930.

TONNBEE, A J, A Study of History, Oxford, 1935. 3v.

*TRENCH, R., Plutarch, London, 1874.

UEBERWEG, F., History of Philosophy, N.Y., 1871. 2v

USHER, A, History of Mechanical Inventions, N.Y., 1929.

VALERIUS MAXIMUS, Factorum et dictorum, Berlin, 1854.

*VARRO, M, Rerum rusticarum, Loeb Library, 2v.

VIRGIL, Poems, Loeb Library. 2v.
VITRUVIUS, De architectura, Loeb Library
VOGELSTEIN, H. Rome, Phila. 1940.
VOLTAIRE, Philosophical Dictionary, N.Y, 1901.
WARD, C.O., The Ancient Lowly, Chicago, 1907. 2v.
WATSON P.B. Marcus Aurelins Autoninus, N.U, 1884.
WEIGALL, A., The Paganism in Our Chrsstianity, N. Y, 1928,
WEISE, O, Language and Character of the Roman Peoble, London 1909
WESTERMARCK, E., Origin and Development of the Moral Ideas, London 1917. 2v.
WHITE, E.L, Why Rome Fell, N.Y. 1927
WICKHOFF, F., Roman Art, London. 1900.
WILLIAMS, H, History of Science, N.Y., 1909 5v.
WINCKELMANN, J., History of Ancient Art, Boston, 1880. 2v
WRIGHT, F History of Later Greek Literature, N. Y, 1932.
ZEITLIN, S., The Jews, Phila, 1939.
The Pharisees and the Gospels, N. Y., 1938.

المراجع مفصلة

الأرقام الرومانية الكبيرة تدل على رقم المجلد تتلوها أرقام الصفحات ، أما الأرقام الرومانية الصغرى فتدل على رقم الكتاب أو المقال فى الكتاب القديم يتلوها رقم الباب أو الآية وأحيانا رقم الفقرة .

CHAPTER

1. Pliny, *Natural History*, xxxvii,77
2. Virgil, *Georgics*, ii, 149.
3. Ibid., ii, 198.
4. Strabo, *Geography* v, 4, 8.
5. Polybius, *History*, i, 2. 15.
6. In Taine, Modern Regime 17.
7. Aristotle, *Physics* 1329b.
8. Thucydides, *Peloponnesian War*, vi, 18. 2.
9. Homo, *Primitive Italy*,32 Toutain, *Economic Life of the Ancient World*, 207.
10. Dennis, *Cities and Cemeteries of Etruria, I, 36.*
11. Herodotus, *Histories*, v, 94 ; Strabo, v. I. 2 ; Tacitus. *Annals* iv, Appain,. *Roman History viii*, 9, 66 ; ete. Dionysius of Halicarnassus, i, 30, regarded the Etruscans asindigeneous to Italy ; so did Mommsen, *History of Rome* I, 155. Dennis, I, 17, Frank *Economic History of Rome*, 16, Randall - MacIver, *Etruscans*, 23, and Rostovtzeff, *History of the Ancient World*, II, 180, accept the tradition.
12. Dennis, I, 39.
13. Paul - Louis, *Ancient Rome at Work*, 66 ; Toutain 211.
14. Dennis I, 329.
15. Athenaeus, *Deipnosophists* xii,8.
16. Garrison, *History of Medicine* 119
17. Castiglione, *History of Medicine.* 192.
18. Aristotle in Athenaeus, i, 19 ; Cennis, I, 321.
19. Ibid., 21.
20. *Cambridge Ancient History* ; IV, 415.
21. Frazer, Sir J. *Magic Art*, II, 287,
22. Scholiast on Juvenal, vi, 565.
23. Frazer, l.c.
24. CAH, IV, 420-1 ; Mommesn, I, 282.3 ; Dennis, II, 168.
25. *Enc. Brit.*, VIII, 787.
26. Anderson and Spiers, *Architecture of Greece and Rome*, 121; Strong, E., *Art in Anceent Rome*, 21 ; CAH, VII, 386.
27. Pliny, xxxv, 6.
28. Rodenwaldt, G., *Die Kunst der Antike : Pellas* 509.
29. Ovid, *Fast.* iii. 15.
30. Livy, *History of Rome*, i, 9-13.
31. Frazer. II, 891.
32. Livy, I, 19.
33. Tacitus, *An* , iii, 26.
34. Cicero, *De re publica*, ii, 14.
35. Livy, I, 22.
36. Ibid., 27.
37. Dio Cassius, *History of Rome* fragment vii.
38. Strabo, v, 2.

39. Livy, i, 35.
40, Pais, E., *Ancient Legends of Roman History*, 38.
41. Cicero, *Republica*, ii, 21.
42. Livy, i, 46.
43. Pais, 137-8.
44. Dio, iii, 7, and frag x, 2.
45. Livy, i. 56-7.
46. Syme, R., *The Roman Revolution*, 85n.
47. Cicero, *Republica* i, 39; Coulanges, F., *The Ancient City* 384.
48. Tacitus *Histories*, iii, 72.
49. Mommsen. I, 414.
50. Dennis, I, 26.
51. Duff, J. W., *Literary History of Rome*, 6 ; CAH, IV, 407.
52. Livy, i, 8; Strabo, v. 2. 2 ; Dennis II, 166.
53. CAH, VII, 384.
54. Livy, I, 8.
55. CAH, VIII 387 ; Hammerton, J., *Universal History of the World*, II, 1168.
56. Strabo, v, 2. 2.

CHAPTER II

1. Livy, I, 8.
2. Aulus Gelius, *Attic Nights* vi, 13.
3. Livy, ii, 56 ; CAH, VII, 456.
4. Aulus Gellius, xx, 1. 45-51 ; Dio, frag. xvi, 4.
5. Livy, ii, 2330 : Dio, iv. 7 and frag. xvi, 6 ; Dionysius, vi, 45 ; Plutarch, "Coriolanus."
6. Livy, iv, 13 ; Dio, vi, 7.
7. Livy iii, 52.
8. Dio, v, 7.
9. Ibid.
10. Livy, i, 43.
11. Frank, *Economic History*, 20 Smith, W., *Dictionary of Greek and Roman Antiquities*, s. v. *exercitus*.
12. Mommsen, III, 60,
13. Plutarch, "Pyrrhus."
14. Coulanges, 244.
15. Dio. iv, 7.
16. TwelveTables, iv, 1-3 in Nonroe, P., *Source Book*, 337.
17. Twelve Tables, iii, 1.6.
18. Ibid., viii, 8.
19. Ibid., 21-26.
20. Cicero, *Pro Roscio Amerino*, 25-6.
21. Polybius, iii, 6.
22. Livy, vii, 24.
23. Vitruvius, *De Architectura* ii, 19.
24. Polybius, vi, 37
25. Frontinus. *Stratagems and Aqueducts*, iv, I.
26. Frank, *Economic History*, 338 ; Id., *Economic Survey of Ancient Rome*, V, 160 ; Fowler, W. W. *Social Life at Rome*, 32 ; Edwards, H. J., Appendix A to Caesar, *Gallic War*.
27. Dio vi, 96.
28. Livy, ii, 34 ; Dionysius, vii, 60 ; Dio, v, 7 and frag. xvii, 2 ; Appian, *Roman History*, ii, 5 ; Plutarch, "Coriolanus."
29. Polybius, ii, 16-20.
30. Livy, v, 42.
31. Dio vii, 7.
32. Coulanges, 494.
33. Plutarch, "Saytings of Great Commanders" in *Moralia* 184C.

CHAPTER III

1. Mommsen, II, 138.
2. Smith, R.B., *Carthage*, 29.
3. Appian, vii 95.
4. Polybius, vi, 56.

5. Plutarch, *De repuolica ger.*, iii, 6.
6. Frazer, *Adonis, Attis, Osiris*, I, 114.
7. Diodorus Siculus, *Library of History*, xx, 14.
8. St. Augustine. *Letters*, xvii. 2.
9. Appian, viii, 127.
10. Aristotle. *Politics*, 1272b.
11. Ibid., 1273a.
12. Polybius, iii, 22.
13. Strabo, xvii, 1. 19.
14. Polybius, i, 20-1.
15. Cicero, *De Officiis*, iii. 26 ; *In Pisonem*. 43.
16. Gellius, vii, 4.
17. Polybius, i, 80.
18. Smith. R.B., *Carthage*. 151.
19. Polybius, .i, 37. Flaubert has told the story with perfect art in *Salanmbo*.
20. Mommsen, ii, 223.
21. Dio, frag iii, 2.
22. Livy, xxi, 4.
23. Mommsen, II, 243.
24. Livy, xxii, 57.
25. Plutarch, *Moralia*, 196.D.
26. Livy, xxii, 57.
27. Polybius, ii, 75 118.
28. Livy, xxii, 50.
29. Livy, xxiii, 12.
30. Diodorus, xxvii, 9; Appian, vii, 60
31. Ibid., viii. 134.
32. Livy, xxxix, 51.

CHAPTER IV

1. Twelve Tables, iv, 1,
2. St. Augustine, *City of God*, vi, 9.
3. Horace, *Satires*, i, 8, 35 ; Müller-Lyer, F., *Evolution of Modern Marriage*, 55 ; Castiglione, 196; Howard, C., *Sex Worship*, 65, 79; *Enc.. Brit.*, 11th ed., XVII, 467 ; XXI, 345.
4. Pliny, xxviii, 19.
5. Livy, xxiii, 31.
6. Virgil, *Georgics*. ii, 419; Horace, *Odes*, i, 1 25.
7. Frazer, *Magic Art*, II, 190 ; the derivation is questioned by Fowler W. W, *Roman Fesitvals of the Republic*, 99.
8. Virgil, *Aeneid*, vii, 761 ; Ovid, *Fasti* vi, 753 ; *Metamorphoses*, xv, 497 ; Strabo, v,3. 12 ; Pliny, xxx, 12—13 ; Frazer, *Magic Art*, 1, 11.
9. Boissier G. *La réligion romaniue*, I, 27.
10. Livy, v, 21-2 ; vi, 29 ; Coulanges 199.
11. Ovid metam, xv, 626.
12. Livy viii, 16 : Lanciani, R., *Ancient Rome*, 143.
13. Fowler, W. W , *Religious Experience of the Roman People*, 437.
14. Mommsen, III, 11.
15. Cicero, *Pro, Archia* 4; Fowler, op. cit., 30. The derivation is not certain : Cicero gives another in *De natura deorum*, ii, 28.
16. Reinach. S. *Apollo*, 109.
17. Livy, vii, 5.
18 Pliny. xxviii, 10.
19. Harrion, J., *Prolegomena to the study of Greek Religion*, 35.
20. Plautus, *Curculio*, 3?-8.
21. Ovid, *Fasti*, iii, 523.
23. Howard. 66.
24. Athenaeus, xiv, 44.
25. Westermarck, E., *Origin and Development of the Moral Ideas* I. 430 ; Cicero *Pro Caelio*. 20.
26. Brittain, A, *Roman Women*, 135-6
27. Coulanges, 63
28. Plutarch, "Numa and Lycurgus."

29. Gellius, x, 23.
30. Abbott, F., *Common People of Ancient Rome.* 87.
31. Catullus, *Poems*, xxv.
32. Pliny xxxiii, 16.
33. Fowler, W. W. *Social Life of Rome*, 50—1, 270.
34. Polybius, xxxi 26.
35. Ibid., vi, 56.
36. Cf. Appian, vi, *passim.*
37. Polybius, vi. 58.
38. Plutarch, *Quaestiones Romanae* 59.
39. Livy, iii, 38.
40. Heine, H., *Memoirs*, 1, 12.
41. Thompson, Sir E., *Greek and, Latin Paleography.* 5.
42. Schlegel, A. W., *Lectures on Dramatic Art and Literature*, 202.
43. Livy, viii 2 ; Bieber, N., *History of the Greek and Roman Theater* 307.
44. In Duff., J. *Literary History of Rome* 130.
45. Castiglion, 196.
46. Lanciani, R., *Ancient Rome;* 53.
47. Glover, T. R., *Conflict of Religions in the early Roman Empire*, 15 : Friedländer, L., *Roman Life, and Manners under the early Empire* III, 141.
48. Twelve Tables, x, 9.
49. Pliny xxx, 6.
50. Frank, *Economic Survey*, I, 12: CAH, VII., 417 ; for the contrary cf. Mommsen, *History*, I, 192, 238
51. Pliny, xviii, 3.
52. Virgil, *Georgics*, i 299.
53. Guhl. E, and Koner, W., *Life of the Greeks and Romans*, 503.
5. Cato, *de agricultura.* viii ; Varro *Rerum rusticarum libri tres*, pref
55. Cicero, *Letters*, vii, 1.
56. Pliny, xxxiii, 13.
57. CAH, VIII, 345.
58. Mommsen, *History*, III, 75.
59. CAH, X, 395 ; Frank, *Economic History of Rome*, 340. For other Comporative prices cf. ibid., 66.
60. Twelve Tables viii, 18 ; Tacitus, *Annals*, vi, 16.
61. Livy, viii, 19-21, 42.
62. Paul-Louis, 118.
63. Frank, *Economic History*, 119 ; for contrary view cf. Ward. C. O., *The Ancient Lowly*, 208-9.
64. Livy, viii, 12 ; Dionysius of Halicarnassus, ix, 43.
65. Mommsen, *History*, I, 248—9 ; Paul-Louis, 47.
66. 77 % between 200 and 150 B.C. Frank, *Economic Survey*, I, 146.
67. Ibid, 41 ; CAH, VIII, 344 : Paul-Louis, 102 ; Mommsen *History*, II, 55.
68. Pliny, xxxvi, 24.
69. *Enc. History*, XIX, 466.
70. Richard. T., *Man and Metals*, I, 280.
71. Twelve Tables. x, 4.
72. E. g. in Plautus, *Captives* 998.
73. Lucian, *Dialogues of the dead*, xxv.

CHAPTER V

1. Livy. iv, 302.
2. Plutarch, " Flamininus
3. Livy, xliv, 22.
4. Appian vi; 9-10 ; Mommsen, *History*, III, 220
5. Livy, xxxix, 7 ; Mommsen, 20 [illegible]
6. Polybius, vi, 17.
7. Davis, W, S., *Influence of Wea*[illegible]

in Imperial Rome, 74,77 ; Mommsen, III, 88.
8. Polybius, xxxi, 25: Mommsen, III, 127 ; Sellar, W. Y., *Roman Poets of the Republic*, 234.
9. Mommsen, III, 40.
10 Polyblus, xxxi, 25.
11. Guhl, 490.
12. Plutarch, "Cato the Elder."
13. Livy, xxxiv, 1.
14. Brittain, 95.
15. Polybius, xxx, 14.
16. Mommsen III, 21, 127.
17. Ibid., 44, 294, 301-2.
18. CAH. VIII, 359.
19. Plutarch, "Marcellus."
20. Anderson, 137
21. Cicero, *De divinatione*, ii, 24:52.
22. Polybins, vi, 56,
23. Livy, xxxix, 8.
24. Cicero, *De re publica*, ii 19.
24a. Horace, *Epistles* ii, 1.156.
25. Cicero, *De senectute*, viii, 26.
26. Cf, Bk. II of the *Republic*.
27. Appian, vi, 9.53.
28. Ennius, *Telamo*, frag. in Duff, 141
29. Cicero, *De div*, ii. 50.
30. Ennius, frag, in Gellius, xii, 4.
31. Ennius in Cicero, *Disp. Tusc.*, ii, 1.1.
32. Collins, W. L., *Plautus and Terence*, 33-4 ; Matthews. B., *Development of the Drama*, 98
33. Cicero, *De re publica*, iv. 10.
34. Collins 45.
35. Plautus, *Amphitryon*, iii, 2, 4.
36, Batiffol, L., *Century of the Renaissance*, 164.
37. Suetonius, *On Poets*, "Terence" ii
38. Terence *Heauton Timoroumenos*. prologue
39. Terence, *Adelphi*, prolongue.
40. Suetonius, l.c.
41. Plutarch, *Moralia*, 198 E, 199 C.
42. Pliny, vii, 28.
43. Livy, xxxix, 42; Plutarch, "Cato the Elder."
44. Fowler. *Social Life*, 191.
45. Pliny, viii, 11.
46. Plutarch. l. c.
47. Ibid., Pliny, xxix, 7.
48. Appian, viii, 14.
49. Strabo, xvii, 3.15.

CHAPTER VI

1. Mommsen, *History*, III, 306.
2. Livy xli, 28; x lv, 34.
3. Ibid., xxxiy, 29.
4. Heitland, W., *Agricola*, 161 ; Ward, I, 121.
5. Dio Cassius, xxxiv, frag. ii, 23 ; Livy. Epitome of Book xc.
6. Plutarch. "Tiberius Gracchus.".
7. Ibid.
8. Appian, *Civil Wars* i.
9. Pliny. xxxiii, 14.
10. Appian, *Civil Wars*, i, 3.
11. Julius Philippus in Cicero, *De off.* ii, 21.
12. Appian, *Civil Wars* i, 4.
13. Plutarch, "Marius."
14. Sallust, *Jugurthine War*. xiii, xx-xxviii.
15. Plutarch, l. c.
16. Ibid.
17. Plutarch, "Sylla"
18. Sallust, xcv.
19. Ibid. xcvi,
20. Mommsen, IV, 142.
21. Appian. *Civil Wars*, I, 8.
22. Plutarch, l.c.
23. Ibid.
24. Ibid.

CHAPTER VII

1. Plutarch, " Caesar ".
2. Davis, 13-14.
3. Cicero, *Ad Atticum*, iv, 15.
4. Plutarch, "Pompey."
5. Cicero, *Ad Quintum*, iii, 5.
6. Cicero, *Letters*, iii, 29.
7. Cicero, *Ad Quintum*, iii 2.
8. Mommsen, V, 349.
9. Plutarch, "Cicero."
10. Cicero, *I In Verrem*, 18.
11. Frank, *Economic History*, 295.
12. Mommsen, IV. 173.
13. Frank, 289.
14. Cicero, *De off.*, I, 8.
15. Plutarch, l. c.
of History, 238.
16. Nepos. "Atticus."
17. Plutarch, "Luculls."
18. Frank *Economic Survey*. I, 254.
19. Macrobius, *Saturnalia*, iii, 13.
20. Varrō, iii, 16 ; Cicero, *Letters*, ix, 18 ; Mommsen, V, 387.
22. Cicero, *Letters*, vii. 26.
23. Pliny, xxxvi, 24.
24. L. c.
25. *Historiae. Augustae*, "Alex. Severus," 33 ; Livy, xxxix, 8f; Mommsen, V, 384; Ward, I, 406
26. In Boissier, G., *Cicero and His Friends*, 164.
27. Cicero, *Pro Caelio*.
28. Plutarch, "Cato the Younger."
29. Cicero, *Ad Atticum*,ii,1; Plutarch l. c., and "Phocien."
30. Appian, *Roman History*. vi, 16.
31. Plutarch, "Crassus."
32. Ibid.
33. Plutarch, "Sertorins."
34. Plutarch, "Pompey."
36. Cicero,*De lege Manilla*, vii 181-9
36. Cicero, *Pro Caelio*, 16.
37. Cicero, *Pro Sexto Roscio.*
38. Sallust, *The Wor of Catiline*, xv.
39. Ibid., Plutarch, "Cicero."
40. Haskell, H., *The New Deal in Old Rome*, 125.
41. Sallust, C *atline* xx, 7-13.
42. Cicero *III In Catilinan*, vii.
43. Haskell, 167.
44. Sallust, xxxiii, I.
45. Cicero, op. cit., viii.
46. Ibid., I ,
47. Cicero, *In Pisonem*, vii-vii.

CHAPTER VIII

1. Lucretius, *De rerum natura*, iii, 1053f ; tr. W. D. Rouse.
2. Ibid., iv, 1045-71.
3. Mommsen, IV, 207.
4. Fowler, *Religious Experience of The Romon People* 301.
5. Lucretius, I, 1-40.
6. Ibid., i, 101.
7. V. 1202.
8. I, 73.
9. II, 646.
10. II, 1090.
11. VI. 35.
12. I. 330.
13. II, 312.
14. iv, 834.
15. V, 419.
16. V, 837.
17. II. 8.
18. V, 1116.
19. II, 29.
20. IV, 1052.
21. V, 625f.
22. II. 79.
23. II, 1148.
24. II, 576.
25. Shotwell, *Introduction*. 221.

25.a Appian, ii, 2.
26. Lucretius, v, 564.
27. VI, 1098.
28. In Eusebius, *Chronicles* in Hadzsits, O., *Lucretius and His Influence*, 6.
29. Sellar, *Poets of the Republic* 277.
30. Voltaire, *Letters de Memmius à Ciceron*, in Hadzsits, 327.
31. Apuleius, *Apology*, in Sellar, 411.
32. Catullus, *Poems*, ii.
33. Id., ii.
34. V.
35. XI.
36. LXXXV.
37. LXX.
38. CI.
39. XXXI.
40. XXX VIII.
41. XCVIII.
42. Varro, pref.
43. Ibid., ii, 10.
44. St. Augustine, *City of God*, iv 27.
45. Ibid., vii, 5.
46. Sallust, *Jug. War*, lxxxv.
46a. Gellius, xvii, 18.1.
46b. Pliny, xiv, 17.
47. In Weise. O., *Language and Character of the Roman People*, 86.
48. Nepos, "Atticus," vii.
49. Cf. the letter to Trebatius, in Cicero, vii, 10.
50. Cf. the letter to Lentulus in Cicero, i, 7 with the speech *Pro Balbo*, 27.
51. *Ad Atticum*, vii, 1.
52. *Letters*, xv, 4, to Cato.
53. Boissier, *Cicero*, 84; Frank, *Economic Survey*, I, 395.
54. *Ad Atticum*, i, 18.
55. Ibid., i, 7.
56. *Pro Archia*, vii.
57. *De div.*, i, 2.1; 2.4.5.
58. *De off.*, ii, 17.
59. *De natura deorum*, i, 2, 8.
60. *De div.*, ii, 19.28.
61. *Academica*, ii, 41.
62. *De natura deorum*, i, 5.
63. *De div.*, ii, 47.97.
63a. *De natura deorum*, iii, 16.
64. Ibid., ii, 87.
65. Ibid., i, 1; *De legibus* ii, 7; *De off.*, ii, 72. 148.
66. *De leibus*, i, 7.
67. *De re publica*, i, 2.
68. Ibid , i, 44.
69. III, 22.
70. *De legibus*, 15.
71. *De amicitia*, xii, 40.
27. *De senectute*, xi, 38.
73. *Disp. Tusc.*, i.
74. *De legibus*, i, 2.

CHAPTER IX

1. Suetonius, Supplement, i, 3.
2. Suetonius, "Julius," 49.
3. Ibid., 4; Plutarch, "Caesar."
4. Suetonius, "Julius," 52.
5. Plutarch, "Cato the Younger."
6. Quintilian, *Institutes*, v, 1.114.
7. Sallust, *Cataline*, ii.
8. Appian, *Civil Wars*, ii, 2.
9. Ferrero, G., *Greatness and Decline of Rome*, I, 261.
10. Boissier, *Tacitus*, 216f.
12. Mommsen, V, 132.
13. Caesar, *Galli War*, i, 44.
14. Mommsen, V, 34.
15. Ibid., 38.
16. Cicero, l.c., 81.
17. Mommsen, V, 100.
18. Plutarch, "Pompey", "Crassus," "Cato the Younger."
19. Homo. L., *Roman Political Institutions* 184; Mommsen, V, 165.
20. Ibid., 385.

21. Appian, *Civil Wars*, ii, 3.
22. Cicero, *Pro Sextio* 85; Mommsen V, 108f, 370; Ferrero, I, 313; Boissier, *Cicero*, 213; Fowler, *Social Life*, 58.
23. Dio Cassius xl, 67.
24. Plato, *Republic*, 562i.
25. Suetonius, "Julius," 77,
26. Appian, *Civil Wars*, ii, 5; Ferrero, II, 187.
27. Suetonius, "Julius," 32; Appian l.c.
28. Syme, 89.
29. Cicero *ad Attiam*, viii, 16.
30. Ferrero, II, 212.
31. Cicero' *Letters*, xvi, 12, to Tiro 49 B.C.
32. Cf, e.g., *De bellocivile*, i, 43-52.
33. Ibid, i, 53; Appian, iii, 15.
34. Caesar, *Bello civil*, iii, I.
35. Plutarch, "Caeser"; Appian, ii.8.
36. Caesar, iii, 10.
37. Ibid, iii, 53.
38. Cicero, *Letters*; vii, 3 to Marcus Marius, 46 B.C.; *ad Atticum*, xi 6.
39. Appian, ii, 10.
40. Plutarch, "Pompey"
41. Plutarch, "Marcus Brutus,"
24. Caesar, iii, 88.
43. Plutarch, "Pompey."
44. Apdian, ii, 13.
45. Mahaffy, J., *Silver Age of the Greek World*, 199.
46. CAH, X, 37; Buchan, *Augustus*, 117.
47. Suetonius, "Julius," 52.
48. Ibid,
49. Plutarch, "Caesar."
50. Dio Cassius, xlii, 46.
51. Appian, ii, 13.
52. Suetonius, "Julius," 80.
53. Pliny, xxvii, 2.
55. Frank, *Economic History*, 351.
56. Plutarch, "Caesar."
57. Cicero *Pro Marcello*, 6-10.
58. Cf. *ad Familiares*, viii, 14, 22-5; ix, 11.
59. In Cicero, *ad Atticum*, xiv, 1.
60. Dio Cassius, ii, 44.
61. Plutarch, "Brutus."
62. Appian, ii, 16.
63. Plutarch, l.c.
64. From a doubtful letter of Brutus in Boissier, *Cicero and His Friends*, 334.
65. Cicero. *ad Atticum*, v, 21; 1-9
66. Appian ii, 16.
67. Suetonius, "Julius," 79.
68. Ibid 81-87; Plutarch, "Caesar"; Appian, ii, 16-21.
69. Suetonius, 82.
70. Appian, l.c.

CHAPTER X

1. Ferrero, II, 226.
2. Boissier, *Cicero*, 192.
3. Appian, *Civil Wars*, ii, 2; Dio, xiv, 2.
4. Appian, iv, II.
5. Ibid., 2-6: Plutarch, "Antony."
6. Brutus to Cicero, *ad Famiiares*,
7. Plutarch, "Cicero."
8. Appian, iv, 4; Plutarch, "Antony."
9. Philo, *Quod omnis probus*, 118-20; Appian, iv, 8-10.
10. Plutarch, "Antony;" Appian, v, I.
11. Ibid; Athenaeus, iv, 29.
13. CAH, X, 79.
14. Suetonius, 17. Rostovtzeff, *Social and Economic History of the Roman Empire*, 29, thinks the will a forgery; CAH, X, 97, accepts it as genuine.
15. Dio, li 36.
16. Ibid., 6.
17 Ibid.
18. Ibid, Suetonius, 17.

فهرس الأعلام والأماكن

(ب)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(و)

(ى)

الفهرس

الموضوع | الصفحة

فهرس الأشكال والصور

مقدمة الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على جزيل عطائه والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والرسل . وبعد فهذا هو الجزء الأول من المجلد الثالث ، من مجلدات قصة الحضارة ، وقد سماه المؤلف **قيصر والمسيح** لأن هذا المجلد يبحث فى حضارة رومة وبداية الحضارة المسيحية حتى عام ٣٢٥ بعد الميلاد . وسيكون هذا الجزء الذى بين يدى القارئ واحداً من أربعة أجزاء يكمل بها المجلد الثالث من هذه الموسوعة ، ويشمل أولها قصة الحضارة الرومانية من أقدم العهود إلى مقتل يوليوس قيصر والحرب الأهلية التى أعقبت موته ، ويقص الثانى قصة الحضارة الرومانية من ٣٠ ق ، م إلى منتصف القرن الثانى بعده ، ويشمل الثالث عهد الإمبراطورية إلى نهاية القرن الثانى ، وينتهى هذا المجلد بالجزء الرابع ، ويروى قصة الصراع بين المسيحية والوثنية من بدايتها إلى انتصار المسيحية فى عهد قسطنطين ، وقد كانت خطة المؤلف الأولى تهدف إلى أن تتم السلسلة فى خمسة مجلدات كبرى لكنه حين أصدر هذا المجلد الثالث جعلها ستة ثم عاد فى أواخر العام الماضى حين أصدر المجلد الخامس فى عصر النهضة فزادها إلى سبعة لأنه خص النهضة بمجلد والإصـلاح الدينى بمجلد آخر ، والحق أن عصر النهضة خليق بأن يفرد له مجلد خاص لأنه بداية العصر الحديث ، وفيه استيقظ العقل البشرى من سباته الطويل ونبتت بذور الحضارة التى ازدهرت فى هذه الأيام ،

ولسنا فى حاجة إلى التنويه بقيمة هذا المجلد فهو كالمجلدين السابقين تراث الشرق القديم وتراث اليونان فى غزارة المادة ودقة البحث ، وحسب القارئ أن يطلع على ثبت المراجع مجملة ومفصلة ليعرف الجهد الذى بذله المؤلف فى جمع مادته وتحقيقها .

ولا يسعنا هنا إلا أن ننوه مرة أخرى بفضل الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية التى اختارت الكتاب وعهدت إلينا ترجمته ، ولجنة التأليف والترجمة والنشر التى تولت طبعه ونشره ، والقراء فى مصر وسائر البلاد العربية الذين أقبلوا على اقتنائه إقبالا كان له أكبر الأثر فى تشجيعنا على مواصلة العمل فى ترجمة هذه الموسوعة التى نسأل الله أن يوفقنا لإتمامها ؟

مارس سنة ١٩٥٥

محمد بدران



قصة الحضارة

وِل وَايريل ديورانت

قيصر والمسيح
أو
الحضارة الرّومانيّة

ترجمة
محمّد بدران

الجزء الثّاني من المجلّد الثّالث



تونس





بيروت

الكتاب الثالث

الزعامة

٣٠ ق . م – ١٩٢ ب . م

جدول مسلسل للحوادث التاريخية

ق . م

٣٠ — أكتافيان تخلع عليه سلطة تريبونية مدى الحياة : كتاب الهجو الثانى لهوراس

٢٩ — كتاب Geogics لفرچيل . وكتاب Epodes لهوراس .

٢٧ — أكتافيان يصبح أغسطس (المعظم)

٢٧ — ٦٨ ب . م الأسرة اليولية — الكلودية

٢٧ — ١٤ ب . م ، زعامة أغسطس

٢٥ — بنثيون أجرپا ، تبيولس

٢٣ — الكتب الثلاثة الأولى من أغانى هوراس

٢٠ — الكتاب الأول من رسائل هوراس

١٩ — موت ڤرچيل ، پروپرثيوس

١٨ — قانون لوليا الخاص بالزنى

١٣ — ملهى مرسلس ؛ الكتاب الرابع من أغانى هوراس

١٢ — ٩ حملات دروسس فى ألمانيا ؛ تيبريوس يخضع پانونيا

٩ — ليڤى ، Ara Pacis لأغسطس

٨ — موت ماسناس وهوراس

٦ — تيبريوس فى رودس

٢ — نفى يوليا

٤ ب . م — أغسطس يتبنى تيبريوس

٨ — أوڤد ينفى فى تومى

٩ — هزيمة ڤارس فى ألمانيا ؛ Lex Poppaeo & Lex Lulia de maritandis ordinibus

١٤ — موت أغسطس

١٤ — ٣٧ زعامة تيبريوس

١٤ — ١٦ چرمنكوس وتيبريوس فى ألمانيا

١٧ — ١٨ چرمنكوس فى الشرق الأدنى

١٨ — موت أوڤد

١٩ — موت چرمنكوس ؛ محاكمة پيزو

٢٠ — Lex maiestalia ؛ نشأة المخبرين

٢٣ — ٣١ حكم سيجانوس

٢٧ — تيبريوس يستقر فى كبريا

٢٩ — موت ليڤيا ، نفى أجرپينا

ق . م

٣٠ — سلسس صاحب الموسوعة
٣١ — موت سجانوس
٣٧ — ٤١ زعامة جاموس (كاليجولا)
٤١ — ٥٤ زعامة كلوديوس
٤١ — ٤٩ نفي سنكا
٤٣ — فتح بريطانيا
٤٨ — موت مسالينا ؛ كلوديوس يتزوج أجريبينا الصغرى
٤٩ — سنكا يعين بريتورا ورببا لنيرون
٥٤ — ٦٨ زعامة نيرون
٥٥ — سنكا يلي de Clementia على نيرون . نيرو يسم بريطانيا نيكوس ،
٥٩ — نيرون يأمر بقتل أمه أجريبنيا
٦٢ — سقوط سنكا ؛ موت برسيوس ؛ نيرون يقتل أكتافيا ويتزوج پوپيا
٦٤ — حرق رومة ؛ أول اضطهاد المسيحيين في رومة .
٦٥ — إعدام سنكا ولوكان
٦٦ — موت پترونيوس وثراثيا پتيس
٦٨ — ٦٩ زعامة جلبا
٦٩ — (من يناير إلى إبريل) زعامة أثو
٦٩ — (من يوليه إلى ديسمبر) زعامة ڤيتليوس
٦٩ — ٢٩٦ زعامة ڤسپازيان
٢٧٠ — الكلوسيوم ؛ كونتليان يشغل منصب الأستاذ الأول في الدولة
٧١ — ڤسپازيان ينفي الفلاسفة
٧٢ — انتحار هلڤيديوس پرسكس
٧٩ — ٨١ زعامة تيتس
٧٩ — ثوران بركان ڤيزوف ، موت پلني الأكبر
٨١ — عقد تيتس
٨١ — ٩٦ زعامة دومشيان ؛ مارشال وأستاتيوس
٨١ — ٨٤ حروب أجركولا في بريطانيا
٩٣ — اضطهاد اليهود والمسيحيين والفلاسفة
٩٦ — ٩٨ زعامة نرڤا
٩٨ — تاستس يعين قنصلا
٩٨ — ١١٧ زعامة تراچان
١٠١ — ١٠٢ حرب تراچان الأولى ضد الداشيين
١٠٥ — تواريخ تاستس

ق . م

١٠٥ — ١٠٧ حرب تراجان الثانية ضد الداشيين
١١١ — بلنى الأصغر يعين مشرفاً على بيثينيا
١١٣ — السوق وعمود تراجان
١١٤ — ١١٧ حملة تراجان على بارثيا
١١٦ — حوليات تاستس ؛ أهاجى چوڤنال
١١٧ — ١٣٨ زعامة هدريان
١١٩ — « حيوات القياصرة » لسيوتنيوس
١٢١ — ١٣٤ طواف هدريان بالإمبراطورية
١٣٤ — سلڤيوس چليانوس ، مشرع
١٣٨ — ١٦١ زعامة أنطونينس بيوس
١٣٩ — ضريح هدريان
١٦٠ — ١٨٠ زعامة ماركس أوليوس أنطونينس
١٦٠ — ١٦٩ اشتراك لوسيوس ڤيرى فى الحكم
١٦٠ — كتاب النظم Institutione لجيوس
١٦٠ — ١٦٥ الحرب على بارثيا
١٦٦ — ١٨٠ حرب المركمانى
١٧٤ — ماركس يكتب « التأملات »
١٧٥ — عصيان أڤديوس كاسيوس
١٨٠ — وفاة ماركس أورليوس
١٨٠ — ١٩٢ زعامة كمودس
١٨٣ — مؤامرة لوسلا
١٨٥ — إعدام پرنيز
١٨٩ — القحط ؛ إعدام كليندر
١٩٠ — پرتناكس ، عريف
١٩١ — أول يناير : اغتيال كمودس

الباب الحادى عشر

مواهب أغسطس السياسية

٣٠ ق . م – ١٤ ب . م

الفصل الاول

فى الطريق إلى الملــكية

انتقل أكتافيان من الإسكندرية إلى آسية وواصل فيها توزيع الممالك والولايات. ولم يصل إلى إيطاليا إلا فى صيف عام ٢٩ ق . م . ولم تكد تبقى طبقة من طبقات الأهلين فيها إلا حيته واحتفلت بمقدمه ، وعدته منقذ البلاد ، واشتركت فى موكب النصر الذى دام ثلاثة أيام متوالية . وأغلق هيكل يانوس إشارة إلى أن إله الحرب قد نال كفايته إلى حين ، فقد أنهكت الحرب الأهلية التى دامت عشرين عاما شبه الجزيرة التى كانت تشتهى الحرب وتتعطش للدماء . وفى هذه الفترة أُهملت المزارع ونهبت المدن أوضرب عليها الحصار ، وسرق الكثير من ثروتها أو دمر تدميراً ، وتحطم دولاب الإدارة ووسائل الدفاع عن النفس والمال ؛ وجعل اللصوص الشوارع كلها غير مأمونة خلال الليل ، وكان قطاع الطريق يجوبون المسالك يختطفون المســافرين ويبيعونهم بيــع الرقيق . وكان من أثر هــذا أن كسدت التجارة ، ووقفت حركة الاستثمار ، وارتفعت فوائد الديون ارتفاعاً فاحشاً ، ونقصت قيمة الأملاك . ولم يكن للفاقة والفوضى أثر فى تحسين الأخلاق التى انحلت بسبب الثروة والترف ؛ ذلك أنه قلما توجد ظروف أشد إفساداً للأخلاق من الفقر الذى يعقب الغنى ، ولذلك امتلأت رومة بالرجال

الذين فقدوا مركزهم الاقتصادى وخسروا اتزانهم الأخلاقى : من جنود ذاقوا طعم المغامرات وتعلموا فنون التقتيل ؛ ومواطنين أبصروا بأعينهم مدخراتهم تلتهمها الضرائب الفادحة وتضخم العملة وهما من مستلزمات الحروب ، وكانوا ينتظرون أن يحدث حادثا ما ينتشلهم من الوهدة التى ترددوا فيها ويعيد إليهم الثراء والنعيم ؛ ومن نساء ذهبت الحرية بعقولهن فكثر بينهن الطلاق والإجهاض والزنى ؛ وانتشر العقم لضعف الرجولة وأخذت السفسطة الضحلة تفحر بنزعتها المتشائمة الساخرة .

على أن هذا الوصف لا يحمل إلى القارئ صورة كاملة لرومة فى ذلك الوقت ، بل يجب أن يضاف إليه وباء فتاك ينخر عظامها وتسرى جراثيمه فى دمائها . فقد عادت القرصنة إلى البحار ، وكانت تزداد بهجة وسروراً كلما تدهورت الولايات وأشرفت على الدمار . وسغبت المدن والولايات لما توالى عليها من الابتزاز والنهب فى أيام صلا ، ولوكلس ، وبمبى ، وجابنيوس ، وقيصر ، وبروتس ، وكاسيوس ، وأنطونيوس ، وأكتافيان . وحل الخراب ببلاد اليونان التى كانت ميدانا للقتال ، ونهبت أموال مصر وأرزاق أهلها ، وأطعم الشرق الأدنى مائة جيش ورشا ألف قائد ؛ وكان أهله يبغضون رومة أشد البغض لأنها هى السيد الذى قضى على حريتهم دون أن يعوضهم عنها أمناً أو سلاماً ؛ وكانوا يتطلعون إلى زعيم يقوم بينهم ، فيكشف عما تعانيه إيطاليا من ضعف وخور ، ويجمع شتاتهم ويقودهم فى حرب يتحررون بها من سيطرة رومة .

وكان فى وسع مجلس الشيوخ القوى فى يوم من الأيام أن يواجه هذه الأخطار ، فيعبئ الفيالق الضخمة ، ويجد لها القادة المهرة ، ويمدهم بحنكته وكفايته السياسية البعيدة النظر . أما الآن فلم يبق من مجلس الشيوخ إلا اسمه ، فقد انقرضت الأسر التى كان يستمد منها القوة ، وقضى عليها النزاع الطويل أو العقيم ، ولم تنتقل تقاليد الحكم التى كانت تمتاز بها هذه الأسر إلى رجال

الأعمال وإلى الجنود وأهل الولايات الذين خلفوها فى المجلس الجديد . ومن أجل هذا فقد أسلم هذا المجلس معظم ما كان له من سلطان إلى رجل فى وسعه أن يرسم الخطط ، ويتحمل التبعات ، ويقود ، وأسلمها إليه وهو شاكر ومغتبط .

وتردد أكتافيان طويلا قبل إلغاء هذه الهيئة القديمة ، ويصوره ديو كاسيوس Dio Cassius ، وهو يبحث المسألة بحثاً مفصلا مع ماسيناس وأجريا ، فيقول إنهم كانوا يرون أن الحكومات كلها حكومات ألجركية ، ولذلك فإن المشكلة المعروضة أمامهم لم تكن مشكلة الاختيار بين الملكية ، والأرستقراطية ، والدمقراطية ؛ بل كان عليهم أن يقرروا : هل تضطرهم ظروف الزمان والمكان أن يفضلو الألجركية فى صورة الملكية المعتمدة على الجيش ، أو فى صورة الأرستقراطية المتأصلة فى الوراثة ، أو فى صورة الدمقراطية التى تعتمد على ثروة طبقة رجال الأعمال ؟ وقد وفق أكتافيان بينها كلها فى « زعامة امتزجت فيها نظريات شيشرون وسابقات بمبى وسياسات قيصر » .

وقبل الشعب هذا الحل قبول الفلاسفة ؛ ذلك أنه لم يعد حريصاً على الحرية مولعاً بها ، بل كان قد مل الفوضى وتاقت نفسه إلى الأمن والنظام ، وكان يرضى أن يحكمه أى إنسان يضمن له الخبز والألعاب . وأدرك إدراكا يكتنفه الغموض أن جمعيات السمجة التى يتغلغل فيها الفساد ويمزقها العنف ، لا تصلح لحكم الإمبراطورية ، ولا تستطيع إعادة الحياة إلى إيطاليا المريضة ، بل أنها لا تستطيع أن تحكم مدينة رومة نفسها . هذا إلى أن الصعاب التى تكتنف الحرية تتضاعف كلما اتسعت رقعة الأراضى التى تعتنقها . فلما لم تعد رومة دولة لا تشمل أكثر من مدينة واحدة دفعها النظام الإمبراطورى دفعاً إلى أن تحذو حذو مصر وفارس ومقدونية ولم يكن فى وسعها أن تقاوم هذا الدفع الشديد ، وكان لابد أن تقوم على أنقاض الحرية ، التى استحالت فردية وفوضى ، حكومة جديدة تضع للدولة المترامية الأطراف نظاماً جديداً . وكان عالم البحر الأبيض المتوسط كله عالما

مختل النظام ، مترامياً تحت قدمى أكتافيان ، ينتظر منه أن يبسط عليه الحكم الصالح .

ونجح أكتافيان فيما أخفق فيه قيصر لأنه كان أكثر من قيصر صبراً ، وأوسع منه حيلة ، ولأنه كان يفهم فن الألفاظ والأشكال ، ويرضى أن يسير سيراً وئيداً حذراً فى المواقف التى اضطر فيها عمه العظيم لضيق وقته أن يخرج على التقاليد المرعية ، ويحدث فى نصف عام من حياته من التغييرات ما يتطلب جيلا كاملا . وفوق هذا فقد كان المال موفوراً لدى أكتافيان . ويقول سوتنيوس إنه لما جاء بكنوز مصر إلى رومة « كثرت فيها النقود كثرة انخفض معها سعر الفائدة» من اثنى عشر إلى أربعة فى المائة ،و« ارتفعت قيمة الأملاك الثابتة ارتفاعا عظيما » . وما كاد يتضح للناس أن حقوق الملكية قد عادت إليها قدسيتها وأن أكتافيان قد فرغ من أحكامه على أعدائه ومن مصادرة الأملاك ، حتى خرجت الأموال من مخابئها وعاد الاستثمار سيرته الأولى ، وراجت التجارة ، وأخذت الثروة تتجمع من جديد ، وتسرب بعضها إلى جيوب العمال والأرقاء . ولشد ما اغتبطت جميع الطبقات فى إيطاليا بعد أن عرفت أن تلك البلاد ستبقى هى المستمتعة بخيرات الإمبراطورية ، وأن رومة ستظل عاصمتها ، وأن خطر نهضة الشرق وبعثه قد زال إلى حين ، وأن ما كان يحلم به قيصر من قيام اتحاد من أمم حرة متساوية فى الحقوق لم يسفر إلا عن العودة فى هدوء إلى امتيازات الشعب المفضل صاحب السيادة .

وكان أول ما فعله أكتافيان بالأموال الجمة التى انتهبها أن وفى بما عليه لجنوده من الديون . وقد استبقى فى الخدمة منهم مائتى ألف رجل أقسم كل واحد منهم يمين الولاء له شخصياً ، وسرح الثلثمائة ألف الباقين بعد أن أقطع كلا منهم مساحة من الأراضى الزراعية ونفحة بهبة مالية سخية . ووزع الهدايا الثمينة على قواده وأنصاره وأصدقائه ، وكثيراً ما كان يسد العجز الذى يحدث فى الخزانة

العامة عن ماله الخاص . وكان إذا رأى ولاية من الولايات حل بها الضنك بسبب الأحوال السياسية أو الطوارئ الطبيعية أعفاها من خراج العام ، وبعث إليها بالمال الكثير لإنقاذها مما تعانيه . وألغى جميع المتأخر من الضرائب على أصحاب الأملاك ، وأحرق علناً السجلات التي تثبت ما عليهم للدولة من الديون ، وأدى من أموال الدولة ثمن ما يوزع من الغلال على المحتاجين ، وأقام الألعاب للشعب على نظام واسع ، وقدم المال لجميع المواطنين . ثم شرع فى إقامة المنشآت العامة ليقضى بذلك على التعطل ويجمل رومة ، وأنفق على هذه الأعمال من أمواله الخاصة ، فلا غرابة بعد هذا إذا نظرت إليه الأمة نظرتها إلى إله معبود .

وبينما كانت هذه الأموال الطائلة تتسرب من يديه كان هذا الإمبراطور المتواضع يعيش عيشة بسيطة خالية من مظاهر العظمة ، ويتجنب ترف النبلاء، ومتع المنصب وأبهته ، يرتدى الأثواب التى تنسجها له النساء فى بيته . وينام على الدوام فى حجرة صغيرة فى الدار التى كانت من قبل قصر هورتنسيوس . ولما احترق هذا القصر بعد أن أقام فيه ثمانية وعشرين عاماً ، أقام له قصراً جديداً على نظام القصر القديم ، وكان ينام فى نفس الحجرة الضيقة التى كان ينام فيها من قبل . وكانت متعته الوحيدة أن يفر من الشئون العامة بركوب زورق تدفعه الرياح دفعاً بطيئاً على طول ساحل كيانيا .

واستطاع على مر الوقت أن يقنع مجلس الشيوخ والجمعيات الوطنية ، أو أن يتفضل بالسماح لها ، بأن تخلع عليه السلطات التى جعلته فى مجموعها ملكا فى كل شىء إلا فى الاسم وحده . وقد احتفظ على الدوام بلقب إمبراطور imperator بوصفه القائد الأعلى لجميع القوات المسلحة فى الدولة . وإذ كان الجيش قد بقى معظمه خارج حدود العاصمة على الدوام ، وخارج حدود إيطاليا فى معظم الأحوال ، فقد كان فى وسع المواطنين أن ينسوا ، وهم يمارسون جميع المراسم الشكلية للجمهورية الميتة ، أنهم يعيشون فى كنف حكومة ملكية

عسكرية تختفى منها مظاهر القوة طالما كانت الألفاظ كافية للحكم . واختير أكتافيان قنصلا فى عامى ٤٣ و ٣٣ وفى كل عام من الأعوام المحصورة بين ٣١ ، ٢٣ . وخلعت عليه فى أعوام ٣٦ ، ٣٠ ، ٢٣ سلطات التربيون فكسب بذلك طول حياته الحصانة التى يتمتع بها التربيون ، وأصبح له حق وضع القوانين وعرضها على مجلس الشيوخ أو الجمعية ، وحق الاعتراض على أعمال كل موظف فى الحكومة ووقفها . ولم يعترض أحد على هذه الدكتاتورية المحبوبة ، ذلك أن رجال الأعمال الذين امتلأت خزائنهم أيام السلام والشيوخ الذين امتلأت خياشيمهم برائحة غنائم أكتافيان المصرية ، والجنود المدينين لكرمه بأرضهم أو مراكزهم ، وكل من عادت عليهم بالنفع قوانين قيصر ، ومناصبه ووصيته — كل هؤلاء كانوا يقولون ما يقوله هومر من أن حكومة الفرد خير أنواع الحكومات كلها ، أو أنها فى القليل خيرها إذا كان هذا الفرد كأكتافيان حر التصرف فى أمواله ، وإذا كان فى مثل جده وكفايته ، وإذا كان مثله بين الإخلاص لخير البلاد .

ولما كان رقيباً مع أجريا فى عام ٢٨ أجرى إحصاء عاماً للسكان ، وأعاد النظر فى عضوية مجلس الشيوخ ، فأنقص عدد الأعضاء إلى ستمائة عضو ، ولقب هو نفسه مدى الحياة بلقب « زعيم الشيوخ » princeps senatus . هذا اللقب فى بادئ الأمر « الأول فى ثبت أعضاء مجلس الشيوخ » ، ثم ما لبث أن أصبح معناه « الزعيم » بمعنى الحاكم كما أصبح معنى لفظ imperator بعد أن خلع هذا اللقب على أكتافيان هو إمبراطور emperor بالمعنى الذى يفهم من هذا اللفظ فى هذه الأيام . ويسمى التاريخ بحق حكومته وحكومة خلفائه مدى قرنين من الزمان بحكومة « الزعامة » ولا يسميها الحكومة الملكية بالضبط ، وذلك لأن الأباطرة "emperors" كانوا يعترفون — نظرياً على الأقل — بأنهم لم يكونوا إلا زعماء (principes) مجلس الشيوخ . وأراد أكتافيان أن يجعل مظهر سلطته الدستورية أروع من ذى قبل ، فنزل فى

عام ٢٧ عن جميع مناصبه ، وأعلن عودة الجمهورية ، وصرح برغبته (وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره) باعتزال الحياة العامة . وأكبر الظن أن هذه المسرحية قد أعدت من قبل ؛ فقد كان أكتاڤيان من أولئك الرجال الحذرين الذين يعتقدون أن الأمانة خير أساليب السياسة ، بشرط أن تمارس فى حكمة وحسن تدبير . ومهما تكن حقيقة هذا الأمر فقد قابل مجلس الشيوخ نزول أكتاڤيان عن حقوقه بنزوله هو أيضا عما له من حقوق ، وتوسل إليه أن يظل هادياً للدولة ومصرفاً لأمورها ، ومنحه لقب **أغسطس** وهو اللقب الذى أخطأ المؤرخون فحسبوه اسمه . ولم يكن هذا اللفظ يستعمل من قبل إلا فى وصف الأشياء والأماكن المقدسة وبعض الأرباب المبدعة أو المكثرة (ومعنى أوجير Augere باللاتينية « يزيد ») ؛ فلما أن أطلق على أكتاڤيان خلع عليه هالة من القداسة وحباه بحماية الدين والآلهة .

ويلوح أن سكان رومة قد بدا لهم زمناً ما أن « عودة » الجمهورية كانت عودة حقيقية ، وأنهم استعادوها فعلا فى نظير صفة خلعوها على أكتاڤيان . ولم لا ؟ ألا يزال مجلس الشيوخ والجمعيات هى التى تسن القوانين ، وتختار كبار الحكام ؟ إن أحداً لا ينكر ذلك وكل ما يفعله أغسطس وعماله هو أن « يقترحوا » القوانين و« يرشحوا » أرباب المناصب الهامة . وكان أكتاڤيان بوصف كونه **إمبراطورا** وقنصلا يسيطر على الجيش والخزانة ، وينفذ القوانين ، وكان بفضل امتيازاته التربيونية يشرف على كل ما عدا ذلك من أعمال الحكومة . ولم تكن حقوقه أوسع كثيراً من حقوق پركليز pericles أو بمبى أو أى رئيس نشيط من رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية . ولكن الفرق كله أن سلطاته هو كانت دائمة . وقد استقال فى عام ٢٣ من القنصلية ، ولكن مجلس الشيوخ منحه وقتئذ « سلطات القنصل » وإن لم يبق له اسمه ، فجعله بذلك المسيطر على الموظفين جميعهم فى الولايات كلها .

ولم يعترض أحد على ذلك فى هذه المرة أيضاً ؛ بل حدث عكس هذا

وذلك أنه لما لاح خطر نقص الحبوب حاصر الشعب مجلس الشيوخ ، وأخذ يطالب بجعل أغسطس دكتاتوراً . وكان سبب ذلك أنهم قد ساءت أحوالهم فى عهد الجركية مجلس الشيوخ إلى حد جعلهم يميلون إلى الدكتاتورية التى ستخطب ودهم فى زعمهم لتقضى بذلك على سلطان الأغنياء . وأبى أغسطس أن يقبل هذا العرض ولكنه وضع الأنونا Annona أو موارد الطعام تحت سلطانه ، وقضى على خطر القحط فى أقرب وقت ؛ وحمد له الشعب عمله هذا حمداً جعل رومة ترتاح أشد الارتياح حين أقدم على تعديل نظم الدولة على النحو الذى رسمه لها فى ذهنه .

الفصل الثانى

النظام الجديد

والآن فلندرس حكومة الزعامة ببعض التفصيل لأنها كانت فى كثير من نواحيها من أعظم الأعمال السياسية فى التاريخ ومن أكثرها دقة .

لقد جمع الزعيم فى يده كل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ؛ فكان من حقه أن يقترح القوانين على الجمعيات أو على مجلس الشيوخ ويعرض المراسيم ؛ وكان فى وسعه أن ينفذها وأن يفرضها بالقوة إذا شاء ، وأن ينشرها ويعاقب الخارجين عليها . ويقول سوتونيوس إن أغسطس كان يجلس مجلس القاضى بانتظام وإن مجلسه كان يدوم فى بعض الأحيان حتى يجن الليل « وكان يأمر بوضع محفة فوق المنصة يلجأ إليها إذا أصابته وعكة ... وكان رجلا حى الضمير ليناً فى أحكامه إلى حد كبير » وإذ كان قد ألقيت عليه تبعة مناصب كثيرة فقد شكل له مجلساً غير رسمى من المستشارين أمثال ماسناس ، ومن المنفذين لقراراته أمثال أجريا ، ومن القواد أمثال تيبريوس ، كما أنشأ له هيئة من صغار الكتبة وعمال الإدارة البيروقراطية معظمهم من أرقائه ومعاتيقه .

وكان كيس ماسناس من أثرياء رجال الأعمال ،وكان قد قضى نصف حياته يساعد أغسطس فى الحرب والسلم وفى أعماله السياسية الداخلية والخارجية ، وساعده أخيراً على الرغم منه فى مغامراته النسائية . واشتهر قصره العائم على تل الأكولين بحدائقه الغناء وبركة استحمامه ذات الماء المسخن . وكان أعداؤه يصفونه بأنه شخص . مخنث أبيقورى لأنه كان يتباهى بلبس الحرير والتحلى بالجواهر ،وأنه يعرف كل مايعرفه المبطان الرومانى . وكان يستمتع بالأدب والفن ويناصرهما بكرم وسخاء ، وقد أعاد إلى فرجيل ضيعته ووهب هوراس ضيعة

أخرى . وكان هو الموحى بكتابى الجورجيين Georgics والأناشيد . ولم يأب أن يشغل أى منصب من المناصب العامة ، مع أنه كان فى وسعه أن يحصل منها على أى منصب يريده إلا القليل . وقد ظل سنين طوالا يجهد نفسه فى بحث مبادئ السياسة الخارجية ووقائعها ، وبلغ من شجاعته أن كان يعنف أغسطس إذا ظنه قد وقع فى خطأ موبق . ولما مات (فى عام ٨ ق . م) حزن عليه الزعيم وعد موته خسارة لا تعوض .

ولعل أغسطس (وأصله من الطبقة الوسطى ولم يكن يحتقر التجارة كما يحتقرها الأشراف) كان يعمل بمشورته حين رشح كثيرين من رجال الأعمال للمناصب الإدارية الكبرى وإلى حكم الولايات نفسها . ولما تذمر مجلس الشيوخ من هذه البدعة ، استرضاه بأشياء كثيرة : فمنح بعض لجانه سلطات استثنائية ، وجمع حوله مجلساً من الزعماء المستشارين مؤلفاً من حوالى عشرين رجلا كلهم تقريباً من الشيوخ ، وأصبح لقرارات هذا المجلس على مدى الأيام ما لقرارات مجلس الشيوخ نفسه من قوة ، وكانت سلطاته واختصاصاته تزداد كلما ضعفت سلطات مجلس الشيوخ ، ونقصت اختصاصاته . لكن مجلس الشيوخ لم يكن إلا أداته العليا على الرغم مما كان يغدق عليه من ضروب العطف والمجاملة .

وقد استخدم حقه بوصفه رقيباً فأعاد النظر فى عضويته أربع مرات ، وكثيراً ما استخدم حقه فى طرد بعض أعضائه منه لعجزهم عن القيام بالأعمال الرسمية أو لسوء سلوكهم الشخصى ، وقد رشح هو نفسه معظم أعضائه الجدد ، وكان من دخلوه من الكوسترين والبريتوزين والقناصل بعد انقضاء المدة المحددة لتوليهم مناصبهم ، كانوا كلهم ممن اختارهم هو أو ممن وافق على اختيارهم . وقد حشد فى هذا المجلس أغنى رجال الأعمال فى إيطاليا وانضمت الطبقتان إلى حد ما فى ذلك الائتلاف الذى هيأته لها سيطرتهما المتحدة التى اقترحها شيشرون فى الأيام الخالية . وبذلك وقفت قوة المال فى وجه كبرياء المولد وامتيازاته ، كما وقفت

الأرستقراطيةالوراثية فى وجه مساوئ الثروة وأعمالها التى لا تتحمل لها تبعة .

واقتصرت اجتماعات مجلس الشيوخ بناء على اقتراح أغسطس على اليومين الأول والخامس عشر من كل شهر ، ولم يكن اجتماعه يدوم فى العادة أكثر من يوم واحد . وإذ كان الذين يرأسون اجتماعه هم « زعماء الشيوخ » فإنه لم يكن يستطاع عرض أى اقتراح عليه بغير موافقته ، والحق أن كل اقتراح يعرض عليه كان يعده من قبل هو أو أعوانه . وأصبحت اختصاصات المجلس القضائية والتنفيذية وقتئذ أهم من اختصاصاته التشريعية ، فكان بمثابة محكمة عليا ، وكان يحكم إيطاليا بوساطة لجان ، ويوجه أعمال الأشغال العامة المختلفة . وكان يحكم الولايات التى لا تحتاج إلى إشراف عسكرى كبير ، ولكن الزعيم هو الذى كان يشرف على العلاقات الخارجية . ولما جرّد المجلس بهذه الطريقة من سلطاته القديمة أهمل هو نفسه اختصاصاته الضيقة نفسها وصار يتخلى باستمرار عن كثير من التبعات للإمبراطور وموظفيه .

وظلت الجمعيات تعقد جلساتها ، ولكن عدد هذه الجلسات أخذ يقلّ شيئاً فشيئاً ؛ وظلت تقترع ولكنها لم تكن تقترع إلا على المشروعات أو الترشيحات التى يوافق عليها الزعيم ، وقضى على حق العامة فى تولى عليه المناصب أو كاد يقضى عليه فى عام ١٨ ق . م حين صدر قانون يقصر تولي هذه المناصب على الرجال الذين تبلغ قيمة أملاكهم أربعمائة ألف سسترس (٦٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) أو أكثر[٢] . ورشح أغسطس نفسه للقنصلية ثلاث عشرة مرة ، وسعى لنيل أصوات الناخبين كما كان يسعى غيره من المرشحين ؛ ونزل بذلك من عليائه للاشتراك فى المسرحية التى كانت تمثل فصولها على مسرح السياسة الرومانية . وقد عمل على منع الرشا فى الانتخابات بأن طلب إلى كل مرشح أن يودع قبل عملية الانتخاب مبلغاً من المال ضماناً منه بأنه لن يلجأ إلى الرشوة[٣] . بيد أن أغسطس نفسه وزع فى وقت من الأوقات ألف سسترس على كل عضو ناخب

فى قبيلته حتى يضمن بذلك صحة أصوات القبيلة(٤). وظل القناصل والتربيونون ينتخبون حتى القرن الخامس بعد الميلاد(٥) . غير أن المنصبين أصبحا بعد أن آلت معظم حقوقهما إلى الزعيم منصبين إداريين لا تنفيذيين ، ثم انتهيا إلى أن صارا منصبى شرف لا أكثر .

أما حكم رومة الفعلى فقد وضعه أغسطس فى أيدى موظفين إقليميين يتقاضون مرتبات من الدولة وتساعدهم فى عملهم شرطة مؤلفة من ثلاثة آلاف رجل يرأسها « كبير الشرطة البلدية Praefectus urbi » . وفضلا عن هذا فقد وُضع ست كتائب قوام كل منها ألف جندى بالقرب من رومة ، وثلاث كتائب فى داخلها ليضمن بذلك استتباب النظام من النوع الذى يريده ، ليؤيد بها سلطانه ، وإن كان قد اعتدى بعمله هذا على جميع السوابق أشد الاعتداء . وأصبحت هذه الكتائب فيما بعد هى الحرس البريتورى ، أى حرس البريتوريوم Praetorium أو مقر القائد الأكبر . وهذه الفرق هى التى جعلت كلوديوس إمبراطوراً فى عام ٤١ ب . م ، وهى التى بدأت عملية إخضاع الحكومة للجيش .

ثم امتدت عناية أغسطس الإدارية من رومة إلى إيطاليا وإلى الولايات الخارجية . فمنح حق المواطنية الرومانية أو حق الانتخاب الضيق المعروف « بالحقوق اللاتينية » لجميع العشائر التى اشتركت فى تحمل أعباء الحرب على مصر . ثم أعان المدن الإيطالية بما نفحها به من هبات ، وزينها بالمبانى الجديدة ، وابتكر طريقة تمكن أعضاء مجالسها من إعطاء أصواتهم فى انتخاب الجمعيات فى رومة بطريق البريد . ثم قسم الولايات فئتين : أولاهما ما تحتاج إلى دفاع جدى والثانية ما كانت فى غير حاجة إلى هذا الدفاع . فأما الثانية (وكانت تشمل صقلية ، وبيتكا ، وغالة النربونية ، ومقدونية ، وآخية ، وآسية الصغرى ، وبيثينيا ، وبنطس ، وقبرص ، وكريت ، وقورينة ، وأفريقية الشمالية ، فقد وضع حكمها فى يد مجلس الشيوخ . أما الثانية — وهى الولايات الإمبراطورية —

فكان يحكمها سفراؤه ، ووكلاؤه أو رؤساء حرسه . وقد أمكنه هذا النظام البديع من أن يحتفظ بسيطرته على الجيش ، الذى كان يقيم معظمه فى الولايات « المعرضة للخطر » . هذا إلى أنه وضع فى يده موارد مصر الغنية وأمكنه من أن يراقب الحكام المعينين من قبل مجلس الشيوخ بأعين وكلائه الذين كان يعينهم لجباية الخراج من الولايات جميعها بلا استثناء . وكان كل حاكم يتقاضى فى أيامه مرتباً محدوداً ، وبذلك قلت رغبته إلى حد ما فى ابتزاز المال من أهل الولاية التى يحكمها . وكان إلى جانب الوالى هيئة من الموظفين المدنيين تساعد على دوام الاتصال فى الأعمال الإدارية وتمنع إلى حد ما رؤساءهم المؤقتين من الإقدام على الأعمال غير المشروعة .

أما أقيال الدول التى كانت خاضعة لنفوذ رومة فكانوا يعاملون معاملة طيبة حكيمة ، وظلوا بسببها موالين لأغسطس كل الولاء ، وقد أقنع الكثيرين منهم بأن يرسلوا إليه أبناءهم ليعيشوا فى قصره ، وليتلقوا فيه تربية رومانية ؛ وأصبح هؤلاء الشبان بفضل هذا التدبير الكريم رهائن لديه حتى يحين وقت تتويجهم ، ثم صاروا بعدئذ على غير علم منهم أداة لصبغ بلادهم بالصبغة الرومانية .

ويبدو أن أغسطس بعد انتصاره فى أكتيوم ، وما بعثه هذا الانتصار فى نفسه من حماسة وزهو ، وبعد أن رأى من حوله جيشاً ضخماً وأسطولاً قوياً ، يبدو أنه أخذ بعد هذا يعد العدة لتوسيع رقعة الإمبراطورية ومد حدودها إلى المحيط الأطلنطى ، والصحراء الكبرى ، ونهر الفرات ، والبحر الأسود ، ونهرى الدانوب والإلب ، وأنه كان يعتزم الاحتفاظ بالسلم الرومانية بسياسة العدوان عند هذه الحدود جميعها لا بسياسة الدفاع السلبى . وقد أتم الإمبراطور بنفسه فتح أسبانيا ، ونظم الإدارة فى بلاد غالة تنظيما يدل على مقدرته ومهارته ، وكان من نتائجه أن ساد السلام ربوع تلك البـــلاد نحو قرن كامل . واكتفى فى پارثيا باسترجاع الأعلام ، ومن بقى على قيد الحياة من الأسرى الذين أخذوا من كراسس فى عام ٥٣ ؛ أما فى

أرمينية فقد أعاد إلى عرشها ملكها تجرانيس Tigranes الموالى لرومة . وأرسل بعثات لفتح بلاد العرب ولكنها أخفقت . وأخضع ربيباه تيبريوس ودروسس فى العشر السنين المحصورة بين ١٩ ، ٩ ق . م بلاد إلبريا Illyria وپانونيا Pannonia وريتيا Roetia ؛ ولما غزا الألمان غالة تذرع أغسطس بهذه الحجة فأمر دروسس أن يعبر نهر الرين ؛ ولشد ما اغتبط حين علم أن هذا الشــاب قد شق طريقه إلى نهر الإلب . غير أن دروسس أصيبت أحشاؤه على أثر سقطة سقطها على الأرض عانى على أثرها المرض ثلاثين يوما . وكان تيبريوس شديد الحب لأخيه ، فسار على ظهر جواده أربعمائة ميل من غالة إلى ألمانيا ليضمه إلى صدره فى آخر ساعات حياته ؛ ولما تم له ذلك نقل جثته إلى رومة ، وسار وراء الجنازة طول الطريق (٩ ق .م) ثم عاد بعدئذ إلى ألمانيا وحمل على القبائل الضاربة بين الإلب والرين حملتين (٨ — ٧ ق . م ٤ — ٥ ب . م) خضعت على أثرهما لرومة .

وحلت برومة بعدئذ وفى وقت واحد تقريبا كارثتان بدلت حي الفتح والتوسع سياسة سلام . ذلك أن پانونيا ودلماشيا اللتين فتحتا حديثا ثارتا على رومة ، وقتل أهلهما جميع من كان فيهما من الرومان ، وأعدتا جيشاً مؤلفا من مائتى ألف رجل وهددتا إيطاليا نفسها بالغزو . وأسرع تيبريوس فعقد الصلح مع القبائل الألمانية ، وسار على رأس قواته القليلة إلى پانونيا ، واستطاع بصبره وخططه العسكرية الفنية أن يستولى على محصولات البلاد أو يتلفها فيحرم العدو من مصادر تموينه ، كما استطاع بحرب العصابات أن يمنعه من إنتاج محصولات جديدة ، وعمل فى الوقت نفسه على أن يوفر المؤن لجنوده . وأصر على العمل بهذه السياسة ثلاث سنين رغم ما وجه إليه من النقد فى بلاده ، حتى نال أخيراً بغيته، فرأى الثوار الجياع يلقون أسلحتهم ، وبسط هو السلطة الرومانية من جديد على ربوع البلاد . ولكن حدث فى تلك السنة نفسها (٩ ب.م) أن نظم أرمنيوس الثورة فى

ألمانيا ، وأوقع فيالق ڤاروس الوالى الرومانى فى كمين ، وقتل جنودها عن آخرهم إلا من انتحر بإلقاء نفسه على سيفه مثل فاروس نفسه . ولما سمع أغسطس بهذا النبأ « تأثر أشد التأثر » كما يقول سوتونيوس . وظل عدة شهور لايحلق لحيته ولا يقص شعر رأسه ، وكان فى بعض الأحيان يضرب الباب برأسه ويصيح بأعلى صوته : « أى كونتليوس ڤاروس أعد إلىَّ فيالقى[٦] ! » وأسرع تيبريوس إلى ألمانيا ؛ وأعاد فيها تنظيم الجيش ، وصد هجمات الألمان ، ورد حدود الدولة الرومانية ، بناء على أوامر أغسطس ، إلى نهر الرين .

وكان هذا قراراً خسر فيه أغسطس شطراً كبيراً من كبريائه ، ولكنه دل على حكمته وحصافة عقله . وقد اسلمت ألمانيا بمقتضاه إلى « البربرية » أى إلى ثقافة غير رومانية ولا يونانية ؛ وتركت حرة تسلح سكانها المتزايدين لمحاربة رومة . على أن الأسباب التى حملت الرومان على السعى لفتح ألمانيا كان من شأنها أن تتطلب منهم إخضاع سكوذيا — أى جنوبى الروسيا . لكنهم لم يفعلوا لأن الإمبراطورية يجب أن يقف امتدادها فى مكان ما ؛ وكان نهر الرين حداً للدولة خيراً من أى حد آخر غرب جبال أورال . هذا إلى أن أغسطس بعد أن ضم أسپانيا الشمالية والغربية ، وريشيا ، ونوركم ، وپانونيا ، وموزيا ، وجلاتيا ، وليسيا ، وپمفيليا شعر بأنه قد استحق بأعماله لقب « الإله المكثر » . وكانت الإمبراطورية حين وفاته تشمل مساحة قدرها ٣٫٣٤٠٫٠٠٠ ميل مربع أى أكثر من مساحة الولايات المتحدة فى القارة الأمريكية ، وكانت تعادل مساحة رومة قبل الحروب البونية مائة مرة . ونصح أغسطس خليفته بأن يقنع بهذه الإمبراطورية وهى أعظم إمبراطورية شهدها التاريخ حتى ذلك الوقت ، وأن يوجه همه إلى توحيدها وتقويتها فى الداخل بدل أن يوسعها فى الخارج ، وأظهر دهشته من أن « الإسكندر لم ير أن تنظيم الإمبراطورية التى أنشأها أصعب من كسبها[٧] » وبهذا بدأت السلم الرومانية Pax Romana .

الفصل الثالث

عهد الرخاء

لا يمكن أن يقال عن أغسطس إنه « فر من الميدان وسمى هذا الفرار سلما » ؛ ذلك أنه لم تكد تمضى عشر سنين بعد معركة اكتيوم حتى انتعشت بلاد البحر الأبيض المتوسط انتعاشاً لم يضارعه فى سرعته انتعاش قبله . وقد كانت عودة النظام فى حد ذاتها باعثاً قوياً على هذا الانتعاش ؛ وكيف يمتنع الرخاء من إجابة هذه الدعوة الإجماعية التى يتقدم بها إليه ما عاد إلى البحار من أمن وسلامة ، وإلى الحكومة من الاستقرار ، مضافاً إلى استمساك أغسطس بالقديم الموروث وتحفظه ، وإلى استهلاك كنوز مصر المدخرة ، واستغلال المناجم الجديدة ، وإنشاء دور سك جديدة ، وإلى ثقة الأهلين بالنقد وسرعة تداوله ، ومعالجة الزحام فى إيطاليا بإقطاع الأهلين أرضاً يفلحونها ، وبنقلهم إلى أراضى المستعمرات ؟ ومن القصص المأثورة فى هذا الصدد أن جماعة من بحارة الإسكندرية نزلوا فى بتيولى ، وكان أغسطس قريباً منها ، فأقبلوا عليه فى ملابسهم الزاهية وأهدوا إليه البخور كما يهدى البخور إلى الآلهة ، وقالوا له إنهم استطاعوا بفضله أن يسيروا فى البحر آمنين ، وأن يتاجروا واثقين ، وأن يعيشوا سالمين[٨] .

ولم يكن أغسطس ، وهو حفيد رجل مصرفى ، يخالجه أدنى شك فى أن خير سياسة اقتصادية هى السياسة التى تجمع بين الحرية والأمان . ومن أجل ذلك وفر الحماية لجميع طبقات الأمة بسن القوانين ، وبالدقة فى تطبيقها ؛ ووضع فى الطرق العامة حراسة قوية ، وأقرض ملاك الأراضى المال من غير فائدة[٩] ؛ وهدأ ثائرة الفقراء بما وزعه عليهم من قمح الدولة ، وبـ«القرعة» والهدايا فى بعض الأحيان . أما فيما عدا هذا فقد ترك للمشروعات الخاصة ، والإنتاج ، والتبادل ، حرية أوسع

مما كان لها من قبل ، على أن الأعمال التي تديرها الدولة كانت مع هذه الحرية كثيرة متنوعة إلى حد لم تبلغه من قبل ، وكان لها شأن أيما شأن في إنعاش الحياة الاقتصادية ؛ فقد شُيد في خلال هذه المدة اثنان وثمانون هيكلا ، وأنشئت سوق عامة جديدة وباسلقا(*) جديدة لتيسير الأعمال المالية وأعمال المحاكم ، وأقيم بناء جديد لمجلس الشيوخ بدل البناء الذي احترق فيه كلوديوس ؛ وشيدت صفوف الأعمدة لتخفيف حرارة الشمس ، وأكمل الملهى الذي بدأه قيصر وسمّي باسم مرسلس زوج ابنة أغسطس ؛ واستحث الإمبراطور الأثرياء على أن ينفقوا بعض أموالهم في تجميل إيطاليا بالباسلقات ، والهياكل ، ودور الكتب ، والملاهي ، والطرق . ويقول ديوكاسيوس إنه « أمر الذين يحتفلون بالنصر أن ينفقوا مغانمهم في تشييد مبانٍ عامة تخلد ذكرى أعمالهم »[٩] . وكان أغسطس يرجو من وراء ذلك أن يجعل عظمة رومة سبباً في ازدياد سلطانه ورمزاً لهذا السلطان .

ومن أقواله في آخر أيامه أنه وجد رومة مدينة من الآجر ثم تركها وهي من الرخام[٩ ب] ؛ وتلك مغالاة تغتفر لقائلها ، فقد كان فيها قبل أيامه كثير من الرخام ، وبقي فيها من بعده كثير من الآجر ، ولكن الحقيقة أنه قلما فعل رجل لمدينة ما فعله أغسطس لرومة .

وكان ساعده الأيمن في إعادة بناء رومة ماركس فسبانيوس أجريبا Marcus Vispanius Agrippa ؛ وكان صديقه هذا قد اشترك مع ماسنياس في تنفيذ سياسة أغسطس . ولما كان أجريبا إيديلا عام ٣٣ ق . م ضم الجماهير إلى جانب أكتافيان بأن فتح لهم ١٧٠ حماما ، ووزع عليهم الزيت والملح بلا ثمن ، وأقام لهم ألعاباً عامة دامت خمسة وخمسين يوماً ، وعين حلاقين لجميع المواطنين

(*) الباسلقا Basilica عند الرومان بهو كبير مستطيل الشكل ذو صفين من العمد ، ينتهي بطرف نصف دائري ، كان يستخدم في الأعمال المالية والقضائية . وقد حول كثير من الباسلقات آخر الأمر إلى كنائس (المترجم)

من غير أجور — ولعله أنفق ما تطلبه هذا كله من ماله الخاص . وكانت كفايته خليقة بأن تجعله قيصراً ثانياً ؛ ولكنه فضل أن يخدم أغسطس مدى جيل كامل — ومبلغ علمنا أنه لم يرتكب إثماً يشين حياته العامة أو الخاصة ، فقد تركه المغتابون الرومان ، الذين لم يتركوا أحداً غيره إلا سلقوه بألسنة حداد ، دون أن يمسوه بقالة سوء . وكان هو أول روماني أدرك ما للقوة البحرية من خطر عظيم ، فوضع خطة لإنشاء عمارة بحرية وأنشأها ، وتولى قيادتها ، وهزم بها سكستس پمپي ، وطهر البحر من القراصنة ، وكسب العالم لأغسطس معركة أكتيوم . وعُرض عليه ثلاث مرات أن يقام له موكب نصر بعد هذه الانتصارات الرائعة ، وبعد أن هدأ أسپانيا وغالة والمملكة البسپورية ، ولكنه رفض في كل مرة . وقد وهبه زعيمه ثروة طائلة اعترافاً منه بفضله ، ولكنه ظل رغم هذه الثروة يعيش عيشة خالية من البذخ والترف . وبذل جهوده كلها في إقامة المنشآت العامة كما بذلها من قبل في حفظ كيان الدولة ، فكان يستأجر بماله الخاص مئات من العمال لإصلاح الطرق ، والمباني ، والمجاري العامة ، وإعادة فتح قناة مارسيس المغطاة . وأنشأ هو قناة من نوعها جديدة ، هي قناة يوليوس ، وأصلح وسائل مد رومة بالماء باحتفار سبعمائة بئر وإنشاء خمسمائة عين فوارة ، ومائة وثلاثين خزاناً .

ولما شكا الناس من ارتفاع أثمان النبيذ أجابهم أغسطس بدهائه المعروف :

« لقد عمل صهري أجرپا على ألا تظمأ رومة أبداً »(١٠) .

وأنشأ أجرپا ، وهو أعظم المهندسين الرومان بلا منازع ، مرفأ واسعاً عظيماً ، ومركزاً لبناء السفن بإيصال بحيرتي لكرينس وأفرنيس بالبحر . وهو الذي أنشأ أول الحمامات العامة الرائعة الفخمة ، التي امتازت بها رومة فيما بعد على سائر مدن العالم . وشاد من ماله الخاص هيكلا لفينوس والمريخ أعاد بناءه هدريان وهو المعروف لنا بهيكل الآلهة Pantheon في هذه الأيام ، ولا يزال يظهر عليه حتى الآن هذه العبارة M. AGRIPA... FECIT . ونظم أعمال مسح أراضي الإمبراطورية

مرة كل ثلاثين عاماً ، وكتب رسالة فى الجغرافية ، ورسم للعالم خريطة ملوّنة على الرخام . وكان مثل ليوناردو دافنشى عالماً طبيعياً ، ومهندساً ، ومخترعاً للمقذوفات الحربية وفناناً . وكان موته المبكر وهو فى سن الخمسين (١٢ ق. م) من الأحزان الكثيرة التى عكرت صفاء سنى أغسطس الأخيرة . وقد زوجه أغسطس بابنته يوليا ، وكان يرجو أن يرث الإمبراطورية من بعده لأنه خير مَن يستطيع أن يحكمها حكماً صالحاً نزيهاً شريفاً .

وكانت المنشآت العامة الكثيرة النفقة ، مضافة إلى الخدمات الواسعة التى تقوم بها الحكومة سبباً فى زيادة المصروفات العامة زيادة لم يكن لها نظير من قبل . ذلك أن المرتبات كانت تؤدى وقتئذ للموظفين فى الولايات وفى المدن ، وللحكام ورجال الشرطة ؛ وكان يقوم على حراسة البلاد جيش قوى دائم وأسطول ضخم ، وكانت المبانى العامة التى لا عداد لها تشاد أو تصلح ، وكان العامة يرشون بالحبوب والألعاب ليظلوا هادئين . وإذ كانت هذه النفقات كلها إنما تؤدى من الإيرادات العادية ، ولم تحمل الأجيال التالية بدين أهلىّ ما ، فقد أصبحت الضرائب فى أيام أغسطس علماً وصناعة دائمة . ولم يكن أغسطس نفسه بالرجل الصلب الذى لا يلين : فكثيراً ما أعفى الأفراد المأزومين والمدن المأزومة من الضرائب أو أداها من ماله الخاص . وأعاد إلى البلديات خمسة وثلاثين ألف رطل من الذهب قدمت إليه « هدية تتويج » ، حينما اختير قنصلا للمرة الخامسة ، ورفض هبات أخرى كثيرة[١٢] ، وألغى ضريبة الأراضى التى فرضت على إيطاليا فى أثناء الحرب الأهلية ؛ وفرض بدلا منها على جميع سكان الإمبراطورية ضريبة مقدارها خمسة فى المائة على الأموال التى يوصى بها لأى إنسان عدا الأقارب الأدنين والفقراء[١٣] ، كما فرض ضريبة مقدارها واحد فى المائة على المزادات العامة ، وأربعة فى المائة من أثمان الأرقاء ، وخمسة فى المائة عند تحريرهم ، وقرر عوائد جمركية تتراوح بين اثنين ونصف وخمسة فى المائة على جميع البضائع .

الواردة إلى كل الموانى تقريباً . وكان سكان المدن جميعاً يؤدون ضرائب للبلديات ، ولم تكن الأملاك الرومانية الثابتة معفاة من الضريبة كما كانت الأراضى الإيطالية . وكانت الضرائب تؤدى على الماء المستمد من القنوات العامة . وكان دخل الخزانة كبيراً من تأجير الأراضى العامة ، والمناجم ، ومصائد الأسماك ، واحتكار الدولة للملح ، ومن الغرامات التى تفرضها المحاكم . وكانت الولايات تؤدى ضريبة على الأراضى tributum soli ، وضريبة الفرضة Tributum Capitis ، ومعناها الحرفى ضريبة على الرؤوس ، ولكنها كانت فى واقع الأمر ضريبة على الأملاك الشخصية . وكانت الضرائب تجمع فى خزانتين فى رومة كلتاهما فى معبد ، وهما الخزانة الأهلية (Aerarium) التى يشرف عليها مجلس الشيوخ ، والخزانة الإمبراطورية (fiscus) التى كان يملكها ويديرها الإمبراطور(*). وكانت ترد إلى الخزانة الثانية الأموال من أملاك الإمبراطور الخاصة ، ومن الأموال التى يوصى بها الخيّرون والأصدقاء . وبلغ ما تجمّع من هذه الوصايا فى أيام أغسطس ٠٠٠ر٠٠٠ر٤٠٠ر١ سسترس .

ويمكن القول بوجه عام إن الضرائب فى أيام الزعامة لم تكن فادحة ، وإن ما أنفقت فيه حصيلتها إلى عهد كادوس كان يبرر ما عاناه الناس فى أدائها . وقد عم الرخاء الولايات وأقام الأهلون مذابح لأغسطس الإله شكراً له أو تطلعاً إلى ما سوف يأتيهم به من خير . وقد اضطر فى رومة نفسها لأن يعنف الناس على إسرافهم فى مديحه . ومن أمثلة هذا الإسراف أن أحد المتحمسين أخذ يجرى فى شوارع المدينة ويدعو رجالها ونساءها لأن « يهبوا » حياتهم لأغسطس ؛ أى أن يقطعوا على أنفسهم عهداً بأن يقتلوا أنفسهم حين يموت . وحدث فى عام ٢ ب . م . أن اقترح مسالا كرفينس Messala Corvinus الذى

(*) كانت الفسى fisci على عهد الجمهورية هى السلال المختومة التى تحمل فيها أموال الخراج من الولايات إلى رومة .

استولى على معسكر أكتافيان فى فلپاى أن يمنح أغسطس لقب «أبى البلاد» . ولشد ما اغتبط مجلس الشيوخ بمنح الإمبراطور هــذا اللقب وكثيراً غيره من ألقاب الثناء والتكريم ، فقد سره ألا يتحمل إلا القليل من تبعة الحكم ، وأن يحتفظ مع ذلك بالثراء ومظاهر الشرف . وكانت طبقة رجال الأعمال التى زادت ثروتها كثيراً عن ذى قبل تحتفل بذكرى مولده احتفالا يدوم يومين كاملين فى كل عام . ويقول سوتونيوس «إن الناس جميعاً على اختلاف أصنافهم وطبقاتهم كانوا يقدمون له الهدايا فى اليوم الأول من شهر يناير» — أى فى عيد رأس السنة . ولما أن دمرت النيران قصره القديم تبرعت إليه كل مدينة فى الإمبراطورية بمقدار من المال ليستعين به على إعادة بنائه ، ويبدو أن كل قبيلة وكل نقابة فعلت هى الأخرى مثل ما فعلت المدن . وأبى أن يأخذ من أى فرد أكثر من دينار واحد ، ومع ذلك فقد حصل على ما يكفى لبناء القصر وزيادة . وقصارى القول أن جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط قد أحست بالسعادة بعد محنتها الطويلة ، وكان فى وسع أغسطس أن يعتقد أنه استطاع بصبره وجهده أن ينجز العمل العظيم الذى أخذ على عاتقه أن ينجزه .

الفصل الرابع

إصلاحات أغسطس

لقد أشقى أغسطس نفسه إذ حاول أن يصلح قلوب الناس ويسعدهم معا ، وكان ذلك تطاولا منه لم تغفره له رومة أبداً ، ذلك أن إصلاح الأخلاق أشق أعمال الحكام وأكثرها دقة وخطورة ، وقل من الحكام من جرؤ على محاولته ، وقد تركه أكثرهم للمنافقين أو القديسين .

وبدأ أغسطس هذا الإصلاح بداية متواضعة لوقف تيار الانقلاب العنصري في رومة . ذلك أن سكان رومة لم يكونوا يتناقصون كما قد يتبادر إلى الأذهان ، بل كان هؤلاء السكان يزدادون زيادة مطردة بفضل المغريات الكثيرة ، وما كان يوزع عليهم من الأرزاق وما يستورد من الثروة ومن الرقيق . وإذ كان المحررون ينالهم نصيبهم من الأرزاق التي توزعها الدولة ، فقد أعتق كثيرون من المواطنين عبيدهم المرضى أو الطاعنين في السن لكي تطعمهم الدولة ، وحرر أكثر من هؤلاء لبواعث إنسانية ، كما استطاع كثيرون منهم أن يقتصدوا من المال ما يبتاعون به حريتهم . وإذ كان أبناء المحررين يصبحون مواطنين رومانيين من تلقاء أنفسهم ، فقد تضافر تحرير الأرقاء وتكاثر الغرباء مع قلة تناسل عناصر السكان الأصليين على تبديل الطابع العنصري لسكان رومة . وكان أغسطس يشك كثيراً في إمكان استقرار أحوال بلد يسكنه هذا الخليط المختلف العناصر من الأهلين ، ويرتاب في ولاء هؤلاء السكان إلى الإمبراطورية وهم الذين تجري في عروقهم دماء الشعوب المغلوبة على أمرها . لذلك عمل على سن قانون فوفيا كانينيا Lex Fufia Caninia (٢ ب . م) وغيره من القوانين التي تبيح لكل من يملك عبـداً أو عبدين لا أكثر أن يعتقه أو يعتقهما جميعا ، ولمن يملك — ثلاثة عبيد إلى عشرة أن يعتق نصفهم ،

ومن يملك أحد عشر إلى ثلاثين أن يعتق ثلثهم ، ومن يملك واحداً وثلاثين إلى مائة أن يعتق ربعهم ، ومن يملك مائة عبد وعبد إلى ثلثمائة أن يعتق خمسهم ، والتي لا تبيح لسيد أن يعتق أكثر من مائة من عبيده .

وقد يتمنى الإنسان أن لو حدد أغسطس اقتناء العبيد لا تحريرهم . ولكن القدماء كانوا يرون الرق عملا لا غبار عليه . ويرون الاسترقاق قضية مسلماً بها لا تحتمل جدلا ، ولو أنه طلب إليهم أن يحرروا العبيد جملة لنظروا إلى ما ينجم عن هذا العمل من النتائج الاقتصادية والاجتماعية نظرة الرعب والهلع ، كما يخشى أصحاب الأعمال في وقتنا الحاضر ما عساه أن ينجم عن الضمان الاجتماعي للعمال من تراخ في العمل وقلة في الإنتاج . لقد كان تفكير أغسطس قائماً على المصالح العنصرية ومصالح الطبقات ، ولم يكن في مقدوره أن يرسم في ذهنه صورة لرومة القوية لا يتصف أفرادها بالخلق والشجاعة والمقدرة السياسية التي كان يمتاز بها الرومان الأقدمون بوجه عام والأشراف الأقدمون بوجه خاص . وكان ضعف العقيدة الدينية القديمة بين الطبقات العليا سبباً في القضاء على ما كان للزواج والوفاء والأبوة من حرمة وقداسة ، وكانت هجرة الناس من الأرياف إلى المدن قد جعلت الأطفال عبئاً ثقيلا على آبائهم أو لعباً يتسلون بها على أحسن تقدير ، بعد أن كانوا مصدر ربح لهم . واشتدت رغبة النساء في التجمل واجتذاب الأموال بعد أن كن يرين أن خير زينة لهن هي إنجاب الأبناء . وقصارى القول أن الرغبة في الحرية الفردية بدت في ذلك الوقت مجافية لحاجات العنصر الروماني الأصيل . ومما زاد الطين بلة أن السعي وراء الهبات والوصايا أضحى وقتئذ أكثر الأعمال ربحاً في إيطاليا[1] . فقد كان الرجال الذين لا أبناء لهم إذا بلغوا مرحلة العمر الأخيرة يجدون أحسن الترحيب في بيوت من لهم أبناء ، يستقبلون فيها ويطعمون ، وكان كثير من الرومان يحبون هذه المتعة وهذا النوع من الحياة اللينة ، حتى أصبحت سبباً آخر من أسباب العقم . يضاف إلى هذا أن طول سني الخدمة العسكرية حال بين كثيرين

من الشبان وبين الزواج فى أكثر سنى العمر صلاحية له . وامتنع كثيرون من الرومان الأصليين عن الزواج بتاتا ، وفضلوا الاتصال بالعاهرات أو اتخاذ السرارى والعشيقات حتى على تعدد الزوجات متفرقات . ويلوح أن الكثرة العظمى من المتزوجين عمدت إلى تحديد عدد أفراد أبنائها باللجوء إلى إجهاض الزوجات وقتل الأطفال ومنع الحمل[١٨] .

وأقلقت هذه المظاهر وأمثالها من مستلزمات الحضارة بال أغسطس وأقضّت مضجعه ، وبدأ يشعر أن لابد من العودة إلى العقائد والأخلاق القديمة . وعاد إليه بعد أن صفا ذهنه وأنهك جسمه بفعل السنين احترامه لتراث الآباء والأجداد ، فأخذ يشعر أن ليس من المصلحة فى شىء أن ينفصل الحاضر عن الماضى انفصالا تاما ، بل الواجب أن تعمل الأمة — إذا أرادت لنفسها حياة صحيحة سليمة — على استمرار تقاليدها الماضية ، كما يجب على الفرد أن تكون له ذاكرة . ولذلك أخذ يقرأ بجد أكسبته إياه السنون تواريخ رومة القديمة ويعجب بالفضائل التى يعزوها المؤرخون إلى أهلها ، ويحسدهم عليها . ولشد ما كان يعجب بخطبة كونتس متلس فى الزواج ، فتلاها فى مجلس الشيوخ وأصدر أمراً إمبراطوريا بإذاعتها بين طبقات الشعب . وكان كثيرون من رجال الجيل القديم يتفقون معه فى آرائه فألفوا من بينهم حزباً متزمتاً شديد الرغبة فى تقويم الأخلاق عن طريق التشريع ؛ وأكبر الظن أن ليڤيا Livia أمدتهم بنفوذها . واستخدم أغسطس ماله من حقوق بوصفه رقيباً وتربيوناً فأصدر طائفة من القوانين — أو لعله حمل الجمعية على إصدارها — تهدف كلها إلى تقويم الأخلاق ، وتشجيع الزواج ، والوفاء بين الأزواج ، والأبوّة الصالحة ، والحياة البسيطة ، والعودة بها إلى السنن القديمة . وحرمت هذه القوانين على المراهقين — والمراهقات — أن يحضروا دور اللهو العامة إلا فى صحبة الكبار من أقاربهم ؛ ومنع النساء من مشاهدة الاستعراضات الرياضية ، وقصر أماكنهن فى المجتلدات على

المقاعد العليا ؛ ثم حدد مقدار ما ينفق من المال فى البيوت ، وعلى الخدم ، والولائم ، والزواج ، والجواهر ، والملابس .

وكان أهم هذه « القوانين البولية »(*) كلها « القانون اليوليانى الخاص بالعفة ومنع الزنى « Lex Julia de pudicitia et de coercendis adulterus » (١٨ ق . م) وبهذا القانون وضع الزواج لأول مرة فى التاريخ الرومانى تحت حماية الدولة بعد أن كان متروكا لسلطة الآباء فى أُسرهم Patria Potestas ، واحتفظ الأب بحقه فى قتل ابنته الزانية هى وشريكها ساعة أن يضبطهما متلبسين بهذه الجريمة ، وأُجيز للزوج أن يقتل عشيق زوجته إذا ضبطه فى منزله ، أما زوجته فلم يكن له أن يقتلها إلا إذا ارتكبت الفحشاء فى بيته هو . وكان يطلب إلى الزوج الذى يكشف عن خيانة زوجته أن يأتى بها إلى المحكمة فى خلال ستين يوما من هذا الكشف ؛ فإذا لم يفعل هذ كان يُطلب إلى والد الزوجة أن يقوم هو بهذا العمل ؛ فإذا لم يفعل الوالد نفسه ذلك جاز لأى مواطن أن يتهمها . وكان عقاب المرأه الزانية أن تنفى من البلاد طوال حياتها ، وأن تجرّد من ثلث ثروتها ومن نصف بائنتها ، وأن يحرم عليها الزواج مرة أخرى . وقد قُررت هذه العقوبات نفسها على الزوج الذى يتغاضى عن زوجته الزانية . غير أنه لم يكن من حق الزوجة أن تتهم زوجها بالزنى ، فقد كان له أن يتصل بالعاهرات الرسميات المسجلات دون أن يعاقبه القانون على هذا الاتصال . ولم يكن هذا القانون يطبق إلا على المواطنين الرومان .

وأكبر الظن أن أغسطس سن حوالى ذلك الوقت قانونا آخر يعرف عادة باسم القانون اليوليانى الخاص بالزواج بين الطبقات Lex Julia de maritandis ordiniyrbus وذلك لاحتوائه على فصل خاص بالزواج بين الطبقات أى بين الطبقتين العليين . وكان الهدف الذى يرمى إليه هدفاً مزدوجاً ، فقد كان يرمى إلى تشجيع الزواج وإلى تحديده معاً ، وذلك لأنه كان يعطل امتزاج الدم الرومانى

(*) وسميت كذلك نسبة إلى القبيلة التى ينتمى إليها أغسطس بعد أن تبناه قيصر .

بالدم الغريب ، ويعيد إلى الزواج فكرته الأولى فكرة الاتحاد لإنجاب الأبناء .

وكانت السبيل التي سلكها القانون للوصول إلى هذين الهدفين هي فرض الزواج على جميع الصالحين له من الرجال إذا كانوا أقل من سن الستين ، وعلى الصالحات له من النساء إذا كن أقل من الخمسين . وألغيت الوصايا التي كانت تشترط في الموصى له أن يظل عزباً ؛ وفرضت عقوبات على العزاب : فحرموا من الميراث عدا ميراث الأقارب إلا إذا تزوجوا في خلال مائة يوم بعد وفاة المورث ؛ كما منعوا من مشاهدة الحفلات والأعياد العامة .

ولم تكن الأرامل أو المطلقات يرثن إلا إذا تزوجن مرة أخرى في خلال ستة شهور من موت الزوج في الحالة الأولى ومن الطلاق في الحالة الثانية . وحرمت العانس والزوجة العقيم من الميراث إذا بلغت الخمسين من عمرها ، أو كانت أصغر من ذلك وكانت تملك خمسين ألف سسترس (٧٥٠٠٠ ريال أمريكي) . وحرم على الرجال من طبقة أعضاء مجلس الشيوخ أن يتزوجوا من المحررات ، أو الممثلات أو العاهرات ، كما حرم على الممثل والمحرر أن يتزوج ابنة من طبقة أعضاء مجلس الشيوخ . وفرضت على النساء اللاتي يمتلكن أكثر من عشرين ألف سسترس أن يؤدين ضريبة سنوية قدرها ١٪ من أموالهن حتى يتزوجن ، ثم تخفض هذه الضريبة بالتدريج كلما رزقن ابناً ، فإذا رزقن الطفل الثالث رفعت الضريبة عنهن ، وإذا كان لأحد القنصلين أبناء أكثر من زميله تقدم عليه . وكان يفضل في تولي المناصب العامة أكبر المتقدمين إليها أسراً متى كان صالحاً لتولي المنصب . وكان من حق الأم ذات الثلاثة الأبناء أن ترتدي جلباباً خاصاً ius trium liberorum وأن تحرر من سيطرة زوجها عليها .

وقد أغضبت هذه القوانين الطبقات جميعها حتى طبقة المتزمتين ، فقد اشتكى هؤلاء من أن « حق الثلاثة الأبناء » قد حرر الأم من سلطان الرجل تحريراً شديد الخطورة . ومن الرجال من أخذوا يبررون عدم الزواج بقولهم إن « المرأة

الحديثة » قد تطرفت فى استقلالها ، وغطرستها ، ونزقها ، وإسرافها . وكانوا يرون أن حرمان العزّاب من مشاهدة المعارض والألعاب العامة عقاب قاس مستحيل التنفيذ ، ولهذا أمر أغسطس بإلغائه فى عام ١٢ ق . م ؛ ثم خففت القوانين اليولياثية مرة أخرى بمقتضى قانون پُپْيَا پُپيَّا Popia Poppea ، وذلك بتخفيف شروط الميراث على العزّاب ، وبمضاعفة الفترة التى تستطيع الأرامل والمطلقات فى أثنائها أن يرثن قبل أن يتزوجن مرة أخرى ، وبزيادة القدر الذى يستطيع أن يرثه من لا أبناء له . ثم أعفيت أمهات الأبناء الثلاثة من القيود التى وضعها قانون ڤوكونيا lex Voconia على الوصايا للنساء . وخفضت السن المحددة للتقدم للمناصب العامة بنسبة حجم أسرة من يتقدم لهذه المناصب . ولاحظ الناس بعد أن سنت هذه القوانين أن القناصل الذين وضعوا صيغتها وأطلقوا أسماءهم عليها عزّاب لا أبناء لهم . وأضاف النمامون إلى ذلك أن الذى اقترح هذه القوانين على أغسطس — وهو الذى لم يكن له إلا ولد واحد — هو مسناس الذى لم يكن له ولد ، وأنه فى الوقت الذى سنت فيه كان ماسناس يعيش عيشة الترف والخنوثة ، وكان أغسطس يغوى زوجة ماسناس على الفحشاء[١٩].

وليس فى وسعنا أن نحكم على أثر هذه الشرائع التى تعد أهم الشرائع الاجتماعية فى التاريخ القديم ، ولكننا نستطيع أن نقول إنها لم تسن بالعناية والدقة الواجبتين ، وإن من أرادوا خرقها كانوا يجدون فيها كثيراً من الثغرات ؛ فمنهم من تزوجوا إطاعة للقانون ثم ما لبثوا أن طلقوا زوجاتهم ؛ ومنهم من تبنّوا أطفالا ليحصلوا بذلك على المناصب أو الوصـــايا ، ثم « حرروهم » — أى طردوهم من ديارهم بعدئذ[٢٠] . وأعلن تاستس بعد قرن من ذلك الوقت أن هذه الشرائع أخفقت فى الغرض الذى كانت ترمى إليه : « فالزواج وإنجاب الأبناء لم يزيدا على ما كانا عليه من قبل ، وذلك لأن مغريات عدم النسل مغريات عظيمة القوة »[٢١] .

ولم ينقطع الفساد الخلُقى وإن أصبح الناس أكثر تأدباً فيه عما كانوا من

قبل ؛ ونتبين من أقوال أوڤد أنه كان فى طريقه إلى أن يصير فناً من الفنون الجميلة ، وموضوعاً يعنى مهرة الخبراء بتعليمه للمبتدئين . والحق أن أغسطس نفسه كان يرتاب فى قوة هذه الشرائع . وكان يتفق مع هوراس فى أن القوانين عبث لا طائل منه إذا لم تتغير القلوب[٢٢] . ولقد كافح كفاح الأبطال ليصل إلى قلوب الناس ؛ فكان يعرض من مقصورته فى ساحة الألعاب أبناء چرمنيكوس الكثيرين ، وكان چرمنيكوس مضرب المثل فى الأبوة ؛ وكان يهب ألف سسترس للآباء ذوى الأسر الكبيرة[٢٣] ؛ وأقام نصباً تذكارياً لامة ولدت خمسة أبناء (وهى لم تفعل ذلك بالطبع لبواعث وطنية)[٢٤] ؛ ولشد ما اغتبط حين رأى فلاحاً يأتى راجلا إلى رومة ومن ورائه ثمانية أبناء ، وستة وثلاثون حفيداً ، وتسعه عشر من أبناء أحفاده[٢٥] . ويصوره ديوكاسيوس يخطب فى الناس ويشهر « بانتحار العنصر » الرومانى الأصيل[٢٦] . وكان يلذ له أن يقرأ مقدمة تاريخ ليڤى الأخلاقية ، ولعله هو الموحى بها . وقد أصبحت الآداب فى عصره وبتأثيره آدابا تعليمية عملية الصبغة ، وأقنع بنفسه أو عن طريق ماسيناس ڤرچيل وهوراس بأن يستخدما شعرهما فى الدعاية إلى الإصلاح الخلقى والدينى ، فحاول ڤرچيل فى كتاب الزراعة Georgics أن يعيد الرومان بأغانيه إلى المزارع ، كما حاول فى الإنيادة Aeneid أن يجتذبهم إلى الآلهة القدامى . أما هوراس فبعد أن ذكر أمثلة كثيرة لمسرات العالم حول أغانيه إلى الموضوعات الرواقية . وأقام أغسطس فى عام ١٧ ب . م « الألعاب القرنية ludi saeculares[*] — التى ظلت قائمة ثلاثة أيام ، وشملت حفلات ، ومباريات ، واستعراضات ؛ وقد أقامها احتفالا بعودة عصر زحل الذهبى ، وكلف هوراس أن يكتب Carmen saeculare لكى يغنيها فى الموكب سبعة وعشرون فتى ومثلهم من الفتيات . وحتى الفن نفسه قد استخدم للإشارة إلى

(*) معنى هذه العبارة الحرفى « الألعاب القرنية » لأنها لم تكن تقام إلا فى فترات متباعدة .

الأخلاق ، فقد مثلث فى نقش أراپاسس Ara pacis البارز الجميل حياة رومة وحكومتها ؛ وشيدت المبانى العامة الفخمة لتمثيل قوة الإمبراطورية وعظمتها ، وأقيمت عشرات الهياكل لتستثير فى قلوب الناس ذلك الإيمان الذى كاد يموت .

واقتنع أغسطس فى آخر الأمر — وهو الرجل المتشكك الواقعى — بأن إصلاح الأخلاق لابد أن ينتظر نهضة دينية . ذلك أن جيل المتشككين أمثال لكريشيوس وكاتلس وقيصر كان قد مضى وانقضى ، وأدرك أبناء هذا الجيل أن خشية الآلهة هى شباب الحكمة ، بل إن أوفد الساخر نفسه أخذ يكتب بعد قليل من ذلك الوقت على طريقة ڤلتير فيقول : « إن من أسباب الراحة للإنسان أن تكون هناك آلهة ، وأن نعتقد بوجودها expeditesse deos, et un expedit esse putemuse »[٢٧] . وكانت عقول المتحفظين تعزو أسباب الحرب الأهلية وما جرته على الدولة من كوارث إلى إهمال الدين ، وما استتبع هذا الإهمال من غضب آلهة السماء . وأصبح الناس الذين حل بهم عقاب الآلهة فى كل مكان من إيطاليا على استعداد لأن يعودوا إلى مذابح البلاد القديمة ، وأن يسبحوا بحمد الآلهة الذين أبقوا عليهم ليستمتعوا بعودة الدين إلى سالف عهده السعيد . ولما خلف أغسطس ليدس Lepidus الفاتر الإيمان بعد أن ظل صابراً زمناً طويلا يترقب موته — لما خلفه فى منصب الكاهن الأكبر « احتشد الناس من كافة أنحاء إيطاليا لينتخبونى لهذا المنصب حتى بلغ عددهم حداً لم يبلغ مثله فى رومة من قبل »[٢٨] . وتزعم هو حركة إحياء الدين وسار على نهجها ، وكان يرجو أن يكون الناس أكثر قبولا لإصلاحاته السياسية والأخلاقية إذا ما ربطها رباطاً وثيقاً بالآلهة الرومانية . ومن أجل هذا رفع مقام الجماعات الأربع الكهنوتية ، وزاد ثروتها إلى حد لم يكن له مثيل فى الأيام السالفة ، واختار نفسه عضواً فى كل منها ، واضطلع بواجب اختيار أعضائها الجدد ، وكان يحرص كل الحرص على حضور اجتماعاتها ويشترك فى مواكبها الفخمة الرهيبة

ثم حرم ممارثة العبادات والطقوس المصرية والأسيوية فى رومة ، ولكنه استثنى اليهود من ذلك التحريم ، وأطلق الحرية الدينية لسكان الولايات ، وأغدق الهبات على الهياكل ، وجدد الاحتفالات والمواكب والأعياد الدينية القديمة . ولم تكن الألعاب القرنية احتفالات دنيوية كما يظن لأول وهلة ، فقد كانت تقام فى كل يوم من أيامها الثلاثة طقوس وتتلى فيه أناشيد ، أهم ما تشعر به عودة صلات الود الوثيقة بالآلهة . ولما أن تغذت العبادات القديمة بهذه المعونة الملكية العليا سرت فيها حياة جديدة ومست من جديد شغاف قلوب الناس وآمالهم السماوية . ومن أجل هذا ظلت ثلاثة قرون صامدة للفوضى الناشئة من العبادات المتعارضة التى تسربت إلى رومة بعد أيام أغسطس . ولما أن ماتت بعد هذه القرون الثلاثة عادت من فورها إلى الحياة من جديد ، وإن اتخذت لها رموزاً جديدة وتسمت بأسماء جديدة .

وكان أغسطس نفسه من أكبر المنافسين لآلهته ، وكان قيصر قد ضرب له المثل فى هذا التنافس : ذلك أن مجلس الشيوخ اعترف بألوهية قيصر بعد عامين من مقتله ، وما لبثت عبادته أن انتشرت فى سائر أنحاء الإمبراطورية. وكانت بعض المدن الإيطالية منذ عام ٣٦ ق . م قد أفسحت لأكتافيان مكاناً بين معبوداتها ؛ وما وافى عام ٢٧ ق . م حتى أضيف اسمه إلى أسماء الآلهة فى الترانيم الرسمية التى كانت تنشد فى رومة ، وحتى أصبح يوم مولده يوماً مقدساً لا عيداً فحسب ؛ ولما مات أصدر مجلس الشيوخ قراراً أن تعبده رومة من ذلك الوقت وأن تعده من الآلهة الرسمية . وكان ذلك كله يعد عملا طبيعياً لا غبار عليه عند الأقدمين لأنهم لم يدر بخلدهم قط أن ثمة ثغرة تفصل على الدوام بين الآلهة والآدميين ؛ فما أكثر ما كانت الآلهة تتخذ لنفسها أشكالا آدمية ، ولقد كان ما لهرقل ، وليقورغ والإسكندر ، وقيصر ، وأغسطس وأمثالهم من عبقرية مبدعة يبدو للشرق المتدين بنوع خاص إعجازاً خليقاً بالتقديس . ألم يعتقد المصريون أن الفراعنة ، والبطالمة ، بل وأنطونيوس نفسه أرباب يعبدون ؟ ولقد

كان عسيراً عليهم أن يضعوا أغسطس فى منزلة تقل عن هؤلاء . ولم يكن الأقدمون وهم يفعلون هذا من الغفلة والبلاهة بالدرجة التى يرميهم بها من يفعلون فعلهم فى هذه الأيام ؛ فلقد كانوا على علم تام بأن أغسطس بشر ، فإذا ألهوا روحه أو روح غيره فإنهم لم يكونوا يستعملون لفظ إله theos, deus إلا بالمعنى الذى نستعمل نحن فيه لفظ قديس فى هذه الأيام . والحق أن تقديس الموتى وليد التأليه الرومانى ، وأن الصلاة للآدمى المؤله لم تكن تبدو لهم فى ذلك الوقت أكثر سخفاً مما تبدو الصلاة للقديس فى هذه الأيام .

وارتبطت عبادة عبقرية الإمبراطور فى البيوت الإيطالية بعبادة أرباب المنازل وعبقرية أبى الأسرة ، ولم يكن فى هذه العبادة شىء عسير على شعب ظل عدة قرون يؤله الموتى من آبائه ، ويبنى لهم المذابح ، ويسمى مقابر أسلافه هياكل . ولما أن زار أغسطس آسية اليونانية فى عام ٢١ ق . م وجد أن عبادته قد انتشرت فيها انتشاراً سريعاً ؛ وكانت النذور تقدم إليه والخطب ترحب به بوصفه « المنقذ » و « ناقل الأنباء السارة » و « الإله ابن الإله » . وقال بعض الناس أنه هو المسيح الذى طال انتظاره أقبل يحمل السلام والسعادة لبنى الإنسان[٢٩] . وجعلت مجالس الولايات الكبرى عبادته المحور الذى تدور عليه احتفالاتها ، وعينت مجالس الولايات والبلديات طائفة جديدة من الكهنة يدعون بالأغسطيين لخدمة الإله الجديد . وأبدى أغسطس استياءه من هذا كله ، ولكنه قبله آخر الأمر على أنه تمجيد روحى للزعامة ، وتقوية للرابطة بين الدين والدولة ، وعبادة مشتركة موحدة بين عقائد مختلفة مفرقة ، وهكذا رضى حفيد المرابى أن يكون إلهاً .

الفصل الخامس

أغسطس نفسه

ترى أى رجل هذا الذى ورث ملك قيصر فى الثامنة عشرة من عمره ، وكان سيد العالم فى الحادية والثلاثين ، والذى حكم رومة نصف قرن من الزمان ، والذى شاد أعظم إمبراطورية فى التاريخ القديم ؟ لقد كان كئيباً جذاباً معاً ، ولم يكن أحد أسمج منه ، ولكن نصف عالم قد عبده رغم هذه السماجة . وكان ضعيف البنية ، لا يمتاز بالشجاعة النادرة ، ولكنه كان قادراً على أن يهزم جميع أعدائه وينظم شئون الممالك ، وينشئ حكومة أفاءت على الدولة المترامية الأطراف مدى قرنين من الزمان رخاءً منقطع النظير .

وقد استنفد المثالون كثيراً من الرخام والبرنز فى صنع تماثيل وصوّر له يظهره بعضها فى صورة الشاب الجاد المهذب الفخور الوجل ، وبعضها فى صورة الكاهن المنقبض الصدر ، وبعضها قد غطت فيه نصف جسمه شارات الملك ، وبعضها فى ثياب القائد العسكرى — فقد اضطر الفيلسوف على كره منه وبمشقة على نفسه أن يضطلع بواجب القواد . لكن هذه الصور لا تكشف عن الأمراض التى كان يشكو منها — وإن أوحت بها فى بعض الأحيان — وهى الأمراض التى جعلت حربه ضد الفوضى تتأثر فى كل خطوة بكفاحه فى سبيل صحته . ولم يكن بالرجل الوسيم الخلق ، وكان ذا شعر أصفر بلون الرمل ، ورأس مثلث عجيب الشكل ، وحاجبين مقترنين ، وعينين صافيتين نافذتى النظرات ؛ ولكن ملامحه مع ذلك كانت هادئة ساكنة — على حد قول سوتنيوس — وقد بلغ هدوؤه وسكونه حداً جعل أحد الغاليين ، وكان قد جاء ليغتاله ، يبدل نيته ويرتد عنه . وكان ذا جسد حساس يشوهه القوب من آن إلى آن ؛ وقد أضعف داء المفاصل

ساقه اليسرى فكان يعرج قليلا ، وكان يصاب فى بعض الأحيان بنوع من التصلب شبيه بتصلب المفاصل تعجزمعه يده اليمنى عن الحركة . وأصيب هو وعدد كبير من الرومان فى عام ٢٣ ق . م بوباء يشبه التيفوس ، وكان يشكو من وجود حصا فى المثانة ، ولا يستطيع النوم إلا بمشقة ، ويعانى فى كل ربيع تمدداً فى الحجاب الحاجز ، ويصاب بالزكام إذا هبت الريح من الجنوب » . وكان شديد التأثر بالبرد ، ولذلك كان يلبس فى الشتاء صديرية من الصوف يقى بها صدره ، ويلف اللفائف على فخذيه وساقيه ، ويلبس شعاراً وأربعة إشارات وعباءة ثقيلة » . ولم يكن يجرؤ على تعريض رأسه للشمس ، وكان يتعبه ركوب الخيل ، فكان يحمل أحياناً فى محفة إلى ميدان القتال[٣٠] . وظهرت عليه آثار الشيخوخة وهو فى سن الخامسة والثلاثين بعد أن عاش فى إحدى الفترات الحاسمة فى تاريخ الإنسانية فأصبح عصبيا ، معتلا ، سريع التعب ، ولم يكن أحد يحكم وقتئذ بأنه سيعيش أربعين سنة أخرى . وجرّب عدداً كبيراً من الأطباء على اختلاف أنواعهم وجزاهم كلهم أحسن جزاء ، وكان منهم أنطونينس موسى الذى عالجه من مرض لم يكن معروفاً على وجه التحقيق (ولعله خرّاج فى الكبد) بالكمادات والحمامات ، وقد كرم موسى هذا بأن أعفى جميع الأطباء من الضرائب[٣١] . ولكنه كان يعالج نفسه بنفسه فى أكثر الأحيان ، فكان يعالج داء المفاصل بالاستحمام بالماء المالح الساخن وبالحمامات الكبريتية ، وكان يقل من الطعام ، ولا يتناول إلا الأطعمة البسيطة الخفيفة كالخبز الخشن ، والجبن ، والسمك ، والفاكهة . وقد بلغ من عنايته بمأكله أن كان « فى بعض الأحيان يتناول طعامه بمفرده قبل المآدب أو بعدها ، ولا يطعم أو يشرب شيئاً فى أثنائها »[٣٢] . وقصارى القول أن روحه هى التى أبقت على جسمه وحملته حمل الصليب شأنه فى هذا شأن القديسين فى العصور الوسطى .

وكان جوهر طباعه حيوية أعصابه ، وقوة عزيمته ، ونفاذ بصيرته ، وسعة

صدره ، وحسن تفكيره ؛ وقد قبل من المناصب عدداً يخطئه الحصر ، واضطلع بتبعات لم يضطلع أحد بأكثر منها إلا قيصر وحده ، وأدى ما تتطلبه هذه المناصب من واجبات بأمانة وذمة ، ولم تمنعه هذه الواجبات من أن يرأس جلسات مجلس الشيوخ بانتظام ، وأن يحضر المؤتمرات والاجتماعات ، وأن يحكم فى مئات من القضايا ، وأن يتحمل على مضض حضور المآدب والحفلات ، وأن يدبر الحملات الحربية فى البلاد النائية ، وأن يصرف أمور الفيالق الحربية والولايات ، وأن يزورها كلها تقريباً ؛ وأن يشرف على كل صغيرة وكبيرة من الأعمال الإدارية فى دولاب الحكومة .

وفوق هذا كله ألقى مئات الخطب ، وأعدها هو وحرص حرصاً يفخر به على أن يجعلها واضحة ، سهلة ، جميلة الأسلوب ، وكان يقرؤها بعد إعدادها ويفضل ذلك على أن يرتجلها حتى لا ينطق بألفاظ يندم عليها بعد النطق بها ، ويحاول سوتونيوس أن يقنعنا بأنه لهذا السبب عينه كان يكتب مقدماً أحاديثه الهامة مع الأفراد ، حتى مع زوجته نفسها ، ويقرأها ثم[٣٣] .

وقد ظل يؤمن بالخرافات كما كان يؤمن بها معظم المتشككين فى عصره بعد أن فقد إيمانه بدينه بزمن طويل . من ذلك أنه كان يحمل جلد عجل البحر ليتقى به شر الصواعق ، وكان يعتقد بالفأل والطيرة ، ويعمل فى بعض الأحيان بما يتراءى له فى منامه من نُذُر ، وكان يأبى أن يبدأ رحلة فى الأيام التى يرى أنها أيام مشئومة[٣٤] .

وقد اشتهر فى الوقت عينه بأنه واقعى فى أحكامه ، عملى فى تفكيره ، وكان ينصح للشبان بأن يبادروا بالانخراط فى سلك الأعمال التى تتطلب منهم همة ونشاطاً حتى تقوّم التجارب وضرورات الحياة ، ما أخذوه عن الكتب من آراء[٣٥] .

وقد احتفظ إلى آخر أيام حياته بعقليته الطيبة البرجوازية وبتحفظه وحذره

واعتداله فى نفقاته . وكانت الحكمة المحببة إليه هى قوله « بادر على مهل » وكان يفوق معظم أمثاله من ذوى السلطان العظيم فى تقبل النصح واحتمال التأنيب بصدر واسع وتواضع عظيم .

وقد زوّده الفيلسوف أثندورس Athendorus عندما همّ بوداعه وهو عائد من عنده إلى أثينة بعد أن عاش معه عدة سنين بنصيحة قال له فيها : « إذا غضبت فلا تقل كلمة أو تفعل شيئاً قبل أن تعدّ لنفسك الحروف الهجائية الأربعة والعشرين » .

وشكر أغسطس للفيلسوف تحذيره وتوسل إليه أن يبقى معه عاماً آخر وقال له : « لا خطر يتهدد الخير الذى يعود على الإنسان بفضل السكوت »[٣٦] .

لقد قلنا من قبل إن مما يثير الدهشة أن يتحول قيصر من رجل سياسى صخاب إلى قائد ماهر وحاكم سياسى محنك ؛ ولكن أكثر من هذا إثارة للدهشة تحول أكتافيان القاسى القلب المنطوى على نفسه إلى أغسطس المتواضع الكبير العقل النبيل الطبع . ولقد حدث هذا التحول فى خلال نموه . إن الشاب الذى أجاز لأنطونيوس أن يعلق رأس شيشرون فى السوق العامة ، والذى تنقّل من حزب إلى حزب دون أن يجد من ضميره تأنيباً على هذا التنقل ، والذى أطلق العنانْ لشهواته الخنسية ، والذى طارد أنطونيوس وكليوبطرة إلى منيتهما دون أن تؤثر فيه صداقة أو شهامة — إن هذا الشاب العنيد الذى لا يحب أحداً لم يُسَمِّم عقله السلطان والجاه ، بل أصبح فى الأربعين سنة الأخيرة من حياته مضرب المثل فى العدل والاعتدال ، والإخـــلاص والنبل والتسامح ، يضحك من سخرية الشعراء به وهجوهم إياه ، وينصح تيبريوس أن يقنع بمنع أعمال العدوان أو محاكمة المعتدين ، وألا يسعى لتكميم أفواههم ، ولا يصر على أن يعيش غيره من الناس عيشة البساطة التى فرضها هو على نفسه . فكان إذا دعا إلى وليمة ، انسحب منها فى بدايتها لكى يترك لضيوفها الحرية التامة فى الاستمتاع بالطعام والمرح . ولم يكن

مزهواً بنفسه ؛ وكان يستوقف الناخبين ليطلب إليهم أن يعطوه أصواتهم فى الانتخاب ، وينوب عن أصحابه من المحامين فى القضايا . وكان إذا دخل رومة أو خرج منها يفعل ذلك فى السر لأنه يبغض مظاهر الأبهة ، وهو لا يظهر فى نقش أراپاسيز Ara Pacis مميزاً عن غيره من المواطنين بأية علامة من علامات الامتياز ، وكانت استقبالاته الصباحية مباحة لجميع المواطنين ، وكان يستقبلهم كلهم بالبشاشة والترحيب . ولما تردد أحد الناس فى أن يعرض عليه ملتمساً ، لامه مازحاً بقوله إنه يعرض عليه وثيقته «كأنه يقدم فلساً لفيل(٣٧) » .

ولما بلغ سنى الشيخوخة ، وأحفظته الخيبة ، واعتاد عظم السلطة ، بل اعتاد الألوهية ، تبدلت حاله فخرج عن تسامحه ، واضطهد أعداءه من الكتاب ، وصادر التواريخ التى تسرف فى الانتقاد ، وأصم أذنه عن سماع أشعار أوفد التى يقول فيها إنه تاب وأناب ، ويقال إنه أمر فى يوم من الأيام أن تكسر ساقا ثالس Thallus أمين سره لأنه أخذ خمسمائة دينار ليبوح بما يحتويه أحد الخطابات الرسمية ، وإنه أرغم أحد محرريه على الانتحار حين تبين له أنه زنى برومانية متزوجة . وقصارى القول أن الإنسان إذا نظر إلى أخلاقه فى جملتها لم يكن من السهل عليه أن يحبه ؛ وإن من واجبنا أن نتصور ما كان يعانيه من ضعف الجسم وما قاساه فى شيخوخته من أحزان قبل أن تتفتح قلوبنا له كما تتفتح لقيصر المقتول أو لأنطونيوس المغلوب .

الفصل السادس

آخر أيام أغسطس

تكاد مآسى أغسطس وهزائمه كلها أن تكون فى داخل بيته . وأول ما نذكره من هذه المآسى أنه لم يرزق من زوجاته الثلاث — كلاديا وأسكربونيا وليڤيا — إلا طفلة واحدة ! ذلك أن أسكربونيا قد ثأرت لطلاقها منه على غير علم منها بأن ولدت له يوليا Julia . وكان يأمل أن تلد له ليڤيا ولداً ينشئه ويعلمه أساليب الحكم ، ولكن زوجها بأغسطس قد تكشف لسوء حظه عن زواج عقيم ، وإن كانت قد كافأت زوجها الأول بأن أنجبت له ولدين عظيمين هما تيبريوس ودروسس . وإذا استثنينا هذا العقم فقد كانت هى وأغسطس سعيدين بهذا الزواج ؛ فقد كانت هى ذات جمال وجلال ، وخلق مكين وذكاء عظيم ؛ وكان أغسطس يعيد على مسامعها أنباء أهم ما يعتزم القيام به من الأعمال ، ولم يكن تقديره لمشورتها ينقص عن تقديره لمشورة أرجح أصدقائه عقلا . وسئلت مرة كيف صار لها عليه هذا النفوذ العظيم ، فأجابت بقولها إن سبب ذلك أنى « عفيفة إلى أقصى حدود العفة . . . لا أتدخل مطلقاً فى شئونه ، وأنى كنت أدعى أنى لم أر خليلاته ولم أسمع شيئاً عنهن أو عما كان بينه وبينهن من وقائع غرامية (٣٨) » . وكانت مضرب المثل فى الفضائل القديمة ، ولعلها كانت تسرف فى الإصرار على الدعاية لهذه الفضائل . وكانت تقضى أوقات فراغها فى أعمال البر ؛ فتساعد الآباء ذوى الأسر الكبيرة ، وتهب البائنات للعرائس الفقيرات ، وتنفق على كثير من اليتامى من مالها الخاص . وكان قصرها نفسه أشبه بملجأ للأيتام ؛ ذلك أن أغسطس كان يشرف فى هذا القصر وفى قصر أخته أكتاڤيا على تربية أحفاده ؛ وأبناء إخوته وأخواته ، وبناتهن ، وحتى على أبناء أنطونيوس الستة

الذين بقوا أحياء . وكان يرسل الذكور فى سن مبكرة إلى الحروب ، ويعنى بتعليم البنات الغزل والحياكة ، « ويحرم عليهن أن يفعلن أو يقلن شيئاً خفية ، إن كان مما يصح أن يسجل فى يومية المنزل »(٣٩) .

وأحب أغسطس دروسس ابن ليفيا ، وتبناه ورباه ، وكان يسره أن يورثه ثروته وملكه ، وكان موت هذا الفتى فى شبابه من أولى مآسى الأمبراطور . أما تيبريوس فقد كان يحترمه ولكنه لا يحبه ، ذلك بأن تيبريوس خليفة أغسطس كان صلفاً مفرطاً فى ثقته بنفسه ، ينزع إلى الكآبة والخفاء . ولا شك فى أن جمال ابنته يوليا وخفة روحها قد متعاه بالكثير من أوقات السعادة فى أيام طفولتها. ولما بلغت الرابعة عشرة من عمرها أقنع أكتافيا بأن تسمح بطلاق ابنها مارسلس من زوجته ، وأغرى الشاب بأن يتزوج يوليا ؛ ولكن مارسلس توفى بعد سنتين من هذا الزواج ؛ وبعد أن حزنت عليه يوليا حزناً قصير الأجل شرعت تستمتع بحرية طالما تاقت نفسها إليها . غير أن الإمبراطور الشديد الولع بعقد عقود الزواج لم يلبث أن حمل أجريا على كره منه على أن يطلق زوجته ويقترن بالأرملة المرحة (٢١ ق . م) راجياً أن يثمر هذا الزواج حفيداً له يرثه بعد وفاته . وكانت يوليا وقتئذ فى الثامنة عشرة من عمرها ، أما أجريا فكان فى الثانية والأربعين ، ولكنه كان رجلا صالحاً عظيما وكان له من الثروة ما يحبب الناس فيه . وقد جعلت يوليا بيته فى المدينة ندوة للمرح والفكاهة ، وأضحت هى روح الشباب المرح فى العاصمة « على نقيض ليفيا التى كانت تتزعم طائفة المتزمتين . وانطلقت الألسن تتهم يوليا بخيانة زوجها الجديد وتعزو إليها جواباً غير معقول عن سؤال غير معقول كذلك . فقد قيل إنها سئلت لم كان أبناؤها الخمسة الذين ولدتهم لأجريا مشابهين له فأجابت : « إنى لا أقبل راكباً قط إلا إذا كانت السفينة قد امتلأت Munquam nisi nave plena tollo vectorem »(٤٠) . ولما ماتت أجريا عقد أغسطس آماله على ولدى يوليا الأكبرين جيوس واوسيوس وعمرها

بحبه ، وعنى بتربيتهما ، وأمر بترقيتهما إلى منصبين كبيرين لا تجيز قوانين البلاد ترقيتهما إليهما فى مثل سنهما . وأضحت يوليا أرملة مرة أخرى ، وكانت أبرع جمالا وأكثر ثراء من ذى قبل ، فاندفعت مستهترة فى كثير من مغامرات العشق أطلقت فيها ألسنة أهل رومة وجعلتها موضع تندرهم ولهوهم ، وخففت عنهم ما كانوا يجدونه من الضيق بسبب « القوانين اليوليوسية » . وأراد أغسطس أن يقطع ألسنة السوء عن الولوغ فى عرضه ولعله أراد أيضاً أن يزيل ما بين زوجته وابنته من شقاق فزوجها مرة ثالثة ، فأرغم تيبيريوس ابن ليفيا على أن يطلق زوجته الحامل ڤبسانيا أجربينا Vipsania Agrippina ، ابنة أجرپا ، وأن يتزوج يوليا التى لم تكن أقل منه كرهاً لهذا الزواج (٩ ق . م) . وبذل هذا الشاب — وكان من الطراز الرومانى القديم — غاية جهده لكى يكون زوجاً صالحاً ، ولكن يوليا لم تلبث أن امتنعت عن بذل أى جهد للتوفيق بين حياتها الأبيقورية وحياته الرواقية ، وعادت إلى مغامرات الحب الخفية . وصبر تيبيروس على هذه الفضائح وكظم غيظه إلى حين ؛ وكان قانون يوليا الخاص بالزانيات Lex Julia de adulteriis يطلب إلى زوج الزانية أن يشكوها إلى الحاكم ؛ ولكن تيبيريوس عصى هذا القانون لكى يرد الأذى عن واضعه ، ولعله أراد بذلك أيضاً أن يرد الأذى عن نفسه ، لأنه هو وليڤيا كانا يأملان أن يتبناه أغسطس ، وأن يوليه زعامة الإمبراطورية من بعده . ولما تبين أن الإمبراطور يؤثر عليه أبناء يوليا من أجرپا اعتزل مناصبه الرسمية ، وآوى إلى رودس ، وعاش فيها سبع سنين معيشة الرجل العادى البسيط قضاها فى الوحدة والفلسفة والتنجيم . وخلا الجو ليوليا ، وكان لها من الحرية ما لم تستمتع به قط من قبل فأخذت تتنقل من عشيق إلى عشيق حتى كان قصف عشاقها ومرحهم يملآن السوق العامة صخباً وضجيجاً طوال الليل[41] .

وقاسى أغسطس وقتئذ (٢ ق . م) ، وهو شيخ محطم فى الستين من عمره ،

كل ما يقاسيه أب وحاكم يشهد بعينيه انهيار أسرته وشرفه وشرائعه .
وكانت هذه القوانين تحتم على أبي الزانية أن يتهمها بالزنى علناً إذا لم يقم زوجها بهذا الاتهام . وقد عرضت عليه أدلة قاطعة على سوء سلوكها ، ولما أعلن أصدقاء تيبريوس أنهم سيتولون هم اتهام يوليا أمام الحاكم إذا لم يتهمها أغسطس ، قرر أن يسبقهم إلى العمل ؛ فأصدر قراراً بنفي ابنته الى جزيرة پندتيريا Pandateria ، وهي صخرة جرداء بالقرب من شاطئ كمپانيا ، في الوقت الذي بلغ فيه مرحها وفسادها ذروتهما ، وأرغم أحد عشاقها وهو ابن من أبناء أنطونيوس أن ينتحر ، ونفى عددا آخر من العشاق خارج البلاد . وقتلت فوبي Phoebe إحدى معتوقات يوليا نفسها شنقاً مفضلة ذلك على الشهادة عليها . ولما سمع الوالد المنكوب بهذا النبأ قال : « وددت لو أني كنت والد فوبي ولا أكون والد يوليا »

وكان ولداها جيوس ولوسيوس قد سبقاها إلى الدار الآخرة بزمن طويل ؛ فأما لوسيوس فقد توفى مرسيليا في العام الثاني قبل الميلاد على أثر مرض من الأمراض ، وأما جيوس فقد مات من جرح أصيب به في أرمينية (٤ ب . م) . وألفى أغسطس نفسه في شيخوخته من غير أنيس ولا وريث ، في الوقت الذي كانت فيه ألمانيا ، وپانونيا ، وغالة تهدد بالانتقاض عليه ، فأضطر على الرغم منه إلى استدعاء تيبريوس (٢ ب.م) ، وتبناه ، وأشركه معه في الحكم ، وأرسله لإخماد نار الثورة ؛ ولما عاد في العام التاسع بعد الميلاد بعد حروب طاحنة مظفرة دامت خمس سنين أقرت رومة ، وكانت تحقد عليه لتزمته ، بأن تيبريوس قد شرع يحكم البلاد بحق وإن كان أغسطس لا يزال زعيمها .

وبعد فإن آخر مآسي الحياة أن تدوم مأساتها على الرغم من صاحبها — أي أن يعيش الإنسان بعد أن يخسر كل شيء ، وأن يحرم حتى من الموت . ولم يكن أغسطس ، إذا نظرنا إلى عدد السنين وحده ، قد بلغ أرذل العمر حين أخرجت يوليا من البلاد ، فقد كان غيره من الرجال وهم في سن الستين أقوياء

أشداء ؛ أما هو فقد حي أكثر من حياة ، ومات أكثر من ميتة ، مذ جاء إلى رومة غلاماً في الثامنة عشرة من عمره ليثأر لمقتل قيصر وينفذ وصيته . وكم من حرب خاض غمارها من ذلك الحين ، وكم من هزيمة أوشكت أن تحيق به ، وما أكثر ما عانى من آلام وأمراض وتعرض لمؤامرات وأخطار ، وما أكثر ما شاهد من مرارة الخيبة ، وانهيار أغراضه النبيلة وتبددها ؛ وقد حدث له كل ذلك في فترة لا تزيد على أربعين عاماً ، ملئت كلها بالآلام والمنغصات ، ورأى فيها آماله تضيع أملاً بعد أمل ، وأعوانه يختطفون منه واحداً بعد واحد ، حتى اختطف منه آخر الأمر تيبريوس العنيد الشجاع نفسه ! ولعله كان يرى وقتئذ أنه كان خيراً له وأحكم أن يموت ميتة أنطونيوس في أوج العظمة وبين ذراعي حبيبته . وما من شك في أنه كان يتحسر إذا ما عاد بذاكرته إلى تلك الأيام الجميلة ، حين كان قلبه يفيض بالسعادة إذا رأى يوليا وأجربا من حوله ، أو شاهد أحفاده يمرحون ويلعبون في أرض قصره . وها هو ذا يرى يوليا أخرى ابنة ابنته قد شبت عن الطوق وأخذت تسير سيرة أمها ، كأنها أخذت على نفسها أن توضح للناس جميع ما ورد في أشعار صديقها أوفد من أفانين العشق . ولما جاءت أغسطس الأدلة القاطعة على أنها زانية نفاها في عام ٨ ب . م إلى جزيرة في البحر الأدرياوي ، ونفى أوفد في الوقت نفسه إلى تومي Tomi على شاطئ البحر الأسود؛ ويروى أن الإمبراطور اليائس الضعيف قال وقتئذ : « يا ليتني لم أتزوج قط ، أو ياليتني مت دون أن يكون لي ولد ! » وقد فكر في بعض الأحيان أن يميت نفسه جوعاً

ولاح له أن الصرح العظيم الذي شاده قد انهار من أساسه ، ذلك أن السلطات التي اضطلع بها لكي يحفظ الأمن والسلام في ربوع البلاد قد أضعفت مجلس الشيوخ والجمعيات التي استمد منها هذه السلطات ، حتى فقدت كل مقومات الحياة . فقد مل الشيوخ التصديق على ما يطلب إليهم التصديق عليه كما ملوا إطراء أغسطس وتملقه ، فلم يعودوا يحضرون الجلسات . وأما الجمعيات فلم تكن يجتمع فيها إلا حفنة من المواطنين ، وأصبح الموظفون الأكفاء ينفرون من المناصب التي

كانت من قبل تستثير مطامع الرجال المبدعين المبتكرين بما تخلعه عليهم من الجاه والسلطان ، وأضحى هؤلاء يرونها من دواعي الغرور الكاذب الكبير الأكلاف . وحتى السلم التي بسط أغسطس لواءها على البلاد ، والأمن الذي وطد دعائمه في رومة ، قد أضعفا قوى الشعب وأوهنا عزيمته ، فلم يكن أحد يرغب في الانضمام إلى الجيش ، أو يعترف بأن الحرب شر محتوم ، وأن لابد من خوض غمارها من آن إلى آن ؛ وحل الترف محل البساطة في العيش ، والعلاقات الجنسية الطليقة محل الأبوة والأمومة ، وأخذ الشعب العظيم يسير مسرعاً بإرادته المضمحلة المنهوكة في طريق الفناء .

وكان الإمبراطور الشيخ يشهد هذه المآسي ويشعر بها ويدركها حق الإدراك . ولم يكن في وسع أحد من الناس أن يقول له وقتئذ إن الزعامة العجيبة الحاذقة التي أنشأها ستهب الإمبراطورية الرومانية أطول فترة من الرخاء عرفها البشر في تاريخهم كله ، وإن السلم الرومانية التي بدأت في صورة السلم الأغسطسية ستعد في عصور التاريخ المقبلة أجل الأعمال في تاريخ الحكم والسياسة رغم ما فيها من العيوب الكثيرة وعلى الرغم من أنه قد جلس على العرش في أثنائها بضعة ملوك بلهاء . لقد كان أغسطس وقتئذ يعتقد ، كما يعتقد ليوناردو دافنشي ، أنه أخفق فيما كان يبتغيه .

ووافته المنية وهو هادئ ساكن في نولا Nola ، وكان قد بلغ السادسة والسبعين من عمره (١٤ ب . م) ، وقال لأصدقائه الذين التفوا حوله وهو على فراش الموت تلك الكلمات التي طالما اختتمت بها الملهاة الرومانية : « والآن وقد أتقنت تمثيل دوري ، فصفقوا بأيديكم وأخرجوني من المسرح بتصفيقكم » ، ثم عانق زوجته وقال لها : « تذكري عشرتنا الطويلة يا ليفيا . الوداع ! » .

ثم فاضت روحه بعد هذا الوداع البسيط[٤٢] . وبعد بضعة أيام من وفاته حملت جثته في شوارع رومة على أكتاف الشيوخ إلى ميدان المريخ حيث أحرقت بينما كان أطفال كبار الأسر في البلاد يرتلون ندبة الأموات .

الباب الثاني عشر

العصر الذهبي

٣٠ ق . م — ١٨ م

الفصل الأول

الحافز الأغسطي

إذا كان الأمن والسلام أكثر ملاءمة لإنتاج الآداب والفنون من الحروب والقلاقل ، فإن الحرب والهزات الاجتماعية العنيفة تزيل الثرى من حول نبات الفكر ، وتغذى البذور التي تنضج فى أوقات السلم . والحياة الهادئة لا تخلق الأفكار العظيمة ولا عظماء الرجال ، ولكن الأزمات القاسية والكفاح من أجل البقاء تقتلع موات الأشياء من جذورها وتعجل نماء الآراء والأساليب الجديدة . والسلم التي تعقب النصر فى الحرب فيها من الحوافز والدوافع ما فى دور النقاهة السريع من حيوية وقوة ، والناس فى هذه الفترة يبتهجون لمجرد أنهم أحياء وكثيراً ما يرفعون عقيرتهم بالغناء .

حمد الشعب لأغسطس أنه عالج سرطان الفوضى الذى كان يقوض دعائم حياتهم المدنية وإن كان قد استعان على ذلك بجراحة كبرى . وقد دهشوا حين ألفوا أنفسهم وقد أثروا إثراء سريعاً بعد ما حل بهم من الخراب ، وتاهوا كبرياء حين وجدوا أنهم ، رغم ما كانوا يرزحون تحته منذ قليل من ضعف واضطراب ، لا يزالون سادة العالم المعروف لهم . وأخذوا يعودون بنظرهم إلى تاريخهم ، من بدايته إلى الوقت الذى يعيشون فيه ، من عهد منشئ روما الأول إلى عهد معيد

حياتها ومجدها ، وقالوا إنه تاريخ عجيب حقا ، وإنه أشبه ما يكون بملحمة شعرية . ولم يثر دهشتهم أن يصوغ فرچيل وهوراس حمدهم ومجدهم وزهوهم شعرا ، وأن يصوغه ليڤى نثراً .

وخير من ذلك كله أن الأقاليم التى فتحوها إلا القليل منها لم يكن يسكنها أقوام همج غير متحضرين ، فقد كان جزء كبير منها يشمل البلاد التى تثقفت بالثقافة اليونانية — فكانت ذات لغة رقيقة ، وأدب سام ، وعلم عظيم ، وفلسفة ناضجة ، وفن نبيل . وأخذت هذه الثروة الروحية وقتئذ تتدفق على رومة ، وتثير فى أهلها الرغبة فى تقليدها ومنافستها ، وتبعث فى لغتها وآدابها الحياة والنماء ، فسرت إلى المفردات اللاتينية عشرة آلاف كلمة يونانية ، ودخلت الأسواق الرومانية عشرة آلاف تمثال ونقش وهيكل وشارع وبيت .

وأخـــذت الأموال تنتقل إلى غير الطبقات العليا ، وإلى الشعراء والفنانين ، من أيدى الذين استولوا على كنوز مصر ، ومن ملاك الأراضى الإيطالية الغائبين عنها ، ومن الذين يستغلون موارد الإمبراطورية وتجارتها . وشرع الكتّاب يهدون مؤلفاتهم إلى الأغنياء يرجون بذلك أن ينالوا أعطية تعينهم على مواصلة أعمالهم الأدبية ، فأهدى هوراس أغانيه إلى سالست ، وإيليوس لاميا Aelius Lamia ومانليوس تركواتس Manilius Turquatus ومو ناتيوس Munatius ، وجمع مسالا كورڤينوس Messala Corvinus حوله طائفة من المؤلفين كان نجمهم اللامع تيبلس Tibullus ، واستعاد ماسناس ثروته وقيمة شعره بما قدمه من العطايا لفرچيل وهوراس وپروپرتيوس Propertius ؛ وظل أغسطس حتى سنيه الأخيرة التى استولى عليه فيها الاضطرب والغيظ يجزل العطاء للأدباء ، فكان يسره أن تتحول إلى الآداب والفنون تلك القوى التى كانت سبباً فى اضطراب السياسة ، فكان يجزل العطاء للمؤلفين ليؤلفوا الكتب ، إذا ما تركوه يحكم الدولة كما يشاء . وقد ذاعت أنباء سخائه على الشعراء فاجتمعت حوله طائفة كبيرة منهم تسير فى ركابه أينما سار .

وأصرّ شاعر يونانى على أن يتعقبه كلما خرج من قصره كل يوم ، يعرض عليه أبياتاً من الشعر ، فما كان منه فى يوم من الأيام إلا أن وقف وهو خارج من القصر وكتب وهو بعض أبيات من عنده ، وأمر أحد أتباعه أن يضعها فى يد الشاعر اليونانى ، فعرض الشاعر عليه بضعة دنانير وقال إنه يأسف لأنه لا يستطيع أن يقدم له أكثر منها ، فأجازه قيصر على فكاهته لا على شعره بمائة ألف سسترس[1] .

ونُشر من الكتب فى ذلك الوقت ما لم ينشر مثله فى أى عهد من العهود الماضية . أما الشعر فأصبح عمل كل إنسان فيلسوفاً كان أو أبله[2] . وإذ كان المقصود بالشعر كله وبمعظم الكتب أن يقرأ على الناس بصوت عال ، فقد كانت تعقد الاجتماعات من الأصدقاء الذين يدعون لهذا الغرض ، أو من الجماهير ليقرأ عليهم المؤلفون ثمار قرائحهم . وكان يحدث فى أوقات التسامح ، وهى نادرة ، أن يقرأ المؤلفون هذه الثمار بعضهم على بعض . وكان جوفنال Juvenal يقول إن من الأسباب التى تضطره لسكنى الريف هو أن يفر من الشعراء الذين تزدحم بهم رومة[3] . وكان الكتاب يجتمعون فى محال بيع الكتب التى يزدحم بها حى الأرجليتم Argiletum ليحصوا عدد من أنجبتهم البلاد من عباقرة الأدب ، بينا كان المفلسون من محبى الكتب يقرؤون خلسة نتفاً من الكتب التى يعجزون عن شرائها . وكانت الإعلانات تلصق على الجدران معلنة أسماء الكتب الجديدة وأثمانها . فكان المجلد الصغير يباع بأربعة سسترات أو خمسة ، والمجلد المتوسط يباع بعشرة (نحو ريال أمريكى ونصف ريال) ؛ أما الكتب الأنيقة كحكم مارتيال Martial والتى كانت تزين فى الغالب بصور مؤلفيها فكان الواحد منها يباع بخمسة دنانير أو نحوها (٣ ريالات[4]) . وكانت الكتب تصدر إلى جميع أنحاء الإمبراطورية أو تنشر فى رومة ، وليون ، وأثينة والإسكندرية فى وقت واحد[5] . وقد اغتبط مارتيال

من أن كتابه يشترى ويباع فى بريطانيا . وكان لمعظم الناس فى ذلك الوقت حتى الشعراء أنفسهم مكتبات خاصة . ويصف أوفد مكتبته وصفاً ينم عن تعلقه بها . ويستدل من أقوال مارتيال على أن المولعين باقتناء الكتب قد وجدوا حتى فى ذلك العهد السحيق ، فكانوا يجمعون النسخ الأنيقة الفخمة والمخطوطات النادرة ؛ وقد أنشأ أغسطس دارين من دور الكتب العامة ، وحذا حذوه تيبريوس ، وفسبازيان ، ودومتيان Domitian ، وتراجان ، وهدريان ، فلم يحل القرن الرابع قبل الميلاد حتى كان فى رومة وحدها ثمان وعشرون من هذه الدور . وكان الأجانب من الطلاب والكتاب يقبلون عليها وعلى المحفوظات العامة للدرس والبحث ؛ فأقبل ديونيشيوس من هليكرنسس Halicarnassus ، وديودوز من صقلية وأخذت رومة تنافس الإسكندرية فى الحياة العلمية ، وأضحت العاصمة الأدبية للعالم الغربى .

وكان هذا الازدهار سبباً فى تحول الأدب والمجتمع كله عما كان عليه من قبل ، فعلت مكانة الآداب والفنون ، وأخذ النحاة يحاضرون عن الأحياء من المؤلفين ، وكان الناس ينشدون مقطوعات من أقوالهم فى الطرقات ، والكتاب يختلطون بكبار الحكام وبنساء الطبقات العالية فى الندوات الخاصة إلى حد لم يشهد التاريخ له نظيراً من بعد إلا فى عصر ازدهار الآداب فى فرنسا . وأضحى الأشراف أنفسهم رجال أدب ، كما أضحى الأدب نفسه أرستقراطياً ، وحل محل فجورلينوس ، وبلوتس ، ولكريشيوس العارم جمال رقيق أو تعقيد بغيض فى التعبير والتفكير . وامتنع الكتاب عن الاختلاط بالجماهير ، فامتنعوا بذلك عن وصف أساليبهم فى الحياة وعن التحدث بلغتهم ؛ فبدأ الأدب ينفصل عن الحياة انفصالا أفقد الآداب اللاتينية ما كان لها من حيوية . وأضحت الآداب تصاغ على الأنماط اليونانية ، كما كانت موضوعاتها تؤخذ من التقاليد اليونانية أو من بلاط أغسطس . وكان الشعراء إذا بقى لديهم وقت بعد وصف الرعاة على نحو ما كان يفعل ثيوكريتس ، أو الحب كما كان يفعل أناكريون Anackreon ،

يقضونه فى التغنى بجمال الزرع وبفضائل الآباء ، ومجد رومة وعظمة الآلهة . وسار الأدب فى ركاب الحكم ، وأضحى مواعظ تدعو الأمة إلى الاستمساك بالأفكار الأغسطية .

وكانت فى البلاد قوتان تقاومان تسخير الأدب لخدمة الدولة على النحو السالف الذكر . أولاهما « جموع هوراس البغيضة الدنسة » التى كانت تحب الأدب القديم والمسرحيات القديمة وما فيهما من هجو لاذع وتجريح وتفضلهما على جمال الأدب الجديد المعطر المنمق . أما القوة الثانية فكانت دنيا الأراذل والعاهرات ، دنيا المرح والرذيلة ، التى كانت تنتمى إليها كلوديا ويوليا . وقد ثارت هذه الفئة الغنية ثورة جامحة على القوانين اليوليوسية ، وكانت تعارض كل إصلاح خلقى ، وكان لها شعراؤها ، ومجامعها ومعاييرها الأخلاقية والاجتماعية . وأخذت القوتان المتعارضتان تتطاحنان فى الأدب كما تتطاحنان فى الحياة ، فتلتقيان تارة كما التقتا فى تيبلس ، وپروبرتيوس ، وتقاومان تق ڤرچيل وعفته ببذاءة أوفد وجرأته ، وتقضيان على يوليا وابنتها(*) وعلى شاعر بالنفى من البلاد ، وتظلان فى هذا التطاحن حتى تنهك كلتاهما الأخرى العصر الفضى . ولكن ضمائر الأحداث العظيمة ، وما هيأته الثروة والسلم للناس من فراغ أطلق قرائحهم ، وعظمة العالم الذى كان يدين لرومة بالطاعة ، كل هذا قد غلب على ما فى طبيعية الدولة من جمود ، وأنتج عصراً ذهبياً ظل الناس فى مستقبل الأيام يرون أنه أخرج أكمل الأدب طرا فى صورته ولفظه .

(*) يقصد يوليا ابنة أغسطس وابنتها يوليا . (المترجم)

الفصل الثاني

ڤرچيل

ولد ڤرچيل أحب الرومان إلى القلوب فى عام ٧٠ق . م فى ضيعة قرب منتوا Mantua حيث يتعرج نهر منسيو Mincio ويتجه على مهل نحو البو . ولم تنجب العاصمة من بعده إلا عدداً جد قليل من العظماء ، فقد كانوا فى القرن الذى تلا مولد هذا الشاعر والذى ولد المسيح فى منتصفه يجيئون من إيطاليا ، ثم جاءوا فيما بعد ذلك من الولايات . ولعل الدم الكلتى كان يجرى فى عروق ڤرچيل لأن الغاليين سكنوا منتوا قبل مولده بزمن طويل . وكان هو من الوجهة القانونية غالىّ المولد لأن أهل غالة الجنوبية لم يمنحوا حق المواطنية الرومانية على يد قيصر إلا بعد مولده باثنين وعشرين عاماً . ولعل هذا هو الذى جعل هذا الشاعر الذي كان أفصح من تغنى بعظمة رومة ومصيرها لا يذكر فيما بعد شيئاً مما يتصف به الجنس الرومانى من قوة فى الجسم وقدرة على مغالبة الصعاب ، بل يتغنى بما فى خلق الكلت من تصوف ورقة ورشاقة ، وهى صفات قل أن يجـــدها الإنسان فى العنصر الرومانى الأصيل .

وكان والده كاتب محكمة ، فادخر من مرتبه ما يكفى لشراء ضيعة وتربية النحل فيها ، وقضى الشاعر طفولته فى هذه البيئة الهادئة الطنانة ، ولذلك ظلت أشجار الشمال الظليلة ومياهه الغزيرة عالقة بخياله بعد أن شب وترعرع ، ولم يكن يحس بالسعادة الحقة إلا بين تلك الحقول والمجارى المائية . ولما بلغ الثانية عشرة من عمره أرسل إلى المدرسة فى كرمونا Cremona ، ثم أرسل فى الرابعة عشرة إلى ميلان ، وفى السادسة عشرة إلى رومة ، وهنا درس البلاغة وما يتصل بها من الموضوعات على الرجل الذى درسها عليه أكتاڤيان

فيما بعد : والراجح أنه حضر بعدئذ محاضرات سيرو Siro الأبيقورى فى نابلى ، وبذل غاية جهده ليتقبل فلسفة اللذة ، ولكن نشأته الريفية حالت بينه وبين هذا الهدف ، ويلوح أنه عاد إلى موطنه فى الشمال بعد أن أتم دراسته ، وذلك لأننا نجده فى العام الرابع بعد الميلاد يسبح فى الماء لينجو بحياته من جندى اغتصب ضيعة أبيه ؛ فقد صادرها أكتافيان وأنطونيوس لأن هذه البلاد انتصرت إلى أعدائهما . وحاول أسنيوس پليو Asinius Pollio العالم وحاكم غالة الإيطاليةأن يرد الضيعة إلى مالكها ولكنه عجز ، فعوضه عن ذلك بأن تولى رعاية الشاب ڤرچيل وشجعه على الاستمرار فى كتابة « المختارات Eclogues » وهي القصائد التي كان ينشئها فى ذلك الوقت .

ولم يكد يحل عام ٣٧ حتى كان اسم ڤرچيل على كل لسان فى رومة . ذلك أن المختارات نشرت قبيل ذلك الوقت وتقبلها أهل رومة بقبول حسن ، وكانت إحدى الممثلات قد أنشدت أبياتها على المسرح ، وصفق لها النظارة تصفيقاً ملؤه الحماسة والإعجاب[٦] . وموضوع القصائد هو وصف الرعى والرعاة على نمط قصائد ثيوقريطس Theocritus ، ونجد فيها أحياناً ألفاظها نفسها ؛ وهى جميلة الأسلوب والتوقيع وأنغامها أجمل الأنغام السداسية الأوزان التى استمعت لها رومة فى تاريخها كله ، وهى مليئة بالحنان التأملى ، والحب التخيلى . ذلك أن الشاب وإن قضى شطراً كبيراً من حياته فى العاصمة قد انفصل عنها زمناً يكفى لأن يجعله يمجد حياة الريف ويعدها المثل الأعلى للحياة الحقة . وكان من أثر شعره أن أصبح كل إنسان يسره أن يتخيل نفسه راعيا يسير مع قطعانه على سفوح الأپنين صاعداً أو نازلا ، ويحطم قلبه بالحب وصد الحبيب .

وكان أكثر واقعية من هذه الأشباح الثيوقريطية(*) ما كان فى شعر ڤرچيل

(*) أى الشبيهة بالأشباح التى يصفها فى شعره ثيوقريطس شاعر الرعاة اليونانى الذى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد . (المترجم)

من وصف للمناظر الريفية . وقد مجد ڤرچيل هذه المناظر أيضاً كما مجد مناظر الرعي واتخذها هي الأخرى مثلا أعلى للحياة ؛ ولكنه هنا لم يكن مقلداً ، فقد استمع من قبل إلى أغاني الحطاب الشهوانية ، وشهد بعينيه النحل القلق يحوم حول الأزهار[٨] ، وعرف يأس الزارع الخلي البال الذي خسر أرضه كما خسر آلاف الناس أراضيهم في تلك الأيام[٩] . على أن أهم من هذا كله أنه كان شديد الإحساس بما كان يرتجيه ذلك العصر من القضاء على التخرب والحرب . وكانت الكتب السبيلية Sibylline قد تنبأت بأن عصر زحل الذهبي سيعود مرة أخرى بعد العصر الحديدي ؛ ولما أن ولد في عام ٤٠ ق . م ولدٌ لأسينيوس پليو نصير ڤرچيل أعلن الشاعر في الكتاب الرابع من *المختارات* أن مولده سيكون بداية المدينة الفاضلة فقال :

والآن يعود العصر الأخير الذي (يبشر به) نشيد كومية (سبيل) ، وها هي ذي الأحقاب العظيمة المتعاقبة تولد من جديد وتعود العذراء(*) ، ويعود حكم زحل (Saturn) وينزل من السماء العليا جيل جديد ؛ أي لوسينا الطاهرة العفيفة (ربة المواليد) ! ابتسمي للغلام الذي ولد منذ قليل ، والذي سيزول في عهده لأول مرة جيل الحديد ، وينشأ في العالم جيل الذهب . إن إلهك أپلو قد أصبح الآن ملكا على الأرض » .

وتحققت هذه النبوءات بعد عشر سنين من ذلك الوقت ، فتخلص الناس من عدد الحرب الحديدية ، وسيطر على البلاد جيل جديد مسلح بالذهب ومفتون به ؛ ولم تشهد رومة في السنين القليلة الباقية من حياة ڤرچيل اضطرابات جديدة ، وعمها الرخاء والسعادة ، وحيا الناس أغسطس ولقبوه بالمنقــذ وإن لم يلقبوه أپلون . ورحب بلاط الإمبراطور — وإن لم يكن فيه من مظاهر العظمة والأبهة إلا نصف ما في بلاط الملوك —

(*) هي أسترئيا Astraea أو العدالة ، وهي آخر من غادر الأرض من الآدميين كما ورد في أسطورة عصر زحل . (المترجم)

بما فى شعر ڤرچيل من تفاؤل ؛ واستقدمه إليه ماسيناس ، وأحبه ، ورأى فيه أداة شعبية ينفذ بها إصلاحات أكتاڤيان . وكان حكمه هذا دليلا على بعد نظره ؛ ذلك أن ڤرچيل — وكان فى الثالثة والثلاثين من عمره — كان يبدو وقتئذ رجلا ريفياً سمحاً ، شديد الحياء إلى حد يجعله يتلعثم إذا تكلم ، يتجنب الظهور فى أى مكان عام يمكن أن يعرفه الناس فيه ويشيروا إليه ، لا يطيق مجتمعات رومة الراقيـــة الحديثة المهذارة المتطاولة . وفوق هذا فقد كان ڤرچيل معتل الجسم كأغسطس بل أكثر منه اعتلالا ، يشكو شكوى مستمرة من الصـــداع وأمراض الحلق ، واضطرابات المعدة والبصاق الدموى الكثير . ولم يتزوج ڤرچيل قط ، ويلوح أنه لم يكن أكثر إحساساً بالحب العارم الطليق من بطلة إنياس . ويبدو أنه أتى عليه حين من الدهر كان يواسى نفسه فيه بالعطف على غلام من الرقيق ؛ أما فيما عدا هذا فقد كان معروفاً فى ناپلى باسم « العذراء »(١٠) .

وكان ماسناس كريماً فى معاملة الشاعر الشاب ، فأقنع أكتاڤيان بأن يرد له ضيعته ، واقترح على الشاعر أن يكتب عدة قصائد يمجد فيها الحياة الزراعية . وكانت إيطاليا فى ذلك الوقت (٣٧ ق . م) تجزى أشد الجزاء على تحويل كثير من أرضها الزراعية إلى مراع وبساتين ، وكروم ؛ وكان سكستس پمپى يمنع عنها الطعام الذى يرد من صقلية وأفريقية ؛ ونقص القمح ينذرها بانفجار بركان الثورة من جديد . وكانت حياة المدن توهن ما فى شباب إيطاليا من رجولة ، ولاح أن صحـــة الأمة من جميع نواحيها تتطلب العودة إلى حياة الزرع . فلما اقترح ماسيناس على ڤرچيل أن يكتب القصائد التى تمجد الزرع أجاب الشاعر الطلب من فوره ، فقد كان عليما بحياة الريف ، وكان أجدر الناس بتصوير ما فيها من جاذبية وجمال معتمداً على ما اختزنه فى ذاكرته من حب لها عظيم ، وإن كان ضعف صحته فى ذلك الوقت يحول بينه وبين احتمال ما فيها من صعاب . وخبأ

الشاعر نفسه في نابلي ، وبعد أن ظل يعمل سبع سنين خرج على العالم بأعظم ما أنشأه من القصائد وهي القصيدة المعروفة باسم Georgics وترجمتها الحرفية « العمل في الأرض » . وسر منها ماسيناس وجاء معه بفرچيل إلى الجنوب ليقابل أكتاڤيان ، وكان وقتئذ (٢٩ ق . م) عائداً من انتصاره على كليوبطرة . واستراح القائد المظفر في بلدة أتلا Atella الصغيرة ، وأخذ يستمع أربعة أيام كاملة لألفى بيت ، وهو مأخوذ بجمالها مفتتن بسحرها . هذا إلى أن القصائد تتفق مع سياسته اتفاقاً يفوق كل ما كان يتوقعه ماسيناس. فقد كان يعتزم الآن أن يسرح الجزء الأكبر من جيوشه الجرارة التي ساد بها العالم : وأن يعمل على أن يستقر جنوده المضرسون في الأرض فيستطيع بذلك أن يهدئ بالهم ، وأن يطعم المدن الإيطالية ، ويحفظ كيان الدولة ، كل ذلك بفلح الأرض في الريف . وأصبح فرچيل من ذلك الوقت حراً في أن يفكر في الشعر دون غيره .

في هذه القصائد نرى فناناً عظيما يعالج أشرف الفنون بأجمعها — فن زراعة الأرض . وفيها يأخذ ڤرچيل عن هزيود Hesiod وأراتس Aratus ، وكاتو ، وڤارو ولكنه يحول نثرهم الخشن أو أبياتهم العرجاء إلى شعر رقيق مصقول ؛ وهو يطرق جميع فروع الفلاحة ويوفيها حقها — فيتحدث عن أنواع التربة ووسائل علاجها ، وفصول الزرع والحصاد ، ويبحث في غرس أشجار الزيتون والكروم ، وتربية الماشية والخيل والضأن ، والعناية بالنحل . ويستهويه كل عمل من أعمال الزراعة ويثير اهتمامه ويستحوذ على فكره حتى ليحتاج إلى أن يحذر نفسه من الانهماك في الموضوع الذي يتحدث عنه ونسيان ما بعده ، فيقول :

« ولكن الوقت يمر مراً سريعاً ، وما مر منه لا يمكن أن يعود أبداً ، على حين أننا نحن يسحرنا حب (موضوعنا) فنطيل الوقوف عند كل دقيقة من دقائقه » . ولا ينسى ڤرچيل أن يقول كلمة عن أمراض الحيوانات وطريقة علاجها ، ويصف حيوانات المزرعة المعروفة وصفاً يدل على فهمه

لطبائعها وعطفه عليها ، وهو لا يفرغ أبداً من الإعجاب ببساطة غرائزها وقوة انفعالاتها ، وكمال أشكالها . وهو يمجد الحياة الريفية ويجعلها هي المثل الأعلى للحياة ، ولكنه لا ينسى ما فيها من المشاق ومن تقلبات الحظوظ ، ومن الجهود المضنية ، والكفاح الدائم للحشرات ، وتناوب الجدب والعواصف ، وما تسببه هذه وتلك لأهل الريف من عذاب أليم . ولكن العمل في رأيه *يقهر كل شيء*[١٢] ، كما أن للجهود التي تبذل في أعمال الزراعة غرضاً ونتيجة تكسبانها كرامة ، وليس لأي روماني أن يشعر بالخجل من قيادة المحراث . ومن أقوال ڤرجيل إن الأخلاق الكريمة تنشأ في المزارع ، وإن جميع الفضائل التي قامت على أساسها عظمة رومة قد غرست وغذيت في الريف ، وإن الإنسان قلما يجد عملا من أعمال إلقاء البذور ووقايتها ، والغرس والعزق والحصاد إلا له ما يقابله في تنمية الروح وتقويتها ، وإن الروح إذا كانت في الحقول ، حيث معجزات النماء وتقلبات الجواء تنبئ عن وجود القوى الخفيـــة ، لتحس بوجود الحياة المبدعة الخالقة ، وتتأثر بالإلهام الإلهي ، وتدرك ضآلتها أمام عظمة هذه الحياة ، وتمتلئ إجلالا لها وتعظيما ، أسرع من إحساسها وتأثرها وإدراكها للملك كله وامتلائها به في المدينة . وهنا ينشد أشهر أبياته كلها ، ويبدؤها بترديد صدى معاني لكريشيوس ، ولكنه ينشدها بنغمة ڤرجيلية خالصة فيقول :

« ألا ما أسعد الرجل الذي استطاع أن يتعلم علل الأشياء ، ويطأ بقدمه جميع المخاوف والأقدار القاسية العنيدة وصخب الجحيم الشره . ولكن الرجل الذي يعرف الأرباب الريفية پان ، وسلڤانوس الهرم ، والأخوات الحوريات لا يقل عنه سعادة[١٣] » . وهو يرى أن الزارع على حق حين يسترضى الآلهة بالضحايا ، ويستجلب عطفها ورضاها ؛ لأن هذه الأعمال الدالة على التقى والصلاح تبعث بأعيادها وحفلاتها الضياء في أعمال الفلاحة الشاقة ، وتخلع على الأرض وعلى الحياة معنى ، وشاعرية وخيالا ذا روعة .

وكان دريدن يرى أن هذه القصائد «خير أشعار أحسن الشعراء[١٤]».
وهي تشترك مع De Rerum Natura في تلك الميزة النادرة الوجود وهي
أنها تلقينية جميلة معاً . ولم تأخذها روما بجد على أنها كتاب في الزراعة ،
ولسنا نعرف أن أحداً من قرّوها قد استبدل المزرعة بالسوق العامة ؛ ولعل
فرجيل إنما كتب هذه النفحات الريفية كما يظن سنكا ليطرب بها أهل
المدن . ومهما يكن من شيء فقد أحس أغسطس أن فرجيل أدى الأمانة
التي عرضها عليه ماسناس على خير وجه وأكمله ، فاستدعى الشاعر إلى
قصره واقترح عليه أن يقوم بواجب أشق من الأول موضوعه أوسع
وأعم من الزرع وحياة الريف .

الفصل الثالث

الإنيـــاذة

لقد كانت الفكرة الأولى أن يتغنى ڤرچيل بمعارك أكتافيان[١٥] ، ولكن ما يفترضه القدماء من انحدار قيصر ربيب أكتافيان من الزهرة (فينوس) وإنياس هو الذى جعل الشاعر — أو لعله جعل الإمبراطور — يفكر فى إنشاء ملحمة فى تأسيس رومة . ثم تفتح الموضوع أمام الشاعر ، فشمل الأحداث التى وقعت بعد تأسيس رومة ، والتنبؤ بإنشاء إمبراطورية أغسطس ، وبالسلم التى كانت أثراً من أعماله . وشمل مشروع الملحمة أيضاً وصف أخلاق الرومان فى أثناء هذه الأعمال المجيدة ، والسعى نبث حب الفضائل القديمة فى قلوب الرومان ، وتصوير بطلها فى صورة الإنسان الذى يعظم الآلهة ، ويهتدى بهديها ، ويدعو إلى الإصـــلاحات والمبادئ الأخلاقية التى دعا إليها أغسطس فيما بعد .

فلما رسم ڤرچيل خطوط الملحمة الرئيسية آوى إلى عدة أماكن نائية منعزلة فى إيطاليا ، وقضى العشر السنين التالية (٢٩ — ١٩) فى تأليف الإنياذة . وكان يكتب فيها على مهل مخلصاً فى عمله إخلاص فلوبير Flaubert ، فيملى بضعة أسطر فى صدر النهار ثم يعيد كتابتها فى الأصيل .

وكان أغسطس فى هذه الأثناء ينتظر إتمام الملحمة بفارغ الصـــبر ، وكثيراً ما كان يسأل عما تم منها ، ويلحّ على ڤرچيل بأن يبعث إليه كل ما يفرغ من كتابته . وظل الشاعر يستمهله أطول وقت مستطاع ، ولكنه أخيراً قرأ له الكتب الثانية والرابعة والسادسة منها . ولما سمعت أكتافيا أرملة أنطونيوس الفقرة التى تصف ابنها مرسلس الذى مات من عهد قريب ، أغمى عليها[١٦] .

ولم تتم الملحمة ولم تراجع المراجعة الأخيرة ، لأن ڤرچيل سافر إلى بلاد

اليونان فى عام ١٩ ق . م والتقى بأغسطس فى أثينة ، وأصيب بضربة شمس فى مجارا ، فقفل راجعاً إلى بلده ومات بعد أن وصل برنديزيوم بزمن قليل ، وطلب وهو على فراش الموت إلى أصدقائه أن يتلفوا مخطوط الملحمة قائلا إنه كان يحتاج إلى ثلاث سنين على أقل تقدير لصقلها وإعدادها للنشر ، ولكن أغسطس أمرهم ألا ينفذوا هذه الوصية .

أما قصة الإنياذة فيعرفها كل تلميذ . وخلاصتها أنه بينا كانت مدينة طروادة تحترق يظهر شبح هكتور القتيل إلى « إنياذ الصالح » قائد أحلافه الدروانيين ، ويأمره أن يستعيد من اليونان ما كان فى طروادة من « أشياء مقدسة وآلهة منزلية » . وأهمها كلها البلاديوم Palladium أو صورة بلاس أثينى Pallas Athene ؛ وكانوا يعتقدون أن بقاء الطرواديين موقوف على الاحتفاظ بها . وفى ذلك يقول هكتور Hector بطلهم المعروف : « ابحثوا عن هذه » الرموز المقدسة « لأنكم بعد أن تطوفوا بالبحار ستقيمون لكم آخر الأمر مدينة عامرة »[١٧] . ويفر إنياس مع أبيه الشيخ أنكيسيز Anchises وابنه اسكنيوس ، فيركبون سفينة تقف بهم فى أماكن مختلفة ، ولكن أصوات الآلهة تناديهم على الدوام أن يواصلوا السير . وتدفعهم الريح إلى مكان قريب من قرطاجنة حيث يجدون أميرة فينيقية تدعى ديدو Dido تشيد مدينة جديدةً . (وبينا كان فرجيل يكتب هذا كان أغسطس ينفذ مشروع قيصر وهو إعادة بناء قرطاجنة) . ويقع إنياس فى حب الأميرة ، وتهب عاصفة مواتية فتتيح لها الفرصة لأن يلجأ معاً إلى كهف واحد ، ويتم بينهما ما تعده ديدو زواجاً ، ويقبل إنياس تفسيرها هذا إلى حين ، ويشترك هو ورجاله وهم راضون فى بناء المدينة ، ولكن الآلهة القاسية ، التى لا نراها قط فى الأساطير القديمة تعنى كثيراً بالزواج ، تنذره بالسفر وتقول له إن هذه ليست هى البلدة التى يجب عليه أن يتخذها عاصمة له . ويصدع إنياس بما يؤمر ، ويترك الملكة الحزينة وهو يودعها بهذه الألفاظ الشبيهة بالغناء :

« لن أنكر قط أيتها الملكة أنك تستحقين منى ما تعجز الألفاظ عن التعبير عنه ... إنى لم أمسك قط مشعل الزوج ولم أقسم يمين الزواج ... ولكن أپلو قد أمرنى الآن بركوب البحر ... فامتنعى إذن عن أن تهلكى نفسك وتهلكينى بهذه الشكايات : إنى لا أسعى إلى إيطاليا بمحض إرادتى »[١٨].

« *وأسعى إلى إيطاليا بمحض إرادتى* » ، هذا هو سر القصة ومحورها الذى تدور عليه ، ونحن الذين نحكم على ڤرچيل وبطله بعد ثمانية قرون من كتابة الأدب العاطفى وقراءته ، نعلق على الحب الروائى ، وعلى العلاقات بين غير الأزواج ، أكثر مما كان يعلقه عليها اليونان والرومان . فقد كان الزواج عند الأقدمين رابطة بين الأسر أكثر مما كان رابطة بين الأجسام والأرواح ، وكانت مطالب الدين أو الوطن أسمى منزلة من حقوق الأفراد ونزواتهم . ويعطف ڤرچيل على ديدو ويسمو إلى ذروة البلاغة فى فقرة من أجمل فقرات ملحمته حين يتحدث عنها وهى تلقى بنفسها فوق كومة من الحطب المعد لحرق الموتى وتحرق نفسها حية ؛ ثم يسير فى ركابه إنياس إلى إيطاليا .

وينزل القرطاجنيون إلى البر عند كومى ثم يثيرون إلى لاتيوم حيث يستقبلهم ملكها لاتنس ويرحب بهم وكانت ابنته لاڤينيا Lavinia مخطوبة لترنس Turnus وهو شاب وسيم وزعيم الروتوليين المجاورين لهذه المدينة ، ويوقع إنياس الجفوة بينها هى وأبيها وبين خطيبها ، ويعلن ترنس الحرب عليه وعلى لاتيوم ، وتنشب معارك حامية الوطيس . وتعتزم سيبيل الكومائية Cumaean Sibyl أن تقوى إنياس وتشجعه ، فتأخذه إلى ترتاروس بطريق بحيرة إيرنس Aernus . وكما أن ڤرچيل قد كتب ملحمة عن تجوال إنياس على نمط أوذيسية هومروس وأخرى قصيرة عن حروبه شبيهة بالإلياذة ، فإنه الآن يستوحى رحلة أوديسيوس فى الجحيم ، ويصبح هو نفسه مثلا يحتذيه دانتى ويهتدى بهديه فى ملهاته المقدسة . وفى هذا يقول ڤرچيل : « ما أسهل النزول إلى الجحيم Facilis descensus

« Averni » ، ولكن بطله يجد الطريق إليها وعراً شديد العذاب ، كما يجد العالم السفلى معقداً شديد الاختلاط . وفى هذا العالم يلتقى بديدو ، فتشيح بوجهها عما يبثه من وجده ؛ ويشهد ضروب العذاب التى يعاقب بها من ارتكبوا الذنوب على وجه الأرض ، والسجن الذى يعذب فيه أنصاف الآلهة(*) المتمردون كما يعذب الشيطان . ثم تأخذه سيبيل إلى أيلك السعداء حيث ينعم الصالحون فى الأودية الخضراء بالنعيم السرمدى . وهنا يشرح له والده أنكيسز ، الذى توفى فى الطريق ، أسرار الجنة ، والمطهر والجحيم ويصور له فى أوضح صورة وأشملها مجد رومة وأبطالها فى مستقبل الأيام . وتكشف له الزهرة فى رؤيا أخرى عن موقعة أكتيوم وانتصارات أغسطس وبعد أن تنتعش روح إنياس بهذه المناظر يعود إلى عالم الأحياء ، ويقتل ترنس ، وينشر الموت من حوله ببطشه وشدة بأسه . ويتزوج بلڤينيا الخيالية ثم يموت والدها فيرث عرش لاتيوم ، ولا يلبث أن يخر صريعا فى إحدى المعارك ، وينتقل إلى جنان الفردوس ، ويشيد ابنه أسكانيوس Ascanins ألبالنجا لتكون عاصمة جديدة للقبائل اللاتينية ، ومنها يخرج من نسله رميولرس وريموس ليشيدا مدينة رومة .

ويبدو أن من سوء الأدب أن ينتقد الإنسان نفساً كريمة رفيعة كنفس ڤرجيل لما تغمر به بلدها وإمبراطورها من ثناء وتعظيم ، أو أن ينقب الإنسان عن عيوب فى ملاحم لعله لم يرغب قط فى كتابتها ، ولم يعش ليتمها. ولا حاجة إلى القول بأنه كتبها على نمط الملاحم اليونانية ، وتلك هى السنة التى جرى عليها الأدب الرومانى كله إذا استثنينا منه الهجاء والمقالة . غير أننا نستبيح لأنفسنا هذا القدر من النقد ، وهو أن مناظر المعارك الحربية ليست إلا أصداء ضعيفة لما فى مناوشات الإلياذة من قعقعة وضجيج ، وأن أورورا Aurora

---

(*) أى من كان فى طبائعهم شىء من الألوهية وخاصة أولئك الأبطال الذين تصفهم الأساطير بأنهم تناسلوا من زواج الآلهة بالآدميين . (المترجم)

لتظهر فى الإنياذة بقدر ما تظهر ربة الفجر ذات الأصابع الوردية فى إلياذة هومر : ويستعير الشاعر من نثيفيوس وإنيوس ، ولكريشيوس حوادث وعبارات ، وسطوراً كاملة فى بعض الأحيان ، كما أن أبولونيوس الرودسى Apllonius of Rhodes هو الذى يمده بالمثل الذى يحتذيه فى حب ديدو المفجع ، وهذا الأنموذج هو أرجوتونكا Argonautica . وكانت هذه الاستعارات الأدبية جائزة لا غبار عليها فى عصر فرچيل ، كما كانت جائزة فى عصر شيكسپير ، ذلك أنه كان ينظر إلى آداب البحر الأبيض المتوسط كلها على أنها تراث عقول البحر الأبيض المتوسط كلها ، والمعين الذى تستمد منه هذه العقول . ولا جدال فى أن ما تقوم عليه الملحمة من أساطير تتعب القارئ وتبعث فى نفسه الملل ، وذلك لأننا نضع لأنفسنا الآن أساطير أخرى جديدة ؛ ولكن الذى لا شك فيه أيضاً أن هذه الإشارات واللمحات الإلهية التى تتخلل القصيدة كانت مألوفة محبوبة حتى لقراء الشعر الرومانى المتشككين . ولسنا نجد فى ملحمة فرچيل العليل ذات الشعر الهادئ السلس ما نجده فى قصة هومر من حوادث دافقة ، كما أننا لا نجد فيها الحقائق التى يسرى فيها دم الحياة والتى تحرك جبابرة الإلياذة ، أو أهل إثكا Ithaca السذج ؛ يضاف إلى هذا أن قصة فرچيل كثيراً ما تمشى الهوينا ، وأن أشخاصه كلهم تقريباً مرضى إلا الذين يهجرهم إنياس أو يقضى عليهم . وديدو الإنياذة امرأة حية لطيفة ، خادعة ، شديدة الانفعال ، وترنس محارب ساذج شريف يغدر به لاتنس ، وتحكم عليه الآلهة السخيفة بموت هو غير جدير به . وبعد أن يقرأ الإنسان عشر مقطوعات كلها نواح وندب ، تشمئز نفسه من « تقى » إنياس الذى يتركه مساوب الإرداة . يغتفر له عذره ، ولا يواتيه النجاح إلا بتدخل القوى السماوية ، وفوق هذا كله فإننا لا نستمتع بالخطب الطويلة التى يقتل بها الشاعر الصالحين من الرجال ، والتى تكون بلاغتها سبباً آخر من أسباب مللنا ، يضاف

إلى هذا ما نجده فيها من تمحيص هو محك الإنسانية النهائى لمعرفة الحقيقة .

وإذا شئنا أن نفهم الإنياذة على حقيقتها ونقدرها التقدير الذى هى جديرة به كان علينا أن نتذكر فى كل قسم من أقسامها أن فرچيل لم يكن يكتب رواية خيالية ، بل كان يكتب لروما كتاباً مقدساً ، وليس ذلك لأنه يقدم لها شريعة دينية واضحة ، فإن الآلهة الذين يسيرون الحوادث فى تمثيليته من وراء الستار لا يقلون خبثاً عن آلهة هومر ، وإن لم يكونوا قريبين من البشر الفكهين قرب هؤلاء ؛ بل إنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن كل ما فى القصة من شر وشقاء ليس منشؤه من فيها من رجال ونساء بل منشؤه الآلهة أنفسهم . وأكبر الظن أن فرچيل لم يكن يرى فى أولئك الأرباب إلا أنهم أدوات لشعره ، ورموز للظروف الظالمة المستبدة ، والحادثات المفاجئة التى تخل بسير العالم المنتظم ؛ الرتيب وهو على العموم يتذبذب بين جوف رب الأرباب وبين القدر اللاشخصى ، فهذا يسيطر على الكائنات تارة وذلك يسيطر عليها تارة أخرى . وآلهه القرية والحقل أحب إليه من آلهة أولمپس ، فهو لا يترك فرصة تتاح له إلا مجد الأولى ووصف طقوسها ومراسمها ، وتمنى لو استطاع الناس أن يعوجوا إلى ما كانوا عليه من حب الآباء ، والوطن ، والآلهة ، وهو الحب الذى كانت تغذيه العقيدة الريفية البدائية : « أسفى على تقوى الأقدمين وإيمانهم ! » غير أنه لا يؤمن بالفكرة القديمة عن الجحيم حيث يحشر الموتى جميعاً الصالح منهم والطالح بل تخالجه أفكار أرفية(*) فيثاغورية عن تجسد الأرواح بعد الموت ، وعن الحياة فى الدار الآخرة ، وهو يوضح إلى أقصى حد يستطيعه فكرة الثواب فى الجنة والمطهر ، والعقاب فى الجحيم .

لكن الدين الحقيقى فى الإنياذة هو دين الوطنية ، وإلهها الأعم هو روما

(*) نسبة إلى أرفيوس وهو الشاعر الذى يقال عنه إنه كان يحرك الجماد بصوت مزماره .
(المترجم)

لمصير رومة هو المحرك لحبكة القصة ، وكل ما فى القصة من محن وشدائد إنما يرجع إلى « الواجب المضنى واجب بعث الشعب الرومانى tantae molis erat Romanam Condere gentem » . والشاعر فخور بالإمبراطورية فخراً يمنعه أن يحسد اليونان على تفوقهم فى الثقافة ويقول فى ذلك : فلتحول الشعوب الأخرى الرخام والبرنز إلى شخوص حية ولترسم مسارات النجوم .

« أما أنت يا ابن رومة ، فواجبك أن تحكم العالم ، وستكون فنونك أن تعلم الناس طرائق السلم ، وأن تشفق على الذليل ، وتذل الفخور (٢٠) » . وفرچيل لا يأسف على موت الجمهورية ، وهو يدرك أن حرب الطبقات هى التى قضت عليها ولم يقض عليها قيصر ؛ وهو فى كل جزء من أجزاء قصيدته يبشر بأن حكم أغسطس سيعيدها سيرتها الأولى ، ويرحب به ويصفه بأن حكم زحل قد عاد إلى الأرض ، ويعده بأنه سيجزى على عمله بأن يحشر فى زمرة الأرباب . وقصارى القول أن أحداً من الناس لم يوف بما ألقى على كاهله من واجب أدبى بأكمل مما وفى به فرچيل .

يبقى بعد ذلك أن نسأل لم نحتفظ بحبنا الشديد لهذه الدعاوة للتقى وصالح الأخلاق ، وحب الوطن ، والنعرة الإمبراطورية ؟ إن من أسباب هذا الحب ما نجده فى كل صفحة من رقة روح الشاعر وظرفه ، وأننا نشعر بأن عطفه قد امتد من إيطاليا بلاده الجميلة إلى جميع بنى الإنسان ، بل إلى جميع الكائنات الحية ؛ فهو يدرك آلام الطبقات العليا والدنيا ، ويعرف أهوال الحرب وما يصحبها من فحش ورذيلة ، ولا ينسى أن أنبل الناس أقصرهم آجالا ، وأن ما فى الحياة من أحزان وآلام ، وما فى « الأشياء من دموع lacrimae rurum » تذهب ببهجة الأيام تارة وتزيدها تارة أخرى . وهو حين يكتب عن « العندليب الذى يبكى فى ظلال شجرة الحور فقد صغاره التى أبصرها الحراث فانتزعها من قبل أن يكسوها الريش ، فيقضى الليل كله ينتحب ، ثم يجثم على فنن ويعيد أغنيته الحزينة ،

ويملأ الغابة بها وبعويله »[٢١] . نقول إنه حين يفصل هذا لا يقلد لكريشيوس فحسب . وإن الذى يجذبنا نحو ڤرجيل مراراً وتكراراً هو ما فى حديثه من جمال لا ينقطع أبداً . ولم يكن عبثاً منه أن ينكب على كل سطر من سطوره « فيلعقه بلسانه ليسويه ويصقله ، كما تلعق الدبة ديسمها »[٢٢] . ولن يستطيع أحد غير القارئ الذى حاول الكتابة أن يتصور ما عاناه الشاعر من التعب حتى أكسب قصته ما فيها من نعومة وسلاسة ، وزينها بكثير من الفقرات ذات الأنغام القوية الرنانة التى تطالعنا فى كل صفحتين من الكتاب ، وتغرى القلم باقتباسها واللسان بالنطق بها . ولعل القصيدة مفرطة فى جمالها المتناسق المتماثل ، لأن جمال اللفظ نفسه يمل إذا أفرطت فصاحته فى الطول . وفى ڤرجيل سحر نسائى ولكنا لا نطالع فيه قط ما نجده فى شعر لكريشيوس من رجولة وقوة التفكير ، كما لا نجد فيه تلك الأمواج الصاخبة التى نراها ذلك « البحر المتلاطم العجاج » المسمى هومر . ونحن نبدأ نفهم ما يعزى إلى ڤرجيل من حزن واكتئاب ، حين نتصوره يدعو إلى عقائد لم يكن فى وسعه قط أن يستعيدها فى نفسه ، ويقضى عشر سنين فى كتابة ملحمة تتطلب كل حادثة من حوادثها ، ويتطلب كل سطر من سطورها ، ما يحتاج إليه الفن المصطنع من جهود ، ثم يموت والأفكار تساوره بأنه عجز عن تحقيق غرضه ، وأن خياله لم ينره وميض من الإبداع والابتكار ، وأنه لم يبعث فى أشخاصه نسمة الحياة . ولكن أحـــداً لا يجادل فى أن الشاعر قد انتصر نصراً مؤزراً على أداته إن لم يكن قد نال هذا النصر نفسه على موضوعه . وقلما بلغت الصناعة ذلك الحد الأعلى من الإعجاز الذى بلغته فى شعر ڤرجيل .

وبعد عامين من وفاته أخرج منفذو وصيته قصيدته إلى العالم ، وقام بعضهم يعيبها ويسفهها : فنشر أحد النقاد ثبتاً طويلا بعيوبها ، ونشر غيره ثبتاً آخر بما فيها من سرقات ، وأصدر ثالث ثمانية مجلدات محتوية على ما بين شعر ڤرجيل والشعر القديم من شبه[٢٣] . ولكن رومة سرعان ما نسيت هذه الشريعة

الأدبية ، فوضع هوراس ڤرچيل فى مستوى هومر ، ونشأت مدارس أدبية بدأت بها قرون تسعة عشر ، ظل الناس فيها يحفظون الإنياذة عن ظهر قلب ، وظل الناس جميعهم خاصتهم وعامتهم يهتفون باسمه ، والصناع ، والتجار ، يقتبسون من شعره ، وشواهد القبور والجدران تنقش عليها عباراته ؛ ومتنبئو الهياكل يجيبون السائلين بعبارات غامضة يقتطعونها من أبيات ملحمته ؛ وبدأت من ذلك الوقت تلك العادة التى لم تنقطع إلى عصر النهضة ، عادة فتح ملحمة ڤرچيل فتحاً عشوائياً للبحث عن نصيحة أو نبوءة فى أول فقرة تقع عليها عين الفاتح . وانتشر صيته حتى كان يعد فى العصور الوسطى من السحرة والقديسين . كيف لا وهو الذى تنبأ فى النشيد الرابع بمجىء المنقذ ، ووصف رومة فى الإنياذة بالمدينة المقدسة التى ستخرج منها قوة الدين وتنتشل العالم مما يتخبط فيه ؟ ألم يصور فى الكتاب السادس الرهيب يوم الحشر وعــذاب المذنبين ، وتطهيرهم فى نار المطهر ، ونعيم الصالحين فى الجنــة ؟ لقد كان ڤرچيل أيضاً كما كان أفلاطون ذا روح مسيحية طبيعية رغم آلهته الوثنية ، وكان دانتى يعجب بعذوبة شعره ، ولم يكن يسترشد به فى وصف الجحيم والمطهر فحسب ، بل كان يسترشد به أيضاً فى تدفق فنه القصصى وجمال حديثه ؛ وكان ملتن يفكر فيه وهو يكتب **الفردوس المفقود** وخطب الشياطين والآدميين الطنانة والرنانة ؛ وكان فلتير — وهو الذى كنا نتوقع أن يكون أقسى مما كان فى الحكم على ڤرچيل — يصف الإنياذة بأنها أجمل ما خلفه لنا الأقدمون من تراث أدبى (٧٤) .

الفصل الرابع

هوراس

إن من أجمل الصور التى يشاهدها الإنسان فى عالم الأدب — والتى تبدو فيها الغيرة بين الناس شديدة لاتفوقها إلا غيرة العشاق — هى صورة ڤرچيل وهو يقدم هوراس إلى ماسيناس . فقد التقى الشاعران فى عام ٤٠ ق . م ، حين كان ڤرچيل فى الثلاثين من عمره وهوراس فى الخامسة والعشرين ، وفتح له ڤرچيل أبواب ماسيناس بعد عام من ذلك الوقت وبقى الثلاثة بعدئذ أصدقاء أوفياء حتى فارقوا هذا العالم .

واحتفلت إيطاليا فى عام ١٩٣٥ بمرور ألفى عام على مولد كونتس هوراشيوس فلاكس Quintus Horatius Flaccus ، وكان مولده فى بلدة ڤنوزيا Venusia الصغيرة من أعمال أپوليا Apulia ، وكان والده رقيقاً معتوقاً ارتفعت منزلته حتى أصبح جابياً — أو صياداً كما يقول بعض الناس[٢٣] . ومعنى كلمة فلاكس ذو الأذن المدلاة ، وأكبر الظن أن هوراشيوس هو اسم السيد الذى كان الوالد فى خدمته . وأثرى العبد المعتوق بطريقة ما ، وأرسل ابنه إلى رومة ليدرس البلاغة ثم أرسله إلى أثينة ليدرس فيها الفلسفة . وفى هذه المدينة انضم الشاب إلى جيش بروتس وتولى قيادة أحد الفيالق ، وقال وقتئذ قالته المأثورة « إن من ألذ الأشياء وأشرفها أن يموت الإنسان فى سبيل بـــلاده dulce et decorum »[٢٦] pro patria mori » . ولكن هوراس — وكان يقلد أركلوكس Archilochus فى أغلب الأحيان — ألقى بدرعه فى إبان المعركة وولى الأدبار . ولما وضعت الحرب أوزارها ألفى نفسه وقد جرد من جميع أملاكه ومن كل ما ورثه

عن أبيه ، « ودفعتنى المسغبة إلى قرض الشـعر »[٢٧] ، ولكن الحقيقة أنه كان يكسب قوته من منصب كاتب كوستر .

وكان قصيراً بديناً ، مزهواً حيياً ، لايحب السوقة ولكنه لايجد من الثياب أو المال ما يعينه على الاختلاط بالأوساط التى نالت من التعليم ما ناله هو. وكان يخشى عواقب الزواج فاكتفى على حد قوله بالسرارى والعشيقات ؛ وهو قول قد يكون حقاً ، وقد لايكون إلا نوعاً من الترخص الشعرى اخترعه للدلالة على نضوجه . وقد كتب عن العاهرات كتابة جمعت بين حذر العلماء وتعقيد الشعراء ، وأظن أنه جدير بأعظم الثناء لأنه لم يُغو النساء المتزوجات[٢٨] . وإذ كان أفقر من أن يقضى على نفسه بالانهماك فى الشهوات الجنسية فقد عمد إلى قراءة الكتب وكتابة الأغانى باللغتين اليونانية واللاتينية ، وبأصعب أوزان الشعر اليونانى وأكثرها اختلاطاً . وأطلع ڤرچيل على إحدى هذه القصـائد وامتدحها لماسيناس . وسر الأبيقورى الرحيم من حياء هوراس وتلجلجه فى الحديث ، ووجد فى سفسطته الفكرية ما يدعوه إلى حبه . وفى عام ٣٧ اصطحب ماسيناس ڤرچيل وهوراس وغيرهما من الصحاب فى سفرة قصيرة مخترقين إيطاليا فى قارب قنوى تارة ، وعربة ومحمل تارة أخرى ؛ ثم سيراً على الأقدام فى بعض الأوقات . وبعد قليل من ذلك الوقت قدم ماسيناس الشاعر لأكتاڤيان ، واقترح عليه أن يعينه أمين سره . فاعتذر الشاعر قائلا إنه لا يجد من نفسه ميلا إلى العمل . وفى عام ٣٤ أهدى إليه ماسيناس بيتاً وضيعة تدر عليه بعض المال فى الوادى السابينى بيستيكا Ustica على بعد خمسة وأربعين ميلا من رومة . وبذلك أصبح فى استطاعة هوراس أن يعيش فى المدينة أو فى الريف كما يشاء ، وأن يكتب كما يأمل المؤلفون

أن يكتبوا — فى الوقت الذى تحلو لهم فيه الكتابة ، وبالعناية والجهد اللذين يحلو لهم أن يبذلوهما فى كتابتهم(*) .

وأقام بعض الوقت فى رومة يمتع نفسه بحياة من يتسلى بمشاهدة العالم المسرع المندفع . وكان يختلط بجميع طبقات الناس ، ويدرس جميع الأصناف التى تتكون منها رومة ، ويفكر فى حماقات العاصمة ورذائلها وهو مسرور سرور الطبيب إذا كشف علة المريض . وقد وصف بعض تلك الأصناف فى كتابين من كتب هجوه (٣٤ ، ٣٠ ق . م) ، حذا فيهما أولا حذو اوسليوس Lucilius ، ثم خفف فيما بعد من حدته وأصبح أكثر مما كان تسامحاً . وكان يطلق على هذه القصائد اسم المواعظ Sermones — وإن لم تكن مواعظ فى أية صورة من الصور ، بل كانت أحاديث خالية من التكلف والصناعة ؛ وكانت أحياناً محاورات ودية خاصة فى أشعار سداسية الوزن تكاد لغتها أن تكون هى اللغة العامية ؛

وقد اعترف هو نفسه بأنها نثر فى كل شيء عدا الوزن ، « لأنك لاتستطيع أن تطلق اسم الشاعر على رجل يكتب كما أكتب أنا أبياتاً أقرب ما تكون إلى الكلام المنثور » . ونحن نلتقى فى هذه الأشعار اللاذعة بالأحياء من رجال رومة ونسائها ، ونستمع ، إليهم يتحدثون كما يتحدث الرومان : فلسنا نجد فيها رعاة فرجيل وزرّاعه وأبطاله ، ولا فُساق أوفد الخرافيين وبطلاته ، بل نشاهد العبد الوقح البذىء ، والشاعر المزهو بنفسه ، والمحاضر ذا الألفاظ الطنانة ، والفيلسوف الشره ، والثرثار المملّ ، والسامىّ الحريص على المال ، ورجل الأعمال ، والحاكم ، ورجل الشارع العادى ، فنشعر أنا نشهد آخر الأمر رومة الحقة . فها هو ذا هوراس يضع فى قصائده لمن يشاء

(*) وقد كشف المنقبون عن ضيعة هوراس فى عام ١٩٣٢ ، فإذا هى تشمل بيتاً ريفياً فسيحاً ، يبلغ طوله ٣٦٣ قدماً وعرضه ١٤٢ ، به أربع وعشرون حجرة وثلاث برك للاستحمام ، بوعدة أبواب مزينة بالفسيفساء ، وحديقة واسعة يحيط بها رواق مسقوف فى خارجه سور . ومن وراء هذا البيت ضيعة فسيحة يعمل فيها عشرة عبيد وخمس أسر من المستأجرين(٢٨) » .

أن ينقب عن آثار الأقدمين القواعد التي يجب أن يسير عليها من يريد النجاح في هذه الحلبة التي تصطرع فيها الغيلان من الناس ، ويضعها ، في صورة مرحة ولكنها مهلكة قاتلة(٢٩) . وهو يسخر من النهمين الذين يملئون بطونهم بشهي الطعام ، ولكنهم لا يستطيعون المشي على أرجلهم لأنهم مصابون بالرثية(٣٠) ، ويذكر من « يمتدح الأيام الماضية » بأنه إذا جاءه إله ليعيده إلى تلك الأيام أبى وتمنع(٣١) ، ويقول إن أحسن ما في الماضي هو علم الإنسان أنه لن يضطر إلى أن يحيا مرة أخرى . وهو يعجب كما يعجب لكريشيوس من ذوي الأرواح القلقة الذين إذا كانوا في المدن تاقوا إلى سكنى الريف ، فإذا سكنوا الريف تاقوا إلى المدن ، والذين لا يستطيعون أن يستمتعوا بما عندهم ، لأن من الناس من عنده أكثر منهم ؛ والذين لا يقنعون بزوجاتهم ويهيمون بخيالهم المفرط في العظمة وفي الحقارة معاً بجمال غيرهن من النساء اللائي أصبحن في نظر غيرهم من الرجال ولا جمال لهن . ويختتم نصائحه بقوله إن جنون المال هو مرض رومة القتال . ويسأل من يقضي أيامه في جمع الذهب : « لم تسخر من تنتلس لأن الماء يبتعد عن شفتيه الظامئتين على الدوام ؟ ليس عليك إلا أن تبدل الأسماء فتنطبق القصة عليك أنت(٣٢) » ثم يهجو نفسه أيضاً ؛ فهو يصور عبده يقول له في وجهه إنه ، وهو الداعي إلى حسن الخلق ، رجل أحمق حاد الطبع لا يعرف قط ما يدور في عقله أو ما يهدف إليه ، وإنه عبد شهواته ككل إنسان آخر . وما من شك في أنه يوصي نفسه ، كما يوصي غيره ، بسلوك الطريقة الوسطى الذهبية إذ يقول : « إن للأشياء حداً ومقياساً(٣٤) » لا يقصر الرجل الذكي عنه ولا يتجاوزه . وهو في بداية كتاب الهجاء الثاني يشكو إلى صديق له أن المجموعة الأولى قد انتقدت أشد النقد ، فقيل إنها مفرطة في الخشونة وفي الضعف ، ثم يستنصح الصديق فيقول له : « استرح » فيعترض عليه الشاعر بقوله : « ماذا ؟ ألا أكتب الشعر قط » ؟ فيجيبه « نعم » فيقول : « ولكني لن أستطيع النوم(٣٥) » .

وكان خيرا له أن يعمل بهذه النصيحة إلى حين . وكان كتابه الثانى المسمى ردود الغناء Epodes (٢٩ ق . م) أقل كتبه شأنا . فأشعاره خشنة مؤذية للسمع خالية من الشهامة ، بعيـــدة عن الذوق ، بذيئة فى الأمور الجنسية ، كل ما يستطيع الإنسان أن يقوله فى وصفها إنها تجربة فى الأوزان الشعرية ذات المقاطع المتعاقبة منبورة وغير منبورة ، وهى المقاطع التى سار عليها أركلوكس Archilodhus . ولعل اشمئزازه من « دخان رومة ومالها وضجيجها »[٣٦] قد زاد حتى أمَرَّ نفسه ؛ ولعله لم يطق صبرا على ضغط السوقة الجهال ذوى التفكير الخبيث ، وهو يصور نفسه متدفقا ومدفوعا بين أراذل العاصمة ، وينادى قائلا : « أيها البيت الريفى ! متى أراك ؟ متى أستطيع وأنا بين كتب الأقدمين تارة ، وأستمتع بالنوم والفراغ تارة أخرى ، أن أتجرع النسيان الحلو لمتاعب الحياة ؟ متى يقدم لى صحاف الفول إخوان فيثاغورس نفسه ، ومعها الخضر المخلوطة باللحم السمين ؟ آه ، أيتها الليالى والولائم القدسية ! »[٣٧] ثم قصرت فترات إقامته فى رومة ، وصار يقضى كثيراً من وقته فى بيته السبينى الريفى حتى شكا أصدقاؤه وشكا ماسيناس نفسه بأنه « اقتطعها من حياته » . ولكن الحقيقة أنه بعد أن عانى حر المدينة وعثيرها وجد فى الهواء النقى والعمل الرتيب الهادئ ، والعمال السذج فى ضيعته بهجة تطهره من أدران المدن . هذا إلى أنه كان وقتئذ ضعيف الجسم ، وأنه كان يعيش على الأكثر ، كما يعيش أغسطس ، على الخضر وحدها . وفى ذلك يقول : إن فيما أمتلكه من مجرى الماء النقى وأفدنة قليلة من الأشجار ، ووثوق من أنى سأجنى محصولا من الحب ، إن فى هذا لسعادة دونها سعادة سيد أفريقية الخصبة ونعيمها البراق »[٣٩] . وإنه حب الريف ليجد فى غيره من شعراء عهد أغسطس من يعبر عنه تعبيرا حماسيا نادر الوجود فى أدب اليونان .

ما أسعد من يعيش بعيدا عن قلق الأعمال ومتاعبها .
كما كانت تعيش أقدم شعوب العالم .

يفلح بثيرانه الأرض التى ورثها عن أبيه .
وليس عليه دين . . .
ما أحلى النوم تحت شجرة السنديان القديمة .
والنهر يجرى بين جسريه العاليين .
وطيور الأيك تغرد .
والماء يتدفق من العيون .
يدعو الإنسان للنوم الهنيء ![٤٠]

* * *

وجدير بنا أن نضيف إلى هذا أن الذى ينطق بهذه الأبيات مراب من أهل المدن ، ينطقه بها هوراس فى سخرية يمتاز بها عن كثيرين من الشعراء ، وأن هذا المرابى بعد أن ينطق بها لا يلبث أن ينساها ويفقد نفسه بين أكوام نقوده .

وأكبر الظن أن هذه المرابض الهادئة هى التى كان يكدح فيها « كدح السعداء المجدين »(*) فى تأليف هذه الأغانى التى يعلم أن ذيوع اسمه أوخمول ذكره موقوف عليها . لقد مل الأشعار السداسية الوزن ولم يعد يطربه انسجام أوزانها المقيسة المحددة ، أو التى تقتطع من آخر البيت لضرورة الشعر كأنها جُزّت بمقصلة . وكان قد استمتع فى شبابه بالأوزان الدقيقة المرحة التى رآها فى شعر سابفو Sappho والكيوس Alckeus ، وأركلوكس Archilochus ، وأنكريون Anacreon ، فأراد الآن أن ينقل هـذه الأوزان « السابفية » والألكية ، والتفاعيل المركبة من مقطعين ومن أحد عشر مقطعا ، إلى صورة الشعر الغنائى الرومانى ، وأن يعبر عن آرائه فى الحب والخمر ، والدين ، والدولة ، والحياة والموت فى مقطوعات جديدة منعشة للنفس جامعة رصينة التركيب ، قابلة للتلحين ،

(*) هذه هى العبارة العجيبة الموفقة التى وصف بها بترونيوس هوراس(١٤) .

معقدة تعقيداً يتطلب حلها الجهد الكثير . ولم يكن يكتب هذه الأشعار لذوى العقول الساذجة التي تريد أن تمر بها مرًّا سريعاً دون أن تبذل في إدراكها أى مجهود ، والحق أنه قد حذر أمثال هؤلاء في مستهل المجموعة الثالثة من الإقدام على قراءتها فقال :

« إنى أبغض السوقة النجسين وأجنبهم . صه ! أنا ، كاهن ربات الشعر ، أغنى للعذارى والشباب أغانى لم يسمعها أحد من قبل » .

ولو أن العذارى قد عنين بشق طريقهن وسط أقوال هوراس ورغباته المقلوبة لارتعن وسررن مما في أغانيه من أبيقورية مهذبة مصقولة . فالشاعر يصور مسرات الصداقة ، والطعام والشراب ، والمغازلة ، وإن المرء ليصعب عليه أن يستدل من هذه الترانيم على أن كاتبها رجل زاهد لا يأكل إلا قليلا ولا يشرب إلا أقل . ثم يسأل الشاعر نفسه (قبل أن يسألها قارئ هذه الصفحات) : « لم نشغل أنفسنا بالسياسة الرومانية وبالحروب في الأقاليم النائية ؟ ولم نعنى هذه العناية كلها بتدبير أمور المستقبل الذى يسخر من تدبيرنا(*) . إن الشباب والجمال يمساننا مساً ويمران بنا مرًّا سريعاً فلنستمتع بهما الآن » ، مضطجعين إلى شجرة الصنوبر ، وغدائرنا الشمطاء متوجة بالأزهار ومعطرة بالناردين السورى[٤٢] » . وبينا نحن نتحدث هذا الحديث يمر الوقت الحسود وينقضى ، فلنغتنم الفرص « ولنختطف الأيام Carpe diem[٤٣] . ويتلو الشاعر أسماء طائفة من النساء الخليعات اللاتى يقول إنه أحبهن : لالاج ، جلسيرا ، تيرا ، إيانثا ، رستارا كنديا ، ليسى ، بيرها ، ليديا ، تندارس ، كلو ، فليس ، مرتال . ولا حاجة بنا إلى أن نصدق كل ما يدعيه من ذنوب يقول إنه ارتكبها ، فقد كانت هذه الأقوال وقتئذ دعاوى أدبية يكاد يفرضها شعراء تلك الأيام على أنفسهم فرضاً ، وشاهد ذلك أنا نجد أولئك السيدات أنفسهن في خدمة

(*) « وتقدرن فتضحك الأقدار » . (المترجم)

أقلام غير قلمه قبـل ذلك الوقت . ولم يكن أغسطس الذى تاب وقتئذ وأناب لينخدع بهذه الضلالات الشعرية ، فقد كان يسره أن يجد بينها تعظيماً لحكمه وثناء عليه ، وعلى انتصاراته ، وأعوانه ، وإصـلاحاته الأخلاقية ، وعلى السلم التى بسط لواءها فى أيامه . وقد ألف هوراس أغنيته المشهورة فى الشراب Nunc ets bibendum[٤٤] حين جاءته الأنباء بأن كليوبطرة قضت نحبها ، وأن أغسطس استولى على مصر ، فقد كان لهذا النبأ وقع عظيم حتى فى نفس هذا الشاعر السوفسطائى الذى سر من انتصار الإمبراطورية واتساع رقعتها إلى حد لم تبلغه قط من قبل . وهو يحذر قراءه من الاعتقاد بأن القوانين الجديدة يمكن أن تحل محل الأخلاق القديمة ، ويأسف لانتشار الترف والزنى ، والخلاعة ، والعقائد المنحطة الفاسدة ، ويقول مشيراً إلى الحروب الأخيرة : « وا أسفا على ما أصابنا من جروح وما ارتكبنا من جرائم ، وعلى من مضوا من إخوتنا صرعى فى الميدان ! وهل ثمة شىء قد اشمأزت منه نفوسنا نحن أبناء هذا الجيل ؟ وأى ظلم لم نرتكبه ؟ »[٤٥] ويقول إن رومة لن تنجو إلا بالرجوع إلى الأساليب البسيطة وإلى الثبات الذى كان شعار الأيام الخالية . وهكذا نرى الشاعر المتشكك الذى كان من الصعب عليه أن يؤمن بأى شىء يحنى رأسه الأشيب أمام النصب القديمة ، ويقر أن الناس يهلكون إذا لم تكن لهم أساطير يؤمنون بها ، ويسخر قلمه لخدمة الآلهة المرضى الضعاف .

وبعد فليس فى أدب العالم كله ما يشبه هذه القصائد تمام الشبه — فهى رقيقة وقوية ، وفيها تأنق ورجولة ، وحذق وتعقيد ، تخفى ما فيها من فن بالغ البالغ درجة الكمال ، وتخفى ما استلزمته من جهد بما يبدو عليها من يسر وسلاسة . فهى موسيقى من طراز غير طراز فرجيل ، ذلك أن موسيقاها أقل من موسيقى فرجيل عذوبة فى النغم وأكثر منها تعقلا ، وهى لم تكتب للشبان والعذارى بل كتبت للفنانين والفلاسفة . وليس فى القصائد كلها شىء من الانفعال أو التحمس ، أو « اللفظ المنمق » ؛ بل الألفاظ كلها سهلة حتى فى الجمل المقاوبة

التي يجب أن يكون أولها آخرها . ولكن فى الأغانى الكبرى كبرياء وجلالا فى التفكير ، حتى ليخيل إليك وأنت تستمع إليها أن إمبراطوراً هو الذى يتحدث وأنه لا يتحدث بألفاظ من حروف بل من برنز :

لقد أقمت نصباً أبقى على الزمان من البرنز ،

وأعلى من قمة الأهرام الملكية ؛

لا تستطيع العواطف الهوج أن تحطمه .

ولا ريح الشمال الضعيفة ، ولا كر السنين .

التى لا عداد لها . ولا مر الزمان السريع .

إنى لن أموت الميتة الكبرى .

وأغفلت الجماهير التى هجاها هوراس أغانيه ، وشهر بها النقاد ووصفوها بأنها مملة متكلفة ، وندد المتزمتون بما فيها من أغانى الحب ؛ أما أغسطس فوصف القصائد بأنها قصائد خالدة ، وطلب إلى الشاعر أن يتبعها بمجموعة رابعة تصف أعمال دروسس وتيبريوس فى ألمانيا ؛ واختار هوراس لكتابة الأناشيد « القرنية » يصف فيها المباريات القرنية . وأجابه الشاعر إلى ما طلب ولكنه لم يجد من نفسه الإلهام الذى يمكنه من تنفيذ هذه الرغبة ؛ ذلك بأن الأغانى قد استنفدت كل جهوده ، ولهذا رجع فى كتابه الأخير إلى الشعر السداسى الأوتاد الذى كتب به كتبه فى الهجاء ، والذى هو أليق الأوزان بالحديث ، فكتب به رسائل ، وهى أشبه بحديث ينطق به صاحبه من مقعد مريح . وكان هوراس يريد على الدوام أن يكون فيلسوفاً ، وقد غلبت عليه هذه النزعة فى تلك الرسائل ، فاسترسل فى الحكم حتى فى أثناء ثرثرته . وإذ كان الفيلسوف شاعراً ميتاً وفقيها محتضراً ، فقد كان هوراس وهو شيخ فى الرابعة والخمسين من عمره قد نضجت سنه للبحث فى طبيعة الله ، والإنسان ، والأخلاق ، والأدب والفن .

وكتبت أشهر رسالة من هذه الرسائل كلها — وهى المعروفة لدى النقاد باسم « فن الشعر » إلى آدبيزونس Ad Pisones — وهم أفراد غير معروفين معرفة أكيدة من عشيرة پيزو Piso . ولم تكن هذه رسالة بالمعنى الحقيقى للرسائل ، بل كانت نصيحة قصيرة من صديق إلى صديق يبين له فيها طريقة الكتابة ، يقول له فيها : عليك أن تختار موضوعا يتفق مع مواهبك ، واحذر أن ينطبق عليك المثل القائل تمخض الجبل فولد فأرة(*)(٤٧) ؛ والكاتب المثالى هو الذى يعلم ويسلى فى وقت واحد ، « ومن يمزج النافع بالسار يكسب جميع الأصوات(٤٨) » . وتجنب الألفاظ الجديدة ، والعتيقة المهملة ، والمسرفة فى الطول . وأوجز بالقدر الذى يجيزه وضوح معانيك ، وامض مسرعا إلى لباب الموضوع . وإذا كتبت الشعر فلا تظنن أن العاطفة هى كل شىء ، نعم إنك إذا شئت أن يحس قارئك بعاطفة ما فلابدَّ لك أنت أن تحس بها(٤٩) ، ولكن الفن غير الشعور ، إنه الصورة التى يعبر بها عنه (وهنا أيضاً يتحدى الأسلوبُ الاتباعى الأسلوبَ الإبداعى(**)) ، ولكى تصل إلى حسن الصيغة ، عليك أن تواصل دراسة آداب اليونان ليلا ونهاراً ؛ ولكن ما تمحوه من كتابتك قدر ما تثبته أو قريباً منه .

« واعرض ما تكتبه على ناقد قدير وحاذر من أصدقائك ، فإذا اجتازت

(*) ليس فى ترجمة هذا المثل شىء من التصرف بل هى ترجمة حرفية للعبارة الإنجليزية
Labouring like a mountain and producing a mouse
ولعل العبارة الإنجليزية هى الأخرى ترجمة حرفية للمثل اللاتينى (المترجم).

(**) كاد الناس ينسون هوراس فى العصور الوسطى ، ولكنه استعاد منزلته فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وهما عصر العقل والإتباع فى الزمن الحديث ، حين عمد كل سياسى وكل كاتب وخاصة فى إنجلترا إلى نثر عبارات الشاعر وترديدها فى صورة ثابتة لا تغيير فيها ولا تبديل .

ولقد أعاد بوالو **Boilean** فى كتابه الفن الشعرى **L'art poétique** كتاب هوراس **Ad Piones** إلى الوجود ، وكان هو المشكل والمثبط للمسرحيات الفرنسية حتى زمن هوجو . وحاول پوپ **Pope** فى « مقاله فى النقد » **Essay on Citicism** أن يضعف من قوة الأدب فى إنجلترا بالطريقة عينها ولكن بيرن قضى على كل ما كان لپوپ من أثر فى هذه الناحية .

كتابتك هذه المراحل كلها ، فأخفها ثمانى سنين ، فإذا لم تجد بعدئذ إنك قد أفدت من نسيانها فانشرها ، ولكن اذكر على الدوام أنها لن يعيدها إلا الزمن وحده . وإذا كتبت مسرحيات فلتجعل الأعمال لا الأقوال هي التي تقص القصة ، وتصور الأشخاص . ولا تمثل الرعب على المسرح ، والزم وحدة الأعمال والزمان والمكان ، واجعل القصة قصة واحدة ؛ تقع حوادثها فى زمن قصير وفى مكان واحد . وادرس الحياة والفلسفة ، لأن الأسلوب مهما بلغ لا قيمة له من غير الملاحظة والفهم . كن جريئاً فى المعرفة » . وعمل هوراس نفسه بكل هذه القواعد إلا قاعدة واحدة — فهو لم يتعلم البكاء ؛ ذلك أنه لم يكن قوى الشعور ، أو أن شعوره ، قد اختنق فصمت ، ولذلك لم يسم قط إلى ذلك الفن الأعلى الذى يجسم الإخلاص فى العطف أو « العواطف التى يذكرها أصحابها فى هدوء » ؛ يضـــاف إلى هذا أنه كان مسرفاً فى تمجيد المدن . ولقد كان قوله : « Nil admirari تعجب بشيء قط[٥١] » نصيحة غير قويمة ، لأن الشاعر الحق يجب أن يعجب بكل شيء حتى ولو كان كشروق الشمس أو منظر الشجر يجيبه كل يوم . وكان هوراس يلاحظ الحياة ويرقبها ، ولكنه لم يكن يتعمق فى هذه المراقبة ؛ وقد درس الفلسفة واحتفظ على الدوام « باعتدال عقله » ولذلك لم يسم شيء من أغانيه فوق المرتبة الوسطى[٥٢] » وكان يعظم الفضـــيلة تعظيم الرواقيين ، ويحترم اللذة احترام الأبيقوريين فيسأل نفسه « أى الناس هو الحر إذن ؟ » ثم يجيب كما يجيب زينون : «هو الرجل الحكيم ، سيد نفسه ، الذى لا يرهب الفقر ولا الموت ولا الأغلال ، والذى يتحدى شهواته ويزدرى بالمطامع والذى هو كل فى نفسه[٥٣] » ؛ ومن أنبل قصائده قصيدة تضرب على نغمة رواقية وتقول :

« إذا كان الرجل عادلا حازما فقد تتصدع الدنيا كلها من حوله وتتساقط فوق رأسه ، وتجده تحت حطامها غير هياب ولا وجل[٥٤] » . ولكن هوراس رغم هذا كله يلقب نفسه بأمانة جذابة : خنزيرا من حظيرة أبيقور[٥٥] » .

وهو كأبيقور يقدر الصداقة فوق الحب ، وكفرجيل يمتدح إصلاحات أغسطس ، ويعيش حياته كلها عزبا ». وقد بذل كل ما فى وسعه دعيا إلى الدين ولكنه كان لا دين له ، وكان يشعر أن الموت يقضى على كل شىء[٥٦] .

وقد أظلمت أفكاره أيامه الأخيرة — وأوتى حظه من الأسقام ، فكان ممعوداً مصاباً بالنقرس وبغيره من الأمراض . ومن أقواله فى رثاء حاله : « إن السنين وهى تمر تسلبنا كل مسراتنا واحدة بعد واحدة[٥٧] » . ويقول لصديق آخر : « واحسرتاه يابستيوس إن السنين تمر بنا سراعا ؛ ولن تستطيع تقوانا أن تمنع عنا غضون أجسامنا ، أو تقدم أعمارنا ، أو الموت الذى لا يقهر[٥٨] » . وقد ذكر فى قصيدته الهجائية الأولى كيف كان يأمل إذا حانت منيته أن يفارق الحياة الدنيا راضيا « كالضيف الذى نال من الوليمة كفايته[٥٩] » . وها هو ذا الآن يقول لنفسه : « لقد لعبت ما شئت أن تلعب ، وأكلت ما شئت أن تأكل ، وشربت ما شئت أن تشرب . وقد آن أن ترحل[٦٠] ». وقد انقضت خمس عشرة سنة مذ قال لماسيناس إنه لن يطول أجله كثيرا بعد رجل المال[٦١] . وقد مات ماسيناس فى عام ٨ ق . م وتبعه هوراس بعد بضعة أشهر ، وأوصى بأملاكه إلى الإمبراطور ودفن بجوار قبر ماسيناس .

الفصل الخامس

ليفى

لم يظفر النثر فى عهد أغسطس بمثل ما ظفر به الشعر من مؤلفات عظيمة قيمة ، فقد اضمحلت الخطابة بانتقال التشريع والقرارات ، فى الواقع إن لم يكن فى الشكل ، من مجلس الشيوخ والجمعيات إلى حجرات الزعيم السرية . وظل العلم يجرى فى مجراه الهادئ تحميه من العواصف والأحداث أغراضه ومصالحه الخيالية ، ولم ينتج العصر كله آية أدبية خالدة إلا فى التاريخ . وكان صاحب هذه الآية الخالدة تيتس ليڤيوس Titus Livius :

ولد تيتس فى پتاڤيوم Patavium (پدوا Padua) فى عام ٥٩ ق . م . ثم وفد إلى العاصمة ، وأكب على دراسة البلاغة والفلسفة ، وخص السنين الأربعين الأخيرة من حياته بكتابة تاريخ لرومة (٢٣ ق . م — ١٧ م) . وذلك كل ما نعرفه عن هذا المؤرخ « فمؤرخ رومة لا تاريخ له »[٦٣] . وكان موطنه الأصلى ، كموطن ڤرجيل ، هو إقليم الپو ، وقد احتفظ على الدوام بفضائل الأقدمين وبساطتهم وتقواهم ، ثم نشأ فيه احترام قوى للمدينة الخالدة — لعل سببه ما كان يصله عنها من أنباء وهو بعيد عنها . وقد وضع خطة كتابه على أساس واسع عظيم ، وقدر له أن يتمه وإن لم يصلنا من « كتبه » البالغة مائة واثنين وأربعين كتاباً إلا خمسة وثلاثون . وإذ كانت هذه الكتب الباقية تحتويها ستة مجلدات فإن فى وسعنا أن نقدر ضخامة هذا المؤلف. ويلوح أن الكتاب قد ظهر أجزاء متتابعة لكل منها عنوان خاص ، ويجمعها كلها عنوان واحد هو « من أسس المدينة Ab urbe condita » وكان فى وسع أغسطس أن يتغاضى عن ميوله الجمهورية وأبطاله الجمهوريين لأن روح الكتاب الدينية والأخلاقية والوطنية كانت تتفق كل الاتفاق مع خطط

الإمبراطور السياسية . ومن أجل ذلك اتخذ ليفى صديقاً له وشجعه ليجعل منه فرچيلا ناثراً يبدأ عمله من حيث تركه الشاعر . وقد فكر ليفى فى يوم من الأيام وهو فى وسط مرحلته الطويلة التى بدأت فى عام ٧٥٣ ق . م أن ينقطع عن العمل بحجة أنه نال ما يبتغيه من الشهرة الخالدة ؛ ثم واصل العمل لأنه على حد قوله وجد نفسه قلقاً حائراً حين امتنع عن الكتابة .

وكان المؤرخون الرومان يرون أن الشعر ولد هجين من أبوين هما البلاغة والفلسفة ! وإذا كان لنا أن نصدقهم فإنهم كانوا يؤرخون ليوضحوا المبادئ الأخلاقية بالقصص البليغة ، أى أن يجلوا المغزى الخلقى بقصة . وقد نُشِّئ ليفى ليكون ممثلا ، ولكنه حين وجد الخطابة خطرة معرضة للنقد ، « اتجه نحو التاريخ » كما يقول تين Taine « لكى يظل كما كان خطيباً »[٦٥] . ويبدأ كتابه بمقدمة جافة ندد فيها بما كان شائعاً فى عصره من فساد وترف وخنوثة ؛ وقال إنه دفن نفسه فى الماضى لكى ينسى مساوئ الحاضر ، « الذى لا نطيق ما ابتلانا من أمراض كما لا نطيق لها علاجاً » ، ثم يقول إنه سيتخذ التاريخ سبيلا لتصوير الفضائل التى رفعت من شأن رومة . وكانت سبباً فى عظمتها ، وهى اتحاد الأسرة وقداستها ، وتقوى الأبناء ، والعلاقة المقدسة بين الناس والآلهة فى كل خطوة من الخطوات ، وقدسية ما يقطعه الناس من عهود وضبط النفس والوقار إلى أقصى حد . ويقول إنه سيجعل رومة الرواقية هذه أمة نبيلة كريمة الأخلاق إلى حد يرى الناس معه أن فتح بلاد البحر الأبيض المتوسط كان من الأعمال التى تحتمها الأخلاق الكريمة ، أو أنها أمر إلهى وشريعة مقدسة نزلت على ما فى الشرق من فوضى وما فى الغرب من همجية ، وسيجعل ما نالته رومة من ظفر نتيجة لما تحلى به أهلها من كريم الخلق ، كما عزاه پوليبوس إلى نظـام حكومتها الصالح الرشيد .

وأكبر ما فى الكتاب من عيوب إنما يرجع إلى هذه النزعة الأخلاقية

ففى الكتاب كثير من الشواهد الدالة على أن مؤلفه رجل يخضع لحكم العقل ؛ وكان احترامه للدين احتراما مسرفاً إلى حد يكاد يحمله على الإيمان بكل خرافة ، ويملأ صحف كتابه بالفأل والطيرة والتنبؤ بالغيب حتى انشعر ونحن نقرؤها أن الذين يدبرون الحوادث ويقومون بالأعمال هم الآلهة كما نشهد ذلك فى أشعار ڤرجيل . ولسنا ننكر أنه يعبر عن شكه فيما يروى من أساطير تاريخ رومة الأول ، ويبتسم حين يذكر من الروايات أقلها احتمالا ، ولكنه حين يواصل الكتابة لا يفرق بين الأساطير والتاريخ الحقيقى ، ويسير وراء أسلافه بلا تمييز كبير بين الباطل من أقوالهم والصحيح ، ويقبل الأقاصيص والروايات الخيالية التى اخترعها المؤرخون الأولون ليمجدوا بها أسلافهم(٦٦). وقلما يعنى بالرجوع إلى المصادر الأصلية أو الآثار ، ولا يشغل نفسه قط بزيارة الأماكن التى وقعت فيها أهم الحوادث . وتراه أحياناً يعمد إلى شرح صحائف كاملة من پولبيوس(٦٧) . ويلجأ إلى طريقة القساوسة القديمة طريقة الحوليات ، فيقص الحوادث التى وقعت فى عهد كل قنصل من القناصل ، ولهذا فإنك إذا ضربت صفحاً عما فيه من بحوث أخلاقية لن تجد فيه أثراً للتعليل الصحيح وربط النتائج بأسبابها ، بل كل ما تجده فيه سلسلة متتابعة من الأحداث الرائعة . وهو لا يفرق بين الآباء الأجلاف الأولين الذين عاشوا فى عهد الجمهورية المبكر وبين أشراف عصره ، أو بين السوقة الأشداء الذين أنشئوا الدمقراطية الرومانية والغوغاء الأدنياء الذين قوضوا أركانها ، وهو يتحيز للأشراف على الدوام .

ولقد كان السر الحقيقى فى عظمة ليڤى هو العزة الوطنية التى تجعل رومة فى نظره محقة على الدوام . وهذا السر هو الذى حباه بالسعادة الدائمة فى أثناء كدحه الطويل ؛ ولهذا السبب فإننا قلما نجد كاتباً نفذ خطة واسعة كخطته بمثل ما نفذها هو فى أمانة أشعرت قراءه الأقدمين ولا تزال تشعرنا نحن بعظمة رومة وبما قدر لها فى عالم الغيب من مصير . ولقد كان هذا الشعور

بعظمة رومة هو مصدر ما فى أسلوب ليفى من نشاط ، وما فى أشخاصه من قدرة ، وما فى وصفه من بهجة وقوة ، وما فى نثره من انسجام رائع جليل وإن الخطب التى اخترعها من عنده وبثها فى تاريخه لتعد آيات فى الخطابة أصبحت من بعده نماذج تحتذى فى المدارس ، وإن القارئ ليسحر لبه ما يتخلل الكتاب كله من أخلاق كريمة ؛ فليفى لا يعمد قط إلى الصخب والضجيج ، ولا يقسو فى أحكامه على الناس ، وعطفه على الدوام أوسع من علمه وأعمق من فكره . وهذا العطف يفارقه حين يروى قصة هنيبال ، ولكننا لا يسعنا إلا أن نغفر ذلك له ، وهو إلى هذا يكفر عن هذا الذنب بتتابع حوادث القصة وروعتها التى تصل إلى ذروتها حين يصف الحرب البونية الثانية .

ولم يكن قراؤه يهتمون بما فى كتابه من أخطاء ، ومن نقص فى الدقة ، ومن تحيز ، وكانوا يحبون أسلوبه وقصصه ، ويبتهجون بالصورة الواضحة التى صور بها ماضيهم . وكانوا يعدون كتابه « من أسس المدينة » ملحمة منثورة ومن أنبل ما خلفه عصر أغسطس ، والنزعة التى سادت ذلك العصر. ولقد ظل كتاب ليفى يلون أفكار الناس عن تاريخ رومة وأخلاق أهلها ثمانية عشر قرناً كاملة تبدأ من أيامه . وحتى الذين كانوا يقرءون كتابه من أهل البلاد الخاضعة لسلطان الرومان قد تأثروا بهذا السجل الضخم للفتوح التى لم يكن لها نظير من قبل ، وبالأعمال الضخمة الجبارة التى قام بها رجالها. ويقص بلنى الأصغر قصة رجل أسپانى تأثر بكتاب ليفى تأثراً حمله على أن يسافر من قادس Cadiz إلى رومة لعله يلقاه فيها . فلما حقق رغبته وصلى لربه ، نسى كل ما عدا ذلك من الحقوق ، وعاد راضياً إلى موطنه عند المحيط الأطلنطى[٦٨] .

الفصل السادس

ثورة العاشقين

وظل الشعر فى هذه الأثناء ينتشر وتعلو مكانته ، ولكن على غير ما كان يشتهى أغسطس . ذلك أن الفنانين العظماء ، أمثال فرجيل وهوراس ، هم وحدهم الذين يستطيعون قرض الشعر الجيد فى الموضوعات التى تطلبها الحكومة ؛ فأما من كانوا أعلى من هذين الشاعرين قدراً فإنهم لا ينصاعون إلى هذه المطالب ، وأما من كانوا أقل منهما شأناً فإنهم لا يستطيعون إجابتها . وقد خضع مصدران من مصادر الشعر الكبرى — الدين ، والطبيعة ، والحب — إلى سلطان الإمبراطورية ، أما المصدر الثالث فقد ظل خارجا على سلطانها غير خاضع لأى قانون حتى فى أغانى هوراس . ثم فر الشـــعر فراراً بطيئاً على يدى تيبلس Tibullus وپروپرتيوس Propertius ، وثار ثورة سارت فى طريق يحفه المرح المتزايد إلى خاتمة مفجعة .

وتفصيل ذلك أن ألبيوس تيبلس (٥٤ — ١٩) خسر الأرض التى ورثها عن آبائه كما خسر فرجيل أرضه حين وصلت نيران الحرب الأهلية بلدة پدوم Pedum — قرب تيبور Tibur مسقط رأسه — وأنقذه مسالا من الفقر وأخذه مع حاشيته إلى بلاد الشرق ، ولكن تيبلس مرض فى الطريق وعاد إلى رومة ، مغتبطا بنجاته من الحرب ومن السياسة ؛ فقد أمكنه ذلك من أن يصرف جهوده كلها فى التغنى بعشق الفتيات والفتيان ، ونظم المراثى المصقولة على نمط يونانيّ الإسكندرية . وكتب الابتهال المألوف إلى دليا Dilia (وهو اسم لا نعرف عنه أكثر من هذا ولعله لم يقصد به فتاة بعينها بل كان يسمى به الكثيرات من عشيقاته) التى تجلس أمام بابها كالحارسة العنيدة[٦٩] ، يُذكِّرها كما ذُكرت كثيرات من الغانيات قبلها أن الشباب

لا يجيء إلا مرة ثم ينقضي مسرعاً خفية ؛ ولم يقلق باله أن دليا متزوجة ، فقد أنام زوجها بأن قدم له نبيذاً مركزاً ، ولكنه استشاط غضباً حين فعل به عاشقها الجديد ما فعله هو بزوجها[٧٠] : ولعل هذه الموضوعات العتيقة لم تكن خليقة بإقلاق بال أغسطس ، أما الذي جعل تيبلس ، وپروپرتيوس وأوفد مبغضين إلى حكومة تلقى أشد الصعاب في وجود مجندين للجيش فهو النزعة المؤثرة القوية المضادة للجندية ، والتي كانت تتصف بها هذه العصبة المتحللة في حبها من جميع القيود . ذلك أن تيبلس يسخر من المحاربين الذين يسعون إلى الموت في الوقت الذي يستطيعون فيه أن يغرّروا بالنساء ، ويتحسر على عهد زحل ويتصوره عهداً :

لم يكن فيه جيوش ، ولا حقد ، ولا حرب . . . فلم تكن حرب حين كان الناس يشربون من أقداح خشبية . . . ألا فأعطني الحب وحده ودع غيري يذهب إلى الحرب . . . فالبطل هو الذي يدركه الكبر في كوخه المتواضع بعد أن وُلد له بنون ، فتراه يرعى الماشية وابنه يرعى الضأن ، وزوجته الصالحة تسخن المـــاء لجسمه المتعب . فلأعش حتى تصبح كل شعرة من شعر رأسي ناصعة البياض ، وأحدّث عن الأيام الخوالي كما يتحدث الشيوخ »[٧١] .

أما سكستس پروپرتيوس (٤٩ — ١٥) فكانت أغانيه أقل بساطة وأقل حناناً ، يزينها العلم أكثر مما يزين أشعار تيبلس ، وتماثلها فيما تحتويه من أناشيد الدعارة الهادئة . وقد ولد سكستس في أمبريا **Umbria** وتلقى العلم في رومة ، وسرعان ما مال إلى قرض الشعر ، وضمه ماسيناس إلى ندوته على الإسكولين **Esquiline** وإن لم يكن في القراء — إلا قلة ضئيلة منهم — من يستطيع أن يستخرج أفكاره من أغوار حذلقته . وهو يصف في زهو وسرور الولائم التي كانت تقام على شاطئ نهر التيبر ، حيث كان يحتسي خمر لزبس **Lesbos** في كؤوس من صنع الفنانين العظام ، وهو جالس كأنه على عرش بين النساء ،

المرحات » ، يرقب السفن تجرى فى النهر من تحته[٧٢] . وكان پروپرتيوس يتغنى بمدح الحرب من حين إلى حين ليطرب بذلك ولى نعمته وزعيمه ؛ أما حبيبته سنثيا Cynthia فكانت لها عنده نغمة أخرى ، فهو يقول لها : « لِمَ أنجب أبناء ليضحى بهم فى الانتصارات البارثية Parthian ؟ لا ، لن يكون ولد من أبنائنا جنديا »[٧٣] ، وهو يؤكد لها أن كل ما فى العالم من أمجاد عسكرية لا يعادل ليلة واحدة مع سنثيا[٧٤] .

وإذا أحصينا كل هؤلاء الأبيقوريين خفاف القلوب والأحلام ، الذين كانوا يقضون حياتهم بين الحب والصد كان پبليوس أفديوس نازو Pudlius Ovidius Naso أنموذجهم السعيد وحامل لوائهم جميعاً . وكان مولده عام ٤٣ ق . م فى سلمو Sulmo (سلوما) ، وهى بلدة فى واد جميل من وديان الأپنين على بُعد تسعين ميلا أو نحوها شرقى رومة . وكان يتخيلها من منفاه فى سنيه الأخيرة بلدة جميلة ذات كروم وغياض من شجر الزيتون ، وحقول من القمح ، ومياه جارية . وأرسله أبوه — وكان رجــلا ثريا من رجال الطبقة الوسطى — ليدرس القانون فى رومة ، ولكنه صُدم حين سمع أن ابنه يريد أن يكون شاعراً . فأخذ يذكر للصبى ما لقيه هومر من مصير محزن ؛ فقد مات هذا الشاعر — كما يقول أحسن الناس علماً بأخباره — فقيراً أعمى . وأثّر هذا التحذير فى أوفد فواصل دراسة القانون وارتقى حتى صار قاضياً فى المحاكم البريتورية ، وأبى أن يتقدم ليكون كوسترا ، فحزن لذلك أبوه أشد الحزن (لأن هذا المنصب كان يؤهله لأن يكون عضواً فى مجلس الشيوخ) ؛ وفضل أن يعمد إلى دراســة الأدب وإلى الحب ، محتجاً بأنه لا يسعه إلا أن يكون شاعراً « ولثغت بالأوزان فجاءت الأوزان »[٧٥].

وسافر أوفد على مهل إلى أثينة وإلى الشرق الأدنى وصقلية ، ولما عاد انضم إلى زمرة أكثر الناس مجوناً وخلاعة فى العاصمة ، وكان ذا نصيب موفور

من الجمال ، والذكاء ، والعلم ، والمال ، فاستطاع بذلك أن يفتح جميع الأبواب المغلقة . وتزوج مرتين فى شبابه ، وطلق زوجته ، ثم قضى بعض الوقت يرعى فى المراعى العامة(*) ويقول : « فليجد غيرى مسراتهم فى الماضى ، أما أنا فما أسعدنى إذ ولدت فى العصر الذى توائم أخلاقه أخلاقى[٧٦] . وكان يسخر من الإنياذة ، ولم يفد منها إلا نتيجة واحدة ، هى أنه لما كان ابن الزهرة هو الذى أنشأ رومة فقد وجب أن تصبح مدينة الحب لتدل على تقى أهلها وصلاحهم إن لم يكن ذلك لسبب آخر[٧٧] . وخابت لبه عاهر جميلة يسميها كورنا Corinna إخفاء لاسمها عن القراء ، أو لعل ذلك اسم يطلقه على كثيرات غيرها من النساء اللاتى وقع فى حبهن . وسرعان ما وجدت أشعاره المكشوفة فيها من ينشرها له ، فنشرت بعنوان الغزليات Amores فى عام ١٤ م ، ولم تلبث إلا قليلا حتى جرت على لسان كل شاب فى رومة حديثاً وغناء . ويقول هو فى ذلك : « إن الناس فى كل مكان يريدون أن يعرفوا من تكون كورنا هذه التى أتغنى بحبها »[٧٨] . وقد أضلهم هو فى مجموعة أخرى من الغزليات فى وصف الحب الخليط فقال :

« ليس الذى يثير عاطفتى الجمال الثابت ؛ بل إن ثمة مائة سبب تحفظ لى حبى ، فإذا رأيت فتاة جميلة ذات عينين ناعستين مطرقتين إلى حجرها اشتعلت نار الحب فى قلبى ، وأسرتنى بسذاجتها . وإذا أبصرت فتاة خليعة ، اخترقت سهام لحاظها قلبى ، لأنها ليست قروية ساذجة ، ولأنها تقوى أملى فى أن أضمها إلى صدرى على فراشى الوثير . وإذا تمنعت وتظاهرت بالعناد والصلابة حكمت بأنها ستخضع لى لا محالة ، ولكنها ممعنة فى خداعها . وإذا كنت عالمة ضليعة بما فى الكتب استهوتنى بشمائلك النادرة ... وتخطر

(*) يريد من غير زواج . (المترجم)

إحداهن الهوينا فأحب الحسن خطاها ، وتخطو الأخرى بقوة ، ولكنها ترق إذا طاف بها طائف الحب . . وإذا غنت فتاة بصوت شجي . . . . خطفت منها القبلات فى أثناء الغناء ، وإذا ضربت الأخرى بأناملها الخفيفة على الأوتار الشاكية — فمنذا الذى لا يقع فى حب هاتين اليدين الماهرتين ؟ وهذه تأسرنى بحركاتها ، إذا ما حركت يديها فى اتزان وانسجام ، وتفننت فى ثنى خصرها الرقيق فتذكى النار فى قلبى الذى تلتهب فيه نيران الحب لأقل الأسباب . . . . ضع هپوليتس Hippolytus فى مكانى يصبح پرياپس Priapus ! . . . إنى لتفتننى الطويلة القصيرة على السواء ، فكلتاهما تضرم النار فى قلبى . . . وإنى لأتقدم إليهما ضارعاً متوسلا أن يستجيبا لحبى[٧٩] .

واعتذر أوفد عن عدم التغنى بمجد الحرب ، وقال إن كيوبد Cupid جاءه واختلس قدماً من شعره وتركه أعرج[٨٠] . وكتب مسرحية لم يعثر عليها بعد وهى مسرحية ميديا Medea قوبلت بقبول حسن ، ولكنه كان على العموم يفضل الشعر الغزلى أو كما يسميه هو « ظلال الزهرة الكسول » ، ولا يرغب فى أكثر من أن يسمى « المنشد المعروف بأساليبه التافهة »[٨١] . وأغانيه هى بعينها هى أغانى جماعة التروبدور سبقتها بألف عام كاملة ، وموجهة مثلها للسيدات المتزوجات . وهى تجعل المغازلة أهم أعمال الحياة . ويعلم أوفد كورنا كيف تتحدث إليه بالإشارات وهى مضطجعة على فراش زوجها[٨٢] ، ويؤكد لها أنه سيظل وفياً لها أبد الدهر ، وأنه لن يزنى بغيرها أبداً : « فلست زير نساء يتنقل من هذه إلى تلك ويحب مائة امرأة فى وقت واحد » . ثم يحظى بها آخر الأمر ويكتب قصيدة ابتهاجاً بنصره ، ويثنى فيها عليها لطول صدها عنه ، وينصحها بأن تعود إلى هذا الصد من حين إلى حين ؛ حتى يدوم حبه لها أبد الدهر . ثم يخاصمها ويضربها ، ويندم على فعلته ، ويحزن ويجن بحبها أكثر من ذى قبل ، ويفعل ما يفعله رميو فيتوسل إلى الليل أن يطول وإلى الفجر ألا يطلع ، ويرجو أن تهب

ريح موانية فتحطم قطب عربة الفجر . وتخدعه كورنا كما خدعها ، ويستشيط هو غضباً حين يعرف أنها لا تجد فيما يقدمه لها فى شعره من خشوع جزاء كافياً لحبها له ؛ وتقبّله طالبة إليه أن يصفح عنها ولكنه لا يسامحها لما كسبته من حذق جديد فى بث لواعج الهوى ، ويقول إن معلماً جديداً قد علمها هذا الحذق(٨٣) . وبعد بضع صفحات من الكتاب نجده يحب فتاتين فى وقت واحد كلتاهما جميلة حسنة الذوق فى اختيار ملابسها ، و مهذبة ، مثقفة »(٨٤) . ثم لا يلبث أن يساوره الخوف من أن يقضى عليه توزيع قلبه بين حبيبتيه ، ولكنه يقول إنه يسعده أن يخر صريعاً فى ميدان الحب(٨٥) .

ولاقت هذه القصائد قبولا لا بأس به من المجتمع الرومانى بعد أربع سنين من صدور قوانين الإصلاح اليوليوسية ، وظلت بعض الأسر العظيمة أمثال أسرة الفابيين والكرفينيين ، والبمبونيين تستضيف أوفد فى بيوتها ؛ وازدهى الشاعر بما ناله من نصر فأصدر كتاباً فى التغرير بالنساء سماه فن الغرام ars amatoria (٢م) يقول فيه . « لقد عينتنى الزهرة معلما للحب الرقيق » . وهو يحذر قراءه تحذيراً ينطوى على العفة والطهارة فيقول إن أمثاله يجب ألا تطبق إلا على الجوارى والسرارى ؛ ولكن ما يفيض به الكتاب من تصوير للصداقات الوثيقة ، ومواعيد اللقاء السرية ، والرسائل الغرامية ، ومن هزل وفكاهة ، وخيانة أزواج ، وخادمات محتالات ماهرات ، كل هذا يوحى بأن الكتاب إنما يصور أحوال الطبقتين العليا والوسطى فى رومة . وأراد أن لا تكون دروسه سريعة الأثر فوق ما يجب أن تكون فأضاف إلى رسالته الأولى رسالة ثانية فى علاج الحب Remedia Amoris يقول فيها إن خير علاج من داء الحب هو العمل الشاق ، ثم يليه فى القوة الصد ، ويأتى بعدهما الغياب ، ومن المفيد أيضا أن تفاجئ حبيبتك فى الصباح قبل أن تتم زينتها(٩٠) . ثم أراد آخر الأمر أن يوفق بين آرائه الأولى والثانية فأخرج رسالة ثالثة عنوانها : Demedicamina fociei femininae وهى رسالة شعرية فى

أصباغ التجميل وأدهانه ، أخذ ما فيها عن اليونان . ولاقت هذه الرسائل الصغيرة رواجاً عظيما ، انتشرت بسببه سمعة أوفد السيئة فى كل مكان ، ويقول فى ذلك : « ما دامت شهرتى قد طبقت العالم كله فإنى لا يعنينى قط ما يقوله عنى شخص أو شخصان »[٩١] ولم يكن وهو يقول هذا يعرف أن أحد هذين الشخصين الحقيرين هو أغسطس نفسه ، وأن قصائده قد أغضبت الزعيم ، وأنه يراها إهانة لحقت بالقوانين اليوليوسية ، وأنه لن ينسى هذه الإهانة حين تخطر الفضائح الإمبراطورية على بال الشاعر الغافل .

وفى السنة الثالثة بعد الميلاد تزوج أوفد للمرة الثالثة ، وكانت زوجته الجديدة من أكبر الأسر الممتازة فى رومة ؛ واستقر الشاعر ، وكان وقتئذ فى السادسة والأربعين من عمره ، فى حياته المنزلية الهادئة ، ويلوح أنه هو وزوجته قد تبادلا الوفاء والإخلاص والهناءة فى فابيا Fabia ، وفعلت به السن ما لم يفعل به القانون ، فأخمدت نيران عواطفه وجعلت شعره جديراً بالاحترام . فروى فى كتابه Heroides قصصاً عن حب شهيرات النساء أمثال پنلپي Penelope وفيدرا Phaedra وديدو ، وأريدنى Ariadne ، وسابفو ، وهلن Helen ، وهيرو Hero ، ولعله أسرف فى طول هذه القصص حتى أمل ، لأن التكرار قد يجعل كل شىء حتى الحب نفسه مسئما . على أن مما يثير الدهشة حقاً فى هذه القصص جملة على لسان فدرا تعبر فيها عن فلسفة أوفد : « لقد حكم چوف بأن الفضيلة هى كل ما يهبنا اللذة »[٩٢] . ونشر الشاعر حوالى ٧ م أعظم مؤلفاته كلها وهو كتاب « التحول Metamorphoses » . ويتألف من خمسة عشر سفرا ، تقص فى شعر سداسى الأوتاد تحول الجماد والحيوان والناس والآلهة . وإذ كان كل شىء فى الأساطير اليونانية والرومانيـــة ، إلا القليل النادر ، قد بدل صورته ، فقد استطاع أوفد بفكرته هذه أن يغترف من بحر الأساطير القديمة كلها من خلق العالم إلى تأليه قيصر . وكانت كتاباته هى القصص التى ظلت ذات شأن عظيم فى برامج الكليات جميعها حتى الجيل السابق على جيلنا

هذا ، بل إن ثورة هذه الأيام لم تمح بعد ذكراها من العقول : كقصص عربة فيتون Phaethon's Chariot ، وپيراموس وثزبى Pyramus & Thisbe وپرسيوس وأندرمدا Perseus & Andromeda ، وسرقة پرسپرين The Rape oF Prosperine ، وأرثوزا Arethusa ، وميـــديا Medea ، ودىدالوس وأيكاروس Daedalus & Icarus ، وبوسيز وفليمـــون Baucis & Philemon ، وأورفيوس ويوردِيس Orpheus & Eurydice ، وأطلنطا Atlanta ، وڤينوس وأدنيس Venus & Adonis وكثير غيرها .

هذا هو المعين الذى استمدت منه مئات الآلاف من موضوعات القصائد ، والرسوم والتماثيل . وإذا كان لا بد للإنسان أن يواصل دراسة الأساطير القديمة ، فإن أيسر السبل إلى دراستها أن يقرأ قصص هذا الحشد العظيم من الآدميين والآلهة ، وهي قصص تروى بكثير من التشكاك الفكه النزعة الغزلية ، وللفن فيها أثر دائم عظيم يعجز عنه العابث غير القدير ، ولايصل إليه إلا من أوتى المقدرة والصبر الطويل ، فلا عجب والحالة هذه أن يعلن الشاعر الواثق من نفسه فى ختامها أنه من الخالدين : « per saecula omnia vivam سأعيش إلى آخر الدهر » .

وما كاد يفرغ من كتابة هذة العبارة الأخيرة حتى ترامى إليه أن أغسطس قد أمر بنفيه إلى بلدة تومى Tomi الباردة الهمجية الواقعة على ساحل البحر الأسود وهى المعروفة الآن بقنسطنطة ، والتى لا تزال غير محببة إلى غير أهلها . وتلك كارثة لم يكن الشاعر مستعداً لتحملها فى مثل سنه ، وكان قد أتم فى هذا الوقت إحدى وخمسين عاماً ، وفرغ توًّا ، قبيل انتهائه من كتاب « التحول » ، من قصيدة من الشعر الجيد يثنى فيها على الإمبراطور ويعترف فيها بأن سياسته قد نشرت لواء السلام والأمن والرفاهية التى يستمتع بها الجيل الذى يعيش فيه أوفد . وكان فوق هذا قد أتم نصف قصيدة تدعى فاستى Fasti وهى قصيدة تكاد تكون من القصائد التقية تتحدث عما فى السنة الرومانية من أعياد دينية . وكان يوشك

أن يجعل هذه القصيدة ملحمة يستمد موضوعها من التقويم الرومانى ، لأنه استخدم فى رواية قصص الدين القويم وفى تكريم هياكله وآلهته ما استخدمه فى الأساطير اليونانية والغزل الرومانى من أسلوب سهل واضح وعبارات وجُمل رقيقة . وكان يرجو أن يهدى القصيدة إلى أغسطس ليشترك بها فى إعادة الدين القويم إلى سابق عهده ، ولتكون بمثابة اعتذار منه عن سخريته بهذا الدين ، وإنكار لما فرط منه فى حقه .

ولم يبين الإمبراطور فى قراره أسباب نفيه ، وليس فى مقدور أحد أن يعرف فى هذه الأيام حقيقة هذه الأسباب . على أن ثمة إشارة بعيده من الإمبراطور لأسباب هذا النفى ، فقد نفى فى الوقت نفسه حفيدته يوليا وأمر بإخراج كتب أوفد من دور الكتب العامة . ويلوح أن الشاعر كان له بعض الشأن فى مسلك يوليا الشائن ، سواء كان حظه فيه حظ الشواهد ، أو المشارك ، أو الفاعل الأصلى . أما هو نفسه فيقول إنه عوقب بسبب « خطإ » وقع فيه وبسبب قصائده ، ويذكر ما يوحى بأنه شهد على الرغم منه منظراً غــير لائق[٩٣] . وأجيز له أن يبقى فى أثناء الشهور الباقية من عام ٨ م ينظم فيها شئونه . وكان القرار مجرد إبعاد ، أخف من النفى ، يسمح له أن يحتفظ بأملاكه ، ولكنه أقسى منه إذ يلزمه بالإقامة فى مدينة واحدة. فلم يكن منه إلا أن أحرق كتاب التحول ، وإن يكن بعض القراء قد نقلوا صوراً منه واحتفظوا بها لأنفسهم . وابتعد عنه معظم أصدقائه[٩٤] وعرض بعضهم أنفسهم لأشد الأخطار ببقائهم معه إلى ساعة رحيله ؛ وشجعته زوجته وأعانته على تحمل محنته بما أظهرت له من الحب والإخلاص ، وإن لم تسافر معه إطاعة لأمره . وإذا استثنينا هذه المظاهر القليلة فإن رُومة بأسرها لم تظهر شيئاً من الاهتمام بشاعر أفراحها ومسراتها حين أبحر من أستيا ليبدأ سفره الطويل وابتعاده عن كل شىء يحبه . وكان البحر هائجاً طوال أيام الرحلة تقريباً ،

وخيل إلى الشاعر مرة أن الأمواج ستبتلع سفينته ، ولما أبصر توى حزن إذ بقى على قيد الحياة واستسلم للحزن واليأس .

وكان فى أثناء الرحلة قد شرع ينظم القصائد المعروفة لنا باسم **الأحزان** Tristia . فلما جاء المدينة واصل نظمها وبعث بها إلى زوجته وابنته وربيبته وأصدقائه . وأكبر الظن أن الرومانى المرهف الحس قد بالغ فى وصف أهوال موطنه الجديد حين قال عنه إنه : مكان قفر خال من الأشجار لا ينبت فيه شيء وإن كان ضباب البحر الأسود حجبَ عنه الشمس ، وإن البرد يشتد فيه حتى يبقى ثلج الشتاء فى بعض السنين طوال فصل الصيف ؛ ويتجمد ماء البحر الأسود فى فصل الشتاء المظلم الكئيب كما يتجمد ماء نهر الدانوب حتى ليسهل أن يمر عليه البرابرة الضاربون حول المدينة ويغيروا على أهلها وهم خليط من الجيتا Getae حملة الخناجر واليونان المهجنين . ولما فكر فى سماء رومة الصافية وحقول سلمو Sulmo الناضرة تحطم قلبه أسى وحسرة ، وسرى فى شعره — وكان لا يزال جميلا فى شكله ولفظه — شعور عميق قوى لم يسر فيه قبل .

وتتصف « **الأحزان** » هى والرسائل الشعرية التى كتبها لأصدقائه « **من البحر الأسود** Ex Ponto » بكل ما تتصف به أعماله العظيمة من سحر وجمال ، فقد بقى له فى منفاه كل ما كان له من ألفاظ سهلة يبعث بها السرور فى القلوب حتى وهو فى المدرسة ، ووصف للمناظر تكتسب وضوحها من نفاذ بصره ومن خياله ، وقدرة على تصوير الأشخاص وبث الحياة فيهم بما أوتى من دقة ومهارة سيكولوجية ، وعبارات موجزة مليئة بالتجربة والتفكير ، ورقة فى الحوار ، ويسر وسهولة فى الأوزان ، كل هذه الخصائص قد بقيت له فى منفاه وخالطها جِدٌّ ووقار ورقة ، كان افتقار قصائده الأولى إليها مما جعلها غير جديرة بالرجال . وكان ينقصه فى جميع مراحل حياته قوة الخلق ؛ كما أنه قد أفسد

شعره فى وقت من الأوقات بما ملأه به من وصف الشهوات الجنسية التافهة ، فقد أغرق الآن أشعاره بفيض من الدموع والتضرع للزعيم والتذلل له .

وكان يحسد القصائد التى تستطيع الوصول إلى رومة ، ومن أقواله فى هذا المعنى : ارحلى أيتها الكتب وحيى باسمى الأماكن التى أحبها » و « أرض بلادى العزيزة على »[٩٥] ويتمنى لو أن صديقاً شجاعاً حمل هذه الرسائل إلى الإمبراطور فأشفق عليه . وهو يفصح فى كل رسالة عن أمله فى أن يعفو الإمبراطور عنه ، أو يأمر بنقله إلى مكان أقل قسوة من منفاه . وهو لا ينفك يفكر فى زوجته ويردد اسمها فى أثناء الليل ، ويتمنى أن يقبل شعرها الأبيض قبل أن تحين منيته[٩٦]. ولكنه لم يصله عفو ، حتى إذا قضى فى المنفى تسع سنين وبلغ من العمر ستين عاما ، رحب بالموت ، وجىء بعظامه إلى إيطاليا استجابة لرجائه ، ودفنت بجوار عاصمة البلاد .

وحققت الأيام ما تنبأ به لنفسه من شهرة خالدة ، وكان له فى العصور الوسطى ما للڤرچيل من أثر عميق ، وأضحى كتاباه « التحولات » و« الهيرويدات » مصدر كثير من روايات الحب فى تلك العصور ، واستمد منه بوكاشيو وتسو ، وتشوسر ، واسپنسر كثيراً من موضوعاتهم ، ووجد مصورو النهضة فى أشعاره الشهوانية كنزا من الموضوعات لا ينضب له معين ، وملاك القول أنه كان أعظم شاعر وجدانى إبداعى فى العصر العقلى الاتباعى .

وانقضى بموته عهد من العهود الزاهرة فى تاريخ الأدب . ولا جدال فى أن عصر أغسطس لم يكن من أزهى عصور الأدب كما كان عصر بركليز فى اليونان أو عصر إلزبث فى إنجلترا .

وقد كان حتى فى أحسن ما أخرجه من النثر بلاغة طنانة ، وفى خير ما أخرجه من الشعر كمال فى الشكل قلما ينتقل كلاهما من القلب إلى القلب ؛

ولسنا نجد فى هذا العصر من يضارع إسكاس أو يوريبديز أو سقراط أو حتى لكريشيوس أو شيشرون . لقد كان احتضان الإمبراطور للأدباء هو الذى يلهم أدب رومة ويغذيه ويقمعه ويضيق عليه . وإن العصر الأستقراطى — كعصر أغسطس أو لويس الرابع عشر أو القرن الثامن عشر فى إنجلترا — إن هذا العصر ليعلى من شأن الاعتدال والتوسط ، وحسن الذوق ، ويوجه الأدب وجهة « اتباعية » فى الأسلوب يعلو فيها العقل والشكل على الوجدان والحياة . وذلك أدب أكثر صقــلا وأقل حيوية ، وأنضج وأقل تأثيراً من أدب العصور أو العقول المبدعــة العاطفية . ولكننا إذا غضضنا الطرف عن هذا ونظرنا إلى أدب ذلك العصر فى نطاق الأدب العقلى الاتباعى وجدناه جديراً باسمه ؛ فنحن لا نرى من قبله حكماً رزيناً قد عبر عنه بمثل هذا الفن البالغ أوج الكمال ، وحتى المرح الجنوبى الذى وصــفه أوفد قد خفف من حدته القالب الاتباعى الذى صب فيه . وقد بلغت اللغة اللاتينية فى شعره وشعر ڤرچيل وهوراس أعلى ما وصلت إليه بوصفها أداة لقرض الشعر ، ولم تبلغ بعدهم ما بلغته فى أيامهم من ثراء فى اللفظ ، وفخامة فى النغم ، ودقة فى التعبير مع إيجاز ومرونة وعذوبة ألفــاظ .

الباب الثالث عشر
الجانب الآخر من الملكية
١٤ – ٩٦ م(*)

الفصل الأول

تيبريوس

إذا نزل العلماء من عليائهم إلى ميدان العواطف زاد العالم ولعاً بها ، أما إذا كانت العواطف هي المسيطرة على السياسة تصدعت أركان الإمبراطوريات وزلزلت دعائمها . وكان اختيار أغسطس لتيبريوس اختياراً حكيماً ، ولكنه جاء بعد فوات الفرصة . ولما كان تيبريوس يعمل على إنقاذ الإمبراطورية بصبره وحسن قيادته أوشك الإمبراطور أن يحبه ، فقد جاء في ختام إحدى الرسائل التي وجهت إليه : « وداعاً يا أحب الناس إلى ... ويا أشجع الرجال ، ويا أعظم القواد إخلاصاً وأحياهم ضميراً »[1] . ولكن عاطفة الجوار وقرب الدار أعمت أغسطس كما أعمت من بعده أورليوس ، فنأى بجانبه عن تيبريوس وقرب إليه أحفاده الصغار ، واضطره إلى التخلي عن زواج سعيد موافق ليكون ديوث يوليا ، وغضب منه حين لم يرض عن سلوكها ، وتركه يبلغ سن الشيخوخة وهو يدرس الفلسفة في رودس . ولما تولى تيبريوس رياسة الدولة في آخر الأمر كان قد بلغ الخامسة والخمسين من عمره ، وكره المجتمع ، ولم يعد يرى في السلطان سعادة .

(*) ستكون كل التواريخ الواردة في هذا الباب ومايليه بعد الميلاد إلا إذا نبهنا بأنها قبله .

وإذا شئنا أن نفهمه على حقيقته وجب علينا أن نذكر أنه من آل كلوديوس وأنه كان أول الفرع الكلودى من الأسرة اليوليوسية الكلودية التي كان آخرها نيرون . وقد ورث عن أبويه أنبل دم في إيطاليا ، وأضيق أهلها أفقاً ، وأقواهم إرادة . وكان طويل القامة شديد البأس ، حلو الملامح ، ولكن حَبّ الشباب ضاعف من حيائه ، وسماجة طباعه ، وإحجامه وحبه للعزلة[٢] . ويمثله رأسه الجميل المحفوظ في متحف بسطن في صورة قس شاب عريض الجبهة ، واسع العينين غائرهما ، ذى وجه يدل على الحزن وعميق التفكير ، وقد بلغ من جده ووقاره في شبابه أن أطلق عليه بعض المجان اسم « الرجل العجوز » . وقد أخذ من التربية كل ما يستطيع أن يأخذه عن الرومان واليونان والبيئة والتبعة ، وأتقن اللغتين اليونانية والرومانية وآدابهما ، وكتب الأغاني الشعرية ، ودرس التنجيم و « غفل عن الآلهة »[٣] . وكان يحب أخاه الأصغر دروسس رغم أنه كان أحب منه إلى الشعب ؛ وكان زوجاً مخلصاً وفياً لفبسانيا Vipsania مكرماً لأصدقائه إكراماً لم يكونوا يترددون معه في أن يهدوا إليه الهدايا وينتظروا منه أن يهدى إليهم أربعة أمثالها . وكان أقسى قواد زمانه وأقدرهم ، فنال بذلك إعجاب جنوده وتعلقهم به ، لأنه كان يعنى بكل شئونهم مهما صغرت ، ولأنه كان يكسب المعارك بفنه أكثر مما يكسبها بدماء جنده .

ولكن فضائله هي التي قضت عليه ، فقد كان يصدق القصص التي تروى عن أعمال أسلافه ، وكان يتوق إلى رؤية صرامة الرومان الأقدمين تعود إلى المدنية الجديدة ، وارتاح إلى إصلاحات أغسطس الأخلاقية ، ولم يخف قط عزمه على تنفيذها طوعاً أو كرهاً . ولم يكن يحب ذلك الخليط من الأجناس الذى كان يغلى في بوتقة رومة ، فقدم إليهم الخبز ولكنه لم يقدم إليهم الألعاب ، وأغضبهم بامتناعه عن حضور ما كان يقدمه إليهم منها أثرياء المدينة . وكان قوى الاعتقاد بأن رومة لا ينجيها مما تردت فيه من الانحطاط إلا طبقة

من الأشراف الصلاب ذوى الخلق القويم والذوق الجميل . ولكن الأشراف والعامة على السواء لم يطيقوا صلابة عوده ، وصرامة وجهه ، وصمته الطويل ، وحديثه البطىء ، وما يبدو عليه من علم بتفوقه ، وفوق هذا كله اقتصاده الشديد فى أموال الدولة . فهو والحالة هذه رواقى ولد خطأ فى عصر أبيقورى . وقد حالت أمانته الصارمة بينه وبين تعلم فن سنكا ، فن الدعوة إلى عقيدة بلغة مزينة جميلة ، واتباع عقيدة أخرى والمثابرة عليها بتجمل وكياسة .

وظهر تيبريوس أمام مجلس الشيوخ بعد أربعة أسابيع من وفاة أغسطس ، وطلب إليه أن يقرر إعادة الجمهورية ، وقال للأعضاء إنه لا يصلح لحكم تلك الدولة المترامية الأطراف ، « وإن خير طريقة لإدارة أعمال المصالح المختلفة التى تشرف على الشئون العامة فى مدينة احتوت هذا العدد الجم من الرجال النابهين ذوى الأخلاق العالية . . . أن يتولاها جماعة مؤتلفون من خير المواطنين وأعظمهم كفاية »(٤) . ولم يجرؤ أعضاء المجلس على أن يصدقوا ما يقوله لهم ، فحيوه كما حياهم بطأطأة رؤوسهم ، وما زالوا به حتى قبل أن يتولى السلطة التى قال عنها « إنها استرقاق مهظ مذل » على أمل أن يسمح له المجلس فى يوم من الأيام أن يعتزلها ليحيا حياته الخاصة متمتعاً بالحرية(٥) . وهكذا مثلت الرواية من كلا الجانبين أحسن تمثيل . وما من شك فى أن تيبريوس كان يريد أن يتولى الزعامة وإلا لوجد سبيلا إلى الفرار منها ، وأن مجلس الشيوخ كان يخشاه ويبغضه ، ولكنه كان يرهب عودة جمهورية تقوم ، كما كانت تقوم الجمهورية القديمة ، على جمعيات تعد من الوجهة النظرية مصدر السلطات جميعها ، وكان يرغب فى نظام أقل دمقراطية من هذا النظام السالف الذكر لا أكثر منه . ولشد ما ابتهج حين أقنعه تيبريوس (١٤ م) أن يأخذ من الجمعية المئوية حق اختيار الموظفين العموميين . وشكا المواطنون من هذا الانقلاب بعض الوقت وكان سبب شكواهم أنهم خسروا الأموال التى كانت تبتاع بها أصواتهم ، وأضحى كل ما بقى بعدئذ من السلطة لعامة الناس هو سلطة

اختيار الإمبراطور بقتل سلفه . ذلك أن الدمقراطية بعد تيبريوس قد انتقلت من الجمعيات إلى الجيش ، وكانت أداة الانتخاب هي حد السيف .

ويلوح أنه كان يبغض الملكية بغضاً حقا خالياً من الرياء ، وأنه كان يعدّ نفسه رأس مجلس الشيوخ الإدارى وذراعه المنفذة ؛ ولذلك رفض من الألقاب كل ما تشتم منه رائحة الملكية وقنع بلقب « زعيم الشيوخ » Princeps senatus وقضى على كل محاولة ترمى إلى تأليهه ، أو عبادة روحه ، وأظهر كرهه للملق . ولما أراد مجلس الشيوخ أن يسمى أحد الأشهر باسمه ، كما سمى من قبل شهرين باسم قيصر وأغسطس ، رد هذه التحية رداً ينطوى على الفكاهة فقال : « وماذا تفعلون إذا وجد لديكم ثلاثة عشر قيصراً ؟ »(*) . ورفض اقتراحا يطلب إليه أن يعيد النظر فيمن يختارون لعضوية مجلس الشيوخ ، وقال إنه لا شيء مطلقاً يفوق احترامه لهذه الجمعية القديمة « جمعية الملوك » . وكان يحضر اجتماعات المجلس ، ويحيل إليه « حتى أصغر الأمور ليحكم فيها » ، ويجلس فيه ويتكلم كأنه عضو عادى لا أكثر ، وكثيراً ما كان يقترع مع الأقلية ، ولم يحتج يوماً من الأيام إذا وافق المجلس على قرارات تتعارض مع رغبته التى أبداها جهرة[٧] . و « كان منطوياً على نفسه ، صبوراً » . على حد قول سوتونيوس « إذا ما وجهت إليه وإلى أسرته الشتائم والافتراءات والمطاعن » . وكان يقول فى ذلك « إن البلد الحر يجب أن تطلق فيه حرية القول والفكر »[٨] . ويعترف تاستس وهو من المعادين له أن ترشيحاته « كانت تصدر عن حكمة ، وأن من كان يرشحهم من القناصل والبريتورين كانوا يتصفون بصفات الشرف والكمال القديمة الخليقة بمناصبهم . وكان من يلونهم من الموظفين يمارسون سلطات مناصبهم بعيدين عن

(*) ولقد كان على مجلس الشيوخ أن يمثل بقوله هذا فيقسم السنة إلى ثلاثة عشر شهراً كل منها ثمانية وعشرون يوماً يعقبها يوم عطلة (أو يومان فى السنة الكبيسة) .

تدخل الإمبراطور . وكانت القوانين إذا استثنينا ما يختص منها باغتصاب الملك تجرى فى مجراها الطبيعى . . . وكانت أعمال الإيرادات العامة يصرفها رجال امتازوا بالاستقامة والنزاهة . . . ولم تفرض على أهل الولايات أعباء جديدة ، وكانت الضرائب القديمة تجبى فى غير عنف أو قسوة . . . وساد النظام بين عبيده . . . وكانت دور العدالة مفتحة الأبواب لتفصل فى كل نزاع يقع بين الإمبراطور وأفراد الشعب ، وكان القانون وحده هو الفيصل فى هذا النزاع »[٩] .

ودام هذا الحكم الصالح ، حكم تيبريوس ، تسع سنين ، استمتعت فيها رومة وإيطاليا والولايات بحكومة صالحة لم تر خيراً منها فى تاريخها كله . وحسبنا أن نذكر شاهداً على هذا أن تيبريوس الذى وجد حين اعتلائه العرش فى خزانة الدولة مائة مليون سسترس ترك فيها حين وفاته ٢٫٧٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دون أن يفرض ضرائب جديدة ، وعلى الرغم من هباته الكثيرة للأسر والمدن التى حلت بها الكوارث ، وبالرغم من عنايته بإصلاح جميع المنشآت العامة وعدم اشتباكه فى حروب تجر له المغانم ، ورفضه كل ما أراد أن يوصى به إليه أشخاص لهم أبناء أو أقارب أدنون . ولم يدخر جهداً فى العناية بجميع شئون البلاد الداخلية والخارجية . وكان يكتب للولاة الذين يريدون أن يجبوا من الضرائب أكثر مما كان مفروضاً على ولايتهم يقول لهم : « لقد كان من واجب الراعى الصالح أن يقص صوف غنمه لا أن يجزها »[١٠] . ولم يكن يعزو إلى نفسه مجد الظفر فى ميدان القتال وإن كان من القادة المحنكين ، وقد بسط لواء السلام على الإمبراطورية واحتفظ به بعد السنة الثالثة من حكمه .

وكانت سياسة السلام هذه هى التى حالت بينه وبين ما كان يبغيه من تقدم فى عهده . ذلك أن جرمنكوس ابن أخيه ، وهو الشاب الوسيم الذى تبناه بعد موت دروسس ، كسب بعض المعارك فى ألمانيا ورغب فى أن يواصل الزحف عليها ليفتحها . وكان من رأى تيبريوس عدم التورط فى هذا الفتح ،

فأغضب بذلك الشعب ذا النزعة الاستعمارية . وإذ كان جرمنكوس حفيد ماركس أنطونيوس فإن الذين كانوا لا يزالون يحلمون بإعادة الجمهورية قد اتخذوه رمزاً لقضيتهم ، فلما أن نقله تيبريوس إلى بلاد الشرق عد نصف أهل رومة هذا القائد الشاب شهيدا لحسد الزعيم ، ولما أن فاجأ جرمنكوس المرض ومات ظنت رومة كلها أن الإمبراطور قد أمر بأن يدس له السم فى الطعام (١٩) ، واتهم بهذه الجريمة أكنيوس پيزو أحد الموظفين المعينين من قِبَل تيبريوس فى آسية الصغرى . وحاكمه مجلس الشيوخ ، وأيقن الرجل أن مجلس الشيوخ سيدينه فانتحر لكى يحتفظ بأملاكه لأسرته . ولم تكشف المحاكمة عن شواهد تدل على ارتكاب تيبريوس لهذه الجناية أو تثبت براءته منها ، وكل ما نعرفه أنه طلب إلى مجلس الشيوخ أن يمكن پيزو من أن يحاكم محاكمة عادلة ، وأن أنطونيا أم جرمنكوس ظلت إلى آخر أيام حياتها أخلص أصدقاء تيبريوس[١١] .

واضطر تيبريوس أمام تدخل الجمهور الثائر المهتاج هذه القضية المشهورة ، والقصص البذيئة التى كانت تذاع عن الإمبراطور ، ودسائس أجرپينا أرملة جرمنكوس وإثارتها الناس عليه اضطر تيبريوس أمام هذا كله أن يلجأ إلى قانون الخيانة العظمى الذى أصدره قيصر والذى ينص على الجرائم التى ترتكب ضد الدولة . وإذ لم يكن لرومة مدع عمومى أو نائب عمومى ، ولم يكن لها (قبل أغسطس) شرطة ، فقد كان من حق كل مواطن ومن واجبه أن يوجه التهمة أمام المحاكم لكل شخص يعرف أنه خرق القانون ، فإذا أدين المتهم كوفئ المخبر أو المبلغ بربع أملاك المحكوم عليه وصادرت الدولة بقية أملاكه . واستعان أغسطس بهذا الإجراء الخطير لإرغام الناس على إطاعة قوانينه الخاصة بالزواج . والآن وقد انتشرت المؤامرات ضد تيبريوس فقد كثر المخبرون الذين رأوا أن يستفيدوا بالتبليغ عنها ، وكان أنصار الزعيم من الشيوخ على أتم استعداد للسير فى محاكمة المتآمرين بمنتهى الصرامة ، وحاول الإمبراطور أن يمنعهم ، ونفذ القانون

تنفيذاً صارماً فى حالة الذين اتهموا بتسوىء ذكرى أغسطس أو تدنيس تماثيله ؛ أما « الأشخاص الذين كانوا يوجهون التهم له فقد حرم أن يوقع عليهم عقاب ما » كما يقول تاستس . وأكد لمجلس الشيوخ أن والدته ليفيا تريد منهم هذه المعاملة الرحيمة لمن يعتدون على سمعتها الطيبة(١٢) .

وأضحت ليفيا نفسها فى ذلك الوقت إحدى المشكلات الكبرى فى الدولة . ذلك أن عجز تيبريوس عن الزواج قد تركه وليس له من يحميه من امرأة ذات عقلية جبارة اعتادت أن يكون لها سلطان عليه . وكانت تشعر أن تدبيرها هو الذى هيأ له السبيل لاعتلاء العرش ، وأفهمته أنه إنما يتولاه بوصفه ممثلا لها لا أكثر(١٣) . وكانت رسائله الرسمية فى سنى حكمه الأولى تحمل توقيعه وتوقيعها معاً ، وإن كان وقتئذ قد قارب الستين من عمره ، « ولكنها لم تقنع بأن تكون مساوية له فى شئون الحكم » كما يقول ديو « بل أرادت أن تفرض سيادتها عليه . . . وشرعت تصرف الأمور جميعها كأنها هى وحدها الحاكمة »(١٤) . وصبر تيبريوس على هذه الحال صبر الكرام ولكن ليفيا عاشت بعد أغسطس خمسة عشر عاما ، فشاد تيبريوس لنفسه قصراً خاصاً ، وترك أمه لا ينازعها منازع فى امتلاكها القصر الذى شيده أغسطس . وراحت ألسنة السوء تتهمه بقسوته عليها ، وبأنه أمات زوجته المنفية من الجوع . وكانت أجربينا فى أثناء ذلك تدفع ابنها نيرون ليخلف تيبريوس على العرش أو ليغتصبه منه إن أمكن(١٥) . وتحمل هذا أيضاً على مضض ، وكل ما فعله أن أنبها على فعلتها بعبارة مقتبسة من اللغة اليونانية : « هل تظنين يا ابنتى العزيزة أنك تظلمين إذا لم تكونى إمبراطورة ؟ »(*) وكان أصعب شىء على نفسه أن يعرف أن وحيده دروسس الذى رزقه من زوجته الأولى كان فتى رقيعاً ، دنيئاً ، نقاسياً ، فاسد الأخلاق ، شهوانياً ، فاجراً .

(*) أجربينا ابنة يوليا من أجربا ، وربيبة تيبريوس بعد زواجه من يوليا ، وزوج متبناه جرمنكوس ، وكان ابنها نيرون عم الإمبراطور نيرون المعروف ، وكانت ابنتها أجربينا الصغرى أم هذا الإمبراطور .

وكان هذا الكبت الذى فرضه تيبريوس على نفسه ، وصبره على هذه المحن ، سبباً فى إثارة أعصابه وضيق صدره ، فأخذ يزداد انطواء على نفسه ، وبدت على وجهـــه الكآبة ، وفى حديثه الصرامة ، مما نفر منه الناس جميعاً ، وأبعدهم عنه ، اللهم إلا أصدقاءه الذين يرجون له الخير . وكان ثمة رجل واحد بدا أنه أكثر الناس وفاء له ، ذلك هو لوسيوس إيليوس سجانوس Lucius Aelius Sejanus .

وأثرت فى تيبريوس خيبته وحزنه ، وأضحى رجلا حزيناً فريداً فى السابعة والستين من عمره ، فغادر العاصمة الهائجة المحمومة وآوى إلى كاپرى حيث عاش عيشة العزلة بعيداً عن سائر الناس . ولكن ألسنة السوء لم تنقطع عن الاستطالة فيه ، ولم يعقها عائق عن أن تتبعه فى عزلته ، فقال بعضهم إنه يريد أن يخفى عن أعين الناس جسمه الهزيل ووجهه الخنازيرى (*) ، ويطلق العنان لشهواته ورذائله غير الطبيعية[١٦]. ولا شك فى أن تيبريوس كان كثير الشرب ، ولكنه لم يكن سكيراً ، أما قصة رذائله فأكبر الظن أنها افتراء عليه[١٧]، ويقول تاستس إن معظم من كانوا حوله من الأصدقاء فى كاپرى كانوا من اليونان الذين لا يمتازون بشىء إلا بالأدب »[١٨] . وظل وهو فى عزلته يصرف شئون الإمبراطورية تصريفاً حازماً حكيما ، إلا أنه كان يبلغ آراءه ورغباته إلى الموظفين وإلى مجلس الشيوخ على لسان سجانوس Sejanus . وإذ كان المجلس يخشاه خشية متزايدة ، أو يخشى سجانوس أو الحرس العسكرى فقد كان يقبل رغبات الإمبراطور ، ويرى أنها أوامر واجبة الطاعة . وبذلك استحالت الزعامة إلى ملكية تحت سلطان الرجل الذى عرض أن يعيد الجمهورية ، ومن غير أن يحدث أى تغيير فى دستور البلاد ، ومن غير أن يبدو من تيبريوس نفسه أى دليل واضح على عدم الإخلاص .

وانتهز سجانوس الفرصة التى أتيحت له فنفى عدداً كبيراً من أعدائه بعد اتهامه إياهم بتهم ينطبق عليها « قانون الخيانة أو » « قانون الجلالة » حسب اسمه

(*) المصاب بداء الخنازير وهو داء من أعراضه انتفاخ الغدد فى أجزاء مختلفة من الجسم وخاصة فى العنق . (المترجم) .

اللاتيني . ولم يتدخل الإمبراطور المتعب فى هذا الأمر . وإذا كان لنا أن نصدق ما يقوله سوتنيوس فإن تيبريوس نفسه قد ارتكب كثيراً من أعمال القسوة(١٩) ، ويقول تاستس — وهو ممن لا يعتمد على أقوالهم — إنه طلب تنفيذ عقوبة الإعدام فى پپيوس سبينوس Poppaeus Sabinus بحجة أن عيونه قد سمعوه وهو يأتمر بالحكومة(٢٠) . وماتت ليڤيا بعد سنة من ذلك الوقت (٢٧) . حزينة وحيدة فى بيت زوجها السابق ؛ ولم يحضر تيبريوس جنازتها ، ولم يكن قد رآها بعد أن غادر رومة إلا مرة واحدة . وتحرر سجانوس بموتها مما عساه أن تفرضه عليه « أم بلادها » من قيود ، فأقنع تيبريوس بأن أجرپينا وابنها نيرون كانت لها يد فى مؤامرة سبينوس ، فنفيت الأم إلى پندتيريا Pandateria ونفى الابن إلى جزيرة پنتيا Pontia حيث قتل نفسه بعد ذلك بزمن وجيز .

وإذ كان سجانوس قد كسب كل شيء إلا عرش البلاد فقد أخذ يعمل جاهداً للوصول إليه .وكان قدأغضبه خطاب كتبه تيبريوس إلى مجلس الشيوخ يرشح فيه جيوس ابن أجرپينا ليكون زعيما من بعده ، فدبر مؤامرة لاغتيال الإمبراطوار عام(٣١). ونجا الإمبراطور بفضل أنطونياأم جرمنكوس إذ خاطرت بحياتها لتبعث إليه تحذره من الخطر الذى يتهدده ؛ ولم يكن الزعيم الشيخ قد فقد عزيمته بعد فعين فى السر رئيساً جديداً للحرس ، وأمر بالقبض على سجانوس ، واتهمه بالخيانة أمام مجلس الشيوخ . ولم يكن هذا المجلس فى يوم من الأيام أكثر استجابة لرغبات الأباطرة منه فى هذه المرة ، فقد أدان سجانوس من فوره ، ونفذ فيه حكم الإعدام خنقاً فى الليلة نفسها . وأعقبت ذلك فترة من حكم الإرهاب تولى قيادتها أحياناً شيوخ أضر سجانوس بمصالحهم ، أو آذى أقاربهم أو أصدقاءهم ، وأحياناً أخرى تولاها تيبريوس نفسه . ودفعه الخوف والغضب ، اللذان استوليا عليه بعد أن زال عن عينيه ما كان يغشاهما من خداع ، إلى صورة جنونية من الانتقام . وفى هذه الفترة قتل كل إنسان ذى خطر عاون سجانوس

أو كانت له يد فى تنفيذ أغراضه ، ولم تنج من القتل ابنته الصغرى نفسها ؟
وإذ كان القانون يحرم قتل العذارى فقد فضت بكارتها قبل خنقها ؛
وانتحرت مطلقته أبكاتا Apicata ، ولكنها أرسلت قبل انتحارها خطابا إلى
تيبريوس تبلغه فيه أن ليفلا Livilla ابنة أنطونيا قد اشتركت مع سجانوس
فى تسميم زوجها دروس ابن الإمبراطور ، فما كان من تيبريوس إلا أن
أمر بمحاكمة ليفلا ، ولكنها امتنعت عن الطعام حتى ماتت . وبعد سنتين
من ذلك الوقت (٣٣) انتحرت أجربينا فى منفاها كما امتنع عن الطعام ابن
آخر من أبنائها ، كان قد حكم عليه بالسجن ، وظل ممتنعا عنه حتى مات .

وعاش تيبريوس ستة أعوام بعد سقوط سجانوس ، وأكبر الظن
أنه أصيب وقتئذ بخبال فى عقله ، وبغير هذا الافتراض لا نستطيع أن نفسر
ما يعزى إليه من أعمال القسوة التى لا يصدقها عقل . فنحن نسمع أنه
كان فى ذلك الوقت يؤيد تهم الخيانة العظمى التى توجه إلى الناس بدل
أن يعارض فيها ، كما كان يفعل من قبل ، حتى بلغ مجموع مَن أدينوا
بتلك التهمة فى حكمه ثلاثة وستين شخصاً ، وتوسل إلى مجلس الشيوخ
أن يعمل على حماية « شيخ وحيد طاعن فى السن » . وفى عام ٣٧ غادر
كابرى بعد تسع سنين من السجن الاختيارى ، وطاف ببعض مدن كمبانيا .
وبينا كان يستريح فى بيت لوكلس الخاوى فى ميسنوم انتابته نوبة إغماء
وخيل إلى من حوله أنه قضى نحبه . والتفّت بطانته من فورها حول جايوس
الذى سيصبح فى ظنها إمبراطوراً بعد قليل ، ولكنهم روعوا حين رأوا
تيبريوس يفيق من نوبته . ثم أنجاهم من هذه الورطة صديق لهم جميعاً
بأن كتم أنفاسه بوسادة (٣٧)[٢١] .

ويصفه ممسن Mommsen بقوله إنه كان « أقدر حاكم شهدته
الإمبراطورية »[٢٢] . وقد حلت به فى حياته كل الكوارث التى يمكن أن
تحل بإنسان إلا القليل النادر منها ، وحتى بعد وفاته لم ينج من قلم تاستس .

الفصل الثاني

جايوس

واحتفل الشعب بموت الإمبراطور الشيخ بهتافه : « تيبريوس إلى نهر التيبر » ورحب بإقرار مجلس الشيوخ تنصيب جايوس قيصر جرمنكوس خليفة له . وكانت أجربينا قد ولدت جايوس وهى ترافق جرمنكوس فى حروبه عند الحدود الشمالية ، فنشأ بين الجند ، ولبس لباسهم ، ولقبوه تدليلا له بلقب كاليجولا Caligula أو الحذاء الصغير أخذا من الحذاء النصفى Caliga الذى كان يحتذيه الجيش . فلما جلس على العرش أعلن أنه سيسير على المبادئ التى كان يسير عليها أغسطس فى سياسته ، وأنه سيتعاون مع مجلس الشيوخ فى جميع الأمور . ووزع على المواطنين التسعين مليون سسترس التى أوصى لهم بها تيبريوس وليفيا وأضاف إليها ثلثمائة سسترس لكل واحد من المائتى ألف الذين يأخذون حبوباً من الدولة . وأعاد إلى الجمعية حق اختيار كبار الحكام ، ووعد بتخفيض الضرائب وإقامة الألعاب الكبرى ، وأرجع ضحايا تيبيريوس المنفيين ، وجاء برماد أمه إلى رومة مصحوباً بمظاهر التقوى والتكريم . ولاح أنه سيكون على النقيض من سلفه فى كل شيء ، فقد كان متلافاً للمال ، مرحاً ، رحيما ، ولم يمض على اعتلائه العرش ثلاثة أشهر حتى قرب الناس للآلهة مائة وستين ألفاً من الضحايا شكراً لها على أن وهبتها زعيما فاتنا محسنا[٢٣] .

وكان الشعب قد نسى حسبه ونسبه فقد كانت جدته لأبيه ابنة أنطونيوس وكانت جدته لأمه ابنة أغسطس ، وقد تجددت فى دمه الحرب التى ثار عجاجها من قبل بين أنطونيوس وأكتافيان وانتصر فيها أنطونيوس . وكان كاليجولا يفخر بمهارته فى المبارزة ، والمجالدة ، وركوب العربات ، ولكنه

« كانت تنتابه نوبات الصرع » ، ويكاد فى بعض الأحيان » يعجز عن المشى أو التفكير »[٢٤] . وكان يختفى أسفل سريره إذا سمع هزيم الرعد ، ويفر مذعوراً إذا شاهد اللهب فوق بركان إتنا ؛ وكان مصاباً بالأرق يطوف به ليلا فى جنبات قصره الواسع يصيح طالباً طلوع الفجر . وكان طويل القامة ، ضخم الجسم ، كثيف الشعر ، إذا استثنينا رأسه الأصلع . وكان له صدغان منخفضان ، وعينان غائرتان ، تنفر الناس منه ، ويسر هو من ذلك النفور . وكان « يمثل بوجهه أمام المرآة كل المناظر المخيفة »[٢٥] . وكان قد أحسن تعليمه فى صباه ، فكان خطيباً مفوهاً ، حاد الذكاء ، فكهاً لا يراعى فى فكاهته احتشاماً ولا قانوناً . وقد افتتن بحب التمثيل فأعان كثيرين من الممثلين ، وكان هو نفسه يمثل ويرقص سراً . وكان إذا رغب أن يشهده النظارة دعا زعماء مجلس الشيوخ متظاهراً بأنه يدعوهم إلى اجتماع خطير ، ثم يعرض أمامهم رقصه[٢٦] . ولو أنه أتيحت له حياة هادئة يعمل فيها عملا يتحمل تبعته لجاز أن يهدئ ذلك من أعصابه ، ولكن سم السلطة ذهب بعقله ، ذلك أن صحة العقل ، كالحكم ، تحتاج إلى ضوابط وموازين ، وما من أحد من بنى الإنسان يستطيع أن يكون قادراً على كل شىء وأن يكون فى نفس الوقت سليم العقل . ولما أسدت إليه جدته أنطونيا بعض النصح أنبها بقوله : « اذكرى أن فى مقدورى أن أفعل أى شىء بأى إنسان » . وذكر لضيوفه فى إحدى الولائم أن فى وسعه أن يقتلهم كلهم وهم متكئون فى مقاعدهم ؛ وكان وهو يحتضن زوجته أو عشيقته يقول لها ضاحكا : « سيطيح هذا الرأس الجميل بكلمة تخرج من فى »[٢٧] .

وسرعان ما أخذ الزعيم الشاب يصدر الأوامر إلى مجلس الشيوخ ويطلب إليه الخضوع لهذه الأوامر ، بعد أن كان يظهر له أعظم الاحترام ، فصار يسمح

للشيوخ أن يقبلوا قدميه تعظيما له وتبجيلا ؛ ثم يتقبل الشكر منهم على تشريفه إياهم بهذا التقبيل[٢٨] . وكان شديد الإعجاب بمصر وأساليبها ، وأدخل كثيراً من هذه الأساليب إلى رومة ، وكان يتوق إلى أن يعبد على أنه إله كما كان يعبد الفراعنة ملوك مصر الأقدمون ، وجعل دين إيزيس أحد الأديان الرسمية فى الدولة ، ولم ينس أن جده الأكبر كان يعتزم ضم إقليم البحر الأبيض المتوسط تحت سلطان دولة ملكية شرقية ، فأخذ هو أيضاً يفكر فى نقل عاصمة ملكه إلى الإسكندرية ، ولم يحل بينه وبين تنفيذ قصده إلا ارتيابه فى ذكاء أهلها. ويصفه سوتونيوس بأنه كان يقضى وقته « فيما تعوده من فصاحة أخواته كلهن »[٢٩] ، فقد بدا له أن هذه عادة من أحسن العادات المصرية القديمة . ولما مرض أوصى بأن تكون أخته دروزلا Drusilla وريثة عرشه من بعده ، فلما تزوجت أرغمها على أن تطلق زوجها وأخذ « يعاملها كأنها زوجته الشرعية »[٣٠] . وكان يرسل إلى غيرها من النساء اللاتى كان يحبهن رسائل باسم أزواجهن يبلغهن فيها نبأ طلاقهن ، ثم يدعوهن إلى معانقته ، فلم توجد امرأة ذات مكانة إلا دعاها إليه . على أن هذه الصلات كلها مضافاً إليها صلات أخرى بينه وبين كلا الجنسين لم تمنعه أن يتزوج أربع مرات . وحضر مرة زفاف ليفيا أرستلا Livia Orestilla وكيوس بيزو Caius Piso ، فما كان منه إلا أن أخذ العروس إلى بيته ، وتزوجها ثم طلقها بعد بضعة أيام . وسمع أن لوليا پولينا Lollia Paulina بارعة الجمال ، فاستدعاها إليه ، وطلقها من زوجها ، وأمرها ألا تكون لها من ذلك اليوم علاقة ما بأى رجل . وكانت زوجته الرابعة سيزونيا Caesonia حاملا من زوجها حين تزوج بها ، ولم تكن صغيرة السن أو جميلة ولكنه أحبها وأخلص لها الحب .

وكانت شئون الحكم فى هذا العبث الإمبراطورى من الأمور التى لا يعبأ بها وفى وسعه أن يتركها لغيره من أصحاب العقول الصغيرة . وقد راجع كاليجولا السجل المحتوى على أسماء رجال الأعمال مراجعة تدل على

مقدرة فائقة ، ورقى خير هؤلاء الرجال أعضاء فى مجلس الشيوخ . ولكن إسرافه لم يلبث أن أفرغ خزانة الدولة من الأموال التى ملأها بها تيبريوس ، فبددها تبديداً منقطع النظير ؛ من ذلك أنه لم يكن يستحم بالماء بل بالعطور ، وقد أنفق على إحدى الولائم عشرة ملايين سسترس[٣١] ، وبنى قوارب عظيمة للنزهة ذات عمد وشاد أبهاء للمآدب ، وحمامات ، وحدائق ، وأشجار فاكهة ، مطعمة فى مؤخرها بالجواهر . وأمر مهندسيه أن يقيموا على خليج بايا Baiae جسراً مستنداً إلى عدد من القوارب بلغ من كثرته أن عز الطعام فى رومة لعدم وجود السفن لنقل الحبوب . ولما تم بناء الجسر أقيم احتفال عظيم ، وأضيء مكان الاحتفال بالأضواء الغامرة على الطريقة الحديثة ، وأخذ الناس يقصفون ويطربون ويشربون ، حتى انقلبت بهم القوارب وغرق منهم كثيرون . وكان من عادته أن ينثر من قصر يوليا النقود الذهبية والفضية على الشعب من تحته ، ثم يراقبهم فى مرح وسرور وهم يتنازعون نزاعاً قاتلاً على اختطاف هذه النقود . وبلغ من حبه للعصبة الخضراء فى سباق الخيل أن منح سائق إحدى العربات مليونى سسترس ، وأن بنى اصطبلا من الرخام ومذوداً من العاج لجواد السباق انستاتس Incitatus ، ودعاه إلى وليمة واقترح أن يعينه قنصلا .

وأراد أن يجمع المال اللازم لعبثه وشهواته التى لم تنقطع طوال حياته فأرجع العادة القديمة ، عادة تقديم الهدايا إلى الإمبراطور ؛ وكان يتسلم هذه الهدايا بيده ، وهو جالس فى شرفة قصره ، من كل من يقدمها إليه ؛ ويشجع المواطنين على أن يذكروه فى وصاياهم ويجعلوه وارثاً لهم ، وفرض الضرائب على كل شيء : على كل طعام يباع ، وعلى كل الإجراءات القضائية ، وفرض ١٢٫٥٪ على أجور الحمالين . ويؤكد سوتونيوس أنه فرض « على مكاسب العاهرات » ضريبة « تعادل مقدار ما تناله الواحدة منهن نظير عناقها مرة » ، وقرر القانون أن تظل من كانت يوماً ما عاهراً خاضعة لهذه الضريبة وإن تزوجت[٣٢] .

وكان الأغنياء فى أيامه يتهمون بالخيانة ويحكم عليهم بالإعدام لتصادر أموالهم لصالح الخزانة العامة . وكان هونفسه يبيع الجالدين والأرقاء بالمزاد العلنى ، ويرغم أشراف البلاد على حضور هذا المزاد والاشتراك فيه ؛ وكان الواحد منهم إذا غفا فسر إغفاءه بأنه عطاء ، حتى إذا استيقظ وجد نفسه قد كسب ثلاثة عشر مجالداً وخسر تسعة ملايين سترس[٣٣] ، وكان يرغم الشيوخ والفرسان على أن يجالدوا هم أيضاً فى المجتلدات . ودبرت بعد ثلاث سنين مؤامرة للقضاء على هذا العبث المذل ، ولكن كاليجولا كشف سر المؤامرة ، وانتقم لنفسه بأن فرض على البلاد عهداً من الإرهاب زاده وحشية حبه الجنونى للأذى ، فكان يأمر الجلادين بأن يقتلوا الضحايا بإثخانهم بالجراح الصغيرة الكثيرة حتى يشعروا بأنهم يموتون »[٣٤] . وإذا كان لنا أن نصدق ديوكاسيوس فإنه أرغم أنطونيا جدته التقية على أن تقتل نفسها[٣٥] . ويقول سوتونيوس إنه لما قل ما يلزمه من اللحم لإطعام الوحوش التى كان يستخدمها فى الألعاب أمر أن يقدم « جميع الصلع » المساجين طعاماً لهذه الوحوش لأن فى ذلك الخير كل الخير للناس ، وإنه أمر أن يكوى جميع رجال الطبقات العليا بالحديد المحمى وأن يحكم عليهم بالعمل فى المناجم ، وأن يلقوا للحيوانات الضارية ، أو يحبسوا فى أقفاص حديدية ثم تنشر أجسامهم نصفين بالمناشير[٣٦] . تلك قصص ليس فى وسعنا أن ننفيها أو نؤيدها ونحن نوردها هنا على أنها من الروايات التى كان الناس يتناقلونها . وكل ما نستطيع أن نقوله نحن بشأنها أن سوتونيوس كان مؤرخاً ثرثاراً مولعاً باغتياب الناس ، وأن الشيخ تاستس كان يكره الأباطرة ، وأن ديوكاسيوس كتب تاريخه بعد مائتى عام من حكم كاليجولا[٣٧] . وأصدق من هذه القصص فى رأينا ما يروى من أن كاليجولا أشعل نار الحرب بين الزعامة والفلسفة بنفيه كريناس سكندس Carrinas Secundus وإصدار حكم الإعدام على اثنين آخرين من المعلمين ، وأدرج اسم الشاب سنكا بين أسماء المحكوم بإعدامهم ، ثم أنجاه من الموت مرضه واعتقاد الإمبراطور أنه

سيقضي نحبه دون حاجة إلى تجريح جسمه . ونجا كلوديوس عم كاليجولا لأنه كان أو تظاهر بكونه أبله حقيراً غلبت عليه شهوة قراءة الكتب .

وآخر ما لجأ إليه كاليجولا من العبث أن أعلن أنه إله معبود لا يقل شأناً عن چوپتر نفسه ، وحطمت رؤوس التماثيل الشهيرة المقامة لجوف وغيره من الأرباب ، ووضعت في مكانها رؤوس للإمبراطور . وكان يسره أن يجلس في هيكل كاستر و بلكس Castor and Pollux ويتلقى عبـادة الناس . وكان يحلو له في بعض الأحيان أن يتحدث إلى تمثال من تماثيل چوبتر ، وكان هذا الحديث في الغالب تأنيباً للإله ، وقد استطاع بحيلة من الحيل أن يجيب عن قصف الرعد ووميض البرق كلما قصف الأول وأومض الثاني[٣٨] . وأقام هيكلا لعبادته ، وعين له جماعة من الكهنة ، وأمده بطائفة مختارة من الضحايا ، وعين جواده المحبوب كاهناً من بين كهنته . وادعى أن إلهة القمر قد نزلت إليه وعانقته ، وسأل ڤيتليوس Vitellius ألم يرها بعينه ؟ فكان جواب تابعه الحكيم « لا ، إن أمثالك من الآلهة هم وحدهم الذين يرى بعضهم بعضاً[٣٩] . ولكن الناس لم تخدعهم هـذه السخافات ؛ من ذلك أن إسكافاً غالياً رأى كاليجولا متخفيا في صورة چوبتر ، وسئل عن رأيه في الإمبراطور فقال : « مخادع كبير » وعلم بذلك كاليجولا ولكنه لم يعاقب الرجل على هذه الشجاعة السارة[٤٠] .

وما كاد هذا الإله يبلغ التاسعة والعشرين من عمره حتى أضحى شيخاً منهوك القوى من طول الإفراط ، ولعله أصيب ببعض الأمراض السرية ، وحتى كان له رأس صغير نصف أصلع فوق جسم مسترخ بدين ، ووجه كالح ، وعينان غائرتان ، ونظرات خبيثة تنم عن الغدر والخيانة . ووافته المنية على غفلة ، وكانت منيته على يد الحرس البريتوري الذي طالما ابتاع معونته بالهدايا . وذلك أن ضابطا من ضباط الحرس يدعى كاسيوس كثيريا

Cassius Chaerea أهانه كاليجولا مراراً كثيرة بالألفاظ البذيئة التى كان يبلغها إليه كل يوم لتكون بمثابة سر الليل وجواز المرور ؛ فقتله سراً فى أحد ممرات الملهى (٤١) . ولما ذاع الخبر فى المدينة تردد أهلها فى تصديقه ، وظنوا أنه حيلة من حيل الإمبراطور الخبيث يريد بها أن يعرف أى الناس يبتهج بموته . وأراد مغتالوه ألا يتركوا الناس فى شكهم فقتلوا زوجته الأخيرة ؛ وحطموا رأس ابنته بدقه فى أحد الجدران . ويقول ديو إن كاليجولا عرف فى ذلك اليوم أنه ليس إلها(٤١) .

الفصل الثالث

كلوديوس

ترك كاليجولا الإمبراطورية والأخطار تتهددها من كل ناحية : فالخزانة خاوية ، ومجلس الشيوخ قد اضمحل وضعف شأنه ، والشعب غاضب ثائر ، وموريتانيا Moretania ثائرة ، وبلاد اليهود قد امتشقت الحسام لأنه أصر على أن يوضع تمثاله ليعبد فى هيكل أورشليم ، ولم يكن أحد يعرف أين يوجد الحاكم القدير الخليق بأن يواجه هذه المشاكل . ولكن حدث أن عثر الحرس البريتورى على كلوديوس الظاهر البلاهة مختبئاً فى أحد الأركان ، فنادوا به إمبراطوراً . وخشى مجلس الشيوخ صولة الجند ، ولعل هذا الاختيار قد انجاه من موقف لم يكن يحمده ، وسره أن يتعامل مع إنسان متحذلق عديم الأذى بدل أن يتعامل مع رجل مجنون مستهتر لا يعبأ بشىء . ولهذا أيد الحرس فى اختياره وارتقى تيبريوس كلوديوس قيصر أغسطس جرمنكوس عرش الإمبراطورية فى تردد وخشية .

وكلوديوس هذا ابن انطونيا ودروسس وأخو جرمنكوس وليفلا ، وحفيد أكتافيا وأنطونيوس ، وليفيا وتيبريوس كلوديوس نيرون . وكان مولده فى لجدنوم Lugdunum (ليون الحالية) فى السنة العاشرة قبل الميلاد ، وكان وقت أن اختير إمبراطوراً فى الخمسين من عمره ، طويل القامة ممتلىء الجسم ، ذا شعر أبيض ووجه بشوش ، ولكن شلل الأطفال وغيره من الأمراض قد أضعفت بنيته . وكانت ساقاه رفيعتان لا تكادان تقويان على حمله ، فكان يحجل فى مشيته ، وكان رأسه يتأرجح فوق كتفيه . وكان مغرماً بالخمر الجيد والطعام الشهى ، وكان يشكو داء الرثية ، ويتمتم قليلا إذا تحدث ، وإذا ضحك رفع صوته

إلى حد لا يليق بالأباطرة . ويقول عنه شانتوه القساة إنه كان إذا غضب خرج الزبد من فمه وسال المخاط من أنفه » (٤٣) . وقد قام على تربيته النساء والأرقاء المحررون ، فنشأ هياباً حساساً ، وهما صفتان قلما تصلحان للحكام ، ولم تكد تسنح له الفرص للتدرب على ممارسة شئون الحكم . وكان أقرباؤه يرونه إنساناً مريضاً ضعيف العقل ؛ وكانت أمه التى ورثت عن أكتافيا رقتها وظرفها تسميه « الهولة التى لم يكتمل خلقها » ، وكانت إذا أرادت أن تعبر إنساناً بشدة البلاهــة وصفته بأنه : « أشد بلاهة من ابنى كلوديوس » . وإذا كان محتقراً من جميع الناس فقد عاش خاملا مغموراً آمنا لذلك على نفسه ، يقضى وقته بين الميسر والكتب والشراب؛ وتفقه فى اللغة وفى العاديات ، وكان ضليعاً فى الفنون « القديمة » ، والدين ، والعلوم الطبيعية ، والفلسفة ، والقانون . وقد كتب تاريخاً لإترووريا ، وقرطاجنــة ، وروما ، ورسالة فى النرد ، وأخرى فى حروف الهجاء ، وملهاة يونانية ، وترجمة لحياته . وكان العلماء والفلاسفة يراسلونه ويهدون إليه مؤلفاتهم ، وينقل عنه پلنى الأكبر ويعده من الثقاة الذين يعتمد عليهم . وقد علم الناس وهو إمبراطور كيف يعالجون عض الأفاعى ، وهدأ مخاوف الشعب الخرافية بأن تنبأ بكسوف الشمس فى يوم ميلاده وفسر لهم سبب هذا الكسوف . وكان يحسن الكلام باللغة اليونانية ، وكتب عدداً من مؤلفاته بهذه اللغة ؛ وكان حسن النية ، ولعله كان صادقاً حين قال فى مجلس الشيوخ إنه كان يتظاهر بالغباوة لينجو من الموت .

وكان أول أعماله وهو إمبراطور أن منح كل جندى من جنود الحرس الذين رفعوه على العرش خمسة عشر ألف سسترس . وكان كالجيولا قد وهبهم من قبل هبات من هذا النوع ولكنه لم يهبها لتكون ثمناً صريحاً لعرش الإمبراطورية . واعترف كلوديوس وقتئذ بسلطان الجيش وسيادته فى الوقت الذى ألغى فيه مرة أخرى حق الجمعية فى اختيار كبار الحكام . وكان أكثر حكمة وكرماً من سلفه ، فوضع حداً للاتهام بالخيانة ، وأطلق

سراح من سجنوا من قبل بمقتضى هذا الاتهام ، وأعاد جميع المنفيين إلى أوطانهم ، ورد الأموال المصادرة إلى أصحابها ، وألغى الضرائب التي فرضها جايوس . لكنه أمر بإعدام قتلة كاليجولا ، وحجته في هذا أن الخطر كل الخطر في التغاضي عن قتلة الأباطرة . وحرم عادة السجود للإمبراطور ، وأعلن في صراحة أنه لا يريد أن يتخذ إلهاً يعبد . وحذا حذو أغسطس في إصلاح المعابد ودفعه شغفه بالآثار القديمة إلى السعي لبعث الدين القديم . وانكب بجد وإخلاص على العناية بالشئون العامة ، وبلغ من عنايته بها أن كان « يطوف بمن يبيعون السلع ويؤجرون المبـــانى ، ليقوم كل ما يعتقد أن فيه ضرراً بمصالح الشعب »[٤٤] . ولكنه وإن جارى أغسطس في اعتداله خرج عن تحفظ أغسطس وحذره إلى سياسة قيصر الجريئة المتشعبة ، فسعى إلى إصلاح أداة الحكم والقانون ، وأنشأ المباني والخدمات العامة ، وأعلى من شأن الولايات ، ومنح الحقوق الانتخابية لغالة وفتح بريطانيا وصبغها بالصبغة الرومانية . وقد أدهش الناس جميعاً حين أظهر أنه ذو خلق وإرادة ، وليس ذا علم وذكاء فحسب . ولم يكن أقل ثقة من قيصر وأغسطس بأن كبار الحكام في الأقاليم قليلو العدد ناقصو المران ، وأن مجلس الشيوخ يمنعه كبرياؤه ونزقه من الاضطلاع بمهام الإدارة البلدية والإمبراطورية المعقدة المتنوعة ؛ من أجل هذا كان يعظم المجلس فترك له سلطات كثيرة ، ومظاهر شرف وكرامة أكثر من هذه السلطات ؛ أما شئون الحكم الحقيقية فكان يضطلع بها بنفسه يعاونه مجلس يعين هو أعضاءه ، وهيئة من الموظفين العموميين نظمها تدريجاً واختار أفرادها ، كما اختارهم قيصر وأغسطس وتيبيريوس ، من أرقاء بيت الإمبراطور المحررين ؛ واستخدم في الأعمال الكتابية والواجبات الصغرى أرقاء « عموميين » . وكان على رأس هذه الإدارة البيروقراطية أربعة وزراء : وزير دولة (« للمواصـــلات » ab epistulis) ، ووزير مالية (« للحسابات » a rationibus) ، ووزير آخر (« للملتمسات » a libellis) ، ونائب عمومي (« للقضـــايا القانونية » a cognitionibus) . وتولى الثلاثة

المناصب الأولى ثلاثة من أقدر الأرقاء المحررين — نارسس Narcissus ، وبلاس Pallas ، وكالستس Callistus . وكان ارتقاؤهم إلى هذه المناصب ذات الثراء والجاه إيذاناً بارتفاع شأن طبقة المحررين إلى أعلى الدرجات ، وهو ارتقاء كان يسير فى مجراه منذ قرون عدة ، وبلغ فى عهد كلوديوس هذه الدرجة الرفيعة . ولما احتج الأشراف على وَضع السلطة فى أيدى هؤلاء العصاميين الحديثى النعمة كان جواب كلوديوس أن أعاد منصب الرقيب ؛ وأن اختير هو ليشغل هذا المنصب ، وأن أعاد النظر فى سجل الأشخاص الذين يختار منهم أعضاء المجلس ، فمحا منه أسماء كبار المعارضين لسياسته ، وأضاف إليه أعضاء جدداً من الفرسان ومن أهل الولايات .

ولما تهيأت له هذه الأداة الإدارية وضع لنفسه منهاجاً واسعاً من المنشئات العامة والإصلاحات ، فأصلح نظام المرافعات أمام المحاكم وفرض عقوبات على تأخير القضايا ، وجلس على منصة القضاء ساعات طوالا كل أسبوع ، وحرم تعذيب أى واحد من المواطنين . وأراد أن يقى مدينة رومة غائلة الفيضانات المخربة التى أصبحت تهددها وقتئذ أكثر من ذى قبل لأن سفوح الأپنين أخذت تجرد من الأشجار ، فأمر بحفر مجرى إضافى فى الجزء الأدنى من نهر التيبر . ولكى يعجل باستيراد الحبوب إلى إيطاليا أمر بإنشاء مرفأ جديد بالقرب من أستيا Ostia ، وأقام فيه مخازن ، وأحواضاً ، ورصيفين عظيمين لتقليل حدة أمواج البحر ، وحفر قناة توصل الميناء بنهر التيبر فى نقطة بعيدة عن مصبه الذى يسده الغرين . وأتم بناء قناة « كلوديوس » التى بدأها كاليجولا لنقل الماء العذب إلى رومة ، وشاد قناة أخرى ، وكانت كلتاهما من الأعمال الضخمة المشهورة بجمال منظرها وبعقودها الشامخة . ولما رأى أن أراضى المرسيين Marsians تتحول فى بعض فصول السنة إلى مناقع حين تفيض بحيرة فوسنس ، خصص جانباً من أموال الدولة تؤدى منه أجور ٣٠٫٠٠٠ عامل مدة أحد عشر عاماً

ليحفروا نفقاً طوله ثلاثة أميال يصل البحيرة بنهر سريز Ciris مخترقاً بعض الجبال . وقبل أن تنطلق مياه البحيرة فى هذا النفق أجرى فوق مياه البحيرة معركة بحرية صورية بين أسطولين عليهما تسعة عشر ألفاً من المجرمين الذين أدانتهم المحاكم ، وشهدها خلائق اجتمعوا من كافة أنحاء إيطاليا فوق التلال المشرفة على البحيرة . وحيت هذه الجموع الإمبراطور بالعبارة التاريخية المأثورة : « مرحباً بقيصر ! نحن الذين نوشك أن نموت نحييك Ave Caesar ! morituri salutamus te[٤٥] .

وازدهرت أحوال الولايات فى عهده كما ازدهرت فى عهد أغسطس ، وعاقب الموظفين على سوء استخدام سلطة وظائفهم إلا فى حالة واحدة هى حالة فلكس المدعى العمومى فى بلاد اليهود ، وذلك لأن پلاس Pallas شقيق الشخص الذى نم على القديس پولس أخفى جرائمه عن الإمبراطور ، وكان يهتم بكل صغيرة وكبيرة من أعمال الولايات . وتمتاز مراسيمه التى عثر عليها فى كافة أنحاء الإمبراطورية بالإسهاب والتكرار ، ولكنها تكشف عن عقلية وعن إرادة منصرفتين إلى تحقيق الصالح العام . وقد بذل جهده لإصلاح وسائل المواصلات والنقل ، وحماية المسافرين من اعتداء اللصوص وقطاع الطريق ، وفى خفض ما تتكلفه الهيئات من نفقات الوظائف العامة المنشأة لخدمتها . وكان يرغب كما يرغب قيصر فى رفع شأن الولايات حتى تعادل إيطاليا نفسها وحتى تكون كلها وحدات متساوية فى مجموعة الأمم الرومانية ، فنفذ ما كان يعتزمه قيصر من منح حقوق المواطنية الرومانية لبلاد غالة الجنوبية ، ولو استطاع أن ينفذ رغباته لمنح هذا الحق جميع الرجال الأحرار فى الإمبراطورية[٤٦] . ولقد كشفت فى مدينة ليوم عام ١٥٢٤ لوحة برنزية احتفظت لنا بجزء من الخطبة الطويلة الكثيرة الاستطراد التى أقنع بها مجلس الشيوخ بأن يقبل فى عضويته وفى المناصب الإمبراطورية أولئك الغاليين الذين منحوا حق المواطنية الرومانية ، ولم يسمح فى الوقت نفسه بأن يضعف الجيش أو يعتدى على حدود الدولة ، فظل الجيش عاملا

قائما بمهمته ومستعداً على الدوام للقيام بها ، ونشأ فى أيامه قوّاد عظام من أمثال كربولا Carbula ، وفسپازيان Vespasian ، وپولينس Paulinus ، وتكونوا بفضل اختياره وتشجيعه . وقرر كذلك أن يتم مشروعات قيصر فغزا بريطانيا فى عام ٤٣ وفتحها ، وعاد منها إلى رومة بعد أن غاب عنها ستة أشهر ، ولما أقيم له احتفال بالنصر بعد عودته خالف جميع السوابق بأن عفا عن كركتكوس Caractacus ملكها الأسير . وسخر أهل رومة من عمل إمبراطورهم العجيب ولكنهم أحبوه ، ولما أن راجت مرة من المرات فى أثناء غيابه عن العاصمة ، شائعة كاذبة بأن الإمبراطور قد قتل ، عمت المدينة موجة من الحزن لم يسع مجلس الشيوخ معها إلا أن يؤكد للناس تأكيداً رسمياً بأن الإمبراطور لم يصب بسوء ، وأنه سيعود قريباً إلى رومة .

لكنه سقط من هذا العلو الشاهق لأنه أقام نظاماً للحكم أكثر تعقيداً مما يستطيع الإشراف عليه بنفسه ، ولأن عبيده المحررين وأفراد أسرته أساءوا استغلال لطفه وعطفه . لقد أصلحت البيروقراطية التى أنشأها أحوال الإدارة ، ولكنها فتحت فيهـــا آلاف الثغرات للرشا والفساد ؛ وكان نارسس وبلاس من أعاظم رجال السلطة التنفيذية الذين يرون أن مرتباتهم أقل من كفايتهم ، فكانا يستعيضان عن هذا الفرق ببيع المناصب واغتصاب الرشا بالتهديد ، وتوجيه التهم الكاذبة إلى من يريدون مصادرة ضياعهم من الأثرياء . وكانت نتيجة ذلك أن أصبحا أغنى الناس جميعاً فى التاريخ القديم كله فكان نارسس يمتلك ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سسترس (٨٦,٠٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى) وكان بلاس يشكو البؤس لأنه لم يكن له إلا ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فقط[٤٧] . ولما شكا كلوديوس من وجود عجز فى خزانة الإمبراطورية ، قال الثرثارون الرومان إن فى وسعه أن ينال كفايته من المال وفوق كفايته منه إذا أشرك معه فى الحكم عبديه المحررين[٤٨] . وروّعت هذه السلطات العظيمة والأموال المكدسة الأسر الشريفة القديمة التى أضحت وقتئذ فقيرة

بالقياس إلى هؤلاء العصاميين ، وكانت تتلظى غيظا حين تضطر إلى رجاء العبيد السابقين أن يسمحوا لها بأن تتحدث إلى الإمبراطور .

أما كلوديوس فقد كان منهمكا فى العمل ، يكتب إلى الموظفين والعلماء ، ويعد المراسيم والخطب ، ويؤدى حاجات زوجته . ذلك رجل كان خليقاً به أن يعيش عيشة الرهبان ، وأن يحصن نفسه من الحب ، لأن زوجاته كن سبباً فى القضاء عليه ، كما كانت سياسته فى منزله أقل نجاحا من سياسته الخارجية . وقد تزوج كما تزوج كالجيولا أربع مرات ، فأما زوجته الأولى فماتت فى يوم زفافها ، وأما الثانية والثالثة فقد طلقهما ؛ ولما كان فى الثامنة والأربعين من عمره تزوج فلريا مسالينا وهى فتاة فى السادسة عشرة ، لم تكن بارعة الجمال . فقد كان رأسها مستوياً ، ووجهها متورداً ، وصدرها قبيح الشكل[٤٩] . ولكن المرأة ليست فى حاجة إلى الجمال لكى تكون زانية ، ولما أن اعتلى كلوديوس عرش الإمبراطورية تخلقت بأخلاق نساء الملوك ، وادعت لنفسها حقوقهن ، فكانت ترافقه فى مواكب نصره ، وعملت على أن تحتفل بعيـــد ميلادها فى سائر أنحاء الإمبراطورية . ثم أحبت الراقص منستر Mnesrer ، ولما صد عنها طلبت إلى زوجها أن يأمره بأن يكون أكثر إطاعة لرجائها ؛ وأجابها كلوديوس إلى ما طلبت ، وخضع الراقص إليها استجابة لدواعى الوطنية . وابتهجت مسالينا بنجاحها فى خطتها التى لم تكلفها إلا أقل العناء ، واتبعتها مع غيره من الرجال ، فأما الذين لم تنجح معهم هذه الخطة وظلوا على صدودهم فقد اتهمهم الموظفون الخاضعون لسلطانها بجرائم اخترعوها من عندهم اختراعا ، فصودرت أملاكهم وحرموا من حريتهم ومن حياتهم نفسها فى بعض الأحيان[٥٠] .

ولعل الإمبراطور كان يسمح بهذا العبث وتلك الأعمال الشاذة ليضمن لنفسه هو الآخر حرية الاستمتاع بما يريد من الملاذ ، « فقد كان مفرطاً فى شهواته

النسائية » كما يقول سوتونيوس ، ثم يضفى عليه بعدئذ هذه الميزة العجيبة التى يفضل بها غيره من الناس فيقول : « وكان مبرءاً من الرذائل غير الطبيعية »[٥١] ويقول ديو : إن مسالينا « كانت تقدم إليه بعض الفتيات ذوات الجمال الجذاب ليضاجعهن »[٥٢] . وإذ كانت الإمبراطورة فى حاجة إلى المال تستعين به على عيشها واستهتارها فقد كانت تبيع المناصب ، والتوصيات ، وعقود الأعمال العامة . ونقل المؤرخون عن چوڤنال أنها كانت تدخل المواخير متخفية ، وتستقبل كل من يدخلها ، وتأخذ منهم كل ما يقدمون لها من الأجور وهى منشرحة الصدر راضية . وأكبر الظن أن هذه القصة منقولة عن المذكرات الضائعة التى كتبتها أجربينا الصغرى التى خلفت مسالينا وكانت من ألد أعدائها . ويروى تاستس أنه « بينما كان كلوديوس يقضى وقته كله فى تصريف شئون منصب الرقيب الذى كان يتولاه »[٥٣]ـ والذى يشمل فيما يشمله من الواجبات رفع مستوى أخلاق الرومان ـ كانت مسالينا « تطلق العنان لحبها » ، وبلغ من استهتارها آخر الأمر أن تزوجت رسمياً من شاب وسيم يدعى كيوس سليوس Caius Silius حين كان زوجها غائباً فى أستيا ، وأن تزوجت به « فى احتفال مهيب صحبتـه كل المراسيم المعتادة[٥٤] . وأبلغ نارسس النبأ إلى الإمبراطور عن طريق سراريه[٥٥] ، وحذره من مؤامرة تدبر لاغتياله وإجلاس سيليوس مكانه على العرش . فعجل كلوديوس بالعودة إلى رومة ، واستدعى الحرس البريتورى ، وامر بذبح سليوس وغيره من عشاق مسالينا ثم آوى إلى حجراته محطم الأعصاب منهوك القوى . أما الإمبراطورة فقد أخفت نفسها فى حدائق لوكلس التى كانت قد صادرتها لتتخذها مسرحاً للهوها وملذاتها . وبعث إليها كلوديوس برسالة يدعوها فيها إلى الحضور للدفاع عن نفسها . وخشى نارسس أن يصفح عنها الإمبراطور ويصب جام غضبه عليـه هو فأرسل إليها بعض الجند وأمرهم بقتلها ، فوجدوها وحدها مع أمها ، وقتلها بعضهم بضربة واحدة وترك جثتها بين ذراعى

أمها[٥٨]. وقال كلوديوس لحرسه البريتورى إنهم فى حل من دمه إذا تزوج مرة أخرى ولم يرد ذكر مسالينا على لسانه من تلك الساعة(*) .

ولكن لم تمض سنة على وعده هذا حتى كان يتردد بين الزواج من لوليا پولينا Lollia Paulina أو من أجرپينا الصغرى . فأما لوليا زوجة كاليجولا السابقة فكانت ذات ثروة طائلة ، ويقال إنها كانت فى بعض الأحيان تتحلى بجواهر تبلغ قيمتها أربعين مليون سسترس[٥٩] ، ولعل كلوديوس كان يعجب بمالها أكثر من إعجابه بذوقها ؛ وأما أجرپينا فكانت ابنة أجرپينا الكبرى من جرمنكوس . وكانت هى الأخرى يجرى فى عروقها دم أكتاڤيان وأنطونيوس اللذين ماتا عدوين . وقد ورثت عن أمها جمالها ، وكفايتها ، وقوة عزيمتها وحبها للانتقام حبا لا يحد منه شىء من وخز الضمير . وكانت قد ترملت مرتين ، ورزقت من زوجها الأول أكنيوس دومتيوس أهينوباربس Cnoeus Domitius Ahenobarbus ابنها نيرون ، وكان كل همها طول حياتها أن يرتقى ابنها هذا عرش الإمبراطورية . وأما زوجها الثانى كيوس كرسپس Caius Crispus الذى تقول الشائعات إنها قتلته بالسم فقد ورثت عنه الثروة الطائلة التى استخدمتها للوصول إلى أغراضها . وكان هدفها أن تتزوج كلوديوس ، وأن تتخلص بوسيلة ما من ابنه برتنكس ، وأن تجعل نيرون بعد أن يتبناه كلوديوس وارث العرش من بعده . ولم يعقها عن تنفيذ قصدها أنها ابنة أخت كلوديوس ، بل أتاحت لها هذه الصلة فرصاً ثمينة للاتصال بالحاكم الشيخ اتصالا أثار فيه عواطف ليست من قبيل عواطف الخال نحو ابنة أخته . ولم يكن منه إلا أن وقف فجأة أمام مجلس الشيوخ وطلب إليه أن يأمره بالزواج

(*) وقد حاول فريرو[٥٦] Ferrero ، وبيورى Bury[٥٧] أن يفسرا زواج مسالينا من رجلين تفسيراً يبرره ، ولكن تاستس يؤكد القصة ، التى يؤكدها الكتاب المعاصرون كما يؤكدها رجال موقرون كبار كانوا يعيشون فى ذلك الوقت ، وكانوا على علم بأحواله كلها ،[٥٨]

مرة أخرى لخير الدولة ؛ ووافق المجلس على طلبه ، وسخر منه رجال الحرس البريتورى ، ووصلت أجريبنا إلى العرش (٤٥) .

وكانت وقتئذ فى الثانية والثلاثين من عمرها ، أما كلوديوس فكان فى السابعة والخمسين ؛ وكانت قواه آخذة فى الانحلال ، أما هى فكانت فى عنفوان قوتها ، وتغلبت عليه بكل ما وهبت من سحر وفتنة ، فأقنعته بأن يتبنى نيرون وأن يزوج الشاب البالغ من العمر ستة عشر عاما بابنته أكتافيا وهى فتاة فى الثالثة عشرة من عمرها (٥٣) . ولما تم لها هذا أخذت تزيد من سلطانها السياسى عاما بعد عام ، حتى استطاعت فى آخر الأمر أن تجلس معه على سرير الملك ، ثم استدعت الفيلسوف سنكا من حيث كان منفياً بأمر كلوديوس ، وعينته مدرساً خاصا لابنها (٤٩) ، وأفلحت فى تعيين صديقها بروس Burrus رئيسا للحرس البريتورى . فلما استحوذت على السلطان بهذه الطريقة حكمت البلاد حكما قويا خليقاً بالرجال ، وساد النظام والاقتصاد فى بيت الإمبراطور ؛ ولو أنها لم تطلق العنان لجشعها وحرصها على المال وحبها للانتقام لكان حكمها خيراً لروما ورحمة بها ، لكنها أطلقت العنان لهذا الجشع فأمرت بقتل لوليا پولينا لأن كلوديوس نطق عفواً فى لحظة من اللحظات بكلمة أشار فيها إلى رشاقة لوليا وهى إشارة لاتعفو عنها قط زوجة . ثم أمرت بدس السم لماركس سلانس Marcus Silanus لخوفها أن يعينه كلوديوس وارثاً له من بعده ، وائتمرت مع پلاس ونارسس ، وبذلك قضى ملك المال ، الذى لم يكن وفاؤه يقل عن تلوث يده ، بقية حياته فى السجن . وكان الإمبراطور قد أضعفه اعتلال صحته ، وجهوده الفنية ، ومغامراته النسائية ، فترك پلاس وأجريبنا يروعان البلاد بحكم إرهابى آخر . فكان الناس ينهبون وينفون أويقتلون لأن الخزانة خلت من المال الذى أنفق فى الأعمال العامة والألعاب وأضحت فى حاجة إلى أن تملأ بالأموال المصادرة . وكانت نتيجة هـــذا أن خمسة وثلاثين من الشيوخ وثلثمائة من الفرسان حكم عليهم بالإعدام فى

الثلاثة عشر عاما التى حكمها كلوديوس . وقد يكون لبعض هذه الأحكام ما يبررها لأن من نفذت فيهم دبروا المؤامرات أوارتكبوا الجرائم ، وإن كنا لانستطيع أن نقرر هذا واثقين . ولقد ادعى نيرون فيما بعد أنه فحص عن جميع أوراق كلوديوس ، وأنه تبين من ذلك الفحص أن الامبرطور نفسه أمر بأن يحاكم كل واحد ممن سيقوا أمام القضاء(٦٠) .

وتنبه كلوديوس إلى ما كانت تفعله أجربينا بعد زواجه بها ، فاعتزم أن يضع حدا لسلطانها ، وأن يفسد عليها ما دبرته لنيرون ، فيعين برتنكس وارثا للملك من بعده ، ولكن أجربينا كانت أقوى منه عزما وأقل منه إصغاء لصوت الضمير ، فلما علمت نية الإمبراطور جازفت بكل شيء ، فأطعمت كاوديوس فطراً ساماً قضى عليه بعـــد آلا م مبرحة دامت اثنى عشرة ساعة دون أن يستطيع النطق بكلمة واحد (٥٤) . ولما ألهه مجلس الشيوخ ، وكان نيرون قد اعتلى العرش ، قال إنه لا يشك فى أن الفطر هو طعام الآلهة ، لأن كلوديوس أصبح بعد أن أكله إلهاً يعبد(٦١) .

الفصل الرابع

نيرون

ينتمي نيرون من جهة أبيه إلى أسرة الدوميتيين الأهينوياربين Domitii Ahenobarbi ، وقد لقبوا بهذا اللقب لأن رجال هذه الأسرة كانت لهم لحى شبيهة فى لونها بلون البرنز . وقد اشتهروا فى رومة مدى خمسمائة عام بقدرتهم وجرأتهم ، وغطرستهم ، وشجاعتهم ، وقسوة قلوبهم . وكان جد نيرون لأبيه مولعاً بالألعاب وبالمسرح ، وكان يسوق عربة فى السباق ، وينفق الكثير من الأموال على الوحوش والمجتلدات ، وقد اضطر أغسطس إلى تأنيبه لقسوته الوحشية فى معاملة موظفيه وأرقائه . وقد تزوج بأنطونيا ابنة أنطونيوس وأكتافيا . وزاد ابنه أكنيوس دوميتيوس من شهرة الأسرة بانهماكه فى الفسق ، ومضاجعة المحارم ، والوحشية والخيانة . وقد تزوج فى عام ٢٨ م بأجربينا الثانية ولم تكن وقتئذ تزيد على الثالثة عشرة من عمرها ، وإذ كان على علم بآباء زوجته وآبائه فقد اعتقد : « أن لا خير مطلقاً يمكن أن يؤدى إليه قراننا »[٦٢] . وقد أطلقا على ابنهما الوحيد اسم لوسيوس Lucius وأضافا إليه لقب نيرون ، ومعناه فى اللغة السبينية : القوى الشجاع .

وكان أهم من علموه هما كرمون Chaeremon الرواقى الذى علمه اللغة اليونانية ، وسنكا الذى علمه الأدب والأخلاق ولكنه لم يعلمه الفلسفة ؛ ذلك أن أجربينا منعته من تعلم الفلسفة لزعمها أنها تجعل نيرون غير صالح لتولى عرش الإمبراطورية[٦٣] . وما من شك فى أن نتيجة هذا التحريم تشهد بفضل الفلسفة . وقد شكا سنكا ، كما يشكو كثير من الأساتذة ، من أن الأم كانت تفسد عليه عمله بتدخلها فيه ، فقد كان الغلام يهرول إليها كلما أنّبه مدرسه ، ولم يكن يشك فى أنها ستحنو عليه وتدلله . وقد حاول

سنكا أن ينشئه على حب التواضع ، ودماثة الخلق ، والبساطة ، والتقشف ، والصبر على الشدائد ؛ وإذا كان قد حرم عليه أن يفصل له القول فى عقائد الفلاسفة وجدلهم ، فلا أقل من أن يهدى إليه الرسائل البليغة التى كان يؤلفها ، ويأمل أن يقرأها تلميذه فى يوم من الأيام . وكان الأمير الشاب طالباً مجداً ، وكان فى وسعه أن يكتب شعراً لا بأس به ، وأن يخطب فى مجلس الشيوخ بالرقة والأدب اللذين كان يخطب بهما أستاذه نفسه . ولما مات كلوديوس لم تجد أجرپينا صعوبة ما فى تثبيته على العرش ، وخاصة بعد أن ضمن له بروس تأييد الحرس بكامل قوته .

وكافأ نيرون الجند مكافأة مجزية ووهب كل مواطن أربعمائة سسترس ، وألقى فى تأبين سلفه خطبة أثنى عليه فيها ثناء جماً ، كتبها له سنكا[٦٤] . وهو الذى نشر بعد قليل بغير توقيع هجاء مقذعاً فى الإمبراطور المتوفى قال فيه إنه طرد من أولمپس . وقدم نيرون مظاهر الخضوع المعتادة إلى مجلس الشيوخ ، واعتذر فى أدب وتواضع عن صغر سنه ، وأعلن أنه لن يحتفظ بشىء من السلطات التى كان الزعيم يتمتع بها حتى ذلك الوقت عدا قيادة الجيوش — وهو اختيار عملى يشعر بذكاء تلميذ الفيلسوف . والراجح أنه كان مخلصاً فى وعده — لأن نيرون وفى به بأمانة مدى خمسة أعوام[٦٥] — وهى الخمسة الأعوام النيرونية Quinquennium Neronis التى كان تراجان يراها خير السنين فى تاريخ الحكومة الإمبراطورية[٦٦] . ولما اقترح مجلس الشيوخ أن تقام تماثيل من الذهب والفضة تكريماً له ، رفض الإمبراطور الذى لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره هــذا العرض . ولما اتهم رجلان بأنهما يفضلان عليه برتنكس أمر أن يلغى هذا الاتهام ، وتعهد أمام مجلس الشيوخ أن يتمسك طوال حكمه بفضيلة الرحمة التى كان سنكا وقتئذ يمجدها فى إحدى رسائله المسماة De Clementia (الرحمة) ولما طلب إليه مرة أن يوقع وثيقة بإدانة أحد المجرمين قال فى حسرة

« ليتني لم أتعلم قط الكتابة ! » وقدخفض الضرائب الباهظة أو ألغاها إلغاء تاماً ، وخصص معاشات سنوية للمتازين من الشيوخ الذين أحنى عليهم الدهر . وإذ كان يعرف أن عقله لم ينضج بعد ، فقد سمح لأجرپينا أن تدير له شئونه ، فكانت تستقبل السفراء ، وأمرت أن تنقش صورتها على نقود الإمبراطورية إلى جانب صورته . وارتاع سنكا وبروس لتدخل الأم فى شئون الحكم فاتفقا على أن يضربا على وتر كبرياء نيرون لينالا لأنفسهما حق القيام بمهام الحكم . واستشاطت الأم غضباً فأعلنت أن برتنكس الوارث الشرعى للعرش ، وأنذرت ولدها بأنها ستسقطه بنفس الوسائل القوية التى استخدمتها فى رفعه ، ورد نيرون على هذا التهديد بأن أمر بدس السم لبرتنكس فما كان من أجرپينا إلا أن آوت إلى قصرها الصغير وكتبت فيه مذكراتها ، وهى آخر سهم فى كنانتها ، وطعنت فيها على جميع أعدائها وأعداء أمها ، واغترف منها تاستس وسوتنيوس ذلك التيار الجارف من المثالب والأعمال الوحشية التى صورا بها النواحى السوداء من صور تيبيريوس وكلوديوس ونيرون .

وعم الرخاء الإمبراطورية ، وصلحت أحوالها الداخلية والخارجية ، بفضل إرشاد الفيلسوف الأول وقوة النظام الإدارى الذى كانت تساس به شئونها . فوضعت على الحدود حراسة قوية ، وطهرت البحر الأسود من القراصنة ، وأعاد كربولا أرمينية إلى حظيرة الإمبراطورية بأن بسط عليها الحماية الرومانية ، ووقّعت برثيا معاهدة صلح دامت خمسين عاما ، وقلّت الرشوة فى دور القضاء وفى الولايات ، وأصلحت أحوال الموظفين فى دواوين الحكومة ، وصرفت الشئون المالية بالاقتصاد والحكمة ، واقترح نيرون — ولعل ذلك كان بإيعاز من سنكا — ذلك الاقتراح البعيد الأثر القاضى بإلغاء جميع الضرائب غير المقررة ، وخاصة الرسوم الجمركية التى كانت تجبى عند الحدود وفى الثغور ، حتى تكون التجارة حرة فى جميع أنحاء الإمبراطورية . غير أن مجلس الشيوخ لم يوافق على

هذا الاقتراح ، متأثراً فى ذلك بنفوذ نقابة الجباة . وتدل هذه الهزيمة على أن الزعامة كانت لا تزال تلتزم حدود سلطتها الدستورية .

وأراد سنكا وبروس أن يمنعا نيرون من التدخل فى شئون الدولة فتركاه ينهمك فى ملذاته الجنسية كما يهوى . وفى ذلك يقول تاستس : « لم يكن ينتظر من الأباطرة أن يحيوا حياة التقشف وكبح الشهوات فى الوقت الذى كانت فيه الرذيلة تستهوى جميع طبقات الناس » ولم تكن العقائد الدينية تشجع نيرون على أن يراعى جانب الفضيلة ؛ ذلك أن القدر الضئيل الذى ناله من الفلسفة قد حرر عقله من قيود الدين دون أن ينضج حكمته . « فقد كان يزدرى جميع أنواع العبادات » كما يقول سوتنيوس . « ويسلح على صورة الإلهـة — سيبيل — التى كان يحلها أعظم الإجلال »[٦٨] . وكان نهماً مفرطاً فى الطعام ، غريب الأطوار والشهوات ، ينفق على الولائم بغير حساب ، حتى كانت أزهار الوليمة وحدها تكلفه أربعة ملايين سسترس[٦٩] . وكان يقول فى هذا إن البخلاء وحدهم هم الذين يحسبون ماينفقون . وكان يعجب بكيوس پترونيوس Caius Petronius ويحسده لأن هذا الشريف المثرى علمه طرقاً جديدة للجمع بين الفضيلة والذوق السليم . ويقول تاستس فى فقرة مأثورة يصف فيها المثل الأعلى للأبيقورية إن پترونيوس « كان يقضى أيامه فى النوم ولياليه فى العمل ، والمرح واللهو . وكان الخمول شهوته وطريقه إلى الشهرة ، وكان ينجز بحب اللذات والراحة المترفة ما ينجزه غيره بالقوة والجد . ولم يكن كغيره من الناس الذين يجهرون بأنهم يعرفون كيف تكون المتعة الاجتماعية ، ثم يبددون فى ذلك أموالهم ، بل كان يحيا حياة كثيرة النفقة ولكنها خالية من التبذير ، فكان أبقوريا ولكنه غير مسرف ، يطلق العنان لشهواته ولكنه يستمتع بها فى تجمل وحكمة . وهو شهوانى متعلم رقيق الحاشية ، حديثه مرح ممتع لطيف ، يخلب لب من يستمع له بشىء من عدم الاكتراث اللطيف الباعث على السرور . وكان أكثر ما يبعث السرور فى حديثه أنه ينساب

انسياباً طبيعياً غير متكلف من مزاجه الصريح . ولقد أظهر وهو وال على بيثينيا ، كما أظهر وهو قنصل ، أن قوة العقل ودماثة الخلق قد تجتمعان معاً فى شخص واحد ، وذلك رغم ما كان يتصف به من دقة : وأخذه الأمور فى يسر وإهمال . . . وكان يعود من أعماله الرسمية إلى مألوف حياة اللذة والمتعة ، مولعاً بالرذيلة أو بالملاذ التى تقترب من حدود الرذيلة ، وكان نيرون وعصبته مولعين بحسن الذوق والرشاقة فكانوا لذلك يتخذونه المحكم فى كل ما يتصل بهما ، ولم يكن شىء بديعا ، كما لم يكن شىء ساراً أو نادراً إلا إذا أراد هو أن يكون[٧٠] .

ولم يبلغ نيرون من الرقة مبلغاً يصل به إلى هذه الأبيقورية الفنية ، بل كان يتخفى ويزور المواخير ، ويطوف بالشوارع ، ويتردد على الحانات بالليل فى صحبة أمثاله من رفاق السوء يسطون على الحوانيت ويسيئون إلى النساء ، ويفسقون بالغلمان ، ويجردون من يقابلون مما معهم ، ويضربونهم ويقتلونهم »[٧١] وحدث أن شيخاً لجأ إلى القوة فى ردّ اعتداء الإمبراطور عليه فأرغم بعد قليل على أن يقتل نفسه . وحاول سنكا أن يوجه شبق الإمبراطور نحو معتوقة تدعى كلوديا أكتى Claudia Acte ، فلما تبين له أن أكتى وفية له وفاء تعجز بسببه عن الاحتفاظ بحبه استبدل بها امرأة بارعة فى كل فنون العشق تدعى پوبيا سابينا Poppea Sabina وكانت پوبيا تنتمى إلى أسرة عريقة ذات ثروة طائلة ، يقول عنها تاستس إنها «كان لها نصيب موفور من كل شىء إلا الشرف» . وكانت من النساء اللواتى يقضين النهار كله فى تزيين أنفسهن ، ولا يحيين قط إلا حين يرغبن فى الحياة . وحدث أن افتخر زوجها بجمالها أمام نيرون ، فما كان من الإمبراطور إلا أن عينه والياً على لوزتانيا Lusitania (البرتغال) وضرب حصاراً على پوبيا ، ولكنها أبت أن تكون عشيقة له ، وقبلت أن تتزوجه إذا طلق أكتاڤيا .

وكانت أكتاڤيا قد صبرت على مساوئ نيرون صبر الكرام ، وحافظت

على تواضعها وعفتها وسط تيار الدعارة الجارف التى اضطرت أن تحيا فى غمرته من يوم مولدها ، ومما يذكر بالفضل لأجربينا أنها ضحت بحياتها فى الدفاع عن أكتافيا ضد پوپيا ، فلم تترك وسيلة تثنى بها الإمبراطور عن طلاق أكتافيا إلا لجأت إليها ، وبلغ من أمرها أن عرضت محاسنها على ولدها ، وقاومتها بوپيا مقاومة شديدة وتغلبت عليها ، ولجأت فى كفاحها إلى نزق الشباب ، فعيرت نيرون بأنه يخشى والدته ، وأقنعته بأن أجرپينا كانت تأتمر به لتسقطه ، وما زالت به حتى رضى فى ساعة من ساعات جنون الشهوة أن يقتل المرأة التى حملته فى بطنها وأعطته نصف العالم . وقد فكر أولا فى أن يقتلها مسمومة ، ولكنها كانت قد حصنت نفسها من السم بما تعودته من الأدوية المضادة له . ثم حاول أن يقتلها غرقاً ولكنها أنجت نفسها بالسباحة من السفينة التى تحطمت بتدبير الإمبراطور، وطاردها رجاله إلى دارها ، فلما قبضوا عليها خلعت ثيابها وقالت لهم : « ادفعوا سيوفكم فى رحمى » واحتاج قتلها إلى عدة طعنات ، ولما رأى الإمبراطور جثتها العارية كان كل ما قاله : « لم أكن أعرف أن لى أما بمثل هذا الجمال »[٧٢] ؛ ويقال إن سنكا لم تكن له يد فى هذه المؤامرة ، ولكن أسوأ ما خط فى تاريخ الفلسفة وأدعاه للأسى هو تلك السطور التى تشرح كيف كتب الفيلسوف الرسالة التى وجهها نيرون إلى مجلس الشيوخ يقول فيها إن أجرپينا كانت تأتمر بالزعيم ، فلما افتضح أمرها انتحرت[٧٣] ؛ وقبل مجلس الشيوخ هذا التفسير فى سرور ظاهر ، وأقبل أعضاؤه مجتمعين ليهنئوا نيرون لما أن عاد إلى رومة ، وحمدوا للآلهة أن كلأته بعنايتها وأنجته من كل سوء .

وإن المرء ليصعب عليه أن يصدق أن هذا الإنسان الذى قتل أمه شاب فى الثانية والعشرين من عمره ، مغرم بالشعر والموسيقى والفنون الجميلة ، والتمثيل والألعاب الرياضية ؛ وأنه كان يعجب باليونان لمبارياتهم التى تنمى فيهم القوة الجسمية والمهارة الفنية ، وأنه عمل على إدخال هذه المباريات فى رومة فأقام فى

عام ٥٩ ألعاب الشباب ludi iuvenales ، وأنشأ فى السنة التالية الألعاب النيرونية Neronia على نمط الاحتفال الذى كان يقام كل أربع سنين فى أولمبيا ، ويشمل سباقا للخيـــل ، ومباريات فى الألعاب الرياضية ، وفى « الموسيقى » — ويدخل فيها الخطابة والشعر ، وبنى لذلك مدرجاً كبيراً وملعباً رياضيا وحماما عاما فخما ، وأنه يمارس الحركات الرياضية بمهارة فائقة ، كما كان مولعا بسوق العربات ، وأنه اعتزم أخيراً أن يشترك هو نفسه فى المباريات . لكنها هى الحقيقة ، وقد بدا لعقله المولع بكل ما هو يونانى أن هذا العمل لاغبار عليه ، بل كان يعتقد أنه يتفق مع أحسن التقاليد اليونانية . أما سكنا فكان يرى أن هذا سخف أيما سخف ، وحاول أن يقصر هذا العرض الإمبراطورى على من يضمهم ميدان خاص ، ولكن نيرون تغلب عليه ودعا الجماهير لتشهد ألعابه ، فأقبلت عليه وحيته تحية حماسية حارة .

ولكن أهم ما كان يرغب فيه هذا المخلوق الغريب بحق هو أن يكون فناناً عظيما . ذلك أنه ، وقد استحوذ على كل سلطة ، كان يتوق إلى الاستحواذ على كل ضروب الكمال والتهذيب . ومما يذكر له مقروناً بالثناء أنه جد فى دراسة فنون النقش ، والتصوير ، والنحت ، والموسيقى ، والشعر[٧٤] . ولجأ فى تحسين صوته إلى وسيلة غريبة فكان « يستلقى على ظهره ، ويضع لوحاً من الرصاص على صدره ، ويفرغ أمعاءه بمحقن أو بالقىء ، ويمتنع عن أكل الفاكهة وعن كل طعام يضر بالصوت »[٧٥] . وكان فى بعض الأيام يقصر طعامه على الثوم وزيت الزيتون يتخذهما وســـيلة للغرض نفسه . ودعا ذات ليلة أكابر الشيوخ إلى قصره وعرض عليهم أرغناً مائياً جديداً ، وأخذ يشرح لهم نظريته وتركيبه[٧٦] . وقد بلغ من إعجابه بالنغمات التى كان يضربها ترپنوس Terpnos على العود وافتتانه بها أن كان يقضى معه بعض الليالى بأكملها يتعلم العزف على هذه الآلة . وكان يجمع الفنانين والشعراء حوله ، ويعقد المباريات بينه وبينهم فى قصره ، ويفاضل بين

صوره وصورهم ، ويستمع إلى أشعارهم ويقرأ عليهم شعره . وكان ينخدع بثنائهم ، ولما أن أنبأه أحد المنجمين بأنه سيفقد عرشه ، أجابه ضاحكا بأنه فى هذه الحال سيكسب قوته من فنه . وكان يحلم أنه فى يوم من الأيام سيعزف على ملأ من الناس على الأرغن المائى والناى ، وينفخ فى المزامير ، ثم يظهر على المسرح راقصاً وممثلا لأدوار فى مسرحية ترنس Turnus لفرچيل . وفى عام ٥٩ أقام حفلة موسيقية شبه عمومية عزف فيها على العود citharoedus فى حديقته الواقعة على نهر التيبر . وظل خمس سنين لا ينفذ ما تتوق له نفسه من إظهار مهارته فى جمع حاشد ، ثم نفذ هذا العزم فى نابلى آخر الأمر . وسيطرت الروح اليونانية على هذا الحفل ، وعفا الناس عن تقصيره ، وأدركوا ما يرمى إليه . وازدحمت قاعة الاحتفال بالمستمعين ازدحاماً حال بينه وبين إجادة العرض ، وقد بلغ من شدة الازدحام أن تهدمت القاعة عقب خروج النظارة منها . وشجع هذا النجاح الإمبراطور الشاب فظهر فى ملهى بمپى العظيم فى رومة (٦٥) يغنى ويضرب على العود . وأنشد فى هذه المرة عدة قصائد لعلها كانت من قوله هو نفسه(*) . وقد بقيت أبيات من هذه ، وهى تدل على مقدرة فى القريض لا بأس بها . وكتب من أغانيه الكثيرة ملحمة طويلة عن طروادة (جعل بطلها باريس Paris) ، ثم شرع يكتب ملحمة أطول منها عن رومة . ولم يكفه هذا التنوع فى مواهبه فظهر على المسرح ممثلا دور أوديب Oedipus ، وهرقل ، وألكميون ، بل إنه مثل أيضاً دور أرستيز قاتل أمه . واغتبط النظارة إذ شاهدوا إمبراطوراً يغنى بتسليتهم ويركع على المسرح أمامهم ويطلب إليهم أن يصفقوا له حسب مألوف عادتهم . وتلقف الشعب الأغانى التى كان ينشدها نيرون وأخذ يرددها فى الحانات والطرقات ، وانتشر

(*) يقول سوتونيوس إنه شاهد المخطوطات الملكية مكتوبة ومصححة بخط نيرون نفسه(٧٧)

تحمسه للموسيقى والغناء بين جميع الطبقات ، وازدادت بذلك محبة الناس له ، وكان أخلق بها أن تنقص .

وارتاع مجلس الشيوخ من هذه المظاهر أكثر مما ارتاع من كل ما كان يدور من اللغط عما يحدث فى القصر من فجور ومن علاقات جنسية شاذة ، وأجاب نيرون عن مخاوف الشيوخ بقوله إن العادة التى كان يجرى عليها اليونان وهى قصر المباريات الرياضية والفنية على طبقة المواطنين كانت أفضل مما اعتاده الرومان وهو تركها للأرقاء ، وأن من الواجب ألا تتخذ المباريات صورة قتل المجرمين قتلا بطيئاً ؛ وأعلن الشاب المجرم أنه لن يسمح ما دام حياً بأن يستمر القتال فى المجتلد حتى يموت المجتلدون(٧٨) . وأراد أن يعيد التقاليد اليونانية إلى سابق عهدها ، وأن يمجد أعماله هو فى المباريات العامة ، فأقنع بعض الشيوخ أن يشتركوا فيها — أو لعله أرغمهم على هذا الاشتراك — ممثلين ، وموسيقيين ، ورياضيين ، ومصارعين وسائقى عربات . وأظهر بعض الأشراف أمثال ثراسى پيتس Thrasea Paetus نفورهم من هذه الأساليب ، فكانوا يتعمدون الغياب من مجلس الشيوخ كلما جاء نيرون ليخطب فيه ، وندد به بعضهم مثل هلفيديوس برسكس Helvidius Priscus تنديداً عنيفاً فى المنتديات الأرستقراطية التى أضحت الملجأ الوحيد لحرية الرأى ؛ وأخذ الفلاسفة الرواقيون فى رومة يتحدثون جهرة عن هذا الأبيقورى الخبيث الجالس على العرش . ودبرت المؤامرات لخلعه ، ولكن عيونه كشفوا أمرها ، فكان جوابه كجواب أسلافه ، وهو التورط فى عهد من الإرهاب الشديد ، فأعيد قانون الخيانة (٦٢) ، ووجهت التهم إلى كل من كان موتهم مرغوباً فيه من الناحية الثقافية أو المالية بسبب مقاومتهم أو ثرائهم . ذلك أن نيرون كان قد أفقر خزانة الدولة كما أفقرها كاليجولا من قبله بإسرافه وهباته وألعابه ، وجهر بعزمه على مصادرة جميع ضياع المواطنين الذين لا يوصون للإمبراطور بعد وفاتهم إلا بمبالغ قليلة ، ثم جرد كثيراً من الهياكل من نذورها ، وصهر ما كان

فيها من تماثيل ذهبية وفضية ؛ ولما أن احتج سنكا على هذه الأعمال وانتقد سلوكه وشعره — وكان غضب الإمبراطور على نقد شعره أشد من غضبه على نقد سلوكه — أقاله نيرون من منصبه فى البلاط (٦٢) ، وقضى الفيلسوف الشيخ الثلاث السنين الباقية من حياته فى عزلة عن العالم فى بيته ، وكان بورس قد مات قبل إقالة سنكا ببضعة شهور .

وأحاط نيرون بعدئذ نفسه بطائفة جديدة من القرناء ، معظمهم من قرناء السوء ذوى الغلظة والفظاظة ، فأصبح تجلينس ، رئيس شرطة المدينة ، مستشاره الأول ، وييسر للزعيم كل سبيل للملذات . وفى عام٦٢ طلق نيرون أكتافيا بحجة أنها عقيم ، ولم يمض على طلاقها اثنا عشر يوماً حتى تزوج بوبيا ؛ واحتج الشعب على هذا العمل احتجاجاً صامتاً بتحطيم التماثيل التى أقامها نيرون لبوبيا وتتويج تماثيل أكتافيا بالزهور . وغضبت بوبيا من ذلك العمل وأقنعت حبيبها أن أكتافيا تعتزم الزواج مرة أخرى ، وأن مؤامرة تدبر لخلعه وإحلال زوج أكتافيا الجديد محله . وإذا كان لنا أن نصدق ما يقوله تاستس فإن نيرون دعا أنسيتس Anicetus قاتل أجربينا وطلب إليه أن يعترف بأنه ارتكب الفحشاء مع أكتافيا ، ويتهمها بأنها شريكة فى مؤامرة لاغتيال الزعيم . ومثل أنسيتس الدور الذى أمر بتمثيله ، ونفى إلى سردينية حيث قضى بقية حياته ينعم بالثروة والراحة ؛ أما أكتافيا فقد نفيت إلى بندتيريا Pandateria ، ولكنها لم يكد يمضى على مجيئها إليها إلا بضعة أيام حتى أقبل عليها وكلاء الإمبراطور يريدون اغتيالها . ولم تكن وقتئذ قد جاوزت الثانية والعشرين من عمرها ، ولم تكن تعتقد أن الحياة يليق أن تختتم هذه الخاتمة العاجلة ، وبخاصة إذا كانت حياة فتاة مثلها لم ترتكب قط ذنباً . ودافعت عن نفسها أمام قاتليها وقالت لهم إنها لم تعد إلا أخت نيرون ، وإنها عاجزة عن الإساءة إليه ، ولكنهم قطعوا رأسها وجاءوا به إلى بوبيا يطلبون إليها مكافأتهم على عملهم هذا . ولما أبلغ الشيوخ أن أكتافيا قد توفيت شكروا

للآلهة مرة أخرى أن قد حفظوا الإمبراطور وأنجوه من السوء[٧٩] .

وكان نيرون وقتئذ إلهاً من أولئك الآلهة . ذلك أن أحد القناصل المنتخبين اقترح بعد موت أجربينا أن يقام هيكل « لنيرون المألّه » . ولما أن ولدت له بوبيا فى عام ٦٣ ابنة توفيت بعد مولدها بقليل أعلن المجلس ربوبية هذه الطفلة ، ولما أن أقبل تريداتس Tiridates ليتلقى من نيرون تاج أرمينية خر راكعاً أمام الإمبراطور وعبده بوصفه الإله متراس Mithras ، ولما أن شاد نيرون بيته الذهبى أقام أمامه تمثالا ضخماً ارتفاعه مائة وعشرون قدماً ، فى أعلاه رأس شبيه برأسه ، تحيط به هالة من أشعة شمسية دلالة على أنه هو فيبس أبلو Phoebus Apollo . هذا ما كان يتصوره أما حقيقته فإنه وهو فى الخامسة والعشرين من عمره كان إنساناً فاسداً ، منتفخ البطن ، رفيع الأطراف ، ضعيفها ، ضخم الوجه ، مجعد الجلد ، أصفر الشعر ملتويه ، عسلى العينين كلتيهما .

وكان ، وهو كما يزعم إله وفنان ، يضايقه ما فى القصور التى ورثها من عيوب ، ولذلك صمم على بناء قصر جديد لنفسه . ولكن تل البلاتين كان مزدحماً بالقصور وكان فى أسفله المضمار الأكبر من ناحية ، والسوق الكبرى من ناحية أخرى ، والأكواخ القذرة الحقيرة من بقية النواحى ، وكان يحزنه أن يرى رومة قد نشأت على غير نظام موضوع ، بدل أن تخطط تخطيطاً علمياً كالإسكندرية وأنطاكية ، ولذلك كان يحلم بأن يعيد بناءها من جديد ، وأن يكون هو منشئها الثانى ، وأن يسميها نيروبوليس (مدينة نيرون) .

وحدث فى اليوم الثامن عشر من شهر يوليو عام ٦٤ أن شبت النار فى المضمار الأكبر ، وانتشرت انتشاراً سريعاً ، وظلت مشتعلة تسعة أيام حتى التهمت ثلثى المدينة . وكان نيرون غائباً فى أنتيوم Antium حين شبت النار ، فلما وصله النبأ أسرع بالعودة إلى رومة فبلغها فى الوقت الذى استطاع فيه أن يرى القصور القائمة على تل البلاتين تلتهمها النيران . وكان البناء المعروف

بالدومس ترنستوريا (بيت المرور) الذى أقامه منذ زمن قريب ليربط به قصره بحديقة ماسيناس ، كان هذا البناء من أوائل ما تهدم من الأبنية ؛ ونجت أبنية السوق والكپتول من الحريق كما نجت أيضا الأحياء الواقعة فى شرق نهر التيبر . أما سائر أجزاء المدينة ، فقد دمر فيها ما لا يحصى من البيوت والهياكل والمخطوطات النفيسة والتحف الفنية . وهلك آلاف من السكان بين أنقاض المبانى المتهدمة فى الشوارع المزدحمة ، وهام مئات الآلاف على وجوههم فى الطرقات أثناء الليل لا يجدون لهم مأوى يبيتون فيه وقد ذهب الرعب بعقولهم ، وهم يستمعون إلى الشائعات القائلة بأن نيرون هو الذى أمر بإشعال النار فى المدينة ، وبأنه ينشر المواد الحارقة فيها ليجدد ما خبا منها ، وبأنه يرقبها من برج ماسيناس وهو ينشد على نغمة القيثارة ما كتبه من الشعر عن نهب طروادة(*) . وقد قام بجهود كبيرة فى قيادة المحاولات التى بذلت لحصر النيران أو التغلب عليها ، وإغاثة المنكوبين ، وأمر بأن تفتح جميع أبواب المبانى العامة والحدائق الإمبراطورية ليلجأ إليها المعدمون ، وأقام مدينة من الخيام فى ميدان المريخ ، وأمر بالاستيلاء على الطعام من الإقليم المجاور للمدينة، ووضع الخطط الكفلية بإطعام الأهين(٨٠) ؛ وصبر على ما وجهه إليه الشعب الهائج الحانق من تهم وطعون . ويقول تاستس (وهو الرجل الذى يجب ألا ننسى قط تحيزه لأعضاء مجلس الشيوخ) إنه أخذ يتلفت حوله ليجد من يستطيع أن يلقى عليه التهمة حتى وجده فى :

« طائفة من الناس يحقد عليهم الشعب لأعمالهم الخبيثة ، ويسمون غالباً بالكرستيانى Chrestiani (المسيحيين) . والاسم مشتق من كرستس Chrestus وهو اسم رجل عذبه بنتيوس پيلات Pontius Pilate المشرف

(*) يجمع تاستس (ص ٣٨ من الفصل الخامس عشر) وسوتونيوس (فى « نيرون » ص ٣٨) وديوكاسيوس (فصل ٦٧ ص ١٦) على اتهام نيرون بأنه هو الذى أشعل النار وأعاد إشعالها لكى يستطيع بناء رومة من جديد ، وليس لدينا ما نستند إليه فى إثبات التهمة عليه أو نفيها عنه .

على الشئون المالية فى بلاد اليهود على عهد تيبريوس . وكان ما حل به من العذاب ضربة شديدة وجهت إلى الشيعة التى أوجدها هذا الرجل ، وبفضل هذه الضربة وقف نمو هذه الخرافات الخطيرة إلى حين ، ولكنها لم تلبث أن عادت إلى نشاطها وانتشرت انتشاراً سريعاً قويا فى بلاد اليهود . . . وفى مدينة رومة نفسها ، وهى مستودع الأقذار العام الذى ينساب إليه كل ما هو دنىء ممقوت انسياب السيل المنحدر من أقطار العالم . ولجأ نيرون إلى أساليبه المعهودة فى الحيل ، فعثر على جماعة من الفجار والسفلة الأراذل ، وأغراهم بمختلف الوسائل على أن يعترفوا بأنهم هم مرتكبو الجريمة النكراء ؛ وبناء على اعتراف أولئك السفلة أدين عدد من المسيحيين ، ولم يصدر الحكم عليهم بناء على أدلة واضحة تثبت أنهم هم الذين أشعلوا النار فى المدينة ، بل أدينوا لأنهم يكرهون الجنس البشرى كله . واستخدمت فى إعدامهم أفانين من القسوة المتناهية ، ولم يكتف نيرون بتعذيبهم بل أضاف إلى هذا التعذيب السخرية منهم والازدراء بهم ، فألبس بعضهم جلود الوحوش وتركوا تلتهمهم الكلاب ، وسمر غيرهم فى الصلبان ، ودفن الكثيرون منهم أحياء ، ودهنت أجسام البعض الآخر بالمواد الملتهبة وأشعلت فيها النيران ، لتكون مشاعل فى الليل . . . وفى آخر الأمر أفعمت هذه الوحشية قلوب الناس جميعاً رأفة ورحمة ، ورقت هذه القلوب أسى على المسيحيين(٨١) .

ولما أزيلت الأنقاض أخذ نيرون يعيد بناء المدينة كما صورتها له أحلامه والغبطة بادية فى أسارير وجهه . وطلب إلى كل مدينة فى الإمبراطورية أن تقدم معونتها لهذا الغرض ، أو أرغمت على تقديم هذه المعونة ، واستطاع الذين دمرت بيوتهم أن يبنوا لهم بيوتاً جديدة بعد أن أمدهم بالمال المتجمع من هذه المعونة . وشقت الشوارع الجديدة مستقيمة متسعة ، وشيدت واجهات المنازل الجديدة وطبقاتها الأولى من الحجارة ، وجعلت بينها وبين غيرها من المبانى المجاورة لها فواصل تمنع انتشار النار من بناء إلى

آخر . وشقت تحت الأرض مجار تنساب فيها مياه العيون السفلى إلى خزان يحتفظ فيه بالماء ليستعان به على إطفاء النار فى المستقبل . وشاد نيرون من أموال الخزانة الإمبراطورية عقوداً ذات عمد على جانبى الشوارع الرئيسية فى المدينة ، لتكون مداخل مسقوفة ظليلة لآلاف من البيوت . وأسف المولعون بالقديم ، كما أسف الشيوخ المسنون ، على ما كان فى المدينة القديمة من مناظر جميلة خلع عليها الدهر هالة من الرواء والتقديس ، ولكنهم لم يلبثوا أن أجمعوا على أن رومة جديدة قد خرجت من بين اللهب أصح وآمن وأجمل من رومة القديمة .

ولو أن نيرون أعاد تنظيم حياته كما أعاد تنظيم عاصمته لغفر له الناس جرائمه ، ولكن بوبيا ماتت فى عام ٦٥ فى الأيام الأخيرة من حملها ، ويقال إنها ماتت من ركلة فى بطنها . وراجت بين الناس شائعة فحواها أن هذه الركلة كانت عقاباً لها على عودتها متأخرة من السباق[٨٢] وحزن نيرون حزناً شديداً على موتها ، لأنه كان ينتظر على أحر من الجمر وجود وارث له من صلبه ، وأمر أن تحنط جثتها بالأفاويه النادرة وتدفن بموكب مهيب وأبنها بنفسه . ثم عثر على شاب يدعى أسبورس Sporus عظيم الشبه ببوبيا ، فأمر بخصيه ، وتزوجه فى احتفال رسمى و « استعمله فى كل شىء كما تستعمل النساء » ، وقال فى ذلك أحد المتفكهين إنه يتمنى لو أن والد نيرون قد عثر على مثل هذه الزوجة[٨٣] . وشرع فى السنة نفسها يشيد بيته الذهبى ، وكان إسرافه فى زينته ، كما كانت تكاليفه الباهظة ومساحته الواسعة — فقد أقيم على رقعة من الأرض كانت تشغلها من قبل آلاف من بيوت الفقراء — كان هذا كله سبباً فى إثارة سخط الأشراف عليه وارتياب العامة فيه من جديد .

وأقبل جواسيس نيرون فجاء يبلغونه نبأ مؤامرة واسعة النطاق تهدف إلى إجلاس كلبيرنيوس بيزو Calpurnius Piso على العرش (٦٥) ؛ وقبض صنائعه على عدد من الشخصيات غير الكبيرة متهمين بتدبير المؤامرة ، وانتزعوا منهم

بالتهديد تارة وبالتعذيب تارة أخرى اعترافات تدين ، بين من تدين من الشخصيات المعروفة ، الشاعر لوكان Lucan والفيلسوف سنكا Seneca ، وتكشف الخطة التي كان يرمى إليها الإمبراطور وأعوانه شيئاً فشيئاً . وبلغ انتقام نيرون درجة من الوحشية لم يسع رومة معها إلا أن تصدق ما شاع وقتئذ من أنه أقسم ليبيدن طبقة الشيوخ عن آخرها . ولما تلقى سنكا الأمر بأن يقتل نفسه شرع يجادل ساعة من الزمن ثم أطاع ، وقطع لوكان بعض أوردته ومات وهو ينشد أبياتاً من شعره . وأغرى تجلينس Tigellinus بالمال عبداً من عبيد پترونيوس Petronius فتقدم بالشهادة على سيده ، لأن تجلينس كان يحسد هذا الرجل الأبيقورى على منزلته عند نيرون فأغراه بقتله . ومات پترونيوس ميتة بطيئة بأن قطع أوردته ثم سدها ، وأخذ يتحدث مع أصدقائه حديثاً لطيفا كمألوف عادته ، ويقرأ لهم أبياتاً من شعره ، ثم تنزه وأغفى بعض الوقت وفتح أوردته مرة أخرى وفارق الحياة فى هدوء واطمئنان[٨٤] . وأدين ثراسپايتس زعيم الداعين إلى الفلسفة الرواقية فى مجلس الشيوخ ، ولم تكن التهمة التى وجهت إليه أنه اشترك فى المؤامرة ، بل كانت تهمة عامة يمكن أن توجه إلى أى إنسان وهى ضعف حماسته للإمبراطور ، وعدم استمتاعه بغنائه وتأليفه كتاباً فى حياة كاتو أثنى عليه فيه . واكتفى بنفى هلفيديوس برسكس Helvidius Priscus زوج ابنته ، ولكن رجلين آخرين أعدما لأنهما كتبا يمتدحان برسكس وصهره . ونفى موسونيوس روفس Musonius Rufus أحد الفلاسفة الرواقيين وكاسيوس لنجينس Cassius Longinus أحد علماء القانون ، وحكم على أخوين لسنكا وهما أنيوس ميلا Annaeus Mela والد لوكان وأنيوس نوفاتس Annaeus Novatus — وهو جليو Gallio الذى أطلق سراح القديس بوليس فى أثينة — هذان حكم عليهما بأن ينتحرا .

وبعد أن طهر نيرون مؤخرته على هذا النحو سافر فى عام ٦٦ ليتبارى فى الألعاب الأولمبية ويطوف ببلاد اليونان فى رحلة موسيقية ، لأن « اليونان »

على حد قوله « هم الشعب الوحيد الذى له آذان موسيقية »(٨٥) . واشترك فى أولمبيا فى سباق العربات وساق فيها بنفسه مركبة ذات عجلتين تجرها أربعة جياد فى صف واحد أفقى مستعرض Quadriga وسقط من العربة فى حلبة السباق وكاد يقضى عليه ، ولما أعيد إلى العربة واصل السباق وقتاً ما ، لكنه انقطع عنه قبل نهاية الشوط . وكان المحكمون يفرقون بين الإمبراطور والرجل الرياضى ، فقدموا له تاج النصر . وتملكته نشوة الفرح حين رأى الجماهير تصفق له طرباً فأعلن من فوره أن بلاد اليونان كلها لا أثينة وأسپارطة وحدهما ستكون من تلك الساعة حرة طليقة — أى أنها لن تعطى الجزية لرومة . وكان جواب المدن اليونانية على هذا الكرم أن أقامت الألعاب الأولمبية والپيثية Pyth an والنيميائية Nemean والبرزخية Ishmian(*) فى عام واحد . ورد هو على ذلك بأن اشترك فيها جميعها مغنياً ، وعازفاً ، وممثلا ، ومتبارياً فى الألعاب الرياضية . وقد حرص أشد الحرص على إطاعة قوانين المباريات ، وكان شديد المجاملة لمنافسيه ، ومنحهم حق المواطنية الرومانية تعزية لهم على تفوقه عليهم جميعاً . وتلقى فى أثناء رحلته أنباء بأن الثورة شبت نارها فى بلاد اليهود ، وأن لهيبها اندلع فى الغرب كله . وكان كل ما فعله أن تنهد وتحسر ثم واصل رحلته . ومن أقوال سوتنيوس فى التعليق على هذه الرحلة أنه كان إذا غنى فى ملهى « لا يسمح لأحد بالخروج منه ، ولو كان ذلك لعذر شديد يحتم عليه الخروج ؛ وكان من نتائج ذلك أن ولدت بعض النساء وهن فى الملهى ، وأن تظاهر بعض الرجال بالموت حتى يحملوا إلى الخارج »(٨٦) . ولما جاء إلى مضيق كورنثة أمر أن يبدأ العمل فى شق قناة فى هذا المضيق كما كان قيصر ينتوى أن يشقها ؛ وبدئ العمل فعلا ، ولكنه وقف فى أثناء الاضطراب الذى حدث فى العام الثانى . وارتاع نيرون لتوالى أنباء الفتن والمؤامرات فعاد إلى

(*) سميت كذلك لأنها كانت تقام فى الساحة المقدسة الممتدة على الشاطئ الشمالى الشرقى لبرزخ كورنثة .

رومة (٦٧) ودخلها في موكب رسمي ، وعرض في هذا الموكب غنائم نصره ، وهي الجوائز التي ظفر بها في بلاد اليونان والبالغ عددها ١٨٠٨ جائزة .

وكانت المآسي جادة مسرعة في أعقاب هذه المهازل . من ذلك أن يوليوس ڤندكس Julius Vindex حاكم ليون الغالي أعلن استقلال بلاد الغاليين في شهر مارس من عام ٢٦٨ ، ولما عرض نيرون جائزة قدرها ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ سسترس لمن يأتيه برأسه أجاب ڤندكس عن هذا بقوله : « أن من يأتيني برأس نيرون سيأخذ في مقابل ذلك رأسي »[٨٧] . وأخذ نيرون يعد العدة لملاقاة هذا العدو الشديد البأس في الميدان ، وكان أول ما عني به أن اختار العربات لينقل عليها آلاته الموسيقية وأدوات المسرح[٨٨] . وبينا هو يعد العدة إذ جاءته الأنباء في شهر إبريل بأن جلبا Galda قائد الجيش الروماني في اسپانيا انضم إلى ڤندكس في ثورته ، وأنه يزحف على رومة . وسمع مجلس الشيوخ أن الحرس البريتوري يتأهب للخروج على الإمبراطور طمعاً فيما يناله رجاله من أجور عالية ، فنادي بجلبا إمبراطورا . فما كان من نيرون إلا أن وضع بعض السم في صندوق صغير ، وبعد أن تسلح بهذا السلاح الفتاك فر من بيته الذهبي إلى الحدائق السرڤيلية الواقعة في طريق أستيا . وطلب قبل فراره إلى من كان في القصر من الضباط أن يرافقوه ، فرفضوا جميعا طلبه ، وأنشد له أحدهم بيتاً من شعر ڤرجيل يقول فيه : « وهل من الصعب على الإنسان إذن أن يموت ؟ » . ولم يكن في مقدوره أن يصدق أن قد فارقه فجاءة ذلك السلطان القاهر الذي كان سبباً في القضاء عليه ، فأخذ يرسل النداء تلو النداء إلى الكثيرين من أصدقائه يطلب إليهم النجدة ، ولكن أحداً منهم لم يرد على رسالة من رسائله ، فذهب إلى نهر التيبر يريد أن يغرق نفسه فيه . حتى إذا بلغه خارت . قواه ، وعرض عليه فاؤون أحد معاتيقه أن يخفيه في بيته القائم على طريق سلاريا ، ورحب نيرون بهذا الاقتراح ، واجتاز في ظلام الليل على ظهر جواد أربعة أميال من وسط المدينة إلى بيت فاؤون . وقضى تلك الليلة

فى مخزن الطعام ، وعليه جلباب قذر ، يتلوى من الجوع ، ولم يطف بجفنه النوم ، ترتعد فرائصه فرقاً من كل صوت يقع على أذنيه . وجاء رسول فاؤون يبلغه أن مجلس الشيوخ قد نادى بأن نيرون عدو الشعب وأمر بالقبض عليه ، وقرر أن يعاقب « حسب السنة القديمة » . وسأل نيرون عن ماهية تلك السنة فقيل له : « إن الرجل المذنب يجرد من ثيابه ، ويصلب جسمه فى عمود بمسمار ذى شعب يدق فى عنقه ، ثم يضرب حتى يقضى نحبه . وارتاع من هول هذا العقاب ، فحاول أن يطعن نفسه طعنة تقضى عليه ، ولكنه أخطأ إذ جرب سنان الخنجر أولا ووجده حاداً لا يطيقه فنادى قائلا : « أى فنان يموت موتى ! » :

وسمع فى مطلع الفجر وقع حوافر الخيل ، فأدرك أن جنود مجلس الشيوخ قد أدركوه ، فأنشد بيتاً من الشعر يقول : « استمعوا ؛ ها هى ذى أصوات الساعين إلىّ تقع على أذنى » — ثم طعن نفسه بخنجر فى حلقه ، ولكن يده اضطربت ووهنت فأعانه إبْروديتس أحد معاتيقه على أن يدفع سن الخنجر إلى نهايته ، وكان قد طلب إلى من حوله قبل موته أن يحولوا دون تشويه جسمه ، واجابهم رجال جلبا إلى ما طلبوا . وقامت مربياته العجائز وأكتى عشيقته السابقة بدفن جثته فى قباب قصر دومتيوس (٦٨) وابتهج كثيرون من العامة بموته ، وأخذوا يطوفون بأحياء رومة وعلى رؤوسهم قلانس الحرية . ولكن الذين حزنوا كانوا أكثر منهم لأن سخاءه على الفقراء لم يكن يقل عن قسوته الشديدة على العظماء ، وأصغوا إلى ما أشيع وقتئذ من أنه لم يمت بحق ، بل إنه يقاتل أعداءه فى طريق رومة ، ولما أن رضوا آخر الأمر بأن يصدقوا نبأ موته ، ظلوا شهوراً كثيرة يحجون إلى قبره وينثرون الأزهار أمامه(٨٩) .

الفصل الخامس

الأباطرة الثلاثة

وصل سرفيوس سلپيوس جلبا Servius Sulpius Galba رومة فى يونية من عام ٦٨ ، وكان من أصل شريف ، فقد كان أبوه على حد قوله ينحدر من نسل چوپتر ، كما كانت أمه تنتمى إلى باسفائى Basiphaê زوجة مينوس Minos . وكان فى السنة التى ارتقى فيها العرش أصلع الرأس متقلص اليدين والقدمين من داء المفاصل ، فكان لا يستطيع أن يلبس حذاء أو يمسك كتاباً[٩٠] . وكان يتصف بالرذائل المألوفة فى تلك الأيام ، سوية كانت أو غير سوية ، ولكن هذه الرذائل لم تكن هى التى قصرت حكمه ، بل إن الذى أحنق الجيش والشعب عليه هو اقتصاده الشديد فى الأموال العامة ، وحرصه الشديد على تنفيذ العدالة[٩١] ؛ ولما أن قرر أن يرد كل من نالوا أعطية من نيرون تسعة أعشار ما استولوا عليه إلى خزانة الدولة ، خلق لنفسه آلافاً من الأعداء الجدد وتصرمت أيامه سراعا :

وذلك أن شيخاً مفلساً يدعى ماركس أتو Marcus Etho أعلن أنه لا يستطيع أداء ديونه إلا إذا أصبح إمبراطوراً[٩٢] . وانضم إليه الحرس ، وزحفوا على السوق والتقوا بجلبا راكباً فى هودج ، ومد جلبا عنقه إلى سيوفهم دون أن يبدى أية مقاومة ، فقطعوا رأسه وذراعيه ، وشفتيه ، وحمل واحد منهم رأسه إلى أتو ، ولكنه لم يستطع أن يقبض بقوة على شعره القليل المبلل بالدماء فأدخل إصبعه فى فمه . وأسرع مجلس الشيوخ فوافق على تولية أتو فى الوقت الذى كان الجيش الرومانى فى ألمانيا ينادى بقائده أولس ڤيتليوس Aulus Vitillius والجيش الرومانى فى مصر ينادى بقائده تيتس فلاڤيوس ڤسپازيانس Vespasianus Titus Flavius إمبراطوراً . وزحف ڤيتليوس على إيطاليا بفيالقه القوية ، وقضى

على ما أبدته الحاميات الشمالية ، وما أبداه الحرس البريتورى ، من مقاومة ضعيفة ، وانتحر أتو بعد أن حكم خمسة وتسعين يوما ، وارتقى ڤيتليوس عرش الإمبراطورية .

وليس مما يشرف النظام العسكرى الرومانى أن يتولى القيادة فى أسپانيا شيخ ضعيف مثل جلبا ، وفى ألمانيا أبيقورى متهاون مثل فيتليوس . لقد كان ڤيتليوس نهما أهم ما يعرفه عن الزعامة أنها وليمة يشبع فيها نهمه ، ويجعل كل وجبة من وجباته وليمة كبرى ، أما شئون الحكم فكان يكفيها ما بين الوجبات من فراغ ؛ وإذ كانت هذه الفترات قد أخذت تقصر شيئا فشيئا ، فقد ترك شئون الدولة فى يد معتوقه أسياتكس Asiaticus فلم تمض على هذا المعتوق أربعة أشهر حتى أصبح أغنى رجل فى رومة . ولما علم ڤيتليوس أن أنطونيوس قائد ڤسپازيان يزحف بجيشه على إيطاليا ليخلعه ، عهد بالدفاع عنه إلى جماعة من أتباعه واستمر هو فى ولائمه . وكانت النتيجة أن جيوش أنطونيوس هزمت أنصار ڤيتليوس عند كرمونا Cremona فى شهر أكتوبر عام ٦٩ ؛ وفى هذه المعركة جرت الدماء كما لم تجر فى أية معركة أخرى فى التاريخ القديم كله ، وزحفت الجيوش الظافرة على رومة فقاومتها فلول فيالق فيتليوس مقاومة باسلة بينا كان هومختبئاً فى قصره . ويقول تاستس « إن الجماهير احتشدت لتشاهد المعركة ، كأن منظر القتل وإراقة الدماء لم يكن إلا منظراً يعرض عليهم لتسليتهم » . وبينا كانت المعركة حامية الوطيس كان بعضهم ينهبون المتاجر والمنازل وكانت العاهرات يمارسن مهنتهن[٩٣] . وانتصرت جيوش أنطونيوس فى المعركة ، وأعملوا السيوف فى رقاب المهزومين بلا رحمة ، وأطلقوا لأنفسهم العنان فى السلب والنهب ، وساعدهم الغوغاء — وهم الذين لا يقلون عن التاريخ تمجيداً للمنتصرين — على إخراج أعدائهم من مخابئهم ، وسحبوا فيتليوس من مخبئه وطافوا به نصف عام فى أنحاء المدينة ، وحول رقبته طوق معقود ، وألقيت عليه الأقذار ، وعذب تعذيباً بطيئاً ، ثم أشفقوا عليه فقتلوه (ديسمبر من عام ٦٩) وسحبت جثته بخطاف فى شوارع المدينة وألقيت فى نهر التيبر[٩٤] .

الفصل السادس

ڤسپازيان

لشد ما يغتبط الإنسان بعد ما قرأه عن الأباطرة السابقين أن يرى رجلا متصفاً بالحكمة والكفاية والشرف ! لقد كان ڤسپازيان ، وهذه الأحداث قائمة ، يخوض غمار الحرب فى بلاد اليهود ، ولذلك لم يتعجل فى القدوم إلى رومة ليشغل المنصب العالى المحفوف بأشد الأخطار الذى رفعه إليه جنوده وبادر مجلس الشيوخ إلى الاعتراف به . فلما وصل إليها فى اكتوبر عام ٧٠ أخذ يعمل بجد على إعادة النظام إلى المجتمع الذى اضطرب فى كل ناحية من نواحيه ، وسرى جده هذا إلى نفوس أعوانه . ولما أدرك أن لابد له أن يعانى نفس المشاق التى عاناها أغسطس ، سار على سيرة ذلك الزعيم وسلك مسلكه فى أخلاقه وسياسته ، فسالم مجلس الشيوخ ، وأعاد الحكم الدستورى إلى البلاد ، وأطلق سراح من حكم عليهم من قبل بمقتضى قانون الخيانة فى عهد نيرون وجلبا وأتو وڤيتليوس ، واستدعى من كان منهم منفياً خارج البلاد . ثم أعاد تنظيم الجيش وزاد عدد الحرس البريتورى ووسع سلطة رجاله ، وعين قواداً كفاة لقمع الثورات التى شبت نارها فى الولايات ، واستطاع بعد قليل أن يغلق هيكل يانوس Janus رمزاً لعودة السلام وعهداً منه بالمحافظة عليه .

وكان قد بلغ الستين من العمر ، ولكنه كان محتفظاً ببنيته القوية التى لم يوهنها الإفراط . وكان مفتول العضلات ، قوى الأخلاق ، ذا رأس عريض أصلع ضخم وملامح غليظة ولكنها مهيبة ، وعينين صغيرتين حادتين تخترقان المظاهر الخداعة إلى الحقائق المستورة . ولم يكن يتصف بشىء من شذوذ العباقرة ، ولا يزيد على كونه رجلا قوى الإرادة شديد

الذكاء العملي . وكان مولده فى قرية سبنية قريبة من ريتى Reate وأسرته من عامة الشعب. وكان جلوسه على العرش ثورة رباعية : فهاهو ذا قائد يتربع على عرش الإمبراطورية ، وهاهو ذا جيش من جيوش الولايات قد غلب الحرس البريتورى وتوج من يريده إمبراطوراً ، وهاهى ذى أسر الفلاڤيين Flavians قد خلفت أسرة اليوليو — كلوديين ، وعادات الطبقات الوسطى البسيطة وفضائلها قد حلت فى بلاط الإمبراطور محل الإتلاف الأبيقورى الذى كان يتصف به أبناء أغسطس وليڤيا الذين نشأوا فى الحواضر. ولم ينس ڤسپازيان قط أصله المتواضع ، ولم يحاول أن يخفيه عن الناس ، ولما حاول علماء الأنساب أن يصلوا بنسب أسرته إلى حد أصحاب هرقل طمعاً منهم فى عطائه أرغمهم بسخريته على الصمت . وكان يعود بين الفينة والفينة إلى البيت الذى ولد فيه ليستمتع بما فيه من أساليب وأطعمة ريفية ، ولم يسمح بأن يغير فيه شيء قط . وكان يزدرى الترف والبطالة ، ويأكل طعام الفلاحين ، ويصوم يوماً من كل شهر ؛ وأعلن حرباً عواناً على التبذير والإتلاف . وجاءه فى يوم ما رجل رومانى رشحه لمنصب من المناصب تفوح منه رائحة العطر ، فقال له : « لقد كنت أوثر أن تفوح منك رائحة الثوم » ، ورجع عن ترشيحه لذلك المنصب . ولم يحجب بابه عن الناس ، وكان يعيش كما يعيش عامتهم ويتحدث إليهم حديث الرجل الذى لا يترفع عنهم ، ويضحك من الفكاهة التى كانت توجه إلى شخصه ، ويسمح لكل إنسان أن يوجه إلى خلقه وسلوكه ما شاء من النقد بكامل حريته . وكشف مرة عن مؤامرة تدبر له فعفا عن المتآمرين، وقال إنهم بلهاء لايدركون عبء المتاعب التى ينوء بها كاهل الحاكم . ولم يعرف عنه أنه فقد حلمه إلا مرة واحدة . وذلك أن هلفديوس برسكس Helvidius Priscus بعد أن عاد إلى مجلس الشيوخ من منفاه الذى أخرجه إليه نيرون ، أخذ يطالب بعودة الجمهورية ويطعن على ڤسپازيان طعناً مراً فى السر والعلن ، فطلب إليه ڤسپازيان أن يمتنع عن حضور جلسات المجلس إذا

كان يريد أن يواصل هذا السباب ، فلما رفض هلفديوس أن يجيبه إلى ما طلب نفاه إلى خارج البلاد ولوث حكمه الصالح بأن أمر بإعدامه . وقد ندم على عمله هذا فيما بعد واستمسك فى سائر عهده ، على حد قول سوتونيوس « بأعظم الصبر وهو يستمع إلى عبارات أصدقائه الصريحة . . . وإلى قحة الفلاسفة »(٩٥) . وكان هؤلاء فلاسفة كلبيين ساخرين أكثر منهم رواقيين ؛ كانوا فوضويين متفلسفين يشعرون أن كل حكم أيا كانت صفته عبء مفروض على الناس فرضاً ، وكانوا يهاجمون كل إمبراطور يجلس على العرش .

وأراد أن يطعم مجلس الشيوخ بدم قوى جديد ، بعد أن أوهنته الحرب الأهلية والقيود المفروضة على اختلاط الأسر ، فعمل على أن يعين رقيباً ، ثم جاء إلى رومة بألف أسرة من الأسر الممتازة فى إيطاليا والولايات القريبة ، وسجل أسماءها فى سجلات طبقتى الأشراف والفرسان ، وملأ ما كان فى مجلس الشيوخ من فراغ من بين هذه الأسر الجديدة ؛ وحذا هؤلاء الأشراف الجدد حذوه بعد أن ضرب لهم أحسن الأمثلة ، فأصلحوا بسلوكهم الأخلاق الرومانية والمجتمع الروومانى ؛ ذلك أن أفراد هاتين الطبقتين لم يكونوا ممن أفسدتهم الثروات الطائلة ، ولم يكونوا ممن طال عليهم العهد ببعدهم عن العمل الشاق وزراعة الأرض ، فلم يستنكفوا أن يقوموا بالواجبات والأعمال الرتيبة فى الحياة وتصريف شئون الحكم . وكانت تتصف بما يتصف به الإمبراطور من نظام حسن وآداب رقيقة . وقد خرج من هذه الطبقة الجديدة أولئك الحكام الذين صلحت بهم حكومة رومة بعد دومتيان Domitian مدى جيل كامل ، وأدرك فسبازيان ما جره من المساوئ استخدام العبيد المحررين منفذين لأوامر الإمبراطور ، فاستبدل بمعظمهم رجالا ممن جاء بهم من الأقاليم ومن طبقة رجال الأعمال التى أخذ عددها يزداد فى رومة . واستطاع بمعونة هؤلاء وأولئك أن يرد إلى رومة كرامتها وهو عمل يكاد يكون معجزة من المعجزات .

وقدر أنه فى حاجة إلى ٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سسترس لكى ينتشل البلاد من وهدة الإفلاس ويعيد الثقة إلى خزانة الدولة[٩٦](*) فعمل على جمع هذا المال بأن فرض الضريبة على كل شىء تقريباً ، وزاد خراج الولايات ، وأعاد فرض الخراج على بلاد اليونان ، ورد إلى الدولة الأراضى العامة وأجرها للأفراد ، وباع القصور والضياع الإمبراطورية ، وفرض الاقتصاد الدقيق فى نفقات الدولة إلى حد جعل الناس يندون به ويقولون عنه إنه فلاح بخيل ، وقرر ضريبة على المباول العامة التى كانت تزدان بها رومة القديمة كما تزدان بها رومة الحديثة . واحتج ابنه تيتس على هذه الضريبة الأخيرة المنافية للكرامة ، ولكن الإمبراطور الشيخ أمسك بيده بعض النقود المحصلة منها وقربها من فم الشاب وقال له : « انظر يا بنى ، هل تشم لها رائحة كريهة ؟ »[٩٧] . ويتهمه سوتونيوس بأنه ضاعف أموال الخزانة العامة ببيع المناصب ، وترقية أشد الموظفين شراهة فى جباية الضرائب من الولايات ، حتى يتخموا جيوبهم بالمال حين يعزلهم فجاءة ، ثم يفحص عن أعمالهم ويصادر ما جمعوه لأنفسهم . على أن هذا المالى الماهر الواسع الحيلة لم يستخدم لنفسه شيئاً مما جمعه ، بل استنفد هذا المال كله فى إنعاش الحالة الاقتصادية ، وفى تجميل رومة بالمنشآت العامة وفى تقدمها الثقافى .

وبقى بعدئذ على هذا الجندى الخشن أن ينشئ أول نظام للتعليم تقوم به الدولة فى التاريخ القديم ، فكان أول ما عمله فى هذا الميدان أن أمر بأن تؤدى لطائفة من ذوى الكفاية من مدرسى الآداب وعلوم البلاغة اللاتينية واليونانية أجورهم من خزانة الدولة ، وأن يوظف لهم معاش بعد عشرين عاما من الخدمة . ولعل هذا الشيخ المتشكك قد أحس بأن للمدرسين نصيباً فى تكييف الرأى العام ، وبأنهم سيمتدحون الحكومة التى تؤدى إليهم أجر أعمالهم .

(*) هذا الرقم مأخوذ عن سوتنيوس ، ويرى كثيرون من المؤرخين أنه رقم مبالغ فيه ولا يقبله العقل ، ولكن يغلب على الظن أنه قدر بالنقد المنخفض القيمة فى ذلك الوقت .

ولعل سبباً كهذا هو الذى حدا به إلى إعادة بناء كثير من الهياكل القديمة فى الحواضر وفى بلاد الريف نفسها . فقد أعاد بناء هيكل جوبتر ، ويونو ومنيرفا ، وكان جنود فيتليوس قد أحرقوا هذه الهياكل وهدموها فوق رؤوس جنوده . وشاد معبداً لپاكس Pax إلهة السلام ، وبدأ أشهر المبانى الرومانية كلها وهو مبنى الكولسيوم . وغضبت الطبقات العليا حين رأت الضرائب تفرض على ثروتها لإقامة المنشآت للدولة وأداء الأجور للعمال الفقراء ، كما أن العمال أنفسهم لم يحمدوا له كثيراً عمله هذا . ومن أعماله الأخرى أنه حشد الشعب لإزالة ما خلفته الحرب الأخيرة من أنقاض ، وحمل هو نفسه أول ما حمل منها ، ولما أن عرض عليه أحد المخترعين تصميم آلة رافعة تقلل الحاجة إلى العمل الجثمانى إلى حد كبير أبى أن يستخدمها وقال : « إنى أريد أن أطعم شعبي »(٩٨) وكان هذا الحظر المؤقت الذى فرضه ڤسپازيان على الاختراع اعترافاً منه بمشكلة التعطل الفنية ، وقراراً بالحيلولة دون حدوث ثورة صناعية .

وعم الرخاء الأقاليم إلى حد لم يكن له نظير من قبل ، فكانت ثروتها فى ذلك الوقت — إذا قدرت بالنقد على الأقل — ضعفى ما كانت عليه فى عهد أغسطس ، ولذلك تحملت أعباء ما زاد من الخراج من غير أن يصيبها ضرر ما . وعين ڤسپازيان أجركولا Agricola الرجل القدير حاكما على بريطانيا ، وعهد إلى تيتس أن يخمد ثورة اليهود ، فاستولى على أورشليم ثم عاد إلى رومة بكل مظاهر الشرف التى تتوج الإسراف فى التقتيل ، وسار القائد المظفر فى موكب نصره ومن ورائه صف طويل من الأسرى وقدر كبير من الغنائم مخترقا شوارع رومة ، وأقيم له قوس نصر شهير لتخليد ذكرى هذا النصر الباهر . وازدهى ڤسپازيان بانتصار ولده ولكنه ساءه وأقلق باله أن رأى تيتس يأتى معه بأميرة يهودية جميلة تدعى برنيس Berenice لتكون خليلة له ، ويرغب أن يتزوجها ، وفى هذه المرة أيضاً حل الآسر معه آسره :

ولم يكن الإمبراطور يرى سببا يدعو لأن يتزوج الإنسان خليلته ، وقد ظل هو نفسه بعد وفاة زوجته يعيش مع جارية معتوقة ولم يعن قط بأن يعقد عليها ، ولما ماتت كثينس هذه وزع قلبه بين عدة محظيات(٩٩) . وكان قوى الاعتقاد بأنه يجب أن يستقر على رأى فى وراثة العرش قبل وفاته ، لأن هذه هى السبيل الوحيدة لمنع الفوضى . ووافقه مجلس الشيوخ على هذا الرأى ، ولكنه طلب إليه أن يختار « خير الأخيار » ويتبناه — ولعل المجلس كان يريد منه أن يختار أحد أعضائه . ورد ڤسپازيان بأنه يرى تيتس خير الأخيار . وأراد ولده أن ييسر الأمر لأبيه فأبعد عنه برنيس ، واستعاض عنها بالشيوعية الجنسية(١٠٠) . ثم أجلس الإمبراطور ولده معه على العرش وعهد إليه قسطا متزايداً من الحكم .

وزار ڤسپازيان ريتى مرة أخرى ، وشرب وهو فى الإقليم السبينى كثيراً من ماء بحيرة كوتليا Cutelia المسهل فأصيب بإسهال شديد . وظل وهو طريح الفراش يستقبل الرسل ويؤدى واجبات منصبه . وقد احتفظ إلى آخر لحظة بفكاهته السمجة رغم علمه بأنه قاب قوسين أو أدنى من الموت فقال : « وا أسفاه أظن أنى صائر إلى أن أكون إلها Vae i deus Puto fio ووقف على قدميه وهو يكاد أن يغمى عليه ، وأعانه على ذلك بعض أتباعه وقال : « إن الإمبراطور يجب أن يموت واقفا » . وبهذا ختم حياة كاملة بلغت التاسعة والستين عاما ، واختتم حكما صالحا دام عشر سنين .

الفصل السابع

تيتس

كان أكبر ولديه المسمى باسمه تيتس فلافيوس فسپازيانس Titus Vespasianus Flavius أسعد الأباطرة كلهم حظا . ذلك أنه مات فى السنة الثانية من حكمه وفى الثانية والأربعين من عمره وهو لا يزال «محبوب بنى الإنسان» . ولم يطل به الوقت حتى تفسده السلطة(*) أو تتكشف له خيبة الرجاء . لقد امتاز وهو فى ريعان الشباب ببأسه وقسوته فى الحرب ، ولوث سمعته بالانغماس فى الملذات ، فلما أن تولى الحكم لم تسكره السلطة ، وصلحت أخلاقه ، وجعل حكومته مضرب المثل فى الحكمة والنزاهة . وكان أكبر عيوبه كرمه الحاتمى ، فكان يرى أن اليوم الذى لم يسعد فيه إنساناً ما بهبة يقدمها يوما أضاعه من حياته . وقد أسرف فى الإنفاق على المعارض والألعاب ، وترك خزانة الدولة الغاصة بالمال وهى تكاد أن تكون خاوية كما وجدها أبوه . ومن أعماله أنه أتم تشييد الكلسيوم ، وبنى حماما عاما جديداً فى رومة ، ولم يحكم على أحد بالإعدام فى أثناء حكمه القصير ، بل فعل عكس هذا ، فقد كان الواشون والمخبرون يضربون بالسياط وينفون من البلاد ، وأقسم أنه يفضل أن يقتل هو على أن يكون سبباً فى قتل إنسان ، ولما عرف أن اثنين من الأشراف يأتمران به ليخلعاه ، لم يعمل أكثر من أن يرسل إليهم يحذرهم ، ثم أرسل رسولا يطمئن والدة أحد المتآمرين ، ويبلغها أن ابنها لم يصب بسوء .

(*) يشير الكاتب بقوله «تفسده السلطة» إلى قول لورد أكتن Acton المشهور كل سلطة مفسدة ، والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة All Power corrupts and absolute power corrupts absolutely (المترجم)

وكان ما أصابه من سوء الحظ ناشئاً من نكبات لا سلطان له عليها ؛ ذلك أن حريقاً شب فى رومة ودام ثلاثة أيام ، دمر فيها كثيراً من الأبنية الهامة ، وكان مما دمر فيها مرة أخرى هياكل چوپتر ، ويونو ، ومنيرفا ؛ وفى السنة نفسها ثار بركان ڤيزوف ، وخرب پمپى ، وأهلك آلافاً من الإيطاليين ؛ وفى السنة التالية تفشى فى رومة طاعون لم تشهد وباء أشد منه فتكا فى تاريخها كله . وبذل تيتس كل ما فى وسعه ليخفف وقع هذه الكوارث الشديدة ، ولم تظهر فى ذلك العمل عناية الإمبراطور برعاياه فحسب ، بل ظهر كذلك عطف الوالد الحنون على أولاده »[١٠٢] . ومات تيتس بالحمى فى سنة ٨١ فى نفس البيت الريفى الذى توفى فيه أبوه من زمن قصير . وحزنت عليه رومة كلها إلا أخاه الذى خلفه على العرش .

الفصل الثامن

دومتيان

إن المؤرخ الذى يريد أن يرسم صورة صادقة للدومتيان ليجد فى ذلك صعوبة لا تعادلها صعوبة رسم صورة لنيرون نفسه . ذلك أن أهم المصادر التى نستمد منها معلوماتنا عن حكمه مصدران هما تاستس وپلنى Pliny الأصغر ، وكلاهما ممن علا نجمهم فى عهده ، ولكنهما كانا من حزب الشيوخ الذين كانت بينهم وبينه حرب عوان يريد فيها كلا الطرفين أن يضرب الآخر الضربة القاضية . ولدينا فى مقابل هذين المؤرخين المعاديين له شاعران هما استاتيوس Statius ، ومارتيال Martial اللذين كانا ينالان رفده أو يسعيان لنيله ، واللذين شادا بذكره ورفعاه إلى عنان السماء . ولعلهم هم الأربعة كانوا على حق فيما قالوه عنه ، لأن دومتيان آخر الفلاڤيين بدأ حياته كالملائكة وختمها كالشياطين ، وكان شأنه فى هذا شأن كثيرين من اليوليوسيين — الكلوديين . وقد سايرت روح دومتيان جسمه فى هذا التطور : فقد كان فى شبابه متواضعاً ، رشيقاً ، لطيفاً ، وسيما ، طويلا ؛ ثم صار فيما بعد « بطيناً ، رفيع الساقين ، أصلع الرأس » — وإن كان قد ألف كتاباً « فى العناية بالشعر »[١٠٣] . وكان فى كهولته يقرض الشعر أما فى شيخوخته فلم يكن يثق بنثره ، وكان يعهد إلى غيره كتابة خطبه وتصريحاته . ولو لم يكن تيتس أخاه لأمكن أن يكون أسعد مما كان ؛ ولكن أنبل الناس وحدهم هم الذين يغتبطون بنجاح أصدقائهم . أما دومتيان فقد استحالت غيرته من أخية فى أول الأمر نكداً صامتاً ثم مكائد تدبر سراً لإسقاطة . واضطر تاستس أن يرجو أباه أن يصفح عن أخيه الأصغر . ولما مات ڤسپازيان ، أدعى دومتيان أن أباه قد أوصى بأن يكون شريكا فى

الحكم ولكن الوصية عبثت بها الأيدى ؛ ورد تيتس على هذا الادعاء بأن عرض عليه أن يكون شريكه وخليفته ، فرفض دومتيان هذا العرض وظل سادراً فى مؤامراته ؛ ويقول ديوكاسيوس إنه لما مرض تيتس عجل دومتيان منيته بأن أحاط جسمه بالثلج[١٠٤] . وليس فى وسعنا أن نتأكد من صحة هذه الأخبار أو غيرها من القصص التى وصلت إلينا عن شهواته الجنسية الطليقة — كقولهم إن دومتيان كان يسبح فى الماء مع العاهرات ، وإنه ضم ابنة تيتس إلى سراريه ، وإنه « كان فاجراً فاسقاً بالنساء والغلمان على السواء »[١٠٥] . ذلك أن التواريخ اللاتينية كلها لا تختلف فى شىء عن سياسة هذه الأيام ، فقد كانت ضربات توجه للوصول إلى أعراض رجال العصر الذى كتبت فيه .

فأما من حيث سياسة دومتيان نفسها فإنه كان فى العشر السنين الأولى من حكمه متزمتاً فى أخلاقه قديراً فى سياسته إلى حد دهش معه جميع عارفيه ؛ فقد اتخذ سياسة تيبيريوس واخلاقه مثلا يحتذيه ، كما اتخذ ڤسپازيان أغسطس مثلا آخر له . من ذلك أنه جعل نفسه رقيباً مدى الحياة ، ثم حرم نشر المطاعن البذيئة (وإن كان قد غض النظر عن فكاهات مارتيال الشعرية) . ونفذ القوانين اليوليوسية الخاصة بالزنى ، وحرم تمثيل المسرحيات الصامتة لمجافاتها الأخلاق ، وأمر بضرب عنق عذراء ڤستية حكم عليها بالزنى أو بمضاجعة أحد أقربائها المجرمين عليها ، وقضى على عادة الخصاء وهى العادة التى انتشرت مع ارتفاع أثمان الأرقاء الخصيان ، ولم يكن يطيق رؤية الدم المسفوك ولو كان دم الثيران التى يضحى بها فى المواسم الدينية . وكان رجلا شريفاً ، واسع الفكر ، لم يؤخذ عليه بخل أو شره فى حب المال ، أبى أن يقبل الوصايا ممن لهم أبناء ، وألغى جميع الضرائب المتأخرة من أكثر من خمس سنين ، وأعرض عن التجسس والمتجسسين . وكان فى أحكامه صارماً نزيهاً ، وكان له أمناء سر من معاتيقه ولكنه ألزمهم جميعاً أن يكونوا أمناء صالحين .

وكان عهده من أعظم عهود العمارة الرومانية ، فلما رأى أن النار التى شبت فى عامى ٧٩ ، ٨٢ قد دمرت كثيراً من المبانى وأنزلت بالبلاد كثيراً من البلايا ، وضع برنامجاً واسعاً للمنشآت العامة ليوفر بذلك العمل للأهلين ويساعد على توزيع الثروة[١٠٦] ، وكان هو أيضاً ممن يأملون فى إحياء الإيمان القديم بتجميل الهياكل والأضرحة والإكثار منها : ومن أعماله أنه أعاد بناء هياكل چوبتر ويونو ومنرفا ، وأنفق ما يعادل ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٢ ريال أمريكى فى صنع أبوابها المصفحة بالذهب وأسقفها المطلية به ؛ وأعجبت رومة بنتائج هذه الجهود وأسفت على ما أنفق فيها من أموال طائلة . ولما أن شاد دومتيان لنفسه ولموظفيه الإداريين قصره الرحب المعروف باسم دومس فلافيا Domus Flavia شكا الأهلون بحق من كثرة ما أنفق فى بنائه من الأموال ، ولكنهم لم يرفعوا أصواتهم بالاحتجاج على الألعاب الكثيرة الأكلاف التى حاول أن يخفف بها من كراهية الشعب . وقد دشن هيكلا باسم أبيه وأخيه ، وأعاد بناء الحمامات ، وهيكل الآلهة الذى أنشأه أجربا ، والرواق ذى العمد الذى أقامته أكتافيا ، وهيكلى إيزيس وسرابيس ، وأضاف أجنحة جديدة للكلسيوم ، وأتم حمامات تيتس ، وبدأ الحمامات التى أكملها تراجان ؛

ولم تشغله هذه المنشآت عن بذل الجهود الجبارة فى تشجيع الفنون والآداب حتى بلغ النحت الفلاڤى الملون فى أيام زعامته ذروة مجده ، وحتى النقود التى سكت فى أيامه رائعة الجمال . ومن الوسائل التى استعان بها على تشجيع الشعر أن أقام فى عام ٨٦ الألعاب الكبتولية ، وكانت تشمل مباريات فى الأدب والموسيقى . وأقام معهداً وبهواً للموسيقى فى ميدان المريخ ؛ وقدم معونة متوسطة لاستاتيوس Statius ذى المواهب الوسطى ، وأخرى لمارتيال ذى المواهب الوضيعة ، وأعاد بناء دور الكتب العامة التى دمرتها النيران ، وجدد ما كانت تحتويه من الكتب بأن أرسل الكتبة لنسخ المخطوطات المحفوظة فى الإسكندرية — وذلك برهان آخر

على أن مكتبتها العظيمة لم يحرق إلاجزء صغير من كنوزها في النار التي أوقدها فيها قيصر .

وإلى هذا كله كان يصرف شئون الإمبراطورية أحسن تصريف ، وكان يتصف بما يتصف به تيبريوس من عزيمة قوية صارمة في الشئون الإدارية ، وقد ضرب على أيدي المختلسين والمرتشين ، وكان شديد الرقابة على تعيين الموظفين ومصائرهم . وكما فعل تيبريوس بجرمنكوس إذ حد من جشعه ، كذلك استرجع دومتيان أجركولا من بريطانيا بعد أن قاد هذا القائد المغامر جيوشه ودفع حدود الأملاك الرومانية حتى وصلت اسكتلندة ، ويلوح أن أجركولا كان يعتزم مواصلة الزحف ولكن دومتيان أبى عليه ذلك . وقد عزا بعضهم استرجاع أجركولا لحسد دومتيان له وغيرته من مجده ، وجوزي الإمبراطور على هذا أشد الجزاء حين كتب تاريخ حكمه صهر أجركولا نفسه . وخانه الحظ في الحرب أيضاً حين عبر الداشيون نهر الدانوب في عام ٨٦ ، وغزوا ولاية موئيزيا Moesia الرومانية ، وهزموا قواد دومتيان ، فما كان من الزعيم إلا أن تولى القيادة بنفسه ، ووضع خطة الحرب فأحكم وضعها ، وأوشك أن يدخل داشيا ولكن أنطونينس ستورنينس Antoninus Saturninus الوالي الروماني على ألمانيا العليا أقنع فيلقين من الفيالق المعسكرة في ميز Mainz بأن تنادي به إمبراطوراً . وأخمد أعوان دومتيان الفتنة ، ولكنها أفسدت عليه خطته إذ مكنت أعداءه من جمع شملهم والاستعداد لقتاله . فلما أن عبر الدانوب لملاقاة الداشيين هزمه هؤلاء على ما يظهر ، فعقد الصلح مع دسبالس Dacibalus ملك الداشيين ، وأرسل إليه هدية كان يرسل مثلها في كل عام يسترضيه بها ، وعاد إلى رومة ليحتفل بنصر مزدوج على الشاتين Chatti والداشيين ، واكتفى فيما بعد بإنشاء طريق محصن بين نهري الرين والدنواب وآخر بين الثنية الشمالية لهذا النهر والبحر الأسود .

وكانت فتنة سترنينس نقطة الانقلاب في حكم دومتيان ، أو الحد الفاصل

بين نفسه الطيبة ونفسه الخبيثة . لقد كان على الدوام شديداً لا يلين ، أما الآن فقد انحدر إلى القسوة والوحشية ؛ ولقد كان قادراً على أن يحكم حكماً صالحاً ، ولكن مقدرته هذه كانت موقوفة على أن يكون حاكماً أوتوقراطياً لا معقب لحكمه ؛ فنى عهده لم يلبث مجلس الشيوخ أن فقد سلطته ، وكانت اختصاصاته الواسعة بوصفه رقيباً سبباً فى إذلال هذا المجلس وبث روح الانتقام فى نفوس أعضائه . هذا إلى أن غرور دومتيان لم يقف عند حد ، والغرور كما هو معروف من الصفات التى تترعرع حتى فى نفوس الوضيعين من الناس : ومن مظاهر غروره أنه ملأ الكبتول بتماثيله ، ونادى بتأليه أبيه وأخيه وزوجته وأخته كما نادى بتأليه نفسه ، وأنشأ طائفة جديدة من الكهنة سمو الفلافيال Flaviales ليشرفوا على عبادة أولئك الأرباب ، وطلب إلى الموظفين ألا يذكروه فى وثائقهم إلا بلقب « سيدنا وإلهنا Dominus et Deus Noster » . وكان يجلس على عرشه ويشجع زائريه على أن يحتضنوا ركبتيه ، وأدخل فى قصره المزخرف آداب القصور الشرقية ، لأن الزعامة أصبحت بقوة الجيش وانحلال مجلس الشيوخ ملكية غير دستورية . واشتعلت نيران الفتن على هذا التطور الجديد بين صفوف الأشراف وبين الفلاسفة والأديان التى أخذت تتسرب إلى رومة من بلاد الشرق . وأبى اليهود والمسيحيون أن يعبدوا دومتيان ويتخذوه إلهاً من دون الله ، وندد الكلبيون بكل أنواع الحكومات ، وأقسم الرواقيون ليقاومن كل مستبد جبار ويكرمن قتلة المستبدين وإن قبلوا أن يحكم البلاد ملوك . وفى عام ٨٩ طرد دومتيان الفلاسفة من رومة ، ثم أخرجهم من إيطاليا كلها فى عام ٩٥ ، وكان قرار طردهم من رومة يشمل معهم المنجمين ، لأن تنبؤهم بموت الإمبراطور أوقع الرعب فى قلب رجل خال قلبه من الإيمان ومستعد لقبول الخرافات والأوهام . وفى عام ٩٣ أعدم دومتيان بعض المسيحيين لأنهم أبوا أن يقربوا القرابين بين يدى تمثاله ؛

وتقول الروايات المتواترة إن فلافيوس كلمنز Flavius Clemens ابن أخيه كان من هؤلاء القتلى[١٠٧] .

وزاد خوفه الإمبراطور من المؤامرات حتى بلغ فى السنين الأخيرة من حكمه حد الجنون ، فكان يبطن بالحجارة البراقة جدران الأروقة التى يمشى تحت سقفها ، حتى يرى صورة من كان وراءه معكوسة فيها . وكان يندب سوء حظ الحكام لأن أحداً لا يصدقهم إذا قالوا إن الناس يأتمرون بهم إلا إذا نجحت المؤامرة ، وكان كتيبريوس يستمع للواشين حين تقدمت به السنون ، فلما أن تضاعف عدد الوشاة ، لم يكن أحد من المواطنين ذوى المكانة يأمن على نفسه وهو فى عقر داره من الجواسيس . وزادت التهم والأحكام زيادة سريعة بعد فتنة سترنينس ، فنفى الأشراف أو قتلوا تقتيلا ، وعذب كل من اشتبه فيه عذاباً شديداً ، وكان من بين ضروب العذاب « إدخال النار فى أعضائهم التناسلية »[١٠٨] . واتخذ مجلس الشيوخ المروع — وكان من أعضائه تاستس الذى يقص هذه الأخبار والحقد يملأ قلبه — أداة لهذه المحاكمات والأحكام ، وكان كلما أعدم إنسان يحمد للآلهة أن أنجت الزعيم .

وكان من الأخطاء التى وقع فيها دومتيان أن قذف الرعب فى قلوب آل بيته أنفسهم . من ذلك أنه أمر فى عام ٩٦ بإعدام إيفرديتس Epaphraidtus أمين سره لأنه أعان نيرون على الانتحار قبل ذلك الوقت بسبع وعشرين سنة . وأحس معاتيق بيته وقتئذ بأنهم مهددون بالخطر ، فاعتزموا أن يتقوا الشر بقتل دومتيان ، وانضمت إليهم دوميتيا Domitia فى هذه المؤامرة . وحدث فى الليلة السابقة لليلة مقتله أن قفز من فراشه مذعوراً . ولما حلت الساعة المتفق عليها وجه خادم دوميتيا الضربة الأولى ، واشترك أربعة عشر غيره فى الهجوم عليه ، وقاوم دومتيان هذا الهجوم مقاومة المجنون ، ثم خر صريعاً ، وكان ذلك فى السنة الخامسة والأربعين من عمره والخامسة عشرة من حكمه (٩٦) . ولما علم الشيوخ بالنبأ

مزقوا ما كان له فى قاعة المجلس من صور وحطموا ما وضع له فيها من تماثيل وأمروا أن يحطم كل ما فى الإمبراطورية بأجمعها من تماثيل له ومن نقوش يذكر فيها اسمه .

وبعد فقد ظلم التاريخ هذا العهد « عهد الطغاة » ، وكان سبب هذا الظلم أنه تحدث عنه أكثر ما تحدث بلسان أعظم المؤرخين نباهة وأبعدهم عن الإنصاف . ولسنا ننكر أن ثرثرة سوتونيوس كثيراً ما تؤيد اتهامات تاستس أو تحذو حذوها ، ولكن دراسة الأدب والنقوش قد حكمت عليهما بأنهما يظنان خطأ أن كتابة تاريخ الإمبراطورية ، وتاريخ القرن الذى كانا يعيشان فيه ، لا تخرج عن تسجيل رذائل الأباطرة العشرة وخطاياهم . إن أسوأ هؤلاء الحكام لم يكن مجرداً من كل خير — فقد كان تيبريوس حاكماً مخلصاً فى عمله ، وكان كالجيولا مرحاً جذاباً ، وكان كلوديوس يكدح لتعلم الحكمة ، وكان نيرون مرهف الحس بالجمال ، وكان دومتيان قديراً فى حكمه صارماً فيه . وقام من خلف مظاهر الفجور والتقتيل نظام إدارى حفظ للولايات قسطاً كبيراً من النظام خلال هذه الفترة الطويلة كلها . يضاف إلى هذا أن الأباطرة أنفسهم كانوا أكبر ضحايا سلطانهم ، فقد كان مرض من نوع ما يجرى فى دمائهم ، أشعلت ناره حرارة شهواتهم الطليقة ، وظل يلازم اليوليوسين — الكلودين حتى قضى عليهم كما قضى على أبناء أتريوس Atreus . وكان عيب من نوع ما فى نظام الحكم هو الذى حط من شأن الفلاڤيين فى مدى جيل واحد ، فهوى بهم من حزمهم فى شئون الحكم وصبرهم على متاعبه إلى القسوة الوحشية المروعة . ولقد اختتمت حياة سبعة من هؤلاء الرجال العشرة أسوأ خاتمة ، وكانوا كلهم تقريباً غير سعداء فى حياتهم ، فقد عاشوا فى جو من المؤامرات والدسائس والخيانة ، يحاولون أن يحكموا عالما من بيت تسوده الفوضى . وإذا كانوا قد أطلقوا العنان لشهواتهم فما ذلك إلا لأنهم كانوا يعرفون أن سلطانهم العظيم سريع الزوال وأنهم كانوا يعيشون يروعهم فى كل يوم

علمهم بأنهم مقضى عليهم بالموت الباكر المفاجئ ؛ وإذا كانوا قد انحطوا إلى الدرك الأسفل فما ذلك إلا لأنهم كانوا فوق متناول القانون ، وإذا كانوا قد أضحوا أقل من الرجال فما ذلك إلا لأن السلطة جعلت منهم آلهة يعبدون :

ولكننا مع ذلك لا يحق لنا أن نغفر لهذه الحقبة أو للزعامة ما اقترفته من الجرائم الخسيسة الدنيئة ؛ نعم إنها نشرت السلام فى ربوع الإمبراطورية ، ولكنها بسطت حكم الإرهاب على رومة ، وأفسدت الأخلاق بما ضربته من أمثلة القسوة المروعة والفجور الطليق ، وقطعت أوصال إيطاليا بإشعال نار الحرب الأهلية التى كانت أشد هولا ووحشية من حروب قيصر وبمبى ، وملأت الجزائر بالمنفيين ، وأفنت خير الرجال وأشدهم بأساً . وأقواهم قلباً . ونشرت الغدر والخيانة بين الأقارب والأصدقاء بإجزال العطاء للجواسيس الشرهين . وقد استبدلت فى رومة حكم القانون بطغيان الأفراد وشادت صروحاً ضخمة بجمع الخراج من الولايات ، ولكنها أضعفت النفوس بإرهاب ذوى المواهب والابتكار حتى يذلوا أو يصمتوا . وشر من هذا كله أنها جعلت الجيش صاحب السلطة العليا فى البلاد . فلم يكن منشأ سلطة الزعيم على مجلس الشيوخ هو عبقريته الفذة ، أو ما جرى به العرف ، أو مكانة الزعيم وهيبته ، بل كان عماد هذه السلطة أسنة الحرس . ولما رأت جيوش الولايات كيف كان الأباطرة يرفعون على العرش ، وكيف كانت العطايا توزع فى العاصمة والغنائم تؤخذ منها ، استولت على سلطة الحرس البريتورى ، وتولت هى صنع الملوك . ولقد استطاع الحكام العظماء ، الذين كانوا يختارون بالتبنى لا بالوراثة ، استطاعوا بالحكمة أو بالبطش أو بالمال أن يكبحوا جماح الفيالق الرومانية ويؤمنوا الحدود والثغور ، فلما أن عادت البلاهة إلى الجلوس إلى العرش بعمل فيلسوف عاشق ، شق الجند عصا الطاعة وفسد نظامهم ، ومزقت الفوضى غشاء النظام الرقيق ، وتآزرت الحرب الأهلية والبرابرة المتربصون فتحطم صرح الحكم النبيل المزعزع الذى شادته عبقرية أغسطس .

الباب الرابع عشر

العصر الفضى

١٤ – ٩٦ م

الفصل الأول

المولعون بالفنون

أطلقت الرواية المتواترة على الآداب اللاتينية فيما بين ١٤ ، ١١٧ م اسم العصر الفضى للدلالة على أن هذه الآداب قد نزلت عن المستوى الثقافى الرفيع الذى بلغته فى عصر أغسطس ؛ والرواية هى صوت الزمان ، والزمان هو الوسط الذى يختار فيه بين الطيب والخبيث ، والعقل الحذر يجل حكمهما لأن الشباب وحده هو الذى يعرف ما لا تعرفه عشرون قرناً من الزمان . على أننا نرجو أن يؤذن لنا بأن نرجئ حكمنا على هذا العصر ، وأن نستمع بلا تحيز إلى ما يقوله عنه لوكان ، وبترونيوس ، وسنكا ، وبلنى الأكبر ، وسلسس Celsus ، واستاتيوس Statius ومارتيال ، وكونتليان ، وأن نستمع فى أبواب أخرى من هذا الكتاب إلى أقوال تاستس ، وجوفنال ، وبلنى الأصغر ، وإبكتتس Epictetus ، وأن نستمتع بأقوالهم استمتاع من لم يسمعوا قط بأنهم عاشوا فى عصر من عصور الاضمحلال . ذلك أنا نجد فى كل عصر شيئاً يضمحل وشيئاً ينمو ؛ فالمقطوعات الشعرية الفكهة ، والهجاء ، والروايات القصصية ، والتاريخ ، والفلسفة ، بلغت كلها فى العصر الفضى ذروة مجدها ، كما أن فن النحت الواقعى ، والعمارة الضخمة قد بلغا فيه ما لم يبلغاه فى عصر آخر من عصور الفن الرومانى .

وفى هذا العصر دخل حديث رجل الشارع مرة أخرى فى الأدب ، وأهملت بعض قواعد النحو والصرف ، وحذفت الحروف الساكنة من أواخر الكلمات ، ولم يعبأ بها الرومان أكثر مما كان يعبأ بها الغاليون . وحدث فى منتصف القرن الأول أو حواليه أن رقق الحرفان اللاتينيان V (وكان ينطق كما ننطق حرف W (و) فى اللغة الإنجليزية) ، B (إذا كان بين حرفين متحركين)(*) حتى أصبحا مماثلين فى النطق لحرف V الإنجليزى . وهكذا أصبحت كلمة babere ومعناها التملك ينطق بها bavere ، وكان هذا تمهيداً للكلمة الإيطالية avere ، وللفرنسية Avoir ؛ وأخذت كلمة vinum ومعناها النبيذ أو الخمر تقترب فى النطق من كلمة vino الإيطالية ، وكلمة vin الفرنسية وذلك بإهمال الحرف الساكن الأخير المتغير . وقصارى القول أن اللغة اللاتينية شرعت تمهد السبيل للغات القومية الأيطالية والأسبانية والفرنسية .

وجدير بنا أن نعترف فى هذا المقام بأن الخطابة ازدهرت وقتئذ على حساب البلاغة ، وأن النحو ارتقى على حساب الشعر ؛ وأن المقتدرين الكفاة وجهوا كل جهودهم إلى دراسة شكل اللغة وتطورها ودقائقها ، وإلى نشر النصوص التى أصبحت فى ذلك العهد نصوصاً « فصحى » ، وإلى صياغة قواعد الكتابة الأدبية الراقية والخطب القضائية ، وأوزان الشعر ، وتقاسيم الجمل فى النثر . وحاول كلوديوس أن يدخل بعض الإصلاح على الحروف الهجائية ، وجعل نيرون الشعر طراز العصر المحبب ، وألف سنكا الأكبر كتباً فى البلاغة ، وحجته فى هذا أن الفصاحة تزيد كل قوة إلى ضعفيها ؛ ولم يكن أحد يرقى فى رومة بغير الفصاحة إلا قواد الجند وخدمهم ، وحتى هؤلاء القواد كان يجب أن يكونوا خطباء . واستحوذ جنون البلاغة على جميع أشكال الأدب : فأصبح الشعر خطابياً والنثر

(*) لقد فضلنا أن نستعمل هذا اللفظ (الحرف المتحرك) لترجمة كلمة vowel الإنجليزية وإن كان بعضهم يفضل تسميته « بالحركة » ، وذلك للدلالة على كيانه المستقل . (المترجم)

شعرياً ، وحتى بلنى نفسه كتب صفحة بليغة فى المجلدات الستة من كتابه فى **التاريخ الطبيعى** . وأخذ الناس يشغلون أنفسهم باتزان عباراتهم ، وتناغم جملهم ، وأضحت التواريخ خطباً حماسية ، وأخذ الفلاسفة يجهدون أنفسهم فى البحث عن النكات ، وشرع كل إنسان يكتب أمثالا مركزة موجزة ، وصار الأدباء كلهم يكتبون الشعر ويقرءونه لأصدقائهم حول مناضد فى ردهات أو دور تمثيل يستأجرونها لهذا الغرض ، بل إنهم كانوا يقرءونه فى الحمامات نفسها ، حتى شكا من ذلك مارتيال مر الشكوى . وعقدت مباريات عامة للشعراء ، ينال الفائزون فيها جوائز وتحتفل بهم المجالس البلدية ، ويضع الأباطرة على رؤوسهم أكاليل النصر . وكان الأشراف والزعماء يرحبون بأن تهدى إليهم المؤلفات أويثنى عليهم فيها وكانوا يجيزون أصحابها بالولائم أو الأموال . وكانت شهوة الشعر مما أكسب هذه الفترة وتلك المدنية اللتين دنستهما الإباحية الجنسية وعهود الإرهاب المتكررة نقول كانت هذه الشهوة مما أكسب هذه الفترة ذلك الجمال الذى يخلعه المؤلفون الهواة على العصر الذى يعيشون فيه .

واجتمع الشعر والإرهاب فى حياة لوكان ، وكان سنكا الكبير جده ، وسنكا الفيلسوف عمه . وقد ولد فى قرطبة عام ٣٩ وسمى ماركس أنيوس لوكانس Marcus Annaeus Lucanus ، وجيء به فى طفولته إلى رومة ونشأ فى بيئة أرستقراطية يصطرع فيها الشعر والفلسفة مع دسائس الحب ومع السياسة فى سبيل الغلبة والمكانة السامية فى الحياة . ولما بلغ الحادية والعشرين من عمره اشترك فى المباريات التى عقدت أثناء الألعاب النيرونية ، وتقدم إليها بقصيدة « فى مدح نيرون » نال عليها جائزة . وأدخله سنكا فى بلاط الإمبراطور ، وسرعان ما أخذ الشاعر والإمبراطور يتطارحان الملاحم . وارتكب لوكان غلطة شنيعة إذ كسب الجائزة الأولى فى مباراة شعرية مع الزعيم ، فما كان نيرون إلا أن أمره بألا ينشر بعدها شعراً ، وانسحب لوكان ليثأر لنفسه سراً بتأليف ملحمة قوية ولكنها خطابيـــة

سماها فرساليا رأى فيها الحرب الأهلية بعين الأرستقراطية اليمينية . ولم يبخس لوكان فى هذه الملحمة قيصر حقه ، وقد وصفه فيها بتلك العبارة البليغة « nil actum credens cum quid supersset agendum يظن أنه لم يفعل شيئاً إذا ما بقى شيء ما لم يفعله »[١] ، ولكن البطل الحقيق فى هذه الملحمة هو كاتو الأصغر الذى يضعه لوكان فى مصاف الآلهة فى سطر مشهور من سطور كتابه «victrix causa deis placiut sed victa Catoni إن القضية الرابحة سرت الآلهة ، ولكن القضية الخاسرة سرت كاتو »[٢] . وقد أحب لوكان أيضاً القضية الخاسرة ، ومات فى سبيلها . فقد اشترك فى مؤامرة ليحل بيزو محل نيرون ، وقبض عليه ، فخارت قواه (ولم يكن قد جاوز السادسة والعشرين من عمره) ، وباح بأسماء شركائه فى المؤامرة ، حتى اسم أمه نفسها — على حد قول المؤرخين . ولما أيد نيرون حكم الإعدام الذى صدر عليه ، استعاد شجاعته ، ودعا أصدقاءه إلى وليمة ، وأكل معهم حتى شبع ، ثم فتح بعض أوردته ، وأنشد ما قاله من الشعر فى هجو الظلم والطغيان بينا كان دم الحياة ينزف من جسمه .

الفصل الثانى

پترونيوس

لسنا واثقين من أن پترونيوس الذى لا يزال كتابه المسمى الساتريكون satyricon يجد له كثيراً من القراء هو نفسه كيوس پترونيوس Caius Petronius الذى قتل بأمر نيرون بعد عام من مقتل لوكان . وليس فى الكتاب كله كلمة واحدة يمكن أن يستدل منها على هويته ؛ ولا يذكر تاستس فى وصفه القوى البليغ لهذا « الحاكم الظريف » كلمة واحدة عن هذه الآية الأدبية التى بلغت الغاية فى سوء السمعة . وتعزى نحو أربعين مقطوعة فكهة إلى كاتب يدعى پترونيوس ومنها بيت يكاد يمثل فلسفة لكريوشيوس كلها وهو : « إن الخوف هو الذى أوجد الآلهة فى العالم أول الأمر »[٣] ولكن هذه النتف أيضاً لا تذكر شيئاً يفصح عن حقيقة مؤلفها .

وكتاب الساتريكون مجموعة من الهجاء يغلب على الظن أنها كانت فى ستة عشر كتاباً لم يبق منها إلا الكتابان الأخيران ، وحتى هذين الكتابين ناقصان . واسمها مشتق من ساتورى saturae اللاتينية ومعناها « خليط » — وهى تارة نثر وتارة شعر ، وتختلط فيها المغامرات بالفلسفة ، وجراحة المعدة بالصيد . وهى مدينة فى صورتها هذه لكتب منبس Menippus الهجائية ؛ ومنبس هذا فيلسوف سورى كلبى Cynic كان يقيم فى جدارا Gadara وفيها كتب مؤلفة عام ٦٠ ق . م ، ومنها « القصص الميليزية » Milesian أو الروايات الغرامية التى انتشرت فى العالم ذى الحضارة اليونانية . وإذ كان كل ما لدينا من أمثلة لهذا النوع من الكتابات إنما يرجع إلى ما بعد عصر پترونيوس فإن كتاب الساتريكون يمتاز عن أمثاله من الكتب بأنه أقدم رواية قصصية معروفة .

ولا يكاد الإنسان يصدق أن رجلا مترفاً أرستقراطياً نبيلا ، اشتهر بذوقه الراقى ، ينزل إلى الدرك الذى نزل إليه كتاب الساتريكون . إن كل ما فيه من الشخصيات العاملة من العامة ، والأرقاء السابقين ، وكل ما فيه من المناظر مأخوذة من أسفل أنواع الحياة ؛ وبه ينتهى فجاءة العهد الأغسطى الذى كانت تؤخذ فيه موضوعات الأدب من حياة الطبقات العليا. فإنكلپيوس Encolpius الذى تروى القصة على لسانه زان ، مخنث ، كاذب لص ، يرى من الطبيعى أن يكون كل ذى عقل على شاكلته . وهو يقول عن نفسه وعن صديقه : « لقد اتفقنا فيما بيننا على أن نختلس كل ما تصل إليه أيدينا كلما أتيحت لنا فرصة الاختلاس ، لنملأ به خزينتنا المشتركة »[٤] . وتبدأ القصة فى بيت للدعارة ، يلتقى فيه إنكلپيوس بأسيلتوس Ascyltos بعد أنْ لجأ هـذا إلى ذلك المكان فراراً من محاضرة فى الفلسفة ، ومغامراتهما بين مدن إيطاليا الجنوبية وكهوفها هى الرباط الذى يربط أجزاء القصة المبعثرة ، كما أن تنازعهما على جيتون Giton الغلام الرقيق الوسيم هو الذى يفرق بينهما فى قصة اللصوص الغرامية . ويصل الرجلان آخر الأمر إلى بيت التاجر تريملكيو Trimalchio ، ثم يدور الجزء الباقى لدينا من الكتاب حول وصف السنا تريملكيونس Cina Trimalchionis وهو أعجب غذاء فى الأدب كله .

وتريملكيو هذا عبد سابق جمع ثروة طائلة واشترى ضياعاً واسعة ، يحيا حياة المترفين الحديثى النعمة ، بين جدران قصر وفى جو ملىء بالاضطراب. وقد بلغت ضياعه من الاتساع حداً لا بد معه من كتابة صحيفة يومية يعرف بها مكاسبه ، وهو يطلب إلى ضيوفه أن يشربوا ويقول :

« إذا لم يعجبكم الخمر استبدلت به غيره ، ولست مضطراً إلى شرائه وذلك ما أحمده للآلهة : إن كل ما يُسيل لعابكم فى هذا المكان قد جاءنى من إحدى مزارعى التى لم أرها بعد ، ولكنهم يقولون لى إنها فى طريق ترسينا Terracina

وتارنتم ، وإنى أفكر فى أن أضم صقلية لأملاكى الصغيرة الأخرى ، حتى إذا ما أردت أن أسافر إلى أفريقية استطعت أن أسير مجاوراً لشواطئ أملاكى . . . وإذا ما حدثتكم عن الفضة فإنى أحدثكم عنها حديث الخبير فعندى منها أقداح فى حجم دنان الخمر . . . وعندى ألف جفنة تركها مميوس Mummius لسيدى . . . وأنا أشترى الأشياء بأبخس الأثمان وأبيعها بأغلاها وقد يكون لغيرى من الناس آراء غير هذه الآراء(٥) ؛ وهو رغم هذا رجل ظريف ، يسب عبيده ولكنه يعفو عنهم من فوره ، وهم من الكثرة بحيث لا يعرف صورته منهم إلا عشرهم ، وهو لا ينسى أنه فى الأصل عبد مثلهم ولذلك يقول عنهم قولا كريماً : « إن العبيد رجال قد رضعوا اللبن الذى رضعناه . . . وسوف يشرب عبيدى إذا طال بهم العمر الماء الذى يشربه الأحرار » . وهو يبرهن على حسن نواياه بأن يأمر بإحضار وصيته وقراءتها على ضيوفه فيجدون فيها أموالا مخصصة لقبريته التى يختمها بقوله مفتخراً إنه « اغتنى من لا شىء ، وإنه ترك وراءه ثلاثين مليون سسترس ، وإنه لم يستمع قط إلى فيلسوف »(٦) ؛

واختص وصف العشاء بأربعين صفحة ، وإن عدداً قليلا من الجمل لتكفى لوصف نكهته :

وكانت لدينا صينية مستديرة نقشت على أطرافها أبراج النجوم ، وقد وضع الخادم على كل برج خير ما يلائمه من الطعام ؛ فوضع جلبان الضأن على برج الحمل ولحم البقر على برج الثور . . . ورحم خنزيرة لم تلد على برج السنبلة . . . ووضع على برج الميزان كفتين فى إحداهما فطيرة وفى الأخرى كعكة . . . وأقبلت أربعة راقصات مسرعات ليرفعن الغطاء عن الطعام . وكان من تحته طيور محشوة ، وبطون خنازير ، يتوسطها أرنب ، وفى الجوانب أربعة تماثيل لمارسياس Marsyas يخرج من مثاناتها حساء متبل يقع على سمك يسبح فى الصحاف . . . ثم جاءت صينية أخرى عليها خنزيرة ، علقت فى أنيابها سلال مثقلة بالبلح . ومن حولها صغارها مصنوعة

من الفطائر . . . ولما دفع الخادم السكين فى جانب الخنزيرة طار منها طير السمانى وحط كل واحد على ضيف من الأضياف (٧) .

ثم تدخل الحجرة أربعة خنازير بيضاء ويختار الضيوف ما يريدون أن يطهى لهم منها ؛ ويشوى لهم ما يختارونه وهم يطعمون ؛ ويؤتى لهم به ، فإذا قطع خرجت من بطنه أمعاؤه المحشوة والفطائر . وإذا قدمت الحلوى لم يجد أنكلبيوس لديه شهية لتناولها ، ولكن تريملكيو يحث ضيوفه على الأكل ويؤكد لهم أن الحلوى قد صنعت كلها من لحم خنزير . ويدلى خطاف من السقف ، يحمل لكل ضيف إبريقاً من المرمر مملوءاً بالعطر ويملأ العبيد أقداحاً فارغة بالخمر المعتق . وتذهب الخمر بعقل تريملكيو فيغازل غلاماً ، وتحتج عليه زوجته البدينة ، ويقذفها بكأس فى رأسها ويقول : « إن هذه العاهر السورية الرقاصة ضعيفة الذاكرة ، فلقد انتشلتها من سوق النخاسة وجعلتها امرأة ، وها هى ذى تنفخ أوداجها كالضفدعة . . . وهذه سنة الخلق إذا ولدت فى علية تحت سطح منزل ، فلن تستطيع أن تنام فى قصر » (٨) ثم يأمر قهرمانه أن يبعد تمثالها عن قبره « وإلا فإنها ستؤنبنى حتى بعد أن أموت » .

هذا كتاب فى الهجاء القوى المقذع ، واقعى فى تفاصيله وحدها ، ولا يصدق إلا على قسم صغير من الحياة الرومانية . وإذا كان كاتبه هو بترونيوس الذى عاش فى عهد نيرون ، وجب علينا أن نعده هجاء مقذعا للأغنياء المحدثين من الأرقاء المحررين ، كتبه رجل من الأشراف ، لم يكسب قط بعمله ما كان له من المال . والكتاب كله خلو من الرحمة ليس فيه شىء من العطف على الناس ، ولا يهدف إلى مثل أعلى ، ويرى كاتبه أن الفساد وسوء الخلق أمر طبيعى لا غبار عليهما ، وتعرض فيه حياة السوقة من الناس عرض من يستمتع بها ويعجب بها ولا يعلق بكلمة ما عليها . وفى هذا الكتاب تنساب الأقذار انسياباً سريعاً إلى الأدب الرومانى ، وتحمل إليه أحكام أصحابها ، وأذواقهم ، وألفاظهم الوقحة ، وحيويتهم

المرحة . وترى القصة أحياناً تصـــل إلى أعلى درجات السخف والبذاءة والسباب التي تتوج ملحمة جرجنتوا وبنتجرول ، وتعد تمهيداً لقصة « الأرنان الذهبية » لأبوليوس Apuleius وتضارعها جيل بلاس Gils Blas التي كتبت بعدها بسبعة عشر قرنا ، وتواصل قصتا ترسترام شاندى Tristram Shandy وتم چونز Tom Jones ما فى قصَصها من التواء ، وجملة القول أن هذا الكتاب هو أعجب كتاب فى الأدب الرومانى كله .

الفصل الثالث

الفلاسفة

فى هذا العصر الشديد التعقد والانحلال ، الذى فرضت فيه على الحرية أضيق القيود وتحررت فيه الحياة من كل قيد ، فى هذا العصر ازدهرت الفلسفة إلى جانب الفسق والفجور ، ولم تترفعا قط عن التعاون والاتفاق . لقد ترك ما طرأ على الدين القومى من انحلال ثغرة فى الأخلاق حاولت الفلسفة أن تسدها ، فكان الآباء يرسلون أبناءهم ، وكثيراً ما كانوا يذهبون هم أنفسهم ، ليستمعوا إلى محاضرات رجال يعرضون عليهم قانوناً عقلياً للأخلاق الصالحة ، أو ستارا رسميا للشهوات المكشوفة ، وكان بعض من أوتواسعة من المال يستأجرون الفلاسفة ليعيشوا معهم ، وليعلموهم ، ليكونوا لهم مستشارين روحيين ، وأصحاباً عالمين . هكذا كان أتيوس لأغسطس ، لايكاد يبرم أمراً حتى يستشيره فيه ، ومن أجله (إذا كان لنا أن نصدق الحكام فيما يقولون) لم يقس على مدينة الإسكندرية ، ولما مات دروسس استدعت ليڤيا « فيلسوف أبيها » — وهذا نص عبارة سنكا — « ليعينها على تحمل أحزانها » . وكان لنيرون ، وتراچان وأورليوس بطبيعة الحال فلاسفة يقيمون معهم فى بلاطهم ، كما للملوك أمناء فى هذه الأيام . وكان الناس فى الساعات الأخيرة من حياتهم يستدعون الفلاسفة ، ليمهدوا لهم طريق الموت ، كما جرت العادة بعدئذ أن يستدعى الناس القساوسة(١٠) .

ولم يكن الشعب ليغفر لهؤلاء الفلاسفة أنهم يتقاضون على أعمالهم هذه مرتبات أو أجوراً ، بل كان يرى أن الفلسفة فى حد ذاتها تغنى عن الطعام والشراب ؛ وكان الفلاسفة الذين لايقدرون مهنتهم حق قدرها عرضة لسخرية الشعب ، وانتقاد كونتليان Quintilian ، وهجو لوشيان Lucian وعداء

الأباطرة. والحق أن الكثيرين منهم كانوا جديرين بهذا كله، لأنهم كانوا يلبسون لباس الفلاسفة الخشن ، ويطلقون لحاهم طويلة ، ليستروا بثوب العلم نهمهم ، وأطماعهم ، وبخلهم . وغرورهم . وفى ذلك يقول أحد الأشخاص للوسيان إن :

« دراسة قصيرة للحياة قد أقنعتنى بما فى جميع الأغراض الدنيوية من سخف وحقارة . . . وخير ما أستطيع أن أفكر فيه وأنا فى هذه الحالة النفسية هو أن أعرف حقيقة الحياة كلها من الفلاسفة . . . من أجل هذا اخترت أحسنهم — إذا كان وقار المنظر ، واصفرار الوجه ، وطول اللحية هى المقياس الذى يعتمد عليه فى هذه الحال . . . ثم وضعت نفسى بين أيديهم . وطلبت إليهم أن يعلمونى نظام الكون فى نظير مبلغ كبير من المال أؤديه إليهم فوراً ، ومبلغ آخر أؤديه إليهم حين أصـــل إلى الغاية فى الحكمة . ولكن الذى حدث لسوء الحظ أنهم لم يبددوا ما كنت فيه من جهل ، بل زادوا عقلى ارتباكا فوق ارتباكه بما جرعونى من بدايات وغايات ، وذرات وفراغ ، ومواد وأشكال . وكان أصعب ما لقيته أنهم جميعاً كانوا يريدون أن أصدقهم ، رغم ما بينهم من خلاف ، ورغم ما كان فى أقوالهم كلها من تناقض ؛ فكان كل واحد منهم يجذبنى نحوه . . . وكثيراً ما كان يعجز عن أن يخبرك بما بين مجارا وأثينة من أميال ، ولكنه لا يتردد مطلقاً فى أن يخبرك بما بين الشمس والقمر من أقدام[11] .

وكان معظم الفلاسفة الرومان من أتباع المذهب الرواقى ، أما الأبيقوريون فلم تترك لهم الخمر والنساء والطعام وقتاً للنظريات الفلسفية . وكان فى أماكن قليلة من رومة متسولون يدعون إلى الفلسفة الكلبية لا يعنون بالتفكير ، ويدعون الناس إلى البساطة والتقشف ، ويذعنون لما يطلبه الشعب إلى الفلاسفة أن يكونوا فقراء ، ومن أجل هذا كانوا أقل طوائف الفلاسفة احتراماً . ولكن سنكا اتخذ واحداً من هؤلاء صديقا وفياً له ؛ وقال فى هذا متسائلا : « ولم لا أجل دمتريوس وأعظمه ؟ لقد وجدته

كاملا لا ينقصه شيء . وقد دهش الحكيم صاحب الملايين حين رفض الفيلسوف الكلبي ، الذي لم يكد يجد عنده ثوباً يستر به عورته ، عطية من كاليجولا مقدارها مائتا ألف سسترس[١٢] .

وإذ كان الرواقي الروماني رجل قتال لا رجل تأمل وتفكير ، فقد كان يتجنب ما وراء الطبيعة ، ويرى ذلك من المطالب الميئوس منها ، وكان يجد في الرواقية فلسفة أخلاقية تقوم على الآداب الإنسانية ، وتضم شمل الأسرة ، وتثبت النظام الاجتماعي من غير حاجة إلى رقابة علوية وسيطرة إلهية . وكان جوهر قانونه الأخلاقي هو سيطرة المرء على نفسه ، فكان يدعو إلى إخضاع الشهوات للعقل ، وكان يعوّد إرادته ألا تطلب شيئاً يجعل راحته النفسية تعتمد على الطيبات الخارجية . وكان في الناحية السياسية يعترف بأخوة البشر الخاضعين لأبوة الله . وكان في الوقت نفسه يحب بلده وتراه على الدوام مستعداً لأن يضحي بحياته لكي يرد عنها وعن نفسه المذلة والعار . وكانت الحياة على الدوام رهن تصرفه ، له أن يغادرها حين تصبح نقمة عليه لا نعمة له ، وكان الرواقي يسعى لأن يكون ضمير الإنسان أقوى من كل قانون ، وكانت الملكية في رأيه شراً لابد منه لحكم الأقطار الشاسعة المتباينة ، ولكن قتل الطاغية المستبد كان أمراً طيباً مرغوباً فيه كل الرغبة .

وقد استفادت الرواقية الرومانية أول الأمر من الزعامة ، ذلك أن القيود التي فرضت على الحرية السياسية دفعت الناس من السوق العامة إلى الدرس ، وبعثت في أرق هؤلاء الناس وأظرفهم نزعة إلى الفلسفة التي تجعل الشخص المسيطر على نفسه ذا سلطان أقوى من سلطان الملك الثائر المنفعل . ولم تقيد الحكومة حرية الفكر أو القول ما دامت الأفكار والأقوال لا تتجه علناً إلى مهاجمة الإمبراطور وأسرته ، أو إلى الطعن على الآلهة الرسمية . فلما أن شرع الأساتذة وأولياؤهم من الشيوخ يندددون بالظلم والاستبداد شبت بين الفلسفة والحكم المطلق حرب عوان ، دامت حتى جمع بينهما الأباطرة المتبنّون فوق العرش

ولما أمر نيرون ثراسى Thrasea بأن يقتل نفسه (٦٥) نفى فى الوقت نفسه موسونيوس روفس Musonius Rufus صديق ثراسى ، وأخلص فلاسفة رومة الرواقيين فى القرن الأول عقيدة ، وأشدهم عملا بفلسفته . وكان روفس قد عرف الفلسفة بأنها هى البحث عن السلوك الطيب ، وشرع فى هذا البحث بجد ومثابرة . وقد شهر بالتسرى رغم شرعيته ، وكان يطلب إلى الرجال أن يحافظوا فى أخلاقهم الجنسية على المستوى الذى يطالبون به النساء . وكان الرجل التولستوى النزعة يقول إن العلاقات الجنسية لا تباح إلا فى حالة الزواج وللمحافظة على النسل . وكان يعتقد بوجوب تكافؤ الفرص التعليميه للرجال والنساء على السواء ويرحب بوجود النساء فى محاضراته ، ولكنه يأمرهن أن يبحثن فى الزينة والفلسفه عن الوسائل التى يكملن بها أنوثتهن[١٣] . وكان الأرقاء أيضاً يشهدون محاضراته . وقد شرف أحد هؤلاء وهو Epictetus أستاذه بأن تفوق عليه . ولما أن شبت نار الحرب الأهلية فى رومةبعدموت نيرون خرج موسونيوس للجيش المهاجم ، وأخذ يخطب فيه ويشرح له فوائد السلم وفظائع الحرب . وسخر منه جنود أنطونيوس وعادوا إلى تحكيم السيف . ولما أن طرد فسبازيان الفلاسفة من رومة استثنى منهم روفس ، ولكنه احتفظ بسراريه .

الفصل الرابع

سنكا

وجدت الفلسفة الرواقية فى حياة لوسيوس أنيوس سنكا Lneius Annaeus Seneca أكثر مظاهرها مدعاة إلى الريبة ، كما وجدت فى كناياته أصدق تعبير عنها . وكان مولده فى قرطبة (Corduba) حوالى العام الرابع قبل الميلاد ، وسرعان ما جئ به إلى رومة وتلقى فيها كل ما كان يستطيع أن يتلقاه من تربية وتعليم . وقد تشرب الفلسفة من أبيه ، والرواقية من أتالس Attalus والفيثاغورية من سوتيون Sotion ، والفلسفة العملية من زوج عمته حاكم مصر من قبل الرومان . وحاول مدى عام أن يعيش على الأطعمة النباتية ، ثم عدل عن هذا ، ولكنه ظل طوال حياته مقلاً من الطعام والشراب ، فكان من ذوى الملايين فى بيئته لا فى عاداته . وقد عانى كثيراً من مرض الربو وضعف الرئتين ، حتى فكر فى بعض الأحيان فى الانتحار . ومارس مهنة المحاماة ، واختير كوسترا فى عام ٣٣ م ، وبعد عامين من ذلك الوقت تزوج بمبيا پولينا Pompeia Paulina وعاش معها عيشة مستمرة عجيبة حتى مماته .

ولما ورث ثروة أبيه ، ترك مهنة المحاماة ، واشتغل بالكتابة . ولما أرغم كالجيولا كرمتيوس كوردس Cremutius Cordus على أن يقتل نفسه (٤٠) كتب سنكا إلى ابنته مقالة تعزية Consolatis ، وكانت هذه المقالات من الموضوعات التى يكتبها الخطباء والفلاسفة فى تلك الأيام . وأراد كالجيولا أن يقتله عقاباً له على وقاحته ، ولكن أصدقاءه أنجوه من القتل بقولهم إنه لن يلبث أن يموت من السل إذا ما ترك وشأنه . وبعد قليل من ذلك الوقت اتهمه كلوديوس بوجود علاقات غير شريفة بينه وبين يوليا ابنة جرمنكوس ،

وحكم عليه مجلس الشيوخ بالإعدام ، ولكن كلوديوس استبدل بهذا الحكم النفى فى جزيرة كورسكا .

وفى هذه الجزيرة الصخرية الوعرة قضى الفيلسوف فى عزلته ثمانى سنين (٤١ — ٤٩) بين أقوام لم يرتفعوا قط عن بدائيتهم التى وصفهم بها أوفد فى تومى Tomi . وصبر فى أول الأمر على هذه الكارثة صبر الرواقيين الحقيقيين ، وكتب إلى أمه مقالا يواسيها فيه « Consolatio ad Helviam » ؛ فلما أن توالت عليه أعوام الشقاء ، ضعفت نفسيته واستولى عليه اليأس ، فكتب إلى أمين سر كلوديوس مقالة Consolatio ad Polybium يرجوه فيها متذللا أن يعفو عنه ، ولما لم يفده هذا الرجاء حاول أن يخفف من آلامه بكتابة المآسى .

وأكبر الظن أن هذه المسرحيات العجيبة التى يكاد كل شخص فيها أن يكون خطيباً ، إنما كتبت لتقرأ وتدرس لا لتمثل على المسرح ، ذلك أننا لم نسمع قط أن واحدة منها مثلت ، وغاية ما فى الأمر أن بعض الحادثات ذات الروعة أو بعض الخطب الطنانة الرنانة ، لحنت ومثلت تمثيلا هزليا . ونرى الفيلسوف الرقيق فى هذه المسرحيات يجرى الدماء على المسرح كأنه يريد ألا يكون هذا المسرح أقل بشاعة وسفكا للدماء من الاحتفالات والألعاب . على أنه رغم ما بذله فيها من جهود جبارة ، لم ينجح فى مسرحياته لانصرافه فيها إلى التفكير أكثر من انصرافه إلى الإخراج المسرحى ، فهو يفضل الأفكار على الرجال ، ولا يدع فرصة تمر دون أن يشغلها بالتأملات والعواطف والفكاهة . ولسنا ننكر أن مسرحياته أبياتاً جميلة ، ولكن الإنسان لا يلام إذا لم يعلق شىء منها بذاكرته بعد سماعها . على أننا يجب أن نضيف إلى هذا أن كثيرين ممن يعتد بحكمهم لا يتفقون معنا فى الرأى ، ومن هؤلاء اسكلجر Scaliger سيد النقاد جميعاً فى عصر النهضة والذى يفضل سنكا عن يوربيديز .

ولما أن عادت الآداب القديمة إلى الحياة ، كان سنكا هو الذى اتخذ

نموذجاً لأولى المسرحيات التى كتبت باللغات الحديثة ، وعنه أخذت الصيغ الفصيحة ، ووحدة الزمان والمكان التى امتازت بها مسرحيات كورنى Corneille وراسين Racine ، والتى ظلت مسيطرة على المسرح الفرنسى حتى القرن التاسع عشر . ولقد كانت ترجمة هاى وود Heywood (١٥٥٩) لمسرحيات سنكا فى إنجلترا ، التى كانت أقل البلاد تأثراً بنفوذه ، المثال الذى نسجت على منواله مأساة جوربودك Gorboduc أولى المآسى الإنجليزية ، وكان لهذه المآسى أثرها فى مسرحيات شيكسبير .

وحدث فى عام ٤٨ أن حلت أجربينا الصغرى محل مسالينا فى السطرة على كلوديوس وعلى رومة ، وكانت تتوق إلى أن تجعل من ابنها نيرون ، وكان وقتئذ فى الحادية عشرة من عمره ، اسكندراً ثانياً . فأخذت تتلفت حولها تبحث له عن أرسطاطاليس ، حتى وجدته فى جزيرة كورسكا ، فأمرت باستدعاء سنكا وأعادته إلى مكانه فى مجلس الشيوخ ، وظل خمس سنين يعلم تلميذه الشاب ، وخمس سنين أخرى يرشد الإمبراطور ويمسك بزمام الدولة . وكان طوال هذه العشر السنين يدبج الرسائل لإصلاح شأن نيرون ، كما كتب عدة رسائل مختلفة يعرض فيها الفلسفة الرواقية عرضاً ظريفاً . ومن هذه الرسائل رسائله : **فى الغضب** ، **وفى قصر الحياة** ، **وفى هدوء الروح** ، **وفى الرحمة** ، **وفى الحياة السعيدة** ، **وفى ثبات المسرح** ، **وفى الفوائد** ، **وفى حسن التدبير** . وهذه الرسائل التى تعنى أكثر ما تعنى بالشكل والمظهر لا تبرز أحسن مواهب سنكا ، فهى كمسرحياته ملأى بالنكات ، ولكن هذه النكات التى يجدها القارىء منثورة فى غير ارتباط فى صحف الكتاب كلها تفقد بهجتها آخر الأمر وتبعث الملل فى نفس القارىء . على أن قراء سنكا مع ذلك كانوا يقرءون هذه المقالات من حين إلى حين ، ولم يكونوا يشمئزون من النكات المرحة التى أغضبت كونيان الصارم[١٤]

المتزمت[١٤] ، ولا من المحسنات اللفظية التى لم يرض عنها ذوق فرنتو Fronto العتيق . لقد كان يسر أولئك القراء أن وزيرهم الأول ينطق بأقواله الظريفة ، وأنه يحاول كما يحاول تلميذه بكل ما أوتى من جهد أن يكسب ثناءهم عليه . وقد ظل سنكا كثيراً من السنين حامل لواء الكتاب ، والساسة ، وزراع الكروم فى إيطاليا .

وضاعف ما ورثه عن أبيه من ثروة باستثمارها استثماراً استعان عليه فيما يظهر بمنصبه الرسمى وعلمه الواسع ؛ وإذا كان لنا أن نصدق ديو فإنه كان يقرض المال لأهل الولايات بربا فاحش أثار الفزع والفتنة فى بريطانيا حين فاجأ مدينيه فيها بطلب أمواله البالغ قدرها ٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سسترس[١٥] . ويقال إن ثروته بلغت ٣٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سسترس أى (٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى)[١٦] . وقد اتهمه جاسوس من أصدقاء مسالينا يدعى پبليوس سوليوس Publius Sullius علناً بأنه « منافق ، زان ، خليع ، يذم حاشية الإمبراطور ولا يفارق قصره : ويذم الترف ، ويتباهى بأن له خمسمائة خوان من الأرز والعاج ، ويندد بالثروة ويستنزف دماء الولايات بالربا الفاحش »[١٧] . وقنع سنكا كما قنع قيصر بمقارعة الحجة بالحجة ، وكان فى وسعه أن يأمر بإعدام خصمه . ولقد أعاد ذكر هذه التهم فى مقاله « عن الحياة السعيدة » ورد عليها بأن الحكيم لا يتحتم عليه أن يكون فقيراً ، فإذا جاءه المال من طريق شريف كان فى وسعه أن يقبله ؛ ولكن يجب أن يكون فى مقدوره أن يتخلى عنه متى شاء دون أن يندم عليه »[١٨] ، وكان فى هذه الأثناء يعيش عيشة الزهد والتقشف بين أثاثه الجميل ، ينام على خشبة صلبة خشنة ، ولا يشرب إلا الماء القراح ، ولا يتناول إلا القليل من الطعام ، حتى ضمر جسمه من قلة التغذية قبل وفاته[١٩] . وكتب فى ذلك يقول : « إن كثرة الطعام تذهب بالذكاء ، والإفراط فيه يخنق الروح »[٢٠] . أما ما اتهم به من الشذوذ الجنسى فلعله كان

يصدق عليه أيام شبابه ، ولكنه اشتهر بعطفه الدائم على زوجته . والحق أنه لم يقرر فى حياته أيهما أحب إليه الفلسفة أو السلطة ، الحكمة أو السعادة ؛ ولم يقتنع فى يوم من الأيام بتعارض الفلسفة مع السلطة ، أو الحكمة مع السعادة ؛ وكان يعترف بأنه حكيم جد ناقص ، ومن أقواله فى هذا : « إنى لا أمتدح الحياة التى أحياها بل الحياة التى يجب أن أحياها ، وهى الحياة التى أحبو إليها حبواً ، وهى بعيدة عنى كل البعد »[٢١] ، وأينا لا يصدق عليه هذا الوصف ؟ وإذا لم يكن مخلصاً فى قوله إن « الرحمة لا تزين أحداً من الناس بقدر ما تزين الملك أو الزعيم »[٢٢] ، فلا أقل من أنه قد وصف هذه العاطفة وصفاً لا يقل جمالا عن وصف بورشيا Portia لها(*). وقد ندد بمعارك المجتلدات التى كانت تنتهى بقتل المصارعين[٢٤] ، وكان من أثر ذلك أن حرمها نيرون ، وخفف من حدة النقد فى أيامه بما يسميه تاستس : « كياسته فى تلقين الحكمة »[٢٥] ، ولم يكن فى حياته يتطلب الكمال ، كما لم يكن يمارسه عملياً .

ولقد سبق القول بأنه حكم الإمبراطورية حكما صالحا وأنه أساء إلى سمعته بالتغاضى عن شر ما ارتكبه نيرون من الجرائم ، و « السماح بارتكاب الكثير من الشر حتى يكون فى مقدوره أن يفعل القليل من الخير »[٢٧] . وكان يحس بما فى منصبه الرسمى من ذلة ومهانة ، ويتوق إلى التحرر من عبوديته ، ووصف قصر الإمبراطور بأنه « سجن يشقى فيه العبيد » . وكان يتمنى أن لو قضى حياته كلها فى دراسة الحكمة ، وتجنب دياجير السلطان . وكان يسره أن يتخلى من حين إلى حين عن مشاغله السياسية ، وأن يستمع وهو فى سن الستين إلى محاضرات متروناكس Metronax فى الفلسفة كما يستمع إليها الصبى الحريص على الإفادة منها . وطلب فى عام ٢٢ — وكان وقتئـــذ فى السادسة والستين من عمره — أن يؤذن له باعتزال منصبه فى القصر ، وكان وقتئذ أقل شأناً من منصبه الأول ،

(*) يشير المؤلف إلى وصف بورشيا البليغ للرحمة فى رواية تاجر البندقية لشيكسبير . (المترجم) .

ولكن نيرون لم يجبه إلى طلبه . ولما طلب نيرون إلى جميع من فى الإمبراطورية أن يكتتبوا فى إعادة بناء رومة بعد الحريق العظيم الذى دمرها فى عام ٦٤ ، تبرع هو بالجزء الأكبر من ثروته لهذا الغرض . واستطاع فيما بعد أن ينسحب شيئاً فشيئاً من بلاط الإمبراطور ، وأن يقضى جزءاً متزايداً من وقته فى بيوته فى كمبانيا ، لعله يستطيع بعزلته الشبيهة بعزلة النساك أن يفر من الإمبراطور ومن جواسيسه . وظل وقتاً ما لا يطعم إلا التفاح البرى ولا يشرب إلا الماء الجارى خشية أن يدس له السم فى الطعام .

وفى هذا الجو المليء بالرعب والفزع دوّن بين عامى ٦٣ ، ٦٥ دراساته فى التاريخ الطبيعى Questiones Naturales كما كتب ألطف كتاباته كلها وهى رسائله الأخلاقية Epistulae Morales . وهذه الرسائل أحاديث عارضة شخصية موجهة إلى صديقه لوسليوس والى صقلية المثرى ، الشاعر ، الفيلسوف والأبيقورى الصريح . وقل أن يجد الإنسان فى الأدب الرومانى كتباً تبعث على السرور خيراً من هذه المحاولات الطريفة لتكييف الرواقية حسب حاجات الرجل الواسع الثراء . وتعد هذه الرسائل بداية المقالة الخالية من التكلف والصنعة التى أمست فيما بعد الوسيلة التى لجأ إليها أفلوطرخس ، ولوسشيان ، ومنتانى ، وفلتير ، وروسو ، وبيكن ، وأدسن واستيل للتعبير عن آرائهم . وإن القارئ ليشعر وهو يقرأ هذه الرسائل بأنه على اتصال برومانى مستنير ، رحيم ، متسامح ، سما إلى الذروة وتعمق إلى أبعد حد فى الأدب ، والسياسة ، والفلسفة ، ويحس كأن زينون يتحدث فيها برقة أبيقور وتسامحه وبسحر أفلاطون . ويعتذر سنكا للوسليوس عن أسلوبه المهلهل الذى لا يبدو فيه كبير أثر للعناية (وهو مع ذلك أسلوب لاتينى رائع الحسن) ، ويقول فى اعتذاره هذا : « وأحب أن تكون رسائلى إليك هى عين حديثى ، إذا ما جلسنا أو سرنا معاً »[٣٠] . ويضيف إلى ذلك قوله :

« لست أكتب هذا لجمهرة الناس ، بل أكتبه إليك ، فحسبي وحسبك

أن يستمع كل منا للآخر « Satis magnum alteri theatrum sumus »(٣١) ، وإن كان السياسي الشيخ يرجو بلا ريب أن يسترق الناس هذا الحديث . وهو يصف ربوه وصفاً رائعاً وإن كان لا يرثى فيه لنفسه ، ويسمي هذا المرض تسمية مرحة ظريفة فيقول إنه « التدويب على الموت » بأخذ « أنفاس أخيرة » متقطعة تدوم كل منها ساعة . وكان وقتئذ فى السابعة والستين من العمر ولكنه لم يبلغها إلا بجسمه ، أما « عقلى فقوى يقظ ، يجادلنى فى موضوع الشيخوخة ، ويجهر بأنها فترة ازدهاره »(٣٢) . وهو يبتهج إذ واتته الفرصة آخر الأمر لقراءة الكتب القيمة التى اضطر إلى إغفالها زمناً طويلا . ويلوح أنه فى ذلك الوقت قد عاد إلى قراءة كتب أبيقور ، لأنه ينقل عنها فقرات كثيرة وينقلها بحماسة تزرى بأمثاله من الرواقيين ، ويستولى عليه الرعب حين يشهد تطرف كالجيولا ، ونيرون . وآلاف غيرهما من الرومان فى نزعتهم الفردية وفى الجرى وراء شهواتهم ؛ يريد أن يجد وسيلة يقاوم بها المغريات التى تحيط بمن يتحرر عقله قبل أن ينضج خلقه ، ويبدو أنه أخذ على نفسه أن يرد على الأبيقوريين ويفحمهم بأقوال نطق بها زعيمهم الذى دنسوا اسمه بأعمالهم ، والذى لا يجرؤون على فهم تعاليمه .

وأول درس يلقيه على الناس فى الفلسفة هو أننا لا نستطيع أن نكون عقلاء حكماء فى كل شيء ، وأنا لسنا فى حقيقة أمرنا إلا قطعاً متناثرة فى الفضاء اللانهائى ، ولحظات قصيرة فى الأبدية ، وإن محاولة هذه الذرات المتشغبة أن تصف الكون ، أو الكائن الأعلى ، لعمل ترتج منه الكواكب سخرية ومرحاً . ومن أجل هـــذا فإن سنكا لم يكن فى حاجة إلى الدين أو إلى علم ما وراء الطبيعه ؛ وفى وسع الإنسان أن يثبت من كتاباته أنه كان من الموحدين ، أو المشركين ، أو الكافرين ، أو الماديين ، أو الأفلاطونيين ، أو القائلين بوحدة الموجود ، أو ثنائيته . وهو يرى فى بعض الأحيان أن الله قوة مدبرة شخصية ،

تهيمن على كل شيء ، « تحب الصالحين من الناس »[٣٣] ، وتستجيب إلى دعواتهم ، وتعينهم بلطفها الإلهى[٣٤] . ثم تراه فى فقرات أخرى يقول إن الله هو العلة الأولى فى سلسلة متصلة الحلقات من العلل والمعلولات ، وإن القوة النهائية هى القدر وهو علة لا ترد ولا تنقض ، تصرف شئون البشر والآلهة على السواء . . . تقود الطائعين وتجر الغاضبين »[٣٦] . وهذا التردد نفسه يطمس فكرته عن النفس البشرية ، فهى عنده نسمة مادية رقيقة تبعث الحياة فى الجسد ولكنها أيضاً « إله يسكن » فى الهيكل البشرى « كما يسكن الضيف » عند مضيفه [٣٧] . وهو يتحدث حديث المرتجى عن حياة بعد الموت ، تكمل فيها المعرفة والفضيلة[٣٨] ، ويسمى الفساد الخلقى كما سماه من قبل « حلماً جميلا »[٣٩] . وحقيقة الأمر أن سنكا لم يفكر فى هذه المسائل تفكيراً يصل به إلى نتيجة متسقة (أو عامة) ، بل هو يتحدث عنها حديث السياسى المذبذب الذى يوافق الناس جميعاً . ذلك أنه عمل بدروس أبيه الخطابية فنجح فيما كان يبغيه نجاحاً فوق ما يجب ، واستطاع أن يعبر عن جميع الآراء المتناقضة بعبارات بليغة لا يستطيع القارئ أن يقاوم أثرها فى نفسه .

وهذا التردد عينه يفسد فلسفته ويجملها معاً ، فهو مسرف فى رواقيته إلى حد يجعل فلسفته غير عملية ، وهو لين إلى حد لا يستطيع معه أن يكون رواقيا حقيقيا ، وهو يرى من حوله فساداً خلقيا ينهك الجسم ويزرى بالنفس ، ولا يرضى هذا أو ذاك ؛ ويرى أن الشره والترف قد قضيا على الطمأنينة والصحة ، وأن كل ما أفاده الإنسان من القوة أن صار وحشاً أقدر على الأذى من سائر الوحوش فهل من سبيل إلى نجاة الإنسان من هذا الاضطراب الشائن المذل ؟

لقد قرأت اليوم قول أبيقور : « إذا شئت أن تستمتع بالحرية الحقة ، وجب عليك أن تكون عبداً للفلسفة ؛ ذلك أن الرجل الذى يخضع لها يتحرر لساعته .. إن الجسم إذا شفى من مرضه مرة كثيراً ما ينتابه المرض مرة أخرى ..

أما العقل ، فإذا شفى ، فلن يعود إليه المرض أبداً ، وسأحدثكم عما أعنيه بالصحة : إن الصحة فى رأيى أن يكون عقل الإنسان راضياً واثقاً ، يدرك أن الأشياء التى يسعى إليها الناس جميعاً ، وكل الفوائد التى يعملون لها أو ينالونها ، لا أثر لها فى الحياة السعيدة ... وسأدلكم على قاعدة تقيسون بها أنفسكم وتحولكم من حال إلى حال ! إنكم تصلون إلى ما تبغونه لأنفسكم فى ذلك اليوم الذى تدركون فيه أن الناجحين هم أكثر الناس شقاء(٤٠) .

« والفلسفة هى علم الحكمة ، والحكمة هى فن العيش ، والسعادة هى الغرض الذى نبتغيه ، ولكن الطريق إليها هو الفضيلة لا اللذة . والحِكَم القديمة التى يهزأ بها الناس صحيحة صادقة تثبت التجارب صدقها فى كل يوم . وسوف ننال آخر الأمر بالشرف ، والعدالة ، والحلم ، والرأفة ، قدراً من السعادة أكثر مما نناله بالجرى وراء اللذة . وما من شك فى أن اللذة طيبة مستحبة ، ولكنها لا تكون كذلك إلا إذا اتفقت مع الفضيلة ؛ وليس فى المقدور الرجل العاقل أن يتخذها هدفاً له ، ومثل الذين يجعلونها غرضهم فى الحياة كمثل الكلب الذى يختطف كل قطعة من اللحم تلقى إليه ، ويبتلعها كلها ، وهو بعدئذ لا يستمتع بها ، بل يقف فاغراً فاه يتلهف على قطعة أخرى(٤١) .

ولكن كيف يحصل الإنسان على الحكمة ؟ إن السبيل إلى ذلك أن تمارسها كل يوم بقدر مهما يكن ضئيلا ، وأن تمتحن سلوكك فى آخر كل يوم ، وأن تكون قاسياً على أغلاطك ليناً على أغلاط غيرك ، وأن تصاحب من هم أعظم منك حكمة وفضيلة ، وأن تتخذ لنفسك رجلا لا تراه عينك مشهوداً له بالحكمة ليكون لك ناصحاً وقاضياً تحتكم إليـــه فى شئونك ، ويساعدك على الوصول إليه أن تقرأ كتب الفلاسفة ، ولست أقصد بهذه الكتب قصص الفلسفة الموجزة ، بل أقصد بها مؤلفات الفلاسفة أنفسهم ، « ولا تزجُ قط أنك ستستطيع فى يوم من الأيام أن تحصل على زبد حكمة النابهين من الرجال بقراءة خلاصات موجزة لهذه

الحكمة »[٤٢]، « إنك ستغادر كل واحد منهم أسعد مما كنت وأشد رغبة فى حكمته ، ولن يتركك واحد منهم تفارقه صفر اليدين ... ألا ما أعظم تلك السعادة ، وما أنبل تلك الشيخوخة اللتين تنتظران ذلك الرجل الذى يحتمى بحماهم ويتخذهم سادة له وأنصاراً ! »[٤٣] . اقرأ الكتب الطيبة مراراً ، فذلك خير لك من قراءة الكتب الكثيرة ؛ وسافر سفراً بطيئاً ، ولا تسرف فى الأسفار ، لأن « الروح لا تنضج وحدتها إلا إذا كبحت جماح تشوفها وتجوالها »[٤٤] . وأولى سمات العقل المنظم أن يكون صاحبه قادراً على أن يبقى فى مكان واحد ، وأن يطيل المكث مع أصدقائه[٤٥] . وإياك والجموع الكبيرة فإن « الناس وهم مجتمعون أخبث منهم وهم فرادى ، فإذا اضطررت أن تكون فى حشد كبير ، فأنت أشد ما تكون فى حاجة إلى الانطواء على نفسك »[٤٦] .

وآخر درس يتعلمه الرواقى هو احتقار الحياة وإيثار الموت . ذلك أن الحياة ليست على الدوام ممتعة إلى الحد الذى يجعلها جديرة بأن يطول أجلها ؛ ومن الخير للإنسان بعد حمى الحياة ونوباتها أن ينام ليستريح . « وهل ثمة شىء أحط من أن يضطرب الإنسان ويغضب وهو على عتبة السلام ؟ »[٤٧] . وإذا وجد الإنسان الحياة محزنة ، واستطاع أن يغادرها دون أن يضر ذلك ضرراً بليغاً بغيره من الناس ، فعليه أن يشعر بأن من حقه أن يختار الوقت الذى يغادرها فيه والطريقة التى يغادرها بها . ويحبذ سنكا للوسليوس الانتحار كأنه سيكون هو وريثه فيقول :—

« من الأسباب التى لا يستطيع الإنسان معها أن يتذمر من الحياة أنها لا تستبقيه فيها رغم إرادته ... كم من مرة قطع لك وريد ليقل بذلك وزنك ! وإذا ما طعنت نفسك فى قلبك فإنك لن تكون فى حاجة إلى جرح واسع حتى تموت ؛ وإن مشرطا يشق لك الطريق إلى الحرية ، وفى وسعك أن تشترى راحتك بوخزة إبرة ...[٤٨] وحيثما أدرت بصرك وجدت الوسيلة التى تقضى بها

على متاعبك . فهل ترى هذه الربوة الشديدة الانحدار ؟ إنها تهبط بك إلى الحرية ؟ أو هل ترى هذا النهر أو ذاك الحوض أو ذلك البحر ؟ — إن الحرية فى أعماقها[٥٠] ... ولكننى تحدثت فأطلت الحديث ، وكيف يستطيع الإنسان أن يختم حياته إذا لم يكن فى وسعه أن يختم رسالة يكتبها ؟ [٥١] ... أما أنا ياعزيزى لوسليوس فقد بلغت أرذل العمر ، وقد عشت كفايتى ، وها أنا ذا فى انتظار الموت . وداعاً أيها الصديق »[٥٢]

واستجابت الأقدار لدعائه ، فقد أرسل إليه نيرون تربيونا يستجوبه فيما اتهم به من أنه يتآمر على جعل بيزو إمبراطوراً ؛ فأجاب الرسول بأنه لم يعد يهتم بالسياسة ، وأنه لا ينشد غير السلام ، وأن تتاح له الفرصة للعناية « ببنيته المتهدمة الضعيفة » . ويقول التربيون : « إنه لم تظهر عليه أعراض الخوف أو أمارات الحزن . . . وإن أقواله ونظراته كانت تنم عن عقل هادئ قويم ثابت » . وقال نيرون للتربيون : « عد إليه وقل له أن يموت » ويقول تاستس إن « سنكا تلقى النبأ بهدوء واطمئنان » ، ثم عانق زوجته ، وطلب إليها أن تتخذ من حياته الشريفة النبيلة ومن دروس الفلسفة سبباً للسلوى والاطمئنان . ولكن پولينا أبت أن تعيش بعد مماته ، فلما أن فتحت أوردته ، أمرت هى الأخرى بفتح أوردتها ، ثم استدعى أحد أمناء سره وأملى عليه رسالة وداع للشعب الرومانى . وطلب بعدئذ قدحاً من شراب السكران ، فجىء له به ، كأنه اعتزم أن يموت ميتة سقراط . ولما أن وضعه الطبيب فى حمام فاتر ليخفف به ألمه ، رش الماء على أقرب الخدم له وهو يقول : « هذا ماء ساكب لجوف المنقذ » ثم فارق الحياة بعد آلام مريرة (٦٥) ، وأمر نيرون الطبيب بأن يربط معصمى پولينا على الرغم منها ، ويمنع خروج الدم من أوردتها ففعل ، وبذلك عاشت بعد زوجها بضع سنين ، ولكن امتقاع لونها الدائم كان يدل على عزمها القوى الثابت .

ورفع الموت من قدر سنكا وأنسى جيلا من الأجيال مواقفه وتذبذبه . وكان

ككل الرواقيين يستخف بالسّلطة ولا يقدر قوة الوجدان والعواطف حق قدرها ، ويغالى فى قيمة العقل ويفرط فى الاعتماد عليه ، ويثق فوق ما يجب بالطبيعة وهى منبت جميع أزاهير الشر والخير على السواء . ولكنه جعل الرواقية فلسفة بشرية وأنزلها من عليائها حتى أضحت فلسفة حية فى متناول بنى الإنسان ومهد بها للمسيحية . ولقد كان تشاؤمه ، وتنديده بفساد الأخلاق فى أيامه ، ودعوته الناس أن يقابلوا الغضب بالحلم(٥٤) ، وانشغاله بأمر الموت(٥٥) ، كان كل هذا مما حمل ترتليان Tertullian على أن يقول عنه إنه « منّا »(٥٦) ، كما حمل أوغسطين على أن يقول فيه « ماذا يستطيع المسيحى الصميم أن يقول أكثر مما قاله هذا الوثنى ؟ »(٥٧) . نعم إن سنكا لم يكن مسيحياً . ولكنه فى القليل طالب بالقضاء على القتل والسلب ، ودعا إلى الحياة البسيطة المهذبة ، وقلل ما كان هناك من فروق بين الرجل الحر والمحرز والرقيق حتى أضحت هذه الفروق لا تزيد على « الألقاب التى خلقتها المطامع أو الأخطاء »(٥٨) . وكان الذى استفاد أكبر فائدة من تعاليم سنكا عبداً فى بلاط نيرون وهو إيكتتس . كذلك صاغت كتاباته نرڤا Nerva وتراچان إلى حد ما ، وكانت أعماله مثالاً يحتذى فى السياسة الإنسانية القائمة على الإخلاص وإرضاء الضمير . وقد ظل إلى آخر العهود القديمة كما ظل طوال العصور الوسطى محبباً للجماهير ؛ ولما حل عهد النهضة وضعه پترارك فى المرتبة الثانية بعد ڤرجيل ، وصاغ نثره على مثال نثر سنكا . وترجم صهر منتانى كتاباته إلى اللغة الفرنسية ، وكان منتانى نفسه يقتبس من أقواله كما يقتبس سنكا من أبيقور . وكان إمرسن يقرأ مؤلفاته مراراً وتكراراً(٥٩) . حتى أضحى سنكا الأمريكيين . نعم إن الإنسان قلما يجد فى أقوال سنكا أفكاراً جديدة مبتكرة ، ولكن هذا يغتفر له ، لأن كل الحقائق الفلسفية قديمة ، ولا شىء فيها مبتكر إلا الخطأ ، ولقد كان رغم أخطائه كلها أعظم الفلاسفة الرومان ، كما أنه كان فى كتبه على الأقل أرجحهم عقلا وأرقهم قلباً ؛ وكان بعد شيشرون أحب المنافقين إلى القلوب فى التاريخ كله .

الفصل الخامس

علوم الرومان

لقد أطلنا الكلام فيه أكثر مما يجب ؛ ولكننا مع ذلك لم نفرغ منه بعد ، فقد كان عالماً طبيعياً أيضاً . ذلك أنه أخذ يسلي نفسه فى السنين الخصيبة الواقعة بين اعتزاله شئون الحكم وموته بالتفكير فى المسائل الطبيعية كالبحث عن تفسير للمطر ، والبرد ، والثلج ، والرياح ، والمذنبات ، وأقواس قزح والزلازل ، والأنهار ، والينابيع . وقد أشار فى مسرحية ميديا Medea إلى وجود قارة أخرى على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطى[٦٠] . وبنفس هذه اللقانة الطبيعية كتب وهو يتأمل ملايين النجوم فى السماء : « كم من كرات تتحرك فى أعماق الفضاء لم تصل بعد إلى عيون بنى الإنسان »[٦١] . ثم يضيف إلى هذا وكأنه قد كشف عن بصره الغطاء : « كم من أشياء سيتعلمها أبناؤنا ولا نستطيع الآن أن نتصورها فى خيالنا ! — وكم من أشياء ستظل مجهولة مئات السنين بعد أن تنسى أسماؤنا ! . . . ويدهش أبناؤنا من جهلنا »[٦٢] ، ولقد صدق فى قوله هذا ، فنحن يدهشنا جهله . ذلك أن سنكا رغم بلاغته لا يضيف شيئاً إلى ما قاله أرسطاطاليس وأراتس Aratus ، وهو يستعير الشىء الكثير من بوسيدونيوس Poseidonius . ويؤمن بأن فى مقدور الإنسان أن يتنبأ بالغيب بالرغم من معارضة شيشرون لهـذه العقيدة ، ويتورط فى بيان العلل النهائية للمعلولات مخالفاً بذلك عقيدة لكريشيوس ، وكثيراً ما يقطع أقواله العلمية بما يصفه فيها من وصايا أخلاقية ، فهو ينتقل بحذق عظيم من الكلام على بلح البحر إلى الكلام فى الترف ، ومن المذنبات إلى أسباب الانحطاط . وكان آباء الكنيسة يحبون هذا الخلط بين الأجرام السماوية والأخلاق ، ولذلك جعلوا كتاب

المسائل الطبيعية أشهر كتاب علمي في العصور الوسطى .

وكان في رومة عدد قليل من الرجال ذوى النزعة العلمية والولع بالعلوم ، ومن هؤلاء ڤارو ، وأجريا ، وبمبنيوس ميلا Pomponius Mela ، وسلسس Celsus ، ولكن علمهم لم يكن يتعدى نطاق تقويم البلدان ، وفلاحة البساتين ، والطب . أما فيما عدا هذا فلم يكن العلم الطبيعي قد انفصل بعد عن السحر ، والخرافات ، والدين ، والفلسفة ، وكان قوامه ما تجمع من المشاهدات والروايات ؛ وقلما كان يشمل بحوثاً جديدة عن حقائق الأشياء ، وكانت التجارب فيه جد نادرة . وبقي الفلك حيث تركه البابليون واليونان ، فكان الوقت يقاس بالساعات المائية ، وبالمزاول ، وبالمسلة الكبرى التي اختلسها أغسطس من مصر وأقامها في ميدان المريخ ؛ وكان ظلها يقع على طوار نقشت عليه علامات من نحاس ، تدل على ساعات النهار وعلى فصول السنة[٦٣] . وكان النهار والليل يحددان بشروق الشمس وغروبها ، وينقسم كل منهما إلى اثنتي عشرة ساعة ، وبذلك كانت تطول ساعة النهار ، وتقصر ساعة الليل في فصل الصيف عنها في فصل الشتاء وكان التنجيم من المعتقدات الشائعة التي يكاد يؤمن بها كل إنسان . وفي هذا يقول پلني إن الناس كلهم في أيامه (٧٠ م) — السذج منهم والمتعلمون — يعتقدون أن مصير الإنسان يقرره النجم الذى يولد هو ساعة مطلعه[٦٤] . وكانوا يؤيدون هذه العقائد بحجج طلية كقولهم إن نمو النبات ، مرده إلى الشمس (*) ، ولعل فصول التزاوج عند الحيوانات مردها إليها كذلك ، وإن خصائص الناس الجسمية والخلقية تتأثر بعوامل المناخ التي تتأثر هي أيضاً بالشمس ، وإن أخلاق الأفراد ومصائرهم لا تختلف عن هذه الظواهر العامة في أنها نتيجة لأحوال جوية لا نعرفها حق المعرفة . ولم يرفض أحد التنجيم إلا المتشككون أتباع الأقدمية المتأخرة الذين أنكروا ما يدعيه

(*) إن الكثيرين من الزراع في هذه الأيام ينظمون زرعهم حسب أوجه القمر

رجاله من علم ، والمسيحيون الذين سخروا منه وعدوه ضرباً من الوثنية . أما الجغرافية فكانت دراستها أكثر واقعية وكان الغرض منها أن يستعان بها على الملاحة . وقد نشر بمپنيوس ميلا Pomponius Mela (٤٣ م) خرائط قسم فيها سطح الأرض إلى منطقة حارة فى الوسط ، ومنطقتين معتدلتين شمالية وجنوبية . وكان الجغرافيون الرومان يعرفون أوربا وشمالى آسية الغربى ، وشمالها الشرقى ، أما سائر أجزاء العالم فكانت لديهم عنها أفكار غامضة ، وأقاصيص خرافية غريبة . وقد وصلت السفن الأسبانية والأفريقية الصغيرة إلى جزائر مديرة Madeira وقناريا أو الخالدات (Canary) [٦٥] غير أنه لم يقم فى ذلك الوقت رجل مثل كولمبس ليحقق حلم سنكا .

وكان أوسع المنتجات العلمية الإيطالية وأكثرها دلالة على الجد ، وأبعدها عن العلم الصحيح ، كتاب التاريخ الطبيعى Historia Naturalis [٦٧] الذى وضعه كيوس پلنيوس سكندس Caius Plinius Secondus . وقد قضى كيوس حياته كلها تقريباً جنديا ، ومحامياً ، ورحالة ، وحاكما ، وقائداً للأسطول الرومانى فى غربى البحر المتوسط ، ولكنه رغم هذه المشاغل كلها ألف رسائل فى الخطابة ، والنحو ، والحراب ، وكتب تاريخاً لرومة ، وتاريخا . آخر لحروب رومة فى ألمانيا ، وسبعة وثلاثين « كتاباً » فى التاريخ الطبيعى هى كل ما بقى من هذا الفيض العظيم من المؤلفات . أما كيف استطاع أن يفعل هذا كله فى خمس وثلاثين سنة فيفسره خطاب كتبه ابن أخيه يقول فيه :

لقد كان سريع الفهم ، متحمساً حماسة لا تكاد يصدقها العقل ، وله قدرة على ترك النوم منقطعة النظير . كان يستيقظ من نومه فى منتصف الليل أو فى الساعة الواحدة صباحاً . ولم يحدث قط أن ظل نائما إلى ما بعد الساعة الثانية ، ثم يبدأ عمله الأدبى . . . وقبل أن يطلع النهار يمثل بين يدى فسبازيان ، وكان هو أيضاً يختار ذلك الوقت لتصريف شئون الدولة . فإذا انتهى من الأعمال التى عهدها إليه الإمبراطور عاد إلى منزله وواصل الدرس . وكان يتناول فى الظهيرة . . . وجبة خفيفة لا تستغرق إلا القليل من

الوقت ، فإذا كان الفصل صيفاً ... فإنه كثيراً ما يستريح قليلا فى الشمس ، ولكنه كان فى أثناء ذلك يستمع إلى كتاب يقرأ له ، ويقتبس منه بعض عبارات ، ويكتب عنه بعض مذكرات . . . وتلك كانت عادته فى كل ما يقرأ . وكان بعد هذا يستحم عادة بالماء البارد ، ويتناول بعض المرطبات الخفيفة ، ويستريح قليلا ، ثم يواصل الدرس حتى موعد العشاء ، كأنه يبدأ يوماً جديداً . وفى أثناء العشاء يقرأ له كتاب آخر يكتب عنه مذكرات ... تلك كانت خطته فى الحياة وسط ضجيج المدينة وصخبها أما فى الريف فكان يقضى وقته كله فى الدرس اللهم إلا حين كان يستحم فعلا . وحتى فى الوقت الذى كان يدلك فيه جسمه ويجفف كان يستمع فيه إلى كتاب يقرأ له أو يملى هو شيئاً من عنده . وكان يرافقه فى أسفاره على الدوام كاتب ملم بطريقة الاختزال يجلس معه فى عربته أو فى هودجه . . . وقد لامنى فى يوم من الأيام على المشى وقال لى : « لم يكن لك أن تضيع هذه الساعات » لأنه كان يرى أن كل وقت لا يصرف فى الدرس وقت ضائع(٦٦) .

وكتابه هذا فى جملته وتفصيله دائرة معارف كتبها رجل واحد ، وجمع فيها خلاصة علم زمانه وأخطائه . وفى ذلك يقول : « إن الغرض الذى أرمى إليه هو أن أعرض وصفاً عاما لكل ما نعرف أنه موجود على سطح الأرض »(٦٧) . فهو يبحث فى عشرين ألف موضوع ويعتذر عما تركه من الموضوعات الأخرى ، ويشير فى هذا الكتاب إلى ألفى مجلد كتبها ٤٧٣ مؤلفاً ، ويعترف بدينه إلى من رجع إليهم من الكتاب ويذكر أسماءهم جميعاً بصراحة لا نظير لها فى الأدب القديم ، ويشير عرضاً إلى أنه وجد أن كثيراً من المؤلفين نقلوا أقوال من سبقوهم بنصها دون أن يعترفوا بهذا النقل . أما أسلوب الكتاب فثقيل ممل وإن كان منمقاً فى بعض المواضع ، ولكننا ليس من حقنا أن ننتظر أن تكون دوائر المعارف جذابة الأسلوب ساحرته .

ويبدأ بلني بالكفر بالآلهة ، ويظن أنها لا تعدو أن تكون ظواهر طبيعية ، أو كواكب سيارة ، أو خدمات جسدت وألهت : والإله الأوحد فى رأيه هو الطبيعة ، أى مجموع القوى التى فى الكون ، ويلوح أن هذا الإله لا يعنى عناية خاصة بالشئون الدنيوية[٦٨] . ويرفض بلنى فى تواضع أن يقيس الكون ، وليس ما يورده من معلومات فلكية إلا خليطا من السخافات والمستحيلات (كقوله « إن الشمس فى أيام الحرب التى شبت بين أكتافيان وأنطونيوس ظلت قاتمة ما يقرب من عام كامل »[٦٩]) ، ولكنه يشير إلى الشفق القطبى ويقدر الزمن الذى يستغرقه كل من المريخ ، والمشترى ، وزحل فى دورته بسنتين واثنتى عشرة سنة وثلاثين سنة على التعاقب ، ويورد بعض البراهين على كرية الأرض[٧١] . ويحدثنا عن جزائر خرجت من قاع البحر الأبيض المتوسط فى أيامه ، ويظن أن صقلية وإيطاليا ، وبوشيا وعوبية ؛ وقبرص وسوريا قد انفصلت كل واحدة من الثانية بفعل مياه البحر على مدى الأحقاب الطوال[٧٢] . ويتحدث عن أعمال التعدين الشاقة المذلة ويذكر فى ألم وحسرة أن « كثيراً من الأيدى تبلى لكى يزين مفصل صغير »[٧٣] ، ويتمنى أن لو كان الناس لم يعثروا على الحديد ، لأنه جعل الحرب أشد هولا مما كانت عليه قبل أن يعثروا عليه ، « كأننا أردنا أن نعجل بموت الناس ، فجعلنا للحديد أجنحة وعلمناه الطيران »[٧٤] — وهو يشير بقوله هذا إلى القذائف الحديدية التى تجهز بريش من الجلد يساعدنا على الاحتفاظ بخط سيرها . ويذكر كما يذكر ثيوفراستس Theophrastus تحت اسم انتراسيت Anthracitis « حجراً يحترق »[٧٥] ، ولكنه لا يذكر عن الفحم شيئاً غير هذا . ويشير إلى نوع من « الكتان لا يحترق » يطلق عليه اليونان اسم أزبستنون Asbestinon « ويستخدم فى تحنيط جثث الملوك » ، ويصف كثيراً من الحيوانات ويورد قوائم بأسمـــاء حيوانات أخرى ، ويمتدح ذكاءها ، ويذكر الطريقة التى يستطاع بها التحكم فى نســـلها ، فنجعلها ذكوراً

طبقاً لإرادتنا : « فإذا أردت أن تكون صغارها إناثاً فلتول الأم وجهها نحو الشمال فى أثناء الوثب »[٧٦] . وله اثنا عشر كتاباً عجيباً فى الطب ، أى فى القيمة العلاجية لمختلف المعادن والنباتات ، فالكتب المرقومة من ٢٠ إلى ٢٥ كلها فى النباتات الرومانية ، التى انتقلت من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة ، وأضحت بداية المعلومات النباتية فى الطب الحديث . وعنده علاج لكل شىء من السُّكْر والبَخَر إلى « آلام العنق »[٧٨] . ويصف بعض منبهات الغريزة الجنسية[٧٩]. ويحذر النساء من العطس بعد الجماع خشية أن يجهضين لساعتهن ، قبل أن يقمن من مقامهن[٨٠]. ويصف الجماع علاجا للتعب ، وبحة الصوت ، وآلام الحقوين ، وضعف البصر ، والاكتئاب ، « واختلال القوى العقلية[٨١] .

وقصارى القول أن فى هذا الكتاب دواء لكل داء ، وأنه من هذه الناحية يضارع ما قاله الأسقف بيركلى فى فوائد ماء القطران ، ولكننا نجد وسط هذا الهراء كثيراً من المعلومات النافعة وخاصة ما كان منها متصلا بالصناعات القديمة والأخلاق والعقاقير ، وفيه إشارات طريفة لعقيدة التأسل فى الوراثة Atavism(*) وإلى الزيت المعدنى ، وإلى تغير الشخص بعد مولده من ذكر إلى أنثى أو العكس .

ويحدثنا مسيانس Muscianus أنه رأى فى أرجوس Argos يوما من الأيام شخصاً كان يسمى وقتئذ أرسكون Arescon ، ولكنه كان يسمى قبل أرسكوزا Arescusa ؛ وأن هذا الشخص تزوج من قبل برجل ، ولكنه لم يلبث أن نبتت له لحية ، وبعض خصائص الذكران الأخرى ، وأنه اتخذ لنفسه بعدئذ زوجة »[٨٢] . ونجد فى مواضع متفرقة من الكتاب بعض إشارات قيمة . من ذلك أن هلمى Hilmy (١٨٠٠) حين قرأ فى كتاب بلنى فقرة[٨٣] عن استخدام عصير اللبن (Anagalis) قبل عملية الكتركتا (إظلام العين)[٨٤] حمله ذلك على أن يبحث عن مفعول

(*) ويقصد بها الوراثة التى تتخطى بعض طبقات وتظهر فيما بعدها أو العودة إلى الجد الأكبر وتسمى احيانا « الرجعة » . (المترجم)

نباتى السكران Jusquiamus ، و « ست الحسن » Belladonna فى إنسان العين . وفى الكتاب أيضاً فصول قيمة عن التصوير والنحت تعد أقدم وأهم ما وصل إلينا من وصف الفن القديم .

ولم يقنع بلنى بدراسة التاريخ الطبيعى ، بل أراد بعد ذلك أن يكون فيلسوفاً ، ولذلك تراه ينثر فى جميع صحف كتابه معلومات عن الآدميين . ويرى أن حياة الحيوان أفضل من حياة الإنسان لأنها « لا تفكر قط فى المجد أو المال أو المطامع أو الموت »[٨٥] ، ولأن فى وسعها أن تتعلم دون حاجة إلى معلم ، وأنها لا تضطر إلى ارتداء الملابس ، ولا تشن الحرب على أبناء جنسها . وهو يقول إن اختراع النقود كان ضربة قاضية على سعادة بنى الإنسان ، فهى التى أوجدت الربا ، وبه استطاع بعض الناس أن يعيشوا من كد غيرهم ، دون أن يقوموا بعمل ما »[٨٧] . وكانت نتيجة ذلك أن وجدت الضياع الواسعة التى يمتلكها الكبراء الغائبون عنها ، وأن حلت المراعى محل الزراعة ، فجر ذلك على الأهلين الخراب والدمار . ويقول بلنى إن الحياة تجلب للإنسان من الحزن والألم أكثر مما تجلبه من السعادة ، وإن الموت هو النعمة الكبرى[٨٨] ، وأن ليس شىء قط وراء الموت .

وكتاب التاريخ الطبيعى أثر خالد بلجهل الرومان ، ففيه يجمع بلنى الخرافات والتنبؤات ، ورقى الحب ، والعلاج بالسحر ، ويجد فى جمعها كجده فى غيرها من المعلومات . ويلوح أنه يؤمن بمعظمها ، فهو يظن مثلا أن فى مقدور الإنسان — وخاصة إذا كان صائماً — أن يقتل الأفعى إذا بصق فى فمها[٨٩] . « ومن المعروف جيداً أن إناث الخيل تحمل فى لوزتانيا Lusitania بفعل ريح الشمال[٩١] . وهى مسألة غفل عنها شلى Shelley فى أغنيته ويندد بلنى بالسحر ولكنه يقول لنا إنه « إذا أقبلت المرأة الحائض حمض عصير العنب وفسدت البذور التى تلمسها فلا تنبت ، وسقطت الثمار من الشجرة

التى نجلس تحتها ؛ وإذا نظرت إلى الصلب تثلم حده ، وإلى العاج ذهب لمعانه وصقله ؛ وإذا سقطت على ثول من النحل مات من فوره »[٩٢] .
وهو لا يؤمن بالتنجيم ولكنه يملأ صفحات من كتابه بالحوادث « المنذرة » المستمدة من مظاهر الشمس والقمر[٩٣] . كقوله : « حدث فى عهد قنصلية م . أسليوس M. Acilius وفى عهود أخرى كثيرة أن أمطرت السماء لبناً ودماً »[٩٤] ، وإذا ما ذكرنا أن هذا الكتاب هو وكتاب المسائل لسنكا أهم ما خلفه الرومان للعصور الوسطى من علم التاريخ الطبيعى ، ثم فاضلنا بينهما وبين ما يماثلهما من كتب أرسطو وثيوفراسطس وبين عقلية هذين الرجلين وقد عاشا قبل عهد بلنى وسنكا بأربعمائة عام ، إذا ما فعلنا ذلك بدأنا نشعر بالمأساة المروعة مأساة موت الثقافة موتاً بطيئاً . لقد فتح الرومان العالم اليونانى ، ولكنهم خسروا قبل فتحه أثمن تراث هذا العالم .

الفصل السادس

الطب عند الرومان

أما فى الطب فكانوا خيراً منهم فى التاريخ الطبيعى . فلقد أخذوا علم الطب أيضاً عن اليونان ، ولكنهم أحسنوا صياغته ، وتنظيمه ، وطبقوه على الصحة العامة والخاصة . لقد كانت رومة تحيط بها من جميع جهاتها تقريباً مناقع واسعة ، وكانت معرضة للفيضانات الوبائية ، فكانت لذلك فى أشد الحاجة إلى العناية بالصحة العامة ، فنحن نسمع أن الملاريا كانت منتشرة فى رومة فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وأن بعوضة الأنوفيل كانت فى ذلك الوقت مستقرة فى مناقع پنتين Pontine [٩٥] . وانتشر داء النقرس بانتشار الترف ، وفى ذلك يحدثنا پلنى الأصغر أن صديقه كورليوس روفس Corellius Rufus ظل يعانى آلامه من السنة الثالثة والثلاثين إلى السابعة والستين قبل أن ينتحر بعد أن استمتع بلذة البقاء حياً يوماً واحداً بعد موت « ذلك اللص دومتيان »[٩٦] . وتدل بعض الفقرات فى كتابات الهجائين الرومان على ظهور الزهرى فى القرن الأول بعد الميلاد[٩٧] . واجتاحت الأوبئة الفتاكة إيطاليا الوسطى فى عام ٢٣ ق . م وفى أعوام ٦٥ ، ٧٩ ، ١٦٦ ميلادية .

وكان الناس من أقدم الأزمنة يحاولون التغلب على المرض والطاعون بالسحر والصلوات ، وحتى فى الوقت الذى نتحدث عنه طلبوا إلى ڤسبازيان المتشكك اللين الجانب أن يداوى عماهم ببصاقه ، وعرجهم بمس قدمه[٩٨] . وكانوا يحملون مرضاهم وقرابينهم إلى هيكلى إيسكلپيوس Aesculapius ومنيرڤا ، وكان الكثيرون منهم يتركون فيهما الهدايا شكراً على نعمة الشفاء . فلما أن حل القرن الأول قبل الميلاد أخذت عنايتهم بالطب الدنيوى تزداد شيئاً فشيئاً . ولم تكن الدولة فى ذلك الوقت

قد وضعت نظاماً لممارسة مهنة الطب ، فكان الحذاؤون ، والحلاقون ، والنجارون يمارسونها مع مهنهم الأصلية إذا شاءوا ، ويستعينون بالسحر ، ويخلطون عقاقيرهم بأنفسهم ويبيعونها للناس[٩٩] . ولم تخل تلك الأيام من التقريع والشكاوى المألوفة . وقد كرر بلنى تنديده بأطباء اليونان الذين « يغوون زوجاتنا ، ويجمعون الثروات الطائلة بتسميمنا ويتعلمون بتعذيبنا ويتدربون بقتلنا »[١٠٠] . واشترك پترونيوس ، ومارتيال ، وجوڤنال في هذا الهجوم العنيف ، وبعد قرن من ذلك الوقت نرى لوسيان يندد بعجز من يمارسون مهنة الطب ، والذين يخفون هذا العجز بجمال أجهزتهم وأدواتهم[١٠١] .

وفتحت فى عهد ڤسپازيان مستمعات Auditoria لتعليم الطب يتولى التعلم فيها أساتذة تعترف بهم الدولة وتؤدى إليهم رواتبهم ، وكانت اللغة اليونانية لغة التعليم فى هذه المعاهد كما أن اللغة اللاتينية هى اللغة التى تكتب بها تذاكر الدواء هذه الأيام ، وللسبب عينه — وهو أن اللغة اليونانية كانت وقتئذ اللغة التى يفهمها أصحاب اللغات المختلفة . وكان يطلق على خريجى هذه المعاهد اسم أطباء الجمهورية ، وكانوا هم وحدهم الذين يستطيعون ممارسة صناعة الطب بصفة قانونية فى رومة بعد عهد ڤسپازيان[١٠٢] . ونص فى قانون أكويليا Les Aquilia على أن تشرف الدولة على الأطباء ، كما نص فيه على وجوب تحملهم تبعة إهمالهم . وكان قانون كرنليا Les Cornelia يفرض أشد العقوبات على من يتسببون فى موت المرضى بسبب إهمالهم أو خطئهم الناشئ من جهلهم بأعمالهم[١٠٤] . ومع هذا فإن الدجالين ظلوا يمارسون دجلهم ، ولكن عدد الأطباء المتعلمين ظل يزداد شيئاً فشيئاً . وكانت كثرة الرومان ممن أخرجتهم القابلات إلى هذا العالم ، ولكن هاته النسوة كن مدربات على عملهن أحسن تدريب[١٠٥] . وقد وصل الطب العسكرى فى عام ١٠٠ م إلى أرقى ما وصل إليه فى الزمن القديم : فكان فى كل فيلق أربعة وعشرون جراحاً ، كما كان له هيئة للإسعاف الأولى

ونقالات ميدان منظمة أحسن تنظيم ، وكان بالقرب من كل معسكر هام مستشفى عسكرى[١٠٦] . وافتتح الأطباء مستشفيات خاصة ، Valetudinaria ، كانت هى التى تطورت منها المستشفيات العامة فى العصور الوسطى . وكانت الدولة تعين الأطباء لمعالجة الفقراء مجاناً وتؤدى لهم أجورهم[١٠٧] ، أما الأغنياء فكان لهم أطباؤهم الخصوصيون وكان «رؤساء المداوين Archiarti » يعنون بالإمبراطور وأسرته ، وخدمه وأعوانه ، وتؤدى لهم على ذلك أجور طيبة . وكانت بعض الأسر تتعاقد أحياناً مع بعض الأطباء على أن يعنوا بصحتها ويداووها من أمراضها مدة معينة ، وكان كوتنس استرتنيوس يكسب بهذه الطريقة ٦٠٠ر٠٠٠ سسترس فى العام[١٠٨] . وأدى الجراح الكون Alcon الغرامة التى فرضها عليه كلوديوس ومقدارها ١٠ر٠٠٠ر٠٠٠ سسترس من أجوره فى بضع سنين[١٠٩] .

وبلغت مهنة الطب فى ذلك الوقت درجة عظيمة من التخصص ، فكان فى البلاد إخصائيون فى المجارى البولية ، وفى أمراض النساء ، وكان فيها أطباء مولدون وأطباء رمديون ، وإخصائيون فى أمراض العين والأذن ، وأطباء بيطريون . وجراحو أسنان . وكان فى وسع الرومان أن تكون لهم أسنان صناعية من ذهب ، وأسنان مرتبطة بأسلاك ، وكبارى وأسنان ذات قشرة[١١٠] ذهبية . وكان لديهم عدد كبير من الطبيبات ، وقد كتبت الكثيرات منهن كتباً فى الإجهاض كانت واسعة الانتشار بين سيدات الطبقات الراقية وبين العاهرات . وكان الجراحون يتخصصون فى فروع الجراحة المختلفة وقلما كان يوجد جراح غير متخصص فى فرع خاص . وكان عصير اليبروح(*) (المندراغورا) والأتروبين يستعملان فى التخدير[١١١] ، وقد وجدت فى خرائب بمپى أكثر من مائتى أداة جراحية مختلفة . وكان تشريح جثث الآدميين عملا غير مشروع ولكنهم كانوا يستعيضون عن ذلك بالفحص عن أجسام المجالدين المجروحين أو المحتضرين .

(*) جنس من النباتات الباذنجانية فى العالم القديم . (المترجم)

وكان العلاج بمياه العيون واسع الانتشار وكانت العيون الحارة الكبرى معاهد للعلاج والاستشفاء . وقد جمع شارميس Charmis المرسيلي ثروة طائلة بإدارة حمامات باردة . وكان المصابون بالسل يرسلون إلى مصر أو شمالي إفريقية . وكان الكبريت يستخدم لعلاج الأمراض الجلدية ولتبخير الحجرات بعد انتشار الأمراض المعدية(١١٢) . وكانت العقاقير آخر ما يلجأ إليه الناس من وسائل العلاج ، ولكنهم كانوا يلجأون إليها فى كثير من الحالات ، وكان الأطباء يصنعونها بأنفسهم بطرق يحتفظون بسريتها ولا يطلعون الجماهير عليها ، ويبيعونها بأغلى الأثمان التى يطيقها المرضى(١١٣) . وكانت العقاقير الكريهة ذات منزلة كبيرة ، فكانت فضلات العظاية تستخدم مسهلات ، وكانت أحشاء الآدميين توصف أحياناً ؛ وقد وصف أنطونيوس موسى براز الكلاب لعلاج مرض الذبحة ، واستخدم جالينوس براز الغلمان لعلاج أورام الحلق(١١٤) . وفى مقابل هذه الأدوية الكريهة عرض أحد الدجالين المرحين أن يداوى بالخمر كل داء تقريباً(١١٥) .

وليس بين الكتاب المعروفين فى علم الطب فى ذلك العهد كاتب من أصل رومانى إلا واحداً فقط ، وحتى هذا الكاتب لم يكن طبيباً . لقد كان أورليوس كرنليوس سلسس Aurelius Cornelius Celsus من أبناء الأشراف ، جمع حوالى عام ٥٠ م فى دائرة معارف كل ما درسه عن الزراعة ، والحرب ، والخطابة ، والقانون ، والفلسفة ، والطب . وقد ضاع كل ما كتبه إلا القسم الخاص بالطب ، ويعد كتابه فى هذا العلم أعظم مؤلف فيه وصل إلينا من القرون الستة المحصورة بين أبقراط وجالينوس ، ويمتاز فوق هذا بأنه كتب بلغة لاتينية فصحى نقية لقب سلسس من أجلها بشيشرون الطب . ولقد ظلت الأسماء اللاتينية التى ترجم بها المصطلحات الطبية اليونانية تسيطر على علم الطب من ذلك الوقت إلى أيامنا هذه . ويدل الكتاب السادس من كتبه على علم بالأمراض السرية يعد فى ذلك العهد القديم علماً واسعاً غزيراً . ويصف الكتاب السابع فى جلاء ووضوح بعض

الجراحات ، ويحتوى أقدم وصف معروف للأربطة ، ويصف عملية قطع اللوز ، واستخراج حصاة المثانة بشق الجنب ، وجراحة الترقيع ، وعمليات إظلام عدسة العين (الكتاركتا) . وهذا الكتاب فى مجموعه هو خير ما ألف فى الآداب العلمية الرومانية ، وإنه ليوحى إلينا بأنه لو لم يبق الدهر على كتاب بلنى لكان تقديرنا للعلوم عند الرومان أعلى منه فى الوقت الحاضر ومما يؤسف له أن العلماء قد أجمعوا على أن كتاب سلسس بيس فى أكثر أجزائه إلا جمعاً أو شرحا للنصوص اليونانية القديمة[١١٦] . وقد فقد هذا الكتاب فى العصور الوسطى ، ثم عثر عليه مرة أخرى فى القرن الخامس عشر ، وأعيد طبعه قبل أن يطبع كتاب أبقراط أو جالينوس ، وكان له شأن أيما شأن فى إحياء علم الطب فى العصر الحديث .

الفصل السابع

كونتليان

لما أنشأ ڤسپازيان كرسيا رسميا للبلاغة فى رومة عين فى هذا المنصب رجلا من أصل أسپانى ، وكان كثير من المؤلفين فى العصر الفضى من أبناء تلك البلاد . وقد ولد ماركس فابيوس كونتليانس Marcus Fabius Quintilianus فى كلاچوريس Calagurris (عام ٥٣ ؟ م) ثم رحل إلى رومة ليدرس فن الخطابة وافتتح مدرسة لتدريس البلاغة كان من بين طلابها تاستس وپلنى الأصغر . ويصفه چوڤنال بأنه كان فى أيام شبابه وسيما ، نبيلا ، حكيما ، حسن التربية ، ذا صوت رخيم ، ولقاء جميل ، ومهابة كمهابة أعضاء مجلس الشيوخ . وآثر العزلة فى شيخوخته ليكتب كتاباً يرشد فيه ولده إلى الطريقة المثلى لمعالجة فن الخطابة ، واسم هذا الكتاب Institutio Oratoria[٩٦] « ظننت أن هذا الكتاب سوف يكون أثمن ما يرثه ولدى ، وقد أظهر من الكفاية النادرة العجيبة ما أوجب على أبيه أن يحرص الحرص كله على تثقيفه . . . وقد واصلت الليل بالنهار سعياً وراء هذه الغاية ، وعجلت بإتمامها خشية أن ينصرم أجلى فيحول الموت بينى وبين إتمام هذا الواجب . ثم حلت بى الكارثة فجأة فأضحى نجاحى فى عملى لايهم إنساناً آخر أقل مما يهمنى أنا نفسى . . . ذلك أنى فقدت من كان معقد آمالى ومن كنت أرجو أن يكون سلوة لى فى شيخوختى[١١٧] » .

وكانت زوجته قد توفيت فى سن التاسعة عشرة ، وخلفت ولدين ، توفى أحدهما فى سن الخامسة « وكأننى قد فقدت بفقده إحدى عينى » ، والآن يختطف الموت ولده الثانى ويترك المعلم الشيخ « يعانى ألم فراق أقرب الناس إليه وأعزهم عليه » .

وهو يعرف البلاغة بأنها العلم الذى يؤدى إلى حسن الكلام ، ويقول إن تدريب الخطيب يجب أن يبدأ قبل مولده ، إذ يحسن أن يولد لأبوين متعلمين ، حتى يتنفس الكلام الصحيح والأخلاق الطيبة من الهواء الذى يستنشقه ، ذلك أنه من المستحيل أن يصبح الإنسان متعلماً ومهذباً معاً فى جيل واحد . ويجب على من يريد أن يكون خطيباً أن يدرس الموسيقى ، حتى يستطيع تمييز الأصوات المتناسقة المتناغمة ؛ كما يجب عليه أن يتعلم الرقص ليكتسب الرشاقة والاتزان ، والتمثيل لكى يبعث الحياة فى خطبه بما يبثه فيها من حركات اليدين والجسم ؛ والألعاب الرياضية ليستطيع الاحتفاظ بصحته وقوته ؛ والأدب ليصلح به أسلوبه ويدرب به ذاكرته ، ويمده بكنز من الآراء العظيمة ؛ والعلوم لكى يدرك بها أسرار الطبيعة ؛ والفلسفة لكى يصوغ نفسه حسبما يمليه عليه العقل ونصائح الحكماء . وذلك لأن كل إعداد سيذهب أدراج الرياح إذا خلا من استقامة الخلق وسمو الروح وهما اللذان لاغنى عنهما لوجود الإخلاص فى الحديث ، وهو قوة لا يمكن قط أن تقاوم . وعلى الطالب بعد ذلك أن يكتب أكثر ما يستطيع وأن يبذل فى كتابته أقصى ما فى وسعه من العناية . ويقول كونتليان : إن هذا تدريب شاق « ويقينى أن أحداً من قرائى لن يفكر قط فى احتساب قيمته المالية[١١٨] » .

وللخطابة فى رأيه خمسة أوجه : التفكير ، والتنظيم ، والأسلوب ، والذاكرة ، والإلقاء . فإذا ما اختار الخطيب موضوعه ، وحدد غرضه بوضوح ، وجب عليه بعـــدئذ أن يجمع مادته بالمشاهدة والبحث ، ومن الكتب ؛ فإذا تم له ذلك وجب عليه أن ينظمه تنظيما منطقيا ونفسانياً حتى يكون كل جزء منه فى موضعه الصحيح مؤدياً إلى ما بعـــده أداء طبيعياً كأنه جزء من برهان نظرية هندسية[١١٩] . وكل خطبة حسنة التنظيم تتألف من مقدمة (exordium) ، وقضية ، وبرهان ، ودحض ، وختام : ويجب ألا تكتب الخطبة كلها إلا إذا

أريد حفظها بأجمعها عن ظهر قلب ، أما حفظ بعض الأجزاء المكتوبة دون البعض الآخر فإنه يفسد الأسلوب الارتجالى ويعوقه ، وإذا كتبت الخطبة فلتكتب بعناية « فإذا أسرعت فى الكتابة ، فإنك لن تحسنها أبداً ، وإذا أحسنت الكتابة فإنك لن تلبث أن تكتب بسرعة » ، تجنب « ترف الإملاء الذى أخذ ينتشر بين الكتاب فى هذه الأيام » (١٢٠) ، والذى يدل على التهاون والكسل ، « والوضوح ألزم الأشياء للخطب ، ثم يليه الإيجاز والجمال والقوة . وعليك أن تصحح أخطاءك المرة بعد المرة ولا تبال بما يصيبك فى هذا من عنت .

« وليس المحو بأقل أهمية من الكتابة ، امح كل ما لا ضرورة له ، واسم بكل ما هو عادى ورتب ما تراه مضطربا ، واجعل العبارات متزنة إذا ما وجدتها خشنة غير رقيقة ، وخففها إذا وجدتها دسمة أكثر مما يجب .. وخير طريقة للإصلاح أن يغفل الإنسان ما كتبه بعض الوقت ، حتى إذا عاد إليه بعدئذ بدا عليه مظهر الجدة ، كأنه من عمل إنسان آخر ؛ وبهذه الطريقة لا يكلف الإنسان بكتابته كلفه بطفله الحديث الولادة(١٢١) .

ويجب أن يضرب الإلقاء والكتابة على أوتار العواطف والقلوب ، ولكن عليك ألا تسرف فى الحركات والإشارات ، لأننا « لا نكون بلغاء إلا بالوجدان وقوة الخيال » . أما إذا « صرخت ، وخرت ، ورفعت يدك ، ولهثت ، وهززت رأسك ، وصفقت بيديك ، وضربت فخذك وصدرك وجبهتك ، فإنك ستهوى من فورك إلى قلوب أحط من يستمعون إليك(١٢٢) » .

ويضيف كونتليان فى كتابه الثانى عشر إلى هذه النصائح القيمة خير نقد أدبى بقى لدينا من أيام الأقدمين ، فهو يدلى بدلوه ، وهو أشد ما يكون حماسة ، فى ذلك الصراع القديم والحديث بين القدامى والمحدثين ؛ ويجد الحقيقة تتأرجح فى الوسط بين هؤلاء وهؤلاء ؛ وهو لا يرغب كما يرغب فرنتو Franto فى أن يعود إلى البساطة والخشونة اللتين ينادى بهما كاتو وإنيوس ؛

ولكنه أقل من ذلك رغبة فى أن يجرفه أسلوب سنكا « الفخم المتكلف » ، ويرى أن يكون المثل الذى يجب على طالب البلاغة أن يحتذيه هو أسلوب شيشرون فى خطبه القوية المهذبة ، ويقول : إن شيشرون هو الكاتب الرومانى الوحيد الذى فاق اليونان فى مجال الخطابة(١٢٣) . أما أسلوب كونتليان نفسه فهو فى كثير من المواضع أسلوب المدرس ، تخنقه التعاريف ، والتصانيف ، وتحديد الفروق ، ولا يرقى إلى مستوى عال من البلاغة إلا حين يطعن على سنكا : ولكنه مع ذلك أسلوب قوى يخفف من جلاله حيناً بعد حين قليل من الفكاهة ومن العطف على الإنسانية ، ويحس الإنسان على الدوام أن وراء معنى الألفاظ الجميل طيبة الرجل الهادئة ، وإن قراءته لحافز قوى إلى الخلق الطيب الكريم . ولعل الرومان الذين أسعدهم الحظ بالاستماع له قد أخذوا عنه بعض ذلك التجديد الخلقى الذى سما بعصر بلنى الأصغر وتاستس أكثر مما سما به الأدب الرفيع .

الفصل الثامن

استاتيوس ومارتيال

لقد استبقينا إلى آخر هذا الباب شاعرين عاشا فى وقت واحد ، وسعيا للحظوة لدى إمبراطور واحد وأنصار بعينهم ، ومع ذلك فكلاهما لا يذكر اسم الآخر : وكان أحدهما أعف شاعر فى تاريخ روما الإمبراطورية كما كان الآخر أفحش شاعر فيه . فأما أولهما فهو پبليوس پاپنيوس استاتيوس Publius Papinius Statius وهو ابن شاعر ونحوى من مدينة ناپلى . وقد هيأت له بيئته وتربيته كل شىء يطمع فيه عدا المال والعبقرية . فكان يعانى قرض الشعر ، ويفاجئ الندوات بما يرتجله منه ، وكتب منه ملحمة تدعى الطيبية Thebaid فى حرب السبع المدن ضد طيبة . ولسنا نستطيع قراءتها فى هذه الأيام لأن أبياتها تزدحم بأسماء الآلهة الموتى ، ولأن الإنسان لا يطيق ما لأشعارها السلسة من قدرة على التخدير ؛ ولكن معاصريه كانوا يغرمون بها ، وكانت الجموع تهرع لتستمع إليه وهو ينشدها فى أحد ملاهى مدينة ناپلى ؛ وكانوا يفهمون ما تحتويه من أساطير ويعجبون برقة إحساساته ، ويجدون أشعاره تجرى سهلة على ألسنتهم ، وقد منحه المحكمون فى مباريات الشعر فى أولبان الجائزة الأولى ، وكان الأثرياء يخطبون وده ويعينونه على التخلص من فقره[١٢٤] ، ودعاه دومتيان Domitian نفسه فى قبة فلاڤيا Flavia وجازاه استاتيوس على فعله هذا بأن شبه القصر بالجنة والإمبراطور بالإله .

ووجه استاتيوس ألطف قصائده وأبعثها للسرور إلى دومتيان وغيره من نصرائه . وكانت هذه القصيدة وهى قصيدة سلڤا Silva تشتمل على طائفة من المدح ومن أناشيد الرعاة فى شعر خفيف ظريف فى الدرجة الوسطى من الجودة . على أنه لم يكسب الجائزة الأولى فى مباريات الكپتولين بل نالها

شاعر آخر . وأخذ نجمه فى الأفول فى رومة المتقلبة ، فما كان منه إلا أن أقنع زوجته بمغادرة المدينة والعودة معه إلى البلد الذى قضى فيه حداثته . وفى نابلى شرع يكتب ملحمة أخرى هى الأخيلية Achelleid ولكن المنية فاجأته فى عام ٩٦ فتوفى ولما يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره . ولم يكن استاتيوس شاعراً عظيما ولكنه كان يضرب على نغمة من الرأفة والحنان محببة إلى النفوس فى وسط أدب كثيراً ما تغلب عليه السخرية والحقد المرير ، وفى مجتمع بلغ من الفساد والفحش درجة لم يكن لها من قبل مثيل ، ولو أنه بلغ من الدناءة ما بلغه مارتيال لكان خليقاً بأن ينال ما ناله من الشهرة .

وولد ماركس ڤليريوس مارتيالس فى بليليس من أعمال أسبانيا فى السنة الأربعين بعد الميلاد ، ولما بلغ الرابعة والعشرين من عمره جاء إلى رومة وعقد أواصر الصداقة مع لوكاس وسنكا ، وأشار عليه كونتليان أن يتخذ المحاماة وسيلته للثراء ، ولكنه فضل عليها الشعر مع الإملاق . وأطاحت مؤامرة بيزا فجاءة بأصدقائه فاضطر إلى توجيه قصائده للموسرين الذين يستطيعون أن يطعموه إذا قال لهم نكتة شعرية . وكان يسكن فى علية فى الطابق الثالث ، وأكثر الظن أنه كان يعيش فيها وحيداً ؛ نقول هذا لأنه وإن كان يوجه قصيدتين من قصائده لامرأة يقول عنها إنها زوجته فإن ما فى القصيدتين من فحش لا يترك مجالا للشك فى أن هذه المرأة إما أن تكون اختراعا من عنده وإما أن تكون قوادة[١٢٦] .

وهو يخبرنا بأن قصائده كانت تقرأ فى جميع أنحاء أوربا لا يستثنى منها القوط أنفسهم . وهو يغتبط إذ يعلم أنه اشتهر فيهـــا شهرة جواد السباق ، ولكنه كان يؤلمه أن يرى الناشر الذى يبيع كتبه يجمع الثروة الطائلة ، وأنه هو لا يجنى منها شيئاً . وأشار مرة فى إحدى قصائده إلى أنه فى أشد الحاجة إلى جبة رومانية ، فلما أرسلها إليه بارثنيوس الثرى معشوق الإمبراطور رد عليه بمقطوعتين مدح فى إحداها جدة الجبة وندد فى الثانية بحقارتها ورخص ثمنها . على أنه عثر بعد

قليل على نصراء أكرم من پارثنيوس وأكثر منه سخاء أهدى إليه أحدهم ضيعة صغيرة فى نومنتم Nomentum ، واستطاع بطريقة ما أن يجمع مالا يكفى لشراء منزل بسيط على تل الكوزينال Quirinal . وصار من ذلك الوقت يضع نفسه تحت رعاية عظيم بعد عظيم ، يقوم بخدمتهم فى الضباح ، ويتلقى منهم الهدايا فى بعض الأحيان ؛ لكنه ما لبث أن أحس بحطة منزلته هذه ، وأخذ يتحسر لأنه لم يوت من الشجاعة ما يجعله يقنع بفقره فيحرر نفسه من ذل التبعية(١٢٧) . غير أنه لم يكن فى وسعه أن يعيش فقيراً لأنه كان مضطراً إلى الاختلاط بمن يستطيعون أن يكافئوه على شعره فأخذ يبعث لدومتيان بالقصيدة تلو القصيدة يمدحه فيها ويمجده ، ويقول إنه لو دعاه جوبتر ودومتيان إلى الطعام فى يوم واحد لرفض دعوة الإله وأجاب دعوة دومتيان ؛ ولكن الإمبراطور كان يفضل عليه استاتيوس فدبت الغيرة من الشاعر الشاب فى قلب مارتيال ، وقال فى إحدى قصائده : إن نكتة حية أغلى قيمة من ملحمة ميتة(١٢٨) .

وكانت القصائد الموجزة ذات النكت مما يقال فى كل موضوع سواء كان إهداء ، أو تحية ، أو قبرية ، ولكن مارتيال هذبها فجعلها أقصر وأعظم حدة مما كانت ، وأضاف إليها الكثير من الهجاء اللاذع . وإنا لنظلمه إذا قرأنا قصائده ذات النكت البالغ عددها ١٥١٦ قصيدة فى جلسات قليلة ، فلقد صدرت هذه القصائد فى اثنى عشر كتابا فى أوقات مختلفة ، ولم يكن ينتظر من القارئ أن يلتهمها كما يلتهم طعام الوليمة ، بل كان ينتظر منه أن يتناولها تناول المشهيات قبل الطعام . ويبدو الكثير منها غثاً تافهاً فى هذه الأيام، ذلك أن ما فيها كان خاصاً بهذين الزمان والمكان ، فكان لذلك قصير الأجل غير جدير بالبقاء . ولم يكن مارتيال نفسه يقدرها كثيراً ، ولم يكن يجادل فى أن الغث منها يزيد على الثمين ، ولكنه كان مرغما على أن يملأ بها مجلداً فى إثر مجلد(١٢٩). وهو رجل قادر على قرض الشعر ، عارف بجميع أوزانه وبجميع ما يتطلبه من حيل وأساليب ، ولكنه يتجنب

سنون الخطابة ويفخر بهذا كما يفخر به بترونيوس الشريف الذى كان مقامه في النثر يضارع مقام مارتيال فى الشعر . ولم يكن يعنى أقل عناية بالأساطير التى كانت تغص بها آداب تلك الأيام ، بل كان أكبر همه رجال ذلك العهد ونساؤه وحياتهم الخاصة ، وهو يصف هذه الحياة وصفاً ينم عن ضغن ومسرة . ويقول فى إحدى قصائده « إن صفحاتى تطالعك بالرجال »(١٣٠) ، ولقد كان فى وسعه أن « يتناول » أحد الأشراف الفظاظ ، أو الأثرياء البخلاء ، أو المحامين المزهوين ، أو الخطباء المشهورين . لكن أكثر من يحب التحدث عنهم هم الحلاقون والأساكفة ، والبائعون الجوالون ، ومدربو الخيول ، واللاعبون على الحبال ، والدلالون ، وناقعو السم ، والمفسدون والعاهرات ، وليست المناظر التى يضعها مأخوذة من بلاد اليونان القديمة بل يستمدها من الحمامات ، ودور التمثيل ، والشوارع ، والملاعب ومنازل رومة ، ومساكن فقرائها ، وقصارى القول أنه شاعر السفلة والرعاع .

وهو يعنى بالمال أكثر مما يعنى بالحب ، وإذا فكر فى الحب فإن أكثر ما يفكر فيه هو حب الرجال للرجال ، أو النساء للنساء . على أن شعره لا يخلو من العاطفة ، وهو يحدثنا فى إحدى قصائده حديثاً ملؤه الحنو والأسى على ابن صديق له عاجلته المنية ؛ ولكن كتبه كلها لا يوجد فيها بيت واحد ينم عن المروءة والشهامة ، أو عن الغضب الشريف . وهو يرتل قصائده ترتيلا تفوح منه أخبث الروائح ويقول عنها « إننى أفضل هذه الروائح الكريهة على قصائدك كلها يا بسا Bassa »(١٣١) . ويصف إحدى خليلاته بقوله :

« إن ضفائرك يا جلا Galla قد صنعت فى مكان بعيد وإنك لتخلعين أسنانك فى الليل كما تخلعين أثوابك الحريرية ، وأنت ترقدين مختزنة فى مائة برميل ، ولكن وجهك لا ينام معك ؛ وتغمزين بحاجب جىء به إليك

فى الصباح وقد تجردت من كل احترام لجيفتك البالية التى تستطيعين أن تعديها لقدمها جيفة جدة من جداتك .

وهو يتحدث فى حقد غير خليق بالرجال عن النساء اللاتى أبين أن يخضعن له ، ويلقى عليهن نكاته القذرة كما يلقى الكناس الأقذار . ويوجه أغانيه الغزلية للغلمان ، وتتملكه النشوة من عبير « قبلاتك أيها الغلام »(١٣٣) .
وقد قلد أحد شعراء الإنجليز إحدى قصائده التى قال فيها :

لا أحبك يا سبيديوس ، ولست أعرف لذلك سبباً ؛
وكل ما أستطيع أن أقوله أنى أبغضك أشد البغض .

والحق أن الذين لا يحبهم مارتيال كثيرون ويصفهم بعد أن يطلق عليهم أسماء مستعارة لا تخفى حقيقتهم وبألفاظ لا يجد الإنسان لها مثيلا إلا على جدران مراحيض المواخير(١٣٥) . ولست تجده إلا هاجياً لأعدائه كما لا تجد استاتيوس إلا مادحاً أصدقاءه . وقد أراد بعض ضحاياه أن ينتقموا لأنفسهم منه فنشروا بإمضائه قصائد أشد قذارة من قصائده الحقيقية ، أو هاجموا باسمه بعض من كان مارتيال يحرص على إرضائهم . وفى وسع الإنسان أن يؤلف من هذه النكات الشعرية التى أوفت على الغاية من الناحية الفنية معجماً كاملا يحوى أقذر ما فى اللغة من ألفاظ .

غير أن فى مقدور الإنسان أن يعفو بعض الشىء عن بذاءة مارتيال ، فهو يشترك فيها مع خلق عصره ، ولا يشك فى أن فتيات الأسر الراقية يسرهن أن يقرأنها فى عرائش قصورهن . « واستحت لكريشا وعلت وجهها حمرة الخجــل وألقت بكتابى ، وكان بروتس حاضراً فابتعد عنها يا بروتس ؛ إنها ستقرؤه »(١٣٦) ذلك أن ما كان يطلقه هذا العصر للشعر من حرية مفرطة يسمح بكل ضروب البذاءة على شريطة أن تكون الأوزان والألفاظ صحيحة . بل إن مارتيال ليفخر بفجوره أحياناً فيقول فى أحد كتبه « لا تخلو صحيفة من صحفى من الفجور »(١٣٧) . لكنه فى أكثر الأحيان

يستحى قليلا من فجوره ، ويطلب إلينا أن نعتقد أن حياته أطهر من شعره ،

ومل آخر الأمر ابتياع الطعام والشراب بالمديح والهجاء ، وتاقت نفسه الى حياة أهدأ من حياته السابقة وأطهر منها ، وحن إلى موطنه فى أسپانيا . وكان وقتئذ قد بلغ السابعة والخمسين من عمره ، وسرى الشيب فى شعر رأسه ، وأطال لحيته ، واسمرت بشرته ، حتى ليستطيع أى إنسان — على حد قوله — بمجرد النظر إليه أن يدرك أنه ولد بالقرب من نهر التاجة Tagus . وأرسل طاقة شعرية إلى پلنى الأصغر فأرسل له هذا بدلا منها مبلغاً من المال يكفى نفقات سفره إلى بلبليس . ورحبت به تلك البلدة الصغيرة ، وعفت عن سوء أخلاقه بسبب ما نال من الشهرة . ووجد نصراء ومعينين لم يبلغوا من الثراء مبلغ من كانوا يناصرونه فى رومة ولكنهم كانوا أندى منهم يداً . وأهدت إليه سيدة رحيمة بيتاً ريفياً متواضعاً ذا حديقة قضى فيه ما كان باقياً له من سنين قليلة . وفى عام ١٠١ كتب پلنى يقول : « لقد سمعت توآ بموت مارتيال ، وقد أحزننى النبأ وأقض مضجعى ، فلقد كان مارتيال ذا فكاهة قوية لاذعة ، يمزج فى شعره الملح بالشهد ، وأظهر ما يمتاز به هو الصراحة »[١٣٨] . وإذا كان پلنى قد أحب هذا الرجل فلا بد أن كانت فيه فضيلة خافية على سائر الناس .

الباب الخامس عشر

رومة العاملة

١٤ – ٩٦ م

الفصل الأول

الزراع

فى العصر الفضى ظهر المرجع الرومانى الهام فى الزراعة وهو كتاب يونيوس كلوملا Junius Columella المسمى De Re Rustica ومؤلفه من أصل أسپانى فهو من هذه الناحية شبيه بكونتليان ومارتيال وآل سنكا. وكان يستغل عدة ضياع فى إيطاليا ثم اتخذ مسكنه بعدئذ فى رومة. ذلك أنه وجد أن أحسن الأراضى قد شيدت عليها البيوت ذات الحدائق وسويت لتكون مسارح للأثرياء، وأن التى تليها فى الجودة قد غرست فيها بساتين الزيتون والكروم، ولم يبق للزراعة إلا أردأ الأراضى. ومن أقواله فى هذا: « لقد وكلنا حرث أراضينا لأحط العبيد، وهم يقومون بعملهم قيام الهمج ». وكان يرى أن أحرار إيطاليا يتدهورون فى المدن على حين أنه كان فى مقدورهم أن يقووا أجسامهم وأخلاقهم بالعمل فى الأرض، « فنحن نعمل فى الملاعب ودور التمثيل ولا نعمل بين المزارع والكروم ». وكان كلوملا يحب الأرض ويحس بأن فلحها أعود على الناس من ثقافة المدن، ويقول فى ذلك إن « الزراعة من أخوات الحكمة » وكان يغرى الناس بالعودة إلى الحقول بتجميل موضوعاته بالألفاظ اللاتينية المصقولة. وإذا تحدث عن الحدائق والأزهار بلغت حماسته الشعرية غايتها.

وتلك هي الفترة التي نطق فيها پلني العالم الطبيعي بقبرية لم يكن موعدها قد حان : « إن الضياع الكبيرة قد خربت إيطاليا »، وذلك حكم أصدره غيره من الكتاب وهم سنكا ، ولوكان ، وپترونيوس ، ومارتيال ، وجوڤنال . فقد وصف سنكا مسارح الأنعام التي كانت أوسع رقعة من الممالك يزرعها عبيد مصفدون في الأغلال . ويقول كالوملا إن بعض الضياع قد بلغت من السعة حداً يستحيل معه على مالكيها أن يطوفوا حولها راكبين[1] . ويحدثنا پلني عن ضيعة يعمل فيها ٤١١٧ من العبيد ، و ٧٢٠٠ ثور ، و ٢٥٧٫٠٠٠ من الحيوانات الأخرى[2] . نعم إن ما عمله ابنا جراكس ، وقيصر ، وأغسطس من توزيع الأراضي على الرومان قد زاد عدد صغار الملاك ، ولكن معظم هؤلاء تركوا أملاكهم في أثناء الحروب التي قامت بعدئذ وابتاعها الأغنياء ، ولما أن قللت الإدارة الإمبراطورية من أعمال السلب والنهب في الأقاليم ابتاع الأشراف بأموالهم ضياعاً كبيرة . وكان سبب انتشار المراعي والضياع الواسعة أن تربية الماشية وزراعة أشجار الزيتون والكروم كانت أكثر ربحاً من زراعة الحبوب والخضر ، وأن أصحابها قد تبينوا أن المراعي إذا أريد أن تستغل على خير وجه وجب أن تكون متسعة المساحة موحدة الإدارة . فلما أشرف القرن الأول بعد الميلاد على الانتهاء كانت هذه المزايا قد أخذت في الزوال بسبب ما حدث من الزيادة في تكاليف العبيد ، ومن النقص في إنتاجهم ، ومن ضعف قدرتهم على الابتكار[3] . وقد بدأ في هذه الأثناء الانتقال الطويل الأجل من استخدام العبيد إلى استخدام أقنان الأرض . وكان سبب ذلك أن السلام قلل من استرقاق أسرى الحروب ، فعمد بعض ملاك الضياع الواسعة إلى تقسيمها أقساماً صغيرة لا يستخدمون في فلحها العبيد بل يؤجرونها إلى زراع أحرار يؤدون لهم في نظير ذلك مالا وعملا . وكان معظم « الأراضي العامة » التي تملكها الحكومة تستغل وقتئذ بهذه الطريقة ، كما كانت تستغل بها أيضاً الأراضي الواسعة التي يمتلكها پلني الأصغر الذي يصف

مستأجريه بأنهم فلاحون أصحاء ، أقوياء ، طيبو القلوب ، ثرثارون ، وهو وصف ينطبق كل الانطباق على الفلاحين الإيطاليين فى هذه الأيام ، فقد بقوا على حالهم رغم ما حل بالبلاد من أحداث وما طرأ عليها من تغيير .

وكانت أساليب الزراعة وأدواتها لا تختلف اختلافاً جوهرياً عما كانت عليه منذ قرون ؛ فقد احتفظ المحراث ، والمجرفة ، والمعزقة ، والفأس ، والمذراة ، والمنجل بصورتها التى كانت عليها فى تلك الأيام ، ولم تكد تتغير فى شىء . وكانت الحبوب تطحن فى طواحين تديرها المياه أو الحيوانات . وكانت المضخات اللولبية والسواقى ترفع الماء من العيون أو الأنهار إلى قنوات الرى . وكانوا يحتفظون بخصب التربة باتباع الدورة الزراعية ، واستخدام المخصبات والنباتات التى تفيد الأرض كالفصفصة والبرسيم والشيلم والفول[٤] . وكانوا يتفننون فى انتخاب البذور ، وكان فى وسعهم بعنايتهم وحذقهم أن يجنوا ثلاثة محاصيل أو أربعة فى بعض الأحيان من حقول كمبانيا ووادى البو الخصبة الغنية[٥] . وكان فى مقدورهم أن يحصلوا من زرعة واحدة من الفصفصة على أربعة محصولات أو ستة فى كل عام لمدة عشرة أعوام[٦] . وكانوا يزرعون كل الخضر الأوربية المعروفة عدا أندرها ، وكانوا يزرعون بعضها فى البيوت الزجاجية ليتجروا فيها أثناء الشتاء . وكانت أشجار الفاكهة والنقل على اختلاف أنواعها كثيرة ، لأن القواد والتجار الإيطاليين ، والتجار الأجانب ، والأرقاء حملوا معهم إلى إيطاليا الكثير من أصنافها ، فجاءوا بأشجار الخوخ من بلاد الفرس ، والمشمش من أرمينية ، والكرز من كراسس فى إقليم بنتس (ومنها اشتق اسم هذه الفاكهة) ، والكرم من سوريا ، والبرقوق من دمشق ، والخوخ والبندق من آسية الصغرى ، والجوز من بلاد اليونان ، والزيتون والتين من أفريقية . . . واستطاع المهرة من زراع الأشجار أن يطعموا شجر القطلب (الأربوطس) بأغصان شجر الجوز ، وشجر الدلب بأغصان الخوخ ، وشجر الدردار بأغصان الكرز . ويذكر بلنى تسعة وعشرين نوعاً

من شجر التين كانت تزرع فى إيطاليا[٧] ، ويقول كالوملا : « لقد عرفت إيطاليا بفضل عناية زراعنا كيف تنتج فاكهة العالم كله تقريباً »[٨] . ثم نقلت هذه الفنون إلى غربى أوربا وشمالها . وجملة القول أن ألوان الطعام الكثيرة التى نأكلها قد تجمعت من رقعة واسعة من الأرض ، وأن لها من ورائها تاريخ طويل . وقد يكون هذا الطعام جزءاً من التراث الذى ورثناه من بلاد الشرق أو بلاد اليونان والرومان الأقدمين .

وكانت بساتين الزيتون كثيرة العدد ، أما الكروم فلم يكن يخلو منها مكان ، وكانت تدرج لها سفوح الجبال فتبدو ذات روعة وجمال . وكانت إيطاليا تخرج خمسين نوعاً من أنواع النبيذ المشهورة ، وكانت رومة وحدها تحتسى منها خمسة وعشرين مليون جالون فى كل عام ؛ أى بمعدل نصف جالون لكل شخص من ساكنيها رجالهم ونسائهم وأطفالهم وعبيدهم كل أسبوع . وكان معظم النبيذ من إنتاج المنظمات الرأسمالية — أى بطريقة الإنتاج الكبير الذى تموله رومة[٩] . وكان الكثير مما تنتجه يصدر إلى خارج البلاد لكى تذوق البلاد التى تشرب الجعة كألمانيا وغالة لذة النبيذ . وشرعت أسپانيا وأفريقية وغالة تزرع كرومها ، وأخذ زراع الكروم الإيطاليون يفقدون من البلاد التى يصدرن إليها نبيذهم أسبوعا بعد أسبوع ، ويغمرون سوقهم المحلية بأكثر مما تطيقه من النبيذ فى إحدى أزمات الإنتاج الوفير التى عانتها رومة فى الزمن القديم . وحاول دومتيان أن يخفف من أثر هذه الحال السيئة ، وأن يعيد زراعة الحبوب إلى حالها الأولى ؛ فحرم غرس كروم جديدة فى إيطاليا وأمر بأن تدمر نصف الكروم المزروعة فى الولايات[١٠] . وأثارت هذه الأوامر عاصفة من الاحتجاج الشديد ، وعجزت الحكومة عن تنفيذها فكانت النتيجة أن نبيذ غالة وزيتون أسپانيا وأفريقية وبلاد الشرق أخذا يطردان الغلات الإيطالية من أسواق البحر الأبيض المتوسط وبدأ من ذلك الوقت اضمحلال إيطاليا الاقتصادى .

وخصص جزء كبير من أراضى شبه جزيرة إيطاليا للمراعى ، فكانت الأرض غير الموفورة الخصب ، وكان العبيد ذوو الأجور الرخيصة يستخدمان لتربية الماشية والضأن والخنازير ، وكانوا يعنون بتربيتها على الطريقة العلمية . وكانت الخيل تربى فى الغالب للأغراض الحربيه ، وللصيد وألعاب الفروسية ، وقلما كانت تستخدم لجر المركبات ؛ وكانت الثيران تجر المحاريث والعربات ، والبغال تحمل الأثقال على ظهورها ؛ وكانت البقر والغنم والماعز تمد الأهلين بثلاثة أنواع من اللبن يصنع منه الإيطاليون وقتئذ كما يصنعون منه فى هذه الأيام أصناف الجبن اللذيذ . وكانت الخنازير تربى فى الغابات الغنية بالجوز وثمار البلوط . ويقول استرابون إن إيطاليا كانت تعيش فى الغالب على لحم الخنازير التى تربى فى غابات البلوط الكثيرة فى شمالى إيطاليا . وكان الدجاج يمد المزارع بالسماد المخصب والأسر الإيطالية بالطعام اللذيذ ، كما كان النحل يمد الأهلين بالشهد الذى كان منذ القدم يستعمل بدل السكر . وإذا أضفنا إلى ما سبق بعض مساحات من الكتان والتيل ، وقليلا من صيد الحيوان ، وكثيراً من صيد السمك ، تكونت لدينا الصورة التى كان عليها الريف الإيطالى منذ ألف وتسعمائه عام والتى لا يزال محتفظاً بها إلى اليوم .

الفصل الثاني

الصناع

لم يكن في الحياة الرومانية — ولعله لا يصح أن يكون فيها إذا صلحت الأحوال الاقتصادية — فرق جغرافي بين الزراعة والصناعة مثل ما بينهما من فرق في هذه الأيام . ذلك أن الموطن الريفي القديم — سواء أكان كوخاً أم بيتاً صغيراً ذا حديقة أم بيتاً كبيراً في ضيعة — كان مصنعاً يدوياً بالمعنى الحرفي لهذا اللفظ يعمل فيه الرجال بأيديهم في صناعات هامة متعددة لا غنى لهم عنها ، بينا تملأ النساء البيت وما يجاوره بما لا يحصى من منتجات الفنون والصناعات . فهناك تستحيل الغابات ملاجئ وبتخذ منها الوقود والأثاث ، وتذبح الماشية وينتفع بجلودها ولحومها ، وتطحن الحبوب وتخبز ، وتعصر الزيوت والخمور ، ويعد الطعام ويحفظ ، وينظف الصوف والتيل وينسجان ، ويحرق الطين في بعض الأحيان وتصنع منه الآنية والآجر والقرميد ، وتطرق المعادن وتصنع منها الأدوات . والحياة في الريف مليئة بالعمل المهذب المثقف المختلف الأنواع الذي لا يستمتع به إلا القليلون منا في عصرنا الحاضر عصر الحركة الواسعة والتخصص الضيق . ولم يكن تعدد الصناعات في المنزل الواحد دليلا على أن الحال الاقتصادية في الريف فقيرة وبدائية ، فقد كانت أكثر البيوت ثراء أكثرها اعتماداً على نفسها واكتفاء بمنتجاتها ، وكان أهلها يفخرون بأنهم ينتجون معظم ما هم في حاجة إليه . وكانت الأسرة في تلك الأيام منظمة من وحدات اقتصادية متعاونة متحدة الجهود في الأعمال الزراعية والصناعية التي تقوم بها في منزلها .

ولما أن تعهد صانع ما بالقيام بعمل لعدة أسر ، وأقام لنفسه حانوتاً في موضع يسهل على هذه الأسر جميعها أن تتصل إليه ، لا نخطئ هنا أخذ اقتصاد القرية

يكمل ما ينقص من اقتصاد الأسرة ، ولكنه لم يحل محله . مثال ذلك ان الطحان أخذ يحمل الحبوب من عدة حقول ويطحنها لأصحابها ؛ ثم أخذ بعدئذ يصنع لها الخبز ، وقام آخر الأمر بتوزيعه . وقد عثر في أنقاض بمبي على أربعين مخبزاً ، وكان لصناع الفطائر في رومة نقابة خاصة بهم . كذلك كان هناك متعاقدون يشترون محصول الزيتون على شجره ويجمعونه فيما بعد[١١] . على أن معظم الضياع ظلت تجمع زيتونها وتصنع خبزها بنفسها . وكانت ملابس الزراع والفلاسفة تغزل في البيوت ، أما الأثرياء فكانت ثيابهم تغزل في البيوت كملابس الفقراء ولكنها كانت تمشط ، وتنظف ، وتبيض ، وتفصل في أماكن معدة لهذه الأغراض . وكانت بعض المنسوجات الصوفية الرفيعة تنسج في مصانع خاصة ، وكان الكتان الذي تصنع منها أشرعة السفن أو شباك الصيد ينسج في المصانع قماشاً رفيعاً تتخذ منه ملابس للسيدات ومناديل للرجال[١٢] . وكان النسيج في بعض الأحيان يرسل بعدئذ إلى صباغ لا يقتصر عمله على تلوينه بل كان يطبع عليه رسوماً جميلة كالتي نراها مطبوعة على الملابس المصورة على جدران بمبي ، وتطورت دباغة الجلود فأصبحت لها مصانع خاصة بها ، وإن بقيت صناعة الأحذية يقوم بها الأفراد فيصنعون منها ما يطلب إليهم صنعه . وكان فيهم إخصائيون لا يصنعون إلا (شباشب) النساء .

وكانت الصناعات التي تستخرج موادها الغفل من باطن الأرض يقوم بها كلها تقريباً العبيد والمجرمون ، وكانت مناجم الذهب والفضة في داشيا وغالة وأسبانيا ؛ ومناجم الرصاص والقصدير في أسبانيا وبريطانيا ، ومناجم النحاس في قبرص والبرتغال ، ومناجم الكبريت في صقلية ، والملح في إيطاليا ، والحديد في إلبا ، والرخام في لونا Luna وهيمتس Hymettus وباروس Paros ، والحجر السماقي في مصر ، كانت هذه كلها وغيرها من موارد الثروة التي تستخرج من باطن الأرض تمتلكها الدولة وتستغلها بنفسها أو تؤجرها لغيرها ، وكانت مصدراً

هاما من مصادر الإيراد القومى ؛ وحسبنا دليلا على أهميتها أن فسپازيان كان يحصل من مناجم الذهب فى أسبانيا وحدها على ما قيمته ٤٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار فى كل عام[١٣] . وكان البحث عن الثروة المعدنية من أهم أسباب الفتوح الاستعمارية ، ومن أقوال تاستس فى هذا المعنى أن ثروة بريطانيا المعدنية كانت « جزاء النصر » الذى ظفر به كلوديوس فى حروبه[١٤] . وكان الخشب والفحم النباتى أهم أنواع الوقود ، وكان البترول معروفاً فى كمچينى Commagene وبابل وبارثيا[١٥] ، وكان المدافعون عن ساموساتا Samosata يلقونه متقداً فى مشاعل على جنود لوكلس ، ولكننا لم نعثر على شاهد يدل على أنه كان يستخدم وقوداً على نطاق تجارى(*) . وقد عثر على الفحم الحجرى فى البلوپونيز وفى شمالى إيطاليا ، ولكن أكثر من كانوا يستخدمونه هم الحدادون[١٦] . وكانت صناعة كبرتة الحديد لتحويله إلى فولاذ قد انتشرت من مصر إلى كافة أنحاء الإمبراطورية . وكان معظم صناع الحديد ، والنحاس والذهب ، والفضة ، يقومون بأعمالهم فى مصاهر خاصة يعملون فيها بمساعدة صبى أو صبيين . وفى كاپوا ومنتورنى Menturnae وپتيولى Puteoli وأكويليا Aquileia وكومو Como وغيرها من البلاد انضمت عدة أفران ومصاهر وتكونت منها مصانع كبيرة . ويلوح أن مصانع كاپوا كانت مشروعات رأسمالية ذات إنتاج ضخم ، تعتمد على أموال تأتيها من خارجها .

وكانت صناعة البناء حسنة التنظيم عظيمة التخصص ، فكان « حاملو الأشجار » Dendrophoroi يقطعون الأشجار ويوردونها ، و« صناع الخشب» fabri lignarii يصنعون الأثاث ، و « صانعو الأسمنت » Caementarii

---

(*) كان من بين الأسلحة الحربية فى القرن الرابع سهم نارى مملوء بالنفط الملتهب يطلق من قوس أو منجنيق ، ويقول عنه أميانس مرسلينيس Ammianus Marcellinus « إنه يحرق كل ما يقع عليه ، وإذا ألقى عليه ماء زاد ناره حرارة ، وما من سبيل إلى إطفائه إلا إذا رش عليه التراب » .

يخلطونه ، و « والمشيدون » Structres يضعون الأساس ، و « القباءون » arcuarii يثبتون العقود ، و « مقيمو الجدران » parieutarii يرفعون الحوائط ، و « الطلاسون » يطلونها بالجص ، والمبيضون albarii يطلونها بالجير ، وصانعو الأدوات الصحية Artifices plumbarii يصنعون أدواتها وهي في الغالب أنابيب من الرصاص (plumbum) ، وكان المبلطون marmorii يفرشون الأرض بالرخام ، وفي وسعنا أن نتصور ما تؤدى إليه هذه الأعمال كلها من نزاع . وكان الآجر والقرميد يأتيان من معامل الفخار ، وكان معظمها قد بلغ مرحلة المصانع الكبيرة ، وكان تراجان ، وهدريان ، وماركس أورليوس يمتلكون عدداً منها ويجنون منها أرباحاً طائلة(١٧) . وكانت قائن أرتيوم Arretium ، وموتينا Mutina ، وپيتولى وسرنتم ، وبولنتيا Pollentiae تصنع أدوات الموائد العادية اللازمة لإيطاليا ولجميع الولايات الأوربية والأفريقية . ولم تكن هذه المنتجات الكثيرة ذات صبغة فنية راقية ، بل كان أهم ما يعنى به أصحابها هو كثرة الإنتاج ، ولذلك كانت الأدوات الخزفية التي امتلأت بها أسواق إيطاليا أقل جودة من منتجات أرتيوم السالفة الذكر . وكانت هناك أدوات متقنة ذائعة الصيت تصنع من الزجاج ، وسنذكر شيئاً عنها فيما بعد .

وليس من حقنا أن نعزو إلى إيطاليا القديمة وجود رأسمالية صناعية مستندين إلى ما نجده فيها من مصانع للزجاج ، والآجر ، والقرميد ، والفخار ، والأدوات المعدنية . ذلك أن رومة نفسها لم يكن فيها إلا مصنعان كبيران أحدهما مصنع للورق والثاني مؤسسة للصباغة(١٨) ؛ وأكبر الظن أن المعادن والوقود لم يكن من الميسور الحصول عليها بكميات وفيرة ، وأن مكاسب السياسة كانت تبدو لأهل رومة أعظم شرفاً من أرباح الصناعة . أما في مصانع إيطاليا الوسطى فإن الصناع على بكرة أبيهم تقريباً وبعض المشرفين على المصانع كانوا من العبيد ، وفي مصانع شمالي إيطاليا كان عدد غير قليل من الصناع أحراراً ، وكان عدد العبيد

لا يزال كبيراً إلى الحد الذى يحول دون استخدام الآلات . ولم يكن من المنتظر أن يعمد المهملون المتراخون الذين لا مصلحة لهم فى الإنتاج إلى الاختراع والابتكار ، بل إنهم كانوا يرفضون بعض الوسائل التى توفر المجهود العضلى خشية أن تنتشر البطالة بين الصناع ، كما أن قدرة الشعب على الشراء كانت أضعف من أن تمول الإنتاج الكبير بالآلات ، أو تشجع عليه (١٩) . ولسنا ننكر أنه كانت هناك بعض الآلات البسيطة بطبيعة الحال فى إيطاليا ومصر والعالم اليونانى : كالمضاغط والمضخات اللولبية ، والآلات الرافعة للمياه ، ومطاحن الحبوب التى تجرها الحيوانات ، وعجلات الغزل ، والأنوال ، والروافع ، وعجلة الفخرانى الدوارة . . . ولكن الحياة الإيطالية فى الوقت الذى نتحدث عنه (٩٦ م) لم يكن فيها من الحركة الصناعية إلا بقدر ما كان فى حياة الناس إلى ما قبل القرن التاسع عشر . ولم يكن مستطاعاً أن تزيد هذه الحياة على هذا القدر ما دامت قائمة على الرقيق وعلى تركيز الثروة أشد التركيز . يضاف إلى هذا أن القانون الرومانى لم يكن يشجع المنشآت الكبيرة لأنه كان يتطلب من كل شريك فى أى مشروع صناعى أن يكون شريكا مسئولا من الوجهة القانونية ، وكان يحرم قيام الشركات ذات « المسئولية المحددة » ، ولا يسمح بقيام الهيئات المساهمة إلا لأداء الأعمال الحكومية . ولما كانت هذه القيود وأمثالها تحد من نشاط المصارف ، فإنها قلما كانت تقدم رؤوس الأموال اللازمة لمشروعات الإنتاج الكبير ، ولم يكن فى وسع التطور الصناعى فى رومة أو إيطاليا أن يبلغ فى وقت من الأوقات ما بلغه فى الإسكندرية أو فى بلاد الشرق ذات الحضارة اليونانية .

الفصل الثالث

الحمالون

كانت المركبات ذات العجلات محرمة فى رومة أثناء النهار من عهد قيصر إلى كومودس ؛ وكان الناس وقتئذ يمشون أو يحملهم العبيد فى كراسى أو هوادج ، أما المسافات الطويلة فكانوا يقطعونها على ظهور الخيل أو فى مركبات تجرها الجياد ، وكان متوسط ما تقطعه المركبات العامة نحو ستين ميلا فى اليوم . وقد اجتاز قيصر مرة ثمانمائة ميل فى ثمانية أيام ، واجتاز الرسل الذين حملوا إلى جلبا فى أسپانيا نبأ وفاة نيرون ٣٣٢ ميلا فى ست وثلاثين ساعة ؛ وقطع تيبيريوس فى ثلاثة أيام واصل فيها السير راكباً ليلا ونهاراً ستمائة ميل ليكون إلى جوار أخيه ساعة وفاته . وكان البريد العام الذى ينقل فى العربات أو على ظهور الخيل فى ساعات النهار والليل جميعها يسير بسرعة يبلغ متوسطها مائة ميل فى اليوم . وكان أغسطس قد أنشأه على غرار نظام البريد الفارسى ، لأنه وجد ألا غنى له عنه فى تصريف شئون الإمبراطورية . وكان يطلق عليه لفظ البريد العام لأن مهمته هى خدمة المصلحة العامة بنقل الرسائل الرسمية . أما الأفراد فلم يكونوا يستطيعون الانتفاع به إلا فى ظروف قليلة وبتصريح خاص تصدره الحكومة ويسمى دپلوما أى « مطويا مرتين » يبيح لحامله بعض الامتيازات ، ويمكنه من الاتصال فى الطريق ببعض أصحاب المقامات الدپلوماسية الكبيرة . وكان ثمة وسيلة أخرى للاتصال أسرع من هذه الوسيلة ، وهى طريقة إرسال الرسائل بمصابيح مرفوعة على أعمدة ترسل إشارات بالضوء من نقطة إلى نقطة ؛ وبهذا البرق البدائى عرفت رومة المضطربة القلقة نبأ وصول السفن التى تحمل الحبوب إلى پتيولى . أما الرسائل غير الرسمية فكان ينقلها رسول خاص ، أو ينقلها التجار أو الأصدقاء المسافرون . ولدينا من الشواهد ما يوحى

بوجود شركات خاصة فى عهد الإمبراطورية تتكفل بنقل بريد الأفراد . وكانت الرسائل الخاصة فى ذلك الوقت أقل من مثيلاتها فى هذه الأيام وأحسن منها . على أن نقل الأخبار فى غربى أوربا وجنوبيها لم يكن فى عهد قيصر أقل سرعة منه فى أى وقت من الأوقات قبل مد السكك الحديدية . وشاهد ذلك أن الخطاب الذى أرسله قيصر من بريطانيا إلى شيشرون فى عام ٥٤ ق . م وصل إلى رومة فى تسعة وعشرين يوماً ، وأن سير ربرت پيل لما سافر مسرعاً من رومة إلى لندن فى عام ١٨٣٤ احتاج إلى ثلاثين يوماً(٢٠) .

وكانت الطرق القنصلية من أهم العوامل فى تيسير سبل الاتصال والنقل : وكانت هذه الطرق هى الوسائل التى ينفذ بها القانون الرومانى ، والأعصاب التى تصبح بها رغبات رومة إرادة الدولة بأجمعها . وقد أحدثت هذه الطرق فى العالم القديم انقلاباً تجاريا من نوع الانقلاب الذى أحدثه إنشاء الطرق الحديدية فى القرن التاسع عشر . وحسبنا شاهدا على عظمة هذه الطرق أن طرق أوربا فى العصور الوسطى وفى العصور الحديثة ظلت إلى أيام استخدام البخار فى النقل أقل شأناً من طرق الإمبراطورية الرومانية فى عهد الأنطونيين . لقد كان فى إيطاليا وحدها فى ذلك الوقت ٣٧٢ طريقاً رئيسياً ، ١٢٠٠٠ ميل من الطرق الكبرى المرصوفة ، وفى الإمبراطورية بأجمعها ٥١,٠٠٠ ميل من الطرق العامة المرصوفة ، فضلا عن شبكة أخرى من الطرق الثانوية . وكانت الطرق الكبرى تسير فوق جبال الألب إلى ليون ، وبردو ، وپاريس وريمس ، وبولونى ؛ وكانت طرق أخرى تجرى إلى ڤينا ، ومينز ، وأجزبرج ، وكولونى ، وأوترخت ، وليدن ؛ وكان ثمة طريق يبدأ من أكويليا محازيا ساحل البحر الأدريادى ، ويصل هذه المدينة ، عن طريق إجناشيا بسلانيك Thessalonica . وأقيمت جسور فخمة لتحل محل القوارب التى كانت تنقل الركاب والبضائع فى عرض المجارى التى كانت تعطل سبل الاتصال فى الزمن القديم . وكانت توضع عند كل ميل فى الطرق

القنصلية شواهد حجرية تبين المسافة بين كل شاهد والبلدة التي تليه . ولا تزال أربعة آلاف من هذه الشواهد باقية إلى يومنا هذا ؛ ووضعت على مسافات معينة مقاعد يستريح عليها المسافرون المتعبون . وأنشئت بعد كل عشرة أميال محاط يستطيع من شاء أن يستأجر منها خيلا ، وأقيم بعد كل ثلاثين ميلا نزل Mansio كان أيضاً مستودعاً للسلع وندوة وماخورا[٢١] . وكانت نقط الاستراحة الرئيسية هي المدائن التي أنشئت فيها عادة فنادق جميلة تمتلكها وتديرها أحياناً الحكومات البلدية[٢٢] . وكان معظم أصحاب النزل يسرقون أموال النزلاء كلما تيسرت لهم أسباب السرقة ، كما كان غيرهم من اللصوص يجعلون الطرق غير آمنة في أثناء الليل على الرغم من وجود حاميات من الجند في كل محطة . وكان في استطاعة المسافرين أن يبتاعوا كتباً للإرشاد تبين الطرق والمحاط ، وأطوال ما بينها من المسافات[٢٣] . وكان الأثرياء الذين يستنكفون أن ينزلوا في النزل يحضرون معهم ما يلزمهم من الحاجيات ، ويصطحبون العبيد وينامون في عرباتهم بحراسة رجالهم ، أو في بيوت أصدقائهم ، أو موظفي الحكومة المحليين

وأكبر الظن أن الأسفار في عهد نيرون كانت أكثر منها قبل أن نولد نحن رغم ما كان يعترضها من الصعاب . وفي ذلك يقول سنكا : « إن كثيرين من الناس كانوا يركبون البحار مسافات طويلة ليشاهدوا منظراً بعيداً »[٢٤] .

ويحدثنا أفلوطرخس عن الجوابين الذين يقضون خير أيام حياتهم في النزل وفي القوارب »[٢٥] . وكان الرومان المتعلمون يهرعون جماعات إلى بلاد اليونان ومصر وآسية اليونانية ، وينقشون أسماءهم على الآثار التاريخية ، ويرتادون الجواء ومنابع المياه المفيدة للعلاج والصحة ، أو يأتون لمشاهدة المجموعات الفنية في الهياكل ، أو يسافرون للدرس على مشهوري الفلاسفة والخطباء والأطباء ؛ وما من شك في أنهم كانوا يسترشدون بپوسنياس كما نسترشد نحن ببدكر[٢٦] .

وكانت هذه الرحلات الطويلة تتضمن عادة رحلة بحرية على ظهر سفينة

أو أكثر من السفن التجارية التي تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط ، متتبعة عشرات العشرات من طرق الملاحة التجارية . وقد وصف جوفنال هذه الطرق بقوله : « انظر إلى الموانى والبحار تجدها غاصة بالسفن وعلى ظهرها من الخلائق أكثر ممن على الأرض »[٢٧] . وكانت الثغور التي تنافس رومة في عظمتها ، وهي بتيولى ، وبورتس ، وأستيا ، تحوى كثيراً من دور الصناعة تبنى المراكب[*] وفيها القيارون يجلفطونها والعمال يضعون فيها صابورات من الرمال ، والحمالون يفرغون الحبوب في أكياس ، والوزانون يزنونها ، والملاحون يسيرون القوارب الصغيرة بين السفائن الكبرى والبر ، والغواصون يغوصون في البحر لينتشلوا ما يسقط فيه من البضائع . وكانت خمس وعشرين سفينة من سفن الحبوب وحدها تجر إلى نهر التيبر في كل يوم من أيام العمل ، فإذا أضفنا إليها ناقلات حجارة البناء والمعادن ، والزيت ، والخمور ، وعشرات المئات من المواد الأخرى تكونت لدينا صورة من النهر الغاص بالمتاجر وما يصحب شحنها وتفريغها من ضجيج الآلات ، ورجال الأهوسة ، والحمالين ، والخازنين ، والتجار ، والسماسرة ، والكتبة .

وكانت السفن تسير بالأشرعة يساعدها صف أو صفوف من المجاديف ، وكانت في ذلك الوقت أكبر حجماً في العادة من ذي قبل ؛ فأثنيوس Athenaeus يصف سفينة من ناقلات الحبوب بأنها كانت ٤٢٠ قدماً في الطول و ٥٧ في العرض[٢٩] ، ولكن هذا الحجم كان حجماً شاذاً كل الشذوذ . وكان لبعض السفن ثلاثة أسطح ، وكانت حمولة الكثير منها ٢٥٠ طناً ، وحمولة بعضها ألف طن من البضائع . ويحدثنا يوسفوس عن سفينة تحمل ستمائة رجل ما بين راكب وبحار[٣٠] ، وقد حملت سفينة أخرى مسلة مصرية في حجم المسلة المقامة في سنترال پارك Centrel bark بنيويورك ، ومعها ٣٠٠ ملاح ، و ١٣٠٠ راكب ،

(*) في القاموس الجلفاط بالكسر سادّ درز السفن الجدد وقد جلفطها . (المترجم)

و ٩٣٠٠٠ بشل(*) من القمح ، ومقادير من الكتان ، والفلفل ، والورق ، والزجاج(٣١) . على أن السفر بالسفن بعيداً عن السواحل كان لا يزال معرضاً للأخطار ، كما وجده القديس بولس فى أسفاره . ولم يكن يجرؤ على عبور البحر الأبيض المتوسط فيما بين نوفمبر ومارس إلا عدد قليل من السفن ، وكانت الرياح الموسمية تجعل السفر فى وسط الصيف مستحيلاً جهة الشرق . وكانت الأسفار بالليل كثيرة فى تلك الأيام ، وكان فى كل ميناء ذى شأن منارة صالحة ، وكادت القرصنة أن تختفى من البحر الأبيض المتوسط ، وقد جد أغسطس فى القضاء عليها ومنع الطعام عن الولايات التى تثور عليه بوضع أسطولين حربيين كبيرين فى رافنا من ثغور البحر الأدرياوى وميسينم Misenum على خليج نابلى ، فضلا عن أساطيل أصغر منها فى عشر نقط أخرى متفرقة فى أنحاء الإمبراطورية . وفى وسعنا أن نقدر قول قيصر عن « فخامة السلم الرومانية العظيمة » إذا ذكرنا أننا لم نسمع شيئاً قط عن هذه الأساطيل مدى قرنين كاملين .

ولم تكن مواعيد السفر محددة مضبوطة لأن سير السفن كان يتأثر بعوامل الجو وبالأغراض التجارية . أما الأجور فكانت منخفضة ، فقد كان أجر السفر من أثينة إلى الإسكندرية مثلا درهمين (أى ١ر٢٠ ريال أمريكى) ، ولكن المسافرين كانوا يبتاعون طعامهم ، والراجح أن معظمهم كانوا ينامون على سطح المركب . وكانت سرعة السفن معتدلة اعتدال أجورها ، وكانت تختلف باختلاف الريح ، ويبلغ متوسطها ستة أميال بحرية فى الساعة .

وقد لا يستطيع المسافر فى بعض الأحيان أن يجتاز البحر الأدرياوى إلا فى يوم كامل ، وكان يلزمه أحياناً ثلاثة أسابيع للسفر من پترى Patrae إلى برنديزيوم كما فعل شيشرون . وكان فى وسع الطراد السريع أن يقطع

(*) يعادل البشل نحو ثمانية جالونات . (المترجم)

٢٣٠ ميلا بحريا فى أربع وعشرين ساعة[٣٢] . وإذا ما صلحت الريح استطاع الإنسان أن يسافر من صقلية إلى الإسكندرية أو من قادس إلى أستيا فى ستة أيام ، ومن يوتكا Utica إلى رومة فى أربعة[٣٣] .

وكانت أطول الرحلات وأكثرها تعرضاً للخطر الرحلة البحرية التى تستغرق ستة أشهر من عدن فى بلاد العرب إلى بلاد الهند ، وذلك لأن الرياح الموسمية كانت تضطر السفن إلى ملازمة السواحل الغاصة بالقراصنة فى الطريق كله ؛ وقد استطاع ملاح يونانى من أهل الإسكندرية فى وقت ما قبل سنة ٥٠ م ، أن يبين بالرسم أوقات هبوب الرياح الموسمية ، ويعرف أن فى مقدوره فى بعض الفصول أن يعبر المحيط الهندى فى طريق مستقيم وهو آمن . وكان هذا الكشف يعادل فى أهميته بالنسبة لهذا البحر أهمية عبور كولمبس المحيط الأطلنطى ؛ ذلك أن السفن قد استطاعت بعد هذا العمل أن تسير من الثغور المصرية الواقعة على البحر الأحمر إلى بلاد الهند فى أربعين يوماً . وحدث حوالى ٨٠ م أن كتب بحار آخر من أهل الإسكندرية غير معروف اسمه كتاباً عن « الطواف بالبحر الإريترى » . وكان بمثابة دليل للتجار الذين يتجرون بين ثغور ساحل أفريقية الشرقى والهند . وكان غيره من الملاحين فى ذلك الوقت قد ساروا فى المحيط الأطلنطى إلى بلاد غالة ، وبريطانيا ، وألمانيا ، بل إنهم وصلوا إلى اسكنديناوة وروسيا[٣٤] . ولسنا نعرف فى تاريخ الإنسانية قبل ذلك العهد أن البحر قد حمل من السفن ومن البضائع ومن الخلق ما حمله فى تلك الأيام .

الفصل الرابع

المهندسون

كانت السفن والطرق التي تحمل عليها البضائع ، والقناطر التي تربط الطرق بعضها ببعض ، والموانى والأحواض التي تستقبل السفن ، والقنوات المبنية التي يجرى فيها الماء النقي إلى رومة ، والمصارف التي تنصرف فيها مياه المستنقعات الريفية وأقذار المدن ، كانت هذه كلها من عمل المهندسين الرومان واليونان والسوريين يساعدهم آلاف من العمال الأحرار وجنود الفيالق والعبيد . وكانوا يرفعون الأحمال أو الحجارة الثقيلة ، أو يجرونها بوساطة البكرات أو القوائم الخشبية العمودية تديرها الروافع التي يدفعها فيها الحيوانات أو الآدميون[٣٥] . وقد أقاموا على شاطئ التيبر الغدار جدراناً ذات درجات ثلاث حتى لا ينكشف الطين في قاع النهر إذا انخفض ماؤه(*) وقد أنشئوا ميناء مزدوجاً عند أستيا لكلوديوس ونيرون وترجان ، وافتتحوا موانى أصغر منها في مرسيليا وپتيولى ، وميسينم ، وقرطاجنة ، وبرنديزيوم ، وراڤنا ؛ وجددوا أعظم موانى الإمبراطورية كلها في الإسكندرية . وقد جففوا البحيرة الفوسية ، واستصلحوا أرضها للزراعة وذلك بأن شقوا لها نفقاً يخترق جبلا من الصخر الصلد ، وأنشئوا تحت الأرض في رومة مصارف من الأسمنت المتحجر والآجر والقرميد قاومت البلى مئات السنين ، وجففوا مناقع كمپانيا حتى أصبحت صالحة للسكنى ، ويدل ما عثر عليه فيها من آثار على أن قصوراً فخمة كثيرة أقيمت فيها(**) ، وقاموا بتنفيذ

(*) أنشأت الحكومة الإيطالية في عام ١٨٧٠ جسوراً بمحاذاة شاطئ النهر تجعل مجراه متساوى العرض ، وقد أدى ذلك إلى نتائج غير مستحبة في فصل الجفاف .

(**) والظاهر أن الفلشيين قد جففوا مناقع بنتين قبل عام ٦٠٠ ق . م ، غير أن الرومان الذين فتحوا بلادهم قد أهملوا المصارف فعاد الإقليم مناقع وانتشرت فيه الملاريا . ووضع قيصر مشروعاً لتجفيفه وواصل أغسطس ونيرون العمل في هذا التجفيف ولكن المشروع لم يتم إلا في عام ١٩٣١ .

المشروعات العامة المدهشة التى خفف بها قيصر وغيره من الأباطرة التعطل فى البلاد وجملوا بها رومة .

وكانت الطرق القنصلية من أقل أعمالهم مشقة ، ولكنها لم تكن تنقص عن طرق هذه الأيام . وكانت سعتها تختلف من ست عشرة إلى أربع وعشرين قدماً ولكن بعض هذا العرض كان يشغله بالقرب من رومة ممرات جانبية مرصوفة بألواح حجرية مستطيلة الشكل . وكانت تسير مستقيمة إلى أهدافها مضحية بالنفقات العاجلة فى سبيل الاقتصاد الدائم ؛ وأقيمت على المجارى التى لا حصر لها قناطر كثيرة النفقات ، فإذا وصلت إلى المستنقعات اخترقتها فوق قباب مقامة على جدران من الآجر والحجارة ، وكانت تصعد فوق الجبال الوعرة وتنحدر على سفوحها دون أن تستخدم النفق ، وسارت بمحاذاة الجبال أو الجسور العالية تحميها الجدران القوية . واختلفت المواد التى ترصف بها باختلاف الأماكن التى تمر بها . وكانت الطبقة السفلى تصنع فى العادة من الرمل ويتراوح سمكها بين أربع بوصات وست ، أو من الملاط بسمك بوصة واحدة . ثم تقام فوق هذه الطبقة أربع طبقات من البناء : الأولى وسمكها قدم وتبنى من الحجارة يمسكها الأسمنت أو الطين ، تليها طبقة ثانية سمكها عشر بوصات من الأسمنت القوى ، ثم طبقة ثالثة سمكها ما بين اثنتى عشرة وثمان عشرة بوصة وتتألف من عدة طبقات من الأسمنت المقوى أيضاً ، وفوقها الطبقة الرابعة وتتخذ من قطع من حجر الصوان أو الحمم البركانية الكثيرة الأضلاع والتى يختلف قطر كل منها بين قدم واحدة وثلاث أقدام ، وسمكها بين ثمان بوصات واثنتى عشرة بوصة . وكانوا يسوون الوجه الأعلى لهذه القطع ، وكانت مواضع اتصالها بعضها ببعض لا تكاد تتبينها العين . وكانت الطبقة العليا تصنع فى بعض الأحيان من الأسمنت المقوى ، وفى الطرق القليلة الأهمية كانت تصنع من الحصباء ؛ وفى بريطانيا كانت من حجر الصوان المخلوط بالأسمنت فوق طبقة من الحصباء . وكان سمك الطبقات السفلى كبيراً إلى حد جعل المهندسين

لا يعنون كثيراً بتصريف الماء الجوفى . ويمكننا أن نقول عن هذه الطرق بوجه عام إنها أطول الطرق أعماراً فى التاريخ كله ، ولا يزال بعضها يستخدم إلى اليوم ، ولكن منحنياتها الشديدة التى صنعت لسير البغال والعربات الصغيرة جعلتها غير صالحة لوسائل النقل الحديث .

وكانت القناطر التى تحمل هذه الطرق نماذج طيبة لتضافر العلم والفن ، ولقد ورث الرومان عن مصر البطليموسية أصول الهندسة المائية ، واستخدموها على نطاق بلغ من السعة حداً لم يسبقهم إليه أحد من قبل ، وبقيت الأساليب التى نقلت عنهم لم يطرأ عليها تغيير إلى هذه الأيام . وقد وضعوا الأسس وأشادوا الأرصفة تحت الماء كما كانت تشاد هذه وتلك فى أقدم العهود . وكانوا يدفعون فى أنواع المجارى اسطوانات مزدوجة مملوءة بمواد البناء ، وقد أحكموا إغلاق كل منهما ونزحوا الماء مما بينهما ، وغطوا الجزء المعرى بالحجارة أو الجير ، وأقاموا الرصيف المطلوب إقامته على هذا الأساس . وقد أقيمت على نهر التيبر قبالة رومة تسعة جسور بعضها قديم مقدس كجسر سبليسيوس الذى لم يكن يجوز استخدام المعادن فيه ، وبعضها كجسر فبريسيوس متقن البناء إتقاناً أبقاه صالحاً للاستعمال إلى هذه الأيام . وعن هذه الجسور نقلت العقود الرومانية لتستخدم فى بناء مئات المئات من القناطر فوق المجارى فى العالم الذى يسكنه البيض .

وكان بلنى يظن أن قنوات المياه المبنية أعظم أعمال الرومان ، وفى ذلك يقول : « إذا فكر الإنسان فى مقدار ما يصل إلى المدينة من ماء للأغراض العامة والخاصة التى يخطئها الحصر ، وإذا شاهد القنوات المشيدة العالية التى لا بد أن تحتفظ بالعلو والتدرج المطلوبين ، والجبال التى لا بد من اختراقها ، والمنخفضات التى لا بد من ملئها — لم يسعه إلا أن يحكم أن الأرض كلها ليس فيها ما هو أعجب وأعظم من هذه الأعمال »[٣٨] وكانت أربع عشرة قناة من هذا النوع يبلغ مجموع أطوالها ١٣٠٠ ميل

وتخترق النفق وتسير فوق عقود فخمة ، كانت هذه القنوات تحمل إلى روما من عيون بعيدة ما لا يقل عن ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ جالون من الماء فى كل يوم ، ينال منها كل فرد فى رومة ما يناله أى إنسان فى مدننا الحديثة[٣٩] . على أن هذه المبانى الضخمة لم تكن تخلو من عيوب . فقد كانت أنابيب الرصاص تخرق وتتطلب الإصلاح المرة بعد المرة ، وأصبحت هذه القنوات كلها غير صالحة للاستعمال قبل نهاية عهد الإمبراطورية الغربية(*) . ولكننا إذا ذكرنا أنها كانت تحمل إلى المبانى ، « والمساكن ، والقصور ، والفساق ، والحدائق ، والبساتين ، والحمامات العامة التى يستحم فيها آلاف الناس مجتمعين ، وأن ما بقى بعد ذلك من الماء كان يكفى لإنشاء بحيرات صناعية للمعارك الحربية ، إذا ذكرنا هذا كله بدأنا ندرك أن رومة كانت أحسن الحواضر القديمة إدارة ، وأنها كانت من خير المدن المزودة بما تحتاج إليه من الضروريات والكماليات ، رغم ما كان فيها من فساد ، وما كان ينتابها من رعب فى كثير من الأحيان .

وكان يشرف على مصلحة المياه فى ختام القرن الأول الميلادى سكستس يوليوس فرنتينس الذى جعلته كتبه أشهر مهندسى الرومان الأقدمين . وكان قبل أن يتولى هذا المنصب قد عمل بريتوراً ، ووالياً على بريطانيا ، وتولى القنصلية مراراً عدة . وكان كالحكام الإنجليز فى هذه الأيام يجد متسعاً من الوقت لتأليف الكتب وحكم الولايات ، فقد نشر كتابا فى العلوم الحربية لا يزال ختامه باقياً إلى هذه الأيام(**) ، وترك لنا وصفاً بقلمه لعملية المياه فى رومة (De aquis urbis Romanae) . وهو يصف ما وجده فى تلك المصلحة حين تولى أمورها من ضروب الفساد والرشوة ، وكيف كانت القصور والمواخير تخرق الأنابيب الكبرى

(*) ولا تزال إحداها وهى قناة « فرجو » Virgo تمد بالماء فوارة تريفى Trevi ، وقد أصلحت ثلاث قنوات أخرى وهى تمد رومة بالماء فى هذه الأيام .

(**) ويبدأ الكتاب الثالث بهذه الملاحظة الهامة : « إن اختراع آلات الحرب قد وصل من زمن بعيد إلى أبعد غاياته ، ولا أمل فى أن يتقدم هذا الفن عما هو عليه الآن » .

وتسرف فى الماء إسرافاً جعل روما فى بعض الأيام تطلب الماء فلا تجده[٤١] .
ثم يصف ما أدخله بحزمه وهمته من ضروب الإصلاح ، ويفصل القول فى زهو وإعجاب فى مبدإ كل قناة وطولها والغرض منها ، ويختم هذا القول كما يختم بلنى قوله بهذه العبارة : « منذا الذى يجرؤ على أن يوازن هذه القنوات العظيمة بالأهرام السخيفة أو بأعمال اليونان الذائعة الصيت العديمة النفع »[٤٢] . ونحن نحس هنا بما يؤمن به هذا الرومانى من مبدإ النفعية ، وبعدم تذوقه للجمال المجرد من النفعية . ولسنا نلومه على هذا ، ونقر بأن من الواجب أن تحصل المدينة على الماء النقى قبل أن يكون فيها هياكل جميلة ، ونحن نستشف من خلال هذه الكتب الخالية من التجميل الفنى أنه كان لا يزال فى روما فى أيام الطغاة رومان من الطراز القديم ، رجال ذوو كفاية وصلاح ، وإداريون يعملون بوحى ضمائرهم ، وقد أفلحوا فى نشر الرخاء فى أنحاء الإمبراطورية ، تحت حكم الأباطرة السفهاء الفاسدين ، وكانوا هم الذين مهدوا السبيل لعصر الملكية الذهبى .

الفصل الخامس

التجـــــار

اتسعت تجارة البحر البيض المتوسط اتساعاً لم يسبق له مثيل من قبل بسبب إصلاح إدارة الحكم ووسائل النقل . ففى أحد طرفى عملية التبادل كان البائعون الجائلون يطوفون بالريف ويبيعون أهله كل شىء من عيدان الثقاب إلى الحرير المستورد الغالى الثمن . وشبيه بهؤلاء من يبيعون البضائع « بالمزاد » ، وكان من عملهم أيضاً المناداة على البضائع المفقودة والعبيد الآبقين . وكانت هناك أسواق يومية وأخرى دورية ، وكنت ترى أصحاب الحوانيت يساومون المشترين ويخسرون الموازين ، ويرقبون فى حذر مفتشى الحكومة (الإيديل) الذين كانت مهمتهم مراقبة المكاييل والموازين . وكان أرقى من هؤلاء فى السلم التجارى الحوانيت التى تصنع بنفسها سلعها ؛ وكانت هذه الحوانيت عماد الصناعة والتجارة جميعاً . وكان فى الثغور البحرية أو بالقرب منها بائعو الجملة (magnarii) يبيعون لتجار التجزئة أو للمستهلكين البضائع المستوردة حديثاً من خارج البلاد ؛ وكان صاحب السفينة أو رئيس بحارتها فى بعض الأحيان يبيع ما فيها من البضائع قبل أن يفرغها .

وظلت إيطاليا مائتى عام وميزان التجارة فى غير صالحها ، فقد كانت تشترى أكثر مما تبيع ، وكانت راضية بذلك مغتبطة . كانت تصدر بعض الفخار الأريتينى Arretine وبعض الخمر والزيت ، والأدوات المعدنية والزجاج ، والروائح العطرية من كمبانيا ، أما ما عدا هذه من المنتجات فقد كانت تحتفظ به لنفسها وكان لتجار الجملة فى هذه الأثناء وكلاء يشترون البضائع لإيطاليا من كافة أنحاء الإمبراطورية ، وكان للتجار الأجانب سماسرة يعرضون

بضائعهم في إيطاليا ؛ وبهذه العملية المزدوجة جاءت طيبات نصف العالم إلى إيطاليا لتتلذذ بها أفواه عظماء الرومان ، وتكتسي بها أجسادهم ، وتزدان بها بيوتهم ؛ وفي ذلك يقول إيليوس أرستيديس Aelius Aristides : « من شاء أن يرى جميع طيبات العالم فعليه أن يطوف العالم كله أو يقيم في رومة »[٤٥] . وكانت صقلية ترسل لها الحبوب ، والماشية ، والجلود ، والخمور ، والصوف ، والأدوات الخشبية الفنية الجميلة ، والتماثيل ، والحلي ؛ وكانت ترد من شمالي إفريقية الحبوب والزيت ؛ ومن قورينة الأنجدان Silpium[*] ؛ ومن أفريقية الوسطى الوحوش اللازمة للملاعب والمجتلدات ؛ ومن بلاد الحبشة وشرقي أفريقية العاج والقردة ، وأصداف السلاحف ، والرخام النادر الطبيعي ، والتوابل ، والعبيد الزنوج ؛ ومن غربي أفريقية الزيتون ، والحيوانات البرية ، والأترج ، والخشب ، واللؤلؤ ، والأصباغ ، والنحاس ؛ ومن أسبانيا السمك ، والماشية ، والصوف ، والذهب ، والفضة ، والرصاص ، والقصدير ، والنحاس ، والحديد ، والزنجفر ، والقمح ، والنيل ، والفلين ، والخيل ، ولحم الخنزير وخير أنواع الزيتون وزيته ؛ ومن بلاد غالة الملابس ، والخمور ، والقمح والخشب ، والخضر ، والماشية ، والدجاج ، والفخار ، والجبن ؛ ومن بريطانيا القصدير ، والرصاص ، والفضة ، والجلود ، والقمح ، والماشية والعبيد ، والمحار ، والكلاب واللؤلؤ ، والمصنوعات الخشبية ؛ وكانت أسراب الإوز تسير من بلجيكا إلى إيطاليا لتملأ أكبادها بطون الأشراف من أبنائها . وكانت ألمانيا تورد الكهرمان ، والعبيد ، والفراء ؛ وبلاد نهر الدانوب تورد القمح ، والماشية ، والحديد ، والفضة ، والذهب ؛ وبلاد اليونان والجزائر اليونانية تصدر الحرير الرخيص ، والنيل ، والخمر ، والزيت ، وعسل النحل ، والخشب ، والرخام ، والزمرد ، والعقاقير ،

(*) نبات من الفصيلة الخيمية ، وهو يحتوي على سائل راتنجي اشتهر عند القدماء بنفعه لكثير من الأمراض الباطنية ، ورسم على نقود قورينة موطنه الأصلي . (المترجم)

والمصنوعات الفنية ، والروائح العطرية ، والماس ، والذهب ؛ وكانت بلاد البحر الأسود تصدر الحبوب ، والسمك ، والفراء ، والجلود ، والعبيد ؛ وآسية الصغرى تصدر المنسوجات التيلية والصوفية ، والجلد المرقق للكتابة ، والخمر ، وتين أزمير وغيرها من البلاد ، والعسل ، والجبن ، والمحار ، والسجاجيد ، والزيت ، والتفاح ، والكمثرى ، والبرقوق ، والتين ، والبلح والرمان ، والبندق ، والناردين ، والبلسم(*) ، والصمغ القرمزى(**) ، والأرجوانى ، وأرز لبنان ؛ وكانت تدمر تورد المنسوجات والعطور والعقاقير ؛ وبلاد العرب تورد البخور ، والصمغ ، والصبر ، والمر ، والأفيون ، والزنجبيل ، والقرفة ، والأحجار الكريمة ؛ ومصر تورد الحبوب ، والورق ، والتيل ، والزجاج ، والحلى ، والحجر الأعبل ، وأحجار البازلت ، والمرمر ، والبرفير ؛ وكانت آلات الأدوات المصنوعة المختلفة الأنواع ترد إلى رومة وغربى أوربا من الإسكندرية ، وصيدا ، وصور ، وأنطاكية ، وطرسوس ، ورودس ، وميليتس ، وإفسوس وغيرها من كبريات مدائن الشرق ؛ وكانت بلاد الشرق نفسها تستورد المواد الغفل والنقود من الغرب .

وكانت هناك فضلا عن هذا كله تجارة واردات ضخمة من خارج الإمبراطورية . فكانت ترد إلى إيطاليا من پارثيا وبلاد الفرس الجواهر ، والعطور النادرة ، والجلود الرقيقة ، والطنافس ، والحيوانات البرية ، والخصيان ؛ وكان يرد من الصين بطريق پارثيا أو الهند أو القوقاز الحرير منسوجاً أو غير منسوج ؛ وكان الرومان يظنونه محصـولا نباتياً يستخرج من الشجر ويقومونه بوزنه ذهباً(٤٤) . وكان معظم هـذا الحرير يرد إلى جزيرة كوس Cos حيث ينسج ملابس لنساء رومة وغيرها من المدن ؛ واضطرت ولاية مسينيا Messenia — وهى الولاية الفقيرة نسبياً — أن تحرم على نسائها ارتداء الملابس الحريرية

(*) صمغ راتينى عطرى . (المترجم)

(**) صمغ يتخذ من المحار أو الأصداف . (المترجم)

الشفافة في الاجتماعات الدينية ؛ وهذه الملابس هي التي غزت بها كليوبطرة قلبي قيصر وأنطونيوس[٤٥] . وكانت الصين تستورد من الإمبراطورية الرومانية في نظير صادراتها إليها الطنافس والحلى ، والكهرمان ، والمعادن ، والأصباغ ، والعقاقير ، والزجاج . ويحدثنا المؤرخون الصينيون عن بعثة تجيء بطريق البحر إلى الإمبراطور هوان دى عام ١٦٦ ، من قبل الإمبراطور « آن - طون » — أي ماركس أورليوس أنطونيوس . وأكبر الظن أن هذه البعثة لم تكن إلا جماعة من التجار انتحلوا صفة السفراء . وقد عثر في ولاية شانسي الصينية على ست عشرة قطعة من النقود الرومانية مضروبة فيما بين حكم تيبيريوس وحكم أورليوس ، وكانت الهند تورد إلى إيطاليا الفلفل ، وسنبلة الطيب ، وغيرها من التوابل (التي سافر كولمبس ليبحث عنها) ، والأعشاب ، والعاج ، والأبنوس ، وخشب الصندل والنيلة ، واللآلئ ، والعقيق المشطب (سردونتس) ، وحجر الظفر (الخرز اليماني) والجمست ، والياقوت الأحمر ، والماس ، والمصنوعات الحديدية ، وأدوات التجميل ، والمنسوجات ، والنمورة ، والفيلة ، وفي مقدورنا أن ندرك مقدار هذه التجارة وحب الرومان لأسباب الترف إذا عرفنا أن إيطاليا كانت تستورد من الهند أكثر مما تستورد من أي بلد آخر عدا أسبانيا[٤٦] . ويذكر استرابون أن مائة وعشرين سفينة كانت تبحر كل عام من ثغر واحد من الثغور المصرية إلى الهند وسيلان[٤٧] . وكانت الهند نفسها تستورد في مقابل صادراتها مقداراً غير كبير من الخمور ، والمعادن ، والصبغة الأرجوانية ، وتأخذ ثمن ما بقي من بضائعها أكثر من مائة مليون سسترس نقوداً أو سبائك . وكان مثل هذا القدر من المال يرسل إلى بلاد العرب والصين ، ولعل مثله أيضاً كان يرسل إلى أسبانيا .

وظلت هذه التجارة الواسعة مصدر رخاء عظيم مائتي عام ، ولكن أساسها غير السليم جر الخراب على الاقتصاد الروماني في آخر الأمر . ذلك أن إيطاليا لم تحاول قط أن تعادل صادراتها ووارداتها ، وأنها استولت على مناجم خمسين

ولاية أو نحوها ، وفرضت على أهلها الضرائب لتستمد منها المال الذى تدفعه لموازنة صادراتها بوارداتها . فلما أن استنفدت العروق المعدنية الغنية ولم تنقص شهوة الرومان للترف والكماليات ، حاولت رومة أن تؤجل انهيار نظام الاستيراد بفتح بلاد جديدة اشتهرت بمعادنها مثل داشيا Dacia ، وبتخفيض قيمة نقدها الذى كان من قبل أبعد النقود عن الفساد والانحطاط ، فصارت تصنع أكثر ما تستطيع صنعه من النقود من أقل ما لديها من السبائك . ولما أن اقتربت نفقات الإدارة والحروب من مكاسب الإمبراطورية ، كان على رومة أن تؤدى ثمن ما تستورده من البضائع ببضائع أخرى ، ولكنها عجزت عن هذا . وكان اعتماد إيطاليا على ما تستورده من الطعام أهم أسباب ضعفها . ذلك أنها ساعة أن عجزت عن إرغام غيرها من البلاد على أن ترسل إليها الطعام والجنود ، آذن مجدها بالزوال وفى هذا الوقت عينه أخذت الولايات تسترد رخاءها وأولويتها الاقتصادية ؛ فكاد التجار الإيطاليون فى القرن الأول الميلادى يختفون من الثغور الشرقية ، واستقر التجار السوريون واليونان فى ديلوس وبتيولى ، وتضاعف عددهم فى أسپانيا وغالة ، وأخذ الشرق بين مد التاريخ وجزره المتباعدى الأجل يستعد لأن يسيطر مرة أخرى على الغرب .

الفصل السادس

رجال المـــال

ترى كيف كان الإنتاج والتجارة يمولان ؟ لقد كانا يمولان قبل كل شيء بنقد محترم موثوق به في العالم إلى حد كبير. نعم إن النقود الرومانية جميعها قد انحطت قيمتها شيئاً فشيئاً من أيام الحرب البونية الأولى ، لأن الخزانة وجدت أنه يسهل عليها أن تؤدي ما استدانته الحكومة من المال بسبب الحروب بسماحها بالتضخم الذي ينشأ بطبيعته من ازدياد النقود ونقص السلع . من ذلك أن الآس وكان في الأصل رطلا من النحاس انخفض وزنه إلى أوقيتين في عام ٢٤١ ، وإلى أوقية واحدة في عام ٢٠٢ ، وإلى نصف أوقية في عام ٨٧ ق . م ، وإلى ربع أوقية في عام ٦٠ م ؛ وفي المائة العام الأخيرة من عهد الجمهورية كان قواد الجند يسكون نقودهم ، وكانت هذه النقود في العادة هي الأوري وهو نقد ذهبي كانت قيمته في الغالب مائة سسترس . ومن هذه النقود الحربية جاءت نقود الأباطرة ، وقد جرى هؤلاء على سنة قيصر فطبعوا صورتهم على ما يسكونه من النقود رمزاً لضمان الحكومة إياها . وسك السسترس وقتئذ من النحاس بدل الفضة ، وجعلت قيمته أربعة آسات(*) ، وأنقص نيرون ما كان يحتويه الدينار من الفضة إلى ٩٠ ٪ مما كان يحتويه منها قبل ، ثم أنقصه تراجان إلى ٨٥ ٪ ، وأورليوس إلى ٧٥ ٪ ، وكمودس إلى ٧٠ ٪ وسبتميوس سفيرس **Septimius**

(*) سنقوم العملة الرومانية حين نشير إلى العهد الذي أعقب حكم نيرون بثلثي قيمتها المعتادة في زمن الإمبراطورية ، فيقوم الآس بـ ٠٫٠٢٥ من الريال الأمريكي ، والسسترس بـ ٠٫١٠ منه ، والدينار بـ ٠٫٤٠ ، والتالنت بـ ٢,٤٠٠ حسب قيمة الريال الأمريكي في عام ١٩٤٢ . وإذ كنا سنغفل في هذا التقويم ما طرأ على العملة الرومانية من اختلافات قليلة ، فجدير بالقارئ أن يذكر أن هذا التقويم كله تقريبي .

Severus إلى ٥٠٪ . وأنقص نيرون قيمة الأوريوس من ١/٤٠ من الرطل من الذهب إلى ١/٤٥ ، وأنقصها كركلا إلى ١/٥٠ . وصحب هذا التخفيض ارتفاع عام فى أثمان السلع ، ولكن يلوح أن الدخل ارتفع بنسبة هذا التخفيض وظل يرتفع حتى زمن أورليوس . ولعل هذا التضخم غير الطليق الخاضع لإشراف الحكومة ، لم يكن إلا وسيلة سهلة لتخفيف العبء عن المدينين على حساب الدائنين ، لأن هؤلاء لو تركوا وشأنهم لاستطاعوا بفضل ما يمتازون به من كفاية ، وما يتاح لهم من فرص ، أن يركزوا الثروة فى أيد قليلة إلى حد يقف معه دولاب الاقتصاد وينذر بالثورة السياسية . ومن واجبنا أن نعد النظام المالى الرومانى من أكثر النظم المالية نجاحاً وثباتاً فى التاريخ رغم ما طرأ عليه من تغيرات . ذلك أن معياراً واحداً للنقد ظل قائماً موثوقاً به مدى قرنين من الزمان ، وبفضل هذا الثبات راجت التجارة واستثمار المال رواجاً لم يكن له نظير فى أى عصر من العصور السابقة .

ومن أجل هذا انتشر الصيارفة فى كل مكان، يبدلون النقود بعضها ببعض، ويراجعون الحسابات والودائع ذات الفوائد ، ويصدرون التحاويل المالية للمسافرين وتوكل إليهم إدارة أملاك الأفراد وبيعها ، وشرائها ، واستثمار الأموال ، وأداء الديون ، وإقراض المال للأفراد والشركات . وكان مصدر هذا النظام المصرفى بلاد اليونان وبلاد الشرق اليونانى ، وكان أكثره فى أيدى اليونان والسوريين حتى فى إيطاليا نفسها وفى غربى أوربا ؛ وكان اللفظان اللذان يطلقان على السورى ، والمصرفى فى غالة مترادفين[٤٩] ؛ وانخفض سعر الفائدة إلى أربعة فى المائة لكثرة الغنائم التى جاء بها أغسطس من مصر ، ولكنه عاد فارتفع إلى ٦٪ بعد موته ، وبلغ حده القانونى الأقصى وهو ١٢٪ قبيل عصر قسطنطين .

ويدل « الذعر » المشهور الذى حدث فى عام ٣٣ م على ما وصلت إليه حال المصارف والتجارة فى أيام الإمبراطورية ، كما يدل على اعتماد كلا النظامين على الآخر . ذلك أن أغسطس سك العملة بلا حساب ، وبسط يده فى الإنفاق

كل البسط ، على أساس أن كثرة تداول المال ، وانخفاض سعر الفائدة ، وارتفاع الأثمان ، ستبعث النشاط فى الأعمال المالية والتجارية . وقد حدث هذا فعلا ، ولكن هذه العملية لم يكن من شأنها أن تستمر إلى غير نهاية ، ولذلك حدث انتكاس ولما يمض على بدايتها زمن طويل ؛ فقد حدث فى عام ١٠ ق . م أن وقف إصدار العملة ، وعاد تيبيريوس إلى عكس النظرية السابقة وهى أن خير ضروب الاقتصاد هو أشدها اقتصاداً . ولذلك فرض القيود الشديدة على النفقات الحكومية ، وحدد إصدار العملة تحديداً شديداً وجمع فى خزانة الدولة ٢٫٧٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سسترس . ونشأ عن هذا أن قل تداول النقود قلة زاد أثرها سوءاً نزوح الأموال إلى بلاد الثراء لابتياع الكماليات منها . ونتج عن ذلك انخفاض الأثمان ، وارتفاع سعر الفائدة . وعجز المدينون عن الوفاء بديونهم ، فباعوا أملاكهم ، وقاضى المدينون المرابين ، وامتنع الاقتراض أو كاد . وحاول مجلس الشيوخ أن يمنع تصدير رؤوس الأموال فطلب أن يستثمر قدر كبير من ثروة كل عضو من أعضائه فى الأراضى الإيطالية ، فعمد الشيوخ من أجل ذلك إلى المطالبة بما لهم من الديون ، وباعوا أملاك مدينيهم للحصول على الأموال ، وازدادت الأزمة سوءاً على سوء ؛ ولما أن أبلغ الشيخ پبليوس أستنثر Publius Spinther مصرف بلبس وأليوس Balbes & Ollius أنه لا بد له أن يسحب ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سسترس للوفاء بما يتطلبه القانون الجديد ، أعلن المصرف إفلاسه . وحدث فى الوقت نفسه أن أفلست شركة بالإسكندرية هى شركة سوثيس وولده Seuthes & Son على أثر ضياع ثلاث سفن لها تحمل التوابل ، وانهارت شركة ملكس Malchus للصباغة فى مدينة صور ، فشاع فى طول البلاد وعرضها أن مصرف مكسمس وڤيبو Maximus & Vibo الرومانى على وشك الإفلاس بسبب ما له من ديون كثيرة على هاتين الشركتين . ولما أن هرع أصحاب الودائع إلى هذا المصرف لسحبها أغلق أبوابه ، وحدث بعدئذ فى اليوم نفسه أن أجل الدفع مصرف كبير آخر

هو مصرف أولاد پتيوس Pettius . ووصلت فى الوقت عينه تقريباً أنباء تقول إن مصارف مالية كبرى فى ليون ، وقرطاجنة ، وكورنثة ، وبيزنطية قد أفلست هى الأخرى ، وأغلقت مصارف رومة واحداً بعد واحد ، ولم يكن من المستطاع اقتراض المال إلا بفوائد أعلى كثيراً من السعر المصرح به قانوناً ؛ واضطر تيبريوس فى آخر الأمر أن يعالج الأزمة بوقف قانون الاستثمار فى أرض إيطاليا ، وتوزيع ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سسترس على المصارف لتقرضها من غير فائدة لآجال تبلغ ثلاث سنين ، بضمان الأملاك العقارية ، فاضطر المرابون من الأفراد إلى تخفيض سعر الفائدة ، وخرجت الأموال من مخابئها ، وعادت الثقة شيئاً فشيئاً إلى السوق المالية والتجارية[٥٠] ؛

الفصل السابع

الطبقات

كان كل إنسان فى رومة إلا أقلية لا يعتد بها يعبد المال عبادة جنونية ؛ وكان الناس جميعاً عدا أصحاب المصارف يلعنون المال ويذمونه : من ذلك أن أوفد يقول فى أحد كتبه على لسان إله من الآلهة : « ما أقل ما تعرف عن العصر الذى تعيش فيه إذا توهمت أن الشهد أحلى من المال فى يدك »(٥١) . وبعد مائة عام من ذلك الوقت يشيد چوڤنال فى سخرية : « بجلال الثروة المقدس أعظم التقديس » ؛ وظل القانون الرومانى إلى آخر عهد الإمبراطورية يحرم على الشيوخ استثمار أموالهم فى التجارة أو الصناعة ؛ ومع أنهم كانوا يحتالون على هذا التحريم بأن يجيزوا لمعتوقيهم أن يستثمروا لهم المال ، فإنهم كانوا يحتقرون وكلاءهم ، ويرون أن الحكم بحق المولد هو وحده الذى يليق بهم أن يستبدلوا به الحكم بحق المال أو الأساطير أو السيف . وقد ظلت الانقسامات الطائفية باقية فى البلاد بعد ماقام فيها من الثورات ، وبعد أن نقص عدد الأشراف نقصاناً كبيراً ، واتخذوا لهم ألقاباً جديدة : فأصبح أفراد طبقتى الشيوخ ، والفرسان ، والحكام ، والموظفين ، يلقبون « رجال الشرف » honestiores أو رجال المناصب ؛ ولقب كل من عداهم « بالأدنياء » humiliores أو الضعفاء « tenuiores » وكان وقار الشيخ وزهوه يمتزج بهما اعتزاز بالشرف والكرامة ، وكان يعمل فى عدد من المناصب بعضها فى إثر بعض من غير أجر بل تفرض عليه نفقات طائلة ، وكان يضطلع بالواجبات التى تفرضها عليه مناصبه العامة بدرجة لا بأس بها من الكفاية والاستقامة ؛ وينفق من ماله على الألعاب العامة ، ويساعد الموالى والمحررين من العبيد ، ويقتسم بعض ثروته مع الأهلين بضروب الصدقات التى يخرجها فى أثناء حياته أو بعد

مماته . وإذ كان مركزه يتطلب منه كثيراً من الواجبات ، كان يطلب إليه إذا أراد أن ينضم إلى طبقة الشيوخ أو يبقى فيها أن يكون لديه مليون سسترس ؟

وقد بلغت ثروة أحد الشيوخ وهو نيوس لنتولس **Gnaeus Lentulus** ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سسترس ، ولكننا إذا استثنينا هذا الشيخ وحده كان أعظم الناس ثراء فى رومة هم رجال الأعمال الذين لم يكونوا يستنكفون أن يشتغلوا بالشئون المالية أو التجارية . وبينا كان الأباطرة ينقصون من سلطان مجلس الشيوخ كانوا يختصون رجال الأعمال بالمناصب الكبرى ، ويحمون الصناعة والتجارة والأعمال المالية ، واتخذوا معونة الفرسان سنداً للزعامة ضد دسائس الأشراف . وكانت عضوية هذه الطبقة الثانية ، طبقة الفرسان ، تتطلب من صاحبها أن يكون مالكا لأربعمائة ألف سسترس ، وأن يرشح الزعيمُ نفسه أعضاء هذه الطبقة ؛ ومن أجل هذا كان كثيرون من ذوى الثراء من طبقة العامة .

وكانت هذه الطبقة وقتئذ تتألف من رجال الأعمال الذين لم يرشحوا إلى العضوية فى طبقة أخرى ، ومن العمال الأحرار المولد ، والفلاحين الملاك ، والمدرسين ، والأطباء ، والفنانين والعبيد المحررين . ولم يكن الإحصاء يحدد طبقة الصعاليك حسب أعمال أفرادها بل كان يحددها حسب مولدهم ؛ وقد وصفتهم إحدى الرسائل القديمة بأنهم « السوقة الذين لا يقدمون للدولة إلا الأطفال »[٥٢] وكان الكثيرون منهم يعملون فى الحوانيت ، وفى المصانع ، وفى تجارة المدن بأجر يبلغ متوسطه ديناراً (٣/٨ من الريال الأمريكى) فى اليوم . وزاد هذا الأجر فى القرون التالية ، ولكن زيادته لم تكن أسرع من زيادة الأثمان[٥٣] . وجدير بنا ألا ننسى أن استغلال الأقوياء للضعفاء أمر طبيعى كالطعام والشراب ، ولا يختلف عنهما إلا فى السرعة ؛ وأنه لا يخلو منه عصر من العصور ولا مجتمع من المجتمعات أيا كان نوعه وأيا كان نظام الحكم الذى يخضع له ؛ ولكن هذا

الاستغلال لم يكن فى بلد من البلاد أكمل مما كان فى رومة القديمة ، كما لم تكن الطبقات فى بلد آخر أقل تعاطفاً من الطبقات فيها . لقد كان ساكنوها جميعاً فى وقت من الأوقات فقراء لا يشعرون بفقرهم ؛ ولكن الفقر والثراء ما لبثا أن وجدا معا فى صعيد واحد ، فشعر الفقراء وقتئذ بفقرهم . على أن نظام الإعانات الحكومية والصدقات التى كان السادة يحسنون بها على مواليهم ، والوصايا القيمة التى كان يوصى بها الأثرياء أمثال بلبس الذى أوصى لكل ساكن فى رومة بخمسة وعشرين ديناراً ، كل هذا قد حال بين الأهلين وبين الفقر المدقع . وكاد نظام الطبقات فى رومة أن يصبح شبيهاً بنظيره فى الهند الحاضرة فيقسم الأمة أقساماً منفصلة متنافرة ، ولكن من كان ذا قدرة من الأهلين كان فى وسعه أن يتحرر من الرق ، وأن يجمع المال ، ويرقى إلى المناصب العالية فى خدمة الزعيم . وكان ابن العبد المحرر يتمتع بجميع حقوق الأحرار ، وكان فى وسع حفيده أن يصبح عضواً فى مجلس الشيوخ ، بل إن حفيد أحد المحررين قد أصبح إمبراطوراً بعد قليل من هذا الوقت الذى نتحدث عنه .

وتولى العبيد المحررون فى القرن الأول الميلادى كثيراً من المناصب العامة : وكثيراً ما كان يعهد إليهم الإشراف على أموال الإمبراطورية فى الولايات ، وعلى عمليات المياه فى رومة ، وعلى مناجم الإمبراطور ، ومقالع أحجاره وضياعه ، وعلى تموين معسكرات الجيش . وكان المحررون أو العبيد ، وكلهم تقريباً من اليونان أو السوريين ، يديرون شئون القصور الإمبراطورية ، ويتولون أخطر المناصب فى مجالس الدولة . وتحولت الصناعات والتجارة الصغرى شيئاً فشيئاً إلى أيدى المحررين ، وأصبح الكثيرون منهم على مر الأيام من أصحاب رؤوس الأموال وملاك الأراضى ؛ وقلما كان ماضيهم يتيح لهم الفرص لرفع مستواهم الخلقى أو يسمو بأغراضهم وأسباب اهتمامهم ، فلما أن تحرروا أصبح المال شغلهم الشاغل فلم يكونوا يتورعون عن سلوك أى سبيل توصلهم إليه ، أو يراعون فى إنفاقه وازعاً

من ضمير أو ذوق سليم . وقد ندد بهم پترونيوس Petronius أشنع تنديد في تريملكيو ، وسخر سنكا ، وإن يكن أقل من پترونيوس حدة ، بالأثرياء المحدثين الذين يبتاعون مجاميع مزينة من الكتب ولكنهم لا يقرأونها أبداً[٥٤] . وأكبر الظن أن بعض هذا الهجاء كان رد فعل مبعثه غيرة طبقة من الناس رأت أن ما كانت تختص به من استغلال الناس والاستمتاع بضروب الترف والملاذ قد أخذ يعتدى عليه هؤلاء المحدثون ، ولم يكن فى وسعها أن تصفح عن أولئك الذين قاموا يشاركونها فى أموالها وسلطانها .

وما من شك فى أن ما لقيه المحررون من نجاح قد بعث بعض السلوى والأمل فى نفوس تلك الطبقة التى كانت تقوم بمعظم الأعمال اليدوية فى إيطاليا . وقد قدر بلوك Peloch عدد العبيد فى رومة حوالى سنة ٣٠ ق . م بما يقرب من ٤٠٠,٠٠٠ أى نحو نصف عدد سكانها جميعاً ، وقدر عددهم فى إيطاليا بنحو ١,٥٠٠,٠٠٠ . وإذا جاز لنا أن نصدق ثرثرة أثنيوس فإن بعض الرومان كان يمتلك الواحد منهم ٢٠,٠٠٠ عبد[٥٥] . ومن أكبر الشواهد على كثرتهم أن مجلس الشيوخ قد رفض اقتراحاً عرض عليه يرمى إلى إلزام العبيد بأن يلبسوا زياً خاصاً ، وكان سبب الرفض خوف المجلس أن يدركوا بذلك كثرة عددهم[٥٦] . وقدر جالينوس نسبة العبيد إلى الأحرار فى برجموم Pergamum حوالى سنة ١٧٠ م بواحد إلى ثلاثة أى ٢٥٪ ، وأكبر الظن أن نسبتهم فى المدن الأخرى لم تكن تختلف كثيراً عن هـذه النسبة[٥٦أ] . وكان ثمن العبد يختلف من ٣٣٠ سسترس يبتاع بها من يعمل فى الضياع ، إلى السبعمائة ألف (١٠٥,٠٠٠ ريال أمريكى) التى ابتاع بها ماركس أسكورس Marcus Scaurus دفنيس Daphnis النحوى[٥٧] . وكان متوسط ثمن العبد فى الوقت الذى نتحدث عنه ٤٠٠٠ سسترس (٤٠٠ ريال) ، وكان ثمانون فى المائة من العمال فى الصناعة وفى تجارة الأشتات من العبيد ، كما كانت معظم الأعمال اليدوية والكتابية فى المصالح

الحكومية يؤديها « عبيد عموميون » servi publici . أما عبيد المنازل فكانوا أنواعاً لا حصر لها ، كما كانت مراكزهم وأعمالهم كثيرة متنوعة : كانوا يقومون بخدمة سادتهم ، وكانوا صناعاً يدويين ، ومعلمين خصوصيين ، وطهاة ، وحلاقين ، وموسيقيين ، ونساخين وأمناء مكاتب ، وفنانين ، وأطباء ، وفلاسفة وخصياناً . وغلماناً حساناً أقل ما يقومون به من الأعمال أن يكونوا سقاة ، ومقعدين يسلون سادتهم بأجسامهم المشوهة . وكانت فى رومة سوق خاصة يستطيع الإنسان أن يبتاع فيها عبداً أعرج ، وأقطع الذراع ، أو ذا أعين ثلاث ، أو طويلا مفرطاً فى الطول ؛ أو قزماً أو خنثى[٥٨] ؛ وكان عبيد المنازل يضربون أحياناً وأحياناً يقتلون ؛ وقد قتل والد نيرون عبيده المحررين لأنهم أبوا أن يشربوا من الخمر القدر الذى يرغب فيه[٥٩] . ويصف سنكا فى فقرة له غاضبة « العذراء الخشبية وغيرها من آلات التعذيب ؛ والجب وغيره من السجون ؛ والنيران التى كانت توقد فى الحفر حول أجسام المساجين ؛ والخطاطيف التى كانت تجر بها جثثهم ؛ والأغلال الكثيرة الأنواع ، وضروب العقاب المختلفة ؛ واقتلاع الأعضاء وكى الجباه »[٥٩أ] . ويلوح أن هذه كلها كان يلقاها عبيد المزارع . ويصف چوڤنال سيدة كان عبيدها يضربون واحداً بعد واحد أثناء تصفيف شعرها[٦٠] ، ويصور أوڤد سيدة أخرى تدفع دبابيس الشعر فى ذراعى خادمة لها[٦١] ؛ ولكن هذه القصص يبدو عليها أنها من اختراع الأدباء ، ومن واجبنا ألا نعدها من الحقائق التاريخية المقطوع بصحتها .

ونحن معرضون لخطأ المبالغة فى قسوة الماضى لنفس السبب الذى يحملنا على المبالغة فى جرائم الحاضر وفساد أخلاقه — ذلك بأن ندرة القسوة تجعلها طريفة مستملحة . والحق أن متاعب عبيد البيوت أيام الإمبراطورية قد أخذت تقل شيئاً فشيئاً على أثر قبولهم أعضاء فى الأسر التى كانوا يخدمونها ، وبالإخلاص المتبادل بينهم وبين سادتهم ، وبالعادة الطريفة عادة أن يقوم

السيد بخدمة عبيده فى بعض الأعياد ، وبما كان يضمنه العبد من عمل دائم فى خدمة سيده قل أن يكون له نظير فى هذه الأيام . ولم يكن العبيد يحرمون من مسرات الحياة العائلية ؛ وتدل شواهد قبورهم على أنهم لم يكونوا يقلون رحمة وشفقة عن الأحرار . انظر مثلا إلى ما كتب على قبر واحد من أبنائهم : « لقد أقام والدا يوكوبيون Eucopion هذا الأثر لابنهما الذى عاش ستة أشهر وثلاثة أيام ؛ كان فيها أظرف الأطفال وأكثرهم إدخالا للسرور على قلوب من حولهم ؛ ولقد كان أكبر أسباب سعادتنا وإن لم يكن قادراً على الكلام »(٦٢) . وثمة شواهد أخرى تدل على ما كان بين السادة والعبيد من حب وعطف . من ذلك أن أحد الأسياد يجهر بأن خادمه الميت كان عزيزاً عليه كولده ، وأن أحد الشبان النبلاء يبدى حزنه الشديد على موت مربيته ، وأن مربية أخرى تظهر حزنها لموت طفل ترعاه ، وأن سيدة متعلمة أقامت نصباً تذكارياً جميلا لأمين مكتبتها (٦٣). وقد كتب استاتيوس Statius «قصيدة إلى فلافيوس أورسس Flavius Ursus يعزيه فى موت عبد عزيز عليه »(٦٤). ولم يكن من غير المعتاد أن يخاطر عبد بحياته لحماية سيده ؛ ومنهم كثيرون صاحبوا سادتهم فى منفاهم طائعين مختارين ، ومنهم من ضحوا بحياتهم من أجل سادتهم . ومن النساء من حررن عبيدهن وتزوجنهم ، ومن الرجال من كانوا يعاملونهم معاملة الأصدقاء ، وكان سنكا يأكل معهم(٦٥) . وقد كان للأخلاق الرقيقة ، والحس المرهف ، وعدم وجود فارق فى اللون بين السيد والعبد ، ولمبادئ الفلسفة الرواقية ، وللعقائد الدينية التى جاءت من بلاد الشرق والتى لم تكن تعرف الفروق بين الطبقات ، كان لهذه كلها نصيب فى تقليل الرق وتحسين حال الأرقاء ؛ ولكن العوامل الأساسية فى هذه القلة وذلك التحسين كانت هى المزايا الاقتصادية التى تعود على السيد ، وارتفاع ثمن العبيد . وكان كثيرون من العبيد ينالون احترام سادتهم لثقافتهم الراقية ، فقد كان منهم مختزلون لخطبهم ، ومساعدون لهم فى بحوثهم ، وأمناء لهم فى شئونهم المالية ،

ومدبرون لأعمالهم ، وكان منهم فنانون ، وأطباء ، ونحاة ، وفلاسفة . وكان فى مقدور العبد فى كثير من الأحوال أن يتجر لحسابه الخاص ، وأن يعطى جزءاً من مكاسبه لمالكه ، وأن يحتفظ بما بقى منها لتكون « ماله القليل Peculium » ، أى ملكا خالصاً له . وكان فى وسع العبد بهذه المكاسب ، أو بأمانته وإخلاصه فى خدمة سيده ، أو بالقيام له بخدمة غير عادية ، أو بجمال خلقه ، أن ينال حريته عادة فى ست سنين[٦٦] .

وقد تحسنت أحوال العمال وأحوال العبيد أنفسهم بعض التحسن بفضل منظمات العمال Collegia ونحن نسمع قبيل هذا الوقت الذى نتحدث عنه بوجود عدد كبير من هذه المنظمات وبتخصصها إلى حد يدعو إلى الفخر ، فكانت هناك هيئات خاصة بالمداحين ، والنافخين فى الأبواق ، والقرون ، والناى والمزمار ، وغيرها من الآلات ، وكانت هذه المنظمات تنشأ عادة على مثال الهيئات البلدية ، فكان يقوم عليها عدد من الرؤساء ذوى الرتب المتدرجة ؛ وكان لها إله واحد أوآلهة متعددون تقيم له أولهم معبداً وعيداً سنوياً . وكانت تعمل ما تعمله المدن فتطلب إلى ذوى المال أو ذواته رعايتها ، والأخذ بناصرها ، ومساعدة أعضائها فى رحلاتهم ، وإقامة قاعات اجتماعهم ومعابدهم . وكانوا يجدون هذه المساعدة على الدوام . ونحن نخطئ إذا ظننا أن هذه المنظمات كانت شبيهة باتحادات العمال فى هذه الأيام . وخير ما نصورها به هو أن نقول إنها كانت أشبه بالهيئات الأخوية ، ذات العدد الذى لا يحصى من المناصب ، وألقاب الشرف ، وضروب اللهو ، والرحلات ، والمعاونات المتبادلة البسيطة . وكثيراً ما كان الأغنياء يساعدون على قيام هذه المنظمات ولا ينسونها فى وصاياهم . وكان رجال المنظمة كلهم « إخوة » كما كان نساؤها « أخوات » . وكان فى مقدور العبد فى بعضها أن يجلس أمام مائدة الطعام ، أو فى مجلس إدارتها ، مع الرجل الحر . وكان كل « عضو ذى مقام » يضمن لنفسه جنازة طيبة .

وقد وجد الزعماء الشعبيون على اختلاف طبقاتهم فى آخر قرن من حياة الجمهورية أن فى وسعهم أن يقنعوا هذه المنظمات بأن يقترع أفرادها على بكرة أبيهم للمرشح الذى يقدم لها المال . وبهذه الطريقة أصبحت أدوات سياسية فى أيدى الأشراف ، وأصحاب المال ، والمتطرفين من السياسيين ، وكان لتنافسها فى الفساد أكبر الأثر فى القضاء على الدمقراطية الرومانية . وقد حرم قيصر وجودها ولكنها بقيت رغم هذا التحريم ، وحلها أغسطس كلها إلا عدداً قليلا من المنظمات النافعة ، وعاد تراچان فحرم وجودها ، ثم سمح أورليوس بوجودها ، وما من شك فى أنها ظلت قائمة طوال هذه العهود كلها داخل نطاق القانون أو خارجة عنه ، ثم أمست فى آخر الأمر مسالك دخلت منها المسيحية إلى البلاد وتغلغلت فى حياة رومة .

الفصل الثامن

النظام الاقتصادى والدولة

ترى إلى أى حد حاولت الحكومة فى عهد الإمبراطورية أن تسيطر على الحياة الاقتصادية ؟ لقد حاولت أن تعيد ملكية الأرض إلى الفلاحين ، ولكنها عجزت عن ذلك إلى حد كبير . ولقد كان الأباطرة فى هذه الناحية أكثر استنارة من مجلس الشيوخ لأن هذا المجلس كان خاضعاً لسيطرة أصحاب الضياع الكبيرة . وأراد دومثيان أن يشجع زراعة الحبوب فى إيطاليا ولكنه لم يفلح فيما كان يرمى إليه ، ولهذا كانت إيطاليا على الدوام تخشى الهلاك جوعاً . وأرغم فسپازيان مجلس الشيوخ على أن يرضى به إمبراطوراً بسيطرته على مصر وكانت وقتئذ مصدر القمح الذى تحتاجه إيطاليا ، وأراد سپتميوس أن يحذو حذوه باستيلائه على شمالى أفريقية . وكان على الدولة أن تضمن استيراد الحبوب إلى إيطاليا وتوزيعها . وقد اضطرها هذا إلى أن تشرف بنفسها على الاستيراد والتوزيع . وكانت تمنح بعض الامتيازات للتجار الذين يستوردون الحبوب إلى إيطاليا وقد ضمن لهم كلوديوس أن يعوضهم مما عساهم أن يتعرضوا له من الخسارة ؛ وأعفى نيرون سفنهم من ضريبة الأملاك ، وكان تأخر سفن أسطول الحبوب عن الوصول فى موعدها أو تحطمها هو السبب الوحيد الذى يدفع الشعب الرومانى إلى شق عصا الطاعة .

وكانت السياسة الاقتصادية الرومانية تسير على مبدأ التخلى Laissez faire مع استثناء امتلاك الدولة للمناجم ومقالع الأحجار ، ومصايد السمك ، ورواسب الملح ، ومساحات واسعة من الأراضى المزرعة[٦٨] . وكانت الفيالق الرومانية تصنع الآجر والقرميد اللازمين لمبانيها ، وكثيراً ما كانا

يستعملان فى المنشآت العامة وخاصة فى المستعمرات ، والراجح أن صناعة الأسلحة وعدد الحرب كانت وقفاً على دور الصناعة التى تمتلكها الدولة ، وليس ببعيد أنه قد وجدت فى القرن الأول مصانع تمتلكها الحكومة كالتى نسمع عنها فى القرن الثالث[٦٩] . وكانت الأعمال العامة تعطى فى العادة للمقاولين تراقبهم الحكومة مراقبة بلغت من الدقة حداً اضطرهم إلى القيام بها عادة على الوجه الأكمل ، وبأقل ما يستطاع من الارتشاء والفساد[٧٠] . ثم أصبحت هـــذه الأعمال حوالى سنة ٨٠ م يقوم بعدد متزايد منها المحررون من عبيد الإمبراطور ، ويعمل فيها عبيد الحكومة ، ويلوح أن الغرض الوحيد من إقامة هذه المشروعات فى جميع الأوقات هو تخفيف حدة التعطل[٧١] .

وكانت تفرض على التجارة ضريبة يسيرة مقدارها ١٪ من ثمن المبيعات ، ورسوم جركية قليلة ، وعوائد فى بعض الأحيان على مرور البضائع فوق الجسور واجتيازها المدن . وكان الإيدليون Aediles يراقبون تجارة الأشتات وفق نظام بلغ الغاية فى الجودة ، ولكننا إذا جاز لنا أن نصدق ما ورد على لسان شخص حانق فى بترونيوس فإنهم لم يكونوا خيراً من أمثالهم من الموظفين فى غير ذلك الوقت ؛ « فقد كانوا يقبلون الرشوة من الخبازين وأمثالهم من السفلة ... وأفواه الرأسماليين مفتوحة على الدوام »[٧٢] وكانت الشئون المالية تتأثر بتدخل الحكومة فى قيمة العملة ، وبمنافسة مالية الدولة للمصارف ، ويلوح أن بيت المال كان يضطلع بأكثر الأعمال المصرفية فى الإمبراطورية بأجمعها . فكان يقرض المال بالربا للزراع بضمان محصولاتهم ولسكان المدن بضمان أثاث بيوتهم[٧٣] . وكانت الحروب عوناً للتجارة لأنها كانت تفتح لها موارد وأسواقاً جديدة وسيطرة على الطرق التجارية . من ذلك أن حملة جالس Gallus على بلاد العرب فتحت الطريق إلى بلاد الهند وتغلبت على منافسة العرب والبارثيين . وكان بلنى

يشكو أن الحروب تشن كي تجد السيدات الرومانيات ويجد الغنادرة(*) من الشبان مجالا واسعاً للحصول على القصور(٧٤).

ويجب ألا نبالغ في تقدير ثروة رومة القديمة ، ذلك أن مجموع إيرادات الدولة في أيام فسبازيان لم تزد على ١٫٥٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سسترس (١٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكي) ... وهي أقل من خمس ميزانية مدينة نيويورك اليوم. ولم تكن الوسائل التي تمكن الناس من جمع ثروات طائلة بطريق الإنتاج الكبير معروفة في ذلك الوقت أو أنها لم تكن يعني بها ، ولم تكن قد نشأت وقتئذ صناعة العالم الحديث وتجارته اللتان يمكن أن تفرض عليهما الضرائب العالية . ولم تكن الحكومة الرومانية تنفق على الأسطول الحربي إلا القليل من المال ، ولم تكن تنفق شيئاً على خدمة الدين العام ، فقد كانت تعيش على مواردها لا على ديونها وإذ كانت معظم الصناعات منزلية فإن منتجاتها كانت تنتقل إلى المستهلك دون أن يعترضها من الوسطاء والضرائب ما يعترضها في هذه الأيام ، فقد كان الناس ينتجون للبيئة التي يعيشون فيها أكثر مما ينتجون للسوق العامة ، وكانوا يعملون لأنفسهم أكثر مما نعمل اليوم ، ولغيرهم ممن لا يرونهم أقل مما نعمل نحن . وكانوا يستخدمون أجسامهم أكثر منا ، ويعملون زمناً أطول منا ، وكانوا في عملهم أقل منا حدة وانكباباً على العمل ، ولم يكونوا يشعرون بأنهم محرومون من آلاف الكماليات التي لا تتراءى لهم أحلامهم ، ولم يكن في مقدورهم أن يشرعوا في اقتناء الثروة التي تضارع ثروتنا نحن حتى في السنين العجاف ؛ ولكنهم كانوا يستمتعون بقدر من الرخاء لم تعرف أمم البحر الأبيض المتوسط نظيراً له من قبل ونستطيع أن نقول بوجه عام إنها لم تر ما يماثله بعد . وملاك القول أن العالم القديم وصل في تلك الأيام إلى أعلى درجات عظمته المادية .

(*) الغلام المفتر كجندب وقنفذ سمين غليظ نام وهو الذي يطلق عليه عامة الناس لفظ « غندور » . (المترجم)

الباب السادس عشر

روما وفنونها

٣٠ ق . م – ٩٦ م

الفصل الأول

ما تدين به لليونان

لم يكن الرومان بطبعهم شعباً فنياً ، فقد كانوا قبل أغسطس محاربين وكانوا بعده حكاماً ، يرون أن استقرار النظام واستتباب الأمن على أيدى الحكام خير أعظم وواجب أنبل من خلق الجمال أو الاستمتاع به . وكانوا يبتاعون أعمال الأساتذة الموتى بأعلى الأثمان ، ولكنهم كانوا يحتقرون الفنانين الأحياء ويحشرونهم فى زمرة الخدم . ومن أقوال سنكا وهو الرجل الرحيم الشفيق : « إنا وإن كنا نعبد التماثيل لنحتقر الذين يصنعونها » ، وكان يبدو لهم أن أشرف سبل الحياة سبيل القانون والسياسة ؛ أما الفنون اليدوية فكان أشرفها لديهم الزراعة (إذا صح أن تعد الزراعة فناً من الفنون) . وكان معظم رجال الفن فى رومة ، إذا استثنينا المهندسين المعماريين ، من اليونان الأرقاء أو المحررين أو المستأجرين ، وكانوا كلهم يعملون بأيديهم ويعدون من طبقة الصناع ، ولم يعن المؤلفون اللاتين قط بذكر أسمائهم أو حوادث حياتهم ؛ ومن أجل هذا يكاد رجال الفن الرومانى كلهم أن يكونوا مجهولى الأسماء ، فليس ثمة شخصيات حية تصبغ تاريخه صبغة إنسانية أو تضيئها كما يضيء ميرون Myron ، وفدياس ،

وبركستيلز Praxiteles ، وبرونوچنيس Protogenes قصة الفنون الجميلة فى بلاد اليونان . ففيه يضطر المؤرخ إلى الحديث عن الأشياء لا عن الأشخاص وأن يحصى النقود ، والآنية ، والتماثيل ، والنقوش ، والصور ، والمبانى ، ويبذل فى ذلك جهد اليائس لعله يستطيع بما يبذله من الكد فى جمعها أن يصور للقارئ صورة عظمة رومة المليئة بأسباب العظمة . ذلك أن منتجات الفن تستهوى العين أو الأذن ، أو اليد ، أكثر مما تستهوى العقل ، ويذهب ، جمالها أو يكاد إذا خفقته فأحلته أفكاراً وألفاظاً . وليس عالم التفكير إلا واحداً من عوالم كثيرة لكل فكرة عالمها الخاص ، ومن أجل هذا كان لكل فن وسيلته الخاصة التى ينفذ بها إلى النفوس ، والتى لا يمكن أن تستحيل ألفاظاً وكلاما ، وحتى الفنان نفسه إذا كتب عن الفن فإنه يعجز عن تصويره .

وثمة سحابة قاتمة مشئومة تغشى سماء الفن الرومانى خاصة : تلك هى أننا نصل إليه عن طريق الفن اليونانى الذى يبدو فى أول الأمر أنه المثل الذى احتذاه ، والمرشد الذى اهتدى بهديه . وكما أن مشاعرنا تضطرب لما نشاهده فى فن الهند من صور وأشكال غريبة ، فكذلك تخمد جذوة عواطفنا لما فى الفن الرومانى من تكرار ممل للصور والأشكال المألوفة ، ولقد تحدثنا من قبل عن الأعمدة والتيجان الدُّورية والأيونية والكورنثية ، كما تحدثنا عن النقوش الملساء التى اتخذت مثلا أعلى يحتذى ؛ وقد كانت التماثيل النصفية للشعراء والحكام والآلهة ، والمظلات المدهشة التى تكشف عنها آثار بمبى منقولة كما يقول لنا المختصون عن أصول يونانية . ولم يكن هنالك فن رومانى الأصل سوى الطراز « المركب » ، وهو الذى تنفر منه لتعارضه مع فكرتنا عن الوحدة والبساطة والتقيد التى ألفناها فى الفن القديم . وما من شك فى أن فن رومة فى عصر أغسطس كان فناً يونانياً بقضه وقضيضه ، فقد انتقلت أشكال الجمال وطرائقه ومثله العليا من بلاد اليونان إلى الفن الرومانى عن طريق صقلية وإيطاليا اليونانية ، وعن طريق كمپانيا وإتروريا

وأخيراً من بلاد اليونان نفسها والإسكندرية والشرق المصطبغ بالصبغة اليونانية ؛ ولما أن أصبحت رومة سيدة بلاد البحر الأبيض المتوسط أقبل الفنانون اليونان إلى مركز الثروة والرعاية الجديد وأخرجوا صوراً لا حصر لها من روائع الفن اليوناني للهياكل والقصور والميادين الرومانية ، وكان كل فاتح يحمل معه إلى بلاده نماذج من هذه الروائع ، وكل موظف كبير ينقب في المدائن عما كان باقياً فيها من كنوز الصناعة اليونانية ؛ حتى أصبحت إيطاليا على مر الأيام متحفاً للرسوم والتماثيل المشتراة أو المسروقة التي صارت النسق الذي يحتذيه الفن الروماني مدى قرن كامل . وقصارى القول أن رومة قد ابتلعها العالم المتأغرق من الناحية الفنية .

على أن هذا كله ليس إلا نصف الحقيقة . أما النصف الآخر فهو أن تاريخ الفن الروماني ، كما سنرى فيما بعد ، كان من ناحية نزاعاً بين العقود والعوارض المركبة على الأعمدة ، ومن الناحية الأخرى نزاعاً بين الفن الواقعي الإيطالي الأصل الذي يحاول أن يسترد ما فقده لما أن غزا شبه الجزيرة الفن اليوناني الذي كان يصور الآلهة لا الناس ، وبين الطراز الأفلاطوني والفكرة الأفلاطونية المجردة لا الفرد الأرضي الدنيوي الذي كان يسعى إلى تمثيل الكمال النبيل في الشكل بدل الحقيقة في الإدراك والقول . لقد أصابت الفن الروماني القوي الأصيل الذي أعان على نحت الصور على القبور التسكانية سنة من النوم بين فتح بلاد اليونان وافتتان نيرون بفنونها ؛ ولكنه في آخر الأمر حطم القالب اليوناني الصبغة وأحدث في الفن القديم انقلاباً كاملا بما أدخله فيه من النحت الواقعي ، والتصوير التأثري وهندسة العقود والقباء . وأضحت رومة بفضل هذه الخصائص ، وبفضل جمالها المستعار ، العاصمة الفنية للعالم الغربي ، وظلت كذلك ثمانية عشر قرناً من الزمان .

الفصل الثاني

روما الكادحة

كان الرحالة القديم ، الذى يطوف برومة فى عهد الأسرة الفلافية ، إذا سار صعداً فى نهر التيبر من أستيا متجهاً إلى الشمال ، يشاهد من بادئ الأمر سرعة التيار المحمل بالغرين الذى يأتى به من التلال والوديان ويلقيه فى البحر . وهذه الحقيقة البسيطة هى منشأ مأساة التحات البطيئة ، والصعاب التى تعترض التجارة الصاعدة فى النهر والمنحدرة فيه ، وانطمار فم التيبر من حين إلى حين ، والفيضانات التى كانت فى كل ربيع تقريباً تطغى على أرض رومة المستوية ، وتقصر المساكن على الطبقات العليا التى يصل إليها ساكنوها بالقوارب ، وتتلف الحبوب المخزونة فى الأهراء على أرصفة الميناء ، فإذا انحسرت المياه جرفت معها المنازل ودمرتها وأهلكت الحرث والنسل[٢] .

فإذا اقترب الزائر من المدينة استرعى نظره الحى التجارى الذى كان يمتد مدى ألف قدم محاذياً ضفة النهر الشرقية ، وكان يعج بضجيج العمال والحوانيت والأسواق والسلع الرائحة والغادية . وكان يقوم من ورائه التل الأفنتى Aventine الذى « استقر عليه » العامة الغضاب حين غادروا رومة مضربين فى عامى ٤٩٤ و ٤٤٩ ق . م . وعلى ضفة النهر اليسرى فى هذه البقعة كانت الحدائق التى أوصى بها قيصر للشعب ، ومن ورائها الجانكيولم Janiculum . وكان بالقرب من الضفة الشرقية عند جسر إيماليوس الجميل سوق الماشية ومعبداه (القائمان إلى هذا الوقت) المقامان للحظ ولإلهة الفجر . وإلى شمال هذه السوق على الضفة اليمنى يظهر تل پلتين وتل كپتلين المليئان بالقصور والهياكل . وقامت على الضفة اليسرى حدائق أجرپا ومن

ورائها تل الڤاتكان ، وإلى شمال وسط المدينة بالقرب من الشاطئ البحر الشرقى كانت تمتد الخمائل الواسعة والمبانى الفخمة الجميلة التى يزدان بها ميدان المريخ حيث أقيم ملهى بلبس ، وملهى بمبى ، وحلبة فلامينوس ، وحمامات أجربا ، وملعب دومتيان . وهنا كانت الفيالق تتدرب على الحركات العسكرية ، ويتبارى المتبارون فى الألعاب الرياضية ، وتستبق المركبات ، ويلعب اللاعبون الكرة[٣] ، وتعقد الجمعية جلساتها برياسة الأباطرة لتبحث القرارات التى يتمخض عنها شبح الدمقراطية .

فإذا نزل الزائر إلى المدينة عند طرفها الشمالى أبصر بقايا السور الذى يعزى إلى سرفيوس تليوس ، وأكبر الظن أن رومة قد أعادت بناءه بعد أن أغار الغاليون عليها فى عام ٣٩٠ ق . م ، ولكن الرومان تركوا هذا السور يتهدم اعتماداً على قوة الجيوش الرومانية وعلى مناعة العاصمة . ولم يشيد سور آخر إلا فى عهد أورليان (سنة ٢٧٠ م) ، فكان ذلك دليلا على ذهاب هذه المنعة . وكانت قد فتحت فى الجدار أبواب ذات أقواس مفردة أو ثلاثية لتنفذ منها الطرق الكبرى التى سميت بأسمائها . وإذا طاف الزائر بجدود المدينة من شرقيها إلى جنوبيها شاهد حدائق سالست الغناء ، ومعسكر الحرس البريتورى المتعب ، وعقود مجارى الماء التى أقامها مارسيوس وأپيوس وكلوديوس ، وأبصر عن يمينه التلال الپنسيانية والكويريتالية ، والڤيمينالية ، والاسكويلينية ، والكثيلية يتلو بعضها بعضاً . فإذا ما ابتعد عن الأسوار واتجه نحو الشمال الغربى عن طريق أپيوس اجتاز باب كاپينا ومر بالسفح الجنوبى من تل پلاتين إلى الشارع الجديد Nova Via ، ثم اتجه بعدئذ شمالا مجتازاً متاهة من العقود والمبانى حتى يصل إلى السوق القديمة رأس رومة المفكر وقلبها النابض .

وكانت هذه السوق فى بادئ الأمر سوقاً حقة للبيع والشراء ، طولها ستمائة قدم ، وعرضها مئتان ؛ أما فى الوقت الذى نتحدث عنه (٩٦م) فكان البائعون قد غادروها إلى الشوارع القريبة منها أو إلى غيرها من الأسواق ، ولكن الناس

كانوا فى الباسلقات(*) المجاورة يبيعون الأسهم فى اتحادات الحمارين ، ويتعاقدون مع الحكومة ، ويدافعون عن أنفسهم فى المحاكم ، أو يستشيرون المحامين ليرشدوهم إلى أهون السبل للفرار من القانون .

وكانت قد أقيمت حول السوق، كما أقيمت حول وول استريت Wall Street فى نيويورك الحديثة ، هياكل متواضعة للآلهة ، وصروح كبيرة للأعمال المالية ، وازدانت بعدد كبير من التماثيل . وكان المارة يجدون من ظلال العمد المقامة فى العمائر العظيمة ما لا يجدونه من ظلال الأشجار القديمة . وظلت من عام ١٤٥ ق . م إلى أيام قيصر مكان انعقاد الجمعيات ، فكان فى كل طرف من طرفيها منصة للخطباء تسمى المنطح لأن واحداً منها قد زين من قبل بمناطح السفن التى استولى عليها الرومان فى أنتيوم عام ٣٣٨ ق . م . وكان عند طرفها الغربى « الحجر الذهبى » وهو عمود من البرنز المذهب أقامه أغسطس علامة على التقاء عدة طرق قنصلية وعلى بدايتها ، وقد نقشت عليه أسماء المدن الكبرى التى توصل إليها هذه الطرق ، وبعد كل منها عن رومة . وكان يسير بحذاء جانبه الشمالى الغربى الطريق المقدس Sacra Via الموصل إلى هيكل المشترى وهيكل زحل على تل الكبتول . وإلى شمال هذه السوق يجد الزائر سوقاً أخرى أكبر منها وهى سوق لوليوم Lulium التى أنشأها قيصر ليخفف بها الضغط الواقع على السوق القديمة؛ وكان بالقرب منها أسواق ثانوية أنشئت لأجل أغسطس وفسبازيان ، ثم عمد تراجان بعد قليل من الوقت إلى توسيع أكبر هذه الأسواق وتزيينها .

ولم يكن يسع السائح حتى فى هذا التجوال السريع إلا أن يحس بما بين أهل المدينة من فوارق جمة ، وبأن كثيراً من الأجناس المختلفة قد حشرت فيها حشراً

---

(١) الباسلقا بناء رومانى يتكون من بهو واسع مستطيل الشكل ذى صفين من العمد وسقف مقبب كان يستخدم فى الأغراض القضائية والتجارية ، وقد استحالت معظم الباسلقات فيما بعد كنائس مسيحية . (المترجم)

وأن شوارعها قد شقت فيها على غير نظام موضوع ، ولذلك كانت عاجزة عن الوفاء بأغراض السكان عجزاً يضايقهم ويسبب لهم أشد المتاعب والآلام . لقد كان عدد قليل من هذه الشوارع يختلف عرضه بين ست عشرة وتسع عشرة قدماً ، أما كثرتها فكانت أزقة ملتوية من الطراز الشرق . ويشكو جوڤنال من أن عربات النقل التي تعج بها الشوارع المرصوفة أثناء الليل تجعل النوم مستحيلا ، وأن الجماهير التي تزدحم بها طرقات المدينة تجعل السير فيها بالنهار أشبه الأشياء بالحرب والكفاح ؛ « فمهما أسرعنا سد علينا الطريق جيش لجب من أمامنا ، وكتل بشرية كثيفة تدفعنا دفعاً من خلفنا ، فنهم من يضربنى بمرفقه ، ومنهم من يدفعنى بعمود هودج ، هذا يسقط على أم رأسى كتلة خشبية ، وذاك قارورة خمر ؛ ورجلاى يغطيهما الوحل ، وتطؤنى أرجل ضخمة مقبلة من جميع الجهات . وهذا جندى يطأ أصابع قدمى بمسامير حذائه »[4] . وكانت الشوارع الرئيسية فى المدينة مرصوفة بكتل من الحمم البركانية خماسية الأضلاع مثبتة فى الأرض بقوة أمكنتها من البقاء فى مكانها إلى اليوم . ولم تكن الشوارع تضاء ، ولذلك كان كل من يجرؤ على الخروج من منزله ليلا يحمل بيده مصباحاً أو يسير خلف عبد يحمل مشعلا ، ولم يكن فى كلتا الحالين بمأمن من اللصوص ، وما كان أكثر عددهم فى طرقات المدينة المظلمة . وكانت الأبواب تغلق بالأقفال والمفاتيح ، والنوافذ تشد بالمزالج ليلا ، وما كان منها فى الطابق الأرضى تحميه قضبان من الحديد كالتى تشاهد فى أمثالها من نوافذ هذه الأيام . ويضيف جوڤنال إلى هذه الأخطار ما كان يلقى على المارة من السوائل والجوامد من نوافذ الطبقات العليا ، ويختم حديثه بقوله إن الأبله وحده هو الذى كان يخرج من بيته للعشاء دون أن يكتب وصيته[5] .

ولم يكن بالمدينة مركبات عامة تنقل العمال من مساكنهم إلى مقر أعمالهم ، ومن أجل ذلك كان معظم السوقة يقيمون فى مساكن عامة من الآجر بالقرب من

وسط المدينة أو فى حجرات خلف حوانيتهم أو فى أعلاها . وكان كل مسكن عام يشغل فى العادة مربعاً كاملا من الأرض ، ولذلك كان يطلق عليه لفظ إنسولا Insula أو جزيرة . وكان الكثير من هذه المبانى يعلو ستة طباق أو سبعة ، وكانت ضعيفة البناء ضعفاً جعل الكثير منها ينهار على من فيه ويقضى على حياة مئات منهم . وقد حدد أغسطس ارتفاع واجهات المبانى بسبعين قدماً رومانية ، ولكن يبدو أن هذا القانون كان يسمح بارتفاع الأجزاء الخلفية منها إلى أكثر من هذا القدر لأن مارتيال يحدثنا عن « بائس مسكين يسكن حجرة عليا يرتقى إليها بمائتى درج »[٦] . وكان فى الطبقات السفلى لكثير من المساكن حوانيت ، وكان لبعضها شرفات فى الطبقة الثانية وكان قليل منها يصلها من أعلاها بالمساكن المقابلة لها فى الشارع ممرات ذات عقود تحتوى حجرات إضافية يتخذها بعض العامة منازل لهم غير مأمونة . وكانت هذه الجزائر تكاد تغص بها الطريق الجديدة النوڤاڤيا Novavia ، والكليڤس ڤكتوريا Clives Victoriae (تل النصر) ، فى أعلى تل البلاتين ، وحى الصابورا وهو حى صاخب ملىء بالمواخير بين الڤمنال Viminal والإسكويلين Esquiline حيث كان يسكن صيادو الأسواق وقصابو مسيلوم Macellum وبائعو السمك من رجال سوق السماكين ، وبائعو الماشية أهل سوق البقر ، وبائعو الخضر ، أهل سوق الخضر ، وجميع عمال رومة وكتبتها وأهل الحرف فيها . وكانت أحياء رومة الفقيرة تمتد إلى أطراف السوق العامة الكبرى .

وكانت الحوانيت تقوم على جانبى هذه السوق ، وكانت تتردد فيها أصداء ضجيج العمال وبلجاجة المساومين . وكان بائعو الفاكهة ، والكتب ، والعطور ، والطحانون ، والصباغون ، وتجار الزهور والآلات الحادة والأقفال ، والصيادلة ، وغيرهم ممن يقضون حاجات الناس وشهواتهم وأسباب غرورهم وكبريائهم ؛ كان هؤلاء جميعاً يزحمون الشوارع بمظلاتهم وأكواخهم الممتدة فيها ؛ وكان

الحلاقون يمارسون مهنتهم فى الهواء الطلق حيث يستطيع الناس جميعاً أن يستمعوا لثرثرتهم . وبلغت حانات الخمر من الكثرة درجة خيل معها إلى مارتيال أن رومة حجرة استقبال واحدة ضخمة[٧] . وكان أهل كل حرفة ينزعون إلى التجمع فى حى أو شارع واحد وكثيراً ما كان يطلق اسم هذه الحرفة على الحى أو الشارع الذى تستقر فيه . فكان صناع الأحذية ذات السيور (الصنادل) يتجمعون فى الفيكس سندلريوس Vicus Sandalarius ، وصناع السروج فى الفيكس لوراريوس Vicus Lolarius ، وصناع الزجاج فى الفيكس ڤتراريوس Vicus Vitrarius ، والصياغ فى الفيكس مرجرتريوس Vicus Margaritarius

وفى هذه الحوانيت وأمثالها كان الفنانون الطليان يقومون بأعمالهم لا يستثنى منهم أحد إلا أعظمهم شأناً ممن كانوا يؤجرون على أعمالهم أسخى الأجور ، ويحيون حياة الترف والتجوال أمثال أرسسلوس Arcesilaus الذى منحه لوكلس مليون سسترس لكى يصنع تمثالا للإلهة پلستاس Pelicitas ، وزنڈورس Zenordorus الذى أعطى ٤٠٠ر٠٠٠ ليقيم تمثالا ضخماً لعطارد[٨] . وكان المهندسون المعماريون والمثالون يقدرون كما يقدر الأطباء والمدرسون ، والكيائيون لأنهم جميعاً يمارسون فنون الأحرار Artes liberales ؛ مع أن الذين يقومون بمعظم الأعمال الفنية فى رومة كانوا إما عبيداً أو محررين ، وكان بعض من يملكون العبيد يعلمونهم النحت والتصوير وغيرهما من الفنون التى تتطلب الحذق ، وكانوا يبيعون ما يخرجونه لهم فى إيطاليا وفى خارجها . وكان العمال فى هذه الحوانيت منقسمين أقساماً متباينة كل التباين ومنفصلة بعضها عن بعض ، فمنهم الإخصائيون فى صنع آنية النذور ، ومنهم من يصنعون مظلات الزينة ، ومنهم من يقطعون الأعين الزجاجية للتماثيل ، ومن الرسامين من كان يصنع النقوش على الطراز العربى أو الأزهار أو المناظر الطبيعية ، أو الحيوانات ، أو الرجال ، وكان يحدث أن يعمل عدد من هؤلاء بالتناوب فى الصورة الواحدة . وقد برع جماعة من الفنانين

فى تزييف التحف الفنية ، فكانوا يقلدون ما صنع منها فى عصر من العصور القديمة التى يرغب الناس فى اقتناء مخلفاتها[٩] . وكان أهل القرن الأول قبل الميلاد يخدعون بسهولة فى هذه المخلفات ، لأنهم كغيرهم من الأغنياء المحدثين يميلون إلى تقويم الأشياء حسب أثمانها وندرتها ، بدل أن يقوموها حسب جمالها ومنافعها . ولما أضحى الثراء من غير المميزات فى عهد الإمبراطورية صلحت أذواق الناس وجاء حب الجمال والجودة الحقة إلى آلاف عدة من الأسر بالآنية الرقيقة والتحف الجميلة التى لم يعرف أمثالها فى مصر وأرض الجزيرة واليونان إلا عدد قليل من الناس . وكان شأن الفن فى الزمن القديم كشأن المنتجات الصناعية فى هذه الأيام . نعم إن الناس لم يكونوا ينعمون بالمنتجات الكثيرة النافعة التى تخرجها آلاتنا فى هذه الأيام ، ولكنهم كان فى وسعهم ، إذا شاءوا أن يحيطوا أنفسهم شيئاً فشيئاً بالتحف التى عنى الفنانون أشد العناية بصنعها وصقلها ، والتى كانت تهب من يقتنيها كل ما تهبه الروائع الفنية الجميلة من أسباب السعادة الخفية الهادئة .

الفصل الثالث

بيوت العظماء

لو أن زائراً فى ذلك الوقت أراد أن يدرس مساكن الطبقة الوسطى من سكان رومة لوجدها بعيدة عن وسط المدينة على جانبى الطرق الرئيسية المتفرعة منه إلى أطرافها . وكانت جدرانها الخارجية المقامة من الآجر والجبس لا تزال تبنى كما كانت تبنى قبل على النمط البسيط المتين الذى تحتمه ضرورات الأمن وحرارة الجو ؛ ولم يكن أهل الطبقة الوسطى من الرومان أسخياء بما عندهم من الفن يضيعونه لكى يتمتع به من يمرون ببيوتهم . وقلما كانت البيوت تعلو أكثر من طابقين ، وكانت السراديب التى تتخذ لخزن المؤن نادرة ، والسقوف تتلألأ عليها قطع القرميد ، والنوافذ ذات مصاريع أو ألواح من الزجاج فى بعض الأحيان . وكان لمدخل الدار فى العادة باب ذو مصراعين يدور كل منهما على عقبين من المعدن . وكانت أرض الدار تصنع من مزيج متماسك من الكلس والحصا والرمل أو من القرميد ؛ وكثيراً ما كانت تصنع من مربعات الفسيفساء ، ولم تكن تفرش عليها طنافس . وكانت الحجرات الرئيسية فى البيت تتجمع حول الردهة الوسطى . وهذا النظام هو الأصل الذى نشأت منه هندسة الأديرة والساحات المربعة المحاطة بالأبنية فى مقر المجامع العلمية . وكانت إحدى الحجرات فى بيوت الأغنياء من أهل هذه الطبقة تستخدم للاستحمام ، وذلك فى أحواض شبيهة كل الشبه بما نستخدمه منها الآن . أما الأدوات الصحية فقد بلغت عند الرومان درجة من الرقى لا نظير لها قبل القرن العشرين . فقد كانت أنابيب من الرصاص تحمل الماء من القنوات المائية المبنية ومن الأحواض الرئيسية إلى معظم المبانى والمساكن ، وكانت الصنابير والمحابس تصنع من البرنز ويشكل بعضها أشكالا

جميلة : وكانت الأنابيب والميازيب المتخذة من الرصاص تحمل الماء من أسطح المبانى ؛ وقلما كانت الحجرات تدفأ تدفئة صناعية ، فإذا أرادوا تدفئتها اتخذوا لذلك مواقد متنقلة يحرقون فيها فحم الخشب . وكان عدد قليل من البيوت ، وكثير من منازل الضواحى ذات الحدائق ، وقصور الأغنياء والحمامات العامة ، كانت هذه كلها تستمتع بمراكز رئيسية للتدفئة ذات أفران يحرق فيها الخشب أو فحمه ، وتمد عدداً كبيراً من الحجرات بالهواء الساخن يسير فى أنابيب من القرميد أو فى ممرات فى أرض المنزل وجدرانه(*) .

ثم أضيفت إلى بيوت الأغنياء فى أوائل عهد الإمبراطورية متعة جديدة مأخوذة عن اليونان . ذلك أن الأغنياء لحرصهم على أن يهيئوا لأنفسهم مكاناً منعزلاً لا يجدونه فى الردهة الوسطى كانوا يبنون خلفها بهواً من غير سقف يغرسون فيه الأزهار والشجيرات ، ويزينونه بالتماثيل ، ويحيطونه بالأروقة ذات العمد ، وينشئون فى وسطه فسقية أو بركة للاستحمام . وكانوا يشيدون حول هذا البهو طائفة جديدة من الحجرات : واحدة للطعام ، و « بيتاً » للنساء ، ومتحفاً لمجموعاتهم الفنية ، ومكتبة لكتبهم ، وهيكلا لآلهة بيوتهم . وقد يكون لهم أيضاً حجرات إضافية للنوم ، وقباب صغيرة بارزة فى الحجرات تتخذ أيضاً مخادع فى الليل وترفع منها الأسرة بالنهار . وأما البيوت التى لا يبلغ أصحابها من الثراء مبلغ أصحاب البيوت السابقة فكانوا يستبدلون بذلك البهو الكبير حديقة ، وإذا لم يجدوا فيها متسعاً لها وضعوا أصص الأزهار فى النوافذ ، أو غرسوا الأزهار والشجيرات على أسطح الدور . ويقول سنكا إن بعض الأسطح الكبيرة كان فوقها عرائش كروم وأشجار فاكهة ، وأشجار للظل مغروسة

(*) ويصف فتروفيوس Vitruvius هذه الوسيلة من وسائل التدفئة كما كانت فى عام ١٠٠ ق . م[١١] . ولم يكد يحل العام العاشر بعد الميلاد حتى انتشرت انتشاراً واسعاً وخاصة فى الشمال حتى وصلت إلى بريطانيا نفسها وها هى ذى الآن قد أخذت تعود عوداً بطيئاً .

فى صناديق ملأى بالطين[١٢] . وكان لعدد غير قليل منها مشامس يعرض فيها أصحابها أجسامهم لأشعة الشمس .

ومن الرومان عدد كبير سئموا حياة الضجيج والسرعة فى رومة ففروا منها إلى هدوء الريف وسكونه . وقد نشأ عند الأغنياء والفقراء على السواء ميل شديد إلى الطبيعة يفوق كل ما عرفناه عن هذا الميل عند اليونان . وكان چوڤنال يرى أن الأحمق وحده هو الذى يسكن فى العاصمة ، وفى وسعه أن يبتاع بالأجر الذى يؤديه فى علية مظلمة فى رومة ، بيتاً جميلا فى بلدة إيطالية هادئة ، وتحيط به « حديقة أنيقة خليقة بأن يقيم فيها مأدبة لمائة من أتباع فيثاغورس »[١٣] . وكان أغنياء رومة يتركونها فى بداية الصيف ليقيموا فى بيوت خلوية على سفوح الأپنين أو على سواحل البحر أو البحيرات . وقد ترك لنا پلنى الأصغر وصفاً ممتعاً لبيته الريفى فى لورنتم على ساحل لاتيوم . ويقول عنه إنه من السعة بالقدر الذى يستريح له ، وإن نفقاته لا ترهقه ؛ ولكنه بعد أن يستمر فى وصفه يخيل إلينا أن فى هذا الوصف شيئاً من التواضع ، فهو يحدثنا فيه عن مدخل من فوقه نوافذ زجاجية وتعلوه طنف . . . وبه حجرة جميلة للطعام تعانقها آخر أمواج البحر عناقاً خفيفاً ، وتضيؤها نوافذ واسعة تطل على البحر من ثلاث جهات فتحسبه ثلاثة أبحر مختلفة ، وبه ردهة كبرى « يمتد بصر من فيها إلى الغابات والجبال » ، وحجرتا استقبال ومكتبة على شكل نصف دائرة تستقبل نوافذها الشمس طول النهار » ، وحجرة للنوم وعدة حجرات للخدم . وكان للبيت جناح منفصل عنه يحتوى « حجرة استقبال ظريفة » ، وحجرة أخرى للطعام وأربع حجرات صغيرة ، وحماماً ، وتوابعه وتشمل « حجرة جميلة لخلع الملابس » ، وحماماً بارداً ، وحماما فاتراً به ثلاث برك مختلفة حرارتها ، وحماما ساخنا ، تسخنها كلها أنابيب من الهواء الحار . وكان فى خارج البيت بركة للسباحة ، وساحة للعب الكرة ، ومخزن ، وحديقة متنوعة الغروس ، وحجرة خاصة للمطالعة ، وردهة للمآدب ، وبرج للأرصاد يحتوى على شقتين وحجرة للطعام

ويختم پلنى هذا الوصف بقوله : « والآن حدثونى : ألست على حق إذا آثرت هذا الملجأ اللطيف بوقتى وحبوته بعطفى ؟ »(١٤) .

وإذا كان فى مقدور عضو فى مجلس الشيوخ أن يكون له هذا المسكن الريفى على شاطئ البحر ، ومسكن آخر على بحيرة كومو ، فإن فى وسعنا أن نتصور ما كان عليه قصر تيبيريوس فى ضيعته عند كبرى أو قصر دومتيان عند ألبالنجا ، دع عنك قصر هدريان الذى أنشأه فى تيبور Tipur بعد قليل من هذا الوقت الذى نتحدث عنه .

وإذا أراد الزائر أن يجد مثيلا لهذا الإسراف فما عليه إلا أن يتخذ سبيله إلى قصور الأثرياء والأباطرة على تل البلاتين . ولم يكن الرومان يحرصون فى هندسة منازلهم على محاكاة هندسة بلاد اليونان القديمة حيث كانت البيوت المتواضعة وحيث لم يكن يوجد من الأبنية الفخمة إلا القصور ، بل شادوا قصورهم على نمط قصور الملوك الذين كانوا يحكمون البلاد المصطبغة بالصبغة اليونانية ، والذين تأثروا أشد التأثر بالعادات والأنماط الشرقية . فقد جاءت أنماط البطالمة إلى رومة مع ذهب كليوبطرة ، ورافقت هندسة البناء الملكية أساليب الملوك السياسية . وقد اتسع قصر أغسطس الذى سمى باسم التل المقام فوقه بما أضيف إليه من الملحقات حين تضاعفت الشئون الإدارية الخاصة بالقصر الإمبراطورى . وشاد معظم خلفائه قصوراً إضافية لهم ولموظفيهم ، فشاد تيبيريوس قصره المسمى دومس تيبيريانا Domus Tiberiana وكلجيولا قصره المعروف باسم دومس جيانا Domus Giana وشاد نيرون دومس أوريا Domus aurea أى القصر الذهبى .

وأضحى هذا القصر الذهبى أعجوبة الأعاجيب فى رومة ، فقد أقيمت مبانيه وحدها على مساحة قدرها تسعمائة ألف قدم مربعة ، ولم تكن هذه إلا جزءاً صغيراً من القصر الذى انتشر من تل البلاتين إلى التلال المجاورة له . وكان يحيط به بستان عظيم يشمل حدائق وخمائل وبركا للسمك ؛ ومسارح

لحيوان الصيد ، وأبراجاً للطير وكروماً ، ومجارى مائية ، وعيوناً فوارة ، ومساقط مائية ، وبحيرات وسفائن إمبراطورية ، وبيوتاً للهو ، ومصاريف ، ومشاتل لتربية الأزهار ، وأروقة ذات عمد يبلغ طولها ثلاثة آلاف قدم . وقد حفر أحد الفكهين على جدار من جدران هذا القصر هذه العبارة العظيمة الدلالة : « لقد أصبحت رومة كلها مسكن رجل واحد ، وآن أن تهاجروا أيها المواطنون إلى ڤياى — إلا إذا كانت ڤياى نفسها سيحتويها بيت نيرون »[١٥] . أما داخل القصر فكان يتلألأ فيه الرخام والبرنز والذهب فضلا عن المعادن المذهبة التي تغطى تيجان العمد الكورنثية ، ومعها آلاف التماثيل والنقوش البارزة ، والرسوم الملونة ، وروائع الفن التي جيء بها من أنحاء العالم القديم أو نهبت منها نهباً ، ومنها اللاؤكون Laocoon . وكانت بعض الجدران مرصعة باللؤلؤ وغيره من الجواهر الغالية ، وكان سقف حجرة المآدب مغطى بأزهار من العاج ، يسقط منها بإشارة من الإمبراطور رشاش من العطر على الضيوف . وكان لحجرة الطعام سقف كرى من العاج ، منقوش بحيث يمثل السماء والنجوم ، تحركه حركة بطيئة دائمة آلات مختفية عن الأبصار . وكانت بالقصر طائفة من الحجرات بها حمامات حارة وأخرى باردة أو فاترة المياه ، وحمامات ذات مياه بحرية وأخرى كبريتية . ولما كاد المهندسان الرومانيان سلر Celer وسفيرس Severus يفرغان من تشييد هذا الصرح العظيم ودخله نيرون قال : « لقد سكنت آخر الأمر » . وبعد جيل من ذلك الوقت أهمل هذا القصر العظيم الذى يحاكى قصور فرساى فى العصر الحديث لكثرة ما يتطلبه الاحتفاظ به من النفقات ، وما يتعرض له من الأخطار ، وما يحيط من الفقر ، وشاد ڤسپازيان على أنقاضه الكلوسيوم كما شاد عليها تيتس وتراجان حماماتهما الضخام .

وشارك دومتيان نيرون فى جنون البناء ، فقد شاد له ربريوس Rabirius قصره المعروف ببيت ڤلاڤيا Domus Flavia . ولم يبلغ هذا البيت

من الضخامة مبلغ متحف نيرون ، ولكنه لم يكن ينقص عنه فى الروعة والزينة ؛ وكان فى جناح واحد منه باسلقا واسعة الأرجاء ، ولعلها هى البهو الذى كان الإمبراطور ينظر فيه القضايا التى تستأنف إليه فى مرحلتها الأخيرة ، وكان هذا الجناح نفسه يضم رواقاً سعته ثلاثون ألف قدم مربعة ، تجاوره حجرة للمآدب أرضها من الرخام البرفيرى الأحمر والحجر الملوى الأخضر الذى لم يقو الزمان حتى الآن على إبادته فيما أباد من الستائر الرخامية الرقيقة والنوافذ ذات العمد الجميلة التى كان المدعوون بعد فراغهم من الطعام يشاهدون من خلالها الماء يسقط فى الأحواض الرخامية من الفوارات القائمة فى خارجها . وجدير بنا أن ننبه القارئ إلى أن دومتيان لم يكن يستخدم هذا القصر إلا فى الحفلات وفى الأعمال الإدارية ، أما مسكنه فكان فى قصر أغسطس الذى يقل عن هذا القصر ضخامة وفخامة . وما من شك فى أن هذه الصروح الملكية كانت جزءاً من المظاهر الخارجية للإمبراطورية الرومانية ، قصد بها أن تلقى الروع فى قلوب الأهلين والزائرين والسفراء ، أما الأباطرة أنفسهم — مع جواز استثناء كلجيولا ونيرون — فكانوا يضيقون ذرعاً بالمراسم التى تجرى فى قاعات الحفلات ، فيفرون منها إلى الدعة والألفة فى مساكن أسرهم ، حيث يستمتعون « بلذة كونهم رجالا » على حد قول أنطونينس پيوس Antoninus Pius .

الفصل الرابع

الفنون والنقوش

وكانت مئات الفنون تستخدم فى هذه القصور وفى بيوت الأغنياء لتجعل كل شىء فيها عظيم النفقة إن فاتها أن تجعله جميلا . فقد كانت أرضها فى الغالب من الرخام المتعدد الألوان ، أو الفسيفساء الذى عنى فيه صانعوه بجمع المكعبات الصغيرة الكثيرة الألوان Cesserae ، وبذلوا فى ذلك الكثير من الجهد والوقت ، فأخرجوا منها رسوماً مدهشة فى واقعيتها وثباتها . وكان أثاث هذه القصور أقل عدداً من أثاث بيوتنا وأقل منه مجلبة للراحة ، ولكنه يفوقه فى فخامة نقشه ودقة صنعه فكانت المناضد ، والكراسى ، والمقاعد ، والمضاجع ، والأسرة ، والمصابيح ، والأوانى ، كلها تصنع من المواد المتينة ، كما كانت كثيرة الزينة . وكانت خير أنواع الخشب ، والعاج ، والرخام ، والبرنز ، والفضة ، والذهب تخرط وتصقل بمنتهى الدقة والعناية ، وتنقش عليها صور لأنواع النبات والحيوان ، أو ترصع بالعاج ، والفيروز ، والصدف ، والبرنز المنقوش ، أو الحجارة الكريمة . وكانت المناضد تصنع أحياناً من خشب السرو أو الليمون الغالى ، وكان بعضها يصنع من الذهب أو الفضة ، والكثير منها يصنع من الرخام أو البرنز . أما المقاعد فكانت على أشكال لا حصر لها ، منها مقاعد تطوى إلى عروش للأباطرة ولكنها كانت أقل تشويهاً للعمود الفقرى من مقاعد هذه الأيام . وكانت الأسرة تتخذ من الخشب أو المعدن ، وكانت ذات أرجل رفيعة ولكنها ثابتة متينة تنتهى فى كثير من الأحيان برؤوس الحيوانات أو أقدامها ، وكانت عليها شبكة برنزية تحمل حشية القش أو الصوف بدل الشبكات اللولبية التى تستخدم فى هذه الأيام وكانت نضد رشيقة ذات ثلاث أرجل تستخدم فى

الأغراض التي تستخدم فيها نضدنا ، وكانوا يضعون فى أماكن مختلفة من الحجرات خزانات ذات عيون لتوضع فيها الكتب الملفوفة . وكانت مواقد من البرنز تدفىء الحجرات ، ومصابيح من البرنز تضيؤها ؛ وكانت المرايا تصنع أيضاً من البرنز ، وتصقل صقلا جيداً ، وتنقش عليها أو تحفر فيها أزهار أو صور خرافية . وكان بعضها محدباً أو مقعراً أفقياً أو رأسياً لكى يغير من الصور المعكوسة عليها فيجعلها رقيقة أو ضخمة تثير الضحك .

وكانت مصانع كمبانيا تستخدم منتجات المناجم الأسبانية الفنية فتصنع الكثير من الآنية الفضية لتباع فى الأسواق ، وبذلك انتشرت صحاف الطعام الفضية فى بيوت الطبقتين الوسطى والعليا . وقد عثر أحد الحفارين فى عام ١٨٩٥ فى حوض لبيت ريفى فى بسكوريل Boscoreale على مجموعة عجيبة من الآنية الفضية لعل مالكها قد وضعها فيه قبل أن ينجو بحياته من نيران بركان ويزوف حين ثار فى عام ٧٩ م . ووجدت على أحد الأقداح نقوش لا يكاد يمسها أذى لأوراق نباتية بسيطة ، ووجد على قدحين صورة هيكلين عظيمين بارزين ، وعلى إناء آخر صورة أغسطس بين الزهرة والمريخ وهما الإله والإلهة اللذان يتنازعان فيما بينهما السيطرة على الجنس البشرى ، ومنها قدح يدل على شدة الخبث والدهاء وعليه نقش يمثل زينون الفيلســوف الرواقى يشير فى سخرية إلى أبيقور وهو يلتهم قطعة كبيرة من الفطائر ، وإلى جانبه خنزير رافع ساقه الأمامية يسأله فى أدب جم أن يعطيه قطعة منها .

ويدل ما وجد من النقود والجواهر فى عصر الإمبراطورية الأول على ما وصل إليه فن الحفر من رقى . ويدل ما وجد منها من عصر أغسطس على نفس الذوق الجميل الذى تدل عليه الرسوم التى يشاهدها الإنسان على مذبح السلام كما يحتوى أحياناً على نفس هذه الرسوم . وكانت الأحجار الكريمة المستوردة من أفريقية وبلاد العرب والهند تقطع وتركب فى الخواتم ،

ودبابيس الصدور ، والعقود ، والأساور ، والأقداح ، بل وفى الجدران أحيانا ؛ وكان لبس خاتم فى إصبع واحدة على الأقل من الضرورات الاجتماعية التى لا غنى عنها ، وكان من المتظرفين عدد قليل يلبسون خواتم فى جميع أصابعهم عدا واحدة منها . وكان الرومانى يطبع إمضاءه بخاتمه ، ولهذا كان يحرص على أن يكون هذا الخاتم فريداً فى رسمه ؛ وكان من بين الفنانين الذين ينالون أعلى الأجور عدد من قاطعى الجواهر أمثال آل دسكوريدس الذين صنعوا خاتم أغسطس ؛ وقد وصل العصر الذهبى فى قطع حجر القَمْو إلى مستوى من الرقى لم يفقه فيه عصر آخر ، ولا يزال أجمل ما وجد فى العالم من جواهر جوهرة أغسطس **gemma Augusta** المحفوظة فى ڤينا . وكان جمع الجواهر والحلى ذات النقوش البارزة هواية أثرياء الرومان — ومنهم پمپى وقيصر وأغسطس . وقد ظل ما فى خزائن الأباطرة من جواهر يتكاثر على مر الزمن بما ورثوه منها عن أسلافهم حتى باعه ماركس أورليوس لينفق من ثمنه على حربه ضد المركومانى . وقد أخذت إنجلترا منصب حافظ الخاتم الأكبر أو الخاص عن منصب حارس الأختام والجواهر الإمبراطورية فى أيام الرومان .

وفى هذه الأثناء كان خزافو كپوا ، وپتيولى ، وكومية ، وأرتيوم يملأون بيوت الإيطاليين بجميع أنواع الآنية الخزفية . وكان فى أرتيوم خوابى للخلط تتسع لعشرة آلاف جالون . وقد ظل ما تصنعه من صحاف الطعام المطلية بقشرة زجاجية حمراء مدى قرن كامل أكثر الصحاف انتشاراً فى إيطاليا . ووجدت بعض هذه الصحاف فى إيطاليا بأجمعها فلم يكد يخلو منها مكان واحد فيها . وكانت الأختام الحديدية البارزة الحفر تستخدم فى طبع كل مزهرية ومصباح وقطعة من القرميد باسم صانعها ، وكان يطبع عليها أحياناً اسما القنصلين الحاكمين دلالة على تاريخ صنعها .

هذا هو الحد الذى بلغه علم القدماء بفن الطباعة ، وقد تركوه دون أن يرتقوا

به إلى مافوق هذا القدر ، لأن النساخين الأرقاء كانوا يتقاضون أجوراً قليلة[١٨].

وانتقل صناع كومية ، ولترنوم ، وأكويليا ، من صنع الخزف إلى صنع الزجاج الفنى الجميل(*). ومن أشهر أمثلة هذه الآنية الزجاجية مزهرية بورتلاند(**) وأجمل منها « المزهرية الزجاجية الزرقاء » التى عثر عليها فى بمبى والتى نقش عليها عيد خمرى لباخوس نقشاً جميلا ينبض بالحياة[١٩]؛ ويقول بلنى واسترابون[٢٠]: إن فن صنع الزجاج قد نقل فى عهد تيبيريوس من صيدا والإسكندرية إلى رومة ، وسرعان ما أخرج فنانوه قنينات صغيرة ، وقداحاً وطاسات ، وأوانى أخرى متعددة الألوان دقيقة الصنع ، جميلة المنظر أصبحت فى وقت ما مطلب الأثرياء وجامعى الروائع الفنية. وقد عرض فى عهد نيرون ستة آلاف سسترس ثمناً لقدحين صغيرين من الزجاج المنفوخ المعروف فى هذه الأيام باسم « ميل فيورى millefiori أو « الزهرات الألف » ، صنعا بصهر عصى زجاجية مختلفة اللون. وكان أغلى من هذين ثمناً مزهريات « مورهين » Murrhine التى جىء بها من آسية وأفريقية . وكانت تصنع بوضع خيوط رفيعة من الزجاج الأبيض والأرجوانى بعضهما بجوار بعض للحصول على الرسم المطلوب ،

(*) وقد وجد السوريون والمصريون قبل ميلاد المسيح بنحو مائتى عام أن صهر الرمل مع مادة قلوية فى درجة حرارة عالية ينتج سائلا نصف شفاف ذا لون ضارب إلى الخضرة (منشؤه ما فى الرمل من أكسيد الحديد) ؛ وأن إضافة أكسيد المنجنيز والرصاص إلى هذا المزيج يجعله عديم اللون كامل الشفيف ، وأن ظلالا مختلفة من هذا اللون يمكن الحصول عليها بإضافة مواد كيمائية مختلفة إليه — فاللون الأزرق مثلا ينتج بإضافة الكوبلت . وكانت العجينة الرغوة تشكل باليد أو تنفخ فى قوالب ، وتترك حتى تجف ثم تقطع وتشكل على عجلة .

(**) وأكبر الظن أن هذه المزهرية المكونة من عدة طبقات من الزجاج بعضها فوق بعض يونانية الأصل . وقد عثر عليها بالقرب من رومة فى عام ١٧٧٠ ، وجاء بها دوق بورتلاند ، ثم أعيدت للمتحف البريطانى فى عام ١٨١٠ . وفى عام ١٨٤٥ حطمها رجل مجنون إلى ٢٥٠ قطعة ، ولكنها أعيدت إلى ما كانت عليه بنجاح بلغ من شأنه أنه لما عرضها دوق بورتلاند وقتئذ للبيع فى عام ١٩٢٩ عرض عليه ١٥٢٫٠٠٠ دولار ثمناً لها ، ولكنه رفض هذا العرض لأنه رآه أقل من قيمتها[٨] .

م إشعال النار فيها ، أو ترصيع جسم أبيض شفاف بقطع من الزجاج الملون . وقد جاء بمي بروائع من هذا النوع إلى رومة بعد انتصاره على مثرداتس . واحتفظ أغسطس لنفسه بكأس كليوبطرة المصنوعة من زجاج مرهين ، وإن كان قد صهر صحافها الذهبية ؛ وقد دفع نيرون مليون سسترس ثمناً لقدح من هذا النوع ، وكسر پترونيوس قدحاً آخر وهو يحتضر حتى لا يقع فى يد نيرون ؛ ويمكن القول بوجه عام إن الرومان لم يفقهم أحد فى صنع الزجاج ؛ وقلَّ أن يوجد فى العالم مجموعات فنية أثمن من مجموعة الآنية الزجاجية الرومانية المحفوظة فى المتحف البريطانى وفى متحف العاصمة الفنى بنيويورك .

الفصل الخامس

النحت

انتقل فن الخزف إلى النحت عن طريق الصلصال المحروق - من نقوش بارزة ، وتماثيل صغيرة ، ولعب ، ومحاكاة للفاكهة والعنب والسمك - حتى وصل آخر الأمر إلى تماثيل بالحجم الطبيعي . وقد وجد الشيء الكثير من هذه فى خرائب بمبي . وكانت قواصر الهياكل وطنفها تزينها نقوش تمثل سعف النخل ومثقفات وميازيب فى صورة رؤوس حيوانات ونقوش بارزة . وكان اليونان يسخرون من هذه الحليات ، وقد أصبحت فى عهد الإمبراطورية من الطرز العتيقة ، ولم يكن أغسطس ممن يحبون أن تزين القصور بالطين محروقاً كان أو غير محروق .

ولعل ذوقه الأتيكي هو الذى سما بفنى النقش والنحت حتى بلغا من الروعة فى رومة منزلة تضارع ما بلغته أحسن النقوش والتماثيل فى البلاد التى امتدت إليها الحضارة اليونانية ؛ فقد ظل الفنانون فى رومة جيلا ينحتون الفساقى ، وشواهد القبور ، والعقود ، والمذابح نحتاً تبدو فيه رقة الشعور ، ودقة العمل ، وروعة الشكل وهدوءه ، كما يبدو فيه قدر من التشكيل ومراعاة المنظور يرفع النقوش الرومانية إلى مستوى الآيات الفنية العالمية .

أما النحت فحسبنا أن نقول فيه إن مجلس الشيوخ احتفل بعودة أغسطس إلى رومة فى عام ١٣ ق . م بعد أن أعاد السلام إلى أسپانيا وغالة بأن أمر بإقامة « مذبح السلم الأغسطية Ara Pacis Augustae » فى ميدان المريخ ؛ وهذا المذبح أفخم ما بقى من أعمال النحت فى رومة ، ولعل شكله مأخوذ عن مذبح برجموم Pergamum ، ولعل فكرته مأخوذة عن طنف البارثنون المنقوش . وقد أقيم المذبح على مرتفع قليل فى مساحة مسورة شيد بعض أسوارها

من المرمر المنقوش . وكل ما بقى من هذا الهيكل قطع من هذه الأسوار(*) . وتمثل إحداها تلس Tellus — الأم الأرض — وبين ذراعيها طفلان ، وإلى جانبها ينمو الحب والزهر ، وعند قدميها ترقد حيوانات وادعة راضية . وتلك هى المبادئ الرئيسية التى قامت عليها إصلاحات أغسطس : عودة الأسرة إلى أحضان والديها ، وعودة الأمة إلى الزراعة ، وعودة الإمبراطورية إلى السلم . والرسم الأوسط لا يكاد يفوقه رسم آخر مهما عظم ، والحق أن فيما جمعه من الأمومة الناضجة ، والجمال الأنثوى ، ورقة القلب ، ورشاقة الشكل ، لكمالا ورقة لا ترقى إليهما آلهات البارثنون الفخمة العظيمة . » وكان لطنف السور الخارجى بروز سفلى ذو درج مسنفة (**) ، أو منقوش عليها تويجات الفاوينا والخشخاش العريضة ، وعناقيد كبيرة من ثمار اللبلاب . وهذه أيضاً نجد لها نظيراً فى غير هذه التحفة الفنية . وعلى بروز آخر نقش موكبان يتحركان فى اتجاهين متضادين ليلتقيا أمام مذبح آلهة السلام . وفى هذه المجموعات صور هادئة وقورة لعلها صور أغسطس وليفيا والأسرة الإمبراطورية ، ومعها عدد من النبلاء والكهنة والعذارى القسنية والأطفال . وصور الأطفال واقعية جذابة تستلفت النظر بحياتها وطهرها . ومن بينها طفل رضيع يحبو كأنه لا يجد لذة فى هذا الاحتفال ، وآخر وهو ولد يفخر بما بلغه من العمر ، وطفلة صغيرة بيدها طاقة زهر . وأخرى تؤنبها أمها على عمل خبيث ومن ذلك الحين بدأ الأطفال يكون لهم شأن متزايد فى الفن الإيطالى ، ولكن فن النحت الرومانى لم يصل فى يوم من الأيام إلى ما وصل

(*) وقد كانت أكبر هذه القطع إلى عهد قريب فى متحف الترى Muses dell Terme بروما ، وبعضها فى قصر الفاتيكان ، وفى معرض الأفيزى Uffizi Gallery فى فلورنس ، وفى متحف اللوفر .

(**) السنف ضرب من زخرفة البناء يكون على صورة أوراق نبات السنف ، وأكثر ما يرى على قمم تيجان الأعمدة الكورنثية والرومانية والبيزنطية والأبنية فى العصور الوسطى .
(المترجم)

إليه وقتئذ من قدرة على تصوير السجف ، والمجموعات الطبيعية القوية المؤثرة ، وتنظيم الأضواء والظلال تنظيما أوفى على الغاية فى الإتقان . وقد وجد الإيطاليون فى هذا النقش كما وجدوا فى شعر فرچيل أكمل وسيلة للدعاوة لأنفسهم وإذاعة مجدهم فى أنحاء العالم .

وليس ثمة نقوش رومانية تضارع هذه النقوش إلا النقوش المنحوتة على الأقواس التى كانت تقام عند دخول القواد الظافرين ؛ وأجمل ما بقى من هذه الأقواس قوس تيتس الذى بدأه ڤسپازيان وأتمه دومتيان لتخليد ذكرى فتح بيت المقدس . ويمثل أحد هذه النقوش المدينة المحترقة ، وأسوارها المهدمة ، وأهلها الذين استولى عليهم الرعب ، وثروتها التى تنتهبها الفيالق الرومانية . ويمثل نقش آخر تيتس يسير إلى رومة فى مركبته بين الجنود ، والحيوانات ، وكبار الحكام ، والكهنة ، والأسرى ، ومن ورائه ثريات الهيكل المقدسة وغيرها من غنائم الحرب على اختلاف أنواعها . وقد كان الفنانون الذين حفروا هذه الرسوم جد جريئين فى تجاربهم : فقد حفروا صوراً تختلف باختلاف المستويات ، ووزعوها على سطوح متفاوتة الارتفاع ، ونحتوا خلفية الصورة بحيث تمثل العمق ، ولونوا الصورة كلها لتحمل إلى الرائى درجات مختلفة من الاكتظاظ والبعد ، فوق ما تحمل من المعانى الأخرى . وأما الأعمال التى تمثلها الصورة فلا تظهر كأنها حوادث متفرقة بل تبدو مستمرة دائمة ، كما تبدو فى طنف بلاد النهرين ومصر ، وكما تبدو فيما بعد على أعمدة الإمبراطورين تراچان وأورليوس ؛ وبذلك استطاعت أن تمثل معنى الحركة والحياة على خير وجه . كذلك لم يعمل العرف والمثل الأعلى عملهما فى الصورة فيخرجاها عن الواقعية ويفرضا عليها ما فرضه الفن الأتيكى على صور « مذبح السلام » اليونانى ؛ بل إن أناسه أناس واقعيون من لحم ودم وأقذار نحتوا على سنن التقاليد الإيطالية تقاليد الواقعية والحيوية . ولم يكن موضوعها هو الآلهة المكملة بل كان هو الآدميين الأحياء .

وهذه الواقعية القوية هى التى تميز فن النحت الرومانى . ولولا إخلاص الرومان المتواتر لهذه النزعة المتأصلة فى نفوسهم لما أضافوا إلا القليل لعالم الفن . وقد حدث فى عام ٩٠ ق . م أن جاء إلى رومة رجل يونانى من أهل إيطاليا الجنوبية يدعى پستليز Pestiles ، وأقام فيها ستين عاماً كاملة ، أخرج فيها تحفاً فنية من الفضة والعاج والذهب ، وجاء إليها بالمرايا الفضية ، وأخرج نسخاً متعددة من روائع الفن اليونانى ، وكتب خمسة مجلدات عن تاريخ الفن . فكان بذلك ڤسارى وسلينى زمانه فى آن واحد . كذلك قدم يونانى آخر يدعى أرسسلوس لقيصر تمثالا ذائع الصيت لڤينوس جنتركس . ونحت أپولونيوس الأثينى تمثال الترسو بلڤدير Torso Belvedere فى الڤاتيكان ، وهو تمثال خلت فكرته من الغلو ، فليس فيه عضلات بارزة ، بل يمثل رجلا فى كمال القوة وصحة الجسم ، ولعله نحته فى رومة نفسها . وكل ما نستطيع أن نقوله عن هذا التمثال أنه بلغ الكمال إلى الحد الذى كان يبغى صاحبه أن يمثله فيه . وقد ظلت مناحت الفنانين وقتاًما تعمل جاهدة فى إعطاء الآلهة الإيطالية صوراً يونانية ، ولم تستثن من ذلك التجريدات القدسية كالفرصة والعفاف . ويغلب على الظن أن جليكون Glycon الأثينى نحت فى هذا الوقت نفسه وفى مدينة رومة تمثال هرقل الفرنيزى . ولسنا نعرف متى صنع تمثال أپلو بلڤدير ولا متى صنع ، ولعله صورة رومانية لتمثال أصيل نحته ليوكارس Leochares الأثينى . ويعرف كل طالب علم كيف أثار جماله الهادئ نشوة ونكلمان Winkelmann الأورانية[٢١] . ونحت ليونو فى ذلك الوقت تمثالين هما تمثال يونو الفرنيزية المنحوت من حجر السماق والمحفوظ فى متحف ناپلى ، وتمثال يونو اللدڤيزية المحفوظ فى ترم Terme — وهو تمثال فاتر ، عابس ، ينم عن الاستقامة والعدالة ، إذا نظر إليه الإنسان بدأ بفهم طواف جوف وتجواله .

كانت هذه التماثيل كلها كما كان تمثال برسيوس واندرمدا Perseus and Andromeda الجميل المحفوظ فى متحف الكبتول من الطراز اليونانى الذى اتخذ

طرازاً عاماً فى النقش ومثلا أعلى له ، وقدس تقديساً يبعث على الملل والسآمة . وأكثر من هذه النقوش إلفاتاً للنظر واسترعاء للانتباه التماثيل النصفية التى هى بمثابة معجم من البرنز والرخام لجميع وجوه الزمان من عهد بمبى إلى عهد قسطنطين . وهذه أيضاً قد اتخذ بعضها مثلا أعلى وخاصة رأسا يوليوس وكلوديوس ، ولكن النزعة الواقعية التسكانية القديمة ومغميات الموتى التى لم يكن فيها شىء من المجاملة والملق ، والتى لم تكن تغيب قط عن أعين المثالين ، قد جعلت الرومان لا يستنكفون قط أن يمثلوا بمعارف قبيحة على شرط أن يظهروا فى تماثيلهم أصحاء أقوياء . وقد أوصى الكثيرون منهم بتماثيلهم للميادين والأماكن العامة ، وبلغت هذه التماثيل الموصى بها من الكثرة حداً خيل معه فى وقت من الأوقات أن الذين يملكون رومة من الموتى أكثر ممن يملكونها من الأحياء ؛ وقد بلغ من حرص بعض الكبراء على أن توضع تماثيلهم فى الأماكن أنهم لم يصبروا حتى تنصرم آجالهم ، فأقاموا لأنفسهم تماثيل قبل وفاتهم . ودفعت الغيرة الأباطرة إلى تحريم هذه العجلة فى التخليد حتى تتسع رومة للأحياء من أبنائها .

وأعظم التماثيل النصفية الملونة هو التمثال المعروف باسم « **رأس قيصر** » المصنوع من حجر البازلت والمحفوظ فى متحف برلين . ولسنا نعرف من الذى يمثله هذا التمثال النصفى رغم هذه التسمية ، ولكن شعره القليل ، وذقنه المحدد ، ووجهه الرفيع البارز العظام ، وما فيه من خطوط عميقة دالة على كثرة القلق والتفكير ، والعزيمة المستسلمة للحقائق بعد أن زالت عن الأعين غشاوتها وعن العقول أوهامها ، كل هذه تتفق مع صفات قيصر الذى تعزو إليه الرواية هذا التمثال .

ويلى هذا التمثال النصفى فى القدر مباشرة التمثال الضخم الذى يمثل رأس قيصر والمحفوظ الآن فى نابلى : وفى هذا التمثال تعمقت أخاديد الوجه حتى نمت عن حقد ومرارة ، كأن هذا الجبار قد عرف آخر الأمر أن ليس فى العالم عقل

بلغ من السعة قدراً يمكنه من فهم العالم دع عنك حكمه . وترى الواقعية التى تصل إلى حد يبعث على الاشمئزاز بادية فى تمثال يمى المقام فى ناى كارلسبرج جليتوتك Ny Carlsberg Gluptotek بكوبنهاجن Copenhagen : وينطق هذا التمثال بأن صاحبه قد نسى فى بداية الكهولة وهزائمها ما ناله بشجاعته من مجد ونصر فى عهد الشباب . ولدينا لأغسطس نحو مائة تمثال ، كثير منها جيد غاية الجودة ، متقن غاية الإتقان : منها تمثال أغسطس الغلام (المحفوظ فى الفاتيكان) والذى يبدو فيه صاحبه جاداً ثاقب البصر نبيلا — وهو أجمل صورة لغلام حقيقى فى جميع عصور التاريخ على الإطلاق . ومنها تمثال أغسطس فى الثلاثين من عمره (المحفوظ فى المتحف البريطانى) — وهو تمثال من البرنز تبدو فيه العزيمة القوية الصادقة ، ويذكرنا بقول سوتنيوس إن الإمبراطور كان يسعه أن يطفئ نار الفتنة بنظرة ؛ ومنها تمثال أغسطس القس (فى متحف ترم) ذو الوجه الدال على التفكير العميق بارز من بين السجف المحيطة به من كل جانب ، وتمثال أغسطس القائد الذى عثر عليه فى خرائب قصر ليفيا الريفى فى بريماپورتا Prima Porta والمحفوظ فى الفاتيكان ؛ وقد غطى الدرع البرنزى الذى يحمى صدر هذا التمثال الشهير بنقوش غريبة تربك الناظر وتحوله عن تأمل التمثال نفسه(*) . ووقفة أغسطس كما يصورها هذا التمثال ثابتة قوية . وساقاه أقوى مما تكونان لشخص عليل مثله ، ولكن الرأس يمثل القوة الهادئة ، والثقة بالنفس تكشف عن يد الفنان العظيم ونفسيته .

وكانت لفيا نفسها حسنة الحظ إذ سخرت الأقدار فناناً عظيما لصنع

(*) وهى تصور عودة الأعلام البارثية ، وخضوع الولايات المغلوبة ، وخصب الأرض فى وقت السلم ، والستر الواقى منشوراً فوق الجميع ما عدا جوف

المحفوظ فى كوبنهاجن . ترى فى هذا الرأس الشعر الجميل ، والأنف الرومانى الأقنى الذى ينم عن قوة الخلق ، والعينين الدالتين على الحنان والتفكير ، والشفتين الجميلتين الدالتين على القوة والثبات . وتلك هى المرأة التى وقفت وراء عرش أغسطس تدعمه بهدوئها ، والتى غلبت جميع منافسيها وأعدائها ، وسيطرت على الناس جميعاً عدا ولدها . وكان تيبريوس هو الآخر رجلا محظوظاً . ذلك أن تمثاله الجالس المحفوظ فى متحف لاتران ، وإن نحت على طراز مثل أعلى موضوع ، يعد آية فنية أخرجتها يد مثال لايقـل براعة عن المثال الذى نحت من حجر الديوريت تمثال خفرع المحفوظ فى المتحف المصرى . أما كلوديوس فلم يكن حظه كحظ من سبقوه ، وما من شك فى أن المثال كان يسخر منه ، أو أنه كان يمثل الصفات التى وصفه بها سنكا فى هجائه المشهور . فقد صوره فى صورة چوپتر المتعب المتضجر ، بديناً ، ظريفاً ، أبكم . وأجهد نيرون نفسه فى أن ينمى حاسة الإحساس بالجمال ؛ ولكن أعظم ما كان يرغب فيه هو الشهرة والضخامة ، ومن أجل هذا لم ير لزنودوتس Zenodotus اسـكوباس Scopas زمانه شيئاً أفضل من أن يقضى وقته فى نحت تمثال له فى صورة أپلون يعلو مائة وسبع عشرة قدماً(*). وأمر هدريان أن يوضع هذا التمثال فى صدر المدرج الفلافى ، ومن ثم سمى هذا المدرج باسم الكلوسيوم Collosseum لضخامة هـذا التمثال(٢٢) .

وعاد فن النحت إلى واقعيته فى عهد ڤسپازيان الأمين ، فسمح لمثاليه أن يكونوا صادقين فى تصويره فى صورة السوقى الحق ، ذى معارف غليظة خشنة ، مغضن الجبهة ، أصلع الرأس ضخم الأذنين . وخير من هذا وأكثر منه دلالة على الرحمة التمثال النصفى المحفوظ فى ترم Terme ، والذى يدل

(*) مع قاعدته البالغ ارتفاعها ١٥٣ قدماً . ويحسن أن نذكر القارئ بأن تمثال الحرية الأمريكى يبلغ ارتفاعه من غير قاعدته مائة قدم وأربع أقدام .

على نفس شغلتها شئون الدولة عن نفسها ؛ ووجه رجل الأعمال الذى يطل على الناظر إليه من الرأس الضخم المحفوظ فى متحف نابلى ؛ ويصل إلينا تيتس فى جمجمة كالسابقة مكعبة الشكل ، ووجه غير جميل . وإن المرء ليصعب عليه أن يعتقد أن هذا الشخص الذى يبدو فى تمثاله كأنه من الباعة المتنقلين هو حبيب البشر أجمعين . وقد أوتى دومتيان من بعد النظر فى العصر الفلافى ما جعله يعمل على أن يبغضه الشعب فى حياته فيحطم جميع تماثيله بعد وفاته .

ولما خرج الفنان من القصر وأخذ يجول فى الشوارع استطاع أن يطلق العنان للنزعة الإيطالية الخبيثة ، نزعة الحقيقة الفكهة المضحكة . وما من شك فى أن شيخاً طاعناً فى السن أقل حكمة ومالا من الوزير الفيلسوف هو الذى يصوره التمثال الهزيل الكث الشعر الذى كانوا يقولون عنه من قبل إنه تمثال سنكا . واستطاع الفنانون المشهورون فى فترة من الزمن أن يمثلوا عضلات الرياضيين تمثيلا يخلدها على مدى العصور . وشقت تماثيل المصارعين طريقها إلى أكبر البيوت ، سواء كانت بيوت الأثرياء الريفية أو قصور الكبراء فى الحواضر . وكان المثالون الرومان رحماء وهم ينحتون تماثيل النساء : فتراهم بين الحين والحين ينحتون تمثالا لامرأة سليطة حمقاء ، ولكنهم صنعوا بالإضافة إلى هذا تماثيل لبعض العذارى الفسقية ، ومثلوا وقارهن ورشاقتهن أحسن تمثيل ، كما صنعوا فى بعض الأحيان تماثيل تتجلى فيها رقة القلب مجسمة كتماثيل الكلتى Clytie المحفوظة فى المتحف البريطانى ؛ وأخرى لنساء من الأشراف هشة لينة تسحر الألب سحر دُمَى وتو Watteau أو فروجونارد Frogonard [٢٣]. وكان جد بارعين فى تمثيل الأطفال كما يدل على ذلك تمثال الغلام البرنزى المحفوظ فى متحف نيويورك ، أو تمثال الطفلة البريئة المحفوظ فى متحف الكبتول . وكان فى وسعهم أن ينحتوا أو يصبوا تماثيل حيوانات مدهشة فى دقتها ووضوح معالمها ،

كما نرى ذلك فى رؤوس الذئاب التى وجدت فى نيمى عام ١٩٢٩ ، أو الخيل الواثبة فى سانت مارك St. Mark . نعم إنهم لم يبلغوا قط ما بلغته مدرسة بركيز الفنية من كمال وبراعة فى الصقل ؛ ولكن منشأ هذا النقص أنهم كانوا يحبون الفرد أكثر مما يحبون الطراز ، وأنهم كانوا يعتزون بالنقائص الحقيقية التى هى سمة الحياة . وقصارى القول أن هؤلاء الفنانين رغم قصورهم قد سموا إلى أعلى مكانة فى تاريخ الفن التصويرى .

الفصل السادس

التصـــوير

لقد كان من يزور رومة فى الزمن القديم يجد فن التصوير أكثر انتشاراً من فن النحت فى هياكلها ومساكنها ، وأروقتها ، ذات العمد ، وميادينها ؛ وكان يعثر فيها على الكثير من أعمال كبار الفنانين الأقدمين أمثال پولجنوتس Polygnotus وزيوكسيس Zeuxis، وأپليز Appeles وپروتجنيس Protognese وغيرهم . ولم تكن هذه الأعمال أقل قيمة أو أقل تقديراً فى الإمبراطورية الواسعة الثراء من صور عهد النهضة الأوربية فى أمريكا الغنية فى هذه الأيام. وكان يجد أعمال رسامى الإسكندرية وروما أعظم وفرة فى رومة القديمة من صور النهضة فى أمريكا الحديثة وذلك لحسن تعهدها وشدة العناية بحفظها . لقد كان الفن قديماً فى إيطاليا حيث كان كل جدار يتطلب الفن ، والتجميل . وأتى على إيطاليا حين من الدهر كان نبلاؤها أنفسهم يمارسون هذا الفن ، ولكن تيار الحضارة الهلنستية الجارف جعل التصوير يونانى الطابع شديد الخضوع للعرف والتقاليد حتى انتهى الأمر بأن عجب ڤاليريوس مكسمس Valerius Maximus من أن فابيوس پكتور Fabius Pictor ينزل من عليائه فيصور على جدرانه « هيكل الصحة »(٢٤) . غير أنا نجد حالات شاذة لا ينطبق عليها هذا التعميم : من ذلك أن أرليوس Arellius قد ذاع صيته فى أواخر عهد الجمهورية لأنه كان يستأجر العاهرات ليكن نماذج لصور الآلهات ، وحدث فى عهد أغسطس أن اشتغل بالتصوير شريف أبكم يدعى كونتس پديوس Quintus Pedius لأن عاهته قد سدت فى وجهه جميع سبل الأعمال الأخرى ؛ واستخدم نيرون لتزيين بيته الذهبى مصوراً يدعى أمليوس Amulius كان « يرسم فى وقار جم وهو مرتد جبته(٢٥) :

ولكن هؤلاء الرجال كانوا متفرقين فى بحر المصورين اليونان الخضم الذين أخذوا يخرجون فى رومة وبمبي وسائر أنحاء شبه الجزيرة نسخاً من الرسوم اليونانية مطابقة لها أو مختلفة بعض الشيء عنها ، تمثل موضوعات يونانية أو مصرية .

وكاد فن التصوير فى رومة أن يكون مقصوراً على المظلات والألوان المائية الممزوجة بمادة غروية لاصقة توضع فوق سطح جاف . وكان المصورون يلجأون فى بعض الأحيان إلى تثبيت الألوان بالحرارة ، وذلك بإذابتها فى الشمع الشديد الحرارة . أما من حيث حجم الصور فإنا نذكر أن نيرون أمر بأن ترسم صورته على قطعة من القماش يبلغ ارتفاعها مائة وعشرين قدماً — وهذه الصورة أول ما لدينا من صور استخدم فيها قماش التصوير . وقد سبق القول إن الألوان كانت تستخدم فى تلوين التماثيل ، والهياكل ، والمناظر المسرحية ، والصور الكبيرة المرسومة على الأقمشة التيلية لعرضها فى السوق العامة فى أوقات الاحتفال بالنصر ، ولكن مواضعها المحببة كانت هى الجدران الخارجية فى المبانى . وقلما كان الرومان يضعون الأثاث مستنداً إلى الجدران أو يعلقون عليها الصور ، ذلك أنهم كانوا يفضلون أن يستخدموا الجدار كله ليرسموا عليه صورة واحدة أو مجموعة من الصور المتصلة بعضها ببعض فى موضوعها . وبهذه الطريقة أضحت الصورة الجدارية جزءاً متمماً للبيت وعنصراً أساسياً فى هندسته المعمارية .

وقد حفظت لنا أبخرة ڤيزوف الحارقة نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة مظلم — وهى يزيد عددها فى بمبي وحدها على عدد كل ما وجد منها فى سائر أنحاء العالم القديم . وإذ كانت بمبي فى أيامها من المدن المتوسطة الحجم غير العظيمة الشأن فإن فى وسعنا أن نتصور عدد الرسوم الجدارية التى كانت تزدان بها المنازل والأضرحة فى إيطاليا القديمة . وقد نقل أحسن ما بقى من هذه الرسوم إلى متحف نابلى ، ولا يزال لجمالها الهادئ رغم انتقالها إلى مكانها الجديد أعظم الأثر فى نفس من ينظر إليها ؛ ولكن الأقدمين وحدهم هم الذين كانوا يعرفونها عمق ألوانها وفيما بها من إطار هندسى يجعل لكل صورة من هذه

الصور معنى خاصاً وموضعا خاصا . وقد تركت الصور الجدارية التي في بيت ڤتاي في أماكنها الأصلية ، فترى في المطعم ديونيشس يفاجئ أدرياني النائمة ، وترى على الجدار المقابل لهذه الصورة ديدالس Daedalus يعرض بقرته الخشبية على پاسفائى Pasifaë ؛ وفي الطرف الأقصى من الجدار ترى هرمس ينظر في هدوء إلى هفيستس Hephaestus وهو يشد إكسيون Ixion إلى عجلة التعذيب : ونشاهد في حجرة ثانية مظلمات مضحكة متتابعة فيها صور متعددة لكيوپد إله الحب يسخر مما في پمپي من صناعات بما فيها صناعة الخمر في ڤتاي . وقد عدت عوادى الأيام على هذه الصورة التي كانت من قبل ناضرة براقة ، ولكن مابقى منها يكفى لأن يشعر الزائر بما يجب أن يكون عليه من تواضع وحياء ، فصور الأجسام البشرية تكاد تبلغ الغاية في الإتقان والجودة ، وتكاد تنبض بالحياء وتثير دم الشهوة في عروق الأحياء من بني الإنسان .

ولقد حاول الخبراء أن يفهموا ماهية فن التصوير في إيطاليا القديمة ويصنفوا عصوره وأنماطه بالاعتماد على ما وجدوه من نماذج له في إيطاليا القديمة . وهذه الطريقة في التصنيف خطرة غير مأمونة لأن پمپي نفسها كانت يونانية أكثر منها لاتينية ؛ ولكن ما بقى في رومة وضواحيها من رسوم قديمة يتفق إلى حد كبير مع تطور فن التصوير في پمپي . ففي الطراز الأول (القرن الثاني قبل الميلاد) حين كانت الجدران تغطى بقشرة كاملة قبل الرسم عليها ، كانت الجدران في أغلب الأحيان تلون بحيث تبدو كأنها مطعمة بألواح من الرخام كما تشاهد في « بيت سلت » في پمپي . وفي الطراز الثاني أو الطراز المعماري (القرن الأول قبل الميلاد) كان الجدار يطلى ليمثل بناء أو واجهة أو بهواً ذا عمد ، وكثيراً ما كانت العمد ترسم كما تبدو للناظر إليها من الداخل ، وبينها مناظر الريف الحلوية ، وبهذه الطريقة كان الفنان يضفى على الغرفة التي لا نوافذ لها في أغلب الظن محيطاً ذا نسيم عليل من الأشجار والأزهار والحقول ، والجدول ، والحيوانات الهادئة أو المرحة اللاعبة .

وكان فى وسع ساكنها السجين فيها أن يتخيل أنه مقيم فى حدائق لوكلس ، ولم يكن ذلك ليكلفه أكثر من النظر إلى الجدران كما كان فى وسعه أن يصيد السمك ، أو يقتنص الحيوان ، أو يداعب الطيور ويدللها ، ويعتز بها فى غير فصولها وأيامها ، وذلك لأن الطبيعة كانت تنقل إليه فى منزله فلا يتحمل هو مشقة الانتقال إليها . وفى الطراز الثالث أو طراز التحلية (١ — ٥٠ م) كانت الأشكال الهندسية المعمارية للزينة لا غير ، وكانت تضع المناظر الطبيعية فى المنزلة الثانية بعد صور الآدميين . وفى الطراز الرابع المختلط المعقد كان الفنان يترك العنان لخياله يخترع تراكيب وأشكالا غريبة ، ويضعها فى مواضعها وهو مرح ساخر مما تتطلبه الحشمة والوقار ، ويكدس صورته الحدائق والعمد والبيوت الريفية والجواسق بعضها فوق بعض كتشويش الرسوم فى هذه الأيام[٢٦] ؛ وكثيراً ما كان يحصل بهذا على الأثر الذى تحدثه فى الناظرة صور تكملها ذكريات لا وعيية سلطت عليها الأضواء . وكان فن العمارة فى جميع هذه الطرز المتقاربة إما خاضعاً للتصوير ومسيطراً عليه يخدمه ويستخدمه ، فأنشأ فيه بذلك تقاليد عادت إلى اليقظة بعد ستة عشر قرناً على يدى نقولاس پوسن **Nicholas Poussin**

ومن دواعى الأسف أن ما بقى من موضوعات الرسوم الكبرى قلما يتعدى الأساطير اليونانية : فالآلهة ، وجن الحراج ، والأبطال ، والخاطئون المذنبون — زيوس ، والمريخ ، وديونيشس ، وپان ، وأخسيل ، وأديسيوس ، وإفچينيا ، وميديا هذه كلها تتكرر تكراراً يبعث على الملل والسآمة ، وإن كانت هذه التهمة بعينها يمكن توجيهها إلى فن النهضة . وثمة صور قليلة تمثل الحياة الهادئة الساكنة ، كما أننا نعثر فى مواضع متفرقة على مطرقة أو صاحب حانة أو قصاب يلتمع فوق جدران پمپى . وكثيراً ما يسيطر الحب على المنظر برمته فترى فتاة مطرقة يتنازعها شوق كمين ليس معدوم الصلة بإيروس إله العشق الواقف إلى جانبها ، وترى الفتيات والشبان يمرحون على الكلأ يتبادلون نظرات الوجد والهيام ، وأرباب

الخمر والفسق يلعبون كأن المدينة لم تعرف فى حياتها شيئاً غير الحب والخمر ؛ وإذا ما حكمنا على نساء پمپی من صورهن التى على الجدران كانت هؤلاء النسوة خليقات بأن يكون جمالهن محور الحياة بأجمعها فى تلك المدينة ، فنحن نراهن منهمكات فى لعبة « الكعاب » أو متكئات فى رشاقة على القيثارات ، أو نشاهدهن يقرضن الشعر والأقلام بين شفاههن ، ودلائل التفكير بادية على ملامحهن ، ووجوههن هادئة من أثر النضوج ، وأجسامهن سليمة صحيحة كاملة النمو ، وأثوابهن مسبلة عليهن ، فضفاضة أنيقة كأنها من نحت فدياس ، يمشين كأنهن كلهن هلن اليونانية التى سلبت عقل باريس بن پريام ، مدركات قداستهن . وترى إحداهن ترقص رقصة باخوسية(*) لعلها فى هواء رقيق ، وذراعها ويدها وقدمها اليمنى من أجمل ما رأته العين فى تاريخ التصوير . ويجب أن تضم إلى هذه الروائع بعض صور الرجال أيضاً كصورة تسيوس Theseus وهو ينتصر على المنوتور Minotaur وهرقل وهو ينجي ديانيرا Deianira أو يتبنى تلفوس Telephus ، وأخيل يسلم وهو غضبان آسف برسيس Briseis المتمنعة الآبية . وكل شكل رسم فى هذه الصورة الأخيرة يكاد يبلغ الغاية فى الكمال ويصل فيه التصوير الپمپيائى إلى ذروة الإبداع . وللفكاهة أيضاً نصيبها من التصوير ؛ فهذا زعيم مهرج أشعث يتعثر على عكازته ، وهذا جنى ظريف يهز ساقيه فى مرح تهكمى ، وهذا سيلينس Silenus أصلع بذىء يصور وهو فى نشوة موسيقية . وللحانات والمواخير أيضاً مكانها فى زينة الجدران ، ولا يجد السائح المتقصى حاجة لأن يقال إن پرياپس Priapus لا يزال يزهو بقواه الثمينة على جدران پمپى . وفى الطرف الآخر من هذه السلسلة حيث توجد بيوت الضواحى نرى طائفة من الصور الدينية توحى بأن المكان كان يستخدم للاحتفال بالطقوس الديونيشية الخفية ؛ ففى أحـــد المظلات نشاهد بنتاً أمعنت فى تقواها بغير رفق حتى شلت حركتها ؛ تقرأ فى كتاب يبدو أنه كتاب

(*) نسبة إلى باخوس إله الخمر عند اليونان الأقدمين   (المترجم)

مقدس ؛ وفى مظلم آخر يتقدم موكب من الفتيات ينفخن فى الأبواق ، ويأتين بالقرابين ؛ وفى مظلم ثالث نرى سيدة عارية ترقص على أصابع قدميها وإلى جوارها راهبة مبتدئة راكعة على ركبتيها ، منهوكة القوى من شدة ما قاست فى أحد الطقوس الدينية(٢٧). وأجمل من هذه كلها نقش جدارى عثر عليه فى خرائب ستابيا Stabiae من نوع نقوش بتيشلى Botticelli ومتقدم عليها ، ويسمى هذا النقش **الربيع** : وهو يمثل امرأة تمشى فى حديقة على مهل تقطف الأزهار ، ولا يرى منها إلا ظهرها ورأسها تديره بخفة ورشاقة إلى خلفها ؛ وقلما استطاع فن من الفنون أن يصور ما فى هذا الموضوع السهل من شاعرية تصويراً مؤثراً فى النفس مثيراً للعواطف كما صوره هذا الفنان .

وأقوى ما وجد من الصور فى هذه الخرائب صورة ميديا التى عثر عليها فى هركيولانيم Herculaneum وحفظت فى متحف نابلى ، وهى تمثل امرأة مطرقة عليها ثياب فاخرة تفكر فى مقتل أبنائها ؛ ويلوح لنا أن هذه صورة منقولة عن الصور التى أجاز عليها قيصر مصورها تيموماكس Timomachus البيزنطى بأربعين ألف وزنة (تالنت) أى ١٤٤٠٠٠ ريال أمريكى(٢٧) ؟

ولم يوجد فى رومة إلا القليل من الصور التى تبلغ هذه المنزلة ، ولكن عثر فى بيت ليفيا المقام فى بريما بورتا Prima Porta على مثل رائع من صور المناظر الطبيعية التى تسمو فيها إيطاليا على بلاد اليونان . فيه تخدع العين فيظن الإنسان أنه يجتاز بهواً إلى تكعيبة فى أرض رخامية من ورائها أجمة من النبات والأزهار بلغت من الإتقان حداً يمكن العالم النباتى فى هذه الأيام من أن يتبينها ويصنفها ؛ فكل ورقة من أوراقها رسمت بشكلها ولونها الطبيعيين ، والطيور تجثم على مواضع متفرقة منها كأنها تحط عليها إلى وقت ما ، والديدان تزحف بين الأغصان والأوراق . ويقرب من هذه الصورة فى روعتها ورقتها **عرس الدبرندينى** التى وجدت فى التل

الإسكويلى فى عام ١٦٠٦ والتى درسها روبن Rubens وثان ديك وجيته بحماسة بالغة . وقد تكون هذه منقولة عن صورة يونانية ، وقد تكون صورة أصلية من عمل رسام يونانى استوطن رومة ، أو من عمل رومانى أصيل . وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين أن ما عليها من صور الأشخاص — كصورة العروس الهادئة الحيية ، والآلهة التى تسديها النصيحة ، والأم المنهمكة فى الاستعداد للعرس ، والعذارى ينتظرن ليعزفن على القيثارة ويغنين — كل هذه قد رسمت برقة وحساسية ترفعان هذا الرسم الجدارى إلى منزلة الآثار الفنية القديمة الممتازة .

على أن فن التصوير الرومانى يخلو من عنصر الابتكار ، وسبب ذلك أن الفنانين اليونان نقلوا معهم تقاليدهم وأساليبهم إلى كل مكان نزلوا فيه ، وحتى النزعة التأثرية الغامضة التى فى هذه الصور قد تكون من أثر مهارة الفنانين الاسكندريين ؛ ولكن فيها مع ذلك دقة فى الخطوط ، وغزارة فى اللون نعرف منهما لم بلغ المصورون أمثال أبليز Applles وبروتوجنيز Protogenes من الشهرة مثل ما بلغه منها المثالون من طراز بولكليتس وبركستليز . واللون فى بعض الأحيان واضح غزير كالو كان جيورجيون Giorgione هو الذى وضعه ، كما أن تدرج الأضواء والظلال يوحى فى بعض الأحيان أنه من عمل رمبرانت Remebrandt . وترى تارة رسماً خالياً من الدقة يذكر الإنسان بواقعيه ڤان جونج المنفرة . وفن المنظور فى الرسم غير صحيح كما أن السرعة فى العمل تفسد نضج التفكير . ولكن ما فى الرسوم من حيوية نضرة يغطى على هذه الأغلاط كلها ، فتناسب الثياب يخدع العين ، ومناظر الغابات والأشجار كانت بلاريب من أسباب البهجة لسكان المدن المكتظة بالسكان . ويجب ألا ننظر إلى هذه الرسوم بعين هذه الأيام ، فأذواقنا اليوم أقل تحرراً وأكثر تحفظاً من أذواق لأقدمين ، ونحن نفضل أن نترك الجدران كما هى مقصورة على وظيفتها ، وقد كنا حتى

الأمس القريب نتردد فى أن نغطيها بالألوان . أما الإيطالى فكان الجدار له بمثابة السجن ، وقلما كان يطل منه على العالم من خلال نافذة ؛ ولهذا كان يرغب فى أن ينسى هذا الحاجز القائم أمام عينيه ، وأن ينخدع بطريق الفن إلى جنان السلام المخضرة الناضرة . ولعله كان فى تفكيره هذا على حق ، فإن شجرة مرسومة على جدار لخير من منظر يتألف من ألف قمة من قمم سطوح المنازل الخشنة غير المصقولة التى تشوه جمال السماء كأنها قروح خبيثة فى الشمس ، ويطل عليها المرء من نافذة مسحورة فى جدار .

الفصل السابع

العمارة

١ ـ أصولها ، موادها ، أشكالها

لقد احتفظنا إلى آخر هذا الباب بأهم ما نستطيع أن نعرضه فى رومة على زائرها الذى نسيناه فى أثناء حديثنا الطويل عن فنى النقش والتصوير . أما وقد وصلنا إلى هذا الفصل الأخير فلنعرض على هذا الزائر أهم الفنون الرومانية على الإطلاق وهو فن العمارة الذى استطاعت به أن تحمى نفسها من غزو اليونان ، والذى أظهرت فيه قدرتها على الابتكار وجرأتها وقوتها . على أن الابتكار لا يكون بغير لقاح فهو كالنسب مزيج جديد من عناصر موجودة من قبل ؛ والثقافات جميعها انتقائية فى حداثة عهدها لأن التعليم يبدأ بالتقليد ، فإذا ما بلغت الروح أو الأمة أشدها طبعت بطابعها — إن كان لها طابع — جميع أعمالها وألفاظها . لقد أخذت رومة ، كما أخذ غيرها من مدائن البحر الأبيض المتوسط ، نظم العمد الدورية والأيونية والكورنثية من مصر وبلاد اليونان ، ولكنها أخذت نظام العقود والأقواس والقباب من آسـية ، ومن مزيجهما أقامت مدينة من القصور ، والأروقة ذات العمد ، والمدرجات ، والحمامات لم ير العالم مثيلا لها من قبل . ولقد أضحى فن العمارة الرومانى هو التعبير الفنى عن الروح الرومانية والدولة الرومانية : فهو يمثل الجرأة ، والتنظيم ، والفخامة ، وقد رفعت القوة العضلية هذه الصروح المنقطعة النظير فوق التلال فكانت هى الروح الرومانية ممثلة فى الجلاميد الصم .

وكان معظم كبار المهندسين المعماريين فى رومة رومانيين لا يونان ،

وقد كتب أحد هؤلاء المهندسين واسمه ماركس ڤتروڤيوس پليو Marcus Vitruvius Pallio كتاباً فى العمارة يعد من أمهات الكتب العالمية القديمة فى هذا الفن (حوالى ٢٧ ق . م)(*) . ذلك أنه بعد أن قضى فترة من الزمن مهندساً حربياً يعمل تحت إمرة قيصر فى أفريقية ، ومهندساً معمارياً فى عهد أكتاڤيان ، اعتزل العمل الرسمى فى شيخوخته ليضع أصول أعظم الفنون الرومانية وأسماها منزلة . وهو يقول عن نفسه « إن الطبيعة لم تهبنى طول القامة ، ولم تبق السنون على شىء من جمال وجهى ، وسلبنى المرض قوة جسمى ؛ ولهذا أرجو أن أكسب رضاء الناس بعلمى وبكتابى »[٢٩] . وكما أن شيشرون وكونتليان قد جعلا الفلسفة من مستلزمات الخطيب ، كذلك رآها ڤتروڤيوس من مستلزمات المهندس المعمارى ، فهى تحسن أغراضه كما يحسن العلم وسائله وأدواته ، وهى « تسمو بمداركه وتجعله رقيق الحاشية ، عادلا ، وفياً ، غير شره ، ولا يمكن أن يتم عمل صالح من غير إيمان قوى وبدين طاهرتين »[٣٠] . وقد وصف مواد البناء ، والأعمدة ، وأجزاءها ، ومختلف أنماط المبانى فى رومة ، وأضاف إلى الكتاب بحوثاً فى الآلات ، والساعات المائية ، ومقاييس السرعة(**) ، ومجارى مياه الشرب المسقوفة ، وتخطيط المدن والصحة العامة . وقد أشار ڤتروڤيوس باستعمال النظام الإشعاعى (†) فى تخطيط المدن (وهو النظام الذى خططت عليه مدينة الإسكندرية القديمة وواشنجتن الحديثة) بدل النظام المربع الذى ثبت قواعده هبودامس Hippodamus فى كثير من المدن اليونانية ،

(*) يظن بعض العلماء أن هذا الكتاب ليس من تأليف ڤتروڤيوس بل مدسوس عليه وأنه كتب فى القرن الثالث الميلادى ، ولكن الشواهد كلها تؤيد صحة نسبته إلى مؤلفه .

(**) وإذا شئت الدقة فسمه مقياس الدورات odometer ويتكون من إسفين يصل عجلة صغيرة بقطب العجلة التى يحركها ترس ، وينشأ من دورة العجلة الصغيرة الشديدة البطء عن العجلة الكبيرة سقوط حصاة فى صندوق[٣١] .

(†) أى الذى تتشعع فيه المبانى والشوارع من مركز من وسط المدينة إلى أطرافها .

(المترجم)

أشار ڤتروڤيوس باستعمال هذا النظام الإشعاعى ولكن الرومان ظلوا يخططون مدنهم على النظام المربع نظام معسكراتهم . ومما يؤثر عنه أنه حذر إيطاليا من أن الماء الذى تشربه فى كثير من أجزائها يؤدى إلى تضخم الغدة الدرقية ، وقال إن التسمم قد ينتج من الاشتغال بالرصاص ، وفسر الصوت بأنه حركة اهتزازية فى الهواء ، وكتب أول بحث باق حتى الآن فى علاقة هندسة البناء بالأصوات . وقد كان لكتابه الذى كشف من جديد فى عصر النهضة أعمق الأثر فى ليوناردو داڤنشى ، وپلاديو Palladio وميكل أنجلو .

ويقول ڤتروڤيوس إن الرومان يبنون بالخشب والآجر ، والجبس الناعم والمسلح والحجر والرخام . وكان الآجر المادة الشائعة الاستعمال فى الجدران ، والعقود والأقواس ، وكثيراً ما كان يستعمل هو والجبس لتغطية الملاط . وكان الآجر يصنع من الرمل ، والجير ، وتراب الرخام ، والماء ، ويصقل صقلا جيداً ويوضع طبقات بعضها فوق بعض ، يصل سمكها بعض الأحيان إلى ثلاث بوصات . ومن أجل هذا استطاع ذلك الآجر أن يحتفظ بشكله تسعة عشر قرناً كما نشاهد ذلك فى الكلوسيوم أما المسلح فلم تبلغ أمة من الأمم إلى وقتنا هذا ما بلغه الرومان فى صنعه واستخدامه : فقد كانوا يأخذون الرماد البركانى الكثير بقرب ناپلى ، ويخلطونه بالجير والماء ، ويضعون فيه قطعاً من الآجر ، والفخار ، والرخام ، والحجارة ، ويخرجون منها منذ القرن الثانى قبل الميلاد ملاطاً فى صلابة الصخور ، يمكن أن يصب فى أى قالب ، ولا يكاد يستعصى عليه أى شكل يراد أن يشكل به . وكانوا يصبونه كما نصبه الآن فى أحواض مصنوعة من ألواح خشبية . وبفضله استطاعوا أن يغطوا مسافات كبيرة لا عمد فيها بقباب صلبة خالية من الأكتاف الجانبية التى تحمل السقف المقوس . وهذه هى الطريقة التى شادوا بها قبة الپانثيون ، وقمم الحمامات الكبرى . واستخدمت الحجارة فى تشييد معظم الهياكل وبيوت الكبراء ، وكان من أنواعها نوع نصف شفاف يستخرج من

كپدوكية ينفذ الضوء من خلاله ، حتى أن هيكلا بنى به كان ينال كفايته من ضوء النهار وجميع نوافذه مغلقة[٣٢] وبدأت رغبة الرومان فى استخدام الرخام على أثر فتح بلاد اليونان ، وقد أشبعوا هذه الرغبة باستيراد العمد أولا ، ثم باستيراد الرخام ، ثم باستخراجه من محاجر كرارا القريبة من لونا Luna . وكان استخدام الرخام قبل أيام أغسطس مقصوراً على الأعمدة والألواح المستوية ، ثم استخدم فى عهده لتغطية الآجر والمسلح ؛ وإذا ما قال إنه ترك رومة مدينة من الرخام فيجب ألا يفهم من قوله هذا أكثر من المعنى السالف الذكر ، وهو أن بعض ما فيها من آجر ومسلح فى أجزاء متفرقة منها قد غطى بألواح من الرخام . أما الجدران المشيدة من الرخام المصمت فكانت نادرة ، وكان الرومان يميلون إلى أن يجمعوا فى البناء الواحد بين حجر مصر الأعبل الأحمر والرمادى ، وحجر عوبية البصلى(*) ذى اللون الأخضر ، ورخام نوميديا الأسود والأصفر ، وبين رخامهم الأبيض المستخرج من محاجر كرارا وأحجار البازلت ، والمرمر ، والحجر السماق ، ولم تبلغ مواد البناء فى عصر من العصور ما بلغته فى رومه من تعدد فى الأنواع والألوان .

وقد أضافت رومة إلى الطرز الدورية ، والأيونية ، والكورنثية الأنماط التسكانية والأنماط المركبة من خليط من هذه كلها أو من بعضها بصورها الأصلية أو بتعديل فيها . وكثيراً ماكانت العمد تقام من حجر واحد بدل أن تكون من حجارة مثقوبة يرتكز بعضها فوق بعض . وكانت للعمد الدورية قواعد أيونية ، واتخذت لها شكلا جديداً رفيعاً خالياً من الثنايا ، وقد تكون للتيجان الأيونية التى تعلو الأعمدة أربع تلافيف فى بعض الأحيان حتى يكون منظرها واحداً من جميع الجوانب ، أما العمد والتيجان الكورنثية فقد بلغت فى تطورها حداً من الجمال والرقة لم تبلغه نظائرها اليونانية وإن كان الإفراط فى التجميل والتنميق قد أفسد هذا الطراز من

(*) وهو المسمى بحجر السپلينو Cipollino وهو حجر جيرى مجبب يحتوى على الميكا (المترجم)

العمد فى العصور المتأخرة . ومثل هذا يقال عن الإفراط فى رسم الأزهار فوق التلافيف الأيونية لصنع التيجان المركبة من طرز مختلفة كما نشاهد ذلك فى قوس تيتس . وكانت التلافيف تنتهى أحياناً بأشكال حيوانية أو آدمية توهم الرائى بأنها ميازيب على صورة حيوانات أو أناس على غرار ما صنع منها بعدئذ فى العصور الوسطى . وكثيراً ما كان الرومان المسرفون يخلطون بين طرز مختلفة فى البناء الواحد ، كما نشاهد ذلك فى ملهى مارسلس ، يضاف إلى هذا أنهم قد بلغ بهم الشح فى بعض الأحيان حداً جعلهم يتركون العمد الجانبية ملتصقة بجسم الهيكل نفسه كما نشاهدهم فى البيت المربع maison carrée فى نيمز Nimes . وظل الرومان يضيفون العمد إلى مبانيهم يزينونها بها ولو لم يعد لها عمل أصيل بعد أن سلبها تطور العقود ما كان لها من شأن قديم فى استناد هذه المبانى إليها — وبقيت هذه العادة قائمة إلى عصرنا الحاضر دون أن يعرف مصدرها الذى أخذت عنه ؛

— ٢ —

هياكل رومة

لقد احتفظت رومة فى جميع هياكلها إلا قلة ضئيلة منها بنظام الأروقة ذات العمد ، المبسوطة عليها عوارض رئيسية تحمل السقف . وكان أغسطس متحفظاً فى الفن شأنه فى كل شىء سواه ، ولذلك استمسكت جميع الأضرحة التى بنيت بأمر منه بالتقاليد الصحيحة القديمة . ثم أخذ الأباطرة من بعده يضاعفون عدد الهياكل التى يقيمونها لآلهتهم التى تنافسهم فى السلطان والجاه ، ويغشون فجورهم بستار من التقى المعمارى ، حتى ازدحمت التلال وسدت الشوارع بالمزارات المقرمدة المذهبة . وكان چوپتر بطبيعة الحال صاحب النصيب الأوفر منها ، فكان من بين هياكله الكثيرة هيكل چوپتر المرعد ، وهيكل چوپتر المثبت الذى ثبت

أقدام الرومان وأوقف هزيمتهم فى القتال ، واقتسم مع يونو ومنيرفا أقدس مزارات رومة فوق تل الكپتول . فقد أقيم فى الحجرة الوسطى تمثال ضخم من الذهب والعاج لجوپتر الأفضل والأعظم Jupiter Optimus Maximus يحيط به من الجانبين رواق معمد ذو ثلاث طبقات . وتعزو الرواية التاريخية أول صورة من صور هذا الصرح الأعظم من الصروح الرومانية المقدسة إلى تاركونيوس بسكس وقد دمرته النار عدة مرار ، وكان فى كل مرة يعاد بناؤه بعد تدميره . واختلس استلكو فى عام ٤٠٤ م أبوابه البرنزية المذهبة ليؤدى بها رواتب جنده ، ونهب الوندال قراميد السقف المصفحة بالذهب ، ولا تزال بعض قطع من أرضيته باقية إلى اليوم .

وكان يقوم على القمة الشمالية من قمم هذا التل نفسه هيكل يونو المنذرة أو الحارسة Juno Moneto ، وهناك كانت دار سك العملة . ولا حاجة إلى أن نذكر للقارئ أن اسم دار السك (mint) والنقود (money) مصدر كثير من المطامع ، مشتق من لفظ منيتو الذى كانت تلقب به يونو . وعلى المنحدر الجنوبى من منحدرات هذا التل كان يقوم معبد ساترن (زحل) أقدم آلهة لكبتول . ويرجع الرومان تاريخ بناء هذا الهيكل لذلك الإله إلى عام ٤٩٧ ق . م ؛ وقد بقى منه حتى الآن ثمانية عمد أيونية وعارضة واحدة فوق بعض هذه العمد . و السوق الكبرى عند سفح التل كان المعبد الصغير المخصص ليانوس Janus إله البدايات كلها . وكانت أبوابه لا تفتح إلا فى زمن الحرب ولم تغلق فى أثنائها إلا ثلاث مرات فى تاريخ رومة القديم . وفى الركن الجنوبى الشرقى من أركان السوق كان هيكل كاستر و پلكس Castor anb Pollux الذى شيد فى عام ٤٩٥ ق . م ؛ وقد وصلت إلينا من بقايا هذا الهيكل الذى جدده تيبيريوس ثلاثة عمد كورنثية رفيعة ، وهى بإجماع الخبيرين أجمل العمد الرومانية على الإطلاق .

وأضاف أغسطس إلى هذه الهياكل فى سوقه هو هيكلا للمريخ المنتقم

Mars Ultor وفاء بنذره قبل فلپاى Philippi ، ولا تزال ثلاثة من عمده الفخمة قائمة فى مكانها إلى اليوم . وكان أحد أطراف ساحته الوسطى عبارة عن نصف دائرة ذات سقف مقبب ، وهى طراز معمارى أصبح فيما بعد طراز محراب الكنائس المسيحية الأولى . وأقام أغسطس على تل البلاتين هيكلا فخما من الرخام الخالص للإله أپلون نظير معونته له فى أكتيوم ، وزينه بتماثيل من صنع ميرون Miron واسكوپاس Scopas ، وأضاف إليه مكتبة فخمة ومعرضاً فنياً ، وبذل كل ما فى وسعه ليشعر الناس إن الإله قد غادر بلاد اليونان وجاء إلى رومة يحمل معه إليها زعامة العالم الروحية والثقافية ؛ بل إن أصدقاء أغسطس ، بعد أن زالت أسباب التحرج من هذا الهمس بوفاة والدة أغسطس ، قالوا إن أپلو متخفياً فى صورة ثعبان رشيق سريع الحركة هو الذى استولدها هذا الزعيم الداهية .

وكان فى الجزء الشمالى الغربى من المدينة هيكل عظيم لإيزيس Issis وعلى تل البلاتين مزار فسيح لسيبيل . وكانت فيه ، ملاذات لبعض المعانى المجردة مجسدة — كالصحة والشرف ، والفضيلة ، والوئام ، والوفاء ، والحظ ، وكثير من أمثالها . وكانت كل هذه الهياكل تقريباً تحتوى ساحات ملأى بالتماثيل والرسوم الملونة . وقد جمع ڤسپازيان فى معبد السلم العظيم الذى أقامه كثيراً من الكنوز الفنية التى كانت فى بيت نيرون الذهبى ، وبعض المخلفات التى جاء بها من أورشليم وأباح للناس مشاهدتها . ويمتاز هيكل فرتونا ڤريلس Fortuna Virilis القائم فى سوق بوريوم Forum Boarium بأنه أكمل بناء فى رومة من عهد ما قبل أغسطس احتفظ بأجزائه إلى اليوم . وكانت نساء العاصمة يترددن كثيراً على هذا الهيكل للعبادة فيه ، فقد كن يعتقدن أن الآلهة تعلمهن كيف يخفين عيوبهن عن أعين الرجال .

وقد أضاف مهندسو رومة إلى هذه الهياكل وإلى عشرات العشرات من الهياكل الأخرى المشيدة على الطراز المربع القديم ، أضافوا إليها عدة هياكل

دائرية الشكل تكشف عن سيطرتهم الحديثة على مشكلة تشييد القباب. وتقول الرواية التاريخية إن هذا الطراز من البناء مأخوذ من كوخ رميولوس المستدير الذى احتفظ به كما يحتفظ بالآثار الدينية على تل البلاتين قروناً طوالا.

ولا يكاد يقل عنه فى القدم بيت فستا Aedes Vestae الجميل المجاور لهيكل كاسترو پلكس؛ وكانت ساحته الوسطى المغطاة جدرانها بالرخام الأبيض تحيط بها عمد كورنثية جميلة، وكان سقفها قبة من الشبهان المذهب. وكان إلى جوارها قصر العذارى الفستية — ويتكون من أربع وثمانين حجرة مشيدة على نظام الأديرة حول بهو ذى عمد. ولم يكن البانثيون قد أصبح بعد هيكلا مستدير الشكل؛ فقد كان فى صورته التى أقامه عليها أجربا مستطيلا، ولكن كانت له ساحة مستديرة أمامه. وقد أقام مهندسو هدريان فوق هذه الساحة الهيكل المستدير والقبة الضخمة اللذين لا يزالان حتى الآن أعظم شاهدين على جرأة الإنسان وشجاعته.

— ٣ —

التحول الفجائى إلى الطراز المقوس

لقد كانت رومة فى عمارتها الدنيوية أعظم منها فى عمارتها الدينية. ذلك بأنه كان فى وسعها فى أولى العمارتين أن تتحرر من قيود التقاليد، وأن تجمع بين الهندسة والفن — بين المنفعة والقوة من جهة، والجمال والشكل من جهة أخرى — بطريقة اختصت بها هى لا يشاركها فيها غيرها من المدن. لقد كان الأساس الذى قامت عليه العمارة اليونانية هو الخط المستقيم (مهما أدخل عليه من التنظيم الدقيق كما يشاهد فى البارثنون): كالعمود الرأسى، والعارضة الأفقية، والقوصرة المثلثة الشكل، أما أساس هندسة البناء الرومانية الخالصة فقد أصبحت الخط المنحنى؛ ذلك أن الرومان كانوا ينشدون العظمة، والإقدام، والضخامة،

ولكنهم لم يكن فى وسعهم أن يسقفوا مبانيهم الواسعة على مبادئ الخطوط المستقيمة والأروقة ذات العمد إلا إذا أقاموا فيها مجموعة من العمد التى تعترض طرقاتها ، وكانت سبيلهم للتغلب على هذه المشكلة هى الأقواس بشكلها المستدير فى الغالب ، وما العقود إلا أقواس استطالت ، وما القباب إلا أقواس تحركت ودارت ، ولعل القواد الرومان وأعوانهم قد ألفوا فى مصر وآسية الأشكال المقوسة ، وازدادت ألفتهم لها على مر الأيام ، فأيقظوا فى مواطنهم التقاليد الرومانية والتسكانية القديمة التى طال العهد بطغيان الأنماط اليونانية عليها ، فأخذت رومة تستخدم العقود استخداماً بلغ من اتساعه أن اشتق منه فن البناء كله اسم جديد أصبح علماً عليه ولم يفارقه قط : وقد أنشأ الرومان القبوة المفصلية بوضع شبكة من الأضلاع المكونة من الآجر على طول خطوط الالتواء قبل أن يصب الملاط المسلح فى الإطار الخشبى لعمل السقف ؛ ثم أنشئوا ، بوضع قبوتين اسطوانيتين متعامدتين ، شبكة من الأضلاع والحنيات تستطيع أن تتحمل فوقها بناء أثقل منها كما تستطيع أن تتحمل دفعاً قوياً من الجانبين . هذان هما المبدآن اللذان قام عليهما الانقلاب الفجائى فى فن العمارة الرومانية وتحوله من طراز الخطوط إلى طراز الأقواس .

وبلغ الطراز الجديد كماله فى الحمامات والمدرجات الكبرى ، وكانت حمامات أجربا ، ونيرون ، وتيتس الحلقة الأولى من سلسلة طويلة انتهت بحمامات دقلديانوس ، فقد كانت هذه صروحاً من الملاط المسلح مغطاة بالجبس أو الآجر تعلو علواً شاهقاً فى الهواء . وكانت مزينة من داخلها بفساقى من الرخام والفسيفساء ، وبأعمدة مختلفة الألوان ، وسقف مزخرفة ، وصور ملونة وتماثيل . وكان فيها حجرات لخلع الملابس ، وحمامات ساخنة وباردة ، وحجرة وسطى ذات هواء دفىء ، وبرك للسباحة ، ومواضع للتمرينات الرياضية ، ومكتبات وحجر للمطالعة ، وأخرى للبحث ، وأرائك للراحة ، وأكبر الظن أنها كانت

تحتوى أيضاً على معارض فنية . وكانت أغلب الحجرات تسخن من مركز عام تمتد منه أنابيب كبيرة من الصلصال ، وتسير تحت أرض الحجرات وفى داخل الجدران . وكانت هذه الحمامات(*) الحارة أوسع وأفخم ما شيد من المبانى العامة ، ولم يوجد لها قط نظائر من نوعها فى العالم كله : وكانت جزءاً من الاشتراكية فى الترفيه عن الشعب حاولت به الزعامة أن تبرر سلطانها المطلق المتزايد .

وكانت هذه النزعة نفسها هى الحافز على بناء أعظم دور التمثيل فى التاريخ كله . وكان عدد هذه الدور فى رومة أقل منها فى العواصم الحديثة ، ولكنها كانت أوسع منها رقعة . وكان أصغرها هو الملهى الذى شاده كورنليوس بلبس Cornelius Balbus فى ميدان المريخ (١٣ ق . م) ، والذى كان يتسع لسبعة آلاف وسبعمائة من النظارة ؛ وقد أعاد أغسطس بناء ملهى بمبى الذى كان يتسع لسبعة عشر ألفاً وخمسمائة ، وأتم بناء ملهى آخر سماه باسم مرسلس Marcellus ويتسع لعشرين ألفاً وخمسمائة . وكانت هذه الدور تختلف عن مثيلاتها فى بلاد اليونان فى أنها كانت مسورة ، وفى أن مقاعد النظارة كانت تستند إلى أبنية ذات أقواس وقباء بدل أن تستند إلى منحدرات التلال . وكان المسرح وحده هو المسقف ، ولكن النظارة كانو يتقون الشمس بمظلة من نسيج التيل (velarium) كانت فى ملهى بمبى تغطى مساحة عرضها ٥٥٠ قدماً . وكانت فوق المداخل مقصورات للأعيان وذوى المناصب الكبرى فى الدولة ، وكان لبعض المسارح ستائر لم تكن ترفع إلى أعلى إذا بدأ التمثيل بل كانت تنزل فى فتحات معدة لها . وكان المسرح يرتفع على أرض الملهى بنحو خمس أقدام ، وكان الجزء الخلفى منه يتخذ فى العادة شكل بناء أنيق يمتد من أحد جانبيه إلى الجانب الآخر ، فيمكن

(*) ولقد كانت الحمامات الرومانية أنموذجاً أقيمت على مثاله مبان حديثة كثيرة واجهت نفس المشكلة التى واجهها الرومان ، وهى تغطية مساحة واسعة من الأرض بأبنية ليس فيها إلا أقل عدد مستطاع من العوائق ، ومن أشهر أمثلة هذه المبانى محطة بنسلفانيا ، والمحطة الوسطى فى نيويورك .

الممثلين بذلك من أن يسمعوا أصواتهم للعدد الجم من النظارة الذين يضمهم الملهى . ويحدثنا سنكا عن « صناع المسارح الذين يخترعون حالات ترتفع من نفسها أو أرضيات ترتفع فى سكون فى الهواء »(٣٢ ا) . وكان تغيير المناظر يحدث بوساطة مناشير دوارة أو بتحريك مجموعة منها إلى طرف المسرح أو إلى أعلاه فتنكشف بذلك المجموعة التى تليها . وكان يستعان على إسمـــاع النظارة أصوات الممثلين بوضع جرار فارغة فى أرض المسرح وجدرانه(٣٢ ب) . وكانت أمكنة النظارة تبردها جداول مائية تجرى فى مجراتها ، وكان مزيج من الماء والنبيذ وعصير الزعفران ينقل أحياناً إلى أعلى المقاعد فى أنابيب ثم يرش على النظارة على هيئة رشاش عطر(٣٢ جـ) . وكان داخل الملهى يزدان بالتماثيل وكانت صور كبيرة ترسم على المسرح بدل المناظر المتغيرة فى هذه الأيام . ولعلنا لا نجد الآن فى العالم كله ملهى مهما عظم يبلغ فى الاتساع والفخامة ما بلغه ملهى بمپى فى رومة .

وكانت حلبة الألعاب ومضمار الركض والمدرج أحب إلى الشعب من دار التمثيل . وكان فى رومة عدة مضامير تستخدم أكثر ما تستخدم المباريات الرياضية . وكان سباق الخيل والعربات وبعض الألعاب الأخرى تعرض فى حلبة فلامنيوس فى ميدان المريخ أو فى الحلبة الكبرى التى جدد قيصر بناءها بين تلى بلاتين وأفنتين . وكانت هذه الحلبة فى شكل قطع ناقص طوله ٢٢٠٠ قدم وعرضه ٧٠٥ ، وكان فيها مقاعد خشبية فى ثلاث جهات منها تتسع لمائة وثمانين ألفاً من النظارة(٣٣) . وفى وسعنا أن نقدر ثروة رومة إذا عرفنا أن تراچان أعاد بناء هذه المقاعد من الرخام .

وكان بناء الكلوسيوم بناء متواضعاً إذا قيس إلى هذه الحلبة الكبرى ، فقد كانت مقاعده لا تتسع لأكثر من خمسين ألفاً ، ولم يكن تصميمه جديداً ؛ لأن مدن إيطاليا اليونانية كانت من زمن بعيد تحتوى مدرجات مثله ؛ فقد أنشأ كوريو Curio كما قلنا من قبل مدرجاً فى عام ٥٣ ق . م ،

وبنى قيصر مدرجاً آخر فى عام ٤٦ ، وبنى استاتليوس تورس Statilius Taurus مدرجاً ثالثا فى عام ٢٩ ق.م . وكان فسپازيان هو الذى بدأ المدرج الفلافى — وهو الاسم الذى كان الرومان يطلقونه على الكلوسيوم — كما كان تيتس هو الذى أتمه فى عام ٨٠ م ، ولا نعرف اسم المهندس الذى أشرف على بنائه : وقد اختار فسپازيان لبنائه البحيرة التى كانت فى حديقة قصر نيرون بين التل الكئيلى Caelian والتل البلاتينى . وقد شيد من الحجر الترافرتينى(*) على شكل إهليلجى يبلغ طول محيطه ١٧٠٠ قدم . وكان ارتفاع سوره الخارجى ١٥٧ قدماً ، وكان مقسما إلى ثلاثة أطباق يقوم بعض طابقه الأول على أعمدة تسكانية — دورية ، ويقوم طابقه الثانى على عمد أيونية ، والثالث على عمد كورنثية ، وبين كل عمودين عقد . وكانت الدهاليز الرئيسية مسقوفة بأقبية اسطوانية تتقاطع فى بعض المواضع على طراز أديرة العصور الوسطى . وكان داخله مقسما أيضاً إلى ثلاث طبقات تستند كل منها إلى أعمدة ، وتنقسم إلى حلقات من المقصورات والمقاعد ، متحدة فى مركزها تقطعها طرقات ذات درج فتقسمها إلى « أوتاد » cunei : ويبدو داخله للناظر إليه فى هذه الأيام كأنه كتلة ضخمة من البناء قطع فيه صانع جبار عقوداً وطرقات ومقاعد . وكان داخله يزدان بالتماثيل وغيرهما من وسائل التجميل ، وكانت كثير من صفوف المقاعد مصنوعة من الرخام ، وكان للمدرج ثمانون مدخلا خصص اثنان منها للإمبراطور وحاشيته . وكانت هذه المداخل والمخارج vomitoia تكفى لإخراج الجماهير الغفيرة التى تملأ هذا المدرج الضخم فى دقائق معدودات . وكان يحيط بالحلبة التى يبلغ اتساعها ٢٨٧ قدماً فى ١٨٠ سور يبلغ ارتفاعه خمس عشرة قدما يعلوه دربزون يحمى وحوشه الآدميين من وحوش الغاب . وليس الكلوسيوم من المبانى الجميلة المنظر ، وإن ضخامته

(*) هذا هو الاسم الذى يطلقه الإيطاليون على الحجر الجيرى الذى يتكون من رواسب مياه الفوارات الذائب فيها الجير . (المترجم)

نفسها لتنم عما فى الطبيعة الرومانية من خشونة ، كما تكشف عما فيها من عظمة : وكل ما يمكن أن يقال فى مديحه أنه أكثر الخرائب التى خلفها العالم الرومانى القديم روعة . لقد كان الرومان يبنون كما يبنى الجبابرة ، ولو أننا طلبنا إليهم أن يصقلوا مبانيهم كما يصقل الصـــياغ الحلى لكلفناهم ضد طباعهم .

لقد أنشأ الفنانون الرومان فنهم من خليط مختار من الطرز الأتيكية ، والأسيوية ، والإسكندرية ، فجمعوا فيه بين التحفظ والضخامة والرشاقة : غير أنهم لم يمزجوا فى يوم من الأيام هذه الصفات لينشئوا منها تلك الوحدة الأساسية التى هى أساس من أسس الجمال . وإن فيما تتصف به المبانى الرومانية الخالصة من قوة وفجاجة لمســحة شرقية ، فهى تبعث فى النفس الرهبة لا الجمال ؛ وإن پنثيون هدريان نفسه ليعد من عجائب الصروح أكثر مما يعد من روائع الفن ؛ فليس لنا أن نتطلع فى الفن الرومانى إلى رقة الشعور ودقة التنفيذ اللهم إلا فى حالات نادرة كالنقوش والتحف الزجاجية الباقية من عصر أغسطس . بل يجب أن نتوقع هنا وجود فن هندسى يهدف إلى الغاية فى الصلابة والاقتصاد والمنفعة ، إلى افتتان العصامى بالضخامة والزينة وإصرار الجندى على الواقعية ، وإلى فن المحارب ذى القوة الباطشة . وإذا كان الرومان لم يصقلوا فنهم صقل الصياغ فما ذلك إلا لأن الفاتحين لا يصبحون قط صياغاً ، ولذلك صقلوه صقل الفاتحين .

وما من شك فى أنهم قد أنشأوا أكثر المدن فتنة وروعة فى التاريخ ، وأوجدوا فناً مرناً ، تصويرياً ومعمارياً فى مقدور كل إنسان أن يفهمه ، وشادوا مدينة يستطيع كل مواطن أن يعيش فيها وينتفع بها . لقد كانت جماهير الأحرار فى تلك المدينة فقيرة قليلة الثراء ، ولكنها كانت إلى حد ما تمتلك كثيراً من ثروتها : فقد كانت تأكل حب الدولة ، وتجلس بغير أجر ، أو بأجر هو والعدم سواء ، فى دور التمثيل ، وفى حلبات الألعاب ، وفى المدرجات وميادين السباق . وكانوا يمارسون ضروباً من الرياضة البدنية ،

ويتناولون المرطبات ، ويستمتعون بضروب التسلية ، ويتعلمون فى الحمامات ؛ ويتفيئون ظلال مئات من الأروقة ذات العمد ، ويمشون تحت القباب والعقود المنقوشة المزينة التى كانت تغطى أميالا كثيرة من شوارع رومة ، وتغطى ثلاثة أميال فى ميدان المريخ وحده ، ولم يشهد العالم قبل رومة عاصمة مثلها ، فقد كان فى وسطها سوق عجاجة صخابة تدور فيها رحى العمل بلا انقطاع ، وتتردد فى جنباتها أصداء أصوات الخطباء ، وتدور فيها المناقشات التى تزلزل قواعد الإمبراطورية ، ومن حولها حلقة من الهياكل ، والباسلقات ، والقصور ، ودور التمثيل ، والحمامات ، فى كثرة منقطعة النظير ؛ وتحيط بهذه الحلقة حلقة أخرى من الحوانيت مكتظة بالبائعين والمشترين ، تدوى فيها أصواتهم ، وتليها حلقة ثالثة من البيوت والحدائق ، فحلقة رابعة من المعابد والحمامات مرة ثانية ، وتنتهى بدائرة من القصور الريفية الصغيرة ذات الحدائق ، ثم الضياع التى تدفع بأطراف المدينة إلى الريف وتربط الجبال بالبحر . هذه هى رومة القياصرة — مزهوة ، قوية ، براقة ، مادية ، قاسية ، ظالمة ، مشوشة غير منظمة ، سامية رفيعة الذرى .

الباب السابع عشر

رومة الأبيقورية

٣٠ ق . م – ٩٦ م

الفصل الأول

الشعب

والآن فلندخل تلك المساكن ، والهياكل ، ودور التمثيل ، والحمامات لنرى كيف كان يعيش الرومان ، وسنراهم حين ندخلها ممتعين أكثر من فنونهم . وعلينا أن نذكر من بادئ الأمر أن أولئك القوم قد صاروا قبل عهد نيرون رومان من الوجهة الجغرافية فحسب ، ... أن الظروف التي عجز أغسطس عن التغلب عليها ، وهي ما سرى بين الأسر القديمة من عادات الامتناع عن الزواج ، وعن التناسل ، ومن قتل الأطفال ، وتحرير الأرقاء ، وما كانت تتصف به الأسر الجديدة من خصوبة نسبية ؛ كل هذا قد غير أحوال الشعب الروماني من الناحية العنصرية ، والأخلاقية ، والجسمية .

لقد كان الرومان في العهد القديم تدفعهم الغريزة الجنسية إلى كثرة النسل ، كما كانت تدفعهم إليها أيضاً رغبتهم في أن يكون لهم من بعدهم من يعنى بقبورهم ؛ أما في الوقت الذي نتحدث عنه ، فقد عرفت طبقاتهم العليا والوسطى كيف تفصل الغريزة الجنسية عن الأبوة ، فتشبع الأولى دون أن يؤدي ذلك الإشباع إلى الثانية ، كما أصبحت هذه الطبقات ترتاب في عقيد الدار الآخرة ؛

وكانت تربية الأبناء فى الزمن الأول واجبا على الآباء للدولة يحتمه عليهم الشرع ويلزمهم به الرأى العام ؛ أما الآن فقد بدا من أسخف الأشياء أن يطلب إلى الآباء أن يزيدوا عدد سكان المدينة التى ضاقت بمن فيها ؛ وكان المنافقون المداهنون لا ينفكون يتملقون العزاب ومن لا أبناء لهم من المتزوجين يطلبون إليهم أن يوصوا لهم بأموالهم بعد وفاتهم . وقد وصف چوفنال هذه الحال بقوله : « إن أكثر ما يحبب فيك أصدقاءك أن تكون لك زوج عقيم[1] » . وقد ورد على لسان شخصية من شخصيات پترونيوس : « ليس فى أقرطونا إلا طبقتان من السكان — متملِّقون ومتملَّقون ، والجريمة الوحيدة فيها أن تلد أبناء يرثون مالك من بعدك . فهى أشبه بميدان قتال فى فترة راحة : ليس فيه إلا جيف وطيور جارحة تلتهمها »[2] . وفقدت أم ولدها الوحيد فعزاها سنسكا بقوله إنها ستصبح محببة عند الناس مكرمة لأن « الثكل عندنا يزيد سلطان الثكلى أكثر مما ينقصه »[3] وكان فى أسرة جراكس اثنا عشر طفلا ، ولكننا لا نعتقد أنه كان بين طبقتى الأشراف والفرسان فى رومة على عهد نيرون خمس أسر من هذا النوع . وكان الزواج عند الرومان فى العهد القديم رباطاً اقتصاديا يدوم مدى الحياة ، أما الآن فقد أصبح فى نظر مائة ألف رومانى مغامرة قصيرة الأجل ، خالية من كل معنى روحى ، وعقداً ضعيفاً يسهل التحلل منه غايته الحصول على اللذة الجسمية أو السلطة السياسية . ولكى تفلت النساء من القيود المفروضة على العزاب فى الوصايا والهبات كان بعضهن يتزوجن بالخصيان حتى لا يحملن[4] ، ومنهن من كن يعقدن زيجات صورية على رجال فقراء مشترطات ألا يطلب إليهن أن يحملن ، وأن يكون لهن من العشاق بقدر ما يرغبن[5] . وكانت موانع الحمل بنوعيها الآلى والكيميائى واسع الانتشار[6] فإذا لم تفلح أسعفهن الإجهاض بأشكاله الكثيرة . نعم إن الفلاسفة والمشترعين كانوا يحرمونه ، ولكن أرقى الأسر كانت تلجأ إليه . وفى ذلك يقول چوفنال : « إن الفقيرات من النساء

يقاسين آلام الوضع ومتاعب تربية الأبناء ، أما الفرش المذهبة فقلما تضم امرأة حاملا ؛ ألا ما أشد حذق المجهضين وما أقوى العقاقير المجهضة ! » ولكنه مع هذا يقول للزوج « أعطها الدواء وأنت مغتبط ، فإنك قد تجد نفسك ، إن ولدت ، أبا لطفل حبشي »[٧] . وأما قتل الأطفال فقد كان نادراً في هذا المجتمع المستنير(*) .

على أن قلة نسل الطبقات المثرية في رومة والإمبراطورية الرومانية كان يقابله من الناحية الأخرى كثرة الهجرة وخصب الطبقات الفقيرة ، ولذلك ظل سكان رومة والإمبراطورية في ازدياد مستمر . وقد قدر بلوك Belock سكان رومة في عهد الإمبراطورية الأولى بثمانمائة ألف ، وقدرهم جين بمليون ومائتي ألف ، وقدرهم ماركوارت Marquardt (**) بمليون وستمائة ألف . وقدر بلوك سكان الإمبراطورية بأربعة وخمسين مليونا ، كما قدرهم جين بمائة وعشرين مليوناً[١١] . وظل عدد الأشراف كما كان من قبل ، ولكنهم كانوا كلهم تقريباً يختلفون في أصولهم عن الأشراف القدامى ؛ فلم نعد نسمع عن أسر إمليوس ، وكلوديوس وفابيوس ، وفليريوس ؛ ولم يبق من العشائر القديمة التي ظلت من عهد قيصر تفخر بأصولها وتختال في رومة إلا أسرة كرنليوس . فمن هذه الأسر من حصدته الحروب أو الاغتيالات السياسية ؛ ومنها من قضت عليه قيود الزواج وتحديد النسل ، والعجز الجنسي ، ومنها من افتقر حتى أصبح في عداد الطبقات الدنيا . وحل محل هذه الأسر في رومة رجال الأعمال الرومان ، وأعيان البلدان

(*) وكان بعض البنات واللقطاء يعرضون أحياناً لتقلبات الجو في القرن الأول بعد الميلاد . وكان ذلك يحدث عادة عند عمود الرضاع Columna Lactaria — وقد سمي بهذا الاسم لأن الدولة كانت ترسل المرضعات لتغذية من يعثر عليهن هناك من الأطفال وإنقاذ حياتهم[١٠] . على أن التخلص من الأطفال غير المرغوب فيهم عادة شائعة في كل المجتمعات إلا المجتمعات التي لا تستمتع بقسط من الحضارة .

(**) وقد بلغ عدد سكان رومة في عام ١٩٣٧ حوالي ١٫١٧٨٫٠٠٠ نسمة .

الإيطالية ، وأشراف الولايات النائية . وقد قال عضو فى مجلس الشيوخ عام ٥٦ م : إن « الكثرة الغالبة من الفرسان ، والعدد الكبير من أعضاء مجلس الشيوخ ، من نسل الأرقاء »(١٢) . ولم يمض على هؤلاء الأعيان الجدد إلا جيل أو جيلان حتى تخلقوا بأخلاق من سبقوهم ، فقل نسلهم ، وزاد ترفهم ، واستسلموا لتيار المهاجرين من الشرق .

وكان أول القادمين هم اليونان — ولم تكن كثرتهم من بلاد اليونان الأصلية ، بل كانت من شمال أفريقية ، ومصر ، وسوريا ، وآسية الصغرى ، وكانوا على جانب كبير من الحماسة ، والنشاط ، ولين العريكة ، أشبه بأهل الشرق ؛ وكانت كثرتهم من صغار التجار أو المستوردين ؛ وكان بعضهم علماء ، وكتاباً ، ومعلمين ، وفنانين ، وأطبـــاء ، وموسيقيين ، وممثلين ؛ وكان بعضهم يشتغلون بالفلسفة حباً فى دراستها أو طمعاً فيما يعود عليهم من المال من هذه الدراسة ؛ وكانت كثرتهم من الموظفين الإداريين ورجال المال القادرين ، وكان الكثيرون منهم لا يرعون عهداً ولا ذمة ، وكلهم تقريباً لا يؤمنون بدين . وقد أتى معظمهم فى الأصل أرقاء ، ولم يكونوا ممتازين فى شىء ، وحافظوا بعد تحررهم على مظاهر الذلة والخنوع وعلى ما كانوا يبطنونه من حقد على أغنياء الرومان ، الذين أصبحوا من الناحية الذهنية كلا على التراث الثقافى لليونان الأقدمين ، واستهزاء بهم . وغصت شوارع العاصمة باليونان الثرثارين الكثيرى الجلبة والحركة ، وكان السائر فيها يسمع اللغة اليونانية أكثر مما يسمع اللغة اللاتينية ، وكان على الكاتب إذا أراد أن تقرأ جميع طبقات الأمة كتابته أن يكتبها باليونانيـــة . وكان المسيحيون الأولون فى رومة كلهم تقريباً يتكلمون اللغة اليونانية ، وكذلك كان السوريون والمصريون ، واليهود . وكانت جالية كبيرة من المصريين — تضم تجاراً وصناعاً وفنانين — تعيش فى ميدان المريخ . أما السوريون ، النحاف الأجسام ، الوادعون الظرفاء ، الماكرون الدهاة ، فكان الإنسان يلتقى بهم فى كل مكان فى العاصمة

يشتغلون بالتجارة ، والصناعات اليدوية ، والأعمال الكتابية ، والشئون المالية ، والاحتيال على الناس .

وأصبح اليهود من عهد قيصر عنصراً قوياً من عناصر السكان فى العاصمة وقد وفد منهم إليها عدد قليل من عهد ماض يرجع إلى عام ١٤٠ ق . م[١٣] وجيء بعدد كبير منهم إلى رومة أسرى حرب بعد حروب بمبي التى شبت فى عام ٦٣ ق . م ، ولم يلبث هؤلاء أن تحرروا من الرق بجدهم ، واقتصادهم ، أو لأن استمساكهم الشـديد بأوامر دينهم كان يضايق سادتهم . ولم يحل عام ٥٩ ق . م حتى كان عددهم فى الجمعية قد ازداد إلى حد جعل شيشرون يصف معارضتهم بأنها مجازفة سياسية غير مأمونة العاقبة[١٤] . ويمكن القول بوجه عام إن الحزب الجمهورى كان معادياً لليهود ، وإن الشعب والأباطرة كانوا من أصدقائهم[١٥](*) وقبل أن ينصرم القرن الأول كان عددهم فى العاصمة قد بلغ ٢٠٫٠٠٠[١٨] ، وكانت كثرتهم تسكن على الضفة الغربية من نهر التيبر ، وكانت تعانى الأمرين من جراء الفيضان الموسمى لهذا النهر . وكانوا يعملون فى أحواض السفن القريبة من مساكنهم : ويشتغلون بالصناعات اليدوية وبتجارة الأشتات فى الحوانيت ، أو بالتنقل فى أحياء المدينة . وكان منهم أغنياء ، ولكن لم يكن من بينهم إلا عدد قليل من كبار التجار ، فقد كان السوريون واليونان هم المسيطرين على التجارة

(*) وقد ظلوا على الدوام يؤيدون قيصر ، وبسط عليهم فى نظير ذلك حمايته ورعايته ، وحذا أغسطس حذوه فى هذه الخطة ؛ أما تيبيريوس فكان معادياً لكل العقائد الأجنبية ، ولذلك جند أربعة آلاف منهم ليحاربوا فى سردينية حرباً لا تكاد تختلف فى شيء عن الانتحار ، ثم أخرج البقية الباقية منهم من رومة (١٩ م)[١٦] . ثم أدرك بعد اثنى عشر عاماً من ذلك الوقت أن سجانوس قد أضله فى هذا الأمر ، فألغى مرسوم نفيهم ، وأمر ألا يضار اليهود فى ممارسة طقوس دينهم وفى اتباع عاداتهم[١٧] . وبسط عليهم كالجيولا حمايته فى رومة ، ولكنه قاومهم فى خارجها ؛ ونفى كلوديوس بعضهم على أثر ما أحدثوه فى المدينة من شغب ، ولكنه أصدر فى عام (٤٢) مرسوماً عاماً يؤيد فيه حقهم أياً كان مقامهم فى أنحاء الإمبراطورية فى أن يعيشوا حسب قوانينهم . وفى عام ٩٤ نفى دومتيان اليهود من رومة إلى وادى إجيريا Egeria ، وفى عام ٩٦ أعادهم نيرفا Nerva إلى رومة ، ورد إليهم حقوقهم المدنية ، وسمح لهم أن يستمتعوا بالطمأنينة جيلا كاملا .

الدولية . وكان لهم فى رومة عدد كبير من المعابد ، لكل واحد منها مدرسته ، وكنيته ، ومجلسه المكون من شيوخهم[١٩] ، والمعروف باسم الجروسيا Gerousia . وكانت نزعة اليهود الانفصالية ، واحتقارهم للشرك وعبادة الأوثان ، وتزمتهم الخلق ، وامتناعهم عن الذهاب إلى دور التمثيل أو مشاهدة الألعاب ، وعاداتهم وطقوسهم الدينية الغريبة ، وفقرهم وما نتج عنه من قذارة ، كان كل هذا سبباً فى كراهية العناصر الأخرى لهم ، وهى الكراهية المألوفة فى تاريخهم الطويل . وقد ندد جوفنال بكثرة تناسلهم ، كما ندد تاستس بوحدانيتهم الدينية وأميانس مرسلينس Ammianus Marcellinus بشغفهم بالثوم[٢٠] . وزادت البغضاء بينهم وبين غيرهم من الطوائف بعد استيلاء الرومان على بيت المقدس وسط معارك دموية ، ومثلت فى موكب النصر الذى استقبل به تاستس جماعة كبيرة من الأسرى اليهود والغنائم المقدسة ، كما مثلت رموز من هذا النوع على ما أقيم له من أقواس النصر ، وأضاف فسپازيان إلى أذاهم السخرية منهم وأمر أن يخصص من ذلك الوقت نصف الشاقل ، الذى كان يرسله اليهود المشتتون لصيانة الهيكل ، لتعمير رومة . على أن كثيراً من الرومان المتعلمين كانوا يعجبون بعقيدة التوحيد اليهودية ، ومنهم من اعتنق هذا الدين ، وكان الكثيرون منهم حتى من بين الأسر الغنية يتخذون يوم السبت اليهودى يوم عبادة وراحة .

وإذا ما أضفنا إلى اليونان ، السوريين ، والمصريين ، واليهود ، وبعض النوميديين ، والنوبيين ، والأحباش الأفريقيين ، وقليلا من العرب ، والبارثيين ، والكپدوكيين ، والأرمن ، والفريجيين ، والبثينيين الأفريقيين ؛ « والبرابرة » الأقوياء من دلماشيا ، وتراقية ، وداشيا ، وألمانيا ، والأشراف ذوى الشوارب من غالة ، والشعراء والفلاحين من أسپانيا ؛ « والمتوحشين ذوى الوشم من بريطانيا » إذا ما أضفنا هؤلاء كلهم إلى اليونان كانت لنا صورة من الأجناس المختلفة التى تتكون منها روما الدولية . وقد دهش مارتيال أشد

الدهشة من قدرة عاهرات رومة على أن يكيفن لغتهن ومفاتنهن حسب أجناس من يترددون عليهن من هذا الخليط ، وحسب أهوائهم[٢٣] . وكان چوڤنال يقول وهو متألم إن نهر العاصى ، أكبر أنهار سوريا يصب فى نهر التيبر[٢٤] ، ووصف تاستس العاصمة بأنها « بالوعة أقذار العالم »[٢٥] . وكانت وجوه الشرقيين ، وأساليبهم ، وملابسهم ، وألفاظهم ، وحركاتهم ، وإشاراتهم ، ومنازعاتهم ، وأفكارهم ، وعقائدهم ، عنصراً كبيراً من حياة المدينة الزاخرة ، وما وافى القرن الثالث بعد الميلاد حتى كانت حكومة المدينة ملكية مطلقة كحكومات البلاد الشرقية ، وما وافى القرن الرابع حتى كان دين رومة ديناً شرقياً ، وحتى خر سادة رومة سجداً لإله الأرقاء .

على أن هذا الحشد الخليط لم يخل من عناصر النبل والكرامة ، فقد جهر بسخطه على پوپيا عشيقة نيرون فى الوقت الذى صمت فيه الشيوخ فلم يجرؤوا على النطق بكلمة ؛ وهاجم مجلس الشيوخ ليحتج على قتل أرقاء بدونيوس سكندس جملة[٢٦] ، ولم تكن الفضائل البسيطة التى يتحلى بها الرجل العادى معدومة فى هذا المجتمع ؛ فقد كانت حياة الأسرة اليهودية مثلا يحتذى فى الحياة الصالحة ؛ وكانت الطائفة المسيحية القليلة العدد تقض بتقواها ورقة حاشيتها مضاجع العالم الوثنى المنهمك فى ملذاته وشهواته . لكن معظم الوافدين إلى رومة قد فسدت أخلاقهم بلا ريب حين انتزعوا من بيئاتهم ، وثقافاتهم ، وقوانينهم الأخلاقية التى نشأوا فيها ودرجوا عليها . وقضت أعوام الاستعباد الطوال على ما كانوا يتصفون به من احترام الذات الذى هو عماد الاستقامة والخلق الطيب ، وجردهم احتكاكهم فى كل يوم بطوائف من الخلائق مختلفى العادات والمشارب من كثير مما بقى لهم من أخلاق كريمة تأصلت فى نفوسهم بحكم العرف المألوف والعادة . ولو أن رومة لم تبتلع هذا العدد الكبير من الناس فى هذا الوقت القصير ، ولو أنها ألحقت هؤلاء الوافدين كلهم بمدارسها بدل أن تلحقهم بأقذر أحيائها ، ولو أنها عاملتهم على أنهم رجال ذوو مزايا كامنة فى نفوسهم تستطيع الكشف عنها

والانتفاع بها ، ولو أنها أغلقت أبوابها حيناً بعد حين فى وجه الوافدين حتى تستطيع عملية الهضم والتمثيل أن تجارى عملية الهجرة وتلاحقها ، لو أنها فعلت هذا لكان فى مقدورها فى أكبر الظن أن تكسب من هذا الاندماج قوة عنصرية وأدبية جديدة ، ولبقيت رومة رومانية ، ولظلت حصن الغرب الحصين الناطقة بمبادئه والمعبرة عن آرائه . أما وهى لم تفعل هذا فقد كان ذلك الواجب شاقاً عليها لا تستطيع الاطلاع به . وقضت على المدينة الظافرة سعة ملكها واختلاف الأجناس الخاضعة لحكمها ، ورق دمها الوطنى وخف فى محيط رعاياها الزاخر . وانحطت طبقاتها المتعلمة إلى ثقافة من كانوا عبيداً لها ، لأنهم لكثرتهم كانوا أقوى من سادتهم ، فغلبت كثرة هؤلاء على فضائل أولئك ومميزاتهم ؛ وأصبح المغلوبون المخصبون سادة فى بيوت الأسياد العقيمين الجدبين .

الفصل الثاني

التعليم

لسنا نعرف الشيء الكثير عن أطفال الرومان ، ولكن في وسعنا أن نحكم ، استناداً إلى الفن الروماني وشواهد القبور الرومانية ، أن الأطفال كانوا بعد أن يولدوا يصبحون موضع الحب المفرط غير الحكيم . ونرى جوڤنال يخرج أحياناً عن غضبة ليكتب قطعة رقيقة تفيض بالعاطفة عن المثل الطيبة التي يجب علينا أن نعرضها على الأطفال ، وعن المناظر السيئة والأصوات المنفرة التي يجب أن نبعدهم عنها ، وعن مظاهر الاحترام التي يجب أن نتحلى بها أمامهم في جميع الأوقات حتى الأوقات التي نظهر لهم فيها منتهى الحب[٢٧] . ويطلب فاڤورينوس ، في مقال لو أنه كتب قبل عهد روسو لكان تقليداً ساخراً له ، إلى الأمهات أن يرضعن أولادهن[٢٨] . ويضرب سنكا وأفلوطرخس على هذه النغمة نفسها وإن لم يستمع إليها إلا عدد قليل : فقد كان استخدام المراضع هو القاعدة المتبعة لدى جميع الأسر التي تمكنها مواردها من استخدامهن ، ويبدو أن هذه العادة لم تنشأ منها مآس لهذه الأسر[*] .

وكانت التربية الأولى تقوم بها المراضع ، وكن في العادة يونانيات . وكن يقصصن عليهم قصصاً خرافية تبدأ عادة بهذه العبارة : « يحكى أن ملكا وملكة . . . » وكان التعليم الابتدائي لا يزال من المشروعات الفردية ، وكثيراً

(*) وكانت اللعب والألعاب كثيرة كما هي في هذه الأيام ، فكان أطفال الرومان يقفزون فوق خطوط مرسومة على الأرض ، ويشدون الحبل ، ويصوبون النقود إلى هدف . وكان منها تغمية العينين ، والاستخفاء والبحث ، وكان منها اللعب بالدمى والأطواق ، والقفز على الحبل واتخاذ العصى خيولا ، وعمل الطائرات الورقية . وكان عند شباب الرومان خمس ألعاب بالكرة مختلفة بعضها عن بعض ، منها واحدة شبيهة بلعبة كرة القدم في هذه الأيام إلا أنها كانت تستخدم فيها الأيدي والأذرع بدل السيقان والأقدام[٢٩] .

ما كان الأغنياء يستأجرون المربين لأبنائهم ، ولكن كونتليان حذرهم من هذا العمل كما حذر منه إمرسنEmerson لأنه يحرم الطفل صداقة زملائه التي لا غنى له عنها في نشأته ، كما يحرمه عامل المنافسة التي تنبه قواه وتنشطها . وكان أبناء الطبقات الحرة وبناتها يدخلون المدرسة الأولية عادة في سن السابعة : يصحب كلا منهم في غدوه ورواحه « مرشد الطفل » (بداجوج paedagogue) ليحافظ عليه من الناحيتين الجسمية والخلقية . وانتشرت هذه المدراس في جميع أنحاء الإمبراطورية فلم تخل منها بلدان الريف الصغيرة . وتوحي الكتابة المخرفشة(*) التي كشفت على جدران بمبي بأن أهلها لم يكن بينهم أميون ، وأكبر الظن أن التعليم كان وقتئذ منتشرا في عالم البحر الأبيض انتشاراً لا يقل عنه في أي وقت سابق لهذا العهد أو لاحق . وكان المرشد (البدجوج) والمعلم (لودى مجستر Ludi magister) من اليونان الأرقاء أو المحررين . وكان كل تلميذ في أيام هوراس وفي البلدة التي كان يعيش فيها يؤدى للمدرس في كل شهر ثمانية آسات (٨⁄٥٠ من الريال الأمريكي)[٣٠] . وبعد ثلثمائة وخمسين سنة من ذلك الوقت جعل دقلديانوس الحد الأعلى للمدرس في المرحلة الأولية من مراحل التعليم خمسين ديناراً (٢٠ ريالا أمريكيا) عن كل تلميذ في كل شهر ، وفي وسعنا أن نحكم من هذا على ارتفاع قدر المدرس أو انخفاض قيمة الآس .

فإذا بلغ التلميذ (أو التلميذة) الثانية عشرة من عمره ، وكان ناجحا ، أدخل مدرسة ثانوية أو عالية ، وكان في رومة مائة وثلاثون مدرسة من هذا النوع . وكان التلاميذ يدرسون فيها قدراً أوفى من النحو ، واللغة اليونانية ، والآداب اليونانية واللاتينية ، والموسيقى ، والفلك ، والتاريخ ، والأساطير ، والفلسفة ؛ وكانت الطريقة المألوفة في هذه الدراسة هي المحاضرات التي تشرح أقوال الشعراء الأقدمين . ويلوح أن منهج الدراسة حتى هذه المرحلة كان واحداً للذكور والإناث

(*) في المحيط الخرفش المخلط وقد ترجمنا بها كلمة scribbling . (المترجم)

على السواء ، ولكن البنات كثيراً ما كن يتلقين فضلا عن هذا دروسا فى الموسيقى والرقص وإذ كان المدرسون فى المدارس الثانوية (جرماتيشى grammatici) من المحررين اليونان على الدوام ، فقد كانوا يوجهون معظم اهتمامهم إلى آداب اليونان وتاريخهم بطبيعة الحال ؛ ومن أجل هذا اصطبغت الثقافة الرومانية بالصبغة اليونانية ، حتى إذا ما أشرف القرن الثانى الميلادى على نهايته ، كانت اللغة اليونانية لغة التعليم العالى كله تقريباً ، وضاعت الآداب اللاتينية فى غمرة عاوم ذلك العصر وثقافته .

أما الدراسات التى تعادل الدراسات فى الكليات والجامعات فى هذه الأيام فكان مقرها مدارس الخطباء . ولم يكن فى الإمبراطورية مكان يخلو من الخطباء الذين يدافعون عمن يستأجرونهم فى دور القضاء أو يكتبون لهم الخطب ، أو يلقون المحاضرات العامة ، أو يعلمون التلاميذ فن الخطابة ، أو يقومون بهذه الأعمال كلها . وكان الكثيرون منهم ينتقلون من مدينة إلى مدينة ، يتحدثون فى الأدب ، أو الفلسفة أو السياسة ، ويعرضون على المستمعين كيف يطرقون أى موضوع بمهارة الخطباء البلغاء . ويحدثنا بلنى الأصغر عن إسيوس Isaeus اليونانى وكان وقتئذ فى الثالثة والستين من عمره فيقول :

كان يعرض على سامعيه عدة أسئلة للمناقشة ويترك لهم الحرية الكاملة فى اختيار أيها يشاءون ، بل كان يطلب إليهم أحياناً أن يختاروا له الناحية التى يجب أن يؤيدها ، ثم يقوم ، ويرتدى ثوبه ويبدأ حديثه . . . وكان يعرض موضوعه عرضاً لبقاً جميلا ، وكان قصصه واضحاً ، ونقاشه متيناً قويا يشهد بالذكاء والفطنة ، ومنطقه قويا ، ولغته بليغة إلى أقصى حدود البلاغة[٣١] .

وكان يسمح لهؤلاء الرجال أن يفتتحوا المدارس ، ويستخدموا فيها مساعدين لهم ، ويجمعوا عدداً كبيراً من الطلاب . يدخلونها حوالى السنة السادسة عشرة من العمر ، ويدفعون من الأجور ما يصل أحياناً إلى ألفى سسترس

عن كل منهج فى مادة من مواد الدراسة : وكانت أهم موضوعات الدرس هى الخطابة ، والهندسة النظرية ، والفلك ، والفلسفة — وكانت هذه المادة الأخيرة تشمل الكثير مما يطلق عليه الآن اسم العلوم الطبيعية . ويتكون من هذه المواد ما يعرف « بالتعليم الحر » أى المخصص لأبناء الأغنياء الأحرار (homoliber) ، وهم الذين لم يكونوا فى أغلب الظن يقومون بأى عمل جثمانى . وقد شكا بترونيوس ، كما يشكو كل جيل ، من أن التعليم لا يؤهل الشبان لمواجهة ما سوف يعترضهم من المشاكل فى مستقبل حياتهم فيقول : « إن المدارس هى الملومة فيما يتصف به شبابنا من سخف وبلاهة ، لأنهم لا يستمعون فيها إلى شىء من شئون الحياة اليومية »[٣٢] . وكل ما نستطيع أن نقوله نحن عنها إنها كانت تربى فى الطالب المجد ملكة التفكير الواضح السريع ، الذى امتازت بها مهنة القضاء فى جميع العصور ، وعلمتهم تلك البلاغة الخلابة التى لا تتقيد بالقويم من المبادئ أو الأخلاق ، والتى امتاز بها خطباء الرومان . ويبدو أن هذه المدارس لم تكن تمنح خريجيها إجازات علمية ؛ وكان فى وسع الطالب أن يبقى فيها ما شاء ، وأن يختار من المواد ما يريد ؛ من ذلك أن أولس جليوس Aulus Gellius بقى فى إحداها حتى بلغ الخامسة والعشرين . وكانت مفتحة الأبواب للنساء حتى المتزوجات منهن . ومن شاء من الطلاب أن يستزيد من التعليم انتقل إلى أثينة لدراسة الفلسفة من منابعها الفياضة ، أو إلى الإسكندرية لدراسة الطب ، أو إلى رودس لدراسة آخر دقائق علوم البلاغة . وكان شيشرون يدفع عن ابنه فى جامعة أثينة ما قيمته أربعة آلاف ريال أمريكى فى كل عام .

وكانت مدارس البلاغة حين جلس فسبازيان على العرش قد بلغت من الكثرة وقوة النفوذ درجة رأى معها هذا الإمبراطور الداهية أن من الحكمة أن ينقل كبرياتها إلى العاصمة ، وأن يضعها تحت إشراف الحكومة ، وذلك بأن يدفع إلى كبار الأساتذة فيها مرتبات من قبل الدولة ، بلغ أعلاها

مائة ألف سسترس (نحو عشرة آلاف ريال أمريكى) فى كل عام . ولسنا نعرف كم عدد الأساتذة الذين خصهم فسپازيان بهذه المرتبات أو عدد المدن التى فاضت عليها أمواله . ولكننا نسمع بالإضافة إلى هذا عن هبات من الأفراد للتعليم العالى ، كما فعل پلنى الأصغر فى كومم Comum[٣٣] . وأعطى تراچان رواتب لخمسة آلاف طالب ، كان لهم من العقل أكثر مما لهم من المال . فلما جلس هدريان على العرش كانت البلديات هى التى تنفق على المدارس الثانوية فى معظم مدائن الإمبراطورية ، وخصص معاش للمدرسين بعد تقاعدهم . وأعفى هدريان وأنطونيوس كبار الأساتذة فى كل مدينة من الضرائب وغيرها من الأعباء العامة . وبلغ التعليم ذروته فى الوقت الذى انتشرت فيه الخرافات ، وفسدت الأخلاق وذوى غصن الآداب .

الفصل الثالث

الرجال والنساء

كانت الحياة الخلقية خاضعة للرقابة الشديدة عند البنات وللإشراف مع الرفق عند الشبان . وكان الرومان ، كما كان اليونان ، يتغاضون عن اتصال الرجال بالعاهرات . وكانت هذه المهنة ينظمها القانون ويخضعها لإشرافه ، فكان يحتم ألا توجد المواخير إلا فى خارج أسوار المدن ، وألا تفتح إلا ليلا وكان يناط بالإيديل تسجيل أسماء العاهرات ، ويحتم عليهن أن يلبسن الطوغة Toga بدل الاستولا Stola(*) . وكان بعض النساء يسجلن أسماءهن فى سجل العاهرات ليتخلصن من ضروب العقاب التى يفرضها القانون على الزانيات . وكانت الأجور تحدد بحيث لا ترهق أية طبقة من الطبقات . فقد وصلت إلينا أنباء عن « نساء يؤجرن بربع آس » . ثم نشأت طائفة مطردة الزيادة من السرارى المثقفات اللائى يسعين لكسب الأنصار بإنشاد الشعر ، والغناء ، والموسيقى ، والرقص ، والحديث المثقف . ولم يكن الإنسان فى حاجة إلى الخروج من أسوار المدينة للبحث عن هاته النسوة أو عن غيرهن من السيدات الطيعات ، ويؤكد لنا أوفد أن من السهل أن يلقاهن تحت الأروقة ذات العمد ، وفى حلبات المصارعة ، وفى دور التمثيل ، وأنهن « لم يكن أقل عدداً من نجوم السماء »(٣٤) . وقد التقى جوفنال بهن بجوار المعابد وخاصة معبد إيزيس الإلهة الرؤوفة بالعاشقين(٣٥) . ويتهم المؤرخون المسيحيون الرومان بأن الدعارة كانت تمارس داخل الهياكل الرومانية وبين مذابحها(٣٦) .

وكان فى البلاد أيضاً رجال مخنثون . وكان اللواط محرماً بحكم القانون ولكنه

(*) الطوغة رداء رومانى خارجى شبيه بالجبة ، والأستولا رداء خارجى مثلها ويختلف عنها فى أنه طويل سابل يصل إلى القدمين . (المترجم)

كان مباحاً بحكم العادة ، وأسع الانتشار لا يرى فيه مسبة ولا عار . انظر إلى قول هوراس : « لقد أصاب قلبى سهم الحب » ، فهل يعرف القارئ من الذى رمى الشاعر بهذا السهم ؟ إنه « ليسيكوس الذى لا تضارعه أية امرأة فى رقته » ؛ ولا شئ يشفى الشاعر من هذه العاطفة القوية « إلا شعلة أخرى من نار الحب تشعلها بين جوانحه فتاة جميلة أو يشعلها فتى آخر نحيل »(٣٧) . وتدور خير نكات مارتيال الشعرية حول اللواط . ومن قصائد چوڤنال فى الهجو قصيدة لا يليق نشرها تردد شكوى إحدى النساء من هذه المنافسة المرذولة منافسة الغلمان للنساء(٣٨) . وكان الغزل الشعرى فى الذكور والإناث على اختلاف قيمته واسع الانتشار بين الشباب والفتيان الذين لم تنضج أجسامهم بعد .

وكان ثمة صراع شديد بين الزواج وبين هذه المنافذ الجنسية المنافسة له وكان يجد له أنصاراً من الذين يتوقون لأن يكون لهم أبناء ، ومن سماسرة الزواج ، وبفضل هذا العون كان فى وسع كل فتاة تقريباً أن تجد لها زوجاً مؤقتاً على الأقل . وكانت النساء غير المتزوجات اللاتى يجاوزن التاسعة عشرة من العمر يعتبرن عوانس ولكن عددهن كان قليلا . وقلما كان الخطيب يرى خطيبته قبل الزواج ، ولم تكن هناك مغازلة وتحبب ، وليس فى لغة الرومان لفظ للتعبير عن هذا المعنى . وقد شكا سنكا من أن كل شىء يجرب قبل الشراء عدا الزواج فإن العريس لا يجرب عروسه(٣٩) . ولم تكن الرابطة العاطفية قبل الزواج مألوفة ، وكان الشعر الغزلى يخاطب به النساء المتزوجات أو النساء اللاتى لا يفكر الشاعر قط فى أن يتزوج بهن . وكانت مداعبة النساء تأتى بعد الزواج ، كما كان يحدث فى الظروف المشابهة لظروف الرومان فى فرنسا فى العصر الوسيط وفى هذه الأيام . وكان سنكا الأكبر يعتقد أن الزنى منتشر بين نساء الرومان فى أوسع نطاق(٤٠) ، وكان ابنه الفيلسوف يظن أن المرأة المتزوجة التى تقنع بعاشقين تعد آية فى الإخلاص لزوجها(٤١) . ويقول أوڤد الساخر : ليس ثمة نساء طاهرات إلا اللاتى لم يطلبهن أحد ، وإنه

الرجل الذى يغضب من صلات زوجته الغرامية رجل جلف[٤٢] . قد لا تكون هذه إلا أساليب أدبية مما يلجأ إليه الكتاب ، ولعل أصدق منها تلك القبرية التي كتبها كونتس ڤسپلو Quintus Vespillo على قبر زوجته : « قلما يدوم زواج حتى الموت من غير طلاق ، ولكن زواجنا ظل زواجاً سعيداً إحدى وأربعين سنة »[٤٣] . ويحدثنا چوڤنال عن امرأة تزوجت ثمانى مرات فى خمس سنين[٤٤] ؛ وسبب ذلك أن الرابطة بين الزوجين لم تكن فى بعض الأحيان هى الحب بل كانت المال أو السياسة ، ومن أجل ذلك كانت بعض النساء يرين أنهن قد أدين واجبهن كاملا إذا ما أسلمن بائنتهن إلى أزواجهن وأجسامهن إلى عشاقهن . ويقول چوڤنال على لسان زانية تخاطب زوجها الذى فاجأها على غير انتظار : « ألم نتفق على أن يفعل كل منا ما يحلو له ؟ »[٤٥] . وكان للمرأة فى ذلك العهد مثل ما لها الآن من « الحرية » الكاملة إذا ما استثنينا من ذلك الحقوق السياسية الشكلية وحرفية القوانين الميتة . لقد كان التشريع يبقى المرأة خاضعة أسيرة ، ولكن العادة جعلتها حرة طليقة .

وكان معنى هذا التحرر فى بعض الأحيان أن تقوم بنصيبها من العمل كما هى الحال فى هذه الأيام ؛ فمنهن من كن يعملن فى الحوانيت أو المصانع وخاصة فى الحرف المتصلة بالنسيج ، ومنهن من أصبحن محاميات أو طبيبات[٤٦] ؛ وأصبح لبعضهن سلطان سياسى قوى ؛ وكانت زوجات حكام الأقاليم يستعرضن الجند ويخطبنهم[٤٧] . وكانت العذارى الڤستية يتوسطن لأصدقائهن فى الحصول على المناصب السياسية ، وكانت نساء پمپى ينقشن على الجدران أسماء من يفضلن من الرجال لتولى هذه المناصب . وكان المحافظون يبدون الألم والشماتة حين ظهر لهم أن قد وقع ما حذرهم منه كاتو حين قال إن النساء إذا ما تساوين بالرجال سيحولن هذه المساواة إلى سيادة لهن . وقد ارتاع چوڤنال حين رأى من النساء ممثلات ، ورياضيات ، ومصارعات وشاعرات[٤٨] . ويصفهن مارتيال بأنهن يصارعن

الوحوش ، ومنها السباع فى المجتلد(٤٩) . ويحدثنا استاتيوس عن نساء قتلن فى هذه المصارعات(٥٠) . وكانت النساء ينتقلن فى الشوارع محمولات فى الهوادج . « يعرضن أنفسهن من كل ناحية للناظرين »(٥١) . وكن يتحدثن إلى الرجال فى الأروقة ، والمتنزهات والحدائق ، وساحات المعابد ؛ ويرافقنهم إلى المآدب العامة والخاصة ، وإلى المدرجات ، ودور التمثيل ، حيث « تكون أكتافهن العارية » كما يقول أوفد « من المناظر التى تسر العين وتبعث على التفكير »(٥٢) . والحق أن المجتمع الرومانى فى ذلك العهد كان مجتمعاً مرحاً ، متعدد الألوان ، مختلط الصلات الجنسية ، لو شهده اليونان فى عصر بركليز لتولتهم منه الدهشة ؛ وكانت نساء الطبقات الراقية فى فصل الربيع يملأن القوارب ، والشواطئ ، والبيوت الريفية ذات الحدائق فى بايى Baiae وغيرها من المصايف تعج بضحكهن ، ويعرضن فيها جمالهن ، ومغامرات عشقهن ، ودسائسهن السياسية . وكان الطاعنون فى السن من الرجال يندون بهذه الفعال وهم يتمنون أن لو استطاعوا الاستمتاع بها .

وكانت النساء الطائشات أو الفاسدات يؤلفن وقتئذ كما يؤلفن الآن أقلية ظاهرة تقع عليها العين فى كل مكان . وكان ثمة عدد يماثلهن – وإن لم يكن على الدوام ظاهرات مثلهن – من النساء اللائى يعشقن الفن أو الدين أو الأدب . فقد كان الرومان يرون أن شعر سلبيشيا Sulpicia جدير بأن يتناقله الناس كشعر تيبلس Tibullus سواء بسواء . وكان شعرها غراميا متطرفا فى الغرام ، ولكنه كان موجهاً إلى زوجها ولهذا لا تكاد ترى فيه ما يبعده عن الفضيلة(٥٣) . وكانت ثيوفيلا Theophila صديقة مارتيال فيلسوفة ، متمكنة من مبادئ الرواقيين والأبيقوريين ، وكانت بعض النساء يشغلن وقتهن فى الأعمال الخيرية والخدمات الاجتماعية ، ومنهن من أنشأن فى مدنهن المعابد ، ودور التمثيل ، والأروقة ذات العمد ، وكن يناصرن جماعات الكهنـة . وفى نقش عند لنورفيوم Lanurvium

حديث عن « جمعية النساء » (curia mulierum) . وكان فى رومة ناد للسيدات ، ولا يبعد أن إيطاليا كان بها اتحاد أهلى لنوادى النساء . ومهما يكن من أمر هذه النوادى والمجتمعات فإننا بعد أن نقرأ ما كتبه عنها مارتيال وچوڤنال لا نكاد نصدق أنه كان فى رومة هذا العدد الكبير من فضليات النساء . كان فيها أكتاڤيا التى ظلت وفية لأنطونيوس رغم خياناته الكثيرة لها ، تربى أبناءه من زوجات أخرى ، وكان فيها أنطونيا ابنتها المحبوبة وأرملة دروسس الطاهرة وأم چرمانكوس الكاملة ، وملونيا Mallonia التى أنبت تيبيريوس على ملأ من الناس لكثرة آثامه ثم قتلت نفسها ، وأريا پيتا Arria Paeta التى طعنت صدرها بالخنجر حين تلقى زوجها كاسينا بيتس Caecina Paetus أمر كلوديوس بأن يقتل نفسه ثم أسلمت هذا الخنجر وهى تحتضر إلى زوجها وهى تؤكد له « أنه لا يؤلم[٥٤] » ، وپولينا التى حاولت أن تموت مع سنكا ، وپولتا التى حاولت أن تموت جوعاً حين أمر نيرون بقتل زوجها ، ثم انتحرت مع أبيها ، لما أن صدر أمر نيرون بقتله[٥٥] . وإبكارس Epicharis المعتوقة التى تحملت كل أنواع العذاب ولم تكشف عن مؤامرة پيزو Piso . وإن ننس لا ننس النساء الكثيرات اللاتى أخفين أزواجهن وحمينهن فى عهد القتل والتعذيب والتشريد ، واللاتى رافقنهم فى المنفى ، أو دافعن عنهم كما دافعت فانيا Fannia عن زوجها هلفديوس Helvidius ، وعرضن أنفسهن لأشد الأخطار : إن هؤلاء وحدهن إذا وزن فى ميزان مع العاهرات اللاتى ورد ذكرهن فى نكات مارتيال وقوارص چوڤنال لرجحن عليهن بلا ريب .

وكان من وراء هؤلاء النسوة اللاتى اشتهرن ببطولتهن كثيرات من النساء المغمورات اللائى لم يذكر التاريخ أمرهن واللائى كان وفاؤهن لأزواجهن وتضحياتهن فى سبيل أبنائهن الدعامة القوية التى أبقت على صرح الحياة الرومانية . لقد ظلت الفضائل الرومانية القديمة — فضائل التقى والوقار

والبساطة — والإخلاص المتبادل بين الأبناء والآباء ، والشعور بالتبعة الصادر عن تعقل ورزانة ، والابتعاد عن الإسراف والتظاهر الكاذب ، ظلت هذه الفضائل كلها باقية فى البيوت الرومانية . إن الأسر المهذبة الرقيقة السليمة التى يصفها بلنى فى رسائله لم تبدأ فجاءة فى عهد نيرفا وتراجان ، بل كانت باقية هادئة فى أيام الطغاة المستبدين ، حافظت على كيانها رغم تجسس الأباطرة ، وتسفل الشعب المهين الذليل ، وانحطاط الفسقة والأراذل والمومسات . وإنا لنلمح ومضات من ضياء هذه البيوت فى القبريات التى يكتبها الأزواج لأزواجهم والأدباء لأبنائهم . وهاك واحدة منها : « هنا تثوى عظام أربليا Urbilia زوجة بريمس Primus . لقد كانت أعز على من حياتى نفسها ، لقد قضت نحبها فى الثالثة والعشرين من عمرها محبوبة من الجميع . وداعاً يا سلوتى ! » وجاء فى قبرية أخرى : « إلى زوجتى العزيزة التى عشت معها ثمانية عشر عاماً سعيدة . ولقد أقسمت من فرط حبى لها ألا أتزوج قط غيرها »[٥٦] . وفى وسعنا أن نتصور أولئك النساء فى بيوتهن — يغزلن الصوف ، يغذين أبناءهن ويعلمنهم ، ويرشدن الخدم إلى واجباتهم ، ويحسن القيام على مصروفهن القليل ، ويشتركن مع أزواجهن فى عبادة آلهة البيت التى اعتدن أن يعبدنها من أقدم الأزمان . ولقد كانت رومة رغم ما فيها من فساد ، لا بلاد اليونان ، هى التى رفعت شأن الأسرة وسمت بها فى مدارج الرقى الجديدة فى العالم القديم .

الفصل الرابع

الثياب

إذا جاز لنا أن نحكم على الرومان من بضع مئات من التماثيل ، قلنا إن رجال الرومان فى عهد نيرون كانوا أكثر بدانة ، وألين أجساماً ، وأرق ملامح من أمثالهم فى عصر الجمهورية الناشئة . لقد كانت سيطرة الرومان على العالم سبباً فى احتفاظ الكثيرين منهم بالصلابة وشدة المراس ، يخشاهم الناس أكثر مما يحبونهم ؛ ولكن الطعام والخمر والكسل أثرت فى أجسام غير هؤلاء فأكسبتهم بدانة لو أنها كانت فى أسرة سپيو لجللتها العار . وكانوا لا يزالون يحلقون لحاهم — أو على الأصح كان لهم حلاقون (tensores) يحلقون لهم لحاهم . وكان اليوم الذى يحلق فيه الشاب لحيته أول مرة يوم عيد يحتفل به فى حياته . وكثيراً ما كان يهب شعر عارضيه الأول إلى إله من الآلهة دليلا على ورعه وتقواه(٥٧) . وقد احتفظ العامة من الرومان بعادتهم التى كانوا عليها فى عهد الجمهورية عادة تقصير شعر رؤوسهم ، أو إزالته كله ، ولكن عدداً متزايداً من الغنادرة(*) كانوا يقصون شعرهم ، وهكذا يمثل لنا ماركس أنطونيوس ودومتيان . وكان كثير من الرجال يتجملون بالشعر المستعار ، ومنهم من كانوا ينقشون على قحوف رؤوسهم ما يشبه الشعر(٥٨) . وكانت جميع الطبقات فى العهد الذى نتحدث عنه تلبس داخل البيوت وخارجها اللفاعة البسيطة tunic أو الصدرة الواسة blouse ؛ أما الطوغة (Toga) أو الجبة الرومانية فلم تكن تلبس إلا فى المناسبات الرسمية ، وكان يلبسها الموالى حين يستقبلهم الشريف الذى يحميهم ،

(*) جمع غندر كجندب وقنفذ وهو الغلام السمين الغليظ الناعم وهذا اللفظ هو الذى أخذ منه العامة لفظ غندور وهو المعنى الذى استعملناه فيه هنا . (المترجم)

والأشراف إذا ذهبوا إلى مجلس الشيوخ أو مشاهدة الألعاب . وكان قيصر يلبس طوغة أرجوانية ويتخذها شعاراً لمنصبه ، وقد حذا حذوه فى هذا كثيرون من كبار الموظفين ، ولكن الطوغة الأرجوانية لم تلبث أن أصبحت امتيازاً خاصاً بالأباطرة . ولم يكونوا يعرفون السراويل (البنطلون) التى تضايقنا فى هذه الأيام ، ولا الأزرار الخداعة التى لا فائدة للكثير منها ، ولا السراويل المنتفخة الضيقة عند الركبتين . ولكن الرجال بدءوا فى القرن الثانى يلفون أرجلهم باللفافات العريضة fasciae ، أما الأحذية فكانت تختلف من الخف البسيط — وهو نعل من الجلد أو الفلين مشدود بشريط من الجلد بين الأصبع الكبرى والتى تليها كما يفعل أهل نيبون Nippon — إلى الحذاء الكامل المصنوع كله من الجلد أو الجلد والقماش . وكانوا ينتعلونه عادة مع الطوغة فى المناسبات التى تتطلب ارتداء الثياب كاملة .

أما النساء الرومانيات فى عهد الإمبراطورية الأول ، كما نشاهدهن فى المظلمات وفى التماثيل وعلى النقود ، فقد كن ذوات شبه قريب بنساء الولايات المتحدة الأمريكية فى بداية القرن العشرين إذا استثنينا من هذا التعميم أنهن كلهن تقريبا كن ذوات بشرة سمراء . وكانت أجسامهن متوسطات فى النحافة ، وكانت أثوابهن تخلع عليهن قواماً رشيقاً فاتناً ، وكن يدركن قيمة ضياء الشمس ، والرياضة ، والهواء الطلق ، وما لها من أثر فى صحة الجسم واعتدال القوام ؛ وكان منهن من يمارسن الألعاب الرياضية بالأثقال ، ومنهن من لا ينقطعن عن السباحة ، ومن يعشن على نظام خاص من الطعام . وكان بعضهن يربطن صدورهن بالمشدات(٥٩) . وكانت النساء فى العادة يمشطن شعرهن ويعقدنه خلف العنق ، وكن فى الغالب يغطينه بالشباك ، ويربطنه بشريط فوق الرأس . وتطلبت الأزياء المستحدثة بعدئذ تنظيما جديداً للشعر أرق من هذا التنظيم القديم ، فكان يرفع أحيانا فوق أسلاك معدنية ، وتضاف إليه غدائر مستعارة شقراء اللون مأخوذة من شعر الفتيات الألمانيات(٦٠) . وكانت المرأة المتطرفة على

الطراز الحديث تستخدم عدداً من الجوارى ساعات طوالا فى تدريم أظافرها وتصفيف شعرها[٦١] .

وكانت أدهان الوجه والشعر كثيرة كثرتها فى هذه الأيام . ويقول چوفنال إن « التجميل » كان من أهم فنون ذلك العصر ، وقد كتب فيه الأطباء ، والملكات ، والشعراء ، مجلدات[٦٢] . وكان صوان السيدة الرومانية مستودعاً غاصاً بالأدوات - من ملاقط ، ومقصات ، وأمواس ، ومبارد ، وفراجين ، وأمشاط ، ومكاشط ، وشباك للشعر ، وضفائر مستعارة - وأباريق أو قنانى للعطور ، والأدهان والزيوت والمعاجين ، وحجارة الخفاف ، والصابون . وكانت الجموش تستخدم لإزالة الشعر ، والمراهم المعطرة لتمويجه أو تثبيته . وكانت كثيرات من النساء تضع على أوجههن فى الليل غماء من العجين ولبن الأتان وهو مزيج اصطنعته پوپيا Poppea لأنها وجدت فيه عوناً لها على إخفاء عيوب وجهها . ومن أجل هذا كانت الأتانات تصحبها أينما سافرت ، وكانت أحياناً تصطحب قطيعاً كاملا منهن وتستحم بلبنهن[٦٣] . وكانت النساء يطلين وجوههن بالمساحيق والمعاجين البيضاء أو الحمراء ، ويصبغن حواجبهن ورموشهن ، أو يطلينها كلها باللون الأسود ، وكانت الأوعية الدموية فى الصدغين ترسم فوقها أحياناً خطوط دقيقة زرقاء[٦٤] . وكان مما يشكو منه چوفنال أن المرأة الغنية « تكثر من مراهم پوپيا التى تلتصق بشفتى زوجها المنكود الحظ » ، الذى لا يرى وجهها قط . وكان أوفد يرى هذه الفنون كلها خداعاً فى خداع ، وينصح السيدات بأن يخفينها كلها عن عشاقهن عدا تمشيط شعرهن الذى يسبى عقله[٦٦] . وأضيفت الثياب الكتانية الرفيعة فى ذلك العهد إلى أثواب النساء البسيطة التى كن يلبسنها قبل حروب هنيبال . وكانت خمرهن تسدل فوق أكتافهن ، والبراقع تخفى الوجوه فتزيدهن إغراء وفتنة . وكانت الثريات من النساء يلبسن فى الشتاء أثواباً من الفراء تزيدهن جمالا على جمالهن . أما الحرير فكان واسع الانتشار يلبسه الرجال والنساء على

السواء . وكان هو والتيل يصبغ بالأصباغ الغالية ، وكثيراً ما كان الثرى الرومانى يدفع ألف دينار ثمناً لرطل من صوف صور المزدوج الصباغة(٦٧) . وكان التطريز بخيوط الذهب والفضة يستخدم لتزيين الثياب ، والسجف ، والطنافس ، وأغطية الفرش . وكانت أحذية النساء تصنع من الجلد اللين الرقيق أو القماش ، وتفصل أحياناً تفصيلا جميلا ؛ وكانت مفتوحة من أعلاها ، تزركش أحياناً بالذهب وتحلى بالجواهر(٦٨) ، وتضاف إليها الكعوب العالية أحياناً لتعوضهن ما حرمتهن منه الطبيعة .

وكانت الجواهر عنصراً هاماً فى جهاز النساء ، فكانت الخواتم ، والأقراط وعقود العنق والصدر ، والتمائم ، والأساور ، والمشابك ، من مستلزمات الحياة . وقد ارتدت لوليا پولينا Lollia Poulina يوماً ما ثوباً مغطى من رأسها إلى قدمها بالزمرد واللؤلؤ ، وكانت تحتفظ معها بالإيصالات الدالة على أن هذه الجواهر قد كلفتها أربعين مليون سسترس(٦٩) . ويصف بلنى أكثر من مائة نوع مختلفة من الحجارة الكريمة المعروفة فى رومة . وكان تقليد هذه الجواهر تقليداً محكماً صناعة رائجة يشتغل بها عدد كبير من الصناع . وكان « الزمرد » الرومانى المصنوع من الزجاج أرقى كثيراً من مثيله فى هذه الأيام ، وقد ظل بائعو الجواهر يبيعونه على أنه زمرد حقيقى حتى القرن التاسع عشر بعد الميلاد(٧٠) . وكان الرجال والنساء على السواء مولعين باقتناء الحجارة الكبيرة التى تستلفت النظر ؛ وقد وضع أحد أعضاء مجلس الشيوخ فى خاتم له « عين هر » فى حجم البندقة ، ولما سمع بذلك أنطونيوس ، أمر بأن يدون اسمه فى سجل المحكوم عليهم بالنفى ؛ ولكن الشيخ فر وفى إصبعه مليونا سسترس . وما من شك فى أن الجواهر كانت فى ذلك الوقت — كما كانت فى كثير من الأحيان — وقاية من التضخم المالى أو الثروة . وكانت الصحاف الفضية وقتئذ كثيرة مألوفة عند جميع الطبقات إلا أفقرها . وقد أصدر تيبريوس وغيره من الأباطرة

الذين جاءوا بعد عدة مراسيم تحرم الترف ، ولكنه لم يكن فى وسعة إرغام الناس على طاعتها ، وسرعان ما أغفل أمرها . وخضع تيبيريوس للأمر الواقع وأقر بأن تبذير الأشراف والحديثى النعمة يحول بين الصناع فى رومة والشرق وبين التعطل ، ويساعد على تسرب خراج الأقاليم من العاصمة . ويقول « كيف تستطيع رومة ، وكيف تستطيع الولايات ، أن تعيش بغير الترف ؟ » .

ولم تكن ثياب النساء والرجال فى رومة أكثر ترفاً من ثياب نساء هذه الأيام ، أو أكثر فخامة وأغلى ثمناً من ثياب الأشراف فى العصور الوسطى . ولم تكن الأزياء تتبدل فى رومة بالسرعة التى تتبدل بها فى المدن الحديثة ، بل كان الثوب الحسن يبقى مدى الحياة فى بعض الأحيان دون أن يصبح زياً عتيقاً . ولكننا إذا وازنا بين حياة الطبقات العليا فى رومة وبينها فى عصر الجمهورية قبل أن يأتى بمپى ولوكلس بمغانم الشرق وملذاته ، حكمنا بأن رومة أضحت فى العصر الذى نتحدث عنه جنة ينعم فيها المترفون بأفخر الثياب وأشهى الطعام المختلف الأنواع ، وأجمل الأثاث ، وأفخم البيوت . ولما أن جرد الأشراف مما كان لهم من زعامة سياسية ، وكادوا يحرمون كل سلطان سياسى ، وانسحبوا من الجمعيات السياسية إلى قصورهم ، ولم يكن عليهم من أنفسهم وازع من الأخلاق اللهم إلا وازع الفلسفة ، أطلقوا العنان لشهواتهم وأخذوا يسعون لاغتراف اللذة والتنعم بفن الحياة .

الفصل الخامس

يوم فى حياة رومانى

لقد سار الترف فى المنزل أسرع من سير الترف فى الملابس . وحسبنا أن نذكر من بين مظاهر الترف التى كانت تزدان بها القصور فى عصر نيرون أرضها المصنوعة من الرخام والفسيفساء ، وأعمدتها المقامة من الرخام والمرمر والجزع المختلف الألوان ، وجدرانها المزدانة بالصور الزاهية أو المطعمة بالحجارة الغالية الثمن ، وسقفها المصفحة بالذهب(٧١) أو المغطاة بألواح الزجاج السميك(٧٢) ، ونضدها المصنوعة من خشب الليمون وأرجلها من العاج ، وأرائكها المنقوشة بأصداف السلاحف أو العاج أو الفضة أو الذهب ، والإستبرق الإسكندرى أو الأغطية البابلية التى كان يدفع فيها الأثرياء العاديون ثمانمائة ألف سسترس ويدفع فيها نيرون أربعة ملايين(٧٣) ، والأسرة البرنزية ذات الكلال ، والثريات من البرنز أو الرخام أو الزجاج ، والتماثيل ، والصور الملونة ، والتحف الفنية ، والمزهريات المصنوعة من البرنز الكورنثى أو الزجاج المرهينى ؛ حسبنا أن نذكر هذه ليتبين القارئ ما كان ينعم به الأثرياء فى ذلك العهد .

لقد كانت القصور أشبه الأشياء بالمتاحف ، وكان لا بد من استيراد العبيد ليحرس بعضهم هذه الثروة الطائلة ، ويحرس البعض الآخر هؤلاء الحراس ؛ وكان فى بعض البيوت أربعمائة من هؤلاء العبيد ، يخدمون صاحب البيت وأسرته ، أو يشرفون على بيته ، أو يشتغلون ببعض الصناعات المنزلية ؛ وكانت حياة الرجل حتى فى أخص خصائصها يطلع عليها هؤلاء العبيد . لقد كان يأكل والأتباع عن يمينه وشماله ، ويخلع ملابسه وعند كل حذاء من حذاءيه عبد ، ويضطجع ليستريح وعند كل باب

من أبوابه خادم . لم تكن هذه هي الجنة بل كانت هي الشقاء ؛ كل الشقاء ؛ وكأنما أراد الثرى الرومانى العظيم أن يزيد حياته شقاء على شقائها ، فكان يبدأ يومه حوالى الساعة السابعة باستقبال « مواليه » والمتطفلين عليه يعرض عليهم خديه ليقبلوهما ، ثم يفطر بعد ساعتين أو نحوهما من ذلك الوقت ، ويستقبل من يزورونه من أصدقائه أو يرد لهم الزيارات . وكانت آداب اللياقة تحتم على الرجل أن يرد الزيارة لكل صديق يزوره ، ويساعده فى قضاياه وفى قضاء مطالبه ، ويشهد الاحتفال بخطبة ابنته وبلوغ ابنه سن الرشد ، وقراءة قصائده والتوقيع على وصيته . وكان يؤدى هذه وغيرها من الواجبات الاجتماعية بأدب ومجاملة لا يفوقهما أدب أو مجاملة فى أية حضارة من الحضارات . ثم يذهب الرجل العظيم إلى مجلس الشيوخ ، أو يعمل فى إحدى اللجان الحكومية ، أو يشرف على شئونه الخصوصية .

أما حياة الرجل صاحب الثروة المتواضعة فكانت أبسط من هذه الحياة السابق وصفها ، ولكنها لم تكن أقل منها مشقة ، فكان إذا انتهى من زيارات الصباح الاجتماعية عنى بأعماله الخاصة حتى منتصف النهار . وكان عامة الناس يبادرون بالذهاب إلى أعمالهم من مطلع الشمس ، ذلك أن الرومانى العادى كان ينتفع بيومه على أكمل وجه لأنه لم يكن يشترك فى الحياة الاجتماعية فى أثناء الليل . وكان يتناول وقت الظهيرة غذاء خفيفا ، ويتناول وجبة كاملة فى الساعة الثالثة أو الرابعة ، وتتأخر هذه الوجبة كلما كان الرجل أرقى منزلة . وكان الفلاح أو العامل الأجير بعد أن يتغدى ويغفو قليلا يعود إلى عمله إلى قرب الغروب ، أما غير الفلاح والأجير فكانوا يخرجون إلى التنزه فى الخلاء أو فى الحمامات العامة . وكان الرومان فى عهد الإمبراطورية يرون الاستحمام أوجب عليهم من عبادة الآلهة ، وكانوا كاليابانيين يطيقون الروائح العامة أكثر مما يطيقون رائحتهم الخاصة ، ولم يكن يضارعهم شعب آخر فى نظافة الجسم غير المصريين . وكانوا يحملون معهم مناديل (sudaria) ليمسحوا بها عرقهم[٧٤] ، ويصطنعون

الفرجون لتنظيف أسنانهم بالمساحيق والمعاجين . وكانوا فى عهد الجمهورية الأول يكتفون بالاستحمام مرة كل ثمانية أيام ، أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فكان الرومانى يستحم كل يوم وإلا نالته نكتة من نكات مارتيال . ويقول جالينوس إن القرويين أنفسهم كانوا يستحمون كل يوم(٧٥) . وكان فى معظم البيوت أحواض للاستحمام ، أما بيوت الأغنياء فكان فيها حمامات وتوابعها يتلألأ فيها الرخام والزجاج والصنابير وصفائح الفضة المثبتة على الجدران(٧٦) . لكن الكثرة الغالبة من أحرار الرومان كانت تعتمد على الحمامات العامة .

وكانت هذه الحمامات فى العادة ملكا للأفراد ، وكان عددها فى رومة عام ٣٣ ق . م مائة وسبعين حماما ، وفى القرن الرابع بعد الميلاد كان فيها ٨٥٦ حماما عدا حمامات السباحة العامة البالغ عددها ١٣٣٢(٧٧) . وكان أهم من هذه وتلك وأكثر اجتذابا للشعب الحمامات العظيمة التى أقامتها الدولة وعهدت إدارتها إلى ملتزمين ، وعينت فيها مئات من الرقيق . وكانت هذه « الحمامات الحارة » (thermae) التى شادتها أجرپا وشادها من بعدها نيرون ، وتيتس ، وتراچان ، وكركلا ، وإسكندر سفيرس ، ودقلديانوس ، وقسطنطين ، منشآت ضخمة فخمة تطبع الدولة بالطابع الاشتراكى . وكان فى حمام نيرون ١٦٠٠ مقعد من الرخام ، وكان يتسع لألف وستمائة مستحم فى وقت واحد . أما حمامات كركلا ودقلديانوس فكان الواحد منها يتسع لثلاثة آلاف . وكانت مفتحة الأبواب لكل رومانى ، ولم يكن أجرها يزيد على ما يعادل ⅓ من الريال الأمريكى(٧٨) ، وكانت الحكومة تسد العجز من أموال الدولة ؛ ويلوح أن هذا الأجر كان يشمل الزيت وخدمة المستحمين . وكانت الحمامات تفتح من مطلع الفجر إلى الساعة الواحدة بعد الظهر لاستقبال النساء ، ومن الساعة الثانية إلى الثامنة لاستقبال الرجال ، ولكن معظم الأباطرة كان يبيح للرجال والنساء أن يستحموا معا . وكانت العادة المألوفة أن يذهب الزائر أولا إلى حجرة

خاصة يبدل فيها ثيابه ، ثم ينطلق إلى مكان التمارين العضلية ليلاكم ، أو يصارع ، أو يستبق ، أو يقفز ، أو يقذف القرص أو الحربة ، أو يلعب الكرة . وكانت ألعاب الكرة على أنواع منها نوع شبيه بلعبة « الكرة الطبية » عندنا ، ومنها نوع آخر تتنازع الكرة فيه طائفتان وتعدو بها كل طائفة إلى الأمام بحماسة لا تقل عن حماسة اللاعبين من طلبة الجامعات فى هذه الأيام [٧٩] . وكان لاعبو الكرة المحترفون يأتون أحياناً إلى الحمامات ليعرضوا ألعابهم على روادها[٨٠] . أما كبار السن الذين يكتفون بأن يشاهدوا ألعاب غيرهم فكانوا يذهبون إلى حجرات التدليك حيث يزيل لهم العبيد ما تراكم فى أبدانهم من الدهن .

ثم ينتقل المستحم إلى الحمام ذاته ، فيدخل أولا حجرة متوسطة الحرارة يسخنها هواء دفىء ، ثم يخرج منها إلى الحجرة الحارة ذات الهواء الحار ، فإذا أراد أن يتصبب عرقه أكثر مما تصبب فى هاتين الحجرتين انتقل إلى حجرة أخرى فيها بخار شديد الحرارة . ثم يستحم بالماء الساخن ويغسل جسمه بشىء جديد تعلمه من الغاليين — وهو صابون مصنوع من الشحم ورماد خشب الزان والدردار[٨١] وهذه الحجرات الساخنة كانت أحب الحجرات إلى الشعب ، وهى التى سمى اليونان الحمامات باسمها ؛ ولعلها كانت هى المحاولة التى بذلها الرومان لتخفيف وطأة داء الرثية وأوجاع المفاصل[٨٢] . وينتقل المستحم بعدئذ من حجرة إلى حجرة كل منها أقل حرارة من سابقتها ، حتى يصل إلى الحجرة الباردة فيغتسل فيها بالماء البارد ، ويستطيع إذا شاء أن يغطس فى حمام السباحة . ثم يدلك بالزيت أو بعض المراهم المصنوعة فى العادة من زيت الزيتون . ولم تكن هذه الزيوت والمراهم تغسل عن الجسم ، بل كان يكتفى بحكها بمكشط ثم يجفف الجسم بقطيلة ، وذلك لكى يعود بعض الزيت إلى الجسم بدل الشحم الذى أزاله منه الحمام الحار .

وقلما كان المستحم يغادر الحمام بعد أن يصل إلى هذا الحد ، لأن هذه الأماكن لم تكن حمامات فحسب ، بل كانت بالإضافة إلى هذا نوادى ، فيها

حجرات للألعاب كالعب النرد والشطرنج[٨٣] ، ومعارض للصور والتماثيل ومنصات يجلس عليها الأصدقاء ليتحدثوا ، ومكتبات وحجرات للمطالعة ، وأبهاء يجلس فيها موسيقى يعزف أو شاعر ينشد بعض قصائده ، أو فيلسوف يفسر أسرار العالم . وكان المجتمع الرومانى يلتقى فى هذه الساعات التى يقضيها فى هذه الحمامات بعد الظهيرة ، ويختلط فيها النساء والرجال بلا قيد ، ويلهون ، ويتناقشون ، ويتغازلون على سجيتهم ، ولكنهم لا يخرجون عن جادة الأدب . فى هذه الأماكن وفى الملاعب كان الرومان يشبعون شهوتهم فى الحديث وحبهم للثرثرة وتتبع الأنباء ، ويعرفون كل ما يحدث داخل البيوت من حوادث وفضائح .

وكان فى وسعهم إذا شاءوا أن يتناولوا طعامهم فى مطعم الحمام ، ولكن كثرتهم كانت تفضل الطعام فى البيت . ولعل السبب فى نشوء عادة النوم بعد هذه الوجبة هو ما يعتريهم من تراخ وكسل بسبب الجهد والحمام الحار . وكانت النساء فى بادئ الأمر يجلسن بمعزل عن الرجال حين يضطجع هؤلاء ، أما فى العصر الذى نتحدث عنه فقد كانت النساء تضطجع إلى جوار الرجال ، وقد سميت حجرة الطعام المسماة عندهم « تركلينيوم أى ذات المضاجع الثلاثة » بهذا الاسم لأنها كانت تحتوى فى العادة على ثلاثة مضاجع حول الخوان يتسع كل واحد منها عادة لثلاثة أشخاص . وكان من يتناول الطعام يسند رأسه على ذراعه اليسرى وذراعه على وسادة ، ويمد جسمه فى خط مستقيم متجه إلى الجهة المقابلة للمائدة .

وظلت الطبقات الفقيرة تعيش أكثر ما تعيش على الحبوب ، ومنتجات الألبان ، والخضر ، والفاكهة ، والنقل . ويذكر بلنى أنواعاً كثيرة من الخضر التى يطعمها الرومانى تختلف من الثوم إلى السلجم . وكان الأغنياء يأكلون اللحم ويكثرون من أكله إكثار النهمين المستهترين ، وكان أحبه إليهم لحم الخنزير . ويمتدح بلنى الخنازير لأنها تمد الرومان بخمسين نوعاً مختلفاً من الأطعمة[٨٤]

وكانت أمعاء الخنازير المحشوة Potule تباع فى الشوارع فى أفران متنقلة كما تباع فى طرقاتنا العامة اليوم .

وكان الرومانى ، إذا دعى إلى وليمة ، ينتظر أطعمة أندر من هذه الأطعمة السالفة الذكر . وكانت الوليمة تبدأ فى العادة فى تمام الساعة الرابعة وتدوم إلى وقت متأخر من الليل أو إلى صباح اليوم التالى . وكانت الأزهار والبقدونس تنثر على المائدة ، والهواء يعطر بالأرواح المحضرة من خارج البلاد ، والمضاجع تغطى بالوسائد اللينة الناعمة ، وكان الخدم يرتدون أزياء خاصة متماثلة . وتقدم أولا المشهيات (gustatio) ، ثم تأتى بينها وبين الحلوى المسماة عندهم secunda mensa أو المائدة الثانية الأصناف الشهية النادرة التى يفخر بها المضيف ورئيس طهاته . وكانت أنواع السمك والطيور والفاكهة النادرة تشبع غريزة التشوف ولذة الحلق معاً ، فكان سمك البَيَّاح(*) يبتاع بألف سسترس للرطل الواحد ، وقد ابتاع أسنيوس سلر Asinius Celer سمكة من هذا النوع بثمانية آلاف سسترس . ويقول چوڤنال وهو غضبان أسف إن الصياد كان أقل قيمة من السمكة . وكان مما يزيد بهجة الضيوف أن تحضر السمكة حية وتطهى أمام أعينهم ، حتى يستمتعوا بمختلف الألوان التى تتلون بها وهى تعالج سكرات الموت[٨٥] . وكان ڤديوس پليو Vedius Pollis يربى هذا السمك ، الذى يبلغ طول الواحدة منه قدماً ونصف قدم ، فى حوض كبير ويطعمه لحم المغضوب عليهم من العبيد[٨٦] . وكان سمك الجرِّيث eel والحلزون snails عندهم من الأطعمة الشهية ، ولكن القانون كان يحرم أكل الزغبة (الدرموس dormouse)(**) . وكانت أجنحة النعام ، وألسنـة (البشروش) (flamingo) ، ولحوم الطيور المغردة وأكباد الإوز ، من أشهى

(*) عن معجم الدكتور شرف ، وهو المعروف فى مصر باسم البربون وبالإنجليزية باسم mullet

(**) حيوان قارض بين السنجاب والفأر سمى كذلك لكسله فى فصل الشتاء .

الأطعمة الرومانية . وقد اخترع أبسيوس Apicius – وهو من مشهوري الأبيقوريين فى عهد تيبيريوس – « فطائر الأكباد السمان » وذلك بزيادة سمنة أكباد الخنازير بإطعامها التين[٨٨](*) . وكان العرف يبيح للطاعم أن يفرغ معدته من الطعام بتناول مقيئ بعد الوليمة الثقيلة . وكان بعض النهمين يفعلون هذا فى أثناء الوليمة ثم يعودون إليها ليشبعوا جوعهم . وقد قال سنكا فى هـــذا « إنهم يتقايئون ليأكلوا ويأكلون ليتقايئوا »[٩٠] (vomunt set edant, ant, edunt ut vomant) . لكن هذا كان مسلكا شاذاً ، وليس هو أسوأ من مسلك مدمنى الخمر من الأمريكيين . وكان أظرف من هذه العادة عادة تقديم الهدايا إلى الضيفان أو إسقاط الأزهار أو العطور عليهم من سقف الحجرات ، أو تسليتهم بالأنغام الموسيقية ، أو الرقص ، أو الشعر ، أو التمثيل وكانت الليالى تختتم بالحديث فتنطلق الألسن من عقالها بسبب الخمر ، ويثيرها وجود النساء فى المآدب

وليس لنا أن نظن أن هذه المآدب كانت هى الخاتمة العادية التى يختتم بها كل يوم من حياة الرومانى ، أو أنها كانت أكثر فى حياتهم من مآدب هذه الأيام . إن التاريخ ، كالصحف ، يسيء تصوير الحياة ، لأنه مولع بالشاذ من كل شيء ، ويتجنب حياة الرجل الشريف التى لا أخبار فيها ، والحياة اليومية الهادئة الرتيبة السوية . لقد كان معظم الرومان خلقاً عاديين أشبه الناس بنا وبجيرتنا ، يستيقظون من النوم كارهين ، ويفرطون فى الأكل ، وفى العمل ، ولا يلعبون إلا قليلا ، ويحبون كثيراً ، وقلما يكرهون ، ويتشاجرون بعض الشيء ، ويكثرون من الكلام ، ويحلمون أحلام اليقظة وينامون .

(*) لقد بدد أبسيوس أموالا طائلة فى بذخه وإسرافه ، فلما لم يعد يملك الا عشرة ملايين سسترس (٠٠٠ر٠٠٠ر١ ريال أمريكى) انتحر[٨٩] . وبعد مائتى عام من انتحاره عزى إليه كتاب فى فن الطبخ ليست له يد فيه ، ولكنها الأساليب التى يجيزها القدامى .

الفصل السادس

يوم عطلة رومانى

١ - المسرح

كان لرومة أيام عطلة كثيرة ، كانت فى أيامها القديمة مطبوعة بطابع الوقار الدينى ، وفى الأيام التى نتحدث عنها مرحة ملؤها المباهج الدنيوية . وترجع هذه الكثرة إلى تعدد آلهتهم وكثرة الأقاليم التى تمتص خيراتها . وكان الكثيرون من فقرائها يفرون فى الصيف من حرارتها ورطوبتها إلى حانات الضواحى وشواطىء البحر وأيكها ، يشربون ، ويأكلون ، ويرقصون ، ويعشقون فى الهواء الطلق . وكان ذوو اليسار منهم يذهبون إلى شواطئ الاستحمام المنتشرة على الساحل الغربى ، أو إلى خليج بايا Baiae مع واسعى الثراء . وكان من أشد ما يرغب فيه كل من يعتد بطبقته أن يذهب إلى الجنوب - إلى رجيوم Rhegium أو تارنتم إن استطاع - ويعود منه وقد لفحت الشمس جلده ليثبت أنه من ذوى اليسار . ولكن الذين يبقون فى رومة لم يكونوا يعدمون فيها الكثير من ضروب اللهو والتسلية القليلة الكلفة . لقد كانوا يجدون فيها تلاوة الشعر ، والمحاضرات والحفلات الموسيقية ، والكثير من المجون ، والمسرحيات ، والمباريات الرياضية والاقتتال لنيل الجوائز ، وسباق الخيل ، والعربات ، والصراع المميت بين الرجال ، والرجال أو بين الرجال والوحوش ؛ والمعارك البحرية الصاخبة الزائفة فى البحيرات الصناعية - وقصارى القول أن رومة لم تكن تضارعها قبلها مدينة أخرى فى كثرة ضروب اللهو والتسلية .

وكان لرومة فى عهد الإمبراطورية الباكر خمسة وسبعون عيداً تقام فيها

الألعاب ، منها خمس وخمسون تخصص للمسرحيات أو ألعاب المجون ، و٢٢ للألعاب فى الحلبات أو المضامير أو المدرجات . وازداد عدد الألعاب حتى أصبحت فى عام ٣٥٤ م تعرض فى ١٧٥ يوماً[٩١] ؛ ولم يصحب هذه الزيادة زيادة فى المسرحيات الرومانية ؛ بل حدث عكس هذا ، حدث أن اضمحلت المسرحيات فى الوقت الذى ازدهر فيه المسرح ، وكانت المسرحيات الجديدة تكتب الآن لتقرأ لا لتمثل ، واكتفت دور التمثيل بالمآسى القديمة الرومانية واليونانية ، والمسالى والمساخر القديمة الرومانية . وكان نجوم التمثيل يسيطرون على المسرح ويجمعون من عملهم أموالا طائلة ؛ فقد ترك إيسپس Aesopus ممثل المآسى عشرين مليون سسترس بعد حياة من الإسراف والبذخ ؛ وكان رسيوس Roscius الممثل الهزلى يكسب خمسمائة ألف سسترس فى العام ، وقد بلغ من الثراء حداً جعله يمثل فى عدة مواسم من غير أجر — وكان هذا احتقاراً للمال جعل هذا العبد المحرر واسطة العقد فى مجالس الأشراف . أما الألعـــاب التى كانت تدور فى الحلبات والمدرجات فكانت تستحوذ على اهتمام الجمهور وتفسد أذواقه ، وقد مات التمثيل الرومانى ودفن فى المجلدات ، وكان شهيداً آخر من شهداء الأعياد الرومانية .

ولما زاد الاهتمام فى التمثيل بحركات الممثلين وبالمناظر بدل الحبكات والأفكار تخلى التمثيل عن مكانه فى المسرح إلى التهريج والمساخر . وكانت المساخر لا تحتوى إلا على القليل من الحوار ، وكانت تختار موضوعاتها من حياة أحط الطبقات ، وتعتمد على تصوير الشخصيات تصويراً بارعاً فى التقليد الساخر . وبعد أن قضى على حرية القول فى الجمعيات وفى السوق بقيت بعض الوقت فى هذه المهازل القصيرة ، حيث كان فى وسع الماجن أن يجازف برفع رأسه وإطلاق لسانه لينال بذلك تصفيق الجماهير بتورية يسددها إلى الإمبراطور أو الملتفين حوله . وقد أمر كلجيولا بحرق أحد الممثلين حيا فى المدرج عقاباً له على إشارة من هذا النوع[٩٢] . وفى اليوم الذى دفن

فيه فسپازيان الشحيح مثلث مهزلة قلدت فيها جنازته تقليداً ساخراً ، كان من مناظرها أن جلست الجثة فى أثناء موكب الجنازة وسألت كم أنفقت الدولة على هذه الجنازة ؛ ولما قيل لها إنها أنفقت « عشرة ملايين سسترس » أجابت بقولها « أعطونى مائة ألف فقط وألقونى فى نهر التيبر »(٩٣) . ولم يكن يسمح للنساء بالتمثيل إلا فى هذه المهازل ، وإذ كانت هذه النسوة يحترفن بهذا العمل من العاهرات فإنهن لم يكن يخسرن شيئاً بما ينطقن به من بذىء اللفظ . وكان النظارة فى بعض المناسبات الخاصة كعيد فلورا ربة الزهر يطلبن إلى أولئك الممثلات أن يخلعن جميع ملابسهن(٩٤) . وكان الرجال والنساء يشهدون هذا الضرب من التمثيل كما يشهدونه الآن وقد وجد شيشرون فيه عرائس له كما عثر العرائس عليه فيه .

ولما منع الكلام فى هذه المهازل منعاً باتاً ، وارتفعت موضوعاتها فأصبحت تستمد من الآداب القديمة ، تطورت المهازل الماجنة إلى استعراضات صامتة . وكان فى ترك الكلام على هذا النحو كسب للجمهور : ذلك أن سكان رومة المختلفى الأجناس كانت كثرتهم لا تفهم إلا اللغة اللاتينية البسيطة إلى أقصى حد ، ومن أجل هذا أصبح استطاعتها أن تتبع حركات الممثلين بعد أن لم تعد مثقلة بعبء الألفاظ . وفى عام ٢١ م قدم إلى رومة ممثلان أحدهما من قليقية ويدعى پيلاديس Pylades ، والآخر من الإسكندرية ويسمى باثيلس Bathylus ؛ وأدخلوا فيها التمثيل بالإيماء والحركة — وكان قد انتشر فى الشرق الهلنستى . وقد مثلا فيها مسرحيات من فصل واحد ليس فيها إلا الموسيقى ، والحركات ، والإيماءات والرقص . ورحبت رومة بهذا الفن الجديد لأنها سئمت المسرحيات المؤلفة بالشعر القديم الطنان الرنان ، وإعجاب إيما إعجاب بحذق الممثلين ورشاقتهم ، وسرت بفخامة ملبسهم وجمال أقنعتهم أو ظرفها ، وبأجسامهم المدربة التى أعدت للعمل بالغذاء المناسب المنتقى ، وبحركات الأيدى

التي تحسن التعبير عن المعانى على الطريقة الشرقية البارعة ، وسرعة تقليدهم للشخصيات على اختلاف مشاربها ، وتمثيلهم مناظر العشق المثيرة للغرائز الجنسية . وكان النظارة ينقسمون طوائف وجماعات تؤيد كل منها الممثلين المتنافسين ، وكثيراً ما كانت نساء الطبقات العليا يقعن فى حب الممثلين ويتعقبنهم بالهدايا والعناق ، حتى قطعت رأس واحد منهم بسبب علاقته بزوجة دومتيان . وما لبث هذا التمثيل الصامت أن طرد من المسرح الرومانى كل ما عداه من أنواع التمثيل ما عدا المساخر الماجنة . وحلت المراقص والمساخر محل المسرحيات الجدية .

٢ — الموسيقى الرومانية

وكان تطور الموسيقى والرقص ورقيهما هما اللذين جعلا هذا الفوز مستطاعاً ، فقد كان ينظر إلى الرقص فى عهد الجمهورية على أنه عمل مرذول يجلل الراقص العار . وكان سپيو الأصغر قد أرغم الدولة على أن تغلق المدارس التى تعلم الموسيقى والرقص[٩٥] ، وكان مما قاله فى هذا « أن الذى ذهب عقله هو وحده الذى يرقص وهو غير سكران »[٩٦] . ولكن المسرحية الصامتة جعلت الرقص طرازاً حديثاً مرغوباً فيه ، ثم جعلته بعدئذ شهوة قال عنها سنكا : « لا يكاد يخلو بيت واحد من مرقص يردد أصداء وقع أقدام الرجال والنساء ؛ وأصبح الآن فى بيوت كل ثرى معلم للرقص كما فيه طاه وفيلسوف ، وأضحى وجود هذا المعلم من مستلزمات هذه البيوت . وكان الرقص فى صورته المألوفة فى رومة يتطلب حركات منتظمة باليدين والجزء الأعلى من الجزع أكثر مما يتطلبه من حركات الأرجل والأقدام . ولم يكن النساء يتعلمن هذا الفن ويمارسنه لما يكسبهن من جاذبية فحسب ، بل لأنه يكسب الجسم مرونة ورشاقة .

وكان الرومان يحبون الموسيقى حباً لا يفوقه إلا حبهم للسلطان ، والمال ، والنساء ، والدماء . وأخذ الرومان موسيقاهم ، كما أخذوا كل شىء سواها

فى حياتهم الثقافية ، عن بلاد اليونان ؛ وكان لا بد لهذه الموسيقى أن تشق طريقها وسط مقاومة المحافظين الذين لا يفرقون بين الفن والإنحطاط. ذلك أن الرقباء كانوا قبل عام ١١٥ ق . م قد حرموا العزف على أية آلة موسيقية أو النفخ فيها ما عدا الناى الإيطالى القصير ، وكان سنكا الأكبر بعد قرن كامل من ذلك الوقت لا يزال يعد الموسيقى غير جديرة بالرجال ؛ ولكن ڤارو Varro كان قبل ذلك الوقت قد خص إلهة الموسيقى De Musica بكتاب من قلمه ؛ وأصبحت هذه الرسالة ، هى والمصادر اليونانية التى استمدت منها ، معيناً لا ينضب لمؤلفات رومانية كثيرة فى النظريات الموسيقية[٩٧] . وما لبثت الأنغام الموسيقية الخصبة الشهوانية ، والآلات اليونانية ، أن تغلبت آخر الأمر على الأنغام والآلات الرومانية الساذجة السمجة ، وأصبحت الموسيقى عنصراً أساسيا فى تعليم النساء وكثيرا ما كانت عنصرا هاما فى تعليم الرجال أيضاً . وما وافى عام ٥٠ م حتى عمت جميع الطبقات ، وتعلمها الذكور والإناث ، فكان الرجال والنساء يقضون أياماً كاملة فى الاستماع إلى الأنغام أو تأليف المقطوعات أو غنائها . وانتهى الأمر بأن أصبح الأباطرة أنفسهم من الموسيقيين ، فكان هدريان الفيلسوف ونيرون المخنث ممن يزدهون بحذقهم العزف على القيثارة . وكان المقصود من قرض الشعر الغنائى أن يغنى بمصاحبة الموسيقى ، وقلما كانت الألحان الموسيقية توضع إلا للشعر ؛ ذلك أن الموسيقى القديمة كانت خاضعة للشعر ، عكس مع ما هى عليه اليوم إذ أنها تنزع إلى السيطرة على الألفاظ وتخضعها لها . وكانت الموسيقى الجماعية منتشرة محبوبة وكثيراً ما كانت تعزف فى حفلات الزواج والألعاب والجنائز ، وفى الاحتفالات الدينية . وقد تأثر هوراس أشد التأثر بأصوات الفتية والعذارى وهم يغنون Carmen secul are ، وكان المغنون جميعهم فى هذه الأغانى الجماعية يغنون نغمة واحدة وإن اختلفت مقاماتها ، ويلوح أن الغناء الانفرادى لم يكن معروفاً عندهم .

وكانت الآلتان الرئيسيتان عندهم هما الناى والقيثارة ، ولا تزال آلات

النفخ والآلات الوترية عندنا مجرد تحوير وتعديل لهاتين الآلتين ، فأقوى السمفونيات عندنا ليست إلا تأليفاً حكيماً بين النفخ والجذب ، والحك ، والضرب . وكان الناى يصحب التمثيل ، وكان يظن أنه يثير العواطف ؛ أما القيثارة فكانت تصحب الغناء ، وكان يرجى منها أن تسمو بالروح . وكان الناى طويلا ، ذا ثقوب كثيرة ، وأوسع مدى فى التعبير من ناى هذه الأيام . أما القيثارة فكانت أشبه بقيثارتنا ولكنها كانت على أنواع وأشكال كثيرة ، فكانت عند اليونان ذات حجم صغير ولكن الرومان زادوه إلى حد جعل أميانوس يصف القيثارة بأنها « كبيرة كالعربة »(٩٨) . ويمكن القول بوجه عام إن الآلات الموسيقية الرومانية نشأت كما نشأت آلاتنا نحن مما أدخل من تحسين على الآلات القديمة وخاصة على رنينها وحجمها . وكانت أوتار القيثارة تصنع من أمعاء الحيوان أو أوتار أجسامها ، وقد بلغ عددها ثمانية عشر وتراً . وكانت تشد عند العزف عليها بمضراب (ريشة) أو بالأصابع ، وكانت الأصابع وحدها هى التى تستطيع إخراج سلسلة الأنغام السريعة . وجاء من الإسكندرية فى أوائل القرن الأول الأرغن المائى المتعدد النغمات والأنابيب ، وقد وقع فى قلب نيرون وتأثر كونتليان الهادئ بقوته وتعدد نغماته .

وكانت تقام من آن إلى آن حفـــلات موسيقية رسمية ، وكان للمباريات الموسيقية شأن بعض الألعاب العامة ؛ بل إن الولائم المتواضعة كانت تتطلب قدراً ولو قليلا من الموسيقى . وكان مارتيال يعد ضيفه بالاستماع إلى نافخ فى الناى على الأقل(٩٩) . أما فى حفلات تريملكيو Trimalchio فكان الطعام يرفع عن المائدة على أصوات المغنين . وكان ليكاجيولا فرقة موسيقية وجوقة من المغنين تطربه فى قارب نزهته . وفى التمثيل الصامت كان الغناء الجماعى والرقص يصحبان عزف الفرقة الموسيقية . وكان الممثل فى بعض الأحيان يغنى أدواره الانفرادية ، وكان يحدث أحياناً أن يغنى مغن محترف ألفاظ الدور بينما كان الممثل يقوم

بالحركات التمثيلية أو الرقص . ولم يكن من الأمور الشاذة النادرة أن يصحب التمثيل الصامت ثلاثة آلاف مغن وثلاثة آلاف راقص[١٠٠] . وكان قوام الفرقة الموسيقية النايات تساعدها القيثاراب ، والصنج ، والمزامير ، والأبواق والاسكابلا Scabella وهى ألواح معدنية تشد إلى أقدام بعض أفراد الفرقة يضربونها بها فتحدث أصواتاً أشد إزعاجاً من أصوات الفرق الموسيقية الحديثة فى أعلى قوتها ويشير سنكا إلى الإيقاع فى عزف الأفراد[١٠١] ، ولكنا لا نجد ما يدل على وجوده عند الفرق الموسيقية القديمة . وكانت الموسيقى التى تصحب الغناء تعلو عنه فى النغمة عادة ولكن مبلغ علمنا أنها لم تكن تسير على نظام متدرج متتابع واضح .

وكان مهرة الموسيقيين كثيرين ، وكذلك كان غير الماهرين ، فقد كان ذوو المواهب يهرعون إلى مركز الذهب فى العالم من جميع الولايات ، وكان نظام الاسترقاق يسمح بتدريب فرق المغنين والعازفين فى نطاق واسع وإن كان كثير النفقات . وكان للكثير من الجماعات والهيئات الفنية موسيقيون تختص بهم ، وكانت ترسل من تتوسم فيهم النبوغ منهم إلى مهرة الأساتذة لرفع مستواهم ، فمنهم من تخصصوا فى العزف على القيثارة وأقاموا الحفلات يغنون فيها ويعزفون ؛ ومنهم من تخصصوا فى الغناء وكان هؤلاء فى العادة يؤلفون أغانيهم ، وآخرون منهم كانوا يقيمون الحفلات يعزفون فيها على الأرغن وينفخون فى الناى ، ومن هؤلاء كانوس Cannus الذى كان يفخر كما يفخر بيتهوفن بأن موسيقاه تستطيع تخفيف الحزن وزيادة الفرح ، وتعين على التقى وتلهب نار الحب فى الصدور[١٠٢] . وكان هؤلاء الموسيقيون المحترفون يطوفون الولايات النائية فى الإمبراطورية ، يكسبون المال والثناء . وتقام لهم التماثيل ويفتتن بهم النساء ، ومنهم على حد قول جوڤنال ، من كانوا يبيعون حبهم ليزيدوا بذلك أجورهم[١٠٣] . وكانت النساء يتنافسن فى الحصول على الريشة التى يمس بها مشهورو الموسيقيين أوتار آلاتهم ، ويقربن القرابين على المذابح ليفوز من يحببن من الموسيقيين فى

الألعاب النيرونية والكبتولية . وفى وسعنا أن نرسم فى الخيال صورة وإن تكن غير واضحة للمنظر الرائع الذى يجمع بين الموسيقيين والشعراء من جميع أنحاء الإمبراطورية ، وهم يتبارون أمام الجموع المحتشدة ، والذى يتقدم فيه الفائزون المجهدون ليضع الأباطرة بأيديهم أكاليل أوراق البلوط على رؤوسهم .

ولسنا نعرف عن الموسيقى الرومانية ما يكفى لبسط القول فى وصفها . ويلوح أنها كانت أرق ، وأكمل ، وأكثر عجيجاً من الموسيقى اليونانية . وقد دخلت عليها صبغة شرقية من مصر وآسية الصغرى وسوريا . وكان المتقدمون فى السن من الرومان يأسفون لأن المؤلفين المحدثين أخذوا يهجرون ما كان يمتاز به النمط القديم من تمنع ووقار ، وأنهم كانوا يتلفون أرواح الشباب وأعصابهم بالأنغام الشاذة والآلات الصاخبة . والذى لا جدال فيه أنه ما من شعب قديم أحب الموسيقى كما أحبها الرومان ، فقد كانت أغانى المسرح تتلقفها الجماهير المرحة السريعة الحركة فتردد أصداءها فى شوارع رومة ونوافذ بيوتها ، وكانت أغانى التمثيل الصامت المعقدة تنطبع فى ذاكرة المعجبين بها انطباعاً بلغ من قوته أن كان فى مقدورهم إذا سمعوا أولى نغماتها أن يقولوا لك من أية مسرحية هى ، ومن أى فصل فى المسرحية . على أن رومة لم تفد الموسيقى فائدة حقة اللهم إلا ما عسى أن تكون قد فعلته من تنظيم اللاعبين إلى فرق كبيرة تنظيما أحسن مما كان عند من سبقهم من الأمم . ولكنها كرمت الموسيقى بإشاعة استخدامها ، وبالاستجابة إليها والتأثر بها ، يضاف إلى هذا أنها جمعت التراث الموسيقى للعالم القديم فى هياكلها ، ودور تمثيلها ، وبيوتها ؛ ولما أن سقطت أورثت الكنيسة الآلات والعناصر المستخدمة فى الموسيقى التى تتأثر بها نفوسنا وتحرك مشاعرنا فى هذه الأيام .

٣ ـ الألعاب

ولما لم يعد للحرب أثر فى هذا العهد ، أصبحت الألعاب العظيمة أكثر حوادث العام إثارة لمشاعر الرومان . وكانت تقام ، أكثر ما تقام ، فى الاحتفال بالأعياد الدينية — كعيد الأم العظمى ، وعيد سيريس Ceres ، وعيد فلورا ربة الأزهار ، وعيد أپلو ، وعيد أغسطس وقد تكون أحياناً « ألعاب العامة » التى تقام لتسلية الطبقات الدنيا « وقد تكون « الألعاب الرومانية » التى تقام تكريماً للمدينة وإلهتها روما . وكانت تقام أحياناً احتفالا بنصر ، أو نيل منصب رئيسى ، أو فوز فى انتخاب ، أو بمناسبة أحد الأعياد الإمبراطورية . وربما أقيمت احتفالا بمرور فترة معينة فى التاريخ الرومانى . وكانت ألعاب إيطاليا فى بادئ الأمر تقام زلفى للأموات وتكريماً لهم ، شأنها فى هذا شأن الألعاب التى أقامها أخيل تكريماً لپتروكلس . من ذلك أنه لما مات بروتس پيرا Brutus Pera فى عام ٢٦٤ ق . م عرض ابنه ثلاث مبارزات ، ودارت فى جنازة ماركس لپدس Marcus Lepidus عام ٢١٦ ق . م اثنتان وعشرون معركة ، وفى عام ١٧٤ احتفل تيتس فلامنيوس Titus Flaminius بجنازة أبيه بأن أقام صراعاً فى مجتلد اقتتل فيه اثنان وعشرون رجلا .

وكانت أبسط الألعاب العامة هى المباريات الرياضية التى تقام عادة فى ملعب عام . وكان معظم اللاعبين من المحترفين والغرباء ، وكانوا يتبارون فى العدو ، وقذف القرص ، والمصارعة ، والملاكمة . ولكن جمهرة الرومان الذين اعتادوا ألعاب المجتلد الدموية لم يكونوا يحبون هذه الألعاب الرياضية إلا قليلا وكانوا مولعين بالقتال لنيل الجوائز وهو القتال الذى كان اليونان ينهمكون فيه حتى يكادوا يخرون صرعى ، وقد لبسوا فى أيديهم قفازات مقواة عند البراجم بأطواق من الحديد يبلغ سمكها ثلاثة

أرباع بوصة . ويصف فرچيل - وهو الرجل الرقيق - حفلة ملاكمة غير شديدة فى لغة لا تكاد تفترق عن لغة هذه الأيام فيقول :

« ثم جاء ابن أنكيسيز Anchises بقفازات من الجلد متساوية فى الوزن ، وربط بها أيدى الملاكمين . . . ووقف كلاهما فى موضعه معتمداً على أطراف أصابع قدميه ، ورافعاً ذراعه . . . ثم يبعد رأسه إلى الوراء ليتقى ضربات خصمه ويبدأ التلاكم باليدين ، ويسدد كل منهما ضربات قوية همجية إلى صدر الآخر ، وجنبيه ، وأذنيه ، وجبهته ، وخديه ، يردد الهواء صداها . ويمد إنتلس Entellus يمناه ، وينحرف دارس Dares إلى أحد الجانبين بحركة رشيقة . . . ويهاجم أنتلس دارس بقوة ، ويطرحه على أرض المجتلد ، ويكيل له الضربات بيمناه تارة وبيسراه تارة أخرى . . . ثم يجىء إينياس وينهى المعركة ، ويقبل رفقاه دارس ويقودونه إلى السفن تصطك ركبتاه ويتأرجح رأسه من ناحية إلى أخرى وفمه تخرج منه الأسنان والدماء .

وكان السباق فى الحلبة الكبرى Circus Maximus أكثر من هذه الملاكمات إثارة لمشاعر النظارة . وكانت أربعون سباقاً تقام فى يومين متتالين منها سباق الخيل يركبها راكبون محترفون ؛ ومنها سباق العربات الخفيفة ذات العجلتين يجرها جودان أو ثلاثة جياد أو أربعة مشدودة إليها جنباً إلى جنب . وكانت الاصطبلات المتنافسة التى يملكها الأغنياء هى التى تؤدى نفقات السباق . وكان الراكبون المحترفون وسائقو المركبات يلبسون حللا تختلف ألوانها وتُطلى المركبات نفسها بألوان مختلفة لكل اصطبل لون خاص يميزه من غيره من الاصطبلات : منها الأبيض والأخضر والأحمر والأزرق . فإذا اقترب موعد هذه المباريات انقسمت رومة كلها شيعاً تسمى كل شيعة باسم اللون الذى تناصره وخاصة اللونين الأحمر والأزرق . وكان نصف الأحاديث فى المنازل ، والمدارس ، والمحاضرات ، والسوق الكبرى يدور حول راكبي الخيل المحترفين ، وراكبي

العربات ، وتعلق صورهم فى كل مكان ، وتعلن أنباء فوزهم فى النشرة اليومية . ومنهم من كان يجنى من وراء ذلك ثروات طائلة ، ومنهم من كانت تقام له التماثيل فى الميادين العامة . وإذا أقبل يوم السباق سار مائة وثمانون ألفاً من الرجال والنساء فى حللهم ذوات الألوان الزاهية إلى المضمار الرحب الكبير . وهناك ترتفع حماسة النظارة إلى حد الجنون ، فترى أشياع كل جواد يشمون روثه ليتأكدوا من أن ذلك الجواد قد أطعم الطعام الذى يليق به(١٠٥) . وكان النظارة يمرون بالحوانيت والمواخير الممتدة على طول أسوار المضمار الخارجية ، ثم يدخلون من مئات الأبواب ويوزعون أنفسهم على المقاعد المنظمة على شكل حذاء الفرس ، والعرق يتصبب من جباههم من فرط الشوق والقلق ، والبائعون يبيعون الوسائد لأن المقاعد كانت تصنع فى العادة من الخشب الصلب ، ولأن السباق كان يستمر طول النهار . وكان لأعضاء مجلس الشيوخ وغيرهم من العظماء مقاعد خاصة من الرخام مزينة بالبرنز ، وكان من خلف مقصورة الإمبراطور طائفة من الحجُر الفخمة يستطيع — إذا شاء — أن يأكل فيها ويشرب ، ويستريح ، ويستحم وينام . وكانت حمى المراهنات ترتفع إلى أقصى حد ، والثروات تنتقل من يد إلى يد كلما تقدم النهار . وكانت الخيل وراكبوها ، والعربات وسائقوها ، تخرج من فتحات تحت المقاعد ، وكلما بدا لون منها قابله أنصاره بتصفيق ترتج المقاعد من شدته . وكان سائقو العربات — ومعظمهم من العبيد — يلبسون جلابيب زاهية الألوان ويضعون على رؤوسهم خوذاً براقة ، ويمسك كل منهم بإحدى يديه سوطا ، وفى منطقته سكين يقطع بها السيور المربوطة فى وسطه ، إذا حدثت له حادثة . وكان شكل المضمار إهليلجيا تمتد فى وسطه « الشوكة » (spina) وهى جزيرة طولها ألف قدم تزدان بالتماثيل والمسلات ، وفى طرف من أطراف المضمار تقوم « المقاييس » (metae) وهى عمد مستديرة ينتهى عندها السباق . وكان طول سباق المركبات سبع دورات فى العادة ، أى حوالى خمسة

أميال . وكان مقياس مهارة السائق هو قدرته على أن يدور حول الأهداف (العمد) بأسرع وأحدّ ما يستطيع من غير أن يتعرض للخطر . وكثيراً ما كان المتسابقون يصطدمون فى هذه الأماكن فتقع المآسى المروعة التى يكون ضحاياها الرجال والمركبات والحيوانات . فإذا ما وصلت الخيل أو المركبات إلى أهدافها قام النظارة ، وكأنهم قد استيقظوا من سبات عميق وماج بهم المكان كما يموج البحر المتلاطم ، وأخذوا يشيرون بأيديهم وأجسامهم ، ويلوحون بمناديلهم ، ويصيحون ، ويبتهلون ، ويئنون ؛ ويلعنون ، ويهللون وهم فى نشوة غير طبيعية . وكان التصفيق الذى يحيا به الفائز يسمع على مسافة بعيدة خارج أسوار المدينة .

وكان أعظم المناظر روعة وفخامة منظر الاحتفالات الرومانية التى تمثل فيها المعركة البحرية الرائعة . وكانت أول معركة بحرية كبيرة من هذا النوع هى التى دارت بأمر قيصر فى حوض كبير احتفر لهذا الغرض خاصة فى خارج حدود المدينة . ولما أراد أغسطس أن يهدى الهيكل الذى أقامه « للمريخ المنتقم » إلى هذا الإله أمر أن تدور معركة بحرية تمثل معركة سلاميس بين ثلاثة آلاف مقاتل فى مياه بحيرة صناعية طولها ألف وثمانمائة قدم وعرضها ألف ومائتا قدم . وقد سبق القول إن كلوديوس احتفل بإتمام نفق فوسين Fucine بتمثيل معركة اقتتلت فيها سفن من ذوات الصفوف الثلاثة والأربعة من المجاديف ، عليها نحو تسعة عشر ألف رجل . ولكن القتال جرى فى رقة أغضبت الإمبراطور واضطرته إلى أن يرسل جنوداً إلى السفن لكى يضمن قدراً كافياً من سفك الدماء[١٠٦] . ولما احتفل بتدشين الكولوسيوم أمر تيتس بأن تغرق حلبتها بالماء وأن تمثل فيها معركة الكورنثيين والكرثيين التى أعقبتها حرب البلوبونيز . وكان المقتتلون فى هذه المعارك من أسرى الحروب أو المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام ؛ وكانوا يقتتلون بحق ويقتل بعضهم بعضاً حتى يفنى أحد الفريقين ؛ فإذا ما تبين

أن الفريق الفائز أظهر الشجاعة المطلوبة فى التقتيل أمكن أن يحرر من الأسر أو ينجو من الإعدام .

وكانت هذه الألعاب تصل إلى غايتها فى صراع الحيوانات والمجالدين فى المجتلد أو فى الكولوسيوم بعد أيام فسبازيان . وكان المجتلد أرضاً من الخشب فرش عليها الرمل . وكان فى الإمكان خفض أجزاء من هذه الأرض ثم رفعها على الفور إذا أريد تغيير المنظر ، أو غمر الأرض كلها بالماء بمجرد إشارة تصدر بهذا . وكانت غرف كبيرة تحت أرض المجتلد تحتوى الوحوش ، والآلات ، والرجال استعداداً لذلك اليوم : وكان من فوق سور المجتلد شرفة من الرخام صفت فيها مقاعد مزينة يجلس عليها الشيوخ والكهنة وكبار الموظفين . وكان فوق هذه الشرفة مقصورة عالية (suggestum) يجلس فيها الإمبراطور والإمبراطوة على عرشين من العاج والذهب ، ومن حولها أعضاء الأسرة الإمبراطورية والحاشية . ومن خلف هذه الدائرة الممتازة ، دائرة الأشراف ، يجلس فيها أفراد طبقة الفرسان فى عشرين صفا من المقاعد . ويفصل سور عال مزدان بالتماثيل الطبقات العليا عن السفلى فى المقاعد العالية . وكان فى وسع أى شخص من الأحرار ذكراً كان أو أنثى أن يشهد الجلاد ، ويلوح أنه لم تكن ثمة رسوم تؤدى عن الدخول ، وكانت الجماهير تنتهز فرصة وجود الإمبرطور فى المجتلد وفى مضمار السباق لتسمعه رغبتها — فى العفو عن أسير أو مصارع مهزوم ، أو تحرير عبد شجاع ، أو حضور مجالد محبوب ، أو إصلاح غير ذى بال . وكانت مظلات تنشر فوق المجتلد عند الحاجة إليها ، وتمتد على مكان فى السور إلى حواجز المجتلد لتظليل ما يتعرض من أجزائه لأشعة الشمس . وكانت فى أماكن متفرقة منه عيون تقذف الماء المعطر لتبريد الهواء . فإذا انتصف النهار أسرع معظم النظارة إلى أسلفه ليتناولوا غداءهم ، وكانوا يجدون حاجتهم من الطعام والشراب والحلوى عند أناس رخص لهم ببيعها فى هذا المكان . وكان يحدث فى بعض المناسبات أن يأمر

الإمبراطور بإطعام الجماهير المحتشدة كلها من خيراته ، وأن تنثر الأطعمة الشهية والهدايا على الجماهير فتتلقفها أيديهم . وإذا ما أقيمت الألعاب في الليل ، وكان هذا يحدث أحياناً ، كان في الاستطاعة إنزال دائرة من النور فوق المجتلد والنظارة . وكانت فرق موسيقية تطرب المجتمعين في الفترات التي تتخلل الألعاب ؛ وفي الأوقات التي تبلغ المباريات حدتها ، كانت الموسيقى تعزف أنغاما مهيجة مثيرة مطردة العلو في النغمة .

وكانت أبسط الحوادث التي تشاهد في المدرج عرض حيوانات أجنبية تجمع من جميع أنحاء العالم المعروف : من فيلة ، وأساد ، ونمورة رُقط وسود ، وتماسيح ، وأفراس بحر ، وأوبيسات ، وقردة ، وفهود ، ودببة ، وخنازير برية ، وذئاب ، وزرافات ، ونعام ، ووعول ، وغزلان ، وطيور نادرة الوجود . وكان يحتفظ بهذه كلها في حدائق الحيوان التي يملكها الأباطرة والموثرون من الأهلين ، وتدرب على القيام بألعاب مضحكة . فكانت القردة تعلم ركوب الكلاب وسوق المركبات ، والتمثيل في المسرحيات ؛ والثيران تدرب على ترك الغلمان يرقصون فوق ظهورها ، وآساد البحر تدرب على النباح إذا ذكرت أسماؤها ، والفيلة ترقص على صوت صنوج تضربها فيلة أخرى ، أو تمشي على حبل ، أو تجلس حول مائدة الطعام ، أو تكتب حروفا يونانية أو لاتينية . وكان يكتفي في بعض الأحيان بعرض هذه الحيوانات في حلل زاهية أو مضحكة ، ولكنها في العادة كانت تقاتل بعضها بعضاً ، أو تقاتل الرجال ، أو تُضرب بالسهام والحراب حتى تموت . وقد حدث في أيام نيرون أن اقتتل أربعمائة نمر مع ثيران وفيلة ، وقتل في يوم آخر من أيام كلجيولا أربعمائة دب ، ومات في يوم تدشين الكولوسيوم خمسة آلاف حيوان[١٠٧] . وإذا تبين أن الحيوانات قد فترت عزيمتها عن القتال ضربت بالسياط ، أو رميت بالسهام ، أو كويت بالحديد المحمى ليثار غضبها فتنفر للقتال . وقد أرغم كلوديوس فرقة من الحرس البريتورى على قتال الفهود ، وأرغم نيرون فرقة أخرى على أن تقاتل أربعمائة دب وثلثمائة أسد[١٠٨] .

وأدخل قيصر إلى رومة عادة صراع الثيران والآدميين ، وهي العادة التي كانت شائعة في كريت وتساليا من قبله بزمن طويل ، وأصبحت منذ عهده من المناظر المألوفة في المدرجات(١٠٩) . وكان المجرمون المحكوم عليهم بالإعدام يلقون إلى الحيوانات التي استوحشت لهذا الغرض خاصة ، وكثيراً ما كان هؤلاء الرجال يغطون بجلود لكي يشبهوا الحيوانات . وكانوا يعانون في أثناء موتهم أشد أنواع الآلام ، وكانت جراحهم تتعمق أحياناً في أجسامهم حتى كان الأطباء يستخدمون هذه الأجسام لدراسة تشريحها الداخلي . وليس في العالم من يجهل قصة أندركليز Androcles العبد الآبق ، وكيف ألقي به إلى أسد في المجتلد بعد أن قبض عليه ، ولكن الأسد كما تقول القصة تذكر أن أندركليز أخرج في ذات يوم شوكة من مخلبه ، فأبى أن يمسه بسوء ، وكيف عفي عن أندركليز بعدئذ وظل يكسب عيشه بعرض أسده المتحضر في الحانات(١١٠) . وكان يطلب إلى المقضي عليه بالموت في بعض الأحيان أن يمثل تمثيلا واقعياً دوراً مشهوراً في إحدى المآسي : فقد يمثل دور منافسة ميديا ، فيرتدي ثوباً جميلا يلتهب فجأة ويحرقه ؛ وقد يمثل هرقل فيحرق حيا فوق كومة من الحطب ، وقد تجب خصيتاه علنا كما فُعِل بأرتيز (إذا صدقنا قول ترتليان Tertullian) ، وقد يمثل دور موسيوس اسكاڤولا Mucius Scaevola فيبسط يده فوق نار فحم حتى تحترق ؛ وقد يمثل دور إكارس Icarus فيسقط من السماء ، لا في بحر رحيم ، بل بين قطيع من الوحوش الضارية ، وقد يكون باسفيا Pasiphaë ، فيحتضن ثوراً . وألبس أحد الضحايا مرة ثياباً كثياب أرفيوس Orpheus ، وبعث به ومعه قيثارة إلى مجتلد مثلث فيه أيكة جميلة من الأشجار والجداول ، ثم أطلقت من خبايا المجتلد على حين غفلة وحوش جياع ومزقه إربا(١١١) . وصلب لص يدعى لوريوس Laureolus في المجتلد ليتسلى النظارة برؤيته ؛ ولما لم يلفظ آخر أنفاسه بالسرعة المطلوبة جيء إليه بدب وسلطوه عليه وما زالوا يغرونه به حتى أكله

قطعة بعد قطعة وهو معلق فى الصليب . ويصف مارتيال هذا المنظر وصف المعجب به الراضى عنه[١١٢] .

وكانت أروع الحادثات فى هذه الألعاب هى قتال الرجال المسلحين ، إما فى صورة مبارزات فردية أو معارك جماعية . وكان المتقاتلون فى هذه الحالة من أسرى الحروب ، أو المجرمين المذنبين ، أو العبيد العاصين . وكان حق المنتصرين فى أن يقتلوا أسراهم من الحقوق المعترف بها عادة فى العهود القديمة جميعها ، ومن أجل هذا كان الرومان يرون أنهم رحماء كرام حين يتيحون لأسراهم فرصة ينجون فيها من الموت بإرسالهم إلى المجتلد . كذلك كان المحكوم عليهم فى الجرائم الكبرى يرسلون من كافة أنحاء الإمبراطورية إلى رومة ، فيلحقون بمدارس المجالدين ولا يلبثون أن يظهروا فى الألعاب ، فإذا ما أظهروا فى الصراع شجاعة نادرة فقد يحررون من فورهم . وأما إذا نجوا من القتل من غير أن يظهروا هذه الشجاعة فكانوا يرغمون على القتال مرة بعد مرة فى الأعياد والمواسم المتوالية ، فإذا ظلوا أحياء ثلاث سنين استبدل الاسترقاق بالإعدام ؛ وإذا ما أرضوا سادتهم عامين نالوا حريتهم . وكانت الجرائم التى يحكم على مرتكبيها بحياة المجالدين مقصورة على القتل ، والسرقة ، والتسميم ، وتدنيس الأماكن المقدسة ، والتمرد ؛ ولكن حكام الأقاليم المجدين كانوا يحرصون فى بعض الأحيان على سد حاجة الأباطرة إلى أمثال هؤلاء الناس ، فيتخطون هذه القيود إذا نقص عدد المجالدين[١١٣] . وكان الفرسان وأعضاء مجلس الشيوخ أنفسهم يحكم عليهم أحياناً بأن يقاتلوا فى المجتلد ؛ بل إن شهوة الثناء وحب التصفيق كانت فى بعض الأحيان تدفع أفراداً من طبقة الفرسان لأن يتطوعوا لهذا القتال مختارين ؛ ومن الناس عدد غير قليل كانوا يدخلون مدارس المجالدين حباً فى المغامرة ومغالبة الأخطار .

وقد وجدت هذه المدارس فى رومة من عام ١٠٥ ق . م : وكان فيها أربع مدارس من هذا النوع فى عهد الإمبراطورية ، عدا ما كان منها فى

أنحاء إيطاليا وكانت واحدة فى الإسكندرية ، وكان للأغنياء فى أيام قيصر مدارس أنشأوها لأنفسهم ليعدوا فيها العبيد ليكونوا مجالدين ، وكانوا يتخذون خريجيها حرساً خاصاً لهم فى زمن السلم وجنوداً فى وقت الحرب ، ويؤجرونهم للقتال فى المآدب الخاصة ، ويعيرونهم للقتال فى الألعاب. وكان الكثيرون ممن يدخلون مدارس المجالدين المحترفين يقسمون عند دخولهم يميناً بأن « يقبلوا الضرب بالعصى والحرق بالنار ، والقتل بحد السنان »[١١٤] . وكان التدريب والنظام فيها صارمين ، وكان الأطباء يراقبون ما يقدم فيها من الطعام ، ويصفون للطلاب أكل الشعير ليقووا بأكله عضلاتهم . وكان عقاب من يخرج على القواعد والنظم الموضوعة الجلد ، والكى ، والسجن والأغلال . ولم يكن طلاب الموت هؤلاء جميعهم غير راضين عن مصيرهم ، فنهم من كانوا يزدهون بما سوف يحرزون من نصر ، وكانوا يفكرون فى شجاعتهم أكثر من تفكيرهم فيما يتعرضون له من الأخطار[١١٥] ، ومنهم من كان يشكو أنه لم تتح له فرص كافيه للقتال ، وكان هؤلاء يحقدون على تيبيريوس لأنه لا يكثر من إقامة الألعاب . لقد كان يعزيهم عن الخطر الذى يتعرضون له ، ويغريهم بركوب هذا الخطر ، ما سوف ينالون من الشهرة ، فقد كان المعجبون بهم يكتبون أسماءهم على جدران المبانى العامة ، وكانت النساء تعشقهم ، وكان الشعراء يغنون بمدحهم ، والمصورون يصورونهم ، والمثالون يخلدون للأجيال المقبلة صور عضلات أذرعهم الحديدية ، وعبوسة وجوههم الرهيبة . على أن منهم كثيرين كانوا يألمون لسجنهم الطويل ، وحياتهم الوحشية الرتيبة ، وما يتوقعون لأنفسهم من آجال قصيرة ، ومنهم من كانوا ينتحرون ، وقد انتحر واحد منهم بأن كتم نفسه بإسفنجة كان يستخدمها فى تنظيف أعضائه السرية ، وانتحر آخر بوضع رأسه بين أنصاف محاور عجلة تتحرك ، وانتحر كثيرون منهم بشق بطونهم فى المجتلد[١١٦] .

وكانوا فى الليلة السابقة للقتال تولم لهم وليمة طيبة ؛ فمن كان منهم فظاً

خشن الطباع ملأ بطنه بالمديد الطعام والشراب ، ومنهم من كان يودع زوجته وأبناءه وهو حزين كظيم ؛ وكان المسيحيون منهم يجتمعون ليتناولوا معا « طعام المحبة » (agapé) . وكان هؤلاء وأولئك يأتون إلى المجتلد فى اليوم الثانى فى حلل فاخرة ويذرعونه من أوله إلى آخره ، وكانوا يسلحون فى العادة بالسيوف ، أو الرماح ، أو الخناجر ، ويلبسون خوذاً من البرنز ، ودروعا ، ووقايات الأكتاف وتروساً وجراميق . وكانوا يصنَّفون حسب أسلحتهم ؛ فنهم أصحاب الشباك الذين يوقعون خصومهم فى الأحابيل ثم يقضون عليهم بطعنات الخناجر ، ومنهم من يحذقون مطاردة مقاتليهم بالتروس والسيوف ؛ ومنهم من يرمون بالمقالع ، ومنهم من يقاتل الواحد منهم بسيف قصير فى كلتا يديه ، ومنهم من يقاتلون فى المركبات ، ومنهم من يصارعون الوحوش . وكان المجالدون فضلا عن هذه المغامرات كلها يتبارزون مثنى مثنى أو جماعات ، وإذا جرح أحد المتبارزين جرحاً شديداً فى مبارزة فردية طلب من أقام المباراة إلى النظارة أن يدلوا برأيهم ، فإذا رفعوا إبهامهم أو لوحوا بمناديلهم كان ذلك دليلا على أنهم يريدون الرحمة بالجريح ، وإذا ما خفضوا إبهامهم عرف أنهم يطلبون إلى الفائز أن يقتل المغلوب من فوره[١١٧] . وإذا أظهر أحد المقاتلين أنه لا يحب أن يموت أثار بذلك غضب النظارة وأثيرت حميته وشجاعته بوخزة بالحديد المحمى[١١٨] . وإذا أريدت مجازر كبيرة هيئت معارك جماعية يقتتل فيها آلاف الرجال بوحشية المستيئسين . وقد اشترك فى الثمان المعارك التى أعدها أغسطس عشرة آلاف مقاتل اقتتلوا فيها مجتمعين . وكان رجال فى ثياب كارون Charon(*) ينخسون من يسقطون فى المعركة بأسنان العصى الحادة ليعرفوا هل ماتوا حقا أو أنهم يتصنعون الموت . فإذا وجدوهم يتصنعونه قتلوهم بضربات المطارق على رؤوسهم .

(*) هو البحار فى الأساطير اليونانية الذى ينقل بقاربه أرواح الموتى فى نهر استيكس فى العالم السفلى . (المترجم)

وكان هناك رجال آخرون في ثياب عطارد رسول الآلهة يجرون أجساد الساقطين بخطاطيف في الوقت الذي يجمع فيه عبيد من المغاربة التراب المبلل بالدماء في مجارف ، ويفرشون الرمل على الأرض لاستقبال من يأتون بعدهم من الأموات .

وكان معظم الرومان يدافعون عن الألعاب في المجتلدات بقولهم إن الضحايا كانوا من المحكوم عليهم بالإعدام لما ارتكبوه من الجرائم الشنيعة ، وإن ما يلقون من العذاب يحول بين غيرهم وبين ارتكاب أمثال هذه الجرائم ، وإن الشجاعة التي يدرب عليها المقضي عليهم ليلاقوا بها الجراح والموت تغرس في قلوب الشعب الفضائل العسكرية ، وإن اعتياد العين رؤية الدماء والمعارك الحربية تعود الرومان مطالب الحرب والتضحية بالنفس .. وهاهو ذا چوڤنال الذي ندد بكل شيء عدا هذه الألعاب قد تركها من غير تجريح ، وأمتدح پلنى الأصغر ، وهو الرجل الراقي المتحضر ، تراچان لأنه عرض على الشعب مناظر تثير في الناس رغبة في أن يُنْخَزوا « بالجراح الشريفة والاستهزاء بالموت »[١١٩] . وكان تاستس يرى أن الدماء التي تراق في المجتلد ، أيا كان شأنها ، هي « الدماء الرخيصة » التي تجري في عروق العامة[١٢٠] . أما شيشرون فكانت نفسه تتقزز من هذه المجازر وهو يسائل الناس « أية تسلية يمكن أن تتسلى بها الروح الرقيقة الإنسانية حين ترى وحشاً شريفاً يطعنه الصائد في قلبه بلا رحمة ، أو ترى إنساناً يمزقه وحش ضار أقوى منه جسما ؟ » ولكنه يضيف إلى ذلك قوله . « إذا ما اضطر المجرمون إلى القتال فإن العين لا تشهد طريقة تهيئ الإنسان لملاقاة العذاب واستقبال الموت خيراً من هذه الطريقة »[١٢١] . وأقبل سنكا على الملاعب في وقت الظهيرة حين خرجت كثرة النظارة للغذاء ، فهاله وحز في نفسه أن يرى مئات المجرمين يساقون ليتسلى من بقوا فيها برؤية دمائهم المراقة :

« وأعود إلى منزلي أكثر مما كنت نهماً وقسوة ووحشيّة ، لأني كنت بين آدميين . لقد شاهدت بمحض المصادفة معرضا مقاماً في وقت الظهيرة ،

وكنت أتوقع أن أرى بعض ما يبعث السرور أو الفكاهة أو يروح عن النفس بعض متاعبها . . . وتستطيع عين الإنسان أن تستريح به من رؤية المجازر التي تذهب فيها حياة أخيه الإنسان ... ولكني رأيت عكس هذا . . إن هؤلاء المحاربين في وقت الظهيرة يخرجون وليس عليهم دروع من أي نوع كان ، أجسامهم معرضة للطعنات في كل جزء من أجزائها ، فكل طعنة تصيبهم في الصميم . . . إنهم في الصباح يلقون الناس أمام الآساد ، أما في الظهيرة فيقذف بهم أمام النظارة ، فترى الجماهير تطلب إلى المنتصر الذي قتل خصيمه أن يقاتل الرجل الذي سوف يقتله ، ويحتفظ بالمنتصر الأخير ليُقتل قتلة أخرى . . . وهذه الأمور وأمثالها تحدث والمقاعد تكاد تكون خالية . . . إن الآدمي الذي لا يحل للإنسان قتله ، يقتل لعبا ولهوا وجلبا للمسرة »[١٢٢] .

الفصل السابع

العقائد الجديدة

رضى الدين عن الألعاب وعدها الصور الصحيحة للاحتفالات الدينية ، ولذلك كانت تبدأ بمواكب فخمة وقورة ، وكان الكهنة والعذارى الفستية يحتلون أماكن الشرف فى دور التمثيل ، وفى مضامير السباق وأمام المجتلد ، وكان الإمبراطور الذى يرأس هذه الاحتفالات هو الكاهن الأكبر لدين الدولة .

وقد بذل أغسطس وخلفاؤه كل ما وسعهم من جهد ليعيدوا الحياة إلى الدين القديم ، إلا عنصراً من عناصره وهو الحياة الأخلاقية الفاضلة ؛ وحتى أشد الأباطرة كفراً بهذا الدين أمثال كلجيولا ونيرون كانوا يؤدون جميع المراسم والطقوس الواجبة للآلهة الرسمية ، وظل اللوپرسى يرقصون فى الشوارع فى يوم عيدهم ، كما ظل إخوان أرڤال Arval ينطقون بالدعوات والصلوات للمريخ بلغة لاتينية قديمة لا يفهم أحد معناها . وكان التنبؤ بالغيب وزجر الطير من الأعمال التى لا ينقطع الناس عن ممارستها والثقة العظيمة بها ، وكان الأباطرة الذين يخرجون المنجمين من البلاد يستشيرونهم فى مهام الأمور . وأدخل السحر والشعوذة والخرافات والأوهام الباطلة ، والرقى ، والتعاويذ ، والتفاؤل ، والتطير ، وتفسير الأحلام فى نسيج الحياة الرومانية حتى أصبحت لحمتها وسداها ، وكان أغسطس يدرس أحلامه دراسة جدية لا تقل عن دراسة علماء النفس فى هذه الأيام ؛ ويحدثنا سنكا أنه شاهد بعينيه نساء يجلسن على درج الكپتول ينتظرن أن يستمتع بهن چوپتر لأنهن رأين فى أحلامهن أن الإله راغب فيهن[١٢٣] . وكان كل قنصل يحتفل بتقلده منصبه احتفالا يضحى فيه بعدد من العجول ؛ وحتى چوڤنال نفسه ، وهو الذى كان يسخر بكل ما عدا هذه الأعمال ،

قطع بيده فى تقى وخشوع أعناق حملين وعجل خنزير شكراً للآلهة على أن صديقاً له عاد من رحلته سالماً . وغصت الهياكل بقرابين الذهب والفضة ؛ وكانت الشموع تضاء أمام المذابح ، وقد بليت شفاه التماثيل المقدسة وأيديها وأقدامها من كثرة ما طبعه عليها الأتقياء الصالحون من قبلات . وقصارى القول أن الدين القديم بدا وكأنه لا يزال محتفظاً بقوته ، وظل يخلق آلهة جدداً مثل أنونا Anona (جامعة حبوب العالم إلى رومة) ، ويبعث حياة جديدة فى عبادة فورتونا Fortuna وروما Roma ويؤيد القانون ، والنظام ، والاستبداد أقوى تأييد . ولو أن أغسطس بعث حياً بعد عام واحد من وفاته لما كان عليه حرج إن قال إن ما بذله من جهود لإحياء الدين قد نجح أعظم نجاح .

لكن الدين القديم ، رغم هذه المظاهر الخارجية ، دب فيه دبيب الفناء من أعلاه ومن أسفله على السواء . ولم يكن تأليه الأباطرة دليلا على إجلال الطبقات العليا لحكامها ، بقدر ما كان شاهداً على قلة إجلالها لآلهتها . وأخذت الفلسفة تمحو العقائد الدينية من قلوب المتعلمين وإن كانت فى الوقت نفسه تبسط على هذه العقائد حمايتها ، ولم تكن كتابات لكريشيوس Lucritius عديمة الأثر فى العقول ؛ نعم إن الناس لم يكونوا يذكرونه ، ولكن إغفالهم ذكره لم يكن له من سبب إلى أن الانغماس فى الأبيقورية كان أسهل عليهم من دراسة أبيقور أو شارحه المتحمس لمبادئه . ولم يجد الشبان الأثرياء الذين ذهبوا ليتزودوا بالدراسات العليا فى أثينة والإسكندرية ورودس ما يزيد إيمانهم بالدين الرومانى وعقائده . وكان الشعراء اليونان يسخرون من آلهة الرومان ، وسرعان ما أخذ شعراء الرومان أنفسهم يحذون حذوهم ، فكانت قصائد أوفد تفترض أن الآلهة من نسج الخيال ، وكانت فكاهات مارتيال الشعرية تفترض أن الحديث عنهم هزل لا جد فيه . ويلوح أن أحداً لم يشك من هذا أو يعترض عليه ، وقام شخص وطرد ديانا من المسرح بعد أن انهال عليها ضرباً

بالسياط ، وجاء آخر فمثل جوبتر وهو يوصى بوصيته استعداداً للموت[١٢٤] .
ولاحظ جوفنال ما لاحظه أفلاطون قبل عهده بخمسة قرون ، وما نلاحظه نحن بعده بثمانية عشر قرناً ، أن خوف إله رقيب مطلع على السرائر لم يعد له من القوة ما يستطيع به أن يكشف الحنث فى الإيمان[١٢٥] . وحتى شواهد القبور نفسها تقرأ عليها ما يدل على ازدياد التشكك فى الدين وعلى الانغماس الصريح فى الشهوات . فقد كتبت على واحد منها هذه العبارة : « لم أكن ، لقد كنت ، ولست بكائن ، ولا أبالى » . وكتب على شاهد آخر : « لم أكن قد وجدت ، لست موجوداً ، لست أدرى » ، وعلى شاهد ثالث : « لم يكن لى إلا ما أكلت وشربت ؛ لقد تمتعت بحياتى » [١٢٦] . وكتب على شاهد آخر : « لا أؤمن بشىء وراء القبر » . ويؤكد شاهد غيره أن « ليس ثمة جحيم ولا كارون ، ولا سربس Cerebus » . وكتبت نفس قلقة كدرة : « لا حاجة لى الآن بأن أخشى الجوع ، ولا حاجة لى بأن أؤدى الريع ، ولقد تحررت من وجع المفاصل على الأقل » . وكتب شخص نكد من أتباع لكريشيوس عن جثته المدفونة يقول : إن « العناصر التى تكونت منها تعود مرة أخرى إلى أصولها ، إن الحياة عارية تعار للإنسان ، وليس فى مقدوره أن يحتفظ بها إلى أبد الدهر ، وهو إذا مات يرد ما عليه من دين إلى الطبيعة » [١٢٧] .

لكن الشك مهما يكن فيه من إخلاص لا يمكن أن يحل محل الإيمان ، ولم يجد ذلك المجتمع بين ملذاته كلها سعادة ما ، بل سئم ما فيه من تنعم ، واستنفد قواه فيما ساده من دعارة ، وظل الفقراء والأغنياء على السواء معرضين للألم والحزن والموت ، ولم تستطع الفلسفة بجميع أنواعها ، وخاصة تلك العقيدة الباردة السامية عقيدة الرواقية ، أن تهب الرجل العادى إيمانا يخفف عنه شعوره بفقره ، ويشجعه على تهذيب خلقه ، ويواسيه فى أحزانه ، ويبعث الأمل فى قلبه . لقد كان الدين القديم يؤدى الوظيفة الأولى من هذه الوظائف الثلاث ، وعجز عن أداء الوظيفتين الأخريين . ذلك أن الناس كانوا يحتاجون إلى وحى يوحى إليهم ،

ولكن الدين لم يهبهم إلا طقوساً ومراسم ؛ وكانوا يطلبون خلوداً وحياة بعد الموت ، ولكن دينهم جاء لهم بدل هذا بألعاب . كذلك شعر الناس الذين جاءوا من بلاد أخرى عبيداً أو أحراراً أنهم محرومون من هذه العبادات القومية ، ومن أجل هذا جاءوا معهم بآلهتهم ، وأقاموا لها هياكل خاصة بها ، ومارسوا شعائرهم الخاصة ؛ وغرسوا فى قلب بلاد الغرب دين الشرق . وبدأت بين عقائد الفاتحين وإيمان المهزومين حرب لم تنفع فيها أسلحة الجحافل الرومانية ؛ وكانت حاجات القلوب هى التى قررت لمن يكون الفوز .

وجاء الأرباب الجدد مع أسرى الحروب ، ومع الجنود العائدين من ميادين القتال ومع التجار . وأقام التجار الوافدون من آسية ومصر هياكل فى بتيولى Puteoli ، وأستيا Ostia ورومة ليعبدوا فيها آلهتهم التقليدية . وكانت الحكومة الرومانية تنظر إلى هذه الأديان الأجنبية نظرة التسامح فى العادة ؛ ذلك أنها لم تكن تريد أن تسمح للأجانب أن يشاركوا الرومان فى عباداتهم ، ومن أجل هذا كانت ترى أن ممارستهم شعائر دينهم الذى جاءوا به معهم أفضل من تركهم بلا دين . وكانت تطلب إليهم فى نظير هذا أن يكون كل دين أجنبى متسامحاً كذلك مع غيره من الأديان ، وأن تتضمن طقوسه ما يشعر بالخضوع إلى « عبقرية » الإمبراطور ، وإلى الإلهة « روما » ليعبروا بذلك عن ولائهم للدولة ؛ وشجع هذان التساهل والتسامح الأديان الشرقية ، وكانت قد استقرت فى رومة ، فأضحت هى الأديان الكبرى المنتشرة بين العامة . وأراد كلوديوس أن يهذب هذه العبادات الشرقية فرفع القيود المفروضة على عبادة الأم العظمى ، وأجاز للرومان أن يكونوا كهنة لها وقائمين على خدمتها ، وقرر لها عيداً رسمياً حوالى الاعتدال الربيعى بين ٥ و ٢٧ مارس . وكانت منافستها الكبرى فى القرن الأول الميلادى هى إيزيس المصرية إلهـة الأمومة ، والإخصاب ، والتجارة وكانت الحكومة قد حرمت المرة بعد المرة عبادة هذه الإلهة الأجنبية فى رومة ،

ولكنها لم تكن تلبث أن تعود بعد كل تحريم لأن تقوى عبادها كانت أقوى من سلطان الدولة ، وأيد كلجيولا استسلام الدولة لها بأن شاد لها من الأموال العامة ضريحاً فخما فى ميدان المريخ . واشترك أتو Otho ، ودومتيان فى الاحتفالات الإيزيسية ، ومشى كومودس عارى الرأس خلف كهنتها يمسك بيديه فى خشوع تمثالا لأنوبيس Anubis القرد إله المصريين .

وزاد شأن هذا الغزو الدينى عاماً بعد عام ، فجاءت من جنوبى إيطاليا عبادة فيثاغورس — وهى الاقتصار على أكل الخضر ، والاعتقاد بعودة الأرواح إلى التجسد . وجاءت من هيربوليس Hierapolis الإلهة أترجاتس Atargatis المعروفة عند الرومان « بالإلهة السورية » ، كما جاء منها أيضاً أزيز Aziz المعروف « بزيوس دلوكى Dolochi » وغيره من الأرباب العجيبة . ونشر التجار والأرقاء السوريون عبادة هذه الآلهة ، وما زال عبادها يقوون حتى اعتلى العرش آخر الأمر شاب من كهنة « بعل » السورى وتسمى باسم إلجبالس Elagabalus — عابد إله الشمس . وجاءت من پارثيا عدوة رومة عبادة إلهة من إلهات الشمس هى مثرا Mithra . وكان عبادها يعتقدون أنهم جنود فى الحرب الكونية العظيمة حرب الضياء على الظلام ، وحرب الخير على الشر . وكان فى هذا الدين كثير من صفات الرجولة ، ولهذا كان أكثر أنصاره من الرجال لا من النساء ، وأعجبت به الفيالق الرومانية المرابطة عند الحدود النائية حيث كان يصعب عليهم أن يسمعوا أصوات آلهتهم القومية . وجاء من بلاد اليهود إلههم يهوه إله الموحدين الذين لا يقبلون معه شريكا ، والذى كان دينه يتطلب من أهله حياة شاقة من التقى ورعاية القواعد والنظم ، ووضع لهم قانونا أخلاقيا صارماً ، وأكسبهم شجاعة كانت لهم عوناً فيما نزل بهم من محن ، وأسبغت على حياة أفقر الفقراء وأقلهم جاهاً جلباباً من النبل والشرف . وكان بين اليهود الرومان أتباع هذا الدين طائفة لم تكن قد تميزت بعد من سائر الطوائف تميزاً واضحاً ، كانت تعبد ابنه الذى حلت فيه روحه والذى بعث حيا .

الباب الثامن عشر

القانون الروماني (*)

١٤٦ ق . م إلى ١٩٢ م

الفصل الأول

المشترعون العظام

كان القانون أخص خصائص الروح الرومانية ، وأبقى مظهر من مظاهرها وكانت رومة مضرب المثل فى النظام كما كانت بلاد اليونان مضرب المثل فى الحرية ، ولقد أورثتنا رومة شرائعها ، وتقاليدها الإدارية لتكون هى أسس النظام الاجتماعى ، كما أورثتنا بلاد اليونان الدمقراطية والفلسفة اللتين كانتا أساس الحرية الفردية . وأهم ما يجب على الساسة ورجال الحكم هو أن يجمعوا بين هذين التراثين المختلفين المتنافرين ويوحدوا بينهما ، ويؤلفوا من نغماتهما المتعارضة المنشطة نغما مؤتلفاً منسجماً

وإذ كان القانون هو أساس التاريخ الرومانى وجوهره ، فقد كان من المستحيل أن نفصل هذا عن ذاك ، ومن أجل هذا لن يكون هذا الباب من أبواب الكتاب إلا مكملاً لما سبقه وما سيعقبه من تفصيلات ، ولن يزيد على لبنات متفرقة فى صرح الحضارة الرومانية . والدستور الرومانى يشبه الدستور البريطانى — فلم يكن هذا الدستور طائفة من القواعد المخلدة التى يتقيد بها

(*) ليس فى هذا الفصل نفع لرجال القانون وليس فيه لذة لغيرهم .

الناس ، بل كان سلسلة متتابعة من السوابق ترشد وتوجّه ، ولكنها لا تمنع التغيير . فكلما زاد الثراء وتعقدت أساليب الحياة ، أصدرت الجمعيات وأصدر الحكام والزعماء ، قوانين جديدة ، وسايرت الشرائع الإمبراطورية فى نموها واتساع نطاقها ، فكانت كلما امتدت رقعة الإمبراطورية لاحقتها القوانين إلى الحدود الجديدة ، وتطلب تعليمُ رجال القانون ، وإرشادُ القضاة ، وحمايةُ المواطن من الأحكام الظالمة غير المشروعة ، تطلب هذا تنظيم الشرائع وصياغتها فى صورة مرتبة يسهل معرفتها والوصول إليها .

وبينما كانت الاضطرابات التى حدثت عقب ثورات ابنى جراكس وماريوس على أشدها قام پبليوس موسيوس اسكاڤولا Publius Mucius Scaevola (الذى ولى القنصلية فى عام ١٣٣ ق . م) وابنه كونتس Quintus (وقد ولى القنصلية فى ٥٥ ق . م) وبذلا جهوداً كبيرة لصياغة قوانين رومة صياغة يسهل فهمها . وكتب شيشرون ، وكان من تلاميذ رجل آخر يدعى كونتس موسيوس اسكاڤولا (وقد ولى القنصلية عام ١١٧ ق . م) ، رسائل بليغة فى فلسفة القوانين ، ووضع مشروع قوانين مثالية يقصد بها الاحتفاظ بالثروة الطائلة التى جمعها وبالدين الذى خسره . وخلقت القوانين المتناقضة التى سنها ماريوس وصلا ، وسلطة پمپى المطلقة التى لم يكن لها مثيل من قبل ، والشرائع الثورية التى وضعها قيصر ، والدستور الجديد الذى وضعه أغسطس ، خلقت هذه كلها مشاكل جديدة للعقول التى حاولت أن تجعل الشرائع متمشية مع المنطق السليم ، وأخذ المشترع النابه أنتستيوس لبيو Antistius Labeo يندد بما فى القوانين من اضطراب وفوضى ، ويعلن أن المراسيم التى أصدرها قيصر وأغسطس مراسيم باطلة لأنها مظهر لسلطة مغتصبة غير شرعية . ولم يكن فى مقدور عقول الأفراد أو سلطة المحاكم أن تقبل هذه القوانين الجديدة إلا بعد أن وطدت الزعامة سلطتها باستخدام القوة أولا وبسلطان العادة فيما بعد .

ويعود الفضل إلى القرنين الثانى والثالث من التاريخ الميلادى فى وضع القوانين

الرومانية فى الغرب فى صورتها النهائية — وهو عمل لا يقل خطراً عن صياغة العلم والفلسفة فى بلاد اليونان .

وفى هذا المجال أيضاً كان قيصر هو الذى حدد الهدف المقصود ، ولكن الجهود الحقيقية التى بذلت لتحقيق هذا الهدف لم تبدأ بالفعل إلا فى أيام هدريان (١١٧ م) ؛ فقد جمع هذا الإمبراطور — وهو أرقى الأباطرة كلهم تعليما — حوله طائفة من فقهاء القانون وألف منهم مجلسه الخاص ، وكلفهم أن يستبدلوا بمراسيم البريتورين المتناقضة « مرسوماً خالداً » يلتزمه فى المستقبل جميع القضاة فى إيطاليا . ولعل الذى أوحى إلى هدريان بإصلاح شرائع رومة وتنسيقها هو إطلاعه فى أثناء رحلاته الكثيرة على دساتير المدن اليونانية فى آسية وإيطاليا ؛ ذلك أن هذه المدن قد أنشأت على توالى الأيام طائفة راقية من القوانين التى تنظم شئونها البلدية ، وإن كان اليونان بوجه عام لم يخرجوا بعد أيام صولون كتاباً فى القانون يعد من الآيات الخالدة فى هذا الموضوع . وواصل الأنطونيون خلفاء هدريان هذا التقنين ، وكانت الشهرة النصف الرسمية التى تتمتع بها الفلسفة الرواقية مما جعل لليونان أثراً عميقاً فى القوانين الرومانية . فقد أعلن الرواقيون جهرة أن القوانين يجب أن تتفق مع المبادئ الخلقية القويمة ، وأن الجريمة كامنة فى نية المرء لا فى نتيجة عمله . وقد أمر أنطونيوس ، وهو ثمرة من ثمار المدرسة الرواقية ، أن يفسر الشك لمصلحة المتهم ، وأن يظل الإنسان بريئاً حتى تثبت إدانته[1] — وهما مبدآن من أرقى المبادئ فى قوانين البلاد المتحضرة .

وقد نبغ فى فلسفة القانون عدد كبير من العباقرة جاء بعضهم فى إثر بعض ، وكان من أهم العوامل فى هذا النبوغ مناصرة الأباطرة وتشجيعهم . ومن هؤلاء العباقرة سلفيوس يوليانس Salvius Julianus وهو رومانى أفريقى المولد أظهر من الجد وغزارة العلم حين كان يعمل مستشاراً قانونياً للإمبراطور ما حمل مجلس الشيوخ على أن يقرر أن يكون مرتبه ضعفى المرتب المخصص

لهذا المنصب عادة واشتهرت فتاواه بوضوحها وسلامة منطقها ، و «فلاصة» عبارة عن مجموعة منظمة من القوانين المدنية . وكان هو الذى صاغ المرسوم البريتوري الدائم حين كان أشهر الأعضاء البارزين فى مجلس هدريان . وهناك مشترع آخر يدعى جايوس Gaius لا نعرف عنه غير اسمه . وقد عثر نيبور Neioum عام ١٨١٦ م على «أنظمة» مكتوبة على ورق وفوقها مقالات لچيروم Jerome ، وهى الآن أكمل مرجع يعتمد عليه فى دراسة القوانين التى سنت قبل عهد چستنيان . وقد صدرت هذه «الأنظمة» حوالى عام ١٦١ م ، ولم يكن يقصد بها أن تكون عملا إنشائياً جديداً ، بل كانت كتاباً مدرسيا أوليا للطلاب والدارسين ، فإذا رأينا نحن أنها آية من آيات العرض المنظم ، فنى وسعنا أن نتصور العقلية الجبارة التى كان يتمتع بها أولئك الرجال الذين تلخص هذه الرسالة كتبهم . وبعد ستين سنة من ذلك العهد أوصل بابنيان پولس Papinian Paulus وألپيان Alpian فقه القانون الرومانى إلى ذروته ، وبينما كان تنفيذ القوانين يخر صريعاً للعنف والفوضى صاغه هذان العالمان صياغة منطقية متسقة خالية من التناقض ، ولم يلبث هذا العلم أن هوى بعدها فى غمرة الخراب الشامل .

الفصل الثانى

مصادر القانون

كما أن مصطلحات العلم والفلسفة مأخوذة فى الأغلب الأعم من اللغة اليونانية فتكشف بذلك عن مصدر هذه العلوم ، كذلك لغة القانون مأخوذة فى معظمها من اللغة اللاتينية . وكان اللفظ الدال على القانون فى هذه اللغة هو ius أى العدالة أو الحق ، أما كلمة lex فقد كان معناها القانون الخاص(*) . وقد وصف فقه القانون فى مختصر جستنيان (٥٣٣ م) بأنه علم وفن معا « علم العدل وغير العدل » و « فن تدبير ما هو صالح ومقسط » وكانت كلمة ius تشمل القانون غير المكتوب أو العادات المرعية التى تحوى القانون المكتوب نفسه ، وكان هذا القانون المكتوب يتكون من ius civilen — أى « قانون المواطنين (الرومان) ، ius gentium — أى « قانون الأمه » . وكان القانون المدنى وقانون المواطنين يسمى «القانون العام» إذا كان يتعلق بشئون الدولة أو العبادة الرسمية ، و « القانون الخاص » إن كان يبحث فى العلاقات القانونية بين المواطنين بعضهم بعضا .

والقانون الرومانى بوجه عام مأخوذ من خمسة مصادر : (١) ففى عهد الجمهورية كان المصدر النهائى للقانون هو إرادة المواطنين يعبرون عنها فى الجمعيتين العشرية والمئوية بلفظ leges وفى الجمعية القبلية بلفظ plebisuta (« قررته العامة») . ولم يكن مجلس الشيوخ يقر اللجيس leges إلا إذا عرضت على الجمعيتين مصحوبة بالمراسيم المقررة وعرضها عليهما موظف كبير فى مرتبة

(*) وازن هذا بعبارتى loi droit فى اللغة الفرنسية وعبارتى Gesetz, Recht فى اللغة الألمانية .

أعضاء مجلس الشيوخ . وإذا ما اتفق مجلس الشيوخ والجمعية على إنفاذ قانون من القوانين أعلن باسم Senatus Populusque Romauns

(٢) ولم يكن لمجلس الشيوخ نفسه من الوجهة النظرية فى عهد الجمهورية حق إصدار القوانين ، أما قراراته المعروفة باسم « استشارات الشيوخ » senatusconsulta فكانت من الناحية الرسمية توصيات إلى الحكام ، ثم أضحت على مر الأيام توجيهات ، ثم أوامر ، ثم صار لها فى عهد الجمهورية المتأخرة وفى عهد الإمبراطورية قوة القوانين . وكان مجموع القوانين التى أجازتها الجمعيتان ومجلس الشيوخ فى خلال ستة قرون قليلا إلى حد يدهش له من اعتاد السيل الجارف من الشرائع التى تصدرها الدول فى الوقت الحاضر .

(٣) وكانت الحاجة إلى القوانين الصغرى أو الخاصة تسدها الأوامر edicta التى يصدرها موظفو المجالس البلدية . ذلك أن كل حاكم جديد للمدينة كان يصدر فى بدء قيامه بمهام منصبه أمراً بريتوريا edictum praetorium يذيعه مناد فى السوق العامة وينقش على أحد الجدران ، ويعلن فيه المبادئ القانونية التى ينتوى الحاكم العمل بها والحكم بين الناس بمقتضاها فى خلال السنة التى يتولى فيها منصبه . وكان فى وسع القضاة المتنقلين praelores peregarini وحكام الولايات أن يصدروا أيضاً أمثال هذه القرارات . ولم يكن يسمح للبريتوريين بمقتضى سلطة الحكم المخولة لهم أن يفسروا القوانين القائمة فحسب ، بل كان لهم فوق ذلك أن يسنوا قوانين جديدة . وبهذه الطريقة كان القانون الرومانى يجمع بين استقرار الشرائع الأساسية ومرونة الأحكام البريتورية . وإذا انتقل قانون أو انتقلت فقرة من فقراته من مرسوم بريتور إلى مرسوم البريتور الذى يليه مرات كثيرة أصبحت جزءاً لا يتجزأ من القانون الأساسى المعروف باسم ius honorarium حتى حل « قانون المناصب » قبيل عهد شيشرون محل الجداول الاثنى عشر ، وأصبح هو النص الرئيسى للأوامر القانونية فى رومة . على أن

البريتور كثيراً ما كان يخالف المبادئ التي جرى عليها سابقه ، ويصدر من الأحكام ما يناقضها كل المناقضة في بعض الأحيان ؛ وبهذا أضيف الغموض في القوانين والتعسف في الأحكام إلى المساوئ الطبيعية التي لا يخلو منها أي نظام قضائي يتبعه بنو الإنسان ؛ وهذا هو الغموض الذي أراد هدريان أن يقضي عليه حين عهـد إلى يوليانس أن يجمع القانون الأساسي ius honorarium كله في مرسوم دائم لا يستطيع تغييره إلا الإمبراطور نفسه .

(٤) وأصبحت قوانين الزعماء constituiones principum نفسها في القرن الثاني مصدراً آخر من مصادر القانون . واتخذت هذه القوانين أربعة أشكال مختلفة (ا) فقد كان الزعيم يصدر مراسيم بوصف كونه صاحب منصب في المدينة ، وكانت هذه المراسيم نافذة في الإمبراطورية كلها ، ولكن يلوح أنها كان يبطل مفعولها بعد وفاته . (ب) وكان لأوامره decreta بوصفه قاضياً ما كان لغيرها من الأوامر من قوة القانون . (جـ) وكانت ردوده الإمبراطورية rescripta أجوبة لما يوجه إليه من الاستعلامات . وكانت هذه الأجوبة تتخذ في العادة شكل رسائل epistulae أو إجابات قصيرة subscriptiones « تكتب تحت » سؤال أو ملتمس . وقد ضمت الرسائل الحكيمة الجامعة التي رد بها هدريان على ما يطلبه موظفو الحكومة من إرشادات إلى قوانين الإمبراطورية ، وظلت نافذة المفعول بعد وفاته بزمن طويل . ( ) وكانت عهود الأباطرة mandata هي التوجيهات التي يصدرونها للموظفين ، وقد تكون من هذه العهود على مر الزمن كتاب كبير من القانون الإداري .

(٥) وكان من المستطاع في بعض الظروف الخاصة أن تسن القوانين الجامعة المعروفة باسم responsa prodentium . ولقد كان من أجمل المناظر بلا ريب أن يجلس العلماء الأعلام من المشترعين على كراسي في السوق العامة (أو في بيوتهم كما كان يحدث في العهود المتأخرة) ويصدروا فتاوى قانونية

لكل من يريد استفتاءهم ، وكانوا ينالون فى بعض الأحيان على عملهم مكافآت من طريق غير مباشر . فكثيراً ما كان المحامون أو قضاة البلديات يأتون إليهم ليستشيروهم فى مشاكلهم القانونية . وكانوا يفعلون ما يفعله كبار الحاخامات اليهود من التوفيق بين المتناقضات ، ويحددون ما بين القوانين بعضها وبعض من فروق دقيقة ، ويفسرون القانون القديم بما يلائم حاجات الحياة القائمة فى وقتهم أو يلائم ظروفها السياسية ، أو يوفقون بينه وبين هذه الحاجات والظروف . وقد أضحى لأجوبتهم المكتوبة بحكم العادة غير المكتوبة قوة لاتفوقها إلا قوة القوانين نفسها . وجعل أغسطس لهذه الفتاوى كل ما للقوانين من قوة إذا توافر فيها شرطان : أولهما أن يكون المشترعون قد تلقوا من الإمبراطور حق إصدار الفتاوى القانونية ius sespondenti وثانيهما أن ترسل الإجابة مختومة إلى القاضى المعروضة عليه القضية الصادرة فيها الفتوى . ولم يحل عصر جستنيان حتى أضحت هذه الإجابات أو الفتاوى القانونية مصدراً واسعاً للشرائع وآدابها ، ومعينا لاينضب استمد منه مختصره و كتاب قوانينه وكان عماداً لها .

الفصل الثالث

قانون الأحوال الشخصية

يقول ماريوس المعروف بدقته إن القانون كله يتعلق إما بالأشخاص ، وإما بالملك ، وإما بالمرافعات[٢] . وكانت لفظ persona فى أول الأمر تعنى قناع الممثل ، ثم صار معناها بعدئذ العمل الذى يقوم به الإنسان فى الحياة ، ثم بات معناها آخر الأمر الشخص نفسه — وكأنما قصد بهذا التطور أننا لانسطيع أن نعرف شخصاً ما ، بل كل الذى نعرفه هو ما يقوم به من أعمال ، أو ما يلبسه من قناع أو أقنعة .

وكان الشخص الأول فى القانون الرومانى هو المواطن ؛ وكان تعريفه عندهم هو أنه الشخص الذى ضم إلى إحدى القبائل الرومانية بحكم المولد أو التبنى ، أو العتق ، أو المنحة من قبل الحكومة . وكان الذين ينطبق عليهم هذا التعريف ينقسمون ثلاث درجات : (١) المواطنين الكاملين الذين يتمتعون بالحقوق الأربعة : حق الاقتراع (ius suffragü) ، وحق التوظف (ius honorum) ، وحق الزواج من حرة بمولدها ius conubü ، وحق الدخول فى تعاقد تجارى يحميه القانون الرومانى (ius commercü) . (٢) « المواطنين الذين لا حق لهم فى الاقتراع » وهم الذين يتمتعون بحق الزواج والتعاقد ، ولكنهم لا حق لهم فى الاقتراع ، ولا فى تولى المناصب . (٣) المعاتيق الذين يتمتعون بحق الاقتراع والتعاقد ولكنهم لا حق لهم فى الزواج بحرة أو فى تولى المناصب . وكان للمواطن الكامل المواطنية ، فضلا عن حقوقه السالفة الذكر ، حقوق يضمنها له القانون الشخصى ولا يشاركه فيها سواه ؛ كحق الأب على أبنائه (patria potestas) ، والزوج على زوجته (manus) ، والمالك فى ملكه ومنه عبيده (dominium) ،

وحق الرجل الحر على غيره إذا تعاقد معه (mancipium) . وكان ثمة نوع آخر من الحقوق هو حق المواطنية الإمكانية أو حق الدخول فى الحظيرة اللاتينية Latinitas أو ius Latii ، تمنحه رومة للأحرار من سكان المدن أو المستعمرات المفضلة ويعطيهم حق التعاقد ولكنه لا يعطيهم حق التزاوج بالرومانيات ، وينال به كبار موظفيهم حقوق المواطنية الرومانية الكاملة حين تنتهى مدة توليهم مناصبهم . وكان لكل مدينة فى الإمبراطورية مواطنوها وشروطها الخاصة لنيل حقوق المواطنية . وكان من المميزات الفذة لهذه الإمبراطورية أن الشخص يستطيع أن يكون مواطناً لعدة مدن فى وقت واحد ، وأن يستمتع فيها جميعاً بالحقوق المدنية . وكانت أثمن ميزة يستمتع بها المواطن الرومانى هى حماية القانون لشخصه ، وملكه وحقوقه ، وأمنه على نفسه من التعذيب أو العنف فى أثناء المحاكمة . وكان من مفاخر القانون الرومانى أنه يحمى الفرد من الدولة .

ويلى الأب المواطن فى الأهمية فى نظر القانون . لقد كان انتشار القانون فى الأقاليم التى كانت خاضعة فى الأزمنة القديمة لسلطان العادة سبباً فى إضعاف حقوق الآباء على الأبناء ، ولكن فى وسعنا أن نحكم على ما بقى له من سلطان إذا ذكرنا أنه حين خرج أولس فلفيوس Aulus Fulvius لينضم إلى جيش كاتلين Catiline استعاده أبوه وقتله . على أننا نستطيع أن نقول بوجه عام إن سلطان الأب على أبنائه أخذ يضعف كلما ازداد سلطان الحكومة على الأفراد ؛ وإن المواطنية دخلت الأسرة حين غادرت الدولة . لقد كان الآباء هم الدولة فى باكورة عهد الجمهورية ، فكان رؤساء الأسر هم الذين يكوّنون الجمعية القبلية ، وأكبر الظن أن رؤساء القبائل هم الذين كانوا يكونون مجلس الشيوخ . ثم ضعف نظام الحكم عن طريق الأسر والقبائل حين كثر عدد السكان واختلفت أصولهم ، وأصبحت الحياة أكثر حركة وتعقيداً ، وازدادت الصلات التجارية بين الناس فحل التعاقد والقانون محل القرابة والمكانة الاجتماعية والعادة[٤] . فنال الأبناء من آبائهم

نصيباً أوفى من الحرية ، كما ازداد تحرر الزوجات من الأزواج والأفراد من الجماعات . وشاهد ذلك أن تراجان أمر بفصل ابن عن أبيه لأنه أساء معاملته ، وأن هدريان سلب من الأب حقه فى قتل أفراد أسرته ونقل هذا الحق إلى الحاكم ، ومنع أنطونينس أباً من أن يبيع أبناءه عبيداً[٥] . وكانت العادة قد قصرت من زمن بعيد استخدام هذه السلطات القديمة على حوادث فردية نادرة . ذلك أن القانون ينزع على الدوام للسير ببطء خلف التطور الأخلاقى ، لا لأن القانون عاجز عن التعلم بل لأن التجارب قد دلت على أن من الحكمة أن تجرب الأساليب الجديدة عمليا قبل أن توضع فى صورة الشرائع .

وكانت المرأة الرومانية تحصل على حقوق جديدة كلما فقد الرجل حقوقاً قديمة ، ولكنها كانت من المهارة بحيث تستطيع أن تستر حريتها بستار من القيود القانونية المطردة الزيادة . لقد كانت شرائع الجمهورية تفترض أنها « لا حق لها على نفسها sui iuris » مطلقا بل أنها على الدوام خاضعة لولى من الذكور . وفى ذلك يقول جايوس : « توجب عاداتنا على النساء الرشيدات أنفسهن أن يبقين تحت الوصاية لخفة عقولهن »[٦] . ثم زال القسط الأكبر من هذه الوصاية فى عهد الجمهورية المتأخر وفى عهد الإمبراطورية ، وكان سبب زواله مفاتن النساء وقوة إرادتهن ، واستجابة الرجال لهذه المفاتن وهيامهم بالنساء . فكان المجتمع الرومانى من أيام كاتو الأكبر إلى أيام كودس Commodus خاضعاً لسلطان النساء ، وإن كان من الناحية القانونية مجتمعاً أبويًّا ، وكان يسوده كل ما كانت تمتاز به سيادتهن على إيطاليا فى عهد النهضة أو الندوات الفرنسية فى عهد آل بربون من ظروف ورشاقة : وأقرت قوانين أغسطس هذه الحقيقة الواقعة بعض الإقرار بأن رفعت الوصاية عن كل امرأة ولدت ثلاثة أبناء شرعيين[٧] . وأصدر هدريان مرسوماً يجعل من حق النساء أن يتصرفن فى أملاكهن كيفما شئن بشرط أن يحصلن قبل ذلك على موافقة أوليائهن ، ولكن الإجراءات الفعلية لم تلبث

أن استغنت عن هذه الموافقة . ولم يكد يختتم القرن الثانى حتى كانت الولاية البشرية قد رفعت من الوجهة القانونية عن الحرائر من النساء متى تجاوزن الخامسة والعشرين من العمر .

وظل رضاء الأبوين إلى الوقت الذى نتحدث عنه واجباً فى الزواج الشرعى[٨] : وكان الزواج الذى يتطلب احتفالا دينيا con farreatio وقتئذ (٦٠ م) مقصوراً على عدد قليل من الأسر التى يتألف من آبائها مجلس الشيوخ . وبقى الزواج بالشراء (Coemptio) قائما من حيث الشكل ، فكان العريس يؤدى ثمن العروس بأن يزن فى ميزان آساً أو سبيكة من البرنز أمام خمسة شهود بعد موافقة أبيها أو وليها[٩] . غير أن معظم الزواج أضحى وقتئذ زواجا بالمعاشرة (usus) . وكانت الزوجة تتجنب الخضوع لحق زوجها فى تملكها (manus) بأن تغيب عن بيتها ثلاث ليال فى كل عام ، وبذلك تحتفظ بسيطرتها على أملاكها عدا بائنتها . بل إن الزوج فى واقع الأمر كثيراً ما كان يسجل أملاكه باسم زوجته تهرباً من قضايا التعويض عن الأضرار أو العقاب على الإفلاس[١٠] . وكان فى وسع كل من الطرفين فسخ هذا الزواج الذى يتسلم فيه الزوج زوجته أو أملاكها sine manu متى أراد ، أما ما عداه من أنواع الزواج فكان الزوج وحده هو الذى يحق له فسخه : وظل الزنى من الجرائم الصغرى إذا ارتكبه الرجل ، أما إذا ارتكبته المرأة فكان يعد من الجرائم الكبرى ضد أنظمة الملكية والميراث ، ولكن الزوج لم يبق له وقتئذ حق قتل زوجته إذا ضبطها متلبسة بجريمة الزنى ، بل أعطى هذا الحق لأبيها اسماً وللمحاكم فعلا . وكان عقابها هو النفى . وكان القانون يعترف بالتسرى بديلا من الزواج لا مصاحباً له ، ولم يكن يجيز للرجل أن تكون له خطبتان فى وقت واحد ، ولم يكن أبناء السرارى يعدون أبناء شرعيين أو يجعل لهم حق الإرث . ومن أجل ذلك كان اتخاذ السرارى أمراً محبباً كل الحب للرجال الذين يتكالب عليهم من يسعون لأن يوصى لهم بأملاكهم . فاتخذ

فسپازيان ، وأنطونينس پيوس ، وماركس أورليوس لهم سرارى يعيشون معهن بعد أن ماتت أزواجهم[١١] .

وحاول القانون أن يشجع الأبوة بين الأحرار ، لكنه لم يفلح فى ذلك إفلاحاً يستحق الذكر . وكان يحرم قتل الأبناء إلا إذا كانوا مشوهين أو مصابين بمرض مستعص على العلاج . وكان عقاب من يجهض حاملا أن ينفى من البلاد وأن تصادر أملاكه ، فإذا ماتت الحامل نتيجة لهذا العمل عوقب بالإعدام[١٢] . على أنه كان فى الاستطاعة الإفلات من هذه القوانين فى ذلك الوقت كما يفلت من يرتكب هذه الجرائم الآن وكان الأبناء أيا كانت سنهم يبقون تحت سلطان أبيهم إلا إذا باعهم عبيداً ثلاث مرات ، أو تحرروا من سيطرته بحكم القانون ، أو شغل الابن منصباً عموميا ، أو صار كاهناً ، أو أصبحت إحدى بناته زوجة استولى زوجها عليها وعلى مالها ، أو أضحت عذراء فستية وإذا تزوج ابن فى حياة أبيه كانت ولاية أبنائه لجدهم[١٣] ، وقد أعفت شريعة أغسطس مكاسب الابن من الجندية أو من توليه منصباً عاما ، أو كهنوتيا ، أو من الاشتغال بإحدى المهن الحرة أعفتها من الخضوع للقانون القديم الذى كان يجعل هذه المكاسب كلها من حق الأب : وكان لا يزال من حق الأب أن يبيع ابنه (Mancipium) ؛ ولكن حاله تلك كانت تختلف عن حال الرقيق فقد كان يحتفظ بما له من حقوق مدنية ؛

أما العبد فلم تكن له حقوق قانونية على الإطلاق ، والحق أن القانون الرومانى كان يتردد فى أن يطلق عليه لفظ شخص person ، ثم خرج أخيراً من هذه الورطة بأن سماه « إنسانا غير شخصى »[١٤] ؛ ولم يبحث جايوس فى أمره تحت عنوان قانون الأشخاص إلا لخطأ وقع فيه أدى إلى هذا الإنصاف غير المقصودة ؛ أما منطق الحوادث فكان يعد العبد من قبيل المتاع res فلم يكن يحق له أن يمتلك ، أو يرث ، أو يُورِّث ، ولم يكن يستطيع أن يتزوج زواجا شرعيا ، وكان أبناؤه كلهم يعدون أبناء غير شرعيين ، كما أن أبناءا لجارية كانوا يعدون كلهم

عبيداً ولو كان أبوهم من الأحرار[١٥] . وكان فى وسع السيد أن يرتكب الفحشاء مع عبيده وجواريه من غير أن ينالوا تعويضاً قانونياً ، ولم يكن فى مقدور العبد أن يقاضى من يؤذيه أمام المحاكم ، وكان الذى يحق له أن يقاضى من يتسبب فى إيذاء العبد هو سيده . وكان لهذا السيد فى عهد الجمهورية أن يضربه ، ويسجنه ، ويحكم عليه أن يقاتل الوحوش فى المجتلد ، ويعرضه للموت جوعا ، أو يقتله لسبب أو لغير سبب ومن غير أن تكون عليه رقابة إلا رقابة الرأى العام المكون من ملاك العبيد . وإذا أبق عبد ثم قبض عليه كان فى مقدور سيده أن يكويه بالنار أو يصلبه ؛ وكان أغسطس يفخر بأنه قبض على ثلاثين ألفاً من العبيد الآبقين ، وأنه صلب كل من لم يكن له مالك يطلبه[١٦] . وإذا ما استفز العبد عمل من هذه الأعمال أو غيرها فقتل سيده ، قضى القانون بأن يقتل جميع عبيد القتيل ؛ ولما أن قتل الوالى بدانيوس سكندس Pedanius Secundus فى عام ٦١ وحكم على عبيده الأربعمائة بالإعدام ، احتجت أقلية من أعضاء مجلس الشيوخ على هذا الحكم ، وطالبت جماعة غاضبة فى الشارع باستعمال الرأفة ، ولكن المجلس أصر على تنفيذ القانون اعتقاداً منه أن السيد لا يكون آمناً على نفسه من عبيده إلا بمثل هذه القسوة[١٧] .

ومما يذكر بالشكر للإمبراطورية أو للنقص فى موارد العبيد — أن أحوالهم أخذت تتحسن تحسناً مطرداً فى عهد الأباطرة . ومن مظاهر هذا التحسن أن كلوديوس حرم قتل العبد الذى لا يرتجى منه نفع ، وأمر أن يصبح العبد المريض الطريد بعد شفائه حراً من تلقاء نفسه . وحرم قانون بترونيا Les Petronia ، فى عهد نيرون على الأرجح ، على الأسياد أن يحكموا على العبيد بأن يقاتلوا فى المجتلد إلا إذا وافق على ذلك موظف كبير . وأجاز نيرون للعبـــد الذى أسيئت معاملته أن يلجأ إلى تمثاله ويحتمى منه ، وعين قاضياً لينظر فى شكاوى أمثال هذا العبد — وكان ذلك تقدما متواضعاً بدا لرومة كأنه انقلاب ثورى ، لأنه فتح

أبواب المحاكم للعبيد . وقد جعل دومتيان خصي العبيد للأغراض الجنسية جناية ، وحرم هدريان ملاك العبيد مما كان لهم من حق قتل عبيدهم دون موافقة الحكام ، وأجاز أنطونينس بيوس للعبد الذى أسيئت معاملته أن يحتمى فى أى معبد ، وقرر أن يباع مثل هذا العبد إلى سيد آخر إذا أثبت أنه لحقه ضرر . وشجع ماركس أورليوس الأسياد على أن يعرضوا على المحاكم ما لحقهم من الأضرار على أيدى العبيد ، بدل أن يقتصوا منهم بأنفسهم . وكان يرجو أن يحل القانون والحكمة بهذه الطريقة محل الوحشية والانتقام الفردى[١٨] . وآخر ما نذكره من الإصلاحات أن مشترعا عظيما فى القرن الثالث هو أبليان Uplian جهر بما لم يجرؤ على الجهر به إلا عدد قليل من الفلاسفة ، وهو أن « الناس أكفاء بحكم قانون الطبيعة »[١٩] . وقال غيره من المشترعين إن من القواعد المقررة أنه إذا كان ثمة شك فى أن رجلا ما حر أو عبد كانت الشكوك كلها مؤيدة لحريته[٢٠] .

على أن خضوع العبيد القانونى لسادتهم على هـذا النحو لهو رغم هذه الملطفات كلها أسوأ وصمة يوصم بها القانون الرومانى . وكانت آخر سوءات هذا القانون ما يفرضه من الضرائب والقيود على عتق العبيد حتى لقد كان كثيرون من الملاك يتملصون من قانون فوفيا كانينا les Fufia Canina بأن يعتقوا عبيدهم من غير شهود رسميين أو احتفال قانونى ، وإن كان هذا العتق لا يعطى المعتوق حقوق المواطنية بل كل ما يمنحه إياه هو أن يجعله لاتينيا . أما العبد الذى يعتق حسب الإجراءات القانونية فكان يصبح مواطناً يستمتع بالحقوق المدنية مقيدة ببعض القيود ؛ لكن العادة كانت تتطلب أن يؤدى واجب التعظيم لسيده السابق كل صباح ، وأن يقوم على خدمته إذا دعت الضرورة ، وأن يعطيه صوته فى كل انتخاب ، وأن يؤدى إليه فى بعض الحالات قسطا من كل ما يكسبه من المال . وإذا مات المعتوق دون أن يوصى لأحد بماله ، ذهب هذا المال من تلقاء نفسه إلى سيده السابق إن كان حيا ؛ وإذا ما أوصى بماله وهو على قيد الحياة

كان ينتظر منه أن يخص هذا السيد ببعضه[٢١] . وقصارى القول أن المعتوق لم يكن يستنشق نسيم الحرية بحق إلا بعد أن يموت سيده ، وتقام جنازته ، ويوارى التراب بالطرق التى جرى بها العرف والتقاليد المرعية .

ومن واجبنا أن نضيف إلى الأقسام العامة من قانون الأحوال الشخصية السالف الذكر ذلك القسم الذى يطلق عليه فى الشرائع الحديثة اسم خاص هو القانون الجنائى . لقد كان التشريع الرومانى يحسب حساباً للجرائم التى تقع على الأفراد والدولة والهيئات الاجتماعية والتجارية بوصفها أشخاصاً معنويين . فأما الدولة فقد كان الاعتداء عليها يشمل خيانتها بالفعل أو بالقول ، وعصيانها ، والاعتداء على دينها الرسمى ، والرشوة ، وابتزاز الأموال أو الفساد فى أعمالها الإدارية ، أو سرقة أموالها ، أو تقديم الرشا للقضاة أو المحلفين . ونستطيع أن نتبين من هذا الثبت الذى لا يحوى إلا عدداً قليلا من الجرائم أن الفساد تمتد جذوره إلى أبعد العهود وأن فروعه فى أكبر الظن ستظل تورق حتى المستقبل البعيد . أما الجرائم التى تقع على الأفراد فكان منها الإيذاء البدنى ، والغش ، والفحش ، والقتل ؛ ويشير شيشرون فى بعض أقواله إلى قانون اسكانتنيا lex Scantinia الذى يعاقب على اللواط[٢٢] . وقاوم أغسطس هذه الجريمة بفرض غرامة على مرتكبها ، وقاومها مارتيال بالهجاء ، ودومتيان بالإعدام . ولم يعد الإيذاء البدنى يعاقب عليه فى ذلك الوقت بالقصاص كما هو وارد فى الجداول الاثنى عشر ، بل كان يعاقب عليه بالغرامة . ولم يكن الانتحار جريمة ، بل إنه قبل دمتيان كان يكافأ عليه فى بعض الأحيان ، فكان فى مقدور الرجل المحكوم عليه بالإعدام إذا لجأ إلى الانتحار أن يضمن عادة تنفيذ وصيته وانتقال أملاكه لورثته دون أن توضع فى سبيل ذلك العقبات . وكان القانون يترك له الحرية المطلقة فى اختيار إحدى الطريقتين ليختم بها حياته :

الفصل الرابع

قانون الملكية

وكان أكبر قسم فى القانون الرومانى هو الخاص بشئون الملْكية ، والالتزامات ، والتبادل ، والتعاقد ، والديون ، ذلك أن الممتلكات العينية كانت هى حياة رومة ، وكان ازدياد الثروة واتساع التجارة يتطلبان طائفة من القوانين أكثر تعقيداً إلى أبعد حد من قوانين العَشَرة الساذجة .

وكانت الملكية تجىء عن طريق الوراثة أو وضع اليد . وإذا كان الوالد يمتلك بوصفه وكيلا عن الأسرة أو وليا عليها ، فقد كان الأبناء والأحفاد ملاكا بالإمكانية أو « ورثة أنفسهم »[٢٣] حسب النص الفذ الوارد فى القانون . فإذا مات الوالد من غير أن يترك وصية ورث أبناؤه أملاك الأسرة من تلقاء أنفسهم . وورث أكبر الآباء من هؤلاء الأبناء حق الولاية على الأسرة . وكان عمل الوصايا القانونية يحاط بمئات من القيود : وكانت صياغتها تتطلب كما تتطلب فى هذه الأيام سيلا من اللغو والتكرار والألفاظ الطنانة الرنانة . وكان كل موص ملزماً بأن يترك جزءاً من أملاكه إلى أبنائه . وجزءاً آخر للزوجة إذا رزقت منه بثلاثة أبناء ، وأجزاء أخرى (فى بعض الأحيان) إلى إخوته وأخواته ، وآبائه إن وجدوا . ولم يكن من حق أى وارث أن يستولى على أى جزء من التركة إلا بعد أن يتحمل نصيبه من جميع ديون المتوفى ، وما عليه من الالتزامات القانونية . وكثيراً ما كان الرومانى يجد نفسه متورطاً فى وصية ملعونة على حد تعبيرهم ، أو وصية حمراء إذا جاز هذا التعبير . وإن امرؤ هلك ليس له ولد ولم يترك وصية انتقلت أملاكه وديونه من تلقاء نفسها إلى أقرب « قريب ذكر من العصب »

أو من أولاد الظهور كما نقول نحن فى هذه الأيام . ثم ألغى هذا التقييد بالعصب فى عهد الإمبراطورية ، وقبل أن يجلس جستنيان على العرش كان لأبناء البطون مثل ما لأبناء الظهور من حق فى الإرث . وقد كان قانون قديم سن بإيعاز كاتو (١٦٩ ق . م) يحرم على كل رومانى يملك ١٠٠ر١٠٠ سسترس (أى ما قيمته ١٥٫٠٠٠ ريال أمريكى) أو أكثر أن يوصى بأى جزء من ثروته لامرأة . وكان قانون ڤكونيا lex Voconia هذا لا يزال مدوّناً فى كتب القوانين فى أيام جايوس ، ولكن الحب وجد له سبيلا إلى التملص منه ، فقد كان الموصى يوصى بأملاكه إلى وارث له حق الإرث ، ثم يلزمه بأن ينقل هذه الأملاك قبل وقت معين إلى المرأة التى يريد أن يهبها تلك الأملاك . وبهذه الطريقة وأمثالها انتقل جزء كبير من ثروة رومة إلى أيدى النساء . يضاف إلى هذا أن الهبة كانت سبيلا آخر إلى الفرار من قانون الوصية ، غير أن الهبات التى كانت توهب قرب الوفاة كانت عرضة لأن تبحث بحثاً قانونياً دقيقاً ، وأضحت فى عهد جستنيان خاضعة لنفس القيود التى كانت مفروضة على الوصايا .

وكان الاستحواذ يجىء عن طريق الأيلولة أو الانتقال المترتب على قضية حكمت فيها المحاكم . فأما الأيلولة (mancipatio أو التسليم باليد) فكانت الوسيلة إليها هى الهبة القانونية أو البيع أمام شهود وبوجود كفتى ميزان يوضع فيهما سبيكة نحاسية رمزاً لهذا البيع . فإذا لم تصحبها هذه المراسم القديمة فإن القانون لا يقر أى انتقال للملك . وكانت هناك ملكية وسطى أو إمكانية يعترف بها القانون وتسمى حق وضع اليد على الملك أو استخدامه : فكان الذين يفلحون أراضى الدولة مثلا من هذا الصنف « الحالسين » لا المالكين ، فإذا ما ظلوا عامين يشغلون هذه الأراضى ولا ينازعهم فيها منازع أصبحوا ملاكا لها لا شك فى ملكيتهم ، وكانت لهم بحق الانتفاع أو بوضع اليد فى لغة هذه الأيام . ولعل الحصول على الملك بعد شغله بهذه الوسيلة السهلة اللينة يرجع فى أصله إلى عمل الأشراف الذين حصلوا به

على الأراضى العامة[٢٤] . وبهذه الطريقة طريقة الملك بالانتفاع أو وضع اليد كانت المرأة التى تعاشر رجلا عاماً كاملا لا تغيب عنه فيه ثلاث ليال تصبح ملكا له .

وكان الإلزام هو ما يفرضه القانون قسراً على شخص ما بأن يقوم بعمل من الأعمال . وكان الشخص يلزم بعمل ما إذا ارتكب جنحة أو تعاقد على القيام بهذا العمل . فأما الجنح ، وهى الذنوب البسيطة التى تضر بالشخص أو بملكه ، فكان يعاقب عليها فى كثير من الأحيان بغرامة تؤدى إلى من وقع عليه الأذى تعويضاً له عما لحقه من الضرر . وأما العقد فكان اتفاقاً ينفذه القانون . ولم يكن يفرض فى هذا التعاقد أن يكون مكتوباً ؛ والحق أن الاتفاق الشفوى الذى كان يتم بالنطق بلفظ « أعد spondeo » أمام أحد الشهود قد ظل حتى القرن الثانى بعد الميلاد يعد أكثر قداسة من أى تعهد مكتوب . ولم تعد كثرة الشهود ولا المراسم الوقورة التى كان لا بد منها فى العهود السابقة لإتمام التعاقد القانونى ضرورية فى الوقت الذى نتحدث عنه . ونشطت الأعمال المالية والتجارية حين اعترف القانون بكل اتفاق واضح — وكان هذا التعاقد يتم عادة بأن يسجل الطرفان ما اتفقا عليه فى دفاتر حساباتهما tabulae . غير أن القانون كان يحمى الأعمال المالية والتجارية أتم حماية ، فكان يلفت نظر البائع والمشترى كليهما إلى آلاف الخدع التى تنشأ بطبيعتها فى الحياة المتحضرة . من ذلك أن القانون كان يحتم على كل بائع ماشية أو عبيد مثلا أن يكشف للمشترى عما فى أجسامها أو أجسامهم من عيوب ، وكان يعتبر مسئولا عن هذه العيوب وإن قال إنه يجهلها[٢٥] .

وكان الدين يعقد إما سلفة ، أو رهناً ، أو وديعة ، أو أمانة : وكان ما يعقد من قروض للاستهلاك يضمن عادة برهن بعض العقار أو المنقولات . وكان العجز عن أداء الدين يجعل من حق الراهن قانونا أن يستولى على

الملك المرهون . ولقد رأينا فى الفصول السابقة أن هذا العجز فى عهد الجمهورية الباكر كان يجيز للدائن أن يتخذ المدين عبداً له(*) . وقد عدل قانون پوتليا Poetelia الذى صدر فى عام ٣٢٦ ق . م هذه القاعدة بأن أجاز للمدين أن يعمل حتى يؤدى دينه وهو محتفظ بحريته . وفى عهد قيصر كانت الأملاك المرهونة التى يعجز أصحابها عن فك رهنها تباع لأداء ما عليها من الديون من غير أن يضار المدين فى شخصه . غير أن حالات من استرقاق المدينين ظلت تحدث إلى أيام جستنيان . أما العجز عن الأداء فى الأحوال التجارية فقد خفف من آثاره قانون الإفلاس ، الذى كان يجيز بيع أملاك المفلس للوفاء بديونه ، ولكنه يترك له مما يحصل عليه بعدئذ ما يكفى لمعيشته .

وكان أهم الجرائم التى ترتكب على الأملاك هو الإتلاف ، والسرقة ، والنهب — أى السرقة بالإكراه . وكانت قوانين الجداول الاثنى عشر تحكم على السارق الذى يضبط بالضرب ، ثم يجعل بعدئذ عبداً لمن سرق منه ؛ فإذا كان السارق عبداً ، ضرب ثم ألقى به من فوق الصخرة الترپية Tarpeian Rock . فلما زاد استقرار الأمن خفف القانون البريتورى هذه العقوبات القاسية بأن فرض عليه أن يرد إلى المسروق منه ضعفى ما سرقه أو ثلاثة أضعافه أو أربعة أضعافه[٢٦] ، ولقد كان قانون الملكية فى صورته الأخيرة أكمل جزء من الشريعة الرومانية .

(*) وكان صاحب الملك المرهون من الوجهة القانونية « مرتبطاً » uexus بصاحب المال ؛ ولكن اللفظ الذى كان يستخدم لهذا الارتباط وهو لفظ nexum لفظ غامض كان يستخدم كما يبدو للدلالة على أى ارتباط قانونى أقسم المتعاقدان أن يتقيدا به .

الفصل الخامس

قانون المرافعات

كان الرومان أكثر الشعوب القديمة ميلا إلى التقاضى ، على الرغم مما امتاز به قانون المرافعات عندهم من تعقيد فنى وغموض محير مربك كان خليقاً بألا يشجعهم على الالتجاء إلى المحاكم . وما من شك فى أنهم لو شهدوا إجراءاتنا القضائية لبدت لهم هى الأخرى طويلة مضللة ؛ وكلما رجعنا فى الحضارة إلى الوراء زادت القضايا طولا ؛ ولقد كان فى وسع أى رومانى ، كما سبق القول ، أن ينصب نفسه مدعياً فى المحكمة الرومانية ، وكان يطلب إلى المدعى والمدعى عليه والحاكم فى عهد الجمهورية ، حين كان يتولى الأشراف الحكم فيها ، أن يسيروا على نهج معين يسمى **الإجراء القانونى** ، إذا حاد أحدهم عنه قيد شعرة بطلت المحاكمة . وفى ذلك يقول جايوس : فإذا قاضى شخص آخر لأنه قطع كرومه ثم أطلق عليها فى قضيته اسم « كروم » خسر القضية ، فقد كان يجب عليه أن يسميها « أشجاراً » لأن اللفظ الوارد فى الجداول الاثنى عشر هو الأشجار لا الكروم بصفة خاصة(٢٧) . وكان كل من طرفى النزاع يودع لدى الحاكم مبلغاً من المال sacramentum يضيع على من يخسر القضية ، ويصبح من حق دين الدولة ، وكان من الواجب على المدعى عليه أن يقدم كفالة تضمن بها المحكمة حضوره أمامها فيما بعد . فإذا تم هذا أحال الحاكم النزاع إلى رجل يختاره من ثبت يحتوى أسماء الرجال الذين يصح لهم أن يكونوا قضاة . وكان القاضى فى بعض الأحيان يصدر حكما تمهيديا يوجب على أحد الطرفين المتقاضيين أو كليهما أن يقوم بعمل من الأعمال أو يمتنع عن القيام به ، وإذا خسر المدعى عليه القضية كان من حق المدعى أن يستولى على أملاكه أو يقبض عليه حتى ينفذ الحكم .

وفى عام ١٥٠ ق . م ألغى قانون إيبوتيا الإجراءات المعقدة القديمة واستبدل بها إجراءات أخرى أقل منها تعقيداً ، فلم يصبح من الضرورى اتباع مراسم معينة أو النطق بألفاظ خاصة ؛ وصار من حق المتقاضين أن يشتركوا مع الحاكم فى تحديد الشكل الذى يعرض به النزاع على القاضى ، ثم يصدر الحاكم بعدئذ إلى القاضى تعليمات بالحقائق الموضوعية والمسائل القانونية التى يتضمنها النزاع . وكانت هذه إحدى الوسائل التى وضع بها الحاكم أو البريتور « القانون البريتورى » فيما بعد . وجدت فى القرن الثانى بعد الميلاد طريقة ثالثة للحكم فى القضايا غير العادية ، كان للحاكم بمقتضاها أن يفصل بنفسه فى القضية . وقبل أن يختتم القرن الثالث اختفت الإجراءات السالفة الذكر عن آخرها وأصبح الحاكم هو الذى يصدر الأحكام بطريقة عاجلة ، وكان ذلك الحاكم مسئولاً أمام الإمبراطور وحده مديناً له بمنصبه ، فكان هذا إيذانا بقيام الملكية المطلقة .

وكان فى وسع المتقاضين أن يعرضوا بأنفسهم قضاياهم ثم يصدر البريتور أو القاضى حكمه فيها دون معونة المحامين إذا شاء المتقاضيان هذا ؛ غير أنه لما كان القاضى فى كثير من الأحيان رجلا غير مدرب تدريباً مهنيا ولم يدرس القانون دراسة خاصة ، ولما كانت العقبات الفنية تعترض المتقاضين فى كل خطوة فى القضية ، فإن المتنازعين كانوا يلجئون فى العادة إلى محامين ليترافعوا عنهم avocati وإلى إخصائيين قانونيين pragmatici وإلى مستشارين قانونيين iurisconsulti وفقهاء قانونيين iurisprudentes. ولم تكن المواهب القانونية تنقص الرومان ، فقد كان كل أب يعز أبناءه يتوق إلى أن يرى ابنه محامياً ، وكان القانون وقتئذ كما هو الآن الطريق الموصل إلى المناصب العامة . فنرى أحد الأشخاص فى كتاب لپترونيوس يعطى ابنه طائفة من الكتب ذات الظهور الحمراء « ليتعلم قليلا من القوانين » لأن « القانون يأتى بالمال »[٢٨] . وكان طالب القانون يبدأ بدراسة المبادئ القانونية على معلم خاص ، ثم يشهد المرحلة الثانية

الاستشارات التي تعرض على أعلام فقهاء القانون ، ويتمرن بعدئذ عند محام يترافع في القضايا . وأنشأ بعض المستشارين القانونيين في أوائل القرن الثاني بعد الميلاد مدارس stationes في أحياء مختلفة من مدينة رومة يعلمون فيها القانون أو يصدرون فيها فتاوى قانونية . ويشكو أميانس Ammianus من ارتفاع الأجور التي كان يفرضها هؤلاء الفقهاء ، ويقول إنهم كانوا يتقاضون ثمن تثاؤبهم نفسه ، ويحلون قتل الأم إذا أدى العميل أجراً كافياً(٢٩) . وكان هؤلاء المعلمون يسمون « أساتذة القانون » ؛ ويلوح أن لفظ أستاذ professor قد أطلق عليهم لأنه كان يطلب إليهم أن يعلنوا profiteri عزمهم على أن يعلموا وأن يحصلوا بعدئذ من السلطات العامة على ترخيص بممارسة هذا العمل(٣٠)

وكان لا بد أن يوجد بين المحامين الكثيرين الذين يمارسون مهنتهم عددٌ منهم لا يتورعون عن بيع علمهم لأغراض صغيرة(٣١) ، وعن قبول الرشا لكي يعرضوا قضايا موكليهم عرضاً ضعيفاً ، وعن البحث عن ثغرات القانون يبررون بها أية جريمة ، وعن إثارة النزاع بين الأغنياء ، وعن إطالة القضايا إلى أطول أجل يمكنهم من سلب أموال المتقاضين(٣٢) ، وأن يزلزلوا المحاكم أو السوق العامة بأسئلتهم الإرهابية وعباراتهم الموجزة البذيئة . ومنهم من اضطرهم التنافس على القضايا إلى العمل على نيل الشهرة بالهرولة في الشوارع وبأيديهم أضابير من الوثائق وبأصابعهم خواتم مستعارة ، ومن خلفهم خدم وأتباع ، ومصفقون مأجورون ليصفقوا لهم وهم يخطبون(٣٤) . وقد بلغ من كثرة الأساليب التي اخترعت للتملص من قانون سنسيوس Cincius القديم الخاص بأجور المحامين أن اضطر كلوديوس أن يجعل الحد القانوني الأعلى لهذه الأجور عشرة آلاف سسترس لكل قضية ، وأن يجعل من حق المتقاضين قانونا أن يستردا ما زاد على هذا القدر(٣٥) . لكن هذا القيد كان يسهل الإفلات منه : فنحن نسمع أن محامياً في أيام فسبازيان جمع ثروة تبلغ ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سسترس (نحو ٣٠,٠٠٠,٠٠٠

ريال أمريكي(٣٦) . غير أنه كان يوجد وقتئذ ، كما يوجد في كل عصر من العصور ، محامون وقضاة يضعون مواهبهم الصافية المنظمة في خدمة الحق والعدالة من غير نظر إلى الأجور ، وكانت شهرة فقهاء القانون العظام الذين لا يعلو اسم على أسمائهم في تاريخ القانون ، تطغى على نقائص أولئك المحامين الأدنياء .

وكانت المحاكم التي تنظر في قضايا المذنبين على درجات تختلف من المحاكم ذات القاضي أو الحاكم الواحد إلى الجمعيات الوطنية ومجلس الشيوخ والإمبراطور . وكان في وسع البريتون أن يختار بطريق القرعة بدل القاضي الواحد محلفين لا حد لعددهم ، ولكنهم يكونون في العادة ٥١ أو ٧١ محلفا ومن بين الثمانمائة والخمسين اسما من أسماء طبقة الشيوخ أو الفرسان المدونة في ثبت المحلفين ، وكان من حق المدعي والمدعى عليه أن يقدما ما شاءا من الاعتراضات على هذا الاختيار . وكانت محكمتان خاصتان تعقدان بصفة دائمة ، إحداهما محكمة العشرة الرجال decemviri وتنظر في أحوال الأفراد المدنية ، والثانية محكمة المائة centumviri وتنظر في قضايا الملك والميراث . وكانت المرافعات أمام هذين النوعين من المحاكم علنيـــة يباح حضورها للجمهور ، لأنا نرى پلني الأصغر يصف الجمهور الكبير الذي حضر ليستمع إليه وهو يترافع أمام المحكمة الثانية(٣٧) . ويشكو جوڤنال(٣٨) وأپوليوس Apuleius(٣٩) من الارتشاء وكثرة التأجيل في هذه المحاكم ، ولكن غضبهما نفسه يوحي بأن ما يشكوان منه كان من العيوب الاستثنائية القليلة

وكانت المحاكمات تمتاز بنصيب من الحرية في القول والفعل قل أن نجد له نظيراً في محاكم هذه الأيام . وكان في وسع عدد من المحامين أن يحضروا مع كل طرف من طرفي النزاع ؛ منهم من تخصص في تحضير البينات ، ومنهم من تخصص في عرضها على المحكمة . وكان كتبة مختلفون notarii ، actuarii ، scribea يسجلون المرافعات ، كان بعضها يسجل بطريقة الاختزال . ويصف مارتيال

بعض أولئك الكتبة بقوله : « ومهما تكن السرعة التي تقال بها الألفاظ ، فإن أيديهم أسرع منها »(٤١). ويصف أفلوطرخس الطريقة التي كان المختزلون يدونون بها خطب شيشرون ، والتي كانت تضايقه في أكثر الأحيان . وكان الشهود يعاملون حسب السوابق التي خلع عليها طول العهد ثوباً من الوقار ، والتي يصفها كونتليان بعبارته التي لا يعلو عليها وصف آخر فيقول :

« إذا أريد الفحص عن شهادة شاهد فإن أول ما تجب مراعاته هو صنف هذا الشاهد نفسه . ذلك أن الشاهد الجبان يستطاع إرهابه ، والشاهد الأبله يمكن التفوق عليه في الدهاء ، والرجل الغضوب يمكن استثارته ، والرجل المغرور يستطاع تملقه . أما الشاهد الذكي الأريب الرابط الجأش فيجب إبعاده على الفور لأنه خبيث عنيد أو . . . إذا كان في حياته الماضية ما يعاب عليه ، فإن شهادته يستطاع نقضها بما يمكن مجابهته به من التهم الفاضحة »(٤٢) .

وكان في وسع المحامي أن يدلي بما يشاء من الحجج ، فكان يستطيع أن يطلع المحكمة على ما لديه من صور خاصة بالجريمة المزعومة ، مرسومة على القماش أو الخشب ؛ وكان في مقدوره أن يمسك طفلا بين يديه وهو يناقش نقطة من النقط ؛ وكان يحق له أن يكشف عما في جسم جندي متهم من ندوب وما في جسم عميله من جروح . وقد ابتدعت الدفوع لمقاومة مفعول هذه الأسلحة ؛ فهاهو ذا كونتليان يحدثنا عن حيلة لجأ إليها محام جاء خصمه بأطفال موكله إلى المحكمة ليوضح بهم مرافعته ، فما كان منه إلا أن ألقى بينهم بنرد ، فزحف الأطفال على أرض المحكمة ، وأفسدوا بذلك على المحامي ختام قضيته(٤٣) . وكان من المستطاع تعذيب العبيد إذا كانوا أحد طرفي الخصومة لانتزاع الشهادة منهم ، ولكن الشهادة المنتزعة بهذه الطريقة لم تكن تقبل ضد مالكيهم . وقد أصدر هدريان مرسوماً يحرم فيها تعذيب العبيد لانتزاع إقرار منهم بجريمتهم ، إلا إذا لم يفلح معهم كل ما عدا ذلك من الوسائل ، على أن يتبع في هذا التعذيب أدق

الإجراءات المرسومة له ، ونبه الحاكم إلى أن الشهادة المنتزعة بالتعذيب لا يستطاع الوثوق بها على الإطلاق . على أن التعذيب القانونى ظل رغم هذا من الوسائل التى يلجأ إليها ، واتسع نطاقه فى القرن الثالث حتى شمل الأحرار[٤٤] . وكان المحلفون يعطون أصواتهم بإيداع ألواح ذات علامات خاصة فى وعاء ، وكانت أغلبيتهم المطلقة تكفى لإصدار القرار . وكان فى وسع من يخسر القضية فى كثير من الأحيان أن يستأنف الحكم أمام محكمة أعلى درجة من المحكمة التى أصدرته ، وكان فى مقدوره أن يستأنفه أمام الإمبراطور نفسه إذا أمكنته موارده من ذلك .

وكان القانون هو الذى يحدد العقوبات فلم تكن تترك لاختيار القضاة أنفسهم . وكانت هذه العقوبات تختلف باختلاف منزلة المحكوم عليه ، وكان أقساها ما يوقع على العبيد ، فقد كان فى الاستطاعة أن يحكم على العبد بالصلب ، أما المواطن فلم يكن يستطاع صلبه ؛ ولم يكن يستطاع جلد المواطن الرومانى ، أو تعذيبه ، أو قتله دون أن يستأنف حكم القتل أمام الإمبراطور ، ويتضح ذلك لكل من يطلع على سِفْر أعمال الرسل ؛ وكانت العقوبات تختلف فى الجريمة الواحدة باختلاف منزلة المذنب وهل هو من « ذوى الشرف » honestiores أو من « المنحطين humiliores » ؛ كما كانت تختلف فى حال الرجل الحر المولد والمحرر ، والمفلس وغير المفلس ، والجندى المدنى . ولما كانت قيمة العملة تتغير أسرع من تغير العقوبات المقررة فى القانون فقد نشأ عن ذلك التغير السريع بعض الشذوذ والتناقض . من ذلك أن الجداول الاثنى عشر كانت تفرض غرامة مقدارها خمسة وعشرون آساً (وكانت فى الأصل خمسة وعشرين رطلا من النحاس) على من يضرب رجلا حراً ، فلما انخفضت قيمة الآس بسبب غلاء الأسعار إلى ما يعادل $\frac{6}{100}$ من الريال الأمريكى أخذ لوسيوس ڤراتيوس Lucius Veratius يصفع الأحرار على وجوههم ، ومن ورائه عبد يعد خمسة وعشرين آساً لكل من يتلقى الصفعة[٤٥] . وكانت بعض الجرائم يعاقب عليها بفرض

« الصمت » على من يرتكبها . وكان يقصد بالصمت فى الغالب منع المحكوم عليه من الحضور فى القضايا بشخصه أو أن ينيب عنه من يمثله ؛ وأشد من هذا العقاب أن يفقد المجرم حقوقه المدنية Capitis deminutiso . وكان فقدان هذه الحقوق يتدرج من فقد الأهلية للميراث ، إلى الطرد من البلاد ، إلى الاسترقاق . وكان الطرد أقسى صورة من صور النفى : فقد كان المطرود يقيد بالأغلال ، ويحجز فى مكان حقير ، وتنتزع منه كل أملاكه . أما النفى Exilium فكان أخف من الطرد ، فقد كان يسمح فيه للمنفى أن يعيش حراً فى أى مكان يشاء خارج إيطاليا ؛ ويختلف الطرد والنفى عن الإبعاد ، ذلك أن الإبعاد — كما حدث لأوفد — لم يكن يتضمن مصادرة المال ، وكل ما فى الأمر أن المبعد كان يرغم على الإقامة فى بلدة معينة ، بعيدة فى العادة عن رومة . وقلما كان يلجأ إلى السجن ليكون عقوبة دائمة ، ولكن كان فى الاستطاعة أن يحكم على الرجال بالاشتغال فى الأعمال العامة ، أو فى المناجم أو المحاجر التى تستغلها الدولة . وكان فى وسع الرجل الحر المحكوم عليه بالإعدام فى عهد الجمهورية أن ينجو من العقاب إذا أخرج من رومة أو من إيطاليا ؛ وازدادت أحكام الإعدام فى عهد الإمبراطورية فى عددها وقسوتها ، فكان أسرى الحرب ، والمحكوم عليهم بالإعدام من غير الأسرى فى بعض الأحيان ، يلقون فى جب تليان ليموتوا من الجوع وفتك الحشرات القارضة والقمل فى السراديب المظلمة وسط الأقذار التى لا يستطيعون إزالتها(٤٦) . وفى مثل هذه الأماكن مات چجورتا وسيمون بن چيوڤا Simon Ben - Giova البطل الذى دافع عن أورشليم ضد تيتس ، وفى مثلها كما تقول الرواية المتواترة : عذب القديسان بطرس وبولس قبل أن يصلبا ، وكتبا آخر رسائلهما إلى العالم المسيحى الناشئ .

الفصل السادس

قانون الأمم

وكانت أعقد المشاكل التي واجهها القانون الروماني أن يكيف نفسه ، وهو قانون الدولة السيدة ذات العقلية الممتازة ، بحيث لا يتعارض مع القوانين السائدة أو العادات المرعية في الأراضي التي أخضعتها رومة لسلطانها بقوتها العسكرية أو مهارتها السياسية . وكان عدد كبير من هذه الدول الخاضعة لرومة أقدم منها ، وكان لها من تقاليدها التي تفخر بها ومن أساليبها الخاصة التي تحرص عليها وتعتز بها ما يعوضها عما فقدته من قوتها العسكرية . وقد استطاعت رومة أن تتغلب على هذه المشكلة بمهارة فائقة ، فقد عينت في بادئ الأمر بريتوراً يختص بشئون الأجانب praetor peregrinus القاطنين في رومة ثم القاطنين في إيطاليا ، ثم في الأقاليم الخارجية ، وجعل من حقه أن يوفق بين القانون الروماني والقانون المحلي توفيقاً دائماً . ولقد نشأ من القرارات التي يصدرها البريتورون ، وحكام الولايات ، والإيديلون على مر الزمن قانون الأمم الذي كان يطبق على الإمبراطورية بأجمعها ، والتي كانت تحكم بمقتضاه .

ولم يكن « قانون الأمم » قانونا دوليا ، أي أنه لم يكن طائفة من الالتزامات والأحكام ارتضه الدول بوجه عام لتحديد علاقاتها بعضها ببعض . لقد كان في العهد القديم قانون دولي إذا لم تفهم من هذا اللفظ بمعناه في الزمن القديم معنى أدق كثيراً مما نفهمه منه في هذه الأيام . فقد كانت بعض العادات العامة تراعى ويتقيد بها في السلم والحرب — كالحماية المتبادلة للتجار والدبلوماسيين الدوليين ، ووقف القتال لدفن الموتى ، والامتناع عن استخدام السهام المسمومة ، وما إلى هذا . وكان فقهاء القانون الروما يصفون قانون الأمم، هذا ius gentium بأنه قانون

عام يشمل الأمم جميعها ، ولكن هذا لم يكن إلا من قبيل التفاخر الوطنى الكاذب . على أنهم لم يكونوا يعزون إلى رومة أكبر من نصيبها الحق فيه . فقد كان فى واقع الأمر قوانين محلية كيفت بحيث تتفق مع السيادة الرومانية ، وكان الغرض منها أن يستطاع بها حكم شعوب إيطاليا والولايات التابعة للدولة الرومانية من غير أن يعطى لأهلها حق المواطنية الرومانية وغيرها من الحقوق المنصوص عليها فى القانون المدنى .

وبمثل هذه الدعوى الكاذبة حاول الفلاسفة أن يقولوا إن قانون الأمم هو « قانون الطبيعة » . وكان الرواقيون يعرفون قانون الطبيعة بأنه قانون أخـــلاقى متأصل فى الإنسان بفعل « العقل الفطرى » . وكانوا يعتقدون أن الطبيعة نظام من نظم العقل ، قوامه المنطق والترتيب المحكم الكامن فى الأشياء جميعها . وهذا الترتيب المحكم الذى ينمو فى المجتمع من تلقاء نفسه ، ثم يصل إلى مستوى الوعى فى الإنسان ، هو القانون الطبيعى . وقد عبر شيشرون عن هذا الوهم بعبارة ذائعة الصيت فقال :

« إن القانون الصحيح هو العقل الحق المتفق مع الطبيعة ، والذى يدخل فى نطاقه العالم بأسره ، والسرمدى الذى لا يتبدل . . . وليس من حقنا أن نقاوم ذلك القانون أو أن نبدله ، وليس فى مقدورنا أن نلغيه ، ولا نستطيع أن نتحرر مما يفرضه علينا من التزامات بالتشريع أيا كان ، ولسنا فى حاجة إلى أن ننظر فى خارج أنفسنا لنبحث عن شرح له أو توضيح . وهذا القانون لا يختلف فى رومة عنه فى أثينة ، ولا فى الحاضر عنه فى المستقبل ... وهو قانون صحيح ثابت عند جميع الأمم وفى جميع الأحقاب . ... ومن عصاه فقد أنكر نفسه وأنكر طبيعته » (١٧) .

ذلك وصف كامل لمثل أعلى أخذ يزداد قوة حين جلست الرواقية على العرش فى عهد الأنطونيين . وما زال ألبيان يرفع من شأنه حتى بلغ

على يديه ذلك المبدأ الواسع المدى القائل بأن ما بين الطبقات من فروق ومميزات أمور عارضة اصطناعية . ولم يكن ثمة إلا خطوة واحدة بين هذا المبدإ وبين الفكرة المسيحية القائلة بأن الناس فى حقيقة أمرهم أكفاء . غير أن جايوس حين عرف قانون الأمم بأنه ليس أكثر من « القانون الذى شرعه العقل الفطرى بين البشر جميعاً » كان يعتقد خطأ أن الأسلحة الرومانية هى الإرادة الإلهية ، ذلك أن القانون الرومانى كان هو منطق القوة وهدفها الاقتصادى ؛ ولم تكن القوانين العظمى المدنية والأممية إلا القواعد التى يخلع بها الفاتح الحكيم النظام ، والاطراد ، والقداسة الزمنية على تلك السيادة القائمة على قوة الفيالق . نعم إن هذه القوانين كانت طبيعية ، بمعنى أنه كان من الطبيعى أن يستخدم الأقوياء الضعفاء وأن يسيئوا استخدامهم .

لكن هذا الصرح المهيب من أداة الحكم التى يطلق عليها اسم القانون الرومانى كان فيه شىء من النبل . وإذا كان لا بد أن يكون الحكام هم الأقوياء فإن من الخير أن تكون القواعد التى يفرض بها سلطانه واضحة صريحة ؛ وبهذ المعنى يكون القانون هو استقرار القوة واستقهامتها . ولقد كان من الطبيعى أن ينشئ الرومان أعظم نظام قانونى فى التاريخ كله . ذلك أنهم كانوا يحبون النظام وأنهم كانت لديهم الوسائل التى تمكنهم من فرضه على الناس ، وقد فرضوا على مئات من الأمم المختلفة المشارب والأجناس التى كانت تتخبط فى دياجير الفوضى والاضطراب سلطاناً وسلاماً ، لا ننكر أنهما لم يبلغا حد الكمال ولكنهما كانا فى واقع الأمر جليلى القدر عظيمى الأثر . ولقد كان لغير رومة من الدول التى قامت قبلها قوانين ، ونشأ فيها مشترعون أمثال حمورابى وصولون سنوا طائفة مكتملة من التشريعات الإنسانية الرحيمة ، غير أنه لم يوجد قط شعب غير الرومان أفلح فيما أفلحوا هم فيه من تنسيق الشرائع وتوحيدها وتقنينها ، وهى أعمال كانت الشغل الشاغل لأصحاب العقول الجبارة فى رومة من عهد أبناء اسكافولا Scaavola إلى جستنيان .

وقد يسرت مرونة قانون الأمم انتقال القانون الرومانى إلى الدول الأخرى فى العصور الوسطى وفى عصرنا الحاضر . وكان من محاسن الصدف أنه بينما كانت الفوضى التى أعقبت غارات البرابرة تقضى على التراث القانونى فى غربى أوربا كان قانون چستنيان ، وموجزه ، ونظم تجمع وتصاغ فى القسطنطينية فى ظل الاستقرار والثبات النسبيين السائدين فى شرقيها . وبفضل هذه الجهود ، وعشرات الوسائل الأقل منها شأناً ، وأساليب الحياة الصامتة الدائبة ، دخل القانون الرومانى فى الشرائع الدينية التى سنتها الكنيسة فى العصور الوسطى ، وكانت هى الوحى الملهم لعقول المفكرين فى عصر النهضة ، وأضحت هى الأساس الذى قامت عليه قوانين إيطاليا ، وأسپانيا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وبلاد المجر ، وبوهيميا ، وبولندة ، بل واسكتلندة ، وكوبك ، وسيلان ، وأفريقية الجنوبية من بلاد الإمبراطورية البريطانية . ولقد استمد القانون الإنجليزى نفسه ، وهو الصرح القانونى الوحيد الذى يضارع القانون الرومانى فى اتساع المدى ، قواعد العدالة ، والقوانين البحرية ، والولاية ، والإرث من القانون الرومانى . وإذا أحصينا أثمن ما ورثناه من العالم القديم قلنا إنه هو العلوم والفلسفة اليونانية ، والمسيحية اليهودية اليونانية . والديموقراطية اليونانية الرومانية ، والقانون الرومانى .

الباب التاسع عشر

الملوك الفلاسفة

٩٦ م — ١٨٠

الفصل الأول

نـــيرڤا

اختفى من تاريخ الملكية الرومانية مبدأ وراثة العرش بعد اغتيال دومتيان قرناً من الزمان : ذلك أن مجلس الشيوخ لم يعترف قط بأن الوراثة وسيلة لارتقاء العرش ، والآن بعد ١٢٣ سنة من خضوعه لهذا المبدإ ، عاد فأثبت سلطانه ، ورشح عضواً من أعضائه ليكون زعيما وإمبراطوراً ، كما كان يختار ملوك رومة في بداية عهدها . وكان هذا عملا جريئاً ينطق بالشجاعة ولا يستطاع فهمه إلا إذا ذكرنا أن حيوية الأسرة الفلاڤية قد نضب معينها ، في نفس الجيل الذي شهد تجدد حيوية مجلس الشيوخ بما طعم به من دم إيطالي وإقليمي .

وكان ماركس ككسيوس نيرڤا في السادسة والستين من عمره حين فوجئ بدعوته إلى هذا المركز السامي . ويظهره تمثاله الضخم المحفوظ في متحف الفاتيكان رجلا ذا وجه وسيم تتجلى فيه صفات الرجولة الكاملة ، ويتعذر على من يشاهده أن يعتقد أن صاحبه كان من أئمة فقهاء القانون المبجلين ، وأنه كان رجلا محموداً ، وشاعراً رقيقاً ظريفاً ، حياه مواطنوه في وقت من الأوقات ولقبوه « تيبلس زماننا »[1] . ولعل مجلس الشيوخ قد اختاره لشيبته وبعده عن الأذى ؛ وكان يستشير هذا المجلس

فى جميع خططه السياسية ، وحافظ على العهد الذى قطعه على نفسه بألا يكون قط سبباً فى موت أى عضو من أعضائه . وقد أعاد إلى البلاد من نفاهم منها دومتيان ورد إليهم أملاكهم ، وخفف من رغبتهم فى الانتقام من أعدائهم ، ووزع على الفقراء ما قيمته ٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سسترس من الأراضى الزراعية ، وأنشأ الألمنتا — وهى رصيد من مال الدولة — ليشجع بها تناسل الفلاحين ويمدهم بما يحتاجونه من المال . وألغى عدداً كبيراً من الضرائب وخفض ضريبة التركات ، وأعفى اليهود من الجزية التى فرضها عليهم فسبازيان ودعم فى الوقت نفسه مالية الدولة بمراعاة الاقتصاد فى بيته وحكومته . وكان يعتقد بحق أنه كان يراعى العدل فى معاملته جميع الطبقات ؛ ومن أقواله فى هذا المعنى : « إننى لم أفعل شيئاً يحول بينى وبين إلقاء منصبى الإمبراطورى عن كاهلى وعودتى آمنا مطمئنا إلى الحياة الخاصة »[٢].
ولكن حدث بعد عام من توليته أن حاصر الحرس البريتورى قصره ، وطالبه بتسليم قتلة دومتيان ، وقتل عدداً من مستشارى نيرفا . وكان هذا الحرس قد فوجئ باختياره لمنصبه ، واستاء من سياسة الاقتصاد التى كان يسير عليها . ومد نيرفا عنقه لسيوف الجند ولكنهم أبقوا عليه . وآلمه هذا الإذلال فأراد أن ينزل عن العرش ، ولكن أصدقاءه أقنعوه أن يقتدى بأغسطس فيتبنى رجلا يرضى عنه مجلس الشيوخ ، ويخلفه على العرش ، ويكون فى مقدوره أن يحكم الإمبراطورية وأن يحكم الحرس أيضاً . وأعظم ما تدين به رومة لنيرفا أنه أختار ماركس ألبيوس ترايانس Marcus Ulpius Trajanus خلفاً له . وتوفى بعد ذلك بثلاثة أشهر فى عام ٩٨ بعد حكم دام ستة عشر شهراً .

وكان معنى مبدإ التبنى الذى عاد سيرته الأولى بهذه الطريقة الغير المنتظرة أن يشرك كل إمبراطور من الأباطرة ، حين يحس بالضعف يدب فى قواه ، معه فى الحكم أقدر من يستطيع أن يجده من الرجال ، وأكثرهم

جدارة بهذا المنصب الخطير ، حتى إذا وافاه الأجل لم تتعرض البلاد إلى أن يجلس على عرشها رجل يرفعه الحرس البريتوري وإلى ما فى هذا من سخف ، أو يرث هذا العرش وارث طبيعي ولكنه غير جدير به ، أو أن تتعرض إلى حرب أهلية بين المتنافسين على العرش . وكان من المصادفات الطيبة أن تراجان ، وهدريان ، وأنطونينس بيوس لم يكن لهم أبناء ، وإن كان فى مقدور كل واحد منهم أن يعمد إلى مبدإ التبنى من غير أن يحط من شأن أبناء له أو يكشف عن نقص فى الحب الأبوى . ولقد كسبت رومة من هذا المبدإ ، طوال المدة التى طبق فيها ، طائفة من الأباطرة العظام خلف بعضهم بعضا على العرش ، وكانوا خير من شهده العالم من الحكام وأجلهم شأناً .

الفصل الثاني

تراچان

تلقى تراچان نبأ جلوسه على العرش وهو يتولى قيادة جيش رومانى فى كولونى Cologne ؛ فلما أن تلقاه واصل عمله عند الحدود وأجل عودته إلى رومة ما يقرب من عامين . وكان مولد تراچان فى أسپانيا من أسرة إيطالية استوطنت تلك البلاد من زمن بعيد ، وقد وصلت أسپانيا الرومانية على يديه وعلى يد هدريان إلى الزعامة السياسية ، كما ارتفعت على يدى سنكا ، ولوكان ، ومارتيال إلى الزعامة الأدبية . وكان هو بداية سلسلة طويلة من القواد يبدو أن مولدهم وتدريبهم فى الأقاليم أكسبهم قوة الإرادة التي فقدها العنصر الرومانى الأصيل . ولم تحتج رومة على ارتقاء رجل من رجال الأقاليم عرش الإمبراطورية ، وكان عدم احتجاجها هذا فى حد ذاته حادثاً خطيراً ومؤذناً بتطور جديد فى التاريخ الرومانى .

وظل تراچان قائداً حتى بعد جلوسه على العرش . فقد كان ذا قامة عسكرية ، وكان مظهره مظهر السادة المؤمرين ، وكانت ملامحه قوية وإن لم تكن بادية متميزة . كان طويل القامة ، ممتلئ الجسم ، وكان من عادته أن يسير مع جنوده على قدميه ، وأن يخوض بعتاده الحربى الكامل ما يضطرون إلى عبوره من مئات الأنهار ؛ وكان رجلا شجاعا يصبر على الألم ولا يفرق بين الحياة والموت . ولما قيل له إن لوسنيوس سورا كان يأتمر به ، ذهب إلى منزل سورا ، وأكل من كل ما قدم إليه دون أن يفحص عما يأكل ، وحلق له حلاق سورا[٤] . ولم يكن تراچان فيلسوفاً بأى معنى فنى من معانى هذا اللفظ . وكان من عادته أن يصحب معه فى عربته ديو كريسستوم Dio Chrysostom الخطيب « صاحب الفم الذهبى » ليتحدث إليه فى الفلسفة ، ولكنه يعترف بأنه لم يكن يفهم كلمة واحدة

مما يقوله ديو[٥] — وبذلك خسرت الفلسفة الشيء الكثير . وكان صافى الذهن صريحاً ليس فيه التواء ، وكان ما نطق به من الهراء قليلا إلى أبعد حد ، وكان فيه ما فى سائر البشر من اغترار بالنفس ، ولكنه كان مبرأ من العجرفة والادعاء ولم يكن يتخذ منصبه السامى وسيلة للتعاظم على الناس أو أداة ينفع بها نفسه ، فكان يجلس مع أصدقائه على الطعام ويصحبهم فى الصيد ، ويشرب معهم بكثرة ، ويرتكب ما يرتكبونه من لواط فى بعض الأحيان ، كأنه يريد بذلك ألا يخالف عادات زمانه . وترى رومة من مفاخره التى يستحق عليها الثناء أنه لم يسئ قط إلى زوجته پلوتينا بأن يعشق امرأة أخرى .

ولما وصل تراچان إلى رومة وهو فى الثانية والأربعين من عمره كان قد بلغ من النضوج العقلى غايته ، وسرعان ما اكتسب ببساطته ودماثة أخلاقه ، واعتداله ، قلوب الشعب الذى جرب الاستبداد من عهد قريب . واختار مجلس الشيوخ پلنى الأصغر ليرحب به . والقى ديوكريستوم أمام الإمبراطور فى الوقت نفسه خطبة فيما يجب على الملوك فى نظر الفلسفة الرواقية . ولكن پلنى وديو فرقا بين السيادة والزعامة فقالا إن الزعيم يجب ألا يكون سيد الدولة ، بل خادمها الأول ، ومندوب الشعب لتنفيذ إرادته ، ينتخبه عن طريق ممثليه أعضاء مجلس الشيوخ . « ومن أراد أن يؤمر على الناس جميعاً ، وجب أن يختاروه جميعاً »[٦] واستمع الناس إلى أقوالهما ورحبوا بها .

ولم تكن هذه البدايات الطيبة جديدة فى التاريخ ، ولكن الذى أدهش رومة أن تراچان أوفى بهذا الوعد إلى حد بعيد ، فأعطى أعوانه ورفاقه القصور الريفية متى كان أسلافه يقيمون فيها أسابيع قليلة فى كل عام ، ويقول پلنى « إنه لم يكن يرى أن شيئاً ما ملك له إلا إذا كان أيضاً ملكاً لأصدقائه »[٧] . وكان هو نفسه بسيطاً فى معيشته بساطة ڤسپازيان ، فكان يسأل الشيوخ رأيهم فى كل المسائل ذات البال ، وقد تبين أن فى وسعه أن يكون ذا سلطة مطلقة إذا لم يستخدم ألفاظ

ذوى السلطة المطلقة . وكان مجلس الشيوخ يرضى أن يترك له مقاليد الحكم إذا راعى الشكليات التى تحفظ له مكانته وهيبته ؛ وكان هذا المجلس ، كما كانت رومة كلها ، يحب فى ذلك الوقت الأمن والطمأنينة حبا لا يستطيع معه أن يحفظ بحريته . ولعله كان يسره أيضاً أن يرى تراجان رجلا محافظاً لا ينوى أن يشترى رضاء الفقراء بمال الأغنياء .

وكان تراجان إداريا قديراً لا يمل من العمل ، حسن التدبير لشئون المال ، وقاضياً عادلا . ويعزو إليه صوجز جستنيان المبدأ القائل « إن فرار المجرم من العقاب أفضل من عقاب البرىء »[٨] . وقد استطاع بالإشراف الدقيق على مصروفات الدولة (وبعض الفتوح التى عادت عليها بالربح) أن يتم كثيراً من المنشآت العامة من غير أن يزيد أعباء الضرائب ، بل إنه فعل عكس هذا فخفض الضرائب ، ونشر على الشعب اعتمادات الميزانية ليعرف إيرادات الحكومة ونفقاتها ، فيبحثها وينتقدها . وكان يطلب إلى الشيوخ الذين يستمتعون بصحبته أن يكون إخلاصهم فى أعمالهم الإدارية مماثلا لإخلاصه أو قريبا كل القرب منه . واشترك الأشراف فى مناصب الدولة وعملوا فيها بجد ، ولم يكتفوا بأن يقضوا أوقاتهم فى اللهو واللعب . وإن ما بقى لدينا من الرسائل المتبادلة بينهم وبين تراجان ليوحى بأنهم كانوا يعملون بجد وعناية تحت قيادته الرقيبة الملهمة . وكانت مدن كثيرة فى بلاد الشرق قد أساءت التصرف فى أموالها حتى أشرفت على الإفلاس ، فأرسل لها تراجان حراساً أمناء أمثال پلنى الأصغر ليساعدوها على إصلاح أمرها . وأضعف هذا العمل استقلال البلديات وقلل من شأن أنظمتها ، ولكنه عمل لم يكن منه بد ، فقد قضى الحكم الذاتى على نفسه بإسرافه وعجزه .

وكان تراجان قد نشأ فى مهاد الحرب ، فكان لذلك استعماريا صريحا يفضل النظام على الحرية ، والقوة على السلم . ولم يكد يمضى على قدومه إلى رومة عام

واحد حتى خرج لفتح داشيا . وكانت داشيا فى ذلك الوقت تنطبق حدودها بوجه عام على حدود رومانيا الحاضرة ، وكانت تمتد كقبضة اليد فى قلب ألمانيا ، فكانت إذا استولى عليها تصبح عظيمة النفع من الوجهة العسكرية فى الكفاح الذى كان تراجان يتوقع قيامه بين الألمان وإيطاليا . يضاف إلى هذا أن ضمها إلى الدولة الرومانية يمكنها من الإشراف على الطريق الذى يسير على ضفتى نهر الساف إلى ملتقاه بنهر الدانوب ومن ثم إلى بيزنطة — وهو طريق برى نحو الشرق لا يمكن تقدير قيمته ، دع عنك ما فى داشيا من مناجم الذهب . وأعد تراجان لفتحها حملة عسكرية رسم خطتها بمهارة فائقة ونفذها بأكبر سرعة ، فقاد فيالقه ، وتغلب على كل ما اعترضه من الصعاب والمقاومة ، حتى وصل إلى سرمزجتوسا Sarmizegetusa عاصمة تلك البلاد وأرغمها على الاستسلام . وقد ترك لنا مثال رومانى صورة رائعة لدسبالس Decebalus ملك داشيا — ينم وجهه فيها عن قوة الجسم ومتانة الخلق . وثبته تراجان على عرشه ، وجعله قيلا من أقياله ، ثم عاد إلى رومة (١٠٢) ؛ ولكن دسبالس لم يلبث أن نقض عهده واستعاد استقلاله ؛ فسير تراجان جيشه إلى داشيا (١٠٥) ، وعبر الدانوب على جسر كان من أعجب المنشآت الهندسية فى ذلك القرن ، وهاجم عاصمة داشيا مرة أخرى واستولى عليها عنوة ، وقتل دسبالس . وأقيمت حامية عسكرية قوية فى سرمزجتوسا ، وعاد تراجان إلى رومة ليحتفل بنصره بعشرة آلاف من المجالدين (أكبر الظن أنهم من أسرى الحرب) احتفالا دام ١٢٣ يوماً أقيمت فيها ألعاب عامة . وأصبحت داشيا بعد هذا الفتح ولاية رومانية ، وجاءها مستعمرون من الرومان ، تزوجوا من نسائها ، وأفسدت اللغة اللاتينية على طريقتها الخاصة . ووضعت مناجم الذهب فى ترنسلفانيا تحت إشراف رقيب من قبل الإمبراطور ، استطاع أن يسترد منها فى وقت قصير ما أنفقه فى الحرب من أموال . وأراد تراجان أن يكافئ نفسه على جهوده فأخذ من داشيا مليون رطل من الفضة ونصف مليون

من الذهب — وكانت هذه آخر الغنائم القيمة التي استولت عليها الفيالق الرومانية لتعد بها للرومان مهاد الراحة والخمول .

وبفضل هذه الغنائم وزع الإمبراطور ٦٥٠ ديناراً (نحو ٢٦٠ ريالا أمريكياً) على كل مواطن تقدم بطلب هذه المنحة — وأكبر الظن أن عدد من طلبوها بلغ حوالى ٣٠٠٫٠٠٠ — وبقى منها ما يكفى لعلاج مشكلة التعطل الناشئة عن تسريح الجنود بالإقدام على منهاج من المنشآت العامة ، والمساعدات الحكومية ، وتزيين إيطاليا بالمبانى الفخمة ، لم تر له البلاد نظيراً من أيام أغسطس . وأصلح تراجان قنوات مياه الشرب القديمة وأنشأ قناة جديدة لا تزال تؤدى عملها إلى هذا اليوم ، وأقام فى أستيا مرفأ واسعاً تصله عدة قنوات بنهر التيبر وبمرفأ كلوديوس القديم ، وزينه بالمخازن التى كانت نماذج فى الجمال كما كانت نماذج فى النفع . وأصلح مهندسوه الطرق القديمة ، وشقوا طريقاً جديداً فى وسط المناقع البنتية ، ووضعوا مشروع طريق تريانا Traiana من بنفنتم إلى برندزيوم . وأعادوا فتح نفق كلوديوس الذى جففت به بحيرة فوستنس ، وأنشأوا مرفأين عند سنتمسلا Centumcellae وأنكونا Ancona ، وطريقاً لجر مياه الشرب إلى رافنا ، ومدرجا فى ڤرونا Verona. وأدى تراجان النفقات التى تطلبها إنشاء الطرق ، والجسور ، والمبانى الجديدة فى كافة أنحاء الإمبراطورية ، ولكنه كان يقاوم تنافس المدن فى إقامة المبانى ، ويحثها أن تنفق ما لديها من الأموال الزائدة على حاجتها فى إصلاح أحوال الفقراء وبيئتهم . وكان مستعداً على الدوام لمديد المعونة إلى أية مدينة تكبتها الزلازل ، أو النيران أو العواصف . وحاول أن يعمل على تقدم الزراعة فى إيطاليا بأن طلب إلى أعضاء مجلس الشيوخ أن يستثمروا ثلث رؤوس أموالهم فى الأراضى الإيطالية . ولما رأى أن هذا العمل سيزيد من عدد الضياع الكبيرة ، شجع صغار الملاك بأن قدم لهم أموالا من قبل الدولة بفوائد قليلة ، ليشتروا بها بيوتاً وأراضى زراعية ويصلحوها[٩] . وعمل على رفع نسبة المواليد

بزيادة مال الألمنتا Alimenta أى المال المخصص للإطعام . وتفصيل هذا أن الدولة كانت تقدم قروضا عقارية بسعر ٥ ٪ (وهو نصف السعر العادى وقتئذ) للزراع الإيطاليين ، وأجازت للجان الصدقات المحلية أن توزع ما يتجمع من فوائد هذه القروض على الفقراء من الآباء بمعدل ستة عشر سسترسا (١ر٦ ريال أمريكى) كل شهر لكل ولد ذكر ، وأثنى عشر سسترسا لكل بنت . وقد يبدو هذا المبلغ صغيراً ، ولكن الشواهد الباقية من ذلك العصر تدل على أن مبلغاً يتراوح بين ١٦ سسترسا وعشرين كان يكفى لرعاية طفل مدة شهر فى ضيعة من ضياع إيطاليا أثناء القرن الأول (١٠) . وقد بعثه هذا الأمل نفسه لأن يجيز لأطفال رومة أن يحصلوا على إعانات من القمح زيادة على ما يحصل عليه أباؤهم منه. وقد وسع هدريان والأنطونيون نطاق نظام الإطعام هذا حتى شمل عدة أجزاء من الإمبراطورية ، يكمله الإحسان القروى . ومن أمثلة هذا النوع الأخير ما أخرجه پلنى من ماله لهذا الغرض إذ تبرع من ماله للألمنتا بثلاثين ألف سسترس لتوزع على أطفال كومم Comum ، وأوصى كيليا مكرينا Caelia Macrina بمليون سسترس لمثل هذا الغرض لتنفق على أطفال تراسينا Terracina فى أسپانيا .

وكان تراجان ، مثل أغسطس ، يفضل إيطاليا على الولايات ، ويفضل رومة على إيطاليا نفسها . وقد انتفع إلى أقصى حد بعبقرية أپلودورس ومهارته فى العمارة . وكان أپلودورس هذا يونانيا من أهل دمشق خطط الطرق وقنوات مياه الشرب الجديدة وجسر نهر الدانوب . ثم كلفه الإمبراطور وقتئذ بأن يزيل طائفة كبيرة من البيوت ، وبقطع مائة وثلاثين قدما من قاعدة التل الكويرينالى Quirinal ، وينشئ فى الفضاء الناشئ من إزالتها والفضاء المجاور لها سوقا جديدة تعادل مساحتها مساحة الأسواق السابقة كلها مجتمعة ، ويحيط هذه السوق بمبانى فخمة جديرة بعاصمة العالم التى بلغت فى عهده أوج سلطانها وثرائها . وكان المدخل الموصل إلى هذه السوق الجديدة هو قوس نصر تراجان . وكانت مساحتها ٣٧٠

قدما ٣٥٤ ؛ وكانت مرصوفة بالحجارة الملساء ومحوطة بسور عال ، وأمامها صف من العمد ، وكان سوراها الشرقى والغربى تتخللهما كوات نصف دائرية غير نافذة مكونة من عمد دورية . وقامت فى وسطها باسلقا ألبيا التى سميت باسم عشيرة تراجان والتى كان الغرض منها أن تكون مكاتب للأعمال التجارية والمالية ، وكانت مزينة من الخارج بخمسين عموداً ، نحت كل منها من حجر واحد ؛ وكانت أرضها من الرخام ، وتحيط بصحنها الرحب عمد من الحجر الأعبل ، وسقفها القائم على كتل ضخمة مغطى بالبرنز . وأنشئت بالقرب من الطرف الشمالى للسوق الجديدة مكتبتان إحداها للمؤلفات اللاتينية ، والأخرى للمؤلفات اليونانية . وقام بينهما عمود تراجان وخلفهما هيكله . وكانت السوق بعد أن تمت من عجائب العمارة فى العالم كله .

وكان العمود الذى لا يزال قائماً إلى اليوم فى بداية أمره شاهداً على البراعة فى نقل الحجارة . وكانت حجارته منحوتة من ثمان عشرة كتلة مكعبة من الرخام زنة كل منها خمسين طنا ، وقد حملت هذه الكتل على ظهور السفن من جزيرة پاروس ، ثم نقلت على مواعين عندآستيا Aestia ، ثم جرت مصعدة فى النهر ضد التيار ، ثم حملت على اسطوانات إلى ضفة النهر وفى الشوارع إلى المكان الذى أقيم فيه العمود . وقطعت المكعبات بعد نقلها إلى اثنين وثلاثين كتلة ، شيدت قاعدة العمود من ثمان منها ، وزينت ثلاثة من أوجه هذه القاعدة بتماثيل منحوتة ، أما الوجه الرابع فكان يوصل إلى سلم مكون من ١٨٥ درجة رخامية ، وأما جذع العمود ، وكان طول قطره من أسفل اثنى عشرة قدما ، وارتفاعه سبعا وتسعين ، فيتكون من إحدى وعشرين كتلة حجرية ، وفى أعلاه تمثال لتراجان يمسك بيده كرة أرضية . وقد زينت الكتل قبل تثبيتها فى مواضعها بنقوش بارزة تمثل حروب تراجان فى داشيا . وكانت هذه النقوش أعلى ما وصلت إليه الواقعية الفلاڤية وفن النحت القديم التاريخى . ولم تكن تهدف

إلى الجمال المـــادئ أو إلى أنماط فن النحت اليونانى التى كانت عند اليونان مثلا عليا يحتذيها المثالون ، بل كانت تهدف إلى أن تنقل للناظر إليها صورة واضحة للأفراد الأحياء وسط مناظر الحرب وضوضائها . فكانت والحالة هذه هى بلزاك Balzac وزولا Zola بعد كورنى Corneille وراسين.
وفى وسعنا أن نتتبع فى الألفى صورة المنقوشة على المائة والأربع والعشرين لوحة لولبية فتوح داشيا خطوة خطوة ، فنرى الكتائب الرومانية خارجة من ثكناتها المسلحة أكمل تسليح ، ونشاهدها تعبر نهر الدانوب على جسر عائم ، ونبصرها تقيم معسكراً فى أرض العدو ، ثم نرى المعركة التى اختلطت فيها الحراب والسهام والمناجل والحجارة ، وفيها قرية داشية تشتعل فيها النار ، ونساؤها وأطفالها يطلبون إلى تراجان أن يرحمهم ، ونرى نساء داشيات يعذبن أسرى الرومان ، وجنوداً يعرضن على الإمبراطور رؤوس من قتلوهم من الأعداء ، وجراحين يضمدون الجروح ، ونرى الأمراء الداشيين يشربون كؤوس السم واحداً بعد واحد . وهاهو ذا رأس دسبالس يؤتى به إلى تراجان ضمن غنائم الحرب ، وها هو ذا صف طويل من الأسرى ، من رجال ونساء وأطفال ، قد انتزعوا من بيوتهم ليكونوا عبيداً للرومان فى أرض القرية — كل هذا وكثير غيره يحدثنا به العمود القائم اللون منقوشاً أحسن نقش وممثلا لأروع قصة فى تاريخ النحت فى العالم كله . ولم يكن الفنانون الذين قاموا بهذا العمل ، ولم يكن من استخدموهم للقيام به ، مدفوعين إليه بنعرة وطنية عارمة ؛ فهم قد مثلوا ما أظهره تراجان من ضروب الرحمة والرأفة ، ولكنهم كشفوا كذلك عن أعمال البطولة التى قامت بها أمة تجاهد فى سبيل حريتها ؛ وأجمل صورة فى النقش كله هى صورة ملك داشيا . وتلك بلا شك وثيقة عجيبة مزدحمة إلى حد يقلل من قوة تأثيرها . وبعض ما فيها من الصور فجة خشنة بدرجة يظن الإنسان معها أن محارباً داشياً هو الذى نحتها ، ونرى فن المنظور يستبدل به وضع الصور بعضها فوق بعض ؛ وقد رسم المنظر كله كأن الإنسان يشاهده كما يشاهد نقش فدياس ،

من ركن بعيد مخبوء على الأرض . ولكنه رغم هذه العيوب خروج طريف على لطراز المقرر الذى لم يستطع لوداعته وهدوئه أن يعبر عما فى الخلق الرومانى من جد غامر ونشاط فياض . « وطريقة الاستمرار » التى جرى عليها — أى تدخل كل منظر فى الذى يليه وفناؤه فيه — لتخرج إلى حيز الوجود ما يوحى به قوس تيتس وتمهد السبيل إلى النقوش البارزة فى العصور الوسطى . وقد قلد المثالون هذه القصة ، رغم ما فيها من عيوب ، المرة بعد المرة من عمود أورليوس فى رومة وعمود أركديوس فى القسطنطينية إلى العامود النابليونى فى البلاس ڤنديه Place Vendée فى باريس .

واختتم تراجان منهاجه البنائى بأن أكمل بناء الحمامات التى بدأها دومتيان وحرص على أن يجعلها حمامات عظيمة فخمة . وكان فى هذه الأثناء قد مل السلم بعد أن دامت ست سنوات ، ذلك أن العمل الإدارى لم يكن يوقظ ما يكمن فيه من نشاط كما توقظه الحرب ، ولم يكن يحس وهو فى قصره أنه حى ، وقال فى نفسه لم لا أبدأ فى تنفيذ خطط قيصر من حيث أخفق أنطونيوس ، فأسوى المسألة البارثية تسوية نهائية ، وأجعل للدولة — الرومانية — حدوداً أكثر مناعة وصلاحية من جهة الشرق ، وأسيطر على الطرق التجارية التى تخترق أرمينية وبارثيا إلى أواسط آسية والخليج الفارسى وبلاد الهند ؟

وبعد أن أتم استعداده بدأ يزحف مرة أخرى على رأس فيالقه (١١٣) . فاستولى على أرمينية بعد عام واحد من بداية زحفه ؛ ولم يمض عام آخر حتى كان قد اخترق بلاد النهرين ؛ ووصل إلى المحيط الهندى — فكان أول من وقف أمام ذلك البحر من القواد الرومان وآخرهم . وكان الرومان فى ديارهم يتعلمون الجغرافية بتتبع انتصاراته ؛ وكان يسر مجلس الشيوخ أن يسمع فى كل أسبوع تقريباً أن أمة أخرى قد غلبت أو أنها تعجل بالاستسلام : البسپور Bosporus ، والكلشى ، وأيبريا الأسيوية ؛ وألبانيا الأسيوية ، وأسرهوينى Osrhoene ومسينيا ، وميديا ، وأشور ، وبلاد العرب الشمالية ، وبارثيا نفسها

فى آخر الأمر . وقد جعل پارثيا ، وأرمينية ، وأشور ، وبلاد النهرين ولايات ، وكان من مفاخر هذا الإسكندر الجديد أن اختار لكل بلد من هذه البلاد التى كانت قديماً من أعداء رومة ، ملكا خاضعاً لسلطانه وأجلسه على عرشه . ووقف تراچان على شواطئ البحر الأحمر وقال إنه يؤسفه أشد الأسف أن شيخوخته تحول بينه وبين مواصلة الزحف إلى نهر السند كما فعل القائد المقدونى العظيم ، واكتفى بأن أنشأ فى البحر الأحمر أسطولا يسيطر به على طريق الهند وعلى تجارتها ، ووضع حاميات فى جميع النقط ذات الأهمية الحربية وعاد وهو كاره إلى رومة .

لكن تراچان كان قد عدا طوره فذهب كما ذهب أنطونيوس إلى أبعد مما يجب وبأسرع مما يجب ، وأهمل تنظيم فتوحه وخطوط اتصاله . فلما وصل إلى أنطاكية علم أن أسروس Asroes ملك پارثيا الذى خلعه قد حشد جيشاً جديداً استعاد به ما بين النهرين ، وأن نار الفتنة اشتعلت فى جميع الولايات الجديدة ، وأن يهود الجزيرة ، ومصر ، وقوريني قد خرجوا عليه وأشعلوا نار الثورة فى البلاد ، وأن الاستياء قد عم بلاد لوبيا ، وموريتانيا ، وبريطانيا . وأراد المحارب الشيخ أن ينزل إلى ميدان القتال مرة أخرى ، ولكن قوته الجسمية لم تسعفه . ذلك أنه أنهك جسمه بأن عاش فى الشرق الحار بنشاط الغرب البارد ، فأصيب بداء الاستسقاء ، وعدت عليه ضربة شلل جعلت إرادته القوية لا حول لها ولا طول فى جسمه المهدم . ومن أجل ذلك عهد وهو مكتئب حزين إلى لوسيوس كويتس Lucius Quietus أن يقلم أظفار الفتنة الناشبة فى أرض الجزيرة ، وأرسل مارسيوس تربا Marcius Turba لإخضاع اليهود فى أفريقية ، وولى هدريان ابن أخيه قيادة الجيش

الرومانى الرئيسى فى سوريا . ثم أمر أن يحمل هو إلى ساحل قليقية Cilicia ، على أمل أن يبحر منها إلى رومة حيث كان مجلس الشيوخ يعد له أعظم احتفال بالنصر أقيم لقائد من القواد من عهد أغسطس . ولكن منيته وافته فى الطريق عند سلينس Selinus (١١٧.) ، وهو فى الرابعة والستين من عمره ، بعد أن حكم تسعة عشر عاما . وحمل رماده إلى عاصمة ملكه ، حيث دفن تحت العمود العظيم الذى اختير ليكون له قبراً .

الفصل الثالث

هدريان

١ – الحاكم

لعلنا لن نعرف قط هل جلس هدريان أروع شخصية فى الأباطرة الرومان على عرش الإمبراطورية بأساليب العشق والغرام ، أو لوثوق تراچان بكفايته وعظيم قدرته . فأما ديوكاسيوس فيقول إن « سبب تعيينه أنه لما مات تراچان ولم يكن له وارث ، عملت أرملته پروتينا ، وكانت تحب هدريان ، على أن يخلفه على العرش[١٢] » . ويعيد اسپارتيانس Spartianus هذه القصة ، ولكن پلوتينا وهدريان يكذبان هذه الشائعة ، غير أنها رغم تكذيبهما إياها ظلت تلوكها الألسن طوال حكمه ، وقد فصل هو فى الأمر بأن وزع هبات سخية على جنوده .

ويقول پبليوس إيليوس هدريانس إن اسمه واسم أسرته مشتقان من مدينة أدريا الواقعة على البحر الأدرياوى ، وتقول سيرته التى كتبها بنفسه إن أسلافه هاجروا من هذه المدينة إلى أسپانيا . وشهدت مدينة إتلكا Italica الأسپانية التى ولد فيها تراچان فى عام ٥٢ مولد ابن أخيه هدريان فى عام ٧٦ . ولما مات والد الغلام فى عام ٨٦ كفله عمه تراچان وكيليوس أتيانس Caelius Attianus . وتولى ثانيهما تعليمه وغرس فيه حباً شديداً للأدب اليونانى جعـل الناس يلقبونه به من قبيل الفكاهة غريقيولس Graeculus . ودرس أيضاً الغناء ، والموسيقى ، والطب ، والعلوم الرياضية ، والتصوير ، والنحت ، ثم مارس فيما بعد عدة فنون أخرى . واستدعاه تراچان إلى رومة (٩١) وزوجه بابنة أخيه (١٠٠) ڤيڤيا سبينا . وكانت هذه الفتاة ، كما تدل عليها صور تماثيلها النصفية ، إن لم تكن

هذه التماثيل قد صورتها كأنها مثل أعلى للفتيات ، نقول كانت هذه الفتاة ذات جمال بارع تحس به هي وتفخر به ، ولكن هدريان لم يجد فى هذا الجمال سعادة باقية . ولعل سبب شقائه أنه كان مولعا بالكلاب والجياد فوق الحد الواجب ، وأنه كان يقضى فى الصيد مع هذه الكلاب والجياد وفى بناء القبور لها حين تموت أكثر مما يجب أن يقضيه من الوقت فى هذين العملين ، أو لعله كان زوجا غير أمين أو بدا أنه كذلك . ومهما يكن من شيء فإنها لم تلد له أبناء ، وعاشا طوال حياتهما متنافرين متباعدين وإن كانت قد رافقته فى كثير من أسفاره ، وكان يظهر لها كل أنواع الرقة والمجاملة ، ووهبها كل خير ما عدا الحب . ولما أن نطق سوتونيوس Seutonius أحد أمناء سره بما لا يليق عنها فصله من منصبه .

وكان أول قرار أصدره هدريان بعد ارتقائه عرش الإمبراطورية أن نقض سياسة عمه الإمبراطورية . وكان قد نصح تراچان بعدم المضى فى حملته فى پارثيا ، لأنها تكلفه الكثير من المال والرجال ، ولأنها تجيء فى أعقاب حروب داشيا ، وأنها فى أحسن الظروف تبشر بمكاسب يصعب الاحتفاظ بها ، ولم يغفر له قواد تراچان الحريصين على المجد هذه النصيحة قط . فلما أصبح صاحب الأمر سحب الفيالق الرومانية من أرمينية ، وأشور ، وبلاد النهرين ، وپارثيا ، وجعل أرمينية مملكة تابعة له بعد أن كانت ولاية خاضعة للدولة ، ورضى أن يكون نهر الفرات حد الإمبراطورية من جهة الشرق . وكان مسلكه بعد تراچان كمسلك أغسطس بعد قيصر ، فنظم بإدارته السلمية ما يستطيع تنظيمه من الدولة التى لم يكن لها فى سعتها مثيل من قبل ، والتى كسبتها الجيوش الباسلة المغامرة . وظن القواد الذين كانوا على رأس جيوش تراچان — بالما ، وسلسس ، وكويتس ، ونجرينس — أن هذه خطة مبعثها الجبن ، وأنها بعيدة كل البعد عن الحكمة والسداد ، وكانوا يشعرون أن وقف الهجوم ، معناه الاقتصار على الدفاع ، وأن الاقتصار على الدفاع هو بداية الموت . وبينا كان هدريان مع فيالقه على ضفاف الدانوب ،

أعلن مجلس الشيوخ أن القواد الأربعة يدبرون مؤامرة لقلب الحكومة ، وأنهم أعدموا بأمر المجلس . وكان إعدامهم دون محاكمة صدمة شديدة لأهل رومة ؛ ومع أن هدريان عاد مسرعاً إليها وأعلن أنه لم تكن له يد فى الأمر كله فإن أحداً لم يصدقه ، حتى بعد أن أقسم أنه لن يقتل شيخاً إلا بأمر المجلس . ولقد وزع على الشعب هبة سخية من المال ، وأقام له كثيراً من الألعاب ليسليه بها ، وألغى من الضرائب المتأخرة ما قيمته ٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سسترس وحرق سجلات الضرائب علناً ، وظل عشرين عاماً يحكم البلاد حكماً عادلا ، حكيما تحت راية السلم . ولكنه رغم هذا كله لم يكن فى قلوب الشعب كل ما يرجوه من حب .

ويصفه كاتب سيرته القديم بأنه كان طويل القامة ، رشيقاً ، متثنى الشعر ، « ذا لحية طويلة يخفى تحتها ما فى وجهه من عيوب طبيعية »(١٤) . واقتدى به أهل رومة فأطالوا من ذلك الوقت لحاهم ، وكان قوى البنية ، وقد حافظ على قوته بممارسة الكثير من ضروب الرياضة البدنية ، وأهمها كلها الصيد ، وكثيراً ما قتل السباع بيده(١٥) . وقد امتزجت فى خلقه عناصر بلغت من الكثرة حدا يتعذر معه وصفها . فيقول لنا كتاب سيرته إنه كان « صارماً وبشوشاً ، فكهاً ووقوراً ، شهوانياً وحذراً ، شديداً وكريماً ، قاسياً ورحيما ، بسيطاً بساطة خادعة ، جمع المتناقضات فى كل شىء »(١٦) . وكان ذا بصيرة نافذة سريعة ، وكان نزيهاً متشككا ؛ ولكنه كان يحترم التقاليد ، ويرى أنها النسيج الذى يربط الأجيال بعضها ببعض ، وكان يقرأ كتب إيكتتس الرواقى ويعجب به ، ولكنه كان يطلب اللذة ويتذوقها دون حياء . وكان رجلا غير متدين ، يعتقد بالخرافات ، ويسخر من النبوءات ، ويمارس السحر والتنجيم ، ويشجع الاستمساك بالدين القومى ، ولا ينقطع عن القيام بواجباته بوصفه الكاهن الأكبر للدين الرومانى . وكان مجاملا وعنيداً ، قاسياً فى بعض الأحيان ، ورحيما فى العادة ؛ وربما كانت هذه المتناقضات أعراضاً اقتضتها مختلف الظروف . وكان يعود المرضى ، ويساعد

المنكوبين وقد وسع نطاق أعمال الإحسان القائمة فى وقته حتى شملت اليتامى والأرامل ؛ وكان سخياً فى مناصرة الفنانين ، والكتاب ، والفلاسفة ؛ وكان يجيد الغناء والرقص ، والعزف على القيثارة ؛ وكان مصوراً قديراً ، ومثّالا وسطاً . وقد ألف عدة كتب — منها كتاب فى النحو وآخر فى سيرته . ومنها قصائد مؤدبة وأخرى بذيئة[١٧] ، باللغتين اللاتينية واليونانية ؛ وكان يفضل الأدب اليونانى على اللاتينى ويفضل لغة كاتو الشيخ البسيطة على لغة شيشرون الفصيحة السلسة الفياضة . وقد حذا كثير من كتاب ذلك الوقت حذوه ، فأخذوا يكتبون بأسلوب عتيق متكلف . وقد جمع الأساتذة الذين كانت تؤجرهم الدولة ، وأنشأ منهم جامعة علمية ، ورفع مرتباتهم ، وشاد لهم مجمعاً علمياً فخماً لينافس به متحف الإسكندرية . وكان يسره أن يجمع حوله العلماء ورجال الفكر ، ويلقى عليهم الأسئلة المحيرة ، ويضحك من متناقضاتهم ومجادلاتهم العلمية . وكان فافورينس Favroinus الغالى أعظم فلاسفة هذه الندوة حكمة ، وكان إذا ما سخر منه أصدقاؤه لأنه يوافق هدريان على آرائه ، أجابهم بأن كل رجل يشد أزره ثلاثون فيلقاً لابد أن يكون على حق[١٨] .

ولقد جمع إلى هذه المتع العقلية الجمة إحساساً سامياً بالواجبات العملية . من ذلك أنه حذا حذو دومتيان ، فلم يول معاتيقه إلا المناصب الصغيرة ، واختار رجال الأعمال ذوى الكفايات المجربة ، ليتولوا الإدارات الحكومية ، وألف منهم ومن بعض الشيوخ وفقهاء القانون مجلساً concilium يجتمع فى أوقات منتظمة للنظر فى سياســة الدولة . وعين كذلك وكيلا للخزانة advocatus fisci ليكشف عما عساه أن يرتكب من فساد أو غش فى شئون الضرائب ، وكانت نتيجة هذا أن زادت إيرادات الدولة زيادة ملحوظة من غير زيادة فى الضرائب . وكان يراقب بنفسه كل إدارة من إدارات الحكومة ؛ وقد أدهش رؤساءها ، كما أدهش نابليون رؤساء إداراته ، لإلمامه الدقيق بتفاصيل أعمالها ، ويقول اسبارتيانس إنه « كان قوى الذاكرة ،

وإنه كان يكتب ، ويملى ، ويستمع ، ويتحدث إلى أصدقائه كل ذلك فى وقت واحد[١٩] — وإن كان تكرار هذه القصة يبعث على الريبة فى صدقها . وبفضل عنايته ، وبمعونة إداراته المدنية الواسعة النطاق ، نعمت الإمبراطورية بحكم لعلها لم تنعم بمثله قبله أو بعده . وكان الثمن الذى أداه لهذا النظام المحكم هو قيام بيروقراطية مطردة الاتساع وإسرافاً فى إصدار الأوامر والنظم يبلغ حد الجنون ، قرب الزعامة أكثر من ذى قبل إلى الملكية المطلقة . وقد حرص هدريان على كل مظاهر التعاون مع مجلس الشيوخ ، ولكن موظفيه كانوا يزدادون كل يوم اعتداء على اختصاصات تلك الهيئة التى كانت تبدو من قبل « جمعية من الملوك » . ولقد كان هو قريباً من المشكلة قرباً يحول بينه وبين التنبؤ بأن بيروقراطيته القديرة المطردة التكاثر قد تصبح على مدى الأيام عبئاً باهظاً ينوء به دافعو الضرائب ، بل كان بعكس هذا يعتقد أن كل شخص فى الإمبراطورية سيجد لنفسه فى داخل هذا النطاق من القانون والفرائض الذى أنشأته الحكومة طريقاً يظهر فيه مواهبه ، وأن فى وسع كل إنسان أن يرقى من طبقة إلى طبقة أعلى منها .

ولم يكن عقله الصافى المنطقى يطيق فوضى ما تجمع من القوانين الغامضة المتناقضة ، ولهذا كلف يوليانس بأن ينسق قرارات البريتورين السابقين ، ويصدر بها مرسوماً دائماً ، وشجع غير هذا من أعمال التقنين التى مهدت السبيل لجستنيان . وكان يجعل من نفسه محكمة عليا سواء كان فى رومة أو فى أثناء تجواله فى الولايات ، واشتهر بأنه قاض عالم نزيه . وكان رحيما على الدوام بقدر ما يجيزه القانون من رحمة ؛ وقد أصدر طائفة لا عديد لها من المراسيم ، ينصر معظمها الضعفاء على الأقوياء والعبيد على الأسياد ، والفلاح الصغير على صاحب الضيعة الكبيرة ، والمستأجر على مالك الأرض ، والمستهلك على بائعى الأشتاب الغاشين ، ويقاوم بها كثرة الوسطاء بين المنتجين والمستهلكين[٢٠] . وكان يرفض ما يوجه إلى الناس من تهمة الخيانة ، ولا يقبل الوصايا من الآباء ، أو ممن لا يعرفهم من الأشخاص ، وأمر بأن

يراعي التسامح في تطبيق القانون على المسيحيين[٢١] . وقد ضرب بنفسه المثل بما اتبعه فى أراضى الدولة من وسائل إصلاح الأراضى البور ، فكان يشجع الملاك على تأجير الأراضى غير المستصلحة إلى الزراع ليغرسوا فيها الحدائق من غير أن يؤدوا عنها إيجاراً حتى تثمر الأشجار . ولم يكن هدريان مصلحا متطرفاً فى إصلاحاته ، بل كان إدارياً قديراً يسعى فى نطاق ما يكبل الطبيعة البشرية من قيود ، وما يعتورها من تفاوت فى الكفايات ، إلى أن يوفر للناس جميعاً أكبر خير مستطاع . ولقد أبقى على الأشكال القديمة ولكنه صب فيها بالتدريج محتويات جديدة كلما دعته الضرورة إلى هذا ؛ وحدث ذات مرة ، حين ضعفت رغبته فى الأعمال الإدارية ، أن رفض الاستماع إلى امرأة جاءت تعرض عليه شكواها . وكانت حجته أن « ليس لدى وقت » . فصاحت قائلة : « إذن فلا تكن إمبراطوراً » فما كان منه بعدئذ إلا أن استمع إلى شكواها .

٢ — الجوال

كان هدريان على نقيض من سبقوه ، يهتم بالإمبراطورية اهتمامه بالعاصمة . ومن أجل هذا سار سيرة أغسطس الحميدة ، فقرر أن يزور كل ولاية من ولاياتها ، ويفحص عن أحوالها ، ويتعرف حاجاتها ، ويبادر بتخفيف أعبائها بما فى يديه من موارد الإمبراطورية . وكان إلى هذا شغوفاً بمعرفة ما لدى الشعوب المختلفة فى الإمبراطورية من فنون ، وما تتبعه فى حياتها من أساليب ، وما تكتسى به من ثياب ، وما تدين به من عقائد ؛ وكان يتوق إلى رؤية الأماكن الشهيرة التى ذاع صيتها فى تاريخ اليونان ، وأن يضرب بسهم فى تلك الثقافة اليونانية التى كانت العامل الأكبر فى تهذيب عقله كما كانت هى زينته . ويصفه فرنتو Fronto بقوله : « إنه لم يكن يحب أن يحكم العالم فحسب ، بل كان يحب فوق ذلك أن يطوف به »[٢٢] فى عام ١٢٠ غادر رومة ، ولم يغادرها بأبهة الملك وزينته ،

بل كان يصحبه فيها الخبراء ، والمهندسون المعماريون ، والبناءون ، والمهندسون والفنانون . وذهب أولا إلى غالة « وأعان جميع من فيها من العشائر بما أفاض عليها من سخائه وجوده »(٢٤) ، ثم انتقل منها إلى ألمانيا ، وأدهش كل من فيها بما أظهره من الدقة والعناية فى تفتيش وسائل الدفاع عن الإمبراطورية ضد من عليها فى مستقبل الأيام ، وأعاد تنظيم الطرق الحصينة الممتدة بين الرين والدانوب ، وزاد من أطوالها ، وأصلحها .

ومع أنه كان رجل سلام فإنه كان متمكناً من فنون الحرب ، وكان يعتزم ألا يجعل ميوله السلمية تضعف من قوة جيوشه أو تغرى به أعداءه . وقد أصدر أوامر مشددة للمحافظة على النظام العسكرى ، وكان هو نفسه يخضع لما وضعه من القواعد أثناء زيارة المعسكرات ، فكان إذا حل بها عاش عيشة الجنود ، وأكل من طعامهم ، ولم يركب قط مركبة ، بل كان يسير على قدميه يحمل عتاده ويواصل السير عشرين ميلا بلا انقطاع ، ويظهر من الجلد ما لا يعتقد معه من يراه أنه عالم وفيلسوف . وكان فى الوقت نفسه يكافئ المتفوقين ، وقد رفع من شأن منزلة الفيالق من الناحيتين القانونية والاقتصادية ، وأمدها بالجيد من الأسلحة وبكفايتها من المؤن . وخفف عنها شدة النظام فى أوقات الفراغ ؛ وكل ما كان يصر عليه فى هذه الأوقات ، أن تكون وسائل التسلية مما لا يضعف من قدرتها على أداء واجباتها ، حتى لم يكن الجيش الرومانى فى وقت من الأوقات أحسن حالا مما كان عليه فى أيامه .

وانحدر بعدئذ فى نهر الرين نحو مصبه وأبحر من هناك إلى بريطانيا (١٢٢) . ولسنا نعلم عن نشاطه فى تلك البلاد أكثر من أنه أمر أن يقام سور من خليج سلواى Solway Firth إلى مصب نهر التين Tyne « ليفصل بين البرابرة والرومان » . وعاد من هناك إلى غالة ومر على مهل بأفنيون Avignon ، ونيمر Nimes ، وغيرها من بلاد تلك الولاية ، وألقى عصا التسيار ليقضى

الشتاء فى طرقونة Tarragona فى شمالى أسبانيا . وبينا هو سائر بمفرده فى حديقة مضيفه إذ هجم عليه عبد وسيفه مسلول فى يده وحاول أن يقتله . ولكن هدريان تغلب عليه وأسلمه فى هدوء إلى الخدم ، فوجدوه مختل العقل .

وفى ربيع عام ١٢٣ قاد بعض الفيالق ليحارب المغاربة الضاربين فى شمالى أفريقية الغربى ، والذين كانوا يغيرون على مدن موريتانيا الرومانية ، فهزمهم وردهم على أعقابهم إلى تلالهم ، ثم أبحر إلى إفسوس ، حيث قضى فصل الشتاء ، ثم زار مدن آسية الصغرى واستمع إلى مطالب أهلها وشكواهم ، وأنزل العقاب بمن أساءوا استخدام سلطتهم من الموظفين ، وكافأ القادرين منهم ، وأعد المال والرسوم ، والعمال لتشييد الهياكل والحمامات ودور التمثيل . وكانت سزكس Cyzicus ونيقية Nicaea ، ونيقوميديا Nicomedia قد نكبت بزلزال شديد ، فأصلح هدريان ما تخرب منها بنفقات من أموال الدولة ، وشاد فى سزكس هيكلا عد من فوره بين عجائب الدنيا السبع[٢٥] . ثم اتجه شرقا محاذيا ساحل بحر اليكسين إلى طرابزوس Trapezus ، وأمر حاكم كبدوكيا — المؤرخ أريان Arrian — أن يبحث أحوال جميع الثغور الواقعة على البحر الأسود ، وأن يعد له تقريراً عنها ؛ ثم اتجه نحو الجنوب الغربى واخترق بفلجونيا Paphlagonia ؛ وقضى الشتاء فى برجموم . وفى خريف عام ١٢٥ أبحر إلى رودس ومنها إلى أثينة حيث قضى شتاء طيباً سعيداً عاد بعده إلى وطنه . ولم تفارقه الرغبة فى الاستطلاع وهو فى الخمسين من عمره فانتقل من إيطاليا إلى صقلية . وتسلق جبل إتنا ، يشاهد شروق الشمس من فوق صخرة ناتئة تعلو فوق البحر ١١٠٠٠ قدم .

ومما هو جدير بالذكر أنه استطاع أن يغيب من عاصمة ملكه خمس سنين وهو واثق من أن مرؤوسيه سيصرفون شئون الدولة كما يجب ، ذلك أنه قد عمل ما يجب أن يعمله الحاكم القدير ، فأنشأ ودرب أداة

حكومية صالحة تكاد تسير من تلقاء نفسها . وأقام روما ، بعد عودته إليها أكثر قليلا من عام ، ولكن حب الأسفار كان يسرى فى دمه ولحمه ، وكان لا يزال فى العالم أجزاء كثيرة تتطلب البناء والإصلاح . فغادر إيطالية مرة أخرى فى عام ١٢٨ ، وقصد فى هذه الرحلة يتكا Utica ، وقرطاجنة ، والمدن الجديدة المزدهرة فى شمالى أفريقية . ثم عاد إلى رومة فى فصل الخريف ، ولكنه غادرها بعد قليل ، وقضى شتاء آخر فى أثينة (١٢٨ — ١٢٩) . واختير فيها أركونا ، ورأس وهو مبتهج سعيد حفلات الألعاب والأعياد ، وسره أن يلقب بالمحرر ، وبهليوس Helios وزيوس ، ومنقذ العالم . وفيها اختلط بالفلاسفة ، ورجال الفن ، وأظهر ما أظهره نيرون وأنطونيوس من ظرف ولطف دون أن ينزل إلى ما نزلوا إليه من حماقة وسخف . وساءه ما فى قوانين أثينة من فوضى فكلف جماعة من كبار المشترعين أن يجمعوا هذه القوانين وينسقوها ؛ وإذ كان هو على الدوام من المهتمين بشئون الدين المتشككين فيه ، فقد طلب أن يتعرف الطقوس الإلزيانية الخفية . ولما وجد التعطل يهدد أثينة ، وكان يعتزم فى الوقت نفسه أن يعيد المدينة إلى ما كانت عليه من الفخامة فى عصر بركليز ، استدعى رجال العمارة ، والمهندسين ، ومهرة الصناع ، وبدأ مشروعا ضخما من المبانى يفوق مبانيه العامة فى رومة . فقد شاد عماله فى مساحة مربعة من الأرض تحيط بها طائفة كبيرة من العمد مكتبة عامة جدرانها من الرخام بها ١٢٠ عمودا ، ولها سقف مذهب وحجرات رحبة تتلألأ فيها أحجار المرمر والصور والتماثيل . ثم بنوا ملعباً رياضياً ، وقناة لماء الشرب ، وهيكلا لهيرا ، وآخر لزيوس « إله اليونان أجمعين » . وكان أعظم هذه الأعمال كلها هو إتمام الأولمبيوم — أى الهيكل الفخم المقام لزيوس الأولمبى والذى بدأه بيستراتس قبل ذلك الوقت بستة قرون وعجز أنتيوخس إبفانيز عن إتمامه . ولما غادر هدريان أثينة غادرها وهى أنظف وأكثر رخاء وجمالا مما كانت عليه فى أى عهد من عهودها السابقة[٣٦]

وفى ربيع عام ١٢٩ أبحر إلى إفسوس . ثم رحل مرة أخرى إلى آسية الصغرى ، وكان ينشئ المدن ويشيد المبانى أينما حل . وسافر إلى كبدوكيا ، وفتش حاميتها . ولما جاء إلى أنطاكية وهبها المال اللازم لبناء قناة لماء الشرب ، وهيكل ، ودار للتمثيل ، وحمامات عامة . وزار فى خريف ذلك العام تدمر وبلاد العرب ، ثم رحل فى عام ١٣٠ إلى أورشليم . وكانت المدينة المقدسة لا تزال مخربة ، لا تكاد تفترق فى شيء عما تركها عليه تيتس قبل ذلك الوقت بستين عاما ، يسكنها عدد قليل من اليهود الفقراء المساكين يقيمون فى حظائر وأكواخ بين الصخور . وتأثر قلب هدريان وخياله بما شاهده من آثار الدمار والتخريب بمكانها المقفر . لقد كان يرجو بما شاده فى بلاد اليونان والشرق الهلنستى وما أعاده إليها من مظاهر الفخامة أن يقيم الحواجز بين الحضارة اليونانية — الرومانية وبين العالم الشرقى إلى أعلى مما كانت قبل ؛ أما الآن فقد أصبح يحلم بأن يحول صهيون نفسها إلى قلعة وثنية ، فأمر أن يعاد بناء أورشليم لتكون مستعمرة رومانية وأن تسمى إيليا كبتولينا ، تخليداً لذكرى قبيلة هدريان وكبتول جوبتر فى رومة . وارتكب بعمله هذا خطأ نفسانياً وسياسياً كان خليقاً ألا يرتكبه رجل من أوسع الساسة عقلا وأعظمهم حكمة فى التاريخ كله . ثم انتقل إلى الإسكندرية (١٣٠) ، وابتسم ابتسامة الرجل المتسامح الواسع الأفق حين أبصر أهلها المتخاصمين المتشاحنين . وزاد محتويات المتحف ، وأعاد بناء ضريح بمبى ، ثم عمل ما لم يعمله قيصر ، فأرخى لنفسه العنان وصعد فى النيل على مهل بصحبة زوجه سبينا ، وحبيبه أنتنوُس Antinoüs . وكان قد التقى بالفتى اليونانى فى بيثينيا قبل ذلك الوقت ببضع سنين ، وأعجبه جمال الشاب ذى الوجه المستدير ، والعينين الرقيقتين ، والشعر الملتوى ، واتخذه خادماً خاصا له ، وشعر نحوه بعاطفة قوية وحب عظيم . ولم يصل إلينا ما يدل على أن سبينا احتجت على هذه الصلة ، ولكن ألسنة السوء

فى المدينة كانت تقول إن الغلام كان جنميدى Gednyme[*] زيوس الجديد . وربما كانت الحقيقة أن الإمبراطور الذى لا ولد له قد أحب الغلام لأنه يرى أن الآلهة قد حبته به ليكون ولداً له . وفى هذه الرحلة وبينا كان هدريان فى أوج سعادته مات أنتنؤوس فى الثامنة عشرة من عمره — ويلوح أنه غرق فى نهر النيل وحزن ملك العالم « وبكى كما تبكي النساء » على حد قول اسپارتيانس ؛ وأمر بأن يقام له هيكل على شاطئ النهر ، ودفن فيه الغلام ، وأعلن للعالم أنه إله . ثم أنشأ حول ضريحه مدينة هى مدينة أنتينوپوليس التى قدر لها أن تكون فيا بعد عاصمة من عواصم الدولة البيزنطية . وبينا كان هدريان يعود محزوناً إلى رومة بدلت الأساطير القصة : فقالت إن الإمبراطور عرف عن طريق السحر أن أعظم خططه لن تفلح إلا إذا مات أحب الأشياء إليه . وسمع أنتنؤوس بهذه النبوءة فأمات نفسه طائعاً مختاراً . ولعل هذه الخرافة قد نشأت بالسرعة التى تكفى لأن تمر عيش هدريان وتهد ركنه فى سنى ضعفه وشيخوخته .

ولما عاد إلى رومة (١٣١) كان يحس بأنه قد جعل الدولة خيراً مما كانت حين جلس على عرشها . ولقد كان على حق فى هذا الإحساس ، فإن الدولة فى واقع الأمر لم تبلغ فى وقت من الأوقات ، ولا فى عهد أغسطس نفسه ، ما بلغته وقتئذ من الرخاء . ولم يصل عالم البحر الأبيض فى يوم من الأيام إلى مثل ما وصل إليه فى عهده من الاستمتاع بالحياة الكاملة ، ولم يعد مرة أخرى موطناً لحضارة بلغت ما بلغته حضارة تلك الأيام من رقى ، وسعة انتشار ، وعمق أثر فى جميع السكان . ولم يكن فى الحكام جميعهم حاكم أكثر من هدريان حبا لخيرها ، وعملا لرفاهيتها . لقد كان أغسطس يرى أن الولايات توابع لإيطاليا تفيد منها مالا وثراء ، وكان يحكمها حكما صالحا لتدر الخير على إيطاليا . أما الآن فقد نضجت آراء قيصر

(*) جنميدى هو الشاب الوسيم الذى كان ساقى زيوس بعد هيبى ، وقد حمله نسر زيوس إلى أولمپس وأصبح الاسم فيا بعد يطلق على كل غلام مخنث . (المترجم)

وكلوديوس وآتت أكلها كاملة لأول مرة ، فلم تكن رومة جابية الضرائب لإيطاليا ، بل كانت الحاكم المسئول عن دولة يستمتع كل جزء من أجزائها بقسط من عناية الحكومة مكافئ لما تستمتع به سائر الأجزاء ، وتحكم فيها الروح اليونانية بلاد الشرق ، ويحكم فيها العقل الروماني الواسع الأفق سعة الروح الرومانية الدولة والغرب ، لقد رأى هدريان قبل موته الدولة كلها بعينيه وجمع شتاتها ووحدها ، وكان قد وعد أنه « سيدبر شئون هذه المجموعة من الأمم تدبير من يدرك أنها ملك الشعب لا ملكه الخاص »[٣٧] ؛ وقد أنجز ما وعد .

٣ - البنَّـــاء

ولم يكن باقياً إلا شيء واحد - إذا حصلت عليه رومة كانت أيضاً أجمل مما كانت قبل . لقد كان هدريان الفنان لا ينفك يناقش هدريان الحاكم ، فقد أعاد بناء البانثيون في الوقت الذي كان يعيد فيه تنسيق القانون الروماني . ولسنا نعرف رجلاً غيره أكثر منه بناء ، ولا حاكما شاد من المباني مثل ما شاد هو ؛ لقد كان في بعض الأحيان يضع بنفسه تصميم ما يشاد له من المباني ، وكان يفحص عنها بنفسه ويقومها بخبرته في أثناء تشييدها ، وقد أمر بإصلاح نحو مائة مبنى أو إعادة بنائها ، ولم ينقش اسمه على أي واحد منها . وقد جنت رومة الشيء الكثير من حكمته وقدرته مجتمعتين وهما قلما تجتمعان في إنسان . أما هو فقد اجتمعت فيه قوة الشباب وحكمة الشيوخ .

وأشهر ما أعاده من المباني حرم البانثيون - وهو أحسن بناء احتفظ بشكله من أبنية العالم القديم ، ولقد دمّرت النار الهيكل الرباعي الذي بناه أجربا ، ويلوح أنه لم يبق منه إلا مدخله الكورنثي الأمامي المعمد . والآن أمر هدريان مهندسيه أن يقيموا شمالي هذا الهيكل القديم هيكلا دائريا ، وإلا يخرجوا في بنائه على الأنماط اليونانية الأصيلة . وكان ينزع بحكم ذوقه اليوناني إلى تفضيل الأشكال

اليونانية على الأشكال الرومانية فيما ينشئه من مبانى فى عاصمة ملكه . ولم يكن الهيكل الجديد هو ومدخله المعمد وحدة منسجمة متناسقة ، أما داخله — وهو دائرة قطرها ١٣٢ قدماً ، خالية من الدعائم التى تعترض السائر فيها — فكان بفراغه يوحى للسائر فيه بإحساس من الحرية لايجد له نظيراً إلا فى الكنائس القوطية . وكان سمك جدرانه عشرين قدما ، وكانت مشيدة من الآجر ومغطاة فى جزئها الأسفل الخارجى بالرخام ، وفى أجزائها الأخرى بالمصيص ، تبرز منها الفصوص من حين إلى حين . وكان سقف المدخل من صفائح البرنز ، وقد بلغ من سمكها أنها حين أزالها البابا إربان الثامن وجدها تكفى لصب مائة مدفع وعشرة مدافع ، وإقامة المظلة المرفوعة فوق المذبح العالى فى كنيسة القديس بطرس[٢٩] . وكانت أبوابه البرنزية الضخمة مغطاة فى بادئ الأمر بصفائح الذهب . وأنشئت فى الأجزاء السفلى من جدرانه الداخلية الخالية من النوافذ سبعة محاريب زينت بعمد عالية ترتكز عليها دعامات هى والعمد من الرخام ، وكانت هذه المحاريب فى أول الأمر كوات غير نافذة وضعت فيها تماثيل ، أما الآن فهى محاريب صغيرة فى كنيسة فخمة . وقد غطيت بعض الأجزاء العليا من الجدار بألواح من الحجارة الغالية تفصلها بعضها عن بعض عمد من الحجر السماق . وكانت أعظم روائع الهندسة الرومانية هى القبة المصندقة التى ترتفع فى الداخل فوق أعلى الجدران . وكانت طريقة إنشائها أن صب الأسمنت المسلح فى أقسام مضلعة ، ثم تركت حتى تتماسك فيتكون منها كلها كتلة قوية صلبة ، كأنها حجر ضخم واحد ، وكانت بهذه الطريقة فى غنى عن الدعامات الجانبية ، ولكن المهندس الذى أقامها أراد أن يزداد ثقة بقوتها ، فأنشأ لها أكتافاً فى الجدران . وكانت مشكاة (يسمونها العين oculus) ، يبلغ قطرها ٢٠ ميلا ، هى الفتحة الوحيدة التى تمد الضريح بحاجته من الضوء . ويبلغ طول قطر هذه القبة الفخمة الضخمة ٢٦ قدما ، وهى أكبر قباب العالم كله قديمه وحديثه ، وقد أنشئت على غرارها سلسلة من القباب تختلف من الطراز البيزنطى إلى الطراز

الرومانى وإلى طراز قبة القديس بطرس إلى قبة الكبتول فى واشنجتن ، وما بين هذه من طرز تماثلها أو تختلف عنها تماثلا واختلافاً متفاوتين فى القرب والبعد :

وأكبر الظن أن هدريان نفسه هو الذى وضع تصميم هيكل ڤينوس وروما Roma ذى القباءين الذى كان يقوم أمام الكلوسيوم ، لأن الخرافات تروى أنه أرسل تصميم الهيكل إلى أپلودورس ، وأنه أمر أن يعدم هذا الفنان الشيخ لأنه أرسل إليه يسخر من هذا التصميم(٣٠) . ولقد اشتهر هذا الهيكل بعدة صفات انفرد بها عن كثير من الهياكل : منها أنه كان أكبر هيكل فى رومة ، فقد كان له محرابان ، كل منهما لإحدى الآلهتين ، وكانتا تجلسان فيه على عرشين متصلين وظهر كل منهما فى ظهر الأخرى ؛ ومنها أن سقفه المقبى المصنوع من ألواح البرنز والمغطى بصفائح الذهب كان من أجمل مناظر المدينة وأكثرها لألاء . وبنى الإمبراطور لنفسه بيتاً أوسع من هذا الهيكل نفسه ، وهو القصر الريفى الذى لا تزال بقاياه تستهوى الزائرين إلى الضاحية الجميلة التى كانت تعرف فى أيام الإمبراطور باسم تيبور والتى تعرف لنا اليوم باسم تيڤولى Tivoli . فقد أقيم فى هذا المكان ، وسط ضيعة يبلغ محيطها سبعة أميال ، قصر احتوى كافة أنواع الحجرات والحدائق التى ازدحمت بالروائع الفنية الذائعة الصيت والتى بلغ من كثرتها أن اغتنى ببقاياها كل متحف من متاحف أوربا فى هذه الأيام . وقد أظهر واضع تصميم هذا القصر ما اعتاده المهندسون الرومان من عدم المبالاة بتناسب الأجزاء ، فقد كان يضيف إليه بناء إثر بناء كلما دعته إلى ذلك الحاجة أو استهواه الخيال ، ولم يحاول أن يجعل فيه من التناسق أكثر مما فى مبانى السوق الرومانية من فوضى معمارية . ولعل الرومان قد ملوا التناسب كما مله اليابانيون ، ولعلهم كانت تعجبهم مفاجآت الشذوذ وعدم الانتظام . وقد أضاف المهندس ذو الخيال الفياض إلى ما فيه من أروقة ذات عمد ومكتبات ، وهياكل ، وملهى ، وردهة رقص ، ومضمار سباق ، أضاف إلى هـــذا

كله نماذج مصغرة من مجمع أفلاطون العلمى ، ولوقيون أرسطو ، واستمروا زينون ، كان الإمبراطور ، وهو منغمس فى هذا الثراء الباطل ، أن يظهر شيئاً من التقدير للفلسفة ويرد إليها بعض اعتبارها .

ولقد تم بناء هذا القصر فى السنين الأخيرة من حياة هدريان ، ولسنا نعلم أنه وجد فيه ما كان ينشده من سعادة ، فقد أقضت ثورة اليهود التى شبت فى عام (١٣٥) مضجعه وأمرت عيشه ، غير أنه أخمدها بوسائل رحيمة ، وساءه كثيراً أنه لم يستطع أن يختتم حياته من غير حرب ، وأصيب فى ذلك العام نفســه ، ولم يكن قد تجاوز التاسعة والخمسين من عمره ، بداء عضال — ربما كان هو ذات الرئة أوداء الاستسقاء — هد كيانه ، وبرحت به آلامه ، وأنهك شيئاً فشيئاً جسمه وروحه وعقله ، وزاد مزاجه حدة ، وأخلاقه شكاسة ، فأخذ يرتاب فى أصدقائه القدامى ، ويظنهم يأتمرون به ليقتلوه ويجلسوا على العرش بعده ، وأخيراً أمر أن يعدم جماعة منهم — ولسنا نعلم أكان على حق فى ريبته ، أم أنه أصدر أمره هذا فى ساعة ذهب فيها عقله .

وأراد أن يخمد حرب الوراثة التى كانت نارها مشتعلة وقتئذ فى بلاطه ، فتبنى صديقه لوسيوس ڤيرس Lucius Verus واختاره خليفة له . ولما مات لوسيوس بعد قليل من ذلك الوقت ، استدعى هدريان إليه وهو على سريره فى تيبور رجــلا أبيض الصحيفة اشتهر بين الناس باستقامته وحكمته وهو تيتس أورليوس أنطونينس Titus Aurelius Antoninus وتبناه وجعله وارثاً للملك من بعده . ثم شاء أن يكون أبعد من هذا نظرا فأشار على أنطونينس أن يتبنى هو الآخر شابين كانا يعيشان وقتئذ فى بلاطه ويربيهما تربية تجعلهما أهلا لهذا المنصب السامى ، وهما ماركس أنينس ڤيرس

Marcus Aninus Verus وكان وقتئذ فى السابعة عشرة من عمره ، ولوسيوس إيليوس ڤيرى Lucius Aelius Verus ، وهو غلام فى الحادية عشرة من عمره . وكان أولهما ابن شقيق أنطونينس وثانيهما ابن لوسيوس ڤيرس . ومنح هدريان أنطونينس فى ذلك الوقت لقب قيصر ولم يكن يلقب به قبل ذلك الوقت إلا الأباطرة وأبناؤهم ومن تناسل من أبنائهم الذكور ؛ أما بعده فقد كان الأباطرة يمنحون هذا اللقب كل من وارث للعرش مفترض ، ويحتفظون لأنفسهم بلقب أغسطس .

واشتد المرض وقتئذ على هدريان وبرح به الألم ، وكثيراً ما كان الدم ينزف من منخاريه . وضاق ذرعا بالحياة ، وأخذ يتمنى الموت . وكان قد أعد لنفسه قبراً على الضفة الأخرى من نهر التيبر — وهو ذلك الضريح الضخم الذى أضحت بقاياه الآن قلعة القديس أنجيلو Castel Sant' Angelo والذى لا يزال الناس يصلون إليه فوق جسر إيليوس الذى أقامه هدريان . وكان قد تأثر بالمثل الذى ضربه الفيلسوف الرواقى يفراتيز Euphrates ، وكان وقتئذ فى رومة . ذلك أن هذا الفيلسوف لما وجد أن المرض قد هد جسمه والشيخوخة قد أنهكته طلب إلى هدريان أن يأذن له بأن يقتل نفسه ، فلما أذن له تجرع عصير الشوكران[٣١] . ورجا الإمبراطور أن يقدم له سما أو سيفا ، ولكن أحداً ممن كانوا حوله لم يجب رجاءه ، فأمر عبداً من بلاد الدانوب أن يطعنه طعنة قاتلة ، ولكن العبد فر منه ؛ ثم أمر طبيبه أن يسمه ، فلم يكن من الطبيب إلا أن انتحر[٣١] . ثم عثر بعدئذ على خنجر وهم بقتل نفسه ، ولكن الخنجر انتزع منه . وحزن أشد الحزن لأنه ، وهو الذى يستطيع أن يقتل أى إنسان ، لا يسمح له هو نفسه أن يموت . فلما ضاقت به الحيل صرف أطباءه وأوى إلى بايا Baiae وتعمد أن يأكل ويشرب الأطعمة والأشربة التى تعجل منيته ؛ وأخيراً خارت قواه وجن من شدة

الألم ومات (١٣٨) ، بعد أن عاش ستين عاماً وحكم واحداً وعشرين .
وقد خلف وراءه قصيدة صغيرة تعبر كما تعبر قصيدة دانتي عما ينتاب الإنسان من الأسى حين يذكر في أيام حزنه ما مر به من أيام السعادة :

أيا نفسي ، أيا نفسي الجميلة ، أيا نفسي الخفاقة ، أيا شريكة جسمي الطيني وضيفه ، إلى أين أنت مسرعة — أيتها النفس الشاحبة ، أيتها النفس الجاسية ، أيتهـا النفس العارية — إلى حيث لا تعودين ، إلى حيث لا تعودين ؟[٣٣] .

الفصل الرابع

أنطونينس بيوس

يكاد أنطونينس ألاّ يكون له تاريخ ، وذلك لأنه لا يكاد يقع فى أخطاء أو يرتكب قط جرائم . وكان آباؤه الأولون قد جاءوا من نيمز قبل ذلك العهد بجيلين ، وكانت أسرته من أغنى الأسر فى رومة ، ولما اعتلى عرش الإمبراطورية فى الحادية والخمسين من عمره وهبها حكومة هى أعدل حكومة شهدتها طوال تاريخها ، ولم تكن أقل هذه الحكومات كفاية .

وكان أسعد من لبس التاج حظا . ويقول مؤرخوه إنه كان طويل القامة ، وسيما ، جيد الصحة ، وقوراً ، دمث الأخلاق ، حازماً ، متواضعاً ، صادق البأس ، فصيح اللسان ، يحتقر بلاغة الألفاظ ، محبباً إلى الشعب ، يكره الملق . وإذا صدقنا ما يقوله فيه متبناه ماركس ، كان علينا أن نرفض ما وصف به من أنه « كان الجبار المعصوم من الخطأ الذى لم يعرفه العالم قط » . ولقد لقبه مجلس الشيوخ « بالتقىّ pius » لأنه رأى فيه مثالا للفضائل الرومانية الهادئة ، كما وصفه بأنه أفضل الزعماء . ولم يكن له أعداء مطلقاً ، وكان له مئات من الأصدقاء ؛ غير أنه لم يكن بمنأى من الأحزان ، فقد ماتت كبرى ابنتيه وهو يستعد للسفر إلى آسية ليكون والياً عليها ، وكانت صغراهما زوجة مريبة لأورليوس ، واتهم الناس زوجته بأن خيانتها لزوجها كانت تعدل جمالها . وتحمّل أنطونينس هذه الشائعات وهو صامت صابر ، ولما ماتت زوجته فوستينا Faustina أرصد باسمها وتكريماً لها أموالا طائلة لمساعدة الفتيات وتعليمهن ، وخلد ذكراها بإنشاء هيكل فى السوق العامة كان من أجمل هياكل رومة . وزاد على ذلك أنه لم يتزوج غيرها حتى لا يشق أبناؤه أو ينقص ميراثهم بهذا الزواج واكتفى بأن اتخذ له حظية .

ولم يكن رجلا ذكياً ، بالمعنى الضيق لهذا اللفظ . فلم يكن له حظ من العلم ، وكان ينظر إلى رجال الأدب والفلسفة والفن نظرة الرجل الأرستقراطي الذي يتركهم وشأنهم ولا يتدخل في أعمالهم ، لكنه مع ذلك كان يساعدهم بالمال الكثير ، وكثيراً ما كان يدعوهم إلى قصره . وكان يفضل الدين على الفلسفة ، ويعبد الآلهة القدامى بإخلاص ظاهر ، وضرب لمن تبناهم مثلا في التقي والصلاح . كان له أعظم الأثر في ماركس فلم ينس قط قوله : « افعل كل شيء كما يجب أن يفعله تلميذ أنطونينس » . وقد أمر نفسه بأن « يذكر استمساكه بكل عمل معقول ، واعتداله في كل شيء ، وتقواه وصفاء ملامحه ، واحتقاره للشهرة التي لا قيمة لها . . . واكتفاءه بالقليل ؛ وجده وصبره ، واستمساكه بالدين مع بُعده عن الخرافات »[٣٤]. وكان مع هذا متسامحاً مع أصحاب الأديان غير الرومانية ، فخفف من الإجراءات التي اتخذها هدريان ضد اليهود ، وجرى على سنة أسلافه من التساهل مع المسيحيين . ولم يكن بالرجل المتزمت الذي يضيق صدراً بالمرح ، بل كان يحب النكتة ، وكثيراً ما كانت تصدر منه الفكاهة اللطيفة . وكان يلعب ، ويصيد السمك والوحوش مع أصدقائه ، ولم يكن في وسع الإنسان أن يستدل من سلوكه على أنه إمبراطور . وكان يفضل هدوء بيته الريفي في لنوفيوم Lanuvium على ترف قصره الرسمي ، وكان يقضي كل لياليه تقريباً مع أسرته . ولما أن ورث العرش امتنع عن التفكير فيما كان يتوق إليه من راحة وهدوء يجعلهما سلواه في شيخوخته . ولما تبين أن زوجته تتوقع أن تزداد بعد ارتقائه العرش أبهة وعظمة أنبها على ذلك بقوله : « ألا تعلمين أننا قد فقدنا الآن ما كان لنا من قبل ؟ »[٣٥] . فقد كان يعرف أنه ورث هموم العالم ومشاغله .

وكان أول ما عمله بعد اعتلائه العرش أن وهب ثروته الشخصية الكبيرة إلى خزانة الدولة . ثم ألغى المتأخر من الضرائب ، ونفح المواطنين بهبات من المال ، وأقام على نفقته كثيراً من الألعاب والحفلات ، وسد ما كان يعانيه الأهلون من

نقص فى الخمر ، والزيت ، والقمح ، بشراء هذه الأصناف وتوزيعها على الناس من غير ثمن . وواصل تنفيذ منهاج هدريان فى البناء فى إيطاليا ، وفى الولايات ، ولكنه سار فيه باعتدال ؛ ومع هذا كله فقد دبر مالية الدولة بكفاية كانت نتيجتها أن وجد فى خزانتها كلها بعد وفاته ٢٫٧٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سسترس ، وكان ينشر على الناس إحصاء بجميع الإيرادات والنفقات ، ويعامل مجلس الشيوخ على أنه هو عضو من أعضائه لا أكثر ، ولم يقدم قط على عمل خطير إلا بعد استشارة زعمائه . وكان يعنى بدقائق الشئون الإدارية عنايته بالمشاكل السياسية ؛ « فكان يهتم بجميع الناس وبجميع الأشياء كأنهم أهله وكأنها ملكه الخاص »[٣٦] . وواصل سياسة هدريان فى صبغ القانون بصبغة الحرية ، وجعل عقوبة الزنى متساوية على الرجال والنساء ، وحرم السادة القاسين من عبيدهم ، وقيد تعذيب العبيد فى المحاكمات بقيود شديدة ، وفرض أشد العقوبات على كل سيد يقتل عبداً له . وشجع التعليم برصد المال له من قبل الدولة ، وعلم أبناء الفقراء على نفقتها ، ومنح المعلمين والفلاسفة المعترف بهم كثيراً من امتيازات طبقة أعضاء مجلس الشيوخ .

وحكم الولايات أحسن حكم مستطاع دون أن يطوف بها ، فلم يغب قط عن رومة أو ما جاورها يوماً واحداً فى أثناء حكمه الطويل ؛ وكان يكتفى بأن يعين لحكم الولايات رجالا من ذوى الكفاية المخبورة والشرف الموثوق به . وكان يحرص على سلامة الإمبراطورية دون الاشتباك فى حروب ؛ « ولم يكن ينقطع قط عن ترديد قول سپيو إنه يفضل الاحتفاظ بحياة مواطن واحـــد على قتل ألف عدو »[٣٧] . على أنه قد اضطر أن يخوض غمار بعض الحروب الصغرى ليخمد ما نشب من الثورات فى داشيا ، وآخية ، ومصر ؛ ولكنه عهد بهذه الواجبات إلى مرءوسيه ، ولم يسع إلى توسيع رقعة الدولة بل اكتفى بالحدود التى رسمها لها هدريان وراعى فى رسمها جانب الحذر ؛ وحسبت بعض القبائل الألمانية لينة هذا

ضعفاً ، ولعل هذا اللين قد شجعها على أن تتأهب لتلك الغزوات التى اهتزت لها دعائم الإمبراطورية بعد وفاته ؛ وكان هذا هو الخطأ الوحيد الذى ارتكبه فى سياسته . أما فيما عدا ذلك فقد كانت الولايات سعيدة فى أيامه ، ورضيت بحكم الإمبراطورية ورأت فيه البديل الوحيد من الفوضى والشقاق : وأمطرته الولايات سيلا من الملتمسات والمطالب ، أجابها إليها جميعاً إلا القليل الذى لايستحق الذكر ، وكان فى وسعها أن تعتمد عليه ليعوضها عن كل ما يصيبها من الخسائر بسبب الكوارث العامة ؛ وتغنى المؤرخون من أهل هذه الولايات أمثال أسترابون ، وفيلو ، وأفلوطرخس ، وأبيان ، وإبكتتس ، وإيليوس أرستيديز بمديح السلم الرومانية ، ويؤكد أبيان أنه شاهد فى رومة مندوبى الدول الأجنبية يرجون عبثاً أن توضع بلادهم تحت الحكم الرومانى لكى تستمتع بمزاياه[٣٨] ؛ ولم يعرف قط قبل ذلك الوقت أن حكومة ملكية مطلقة تركت الناس أحراراً كما تركتهم حكومة بيوس ، أو احترمت حقوق رعاياها كما احترمتها هذه الحكومة[٣٩] : ولاح أن العالم قد أدرك المثل الأعلى فى نظم الحكم . فقد كان هذا الحكم وقتئذ للعقل والحكمة ، وكأن العالم يحكمه أب شفيق رحيم :

ولم يكن باقياً على أنطونينس بعد هذا كله إلا أن يختم حياته الصالحة بموت هادئ : ولقد أصيب فى السنة الرابعة والسبعين من عمره بنزلة معدية ، وانتابته حمى شديدة ، فدعا ماركس أورليوس إلى فراشه ، وعهد إليه العناية بشئون الدولة ، وأمر خدمه أن ينقلوا إلى حجرة ماركس تمثال فُرتونا fortuna (الحظ) الذهبى ، وكان الزعيم قد احتفظ بهذا التمثال فى حجرته عدداً كبيراً من السنين . وأسر إلى ضابط ذلك اليوم كلمة السر « الهدوء » . ثم أدار وجهه لساعته كما لو كان يريد النوم ، وأسلم الروح (١٦١) . وأخذت جميع الطبقات وجميع المدن تتبارى فى تكريم ذكراه .

الفصل الخامس

الفيلسوف إمبراطور

يقول رينان Renan : « لو أن أنطونينس لم يعين ماركس أورليوس خليفة له من بعده لما استطاع أحد قط أن ينافسه فيما اشتهر به من أنه خير الملوك على الإطلاق »(٤١) . ويقول جبن Gibbon : « لو أن إنساناً طلب إليه أن يحدد فى تاريخ العالم وقتاً كان فيه الجنس البشرى أعظم ما يكون سعادة ورخاء ، لما تردد فى أن يقول إنه هو الفترة التى تمتد من جلوس نيرقا إلى موت أورليوس . ولعل حكمهم مجتمعاً هو الفترة الوحيدة فى تاريخ العالم التى كانت فيها سعادة شعب عظيم هدف الحكومة الوحيد »(٤٢) .

ولد ماركس أورليوس فيرس فى رومة عام ١٢١ ، وكانت أسرة أنياى Annii قد وفدت قبل ذلك الوقت بمائة عام من سكوبا Succuba القريبة من قرطبة إلى رومة ، ويلوح أن ما اشتهروا به فى هذا البلد من شرف قد أكسبهم لقب فيرس أى « الحق » . ومات والد الغلام بعد ثلاثة أشهر من مولده فكفله جده الثرى ، وكان قنصلا فى ذلك الوقت ، وأخذه إلى بيته . وكثيراً ما كان هدريان يتردد على هذا البيت زائراً ، فأعجب بالغلام ، ورآه من طراز الملوك . ولم يعرف قط أن غلاماً مثله كان شبابه ينم عما ينتظره من مستقبل عظيم ، أو كان يدرك ما هيأته له الأقدار من حظ حسن . وقد كتب بعد ذلك الوقت بخمسين عاماً يقول : « إنى مدين للآلهة بما وهبتنى من جدود طيبين ، وآباء طيبين ، وأخت طيبة ، ومدرسين طيبين ، وأقارب وأصدقاء طيبين ، وكل شىء تقريباً طيب »(٤٣) . وأراد الدهر أن يفرض عليه شيئاً من التوازن فجعل له زوجة مريبة وابناً سافلا . وقد أحصى فى تأملاته ما يتصف به

أولئك الناس من فضائل وما تلقاه عنهم من دروس فى التواضع ، والصبر ، والرجولة ، والتعفف ، والتقوى ، وحب الخير ، و « بساطة الحياة البعيدة كل البعد عن عادات ذوى الثراء »[٤٤] ، وإن كان الثراء يحيط به من كل جانب .

ولم يلق غلام قط ما لقيه هذا الغلام من حرص ومثابرة على تربيته وتعليمه . فقد التحق فى شبابه بخدمة الهياكل والكهنة ، وحفظ عن ظهر قلب كل كلمة من كلمات الطقوس الدينية القديمة الغامضة المتعذرة الفهم ، ولم تنقص الفلسفة فى مستقبل الأيام من مثابرته على أداء تلك الطقوس القديمة المفروضة على الأتقياء الصالحين ، وإن كانت هذه الفلسفة قد زعزعت عقيدته الدينية . وكان ماركس يحب المباريات والألعاب الرياضية ومنها صيد الطير والحيوان ، وقد بذلت بعض الجهود لتقوية جسمه كما كانت الجهود تبذل لتنمية عقله وتقويم خلقه ، ولكن سبعة عشر مدرساً خاصاً يحيطون بطفل عبء ثقيل وعقبة كؤود فى سبيله . فقد كان أربعة نحاة ، وأربعة من علماء البلاغة ، وواحد من علماء القانون ، وثمانية من الفلاسفة يقتسمون روحه فيما بينهم . وكان أشهر هؤلاء الأساتذة كلهم م . كورنليوس فرنتو M. Cornelius Fronto معلم البيان . وكان ماركس يحبه ويحبوه بكل ما يحبو به التلاميذ أبناء الملوك أساتذتهم من عطف ولطف . ويتبادل معه رسائل تفيض رقة ووفاء ، ولكن الغلام رغم هذا أدار ظهره إلى فن الخطابة ورآه فناً باطلا غير شريف وانهمك فى دراسة الفلسفة .

وهو يشكر لأساتذته أنهم لم يلزموه بدراسة المنطق والتنجيم ، ويشكر لديجنيس Diognetus الرواقى أنه حرر عقله من الخرافات ، وليونيوس رستكس Junius Rusticus أنه عرفه بإبكتتس ، ولسكتس القيرونيائى Sextus of Chaeronea أنه علمه أن يعيش عيشة تتفق والطبيعة . وهو يحمد لأخيه سفيرس Severus أنه علمه أخبار بروتس ، وكاتو اليتكانى ، وثراسيا Thrasea وهلفديوس Helvdiius ويقول : « إنى تلقيت عنه فكرة الدولة

التى يكون فيها قانون واحد لجميع الناس ، والتى يتمتع أهلها جميعاً بحقوق متكافئة ، وبحرية الكلام ؛ وأخذت عنه فكرة الحكومة الملكية التى تحترم حرية المحكومين أكثر من احترامها كل شيء سواها »(٤٥) وفى هذا القول يستحوذ المثل الأعلى الرواقى للحكومة الملكية على العرش . ويشكر أورليوس لمكسمس Maximus أن علمه « أن يحكم نفسه ، وألا يسمح لشيء ما أن يضله ، وأن يكون بشوشاً فى كل الظروف ، وأن يجمع قدراً متكافئاً من اللطف والكرامة ، وأن يؤدى ما عليه من الواجبات من غير تذمر »(٤٦)
وجدير بنا أن نشير هنا إلى أن من الأمور الجلية أن كبار الفلاسفة فى ذلك الوقت كانوا كهنة بلا دين ، ولم يكونوا ميتافيزيقيين بلا حياة . غير أن ماركس آمن بأقوالهم إيماناً جدياً كاد وقتاً ما أن يفقد بسببه صحته التى كانت ضعيفة بطبيعتها لانهماكه فى حياة الزهد والتقشف . فقد ارتدى وهو فى الثانية عشرة من عمره رداء الفلسفة ، وأخذ ينام على قليل من القش المنثور على الأرض ، وظل زمناً طويلا لا يأبه برجاء أمه له أن ينام على فراش . ذلك أنه كان رواقياً قبل أن يصير رجلا ، ويحمد ربه : « لأنى احتفظت بزهرة شبابى ، وأنى لم أطمع فى أن أكون رجلا قبل الأوان ، بل أجلت هذا أكثر مما كنت أحتاج إلى تأجيله . . . وأنى لم تكن لى صلات جنسية قط . . . وأنى حين انتابتنى فيما بعد نوبات من الحب ، لم ألبث أن شفيت منها بعد زمن قليل »(٤٧) .

وقد حوله عن احتراف الفلسفة والكهنوت عاملان كان لهما أثر بالغ فى حياته . أولهما ما تولاه من المناصب السياسية الصغرى منصباً فى إثر منصب ؛ وذلك لأن واقعية الرجل الإدارى تعارضت لديه مع مثالية الشاب الغارق فى التأملات . وكان العامل الثانى صلته الوثيقة بأنطونينس بيوس . ولم تكن حياة أنطونينس الطويلة سبباً فى مضايقته بل ظل يحيا حياته الرواقية البسيطة ، ويواصل دراساته الفلسفية ، وواجباته الرسمية ، وهو يعيش

فى القصر ، ويمارس مرانه الطويل . وكان للمثل الذى ضربه له متبنيه فى الإخلاص والنزاهة فى الحكم أقوى الأثر فى نضوج عقله وخلقه . وكان الاسم الذى نعرفه به وهو أورليوس هو اسم القبيلة التى ينتمى إليها أنطونينس، وقد تسمى به ماركس ولوسيوس كلاهما بعد أن تبناهما . فأما لوسيوس فقد أصبح رجلا مرحاً محباً لمفاتن العالم ، خبيراً بملذات الحياة ومباهجها ؛ ولما أن رغب پيوس عام ١٤٦ أن يكون له زميل يشترك معه فى أعباء الحكم ، اختار لذلك ماركس وحده ، وترك للوسيوس دولة الحب . ولما أن مات أنطونينس جلس ماركس على العرش بمفرده ، ولكنه تذكر رغبة هدريان فاتخذ لوسيوس ڤيرس زميلا له وزوجه بابنته لوسلا Lucilla : فارتكب الفيلسوف بسبب حنوه ورأفته من الخطأ فى بداية حكمه ما ارتكبه فى نهايته ؛ ذلك أن تقسيم الحكم على هذا النحو كان سابقة سيئة ، فرقت شمل الدولة وأضعفتها فيما بعد أيام خلفاء دقلديانوس وقسطنطين .

وطلب ماركس من مجلس الشيوخ أن يخلع على پيوس مراسم التكريم القدسية ، وأتم الهيكل الذى شرع پيوس فى أن يقيمه تخليداً لذكرى زوجته ، وأظهر فيه أحسن الذوق وأكمله ، ووهبه لذكرى أنطونينس وفوستينا معا(*) . وحبا مجلس الشيوخ بكل أنواع المجاملة ، وسره أن يجد الكثيرين من أصدقائه الفلاسفة قد شقوا طريقهم إلى عضويته ، وحيته إيطاليا بأجمعها والولايات على بكرة أبيها ، ورأت فيه تحقيقاً لحلم أفلاطون : لقد أصبح الفيلسوف ملكا . ولكنه لم يفكر قط فى أن يجعل من الإمبراطورية « مدينة فاضلة » . فقد كان مثل أنطونينس محافظاً مستمسكا بالقديم ؛ ذلك أن المتطرفين لا ينشئون فى القصور ، وكان ملكا — فيلسوفاً بالمعنى

(١) ولاتزال عشرة من أعمدته الكورنثية المنحوت كل منها من حجر واحد من بين أجمل آثار السوق العامة الباقية إلى الآن . ومدخله باق بكامل أجزائه ، أما المحراب فهو ، وإن جرد من واجهته الرخامية ، باق إلى اليوم فى كنيسة سان لورنتزو فى بلدة ميرندا .

الرواقى لا الأفلاطونى لهذا اللفظ . وقال يحذر نفسه : « لا تؤمل قط أن تقيم جمهورية أفلاطون . وحسبك أنك أصلحت أحوال البشر إلى حد ما ، ولا تظن أن هذا الإصلاح أمر قليل الخطر . ومنذا الذى يستطيع تغيير آراء الناس ؟ وإذا لم تستطع تغيير عواطفهم ، فإنك لا تستطيع أن تجعل منهم إلا عبيداً متمردين ومنافقين متلونين » . وكان قد تبين أن الناس لا يرغبون كلهم أن يكونوا قديسين أطهاراً ، ووطن النفس على أن يعيش فى عالم ملىء بالخبث والفساد ، ومن أقواله فى هذا : « إن الآلهة المخلدين يرضون أن يصبروا آجالا طوالا على هذه الكثرة من الأشرار وعلى ما ترتكبه من آثام كثيرة ، دون أن يغضبوا ، بل إنهم يحيطون هؤلاء الأشرار بالنعم الموفورة ، فهل يليق بك على قصر أجلك أن يسرع إليك الملل ؟ »[٤٨] : وقد وطد العزم على أن يعتمد على القدوة الحسنة لا على سطوة القانون ، فجعل نفسه بالفعل خادماً للدولة ، وأخذ على عاتقه جميع أعباء الإدارة والقضاء ، بما فى ذلك القسم الذى وافق لوسيوس على أن يتحمله ولكنه أهمله ؛ ولم يسمح لنفسه بشىء من الترف ، وعامل الناس جميعا معاملة الزملاء لا أكثر ولا أقل ، وأنهك نفسه بكثرة العمـــل بأن يسر للناس مقابلته . ولم يكن ماركس بالسياسى العظيم ، فقد أنفق كثيراً من أموال الدولة فى الهبات النقدية التى كان ينفح بها الشعب والجيش ، ومنح كل فرد من أفراد الحرس البريتورى عشرين ألف سسترس . وزاد عدد الذين كان من حقهم أن يطلبوا الحبوب من غير ثمن ، وأكثر من الألعاب الباهظة النفقة ، وأعفى الناس والولايات من كثير من الضرائب والجزية المتأخرة . لقد كان هذا كرماً له سوابقه ، ولكنه كان عملا غير حكيم فى وقت كانت الثورات والحروب تهدد الدولة تهديداً لا يخفى على عين الحاكم البصير ، وكانت نيرانها مشتعلة بالفعل فى كثير من الولايات وعلى أطراف الحدود العظيمة الأمداد .

وواصل ماركس ذلك الإصلاح القانونى الذى بدأه هدريان وبذل فى ذلك الإصلاح كثيرا من الجد والنشاط . فزاد أيام جلسات المحاكم ، وقصر آجال

المحاكات ، وكثيراً ما كان يجلس بنفسه فى مجلس القضاء ، ولا يرحم من يرتكب جريمة من الجرائم الكبرى ، ولكنه كان فى العادة رحيما . وقد ابتكر وسائل قانونية لحماية عديمى الأهلية من جشع الأوصياء ، ولحماية المدينين من الدائنين ، والولايات من الحكام ، وغض الطرف عن عودة الجماعات الدينية التى كانت محرمة قبل عهده ، وبسط حماية القانون على الهيئات التى كانت فى حقيقة أمرها جماعات تعنى بدفن الموتى ، وأكسبها الشخصية المعنوية التى يحق لها بمقتضاها أن تقبل الوصايا ، وأنشأ صندوقاً لينفق منه على دفن الموتى من الفقراء . وبلغ عدد المستفيدين من نظام الألمنتا أى من الأموال التى خصصتها الدولة لتشجيع النسل بين الفلاحين أكبر عدد وصل إليه فى تاريخ هذا النظام كله . ولما ماتت زجته أنشأ صندوقاً لمساعدة الفتيات الفقيرات ، ولدينا نقش منخفض يمثل أولئك الفتيات وقد أحطن بفوستينا الصغرى وهى تصب القمح فى حجورهن . وألغى الاستحمام المختلط ، وحرم دفع أجور عالية للممثلين والمجالدين ، وفرض على ما تنفقه المدن على الألعاب قيوداً تحد من هذه النفقات وتجعلها متناسبة مع ثروتها ، وأوجب أن تكون الأسلحة التى يستخدمها المجالدون غير ذات أسنة ، وفعل كل ما تبيحه له هذه العادة الوحشيه أن يفعله لمنع قتـــل المصارعين . وأحبه الشعب ولكنه لم يحب قوانينه ، ولما أن جند المصارعين فى جيشه الذى سيره للحروب المركمانية Marcomannic قال الناس فى غضب فكه : « إنه يسلبنا أسباب سرورنا ، ويريد أن يرغمنا على أن نكون فلاسفة »[٤٩] . لقد كانت رومة تستعد للتزمت ، ولكنها لما تصبح مستعدة له .

وكان من سوء حظه أن شهرته فى الفلسفة ، وأن السلم الطويلة التى دامت أيام هدريان وأنطونينس ، قد شجعتا الثوار فى داخل البلاد ، والبرابرة فى خارجها ، على العصيان . فاندلعت نيران الثورة فى بريطانيا عام ١٦٢ ، وغزا التشاتى Chatti ألمانيا الرومانية ، وأعلن فلوجاسيز Vologases

الثالث ملك پارثيا الحرب على رومة واختار ماركس أقدر القواد لتقليم أظفار الفتنة فى الشمال ، ولكنه عهد إلى لوسيوس ڤيرس بالواجب الأكبر وهو محاربة پارثيا ، ولم يتجاوز لوسيوس فى زحفه مدينة أنطاكية ، لأن تلك المدينة كانت مسكن پانثيا Panthea التى بلغت من الجمال والتهذيب والثقافة حداً ظن معه لوسيان أن كل ما حوته آيات النحت من روعة قد اجتمعت فيها ، وأنها وهبت فوق ذلك صوتاً رخيماً عذباً يسلب لب من سمعه ، وأنامل تجيد العزف ، وعقلا ملماً بروائع الأدب والفلسفة . فلما رآها لوسيوس نسى كما نسى جلجميش متى ولد ، فأطلق العنان لملذاته ، للصيد أولا ثم للدعارة بعدئذ ، بينما كان الپارثيون يزحفون على بلاد سوريا التى استولى عليها الرعب . ولم يعلق ماركس بكلمة على أعمال لوسيوس ولكنه أرسل إلى أڤديوس كاسيوس Avidius Cassius الذى يلى لوسيوس فى قيادة جيشه خطة للحملة كانت من الإتقان بحيث أعانت القائد القدير المحنك على صد الپارثيين إلى ما بين النهرين ، وإلى رفع الراية الرومانية مرة أخرى على سلوقية وطشقونة . وأحرقت المدينتان فى هذه المرة عن آخرهما ، لكيلا تتخذا مرة أخرى قاعدتين لحملات الپارثيين . وعاد لوسيوس من أنطاكية إلى رومة حيث أقيم له احتفال بالنصر ، أصر كرماً منه وشهامة على أن يشاركه فيه ماركس .

وجاء لوسيوس معه بالمنتصر الخفى فى هذه الحرب — وهو الوباء . وكان قد ظهر فى بادئ الأمر بين جنود أڤديوس حينما استولوا على سلوقية ، ثم انتشر بسرعة اضطرته أن يسحب أولئك الجند إلى بلاد النهرين بينما كان الپارثيون يطربون لأن الآلهة قد انتقمت لهم من أعدائهم . ونقلت الفيالق المنسحبة الوباء معها إلى سوريا ، وأخذ لوسيوس معه جنوداً من هذه الفيالق لتشترك فى موكب النصر ، فنقلوا العدوى إلى كل مدينة مروا بها ، وإلى كل صقع من أصقاع الإمبراطورية انتقلوا إليه فيما بعد . ويحدثنا المؤرخون القدامى عن فتك هذا الوباء أكثر مما يحدثوننا عن طبيعته ، ولكن ما يقولونه عنه

يوحى بأنه قد يكون مرض التيفوس الطفحى أو الطاعون الدملى(٣٢) . ويظن جالينوس أنه من نوع الوباء الذى فتك بالأثينيين فى عهد بركليز . وسواء أكان هذا أم ذاك فقد كانت بثرات سوداء تنتشر فى الجسم ، ويصاب المريض بسعال جاف مبحوح ، ويكون « نفسه ذا رائحة خبيثة »(٥٣) . وفشا الوباء سريعاً فى آسية الصغرى ، ومصر ، وبلاد اليونان ، وغالة ، وأهلك خلال عام واحد (١٦٦ – ٦٧) أكثر ممن أهلكتهم الحروب . ومات منه فى رومة ألفان فى يوم واحد ، ومنهم عدد كبير من أشراف المدينة(٥٤) ، وكانت الجثث تخرج منها أكواماً . وعجز ماركس عن مقاومة هذا العدو الخفى ، ولكنه بذل كل ما يستطيع ليخفف من شره ، غير أنه لم يجد معونة من علم الطب فى ذلك الوقت ، وجرى الوباء فى مجراه حتى أوجد فى الناس مناعة منه أو أهلك كل من حمل جراثيمه . وكانت له فى البلاد آثار يخطئها الحصر . فقد أقفرت كثير من الأنحاء من سكانها حتى أضحت صحارى أو غابات ، ونقص إنتاج الغذاء ، واضطربت وسائل النقل ، وأتلفت فيضانات الأنهار مقادير كبيرة من الحبوب ، وجاء القحط فى أعقاب الوباء . واختفت مظاهر البهجة التى امتازت بها بداية حكم ماركس ، واستسلم الناس للحيرة والتشاؤم ، وهرعوا إلى العرافين والمتنبئين ، وغمروا المذابح بالبخور والضحايا ، وطلبوا العزاء فى الملاذ الوحيد الذى أتيح لهم ، فى الدين الجديد دين خلود النفس والسلام السماوى .

وبينا كانت هذه الكوارث تجتاح البلاد فى الداخل جاءت الأنباء (١٦٧) بأن القبائل الضاربة على ضفاف الدانوب – التشاتى ، والقادى ، والمركمانى ، واللازيجى Lezyges – قد عبرت النهر ، وفتكت بحامية رومانية عدتها عشرون ألفاً ، وأخذت تزحف على داشيا ، وريتيا Rretia ، وبانونيا ، ونوركم ، وأن بعضها قد شقت طريقها فوق جبال الألب ، وهزمت كل الجيوش التى أرسلت لصدها ، وحاصرت أكويليا Aquileia (القريبة من البندقية) ، وأخذت تهدد فرونا Verona . وتتلف الحقول الغنية فى شمالى إيطاليا . ولم تكن القبائل الألمانية

فى وقت من الأوقات أكثر مما كانت وقتئذ اتحاداً وتماسكاً فى زحفها ، ولم تهدد رومة فى يوم ما أشد من تهديدها إياها فى ذلك الوقت . وأقدم ماركس على العمل الحاسم بسرعة أدهشت الناس جميعاً ، فنبذ ملاذ الفلسفة ، وقرر أن ينزل بنفسه إلى الميدان ليخوض غمار الحرب التى تنبأ بأنها ستكون أخطر الحروب التى خاضتها رومة منذ أيام هنيبال ، وروع إيطاليا بتجنيد رجال الشرطة ، والمجالدين والعبيد ، وقطاع الطرق ، ومرتزقة البرابرة ، فى فيالقه التى حصدتها الحروب والأوبئة . وحتى الآلهة نفسها قد جندها لخدمة أغراضه : فقد أمر كهنة الأديان الأجنبية أن يقربوا القرابين إلى رومة حسب طقوسهم المختلفة ، وحرق هو نفسه من الضحايا على المذابح ما جعل أحد الفكهين يذيع رسالة بعثت بها إليه ثيران سود ، ترجوه فيها ألا يسرف فى الانتصار وتقول فيها : «ما أشد خسارتنا إذا انتصرت»(٥٥) . وأراد أن يوفر المال اللازم للحرب دون أن يفرض لها ضريبة خاصة فباع بالمزاد العلنى فى السوق العامة ما فى القصور الإمبراطورية من خزانات الثياب ، والتحف الفنية ، والحلى . وأعد العدة للدفاع بعناية عظيمة — فحصن المدن القائمة على الحدود من غالة إلى بحر إيجة ، وسد الممرات الموصلة إلى إيطاليا ، وأغرى القبائل الألمانية والسكوذية بالرشا السخية على الهجوم على مؤخرة الغزاة . ثم درب جيشه ونظمه أحسن تدريب وتنظيم بجد وشجاعة تثيران أعظم الإعجاب لجيشهما من رجل يكره الحرب . ثم قاد الجيش بنفسه فى حرب عوان وضع خططها بمهارة وقدرة حربية فنية ، وفك الحصار عن أكويليا ، وطارد المحاصرين وبدد شملهم عند نهر الدانوب ، حتى لم يكد ينجو منهم من القتل إلا من وقع فى الأسر .

ولم يكن يخفى عليه أن أعماله هذه لم تقض على الخطر الألمانى ، ولكنه حسب أن ما أدركه يجعل الموقف آمناً إلى حين ، فعاد مع زميله إلى رومة ؛ ولكن لوسيوس قضى نحبه فى الطريق بالسكتة القلبية ، غير أن الشائعات ، كالسياسة ، لا تعرف سبيلا إلى الرحمة ، فقالت إن ماركس دس

له السم . وقضى الإمبراطور الفترة الواقعة بين يناير وسبتمبر عام ١٦٩ فى رومة ليستريح من الجهود التى أضنت بنيته الضعيفة حتى كادت تقضى عليه ، وكان يشكو نزلة معوية كثيراً ما كانت تتركه ضعيفاً لا يقوى على الحركة . ولكنه عالج هذا الداء بالاقتصاد فى الطعام فكان لا يأكل إلا أكلة خفيفة فى اليوم . وكان الذين يعرفون حالته الصحية وغذاءه القليل يدهشون مما كان يبذله فى القصر والحقل من جهود ، كل ما يعللونها به أنه كان يعوض بعزيمته ما يعوزه من قوة جسمه . وقد استدعى إليه عدة مرار جالينوس البرجموى أشهر أطباء زمانه ، وأثنى عليه لبساطة ما كان يصفه له من العلاج(٥٦) .

ولعل ما توالى عليه من المتاعب المنزلية مضافة إلى الأزمات السياسية والعسكرية قد ساعد على اشتداد علته حتى أصبح شيخاً منهوكا فى الثامنة والأربعين من عمره . ولعل زوجته فوستينا ، التى ترى وجهها الجميل فى كثير من التماثيل ، لم يكن يسرها أن تشارك فى الطعام والفراش رجلا يكاد أن يكون هو الفلسفة متجسدة ، ذلك أنها كانت امرأة مرحة نشيطة ، تتوق إلى حياة أكثر بهجة مما تستطيع أن تهبها إياها فطرته الرزينة الوقور . غير أن النمامين فى المدينة كانوا يتهمونها بخيانة زوجها ؛ وهجته المسرحيات التقليدية الصامتة ووصفته بأنه ديوث ، بل ذهبت إلى أبعد من هذا فذكرت أسماء من ينافسونه على زوجته(٥٧) . لكن ماركس فعل ما فعله أنطونينس مع أمه فوستينا فصمت ولم يقل شيئاً ، ولم يكتف بالصمت بل عين عشاقها المزعومين فى مناصب عالية وأظهر إلى فوستينا كل دلائل العطف والاحترام ، وألَّهها لما ماتت (١٧٥) وشكر فى تأملاته الآلهة لأنها وهبته « زوجة محبة مطيعة »(٥٨) . وليس لدينا قط دلائل تدينها بمقتضاها(٥٩) ، ولقد ولدت له أربعة أبناء ، كان يحبهم حباً لا نزال نحس بحرارته فى رسائله التى كتبها لفرنتو . وقد ماتت منهم بنت فى طفولتها ، وأما الثانية فكانت حياة لوسيوس سبباً فى حزنها ، ووفاته سبباً فى ترملها . وكان الاثنان الآخران توأمين ولدا

فى عام ١٦١ ، مات أحدهما أثناء ولادته ، وأما الثانى فهو كومودس Commodus ، وقالت ألسنة السوء إنه كان هدية إلى فوستينا من مجالد[٦٠] ، وقد ظل هو طول حياته يجاهد لتوكيد هذه القصة . لكنه كان غلاماً وسيما قوياً نشيطاً ، وكان ماركس يحبه ويحنو عليه حنواً بالغاً لا يستطيع أحد أن يلومه عليه ، وقدمه إلى الفيالق بطريقة ترمز إلى أنه سيختاره خليفة له من بعده. واستخدم خير المدرسين فى رومة ليجعلوه صالحاً للحكم . ولكن الشاب كان يفضل الشرب ، والرقص ، والغناء ، والصيد ، والمثاقفة ، ونشأت فيه روح الكراهية للكتب والعلماء والفلاسفة ، وهى كراهية نستطيع فهم أسبابها ، ولكنه كان يسر بصحبة المجالدين وهواة الألعاب الرياضية ، وسرعان ما بز جميع رفاقه فى الكذب ، والقسوة ، والألفاظ القذرة . وكان ماركس أشد طيبة من أن يبلغ من العظمة قدراً يستطيع معه أن يؤدبه ، أو يتبرأ منه ، وظل يأمل أن التعليم والتبعة التى ستلقى على عاتقه سيهذبان من طبعه ويغرسان فيه صفات الملوك . وأخذ الإمبراطور فى عزلته يهزل جسمه ، ويطول شعر لحيته دون أن يعنى به ، وتضعف عيناه من الهم والأرق ، ويولى ظهره إلى زوجه وولده ، ليعنى بشئون الحكم والحرب .

ولم تكن هجمات القبائل الضاربة فى وسط أوربا قد وقفت إلا إلى حين قصير ، ولم تكن السلم فى هذا الصراع القائم لتدمير الإمبراطورية وتحرير البرابرة إلا هدنة مؤقتة . ثم أقدم الشاتى فى عام ١٦٩ على غزو الأقاليم الرومانية عند مجرى الرين الأعلى ، وفى عام ١٧٠ هاجم النثيوسى بلچيكا ، وحاصرت قوة أخرى سرمزجتسوسا ، وعبر الكتسباى جبال البلقان وانقضوا على بلاد اليونان ، ونهبوا هيكل الطقوس الخفية فى إلوسيس التى تبعد عن أثينة بأربعة عشر ميلا ، وغزا المغاربة أسبانيا من موطنهم فى إفريقية ، وظهرت لأول مرة على نهر الرين قبيلة جديدة تدعى اللنجباردي أو اللمبارديين . وكان البرابرة المخصبون يزدادون فى كل يوم قوة رغم ما منوا به من الهزائم الكثيرة ، بينا كان الرومان العقيمون يزدادون ضعفا

ضعفاً . ورأى ماركس أن الحرب عندئذ حرب حياة أو موت ، يهلك فيها أحد الطرفين عدوه أو يذل له . ولم يكن في وسع مخلوق أن يبدل نفسه تبديلا تاما من فيلسوف متصوف إلى قائد ناجح قدير إلا من نشأ نشأة رومانية عرف فيها معنى الواجب المقدس كما يفهمه الرواقيون . ولقد بقى الفيلسوف متخفياً تحت دروع الإمبراطور ؛ فبينا كانت هذه الحرب المركمانية الثانية (١٦٩ — ٧٥) حامية الوطيس ، وبينا كان ماركس في معسكره المواجه لقبائل القاديين على نهر جرنا(*) Granna شرع يكتب ذلك الكتاب الصغير كتابه التأملات وهو أهم ما يذكره العالم به . وهذه الد[illegible]ى تكشف لنا عن قديس ضعيف غير معصوم من الزلل يقلب في ذهنه مشكلتي الأخلاق والأقدار ، وهو يقود جحفلا عظيما في صراع يقف على نتيجته مصير الإمبراطورية ، نقول إن هذه اللمحة لهي صورة من أدق الصور التي حفظها الزمان لأعاظم رجاله وأصدقها . لقد كان يطارد السرمانيين بالنهار ولكنه كان في وسعه أن يكتب عنهم بالليل كتابة من يعطف عليهم : « إن العنكبوت إذا أمسك بذبابة ، ظن أنه أقدم على عمل عظيم ، وكذلك يظن من صاد أرنبا . . . أو أسر السرمانيين . . . أليس هؤلاء جميعاً لصوصا ؟ »(٦١) .

ولكنه رغم هذا ظل يحارب السرمانيين Sarmatians ، والمركمانيين ، والقاديين ، والبزجيين ، حربا عوانا دامت ست سنين طوالا ، ذاق فيها الأمرين . ثم هزمهم ، ودفع بفيالقه إلى الشمال حتى بلغت بوهيميا . ويبدو أنه كان يبغى أن يجعل سلاسل جبال هرسينيا Hercynian والكربات الحدود الجديدة للإمبراطورية . ولو أنه نجح في تحقيق غرضه ، لكان من المحتمل أن تجعل الحضارة الرومانية ألمانيا ، كما جعلت غالة ، لاتينية في لغتها ، ويونانية في تراثها الثقافي ، ولكنه روع وهو في أوج ظفره ، إذ علم

(*) وأكبر الظن أنه جران Gran أحد روافد الدانوب .

أن أفديوس كاسيوس قد أعلن نفسه إمبراطوراً بعد أن أخمد ثورة شبت فى مصر . وأدهش ماركس البرابرة بأن عقد معهم صلحاً سريعا ، واكتفى بأن ضم إلى الإمبراطورية شريطا من الأرض لا يزيد عرضه على عشرة أميال على ضفة الدانوب الشمالية ، ووضع حاميات قوية على الضفة الشمالية . ثم جمع جنوده ، وأخبرهم أنه يسره أن يترك مكانه لأفديوس إذا رغبت رومة فى ذلك ، ووعد أن يعفو عن القائد المتمرد ، ثم سار إلى آسية ليواجهه . وحدث فى تلك الأثناء أن اغتال كاسيوس ضابط صغير ، وخمدت على أثر مقتله نار الثورة . واخترق ماركس آسية الصغرى وسوريا ، وجاء إلى الإسكندرية ، وحزن كما حزن قيصر لأنه لم تتح له فرصة يظهر فيها رحمته . وكان وهو فى أزمير ، والإسكندرية ، وأثينة يمشى فى الشوارع بلا حرس ، ويلبس عباءة الفلاسفة ، ويستمع إلى محاضرات كبار الأساتذة ، ويشترك معهم فى المناقشات ، ويتكلم اللغة اليونانية ؛ وأنشأ وهو فى أثينة أستاذية فى كل مذهب من المذاهب الفلسفية الكبيرة — الأفلاطونية ، والأرسطاطيلية ، والرواقية ، والأبيقورية .

ووصل أورليوس إلى رومة فى خريف عام ١٧٦ ، بعد حرب دامت قرابة سبع سنين ، واستقبل فيها بموكب نصر عظيم حيى فيه بأنه منقذ الإمبراطورية . وأشرك كمودس معه فى نصره ، وأجلسه ، وهو لايزال غلاما فى الخامسة عشرة من عمره معه على العرش . وكانت هذه هى المرة الأولى منذ قرن من الزمان التى لم يراع فيها مبدأ التبنى ، والتى عاد فيها مبدأ الوراثة . ولم يكن ماركس يجهل الخطر الذى سيحيق بالإمبراطورية من جراء فعلته هذه ، لكنه فعل ما فعل لأنه رأى أن يختار ضرراً أخف من ضرر الحرب الأهلية التى يخشى أن يخوض كمودس وأصدقاؤه غمارها إذا حرمه من العرش . وليس من حقنا أن نحكم عليه بعد أن عرفنا عاقبة فعلته ، كما أن رومة لم تكن تتوقع عواقب هذا الحب الأبوى . ذلك أنها كانت قد نسيت فتك الوباء بأهلها ، وأخذ أبناؤها يذوقون طعم السعادة من جديد ، يضاف إلى هذا أن العاصمة لم تقاس إلا القليل من ويلات الحرب التى

دبر لها ما يلزمها من المال تدبيراً روعى فيه الاقتصاد الشديد ، ولم يفرض عليها فيه إلا القليل الذى لا يستحق الذكر من الضرائب الإضافية ؛ وبينا كانت نار الحرب مشتعلة عند الحدود ، كانت التجارة رائجة فى داخل المدينة ، وكان رنين النقود يسمع فى كل مكان فيها . لقد بلغت رومة فى ذلك الوقت أوج عزها ، وبلغ حب الشعب للإمبراطور غايته ، وحياه العالم كله ، وكان فى نظره جنديا ، وحكيما ، وقديسا فى وقت واحد .

ولكنه لم ينخدع بهذا النصر المؤزر ، فقد كان يعرف أن مشكلة ألمانيا لم تحل بعد . وكان على ثقة من أن الإمبراطورية لن تستطيع صد الغزوات فى المستقبل إلا إذا اتبعت سياسة نشيطة دفعت بها حدودها إلى جبال بوهيميا . ولذلك أقدم كمودس فى عام ١٧٨ على الحرب المركمانية الثالثة ، واجتاز نهر الدانوب وهزم القاديين مرة أخرى بعد حملة طويلة قاسية ، لم يلق بعدها مقاومة . وأوشك أن يضم إلى الإمبراطورية بلاد القاديين ، والمركمانيين ، والسرماتيين (وهى بوجه التقريب بوهيميا وغاليسيا المجاورة لنهر الدانوب) ، ويجعلها ولايات جديدة تابعة للإمبراطورية . ولكن المرض انتابه وهو فى معسكره فى ڤندوبونا Vindobona (ڤينا) . ولما أحس بدنو أجله ، دعا كمودس إلى جانبه ، وأنذره أن يواصل السير على الخطة التى أوشكت أن تثمر ثمرتها ، ويحقق حلم أغسطس ، ويدفع حدود الإمبراطورية إلى نهر الإلب(*) . ثم امتنع عن الطعام والشراب ، ومرت به وهو على هذه الحال خمسة أيام ، وفى اليوم السادس استجمع آخر ما كان عنده من قوة ، ووقف على قدميه ، وقدم كمودس للجيش على أنه الإمبراطور الجديد . ثم عاد إلى فراشه ، وغطى رأسه بملاءة الفرش ، وأسلم الروح بعد قليل . وقبل أن يصل جثمانه إلى رومة ، كان أهلها قد عبدوه واتخذوه إلهاً رضى أن يعيش على الأرض زمناً قصيرا .

(*) يقول ممسن **Mommsen** المعروف بنزاهته « ليس من حقنا أن نكتفى بالاعتراف بصدق عزيمة الإمبراطور وصلابته ، بل إن علينا فوق ذلك أن نقر بأنه قد فعل ما توجبه عليه السياسة الرشيدة »(٦٢)

الباب العشرون

الحياة والفكر فى القرن الثانى

٩٦ – ١٩٢ م

الفصل الأول

تاستس

لقد حررت سياسة نيرڤا وتراچان عقل رومة المكبوت ، وبعثت فى أدب عهديهما روح التمرد الشديد على الطغيان الذى ولى ولكنه قد يعود إلى سابق عهده . ولقد عبر پلنى فى تقريظه عن هذا الشعور بترحيبه بأول الأباطرة الثلاثة حين جلس على العرش ؛ وقلما كان چوڤنال يتغنى بشىء آخر غير مديحهم ، ولم يكن لتاستس أنبه المؤرخين من عمل إلا التنديد بالأيام الخوالى ، والتشنيع بقلمه على ذلك القرن من الزمان .

ولسنا نعرف متى ولد تاستس أو أين ولد ، بل إننا لا نعرف اسمه الأول ؛ وأكبر الظن أنه كان ابن كورنليس تاستس الذى وكل إليه الإشراف على إيرادات الإمبراطورية ، فى غالة البلچيكية . وبفضل ما ناله هذا الرجل من الرقى فى المناصب الحكومية ، ارتفعت الأسرة من طبقة الفرسان إلى طبقة الأرستقراطية الجديدة . وأول حقيقة مؤكدة نعرفها عن هذا المؤرخ هى قوله : « اتفق أجركولا فى عام قنصليته (٧٨) . . . على أن يزوجنى ابنته ، التى كانت بلاريب تتطلع إلى صلة أرقى من هذه »[١] وكان قد

تلقى ما يتلقاه الناس عادة من تعليم ، وأتقن الفنون الخطابية التى تجعل أسلوبه ذا بهجة ورواء ، وحذق طريقة إيراد الحجج المؤيدة والمعارضة التى يمتاز بها ما فى تواريخه من خطب . وكثيراً ما استمع إليه پلنى الأصغر فى المحاكم ، وأعجب بفصاحته وألفاظه الجزلة وسماه أعظم خطباء رومة(٣) . وعين تاستس پريتوراً فى عام ٨٨ ، وأصبح من ذلك الوقت عضواً فى مجلس الشيوخ . وجدير بالذكر أنه يعترف على نفسه ذلك الاعتراف المخجل وهو أنه عجز عن مقاومة الاستبداد ، وأنه انضم إلى الشيوخ الذين حكموا على زملائهم ضحايا دومتيان . ثم عينه نيرڤا قنصلا (٩٧) ، وعينه تراجان والياً على آسية . وما من شك فى أنه كان خبيراً بشئون الإدارة ، وأنه كان ذا تجارب عملية . ولقد كانت كتبه ثمرة حياته السابقة ، ونتاج شيخوخته الخالية من الكد وعقله الناضج العميق .

وتسرى فى هذه الكتب كلها روح واحدة — هى كراهيته للأرستقراطية؛ فنراه فى حواره عن الخطباء (إذا كان هذا كتابه بحق) يعزو اضمحلال البلاغة إلى ما أصيبت به الحرية من قمع ، كما تراه فى كتابه « الأجركولا » Agricola — وهو أكمل تلك الرسائل ذات الموضوع الواحد التى قصر الأقدمون عليها السير — يروى بفخر وخيلاء ما قام به حموه، وهو قائد وحاكم، من جلائل الأعمال ؛ ثم يقص فى حقد وضغينة كيف فصله دومتيان من عمله وأهله . ويبين فى مقاله القصير عن مركز الألمان وأصلهم الفرق بين فضائل الشعب الحر المنبعثة عن الرجولة وبين انحلال الرومان وجبنهم فى عهد الطغاة المستبدين . وتاستس حين يثنى على الألمان لأنهم يرون قتل الأطفال جريمة تجلل مقترفها العار ، ولا يعلون من شأن العقم ، لا يمدح الألمان فى واقع الأمر بل يندد بالرومان . وهكذا نرى الهدف الخلقى يفسد موضوعية

البحث ولكنه يدل على اتساع أفق الموظف الروماني الذى يمتدح قدرة الألمان على مقاومة رومة(*) .

وكان نجاح هذه المقالات مما أغرى تاستس على أن يوضح مساوئ الاستبداد ببيان جرائم الطغاة المستبدين بتفصيل خال من الرحمة . وقد بدأ عمله هذا بإيراد الجرائم التى كانت لا تزال حاضرة فى ذاكرته ، والجرائم التى يشهد بها كبار السن من أصدقائه — وهى التى وقعت فى الفترة المحصورة بين عهد جلبا وموت دومتيان . ولما أن أقرت الأرستقراطية الشاكرة هذه التواريخ ووصفتها بأنها خير ما كتب فى التاريخ من بعد ليفى Livy واصل قصته بأن وصف فى الحوليات Annales حكم تيبريوس ، وكلجيولا ، وكلوديوس ، ونيرون . وقد بقيت لنا من الأربعين (أو الثلاثين فى قول بعضهم) « كتاباً » من كتب التواريخ أربعة كتب ونصف كتاب ، وكلها مقصورة على أحداث السنتين ٦٩ ، ٧٠ ؛ وأما الحوليات فقد بقى منها اثنا عشر كتاباً ، وكانت عدتها فى الأصل ستة عشر أو ثمانية عشر . وهذه الكتب حتى فى هذه الصورة المبتورة تعد أقوى ما كتب فى النثر الرومانى ؛ وفى وسعنا أن نرسم منها صورة غير واضحة لعظمة الكتابين كليهما وأثرها فى النفس . وكان تاستس يأمل أن يؤرخ أيضاً حكم أغسطس ، ونيرفا ، وتراچان ، وأن يخفف من كآبة ما نشر من مؤلفاته بتخليد ذكرى سياسة هؤلاء الأباطرة الإنشائية . ولكن الأجل لم يمهله ، وحكم عليه الخلف ، كما حكم هو على الماضى ، بأن نظر إليه من الناحية القاتمة دون غيرها

ويرى تاستس أن « أهم ما يجب على المؤلف هو أن يحكم على أعمال الناس حتى ينال الطيب من هذه الأعمال ثواب الفضيلة ، وحتى يكون ما توجهه محكمة الخلف إلى أعمال السوء من ذم وتقريع حائلا بين المواطنين وبين سيئ

---

(١) وأكبر الظن أنه كتب فى عام ٩٨ قبل حملة تراچان على الداشيين .

الأعمال »[٦] . ألا ما أعجب هذا الرأى الذى يجعل التاريخ يوم حساب ، ويجعل المؤرخ إلها يحاسب الناس على أعمالهم . وإذا ما فهم التاريخ هذا الفهم استحال إلى مواعظ — أعنى درساً فى الأخلاق وسيلتها ضرب أشد الأمثال رهبة — وأصبح كما يفترض تاستس خاضعاً لعلم البيان . إن من السهل على من يغضب أن يكون فصيحاً بليغاً ، ولـكن ليس عليه أن يكون عادلا نزيهاً ؛ ولهذا وجب ألا يقدم العالم الأخلاقى على كتابة التاريخ . ولقد كان تاستس قريب العهد بالمستبدين يحتفظ فى ذاكرته بصورتهم ، وهذا فى حد ذاته يحول بينه وبين نظره إليهم فى هدوء . ومن أجل هذا لم ير من أعمال أغسطس إلا قضاءه على الحرية ، وظن أن كل ما كان للرومان من عبقرية قد قضى عليه يوم أكتيوم[٧] . ويبـدو أنه لم يخطر بباله أن يخفف من حدة التهم التى يوجهها إلى الأباطرة ، بذكر براعتهم الإدارية ، ورخاء الولايات فى عهد أولئك الطغاة الجبابرة . وما من أحد يقرأ تواريخه ثم يخطر بباله أن رومة كانت إمبراطورية كما كانت مدينة . وليس ببعيـد أن « الكتب » التى ضاعت ، كانت تلقى نظرة على الولايات وعالمها ، أما الكتب الباقية فهى تجعل تاستس مرشداً مقرراً ، لا يكذب قط ولكنه لا يسجل الحقيقة مطلقاً (*) . وكثيراً ما يقتبس من المصادر التى يرجع إليها ، سواء كانت هـذه المصادر كتب تاريخ أو خطباً ، أو رسائل ، أو أوامر يومية ، أو قرارات مجلس الشيوخ ، أو أخبار الأسر القديمة ، وتراه أحياناً يبحثها بحث الناقد الخبير . غير أنه لم يسمع فى معظم الأحوال إلا قصص النبلاء المضطهدين ، وهو لا يتصور قط أن حوادث إعدام الشيوخ واغتيال الأباطرة لم تكن إلا أحداثاً عارضة فى صراع طويل بين الملوك الفاسدين ، القساة ، الكفاة القادرين ، وبين

(*) يذكرنا هذا بقول مكولى « إن بعض المؤرخين يحدثون كل ما الـكذب الشفيع من أثر وإن كانوا لا يذكرون غير الحقائق » . (المترجم)

أرستقراطية منحلة ، فاسدة ، قاسية ، عاجزة . وهو يفتتن بالشخصيات والحوادث البارزة ، أكثر من افتتانه بالقوى العاملة ، والعلل ، والأفكار ، والتطورات ؛ ويرسم أنبه الشخصيات وأكثرها ظلما فى التاريخ ، ولكنه لا يدرك قط أثر العوامل الاقتصادية فى الحوادث السياسية ؛ ولا يهتم مطلقاً بحياة الناس وصناعتهم ، ولا بتيار التجارة ، أو أحوال الناس العلمية ، ولا بمنزلة المرأة ، ولا بتقلب العقائد الدينية ، ولا بروائع الأدب أو الفلسفة أو الفن . وفى كتب تاستس نرى سنكا ، ولوكان ، وپترونيوس يموتون ، ولكنهم لا يكتبون ، ونرى الأباطرة يقتلون الخلق ولكنهم لا يشيدون . ولعل هذا المؤرخ الكبير كان مقيداً برغبات قرائه وسامعيه ، وأكبر الظن أنه كان يقرأ أجزاء من كتبه — كما جرت به عادة ذلك الوقت — إلى أصدقائه الأشراف الذين يقول عنهم پلنى إنهم كانوا يحتشدون لاستقباله ؛ ولعله إذا سئل عن سبب إغفاله ما أغفل قال إن أولئك الرجال والنساء كانوا يعرفون الحياة الرومانية ، وأحوال الصناعة ، والأدب ، والفن ، وإنهم لذلك لم يكونوا فى حاجة إلى من يذكرهم بها ، وإن ما كانوا يحتاجون إلى سماعه مراراً وتكراراً هو قصة هؤلاء الأباطرة الأشرار المثيرة للشعور ، وما كان يقوم به الشيوخ الصابرون من أعمال البطولة ، وكفاح تبذله طبقتهم النبيلة ضد السلطة الغاشمة . وليس من حقنا أن نأخذ تاستس بما لم يقدم عليه ، وكل ما من حقنا أن نفعله أن نأسف لضيق هدفه السامى والقيود التى فرضها على عقله الجبار .

وهو لا يدعى قط أنه فيلسوف ، ولذلك تراه يثنى على أم أجركولا حين تحاول أن تثنى عن الاشتغال بالفلسفة ولدها « الذى أصبح أشد تحمساً للفلسفة مما هو خليق بالرومانى عضو الشيوخ[٨] » . ولقد كان خياله وفنه — كما كان خيال شيكسبير وفنه — أنشط وأكثر إبداعاً من أن يسمحا له بأن يفكر وهو هادئ فى معنى الحياة وإمكانياتها . وهو يكثر من ذكر الفضائح التى يعوزها التثبت والتحقيق كما يكثر من ذكر الشروح والتعليقات التى توضح

الحوادث وتنيرها ، ولكننا يصعب علينا أن نجد فى كتبه فكرة متسقة ثابتة عن الله ، أو الإنسان ، أو الدولة . فهو غامض غموض الحلم حين يكتب عن العقائد الدينية ، ويوحى بأن من يقبل دين بلاده أعظم حكمة ممن يحاول أن يستبدل به العلم والمعرفة . وهو لا يصدق معظم المنجمين ، والعرافين ، ولا يؤمن بالفأل ولا بالطيرة ، ولا بالمعجزات ، وإن كان يصدق بعضها . ذلك أن ظرفه وكمال أدبه يحولان بينه وبين إنكار ما يؤكده الكثيرون من الناس . ويقول إن الحوادث تنزع بوجه عام إلى إثبات « أن الآلهة لا تهتم بالأخيار أكثر من اهتمامها بالأشرار »[١٠] ، ويؤمن بوجود قوة مجهولة ، وقد تكون قوة متقلبة الأطوار والميول ، تدفع الناس والدول إلى مصائرها دفعاً لا حول لها أمامه ولا طول[١١] . وهو يأمل أن يكون أجركولا قد انتقل إلى حياة سعيدة ، ولكن يتضح من أقواله أنه يشك فى هذا ؛ وهو يقنع بآخر ما تخادع به العقول الكبيرة نفسها — خلود الشهرة الطيبة[١٢] .

وهو لا يواسى نفسه بشىء من الآمال الطوبية ؛ وفى ذلك يقول : « إن الكثرة الغالبة من خطط الإصلاح يعتنقها الناس فى بداية الأمر بحماسة وغيرة ، ولكن سرعان ما تبلى جـدتها ، وتنتهى مشروعاتها إلى لا شىء »[١٤] . وهو يعترف كارهاً بأن الأمور فى أيامه خير مما كانت قبل ، وإن كان هذا الخير قصير الأجل ، ولكنه يرى أن لا شىء ، حتى عبقرية تراجان نفسه ، ستمنع عودة التدهور والاضمحلال[١٥] ، وذلك لأن رومة قد استشرى فيها الفساد ، حتى سرى إلى قلوب الناس ، ففسدت نفوس الجماهير وبدلوا الحرية فوضى[١٦] ، وأصبحوا رعاعاً « مولعين بكل ما هو جديد ، تتوق نفوسهم إلى التغيير ، وهم على استعداد دائم لأن ينحازوا إلى جانب الأقوياء »[١٧] . وهو يرثى إلى ما ينطوى عليه العقل البشرى من خبث[١٨] ، ويهزأ كما يهزأ چوفنال بالعناصر الأجنبية من سكان رومة . وهو لا يفكر قط فى العودة إلى الجمهورية بعـد أن سوأ سمعة الإمبراطورية ، ولكنه يرجو أن يتمكن الأباطرة من التوفيق بين الزعامة

والحرية[19] . وهو يظن فى آخر الأمر أن الأخلاق أعظم أهمية من الحكومة ، وأن عظمة الشعب لا تقاس بما لديه من قوانين بل تقاس بما فيه من رجال .

وإذا كنا لا نجد مناصاً من أن نضع تاستس فى مصاف أعاظم المؤرخين ، رغم ما يثير دهشتنا من أننا نجد مواعظ ومسرحيات حيث كنا نبحث عن التاريخ ، فما ذلك إلا لأن قوة فنه تعوضه عن ضيق نظرته . فنظرته قوية ، وأحياناً عميقة ، وهى دائماً واضحة ، والصور التى يرسمها أكثر وضوحاً ؛ وهى حين تخطو على مسرح التاريخ أكثر حيوية من أية صور أخرى فى الأدب التاريخى . على أن هذه الصور نفسها لا تخلو من نقائص وعيوب . فتاستس يؤلف من عنده خطباً لشخصياته المختلفة ويؤلفها كلها بطريقته الخاصة وبنثره الفخم . فهو يصف جلياً بالبلاهة ثم ينطقه بما ينطق به الحكماء[20] . وهو لا يرقى إلى ذلك الفن الصعب الذى يمكنه من أن يجعل شخصياته تنمو وتكمل على مر الأيام ؛ فتيبريوس مثلا فى بداية حكمه هو بعينه تيبريوس فى آخره ، وإذا كان يبدو إنساناً رحيما فى البداية ، فإن ذلك فى رأى تاستس نفاق وخداع .

وأهم ما يمتاز به تاستس هو روعة أسلوبه ، فلسنا نجد كاتباً غيره قد قال كل ما قاله بمثل إحكامه . ولسنا نقصد من هذا أن عبارته كانت موجزة فهو على عكس هذا مسهب كثير الاستطراد ، يشغل ٤٠٠ صفحة من تواريخه لتدوين حوادث عامين اثنين . وتراه أحياناً يفرط فى التركيز حتى يبلغ حد التكلف أو الغموض ، وحتى تتطلب كل كلمة ثانية جملة تترجم بها ؛ وكأن الأفعال وحروف العطف عنده ليست إلا عكازات للعقول الكليلة . وهــذا الأسلوب هو النتيجة التى أدى إليها أساوب سالست Sallust الموجز السريع ، ونكات سنكا القصيرة المحكمة ، والجمل القصيرة المتزنة التى كانت تعلم فى مدارس البلاغة . وهو أسلوب ، إذا كتب به كتاب طويل ، ولم تتخلله فقرات أكثر من فقراته اعتدالا ، يثير عقل القارئ وينهكه ، ولكنه مع ذلك يعود إليــه ويزداد به

افتتانا . وهذا الجفاف العسكرى الذى يقتصد فى الألفاظ أكثر مما يقتصد فى الرجال ، وهذا الازدراء بدعامات الجمال ، وهذه المشاعر الثائرة ، وهذا الوضوح فى التصور ، وهذا السيل الجارف من المفردات الجديدة ، وهذه العبارات اللاذعة القاتلة التى لم تبل جدتها ، هذه كلها تضفى على كتابات تاستس سرعة ، ولونا ، وقوة ، لم يضارعه فيها كاتب آخر من الكتاب الأقدمين . نعم إن اللون قاتم ، والمزاج نكد ، والسخرية لاذعة ، والنغمة كلها نغمة دانتى مجردة من رقته وحنوه ؛ غير أن الأثر الذى ينتج من هذا كله قوى عارم . وإن العنصر القصصى الذى يجمع بين المهابة والإثارة ، والجزالة والعنف ، ليحملنا على الرغم من تحفظنا وتمنعنا فى هذا النهر العكر الأسود الملىء بالتشنيع الخالى من الرأفة . فنرى شخصية فى أثر شخصية تظهر على مسرح الحوادث ، ثم يقضى عليها ؛ ومظهراً فى أثر مظهر يدفع أمامنا حتى يبدو لنا أن روما كلها قد دمرت ، وأن كل من اشتركوا فى الصراع قد هلكوا ، وحتى لا نكاد نصدق حين نخرج من هذا الجو الملىء بالرعب والهول ، أن هذا العهد الاستبدادى المفعم بالجبن والفساد الخلقى قد أعقبه مجد الملكية أيام هدريان والأنطونيين ، وتأدب أصدقاء پلنى الهادئ .

ولقد أخطأ تاستس فى ازدرائه الفلسفة — ونعنى بها هنا مراعاة التناسب فى كتابته . وإن عيوبه كلها لترجع إلى هذا النقص . ولو أنه استطاع أن يهذب قلمه ، ويسيطر عليه ، ويسخره لخدمة عقله الواسع ، لوضع اسمه فى مقدمة أسماء أولئك الرجال الذين بذلوا جهودهم ليخلدوا تراث البشرية ، ويصوروا هذا التراث فى صورة حية خالدة .

الفصل الثانى

چـــوڤنال

ومما يؤسف له أن چوڤنال يؤيد تاستس ويعزز أقواله . فالذى يكتبه ثانيهما عن الزعماء والشيوخ فى نثر حاد نافذ فى الصميم ، ينشده أولهما عن النساء والرجال فى شعر لاذع قارص :

كان دسيمس چونيوس چوڤنالس Decimus Junius Juvenalis ابن أحد المعاتقين الأثرياء . وقد ولد فى أكوينم Aquinum من أعمال لاتيوم Latium فى عام ٥٩ . ثم جاء إلى رومة يطلب العلم ، وأخذ يمارس صناعة المحاماة «ليتسلى بها» . وتدل أشعاره الهجائية على ما ينتاب الأذواق الريفية من دهشة وصدمة إذا ما التقت بصخب حياة المدن المنحلة . ولكن يبدو مع هذا أنه كان صديقاً لمارتيال ، الذى تدل فكاهاته على أنه لم يكن من دعاة الأخلاق الفاضلة . وتقول إحدى الروايات غير الموثوق بصحتها إن چوڤنال ألف قبل موت دومتيان بزمن قليل قصيدة هجائية فيها للراقصات من أثر فى البلاط ووزعها على أصدقائه ، ويقال إن باريس الممثل الهزلى الصامت أغضبه هذا فسعى يعمل على نفيه إلى مصر . ولسنا نستطيع أن نجزم بصحة هذه القصة ، كما أننا لسنا واثقين من تاريخ عودة چوڤنال إلى رومة . ومهما يكن من أمر فإنه لم ينشر شيئاً حتى مات دومتيان . وقد ظهر المجلد الأول من قصائده الهجائية الست عشرة فى عام ١٠١ ، ثم ظهر الباقى منها فى أربعة مجلدات على فترات متقطعة فى أثناء حياته الطويلة ، وأكبر الظن أنها كانت ذكريات من عهد دومتيان الذى لم يعف الشاعر عما لحقه من أذى فيه ، ولكن الحقد وهو السبب فى وضوحها وقوتها وارتيابنا فى صدقها ليوحى بأن سنى «الأباطرة الصالحين» القليلة لم تمح المساوئ التى يندد بها . أو لعله

قد اختار الهجاء لأنه من الأساليب التي تميز الرومان من غيرهم من الشعوب . وأنه وجد أمثلة يحتذيها ، ومادة يقتبسها في كتابات لوسليوس ، وهوراس ، وپرسيوس ؛ وصاغ سخطه وغضبه على أساس المبادئ البيانية التي تعلمها في المدرسة . والحق أنا لا نعرف مقدار التقدم الذي خلعه على الصورة التي في ذهننا عن رومة الإمبراطورية ، وما كان يجده الكتاب والشعراء من لذة في التشهير والسباب .

ويتخذ چوڤنال كل شيء موضوعا لشعره . وهو لا يجد قط مشقة في أن يجد في كل شيء ناحية تتحمل الذم ، ويظن « أننا قد وصلنا إلى الدرجة القصوى في الرذيلة ، وأن من يأتون بعدنا لن يستطيعوا أن يتفوقوا فيها علينا » وهو صادق في هذا . ولقد كان أصل البلاء كله طلب الثروة بجميع الوسائل الطيب منها والخبيث . وهو يسخر من العامة الذين كانوا في الأيام الخالية يحكمون الجيوش ويخلعون الملوك ، ولكنهم أضحوا الآن يُشترون بالخبز والألعاب[٢٣] . وتلك عبارات من مئات العبارات التي خلدها چوڤنال بقوته وحيويته . وهو يستنكر ذلك السيل المتدفق من الوجوه ، والثياب ، والأساليب ، والروائح ، والآلهة الشرقية ؛ ويحتج على نزعة اليهود القَبَلية ، وأقل من يحبه من الخلق هو « اليوناني القميء الشره » وهو السلالة المنحطة لشعب كان من قبل عظيما ولكنه لم يكن قط شريفاً . وهو يظهر اشمئزازه من المخبرين ، أشباه رجيلس Regulus الذي يصفه پلني ، والذين يثرون بنقل ما ينطق به الأفراد من عبارات « غير وطنية » ؛ ومن الذين يجرون وراء الوصايا فيحومون حول من لا أبناء لهم من الطاعنين في السن ؛ ومن حكام الولايات الذين يعيشون طول حياتهم عيشة الترف بما يبتزونه من الأموال في أثناء حكمهم ومن المحامين الناهبين الذين يطيلون القضايا كما يطيل العنكبوت نسيجه الذي يتبرزه من بطنه ؛ وأشد ما يعافه هو الإفراط في الصلات الجنسية والشذوذ الجنسي : الخليع المتهتك الذي إذا تزوج وجد أن عهره قد جعله ضعيفاً عاجزاً ؛ ومن الشبان المنافقين الذين لا نستطيع أن نميزهم من النساء لتشبههم بهن ،

فى أخلاقهم ، وتعطرهم وشهواتهم ؛ ومن النساء اللائى يعتقدن أن معنى التحرر أن يتشبهن فى كل شىء بالرجال حتى لا تستطيع تمييزهن منهم .

وقد خص الجنس اللطيف بقصيدته الهجائية السادسة وهى أشد قصائده صرامة . نرى فيها پستيومس Postumus يفكر فى الزواج ، فيحذره چوڤنال من التورط فى هذا العمل ؛ ثم يصور الشاعر نساء رومة ويصفهن بأنهن أنانيات ، سليطات ، مخرفات ، مسرفات ، كثيرات الشجار ، متعجرفات ، مغرورات ، محبات للنزاع ، زانيات لا يكدن يتزوجن حتى يطلقن ، ويستبدلن الكلاب المدللة بالأطفال »[٢٤] . ويخلص من هذا الوصف إلى أنه لا تكاد توجد فى رومة كلها امرأة خليقة بأن تكون زوجة . ويقول إن الزوجة الصالحة عصفور نادر ، أندر من الغراب الأبيض . ويدهشه أن پستيومس يفكر فى الزواج على حين أن هناك « حبالا كثيرة للشنق ، ونوافذ كثيرة عالية شاهقة يستطاع الوصول إليها ؛ وعلى حين أن جسر إيميليوس لا يبعد عنه إلا قليلا » . حذار أن تتزوج ، بل ابق عزبا ، واخرج من مستشفى المجانين الذى يحطم الأعصاب ، والذى يسمونه رومة ، وعش فى بلدة إيطالية هادئة ، تلتقى فيها برجال أشراف ، وتأمن فيها على نفسك من المجرمين والشعراء ، والمبانى المنهارة ، واليونان[٢٧] . واطرح المطامع وراء ظهرك ، فإن الهدف لا يستأهل ما يبذل فى الوصول إليه من جهود . ألا ما أطول الجهد ، وما أقصر ما يعقبه من صيت . عش عيشة بسيطة ، وازرع حديقتك ، ولا تطلب أكثر مما يسد رمقك ، ويطفئ ظمأك ويرد عنك البرد والحر[٢٨] . وعود نفسك الرأفة ، وأشفق على الأطفال ، وكن ذا عقل سليم فى جسم صحيح[٢٩] . والأبله وحده هو الذى يرجو طول الأجل .

وليس من العسير علينا أن نفهم هذا المزاج . ذلك أن مما يسر له الإنسان أن يفكر فى نقائص جيرانه وفى ضعة العالم وحقارته إذا قورن بأحلامنا . وإن مما يضاعف سرورنا ونحن نفكر هذا التفكير أن نرى هــذه الآراء

مصوغة فى ألفاظ چوڤنال التى جمعها من ألسنة الغوغاء فى أزقة المدن وأشعاره السلسة السداسية الأوتاد ، وفكاهته الساخرة ، وأسلوبه البذىء . ولكن ليس من حقنا أن نأخذه بحرفية أقواله . لقد كان يكتب وهو غاضب ، لأنه لم يشق طريقه فى رومة بالسرعة التى كان يرجوها . وكان يحلو له أن يثأر لنفسه بأن يكيل الضربات قوية لكل من حوله مدفوعاً إلى ذلك بحقده الذى لم يدع فى يوم من الأيام أنه حقد عادل . لقد كان معياره الخلقى عالياً وسليما وإن كان قد لوثته أهواء المتحفظين وآراؤهم الخاطئة عن الماضى الطاهر الشريف . وفى وسعنا إذا استمسكنا بهذه المعايير ، واتبعناها فى غير رحمة واعتدال ، أن ندين أى جيل من الناس فى أى مكان . وقد أدرك سنكا قدم هذا اللهو فكتب يقول : « لقد كان أسلافنا يشكون ، ولا نزال نحن نشكو ، وسيظل أبناؤنا وأحفادنا يشكون ، من فساد الأخلاق ، ومن تمكن الشر من النفوس ، ومن تردى الناس فى مهاوى الخطايا كل يوم أكثر من الذى قبله ، ومن أن أحوال الناس تنتقل من سيئ إلى أسوأ منه[٣٠] . إن من وراء الفساد الخلقى الظاهر فى كل مجتمع دائرة من الحياة السليمة يتسع نطاقها اتساعاً مستمراً ويكفى ما فيها من خيوط التقاليد ، وأوامر الدين التى تحض على الخلق الصالح ، وما تفرضه الأسرة من واجبات اقتصادية ، وما تدفع إليه الغريزة من حب الأبناء والعناية بأمرهم ، وما للمرأة ورجال الشرطة من رقابة ، يكفى ما فيها من هذا كله لأن يجعلنا أمام الناس مؤدبين محتشمين عاقلين معتدلين . لقد كان چوڤنال أعظم الهجائين الرومان ، كما كان تاستس أعظم المؤرخين الرومان ، ولكنا نخطئ إذا أخذنا الصورة التى يرسمانها على أنها صورة صحيحة ، كما نخطئ إذا قبلنا من غير بحث وتمحيص المنظر الراقى الجذاب الجميل الذى يتراءى أمامنا ونحن نقرأ رسائل پلنى .

الفصل الثالث

سيد روماني كامل

لما ولد في كومو Como سمي پلينيوس كاسليوس سكندس Plinius Caecilius Secundus . وكان لأبيه ضيعة وقصر صغير ذو حديقة قرب البحيرة ، وكان يشغل منصباً كبيراً في المدينة . وتيتم وهو صغير فتبناه وعلمه أولا ڤرچينيوس روفس Virginius Rufus والى ألمانيا العليا ، ثم عمه كيوس پلينيوس سكنـــدس Caius Plinius Secundus مؤلف كتاب **التاريخ الطبيعي** . وتبنى هذا العالم المجد ابن أخيه وأورثه ملكه ثم مات بعد ذلك بقليل . وتسمى الولد باسم متبنيه كما جرت به العادة في تلك الأيام ، وأدى ذلك إلى ارتباك في الأسماء ظل قائماً ألفي عام . وتلقى العلم في رومة على كونتليان ، فنشأه على تذوق شيشرون ، وإليه يرجع بعض الفضل في أسلوب پلني الشيشروني السلس . ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره قيد في جدول المحامين ، وفي التاسعة والثلاثين اختير لإلقاء خطاب ترحيب بتراچان . وفي السنة نفسها عين قنصلا ؛ وفي عام ١٠٣ عين عرافاً ؛ وفي عام ١٠٥ عين « حارساً على مجرى التيبر وضفتيه وعلى مجاري المدينة » . ولم يكن يأخذ أجراً أو هدايا على أعماله القضائية ، ولكنه كان واسع الثراء ، في وسعه أن يكون كريماً عظيما . وكانت له أملاك في إتروريا ، وبنفنتم ، وكومو ، ولورنتم ، وعرض ثلاثة ملايين سسترس ثمناً لملك آخر[٣١] .

وكان يفعل ما يفعله كثيرون من أشراف ذلك الوقت فيتسلى بالكتابة : كتب أولا مأساة يونانية ، ثم عدة قصائد ، كلها خفيفة الروح ، وبذيئة في بعض الأحيان . ولما لامه بعضهم على هذا اعترف بخطئه ولكنه لم يرجع عنه ، وعرض مرة أخرى أن « يندفع في تيار المرح ، والفكاهة ، واللهو ،

ويندمج فى روح أشد أنواع الأدب خلاعة وفجوراً » (٣٢) . ولما سمع الناس يثنون على رسائله ، ألف بعضها لينشر ، ونشرها فى فترات متقطعة بين عامى ٩٧ ، ١٠٩ . وإذ لم يكن ينشر هذه الرسائل للجمهور فحسب ، بل كان يقصد أيضاً أن تستمتع بها الأوساط التى يصفها فيها ، فقد تجنب وصف النواحى القاتمة من الحياة الرومانية ، وأغفل المسائل الفلسفية والسياسية الواسعة لأن فيها من الجد أكثر مما يتفق مع غرضه . وتنحصر قيمة هذه الرسائل فى صدقها وظرفها ، وفيما تضفيه على الخلق الرومانى وعلى أساليب الأشراف من أضواء وردية براقة .

ويكشف پلنى عن نفسه بنصف الصراحة التى يكشف بها عن نفسه منتانى وبكل ما فى كتابات منتانى من سلاسة التعبير . وهو يتصف بالغرور الذى يستطيع أى مؤلف أن يتحاشاه ، ولكن صراحته فى غروره هذا تجعله غروراً لا يكاد يسىء . انظر مثلا إلى قوله : « إنى لأعترف ألا شىء أقوى أثراً فىَّ من الرغبة فى أن يخلد اسمى » (٣٣) . وهو يقدر غيره كما يقدر نفسه ، ويقول إن « فى وسع الإنسان أن يثق بأن شخصاً ما يتصف بكثير من الفضائل إذا سمعه يعجب بفضائل غيره » (٣٤) . ومهما تكن عيوب پلنى فإن مما يستريح له الإنسان بعد دراسة چوڤنال وتاستس ، أن يستمع إلى مؤلف يثنى على بنى جنسه . ولقد كان كريماً فى أعماله كما كان كريماً فى أقواله ، لا يتردد قط فى أن يفعل المعروف ، ويقرض المال ، أو يقدم الهدايا ، ولا يضن بعمل الخيرات على اختلاف أنواعها ، سواء كانت شخصية كالبحث عن زوج لابنة أخ صديق ، أو زيادة ثروة المدينة التى ولد فيها . ولما وجد أن كونتليان عاجز عن أن يقدم لابنته بائنة تليق بمقام الرجل الذى ستتزوج به ، بعث إليها بخمسين ألف سسترس ، واعتذر فى الوقت نفسه عن حقارة الهدية(٣٥) . ووهب رفيقاً قديماً له فى الدراسة ثلثمائة ألف سسترس ، ليمكنه من أن ينضم إلى طبقة الفرسان ، ولما وجد أن ابنة صديق له حُمِّلَت بعد موت أبيها بديون باهظة أداها كلها عنها ، وأقرض مبلغاً كبيراً إلى

فيلسوف نفاه دومتيان وتعرض بذلك لبعض الخطر . ووهب كومو هيكلا ، ومدرسة ثانوية : ومعهداً للأطفال الفقراء ، وحماماً للبلدية ، وأحد عشر ألف سسترس لإنشاء مكتبة عامة .

وأكثر ما يسر له الإنسان من صفاته هو حبه لموطنه ، أو إن شئت فقل لمواطنه ، وهو لا يذم رومة ، ولكنه يكون أسعد حالا فى كومو أو لورنتم بالقرب من البحيرة أو البحر . وأهم ما كان يعمله هناك هو القراءة وعدم القيام بعمل ما . وهو يحب حدائقه ، وما وراءها من المناظر الجبلية ؛ ولم يكن عليه أن ينتظر روسو ليعلمه حب الطبيعة . وهو يتحدث بمنتهى الحنان عن زوجته الثالثة كلبرنيا Calpurnia فيصف طبعها الحلو ، وعقلها الصافى ، وابتهاجها بنجاحه ، وحبها لكتبه ، ويعتقد أنها قد قرأتها كلها وأنها تحفظ الكثير من صحائفها عن ظهر قلب . وقد لحنت قصائده وغنتها ، وكان لها فرقة خاصة من الرسل يأتونها بجميع ما يحدث من التطورات أثناء نظره فى قضية هامة . ولم تكن هى إلا واحدة من نساء كثيرات طيبات فى محيطه . فهو يحدثنا عما تتصف به فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها من تواضع ، وصبر ، وشجاعة . وكانت هذه الفتاة قد خطبت من وقت قصير ولكنها ما لبثت أن عرفت أنها مصابة بداء عضال لا تشفى منه ، فأخذت تنتظر منيتها وهى مبتهجة [٣٦] . ويحدثنا كذلك عن زوجة بمبيوس سترنينس Pompeius Saturninus التى كانت رسائلها لزوجها أناشيد حب ونماذج باللغة اللاتينية الظريفة [٣٧] ؛ وعن فانيا Fannia ابنة ثرازيا Thrasaea التى قاست آلام النفى دون أن تشكو أو تتململ لأنها دافعت عن زوجها هلفديوس ، والتى مرضت قريباً لها فى أثناء إصابته بمرض خطر ، فأصيبت بذلك المرض وقضى على حياتها ؛ ثم يقول فيها : « ألا ما أكمل فضائلها ، وطهرها ، واستقامتها ، وشجاعتها ! »[٣٨] .

وكان له مائة صديق ، بعضهم من العظماء ، وكلهم من خيار الناس ، وقد

انضم إلى تاستس فى محاكمة ماريوس پرسكس لخيانته وقسوته فى أثناء ولايته على أفريقية . وصحح كلا الخطيبين خطبة صاحبه ، وأثنى عليه أجمل الثناء . وأشاد تاستس ببلنى ورفعه إلى عنان السماء ، حين قال إن عالم الأدب اعترف بهما زعيمى الكتاب فى عصرها(٣٩) . وكان يعرف مارتيال ، ولكنه يعرفه من بعيد معرفة الأرستقراط . واستصحب معه سوتنيوس إلى بيثينيا ، وساعده على التمتع بميزة من « له ثلاثة أبناء » دون أن يكون له ابن واحد . وكان محيطه يطن بهواة الأدب والموسيقى ، وبمن ينشدون الشعر ويلقون الخطب على الجماهير . وفى ذلك يقول العالم بواسييه Boissier : « لست أعرف أن الأدب كان يحبه الناس فى عصر من العصور بالقدر الذى كان يحبه به أهل ذلك العصر »(٤٠) . فقد كانوا يدرسون هومر وڤرجيل على ضفاف الدانوب ؛ وكانت البلاغة تزلزل نهرى الرين والتيمز . لقد كان النصف الأعلى من ذلك المجتمع ظريفاً ، أنيساً ، محبوباً ، غنياً بما فيه من أزواج متحابين ، وآباء عاطفين ، وسادة رحماء ، وأصدقاء أوفياء ، ومجاملات لطيفة . وقد جاء فى إحدى الرسائل : « إنى أقبل دعوتك للعشاء ، ولكنى أشترط عليك مقدماً أن تأذن لى بالخروج بعد قليل ، وأن تكون مقتصداً فيما تقدمه إلى ، وألا تجعل مائدتنا تزدحم إلا بالأحاديث الفلسفية ، وحتى هذه دعنا نستمتع بها فى نطاق محدد »(٤٢) .

وكان أكثر الرجال الذين يصفهم بلنى من الأشراف الجدد الذينَ نشأوا فى الولايات . ولم يكن هؤلاء ممن لا يقومون بعمل ، لأنك لا تكاد تجد واحداً منهم لا يشغل منصباً عاماً أو لا يشترك فى الإدارة البارعة التى كانت تدير شئون الإمبراطورية فى عهد تراجان . وقد عُين بلنى نفسه والياً على بيثينيا بعد أن كان پريتوراً فى رومة ليعيد إلى بعض مدنها مقدرتها على أداء ديونها . وتشمل رسائله بعض الأسئلة الموجهة إلى الزعيم ، ومعها إجابات

تراچان السديدة . وهى تظهر پلنى بمظهر الرجل الذى ينجز مهمته بمقدرة وأمانة ، وشرف ، وإن كانت تظهره أيضاً بمظهر الرجل الذى يعتمد على نصيحة الإمبراطور فى كل صغيرة وكبيرة . وهو يرجو الإمبراطور فى رسالته الأخيرة أن يغفر له إرساله زوجته المريضة فى عربات البريد الإمبراطورى . ويختفى پلنى بعد هذه الرسالة من ميدان الأدب والتاريخ ، تاركاً وراءه ما يعوضنا عن فقده — صورة الرومانى السميذع ، وصورة لإيطاليا فى أسعد أيامها .

الفصل الرابع

اضمحلال الثقافة

لو أننا أحطنا هذه الشخصيات البارزة بأضواء أقل من أضوائها لطمسناها وأخفيناها عن أعين الناظرين . ذلك بأنه لم يخلفها فى الآداب اللاتينية الوثنية جبابرة أمثالها ، لأن العقل قد بذل كل ما كان يدخره من جهد من عهد إنيوس إلى عهد تاستس حتى لم يبق لديه جهد مدخر ؛ ولهذا فإنا نصدم أكبر صـــدمة حين ننتقل من عظمة كتابى **التواريخ** و**الحوليات** إلى كتاب سوتنيوس المزرى المسمى **حياة الرجال النابهين** (١١٠) ؛ فى هذا الكتاب ينحط التاريخ حتى يصبح مجرد سير ، وتنحط السير حتى تصير قصصاً . وتمتلئ صفحات الكتاب بالنذر ، والمعجزات ، والخرافات . ولم يرفع الكتاب إلى منزلة الكتب الأدبية إلا الأسلوب الإليصاباتى الذى ترجمه به فليمون هلند Philemon Holland (١٦٠٦) ؛ وأقل من هذا إثارة للاشمئزاز الانحدار من رسائل بلنى إلى رسائل فرنتو . ولعل هذه الرسائل الأخيرة لم يكن يقصد نشرها ، وليس من العدل لهذا السبب أن نفاضل بينها وبين رسائل بلنى . لكننا يجدر بنا أن نقول إن بعضها قد أفسده جرى الكاتب وراء العبارات العتيقة ، وإن كان فى الكثير منها شيء من العطف الحقيقى الذى يشعر به المعلم نحو تلميذه . وقد أيد أولس جليوس Aulus Gellius حركة الرجوع إلى العبارات العتيقة فى كتابه **الليالى الأتكية** (١٦٩) — وهو أكبر مجموعة من السخافات الحقيرة التافهة فى الأدب القديم ؛ ووصل أپوليوس Apuleius بهذه الحركة إلى غايتها فى كتابه المسمى **الحمار الذهبى** . وقد جاء أپوليوس وفرنتو من أفريقية وربما كان من أسباب نشأة

هذه الهواية أن الأدب اللاتيني فى تلك البلاد لم يكن قد اختلف عن لغة الشعب والجمهورية بقدر اختلافه عن هذه اللغة فى رومة . وكان فرنتو قوى الاعتقاد بأن من الواجب أن يقوى الأدب بلغة الشعب ، كما يجدد الإنسان قوة النبات بتقليب الأرض عند جذوره . لكن الشباب لا يعود قط إلى حياة الرجل ، أو الأمة ، أو الأدب أو اللغة(*) . لقد كانت النزعة الشرقية قد بدأت تدب فى هذه الكتب ، ولم يكن من المستطاع وقف سيرها . وكانت اللغة اليونانية العامية المنتشرة فى الشرق الهلنستى ورومة المستشرقة تصبح شيئاً فشيئاً لغة الأدب ، ولغة الحياة جميعاً . وقد اختارها تلميذ فرنتو ليكتب بها تأملاته ، وكما اختار أپيان Appian ، وهو يونانى إسكندرى اتخذ رومة موطناً له ، اللغة اليونانية ليكتب بها كتابه الواضح الساطع فى تواريخ حروب رومة (حوالى ١٦٠) ؛ وكذلك فعل كلوديوس إيليان Claudius Aelian . وهو رجل رومانى المولد والدم ، وكتب ديوكاسيوس ، وهو رجل رومانى من أعضاء مجلس الشيوخ ، بعد نصف قرن من ذلك الوقت ، تاريخاً لرومة باللغة اليونانية . ذلك أن زعامة الأدب قد أخذت وقتئذ تعود من رومة إلى الشرق اليونانى ، على أن هذه العودة لم تكن عودة إلى الروح اليونانيـــة الأصيلة ، بل إلى الروح الشرقية ، وإن كانت تستخدم اللغة اليونانية . لقد وجد فى الأدب اليونانى بعد هذا الوقت جبابرة ، ولكنهم كانوا قديسين مسيحيين .

وكان اضمحلال الفن الرومانى أبطأ من اضمحلال الآداب اليونانية . ذلك أن الكفاية الفنية قد طال عهدها وأخرجت طائفة قديرة من المبانى ، والتماثيل ، والصور ، والفسيفساء . ومن أمثلة تحف ذلك العصر رأس نيرڤا المحفوظ فى

(*) لا شك أن قياس حياة الأمة ، والأدب ، واللغة بحياة الفرد قياس مع الفارق ، وأن القول بأن شبابها إذا ولى لا يعود قط لا يستند إلى أساس علمى صحيح ؛ فكثيراً ما رأينا شباب الأمم والآداب واللغات يتجدد ويعود أقوى مما كان . (المترجم)

الفاتيكان ، والذى يتمثل فيه الطابع الواقعى الواضح الذى نشاهده فى الصور الفلافية ؛ وعمود تراچان مثـــل من النقوش الرائعة رغم كثرة ما فيه من فجاجة . ولقد بذل هدريان جهوداً مضنية لإحياء الفن اليونانى القديم ، ولكنه لم يجد من يغدق عليه ماله وعونه كما أغدق پركليز المال والعون على فدياس . يضاف إلى هذا أن الإلهام الذى كان يحرك بلاد اليونان بعد مرثون ، ويحرك رومة بعد أكتيوم ، كان معدوماً فى عصر يكبل فيه الناس أنفسهم بالقيود ، ويصطنعون القناعة ويجنحون للسلم . من أجل هذا نرى تماثيل هدريان النصفية تعوزها الصفات المميزة لشخصيته لما فيها من خطوط هلنستية ملساء ؛ ورأسا پلوتينا وسابينا جميلان ، ولكن النفس تشمئز من صور أنتينووس لما فيها من تفاهة مخنثة ناعمة . وأكبر الظن أن هدريان قد أخطأ إذ حاول العودة إلى الفن اليونانى القديم : فقـــد قضى بهذه المحاولة على ما كان يمتاز به فن النحت الفلافى والتراچانى من نزعة طبيعية وفردية دافعة قوية ، كانت لها جذور متأصلة فى التقاليد والأخلاق الإيطالية ، وما من شك فى أن شيئاً ما لا يستطيع أن يتضح إلا عن طريق تحقيق طبيعته الخاصة به .

وقفز فن النحت اليونانى إلى قرب ذروته فى عهد الأنطونيين ، بل إنه وصل فى هذا العهد إلى درجة الكمال مرة واحدة على الأقل ، وذلك فى صورة فتاة مثل فيها رأسها المقنع وثيابها المتواضعة تمثيلا رقيقا ساحراً ، وبخطوط غاية فى القوة[٤٣] . وتكاد تضارعها فى الجمال صورة فوستينا لماركس ، وهى التى تثير من الشهوة ما يتفق مع لمزات التاريخ . وقد نحتت لأورليوس نفسه أو صبت له تماثيل لا تقل أشكالها عن ألف شكل تختلف من تمثال الكپتول النصفى الذى يمثله شابا مفكراً سليما من المكر والخداع ولكنه

شديد الحاسية ، إلى تمثاله فى هذه المجموعة نفسها والذى يمثله فى صورة استاذ ذى شعر ملتو ودروع سابغة . وليس ثمة سائح يجهـل تمثال الإمبراطور أورليوس الفارس ذلك التمثال البرنزى الفخم الذى يشرف ، من يوم أن أعاده ميكل أنجلو ، على ساحة الكپتول .

وبقى النقش البارز إلى آخر العهود فنا رومانيا محبوبا . وعادت فى أيام هدريان العادة التسكانية والهلنستية ، عادة حفر المناظر الأسطورية والتاريخية على التوابيت حين اتخـذ الأمل فى الخلود صورة شخصية بل صورة جسمية ، وحل دفن جثث الموتى محل إحراقها . وتظهر إحدى عشرة لوحة باقية من أقواس النصر التى أقيمت لتخليد ذكرى حروب أورليوس(*) الطراز الطبيعى فى أكمل أشكاله : فليس فى هذه اللوحات صورة واحدة لشخص قد رسم على أنه مثل أعلى للأشخاص ، بل إن لكل فرد فيها خصائصه الفردية التى يمتاز بها من غيره ، فصورة ماركس وهو يستقبل فى غير فخر أو كبرياء خضوع أعدائه المغلوبين صورة يستثير صاحبها الحب ، والمغلوبون لا يظهرون كأنهم برابرة همج بل يبدون فى صورة رجال خليقين بكفاحهم الطويل فى سبيل حريتهم . وقد أقام مجلس الشيوخ والشعب فى عام ١٧٤ عمود أورليوس الذى لا يزال يزين الساحة التى أقيم فيها ، وقد استلهم من أقاموه فكرته من عمود تراجان ، فصوروا فيـه الحروب المركمانية وأظهروا فى فنهم هذا من العطف ما يشرف الغالبين والمغلوبين على السواء .

وكانت روح الإمبراطور هى التى ساعدت على تشكيل فن هذا الوقت وأخلاقه . ذلك أن الألعاب فى أيامه كانت أقل قسوة ، وأن القوانين كانت أكثر رعاية للضعفاء ، وكان الزواج فيما يبدو أدوم وأرضى للزوجين . نعم إن الفساد الخلقى قد بقى كما كان فى كل العهود ، تجهر به القلة ، وتخفيه الكثرة ولكنه كان قد جاوز غايته فى عهد نيرون ، ولم يعـد هو طراز الوقت

(*) وتزين ثمان منها قوس قسطنطين ، وتوجد ثلاث فى متحف الكنسر فتورى .

المحبب ، وأخذ الرجال والنساء يعودون إلى الدين القديم ، أو يهبون أنفسهم لأديان جديدة ، ووافقهم الفلاسفه على هذا وذاك . وغصت رومة وقتئذ بأولئك الفلاسفة ، فنهم من دعاهم أورليوس ، ومنهم من رحب بمجيئهم ، ومنهم من سمح لهم بالإقامة . وقد أفادوا كل الإفادة من كرمه وسلطانه ، فازدحم بهم بلاطه ، ونالوا منه المناصب والهبات ، وألقوا ما لا يحصى من المحاضرات ، وافتتحوا كثيراً من المدارس ، ووهبوا العالم فى شخص تلميذهم الإمبراطور مجد الفلسفة القديمة وانحلالها .

الفصل الخامس

الإمبراطور الفيلسوف

جلس ماركس أووليوس فى خيمته قبل موته بست سنين ليصوغ أفكاره عن الحياة البشرية ومصيرها . ولسنا واثقين من أن كتابه المسمى « **إلى نفسه** » كان يقصد به أن تطلع عليه أعين الجماهير ، ولكنا نرجح أن هذا كان قصده لأن الناس جميعاً ، حتى القديسين ، لا يسلمون من الغرور ، ولأن أعظم رجل عامل مجد تمر به لحظات من الضعف يتمنى فيها أن يكتب كتاباً . ولم يكن ماركس مؤلفاً قديراً ، وقد أضاع معظم ما علمه إياه فرنتو من اللغة اللاتينية لأنه أخذ يكتب باللغة اليونانية . هذا إلى أن تلك « الأفكار الذهبية » قد كتبت فى الفترات التى تتخلل أسفاره ، وحروبه ، وما كان يقع فى البلاد من فتن واضطرابات كثيرة . وليس لنا أن نلومه لأنه جعلها متقطعة غير منسجمة ، ولأنه يعمد فيها إلى التكرار الكثير ، ولأنها فى بعض الأحيان مسئمة مملة ، ولأن قيمة الكتاب لا تعتمد إلا على محتوياته — على رقته وصراحته ، وعلى ما يكشفه دون وعى كامل منه عن نفسية تجمع بين الوثنية والمسيحية ، وبين العصر القديم والعصر الوسيط .

وكان أورليوس يرى كما ترى كثرة فلاسفة زمانه ان الفلسفة ليست وصفاً نظرياً للانهاية ، بل هى مدرسة لتعليم الفضيلة وطريقة للحياة . وقلما كان يشغل باله بالبحث فى حقيقة الله ، وتراه يتحدث أحياناً كما يتحدث اللاأدريون ، فيعترف أنه لا يعرف ، ولكنه بعد أن يقر على نفسه هذا الإقرار يقبل دين آبائه وأجداده بتقوى الرجل الساذج ، ويسأل نفسه قائلا : «وماذا يعود على من حياتى فى عالم خال من الآلهة ومن قوة تصرف شئونه ؟ »[٤٤] وكان إذا

تحدث عن الله تحدث عنه تارة بصيغة المفرد وتارة بصيغة الجمع ، وفى حديثه كل ما فى سفر التكوين من عدم مبالاة . وهو يصلى ويقرب القرابين للآلهة القدامى ، ولكنه فى خبيئة نفسه يؤمن بألوهية الكون ، ويتأثر أشد التأثر بنظام العالم وكلمة الله فيه ، وهو يحس كما يحس الهنود باعتماد العالم والإنسان كل منهما على الآخر . ويثير عجبه نمو الطفل من بذرة صغيرة ، لا تلبث أن تتشكل فتكون لها أعضاء ، وقوة ، وعقل ، وأمانى ، وكل ذلك بقليل من الطعام[٤٥] . ويعتقد أننا لو استطعنا أن نفهم الكون على حقيقته لوجدنا فيه كل ما فى الإنسان من نظام وقوة خالقة مبدعة ويقول : « إن الأشياء جميعها متشابكة بعضها ببعض ، والرابطة التى بينها رابطة مقدسة . . . وفى الأشياء العاقلة كلها عقل مشترك ، وثمة إله واحد يسرى فى كل شىء ، ومادة واحدة ، وقانون واحد ، وحقيقة واحدة . . . وهل يمكن أن يكون فيك أنت نظام واضح ، وفى الكون كله اضطراب واختلال؟ »[٤٦] .

وهو يعترف بما يجده الإنسان من صعوبة فى التوفيق بين الشر والألم والشقاء الذى يبدو أن الإنسان لا يستحقه ، وبين وجود قوة مدبرة خيرة ، ولكنه يعقب على هذا بقوله إننا لا نستطيع أن نحكم على موضع عنصر أو حادثة فى نظام الأشياء إلا إذا رأينا هذه الأشياء كلها ، ومنذا الذى يدعى أنه أوتى القدرة على أن ينظر إلى الأشياء هذه النظرة الجامعة ويدرك علاقتها بعضها ببعض ؟ ولهذا كان من السخف والوقاحة أن نحكم على العالم ؛ وإنما تكون الحكمة فى الاعتراف بعجزنا وفى العمل على أن نكون أجزاء متناسقة مع النظام العام للكون ، وأن نحاول أن نستشف ما وراء جسم العالم من عقل ، وأن نتعاون معه راضين مختارين . ومتى أدرك الإنسان هذه الفكرة أدرك أن « العدل فى كل ما يحدث » أى أنه يحدث وفقاً لمنهج الطبيعة[٤٧] ، ولا يمكن أن يكون شىء يحدث وفقاً لمنهج الطبيعة شراً[٤٨] . وكل شىء طبيعى جميل فى نظر من يفهم[٤٩] ؛ وكل شىء يقرره العقل العالمى العام أى المنطق الكامن فى جميع الأشياء ، وعلى كل جزء أن يرحب ،

فى رضاء وابتهاج ، بنصيبه المتواضع وبمصيره . « والاتزان » (وهو الذى أوصى به أنطونينس ساعة وفاته) هو أن يقبل الإنسان طائعاً مختاراً كل ما تحدده طبيعة المجموع كله »[٥٠] .

« كل ما يوائمنى يوائمك أيها الكون ، وليس شىء يحدث فى الوقت الذى يناسبك يحدث لى مبكراً عن موعده أو متأخراً عنه . وكل شىء تأتى به فصولك أيتها الطبيعة ثمرة ناضجة لى ، كل الأشياء تصدر منك ، وكل الأشياء مستقرة فيك ، وكل الأشياء عائدة إليك[٥١] .

وكل ما للمعرفة من قيمة أنها أداة للحياة الصالحة . « وما الذى يرشد الإنسان ويهديه إذن ؟ لا شىء إلا الفلسفة »[٥٢] — على ألا تكون منطقاً أو علما ، بل تدريباً على السمو الخلق دائما متصلا « كن مستقيما وإلا فلتقوم » [٥٣] . ولقد وهب الله الإنسان ديمونا أو روحا داخلية — هى عقله . والفضيلة هى حياة العقل .

« تلك هى مبادئ النفس العاقلة ، وهى تسرى فى الكون كله ، وتشرف على شكله ، وتمتد إلى الأبدية ، وتحتضن التجدد الدورى لجميع الأشياء ، وتدرك أن من سيخلفوننا لن يروا شيئاً جديداً ، وأن من سبقونا لم يروا أكثر مما رأينا ، بل إن من فى الأربعين من عمره ، إذا كان لديه شىء من الإدراك ، قد رأى بطريقة ما ، وبفضل هذه الوحدة المتناسقة ، كل ما كان وما سيكون »[٥٤] .

ويرى ماركس أن مقدماته تضطره إلى أن يكون من المتزمتين فهو يقول : « ليست اللذة طيبة أو نافعة »[٥٥] . وهو ينبذ الجسم وكل أعماله ويتحدث أحيانا كما يتحدث ماركس أنطونيوس .

« ألا فانظروا إلى حقارة الأشياء وسرعة فنائها ؛ إن ما كان بالأمس قطعة صغيرة ، سيصبح غداً جثة أو رماداً ... ألا ما أقصر حياة الإنسان كلها ، وما أكثر ما يعانيه فيها من متاعب ... ؛ وما أكثر شقاء الجسم الذى يجتازها به ! ... قلبها ظهراً لبطن تر أية حياة هى[٥٦] . والعقل فى رأيه يجب أن يكون

حصناً محرراً من الشهوات الجسمية ، والانفعالات ، والغضب ، والحقد ؛ ويجب أن يكون منهمكاً فى عمله انهماكاً لا يكاد يلاحظ معه تقلبات الحظوظ أو سهام العداوات . « إن قيمة كل إنسان تعدل بالضبط قيمة ما يشغل به نفسه من الأشياء »[٥٧] . وهو يسلم كارهاً بأن هذا العالم أشراراً ، ويقول إن الطريقة التى يجب أن يتبعها الإنسان معهم هى أن يذكر أنهم هم أيضاً رجال ، وأنهم الضحايا العاجزون لأخطائهم التى ارتكبوها مدفوعين بجبرية الحوادث والظروف[٥٨] . « وإذا أساء إليك إنسان ، فالضرر واقع عليه ، ومن واجبك أن تعفو عنه »[٥٩] . وإذا أحزنك وجود الأشرار من الناس ، ففكر فى العدد الكثير من الأخيار الذين التقيت بهم ، وفيما يمتزج فى الأخلاق غير الكاملة من فضائل كثيرة[٦٠] . والناس كلهم إخوة ، أخياراً كانوا أو أشراراً ، وكلهم أبناء الله ينتسبون إليه ، والهمجى البشع نفسه مواطن فى الوطن العام الذى ننتمى كلنا له . « فأنا بوصفى أورليوس تكون رومة وطنى ، وبوصفى رجلا يكون وطنى هو العالم كله »[٦١] . ترى هل هذه فلسفة خيالية غير عملية ؟ كلا ، إن الأمر على عكس هذا تماماً ولا شىء أقوى وأشد منعة من الفطرة الطيبة ، إذا لازمها الإخلاص[٦٢] . إن الرجل الصالح حقاً لا تؤثر فيه مصائب الدهر ، ومهما يصبه من الشر لا يسلبه نفسه :

« هل هذا (الشر) الذى أصابك يمنعك أن تكون عادلا ، كريماً ، معتدلا ، حصيف الرأى . . . متواضعاً ، حراً ؟ . . . ولنفرض أن الناس قد لعنوك ، أو قتلوك ، أو مزقوك إرباً ! فماذا تستطيع هذه الأشياء أن تفعل لتمنع عقلك أن يبقى طاهراً ، حكيما ، متزناً ، عادلا ؟ وإذا وقف الإنسان بجوار نبع رائق صاف ولعنه ، فإن النبع لا يقف عن إرسال الماء النظيف وإذا دنسه أو رمى فيه الأقذار ، فسرعان ما يلقى بها إلى خارجها ولا يتدنس بها مرة أخرى . . . ولا تنس كلما أصابتك كارثة أن تطبق هذا المبدأ القائل : إن ذلك ليس شقاء حل بك ، بل إن الصبر عليه صبر الكرام هو

السعادة بعينها . . . ألا ما أقل الأشياء التى إذا حصل عليها الإنسان استطاع أن يحيا حياة هادئة مطمئنة تشبه حياة الأرباب »[٦٣] .

بيد أن حياة ماركس لم تكن تتصف بالهدوء ؛ فلقد اضطر أن يقتل الألمان وهو يكتب هذا « الإنجيل الخامس » ، وأن يلقى الموت آخر الأمر دون أن يجد عزاء فى الابن الذى سيخلفه ، وألا يكون له أمل فى أن يحظى بالسعادة بعد مماته ، لأن النفس والجسم على السواء ، على حد قوله ، يعودان إلى عناصرهما الأولى :

« فكما أن تبدل الأجسام وانحلالها ، يفسحان المكان لأجسام أخرى كتب عليها الموت ، فكذلك تتبدل الأرواح التى تنتقل إلى الهواء وتتبدد . . . وتتوزع فى عقل العالم الأصلى وتخلى مكانها إلى أرواح جديدة[٦٤] . . . لقد وجدت أنت بوصفك جزءاً من كل . . . وسوف تفنى فى ذلك الذى أخرجك . . . وهذا أيضاً هو ما تريده الطبيعة . . . فاجتز إذن هذه الفترة القصيرة من الزمن حتى تصل هادئاً إلى الطبيعة ، واختم رحلتك وأنت راض ، وليكن مثلك كمثل حبة الزيتون تسقط حين تنضج ، وتبارك الطبيعة التى أخرجتها ، وتثنى على الشجرة التى حملتها»[٦٥] .

الفصل السادس

كمـــودس

ولما أقبل ضابط الحرس يسأل ماركس وهو على فراش الموت عن كلمة السر لذلك اليوم أجابه بقوله : « اذهب إلى الشمس المشرقة ، أما شمسي فهي غاربة » . وكانت الشمس المشرقة وقتئذ فى التاسعة عشرة من العمر ، وكانت هى فتى متين البنية قوى الجسم ، جريئاً ، لا يصده شيء عما يريد ، وليس له وازع من خلق أو خوف . ولقد كان الإنسان يتوقع أن يرى فيه أكثر مما يرى فى ماركس ، القديس العليل ، وأن يراه أكثر مما يرى ماركس ينهج سياسة الحرب إلى النصر أو الموت . لكن الذى حدث أنه عرض من فوره الصلح على الأعداء . وكان ما عرضه من الشروط أن ينسحبوا من الأراضى المجاورة لنهر الدانوب ، وأن يسلموا معظم أسلحتهم ، ويعيدوا جميع الأسرى والفارين من الرومان ، وأن يؤدوا إلى رومة جزية سنوية من الحبوب ، وأن يُقنعوا ثلاثة عشر ألفاً من جنودهم بالتطوع فى الفيالق الرومانية[٦٦] . ولامته رومة كلها على فعلته هذه ما عدا الشعب . فأما قواده فقد استشاطوا غضباً لأنه سمح للفريسة الواقعة فى الشرك أن تفلت منه لتقاتلهم مرة أخرى . على أن قبائل أراضى الدانوب لم تسبب قط متاعب للإمبراطورية فى عهد كمودس .

والحق أن الزعيم الشاب ، وإن لم يكن جبانا خوار العود ، كان قد شهد كفايته من الحروب ، وكان فى حاجة إلى السلم ليستمتع بالحياة فى رومة . فلما عاد إلى عاصمة ملكه انتهر مجلس الشيوخ ، وأثقل العامة بالعطايا التى لم يعهدوا مثلها من قبل — فوهب كل مواطن ٧٢٥ دينارا . ولما لم يجد فى السياسة ميداناً يظهر فيه شدة بأسه عمد إلى صيد الوحوش فى الضياع الإمبراطورية ، وبرع

فى استعمال السيف والقوس براعة اعتزم معها أن يظهرها أمام الجماهير . فغادر القصر وعاش فى مدرسة المجالدين فترة من الزمان ، وأخذ يسوق المركبات فى مباريات السباق ، ويصارع الحيوانات والرجال فى المجتلد[٦٧] . ولا حاجة إلى القول بأن من كانوا يتبارون معه كانوا يحرصون على أن يكون هو الفائز ؛ ولكنه لم يكن يبالى أن يخرج بمفرده قبل الفطور ليقاتل فرس نهر ، أو فيلا ، أو نمراً لا يعبأ قط بالملوك[٦٨] . وقد بلغ من إتقانه الرماية أن استطاع فى استعراض واحد قتل مائة نمر بمائة سهم . فكان يترك النمر يهاجم مجرماً من المحكوم عليهم بالإعدام . ثم يرميه بسهم فيقتله ، ويترك الرجل سليماً يواجه الموت مرة أخرى[٦٩] . وقد أمر أن تسجل هذه الأعمال المجيدة فى صحيفة الحوادث اليومية ، وأصر على أن يؤدى إليه من خزانة الدولة أجر على كل صراع من الألف الصراع التى قام بها .

ولقد كان المؤرخون أمثال تاستس ، الذين لا بد لنا من الرجوع إليهم فى هذا الموضوع ، ينظرون إلى هذه الأعمال بعين الأشراف الحانقين ، ويحكمون عليها حسب تقاليدهم ؛ ولهذا فإنا لا نعرف كم من العجائب التى يروونها تاريخ صحيح ، وكم منها أملته الرغبة فى التشهير به والثأر منه . فهم يؤكدون لنا أن كمودس كان يسكر ويقامر ، ويبدد أموال الدولة ، وأن فى حريمه ثلثمائة امرأة وثلثمائة غلام ، وأنه يحلو له أن يكون امرأة فى بعض الأحيان ، أو فى القليل أن يلبس ثياب النساء حتى فى الألعاب العامة نفسها . وقد رووا لنا عنه قصصاً من القسوة لا يقبلها عقل . فيقولون مثلا إن كودس أمر أحد كهنة بلونا Bellona أن يبتر ذراعه ليبرهن بقطعها على تقواه ، وإنه أرغم بعض النساء اللائى نذرن أنفسهن لخدمة إيزيس أن يضربن صدورهن بثمار البلوط المخروطية حتى يمتن ، وإنه كان يقتل الرجال بلا تمييز بينهم بهراوة هرقل التى كان يمسكها بيده ، وإنه جمع المقعدين وقتلهم بسهامه وحداً بعد واحد . . .[٧٠] ويلوح أن إحدى عشيقاته كانت مسيحية وأنه عفا من أجلها عن بعض المسيحيين الذين حكم عليهم بالعمل فى مناجم سردينية

ويوحى إخلاص هذه السيدة لكمودس بأن هذا الرجل ، الذى كان أشد وحشية من الوحوش الضارية ، لم يكن مجرداً من عناصر طيبة غفل عن ذكرها التاريخ .

وكان خوفه من الاغتيال يدفعه ، كما كان يدفع أسلافه ، إلى أقسى ضروب الوحشية . من ذلك أن عمته لوسلا Lucilla ائتمرت به لقتله فلما كشف المؤامرة أمر بقتلها ، كما أمر بقتل عدد كبير جداً من ذوى المقامات العالية ، ثبت عليهم الاشتراك فى المؤامرة أو حامت حولهم شبهة الاشتراك فيها . وقد بلغ من عدد القتلى أنه لم يكد يبقى على قيد الحياة أحد من ذوى المكانة فى أيام ماركس . وعاد المخبرون إلى نشاطهم ومكانتهم بعد أن كادوا يختفون من رومة قرناً كاملا ، وساد المدينة عهد جديد من عهود الإرهاب . وعين كمودس پرنيس Perennis رئيساً للحرس البريتورى وأسلمه أزمة الحكم ثم استسلم هو (على حـــد قول الرواة) إلى الفسق والفجور ، وحكم پرنيس البلاد حكما حازما ولكنه كان حكما صارما خالياً من الرحمة ؛ فنظم حكما للإرهاب قتل فيـــه جميع معارضيه . وظن الإمبراطور أن پرنيس يعتزم اغتصاب العرش لنفسه ، فأسلم هذا السيچانس الثانى(*) إلى مجلس الشيوخ . وتورط المجلس نفسه فى طائفة من أعمال الانتقام المتأجج الخالى من الرحمة . وخلف پرنيس فى رياسة الحرس البريتورى معتوق يدعى كليندر Cleander(١٨٥) ، وبزه فى الفساد والقسوة ، فكان أى منصب من المناصب يناله من يؤدى نظيره رشوة طيبة ، وكان من المستطاع إلغاء أى حكم تصدره أية محكمة والحصول على حكم يناقضه ، وقد أعـــدم بأمره الشيوخ والفرسان بعد أن اتهموا بالخيانة أو بانتقاد أعماله ، فلما ضاق الشعب به ذرعاً حاصر الغوغاء فى عام ١٩٠ القصر الذى كان يقيم فيه كمودس وطلبوا إعدام كليندر . وأجابهم الإمبراطور

(*) يشبه المؤلف بلوسيوس إيلوس سيجانس رئيس الحرس الإمبراطورى عام ٣١ م ؟ . (المترجم)

إلى ما طلبوا ، وعين ليتس Laetus بدلا منه . وظل ليتس يصرف الأمور ثلاث سنين أيقن بعدها أن منيته قد دنت ، فقد وقع فى يده مصادفة ثبت بأسماء المحكوم بإعدامهم ، وكان يحوى أسماء أنصاره وأصدقائه ومارسيا Marcia . فلما كان آخر يوم من عام ١٩٢ قدمت مارسيا لكمودس كأساً من السم ، ولما أبطأ مفعول السم ، خنقه اللاعب الذى كان قد أبقاه فى الحمام ليثاقفه ، وكان وقتئذ شاباً فى الحادية والثلاثين من العمر .

ولنعد إلى الوراء قليلا فنقول إن رومة حين مات ماركس كانت قد بلغت أوج عظمتها وبدأت فى الاضمحلال . فقد امتدت حدودها إلى ما وراء نهر الدانوب ، ووصلت إلى إسكتلندة ، والصحراء الكبرى ، وجبال القوقاز ، وروسيا ، وأبواب بارثيا ، وكانت قد وهبت هـذا الخليط المضطرب من الشعوب والأديان وحدة ، إن لم تكن فى اللغة والثقافة ، فقد كانت فى القليل وحدة فى الاقتصاد والتشريع . وقد صاغت منها مجموعة عظيمة من الأمم المرتبطة برباط واحد ؛ وكان تبادل السلع يجرى فى داخلها حراً موفوراً بدرجة لم يكن لها نظير من قبل ؛ وظلت قرنين من الزمان تصد البرابرة عن هذه الدولة العظيمة وتهبها الأمن والسلام . وكان عالم الجنس الأبيض ينظر إليها على أنها مركز العالم كله ، وأنها المدينة الخالدة القادرة على كل شىء . ولم يشهد العالم فى عصر من العصور السابقة مثل ما شهده فيها من الثراء ، والعظمة والسلطان .

وفى وسط هذا الرخاء الذى كانت مظاهرة تتألق فى رومة خلال هـذا القرن الثانى كانت تنبت جميع بذور الأزمات التى قضت على إيطاليا فى القرن الثالث . وكانت لماركس اليـد الطولى فى خلق هذه الأزمات لأنه رشح كمودس للجلوس على العرش من بعده ، ولأن ما خاضه من الحروب زاد السلطة تركيزاً فى يدى الإمبراطور . فقد احتفظ كمودس فى زمن السلم بالسلطات التى وضعها أورليوس فى يده زمن الحرب . فذوى غصن الاستقلال الفردى والمحلى ، والابتكار والأنفة

بسبب نماء سلطان الدولة واتساع دائرة اختصاصها ، ونضبت موارد ثروة الأمم بما فرض عليها من الضرائب التي أخذت أعباؤها تزداد زيادة مستمرة على مر الأيام ، لكي تقام بها بيروقراطية تضاعف نفسها ، وبسبب حروب العدوان التي ما فتئت الدولة تثير عجاجها للدفاع عن نفسها . وأخذت ثروة إيطاليا المعدنية تتناقص(٧) ، وقضت الأوبئة والمجاعات على الكثيرين من أهلها ، وظهر عجز نظام الزراعة باستخدام الأرقاء ، وأقفرت خزانة الدولة من الأموال وانحطت قيمة العملة بسبب الزيادة المطردة في نفقات الحكومات وفي إعانة العجزة والمساكين . وأخذت الصناعات الإيطالية تخسر أسواقها في الولايات لمنافسة الولايات نفسها لهذه الصناعة ، ولم توضع قط سياسة اقتصادية حكيمة لتعوض البلاد عن التجارة الأجنبية الكاسدة بتوزيع قوة الشراء في داخل البلاد على نطاق أوسع من ذي قبل . وبينا كان هذا يحدث في إيطاليا نفسها كانت الولايات قد أخذت تفيق مما أصابها من جراء انتزاع ثروتها على أيدي صلا ، وبمبي ، وقيصر ، وكاسيوس ، وبروتس ، وأنطونيوس ؛ فعاد إليها حذقها القديم ، وازدهرت صناعاتها ، وأخذت ثروتها الجديدة تعين بالمال العلم والفلسفة والفن . وسد أبناؤها ما حدث في الفيالق من فراغ ، وعقدت أولوية هذه الفيالق للقواد من أهلها ؛ وما لبثت جيوش الولايات أن وضعت إيطاليا تحت رحمتها وعينت قوادها أباطرة ، وانقضى عهد الفتوح وانقلبت الآية وأخذ المغلوبون من ذلك الحين يتعلون الغالبين .

وكأنما أدرك عقل رومة هذه النذر والمشاكل ، فاستسلم في أواخر أيام الأنطونيين إلى عهد من الكلل الثقافي والروحي . وكان حرمان الجمعيات الشعبية أولا ثم مجلس الشيوخ بعدئذ من سلطانها حرمانا يكاد أن يكون كاملا قد ذهب بالحافز الذهني الذي ينبعث من النشاط السياسي الحر ، ومن الشعور الواسع الانتشار بالحرية والسلطان : وإذ كانت السلطة كلها تقريباً قد تركزت في يد الزعيم فقد ألقى المواطنون عليه التبعة كلها تقريباً ، فانزوى عدد متزايد

منهم فى أسرهم ، وقصروا جهودهم على شئونهم الخاصة ، وأصبح المواطنون ذرات ، وأخذ المجتمع يتمزق من داخله إرباً فى الوقت الذى لاح فيه أن الوحدة على أتم ما تكون . وخاب رجاء الناس فى الملكية ، كما خاب رجاؤهم من قبل فى الدمقراطية ، وكثيراً ما كانت « أفكار » أورليوس « الذهبية » أفكاراً من الرصاص ، يزيدها ثقلا ظنه أن مشاكل رومة مستعصية على الحل ، وأن البرابرة الذين يتضاعف عددهم بلا انقطاع لن تستطيع سلالة عظيمة جانحة إلى السلم أن تصمد لهم زمناً طويلا . وأخذت الرواقية ، التى بدأت عهدها بالدعوة إلى القوة ، تدعو الآن إلى الاستسلام للمقادير ، وعقد الفلاسفة كلهم تقريباً الصلح مع الدين . وبعد أن ظلت الطبقات العليا أربعمائة عام تتخذ الرواقية بديلا من الدين ، أطرحت هذه الطبقات الآن ذلك البديل ، وأدارت الفئة الحاكمة ظهرها إلى الفلاسفة وولت وجهها شطر مذابح الآلهة . على أن الوثنية هى الأخرى كانت تلفظ آخر أنفاسها . فقد كانت كإيطاليا تنتعش بفضل المعونة الحكومية ، فلما امتنعت عنها هذه المعونة أوشكت قواها أن تخور ؛ لقد غلبت هى الفلسفة ، ولكن أرباضها أخذت قبل ذلك العهد تستمع فى خشوع إلى أسماء الآلهة الغازية . وكان هذا العصر عصر البعث للولايات والنصر المؤزر الذى يتجاوز حدود العقل للمسيحية .

المراجع مفصلة

الأرقام الرومانية الكبيرة تدل على رقم المجلد تتلوها أرقام الصفحات ، أما الأرقام الرومانية الصغرى فتدل على رقم الكتاب أو المقال فى الكتاب القديم يتلوها رقم الباب أو الآية وأحيانا رقم الفقرة .

CHAPTER XI

1. Suetonius' "Augustus," 33.
2. Dio, liv, 17.
3. Ibid., lv, 4.
4. Suetonius, 40.
5. Gibbon, E., *Decline and Fall of the Roman Empire*, ed. Bury, I, 65.
6. Suetonius, 23 ; Dio, lxi, 17.
7. Plutarch. *Moralia*, 207 D.
8. Charlesworth, M., *Trade Routes and Commerce of the Roman Empire*, 8.
9. Suetonius, 41.
10. Ibid., 42.
12. Augustus, *Res gestea*, iii, 21.
13. Dio, lv, 25.
14. Suetonius, 68.
16. Pliny, xiv, 5.
18. Cf. Himes, N., *Medical History of Contraception*, 851 and 188.
19. Dio. liv, 19.
20. Tacitus, *Annals*, xv, 19.
21. Ibid., iii, 25.
22. Horace, *Odes*, iii, 24.
23. Davis, *Influence of Wealth*, 304.
24. Gellius, x, 2.2.
25. Ibid.
26. Dio, lv, I.
27. Ovid, *Ars Amatoria*, 637.
28. Augustus, *Res gestae*, ii, 10.
29. Buchan, 286.
30. Suetonius, 76-83.
31. Ibid., 81 ; Dio, lii, 30.
32. Suetonius. 76.
33. Ibid., 84.
34. Ibid., 90-2.
35. Ferrero, IV, 175.
36, Plutarch, *Moralia*. 207C
37. Suetonius, 64.
38. Dio, lvii, 2.
39. Suetonius, 64.
40. Macrobius, *Saturnalia*, ii, 5, *ad finem* : "I never take on a passenger unless the vessel is alredy full."
41. Seneca, *Moral Essays*, III, vi. 32. 1.
42. Suetonius, 99.

CHAPTER XII

1. Macrobius, ii, 4.
2. Horace, *Epistles*, ii, 1. 117.
3. Juvenal, *Satires*, i, 2 ; iii, 9.
4. Martial, *Epigrames*, i, 67, 118 ; Friedländer, III, 37.
4a. Lanciani, *Ancient Rome*, 183.
5. Ovid., *Tristia*, i, 1.105.
6. Tacitus *De oratorisbus*, 13.
8. Virgil. *Eclogues*, i, 46.
9. Ibid., i, ix.
10. Suetonius, *On Poets*, "Virgil,"9.
11. Vipgil, *Georgics*, iii, 284.
12. Ibid., i, 145.
13. II, 490.
14. In Duff, *Literary History of Rome*, 455.

15. *Georgics*, iii, 46.
16. *Aeneid*, vi, 860 f ; Suetonius, "Virgil," 31
17. *Aeneid*, ii, 293.
18. Ibid., iv, 331-61.
19. VI, 126·
20. VI, 852.
21. IV, 508.
22. Suetonius, 230.
23. Ibid., 48.
24. Voltaire *Philosophical Dictionary*. art. *Epic Poetry*.
25. Suetonius, *On Poets*, "Horaçe"
26. Horace, *odes*, iii, 2.
27. *Epodes*, ii, 241.
28. *Satires*, i, 1.
28a. *Epistles*, i, 16 ; Rostovizeff, *Social and Ecomomic of the Roman Empire Empire*, 61.
29. Horace, *Satires*, ii, 5.
30. Ibid., ii, 7.105.
31, Ibid., 23.
32. I, 1.69.
33. *Odes*, ii, 10.
34. *Satires*, i, 1.105.
35. Ibid., ii, 1.1,
36. *Odes*. iii, 29.12.
37. *Satires*, ii. 660.
39. *Odes*, iii, 16.29.
40. *Epodes*, ii, 1.
41. Petronius, *Satyricon*, 118.
42. *Odes*, ii, 11.
43. I, 9.
44. I, 28.
45. I, 35.
46. III, 30.
47. *Ars poetica*, 139.
48. Ibid, 343.
49. Ibid., 102.
50. *Epistles*, i, 6.1.
51. *Odes*, ii, 3.
52, Ibid., ii, 10.
53. *Satires*, ii, 7,83.
54. *Odes*, iii, 3.
55. *Epistles*, i, 4. 16 ; cf. i, 17
56. *Satires*. ii, 6.93.
57. *Epistles*, ii, 2.55.
58. *Odes*, ii, 14.
59. *Satires*, i, 1.117.
60. *Epistles*, ii 2.214.
61. *Odes*, ii, 17.
63. Taine, H., *Essai sur Tite Live*, *I*.
64. Pliny, *Natural History*, dedication.
65. Taine, I.c., 10.
66. E.g., Livy, ii, 48.
67. E.g., cf. Livy, xiv, 12 with Polybius, xxxix 27 ; or Livy, xxiv, 34 with Polybius, viii, 5,
68. Pliny, *Letters*, ii, 3.
69. Tibullus, i, 1.
70. Ibid., i, 6.
71. I., 3, 10.
72. Propertius, ii, 57.
73. Ibid.. ii, 6.
74. I, 8.
75. Ovid, *Trisia*, iv, 10.
76. Ovid. *Ars amatoria*, 167.
77. Ibid., 99.
78. Ibid, 171.
79. *Amores*, ii, 4.
80. Ibid., i 1 ; ii, 18.
81. II, 1.
82. I, 4.
83. II, 5.
84. II, 10.
85. III, 7 ; ii, 10.
86. *Ars amatoria*, 97.
90. *Remedia amoris*, 183.
91. Ibid., 194.
92. *Heroides*, iv.
93. *Tristia*, ii, 103.
94. *Ex Ponto*, iv, 641.

5. *Tristia*, i, 1.iii 8.

16. Ibid., iii, 3.15 ; *Ex Ponto*, I,447.

CHAPTER XIII

1. In Holmes, *Architect of the Roman Empire*, 108.
2. Suetonins, "Tiberius." 68.
3. Ibid., 69.
4. Tacitus, *Annals*, i, 11.
5. Suetonius, 23.
6. Dio, lvii, 18.
7. Ibid., 6; Suetonius; 30 ; Tacitus,
8. Suetonius, 27.
9. Tacitus, l.c.
10. Suetonius, 32.
11. Ferrero, G., *Women of the Casears*, 136.
12. Tacitns, ii, 50.
13. Ibid., iv, 57.
14. Dio, lvii, 11.
15. Ferrero, *Women*, 140.
16. Tacitus, iv, 57; Suetonius, 42-4.
17. CAH X. 638.
18. Tacitus, iv, 68.
19. Suetonius, 60.
20. Tacitus, iv, 70.
21. Ibid., vi, 50.
22. Mommsen, T., *Provinces of the Roman Empire*, II, 187.
23. Josephus, *Antiquities*, xix, 1.15.
24. Suetonius, "Gaius," 50-1.
25. Ibid.
26. Dio, lix, 5.
27. Suetonius, "Gaius," 29, 32.
28. Dio, lix, 26.
29. Suetonius, 24.
30. Ibid.
31. Sencecs *Ad Helviam*, x. 4.
32. Suetonius, 40.
33. Ibid., 38.
34. Ibid., 30.
35. Dio. lix, 3.
36. Suetonius, 27.
37. For a defense of Caligula cf. Balsdon, *The Emperor Gausi* 33 etc.
39. Dio, lix, 28.
40. Balsdon, 161.
41. Ibid., 168.
42. Dio, lix, 29.
43. Suetonius, "Claudius," 29.
44. Dio, lx, 10.
45. Suetonius, 21.
46. Senca, *Apoclocyntosis*, 3.
47. Tacitus. xii, 53.
48. Suetonius, 28.
49. Brittain. 244.
50. Suetonius, 37 ; Dio, lx, 14.
51. Suetonius, 50.
52. Dio, lx, 18.
53. Tacitus, xi, 18.
54. Ibid., 25.
55. Dio, lxi, 31.
56. Ferrero, *Women*, 226.
57. Buchan, 247.
58. Tacitus, xi, 25.
59. Pliny, *Nat, Hist.*, ix, 117.
60. Tacitus, xiii, 43.
61. Dio, lxi, 34.
62. Ibid., 2.
63. Suetonius, "Nero," 52.
64. Dio, lxi, 3.
65. Tacitus, xiii, 4.
66. Henderson, B., *Life and Principate of the Emperor Nero*, 75.
67. Tacitus, xv, 48.
68. Suetonius, 56.
69. Ibid., 27.
70. Tacitus. xvi, 18.
71. Dio, lxii, 15; 7 lxi, Suetonius, 26.
72. Dio, lxii, 14 ; Tactitus. xiv, 5. adds that some writers question the story.

73. Tacitus, xiv, 10.
74. Ibid., xiii, 3.
75. *Suetonius*, 20.
76. Ibid., 41 ; Dio, lxiii, 26.
77. Suetonius, 52.
78. Ibid., 11.
79. Tacitus, xiv, 60.
80. CAH, X, 722.
81. Tacitus, xv, 44.
82. Ibid., xiv, 6 ; Suetonius, 25.
83. Dio, lxii, 27; Suetonius, 27.
84. Tacitus xvi, 18.
85. Suetonius, 22.
86. Ibid.
87. Dio, lxiii, 28.
88. Suetonius, 43.
89. Ibid , 57.
90. Sutonius, "Galba," 23.
91. Tacitus, *Histories*, i, 49.
92. Suetonius, "Otho," 6.
93. Tacitus, *Hist.*, iii, 67.
94. Suetonius, " Vitellius," 17.
95. Suetonins, "Vespasian," 18.
96. Ibid., 16.
97. Dio, lxv, 14.
98. Suetonius, 18.
99. Ibid., 21.
100. Tacitus, *Hist*, ii, 2.
101. Suetonius. 23-4.
102. Snetonius, "Titus," 8.
103. Suetonius, "Domitian," 18.
104. Dio, lxvi, 26.
105. Suetonius, 22; Dio, lxvii, 6.
106. Frank, *Economic Survey*, V, 56.
107. Dio. lxvii, 14.
108. Suetonius, 10.

CHAPTER XIV

1. Lucan, *Pharsalia*, ii 67.
2. Ibid., i, 128.
3. Petronius, *Epigrams*, frag. 22 in Robertson, J. M., *Short History of freethought*, I, 211.
4. Petronius, *Satyricon*, 11.
5. Ibid, 48.
6. 71.
7. 35, 40, 47.
8. 74.
9. Seneca in Boissier, G., *La réligion romaine*, II, 204.
10. Tacitus, *Annals*, xiv, 59; xvi, 34.
11. Lucian, *Icaromenippus*, 4.
12. Seneca, *Epistulae Morales*, xii; *Moral Essays*, III, vii, 11.1.
13. Monroe, *Source Book*, 401.
14. Quintilian, *Institutes*, x, 1.125.
15. Dio, lxii, 2.
16. Friedländer., III, 238.
17. Tacitus, *Annals*, xiii, 42.
18. Sencecs, *De vita beata*, xvii-xvii.
19. Davis, *Influence of Wealth*, 164.
20. Seneca, *Epist* xv.
21. *De vita beata*. xv.
22. *De clementia*, i, 3.
24. *Epist* vii.
25. Tacitus, *Annals*, xviii, 2.
27. Boissier, *Tacitus*, 11.
28. Seneca, *Epist*, lxxvi.
30. Seneca, *Epist.*, lxxv.
31. Ibid., vii.
32. XXVI.
33. *De providentia*, ii, 6.
34. *Epist.*, xli.
36. *De providentia*, v. 8.
37. *Epist.* xxxi.
38. Ibid., ce; *ad Marciam*, xxiv, 3.
39. In Henderson, *Nero*, 309.
40. *Epist.*, lxxii and iii.
41. Ibid., lxxii.
44. XXXIII.
45. *De brevitate vitae*, xiv.
46. *Epist.*, lxix.

47. Ibid., ii.
48. VII ; XXV.
49. XXIII.
50. LXX.
51. *De ira*, v. 15.
52. *Epist.*, lviii.
53. Ibid., lxi.
54. *De ira*, ii, 34.
55. *Epist*, i, lxi.
56. Tertullian, *De anima*, xx.
57. In Acton, Lord, *History of Freedom*, 25.
58. *Epist.*, xxxi.
59. Gummere, R. M. *Seneca the Philosopher*, 131.
60. Seneca, *Medea*, 364.
61. *Quaestiones naturales*, vii, 30-33.
62. Ibid., vii, 25, 30.
63. Pliny, xxxvi, 15.
64. Ibid., ii, 5.
65. Plutarch, "Sertorius."
66. Pliny's *Letters*, iii, 5.
67. Pliny, *Nat. Hist.*, iii, 6.
68. Ibid., ii, 5.
69. II, 30.
70. II. 33.
71. II, 6, 64.
72. II, 90-92.
73. II, 63.
74. XXXIV, 39.
75. XXXVII, 27.
76. XIX, 4.
77. XVIII, 76
86. Pliny, ii, 5, 117.
87. XXXIII. 18.
88. II, 5.
89. VII, 56.
90. XXVIII, 7.
91. VIII, 67.
92. VII, 13.
93. XVIII, 78 f.
94. II. 57.
95. Jones, W. H. S. *Malaria and Greek History*, 61.
96. Pliny's *Letters*, i, 12.
97. Castiglione, 237.
98. Tacitus *Hist.*, iv, 81; Suetonius pasian" 7.
99. Dill, Sir S. *Roman Society from Nero to Marcus Aurelius*' 92.
100. Pliny, *Nat. Hist.*, xxix, 8.
101. Luncian, "To an Illiterate Book-Fancier," 29.
102. Pliny, xxvi, 7 - 8 ; Castiglione, 200 ; Garrison, *History of Medicine*, 106.
103. Castigolione, 238,240.
104. Ibid., 226.
105. Soranus in Friedländer, I 171.
106. Castiglione' 237 ; Garrison, 118.
107. Bailey, C., *Legacy of Rome*, 291; Williams, H.S., *History of Science*, I, 274.
108. Pliny, xxviii, 2.
109. Ibid., 8.
110. Garrison, 119.

116. Bailey, 284.
117. Quintillian, vi, pref.
118. I, 12. 17.
119. I, 10-36.
120. X, 3.9, 19.
121. X, 4.1.
122. II, 12.7.
123. II, 6.21.
124. Juvenal, vil, 82.
126. Martial, xi, 43, 104.
127. II. 53.
128. IV, 49.
129. I, 16.
130. X, 4.
131. IV, 4.
132. IX, 37.
133. I, 32; III, 65.
134. I, 32.
135. E g., ix, 27.
136. XI, 16.
137. III, 69.
138. Pliny's *Letters*, iii, 21.

CHAPTER XV

1. Columella, *Dere, rustica*, i 3.12.
2. In Davis, *Influence of Wealth*, 144.
3. Pliny, *Nat. Hist.*, xvii 4; Heitland 224. Frank, *Economic Survey*, V. 176.
4. Columella, iii, 3.
5. Strabo, v. 4. 3.
6. Frank, V, 158.
7. Pliny, xv, 68-8?.
8. Columella, iii, 8.
9. Rostovtzeff, *Roman Empire* 182-3
10. Suetonins, "Domitian," 7.
11. Cato *De agricultura*, 144.
12. Pliny, xix, 2.
13. Paul-Louis, 274-6.
14. Tacitus' *Agricola*, 12.
15. Pliny, ii, 108-9.
15a Ammianus Marcellinus, xxii.4.15
16. *Encyclopaedia Britanica*, V,868.
17. Paul-Louis, 287.
18. Frank, V, 229.
19. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 252.
20. Haskell. H. J., *New Deal in Old Rome*, 24-6.
21. Scott. S. P.' *Civil Law*, Fragments of Ulpian in Justinian, *Digest*, iii, 2.4.
22. Friedländer, I, 289-91.
23. Gibbon, Everyman Lib. ed., I. Bailey, *C., Legacy of Rome*,158.
24. Seneca *Ad Helviam*, vi.
25. Plutarch, *Maralia*, "On Exile," 604A.
26. Hallidy, W. R', *Pagan Background of Early Christianity*, 88.
27. Josephus, *Life*, p. 511.
29. Athenacus, ii, 239.
30. Josephus, *Life*, p. 511.
31. Mommsen, *Provinces*, II, 278.
32. Friedänder I, 286.
33. Pliny, xix, I, 4.
34. Ibid., ii, 57.
35. Cf. the crane pictured on the tomb of the Haterii in the Lateran Museum Rome, in Wickhoff. F. *Roman Art*, p. 60; cf. also Gest, 60, and Bailey. 462.
36. Reid, *Municipalities*, 28.
37. Gest, 110-131.
38. Pliny. xxxvi, 24.
39. Bailey, 290.
40. Frontinus, *Stratagems*, iii, 1.
41. Frontinns, *Aqueducts*, ii 75.
42. Ibid., i 16.
43. In Friedländer I, 18.
44. Carter, F., *Invention of Printing* 86; Gibbon, Everyman ed., I 55.

45' Tarn, W. W., *Hellenistic Civilization*, 206.
46. CAH, X, 417.
47. Strabo, xvii, 1.3.
48. Pliny' vi, 26, computes Rome's annual payment to India at 550,000,000 sesterces ; but this is probably an exaggeration for elsewhere (xii, 41) he estimates the yearly loss of Rome to India, China, and Arábia at 100,000,000 sesterces each.
49. Hallliday, 97.
50. Tacitns, *Annals*, vi, 16 - 17 : Suetonius, "Tiberius." 48 ; Davis, *Influence of Wealth*, 1 Renan, in *Lectuces on the Influence of Rome on Christianity*,25, and *The Apostles*, 170 cempares Tiberius' relief measures to the Orédit Foncier of France in 1852 ; and Haskell compares the situation with the "easy money" period in the United States, 1923 - 9. the crisis of 1929, and the Reconstruction Finance Corporation (*The New Deal in Old Rome*, 183, 188).
51. Ovid *Gasti*, i 191.
52. In Toynbee, B., *Study of History*, I. 41 n.
53. Davis, a42.
54. Beard, M., *History of the Business Man*, 47.
55. Athenaeus, vi, 104.
56. Seneca *De Clementia*, i 24.
56a. Sandys, Sir J., *Companion to Latin Studies*, 354.
57. Pliny, vii, 40.
58. Friedländer, II, 221.
59. Boissier, *La réligion romaine*, II, II, 330.
59a. Sence *De ira*, III. 3.
60. Juvenal, vi, 474.
61. Ovid, *Ars amatoria*, 735;*Amores*, I, 14.
62. In Holmes, *Architect of the Roman Empire*, 132.
63. Dill, 116.
64. Statius, *Silvae*, ii, 6.
65. Seneca, *Epist.*, xlvii, 13.
66. Dill 117.
68. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 105 ; Reid, 323, 521. 323, 521.
69. Toutain, 304.
70. Frank, *Ecoomic Survey*, V, 235.
71. Frank, *Economic History*, V, 235.
72. Petronius, 44.
73. Rostovtzelt, 172 ; Declareul, J., *Rome the Law Giver*, 269.
74. Pliny, xiii, 23.
74. Pliny, xiii, 23.

CHAPTER XVI

1. Seneca in Friedlander, II, 321.
2. Livy, xxiv, 9 ; Pliny's *Letters*,
3. Strabo, v, 3.8.
4. Juvenal, iii, 235-244.
5. Ibid., v, 268.
6. Martial, cxvii, 7.
7. Friedländer, I, 5.
8. Pliny, xxxv, 45.
9. Friedländer, II, 317, 330.
10. Mau, A., *Pempeii*, 231 ; Rostovzeff, *Roman Empire*, 135 ; Gest
11. Vitruvius, *De architectura*, II, 21.
12. Seneca, *Epit.*, cxxii.
13. Juvenal, iii, 223.
14. Pliny's *Letters*, ii, 17 ; v. 6.
15. Juvenal, iii, 223.
16. In Boissier' *Rome and Pompeii* 119
17. Pliny, *Nat Hist.*, xxxii, 45.
18. Boissier, *Tacitus*, 223.

18a. N. Y. *Times*, Apr. 27, 1943.
19. Man, 414.
20. Pliny, xxxv, 66; Strabo, xvi, 25.
21. Winckelmann, J., *History of Ancinet Art*, II. 312.
22. Reid' 278.
23. Cf. Strong. *Art in Ancient Rome*, II, fig. 341.
24. Valerius Maximus, *Factorum et dictorum*, viii, 14.
25. Pliny, xxxv, 37.
26. Cf. Maiuri, A., *Les fresques de Pompcii*, Table XXXIII.
27. Cf. Rostovtzeff, *Mystic Italy passim*.
27a. Pliny, xxxv. 40.

CHAPTER XVII

1. Juvenal, v, 141.
2. Petronius in Henderson, *Nero*, 326.
3. Seneca *Ad Marciam*, xix, 2.
4. Juvenal, vi, 367.
5. Friedländer, I, 238.
6. Cf. Pliny, xxxiv, 11: "They say that if the male organ is rubbed with (oil or gum of) cedar just before coitus, it will prevent impregnation." Cf. also Humes, 85 f, 186.
7. Juvenal, vi, 592.
10. Gatteschi. G., *Restauri della Roma Impeirale*, 64.
11. Gibbon, I, 42; Friedländer, I, 17; Sandy 355 - 7; Davis, 196; Paul-Louis, 15, 227.
12. Tacitus, *Annals*, xiii, 27.
13. Vogelstein, H., *Rome*, 10.
14. Cicero, *Pro L., Flacco* 28.
15. Edersheim, A., *Life and Times of Jesus the Messiah*, I, 67.
16. Tacitus, *Annals*, ii, 85; suetonius "Tiberius, 36.
17. Dio, lvii, 18; Schürer, *History, of the Jewish People* Div. II, Vol. II, 234,
18. Vogelstein, 17.
19. Ibid., 31, 33; Renan, *Lectures*, 50
20. Tacitus, *Annals*, ii, 89; Ammanianus, M., xxii, 5.
21. Dill, 83-4.
22. Dio, ix, 33.
23. Martial, vii., 30.
24. Juvenal, iii, 62.
25. In Bailey, 143.
26. Tacitus, xiv, 60.
27. Juvenal, xiv, 44.
28. Gellius, xii, 1.
29. *Enc. Brit.*, X, 10.
30. Horace, *Satires*, i 6.75.
31. Pliny's *Letters*, ii, 3.
32. Petronius, 1.
33. Pliny's *Letters*, iv. 3.
34. Ovid, *Ars amatoria*, 98.
35. Juv., ix, 22.
36. Minucius Felix, *Octavius*, 67; Tertullian, *Apology*, 15.
37. Horaces, *Epodes*, xi.
38. Martivl, viii, 44; xi, 70, 88, etc.; Juv., ii, vi' ix.
39. In Friedländer I, 234.
40. Seneca the Elder, *Controversiae* in Friedländer, I, 241.
41. Seneca, *Ad Helviam*, xvi, 3; *Ad Marciam*, xvi 3.
42. Ovid, *Amores*, i, 8:43; iii, 4-37.
43. Friedländer, I, 241.
44. Juv., vi, 228.
45. Ibid., 281.
46. t, 22.
47. Boissier, *La rëligion romaine*, II, 197.
48. Juv., vi, 248.
49. Martial, *De spectaculis*, vi'
50. Statius, *Silvae*. i. 6.
51. Seneca, *Moral Essays*, i 9.4.
52. Ovid *Ars amatoria*, 113.

53. Martial, x 35.
54. Ibid., i, 14.
55. Tacitus, *Annals*, xvi, 10.
56. Friedländer, I, 265.
57. Tacitus, xiv, 5.
58. Martial, vi, 57.
59. Catullus, lxxxvi.
60. Ovid *Ars*, 158; Kohler, K. *History of Costume*, 118; Pfuhl, E. *Masterpices of Greek Drawing*, Fig. 117.
61. Tibullus, i, 8.
62. Juv., vi, 502.
63. Pliny, xxxiii, 12.
64. Guhl and Konar, 498.
65. Martial, ix, 63.
66. Ovid, *Ars*, 160.
67. Pliny, ix, 63.
68. Ibid., xxxviii, 12.
69. IX, 58.
70. Friedländer, II. 181.
71. Pliny, xxxiii, 18.
72. Seneca, *Epist.*, lxxxvi.
73. Pliny, viii, 74.
74. Quintilian, 3.
75. Galen in Friedländer, II, 227. The remainder of this chapter is particularly indebted to Friedländer's devoted accumulation of Roman mores.
76. Juv., vii, 178.
77. Jones, H.S., *Companion to Roman History*, 116; Friedländer, I, 12.
78. Seneca, *Epist.* lxxvi.
79. Ker, W.C., in Martial, I, 214n.
80. Gardiner, E. N., *Athletis of the Ancient World*, 230.
81. Pliny, xxviii, 51.
82. *Journal of the American Medical Association*, Aug. 1, 1942, 1089.
83. Ovid, *Ars*, 165; *Tristia*, ii, 477-80.
84. Pliny, viii, 51 77.
85. Ibid., ix, 30, 31.
86. Ibid., 89.
87. VIII, 82.
88. VIII, 77.
89. Seneca *Ad Belviam*, x, 9.
90. Ibid, 8.
91. Sandys, 502.
92. Mantzius, K., *History of Theatrical Art*, I, 217.
93. Suetonius, "Vespatian," 19.
94. Mantzius, I, 218.
95. Boissier, *La régligion romaine*, II, 215.
96. Cicero *Pro Murena* 6.
97. Lang, P. N. *Music in Western Civilization*, 36.
98. Ammianus, xiv, 6.
99. Martial, v, 78.
100. Ammianus, xiv, 6.
101. Seneca, *Epist.*, lxxxviii.
102. Philostratus, *Life of Apollonius of Tyana*, v, 21.
103. Lang, 3.
104. Virgil, *Aeneid*, v, 362f.
105. Friepländer, II, 5.
106. Dio, lxi, 33.
107. Lecky, W. E., *History of European Morals*, I, 280.
108. Friedännder, II, 5.
109. Pliny, viii, 70.
110. Friedländer, II, 5.
111. Boissier, *Tacitus*, 246.
112. Martial, *De spectaculis*, vii.
113. Friedänder, II, 43.
114. Ibid., 49.
115. Epictetus, *Discourses*, i 27-37.
116. Seneca, *Epist.*, lxx.
118. Juv., iii, 36.
119. Pliny II, *Panegyricus*, xxxiii.
120. Tacitus, *Annals*, xiv.
121. Cicero, *Letters*, vii, , to Marcus, 55. B. C.

122. Seneca, *Epist.*, vii, xcv.
123. In St. Augustine, *City of God*
124. Tertulian, *Apology*, 16.
125. Juv., xiii, 85.
126. Abbott, *Common People of Ancient Rome*, 88; Dill, 498.

CHAPTER XVIII

1. Bury, J. B., *History of the Roman Empire*, 527.
2. Justinian, *Digest* i, 1, in Scott, *The Civil Law*.
3. Gaius, *Institutes*, i, 8.
4. Maine, Sir H., *Ancient Law*. This generalization has been questioned, but seems substantially true.
5. Justinian, *Codex*, vii, 16. 1.
6. Gaius, i, 144.
7. Ibid., 145, 194.
8. Buckland, W. W., *Textbook of Roman Law*, 113.
9. Gaius, i, 114.
10. Friedländer, I, 236.
11. Suetonius, "Vespasian," 3; *Hist. Aug.*, "Antoninus," 8; "Aurelius," 29.
12. Castiglione, 227.
13. Gaius, commentary, p. 66.
14. Ibid., p. 64.
15. Gaius, i 56.
16. Davis, *Influence of Wealth*, 211.
17. Tacitus, xiv, 41.
18. Renan, *Marc Aurèle*, 24.
19. Ulpina, in *Digest*, L, 17. 32.
20. Lecky, I, 295.
21. Gaius, iii, 40-1.
22. Cicero *Ad Familiares*, viii, 12,14.
23. Gaius, ii, 157; iii, 2.
24. Maine, 117.
25. Buckland, 64.
26. Caius, iii, 186; iv, 4.
27. Ibid., iv, 11.
28. In Friedländer, I, 165.
29. Ammionus, xxx, 4.
30. Ulpiana in *Digest, L*, 13. 1.
31. Quintilian, xii, 1. 25.
32. Pliny's *Letter*, v, 14.
33. Martial, vii, 65.
34. Pliny's *Letters*, ii, 14.
35. Tacitus, *Annals*, xi, 6.
36. David, 125.
37. Pliny's *Letter,s* vi, 33.
38. Juv., xvi, 42.
39. Juv., xvi, 42.
39. Apuleius, *Golden Ass*, p. 245.
40. Psalms, cxvi, 11; St. Paul, Epistle to the Romans iii, 4.
41. In Taylor, H., Cicero, 77.
42. Quintilian, v. 7. 26.
43. Ibid., vi, 1. 47.
44. *Codex Theodosius*, ix, 36, in Gibbon, II, 120.
45. Gellius, xx, 1, 13.
46. Sallust, *Catiline*, 65.
47. Cicero, *De re publica*, iii, 22; cf. *De officiis*, i, 23; *De legibus*, i, 15.
48. Gaius, i, 1.

CHAPTER XIX

1. Ker, W., in Martial, II, 54n.
2. Dio, lxviii, 13.
3. Renan, *Marc Aurèle*, 479.
4. Dio, lxviii, 15.
5. Mahaffy, J., *Silver Age of the Greek Word*, 307.
6. In CAH, XI, 201, 855.
7. Pliny II, *Panegyricus*, 50.
8. Justinian, *Digest*, xlviii, 19. 5.
9. Bury *Roman Empire*, 437.
10. Brittan, 866.
11. Wickhoff, 118.
12. Dio, lxix, 1.
13. Hist. *Aug.*, "Hadrian," i, 4.
14. Ibid, xxvi, 1.
15. Ibid.

16. XIV. I.
17. Martial, viii, 70 ; ix, 26.
18. *Hist Aug.*, "Hadrian" xv, 10.
19. Ibid., xx, 7.
20. Henderson, *Hadrian*, 207.
21. Eusebius, *Ecclesiastical History*, iv, 9.
22. Dio, lxix, 6.
23. Fronio, M.. *Correspondence*, A.D. 162 : II, 4.
24. *Hist. Aug.*, "Hadrian" x, 1.
25. Winckimann, I, 327.
26. Bevan, E. R., *House of Seleucus* II' 16.
27. *Hist Aug.*, viii, 3.
29. Simpson. F. M., *History of Architectural Devvelopment*, 123.
30. Dio, lxix, 4;cf. Henderson, 247.
31. Cio, lxix, 8.
32. *Hist Aug.*, xxiv, 8.
33. Merivale, *History of the Romans under the Empire*, VIII, 255.
34. Marcus Aurelius, *Meditations*, 16.
35. *Hist. Aug.*, "Antoninus". iv, 8.
36. Ibid., viii, 1.
37. IX. 10.
38. Appian, preface, 7.
39. Bury, 566.
40. Renan, *The Christian Church*,
41. Renan, *Marc Aurèle*, 2.
42. Gibbon, I, 76.
43. Marcus, i 17.
44. Ibid., 1.
45. I, 14.
46. I, 15.
47. I, 14.
48. VII. 70.
49. *Hist Aug.*, "Marcus," xxiii, 4.
50. Frieländer, III, 191.
51. Waston, P. *Marcus Antoninus*,
52. Castiglione, 244.
53. Galen, in Friedländer, I, 28.
54 Dio, lxii, 14.
55. Ammianus, xxv, 4.
56. Willams, H., I, 280.
57. Renan, *Marc*, 469.
58. Marcus, i, 17.
59. Bury, 647.
60. *Hist, Aug.*, "Marcus," xix, 7
61. Marcus, x, 10.
62. Mommsen, *Provinces*, I, 253.

CHAPTER XX

1. Boissier, *Tacitus*, 2.
2. Tacitus, *Agricola*, 9.
3. Pliny's *Letter*, ii, 1 ; vi, 16.
4. *Agricola*, end.
5. *Germania*, 25, 27.
6. *Annals*, iii, 65.
7. *Historiae*, i 1.
8. *Agricola*, 4.
9. *Germania*, 34.
10. *Annlas*, xvi, 33.
11. Ibid., iii, 18 ; vi, 22.
12. *Germania*, i, 33.
13. *Agricola*, 46.
14. *Annalo*, vi, 17.
15. *Agrieola*, 3.
16. *Dialogue on Orators*, 40.
17. *Historiae*, iii, 12, 64.
18. *Agricola*, 18.
19. *Historiae*, *i* 16.
20. Ibid.
21. Juvenal, i, 147.
23. X, 81.
24. VI, 652.
25. 434.
26. 448.
27. III.
28. XIV, 316.
29. X, 356.
30. Seneca, *De beneficiis*, i, 10; *Epist.*, xcvii.
31. Pliny's *Letters*, iii, 19.

32. V, 3.
33. 8.
34. I, 17.
35. VI, 32.
36. V, 16.
37. I, 16.
38. VII' 19.
39. VII, 20 ; IX, 28.
40. Boissier, *Tacitus*, 19.
41. Gibbon, 1, 67.
42. Pliny's *Letters*, iii, 12.
43. Strong, II. fig. 435.
44. Marcus, ii, 11.
45. VII, 75.
46. Ibid., 9 : iv, 40, 27.
48. II, 17.
49. III, 2.
50. X, 8.
51. IV, 21
52. II, 17.
53. VII, 12.
54. XI, 1.
55. IVIII, 10.
56. IV. 42, 48 ; viii, 21.
57. VII, 3.
58. II, 1.
59. IX, 38 ; vii, 26.
60. VI. 48.
61. 44.
62. XI. 18.
63. IV, 49 ; viii, 61 ; ii, 6.
64. IV, 21; viii. 18; ii, 17.
65. IV, 14, 48 ; ix, 3.
66. Dio, lxxii, 2-3.
67. *Hist. Aug*, "Commodus", 2, 14, 16.
68. Dio, lxxiii, 19
69. *Hist* Aug , 13.
70. Ibid.. 2, 10, 11.
71. Paul-Louis, 215.

فهرس الأعلام والأماكن

(ب)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ز)

(س)

(ش)

(ق)

(ك)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

الفهرس

الكتاب الثالث ـ الزعامة

الباب الرابع عشر : العصر الفضى

الباب الخامس عشر : رومة العاملة

الباب السادس عشر : رومة وفنونها

الباب السابع عشر : رومة الأبيقورية

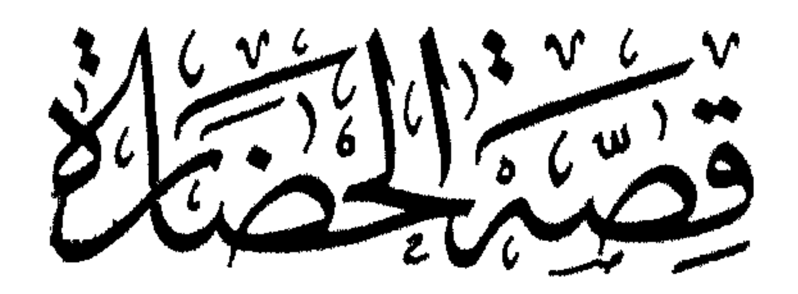
الباب الثامن عشر : القانون الرومانى

الباب التاسع عشر : الملوك الفلاسفة

الموضـــوع الصفحة

الباب العشرون : الحياة والفكر فى القرن الثانى

فهرس الأشكال والصور



ول وايريل ديورانت

قيصر والمسيح
أو
الحضارة الرومانية

ترجمة
محمد بدران

الجزء الثالث من المجلد الثالث







الكتاب الرابع

الامبراطورية

١٤٦ ق.م — ١٩٢ م

جدول بالحوادث التاريخية

مرتبة حسب تواريخها

ق . م

١٢٠٠	الكلت الجدد ليون يغزون إنجلترا .
٩٠٠	الكلت البريثونيون والبلجيون يغزون إنجلترا .
٣٥٠	بيثياس المرسيلي يرتاد بحر الشمال .
٢٤٨	بداية الأسرة الأرساسية في بارثيا .
٢٤١ — ١٠	صقلية تصبح ولاية رومانية .
٢٣٨	الاستيلاء على سردينية وكورسكا .
٢١١ — ١٩٠	أرسيس الثاني ملك بارثيا .
١٧٠ — ٣٨	مثرداتش الأول ملك بارثيا .
١٦٨	الاستيلاء على مقدونية .
١٦٨	إليريكم .
١٤٦	آخية « » أفريقية « » إبيروس .
١٤٥ — ١٣٠	بطليموس السابع .
١٣٥ — ١٠٥	يوحنا هركانس ، ملك اليهود .
١٣٥ — ٥١	بوسيدونيوس .
١٣٣	أتلس الثالث يوصي لرومة ببرجم .
١٢٤ — ٨٨	مثرداتس الثاني ملك بارثيا .
١٢١	جاليانا ربنسس .
١١٢ — ٥	الحرب الجوجرثية .
١١٠	فيلو البزنطي ، العالم الطبيعي .
١٠٤ — ٧٨	الكسندر جانيوس ملك اليهود .
١٠٢	قليقية ، بمفيليا .
٨٨ — ٤	الحرب المثرداتية الأولى .
٨٨	مذبحة الرومان في الشرق الأدنى .
٨٣ — ١	الحرب المثرداتية الثانية .
٧٨ — ٦٩	الكسندره ، ملكة اليهود .
٨٦	تيوماكس البيزنطي ، المصور
٧٥ — ٦٣	الحرب المثرداتية الثالثة .
٧٤	بيثينيا .
٧٤ — ٦٧	قوريني وكريت .

ق . م

٦٩ — ٦٣ أرستو بولس الثانى ملك اليهود .

٦٤ سوريا .

٦٣ بنتس وبلاد اليهود تصبحان ولايتين رومانيتين .

٦٣ — ٤٠ هركانس الثانى ، ملك اليهود .

٥٨ قبرص .

٥٨ — ٥٠ قيصر يفتح غاله .

٥٥ — ٥٤ قيصر فى بريطانيا .

٥٠ هرو الإسكندرى ؛ ملبجر الجدراى .

٤٦ نوميديا .

٤٠ البارثيون يغزون سوريا .

٣٧ — ٤ هيرود الأكبر .

٣٠ مصر .

٢٥ جلاتيا .

٢٥ — ٤ حملة إيليوس جالس على بلاد العرب السعيدة (اليمن) .

١٧ الأستيلاء على ألمانيا العليا والسفلى

١٥ نوركم ، ريتيا .

١٤ جبال الألب البحرية .

١١ موسيا .

٧ وما بعدها : استرابون الجغرافى .

٤ ؟ مولد المسيح .

٤ق . م — ٦ م : أركلوس ملك اليهود ، هيرود انتيباس ، تترارك الجليل .

١٧ م كبدوكيا .

٤٠ موريتانيا .

٤٣ بريطانيا .

٤٧ ثورة كركتاكس .

٥٠ ديوسكريدس ، الصيدلى .

٥١ ٦٣ حرب بارثيا وروما .

٥٥ — ٦٠ كربولو يخضع أرمينية .

٦١ ثورة بودكا .

٦٤ جبال الألب الكتية .

٧٠ — ٨٠ فتح الرومان البلاد ويلز .

٧٧ — ٨٤ أجركولا حاكم بريطانيا .

٧٢ انقراض الأسرة السلوقية .

٨٩ أفلوطرخس فى رومة .

٩٠ إبكتتس .

٩٥ ديوكريسم .
١٠٠ أبلودورس الدمشق ، المهندس المعارى .
١٠٥ بلاد العرب الشمالية .
١٠٧ داشيا .
١١٤ أرمينية ، أشور ، أرض الجزيرة .
١١٥ سورانس الإفسوسى ، الطبيب .
١١٧ هدريان يتخلى عن أرمينية وسورية .
١٢٠ مارنيس الصورى الجغرافى .
١٢٢ سور هدريان فى إنجلترا .
١٣٠ إيليا كپتو لينا تشاد فى موضع أورشليم ، بثون الأزميرى العالم الرياضى ؛
أريان النقوميدى المؤرخ ؛ كلوديوس بطليموس الفلكى .
١٤٢ سور انطونينس پيوس فى إنجلترا .
١٤٧ — ٩١ فلوجيسس الثالث ملك بارثيا .
١٥٠ لوشيان ؛ إيليوس أرستيديز .
١٦٠ جالينوس الطبيب ؛ پوسنياس الجغرافى .
١٩٠ سكستس إمبركس الفيلسوف .
٢٢٧ نهاية الأسرة الأرساسية .

الباب الحادى والعشرون

إيطاليا

الفصل الأول

المدن

فلنقف قليلا عند هذا المجد المزعزع ونحاول أن ندرك أن الإمبراطورية كانت أعظم شأناً من مدينة رومة ؛ ذلك أننا قد أطلنا الوقوف عند هذا المنظر الباهر الذى استحوذ على عقول المؤرخين كما خلب ألباب سكان الولايات ؛ لكن الواقع الذى لا مناص من الاعتراف به أن حيوية الدولة العظيمة لم يعد مقرها فى عاصمتها الفاسدة المحتضرة ؛ بل إن ما بقى لهذه الدولة من قوة وحيوية ، وكثيراً مما كان فيها من جمال ، ومعظم ما كانت تحتويه من نشاط عقلى ، إن هذا كله كان فى الولايات وفى إيطاليا ؛ ومن أجل هذا فلن نستطيع أن نكوّن لأنفسنا فكرة صحيحة عن رومة ، وعما قامت به من جلائل الأعمال فى الإدارة والسلم ، حتى نترك العاصمة نفسها ونطوف بالمدائن الألف التى كان يتكون منها العالم الرومانى(*) .

قال پلنى الأكبر لما أن بدأ يصف إيطاليا : ترى كيف أبدأ هذا العمل ؟ ألا ما أكثر ما هنالك من بلدان ! — ومنذا الذى يستطيع أن يحصيها كلها ؟ وما أعظم شهرة كل بلد بمفرده ! » لقد كان حول رومة وجنوبيها إقليم

(*) فى وسع القارئ أن يتتبع هذا الطواف على الخرائط التى فى هذا الكتاب .

لا تيوم ، الذى كان فى بادئ الأمر أمها ، ثم صار عدوها ، ثم هزمها ، ثم جنة من الضواحى والقصور يقيم فيها الرومان أصحاب المال والذوق السليم . وكان إلى جنوبى العاصمة وغربيها نهر التيبر وطرق برية صالحة تربطها بالمرفأين المنافسين لها وهما پورتس Portus وأستيا على البحر الترهينى . وقد وصلت أستيا إلى أوج عزها فى القرنين الثانى والثالث من التاريخ الميلادى ، فكانت شوارعها غاصة بالتجار وصائدى السمك ، ودور تمثيلها مزدحمة بهم ؛ وكانت بيوتها ومساكنها ذات الشقق الكثيرة شبيهة كل الشبه بأمثالها فى رومة الحاضرة ؛ وقد تحدث عنها سائح من فلورنس فى القرن الخامس عشر حديث المعجب بثروتها وزينتها العظيمة . وتدل بعض الأعمدة الباقية منها إلى اليوم ، ويدل أحد المذابح البديع التصميم والذى نقشت عليه أزهار جميلة دقيقة ، على أن سكانها التجار أنفسهم كانوا يدركون معنى الجمال الحق .

وكان إلى جنوبى أستيا على شاطئ البحر مدينـــة أنتيوم Antium (أنزيو Onzio) حيث كان لأغنى الرومان ، ولكثير من الأباطرة ، وللمحبوبين من الآلهة قصور أو هياكل تمتد إلى شاطئ البحر الأبيض لتستقبل ما يسرى فيه من نسيم عليل . وقد وجدت فى خرائبها التى تمتد نحو ثلاثة أميال ، تماثيل ذات روعة وجمال ، منها تمثال المجالد البرغيزى وتمثال أپلو بلفدير . وبالقرب منهما أثر باق إلى اليوم كان يذكره المواطنين « العظام » الذين مضى عليهم الآن ثلاثة عشر قرناً من الزمان أنهم كانوا من عهد قريب يستمتعون برؤية أحـــد عشر مجالداً يموتون وهم يقاتلون عشرة دببة ضارية[٢] . وكان إلى شمالها ومن وراء التلال الساحلية مدينة أكوينم مسقط رأس چوڤنال وأرپينم Arpinum التى كانت تفخر بابنيها ماريوس وشيشرون . وعلى بعد عشرين ميـــلا من رومة كانت تقوم مدينة پرانستى Praeneste القديمة (پلسترينا الحديثـــة Palestrina) ، وكانت بيوتها الجميلة مشيدة على شرفات مدرجة على سفح الجبل ، وحدائقها

تشتهر بوردها ، وقلة جبلها يتوّجها هيكل ذائع الصيت للإلهة فورتونا بريمجينيا Fortuna Primigenia التي كانت تحيط النساء برعايتها وقت المخاض ، وتنال منهن المال نظير ما تنطق به من النبوءات . وكانت تسكيولم Tusculum التي تبعد عشرة أميال عن رومة غنية مثلها بالحدائق والقصور ، وفيها وُلد كاتو الكبير ، واحتفظ شيشرون بكتابة « المجادلات التسكيولانية »(*) . وكانت أعظم ضواحي رومة شهرة ضاحية تيبور (ترفولى) التي مد إليها هدريان قصره الريفي والتي قضت فيها زنوبيا ملكة تدمر سني أسرها .

وإلى شمال رومة تقع إتروريا التي بُعثت في عهد الزعامة بعثاً جديداً متواضعاً : وفيها بلدة پروزيا Perusia التي خرب أغسطس معظمها وجدد بناء بعضها ، وجعل فناتوه فيها قوسا تسكانيا قديما : وأنجبت أريتيوم Arretium ميسناس Maecenas وبعثت به إلى رومة ، وأخرجت خزفاً للعالم القديم ، وكانت مدينة پيسى Pisae في ذلك الوقت قد عمرت طويلا ، وتعزو هذه المدينة اسمها ومنشأها إلى جماعة من المستعمرين اليونان جاءوا من پيزا Pisa في البلوپونيز وكانوا يكسبون عيشهم فيها بنقل الخشب في نهر أرنس Arnus . وقامت على هذا النهر نفسه على مسافة من هذه المدينة في اتجاه منبعه مستعمرة رومانية ناشئة تدعى فلورنتيا Florentia ، يندر وجود مثلها بين المدن لأنها في أغلب الظن لم تقدر مستقبلها حق قدره : وكان إلى الطرف الشمالي الغربي من إترووريا محاجر كررارا Carrara التي كان ينقل منها أجمل رخام رومة إلى ثغر لونا Luna ثم تحمله السفن إلى العاصمة ؛ وكانت جنوى من زمن بعيد هي المرفأ الذي تصدر منه غلات شمالي إيطاليا الغربي . ونسمع من زمن بعيد ، أى من عام ٢٠٩ ق . م ، أن القرطاجنيين قد دمروا تلك المدينة في حرب تجارية ضروس ، وأنها دمرت بعد

(*) ولا تزال فرسكاتى Frascati وارثة تسكيولم ملجأ أثرياء الإيطاليين . وفيها قصور الدبرتديني ، وترلونيا ، ومندرجونى وغيرها .

ذلك مراراً كثيرة ولكنها كانت فى كل مرة تبعث بعثاً جديداً وتعود أكثر مما كانت رخاء وازدهاراً .

وعند قاعدة جبال الألب كانت أوغستا تورنورم Augusta Taurinorum التى أنشأها الغاليون التوريفيون Touurini Gauls ، والتى جعلها أغسطس مستعمرة رومانية ؛ وفى مقدور الإنسان أن يرى الآن أرصفتها ومجاريها القديمة تحت أرض شوارع تورين ، وقد بقى فيها من أيام أغسطس باب ضخم يذكرنا بأن المدينة كانت فى يوم من الأيام حصناً يصد عن البلاد المغيرين عليها من الشمال . وهنا ينثنى نهر بِدوا (البو) الكسول الذى ينبع من جبال الألب الكتية Cottian ويجرى نحو الشرق مائتى ميل وخمسين ميلا ، ويقسم الجزء الشمالى من إيطاليا قسمين كانا يعرفان فى عهد الجمهورية بغالة ما قبل البو وغالة ما وراء البو . وكان وادى البو أخصب أقاليم شبه الجزيرة كلها ، وأكثرها سكانا ، وأعظمها رخاء .

وكان - عند سفح جبال الألب تلك البحيرات العظيمة - فربانس Verbanus (مجيورى Maggiori) ، ولاريوس Larius (كومو Como) ، وبناكس Benacus (جاردا Garda) ، التى كانت روعتها متعة العين والنفس لتلك الأجيال ولا تزال كذلك لنا نحن فى هذه الأيام . وكان يبدأ من كوم ، مدينة پلنى الأصغر طريق تجارى رئيسى يتجه جنوباً إلى مديولانم Mediolanum (ميلان) . وقد استقر الغاليون فى هذه المدينة فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم أضحت فى أيام فرجيل من الحواضر الكبيرة والمراكز التعليمية الهامة ؛ وقبل أن يحل عام ٢٨٦ صارت عاصمة الإمبراطورية الغربية بدل رومة . وكانت فيرونا وقتئذ تسيطر على التجارة التى تعبر ممر برنر Brenner ؛ وقد بلغت من الثراء درجة أمكنتها من أن تنشئ لها مدرجاً (جدد حديثاً) يتسع لخمسة وعشرين ألفاً من النظارة . وقامت على نهر البو الملتوى مدينة بلاسنتيا Placentia (بياسنزه

الحديثة Piacenza ؛ وكرمونا Cremona ، ومنتوا Mantua وفرارا Ferrara — وكانت فى أول أمرها رباطات على الحدود أقيمت لصد الغاليين .

وكان إقليم فنيشيا يقع شمال نهر البو وشرق الأديج Adige . وقد اشتق اسمه من الفنيتى Veneti ، المهاجرين الأولين من أليريا Illyria . ويصف لنا هيرودوت كيف كان زعماء تلك القبائل يجمعون فتيات قراهم اللاتى فى سن الزواج . ويقدّرون لكل فتاة ثمناً يتناسب مع جمالها ، ويزوّجونها ممن يؤدى ذلك الثمن ، ثم يتخذون تلك المهور بائنة مغرية للفتيات لمن كنّ أقل من هؤلاء جمالا وفتنة(٤) . ولم تكن مدينة البندقية (Venice) قد نشأت بعد ، ولكن مدناً كبيرة قامت عند پولا Pola على شبه جزيرة إستريا Istria ، وترجستى Tergeste (تريستة Trieste) وأكويليا Aquileia ، وپتفيوم Patavium (پدوا Padua) تتوج رأس البحر الأدرياوى . وقد بقى فى پولا من أيام الرومان قوس نصر فخم ، وهيكل ظريف ، ومدرج لا يفوقه فى الروعة إلا الأصل الذى بنى على نمطه وهو الكلوسيوم . وكان يمتد إلى جنوب نهر البو سلسلة من المدن تبدأ من بلاسنتيا مخترقة پارما ، وموتينا (مودينا) ، وبونونيا Bononia (بولونيا) ، وفاڤنتيا Faventia (فينزى Faenze) وتنتهى عند أرمنيم .

وهنا عند رميني Rimini يقوم جسر من الجسور التى لا حصر لها والتى أقامها المهندسون الرومان ، وهو أكثر الجسور احتفاظا بشكله الكامل القديم . وكان الطريق الفلامينى يمتد على هذا الجسر إلى المدينة مخترقاً قوساً يعادل الخلق الرومانى فى صلابته وسيطرته . ويتفرع منه طريق فرعى يصل بتونيا براڤنا بندقية الأيام الرومانية . وقد شيد هذا الطريق على قوائم فى المستنقعات التى لوثتها عدة أنهار تصب فى البحر الأدرياوى . ويصف استرابون مدينة راڤنا بأن « فيها شوارع واسعة مكونة من قناطر ومعديات »(٥) . وقد اتخذها أغسطس مقراً لأسطوله الأدرياوى ، واتخذها كثير من الأباطرة مسكناً رسمياً لهم فى القرن

الخامس . وقد كان تفوق شمالى إيطاليا على سائر أجزائها فى خصب التربة، وفى جوه الصحى المنشط الباعث على العمل ، وفى موارده المعدنية ، وفى صناعاته المختلفة المتنوعة ، وتجارته النهرية القليلة النفقة . كان تفوقه فى هذا كله مما سما به من الناحية الاقتصادية على وسط إيطاليا فى القرن الأول الميلادى ومن ناحية الزعامة السياسية فى القرن الثالث .

ولم ينشأ على الساحل الشرقى فى جزئه الممتـــد جنوبى أرمنيم وشمالى برنديزيوم إلا عدد قليل من المدن الهامة ، وذلك لأن هذا الساحل صخرى كثير العواصف قليل المرافئ . بيد أنه كان فى أمبريا Umbria ، وبسينم ، وسمنيوم ، وأپوليا ، بلدان صغرى كثيرة لا يستطاع الحكم على ثرائها وقتها إلا بدراسة أنقاض بمپى . ومن هـــذه البلدان أسيوم Assisium مسقط رأس پروپرتيوس والقديس فرانسيس ، ومنها سرسينا Sarsina التى ولد فيها بلوتس Plautus ، وامتيرنم Amiternum مسقط رأس سلست Sallust وسلمو Sulmo التى شهدت مولد أوفد ، وفنوزيا التى شهدت مولد هوراس . ولم تشتهر بنفنتم بهزيمة پرس فحسب بل اشتهرت كذلك بقوس النصر العظيم الذى أقامه فيها تراجان وهدريان . وقد قص هدريان فى نقوشه الواضحة على هذا العمود قصة أعماله المجيدة فى الحرب والسلم . وكانت برنديزيوم القائمة على الساحل الجنوبى الشرقى تشرف على طرق الاتصال فى دلماشيا وبلاد اليونان والشرق . وعند « عقب » إيطاليا كانت تقوم مدينة تارنتم ، وكانت من قبل دولة — مدينة عزيزة الجانب ، ولكنها لم تكن فى الوقت الذى نتحدث عنه إلا مشتى آخذاً فى الاضمحلال لكبار الموظفين والأشراف الرومان . وفى جنوبى إيطاليا استولى أصحاب الضياع الكبيرة على معظم الأراضى وحولوها إلى مراع للماشية ، ففقدت المدن من تعتمد عليهم من المزارعين ، واضمحلت طبقاتها من التجار وأرباب الأعمال ، وأفل نجم المشائر اليونانية التى كانت تنفق أموالها بسخاء فى الأيام السابقة ، وذلك بسبب تسرب

القبائل الهمجية إليها وبسبب قيام الحرب البونية الثانية ، فاضمحل شأنها حتى لم تعد أكثر من بلدان صغيرة أخذت اللغة اللاتينية تحل فيها ببطء محل اللغة اليونانية . وفى « إصبع » إيطاليا كانت مدينة رجيوم Rhegium (رجيو Reggio الحالية) ذات المرفأ الصالح . وقد أثرت هذه المدينة بفضل تجارتها مع صقلية وأفريقية . وعلى الشاطئ الغربى كانت تقوم ڤيليا Velia ولعلها لم يكن من السهل عليها أن تذكر أيامها السالفة حين كان اسمها إيليا ، وحين كان يتردد فى جنباتها أصداء أشعار پرمنيدز وزينون وأقوالها المتناقضة الخبيثة . وقد بدلت الجالية الرومانية التى استعمرت پوسيدونيا اسم هـذه البلدة فجعلته پستم Paestum ، ولا تزال تدهش زائرها بما فيها من هياكل فخمة . وكان أهلها اليونان فى الوقت الذى نتحدث عنه قد أخذوا يذوبون فى الدم « البربرى » — الإيطالى فى هذه المرة — الذى كان ينصب فيها من الريف القريب منها : ولم تبق الحضارة اليونانية حيـة فى إيطاليا إلا فى كمپانيا .

وكانت كمپانيا — المكونة من الجبال ومن الساحل المحيطين بناپلى — من الناحية الجغرافية جزءا من سمنيوم . أما من الناحيتين الاقتصادية والثقافية فكانت عالما مستقلا بنفسه ، لأنها كانت من الوجهة الصناعية أكثر تقدماً من رومة ، وكانت قوية من الناحية المالية ، جمعت فى رقعة صغيرة من الأرض حياة مليئة بالاضطرابات السياسية ، والمنافسات الأدبية ، والازدهار الفنى ، والألعاب العامة المثيرة . وكانت أرضها خصبة التربة تنتج أحسن الزيتون والكروم فى إيطاليا ، وكان يصدر منها النبيذ السرنتى Surrentine والفالرنى Falernian الذائعا الصيت ، ولعل ڤارو Varro كان يفكر فى كمپانيا وهو يتحدى العالم بقوله : « يامن ضربتم فى أرضين كثيرة ، هل رأيتم فيها أرضاً زرعت أحسن من أرض إيطاليا ؟ ... أليست إيطاليا مليئة بأشجار الفاكهة امتلاء يخيل معه إلى من يراها أنها كلها بستان واحد عظيم ؟ »(٦) . وفى طرف كمپانيا الجنوبى شبه

جزيرة صخرية وعرة المنحدر تمتد ناتئة فى البحر من سالرنم Salernum إلى سرنتم Surrentum . وكانت القصور الصغيرة منبثة بين الكروم والحدائق المغروسة على التلال ، كما كانت تقوم بمحاذاة شاطئ البحر . وكانت سرنتم جميلة مثل سرنتو Sorrento فى هـذه الأيام ، وقد لقبها بلنى الأكبر بأنها « بهجة الطبيعة » التى حبتها بكل ما لديها من هبات(٧) ، ويبدو أنه لم يكد يتغير فيها شىء فى خلال ألفى عام ، وأكبر الظن أن أهلها لا يزالون محتفظين بعاداتهم القديمة ، وأن آلهتهم فى هذه الأيام هى آلهتهم فى الأيام الخالية ، ولا تزال أجراف الصخور تحصر البحر حصاراً لا آخر له .

وكان فى مواجهة هذا اللسان البارز فى البحر جزيرة كبريا Capraea (كابرى Capri) تلاطمها الأمواج من جميع الجهات . وكان بركان فيزوف المطل على الشاطئ الجنوبى للخليج يرسل دخانه فى السماء ، بينما كانت بمبى وهركيولانيم ترقدان تحت طبقات الحمم . ثم تلى هاتين المدينتين نيوبوليس Neopolis « المدينة الجديدة » أكثر بلاد إيطاليا اصطباغاً بالصبغة اليونانية فى عهد تراجان . وفى وسعنا أن نتبين من كسل نابلى فى هذه الأيام مدى انهماكها القديم فى الحب واللهو والفن . لقد كان أهلها إيطاليين ، ولكن ثقافتهم ، وعاداتهم ، وألعابهم كانت كلها يونانية . وكان فيها هياكل ، وقصور ، وملاه جميلة ؛ وكانت تقام فيها مرة فى كل خمس سنين مباريات فى الموسيقى والشعر نال استاتيوس فى واحدة منها جائزة . وفى الطرف الغربى من الخليج كان ثغر بتيولى Puteoli (بزيولى Puzzuoli الحديثة) التى اشتق اسمها من رائحة بركها الكبريتية(٨) . وقد ازدهرت هذه المدينة بفضل تجارة رومة وبفضل مصنوعاتها الحديدية ، وخزفها ، وزجاجها . وكان فيها مدرج تدل ممراته التى تحت الأرض والباقية إلى هذا اليوم على الطريقة التى كان يصل بها المجالدون والوحوش إلى المجتلد . وعلى الجانب الآخر من مرفأ بتيولى كانت تتلألأ قصور بايا Baiac التى

يزيد بهاءها وجاذبيتها قيامها بين الجبال والبحر . هنا كان يلهو قيصر وكلجيولا ونيرون ، وهنا كان الرومان المصابون بداء الرثية يأتون ليستحموا فى مياه عيونها المعدنية . وكانت المدينة تجنى فوائد كثيرة من اشتهارها بالقمار وبالفساد الخلقى ، وهاهوذا ڤارو Varro يقول إن فتياتها كن ملكاً مشاعاً ، وإن كثيرين من فتيانها كانوا بنات[٩] ، وكان كلوديوس يرى أن شيشرون قد جلله عار لا يمحى أبد الدهر لأنه سافر مرة إلى هذه البلدة[١٠] . ويقول سنكا متسائلا : « أتظن أن كاتو كانت تحدثه نفسه بأن يقيم فى قصر ملىء بأسباب اللهو والسرور ، يستطيع وهو فيه أن يحصى عدد من يمر به أمام عينيه من النساء القاصرات اللاتى يملأن القوارب والسفن الكثيرة الأنواع المطلية بكافة الألوان ، والورود التى تتمايل حول البحيرة ؟ »[١١] .

وعلى بعد بضعة أميال قليلة شمال بايا ، فى فوهة بركان خامد ، كانت بحيرة أڤيرنس Avernus تبعث فى الجو دخاناً كبريتياً بلغ من قوته أن وصفته الأساطير بقولها إنه ما من طائر يطير فوقه ويبقى حياً ؛ وكان بالقرب من الكهف الذى شق فيه إنياس طريقه السهل إلى الجحيم كما جاء فى ملحمة ڤرجيل .

وفى شمال البحيرة كانت مدينة كومى Cumae القديمة ، وكانت قد أخذت تحتضر فى ذلك الوقت بعد أن قامت إلى جانبها ابنتها مدينة نيوپوليس التى كانت أكثر منها جاذبية ، ولوجود مرفأين بجوارها أكثر أمناً من مرفئها وهما بتيولى واستيا ، ولتقدم الصناعة فى كپوا Capua . وكانت كپوا تبعد عن شاطىء البحر فى الداخل نحو خمسين ميلا وتقوم فى إقليم خصيب كان ينتج فى بعض الأحيان أربع غلات فى العام[١٢] ، ولم يكن فى إيطاليا كلها ما يضارع ما فيها من مصانع البرنز والحديد . وقد جازتها رومة على مساعدتها هنيبال جزاء أضر بها قرنين من الزمان عجزت فيهما عن أن تفيق من كبوتها ، ووصفها شيشرون

فى خلالها بأنها « مسكن من ماتوا سياسيا »[١٣]. وظلت كذلك حتى أعادها قيصر إلى سابق عهدها بأن جاء إليها بآلاف من المستعمرين الجدد ، وأضحت فى أيام تراجان مدينة مزدهرة مرة أخرى .

لقد يبدو لنا أن هذه المدن الكبرى التى كانت قائمة فى إيطاليا القديمة والتى سردناها على القارئ سرداً سريعاً ليست أكثر من أسماء . ولشد ما نخطئ إذ نظن أنها مجرد ألفاظ على خريطة ، أو لا نحس أنها كانت مساكن صاخبة لرجال مرهفى الحس يجدُّون فى طلب الطعام والشراب ، والنساء والذهب .

والآن فلنرفع الرماد عن إحدى المدائن الرومانية لنقضه من آثارها التى احتفظت بها بأعجب الوسائل عن مجرى الحياة فى تلك الشوارع القديمة .

الفصل الثاني

بمبي

كانت بمبي إحدى البلدان الصغرى في إيطاليا ، وقلما يرد لها ذكر في الآداب اللاتينية إلا إذا ذكر حساء سمكها المتبل ، وكرنبها ، ودفنها تحت الرماد البركاني . وقد أنشأها الأسكانيون Oscans ، ولعلها تضارع رومة في قدم عهدها ، وسكنها مهاجرون من اليونان ، واستولى عليها سلا ، وجعلها مستعمرة رومانية ، ودمر بعضها زلزال في عام ٦٣ م . وكان بناؤها لا يزال يجدد في الوقت الذي دمرها بركان ڤيزوف مرة أخرى . فقد ثار هذا البركان في اليوم الرابع والعشرين من شهر أغسطس عام ٧٩ م : وقذف من فوهته رماداً وصخوراً في الهواء وعلته ألسنة من اللهب . وانهمر فوقها مطر غزير فاستحالت المواد التي قذفها البركان سيلا جارفاً من الطين والحجارة حط على بمبي وهركيولانيم ، فلم تمض إلا ست ساعات حتى غطاهما بطبقة يبلغ سمكها ثماني أقدام أو عشر . وظلت الأرض تزلزل والمنازل تتداعى طوال ذلك النهار والليلة التي أعقبته . فدفن النظارة تحت أنقاض دور التمثيل[١٤] ، واختنق مئات من الأهلين بالتراب والدخان ، وثارت الأمواج فحالت بين من حاولوا النجاة بطريق البحر . وكان پلني الأكبر وقتئذ يتولى قيادة الأسطول الغربي عند ميسينم Misenum القريبة من پتيولي . وتأثر قلبه باستغاثة أهل البلدة وطلبهم النجدة ، كما تأثر برغبته في مشاهدة هذه الظاهرة عن كثب ، فركب سفينة صغيرة ، ونزل منها إلى البر على الشاطئ الجنوبي للخليج ، وأنجى عدداً من الأشخاص ؛ وبينما كانت تلك الجماعة تعدو خوفاً من البَرَد والدخان اللذين كانا يتقدمان نحوها ، خارت قوى العالم الشيخ ، فسقط في

الطريق وقضى نحبه(*)(١٥) . وفى صباح اليوم التالى انضمت زوجته وابن أخيه إلى الجماعة البائسة التى كانت سائرة بإزاء الساحل تحاول الفرار من الموت ، وكانت ثورة البركان وقتئذ لا تزال مستمرة ، وقد غطت السماء من نابلى إلى سرنتم بالحجارة والرماد حتى استحال النهار ليلا حالك السواد : واستولى الهلع على الفارين الذين افترقوا فى هذا الظلام الدامس عن أزواجهم وأبنائهم ، فعلا صراخهم وعويلهم وزادوا الموقف هلعا وزعرا . وأخذ بعضهم يستغيث بمختلف الآلهة لتنجيهم من هول الكارثة ، وبعضهم ينادى بأن الآلهة كلها قد هلكت ، وأن نهاية العالم التى طالما تنبأ بها الناس قد حلت(١٦) . ولما صفت السماء آخر الأمر فى اليوم الثالث كانت الحمم البركانية وما اختلط بها من الطين قد غطت كل شىء فى پمپى إلا أعالى السقف ، وحتى كانت هركيولانيم قد اختفت عن آخرها من الوجود .

وأكبر الظن أن ألفين أو نحوهما من سكان پمپى البالغ عددهم عشرين ألفا قد قضوا نحبهم فى هذه الكارثة ؛ وقد حفظ الرماد البركانى أشكال عدد من الموتى ؛ ذلك بأن الأمطار وأحجار الخفاف التى سقطت عليها غطتها بطبقة سميكة صلبت حين جفت ، ولما ملئ فراغ هذه القوالب العاجلة خرجت منه أشكال بشعة . وعاد قليلون ممن نجوا إلى أنقاض المدينة يبحثون فيها عن بعض ما فقدوه من النفائس ، ثم تركوا هذا الموضع فيما بعد فغطته الأتربة على مر الأيام . وفى عام ١٧٠٩ احتفر قائد نمساوى حفرة فى موضع هركيولانيم ، ولكن الرواسب التى فوق المدينة والتى كان سمكها فى بعض المواضع يبلغ ستين قدماً بلغت من السمك درجة جعلت أعمال الحفر تسير ببطء شديد وتتكلف نفقات باهظة . أما پمپى فقد بدأ الكشف عنها فى عام ١٧٤٩ ، وظل حتى الآن يجرى فى فترات متباعدة . وقد كشف الآن عن الجزء الأكبر من المدينة ، فظهر عدد كبير من

(*) انظر وصف پلنى الأصغر لموت عمه فى هذه الثورة البركانية فى الجزء الأول من كتابنا « أشهر الرسائل العالمية » . (المترجم)

البيوت ، والأدوات ، والنقوش ، فاستطعنا أن نعرف عن بمبي القديمة من بعض النواحي أكثر مما نعرفه عن رومه القديمة .

وكان محور حياة المدينة هو السوق العامة ، شأنها في هذا شأن سائر المدن الإيطالية . وما من شك في أن هذه السوق كانت في الزمن القديم ملتقى الزراع ، وحاصلاتهم في « يوم السوق » ، وكانت تقام فيها الألعاب ، وتمثل فيها المسرحيات ؛ وقد أقام فيها الأهلون أضرحة لآلهتهم ، فشادوا ضريحاً لجوبتر في أحد طرفيها وضريحاً لأپلو في الطرف الآخر ، وبالقرب من هذا الضريح الأخير أنشئوا ضريحاً لفينوس (زُهَرَة) بمپيانا Pompeiana راعية المدينة وحاميتها . ولكن أهل المدينة لم يكونوا قوماً متدينين ، فقد شغلتهم الصناعة ، والسياسة ، والألعاب ، والصيد فلم تترك لهم وقتاً للعبادة ، وكانوا إذا عبدوا عظموا عضو التذكير واتخذوه أهم الرموز لطقوسهم الديونيشية[١٧] . ولما أن زادت الشئون الاقتصادية والحكومية في مقدارها وخطرها ، وعلت قيمتها ، قامت أبنية عظيمة حول السوق اتخذت مراكز للأعمال الإدارية ، وللمساومات ، والمفاوضات ، وتبادل السلع .

وفي وسعنا أن ندرك مما نعرفه عن المدن الإيطالية الحديثة كيف كانت الشوارع المجاورة للسوق تعج بالبائعين الجائلين ، ويعلو فيها ضجيج البائعين والمشترين ، وعجيج الصناعات بالنهار والمرح بالليل . وقد عثر المنقبون في خرائب الحوانيت على بعض النُّقل ، والعيش ، والفاكهة ، المتفحمة أو المتحجرة التي لم تجد من يشتريها . وفي الشوارع على مسافة من السوق كانت الحانات ، ومحال الميسر ، وبيوت الدعارة ، كل منها يحاول أن يجمع هذه كلها فيه .

ولو لم يحرص أهل بمبي على أن ينقشوا عواطفهم على جدران المباني العامة لما استطعنا أن نتخيل ما كانت عليه حياتهم من حدة ومضاء . وقد نقلت ثلاثة آلاف من هذه النقوش ، وأكبر الظن أن آلافاً أخرى لم يتح لها البقاء ، وقد اكتفى ناقشوها في بعض الأحيان بذكر أسمائهم وفحشهم الجرىء ، الذي لا يزال

الناس يحبون أن يفعلوه ، ودون بعضهم الأوامر التي كانوا يصدرونها إلى أعدائهم مؤملين أن يطيعها هؤلاء الأعداء كقول واحد منهم « من ساميوس Samius إلى كورنليوس Cornelius : اشنق نفسك » . ومن النقوش ما هو رسائل حب كثيراً ما تكون شعراً : فقد كتبت رميولا Romula تقول إنها « وقفت هنا مع استفيلس Stephylus » ؛ وكتب شاب متيم : «وداعاً يا فكتوريا، وفى وسعك أيا كان مكانك أن تعطسى أحسن عطسة »[١٨].

وليست الحوادث العامة أو القرابين الخاصة المنحوتة أو المرسومة على الجدران بأقل عدداً من هذه الرسائل ، فترى الملاك يعانون أيام عطلتهم ، والذين فقد لهم متاع يعلنون عن فقده ، ونقابات أرباب الحرف وغيرها من الجماعات تعلن عن تأييـــد المرشحين الذين يؤمل نجاحهم فى حملات الانتخابات للبلدية ؛ فهاهم أولاء « صائدو السمك يرشحون پوپديوس روفس Popfdius Rofus ليكون إيديلا Aadile » و « وقاطعو الأخشاب وبائعو الفحم النباتي يطلبون إليكم أن تنتخبوا مارسلينس »[١٩] ؛ وها هي ذي بعض النقوش الخشنة تعلن عن ألعاب المجالدة ، وبعضها الآخر يمتدح شجاعة بعض مشهوري المجالدين مثل سلادس Celadus ؛ وها هي ذي « العذارى تتحسر » أو تهيم بأحد الممثلين المحبوبين — « أى أكتيوس Actius ، يا حبيب الشعب عجل بالعودة ! »[٢٠] . لقد كانت پمپي تعيش لكي تتلذذ ، فقد كان فيها ثلاثة حمامات عامة ، وساحة للتدريب الرياضي ، ودار تمثيل صغيرة تتسع لألفين وخمسمائة من النظارة ، وأخرى كبيرة تتسع لخمسة آلاف ، ومدرج يستطيع عشرون ألفاً أن يستمتعوا فيه بآلام الموت يقاسيها غيرهم من الناس بدلا منهم . وهاهو ذا نقش يقول : « سيقتتل فى پمپي فى الرابع والعشرين ، والخامس والعشرين ، والسادس والعشرين ، من نوفبر ثلاثون زوجاً من المجالدين . . . قدمهم حاكما المدينة . وسيكون هناك صيد ؛ مرحباً

بك يا ميوس Maius ، مرحى يا پاريس ! » وكان ميوس هذا أحد حاكمى المدينة ، أما پاريس فكان كبير المجالدين .

وتدل آثار داخل المنازل على أن الأهلين كانوا يحيون حياة مفعمة بالنعيم تجملها الفنون المختلفة . فأما البيوت فتكاد تكون خالية من النوافذ والتدفئة فيها نادرة ؛ ولا تظهر الحمامات إلا فى منازل الأغنياء ، وكان لبعض الدور بركة فى حديقة محاطة بالعمد . وكانت أرض الحجرات تصنع من الأسمنت أو الحجر ، أو من الفسيفساء أحياناً ، وقد نقش رجل صريح من طلاب المال على أرض داره هذه العبارة : « مرحباً بالكسب » ؛ ونقش آخر « الكسب لذة »[٢٦] . ولم يعثر إلا على القليل من الأثاث ، فقد كان كله تقريباً من الخشب ، ولهذا لم يبق منه شيء يذكر ؛ غير أن عدداً قليلا من النضد ، والأسرة ، والكراسى ، ومصابيح الرخام أو البرنز قد نجت من التلف ؛ وفى وسع الإنسان أن يرى فى متحفى پمپى ونابلى مجموعة متنوعة من الأدوات المنزلية ، من أقلام ، ومحابر ، وموازين ، وأدوات المطبخ ، والزينة ، والآلات الموسيقية .

وتوحى البقايا الفنية التى كشفت فى پمپى أو بالقرب منها بأن الأشراف الذين يسكنون فى القصور الصغيرة ذات الحدائق لم يكونوا هم وحدهم الذين يستمتعون بالمميزات الثقافية للحياة ، بل كان يشاركهم فيها تجار المدينة . فقد كشفت فى هركيولانيم مكتبة خاصة كانت تحتوى على ١٧٥٦ مجلداً أو ملفاً ؛ ولا داعى هنا لأن نعيد ما قلناه من قبل عن كؤوس البسكوريالى Boscorealc أو المناظر الرائعة والنساء الرشيقات المصورة على جدران منازل پمپى . ولقد كان فى كثير من المساكن تماثيل ذات روعة ، وكان فى السوق العامة وحدها مائة وخمسون تمثالا . وقد عثر فى هيكل چوپتر على رأس لهذا الإله قد يكون فدياس نفسه هو الذى سواه ؛ فأنت ترى فيه القوة والعدالة ماثلتين فى ثنايا الشعر الغزير واللحية الكثة . وكان فى هيكل أپلو تمثال لديانا ثقب مؤخر رأسه حتى يستطيع كاهن

مختبيء أن يتحدث بالنبوءات . وقد عثر في أحد قصور هركيولانيم الصغيرة على طائفة من التماثيل والأدوات البرنزية كانت من الكثرة بحيث امتلأت بها حجرة ذائعة الصيت في متحف نابلي ؛ وأكبر الظن أن روائع هذه المجموعة — عطارد المستريح ، ونارسس أو ديونيشس ، والساتير السكران وإله الحقول الراقص — كانت يونانية بأصلها أو بصنعها ؛ وهي تكشف عن حذق في الصنع ، وعن السرور غير المحتشم البادي في الجسم الصحيح السليم ، وهما الخاصتان الماثلتان في الفن الهركستيلي . ومن هذه التماثيل تمثال نصفي من البرنز لأحد الدلالين في مدينة بمبي ويدعي ل . كاسليوس أيوكندس L. Caacilius Iuocundus الذي وجدت حساباته منقوشة على ١٥٤ لوحاً من الشمع عثر عليها في داره بمدينة بمبي . ويظهر في هذا التمثال الرأس الأصلع والوجه الصارم غير المجرد من الحنو . في هذا التمثال تمتزج الخشونة بالذكاء ، والحكمة بالتأليل الجلدية ، وهو من صنع مثال معاصر لصاحبه — ولعله مثال إيطالي — أظهر فيه شخصية صاحبه على حقيقتها وبأحسن ما تظهر الشخصيات . والحق أن الإنسان لتستريح نفسه لوجود هذه الشخصية الواقعية إلى جانب ما يحيط بها في متحف نابلي من تماثيل الآلهة والإلهات الخالية وجوهها من الغضون ، والتي تكاد تنطق معارفها الملساء الوديعة المستكنة لتخبرنا بأن أصحابها لم يعيشوا قط على ظهر الأرض .

الفصل الثالث

نظام البلديات وحياتها

لم تكن الحياة الخاصة والعامة ، حياة الأفراد وحياة الجماعات ، أحد وأقوى مما كانت فى إيطاليا القديمة ؛ غير أن حوادث هذه الأيام تبلغ من الخطر ومن استنفاد الجهود حداً لا نستطيع معه أن نولى تفاصيل نظام البلديات فى عهد القياصرة كثيراً من عنايتنا ، ومن أجل هذا لم تعد نظم الحكم المختلفة المميزة أو الحقوق السياسية المتتابعة التى كان الأهلون يعضون عليها بالنواجذ ، لم تعد هـذه أو تلك جزءاً من ذلك الماضى الحى الذى هو موضوع بحثنا ومثار اهتمامنا .

لقد كان من الخصائص الأساسية للإمبراطورية الرومانية أنها تتألف من مجموعة من دول — المدن تحكم نفسها بنفسها إلى حد ما ، وتضم كل منها فى مؤخرتها أرضين واسعة تملكها وتسيطر عليها ، مع أن الإمبراطورية كلها كانت مقسمة إلى ولايات . وكان معنى الوطنية فى هذه الإمبراطورية حب الشخص لمدينته أكثر مما تعنى حبه للإمبراطورية . وكان الأحرار فى كل مدينة يقنعون فى الأحوال العادية بممارسة حقوقهم السياسية المحلية البحتة ؛ وقلما كان الذين نالوا حقوق المواطنية الرومانية من غير أهل رومة يذهبون إلى تلك العاصمة ليعطوا أصواتهم فى الانتخابات ؛ ولم يكن اضمحلال الجمعيات العامة فى العاصمة مصحوباً باضمحلال مماثل له فى مدن الإمبراطورية كما تدل على هذا بمبى نفسها . وكان لمعظم البلديات الإيطالية مجالس شيوخ Curia — ولمعظم المدن الشرقية مجالس boulé تشريعية — تسن قوانينها وجمعيات comitia ekklesia تختار حكامها ؛ وكان ينتظر من حاكم المدينة أن يهب مدينته مبلغاً كبيراً من المال Summa honoraria (والكلمة الثانية مشتقة من honas بمعنى المنصب) نظير تفضلها

عليه بأن يكون حاكماً لها ، وقد جرت العادة أيضاً أن يتبرع من حين إلى حين ببعض المال للأغراض أو الألعاب العامة . وإذ كان المنصب لا ينال عليه صاحبه أجرا فإن دمقراطية الأحرار - أو أرستقراطية الأحرار - قد استحالت فى كل مكان تقريباً ألجركية يتولاها ذوو المال والجاه .

وظلت البلديات مائتى عام من عهد أغسطس إلى عهد أورليوس فى رخاء وازدهار . ولسنا ننكر أن الكثرة الغالبة من أهلها كانت من الفقراء بطبيعة الحال ، فقد تكفلت الطبيعة والميزات المختلفة بإيجاد هذه الحال ، ولكن التاريخ لم يحدثنا قط عن عهد من العهود ، قبل هذا العهد أو بعده ، فعل فيه الأغنياء للفقراء قدر ما فعله أغنياء هذه المدائن لفقرائها : ذلك أن نفقات إدارة المدينة كلها تقريبا ، وما يلزم من المال لتمثيل المسرحيات ، وغير ذلك من ضروب التسلية ، والألعاب ، وتشييد الهياكل ، ودور التمثيل ، والملاعب ، ومدارس التدريب الرياضى ، والمكتبات العامة ، والباسلقات ، والقنوات التى تنقل ماء الشرب للمدن ، والقناطر والحمامات ، وتجميل هذه كلها بالأقواس والأروقة ذات العمد ، والصور ، والتماثيل ، كانت كلها يتحملها ذوو اليسار . وقد ظل الوطن طوال المائتى عام الأولى من عهد الإمبراطورية يدفع أولئك الأقوام إلى التنافس فيما بينهم للقيام بهذه الأعمال الخيرية تنافساً أدى فى بعض الأحيان إلى إفلاس عدد من الأسر التى كانت تمولها ، أو المدن التى تتكفل بها بعد إقامتها من مال الأغنياء . وقد جرت العادة فى أيام القحط أن يبتاع الأغنياء الطعام ويوزعوه من غير ثمن على الفقراء ، وكانوا فى بعض المناسبات يقدمون لجميع المواطنين ، ولجميع السكان أحياناً ، زيتاً أو خمراً بالمجان ، أو يقيمون لهم وليمة عامة ، أو يهبونهم قدراً من المال . وخلدت النقوش الباقية إلى الآن كثيراً من هذا السخاء . فهاهو ذا مثرٍ من أصحاب الملايين يهب مدينة ألتينم فى فنيشيا ١٫٦٠٠٫٠٠٠ سسترس لإقامة حمامات عامة ، وها هى ذى سيدة تشيد هيكلا ومدرجا فى كسينم Casinum ؛

وهاهو دا ديسميوس تلس Decimius Tullus يهب تركوينياى Tarquinii حمامات تكلفت ٢٠٠,٠٠٠,٥ سسترس ؛ وهاهى ذى كرمونا Cremona التى دمرها جنود فسپازيان لا تلبث أن يعاد بناؤها من تبرعات المواطنين .. وتذكر النقوش اسمىْ طبيبين قدّما كل ما يملكان هبات لنابلى . وفى اسقيا التى كانت مزدحمة بالسكان دعا لوسليوس جمالا Lucilius Gemala جميع أهلها إلى الطعام ورصف فيها طريقاً طويلا واسعا ، ورمم سبعة هياكل أو أعاد بناءها ، وأعاد بناء حمامات البلدية ، ووهب خزائنها ثلاثة ملايين سسترس[٢٢] .

وكان من عادة بعض الأغنياء أن يقيم الواحد منهم وليمة يدعو إليها قسما كبيراً من المواطنين فى عيد ميلاده أو لمناسبة انتخابه إلى منصب عام ، أو زواج ابنته ، أو ارتداء ابنه الطوغة ، دليلا على بلوغه سن الرشد ، أو تدشين بناء أهداه إلى المدينة . وكانت المدينة تجزى هذا المحسن على إحسانه بأن تعينه فى منصب عام ، أو تقيم له تمثالا ، أو تمتدحه بقصيدة أو نقش . ولم يكن الفقراء يشعرون بالذلة حين ينالون هذه العطايا كلها ، ذلك بأنهم كانوا يتهمون الأغنياء بأنهم لم يحصلوا على هذا المال الذى يفعلون به الخير إلا من طريق الاستغلال ، ومن أجل هذا كانوا يتطلبون الاقتصاد فى المبانى الجميلة والتماثيل ، ويلحون فى تخفيض ثمن الحبوب والإكثار من الألعاب[٢٣] .

وإذا أضفنا إلى هبات الأفراد ، ما كان يهبه الأباطرة للمدن ، وما كان يقام فيها بأموالهم من مبانٍ ، وما يقدمونه لها من مال لتخفيف ما يحل بها من الكوارث ، فضلا عن الأعمال العامة والمناصب التى كانت تمول من خزائن البلديات ، إذا فعلنا هذا بدأنا نحس بفخامة المدن الإيطالية وعزها فى عهد حكومة الزعامة . لقد كانت شوارعها مرصوفة ، وكان فيها مجارٍ لنقل المياه القذرة ، وشرطة لحماية الأمن ، وكثير من وسائل الزينة ، وخدمة طبية مجانية للفقراء من أهلها ، وماء نقى نظيف يصل إلى الدور فى أنابيب نظير أجر قليل ، وطعام يقدم

للفقراء بثمن بخس . وكانت الحمامات فى معظم الأحوال مباحة من غير أجر ينفق عليها من هبات المحسنين ، والمال يقدم للأسر الفقيرة مساعدة لها على تربية الأبناء والإكثار منهم ؛ وكانت المدارس ودور الكتب تنشأ للتعليم والمطالعة ، والمسرحيات تمثل ، والحفلات الموسيقية تقام ، والألعاب تنظم لتنافس بها تلك المدن رومة غير عابئة بما تنفقه فيها من مال . ولم تكن حضارة المدن الإيطالية حضارة مادية بالقدر الذى كانت عليه فى العاصمة ؛ فقد كانت هذه المدائن تتنافس فى إقامة المدرجات ، ولكنها أقامت كذلك هياكل فخمة ، يضارع بعضها أحسن ما كان منها فى رومة[٢٤] ، وجعلت شهورها مرحة بما كانت تقيمه من أعياد دينية ذات بهجة . وكانت تنفق بسخاء على الأعمال الفنية ، وتنشئ القاعات الرحبة للمحاضرات ، وللشعراء ، والسوفسطائيين ، والخطباء ، والفلاسفة ، والموسيقيين . وكانت ييسر لمواطنيها أسباب الصحة ، والنظافة ، والتنزه ، والحياة الثقافية القوية . ومنها ، لا من رومة ، خرج عظماء المؤلفين اللاتين ، وعدد كبير من أحسن ما فى متاحفنا من روائع النحت كتمثال نيكى (العدالة) فى متحف نابلى ، وتمثال يروس (الحب) فى سنتومسلا Centumecella ، وتمثال زيوس فى أتركولى Atricolic . وكانت تقوم بحاجيات عدد من السكان ، لا يقلون عن عددهم قبل هذا القرن ، فى المدن التى قامت مكانها وتؤمنهم من مصائب الحرب تأميناً منقطع النظير .

وقصارى القول أن القرنين الأول والثانى من التاريخ الميلادى قد شهدا ذروة مجد شبه الجزيرة العظيمة .

الباب الثاني والعشرون

تمـــدين الغرب

الفصل الأول

روما والولايات

كانت الوصمة التي يوصم بها رخاء إيطاليا – إذا غضضنا النظر عن نظام الاسترقاق الذي كان نظاماً عاماً في الدول القديمة – هي اعتمادها إلى حد ما على استغلال الولايات . لقد كانت إيطاليا معفاة من الضرائب لأن الولايات كانت تؤدي لها الشيء الكثير نهباً أو خراجاً ، ومن ذينكما النهب والخراج كان أصل الثروة التي نشأ عنها ازدهار المدن الإيطالية . وكانت رومة قبل عهد قيصر تعدّ الولايات أقاليم تمتلكها بحق الفتح ، وتعد سكانها جميعاً رعايا رومانيين ، ولم يكن منهم إلا عدد قليل يعدون ضمن المواطنين الرومان ؛ وكانت أرض تلك البلاد بأجمعها ملكاً للدولة الرومانية ، يمتلكها أصحابها على أنها منحة لهم من قِبل الحكومة الإمبراطورية ومن حقها أن تستردها منهم . وأرادت رومة أن تقلل من احتمال قيام الثورات في الأقاليم المفتوحة فقسمتها ولايات صغيرة وحرّمت على كل ولاية أن يكون بينها وبين غيرها من الولايات معاملات سياسية مباشرة ، وكانت تفضل رجال الأعمال على الطبقات الدنيا في جميع الولايات . وكان سر الحكم الروماني وشعاره هو فرّق تسد Divide et impera .

ولعل شيشرون كان يبالغ حين قال عن أمم البحر الأبيض المتوسط ، في

سياق تشهيره بفريس Verres ، إن بلادها كانت مقفرة فى عهد الجمهورية :
« إن كل الولايات تندب حظها ، وجميع الأحرار يصرخون ويولولون ،
وجميع الممالك تحتج على قسوتنا وشرهنا ، وليس ثمة مكان فيما بين المحيطين ،
مهما يكن قاصياً أو خافياً ، لم يشعر بوطأة جشعنا وظلمنا »(١) . أما الزعامة
فكانت أكثر سخاء من الجمهورية فى معاملتها للولايات ، ولم يكن هذا
كرماً منها بل كان حسن التدبير . فقد كانت الضرائب فى أيامها غير
باهظة ، وكانت تحترم الأديان واللغات والعادات المحلية ، وكانت حرية
الكلام مباحة إلا إذا كانت طعناً فى السلطة العليا ، وسمحت لها أن تحتفظ
بقوانينها المحلية ما دامت هذه القوانين لا تتعارض مع مكاسب الرومان
وسيادتهم . وقد اتبعت خطة مرنة حكيمة أمكنها بها تقسيم الولايات الخاضعة
لسلطانها أقساماً متفاوتة فى المرتبة ، وتقسيم الأهلين فى داخل كل ولاية
طبقات متفاوتة القدر كذلك . فقد كانت بعض البلديات كأثينة ورودس
« مدناً حرة » ، تعطى جزية ، ولا تخضع لحاكم الولاية ، وتدير شئونها
الداخلية بنفسها من غير أن تتدخل فيها رومة ما دامت تحتفظ بالنظام
الاجتماعى والسلم . وقد سمحت رومة لبعض الممالك القديمة أمثال نوميديا
وكبدوكيا أن تحتفظ بملوكها ، ولكن هؤلاء الملوك كانوا « أقيالا » لرومة
يعتمدون على حمايتها وسياستها ، وكان يطلب إليهم أن يمدوها بالمال والعتاد
إذا أرادت ذلك . وكان حاكم الولاية يجمع فى شخصه السلطة التشريعية
والتنفيذية ، والقضائية ، ولم يكن يحد من سلطانه إلا المدن الحرة ، وحق
المواطن الرومانى فى أن يلجأ إلى الإمبراطور ، وللرقابة المالية التى كان يقوم
بها الكوستر أو الرقيب .

غير أن هذا السلطان المطلق كان يغرى الحكام بأن يسيئوا استخدام
سلطتهم ، ومع أن المدة التى كان يتولى فيها الحاكم منصبه قد طالت فى عهد
الزعامة ، ومع أن مرتبه ومخصصاته الأخرى قد زيدت زيادة كبيرة ، ومع أن
مسئوليته عن أعماله المالية أمام الإمبراطورية قد قللت من فساد الحكم وسوء

استعمال السلطة ، فإن فى وسعنا أن نستدل من رسائل بلنى ومن فقرات كتاب تاستس ، على أن ابتزاز المال والفساد لم يصبحا من الأمور النادرة فى آخر القرن الأول .

وكانت جباية الضرائب أهم أعمال الحاكم وأعوانه . وكانت الدولة فى عهد الإمبراطورية تقوم بإحصاء عام فى كل الولايات ، ويقصد به فرض الضرائب على الأرض وعلى الأملاك — ومنها الحيوانات والعبيد . وأرادت الدولة أن تشجع زيادة الإنتاج فاستبدلت بالعشور خراجاً محدد القيمة ؛ ولم يعد الملتزمون هم الذين يجبون الضرائب ، وإن ظلوا يجبون بعض العوائد الجمركية فى الثغور ، ويشرفون على الأعمال الجارية فى غابات الدولة ومناجمها وعلى الأشغال العامة فيها . وكان ينتظر من الولايات أن تسهم عمل تاج من الذهب لكل إمبراطور جديد ، وأن تقوم بتكاليف إدارة الولاية ، وأن ترسل فى بعض الحالات سفناً محملة بالغلال إلى رومة . واحتفظ فى الشرق بالعادة القديمة ، عادة أداء الأفراد خدمات عامة للدولة ، ثم انتشرت فيما بعد من الشرق إلى الغرب . وكان للحكومة المحلية أو للوالى بمقتضى هذه العادة أن « يطلب » إلى الأغنياء أن يقدموا قروضاً للحرب ، وسفناً للأسطول ، ومبانى للأغراض العامة ، وطعاما لضحايا القحط ، ومغنين فى الأعياد والمسرحيات .

ويقول شيشرون ، وهو ممن تولوا بعض المناصب العامة فى الدولة ، إن الضرائب التى كانت تؤديها الولايات لا تكاد تكفى نفقات الإدارة والدفاع [٣] . وكان « الدفاع » عندهم يشمل القضاء على الفتن والثورات ، وأكبر الظن أن نفقات « الإدارة » كانت تشمل المطالب التى خلقت ذلك العدد الكبير من الرومان أصحاب الملايين . ومن واجبنا ألا نرى حرجاً فى أن ترسل أية سلطة يناط بها حفظ الأمن والنظام فى ذلك الوقت جباة يجمعون أكثر مما يكفى لهذين الغرضين . على أن الولايات قد عمها الرخاء فى عهد حكومة الزعامة على الرغم من

هذه الأعباء كلها . ذلك بأن الإمبراطور ومجلس الشيوخ قد فرضا رقابة شديدة على الموظفين فى الولايات ، وكانا يفرضان أشد أنواع العقاب على كل من يسرق من الأموال أكثر مما تبيحه له منزلته . وكان ما يؤخذ من الولايات أكثر مما يتطلبه الفرضان السابق ذكرهما يرد آخر الأمر إليها ثمناً لبضائعها . وبفضل هذا العون الذى كان يقدم للصناعات أصبحت الولايات، أقوى من إيطاليا الطفيلية المزعزعة الكيان . وجدير بنا أن نختم هذا الفصل بالعبارة الآتية المنقولة عن أفلوطرخس ، وهى أن نعمتين يجب أن تضمنهما الدولة للشعب قبل كل شىء : وهما الحرية والسلام ؛ « فأما السلام فلسنا فى حاجة إلى أن نشغل أنفسنا به ، لأن الحروب كلها قد وضعت أوزارها . وأما الحرية فإن لنا منها ما تركته لنا الحكومة (رومة) ؛ ولعلها لو أبقت لنا أكثر مما فعلت لما كان ذلك من مصلحتنا »[٤] .

الفصل الثاني

آفريقيـــة

ضمت كورسكا وسردينيا معاً وتكونت منهما ولاية واحدة ، ليست جزءاً من إيطاليا ؛ وكان الجزء الأكبر من كورسكا أرضاً جبلية مقفرة ، يصيد فيها الرومان الأهلين بالكلاب ليبيعوهم عبيداً[٥] . أما سردينيا فكانت تمدهم بالعبيد ، والفضة ، والنحاس ، والحديد ، والحبوب ؛ وكان فيها ألف ميل من الطرق الصالحة ومرفأ جيد ممتاز هو مرفأ كرالس Carales (كجليارى الحالية) . وكانت صقلية قد انحطت منزلتها حتى كادت تصبح ولاية زراعية محضة من الولايات التي تمد رومة الجائعة بالطعام . وكان الجزء الأكبر من أرضها الصالحة للفلاحة قد جعل ضياعا كبرى لتربية الماشية ، يرعاها عبيد لا ينالون إلا أقل الغذاء والكساء ، وكثيراً ما كانوا يفرون من عملهم لهذا السبب ويؤلفون عصابات للسلب والنهب . وكان سكانها في عهد أغسطس يبلغون ٧٥٠٫٠٠٠ ، (وقد بلغوا في عام ١٩٣٠ حوالى ٣٫٩٧٢٫٠٠٠) . وكانت أكثر مدنها الخمس والستين ازدهاراً هي قطانيا Catania ، وسرقوسة ، وتورومينيوم Touromenium (تورمينا Taormina الحالية) ، ومسانا ، وأجرجنتم ، وبنورمس Panormus (پلرمو الحالية) . وكان في سرقوسة وتورمينيوم ملهيان يونانيان فخمان ، لا يزالان يستخدمان لهذا الغرض حتى الآن . وكانت سرقوسة ، على الرغم مما أصابها من النهب على يدى ڤريس Verres مملوءة بالمباني الرائعة ، والتماثيل الشهيرة ، والمواقع التاريخية بدرجة يسرت العيش للأدلاء المحترفين الذين كانوا يصحبون السياح الكثيرين الوافدين إلى تلك الجزيرة[٦] ، وكان شيشرون يحسبها أجمل مدينة في العالم كله . وكان لمعظم الأسر الغنية ضياع أو بساتين في

ضواحيها وكان جميع ريفها تعطره أشجار الفاكهة والكروم كما تعطره فى هذه الأيام .

وعاد على أفريقية كل ما فقدته صقلية بسيطرة الرومان عليها ، فقد أخذت تحل شيئاً فشيئاً محل تلك الجزيرة فى توريد الحبوب مكرهة إلى رومة ، ولكن الجنود ، والمستعمرين ، ورجال الأعمال ، والمهندسين الرومان جعلوا تلك الولاية جنة وارفة الظلال إلى حد لا يكاد يصدقه العقل . وما من شك فى أن الفاتحين الجدد قد وجدوا فيها حين قدموا إليها أصقاعاً خصبة غنية ؛ فقد كان بين الجبال العابسة المطلة على البحر الأبيض المتوسط وسلسلة جبال أطلس التى تصد عنها رمال الصحراء واد شبه مداري يمده نهر بجرداس (مجردا) Bagradas بكفايته من الماء ؛ وكانت الأمطار تهطل فيها شهرين من السنة لتعوض الأهلين عن عملهم الزراعى الشاق الطويل الذى علمهم إياه ماجو Mago وأرغمهم عليه ماسينسا Masinissa . ولكن رومة أصلحت ما وجدته فيها من الأساليب الزراعية وزادت عليه . فقد شاد مهندسوها السدود على مجارى الأنهار التى تنحدر من التلال الجنوبية ، واختزنوا الزائد من المياه فى خزانات إبان موسم الأمطار ، وصبوه فى قنوات للرى فى الأشهر الحارة التى تجف فيها مياه الأنهار[٧] . ولم تكن رومة تفرض على هذه الولايات أكثر مما كان يجبيه منها رؤساؤها الوطنيون ، ولكن فيالق رومة وتحصيناتها كانت أقدر من حكوماتها الوطنية على حمايتها من القبائل البدوية التى تهبط عليها من الجبال ؛ وكان يضم إليها ميل بعد ميل من الصحراء أو الأراضى البور فتزرع أو تسكن . وكان الوادى ينتج كميات من زيت الزيتون بلغت من الوفرة حداً أدهش العرب حين قدموا إلى هذه البلاد فى القرن السابع ، إذ وجدوا أن فى وسعهم أن ينتقلوا من طرابلس إلى طنجة دون أن يبتعدوا عن ظلال أشجار الزيتون[٨] . وأخذت البلدان والمدن يتضاعف عددها ويرتفع شأنها بفضل ما اتبع فيها من الأساليب المعمارية ،

ووجدت الآداب فيها صوتاً جديداً يعبر عنها . وحسبنا دليلا على ما بلغته أفريقية الرومانية من الرقى والثراء أن نشاهد آثار ما خلفه الرومان من أسواق وهياكل وقنوات لجر مياه الشرب للمدن ، ودور للتمثيل فى أرض أصبحت الآن قفراً يباباً . ذلك أن هذه الحقول النادرة قد استحالت الآن صحارى رملية ، ولم يكن سبب هذا تغير الجو بل كان سببه تبدل الحكم — من دولة تضمن للبلاد الأمن الاقتصادى والنظام إلى أخرى تركت العنان للفوضى والإهمال بخربان الطرق والخزانات وقنوات الرى .

وكان على رأس هذا الرخاء المستعاد مدينة قرطاجنة التى بعثت وقتئذ بعثاً جديداً . ذلك أن أغسطس قد احتضن بعد موقعة أكتيوم مشروع كيوس وقيصر الذى أخفق من قبل ، وأرسل إلى قرطاجنة بعض الجنود الذين أراد أن يعوضهم عن إخلاصهم وانتصاراتهم أرضاً يهبها لهم ليستعمروها . وسرعان ما انتزعت قرطاجنة مرة أخرى من يتكا تجارة الإقليم الصادرة منه والواردة إليه ، وذلك بفضل موقعها الجغرافى الممتاز ، ومرفئها الجيد ، ودال نهر بجرداس الخصبة ، والطرق الصالحة التى أنشأها المهندسون الرومان أو أعادوا فتحها ؛ ولم يمض على تأسيس المدينة الجديدة قرن واحد حتى أضحت أكبر مدائن الولايات الغربية ، وأقام أغنياء التجار والملاك قصوراً فخمة على تل برسا Byrsa التاريخى ، أو بيوتاً صغيرة ذات حدائق فى الضواحى الشجراء ؛ أما الفلاحون الذين تركوا الأرض لعجزهم عن منافسة أصحاب الضياع الكبرى فقد انضموا إلى صعاليك المدن وإلى الأرقاء، وعاشوا فى أحياء وبيوت قذرة حياة العدم والفاقة التى جعلتهم يرحبون فيما بعد بدعوة المسيحية إلى المساواة . وقامت البيوت فى المدينة من ست طبقات أو سبع ، وتلألأ الرخام فى المبانى العامة ، وغصت الشوارع والميادين بالتماثيل المنحوتة على الطراز اليونانى . وشيدت الهياكل من جديد لآلهة القرطاجنيين القديمة ، وظل ملكارت Melkart حتى القرن الثانى بعد الميلاد يستمتع بالضحايا

من أطلال الأحياء[٩] . وأخذ أهل البلاد ينافسون الرومان فى حب الترف ، وأدهان التجميل ، والحلى ، والشعر المصبوغ ، وسباق العربات ، وألعاب المجالدين . وكان من بين المناظر البارزة فى المدينة حماماتها العامة العظيمة التى وهبها لها ماركس أورليوس . وكانت فيها قاعات للمحاضرات ، ومدارس لتعليم البيّان ، والفلسفة ، والطب ، والقانون ، مما جعل قرطاجنة مدينة جامعية لا يفوقها من هذه الناحية إلا أثينة والإسكندرية ؛ وفد إليها أپوليوس Apuleius وترتليان Tertullian ليدرسا فيها جميع فروع العلم ، وقد دهش القديس أوغسطين من مرح الطلاب وفساد أخلاقهم ، فقد كان يحلو لهم أن يقتحموا قاعات المحاضرات ويخرجوا منها الأستاذ وتلاميذه[١٠] .

وكانت قرطاجنة حاضرة الولاية المسماة أفريقية ومحلها الآن شرق بلاد تونس . ونشأ من رواج التجارة فى جنوبى هذه المدينة على الشاطئ الشرقى طائفة من المدن أخذت ثروتها القديمة تعود إليها بعد اثنى عشر قرناً من الزمان حتى دهمتها الحروب فى هذه الأيام ، ومن هذه المدن القديمة حضرمنتم Hadrumentum (ومحلها الآن سوسة) ولپتس Leptes الصغرى ، وثپسوس Thapsus وتكاپى Tacapae (قابس الحالية) . وكان إلى شرقيها على البحر الأبيض إقليم يدعى تريپوليس Tripolis (طرابلس) وسمى كذلك لأنه حلف مكون من ثلاث مدن : أويا Oea (طرابلس الحالية) التى أسسها الفينيقيون قبيل عام ٩٠٠ ق . م ، وسبراتا Sabrata ولپتس مجنا (الكبرى) (لبدة الحالية) : وهذه البلدة الأخيرة هى مسقط رأس الإمبراطور سپتميوس سفيرس Septimius Severus فقد ولد فيها عام ١٤٦م ؛ ووهبها فى حياته باسلقا وحماما عاما تدهش آثاره السائح أو المحارب فى هذه الأيام . وكانت طرق مرصوفة تسير عليها قوافل الإبل تصل هذه الثغور بالمدن الداخلية : سفتولا Safetula وهى الآن قرية صغيرة بها آثار هيكل رومانى عظيم ، وثسدروس Thysdrus (الجم) ، وكان فيها مدرج

يتسع لستين ألفاً ، ونجا Thugga (دجا) التى تشهد خرائب ملهاها ذى العمد الكورنثية الرشيقة بثراء أهلها وحسن ذوقهم .

وكانت فى شمال قرطاجنة أمها ومنافستها القوية يتكا Utica ، وفى وسعنا أن نلمح ما كانت عليه من ثراء فى عهد الرومان ، إذا عرفنا أن ثلثمائة من رجال المصارف وبائعى الجملة من الرومان كانت لهم فروع فيها عام ٤٦ ق . م . وكان الإقليم التابع لها يمتد شمالا إلى هپو ديرهيتس Hippo Diarhytus بنزرت الحيالية) ، وكان يمتد فيها طريق محاذ لشاطئ البحر متجه نحو الغرب يصلها بمدينة هبو رجيوس Hippo Regius (بونه) ، التى أضحت بعد زمن قليل كرسى أبرشية القديس أوغسطين . وكان إلى جنوبها فى الداخل مدينة سرتة Cirta (قسطنطينية) عاصمة ولاية نوميديا ، وفى غرب هذه المدينة الأخيرة بلدة تمجادى Thomugadi (تمجاد) ، التى تكاد تحتفظ بآثارها احتفاظ پمپى ؛ ففيها الشوارع المرصوفة المعمدة ، والمجارى المسقفة ، وفيها قوس نصر ظريف ، وسوق عامة ، وبناء مجلس الشيوخ ، وباسلقا ، وهياكل ، وحمامات ، وملهى ، ومكتبة ، وبيوت خاصة كثيرة . وقد عثر فى أرض السوق على لوحة للعب الداما نقشت عليها هذه العبارة : Venari, lavari, ludere, rider, hoc est vivere — ومعناها : « الصيد ، والاستحمام ، واللعب ، والضحك ، هذه هى الحياة »[١٢] ؛ والفيلق الثالث الذى كان وحده يحرس الولايات الأفريقية هو الذى أنشأ تمجادى حوالى عام ١١٧ م . ثم اتخذ فى عام ١٢٣ مركزاً بقيادته يقيم فيه أكثر مما يقيم فى تمجادى ويبعد عنها بضعة أميال نحو الغرب ، وأنشأ فيه مدينة لمبسيس Lambaesis (لمبز) . وهنا تزوج الجنود واستقروا ، وعاشوا فى بيوتهم أكثر مما كانوا يعيشون فى المعسكر . ولكن معسكرهم نفسه كان مرحاً — فخماً ، جميل الزينة ، به حمامات لا تقل فى جمالها عن أية حمامات أخرى فى أفريقية . أما فى خارج المعسكر فقد أعانوا الأهلين فى بناء هيكل لجوپتر ، وعدد من الهياكل ، وأقواس النصر ، وملعب

يقام فيه الصراع ويحدث فيه الموت فيخففان من ملل الحياة السلمية الرتيبة .

وكان الذى مكن فيلقاً واحداً من حماية أفريقية الشمالية من القبائل المغيرة الضارية فى الداخل هو إنشاء شبكة من الطرق ، كان الغرض الأول منها عسكريا ولكنها كانت عظيمة النفع من الناحية التجارية ، . وكانت تربط قرطاجنة بالمحيط الأطلنطى ، والصحراء بالبحر الأبيض المتوسط . وكان الطريق الرئيسى يتجه نحو الغرب من سرتة إلى قيصرية عاصمة موريتانيا (مراكش) ؛ وهنا نشر الملك چوبا الثانى Juba II أساليب الحضارة بين المورى Mauri أى السود (المغاربة) الذين اشتق من اسمهم اسم الإقليم فى الزمن القديم واسمه فى هذه الأيام . وكان چوبا الثانى هذا ابن چوبا الذى مات فى ثبسوس ، وأخذ وهو طفل إلى رومة ليزدان به موكب قيصر ؛ ثم عنى عنه ، وأخذ يدرس فى رومة حتى أصبح من جهابذة العلماء فى أيامه . وعيّنه أغسطس قيلا على موريتانيا وأمره أن ينشر بين بنى وطنه الثقافة الرومانية التى جد فى تحصيلها . ونجح فى هذه المهمة ، وكان من أسباب نجاحه أن امتد حكمه ثمانية وأربعين عاما ؛ واشد ما كانت دهشة رعاياه حين رأوا رجلا يكتب الكتب ويحكم . وجاء كلجيولا بابن چوبا هذا إلى رومة وأماته جوعاً ، وضم كلوديوس مملكته إلى رومة وقسمها ولايتين : موريتانيا سيزرينسس Caesariensis (موريتانيا القيصرية) وموريتانيا تنجتانا Tingitana (موريتانيا التنجتانية) نسبة إلى عاصمتها تنجيس Tingis وهى طنجة الحالية .

وكان فى هذه المدن الأفريقية مدارس كثيرة مفتحة الأبواب للفقراء والأغنياء على السواء . نسمع أنه كان يدرس فيها الاختزال[١٣] ، ويسمى چوڤنال أفريقية مربية المحامين[١٤] . وقد أنجبت فى هذا العهد مؤلفين أحدهما صغير والآخر كبير — هما فرنتو وأپوليوس . ولكن الأدب الأفريقى لم تكن له الزعامة على آداب العالم إلا أيام مجده فى عهد المسيحية . وكان لوسيوس أپوليوس شخصية غريبة جديرة بالتصوير ، أكثر من شخصية متانى المتعدد الكفايات وكان مولده فى

مدورا Madaura من أسرة عريقة النسب (١٢٤ م) ، وقد درس فيها وفى قرطاجنة وأثينة ، وبدد ثروة كبيرة ورثها عن أسرته ، وأخذ يتنقل من مدينة إلى مدينة ومن دين إلى دين ، وانضم إلى الجماعات ذات الطقوس الدينية الخفية ومارس السحر وألف كتباً كثيرة فى موضوعات تختلف من اللاهوت إلى مسحوق الأسنان ، وألقى محاضرات فى الفلسفة والدين فى رومة وغيرها من المدن ، ثم عاد إلى أفريقية وتزوج فى طرابلس من سيدة تكبره وتفوقه فى الثراء . فلما فعل هذا رفع أصدقاؤها وورثتها المنتظرون الأمر إلى القضاء مطالبين بإلغاء الزواج ، واتهموه بأنه حصل على موافقة السيدة عليه بفنون السحر ؛ ودافع الرجل عن نفسه أمام المحكمة بخطبة وصلت إلينا بعد أن أدخل عليها بعد أيامه كثير من الصقل والتنميق ، وكانت نتيجتها أن كسب القضية والزوجة ، ولكن الناس أصروا على الاعتقاد بأنه ساحر ؛ ولما ظهر المسيح أخذ خلفاء هؤلاء القوم يحطون من قدره بتعداد معجزات أپوليوس . وقضى الرجل بقية حياته فى مدورا وقرطاجنة يمارس صناعتى المحاماة والطب ، وكتابة الرسائل والخطب ، ولكن معظم ما كتب كان فى الموضوعات العلمية والطبيعية ، وقد أقامت له مدينته نصباً تذكاريا نقشت عليه باللاتينية العبارة الآتية : **الفيلسوف الأفلاطونى** ، ولو أنه استطاع العودة إلى الحياة لساءه ألا يذكره الناس إلا بكتابه **الحمار الذهبى** .

وهذا كتاب شبيه كل الشبه بكتاب **ساتريكون** Satyricon لمؤلفه بترونيوس ، بل هو أكثر منه غرابة وشذوذاً . وكان الاسم الأول لهذا الكتاب هو **أحد عشر كتابا فى التحول** Metamorphoseon Lebri XI ، وهو توسع غريب فى قصة رواها لوسيوس الپتراسى عن رجل انقلب حماراً . ويتألف من سلسلة غير مرتبطة من المغامرات ، والوصف ، والحوادث المحشورة فيها حشراً ، يتخللها السحر ، والرعب ، والفحش فى القول ، والحديث عن التقوى المرجاة .

ويروى لوسيوس بطل القصة كيف طاف بتساليا واستمتع فيها بعدد من الفتيات وألفى نفسه أينما حل فى جو من السحر . ومما جاء فى هذا الكتاب :

« وما كاد الليل ينقضى ويبزغ فجر يوم جديد حتى كان من حظى أن أستيقظ ، وأن أقوم من فراشى وأنا نصف مذهول ، راغب حقاً فى أن أعرف وأرى أشياء عجيبة محيرة . . . والحق أنى لم أكن أرى شيئاً أعتقد أنه كما أراه فى الواقع ؛ بل إن كل شىء بدا لى أنه قد تحول إلى صور أخرى بتأثير قوة السحر الخبيثة . وبلغ من قوة اعتقادى هذا أن ظننت أن الحجارة التى قد تعثر بها قدماى تصلبت واستحالت من رجال إلى الصورة التى هى عليها ، وأن الطيور التى سمعتها تغرد ، والأشجار والمياه الجارية ، استحالت إلى هذا الريش والورق ومنابع الماء ، من صور أخرى غير هذه الصور . وكذلك ظننت أن التماثيل والصور ستتحرك فى مستقبل الأيام ، وأن الجدران ستتكلم وتروى أخباراً عجيبة ، وإنى سأسمع من فورى وحياً من السماء ومن شعاع الشمس[١٥] » .

والآن وقد أصبح لوسيوس مستعداً لأية مغامرة يريدها ، يقول إنه يدلك جسمه بمرهم سحرى ، وهو شديد الرغبة فى أن يستحيل طائراً ؛ ولكنه حين يدلك نفسه بهذا المرهم يستحيل حماراً . وتروى القصة بعدئذ ما يلقاه من المحن ذلك الحمار « الذى له إحساس الإنسان وإدراكه » . وكانت سلواه الوحيدة هى « أذنى الطويلتين اللتين أستطيع بهما أن أسمع كل شىء ولو كان شديد البعد عنى » . وقد قيل له إنه سيعود إلى صورته الآدمية إذا عثر على وردة وأكلها ، وهى أمنية يدركها بعد أن يمر بطائفة كبيرة من الحظوظ الحمارية منها ماهو طيب ومنها ما هو سيئ . ثم كره الحياة ، فلجأ أولا إلى الفلسفة ، ثم إلى الدين ، وألف دعاء يشكر فيه إيزيس شكراً بينه وبين ابتهال المسيحيين إلى أم الإله شبه عجيب[١٦] . ثم يحلق رأسه ويقبل فى الطبقة الثالثة من أتباع إيزيس المبتدئين . ويرصف طريقاً يعود به إلى الأرض بعد أن يفسر حلماً يأمره فيه أوزريس « أعظم الآلهة » بأن يعود إلى وطنه ويشتغل بالقانون .

وما أقل الكتب التى تحوى كل ما يحتويه هذا الكتاب من السخف ، ولكن أقل منها ما يعبر عن سخفه بعبارة تماثل عبارة هذا الكتاب فى طلاوتها ؛ ذلك أن أبوليوس يحاول فيه كل أنواع الأساليب ، ويلبس كل أسلوب حاوله أجمل لباس ؛ وأكثر ما يحبه من الأساليب هو الأسلوب المطنب المنمق المسجوع المتجانس الأحرف فى بداية الألفاظ ، الملىء بالعبارات العامية الطريفة . والألفاظ القديمة المهجورة ، والكلمات المصغرة العاطفية ، والنثر الموزون والشعرى فى بعض المواضع . وقصارى القول أن الكتاب يضم إلى الأسلوب الشرق القوى ما فى الشرق من غموض وشهوانية(*) . ولعل أبوليوس قد أراد أن يشير من طرف خفى ، مستنداً إلى تجاربه الخاصة ، إلى أن الانهماك فى الشهوة الجنسية يذهب بالعقل ويبدل الآدميين بهائم ، وإلى أن السبيل الوحيدة التى يعودون بها إلى آدميتهم هى اقتطاف زهرة الحكمة والصلاح . وهو يبدو أحسن ما يكون فى القصص العارضة التى يلتقطها بأذنيه القويتين الدوارتين ، كما نرى فى قصة العجوز التى تسلى فتاة بأن تروى لها قصة كيوپد وسيكى[١٧] — فتخبرها كيف وقع ابن الزهرة (ڤينوس) فى حب فتاة حسناء ، وهيأ لها كل أنواع السرور إلا سرورها برؤيته ، وأثار غيرة أمه الشديدة ، ثم نالت آخر الأمر سعادتها فى السموات العلى . ولسنا نعرف مصوراً ، بز بقلمه لسان هذا الأشيب السليط ، فى رواية هذه القصة القديمة .

(*) لسنا ندرى لم يصف المؤلف الشرق بالشهوانية وأية شهوانيــة فى الشرق تفوق ما وصف به هو نفسه عصر نيرون وغيره من الأباطرة فى هذا الكتاب . (المترجم)

الفصل الثالث

أسپانيا

إذا عبرنا المضيق من طنجة انتقلنا من ولاية من أقدم ولايات رومة إلى ولاية من أحدثها . وتقع أسپانيا فى موقع عظيم الخطر من الناحية الحربية ، عند مدخل البحر الأبيض المتوسط ، وفى جوف أرضها معادن ثمينة كانت نعمة عليها ونقمة روت أرضها بدماء الشره ، وتخترقها سلاسل الجبال التى تعوق سبل الاتصال ، وامتزاج السكان ووحدتهم . وقد أحست أسپانيا بحمى الحياة الشديدة من اليوم الذى كان فيه الفنانون فى العصر الحجرى القديم يصورن الثور الوحشى (البيزون) على جدران الكهوف فى ألتميرا إلى أيامنا الحاضرة المضطربة . ولقد ظل الأسپان ثلاثين قرناً شعباً حربياً ذا عزة وأنفة ، وأجسام نحيلة قوية ، وشجاعة وجلد ، وكانوا ولا يزالون صلاب الرأى ، أقوياء العاطفة ، يمتازن بالزراعة والاكتئاب ، والاقتصاد وكرم الضيافة ، والمجاملة والمروءة ، يسهل استثارة بغضهم ، ويسهل أكثر من هذا استثارة حبهم ، ولما جاء الرومان إلى بلادهم وجدوا فيها سكانا يتألفون حتى فى ذلك الوقت البعيد من أجناس مختلفة يتعذر فصل بعضها عن بعض : منهم الإمبيريون من أفريقية ، واللجوريون من إيطاليا ، والكلت من غالة ، وعلى رأسهم طبقة من القرطاجنيين . وإذا جاز لنا أن نصدق الرومان الذين فتحوا بلادهم قلنا إن الأسپان كانوا قبل الفتح الرومانى شعباً قريبا من الهمجية ، يعيش بعضه فى مدن وبيوت ، وبعضه فى قرى وأكواخ وكهوف ، ينام على أرض الحجرات أو على الطين ، ويغسل أسنانه بالبول المعتق[١٨] . وكان الرجال يلبسون عباءات سوداء والنساء يرتدين « مآزر طوالا

وجلابيب زاهية الألوان » ، ويضيف استرابون إلى هذا قوله فى سياق اللوم والتأنيب « إن النساء يرقصن مع الرجال ويمسكنهم بالأيدى[١٩] » .

وقد أنشأ سكان جنوبى أسپانيا الشرقى — فى ترتسوس وهى ترشيش Tarshish الفينيقية — حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م صناعة البرنز ، وكانوا يبيعون منتجاتها فى جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط . وأنشأت ترتسوس على أساس هذه الصناعة ، فى القرن السادس قبل الميلاد ، أدبا وفنا قال أهلها إن عمرها كان فى ذلك الوقت يبلغ ستة آلاف عام . على أنه لم يبق من آثار هذا الفن سوى بضعة تماثيل فجة وتمثال نصفى متعدد الألوان منحوت من حجر الخرسان ، وتمثال إلـكى Elche المشابه للتماثيل اليونانية والمنحوت على نمط كلتى قوى فياض . وشرع الفينيقيون حوالى عام ١٠٠٠ ق . م يبحثون عن ثروة أسپانيا المعدنية ، ولم يحل عام ٨٠٠ حتى استولوا على قادس ومالقه Malaga وشادوا فيهما هيكلين عظيمين . ثم استقر المستعمرون اليونان حوالى عام ٥٠٠ ق . م على الساحل الجنوبى الشرقى ، وفى ذلك الوقت عينه أو حواليه استعان الفينيقيون ببنى عمومتهم القرطاجنيين لإخماد ثورة فى البلاد ففتحوا ترتسوس وجميع أسپانيا الجنوبية والشرقية ، وكان من أثر استغلال القرطاجنيين لشبه الجزيرة استغلالا سريعا بين الحرب البونية الأولى والثانية أن فتح الرومان أعينهم على ما فى البلاد التى يسمونها « أيبيريا » من موارد ثروة غنية ، فكان تحرك سپيو إلى أسبانيا هو الذى قضى آخر الأمر على انقضاض هنيبال على إيطاليا . ودافعت القبائل الأسبانية المفككة عن استقلالها دفاع الأبطال ، فكان النساء يفضلن قتل أبنائهن على وقوعهم أسرى فى أيدى الرومان ، وكان الأسرى من الرجال ينشدون أغانيهم الحربية وهم يموتون مصلوبين[٢٠] ؛ وتطلب فتح أسپانيا مائتى عام ، ولكنها بعد أن تم فتحها كانت دعامة للدولة أقوى من معظم الولايات : وأحل ولدا جراكس ، وقيصر ، وأغسطس سياسة المجاملة والاحترام محل سياسة القسوة التى كانت تجرى عليها الجمهورية

وأثمرت السياسة الجديدة أحسن الثمرات وأدومها ، فأخذت البلاد تصطبغ اصطباغاً سريعاً بالصبغة الرومانية ، واتخذ الأهلون اللاتينية لغة لهم بعد أن كيفوها بما يلائم طبيعتهم ، ونمت اقتصاديات البلاد واتسعت ، وأخذت تمد رومة بالشعراء ، والفلاسفة ، وأعضاء مجلس الشيوخ والأباطرة .

وظلت أسبانيا الدعامة الاقتصادية للإمبراطورية من أيام سنكا إلى عهد أورليوس ، فأغنت المعادن الإسبانية رومة كما أغنت من قبل صور ثم قرطاجنة ؛ وكانت لإيطاليا كما كانت بلاد المكسيك وبيرو لها هي فيما بعد . فاستخرج من أرضها الذهب ، والفضة ، والنحاس ، والقصدير ، والحديد ، والرصاص . وبذل فيها من العناية والدقة ما يبذل في استخراجها في هذه الأيام . ولا يزال في وسع المرء أن يرى في هذه الأيام مناجم عند ريو تنتو Rio Tinto بعيدة القرار محفورة في صخور الكوارتز الصماء ، ويشاهد فضلات من الصخور باقية من أيام الرومان ولم يبق فيها إلا نسبة من النحاس يدهش الإنسان من ضآلتها . وكان الأرقاء والأسرى يعملون في هذه المناجم يوما بعد يوم ، وكثيراً ما كانوا يقضون الشهور الطوال دون أن ترى أعينهم ضوء الشمس[٢٢] . ونشأت بجوار المناجم صناعات معدنية عظيمة . وكانت أرض أسبانيا في هذه الأثناء رغم ما فيها من جبال وقنوات جدباء تخرج الحلفاء التي تصنع منها الحبال الرفيعة والسميكة ، والسلال ، والفرش ، والأخفاف ، وتغذي الضأن وتخرج صناعة الصوف الذائعة الصيت ، وتمد الإمبراطورية بأحسن ما عرفه الأقدمون من أنواع الخمور وزيت الزيتون . وكانت أنهار الوادي الكبير والتاجه والإبرة وغيرها من المجاري التي هي أصغر منها تساعد شبكة الطرق الرومانية على حمل غلات أسبانيا إلى ثغورها وإلى مدنها التي يخطئها الحصر .

والحق أن أعظم النتائج التي تمخض عنها الحكم الروماني في هذه البلاد نتيجة تمتاز بها الإمبراطورية الرومانية على سائر الإمبراطوريات وهي تضاعف عدد المدن أو اتساع رقعتها : فقد كان في ولاية بيتكا Baetica (الأندلس **Andalusia**

الحديثة) مدائن كارتيا Carteia (الجسر) ومندا (Munda) ومالقة ، وإيطاليكا (مسقط رأس تراجان وهدريان) ، وقرطبة ، وهسپالس (أشبيلية) ، وقادس . ونشأت قرطبة فى عام ١٥٢ ق . م ، وكانت مركزاً أدبياً عظيما واشتهرت بما فيها من مدارس لتعليم فنون البلاغة ، وفيها ولد لوكان ، وسنكا الأكبر والأصغر ، وجليو Gallio محرر القديس بولس . وقد احتفظت هذه المدينة بتقاليدها العلمية حتى العصور الوسطى ، وبفضلها كانت قرطبة أعظم مدن أوربا علما . وكانت قادس أكثر مدائن أسبانيا سكانا ، وكانت غنية غنى فاحشاً . ذلك أنها لوقوعها عند مصب نهر الوادى الكبير كانت تسيطر على تجارة المحيط الأطلنطى مع غرب أفريقية ، وأسبانيا ، وغاله ، وبريطانيا ؛ وقد أضافت فتياتها الراقصات الرشيقات قدراً لا بأس به إلى شهرتها .

وكانت بلاد البرتغال تعرف عند الرومان باسم لوزتانيا Lusitania . كما كانت لشبونة تعرف عندهم باسم أولزيپو Olisipo . وأقام مهندسو تراجان جسراً على نهر التاجة عند نوربا قيصرينة Norba Caesarena (التى أطلق عليها العرب اسمها الحديث القنطرة) هو أكمل جسر رومانى بقى على حالته حتى اليوم . ولا تزال عقوده الفخمة التى يبلغ اتساعها مائة قدم والتى تعلو مائة وثمانين قدما فوق قاع النهر ، تحمل طريقا من أربعة دروب كثير الحركة . وكانت عاصمة لوزتانيا هى مدينة إمرينا (مريده Mérida) وكانت تزهو بما فيها من تماثيل كثيرة ، وبثلاث قنوات لجر مياه الشرب ، وبحلبة للألعاب ، ودار للتمثيل ، وبحيرة لتمثيل المعارك البحرية ، وقنطرة طولها ٢٥٠٠ قدم . وكان إلى شرقيها فى ولاية تراكننسس Tarraconensis مدينة سجوڤيا Segovia التى لا تزال تستمتع بالمياه النقية تحملها إليها قناة أنشئت فى عهد تراجان . وكان إلى جنوبها مدينة طليطم (طليطلة Toledo الحديثة) التى اشتهرت فى عهد الرومان بما فيها من مصانع الحديد ، وقامت على الساحل الشرقى مدينة نوڤا كرثاجو Nova Carthago

(قرطاجنة الحديثة) التى أثرت من مناجمها ، ومصائد سمكها ، وتجارتها وكان فى البحر الأبيض بالقرب من أسپانيا جزائر البليار ، وكانت فيها مدينتا بلما Palma ، وپولنتا Pollentia . وكانتا فى ذلك العهد مدينتين قديمتين مزدهرتين . وكان على الساحل الشرقى نحو الشمال مدائن بلنسية ، وتراكو Tarraés (Tarragona) (طرقونة) وبرسينو (برشلونة) ، وكان إلى جنوب جبال البرانس مباشرة بلدة إمپوريا Emporiae القديمة : فإذا ما سار المسافر سفينته مسافة قليلة حول حافة الجبال الشرقية ألفى نفسه فى بلاد غالة .

الفصل الرابع

غالــة

لقد كان فى مقدور جميع السفن ذات الحمولة المتوسطة ، بما فيها سفن المحيطات ، أن تسير فى تلك الأيام فى نهر الرون من مرسيليا إلى ليون . أما القوارب الصغيرة فكانت تستطيع مواصلة السير إلى ما يقرب من أربعين ميلا من نهر الرون الأعلى . فإذا نقلت البضائع بعد ذلك مسافة قصيرة فوق أرض مستوية استطاع الناس بعدها أن ينقلوها بالسفن مارة بمائة مدينة وألف قصر صغير إلى بحر الشمال . وكانت قفزات أرضية شبيهة بهذه القفزة تؤدى من الرون والساؤون إلى اللوار وإلى المحيط الأطلنطى ، ومن الأود Aude إلى الجارون وبردو ، ومن الساؤون إلى السين وبحر المانش : وكانت التجارة تسير فى هذه الطرق المائية ، ونشأت بفضلها مدائن عند ملتقاها ، وكانت فرنسا ، كما كانت مصر ، هبة مجاريها المائية .

ويمكن القول إن الحضارة الفرنسية — بأحد المعانى التى يمكن أن تفهم من لفظ الحضارة — بدأت منذ أيام « الرجل الأورينياسى Ourignacian man » أى قبل ميلاد المسيح بثلاثين ألف عام ، فقد كان فى هذا الوقت البعيد ، كما تدل كهوف منتنياك Montignac ، فنانون يستطيعون أن يصوروا بالألوان الزاهية والخطوط الواضحة . ثم انتقلت فرنسا حوالى عام ١٢٠٠٠ ق.م من ذلك العصر الحجرى القديم ، عصر الصيد والرعى ، إلى حياة الاستقرار وفلح الأرض فى العصر الحجرى الحديث ، وانتقلت منه بعد عشرة آلاف عام طوال إلى عصر البرنز . وحوالى عام ٩٠٠ ق.م أخذ جنس جديد هو الجنس « الألپى » المستدير الرؤوس يتسرب إلى البلاد من ألمانيا ، وينتشر فى فرنسا ، ومنها إلى بريطانيا وأيرلندة .

ثم ينزل إلى أسبانيا . وجاء هؤلاء « الكلت » معهم بثقافة هولستات Hallstatt الحديدية من النمسا . ثم استوردوا من سويسرا حوالى عام ٥٥٠ ق . م فن لاتين La Téne فى صناعة الحديد ، وكان قد تقدم تقدماً كبيراً فى سويسرا . وسمت رومة فرنسا أول ما عرفتها باسم كلتيكا Celtica ولم يتغير هذا الاسم إلى غالة Gallia إلا فى عهد قيصر .

وغلب المهاجرون أهل البلاد أو فاقوهم فى عددهم ، واستقروا قبائل مستقلة لا تزال أسماؤها تنم عليها المدن التى شادوها(*) . ويقول قيصر إن الغاليين كانوا قوما طوال القامة ، أقوياء الأجسام ظاهرى العضلات[٢٣] ، يمشطون شعرهم الغزير الأشقر ويرسلونه خلف رؤوسهم وعلى أقفيتهم ، وكان بعضهم يطيلون لحاهم ، والكثيرون منهم يتركون شواربهم تتثنى حول أفواههم . وقد نقلوا معهم من بلاد الشرق ، وربما كان ذلك عن الإيرانيين الأقدمين ، عادة لبس السراويل القصيرة ، وأضافوا هم إليها رداء مصبوغا بألوان كثيرة ومطرزا بالأزهار ، ومن فوقه عباءة مخططة تتدلى من الكتفين . وكانوا مولعين بالجواهر ، ويتزينون فى الحروب بالحلى الذهبية — إن لم يكن عندهم ما هو أثمن منها[٢٤] . وكانوا يكثرون من أكل اللحم ، وشرب الجعة ، والخمر غير المخفف بالماء ، لأنهم كانوا « سكيرين بفطرتهم » إذا جاز لنا أن نصدق أبيان[٢٥] . ويصفهم استرابون بأنهم قوم « سذج ، ذوو شمم وكبرياء . . . لا يطيقهم أحد إذا انتصروا ، وتطير نفوسهم شعاعا إذا غُلبوا »[٢٦]. ولكن علينا ألا نثق كل الثقة بهذه الأقوال لأنه ليس من الخير

(*) منهم الأمبيانى Ambiani فى أمين Amiens ، والبلوفاكى Bellovaci فى بوفيه Beauvais والبتيوريج Bituriges فى بورج Bourge والكرنوت Carnutes فى شارتر Charteres والباريسى فى باريس ، والبكتون Pictones فى بواتييه ، والريمى Remi فى ريمس Rheims والسنون Senones فى سن Sens والسوسيون Suessiones فى سواسون Soissons الخ .

فى كل الأحوال أن يكتب عن الناس أعداؤهم . وقد اشمأزت نفس بوسيدونيوس حين رآهم يعلقون رؤوس أعدائهم بعد فصلها عن أجسامهم فى رقاب جيادهم[٢٧] . وكان يسهل استثارتهم للجدل والقتال ، وكانوا فى بعض الأحيان يسلون أنفسهم فى المآدب بأن يتبارزوا حتى يقتل بعضهم بعضا . ويقول عنهم قيصر : « إنهم كانوا أكفاء لنا فى الشجاعة وفى التحمس للحرب[٢٨] » ، ويصفهم أميانس مرسلينس **Ammianus Marcellinus** بأنهم :

« مهما تكن سنهم يليقون للخدمة العسكرية ، فالشيخ منهم يخرج للحرب وهو لا يقل شجاعة عن الشاب فى مقتبل العمر . . . والحق أن سرية كاملة من الأجانب لتعجز عن الوقوف فى وجه غالى واحد إذا دعا زوجته إلى تأييده ، وهى فى العادة أشد منه بأساً وأعظم شراسة ، وخاصة إذا نفخت عنقها ، وعضت على أسنانها ، ولوحت بذراعيها الضخمتين ، وشرعت تكيل الضربات بيديها وقدميها كأنها حجارة تقذف من منجنيق » .

وكان الغاليون يؤمنون بآلهة كثيرة ، نسى الناس كل أمرها فلا ضير علينا إذا لم نذكر أسماءها . وكان اعتقادهم بحياة سعيدة فى الدار الآخرة قويا إلى حد حمل قيصر على الحكم بأن هذا الإيمان كان له أكبر الأثر فى شجاعة الغاليين . ويقول ڤاليريوس مكسمس : إن قوة هذه العقيدة كانت تدفع رجالهم إلى أن يقرضوا المال على أن يرد إليهم فى الدار الآخرة ، ويقول لسيدونيوس إنه رأى الغاليين فى إحدى الجنازات يكتبون الرسائل إلى أصدقائهم المتوفين ويلقون بها على كومة الحريق حتى يحملها الميت إلى المرسلة إليهم[٣٠] ؛ وليتنا نستطيع أن نستمتع برأى رجل غالى فى هذه القصص الرومانية . وكان كهنتهم يشرفون على جميع شئون التعليم ، ويعنون كل العناية بغرس العقيدة الدينية فى نفوس المتعلمين ؛ وكانوا يقومون بطقوس دينية ذات روعة ، يؤدونها فى الأيكة أكثر مما يؤدونها فى الهياكل ، ويسترضون الآلهة بتقديم الضحايا البشرية

يأخذونها من المحكوم عليهم بالإعدام لجرائم ارتكبوها ؛ وقد تبدو هذه العادة همجية لمن لم يروا بأعينهم في هذه الأيام طريقة الإعدام بالكهرباء ، وكان الكهنة هم الطائفة الوحيدة المتعلمة – ولعلها كانت الطائفة الوحيدة غير الأمية – في هذا المجتمع الغالي ؛ وكانوا يؤلفون الترانيم الدينية والقصائد ، ويكتبون السجلات التاريخية ، ويدرسون « النجوم وحركاتها ، وحجم الكون والأرض ، ونظام الطبيعة »[٣١] ، وقد وضعوا لأنفسهم تقويماً عملياً ؛ وكانوا قضاة لهم نفوذ كبير في بلاط ملوك القبائل . وكانت غالة قبل عهد الرومان ، كما كانت في العصور الوسطى ، تسير على النظام الإقطاعي المكتسي بثياب الحكم الديني . وبلغت غالة الكلتية ذروة مجدها تحت حكم هؤلاء الملوك والكهنة في القرن الرابع قبل الميلاد ، وازداد عدد السكان لوفرة الإنتاج الناشئ عن أساليب لاتين La Téne الفنية ، فأدى ذلك إلى سلسلة من الحروب للاستيلاء على الأرض ، ولم يحل عام ٤٠٠ ق . م حتى كان الكلت الذين يمتلكون معظم أوربا الوسطى وغالة ، قد استولوا على بريطانيا ، وأسبانيا ، وشمالي إيطاليا . وفي عام ٣٩٠ اندفعوا جنوباً نحو رومة ، وفي عام ٢٧٨ نهبوا دلفي واستولوا على فريجيا ؛ وبعد قرن من ذلك الوقت أخذت قوتهم في الاضمحلال ؛ وكان بعض السبب في هذا لين طباعهم الناشئ من ثروتهم ومن تأثرهم بالأساليب اليونانية ، وبعضه الآخر قوة أمراء الإقطاع السياسية . فكما أن الملوك قد قضوا في العصور الوسطى على قوة الأمراء وأنشئوا بعد القضاء عليها دولة موحدة ، كذلك قضى أمراء الإقطاع في القرن السابق لظهور قيصر على سلطة الملوك ، وتركوا غالة مقطعة الأوصال أكثر من ذي قبل . وأخذ الكلت يرتدون إلى الوراء في كل مكان عدا أيرلندة ، فأخضعهم القرطاجنيون في أسبانيا ، وأخرجهم الرومان من إيطاليا ، وفتح الرومان في عام ١٢٥ ق . م جنوبي غالة لحرصهم على تأمين طريقهم إلى أسبانيا ، وجعلوا تلك البلاد ولاية رومانية . وفي عام ٥٨ ق . م استغاث زعماء الكلت بقيصر

ليساعدهم على صد غارة ألمانية ، فأجابهم قيصر إلى ما طلبوا وحدد هو ثمن هذه المعونة .

وأعاد قيصر وأغسطس تنظيم غالة فقسماها أربع ولايات : غالة النربونية الجنوب ، وهى المعروفة للرومان باسم پروڤنسيا Provincia ولنا باسم پروڤانس Provence ؛ وقد اصطبغت هذه الولاية إلى حد كبير بالصبغة اليونانية بسبب استيطان اليونان لشاطئ البحر الأبيض المتوسط ؛ وأكوتانيا فى الجنوب الغربى ، ومعظم سكانها من الأيبيريين ، وغالة اللدچونيـــة Ludgonensis فى الوسط ، وكانت الكثرة الغالبة من أهلها من الكلت ، وبلجيكا فى الجنوب الشرقى وكثرة أهلها ألمان . وقد أقرت رومة هذه الأقسام العنصرية وزادتها حدة لتتقى بذلك ثورتها الجامعة ، فأبقت المقاطعات التى تسكنها القبائل المختلفة على حالها واتخذتها أقساماً إدارية . وكان الملاك هم الذين يختارون الحكام ، وقد ضمنت رومة ولاء هؤلاء الملاك بما كانت تقدمه لهم من عون ضد الطبقات الدنيا ، ومنحت حق المواطنية الرومانية مكافأة منها للغاليين الموالين لها الذين يؤدون لها خدمات قيمة . وكانت جمعية إقليمية تضم ممثلين يختارون من كل مقاطعة تجتمع كل عام فى مدينة ليون ؛ وقد قصرت وظيفتها فى أول الأمر على القيام بطقوس عبادة أغسطس ، ولكنها ما لبثت أن انتقلت من هذا إلى التقدم بملتمسات إلى الحكام الرومان ، ثم أصبحت هذه الملتمسات توصيات ثم مطالب . وانتزعت شئون القضاء من أيدى الكهنة ، وبُدِّد شملهم ، واتبع القانون الرومانى فى فرنسا ، وظلت غالة ما يقرب من قرن خاضعة مستسلمة للنير الجديد .

وحدث فى عام ٦٨ م وفى عام ٧١ م أن اندلع لهيب الثورة زمناً قصيراً بقيادة ڤندكس Vindex وسڤيلس Civilis ، ولكن الأهلين لم يقدموا إلا عوناً قليلا لهاتين الحركتين ، وفضلوا الاستمتاع بالرخاء ، والأمن والسلام على حب الحرية .

وأصبحت غالة فى ظل السلم الرومانية من أغنى أقسام الإمبراطورية ، وكانت رومة نفسها تعجب من ثراء الأشراف الغاليين الذين انضموا إلى مجلس الشيوخ فى عهد كلوديوس ، وأخذ فلورس Florus بعد مائة عام من ذلك الوقت يذكر الفرق بين ثراء غالة المزدهرة وضعف إيطاليا المضمحلة[٣٣]. فقد قطعت الغابات لتفسح الأرض للزراعة ، وجففت المستنقعات ، وارتقت أساليب الزراعة حتى لقد استخدمت حصادة آلية[٣٤] ، وانتشرت الكروم وأشجار الزيتون فى كل مقاطعة ، وكان پلنى وكولملا Columella فى القرن الأول الميلادى يمتدحان خمور برغندية وبردو . وكانت فى البلاد ضياع واسعة يفلحها العبيد وأقنان الأرض ويمتلكها أسلاف أمراء الإقطاع فى العصور الوسطى ؛ ولكن كان فيها أيضاً كثيرون من صغار الملاك ، وكانت الثروة فى غالة القديمة ، كما هى فى فرنسا الحديثة ، موزعة توزيعاً أقرب إلى المساواة منه فى أية دولة متمدينة أخرى . وتقدمت الصناعة بوجه خاص تقدما سريعاً ، فلم يحل عام ٢٠٠ م حتى أخذ صناع الفخار والحديد ينتزعون أسواق ألمانيا وأسواق الغرب من إيطاليا ، والنساجون الغاليون يقومون بالجزء الأكبر من صناعة النسيج فى الإمبراطورية ، وحتى كانت مصانع ليون تخرج الزجاج التجارى وأدوات زجاجية ذات روعة فنية ممتازة[٣٥]. وكانت البراعة الفنية فى الصناعة يتوارثها الأبناء عن الآباء ، حتى أضحت جزءاً ثميناً من التراث الرومانى ، وكانت الطرق التى أصلحها الرومان أو أنشئوها والتى يبلغ طولها ٠٠٠ر١٣ ميل غاصة بأدوات النقل وبالتجارة .

وأثرت بلدان كلتيكا القديمة بفضل هذه الحياة الاقتصادية المتسعة ، فأصبحت مدائن كبرى فى غالة الرومانية ، فكانت بردجالا Burdegala (هى بردو الحالية) عاصمة أكوتانيا من أكثر ثغور المحيط الأطلنطى حركة وتجارة ، وكانت ليمونم Limonum (ليموج) وأفريكم Avaricum (بورج) وأغسطنمتم Augustonemetum (كليرمون — فران Clermont-Ferraand) مدائن غنية

حتى قد استطاعت هذه المدينة الأخيرة أن تقدم لزنودوتس Zenodotus أربعمائة ألف سسترس ليقيم بها تمثالا ضخما لعطارد[٣٦] . وفى غاليا النربونية بلغت المدن من الكثرة درجة جعلت پلنى يصفها بأنها « أشبه بإيطاليا منها بولاية من ولاياتها » . وكان فى الجهة الغربية مدينة طولوزا Tolosa (طولوز الحالية) التى اشتهرت بمدارسها ، وكانت ناربو Narbo نربونة (Narbonne) عاصمة الولاية فى القرن الأول الميلادى أعظم مدائن غالة ، وأهم الثغور التى تصدر منها غلاتها إلى إيطاليا وأسپانيا ، وقد وصفها سيدونيوس أپليناريس Sidonius Apollinaris بقوله إن «فيها أسوارا ، وطرقاً للتنزه ، وحانات ، وعقودا وأروقة ذات عمد ، وسوقا عامة ، وملهى ، وهياكل وحمامات ، وأسواقا للبيع والشراء ، ومراعى ، وبحيرات ، وقنطرة ، وبحراً »[٣٨] . وكان إلى شرق هذه المدينة على طريق دوميتيا العظيم الذى يصل أسپانيا بإيطاليا بلدة نموسس Nemousus (نيمز Nimes) ؛ وقد شاد أغسطس والمدينة بيتها المربع Maison Carrée الجميل تخليدا لذكرى حفيديه لوسيوس وكيوس قيصر ؛ ومما يدعو إلى الأسف أن أعمدته الداخلية داخلة فى جدران المحراب ، ولكن أعمدته الكورنثية المنفصلة لا تقل جمالا عن أية عمد فى رومة . ولا تزال الاحتفالات تقام من آن إلى آن فى مدرجها الذى كان يتسع لعشرين ألفا من النظارة . وتحولت القناة الرومانية التى كانت تنقل الماء العذب إلى رومة على مر الزمن إلى قنطرة نهر جار Gard ولا تزال العقود السفلى لهذه القنطرة قائمة إلى اليوم فى صورة آثار ضخمة محطمة فى الريف العابس القريب من المدينة تظهر بجلاء ما بينها وبين العقود الصغرى التى فوقها من اختلاف ، وتشهد هذه وتلك بعظمة فنون رومة الهندسية .

وأنشأ قيصر شرق هذه المدينة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط مدينة أرلات Arelate (آرل الحديثة Arles) ظنا منه أنها ستحل محل مساليا Massalia المشاكسة ، فتكون مركزاً لبناء السفن وثغراً تجاريا هاما . وكانت

مساليا (مرسيليا) مدينة قديمة حين ولد قيصر ، وبقيت يونانية بلغتها وثقافتها إلى آخر أيامه. وكانت فنون الزراعة ، وغرس الأشجار ، وزراعة الكروم ، والثقافة اليونانية قد دخلت بلاد غالة من مرفأ هذه الفُرضة البحرية . وفيها بنوع خاص كانت أوربا الغربية تستبدل بغلاتها حاصلات بلاد اليونان والرومان ، وكانت إلى هذا من أعظم مراكز الجامعات فى الإمبراطورية ، وكان أعظم ما اشتهرت به مدرسة الحقوق : وقد اضمحل شأنها بعد قيصر ولكنها ظلت كما كانت مدينة حرة مستقلة فى شئونها عن حاكم الولاية. وكان يليها من جهة الشرق فورم لولياى Forum Lulii (فريچو Frejus) ، وأنتيوليس Antipolis (أنتيب Antibes) ونيسيا Nicaea (نيس) ، ويتألف منها كلها ولاية الألب البحرية الصغيرة . وإذا انتقل المسافر فى نهر الرون من أرلات وصل إلى أفنيو Avenio (أفنيون الحديثة Avignon) وأروسيو Arausio (أورانج Orange) وقد بقى فى هذه المدينة الأخيرة قوس عظيم من أيام أغسطس ، وفيها أيضاً ملهى رومانى ضخم لا تزال تمثل فيه مسرحيات قديمة .

وكانت أكبر ولايات غالة هى غالة اللجدونية ، وسميت كذلك نسبة إلى عاصمتها لجدونم Lugdunum (ليون الحالية) . وكانت هذه العاصمة تقع عند ملتقى الرون والساؤون وملتقى عدة طرق برية كبرى أنشأها أجربا ، ولذلك أضحت المركز التجارى لإقليم غنى وعاصمة لغالة كلها . وقد استطاعت بفضل ما قام فيها من صناعات الحديد والزجاج والخزف أن تقبل فى القرن الأول الميلادى عدداً من السكان يبلغ حوالى مائتى ألف[٤٠] . وكان إلى شمالها بلدة كبلونم Cabillonum (شالون — على — الساؤون Chalon-sur-Saône) وقيصردونم Caesarodunum (تور Tours الحالية) وأغسطدونم Augustodunum (أوتون Outun الحالية) وسنابوم Cenabum (أورليان الحالية Orleans) لوتيريا Luteria (باريس الحالية) . وكتب الإمبراطور يوليان يصف هذه

المدينة الأخيرة فقال : « لقد قضيت الشتاء (٣٥٧ — ٣٥٨) فى لوتيريا مدينتنا المحبوبة ، لأن هذا هو الاسم الذى يطلقه الغاليون عن مدينة الباريزيين الصغيرة ، وهى جزيرة فى النهر . . . يعصر فيها الخمر الطيب »[٤١] .

وكانت ولاية بلجيكا التى تشمل أجزاء من فرنسا وسويسرا الحاليتين بلاداً لا يكاد أهلها يشتغلون بغير الزراعة ، وكان معظم ما فيها من صناعات قليلة متصلا بالقصور الصغيرة ذات الحدائق التى تدل بقاياها الكثيرة على أن أصحابها كانوا من الأشراف الذين يعيشون معيشة الدعة والترف . وفى هذه الولاية أنشأ أغسطس المدائن المعروفة الآن بأسماء سواسون Soissons ، وسان كنتن St Quentin ، وسنلى Senlis ، وبوفيه ، وتريف Treves . وازدهرت آخر هذه المدن ، وكانت تسمى أغسطا ترفرورم Augusta Trevirorum لأنها كانت مركز قيادة الجيش المدافع عن الرين ، وأصبحت فى أيام دقلديانوس عاصمة غالة بدل مدينة ليون ، وصارت فى القرن الخامس أكبر مدينة فى شمال جبال الألب ، ولا تزال حتى الآن غنية بآثارها الرومانية القديمة — فلا تزال البورتا نجرا PortaNigra محتفظة بأسوارها الرومانية ، ولا تزال فيها حمامات سانت بربارا ، وفى إيجل Igel القريبة منها مقبرة أسرة سكنديني ، وفى نوماجين Neumagen المجاورة لها النقوش الفجة التى كانت على كتل الحصن الحجرية .

وبدلت الحياة حول هذه المدن ظاهرها تبدلا بطيئاً وجددت عناصرها فى عناد شديد فاحتفظ الغاليون بخلقهم ، وسراويلهم القصيرة ، وظلوا ثلاثة قرون محتفظين بلغتهم ولكن اللغة اللاتينية غلبتهم على أمرهم فى القرن السادس . وكان أكبر السبب فى هذه الغلبة استخدامها فى الكنيسة الرومانية ، ولكنها كانت وقتئذ قد شذبت ورخمت حتى صارت فرنسية . ونالت رومة أعظم فوز لها فى غالة بنقل الحضارة الرومانية إليها . ويرى بعض كبار المؤرخين الفرنسيين أمثال چوليان وفنك برنتانو

Funck-Brentano[٤٣] أن فرنسا كانت تكون خيراً مما هي لو لم تفتحها رومة ، ولكن مؤرخا آخر أعظم من هذين المؤرخين يعتقد أنه لو لم تفتح رومة غالة لفتحتها ألمانيا حتما ، وأنه لو لم ينتصر قيصر فى تلك البلاد. كما يقول ممسن Mommsen :

« لحدثت هجرة الشعوب قبل حدوثها بأربعمائة عام ، وفى وقت لم تكن الحضارة الإيطالية قد تأقلمت فى غالة أو على ضفاف الدانوب ، أو فى أفريقية وأسپانيا . وبفضل ما كان للقائد والسياسى الرومانى العظيم من بصيرة نافذة أدرك بها أن القبائل الألمانية هى العدو المنافس للعالم الرومانى — اليونانى ، وبفضل قوته وشدة بأسه التى استطاع بها أن يضع للدولة نظامها الجديد نظام الدفاع الهجومى بجميع تفاصيله ودقائقه ، ويعلم الناس أن يحصنوا حدود الإمبراطورية بالأنهار والأسوار الاصطناعية . . . بفضل هذا كله كسب للثقافة اليونانية — الرومانية الفترة التى لم يكن منها بد لتمدين الغرب »[٤٤] .

لقد كان نهر الرين هو الحد الفاصل بين الحضارة الرومانية — اليونانية وبين الحضارة البدائية ، فأما غالة فلم يكن فى وسعها أن تدافع عن هذا الحد ، وأما رومة فقد دافعت عنه ، وكان دفاعها هذا هو الذى حدد مجرى تاريخ أوربا إلى يومنا هذا .

الفصل الخامس

بريطانيا

عبر البحر من غالة حوالى عام ١٢٠٠ ق . م . فرع من قبائل الكلت واستقر فى إنجلترا . وقد وجدوا فى تلك البلاد خليطا من شعب أسود الشعر لعله أيبيرى ، وشعب أشقر الشعر اسكندناوى . وغلب الكلت هؤلاء الأهلين على أمرهم ، وتزوجوا منهم ، وانتشروا فى إنجلترا وويلز . وحوالى عام ١٠٠ ق . م (ونغفل تلك القرون الأحد عشر لأن أنانيتنا تحملنا على اختصار هذه الأحقاب المليئة بالحوادث وتمحو الأجيال الجليلة الشأن من الذاكرة المزدحمة لكى تقربنا من عصرنا الحديث) أقبل فرع آخر من الكلت من داخل القارة وطرد بنى عمومته من جنوبى بريطانيا وشرقيها . ولما جاءها قيصر وجد سكان الجزيرة يتألفون من عدة قبائل مستقلة لكل منها ملك يريد أن يوسع مملكته الصغيرة ، وأطلق على السكان كلهم اسم البريطانى Britanni نسبة إلى قبيلة غالية تسمى بهذا الاسم كانت تسكن جنوبى القناة الإنجليزية مباشرة ، ظنا منه أن هذه القبيلة نفسها تسكن كلا الشاطئين .

وكانت بريطانيا الكلتية شبيهة كل الشبه بغالة الكلتية فى عاداتها ولغتها ودينها ، ولكنها كانت متأخرة عنها فى حضارتها . وقد انتقلت من العصر البرنزى إلى العصر الحديدى قبل مولد المسيح بنحو ستة قرون أى بعد انتقال غالة إلى هذا العصر الأخير بثلاثة قرون . ولما عبر پيثياس Pytheas ، المرتاد الماسليوتى Massiliot المحيط الأطلنطى إلى إنجلترا حوالى عام ٣٥٠ ق . م وجد بلدة كنتياى Cantii فى مقاطعة كنت Kent غنية بزراعتها وتجارتها ، فقد كانت تربتها خصبة بفضل الأمطار

الغزيرة ، وكانت أرضها تحتوى على خامات غنية بالنحاس ، والحديد ، والقصدير ، والرصاص . وكانت صناعاتها المنزلية قبيل عهد قيصر تكفى لإيجاد تجارة ناشطة بين القبائل التى تسكنها ومع القبائل الأوربية ، وضربت فيها نقود من البرنز والذهب(٤٥) . وكانت غارات قيصر فى واقع الأمر غارات استكشافية ، عاد منها ليؤكد إلى رومة أن القبائل التى تسكن تلك البلاد عاجزة عن المقاومة المتحدة ، وأن غلاتها تكفى جيشاً غازياً يأتيها فى الوقت المناسب . وبعد مائة عام من ذلك الوقت (٤٣ م) عبر كلوديوس القناة ومعه أربعون ألفاً من الجنود كان نظامهم وتسليحهم ، ومهارتهم فوق طاقة السكان الأصليين ، فأخضعوا بريطانيا لرومة وأصبحت من ذلك الوقت ولاية تابعة لها . وفى عام ٦١ قادت ملكة لإحدى القبائل البريطانية تدعى بودكا Boudicca أو بوديسيا Boadicea ثورة شديدة ، وادعت أن ضباطاً رومانيين قد اعتدوا على عفاف ابنتيها ، ونهبوا مملكتها ، وباعوا كثيراً من رجالها الأحرار فى سوق الرقيق . وبينا كان الحاكم الرومانى پولينس مشغولا فى الاستيلاء على جزيرة مان Man هزم جيش بودكا الفيلق الوحيد الذى وقف فى وجهه ، وزحف على لندنيوم Londinium ، وكانت فى ذلك الوقت — على حد قول تاستس — « أهم مسكن للتجار ، كما كانت سوقاً كبرى للتجارة »(٤٦) . وقتل كل رومانى فى هذه المدينة أو فى ڤريولامنيوم Verulaminium (سانت أولبنز St. Albans) ، وذُبح سبعون ألف رومانى هم وحلفاؤهم قبل أن يلتقى پولينس وفيالقه بالثوار ؛ وحاربت بودكا وابنتاها فى عربة حربية بشجاعة نادرة فى أثناء هزيمتها ، ثم تجرعت السم ؛ وضربت بحد السيف رؤوس ثمانين ألفاً من البريطانيين .

ويحدثنا تاستس عن أجركولا زوج ابنته وحاكم بريطانيا (٧٨ — ٨٤ م) فيروى كيف نشر الحضارة بين « شعب فظ مشتت ذى نزعة حربية » بإنشاء المدارس ، وإذاعة استعمال اللغة اللاتينية ، وتشجيع المدن والأغنياء على تشييد

المعابد ، والباسلقات ، والحمامات العامة ، ثم يقول ذلك المؤرخ السليط : « واستحوذت مباهج الرذيلة شيئاً فشيئاً على قلوب البريطانيين ؛ فصارت الحمامات ، والحجرات الجميلة ، والمآدب الفخمة ، محببة إليهم ، وأخذ البريطانيون الغافلون يسمون الآداب الجديدة باسم فنون الإنسانية المهذبة ، وإن لم تكن في حقيقة أمرها إلا ستاراً جميلا للاسترقاق » . واستطاع أجركولا بحملات حربية سريعة أن يحمل هذه الفنون والحكم الروماني ، إلى ضفاف نهرى الكليـــد Clyde والفورث Forth وأن يهزم جيشاً من الأسكتلنديين مؤلفاً من ثلاثين ألفاً ، ولو لم يدعه دومتيان ليواصل الزحف . وشاد هدريان سوراً (١٢٢ — ١٢٧) طوله سبعون ميلا فى عرض الجزيرة يمتد من خليج ســـلواى Solway Firth إلى مصب التين Tyne ليصد الاسكتلنديين الذين كانوا يرتابون فى نواياه ، وبعد عشرين عاماً من ذلك الوقت أقام لوليوس Lollius فى شمال هـــذا السور سوراً آخر طوله ثلاثة وثلاثون ميلا يعرف بسور أنطونينس ويمتد بين مصبى الكليد والفورث . وبفضل هذين الحصنين استطاعت رومة أن تأمن على بريطانيا أكثر من قرنين من الزمان .

وكان حكم رومة يزداد ليناً ورحمة كلما زاد استقراراً ، فأصبحت المدن تشرف عليها مجالس شيوخ وجمعيات وطنية وحكام من أهلها ، وترك الريف كما ترك فى غالة إلى رؤساء القبائل الخاضعين لإشراف الرومان . ولم تكن الحضارة فى بريطانيا حضارة مدن كما كانت فى إيطاليا ، كما أنها لم تكن غنية غناء حضارة غالة ، ولكن المدن البريطانية أخذت وقتئذ أشكالا جديدة بفضل استنهاض رومة وحمايتها لها . وكانت أربع من هذه المدن مستعمرات يتمتع أهلها بحق المواطنية الرومانية وهى : كمولودونم Camulodunum (كلشستر Colchester) التى كانت أولى عواصم بريطانيا الرومانية ومقر مجلس الولاية ؛ ولندم Lindum التى يدل اسمها لنكولن الحديث Lincoln على ما كان لها من امتياز قديم ؛ وإبراكم Eboracum (يورك) وكانت وقتئذ مركزاً حربياً هاماً ؛ وجليفم Glevum ، التى

امتزج فى اسمها الحديث جلوسستر Gloucester لفظا جليقم وشستر وثانى اللفظين هو اللفظ الإنجليزى السكسونى المقابل لكلمة مدينة(*) ؛ ويلوح أن تشستر ، وونشستر ، ودورشستر ، وشيشستر ، وليسستر (لستر) وسلشستر ، ومنشستر قد بدأت كلها فى القرنين الأول والثانى من حكم الرومان . وكانت فى أول الأمر بلدانا صغيرة يسكن كل منها حوالى ستة آلاف نفس ، ولكنها كانت تستمتع بشوارع مرصوفة ذات مجار ، وبأسواق عامة ، وباسلقات ، وهياكل ، وبيوت أسسها من الحجارة وأسقفها مغطاة بالقراميد ، وكان فى فركونيوم Virconium (ركستر الحالية Wroxeter) باسلقا تتسع لستة آلاف شخص ، وحمامات تتسع لاستحمام مئات من الأشخاص فى وقت واحد . وكان فى أكوا سالس Aquae Salis (المياه الملحة) ، التى تعرف باسم باث Bath عيون حارة أصبحت بفضلها ملاذا طبيا فى الزمن القديم كما يدل على ذلك ما بقى من آثار حماماتها الحارة إلى اليوم . وعلا شأن لندنيوم من الناحيتين الاقتصادية والحربية لحسن موقعها على نهر التاميز ولأهمية الطرق المتفرعة منها ، وزاد سكانها حتى بلغوا ستين ألفا ، وسرعان
الطرق المتفرعة منها ، وزاد سكانها حتى بلغوا ستين ألفا ، وسرعان
ما أضحت عاصمة بريطانيا بدل كولودونم(٤٩) .

وكانت البيوت فى لندن الرومانية من الآجر والمصيص أما فى البلدان الصغيرة فكانت من الخشب ، وكان الجو هو الذى يحدد شكلها ، فكان لها سقف هرمى يقيها المطر والثلج ، ونوافذ كثيرة لينفذ منها ما عسى أن يكون من أشعة الشمس ، « لأن الشمس » كما يقول استرابون « لم تكن ترى أكثر من ثلاث ساعات أو أربع حتى فى اليوم الصحو »(٥٠) . أما داخلها فكان على الطراز الرومانى :— أرضه من الفسيفساء ، وبه حمامات كبيرة ، وجدران قائمة عودية وتدفئة مركزية

(*) هفرفيلد Haverfield (٤٨) ؛ لكن أكثر من هذا قبولا أن اللفظ مشتق من كسترم Castrum اللاتينية ومعناها حصن ؛ أوكسترا Castra بمعنى معسكر . وقد خططت معظم المدن الرومانية — البريطانية على طراز رقعة الشطرنج كما كانت تخطط المعسكرات الرومانية .

« تزيد على ما كان منها فى البيوت الإيطالية) بأنابيب تحمل الهواء الساخن فى أرض البيت وجدرانه . وكان الفحم يستخرج من العروق القريبة من سطح الأرض ، ويستخدم فى تدفئة البيوت ، وفى الأغراض الصناعيه كصهر الرصاص . ويبدو أن مناجم بريطانيا القديمة كانت ملكا للدولة ، ولكنها كانت تؤجرها للأفراد يستغلونها[٥١] . وكان فى باث مصنع (فبريكا Fabrica لصنع الأسلحة الحديدية[٥٢] ، وأكبر الظن أن صناعات الخزف ، والآجر والقرميد قد ارتقت حتى كانت تصنع فى المصانع ، ولكن معظم الصناعات كانت فى البيوت ، والحوانيت الصغيرة ، والدور ذات الحدائق . وكان فى الجزيرة خمسة آلاف ميل من الطرق الرومانية ، وعدد لا يحصى من الطرق المائية تنقل عليها التجارة الداخلية النشيطة ، هذا فضلا عن تجارتها الخارجية المتواضعة التى كانت عكس تجارة بريطانيا فى هذه الأيام لأنها كانت تصدر المواد الأولية اللازمة للصناعة .

ترى إلى أى عمق نفذت الحضارة الرومانية فى حياة بريطانيا وروحها فى الأربعة القرون التى سيطرت فيها رومة على الجزيرة ؟ لقد صارت اللغة اللاتينية لغه السياسة ، والقانون ، والأدب ، والأقلية المتعلمة فى البلاد ، لكن اللسان الكلتى بقى سائداً فى الريف وبين عمال المدن ، ولا يزال يقاوم حتى الآن فى ويلز وفى جزيرة مان . ونشرت المدارس الرومانية القراءة والكتابة فى بريطانيا ، وعينت الصورة الرومانية لحروف الهجاء الإنجليزية ، وغمر اللغة الإنجليزية سيل من الكلمات اللاتينية وبنيت هياكل للآلهة الرومانية ، ولكن الرجل العادى ظل يمجد الأرباب والأعياد الكلتية ، وحتى المدن الكبرى نفسها لم تمد رومة فيها جذورا باقية ، وكل ما فى الأمر أن الأهلين خضعوا كارهين لحكم استمتعوا فى ظله بسلم مثمرة ورخاء لم تستمتع الجزيرة بمثله إلا أيام الانقلاب الصناعى .

الفصل السادس

البرابرة

كان ما قرره أغسطس وتيبيريوس من عدم السماح بفتح ألمانيا من بين الحادثات الهامة فى تاريخ أوربا . فلو أن رومة فتحت ألمانيا وصبغتها كما صبغت غالة بالصبغة الرومانية ، لكان لأوربا الواقعة فى غرب الروسيا كلها تقريباً نظام واحد ، ولربما قامت أوربا الوسطى فى هذه الحالة حاجزاً فى وجه تلك الجماعات الكبرى التى كان ضغطها على الألمان سبب غزوهم إيطاليا .

ونحن نسميهم الألمان ، وإن كانوا هم أنفسهم لم ينطقوا بهذا الإسم ، وليس ثمة من يعرف مصدره(*) ، ولقد كانوا فى الأيام القديمة خليطاً من قبائل مستقلة ضاربة فى ذلك الجزء من أوربا المحصور بين نهرى الرين والفستيولا Vistula ، وبين الدانوب وبحر الشمال والبحر البلطى . وتبدلت أحوالهم شيئاً فشيئاً فى القرنين الواقعين بين حكم أغسطس وحكم أورليوس فانتقلوا من حياة الهجرة للصيد والرعى إلى حياة الزراعة والقرى ، ولكنهم كانوا لايزالون على درجة من البداوة جعلتهم يستنفدون بسرعة خصب الأرض التى يفلحونها ، ثم يرحلون ليفتحوا بحد السيف أرضاً جديدة . ومن أجل هذا كانت الحرب طعام الألمانى وشرابه إذا جاز لنا أن نصدق قول تاستس :

« ليس شعار الألمانى هو أن يزرع الأرض وينتظر حتى يجنى المحصول فى موسمه ، بل إنك ليسهل عليك أن تقنعه بأن يهاجم عدوه ، ويتلقى فى جسمه الجراح الشريفة فى ميدان القتال . ويرى الألمانى أن كسبك بعرق الجبين ما تستطيع

(*) كان الرومان يستخدمون كلمة جرمانس Germanus الوصفية (المشتقة من Germen بمعنى النسل) ويعنون بها « أبناء نفس الأبوين » . ولعلهم حين أطلقوها على الألمان كانوا يفكرون فى نظام القبائل التيوتونية القائم على صلة القبائل .

أن تشتريه بدمك هو شعار العاجزين الخاملين وأنه لا يليق قط بالجندى »[٥٣]

ولقد تحدث المؤرخ الرومانى عن صفات الألمان الحربية وعن حماسة النساء وهن يحرضن الرجال على القتال ، ويحاربن إلى جنبهم فى كثير من الأحيان . وكان وهو يصفهم يتحسر على تدهور شعبه بفعل الترف والسلم ، ويغالى فى هذا الوصف مغالاة الواعظ والمعلم الأخلاق . ولقد كان الفرار من العدو يسربل من يرتكبه بعار لا يمحى مدى الحياة ، ويؤدى فى كثير من الأحيان إلى الانتحار . وقد وصف استرابون الألمان بأنهم « أشد بأساً وأطول قامة من الغاليين »[٦٤] . وكأن سنكا قد قرأ تاستس فاستنتج من هذا نتائج منذرة بأسوأ النذر فقال : « إن الترف والثراء لا يزيدان هذه الأجسام القوية العنيفة ، وهذه التقوى التى لا تعنى قط باللذة ، إلا قليلا من التنظيم والحذق فى الحركات العسكرية — وحسبى هذا . ولن تستطيعوا (أيها الرومان) أن تقفوا فى وجههم إلا إذا عدتم إلى فضائل آبائكم »[٥٥] .

ويروى تاستس أن أولئك الأقوام كانوا فى أيام السلم كسالى بلداء ، يقضى الرجال أوقاتهم (ولعل ذلك بعد الصيد أو موسم الحصاد) فى ملء بطونهم باللحم وشرب أنهار من الجعة ، بينا تقوم النساء والأطفال بالأعمال المنزلية[٥٦]. وكان الألمانى يشترى زوجته من أبيها بهدية من الماشية أو السلاح ، وكان له عليها وعلى أبنائهما حق الحياة أو الموت بشرط أن توافق على ذلك جمعية القبيلة . لكن النساء رغم هذا كانت لهن عندهم مكانة عالية ؛ وكثيراً ما كان يطلب إليهن أن يفصلن فيما يشجر بين رجال القبيلة من منازعات ، وكان من حقهن أن يطلقن أزواجهن ، كما كان من حق هؤلاء الأزواج أن يطلقوهن . وكان لبعض زعماء القبائل عدة أزواج ، ولكن الأسرة الألمانية العادية لم يكن فيها إلا زوجة واحدة ، ويؤكد لنا المؤرخون أنها كانت تراعى مستوى عالياً من الأخلاق الزوجية ، « فالزنى قلما كان يسمع به » عندهم ؛ وإذا ارتكبته المرأة عوقبت بقص شعرها والحكم عليها بأن تسير عارية فى الشوارع ، وأن تضرب بالسياط ، وهى تحاول

الفرار . وكان يسمح للزوجة أن تجهض نفسها إذا شاءت[٥٨] ، ولكنها كانت فى العادة امرأة ولودا . وكان يندر وجود رجال بلا أبناء ولهذا لم تكن عندهم وصايا ، وكان المفروض أن أملاك الأسرة يرثها الولد عن أبيه جيلا بعد جيل[٥٩] .

وكان السكان يتألفون من أربع طبقات : (١) طبقة المقيدين وبعضهم عبيد وكثرتهم من أقنان الأرض المرتبطين بها ، والمفروض عليهم أن يؤدوا التزاماتهم للمالك من غلتها ؛ (٢) والمحررين — وهم المستأجرون الذين لا يتمتعون بحقوق سياسة (٣) والأحرار — وهم الملاك والمحاربون ؛ (٤) والأشراف — وهم ملاك الأراضى الذين تتصل أنسابهم بالآلهة ، ولكنهم يقيمون سلطتهم على أساس أملاكهم الموروثة وحرسهم الخاص (Comites أى الرفاق ، ومنها اشتقت كلمة كونت) . وكانت الجمعية القبلية تتألف من الأشراف ، ورجال الحرس ، والأحرار ، يأتون إليها مسلحين ، ويختارون الزعيم أو الملك ، ويوافقون على ما يعرض عليهم من اقتراحات بضرب الحراب بعضها ببعض ، أو يرفضونها بزمجرة كثرة الحاضرين . وكان بعض أفراد الطبقتين الثانية والثالثة يشتغلون بالصناعات اليدوية والمعدنية التى برع فيها الألمان ، أما الطبقة الرابعة فكان منها النبلاء والفرسان ، وهى التى أنشأت نظام الفروسية فى ألمانيا الإقطاعية .

ولم يضف إلا قليل من البناء الثقافى فوق هذا النظام الاجتماعى الساذج . ولم يكد الدين وقتئذ ينتقل من عبادة الطبيعة إلى عبادة الأرباب المجسدة فى صورة الآدميين . ويسمى تاستس آلهتهم : المريخ Mars ، وعطارد Mercury ، وهرقل Herculies — والراجح أن الأسماء الحقيقية لهذه الآلهة هى تيو Tiu (تير Tyr) وودن Woden (أوودن Odin) ، ودونار Donar (تور) ؛ ولا تزال أربعة أيام من كل أسبوع تخلد ذكراها هى وفريا Freya إلاهة الحب ، على غير علم منا ، وكانت لهم إلاهة عذراء (هرثا Hertha) (الأم الأرض) ، التى حملت من أحد أرباب السماء ؛ كما أن كل حاجات الإنسان وكل ما يخطر بباله كانت تؤديه طائفة

مختلفة من الجنيات ، والعفاريت الصغار والكبار ، وجن البحار ، والمردة ، والأقزام . وكانت الضحايا البشرية تقرب إلى وودن ، وربما كانت الحيوانات الألذ طعما من الآدميين تقرب إلى غيره من الأرباب ، وكانت الصلوات تقام فى الخلاء فى الغابات والغياض ، لأن الألمان كانوا يرون أن من السخف حصر روح من أرواح الطبيعة فى مسكن تشيده الأيدى البشرية . ولم يكن عندهم طبقة دينية قوية شبيهة بالدرويد Driuds عند الغاليين أو البريطانيين ، ولكنهم كان لديهم كهنة وكاهنات ، يرأسون الاحتفالات الدينية ، ويجلسون للفصل فى القضايا الجنائية ، ويتنبئون بالمستقبل بدراسة مهبل الجياد البيض وحركاتها . وكان عندهم كما كان فى غالة شعراء يتغنون فى شعر فج بأقاصيص قبائلهم وتاريخها . وكان منهم أقلية تعرف القراءة والكتابة ، وكيفت الحروف الهجائية اليونانية فجعلت منها العلامات التى تطورت منها الحروف القوطية وهى الحروف الألمانية الحديثة . وكان الفن عندهم بدائيا ، ولكنهم أخرجوا تحفا جميلة من الذهب .

ولما أن سحبت رومة فيالقها من ألمانيا احتفظت بسيطرتها على نهر الرين من منبعه إلى مصبه ، وقسمت هذا الوادى الفخم ولايتين — ألمانيا العليا وألمانيا السفلى ، وكانت ثانيتهما تشمل هولندة وأرض الرين الممتدة جنوباً إلى كولونى . وكانت هذه المدينة الجميلة المعروفة عند الرومان باسم كولونيا أجرپننس Colonia Agrippinansis قد جعلت ولاية (٥٠ م) تكريما لأم نيرون التى ولدت فيها ؛ ولم يمض عليها أكثر من خمسين عاما حتى كانت أغنى المحلات القائمة على نهر الرين . أما ولاية ألمانيا الشمالية فكانت تمتد على نهر الرين نحو الجنوب مخترقة مجنتياكم Maguntiacum (ماينس Mayence) ، وأكوا أوريليا Aquae Aureliae (بادن — بادن Baden-Baden) وأرجنتراتم Argentoratum (استراسبورج Strasbourg) وأغسطا روركورم Ausgusta Rauricorum (أوغسط Augst) وتنتهى عند فندونسا Vindonissa (ڤندش Windisch) . وكان فى هذه المدن

جميعها تقريبا ما فى غيرها من الهياكل والباسلقات ، والملاهى ، والحمامات ، والتماثيل العامة . وكانت كثير من القيالق التى ترسلها رومة لحراسة الرين تعيش خارج معسكراتها ، ويتزوج رجالها بفتيات ألمانيات ، ويعيشون مواطنين فى تلك البلاد بعد أن تنتهى مدة خدمتهم العسكرية . والراجح أن بلاد الرين لم تكن فى أيام الرومان أقل سكانا أو غنى منها فى أى وقت قبل القرن التاسع عشر .

ولقد سبق القول إن مهندسى رومة العسكريين قد أنشئوا بين نهرى الرين والدانوب طريقاً محصنا ، وأقاموا على جانبيه قلاعا تبعد كل منها عن الأخرى تسعة أميال ، كما أقاموا عليه سوراً يبلغ طوله ثلثمائة ميل . وأفاد هذا الطريق المحصن رومة مائة عام ، ولكنه لم يفدها شيئاً حين نقصت نسبة المواليد بين الرومان نقصاً كبيراً عما كانت عليه عند الألمان . وكان نهر الدانوب الذى يعده الأقدمون أطول أنهار العالم أضعف من نهر الرين حدا فاصلا بين الدولة الرومانية والقبائل الألمانية . وكان إلى جنوبه الولايات النصف الهمجية ريتيا ، ونوركم ، وبنونيا ، وهى الولايات التى تتكون منها البلاد التى كنا نعرفها فى شبابنا باسم دولتى النمسا والمجر والصرب . وقد أنشأ الرومان فى موضع أجزبرج Augsburg (أى بلدة أغسطس) الحديثة مستعمرة رومانية هى مستعمرة أغسطا فندلكورم Augusta Vindelicorum كانت هى المحطة الرئيسية على الطريق الممتد من إيطاليا فوق ممر برنر Brenner إلى نهر الدانوب . وشادوا على النهر نفسه مدينتين حصينتين عند فندوبونا Vindobona وهى مدينة فينا الحالية ، وعند أكونكم Aquincum على المرتفعات التى تشرف منها بودا Buda على بست Pest . وقامت مدينة سرميوم Sirmium (متروفيكا Mitrovica) فى بنونيا الجنوبية الشرقية على نهر الساف Save غرب موقع بلغراد الحديثة ، وصارت هذه المدينة فى أيام دقلديانوس إحدى عواصم الإمبراطورية الأربع . وقامت بفضل النشاط التجارى

لليونان ، والرومان ، والأهالى الوطنين فى مقاطعة دلماشيا الواقعة جنوبى بنونيا ثغور البحر الأدرياوى وهى سالونا Salona (اسپلاتو Spalato الحديثة) وأپولونيا Appolonia (بالقرب من ڤالونا) ، وديرهكيوم Dyrrhachium (دورزو Durazzo الحديثة) . وكانت رومة الإمبراطورية تجند من هذه الولايات الواقعة جنوب الدانوب أقوى جنودها أجساما وأصلبهم عودا ، كما كانت تستمد منها فى القرن الثالث الأباطرة الحربيين الذين صدوا سيل البرابرة حوالى مائتى عام . وكان فى شرق بنونيا ولاية داشيا (رومانيا الحالية) ، وكانت عاصمتها سرمزجتوسا التى لم يعد لها الآن وجود . وكان فى جنوب هذه الولاية وشرقها ولاية مئزيا (وتشمل أجزاء من يوغوسلافيا ورومانيا وبلغاريا الحديثة) ، وكان فيها على الدانواب مدينتان كبيرتان هما سنجدنوم (بلغراد الحديثة) وترئزمس Troesmis (إجلتزا Iglitza) وثالثة بالقرب من نهر إسكر Isker وهى سرديكا Sardica (صوفيا الحالية) ، وثلاثة بلاد كبرى على البحر الأسود وهى إستروس Istrus ، وتومى Tomi (قسطنجة الحديثة) وأديسس Oddessus (وارنه Varna) . ولقد كافحت الحضارة اليونانية والجيوش الرومانية فى هذه المستقرات النكدة لكى تحافظ على كيانها ضد القوط ، والرومانيين ، والهون ، وغيرهم من القبائل المتبربرة التى أخذت تتكاثر وتتجول فى شمال النهر العظيم ، ولكن هذا الكفاح لم يجدها نفعا .

وكان عجز رومة عن تمدين هذه الولايات الواقعة جنوب الدانوب هو الذى أدى إلى سقوطها . فلقد كان هذا الكفاح من أشق الواجبات على شعب يعانى آلام الشيخوخة ، وكانت حيوية الجنس السائد قد أخذت تضعف فى مهاد الراحة والعقم بينا كانت القبائل الضاربة فى الشمال تتكاثر وتقوى وتزداد جرأة وتهورا . فلما أن قدم تراجان المال للرومانيين ليجنحوا للسلم كان ذلك العمل منه بداية النهاية ، ولما أن جاء ماركس أورليوس بآلاف من الألمان وأسكنهم داخل

الإمبراطورية ، انهارت الحواجز التي كانت تفصل بينهم وبين الرومان ، واستقبل الجنود الألمان في الجيش الروماني بالترحاب ، وارتقوا إلى مناصب القيادة ، وما لبثت الأسر الألمانية أن تضاعف عددها في إيطاليا بينما كانت الأسر الإيطالية آخذة في الانقراض . وهكذا انعكست الآية في هذه الحركة ، فأخذ البرابرة « يبربرون » رومة بعد أن كانت رومة تصبغهم بصبغتها . لكن عجز رومة عن ضم الشمال لحظيرة التراث الروماني واليوناني القديم لا يقلل من عظمة ضمها الغرب لهذا التراث أو من خطر شأنه . ففي هذا الغرب على الأقل برزت فنون السلم من بين عجاج الحرب ، وكان في وسع الناس أن يستبدلوا بسيوفهم محاريث من غير أن تنحل قواهم في نعيم المدن وأحيائها القذرة . ونبتت فيها بعـــد حضارة جديدة في أرض أسبانيا وغالة القوية حين ضعف تيار البرابرة ، وأثمرت بذور قبور الطغيان ثمارها ، وعفا الدهر عن آثامها في البلاد التي جاءت إليها الجحافل الغاشمة بقوانين رومة ونقلت إليها شعلة الحضارة اليونانية .

الباب الثالث والعشرون

بلاد اليونان الرومانية

الفصل الأول

أفلوطرخس

بذلت رومة جهدها لكي تكون كريمة فى معاملتها لبلاد اليونان ، ولم تخفق فى هذا الإخفاق كله ، فهى لم تضع حاميات من الجند فى ولاية آخية الجديدة ، وكان ما فرضته عليها من الخراج أقل مما كان ينتزعه جباتها من أهلها قبل مجىء الرومان إليها ، وتركت رومة دول المدن تحكم نفسها حسب دساتيرها وقوانينها القديمة ، وجعلت الكثير منها : كأثينة ، واسپارطة ، وپلاتية ، ودلفى وغيرها « مدناً حرة » ، تتمتع بحقوقها القديمة كلها عدا حقها فى أن تشن الحرب الخارجية أو حرب الطبقات .

لكن بلاد اليونان كانت تتحرق شوقاً إلى حريتها ، كما أن القواد الرومان ، والمرابين ، ورجال الأعمال الذين حذقوا أساليب شراء غلات البلاد بأبخس الأثمان وبيعها بأغلاها ، هؤلاء كلهم قد استنزفوا خيرات البلاد ، ومن أجل هذا انضمت إلى ثورة مثرداتس وعوقبت على انضمامها إليها أشد العقاب ، فحوصرت أثينة حصاراً أهلك فيها الحرث والنسل ، ونهبت كنوز هيا كل دلفى ، وإليس ، وإيدورس .

وبعد جيل من ذلك الوقت تقاتل قيصر وبمبى ، ثم انطونيوس و بروتس ،

على أرض اليونان ، وجندوا أهلها فى جيوشهم ، واستولوا على محصولات البلاد وذهبها ، وجبوا فى عامين ضرائب عشرين عاماً ، وتركوا المدائن خاوية على عروشها . وانتعشت آسية اليونانية تحت حكم أغسطس ، ولكن بلاد اليونان نفسها ظلت فقيرة ، ولم يكن سبب فقرها هو الفتح الرومانى بل كان هو الاستبداد الذى خنق أرواح الأهلين فى اسپارطة ، والحرية التى انحطت حتى أصبحت فوضى فى أثينة ، وما جرّه على البلاد عقم الرجال وجدب التربة من وبال . ذلك أن أكثر أبنائها جرأة ومغامرة قد هجروها إلى الأراضى التى كانت أغنى منها وأحدث استقلالا . وأدى قيام دول جديدة فى مصر ، وقرطاجنة ، ورومة ، وقيام الصناعة فى بلاد الشرق الهلنستى إلى ترك مواطن الروح اليونانية القديمة خاوية مهجورة . وكانت رومة تثقل اليونان بمديحها وتنهب روائع فنها : فقد أخذ منها اسكورس Scaurus ثلاثة آلاف تمثال ليزين بها ملهاه ، وأرسل كلجيولا زوج عشيقته لينقب فى بلاد اليونان عن التماثيل ، ونهب نيرون وحده نصف ما فى دلفى من روائع النحت ؛ ولم يبسم الحظ لأثينة مرة أخرى إلا حين تولى هدريان الملك .

وكانت إپيروس هى التى انصب عليها غضب رومة أول الأمر فى الحروب المقدونية ، وأباحها مجلس الشيوخ إلى الجند ينهبونها ويعيثون فيها فساداً ، وبيع من أهلها خمسة عشر ألفاً فى سوق الرقيق ؛ وبنى أغسطس عاصمة جديدة لإپيروس فى نيقوپوليس ليخلد ببنائها انتصاره فى أكتيوم القريبة منها . وما من شك فى أن الحضارة قد وجدت فيها ملجأ ومعتصما لأن « مدينة النصر » آوت إپكتتس ، واستمعت إلى تعاليمه . وكان حظ مقدونية خيراً من حظ جارتها الوفية ؛ فقد كانت هذه البلاد غنية بالمعادن والخشب ، وزادت حياتها التجارية نشاطا بفضل طريق إجناشيا Egnatia الذى كان يصلها هى وتراقية من أبلونيا ودير هكيوم إلى بيزنطية . وعلى هذا الطريق الرئيسى الذى لا يزال بعضه باقياً حتى الآن

كانت تقوم أهم مدن الولاية : إدسا ، وبلا ، وثسالونيكا . وكانت هذه المدينة الأخيرة التي نعرفها نحن باسم سلانيك والتي كان اليونان يعرفونها باسمها القديم « نصر تساليا » عاصمة الولاية ، ومركز مجالسها ، وإحدى الثغور التجارية الهامة بين بلاد البلقان وآسية . أما تراقية الواقعة في شرقها فقد اختصت نفسها بالزراعة ، والرعي ، والتعدين ؛ ولكنها كانت تشتمل على مدن كبيرة أهمها سرديكا Serdica (صوفيا Sofia) ، وفلپوپوليس Philippopolis عاصمتها ، وأدريانوپل (أدرنه) ، وپرنثس Perinthus ، وبيزنطية (اسطنبول الحالية) . وهنا على القرن الذهبي ، كان التجار وصائدو السمك يجمعون ثروة طائلة بينا كان اليونان الذين يقطنون من ورائها في الداخل يتقهقرون أمام البرابرة المعتدين . وكانت الحبوب الواردة من داخل البلاد تجيء إلى أرصفتها ، كما كانت جميع تجارة سكوذيا والبحر الأسود تؤدي المكوس وهي مارة بها ، ويكاد السمك لكثرته أن يقفز في الشباك وهو يجتاز مضيق البسفور . ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى أدرك قنسطنطين قيمة هذا الموقع العظيم وعرف أنه مفتاح العالم اليوناني — الروماني القديم .

وتخصصت تساليا الواقعة جنوب مقدونية في إنتاج القمح وتربية الجياد الجميلة . وقد وصف ديوكريسستم[1] جزيرة عوبية العظيمة التي أطلق عليها هذا الاسم (كما أطلق اسم بؤوشيا على الجزيرة المسماة بهذا الاسم) لما فيها من الماشية الحسنة الشكل ، وصفها بأنها تعود إلى البربرية في القرن الثاني الميلادي . وقد تجمعت في هذا الإقليم عدة عوامل كادت تمحو من الوجود سكانها الذين كانوا في يوم من الأيام شعباً زراعيا مطرد النماء والرخاء . وأهم هذه العوامل هي ما لاقاه الفقراء من عنت لتركز الأرض الزراعية والثروة في أيدي عدد قليل من الأسر ، وما لاقاه الأغنياء من عنت لثقل الضرائب والفروض الدينية المطردة الزيادة ، وقلة النسل لأنانية الرجال وحبهم الثراء أو لفقرهم المدقع . وكانت نتيجة

هذا كله أن تركت الأرض مراعى للماشية فى داخل أسوار خلقيس وإرتريا نفسهما . ولم تكن بؤوشيا قد فاقت مما حل بها من موت وما فرض عليها من الضرائب الباهظة أيام حروب سلا . ويقول استرابون « إن طيبة ليست إلا قرية صغيرة » ، قد انكمشت حتى لم تعد تشغل أكثر من الموضع الذى لم يكن قبل إلا قلعتها . على أن مائة عام من السلم قد أعادت بعض الرخاء إلى بلاتية ، واحتفظت قيرونية التى كسب فليپ سلا على سهولها إمبراطوريتين عظيمتين ما يكفى من الروعة لاستبقاء أشهر رجل من أبنائها فيها . ويقول عنها هذا الإبن — أفلوطرخس — إنها بلغت من الصغر حداً لا يجب أن تصغر عنه بتركه إياها . وإنا لنجد فى حياته الهادئة وتفكيره السار اللطيف ناحية مشرقة مبهجة من منظر نكد كئيب ، كما نجد فيه هو نفسه رجلا مهذباً من رجال الطبقة الوسطى مستمسكا بفضائل العهد القديم ، ينطوى قلبه على الإخلاص لبلده ، والوفاء لأصدقائه ، والحب لأبنائه .

وقصارى القول أنه ليس فى قصتنا كلها شخصية أظرف من شخصية أفلوطرخس القيرونيائى .

وكان مولده فى تلك البلدة حوالى عام ٤٦ م ووفاته فيها حوالى عام ١٢٦ . وكان يطلب العلم فى أثينة حين كان نيرون يوالى انتصاراته فى بلاد اليونان . وما من شك فى أنه كان واسع الثراء لأنه رحل إلى مصر وآسية الصغرى ، وطاف مرتين بإيطاليا . وقد ألقى محاضرات باللغة اليونانية فى رومة ، ويبدو أنه خدم بلده فى بعض الشئون الدبلوماسية . وكان يحب العاصمة العظيمة ، وآداب أشرافها الجدد ، وحياتهم الرقيقة ، ويعجب بقانونها الصارم ، ويقول مع إنيوس إن رومة قامت على دعائم من الأخلاق الطيبة العالية . وبينا هو يفكر فى أمر هؤلاء النبلاء الأحياء والموتى خطر له أن يوازن بين أبطال رومة وأبطال اليونان . ولم يكن يقصد أن يكتب تاريخاً أو سيراً فحسب ، بل كان يعتزم فوق هذا أن يعلم

الناس الفضيلة والبطولة بضرب الأمثلة من التاريخ ؛ وحتى سيره المتماثلة Parallel Lives كانت فى ذهنه دروساً فى الأخلاق ، ولهذا تراه على الدوام معلماً لا يترك فرصة تمر دون أن يستخلص مغزى خلقيا من كل قصة ؛ وما من أحد قد قام بمثل هذا العمل أجمل مما قام به هو . وهو يحذرنا فى سيرة الإسكندر بقوله إنه يهتم بالأخلاق أكثر من اهتمامه بالتاريخ ، ويأمل أنه حين يجمع بين عظماء الرومان وعظماء اليونان ويوازن بينهم يستطيع أن يبعث فى نفوس قرائه دوافع للخلق الطيب وللبطولة . وهو يعترف اعترافاً صريحاً لا يسعنا معه إلا أن نعفو عن زلاته بأنه قد صلح حاله لطول صحبته لأولئك الرجال الممتازين[٣] .

وليس من حقنا أن نتوقع فى كتاباته دقة المؤرخ الحق ونزاهته ؛ فكتابه ملىء بالأغلاط فى أسماء الناس ، والأمكنة ، والتواريخ ؛ وتراه أحياناً (إذا جاز لنا أن نصدر حكما عليه) يخطئ فى فهم الحوادث ، بل إنه ليقصر فى واجبين كبيرين من واجبات كل كاتب سير — وهما أن يبين أن أى شىء فى أخلاق المترجم له وأعماله يرجع إلى الوراثة أو البيئة أو الظروف ، وأن يتتبع تطور أخلاقه خلال نموه ، وما يلقى عليه من التبعات وما يقع فيه من أزمات : بل إنا لنخرج من كتاب أفلوطرخس كما نخرج من كتاب هرقليطس بأن خلق الإنسان مقدر له . ومع هذا فما من إنسان قرأ كتاب « السير » ثم أحس بعد قراءته بما فيه من عيوب ، ذلك بأن هذه العيوب تختفى كلها فى روايته الواضحة ، وحوادثه المثيرة ، وقصصه الفاتنة الساحرة ، وتعليقاته الحكيمة ، وأسلوبه الجزل . وليس فى صفحاته البالغ عددها ألفاً وخمسمائة سطر واحد يحس القارئ أنه حشو لا ضرورة له ، بل إن كل جملة من جمله لها شأنها ومعناها . وقد شهد بفضل الكتاب مائة من عظماء الرجال — منهم قواد عسكريون ، ومنهم شعراء وفلاسفة ، فقالت عنه السيدة رولان Roland « إنه مرْبَع النفوس العظيمة »[٤] . وكتب عنـــه منتانى يقول :

« إنى لا أستطيع الاستغناء عن أفلوطرخس فهو كتاب صلواتى »[٥] . وقد استمد منه شيكسپير كثيراً من قصصه ، وإن رأيه فى بروتس لمستمد عن طريق أفلوطرخس من أخلاق الأشراف الرومان الأقدمين . وكان نابليون يحمل كتاب « السير » أينما ذهب لا يكاد يفارقه أبداً . ولما قرأ هين Heine هذه التراجم لم يسعه إلا أن يقفز على ظهر جواد ويعدو به إلى فتح فرنسا . وقصارى القول أن بلاد اليونان لم تترك لنا كتاباً أثمن من هذا الكتاب .

وبعد أن شاهد أفلوطرخس عالم البحر الأبيض المتوسط عاد إلى خيرونية ورزق فيها بثلاثة أبناء وبنت واحدة ، وألقى محاضرات ، وألف كتباً ، وسافر إلى أثينة من حين إلى حين ، ولكنه قضى معظم وقته فى مسقط رأسه وعاش فيه عيشة أهله البسيطة . وكان يرى أن من الواجبات المفروضة عليه لبلده أن يجمع بين المنصب الرسمى والحياة العلمية حياة الدرس والتحصيل ، واختاره مواطنوه مفتشاً للمبانى ، ثم كبير حكامها ثم بؤوتاركا Boeotarch أى عضواً فى المجلس الوطنى . وكان يرأس المواكب والاحتفالات البلدية ، وأصبح فى أوقات فراغه كاهناً فى مهبط الوحى فى دلفى ، وكان هذا المنصب قد عاد إلى الوجود . وكان يرى أنه ليس من الحكمة أن يرفض الدين القديم لما فيه من عقائد لا يقبلها العقل ، لأن أهم الأشياء فى رأيه ليست هى العقيدة ، بل هو التأييـــد الذى تستمده منها أخلاق الإنسان الضعيفة ، وما توجده أعضاء الأسرة الأموات بين الأجيال المتعاقبة فى الأسرة والدولة من روابط تبعث فيهما المزيد من القوة ، وكان يعتقد أن نشوة العاطفة الدينية هى أعمق تجارب الحياة . ولقد كان بفضل تسامحه الدينى وتقواه مجتمعين أن يضع أسس دراسة الدين المقارن فى رسالته التى كتبها عن العبادات الرومانية والمصرية[٦] . ومما قاله فى هذه الرسالة أن الأرباب كلها مظاهر لكائن واحد أعلى ، لا يحده زمان ، يجل عن كل وصف ، بعيد عن الشئون الدنيوية والزمنية بُعداً يترك للأرواح الوسطى Daimones أن تخلق العالم

وتنظم شئونه . وكان يقول أيضاً بوجود أرواح خبيثة ، يسيطر عليها . برأسها شيطان هو مصدر الفوضى جميعها وروحها ، وأصل كل الخبائث وجميع ما لا ينطبق على العقل فى الطبيعة وفى بنى الإنسان .

ويرى أفلوطرخس أن من الخير أن يؤمن الإنسان بخلود الأشخاص — بجنة ينعم فيها الأخيار ، ومطهر ، وجحيم يعذب فيه الأشرار . وكان من أسباب سلواه أن الإقامة فى المطهر قد تطهر أى إنسان مهما خبث حتى نيرون نفسه ، وأنه قلما يوجد فى الناس من يعذبون عذاباً سرمدياً[٧] . وكان يندد بالخرافات ويرى أن أهوالها شر من الكفر نفسه ، ولكنه كان يقبل العرافة والنبوءات واستحضار الأرواح ويؤمن بأن الأحلام تنبئ عن المستقبل ؛ ولم يكن يدعى أنه فيلسوف مبتدع ، بل كان يقول عن نفسه ، كما يقول أبوليوس وكثيرون غيره من فلاسفة ذلك العصر عن أنفسهم ، إنه يأخذ آراءه عن أفلاطون ويوفق بينها وبين زمانه . وكان يعيب على الأبيقوريين أنهم يستبدلون هول الفناء بالخوف من الجحيم ، وينتقد عيوب الرواقية ، ولكنه يرى ما يراه الرواقى من أن العمل بأوامر الله وإطاعة العقل شىء واحد[٨] .

وقد عنى المتأخرون بجمع محاضراته ومقالاته وأسموها الآداب (Moralia) لأن معظمها مواعظ بسيطة لطيفة تبين ما تنطوى عليه الحياة من حكمة ؛ وهى تبحث فى كل شىء ، من الحث على استبقاء كبار السن فى المناصب العامة إلى البحث فى أيهما أسبق الكتكوت أو البيضة . وأفلوطرخس مغرم بمكتبته ، ولكنه يقر بأن الصحة الجيدة خير من الكتب القيمة :

« من الناس من يدفعهم الشره فيهرعون إلى الحانات يلتهمون ما فيها كأنهم يستعدون لحصار . . . إن أقل الأطعمة ثمناً هى على الدوام أكثرها نفعاً ... ولما عجز أردشير ممنون فى أثناء تقهقره السريع عن أن يجد ما يأكله غير خبز الشعير

والتين صاح قائلا : « ما ألذ هذا الذى لم يكن لى من قبل ! » . . . والنبيذ أفيد المشروبات على شريطة أن يكون فى مناسبة سعيدة وأن يمزج بالماء . . ؛ وأكثر ما يجب أن يخشاه الإنسان هو سوء الهضم الناشئ من أكل اللحوم لأنها تخمد العزيمة فى أول الأمر ، وتترك بعدئذ رواسب ضارة بالجسم ؛ وخير ما يفعل الإنسان أن يعوّد جسمه عدم الحاجة إلى اللحم بالإضافة إلى غيره من الطعام ؛ ذلك بأن الأرض تخرج كميات موفورة من أشياء كثيرة لا تفيد فى التغذية فحسب ، بل تفيد كذلك راحة ومتعة أما وقد أصبحت العادة طبيعة ثانية غير طبيعية ، فإن تعاطى اللحوم يجب أن يكون . . . دعامة وسنداً لغذائنا ؛ وينبغى لنا أن نأكل غيرها من الأطعمة . . . التى هى أكثر منها موافقة للطبيعة ، وأقل منها كلالة على شعلة التفكير التى توقد من مواد سهلة خفيفة إذا صح هذه التعبير[٩] .

وهو يحذو حذو أفلاطون فى الدعوة إلى تكافؤ الفرص للرجال والنساء على السواء ، ويضرب أمثلة كثيرة للنساء المثقفات فى الأزمنة القديمة (ولقد كان هناك نساء مثقفات فى المحيط الذى يعيش فيه) ، ولكنه ينظر إلى زنى الرجل بنفس السهولة التى ينظر بها إليه الرجل الوثنى فيقول :

« إذا كان الرجل داعراً منهمكا فى ملذاته وزل مع عشيقة أو خادمة ، فلا يصح لزوجته أن تغتاظ لذلك أو تغضب ، بل يجب أن تعتقد أن احترامه لها هو الذى دفعه إلى أن يشرك فى فجوره امرأة غيرها »[١٠] .

لكننا مع هذا إذا فرغنا من قراءة هذه المقاولات الممتعة الساحرة أحسسنا بعد قراءتها ، بأنا كنا فى صحبة رجل رقيق القلب ، طيب فى جوهره ، كامل فى رجولته ، لا يسوءنا قط أن أفكاره عادية . وإن اعتداله لهو الترياق الشافى من الهوى الفكرى الذى يغلب على عصرنا الحاضر ، وإن عقله المتزن ، وفكاهته اللطيفة ، وإيضاحاته الجذابة لتدفعنا إلى القراءة دفعاً لا نقوى على مقاومته حتى فى المواضع المبتذلة منها . وإن الإنسان لترتاح نفسه حين يجد فيلسوفاً أوتى من

الحكمة ما يكفى لإسعاده ، وينصحنا بأن علينا أن نحمد الله على ما فى الحياة من بركات ونعم عادية ، وألا نجعل دوامها سبباً فى قلة ابتهاجنا بها :

« يجب علينا ألا ننسى تلك النعم وأسباب الراحة التى نشترك فيها مع الكثيرين من الناس ، بل يجب . . . أن نبتهج لأننا نعيش ، وأننا أصحاء الأجسام ، وأننا نبصر ضوء الشمس . . . أليس من واجب الرجل الصالح أن يعدّ كل يوم عيداً ؟ . . . ذلك بأن العالم هو أجل المعابد وأجدرها بسيدها . فى هذا المعبد يدخل الإنسان وقت مولده ، ولا تستقبله فيه تماثيل ساكنة من صنع الأيدى ، بل تستقبله مخلوقات أظهرها العقل الإلهى لحواسنا . . . من بينها الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والأنهار التى لا تنفك تصب الماء العذب صباً ، والأرض التى تخرج الطعام . . . وإذ كانت هذه الحياة هى أكمل إعداد لأسمى العبادات الدينية ، فإن علينا أن نكون على الدوام ممتلئين غبطة وبهجة » .

الفصل الثاني

صيف هندي

تتمثل فى أفلوطرخس حركتان قامتا فى عصره أولاهما العودة إلى الدين ، وثانيتهما انتهاء النهضة اليونانية فى الآداب والفلسفة . وعمت الحركة الأولى جميع بلاد اليونان ، أما الثانية فكانت مقصورة على أثينة والشرق اليونانى . وازدهرت فى هذه الأثناء ست مدن من مدائن البلوبونيز ، ولكنها لم تمد التفكير اليونانى إلا بالقليل . وهذه المدن هى مدينة باترى Patrae التى ظلت حية منتعشة خلال العصر الرومانى والعصور الوسطى إلى أيامنا هذه بفضل التجارة الغربية وصناعة النسيج النشيطة : ومنها أولمبيا التى أثرت من أموال السياح الوافدين إليها لزيارة تمثال زيوس الذى صنعه فدياس أو لمشاهدة الألعاب الأولمبية . ومن أكثر حوادث التاريخ اليونانية طرافة أن هذه المباريات التى كانت تقام مرة كل أربع سنين ، قد ظلت تقام من عام ٧٧٦ ق . م حتى عام ٣٩٤ م حين منعها ثيودوسيوس Theodosius . كذلك ظل الفلاسفة والمؤرخون يفدون إليها كما كانوا يفدون فى أيام پروذكس وهيرودوت ليخطبوا فى الجماهير المحتشدة لمشاهدة حفلات الألعاب . ويصف ديوكريسستم المؤلفين وهم يقرءون « مؤلفاتهم السخيفة » للمستمعين العابرين والشعراء وهم ينشدون أشعارهم ، والخطباء يملئون الهواء بصخبهم و« السوفسطائيين الكثيرى العدد كأنهم طواويس تزهو بنفسها » ، وقد جاءوا لينفخوا ريحهم على الجماهير[١٢] . وقد برهن ديو كريسستم بقوله هذا على أنه ليس أكثر صمتاً من سائر القادمين . ويصور إپكتتس النظارة وقد غصت بهم المواقف غير المظللة وهم يتصببون عرقا وتلفحهم الشمس أو يغرقهم المطر ، ولكنهم لا يعبئون بهذا ولا ذاك فى غمرة من الضجيج والعجيج التى كان ينتهى بها كل دور فى اللعب

أو شوط فى السباق(١٣). وظلت الألعاب القديمة النيمية Nemean ، والبرزخية ، والبيثية Pythian ، والأثينية الجامعة تقام باستمرار ، وأضيفت إليها ألعاب جديدة كالألعاب الهلينية الجامعة التى أقامها هدريان ، وكان الكثير منها يشتمل على مباريات فى الشعر أو الخطابة أو الموسيقى . فها هى ذى شخصية من شخصيات لوشيان تسأل : « ألا نستطيع أن نسمع الموسيقى اليونانية القديمة فى الاحتفالات العظيمة ؟ »(١٤) وأدخلت الجالية الرومانية التى استوطنت كورنثة قتال المجالدين فى هذه الألعاب ، وما لبث هذا القتال أن انتشر من كورنثة إلى غيرها من المدن حتى تدنس ملهى ديونيشس نفسه بهذه المذابح . واحتج كثيرون من اليونان — ديوكريسستم ، ولوشيان ، وأفلوطرخس — على هذا التدنيس ، وتقدم ، دمناكس Demonax ، الفيلسوف الكلبي إلى الأثينيين يرجوهم ألا يسمحوا بهذه البدعة قبل أن يهدموا مذابح إلهة الرحمة فى أثينة(١٥) ، ولكن الألعاب الرومانية ظلت تقام فى بلاد اليونان حتى انتشر الدين المسيحى وكانت له السيادة فى تلك البلاد .

وكانت اسپارطة وأرجوس لا تزالان يسرى فيهما دم الحياة إلى حد ما ، وأثرت إپدورس من مال زوارها مرضى الأجسام والنفوس الوافدين إلى ضريح اسكلبيوس . ولم يكد يمضى على كورنثة ، بعد أن أعاد قيصر بناءها ، نصف قرن من الزمان حتى أضحت لحسن موقعها على البرزخ المسمى باسمها أغنى المدن فى بلاد اليونان . وكان يسكنها خليط من الرومان ، واليونان ، والسوريين ، واليهود ، والمصريين انتزع معظمهم من بلادهم ومن أخلاقهم الأولى ، وعرفوا بنزعتهم التجارية والأبيقورية ، وبفسادهم الخلقى . وكان هيكل أفروديتى بنديوس القديم سوقاً ذات تجارة رائجة ومركزاً للدعارة الكورنثية . ويصف أپوليوس Apuleius حفلة راقصة فخمة شهدها فى كورنثة مثلث فيها محاكمة پاريس و « ظهرت فيها ڤينوس عارية الجسم إلا من شعار رقيق يغطى خصرها النحيل الجميل ، وحتى هذا الشعار كانت الريح تعبث به فتدفعه تارة إلى اليمين وتارة إلى

الشمال »[١٦] . وهكذا لم تغير كورنثة أساليبها منـــذ أيام أسپازيا .

فإذا انتقل الإنسان إلى أتكا عن طريق مجارا بدا الريف فى فقر مدقع اجتمعت فيه عوامل التعرية ، وتقطيع الغابات ، واستنزاف الثروة المعدنية ، إلى الحروب ، والهجرة ، والضرائب الفادحة وقلة النسل ، فأحالته فى عصر السلم الرومانية صحراء مجدبة . ولم يكن فى أتكا كلها إلا اثنتان من المدن ذوات الرخاء : إليسيز التى كانت طقوسها الدينية الخفية تجتذب إليها الجماهير الغنية فى كل عام ، وأثينة المركز التعليمى والثقافى للعالم القديم . وكانت معاهدها ونظمها القديمة — المجلس ، والجمعية ، والأركونية — لا تزال تقوم بعملها ، كما أن رومة قد أعادت إلى مجلس الأريوبجس سلطته الأولى فجعلته مصدر الأحكام القضائية وحصن حقوق الملكية الحصين . وكان الحكام أمثال أنتيخوس الرابع ، وهيرود الأكبر ، وأغسطس ، وهدريان ينافسون أصحاب الثراء أمثال هيرودس أتكس Herodes Atticus فى هباتهم للمدينة ، فأعاد هيرودس بناء الملعب العظيم بالرخام حتى لم يكد يُبقى منه شيئاً فى بنتلكس ، وأقام قاعة للموسيقى فى أسفل الأكروپوليس . وتبرع هدريان بالمال اللازم لإتمام بناء الأولمپيوم Olympieum ، وشاد لزيوس ، وكان وقتئذ على حافة القبر(*) — بيتاً خليقاً به فى عنفوان شبابه .

وفى هذه الأثناء كانت شهرة أثينة الفذة فى الآداب ، والفلسفة ، والتعليم ، وعدم وجود مدن أخرى تنافسها فى هذه الميادين ، قد جذبت إلى مدارسها عدداً جماً من الشبان الأغنياء والطلاب الفقراء المحتاجين ، وكانت جامعتها تضم عشرة كراسى للأساتذة ينفق عليها من مال المدينة أو الإمبراطور ، فضلاً عن جيش جرار من المحاضرين والمدرسين الخصوصيين . وكانت تلقى فيها دروس ومحاضرات فى الأدب ، وفقه اللغة ، والبيان ، والفلسفة ، والرياضيات ، والفلك ، والطب ، والقانون . وكانت تلقى عادة فى مدارس التدريب الرياضى أو دور التمثيل ، وأحياناً

(*) يقصد أن عبادته توشك أن تزول وأن تحل محلها المسيحية . (المترجم)

فى المعابد أو البيوت. ولم يكن يراعى فى منهاج هذه المواد بأجمعها ، عدا الخطابة والقانون ، أن يؤهل الطالب لكسب عيشه ، بل كان يهدف بدلا من هذا إلى شحذ ذهنه ، وتقوية إدراكه ، وإمداده بقانون أخلاقى. وقد أثمرت هذه الدراسات ثمارها فأخرجت عدداً كبيراً من ذوى العقول النابهة ، ولكنها أخرجت أيضاً آلافاً من الجدليين الذين لا هم لهم إلا التلاعب بالألفاظ ، والذين حولوا الفلسفة والدين إلى نظريات جدلية لا يعرف لها أول ولا آخر .

وإذ كانت موارد أثينة تعتمد إلى حد كبير على طلابها ، فقد كانت صابرة على نزقهم وطيشهم . كان الطلاب الجدد يوجه إليهم مزاح عملى يسبب الأذى لغيرهم من المواطنين فى بعض الأحيان ؛ وكان طلبة الأساتذة المختلفين يتشيعون لأساتذتهم ، ويهاجم بعضهم بعضاً ، وينشأ من ذلك شغب كثير شبيه بالشغب الذى يحدثه شباب هذه البلاد وتستخدم فيه العصى . وكان بعض الطلبة يحسبون أن فى مقدورهم أن يتعلموا من العشيقات والمقامرين أكثر مما يتعلمون من جميع أساتذة الفلسفة ، ويشير ألسفرون Alciphron إلى أن أولئك النسوة كن ينظرن إلى الأساتذة نظرتهن إلى منافسين لهن بلداء عاجزين[١٧] . غير أنه كثيراً ما كانت تقوم بين الطلاب والأساتذة روابط قوية من الصداقة الطيبة الوفية ، فكان الكثيرون من الأساتذة يدعون الطلاب إلى الطعام ، ويرشدونهم إلى ما يقرءون ، ويعودونهم إذا مرضوا ، ويحرصون على أن يبقى آباؤهم مخدوعين فى مبلغ تقدمهم . وكان معظم المحاضرين يعيشون من الأجور التى يؤديها لهم طلبتهم ، وكان عدد قليل من الأساتذة يتقاضون مرتبات من الدولة ؛ فكان كل واحد من رؤساء المدارس الفلسفية الأربع يتقاضى عشرة آلاف درخمة (٦٠٠٠ ريال أمريكى) فى السنة من الخزانة الإمبراطورية .

ومن هذه الدوافع نشأ عصر « السوفسطائية الثانية » — الذى عاد فيه إلى الظهور الخطيب — الفيلسوف الذى ينتقل من مدينة إلى مدينة كلما دعاه داعى

الكسب ، يلقى الخطب ، ويعلم التلاميذ ، ويترافع فى المحاكم عن المتقاضين ، ويعيش فى بيوت الأغنياء مستشاراً روحيا ، ويكون أحياناً مبعوثاً مكرما لدولة — مدينته . وازدهرت هذه الحركة فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، وبخاصة فى العالم اليونانى ، فى خلال الثلاثة القرون الأولى من التاريخ الميلادى ، وقد وصفهم ديو بقوله إن الفلاسفة لم يكونوا وقتئذ يقلون عدداً عن الأساكفة[١٧] . ولم يكن لهؤلاء السوفسطائيين الجدد ، كما لم يكن لإخوانهم الأقدمين ، مبادئ مشتركة بينهم ، وكانوا يصوغون تعاليمهم فى عبارات بليغة ، ويجتذبون إليهم عدداً كبيراً من المستمعين ، ويصلون فى كثير من الأحيان إلى مراكز عالية فى المجتمع . وينالون رضاء الأباطرة ، ويجمعون ثروات طائلة . وكانوا يختلفون عن السوفسطائيين الأقدمين فى أنهم قلما كانوا يتعرضون لشئون الدين أو الأخلاق ؛ بل كان همهم منصرفاً إلى الشكل والأسلوب ، والفن الخطابى والحذق فيه ، أكثر من انصرافه إلى المسائل الكبرى التى زعزعت عقائد العالم ومبادئه الأخلاقية . والحق أن السوفسطائيين الجدد كانوا من الأنصار المتحمسين للدين القديم ، ولقد احتفظ لنا فيلوستراتس Philostratus بتراجم زعماء السوفسطائيين فى ذلك العصر ، وحسبنا أن نضرب مثلا واحداً منهم . كان أدريان Adrian الصورى يدرس البيان فى أثينة وارتقى حتى صار فيها أستاذ البيان للدولة . وكان يبدأ خطبته الافتتاحية بتلك العبارة الدالة على الفخر والكبرياء : « ها قد عادت الآداب مرة أخرى من فينيقة » . وكان يأتى إلى محاضراته راكباً عربة تجرها جياد ذات عدة من الفضة ، وعليه ثياب غالية تتلألأ فيها الجواهر . ولما زار ماركس أورليوس مدينة أثينة أحب أن يمتحن أدريان فطلب إليه أن يرتجل خطبة فى موضوع صعب . واجتاز أدريان هذا الاختبار بنجاح جعل هدريان يخلع عليه كثيراً من أسباب التكريم ، من ذهب ، وفضة ، وبيوت وعبيد . ولما ارتقى أستاذا للبيان فى رومة ، كانت محاضراته جذابة مغرية إلى حد جعل أعضاء مجلس الشيوخ يؤجلون جلساته وجمهور السكان

يتركون دور التمثيل ، ويهرعون إلى سماعها مع أنه كان يلقيها باللغة اليونانية[١٩] . وتلك خطة تكاد تؤذن بموت الفلسفة ، فقد طغى عليها سيل البيان ، وغادرها التفكير حين تعلمت الكلام .

وكان الطرف الآخر جماعة الكلبيين . ولقد وصفناهم فى غير هذا المكان — وصفنا ثيابهم الممزقة ، وشعرهم الأشعث ، ولحيتهم الكثة ، وجعبتهم وعكازهم ، ونزولهم بالحياة إلى أبسط الأمور ، وإلى الفحش فى بعض الأحيان . وكانوا يعيشون معيشة الرهبان المتسولين ، فى ظل نظام كهنوتى فيه مبتدئون ورؤساء أعلون[٢٠] ، ولا يتزوجون ولا يعملون ، ويسخرون من تقاليد الحضارة ومظاهرها المصطنعة ، ويشهرون بالحكومات كلها على اختلاف أنواعها ، ويرون أنها بأجمعها عديمة النفع ، لا تعدو أن تكون تلصصاً سافراً ، ويستهزئون بالنبوءات ، و « الطقوس الخفية » والأرباب . وكان الناس كلهم يهجونهم ، وخاصة لوشيان ، فقد صب عليهم أقذع هجاء ، ولكن لوشيان نفسه كان يعجب بدموناكس Demonax ، الفيلسوف الكلبى المثقف الذى خرج عن كل ثروته ليعيش فى فقر فلسفى ، والذى وهب حياته الطويلة التى دامت قرناً كاملا (٥٠ — ١٥٠ م) لمساعدة غيره من الناس ، وإزالة الخلاف بين المتباغضين والمدن المتعادية ، حتى لقد عظمته أثينة رغم أنها كانت تسخر من كل شىء . ولما اتهم أمام محكمة أثينة بأنه يرفض تقريب القرابين للآلهة ، برأته المحكمة حين قال إن الآلهة لا حاجة لها بالقرابين ، وإن الدين لينحصر فى الحنو على جميع الخلق ، وكان هذا هو كل ما دافع به عن نفسه .

ولما أن تورطت الجمعية الأثينية فى نزاع حزبى كان ظهوره فيها كافيا لفض النزاع ، ولم يكن منه إلا أن غادرها دون أن ينطق بكلمة واحدة . وكان من عادته فى شيخوخته أن يدخل أى بيت من غير دعوة ، ويُطعم فيه وينام . وكان كل بيت فى أثينة يسعى لأن ينال هذا الشرف[٢١] . ويتحدث لوشيان بعطف

أقل من هذا العطف على پرجرينس Peregrinns الذى جرب المسيحية ثم خرج عليها وانضم إلى جماعة الكلبيين ، وندد بروما ، وحرض بلاد اليونان جميعها على الثورة ، وأدهش المجتمعين فى أولمبيا بأن جمع محرقته بنفسه ، وأوقد فيها النار ، وقفز إليها ، واحترق فى لهيبها (١٦٥م[٢٢]) . وبهذا الاحتقار للثراء وللحياة نفسها كان الكلبيون يمهــدون السبيل لرهبان الكنيسة المسيحية .

ولما أنشأ فسبازيان ، وهدريان ، وماركس أورليوس كراسى للفلسفة فى أثينة ، أغفلوا الكلبيين والمتشككة ، ولم يعترفوا إلا بمدارس الفكر الأربع : الأكاديمية الأفلاطونية ، واللوقيون الأرسطوطيلية ، والرواقية ، والأبيقورية . وكانت الأكاديمية قد وسعت إيمان أفلاطون وافتخاره بالعقل الإنسانى حتى استحال إلى الشك العام الذى قال به كرنيديز Carneades ، فلما أن مات هذا الفيلسوف المتشكك عادت هذه المدرسة فالت إلى النزعة الأصلية ، ورجع أنتيخوس العسقلانى الذى كان يعلم شيشرون فى المجمع العلمى (٧٩ ق . م) إلى آراء أفلاطون فى العقل ، والخلود ، والله : وكانت اللوقيون وقتئذ قد قصرت بحوثها على العلوم الطبيعية جرياً على سنة ثيوفراسطس ، أو على كتابة الشروح والتعليقات فى ورع وخشوع على مؤلفات أرسطو . أما مدرسة أبيقور فكانت فى هذا العصر الدينى سائرة فى طريق الاضمحلال ، وقلما كان أحد من الناس يجرؤ على الجهر بعقائدها دون أن يشفع ذلك الجهر بتحفظات دبلوماسية . وكانت ألفاظ أبيقورى ، وكافر ، ومسيحى فى معظم بلاد آسية كلها ألفاظاً مترادفة ، تعبر عن الخلع والدنس[٢٣] .

وقد كانت للفلسفة الرواقية الغلبة على سائر الفلسفات من قبل ذلك الوقت بزمن طويل ، وكان ما اتصفت به صورها الأولى من صرامة وكمال قد خففت حدته على يدى پانيتيوس وپوسيدونيوس ، وكلاهما من مواطنى رودس . فأما پانيتيوس Panaetius فإنه عاد إلى أثينة بعد موت سپيو (١٢٩ق . م) وأصبح

وقتئذ رئيس الاستوا Stoa ، وعرّف الله بأنه روح مادية أو نَفَس مادى (pneuma) ، يسرى فى الأشياء جميعها ، ويظهر فى النبات فى صورة قوة النماء ، وفى الحيوان على هيئة النفس psyche ، وفى الإنسان على هيئة العقل logos . وقد تطور هذا المذهب الغامض مذهب وحدة الله والكائنات إلى فلسفة أقرب إلى الفلسفة الدينية على أيدى خلفائه ، واقتربت نظرية التأديب الأخلاق الرواقية من الزهد الكلبي حتى أضحت الكلبية فى القرن الثانى الميلادى وليس بينها وبين الرواقية فارق إلا فى ردائها المهلهل على حد قول أحد الكتاب . ونرى الحركتين كلتيهما تتقدمان نحو المسيحية على أيدى إبكتتس وماركس أورليوس .

الفصل الثالث

إپكتتس

وُلد إبكتتس فى هيرابوليس Hierapolis من أعمال فريجيا عام ٥٠م ، وكانت أمه جارية فكان هو لهذا السبب عبداً . ولم تتح له فرصة للتعلم لأنه صار يتنقل من سيد إلى سيد ، ومن مدينة إلى مدينة ، حتى وجد نفسه مملوكا لإپفروديتس Epaphroditus وهو معتوق ذو سلطة فى بلاط نيرون . وكان ضعيف الجسم أعرج ؛ ولعل سبب ضعفه وعرجه هو وحشية أحد أسياده ، ولكنه عاش السبعين عاما التى يعيشها الرجل العادى . وقد سمح له إپفروديتس أن يستمع إلى محاضرات موسنيوس روفس ، ثم حرره فيما بعد . وما من شك فى إن إپكتتس قد اشتغل معلماً فى رومة ، لأنه كان بين من فروا منها حين نفى دومتيان الفلاسفة . ثم استقر فى نقوپوليس واجتذب إلى محاضراته فيها طلاباً من جميع الأنحاء منهم أريان النيقوميدى الذى أصبح فيما بعد حاكم كپدوكيا . وقد دوّن أريان عبارات إپكتتس ، وأكبر الظن أنه دوّنها بطريقة الاختزال ثم نشرها باسم "Diatribai" أى عبارات « ممسوحة » أو نسخ — وهى التى تذكر الآن بين قوائم أحسن الكتب فى العالم بعنوان أحاديث Discourses(*) وليس هذا الكتاب رسالة ثقيلة مملة بل هى حديث بسيط جيد ، وفكاهة حلوة ، تكشف فى وضوح عن خُلق متواضع حنون ، ولكنه خلق قوى صارم . وكان إپكتتس يستخدم سخريته اللاذعة للاستهزاء بنفسه وبغيره على السواء ، ويسخر فى مرح من أسلوبه الجاف الخالى من التنميق . ولم يشك قط حين سمع دمناكس الأعزب العجوز ينصح الناس بالزواج ، وأراد أن يسخر منه فتقدم

(*) وأصدر أريان فيما بعد كتابا آخر باسم Encheiridion أى « الموجز » لإپكتتس .

إليه يخطب ابنته . وقد برّر عدم زواجه بحجة أن فى تعليم الفلسفة خدمة لا تقل عظمة عن ولادة « طفلين أو ثلاثة أطفال فطس الأنوف » . واتخذ لنفسه فى آخر أيامه زوجة تساعده على العناية بطفل أنجاه من الموت بسبب تعرضه لتقلبات الجو . وذاع صيته فى جميع أنحاء الإمبراطورية فى تلك الأيام ، وكان هدريان يعدّه من بين أصدقائه .

وكان إبكتتس شبيها بسقراط فى هذا وفى نواح أخرى كثيرة ، ولكنه لم يعن بالطبيعة أو بما وراء الطبيعة عناية تحمله على إنشاء نظام فكرى ، بل كان موضوعه الأوحد الذى يشغف به ويوجه إليه كل عنايته هو الحياة الصالحة . ومن أقواله فى هذا المعنى : « ماذا يهمنى من أن تكون الأشياء الموجودة على ظهر الأرض مكونة كلها من ذرات . . . أو من النار والتراب ؟ أليس يكفينى أن أعرف حق المعرفة ما هو الطيب وما هو الخبيث ؟ »[٢٥] . وليست الفلسفة فى رأيه هى قراءة ما فى الكتب من الحكمة ، بل هى تدريب الإنسان نفسه على اتباع الحكمة . وجوهر المسألة أن يشكل الإنسان حياته وسلوكه بحيث لا تتأثر سعادته بالظروف الخارجية إلا أقل التأثر . وهذا لا يتطلب منه أن يكون موقفه من الحياة موقف النساك ، بل إن « الأبيقوريين ، وأسافل الناس » ملومون لأنهم يحولون بين الناس وبين أداء الخدمات العامة ؛ والرجل الصالح يقوم بنصيبه فى الشئون المدنية ، ولكنه يرضى ، وهو هادئ مطمئن ، بجميع صروف الزمان : من فقر ، وحرمان ، وإذلال ، وألم ، ورق ، وسجن ، وموت . ويعرف كيف « يصبر ويتبذ » .

« لا تقل عن شىء ما » « إننى فقدته » بل قل فقط « إننى رددته » : هل مات لك طفل ؟ لقد رُدّ . هل ماتت لك زوجة ؟ لقد أعيدت . « لقد اغتصبت منى مزرعتى » . حسن جداً ، هذه أيضاً قد ردت . وما دام الله وهبك إياها فاعتن بها على أنها ليست لك . . . « أسفى على أننى أعرج ! » أيها العبد !

أتوَنّب الكون لأنك فقدت ساقاً حقيرة ؟ ألا يليق بك أن تنزل عنها هبة خالصة للكون كله ؟ . . . وإذا أرغمت على الخروج من بلدى منفيا ، فهل فى مقدور أحد من الناس أن يمنعنى أن أخرج مبتسما هادئا ؟ . . . « سألقيك فى السجن » . إنك لن تسجن إلا جسمى ، وسأموت حتما ، فهــل يجب إذن أن أموت شاكيا ؟ . . . تلك هى الدروس التى يجب أن تبدئها الفلسفة وتعيدها ، وتدوّنها كل يوم ، وتمارسها . . . ليست منصة الخطابة وليس السجن إلا مكانين ، أحدهما عال والآخر منخفض ، ولكن هدفك الأخلاقى يجب أن يكون واحداً فى كلتا الحالين[٢٧] .

« وفى مقدور العبد أن يكون حر الروح كإبكتيتوس ، وفى وسع السجين أن يكون حراً كسقراط ، وقــد يكون الإمبراطور عبداً كنيرون[٢٨] ؛ وليس الموت نفسه إلا حادثاً عارضاً فى حياة الرجل الصالح ، فى وسعه أن يستعجله إذا تبين أن الشر يرجح كثيراً على الخير[٢٩] . وخليق به على أية حال أن يستقبله فى هدوء ، وأن يرى فيه جزءاً من حكمة الطبيعة المكنونة .

« لو أن سنابل الحب كان لها إحساس ، فهل كانت ترجو ألا تحصد ؟ ... إنى أحب أن تعلم أنك لو عشت أبد الدهر لكان عيشك هذا نقمة . . . إن السفينة تغرق ، فماذا أفعل إذن ؟ مهما استطعت أن أفعل . . . فسأغرق دون أن أخشى شيئا أو أن أحجم أو أجدف فى حق الله ، بل أعتقد أن من يولد لا بد أن يهلك . ذلك أنى جزء من الكل كما أن الساعة جزء من اليوم . علىّ أن أجىء كما تجىء الساعة ، وأن أنقضى كما تنقضى[٣٠] . . . يجب ألا تعد نفسك أكثر من خيط واحد بين جميع الخيوط التى تتكون منها الثوب[٣١]... لا تسع لأن يكون ما يحــدث لك يحدث كما تحب ، بل أحب أن يحدث ما حدث كما حدث ، فإن فعلت وجدت الهدوء والطمأنينة »[٣٢]

وكثيراً ما يتحدث إبكتتس عن الطبيعة بوصفها قوة غير ذات شخصية ،

ولكنه فى كثير من الأحيان أيضاً يجعـــل لفكرته عن الطبيعة شخصية ، وذكاء ، وعاطفة حب . وترى الجو الدينى الذى كان يسود عصره يغمر فلسفته ويحيلها تقوى مستسلمة شبيهة بتقوى الإمبراطور الذى قرأ فلسفته وردد صدى أفكاره بعد زمن قليل . فهو يتحدث حديثاً بليغاً رقيقاً عن النظام الفخم الذى يسود الزمان والمكان ، وعما فى الطبيعة من خطط موضوعة ، ولكنه ينتقل من هذا ليقول إن « الله قد خلق بعض الحيوانات لكى يُؤكل ، وبعضها الآخر لكى يعمل فى المزارع ، وبعضها لكى يخرج الجبن »[٣٣] ، وهو يعتقد أن العقل البشرى نفسه أداة عجيبة لا يستطيع أن يوجدها إلا إله خالق ؛ وإننا وقد وجدت لنا عقول لا بد أن نكون فى الواقع أجزاء من العقل العالمى . ولو أننا استطعنا أن نرجع بأنسابنا إلى الإنسان الأول لوجدنا أنه من أبناء الله ؛ فالله إذن أبونا جميعاً بالمعنى الحرفى للفظ الأبوة ، والناس كلهم إخوة[٣٤] .

« لم يحجم من راقب تصريف شئون العالم وفهمها وعرف أن أعظم المجتمعات وأوسعها هو نظام (سستيما Systema أى الوقوف الإجماعى) الخلق والله ، وأن الله هو الذى انبعثت منه الأصول التى نشأت منها جميع الأشياء وخاصة الكائنات العاقلة ، لم يحجم عن أن يسمى نفسه مواطناً عالمياً . . . أو بعبارة أصح . ابن الله ؟ وإذا استطاع إنسان أن يؤمن بهذا المبدإ بقلبه وروحه . . . فأكبر ظنى أنه لن تخالجه قط فكرة دنيئة أو غير شريفة . . . فلا تنس إذن وأنت تأكل ، من أنت الذى يأكل ، ومن هو الذى تغذية ؛ وإذا ضاجعت النساء فاذكر من أنت الذى تفعل هذا . . . إنك تحمل الله معك . . . أنت أيها التعس المسكين ، وإن كنت لا تعرف ![٣٥]

ويحث إبكتتس طلابه فى فقرة خليقة بأن يكتبها القديس بولس أن يسلموا إرادتهم لله فى ثقة واطمئنان ، وألا يقتصروا على هذا بل يكونوا فضلا عن ذلك رسلا لله بين بنى الإنسان فيقول :

يقول الله : « اذهبوا وكونوا شهداء لى على الناس »[٣٦] . . . وفكروا فى المعنى الذى ينطوى عليه قولكم : « لقد بعثنى الله إلى العالم لأكون جندا من جنوده وشاهداً من شهوده ، ولأخبر الناس أن أحزانهم ومخاوفهم عبث وبطلان ، وأن الشر لا يمكن أن يصيب الرجل الطيب ، حيا كان أو ميتاً . والله يبعثنى يوما هنا ويوما هناك ، ويؤدبنى بالفقر وبالسجن لكى أكون شاهداً حقاً له بين الناس . وإذا ما قمت بهذه الرسالة ، فهل يعنينى أى مكان أكون فيه ، أو مَن يكون رفاقى ، أو ماذا يقال عنى أجل ، ألا تكون فطرتى كلها منجذبة نحو الله ، ونحو شرائعه ووصاياه[٣٧]

أما هو نفسه فقد كان غموض الأشياء ولألاؤها يملآنه رهبة وشكراً . وهو يترنم للخالق بتسبيحة وثنية تعد من أورع الفقرات فى تاريخ الأديان :

« أية لغة ترقى إلى الثناء على جميع أعمال العناية الإلهية ؟ . . . أفما كان خليقاً بنا ، لو كانت لنا عقول ، أن نصرف وقتنا كله فى التغنى بمجد الإله والتسبيح بحمده ، والتحدث بنعمه ؟ أليس من واجبنا ونحن نحفر الأرض ونفلحها ، ونأكل من ثمارها ، أن تلهج ألسنتنا بالثناء عليه ؟ — وماذا بعد هذا ؟ — أما وقد أصبحت كثرتكم الغالبة عمياء ، أفلا يجب أن يكون هناك إنسان يؤدى هذا الواجب بدلا منكم ، وينوب عنكم جميعاً فى التغنى بمدح الله ؟ »[٣٨] .

إنا لنجد فى هذه الفقرات تشابها عجيباً بينها وبين كثير من أفكار المسيحية الأولى ، وإن كنا لا نرى فيها كلمة واحدة عن الخلود ، وإن كان فى وسعنا أن نرجع بها جميعا إلى عقائد الرواقيين والكلبيين . والحق أن إبكتتس ليتقدم أحيانا على المسيحية ؛ يتقدم عليها فى تنديده بالاسترقاق ، وفى وجوب تحريم عقوبة الإعدام ، وفى مناداته بأن يعامل المجرمون على أنهم مرضى يحتاجون إلى العلاج[٣٩] . وهو يدعو الناس إلى أن يحاسبوا ضميرهم فى كل يوم من

حياتهم[٤٠] ، ويضع لهم قاعدة من نوع القواعد الذهبية : « لا تكن سبباً في أن يتعذب الناس بما لا تحب أن تتعذب به أنت »[٤١] ، ويضيف إلى ذلك قوله : « إذا قيل لك إن إنسانا يتحدث عنك حديث السوء ، فلا تدافع عن نفسك بل قل : إنه لو عرف سائر عيوبي لما ذكر هذه وحدها »[٤٢] . وهو ينصح الناس بأن يجزوا الإساءة بالإحسان ، « وألا يردوا الشتم إذا شُتموا ! »[٤٤] ، وأن يصوموا من حين إلى حين ، وأن « يمتنعوا عما يشتهون »[٤٥] . وتراه أحيانا يتحدث عن الجسم باحتقار مزر كالذي يتحدث به عنه الناسك الذي لم يتطهر بعد من ذنوبه : « إن الجسم أقذر الأشياء جميعاً وأخبثها . . . ومن أغرب الأشياء أن نحب هذا الشيء ونؤدي له هذه الخدمات العجيبة في كل يوم . أنا أملأ هذا الكيس ، ثم أفرغه ، فهل ثمة عمل أكثر من هذا مشقة ؟ »[٤٦] .

ومن أقوال إبكتتس فقرات تنطق بتقى أوغسطين وفصاحة نيومن Newman : « تصرّف فيَّ يارب كما تشاء ؛ إن عقلي منك وإليك ؛ وأنا مِلك لك . ولست أطلب أن أعفى من شيء ترى أنت أنه خير . اهدني إلى حيث تريد ، واكسني بما تشاء من الثياب »[٤٧] ، وهو يأمر أتباعه كما يأمرهم عيسى بألا يهتموا بأمر غد :

« إذا كان الله خالقنا ، وأبانا ، ووليَّنا — أفلا يكفي هذا لأن يرد عنا الحزن والخوف ؟ ويتساءل بعض الناس : من أين أُطعم إذا لم يكن عندي ما أُطعمه ؟ ولكن ماذا تقول عن الحيوانات التي يكتفي كل منها بنفسه ، ولا يعدم ما يصلح له من الطعام ، ولا ينقصه ما يوائمه ويتمشى مع طبقته من أساليب الحياة ؟ »

وهل من عجب بعد هذا أن يثني عليه المسيحيون أمثال القديس يوحنا وكريسستوم وأوغسطين ، وأن يتخذ كتابه « الموجز » بعد تغيير طفيف قاعدة لحياة النساء في الأديرة ومرشداً لهن ؟[٤٩] . ومن يدري ، لعل إبكتتس قد قرأ أقوال عيسى في صورة ما وأنه قد اعتنق المسيحية على غير علم منه .

الفصل الرابع

لوشيان والمتشككة

ومع هذا فقد كان فى هذه المرحلة الأخيرة من مراحل الثقافة الهلنستية متشككة يعيدون إلى الأذهان شكوك پروتجوراس ، وكان فيها لوشيان ، يسخر من العقائد الدينية بوقاحة كوقاحة أرستبس ، وبأسلوب لا يكاد يقل سحراً عن أساليب أفلاطون . ولم تكن مدرسة بيرو Pyrrho قد ماتت بعد ، وقد أعاد إينسديمس Aenesidemus النسوسى صياغة أقوالها الإنكارية بمدينة الإسكندرية فى القرن الأول الميلادى ، وذلك فى « الأساليب » Tropoi العشرة أو المتناقضات التى تجعل المعرفة مستحيلة(*) . وفى أواخر القرن الثانى صاغ سكستس إمپركس Sextus Empiricus ، وهو رجل لا نعرف له تاريخاً ولا موطناً ، فلسفة المتشككة فى شكلها الأخير وضمنها عدة مجلدات هدامة بقيت منها حتى الآن ثلاثة . ويتخذ سكستس العالم كله عدواً له ، ويقسم الفلاسفة أجناساً مختلفة ، ويقضى عليهم واحداً

(*) منها (١) أن أعضاء الحس (كالعينين) فى الحيوانات المختلفة ، بل وفى الآدميين المختلفين ، تختلف فى شكلها وتركيبها ، وأن المفروض فيها أنها تنقل لصاحبها صوراً للعالم مختلفة . وأنى لنا أن نعرف أى هذه الصور هو الصحيح ؟ (٢) وأن الحواس لا تنقل إلا جزءاً صغيراً من الجسم المحس كجزء محدد من الألوان ، والأصوات والروائح ؛ وما من شك فى أن الصورة الذهنية التى تتكون لدينا عن هذا الجسم صورة جزئية غير موثوق بصحتها (٣) وأن هذه الحواس قد تتعارض إحداها مع حاسة أخرى (٤) وأن الجسم المحس يتلون ، وقد يتلون خطأ ، بحالتنا الجسمية والعقلية : حالة اليقظة أو النوم ، والشباب أو الشيخوخة ، والحركة أو السكون ، والجوع أو الشبع ، والكره أو الحب ، (٦) وأن مظهر الشىء المحس يختلف باختلاف حالة البيئة التى تحيط به — من ضوء ، وهواء ، وبرد ، وحر ، ورطوبة الخ ، فأى مظاهره هو الصحيح ؟ (٨) وأن لاشىء يمكن معرفته بنفسه أو بمعرفته معرفة مطلقة ، فهو لا يعرف إلا بصلته بشىء آخر أى بوصفه جزءاً من كل (١٠) وأن عقائد الفرد موقوفة على العادات ، والدين ، والنظم ، والقوانين التى نشأ فيها ، وما من فرد يستطيع أن يفكر تفكيراً موضوعياً .

بعد واحد ، ويكتب بالقوة الخليقة بالجلادين ، وبالترتيب الحسن والوضوح اللذين تمتاز بهما الفلسفة القديمة ، ولا يخلو أسلوبه من الفكاهة الساخرة ومن فتات من المنطق الكئيب .

ويقول سكستس إن كل حجة يمكن معارضتها بحجة مساوية لها ، ومن أجل هذا لن تجد فى آخر الأمر شيئاً لا ضرورة له أكثر من التعليل . والاستدلال لا يوثق به إلا إذا قام على أساس الاستقراء الكامل ؛ ولكن الاستقراء الكامل مستحيل ، لأنا لا نستطيع أن نتبين متى يظهر أمامنا « مثل سلبي »[٥١] . وليست « العلة » إلا سابقة منتظمة (كما يكرر هيوم Hume) ، والمعرفة كلها نسبية[٥٢] . كذلك لا يوجد خير أو شر موضوعى ، فالمبادئ الأخلاقية تختلف باختلاف البلاد[٥٣] ، وللفضيلة فى كل جيل تعريف يختلف عن تعريفها فى كل جيل آخر . وإنك لتجد فى أقوال هذا الفيلسوف جميع الحجج التى أدلى بها فى القرن التاسع عشر عن إمكان معرفة وجود الله أو عدم وجوده . كما تجد فيها جميع الأقوال المتعارضة بين قدرته العليا الخيرة والآلام الدنيوية[٥٤] . ولكن سكستس أكمل لاأدرية من اللاأدريين ، لأنه يؤكد أننا لا نستطيع أن نعرف أننا لا نعرف . ويقول إن اللاأدرية عقيدة[٥٥] ، ولكنه يواسينا بقوله إننا لسنا فى حاجة إلى الحقيقة المؤكدة ، وإن فى الترجيح ما يفى بجميع أغراضنا العملية ، وإن تعليق الحكم فى المسائل الفلسفية بدل إزعاج العقل به يهبه الهدوء الناشئ عن عدم الاهتمام (Atarasia)[٥٦] ، وإذ لم يكن ثمة شىء مؤكد فلنقبل عرف الزمان والمكان اللذين نعيش فيهما وعقائدهما ، ولنعبد أربابنا القدامى متواضعين[٥٧] .

ولو أن لوشيان قد أوتى من الحمق ما جعله يقيد عقله بالانتماء إلى طائفة خاصة من الفلاسفة لكان من طائفة المتشككة . وكان يكتب الفلسفة كما يكتبها ڤلتير الذى يشبهه فى كل شىء إلا فى عطف ڤلتير وحنانه ، يكتبها بأسلوب بلغ من

الإشراق والوضوح حداً لا يظن معه إنسان أنه يكتب الفلسفة . وكان مولده فى سموساتا Samosata من أعمال كمجينى Commagene البعيدة ، وكأنه قد ولد فى هذا المكان بالذات ليدلنا على مدى انتشار الهلنستية . وقد قال عن نفسه : « أنا سورى من بلاد الفرات » . وكانت لغته الأصلية هى السريانية ، وأكبر الظن أن الدم الذى كان يجرى فى عروقه هو الدم السامى(٥٨) . ثم ارسل ليتمرن على النحت عند مثال ، ولكنه ترك النحت وأخذ يدرس البلاغة ؛ وبعد أن أقام فى أنطاكية يمارس صناعة المحاماة شرع يتجول فى الطرقات كما يفعـــل « العالم المستقل » ، يكسب عيشه بإلقاء المحاضرات ، وخاصة فى رومة وغالة ؛ ثم ألقى عصا التسيار فى أثينة (عام ١٦٥م) ، وأنجاه ماركس أورليوس الورع المتسامح من الفقر فى آخر أيامه ، وعين المتشكك غير المحترم فى منصب رسمى فى مصر ، حيث مات فى تاريخ غير معروف .

وقد أبقت الأيام على ستة وسبعين كتاباً من كتب لوشيان الصغيرة ، وكثير منها لا يقل جدة ومناسبة لأحوال هذا العصر عما كانت عليه حين كان يقرؤها على أصدقائه ومستمعيه قبل ثمانية عشر قرناً من الزمان : وقد أخذ يجرب أفانين مختلفة من الكتابة حتى عثر أخيراً على أسلوب الحوار الممتع الظريف . وقد بلغ كتابه محاورات الحظيات من التحرر درجة جعلت له كثيرين من القراء ، ولكنه كان فى كتبه على الأقل أكثر انهماكا فى الآلهة منه فى الحظيات ؛ وهو لا يفرغ قط من الإساءة إليهن . ويقول فى كتابه هذا على لسان منپس Menippus : « كنت وأنا غلام أستمع إلى قصص هومر وهزيود عن الآلهة — الآلهة الزانين ، الآلهة الجشعين النهابين ، الآلهة العنيفين المتنازعين ، مرتكبى الفحشاء مع المحارم : ولم أكن أجد فى هذا كله مأخذاً ، بل إنى فى واقع الأمر وجدت فيه متعة عظيمة ؛ ولكنى حين بلغت سن الرشد وجدت الشرائع تناقض أقوال الشعراء مناقضة تامة ، فتحرم الزنى والسلب والنهب » :

وتحيّر منيس فذهب إلى الفلاسفة يستوضحهم الأمور ، ولكنهم كانوا مشغولين بأنفسهم يحاول كل منهم أن يفند حجج غيره ، فلم يزيدوه إلا حيرة واضطرابا ، ولم ير بدأ من أن يصنع له جناحين ، ويطير بهما إلى السماء ، ويفحص عن الأمر بنفسه . واستقبله زيوس أحسن استقبال ، وأكرم وفادته ، وسمح له أن يراقب مجرى الأمور من فوق أولمپس . وكان زيوس نفسه يستمع إلى الصلوات وهى تأتى إليه من « صف من الفتحات لها أغطية كأغطية الآبار . . . وكان من بين الخلق الذين يعملون فى البحار رجل يطلب ريحاً شمالية وآخر يطلب ريحاً جنوبية . وكان الزارع يدعوه ليرسل إليه المطر ، والقصار يدعوه أن يرسل إليه الشمس . . . وخيل إلى الرجل أن زيوس قد تحير فى أمره ، لا يعرف أى دعاء يستجيب له ، فامتنع عن الحكم امتناع العلماء الحقيقيين ، وأظهر من التريث والاتزان ما هو خليق بپيرو نفسه »(٥٩) . ثم يرفض الإله بعض المطالب ، ويستجيب لبعضها الآخر ، ثم ينظم طقس اليوم : فيرسل المطر إلى سكوذيا ، والثلج إلى بلاد اليونان ، والعواصف إلى البحر الأدرياوى ، و « يصرخ صرخة تبعث بعشرين مكيالا من البرد إلى كپدوكيا » . ويغضب زيوس من الآلهة السمجة الغريبة التى تسللت إلى مجمع آلهته ، فيصدر أمراً يقول فيه إن جبل أولمپس قد ازدحم بالآلهة الأجنبية المتعددة الأجناس حتى ارتفع ثمن الرحيق الذى نشربه ، وأخرجت منه الآلهة القديمة ، التى هى دون غيرها الآلهة الحقة ؛ ولهذا فإن لجنة من سبعة ستشكل لتنظر فى مطالب الآلهة .

وفى كتاب *التحقيق مع زيوس* يسأله فيلسوف أبيقورى : هل الآلهة هى الأخرى خاضعة للأقدار ؟ فيجيب جوف الظريف بقوله : نعم . فسأله الفيلسوف : « ولم إذن يقرب الآدميون لك القرابين ؟ . وإذا كان القدر هو المسيطر على الآدميين والأرباب ، فلم نكون مسئولين عن أعمالنا ؟ » ، فيرد عليه زيوس بقوله : « يتبين لى أنك كنت مع تلك الجماعة اللعينة جماعة

« السوفسطائيين »(٦٠) ؛ وفى **زيوس تراجودس** Zeus Tragoedus ترى الإله مكتئبا ساخطا لأنه يرى جمعا محتشداً فى أثينة يستمع إلى داميس Damis الأبيقورى ينكر وجود الآلهة واهتمامها بالخلق ، بينا يؤكد ذلك تمكليز Temocles الرواق . ثم ينهزم تمكليز ويفر من الميدان ، وييأس زيوس من مستقبله ، ولكن هرمس يواسيه بقوله : « لا يزال فى الأرض كثيرون من المؤمنين ، هم الكثرة الغالبة من اليونان ، أواسط الشعب وسفلته ، والبرابرة على بكرة أبيهم »(٦١) . ولم يتهم لوشيان بالكفر لقوله هذا ، وفى ذلك دليل إما على روح التسامح التى كانت تسود ذلك العصر وإما على قرب زوال الآلهة اليونانية من الوجود .

وكان لوشيان يتشكك فى قيمة البلاغة والفلسفة تشككه فى الدين القديم . ففى إحدى **محاورات الموتى** يأمر كارون Charon أحد البلغاء ، وهو ينقله إلى الدار الآخرة ، « أن تثير ما بلغك من طول الجمل الذى لا آخر له ، ومن الطباق والمقابلة والعبارات المتوازنة » — وإلا غرق القارب حتما(٦٢) . وفى **هرموتمس** Hermotimus ترى طالبا يبدأ دراسة الفلسفة متحمسا لها راجيا أن يستعيض بها بعض الاستعاضة عن الإيمان ، ولكنه يصطدم بما يتصف به المعلمون المتنافسون من غرور وشره ، ويتركه هؤلاء المعلمون عاريا ذهنيا وخلقيا ، لأن كل فريق منهم يقضى وقته فى دحض حجج الفريق الآخر ، ولهذا « سأبتعد عن الفيلسوف كما أبتعد عن الكلب » على حد قوله فى ختام حديثه(٦٣) . ويعرّف لوشيان نفسه الفلسفة بأنها محاولة « للوصول إلى مرتفع تتطلع منه إلى جميع الجهات »(٦٤) . وتبدو له الحياة من هذا المرتفع كأنها خليط مهوش سخيف ، أو جوقة مضطربة مختلة النظام ، يتحرك فيها الراقصون ويصرخون كل كما يريد حتى يطردهم رئيس الفرقة من فوق المسرح واحداً بعد واحد(٦٥) . ويصوّر

فى « كارون » منظر البشر ، كما تراهم عين فوق عين الآدميين من قمة سماوية عالية ، صورة حالكة السواد : صورة خلائق يفلحون الأرض، ويكدحون، ويتنازعون ، ويتقاضون فى المحاكم ، ويرابون ، ويَغشّون ويُغشّون ، ويجرون وراء الذهب أو اللذة . وفوق رؤوسهم سحابة من الآمال والمخاوف ، والحمق ، والكره ، ومن فوق هذه كلها تغزل الأقدار خيط الحياة لكل ذرة بشرية ؛ فإنسان يرتفع من بين جمهرة الناس ثم يسقط إلى الحضيض ، وكل إنسان يسحبه بدوره رسول من رسل الموت . ويبصر كارون جيشين يقتتلان فى أرض البلوبونيز ، فيعلق على تقاتلهم بقوله : « ما أشد حمق هؤلاء ! إن كلا منهم لا يعرف أنه وإن كسب البلوبونيز وحده لن يكون له آخر الأمر إلا قدم واحدة من الأرض »[٦٦] . ولوشيان لا يحابى أحداً شأنه فى هذا شأن الطبيعة نفسها ، فهو يهجو الأغنياء لشرههم ، والفقراء لحسدهم ، والفلاسفة لشراكهم ، والآلهة لعدم وجودهم . ويختم حديثه فى آخر الأمر بما يختم به ڤلتير حديثه وهو أنه ينبغى للإنسان أن يزرع حديقته . فمنبس Menippus يجد تيرسياس Teiesias فى الدار السفلى ويسأله : ما خير أنواع الحياة ؟ فيجيبه النبى الشيخ بقوله :

إن حياة الرجل العادى خير أنواع الحياة ، ومن اختارها كان أكثر الناس فطنة ؛ وإياك وسخف المجادلات فيما وراء الطبيعة والبحث فى أصول الأشياء وغاياتها ؛ ولا تحسبن هذا المنطق كله إلا هراء فى هراء ، ولا تسع إلا لغاية واحدة وهى كيف تعمل ما تجده يدك لتعمله ؛ وسر فى طريقك دون أن تنفعل قط وعلى فمك ابتسامة على الدوام[٦٧] .

وقصارى القول أن التفكير اليونانى فى القرنين الأولين من التاريخ الميلادى تطغى عليه النزعة الدينية على الرغم من لوشيان وآرائه . لقد خسر الناس قبل ذلك العهد إيمانهم وعمدوا إلى المنطق ؛ أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فقد كانوا يخسرون المنطق ويعودون سراعاً إلى الإيمان . ذلك أن الفلسفة اليونانية

كانت قد أتمت دورتها مبتدئة باللاهوت البدائى ، ثم انتقلت منه إلى تشكك السوفسطائيين الأولين ، ثم إلى كُفر دمقريطس ، فداهنة أفلاطون ومحاولته التوفيق بين النزعتين ، فنزعة أرسطو الطبيعية ، فعقيدة وحدة الله والكون التى كانت تنادى بها الاستوا ، فالعودة إلى فلسفة التصوف والاستسلام والتقوى . أما المجمع العلمى فقد انتقل من أساطير مؤسسة النفعية عن طريق تشكك كرنيديز Carneedes إلى خشوع أفلوطرخس القائم على العـــلم . ولا يلبث أن يبلغ الذروة فى رؤى بلوتنس السماوية . لقد نسى الناس كشوف فيثاغورس العلمية العظيمة ، ولكن فكرته عن التجسد بدأت وقتئذ تحيا حياة جديدة ، فكان الفيثاغوريون الجدد ينقبون فيما تنطوى عليه الأعداد من أسرار خفية ، ولا ينقطعون يوماً واحداً عن اختبار الضمير الإنسانى ، ويدعون الله أن ينتقلوا بعد أقصر فترة مستطاعة من التجسد إلى الاتحاد المبارك مع الله بعد أن يمروا بالمطهر — إن كان لا بد لهم أن يمروا به[٦٨] . وكانت الرواقية تبعد شيئاً فشيئاً عن أن تكون فلسفة الأشراف المفتخرة المستهزئة ، وقد وجدت آخر المعبرين عنها وأفصحهم لساناً فى عبد من العبيد . وكان إيمانها باللهيب الذى سوف يحرق العالم آخر الدهر ، ونبذها كل ملاذ الجسد ، واستسلامها فى خضوع وذلة إلى إرادة الله الخفية ، كان هذا كله يمهد السبيل إلى اللاهوت المسيحى والمبادئ الخلقية المسيحية . وملاك القول أن المزاج الشرقى كان وقتئذ ستحوذ على القلعة الأوربية .

الباب الرابع والعشرون

اليقظة الهلنستية

الفصل الأول

مصر الرومانية

كان خليقاً بمصر أن تكون أسعد بلدان الأرض قاطبة ، لأن النيل يرويها ويغذيها ، ولأنها أكثر بلاد البحر الأبيض المتوسط قدرة على الاكتفاء بخيراتها — فهي غنية بالحب والفاكهة ، تنتج أرضها ثلاث غلات في العام ، ولم يكن يعلو عليها بلد آخر في صناعاتها ، وكانت تصدر الغلات والمصنوعات إلى مائة قطر وقطر ، وقلما كان يزعجها ويقلق بالها حرب خارجية أو أهلية . ولكن يبدو أن « المصريين » برغم هذه الأسباب — أو لعلهم لهذه الأسباب — « لم ينعموا بالحرية يوماً واحداً في تاريخهم كلهم »[1] على حد قول يوسفوس . ذلك أن ثروتهم كانت تغري بهم الطغاة أو الفاتحين واحداً في إثر واحد مدى خمسين قرناً من الزمان كانوا فيها يستسلمون لأولئك الطغاة والفاتحين(*) .

(*) هذه إحدى الأكاذيب التي يرويها المؤرخون دون تحقيق والتي يكذبها تاريخ مصر تكذيباً قاطعاً ، فلقد نعمت مصر في جميع أدوار تاريخها بعصور من الحرية طوال ؛ وإذا كانت قد خضعت في بعض أيامها لغيرها من الدول فإن معظم الأمم لم تسلم من هذا الخضوع ، وقد امتصت مصر الفاتحين فمصرتهم أو أخرجتهم من أرضها واحتفظت بطابعها مع ما يقتضيه الزمن من تطور لا بد منه . وإذا كانت قد حكمها ملوك أو حكام وفد آباؤهم عليها من خارجها فإن هذا لا ينقص من استقلالها ، وقد حدث مثله في بلاد العالم . وليس صحيحاً أيضاً أنهم مستسلمون إلى الحد الذي يصفه المؤرخ فلطالما ثاروا في جميع أدوار التاريخ على الطغاة والغاصبين . (المترجم)

ولم تكن رومة تعد مصر ولاية تابعة لها ، بل كانت تعدها من أملاك الإمبراطور نفسه ، وكان يحكمها حاكم مسئول أمامه وحده . وكان موظفون من اليونان المتمصرين يديرون أقسامها الثلاثة — مصر السفلى ، ومصر الوسطى ، ومصر العليا ، ومقاطعاتها الست والثلاثين ، وبقيت اللغة اليونانية فى ذلك العهد هى اللغة الرسمية — ولم تبذل محاولة ما لتحضير السكان ، فقد كانت وظيفة مصر فى الإمبراطورية أن تكون المورد الذى تستمد منه رومة مايلزمها من الحبوب . ولهذا السبب انتزعت من الكهنة مساحات واسعة من الأرض وأعطيت للممولين الرومان أو الإسكندريين ، وجعلت ضياعاً واسعة يعمل فيها الفلاحون ويستغلون بلا رحمة . وظلت الرأسمالية الحكومية كما كانت فى عهد البطالمة ، وإن كانت فى صورة أخف من عهدها السابق ؛ لقد كانت تنظم كل خطوة من خطوات الأعمال الزراعية وتشرف على تنفيذها : فكان موظفون حكوميون مطردو الزيادة يعينون ما يزرع من المحاصيل ، ومقدار ما يزرع منها ، ويوزعون البذور على الزراع فى كل عام ، ويستولون على المحصولات ويودعونها فى مخازن حكومية (thesauroi) ، ويصدرون منها حصة رومة ، ويقتطعون الضرائب منها عينا ، ويبيعون ما يتبقى بعد ذلك فى السوق . وكان القمح والكتان محتكرين للحكومة من البذر إلى البيع ؛ وكذلك كان شأن الطوب ، والروائح العطرية وزيت السمسم فى الفيوم إن لم يكن فى غيرها من الأقاليم ، أما غير هذه من الميادين الاقتصادية فكان يسمح فيها بمشروعات الاستغلال الخاصة ، على أن يكون هذا الاستغلال خاضعاً لأنظمة دقيقة شاملة . وكانت مصادر الثروة المعدنية كلها ملكاً للدولة ، وكان قطع الرخام واستخراج الحجارة الكريمة امتيازاً خاصاً للحكومة .

واتسع نطاق الصناعات المنزلية فانتشرت فى المدن — وكان قد مضى على قيامها فى مصر زمن طويل ، فاشتهرت بها مدائن بطليموئيس Ptolemais ، ومنفيس ، وطيبة ، وأكسيرهنكس Oxyrhynchus ، وصان ، وبسطة ، ونقراطيس ،

وهليوبوليس (عين شمس) ؛ وكانت هذه الصناعات فى الإسكندرية المورد الذى تعتمد عليه نصف حياة العاصمة الصاخبة . ويبدو أن صناعة الورق كانت قد بلغت وقتئذ المرحلة الرأسمالية ، فإن استرابون يحدثنا أن أصحاب مزارع البردى حددوا محصوله ليرفعوا سعره[٣] . وكان الكهنة يقيمون المصانع فى حرم الهياكل ، ويخرجون فيها نسيجاً رقيقاً من التيل ، يصنعون منه ملابسهم ، ويبيعون بعضه فى الأسواق . وقلما كان يوجد أرقاء فى مصر يعملون فى غير الخدمات المنزلية ، لأن العمال « الأحرار » لم يكونوا يؤجرون أكثر مما يكفى لستر عورتهم وسد رمقهم . وكان هؤلاء العمال يضربون عن العمل (anachoresis) فى بعض الأحيان – فكانوا يمتنعون عنه ويحتمون بالهياكل حتى يخرجوا منها بتأثير الجوع أو الألفاظ المعسولة . وكان يحدث أحياناً أن ترفع الأجور ، فترتفع الأثمان ، وتعود الأمور كما كانت من قبل . وكان يسمح بإنشاء النقابات الطائفية ، ولكنها كانت فى الأغلب الأعم خاصة بالتجار ومديرى الأعمال ، وكانت الحكومة تستخدمها فى جباية الضرائب وفى تنظيم أعمال السخرة كإقامة السدود ، وحفر الترع وتطهيرها ، وإقامة المبانى العامة .

وكانت التجارة الداخلية نشطة ولكنها بطيئة . فقد كانت الطرق رديئة ؛ وكانت وسائل النقل البرى هى الحمالين ، والحمير ، والجمال – التى حلت وقتئذ محل الخيل للجر والحمل فى أفريقية. وكان جزء كبير من التجارة الداخلية ينقل فى نهر النيل أو القنوات . وكانت قناة كبرى يبلغ عرضها مائة وخمسين قدماً وتمت فى عهد تراجان ، تربط البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الهندى عن طريق النيل والبحر الأحمر . فكانت السفن تخرج فى كل يوم من الثغور الواقعة على هذا البحر مثل أرسنوى ، وميوس هرموس Muos Hormos وبرنيس فى طريقها إلى أفريقية أو الهند . وكان النظام المصرفى الذى يمول الإنتاج والتجارة خاضعاً بأكمله للرقابة الحكومية ، وكان فى حاضرة كل إقليم

مصرف للدولة ، يتسلم الضرائب ، وتودع فيه الأموال العامة . وكانت القروض تعقد للزراع وتشجيع الصناعة والتجارة والأعمال المالية ، تقرضها الحكومة أو الكهنة من خزائن الهياكل ، أو هيئات الإقراض غير الحكومية[٤] . وكانت الضرائب تفرض على جميع المنتجات ، والعمليات الاقتصادية ، والبيع ، والإصدار ، والاستيراد ، بل وعلى القبور ودفن الأموات ؛ وكانت فروض إضافية تقرر من حين إلى حين ، وتجبى عينا من الفقراء أو خدمات من الأغنياء : وكانت البلاد — أو كان سادتها — من عهد أغسطس إلى تراجان فى رخاء ؛ ثم أخذ هذا الرخاء ، بعد أن وصل إلى ذروته فى ذلك العهد ، يفارقها بتأثير الخراج الذى لم يكن يعرف له حد ، والضرائب الفادحة ، وما يعقبهما من كساد ونضوب فى موارد البلاد ، وما يؤدى إليه الاقتصاد المجند من تراخ وإهمال .

وبقيت مصر فى خارج الإسكندرية ونقراطيس محتفظة بمصريتها عابسة صامتة ، وقلما اصطبغ فيها شىء بالصبغة الرومانية بعيداً عن مَصَابّ النيل ؛ وحتى مدينة الإسكندرية نفسها ، التى كانت أعظم المدائن اليونانية ، أخذت فى القرن الثانى بعد الميلاد تصطبغ بصبغة الحواضر الشرقية فى أخلاق أهلها ولغاتهم وفى جوها الشرقى . وكان يسكن عاصمة مصر ٨٠٠٫٠٠٠ من جميع سكان البلاد البالغ عددهم ٨٫٥٠٠٫٠٠٠[٥] (وكان عدد سكانها فى عام ١٩٣٠ نحو ٥٧٣٫٠٠٠) ، ولم يكن يزيد عليها فى عدد السكان سوى رومة نفسها . أما من حيث الصناعة والتجارة فقد كانت أولى المدن فى الإمبراطورية . وقد ورد فى خطاب يعزى إلى هدريان — وإن كنا نشك فى صحة نسبته إليه — أن كل شخص فى الإسكندرية يعمل ، وأن لكل إنسان فيها حرفة ، وحتى العرج والعمى يجدون لهم عملا فيها[٦] ؛ وكان من بين مئات الصناعات القائمة فى المدينة صناعة الزجاج ، والورق ، ونسج الكتان . وكانت هذه المصنوعات موفورة الإنتاج ، وكانت الإسكندرية مركز صناعة الكساء والأزياء العصرية المستخدمة فى ذلك الوقت ، فكانت

هى التى تضع طراز الملابس وهى التى تصنعها . وكان لمرفئها العظيم تسعة أرصفة ، يخرج منها أسطولها التجارى ليمخر عباب عدة بحار . وكانت المدينة فوق ذلك مركزاً للسياح ، فيها الفنادق ، والأدلاء ، والمترجمون لاستقبال الزائرين القادمين إليها لمشاهدة الأهرام والهياكل الفخمة فى طيبة . وكان شارعها الرئيسى يبلغ عرضه سبعا وستين قدما ، وتقوم على جانبيه العمد ، والبواكى ، والحوانيت المغرية تعرض أجمل التحف التى تنتجها الصناعات القديمة . وكان عند كثير من ملتقى الشوارع ميادين واسعة أو دوائر يسمونها الطرق « الواسعة » (Plateai) — ومنها اشتقت الكلمة الإيطالية Piazza ، والكلمتان الإنجليزيتان Plaza ، Place . وكانت مبانى ذات روعة تزين الشوارع الرئيسية — دار تمثيل كبرى ، ومصفق ، وهياكل لبسيدن ، وقيصر ، وزحل ، وسرابيوم أو هيكل لسرابيس ذائع الصيت ، وطائفة من مبانى الجامعة التى اشتهرت فى العالم كله باسم المتحف (الميوزيوم Museum أو بيت ربات الفن Muses) . وكانت المدينة مقسمة خمسة أقسام ، خص قسم منها بأكمله تقريباً بقصور البطالمة ، وحدائقهم ، ومبانى الإدارات الحكومية ، وكان يقيم فيه فى العصر الرومانى حاكم المدينة . وفى هذا القسم دفنت جثة الإسكندر الأكبر مؤسس المدينة فى ضريح جميل الشكل ، وقد وضعت فى تابوت من الزجاج وحفظت من البلى فى العسل .

وكان سكان المدينة خليطا من اليونان ، والمصريين ، واليهود ، والإيطاليين والعرب ، والفينيقيين ، والفرس ، والأحباش ، والسوريين ، والليبيين ، والقليقيين والسكوذيين ، والهنود ، والنوبيين ، ومن شعوب البحر الأبيض كلهم تقريبا . وكان يتألف منهم جميعا خليط سريع الذوبان بعضه فى بعض ، سريع الالتهاب أيضا ، متشاحن ، سيئ النظام ، عظيم المهارة والذكاء ، فكه غير محتشم ، لا يستحى من فحش القول ، متشكك ، مخرّف ، غير مستمسك بالخلق الكريم ، مرح ، شديد الولع بالتمثيل ، والموسيقى ، والألعاب العامة . ويصف ديوكريسستوم

الحياة فى المدينة بأنها « قصف دائم . . . للراقصات ، والمصفرين ، والقتلة »[٨] . وكانت القنوات غاصة على الدوام بمحبى المرح والطرب ، يستقلون القوارب الصغيرة أثناء الليل ، يقطعون فيها مسافة الأميال الخمسة التى توصلهم إلى كنوبس Canopus ضاحيتها المليئة بالملاهى وأسباب التسلية . وكانت تقام فيها مباريات موسيقية لا تقل عن سباق الخيل إثارة للمشاعر والتصفيق والضجيج .

وإذا جاز لنا أن نصدق فيلو[٩] فيما يقوله عن سكان المدينة ، فقد كان أربعون فى المائة منهم من اليهود ، وكانت كثرة يهود الإسكندرية تعمل فى الصناعة والتجارة ، وتعيش فى فقر مدقع[١٠] ؛ وكان كثيرون منهم تجاراً ، وعدد قليل منهم مرابين ، وبلغ بعضهم من الثراء درجة استطاعوا بها أن يحصلوا على مناصب يحسدون عليها فى الحكومة ؛ وبعد أن كانوا فى أول الأمر لا يشغلون إلا خمس مساحة المدينة أصبحوا فى الوقت الذى نتحدث عنه يشغلون خمسيها . وكانوا يحاكمون بمقتضى قوانينهم الخاصة على أيدى كبرائهم ؛ وأيدت رومة الامتيازات التى منحها إياهم البطالمة والتى يحق لهم بمقتضاها أن يتجاهلوا أى قانون يتعارض مع أوامر دينهم . وكانوا يفخرون بكنيسهم المركزى الفخم وهو باسلقا ذات عمد ، بلغ من الاتساع حداً كان لا بد معه من استخدام نظام للإشارات يضمن بها استجابة المصلين الذين لا يستطيعون — لبعدهم عن المحراب — أن يسمعوا أصوات الحاخام[١١] . ويستفاد من أقوال يوسفوس أن الحياة الأخلاقية ليهود الإسكندرية كانت مضرب المثل فى الاستقامة إذا قيست إلى حياة السكان « الوثنيين » الشهوانية الطليقة[١٢] . وكانت لهم ثقافة ذهنية نشيطة ، كما كان لهم حظ كبير من الدراسات الفلسفية والتاريخية والعلمية فى ذلك الوقت . وكانت المدينة تضطرب من حين إلى حين بالعداء العنصرى ؛ وشاهد ذلك أننا نجد فى النبذة التى كتبها يوسفوس ضد أبيون (وهو زعيم معاد للسامية) جميع الأسباب ، والحجج ، والخرافات التى تعكر العلاقات بين اليهود وغيرهم من أصحاب الأديان الأخرى فى

هذه الأيام . وقد حدث فى عام ٣٨ م . أن هاجم الغوغاء من اليونان معابد اليهود وأصروا على أن يضعوا فى كل منها تمثالا لكلجيولا ليتخذوه إلهاً . كذلك حرم أفليوس فلاكس حاكم المدينة الرومانى اليهود من حق المواطنية الإسكندرية وأمر من كانوا يعيشون منهم خارج القسم اليهودى الأصلى أن يعودوا إليه فى خلال بضعة أيام من صدور الأمر ، فلما انقضى الأجل المحدد لهذه العودة أحرق الغوغاء اليونان أربعمائة من بيوت اليهود ، وقتلوا من كان منهم خارج ذلك الحى ؛ وقبض على ثمانية وثلاثين من أعضاء الجروزيا (مجلس الشيوخ) اليهودى ؛ وجُلدوا علناً فى إحدى دور التمثيل ، وطرد آلاف من اليهود من بيوتهم أو من أعمالهم أو حُرموا ما كانوا يدخرونه من أموالهم . وعرض الحاكم الذى خلف فلاكس أمرهم على الإمبراطور ، وسافر إلى رومة (عام ٤٠ م) وفدان مستقلان — أحدهما يتألف من خمسة من اليونان والآخر من خمسة من اليهود — ليعرض كل منهما قضيته على كلجيولا ، ولكن الإمبراطور قضى نحبه قبل أن يصدر حكمه ، فلما جلس كلوديوس على العرش أعاد إلى يهود الإسكندرية ما كان لهم من حقوق ، وأكد لهم مواطنيتهم فى المدينة ، وأصدر أمراً مشدداً إلى الطائفتين المتنازعتين ألا تعكرا صفو السلام .

الفصل الثانى

فيـــلو

كان رئيس الوفد اليهودى إلى كليجيولا هو الفيلسوف فيلو ، وكان أخوه مدير تجارة الصادر اليهودية فى الإسكندرية . ويصـــفه يوسبيوس Eusebius بأنه من أسرة عريقة من رجال الدين[١٣] . ولا نكاد نعرف شيئاً غير هذا عن حياته ولكن تقواه وكرم أخلاقه يظهران واضحين فى فى المؤلفات الكثيرة التى وضعها فى شرح الدين اليهودى للعالم اليونانى . وقد نشأ الرجل فى جو دينى ، فكان شـــديد الوفاء لشعبه ، ولكنه افتتن بالفلسفة اليونانية ، فجعل هدفه فى الحياة أن يوفق بين الكتاب المقدس وعادات اليهود من جهة ، والآراء اليونانية وبخاصة فلسفة أفلاطون « أقدس القديسين » من جهة أخرى . ولكى يصل إلى غرضه هذا لجأ إلى المبدإ القائل إن جميع الحادثات ، والأخلاق ، والعقائد ، والشرائع المنصوص عليها فى العهد القديم ذات معنيين أحدهما مجازى والآخر حرفى ، وإنها ترمز إلى حقائق أخلاقية أو فلسفية ؛ وكان فى وسعه بهذه الطريقة أن يبرهن على صحة أى شىء يريد البرهنة على صحته . وكان يكتب باللغة العبرية بأسلوب لا بأس به . ولكن أسلوبه فى اليونانية بلغ من الجودة حداً جعل المعجبين به يقولون إن « أفلاطون كان يكتب كما يكتب فيلو »[١٤] .

وكان فيلسوفاً أكثر مما كان رجل دين ، وكان صوفياً استبقت تقواه الشديدة تقوى پلوتينس وعقلية العصور الوسطى . وكان الله فى كتابات فيلو هو الكائن الجوهرى فى العالم ، وهو كائن غير مجسد ، أزلى سرمدى ، يجل عن الوصف ؛ فى وسع العقل أن يدرك وجوده ، ولكنه لا يستطيع أن يخلع عليه صفة ما ، لأن كل صفة تعنى التحديد . الذين يتصورونه فى صورة بشرية إنما

يفعلون ذلك لتقريبه من خيال البشر الحسي . والله موجود فى كل مكان ، « وهل ثمة مكان يستطيع الإنسان أن يجده وليس الله فيه ؟ »[١٥] ولكنه ليس كل شيء ، فالمادة أيضاً سرمدية وغير مخلوقة ؛ ولكنها لا تكون لها حياة ، ولا حركة ، ولا صورة حتى تنبعث فيها القوة الإلهية .

ولكي يخلق الله العالم بأن يشكل المادة ، ويوجد الصلات بينه وبين الإنسان ، استخدم لذلك جمعا من الكائنات الوسطى يسميها اليهود ملائكة ويسميها اليونان شياطين diamones ويسميها أفلاطون أفكاراً . ويقول فيلو إن فى وسعنا أن نتصور هذه الكائنات فى صورة أشخاص ، وإن كانت فى واقع الأمر لا وجود لها إلا فى العقل الإلهى بوصفها أفكار الله وقواه[١٦]. وهى مجتمعة تكون ما يسميه الرواقيون الكلمة أو العقل الإلهى خالق العالم وهاديه . وكان فيلو يتأرجح بين الفلسفة واللاهوت ، وبين التجسيد ، ولهذا كان يفكر فى العقل الإلهى مرة كأنه شخص وفى ساعة من ساعات نشوته الشعرية يسميه أول ما ولد الله »[١٧] . وابن الله من الحكمة العذراء[١٨] ، ويقول إنه عن طريق الكلمة كشف الله عن نفسه للإنسان . وإذ كانت الروح فى رأيه جزءاً من الله ، فإن فى وسعها أن تسمو عن طريق العقل فترى الكلمة رؤيا صوفية ، وإن كانت لا ترى الله نفسه ؛ وربما كان فى وسعنا إذا تحررنا من دنس المادة والحس ، وتدربنا على الزهد والتفكير الطويل ، أن نصبح فى ساعة من الساعات روحا خالصة ، وأن نرى الله نفسه فى لحظة من لحظات النشوة[١٩] .

ولقد كانت « عقيدة العقل الإلهى » التى يقول بها فيلو من الآراء ذات الأثر الأكبر فى تاريخ التفكير البشرى . ولرأيه هذا سابقات واضحة فى فلسفة هرقليطس وأفلاطون ، والرواقيين ، وأكبر الظن أنه كان يعرف الآداب اليهودية التى نشأت فى العصر القريب من عصره ، والتى جعلت من حكمة الله بوصفه خالق الكون شخصاً محدداً مميزاً ؛ وما من شك فى أنه قد انطبعت فى عقله

تلك العبارات الواردة فى سفر الأمثال (٨ : ٢٢) وما بعدها ، والتى تقول فيها الحكمة : « الرب قنانى أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم : منذ الأزل مسحت منذ البدء ، منذ أوائل الأرض . إذ لم يكن غمر أبدئت إذ لم تكن ينابيع كثيرة المياه . من قبل أن تقررت الجبال قبل التلال أبدئت إذ لم يكن قد صنع الأرض بعد » .

وكان فيلو معاصراً للمسيح ويلوح أنه لم يسمع قط عنه ، ولكنه قد أسهم على غير علم منه فى تكوين اللاهوت المسيحى . ولم يكن أحبار اليهود راضين عن تفسيراته المجازية للكتاب المقدس ، لظنهم أن هذه التفسيرات قد تتخذ حجة لنبذ الطاعة الحرفية للشريعة اليهودية ؛ وكانوا يرتابون فى عقيدة الكلمة ويعدونها ارتداداً عن عقيدة التوحيد ، كما كانوا يرون فى هيام فيلو بالفلسفة اليونانية نذيراً بضياع ثقافتهم ، وفقدان الجزء الأكبر من خصائصهم العنصرية ، وما ينشأ عن هذا وذاك من اختفاء اليهود المشتتين فى بقاع الأرض . ولكن آباء الكنيسة المسيحية كانوا يعجبون بورع هذا الرجل اليهودى المنبعث عن تفكير عميق ، وكثيراً ما كانوا يلجئون إلى آرائه وتعبيراته المجازية ليردوا بها على من يتصدون لنقد التوراة العبرية ، وانضموا إلى جماعة العارفين(*) ورجال الأفلاطونية الحديثة فى القول بأن رؤيا الله الصوفية هى أسمى ما تصل إليه المحاولات البشرية . ولقد حاول فيلو أن يوفق بين اليهودية والفلسفة الهلينية ؛ فأما من وجهة النظر اليهودية فقد أخفق فى مسعاه ، وأما من وجهة النظر التاريخية فقد أفلح ، وكانت ثمرة فلاحه هى الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا .

(*) هم طائفة من المسيحيين يعتقدون بأن الخلاص يكون عن طريق المعرفة لا عن طريق الإيمان . (المترجم)

الفصل الثالث

تقدم العلوم

كانت الإسكندرية زعيمة العالم الهلنستى فى العلوم لا ينازعها فى هذه المكانة منازع ، ومن أكبر علمائها فى ذلك العصر كلوديوس بطليموس الذى يعد بلا جدال من أعظم علماء الفلك الأقدمين ، وذلك لأن العالم لا يزال على الرغم من كشوف كوپرنيق يتكلم فى الفلك بلغة بطليموس . وكان مولد هذا العالم فى بلدة بطليموئيس على شاطئ النيل (ومنها اشتق اسمه) ، ولكنه عاش معظم حياته فى الإسكندرية ، وظل يرصد فيها الأجرام السماوية من عام ١٢٧ م إلى عام ١٥١ . وأهم ما يذكره به العالم أنه رفض نظرية أرستاركس القائلة بأن الأرض تدور حول الشمس . وقد دونت هذه الفلسفة الخالدة فى كتاب بطليموس المعروف باسم النظام الرياضى للنجوم Mathematiké Syntaxis . وكان العرب إذا تحدثوا عنه نعتوه باسم التفضيل اليونانى المجسطى Al-megisté « الأعظم » . وحرف الناس فى العصور الوسطى هذا اللفظ فصار الماجست Almagest وهو الاسم الذى يعرف به الكتاب فى التاريخ . وظلت لهذا الكتاب السيطرة على السماء حتى قلب كوپرنيق العالم رأساً على عقب . ومع هذا فإن بطليموس لم يدع أنه فعل أكثر من تنظيم أعمال من سبقوه من علماء الفلك وأرصادهم ، وأخصهم بالذكر هپاركس . وقد صور الكون فى شكل كرى يدور مرة فى كل يوم حول أرض كرية ثابتة لا تتحرك . ومع أن هذا القول يبدو لنا غريباً (وإن كنا لا نعرف ما سوف يفعله كوپرنيق آخر فى المستقبل ببطالستنا المحدثين) ، فإن النظرية القائلة بأن الأرض مركز الكون قد يسرت فى ضوء

المعلومات الفلكية المعروفة فى ذلك العصر تحديد مواضع النجوم والكواكب تحديداً أدق مما كانت تستطيعه النظرية القائلة بأن الشمس هى مركز العالم[٢٠]. وعرض بطليموس فوق هذا لنظرية « الانحرافات » ليفسر [بها أفلاك الكواكب ، واستطاع أن يكشف انحراف فلك القمر . وقاس بعد القمر عن الأرض بطريقة الزيغان(*) التى لا تزال مستخدمة إلى يومنا هذا ، وقدر هذا البعد بما يعادل نصف قطر الأرض تسعا وخمسين مرة ، وهو يعادل تقديرنا الحاضر بوجه التقريب ؛ وإن كان بطليموس قد اتبع پسيدونيوس فى تقدير طول قطر الأرض بأقل من طوله الحقيقى

وقد لخص بطليموس فى كتابه الموجز الجغرافى جميع ما كان يعرفه الأقدمون عن سطح الأرض ، كما لخص فى نظامه الرياضى ما كانوا يعرفونه فى الفلك وصاغه فى صيغته الأخيرة . وهنا أيضاً أخطأ أخطاء جسيمه فى أزياجه التى بذل فيها جهداً كبيراً ، والتى حدد فيها خطوط الطول ودوائر العرض لكبريات المدن على سطح الأرض ؛ وكان سبب هذا الخطأ قبوله تقدير پسيدونيوس حجم الأرض بأقل من حقيقته . ولكن هذه الغلطة المشجعة التى نقلها عنه بطليموس هى التى يرجع إليها الفضل فى اعتقاد كولمبس أن من المستطاع الوصول إلى جزائر الهند فى وقت قصير بالسير فى اتجاه الغرب[٢١] . وكان بطليموس أول من استعمل لفظى « متوازيات » (Rarallels) و « خطوط الزوال » merdians علم الجغرافية ، وقد نجح فى أن يصور على خرائطه جسما كرياً على سطح مستو . ولكنه كان فى الواقع عالماً رياضياً أكثر منه فلكياً أو جغرافيا ؛ وكان أهم جزء من عمله هو صياغته للقوانين الرياضية . وقد وضع فى كتاب النظام زيجا دقيقاً

(*) Parallax ويسميها اسماعيل الفلكى اختلاف المنظر وهو الانتقال الظاهر للكواكب إذا تغير موضع الناظر إليه على سطح الأرض . (المترجم)

لقياس الأقواس ، وذلك بأن قسم نصف قطر الأرض ستين قسما أولى صغيرة Partes minutae primal هي التى صارت الدقائق عندنا ، ثم قسم كل واحدة من هذه الدقائق « أقساماً صغيرة ثانية » هى « الثوانى » عندنا .

ووقع بطليموس فى أخطاء كثيرة ، ولكنه كان له بلا ريب مزاج العلماء الحقيقيين وصبرهم . وقد حاول أن يعتمد فى استنتاجاته على الأرصاد وقلما كان هو صاحبها . وقد قام فى أحد الميادين بسلسلة طويلة من التجارب ، ووُصف كتابه البصريات Optica — وهو دراسة فى انكسار الضوء — بأنه « أعظم البحوث التجريبية فى التاريخ القديم »[٢٢] . ومما هو جدير بالذكر أن هذا الرجل الذى يعد من أعظم العظماء فى الفلك والجغرافية والرياضيات فى عصره قد كتب أيضاً « أربعة كتب » Tetrabiblios فيما للنجوم من سلطان على حياة بنى الإنسان .

وفى هذه الأثناء كان أرخميديز أصغر بيئ للعالم القديم فرصة ثانية للقيام بانقلاب صناعي . وكان هذا الرجل مخترعاً أو جامعاً بارعاً وإن كنا لا نعرف عنه إلا اسمه الوحيد هيرون Hero . وقد أصدر هذا الرجل وقتئذ(*) فى الإسكندرية سلسلة من الرسائل فى الرياضة والطبيعة ، بقى لنا عدد منها مترجماً إلى اللغة العربية . وقد حذر قراءه فى صراحة بأن النظريات والاختراعات التى يعرضها عليهم ليست كلها من اختراعه ، بل إنها قد تجمعت على مدى القرون الطوال . ووصف فى كتابه الديوبترا Dioptra آلة شبيهة بالمزواة theodolite وصاغ عدداً من القوانين لقياس الأبعاد التى بين الإنسان وبين النقط التى لا يستطيع الوصول إليها ومساحة هذه الأبعاد . وبحث فى كتابه الحيل Mechanica فى طريقة استخدام أدوات

(*) وهناك خلاف فى تاريخ هذا العالم ، فيولى — وسوفا Pauly-Wissowa يحدده بعام ٥٠ ق . م ، بينما يحدده هيبيرج Heiberg ، وديل Diels ، وهيث Heath بحوال ٢٢٥ م[٢٣].

سهلة ، والجمع بينها ؛ ومن هذه الأدوات العجلة ، ومحورها ، والرافعة ، والبكرة والإسفين ، واللولب . ودرس في كتابة الهوائيات Pneumatica ضغط الهواء في سبع وثمانين تجربة معظمها من الحيل والألاعيب ؛ منها أنه عرض كيف يمكن جعل كل من النبيذ أو الماء يخرج من فتحة صغيرة واحدة في قاع وعاء وذلك بسد ثقب أو آخر في أعلى الوعاء المقسم قسمين .

ثم تدرج من هذه اللعب المسلية لصنع مضخة رافعة ، ومضخة لآلة إطفاء الحريق ذات مكبس وصمامات ، وساعة مائية ، وأرغن مائي ، وآلة بخارية . وفي هذا المخترع الأخير كان البخار الناشئ من المساء المسخن ينتقل من خلال أنبوبة إلى كرة تدور في اتجاه مضاد لاتجاه البخار المطرود . وقد حال إحساس هيرون الفكاهي الشديد بينه وبين ترقية هذا المخترع حتى يمكن الاستفادة منه في الأغراض الصناعية . ومن أعماله أيضا أنه استخدم البخار لوقف كرة في الهواء ومنعها من السقوط ، وجعل طائر آلي يغرد ، وتمثال ينفخ في بوق . ودرس في كتابه المرايا Catoptrica انعكاس الضوء ، وشرح كيف تصنع المرايا التي يستطيع الناظر فيها أن يرى ظهره ، أو يظهر فيها ورأسه إلى أسفل ، أوله ثلاث أعين ، أو أنفان الخ . وعلم المشعوذين كيف يقومون بالألعاب بأجهزة مخبأة عن الأعين . وقد جعل الماء يخرج من حوض إذا وضعت قطعة من النقود في فتحة فيه . وصنع آلة مخبأة تجعل الماء المسخن يفيض إلى جردل ، ويفتح أبواب هيكل بمايزيد من وزنه ، وبوساطة مكبرات . وبفضل هذه الأساليب ومائة أخرى من نوعها استطاع هيرون أن يكون مشعوذاً بارعا ، ولكنه عجز عن أن يكون مخترعا من طراز چيمس وت James Watt .

وكانت الإسكندرية منذ زمن بعيد أهم مركز لدراسة الطب . نعم إنه كانت في مرسيليا ، وليون ، وسرقسطة ، وأثينة ، وانطاكية ، وكوس ،

وإفسوس ، وأزمير ، وبرجوم مدارس طب شهيرة ، ولكن طلاب الطب كانوا يهرعون إلى الإسكندرية من جميع ولايات الإمبراطورية ، بل إنا لنجد أميانس مرسلينس Ammianus Marcellinus فى القرن الرابع الميلادى ، حين أخذت مصر تسير فى طريق الاضمحلال ، يتحدث عن الإسكندرية بقوله :

« حسب الطبيب تنويها ببراعته أن يقول إنه قد تعلم فى الإسكندرية »[٢٤] . وكان التخصص فى الطب يسير قدما ، وشاهد ذلك ما يقوله فلستراتس (حوالى ٢٢٥ م) : « لا يستطيع إنسان أن يكون طبيبا لكل مرض ، بل يجب أن يكون هناك إخصائيون فى الجروح ، والحميات ، والعيون ، والسل »[٢٥] . وكان تشريح الجثث الميتة يحدث فى الإسكندرية ، ويبدو أنه كان يجرى فيها أيضاً تشريح للأحياء[٢٦] .

ولم تكن الجراحة فى القرن الأول الميلادى أقل رقيا فى الإسكندرية منها فى أى مكان فى أوربا قبل القرن التاسع عشر . ولم تكن الطبيبات نادرات ؛ وقد كتبت واحدة منهن تدعى مترودورا Metrodora رسالة فى أمراض الرحم لا تزال باقية إلى اليوم[٢٧] . ويزدان تاريخ الطب فى هذا العصر بأسماء عظيمة : منها روفس الإفسوسى الذى وصف تشريح العين ، وميز أعصاب الحركة من أعصاب الحس ، وحسن طرق وقف النزيف فى الجراحة ، ومنها مرينس Marinus الإسكندرى الذى اشتهر بجراحات الجمجمة ، وأنتيلس Antylus أعظم الرمديين فى عصره . وقد كتب ديوسكريديز Dioscorides الفليقيانى (٤٠ — ٩٠ م) كتابا فى العقاقير وصف فيه وصفا علميا ستمائة من النباتات الطبية وصفاً بلغ من الدقة حداً جعل كتابه هذا أهم مرجع فى موضـوعه حتى عصر النهضة الأوربية . وقد أوصى فى هذا الكتاب باستخدام « الصوفات » لمنع الحمل[٢٨] . وقد استخدم للتخدير وصفه لنبيذ البيروح mandragora استخداماً ناجحا فى عام ١٨٧٤ .

ونشر سورانس الإفسوسي حوالى عام ١١٦م رسالة فى أمراض النساء، وفى مولد الأطفال والعناية بهم ، ولا يعلو عن هذه الرسالة من المؤلفات الطبية القديمة الباقية إلى اليوم سوى مجموعات أبقراط ومؤلفات جالينوس . ويصف المؤلف فيها منظاراً مهبليا وكرسيا للتوليد ، ويصف الرحم من الناحية التشريحية أجود وصف ، ويقـدم نصائح عملية وغذائية لا تكاد تختلف عما يقدمه الأطباء فى هذه الأيام ، منها غسل عينى الطفل الحديث الولادة بالزيت[٣٠] ، ويذكر أسماء نحو مائة وسيلة لمنع الحمل معظمها أدوية للمهبل[٣١] ، وهو يجيز الإجهاض إذا كان الوضع يعرض حياة الأم للخطر (على عكس ما يراه أبقراط)[٣٢] .

وقصارى القول أن سورانس كان أعظم الإخصائيين فى طب النساء فى الزمن القديم ، ولم يفقه أحد فى هـذا العلم حتى جاء پاريه Paré بعده بخمسة عشر قرنا ؛ ولو أن رسائله الأربعين قد بقيت إلى هذه الأيام لوضعناه فى أكبر الظن فى منزلة جالينوس .

وكان أعظم أطباء ذلك العصر ابن مهندس معمارى من برجموم ، وقد سماه جالينوس Galenus أى الهادئ المسالم ، لأنه كان يأمل ألا يتخلق بأخلاق أمه[٣٣] . ولما بلغ الشاب الرابعة عشرة من عمره شغف لأول مرة بالفلسفة ، ولم يتحرر قط من غوايتها الخطرة ؛ وفى السابعة عشرة تحول عنها إلى الطب ، ودرسه فى قليقية ، وفينيقية ، وفلسطين وقبرص ، وكريد، وبلاد اليونان ، والإسكندرية (وكان هذا الانتقال فى طلب العلم من طبيعة العلماء الأقدمين) ، ثم اشتغل جراحا فى مدرسة المجالدين فى برجموم ، ومارس صناعته فترة من الزمن (١٦٤ — ١٦٨ م) فى رومة ؛ وفى هذه المدينة أقبل عليه أغنياء المرضى لنجاحه فى صناعته ، كما أقبل عليه كثيرون من علية القوم ليستمعوا إلى محاضراته ، وذاعت شهرته ذيوعا جعـل الناس يكتبون إليه من كافة الولايات يطلبون إليه النصائح الطبية ، فكان يصف لهم العلاج الناجع بالبريد ، وكان والده الصالح قد نسى ما كان

يدور بخلده حين اختار له اسمه فنصحه ألا ينضم إلى شيعة أو حزب ، وأن يكون صادقا فى كل ما يقول ، وصدع جالينوس بأمر أبيه ، وأخذ يشهر بجهل كثيرين من أطباء رومة وشرههم حتى اضطر بعد سنين قلائل إلى الفرار من أعدائه . ولكن ماركس أورليوس استدعاه ليعنى بكمودس الصغير (١٦٩) ، وحاول أن يأخذه معه فى إحدى الحملات المركونية ، ولكن جالينوس كان من الدهاء بحيث استطاع أن يعود مسرعا إلى رومة . ومن هذا الوقت لا نعرف عنه غير مؤلفاته .

وتكاد هذه المؤلفات أن تبلغ من الكثرة ما بلغته مؤلفات أرسطو ، وقد بلغت خمسمائة أو نحوها ، وبقى منها ١١٨ كتابا تحوى عشرين ألف صفحة ، تشتمل على جميع فروع الطب وعلى عدد من ميادين الفلسفة ، وليس لهذه الكتب قيمة طبية فى هذه الأيام ، ولكنها تشتمل فى مواضع منها متفرقة على معلومات نافعة ، وتكشف عن روح قوية ذات حيوية عظيمة ، مولعة بالبحث والجدل . وقد عوده ولعه بالفلسفة عادة سيئة هى استخلاصه نتائج كبرى من معلومات قليلة ، وكثيراً ما ساقه إيمانه بعلمه وقواه إلى تعسف لا يليق بعقلية العلماء ، وكان سلطانه على من جاء بعده سببا فى بقاء أخطائه الشنيعة ذائعة قروناً عدة . لكنه كان على رغم هذه الأخطاء دقيق الملاحظة ، كما كان أكثر الأطباء الأقدمين اعتماداً على التجارب العملية . ومن أقواله فى هذا المعنى : « إنى لأعترف بذلك المرض الذى قاسيت منه الأمرين طوال حياتى — وهو أنى لا أثق ... بأى قول حتى أجربه بنفسى على قدر استطاعتى »(٣٤) . ولما حرمت عليه الحكومة الرومانية أن يشرح أجسام الآدميين أحياء كانوا أو أمواتاً ؛ عمد إلى تشريح الحيوانات الحية والميتة ، وكثيراً ما كان يتعجل فيطبق على تشريح الجسم الآدمى ما تسفر عنه دراسته للقردة ، والكلاب ، والبقر ، والخنازير .

وقد أفاد علم التشريح من جالينوس رغم قصوره أكثر مما أفاده من أى

مشاهد آخر فى التاريخ القديم ؛ ذلك أنه وصف بغاية الدقة عظام الجمجمة والعمود الفقرى ، والجهاز العضلى ، والأوعية اللبنية ، والغدة اللسانية ، والغدة اللعابية تحت الفك الأسفل ، وصمامات القلب ؛ وأثبت أن القلب إذا فصل عن الجسم يمكن أن يظل ينبض فى خارجه ، وبرهن على أن الأوردة تحتوى دما لا هواء (كما ظلت مدرسة الإسكندرية تعلم الناس مدى أربعمائة عام) . لكنه قد فاته أن يسبق هارفى إلى كشف الدورة الدموية ، فقد ظن أن معظم الدم يسير فى الأوردة إلى أجزاء الجسم المختلفة ثم يعود فيها أيضاً ؛ وأن البقية الباقية منه التى تختلط بهواء الرئتين تسير فى الشرايين إلى أجزاء الجسم وتعود منها فى الشرايين نفسها . وكان هو أول من شرح الجهاز التنفسى ، ودل على حصافة وبراعة حين قال إنه يظن أن العنصر الفعال فى الهواء الذى نستنشقه هو نفسه العنصر الفعال فى الاحتراق[٣٥] ؛ وميز التهاب الرئة ، ووصف الورم الوعائى[*] ، والسرطان ، والتدرن ، وعرف ما فى ثانيهما من خطر العدوى . وأهم من هذا كله أنه وضع أساس مبحث الأعصاب التجريبى ؛ فهو أول من أجرى التجارب على قطاعات من النخاع الشوكى ، وعين الوظيفة الحسية والحركية لكل جزء منه ، وعرف الأعصاب السمبتاوية ، وميز سبعة أزواج من الاثنى عشر زوجاً من أعصاب الجمجمة ، وعرف كيف يستطيع حبس النطق بقطع عصب الحنجرة ، وبرهن على أن الضرر الذى يصيب أحد نصفى المخ يحدث اختلالا فى النصف المضاد له من الجسم ، وعالج السفوفسطائى پوسنياس من خدر فى خنصر يده اليسرى وبنصرها بتنبيه الضفيرة العضدية التى يخرج منها العصب الزندى الذى يتحكم فى هاتين الإصبعين[٣٦] . وقد برع فى بحث أعراض الأمراض براعة آثر معها أن يشخص علة المريض

(*) اتساع أو تمدد يشمل طبقة أو جميع الطبقات من محيط وعاء دموى (قاموس الدكتور شرف) . (المترجم)

دون أن يوجه إليه أسئلة[٣٧] . وكان كثير الاعتماد على التغذية ، والرياضة ، والتدليك ولكنه كان خبيراً فى العقاقير ، كثير الأسفار للحصول على الأدوية ، النادرة . وندد باستخدام البراز والبول فى العلاج ، وكان ذلك لا يزال شائعاً عند بعض معاصريه[٣٨] ، وأوصى باستعمال الكداس الجاف(*) لمعالجة المغص ، ووضع روث المعز على الورم ، وترك ثبتاً طويلا بالأمراض التى يمكن علاجها بالترياق(**) — وهو دواء ذائع الصيت فى ذلك الوقت صنع لمثرداتس الأكبر ليقاوم به السم ، وكان يقدم لماركس أورليوس كل يوم ويدخل فيه لحم الأفاعى[٣٩] .

لكنه لوث سجله الحافل بالتجارب وشهرته فيها بسيل من النظريات التى تعجل فى وضعها . وكان يسخر من السحر والرقى ، ويقبل التنبؤ بالغيب عن طريق الأحلام ، ويظن أن أوجه القمر تؤثر فى أحوال المرضى ؛ وصدق فكرة أبقراط عن الأخلاط الأربعة (الدم ، والبلغم ، والسائل الصفراوى الأسود الأصفر)(†) ، وعمل على سرعة انتشار عقيدة فيثاغورس فى الأركان (العناصر) الأربعة (التراب ، والهواء ، والنار ، والماء) ، وحاول أن يرد الأمراض كلها إلى اختلال فى تلك الأخلاط أو هذه الأركان . وكان قوى الاعتقاد بوجود الروح ، مؤمناً بأن النفس (pneuma) أو النَّفَس الحيوى أو الروح تسرى فى كل جزء من أجزاء الجسم ، وتبعث فيه النشاط والحركة . وكان كثيرون من الأطباء قد أخذوا يفسرون نظريات علم الأحياء تفسيراً آلياً ؛ ومن هؤلاء أسكلبياديز الذى كان يرى أن علم وظائف الأعضاء يجب أن ينظر إليه على أنه فرع من الطبيعة ؛ ولكن جالينوس اعترض على هذه الفكرة ، وقال إن الآلة ليست إلا مجموعة

(*) بق متجانس الأجنحة .

(**) يسمى أيضاً الدرياق ، والدرياج ، والطرياق واللفظ يونانى معرب (شرف) .

(†) لقد عاد الطب الحديث يؤكد شدة أهمية إفرازات الغدد

أجزائها ، وأما الكائن العضوى فإنه يشتمل أيضاً على الإشراف الغائى على جميع أجزاء الكل . وكما أن الغاية وحدها هى التى يمكن بها تفسير منشأ الأعضاء وتركيبها ، ووظيفتها ؛ فكذلك يرى جالينوس أن الكون لا يمكن أن يفهم إلا على أنه تعبير عن خطة إلهية وأداة لتنفيذ هذه الخطة . لكن الله لا يعمل إلا بوساطة قوانين طبيعية ، وعلى هذا ليس ثمة معجزات ، وخير وحى هو الطبيعة نفسها .

وأحب المسيحيون جالينوس لإيمانه بالغائية وبالوحدانية فى الدين ، كما أحبه المسلمون بعدئذ لهذا السبب عينه ؛ وقد فقدت أوربا كل كتاباته تقريباً فى أثناء الفوضى التى أعقبت غزوات البرابرة ، ولكن علماء العرب حفظوها لبلاد الشرق ، ثم ترجمت هذه المؤلفات من اللغة العربية إلى اللاتينية فى القرن السابع والقرون التى تلته ، وأصبح جالينوس بعدئذ المرجع المعترف به الذى لا يوجه إليه نقد ، فكان هو أرسطو الطب فى العصور الوسطى .

واختتم آخر عصر مبدع من عصور العلم اليونانى ببطليموس وجالينوس ، ومن بعدهما انتهى عصر التجارب وساد عصر العقائد التحكمية ، وانحط علم الرياضة فأصبح مجرد ترديد للهندسة ، كما انحط علم الأحياء فأصبح ترديداً لأقوال أرسطو ، وانحطت العلوم الطبيعية فأصبحت ترديداً لأقوال بلنى ، ووقف الطب جامداً حتى جاء أطباء العرب واليهود فى العصور الوسطى فجددوا هذا العلم الذى يعد أشرف العلوم على الإطلاق .

الفصل الرابع

الشعراء فى الصحراء

تقع بلاد العرب فى الناحية الشرقية من البحر الأحمر ، وقد عجز الفراعنة ، والأكمينيوم ، والسلوقيون ، والبطالمة ، والرومان عن فتح تلك الجزيرة الغامضة العجيبة ، ولذلك ظلت صحراء العرب لا تعرف إلا العرب البدو . لكن فى جزئها الجنوبى الغربى سلسلة جبلية تسيل فيها عدة مجار مائية فتلطف حرارتها ، وتنبت فيها أشجار الفاكهة وتخلق منها بلاد العرب السعيدة Arabia Felix أو بلاد اليمن كما يسمونها فى هذه الأيام . وقد قامت فى خبايا تلك البلاد مملكة سبأ الصغيرة التى ورد ذكرها فى التوراة(*) ، والتى يكثر فيها الكندر ، والمر ، والقشية (خيار شنبر) ، والقرفة ، والصبر ، والنردين ، والسنا المكى ، والصمغ ، والحجارة الكريمة . وقد استطاع أهلها أن يشيدوا عند مأرب وغيرها من الأماكن مدناً تزهو بهياكلها ، وقصورها ، وأروقتها المعمدة[٤٠] . ولم يكتف تجار العرب بأن يبيعوا محصولات بلادهم بأغلى الأثمان ، بل كانوا يسيرون فيها القوافل التجارية إلى بلاد شمالى آسية الغربى ، وكانت لهم تجارة بحرية نشيطة مع مصر ، وپارثيا ، وبلاد الهند . وبعث أغسطس إيليوس جالس فى عام ٢٥ ق . م ليضم تلك المملكة إلى الإمبراطورية الرومانية ، ولكن فيالقه عجزت عن الاستيلاء على مأرب وعادت إلى مصر بعد أن قضت الأوبئة وشدة الحرارة على عدد كبير من رجالها . وحينئذ اكتفى أغسطس بتدمير مرفأ أدانا (عدن) العربى ، فأمن بذلك التجارة بين مصر والهند .

وكان أهم الطرق التجارية الممتدة من مأرب إلى الشمال يخترق الطرف الشمالى

(*) والقرآن . (المترجم) .

الغربى من جزيرة العرب ، المعروف عند الأقدمين باسم بلاد العرب البطرية نسبة إلى عاصمتها بطرة التى تبعد عن أورشليم بنحو أربعين ميلا جهة الجنوب . وكان السبب فى إطلاق هذا الإسم على المدينة أنها كانت قائمة وسط دائرة من الصخور الوعرة جعلتها أمنع من عقاب الجو . وفى هذا الجزء أقام العرب فى القرن الثانى مملكة أخذت تزداد ثراء على مر الأيام حتى امتد سلطانها من لوس كوم Leuce Come على البحر الأحمر إلى دمشق ، واشتملت على الجزء المصاقب لحدود فلسطين الشرقية وجراسا Gerasa وبُصرى . وبلغت هذه المملكة ذروة مجدها تحت حكم الملك أرتاس الرابع Aretas (٩ ق . م — ٤٠ م) ، وأضحت بطرة أيامه بلدة هلنستية ، لغتها آرامية ، وفنها يونانى ، وشوارعها فى عظمة شوارع الإسكندرية ؛ وتنتمى إلى هذا العصر القبور الضخمة المنقورة فى الصخور القائمة فى خارج المدينة ، وهى ذات واجهات ساذجة خشنة ولكنها تنبئ عن القوة ، وعمد يونانية مزدوجة ، يبلغ ارتفاعها فى بعض الأحيان مائة من الأقدام . وبعد أن ضم تراجان المملكة الشمالية إلى إمبراطوريته (١٠٦) جعل بُصرى عاصمة ولاية بلاد العرب ، فشادت تلك المدينة العمائر التى ترمز إلى ثرائها وسلطانها . واضمحلت بطرة بعد أن أصبحت طرق القوافل التجارية تلتقى عند بصرى وتدمر Palmyra ، وانحط شأن المقابر العظيمة حتى أضحت « مذاود ليلية لقطعان البدو »[٤١] .

وكان أبرز مظاهر الإمبراطورية العظيمة كثرة مدائنها العامرة بالسكان ، ولم تنشأ مدن فى عصر من العصور التالية لذلك العصر ، إذا استثنينا القرن الحالى ، بالكثرة التى أنشئت بها فى ذلك العهد ، فقد كان لوكلس ، وپمپى ، وقيصر ، وهيرود ، والملوك الهلنستيون ، والأباطرة الرومان يفاخرون بما ينشئون من المدن الجديدة وبتزيين المدن القديمة ، حتى لقد كان يصعب على الإنسان وهو ينتقل نحو الشمال محاذيا للشاطئ الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، أن يسير عشرين ميلا

دون أن تلقاه مدينة رفح (رافيا) ، وغزة ، وعسسقلان ، ويافا (چپا) ، وأپلونيا ، والسامرة ، وقيصرية . وكانت هذه المدن رغم وجودها فى فلسطين نصف يونانية فى سكانها ، تسودها لغة اليونان وثقافتهم وأنظمتهم . فكانت – والحالة هذه – بمثابة جسور تنتقل عليها الهلنستية فى غزوها الوثنى لبلاد اليهود . وأنفق هيرود أموالا طائلة فى جعل مدينة قيصرية خليقة بأغسطس الذى سميت باسمه ، فأنشأ لها مرفأ صالحا جميلا ، ومعبداً شامخاً ، وملهى ومدرجاً ، وأقام فيها قصوراً فخمة وصروحا كثيرة من الحجر الأبيض »(٤٢) . وأنشئت فى داخل البلاد مدن أخرى يونانية فلسطينية – ليڤياس Livias ، وفلادلفيا ، وچراسا ، وجندارا (قطرة Katra) : وفى چراسا مائة عمود هى كل ما بقى من العمد التى كانت قائمة على جانبى شوارعها الرئيسية ؛ وإن خرائب هياكلها ، وملهاها ، وحماماتها ، ومجرى مائها لتنطق بما كانت عليه المدينة من الثراء فى القرن الثانى بعد الميلاد .

وكانت جدارا ، التى تتردد فى خرائب ملهاها صدى ذكريات المسرحيات اليونانية ، تشتهر بمدارسها ، وأساتذتها ، ومؤلفيها . وفيها عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد منپس Menippus الفيلسوف والفكاهى الكلبى الذى يعلم بهجائه أن كل شىء عدا الحياة الصالحة باطل ، والذى كان مثالا احتذاه لوسليوس ، وڤارو ، وهوراس . وفى هذه المدينة « أثينة سوريا » أنشأ مليجر ، أنكريون زمانه ، قبل ميلاد المسيح بنحو ألف عام تلك المقطوعات الشعرية المصقولة التى كان يتغزل فيها بجمال النساء والغلمان . وظل يكتب قصائد الحب حتى كلّ قلمه :

« ما أحلى ابتسام الكأس للحبيب العزيز ، بعد أن مسها فم زنوفيلا Zenophila الجميل . وما أسعدنى إذا وضعت شفتيها الورديتين على شفتى ، وعبت روحى عبا فى عناق طويل »(٤٣) .

وكان لهيب من هذا النوع ، خبا قبل الأوان ، يشتعل قويا فى ذاكرته . ذلك هو هليودورا Heliodora التى أحبها فى صور .

سأجدل البنفسج الأبيض ، والآس الأخضر ؛ سأجدل النرجس ، والزنبق اللامع ؛ سأجدل الزعفران الحـلو ، والسنبل البرى الأزرق ؛ وسأجدل آخر الأمر الورد رمز الحب الأكيد ، حتى يتألف منها جميعاً تاج من الجمال خليق بأن يزين غدائر هليودورا الحلوة[٤٤] ». والآن وقد اختطفها الموت ولوث الثرى زهرتها الناضرة ، فإنى أتوسل إليك يا أمنا الأرض أن تكونى رحيمة حين تضمينها إلى صدرك »[٤٥] .

وقد خلد مليجر اسمه بأن جمع فى « إكليل » (Sléphamos) ما قاله شعراء اليونان فى الرثاء من أيام سابفو Sapphs إلى أيام مليجر . ومن هذه المجموعة وأمثالها من المجموعات نشأت دواوين الشعر اليونانى[*] . وفيها نجد أحسن المقطوعات الشعرية وأسوأها ، فمنها ما هو مصقول كصقل الجواهر ، ومنها ما هو أجوف كالألغاز . ولم يكن من الحكمة أن تقطف هذه « الأزهار » الأربعمائة من غصونها ليصنع منها التاج الذابل .

ومن هذه الأبيات ما يحيى ذكرى بعض الموتى من عظماء الرجال ، ومنها ما يخلد ذكرى تماثيل مشهورة ، أو أقارب فارقوا هذه الدار . ومنها قبريات ذاتية ، إذا صح ذلك التعبير . فقد كتبت امرأة ، ماتت وهى تلد ثلاثة أطفال فى وقت واحد ، تقول تلك القالة السديدة : « وبعد هذا فلتطلب النساء

(*) وقد ضم « إكليل » مليجر فى القرن السادس الميلادى إلى ديوان شعر كله تغزل فى الغلمان جمعه استرابون السرديسى (٥٠ ق . م) . وضمت إليه فيما بعد مقطوعات أخرى ، معظمها من أشعار المسيحين . وأخـذ ديوان الشعر اليونانى شكله الذى هو عليه الآن فى القسطنطينية حوالى عام ٩٢٠ م .

الأبناء »(٤٦) . ومنها ما هو سهام موجهة إلى صدور الأطباء ، والنساء السليطات ، ومجهزي الموتى للدفن ، ومعلمى الأحداث ، والديوثين ؛ أو إلى صدر البخيل الذى أفاق من إغماءة لما شم رائحة فلس ؛ أو النحوى الذى ظهو حفيد له ذكراً ثم أنثى ثم شيئا آخر هو ذكر وأنثى معاً(٤٧) ؛ أو الملاكم المحترف الذى اعتزل حرفته ، وتزوج ، فكالت له زوجته ضربات أكثر مما كانت تكال له في حلبة الملاكمة ؛ أو القزم الذى اختطفته بعوضة فظن أنه يعانى الآلام من اختطاف جنميدى . وثمة مقطوعة تشيد بمدح « المرأة الشهيرة التى لم تضاجع إلا رجلاً واحداً » ؛ ومقطوعات أخرى تقدم بها القرابين للأرباب : فنى واحدة منها تعلق ليس Lais مرآتها بعد أن أصبحت عديمة النفع لأنها لا تظهرها بالصورة التى كانت عليها من قبل ؛ وفى أخرى نرى نيسياس Nicias تسلم راضية منطقتها إلى ڤينوس بعد أن قضت فى خدمة الرجال خمسين عاما . وتمجد بعض المقطوعات أثر النبيذ فى توسيع الشرايين وتقول إن هذا أحكم من الحكمة ؛ ومنها واحدة تمجد الزانى الذى يجمع فى وقت واحـــد بين الاثنين والذى دفن تحت الأنقاض بين ذراعى عشيقته ؛ ومنها مراثى وثنية تصف قصر الحياة ؛ ومنها توكيدات مسيحية ليوم البعث السعيد . ومعظمها ، بطبيعة الحال ، يمتدح جمال النساء والغلمان ، ويتغنى بنشوة الحب الموجعة . وإنك لتجد هنا كل ما ورد فى الأدب بعد ذلك العصر عن آلام العاشقين وتجده موجزاً كاملا ، فيه من الأفكار أكثر مما فى الشعر الأنجليزى فى عصر إليزابث . من ذلك أن مليجر يتخذ بعوضة قوادة له ، ويحملها رسالته إلى السـيدة التى كان يحبها فى تلك الساعة . وهاهو ذا فلوديمس Philodemus ابن بلدته ، والفيلسوف الذى يسـدى النصح لشيشرون ، يغنى لمحبوبته زنثو Xantho أغنية حزينة فيقول :

يا ذات الخدين الأبيضين كلون الشمع ، والصدر الناعم ذى العطر الشجى ، والعينين اللتين تعشش فيهما ربات الفن ، والشفتين الحلوتين اللتين تفيضـــان بأكمل اللذات . . . غنى لى أغنيتك يا زنثو يا ذات الوجه الشاحب غنى . . . ما أسرع ما تنقطع الموسيق . أعيدى النغمة الحلوة الحزينة مرة بعد مرة ، ومسى الوتر بأصابعك العطرة ؛ يا بهجة الحب ، يا زنثو الشاحبة ، غنى(٤٨) ..

الفصل الخامس

السوريون

تقوم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط فى جزئه الشمالى مدن فينيقية القديمة التى كانت هى وفلسطين جزءاً من ولاية سوريا الرومانية : وقد ظلت هذه المدن حية طوال الحقبة التى دامت ألف عام مليئة بالأحداث الجسام وذلك بفضل عمالها المجدين البارعين فى الصناعات اليدوية ، وبفضل موقعها الذى جعل فيها على مر الأيام مرافئ تجارية هامة ، وتجارها المهرة الأغنياء الذين كانوا يرسلون سفنهم وعمالهم إلى كل مكان معروف على ظهر الأرض . وكان فى صور مبان أعلى من مبانى رومة(٤٩) . وأحياء أقذر من أحيائها ؛ تفوح منها روائح مصانع الصباغة الكريهة ؛ ولكنها كانت تعزى نفسها باعتقادها أن العالم كله يبتاع منسوجاتها ذات الألوان المتعددة الجميلة ، وبخاصة حريرها الأرجوانى . والراجح أن صيدا قد كشفت طريقة صنع الزجاج بالنفخ ، وأنها تخصصت وقتئذ فى صناعة الزجاج والبرنز ، واشتهرت برنيس (بيروت) بمدارس الطب والبلاغة والقانون ، وأكبر الظن أن أبيانوبابنيان المشترعين العظيمين قد تخرجا فى جامعتها ثم انتقلا منها إلى رومة .

ولم يكن فى الإمبراطورية كلها ولاية تفوق سوريا فى صناعاتها ورخائها ؛ وكان يعمرها فى زمن تراجان عشرة ملايين من الأنفس وإن كان سكانها الآن لايزيدون على ثلاثة ملايين ولايكادون يجدون ما يكفيهم من أسباب العيش(٥٠). وكان فى الولاية نحو خمسين مدينة تستمتع بالماء النقى ، والحمامات العامة ، والمجارى الممتدة تحت الأرض ، والأسواق النظيفة ، ومدارس التدريب الرياضى ، وساحات الألعاب ، والمحاضرات ، والموسيقى ، والمدارس ، والهياكل ، والباسلقات ، والأروقة المعمدة ، والأقواس ، والتماثيل العامة ، ومعارض الفن العمومية ، وهى

المظاهر التي كانت تمتاز بها المدن الهلنستية فى القرن الاول بعد الميلاد(٥١)
وكانت أقدم هذه المدن كلها مدينة دمشق القائمة وراء جبال لبنان المواجهة لصيدا ، وكانت تحميها الصحراء المحيطة بها . وقد أحالتها إلى حديقة غناء روافد وفروع لذلك المجرى الذى سماه الأقدمون « نهر الذهب » اعترافاً منهم بفضله . وكانت تلتقى عندها كثير من طرق القوافل ، وتفرغ فى أسواقها غلات قارات ثلاث .

وإذا عاد المسافر فى هذه الأيام فعبر تلال لبنان الصغرى واتجه نحو الشمال فى طرق متربة أدهشه أن يجد فى قرية بعلبك الصغيرة بقايا هيكلين فخمين ومدخل عظيم ، كانت فى يوم من الأيام مما تفخر به هليوپوليس مدينة الشمس اليونانية — الرومانية — السورية . وأسكن أغسطس فى ذلك المكان جالية رومانية صغيرة ، ثم نمت المدينة وازدهرت وصارت مركز عبادة بعل إله الشمس وملتقى الطرق الذاهبة إلى دمشق ، وصيدا ، وبيروت . وأقام المهندسون والبناءون الرومان ، واليونان ، والسوريون فى مكان هيكل بعل الفينيقى القديم مزاراً فخماً لجوبتر الهليوبوليسى ، أقاموا كل جدار من جدرانه من حجر واحد ضخم قطعوه من محجر يبعد عن موضعه مسافة ميل . وكانت إحدى كتله الحجرية تبلغ اثنتين وستين قدماً فى الطول وأربع عشرة فى العرض ، وإحدى عشرة فى الارتفاع ، وفيها من المادة الحجرية ما يكفى لبناء بيت رحب . وكانت إحدى وخمسون درجة من الرخام يبلغ عرض الواحدة منها مائة وخمسين قدماً تؤدى إلى المدخل الكورنثى العظيم ، فإذا اجتاز الإنسان البهو الأمامى والبهو الذى يليه المعمدين وجد البناء الرئيسى للهيكل ، وقد بقى منه حتى الآن ثمانية وخمسون عموداً تعلو فى الجو اثنتين وستين قدماً . وبالقرب من هذا الهيكل الكبير بقايا هيكل أصغر منه ، يقال أحياناً إنه كان هيكل ڤينوس وأحياناً باخوس ، وأحياناً دمتر . وقد أبقى الزمان على تسعة عشر عموداً من عمده ، وعلى باب جميل دقيق النقش . وتتألق هذه العمد الفخمة المنعزلة فى شمس السماء الصافية ، وهى من أجمل ما بقى من

مخلفات العصور السالفة . وإن المرء حين يشاهدها ليحس ، أكثر مما يحس حين يشاهد أي أثر من آثار رومة ، بعظمة الإمبراطورية الرومانية ، وبما فيها من ثراء ، وشجاعة ، ومهارة ، وذوق جميل أمكنها بها أن تشيد في مدنها الكثيرة المتفرقة هياكل أعظم وأكثر فخامة مما عرفته العاصمة المزدحمة في أي عصر من عصورها .

وتقع على منظر كهذا عين السائح الذي يتجه نحو الشرق ويعبر الصحراء من حمص ، إمسا Emessa القديمة ، إلى تدمر التي ترجم اليونان اسمها إلى بلميرا Palmyra أي المدينة ذات الألف نخلة . وقد كانت أرضها الخصبة المحيطة بعينين نضاختين ، وموقعها الحسن على الطريقين الممتدين من حمص ودمشق إلى نهر الفرات ، سببا في ثرائها ، فلم تلبث أن أصبحت من أكبر مدائن الشرق ؛ وقد أمكنها بعدها عن غيرها من المحلات أن تحتفظ باستقلالها الفعلي رغم تبعيتها الاسمية للملوك السلوقيين أو للأباطرة الرومان . وكان على جانبي شارعها الأوسط الرئيسي أروقة ظليلة تحتوي على ٤٥٤ عموداً ، وفي مواضع تقاطعه الأربعة أقواس فخمة بقي منها واحد حتى الآن شاهدا على ما كانت عليه بقية هذه الأقواس من عظمة وجلال . وكان أجمل مباني المدينة كلها وأعظمها هيكل الشمس الذي شيد في عام ٣٠ م . للثالوث الأعظم بعل ، ويرهبول (الشمس) وأجلبول (القمر) . وكان حجمه اطراداً لتقاليد الأشوريين في الضخامة ، وكان بهوه ، وهو أكبر الأبهاء في الإمبراطورية الرومانية ، يحتوي على صف من العمد لا مثيل له في بلد من بلادها ، طوله أربعة آلاف قدم ؛ وكان الكثير منها عمدا كورنثية مرتبة صفوفا في كل منها أربعة . وكان في داخل البهو والهيكل رسوم ملونة ومنحوتة يدل ما بقي منها على اقتراب تدمر من پارثيا في الفن كقربهما في المكان .

ويبدأ من تدمر طريق رئيسي يتجه نحو الشرق ويصل إلى نهر الفرات عند دورا — أوربس Dua-Europus . وهنا اقتسم التجار (عام ١٠٠ م)

حكاسيهم مع الثالوث التدمرى بأن شيدوا له .هيكلا كان مزيجا من الفن اليونانى والهندى ؛ وزين مصور شرقى جدرانه بمظلات تدل أوضح دلالة على أن الفن البيزنطى والفن المسيحى الأول من أصل شرقى(٥٢) . وكان على النهر الأعظم شمال هذه المدينة مدينتان أخريان ذواتا شأن عند ملتقى طريقين بريين كبيرين وهما مدينتا ثبساكس Thapsacus وزجما Zeugma . وإذا اتجـه المسافر من ثبساكس نحو الغرب مر بمدينتى بروثيا Beroea (حلب) ، وأپاميا Apamea ووصل إلى البحر الأبيض المتوسط عند لأوديسيا Laodicea — التى لا تزال تحتفظ باسمها القـديم اللاذقية مع تحريف قليل فيه ، ولا تزال أيضاً ثغرا ناشط الحركة . وبين هذه البلدة وأپاميا يتجه نهر العاصى نحو الشمال وتمتد على شاطئيه ضياع غنية حتى يصل إلى أنطاكية عاصمة سوريا فى ذلك الوقت . وكان النهر تعاونه شبكة عظيمة من الطرق البرية يحمل بضائع الشرق إلى أنطاكية ، بينا كانت سلوكيا سپيريا Selluci Spieria ثغر البلاد الواقع على البحر الأبيض على بعد أربعة عشر ميلا من أنطاكية نحو مصب النهر تأتى إليها بحاصلات الغرب . وكان الجزء الأكبر من المدينة يقوم على سفح الجبل ويشرف على نهر العاصى الذى يجرى من تحته . وكانت المدينة ذات موقع جميل استطاعت انطاكية بفضله أن تنافس رودس فى أن تكون أجمل مدائن الشرق الهلنستى . وكانت شوارعها تضاء بالليل فتكبسها بهجة وجمالا ، وتؤمن سكانها على أنفسهم وأموالهم ، وكان شارعها الرئيسى البالغ طوله أربعة أميال ونصف ميل مرصوفاً بالحجر الأعبل ، ويقوم على جانبيه صفان من العمد المسقفة ، فكان فى وسع الإنسان أن يسير راجلا من أحد طرفى المدينة إلى طرفها الآخر وهو آمن من المطر وحر الشمس . وكان الماء النقى يصل بمقادير موفورة إلى كل بيت من بيوتها . وقد اشتهر سكانها البالغ عددهم ٦٠٠ر٠٠٠ ، والذين كانوا خليطا من اليونان ، والسوريين ، واليهود بإفراطهم فى اللهو والمرح ، يعبون اللذات عبا ، ويسخرون من الرومان

المتباهين الذين جاءوا ليحكموهم ، والذين يقضون أوقاتهم بين حلبة الألعاب ، والمدرج ، والمواخير ، والحمامات ، ويستمتعون بكل ما يتيحه لهم دافنى Daphne بستانهم الشهير القائم فى ضاحية المدينة . وكان للأهلين أعياد كثيرة ، تستمتع أفروديتى بنصيب فيها كلها . وفى عيـد بروماليا Brumalia الذى كان يدوم معظم شهر ديسمبر ، كانت المدينة كلها ، كما يقول كاتب معاصر ، تبدو كأنها حانة واحدة ، وكانت الشوارع تعج طول الليل بالغناء والقصف والمرح[٥٣] . وكان فيها مدارس لتعليم البلاغة ، والفلسفة ، والطب ، ولكنها لم تكن مركزاً علمياً ، ذلك أن أهلها كانوا يقضون يومهم كله فى العمل ، فإذا احتاجوا للدين لجأوا إلى المنجمين ، والسحرة ، وصناع المعجزات ، والمشعوذين .

والصورة التى تطالعنا لسوريا تحت حكم الرومان هى صورة البلد الرخى رخاء أدوم من رخاء أية ولاية أخرى من ولايات الدولة الرومانية . وكان معظم أهلها من الأحرار إلا من كان يقوم منهم بالخدمة فى البيوت . وكانت الطبقات العليا مصطبغة بالصبغة اليونانية ، أما الطبقات الدنيا فقد احتفظت بطابعها الشرقى . وكان الفلاسفة اليونان يختلطون فى المدينة الواحدة بعاهرات الهياكل والكهنة الفنيين ، وقد ظل الأطفال حتى أيام هدريان يضحى بهم قرباناً للآلهة[٥٤] ، وكانت التماثيل المنحوتة والصور الملونة ذوات وجوه وأشكال نصف شرقية ، وعليها طابع العصور الوسطى . وكانت اللغة اليونانية اللغة السائدة فى دور الحكومة وفى الأدب ، ولكن لغات البلاد — وأهمها الآرامية — ظلت لغة التخاطب بين الأهلين . وكان العلماء فيها كثيرين ، وقد طبقت شهرتهم العالم كله فترة قصيرة من الزمان . فقد كان منهم نقولوس الدمشقى الناصح الأمين لأنطونيوس وكليوبطرة ، وهيرود ، والذى أخذ على عاتقه ذلك الواجب الثقيل الممل واجب كتابة تاريخ عام ، وهو واجب يشفق منه هرقول نفسه ، على حد قوله[٥٥] . وقد أشفق الدهر عليه فدفن كل مؤلفاته ، كما سيدفن مؤلفاتنا هذه على مهل .

الفصل السادس

آسية الصـــغرى

كان فى شمال سوريا مملكة كمچينى Commagene التى كانت فى أول الأمر منضمة للإمبراطورية الرومانية ثم أصبحت فيما بعد ولاية من ولاياتها ؛ وكانت عاصمتها سموساتا Samosata ، التى قضى فيها لوشيان أيام طفولته ، آهلة بالسكان . وكان فى الناحية الأخرى من نهر الفرات مملكة أسرهونى Osrhoene الصغيرة ؛ وقد حصنت رومة عاصمتها إدسا Edessa (أورفه) لتكون قاعدة لها ضد پارثيا ، وسنسمع الكثير عنها فى عصر المسيحية . وإذا اتجه المسافر غربا من سوريا انتقل إلى قليقية (كما ينتقل الآن إلى تركيا) عند الكسندريا إسى Alexandria Issi (الإسكندرونة) . وكانت هـــذه الولاية ، وهى ولاية شيشرون ، ذات حضارة راقية تمتد على الساحل الجنوبى لآسية الصغرى ، ولكنها فى جزئها الواقع على جبال طوروس لم تكن قد خرجت بعـــد من طور الهمجية .. ولم تكن حاضرتها طرسوس « بالمدينة الحقيرة » كما يقول ابنها القديس بولس ، بل كانت تشتهر بمدارسها وفلاسفتها .

وكان أمام قليقية فى البحر الأبيض المتوسط جزيرة قبرص تعمل كما كانت تعمل من أقدم الأزمنة فى استخراج النحاس ، وقطع أشجار السرو ، وبناء السفن ، وتتلقى صابرة ضربات الفاتحين . وكانت مناجمها الغنية ملكاً لرومة تستغلها على أيدى الأرقاء . ويصف جالينوس فى أيامه منجماً انهار على من فيه وقضى على حياة مئات من العمال - وتلك حادثة تتكرر آناً بعد آن فى الأسس البيولوجية لقوى الإنسان وأسباب راحته .

وكان إلى شمال قليقية ولاية كبدوكيا الجبلية القاحلة ، الغنية بمعادنها النفيسة ، والتي تنبت القمح وتربى الماشية والعبيد لتصدرها إلى خارجها . وكان إلى غربها ولاية ليكاؤنيا Lycaonia التي يبدأ تاريخها بزيارات القديس بولس لدربي Derbe ، وليسترا Lystra وأيكونيوم iconium . وفي شمال هذا الإقليم نجد جلاتيا Galatia التي استوطنها الغاليون وأطلقوا عليها هذا الاسم في القرن الثالث قبل الميلاد . وكان أهم ما أخرجته هو حجر پسينس Pessinus الأسود الذي أرسل إلى رومة ليكون رمزاً لسيبيل ؛ وكانت أهم مدنها في ذلك الوقت مدينة أنقورة Ancyra ، (أنقره) التي كانت عاصمة الحثيين منذ ثلاثة آلاف وخمسمائة عام ، والتي صدت عاصمة تركيا في هذه الأيام . وكان في ولاية پسيديا Pisidia الواقعة غرب قليقية خمس مدن جميلة مثل زنثوس التي كانت وقتئذ قد بدأت تستفيق من الانتحارات الكثيرة قبل بروتس ، وأسپندس Aspendus التي احتفظت بملهاها إلى درجة يسهل على الإنسان معها أن يتصوره وقد امتـــلأ مرة أخرى ليستمع إلى منندر أو يوريپديز .

وكان في شمال پسيديا وغربها ولاية « آسية » بأقسامها الأربعة : فريجيا ، وكاريا ، وليديا ، وميزيا Mysia . وكانت حضارة أيونيا لا تزال مزدهرة في هذه الولاية بعد أن بدأت فيها منذ ألف عام ؛ وقد استطاع فيلوستراتس أن يحصى فيها خمسمائة بلدة يبلغ مجموع سكانها أكثر مما تكفيهم موارد الإقليم كلها في هذه الأيام . وكان ريفها خصباً ، وكانت الصناعات قد ازدادت دقة جيلا بعد جيل ، وكانت الثغور قد أفادت من قيام الأسواق الغنية في إيطاليا ، وأفريقية ، وأسبانيا ، وغالة . لقد كانت فريجيا بلاداً جبليـــة ، ولكنها كانت تزهو بمدنها الكبيرة كأپميا سيليني Apamea Celaenae — التي يقول اســـترابون إنها لا يفوقها إلا إفسيس في « آسية » — ولؤديسيا التي أسعدها الحظ بفلاسفتها وأثريائها المحسنين الخيرين : وكانت نيدس Cnidus لا تزال على قدر من الغنى يمكنها من

أن تحالف رومة ، أما هلكرنسس فكانت قد انحدرت فلم تنجب أرق من ديونيشيس — وهي التي أنجبت هيرودوت — وكان ديونيشيس هذا ناقداً أدبياً بارعاً ولكنه كان مؤرخاً تعوزه القدرة على النقد والتمحيص . وكانت ميلتس قد جاوزت عهد شبابها ، وإن كانت لا تزال ثغراً نشيطاً ؛ وكان وحي أبلو في ديدما Didyma القريبة منها لا يزال يجيب عن الأسئلة إجابات ملغزة ، وكان القصاصون في هذا الإقليم ينسجون « القصص الميليتية » الغزلية ذات الخيال الوثاب التي تطورت بعد قليل من الوقت فكانت هي الروايات اليونانية القصصية الطويلة . وكانت پريينى Priene بلدة صغرى ، ولكن أهلها أخذوا يتبارون في تجميلها بالمباني الفخمة . وفي هذه المدينة انتخبت في القرن الأول الميلادي امرأة تسمى فيلى Phile لتشغل أسمى المناصب في البلدة وذلك لأن نفوذ رومة وثراءها قد أخذا يرفعان من منزلة المرأة في الأراضي الهلينية . وكانت مجنيزيا القائمة على ضفة الميندر تضم هيكلا يعده الكثيرون أقرب هياكل آسية إلى الكمال — وكان مخصصاً لعبادة أرتميس (١٢٩ ق . م) . وقد خططه هرموچنيز Hermogenes أعظم مهندسي ذلك العصر . وكان العامة من أهل ميكالي لا يزالون يجتمعون في كل سنة ليكون منهم اتحاد عام ومجلس ديني لأيونيا .

واشتهرت كوس إحدى الجزائر القريبة من ساحل كاريا بنسج الحرير وبمدرستها الطبية الغنية بتقاليد أبقراط ؛ وكانت رودس (الوردة) حتى في إبان ضعفها أجمل مدائن العالم اليوناني . ولما أن أراد أغسطس بعد الحرب الأهلية أن يخفف من بؤس المدن الشرقية بالسماح لها بإلغاء الديون كلها ، أبت رودس أن تفيد من هذا التيسير ؛ وأدت كل ما عليها من التزامات بصدق وأمانة . وكان من أثر هذا أن استعادت بعد زمن قليل مكانتها بوصفها المصرف المالي لتجارة بحر إيجة ، وعادت كما كانت من قبل الميناء الذي ترسو فيه البواخر المسافرة بين آسية ومصر . وقد اشتهرت المدينة بتمثالها الضخم المحطم ، ومبانيها الجميلة ،

وتماثيلها الرائعة ، وشوارعها المنظمة النظيفة ، وحكومتها الأرستقراطية القديرة ، ومدارس الفلسفة والخطابة الذائعة الصيت . وفى هذه المدارس علم أبلونيوس مولو قيصر ، وشيشرون تلك الأساليب الفنية التى أثرا بها فى كل ما كتب بعدهما من نثر لاتينى .

وكان أشهر عظماء رودس فى ذلك العصر هو پوسيدونيوس صاحب أكبر عقل منشئ مبدع فى التاريخ القديم كله . وكان مولده فى إپاميا Apamea من أعمال سوريا عام ١٣٥ ق . م ، وكان أول ما اشتهر به سرعة عدوه فى المسافات البعيدة ، وبعد أن درس على پنيتيوس Panetius فى أثينة اتخذ رودس وطناً له ، وعمل فيها حاكما وسفيراً ، وطاف بعدة ولايات رومانية ، ثم عاد إلى رودس ، واجتذب إلى محاضراته فى الفلسفة الرواقية عظماء الرجال أمثال پمپى وشيشرون . وذهب فى الثالثة والثمانين من عمره ليعيش فى رومة ومات فيها فى السنة التالية . ومن مؤلفاته كتاب **التاريخ العام** المفقود الذى يقص تاريخ رومة وممتلكاتها من عام ١٤٤ إلى عام ٨٢ ق . م ؛ وكان العلماء القدامى يضعونه فى منزلة كتاب پولبيوس . وكان وصفه لرحلاته فى غالة ، ورسالته **عن المحيط** من المصادر التى استمد منها استرابون كتاباته . وكان تقديره بعد الشمس عن الأرض — ٥٢٫٠٠٠٫٠٠٠ — أقرب إلى تقدير هذه الأيام من تقدير أى عالم قبله . وقد سافر إلى قادس Cadis ليدرس المد والجزر ، وفسر هذه الظاهرة بأنها من فعل الشمس والقمر مجتمعين . وقدر عرض المحيط الأطلنطى بأقل من عرضه الحقيقى ، وتنبأ بأن فى مقدور المسافر من أسپانيا أن يصل إلى الهند بعد أن يقطع ثمانية آلاف ميل . وكان رغم إلمامه بالعلوم الطبيعية يؤمن بكثير من الأفكار الروحية السائدة فى عصره — فكان يعتقد بالشياطين وبالقدرة على معرفة الغيب ، وبالتنجيم ، وقراءة الأفكار ، وبقدرة الروح على أن ترقى حتى تتحد اتحاداً

صوفيا بالله ، وعرف الله بأنه القوة الحيوية للعالم . وقد عده شيشرون أعظم الفلاسفة الرواقيين وكان فى هذا مبالغاً فى كرمه ، وفى وسعنا نحن أن نعده من رواد الأفلاطونية الجديدة ، وأن نرى فيه قنطرة انتقال من زينون إلى أفلوطينس .

وإذا سار المسافر محاذيا ساحل آسية وميمما شطر الشمال من كاريا دخل ليديا وأقبل على إفسوس أعظم مدائنها . وقد ازدهرت فى أيام الرومان كما لم تزدهر من قبل . ومع أن برجموم كانت العاصمة الرسمية لولاية « آسية » الرومانية فإن إفسوس أضحت مقر الحاكم الرومانى والموظفين التابعين له ، هذا إلى أنها كانت أهم ثغور الولاية ، ومكان اجتماع جمعيتها الوطنية . وكان سكانها خليطا من أجناس مختلفة ، بلغ عـــددهم ٢٢٥٫٠٠٠ ، ويختلفون من السوفسطائيين الخيرين المحبين للإنسانية إلى الغوغاء الصخابين المخرفين : وكانت شوارع المدينة حسنة الرصف والإضاءة ، وكانت لها بواك مظللة تمتد أميالا عدة . وكان فيها كثير من المبانى العامة التى توجد فى غيرها من المدن ، وقد كشف بعضها من تاريخ قريب لا يبعد عن عام ١٨٩٤ : ومن هذه المبانى « متحف » أو مركز علمى ، ومدرسة طب ، ودار كتب ذات واجهة عجيبة مسرفة فى النقش والزينة ، وملهى يتسع لستة وخمسين ألفاً من النظارة . وهنا أثار دمتريوس صانع التماثيل العامة على القديس بولس بعد هذا العهد . وكان مركز المدينة وأهم مصرف مالى فيها هو هيكل أرتميس ، وكان يحيط به ١٢٨ عموداً كل واحد منها مهدى من أحد الملوك : وكان يقوم على خدمة كهنته الخصيان قسيسات عذارى وحشد من الأرقاء ، وكانت طقوسهم مزيجا من الطقوس الشرقية واليونانية : وكان للتمثال البربرى الذى يمثل هذه الإلهة صفان من الأثداء الكثيرة العدد ترمز إلى الخصوبة . وكان الاحتفال بعيد أرتميس يجعل أيام مايو كلها أيام بهجة ، ومرح ، وحفلات ، وألعاب .

وكان جو أزمير أطيب من جو غيرها من البلدان رغم كثرة من كان فيها

من صيادى السمك . وقد وصفها أبولونيوس التياناني Apollonius of Tyana الذى كان جواب آفاق بأنها « أجمل مدينة تحت الشمس »[٥٩]. وكانت تزدهى على غيرها من المدن بشوارعها الطويلة المستقيمة ، وأعمدتها ذات الطبقتين من القرميد ، ومكتبتها ، وجامعتها . وقد وصفها رجل من أشهر أبنائها ، وهو إيليوس أرستيديز Aelius Aristides (١١٧ — ١٨٧ م) وصفا يكشف عما كانت عليه المدن الرومانية الهلنستية من روعة وبهاء ، فقال :

سر فيها من الشرق إلى الغرب تمر بهيكل فى إثر هيكل ، ومن تل فى إثر تل ، مخترقاً شارعا أجمل من اسمه (الطريق الذهبى) . ثم قف فوق حصنها تر البحر يمتد تحتك ، والضواحى تنتشر حولك . والمدينة إذا نظرت إليها ثلاث نظرات ملأت قلبك سروراً وغبطة . . . وكل شىء فيها من طرفها الداخلى إلى شاطئ البحر كتلة براقة من ساحات للألعاب ، وأسواق ، وملاه . . . وحمامات بلغت من الكثرة حداً لا يسهل عليك معه أن تعرف فى أيها تستحم ، وفوارات وطرقات عامة ، ومياه جارية فى كل بيت من بيوتها . وإن ما فيها من مناظر جميلة ، ومباريات ، ومعارض ليجل عن الوصف ؛ أما الصناعات اليدوية فحدث عن كثرتها ولا حرج . وهذه المدينة هى أنسب المدائن كلها لمن يريدون أن يعيشوا فى هدوء وطمأنينة ليكونوا فلاسفة لا يعرفون الغش والخداع[٦٠] .

وكان إيليوس واحداً من كثيرين من البلغاء والسوفسطائيين الذين اجتذبت شهرتهم الطلاب إلى أزمير من جميع بلاد هلاس ؛ وكان معلمه پوليمو Polemo رجلا بلغ من العظمة — كما يقول فيلوستراتس — « درجة جعلته يتحدث والمدائن أقل منه ، والأباطرة لا يعلون عليه ، والآلهة أنداد له[٦١] . وكان إذا حاضر فى أثينة استمع إليه هرودس أتكس Herodes Atticus أعظم منافسيه فى البلاغة ، وكان من تلاميذه المعجبين به . وأرسل إليه هرودس ١٥٠,٠٠٠ درخمة (٩٠,٠٠٠ ريال أمريكى) نظير استمتاعه بميزة الاستمتاع إلى محاضراته ؛

ولما لم يشكر له بوليمو عمله هذا ، قال له أحد الأصدقاء إن الحاضر قد استقل المبلغ ، فبعث إليه هيرودس مائة ألف أخرى ، قبلها بوليمو فى هدوء على أنها حق له . وقد استخدم بوليمو ثروته فى تزيين المدينة التى اتخذها وطناً له ؛ واشترك فى حكمها ، ووفق بين أحزابها ، وكان سفيراً لها . وتقول الرواية المأثورة إنه أيقن أنه لا يطيق الصبر على داء المفاصل الذى كان مصاباً به ، فدفن نفسه فى قبر أسلافه فى لأوديسيا ، وأمات نفسه جوعاً فى سن السادسة والخمسين[٦٢] .

وكانت سرديس ، عاصمة كروسس القديمة ، لا تزال « مدينة عظيمة » فى عهد استرابون . وقد تأثر شيشرون بعظمة متليني وجمالها ووصفها لنجس Longus فى القرن الثالث وصفاً يذكرنا بجمال مدينة البندقية[٦٣] . وكانت برجموم يتلألأ فيها المذبح العظيم ، والمبانى الفخمة التى شادها ملوكها من أسرة أتالس Attalus ، وأنفقوا عليها من الخزائن التى امتلأت بالمال من كدح العبيد فى غابات الدولة ، وحقولها ، ومناجمها ، ومصانعها ؛ وقد استبق أتالس الثالث التوسع الرومانى والانقلاب الاجتماعى بأن أوصى بمملكته إلى رومة فى عام ١٣٣ ق . م ؛ غير أن أرستنكس ابن الملك يومنيز الثانى من إحدى المحظيات نقض الوصية وقال إن أتالس أرغم عليها ؛ ثم حرض العبيد والأحرار الفقراء على الثورة ، وهزم جيشاً رومانيا (١٣٢) ، واستولى على عدد كبير من المدن ، ووضع قواعد دولة اشتراكية بمعونة بلوسيوس Blossius معلم ابنى جراكس . وانضم إلى رومة ملكا بيثينيا وبنتس المجاورتين لبرجموم ، كما انضم إليها طبقات رجال الأعمال فى المدن المحتلة فأخمدت رومة بمعونتهم هذه الثورة ومات أرستنكس فى أحد السجون الرومانية . وعاقت الثورة والحروب المثرداتية حياة برجموم الثقافية مدى نصف قرن من الزمان ، ونهب أنطونيوس مكتبتها الشهيرة ليعوض بها الإسكندرية عن الكتب التى احترقت منها أثناء إقامة قيصر فيها . وما من شك فى أن برجموم قد انتعشت قبيل عهد فسبازيان ، وشاهد ذلك أن بلنى الأكبر حكم بأنها أكثر

مدائن آسية ازدهاراً . وقامت فيها أيام الأنطونيين حركة بناء جديدة ، ونشأت فى الإسكلپيوم مدرسة طبية خرج منها جالينوس ليداوى أمراض العالم .

واستحالت اسكندرية ترواس Alexandria Troas على يد أغسطس مستعمرة رومانية تخليدا لأصل رومة الطروادى المزعوم ، وقد استندت رومة إلى هذا الأصل المزعوم فى مطالبتها بجميع البلاد التى وصفناها فى هذا الفصل . وقد أعيد بناء طروادة القديمة على تل قريب من هـــذه البلدة (حصار لك) ، وسميت باسم إليوم Illium الجديدة ، وأضحت بعد بنائها مقصداً للسياح ، وكان الأدلاء يرشدونهم إلى كل بقعة حدثت فيها إحدى الحوادث الواردة فى الإلياذة ، ويطلعونهم على الكهف الذى حاكم فيه پاريس هيرا ، وأفروديتى ، وأثينة . وقد بنى سزكس Cyzicus سفنا على البروپنتس وأرسل منها إلى جميع البحار المعروفة أسطولا تجارياً لم يكن ينافسه إلا أسطول رودس . وهنا شاد هدريان هيكلا لپرسفنى ، كان من أعظم الهياكل التى تفتخر بها آسية . ويقول ديوكاسيوس إن قطر كل عمود من أعمدته كان ست أقدام وارتفاعه خمساً وسبعين قدماً ، ومع هذا فقد كان العمود منحوتاً من كتلة واحدة من الحجر[٦٤] . وكان هذا الهيكل قائماً على ربوة ، ولهذا بلغ من الارتفاع حداً رأى معه إيليوس أن لا ضرورة لإقامة منارة لهداية السفن .

وقامت فى أيام السلم الرومانية مائة مدينة مزدهرة على الطريق الممتد من البحر الأحمر إلى البحر الأسود .

الفصل السابع

مثرداتس العظيم

كانت بيثينيا وبنتس تمتدان على السواحل الشمالية لآسية الصغرى ؛ وكانت أرضهما جبلية فى الداخل ، لكنها كانت غنية بالخشب والمعادن . وقد طغى على سكانها الحثيين الأقدمين خليط من التراقيين ، واليونان ، والإيرانيين وحكمت بيثينا أسرة ملكية يونانية — تراقية ، وشادت لها عاصمة فى نيقوميديا ، ومدينتين كبيرتين فى بروصه Prusa ونيقية . وأقام شريف إيرانى سمى مثرداتس دليلا على التقى والورع مملكة له حوالى عام ٣٠٢ ق . م شملت كپدوكيا وبنتس ، وأنشأ أسرة من الملوك البواسل نشروا الثقافة اليونانية فى البلاد ، واتخذوا كومانا پنتيكا Comana Pontica وسينوب عاصمتين لهم . وانتشر مُلكهم حتى اصطدم بمصالح رومة الاقتصادية والسياسية ؛ فشبت على أثر ذلك نار الحروب المثرداتية التى سميت بهذا الاسم الموائم لها كل المواءمة نسبة إلى الملك الجبار الذى جمع آسية الغربية وبلاد اليونان الرومانية ، ونشر فيها جميعاً لواء فتنة صماء لو أنها نجحت لبدلت تاريخ أوربا تبديلا .

وكان مثرداتس السادس قد ورث عرش پنتس وهو غلام فى الحادية عشرة من عمره ، وحاولت أمه هى والأوصياء عليه أن يقتلوه لتجلس هى على العرش مكانه ، لكنه قفز من قصره ، واختفى عن الأبصار ، وعاش أحد عشر عاماً فى الغابات يصطاد الوحوش ، ويتخذ من جلودها لباساً . وحدث فى عام ١١٥ ق.م انقلاب سياسى مفاجئ أدى إلى خلع أمه وإعادته إلى ملكه . وكانت تحيط

به المؤامرات التي هي من خصائص القصور الشرقية(*) ، فاحتاط لها بأن كان يتجرع قليلا من السم في كل يوم ، حتى كانت له حصانة من معظم أنواع السم التي كانت في متناول المقربين إليه . وقد كشف في أثناء تجاربه هذه كثيراً من العقاقير المضادة للسم والشافية منه . ثم امتدت هوايته من هذا إلى الطب بوجه عام ، فجمع فيه معلومات بلغ من قيمتها أن أمر پمپي بترجمتها إلى اللغة اللاتينية . وكانت حياته البرية الصارمة قد أكسبته قوة في الجسم وفي الإرادة ، وأن بلغ من الفخامة درجة رأى معها أن يرسل دروعه السابغة إلى دلفي ليشاهدها العابدون ؛ وكان فارساً ماهراً ، ومحارباً شجاعاً ، ويؤكد لنا عارفوه أنه كان في مقدوره أن يعدو بسرعة يدرك به ظباء الفلاة ، وأنه يستطيع أن يسوق عربة يجرها ستة عشر جواداً ، ويقطع مائة وعشرين ميلا في اليوم الواحد(٦٥) . وكان يفخر بقدرته على أن يأكل أكثر مما يأكل أي إنسان آخر ويشرب أكثر مما يشرب ، وكان له عدد كبير من النساء . ويقول المؤرخون الرومان إنه كان قاسي القلب ، غداراً ، وإنه قتل أمه ، وأخاه ، وثلاثة من أبنائه ، وثلاثاً من بناته(٦٦) ، ولكن رومة لم تنقل لنا ما عسى أن يقوله هو دفاعاً عن نفسه . ولقد كان مثقفاً بعض الثقافة ، في مقدوره أن يتكلم اثنتين وعشرين لغة ، ولم يستخدم قط مترجماً بينه وبين من يتحدث إليه من الأجانب(٦٧) . وقد درس الآداب اليونانية ، وكان مولعاً بالموسيقى اليونانية ، وأغنى بالمال والنفائس الهياكل اليونانية ، وكان في بلاطه عدد كبير من علماء اليونان ، وشعرائهم ، وفلاسفتهم . وقد جمع كثيراً من التحف الفنية ، وسك نقوداً ذات أشكال جميلة ممتازة . ولكنه لم يتورع عن الشهوانيـــة والفظاظة التي كان يمتلئ بها جو النصف

(*) مما يؤسف له أن المؤلف ينسى من آن إلى آن صفة المؤرخ النزيه فيغمز الشرق غمزات كان خليقاً به أن ينزه قلمه عنها . فلسنا نعلم أن الشرق قد اختصت قصور ملوكه بالدسائس ، وفي التاريخ كثير من الشواهد على أن هذه الدسائس لم تكن تقل في قصور ملوك الغرب عنها في الشرق . (المترجم)

الهمجي ، وصدق خرافات أهل زمانه . ولم يكن يحمى نفسه من رومة بما كان خليقاً أن يقوم به النابذ أو السياسى العظيم من حركات صادرة عن نفاذ البصيرة وبعد النظر ، بل كان يحميها بالشجاعة الارتجالية التى يعمد إليها الحيوان إذا وقع فى المحظور .

ومثل هذا الرجل لا يمكن أن يقنع بالمملكة الصغيرة التى خلفتها له أمه . ولهذا فتح أرمينية وبلاد القوقاز مستعيناً على ذلك بضباط وجنود مرتزقين من اليونان ، ثم عبر نهر قوبان ومضيق كرتش إلى بلاد القرم وأخضع لحكمه جميع المدن اليونانية القائمة على سواحل البحر الأسود الشرقية ، والشمالية ، والغربية . وإذا كان انهيار قوة اليونان العسكرية قد ترك هذه الجماعات وهى تكاد تكون عاجزة كل العجز عن حماية نفسها من البرابرة الذين يجاورونها من خلفها . فإنها قد استقبلت جيوش مثرداتس اليونانية استقبال الحماة المنقذين . وكانت من المدن التى خضعت له سينوب ، وطربزون ، وپنتيكپيم Panticapeum (كرتش) ، وبيزنطية . ولكن سيطرة بيثينيا على الهلسينت (الدردنيل) تركت تجارة پنتس فى البحر الأبيض المتوسط تحت رحمة الملوك المعادين لها . فلما مات نيقوميدس الثانى ملك بيثينيا (٩٤ ق . م) تنازع ولداه على العرش ، واستغاث الثانى وهو سقراط بملك پنتس . وانتهز مثرداتس فرصة النزاع الحزبى فى إيطاليا فغزا بيثينيا لكى يجلس سقراط على العرش . ولم تشأ رومة أن ترى البسفور فى أيدى أعدائها فأمرت مثرداتس وسقراط أن يخرجا من بيثينيا . وصدع مثرداتس بالأمر أما سقراط فرفضه ، فلم يكن من حاكم آسية الرومانى إلا أن خلعه وتوج نيقوميدس الثالث . وغزا الحاكم الرومانى الجديد پنتس وشجعه على ذلك منيوس أكوليوس Manius Aquilius الحاكم الرومانى ، وبدأت بذلك الحرب المثرداتية الأولى

(٨٨ — ٨٤ ق . م) .

وأحس مثرداتس أن الفرصة الوحيدة التي تتيح له البقاء هي إثارة الشرق الهليني على سادته الإيطاليين ، فأعلن أنه منقذ هلاس وسير جيوشه لتحرير المدن اليونانية في آسية بالقوة إذا كان لا بد من استخدامها ؛ ولما أن قاومته طبقات رجال الأعمال في المدن ولى وجهه شطر الأحزاب الدمقراطية ، وأخذ يمنيها بإصلاحات شبه اشتراكية . وفي هذه الأثناء كان أسطوله المكون من أربعمائة سفينة قد دمر القسم المرابط في البحر الأسود من الأسطول الروماني وأوقع جيشه المؤلف من ٢٩٠٫٠٠٠ رجل هزيمة منكرة بقوات نيقوميدس وأكوليوس . وأراد الملك الظافر أن يعبر عن احتقاره لشراهة الرومان وبخلهم(٦٨) فصب الذهب المصهور في أفواه أكوليوس الأسير — ولم يكن قد مضى على انتصاره على أرقاء صقلية الثائرين إلا وقت قصير . ورأت المدن اليونانية في آسية الصغرى أن الرومان أصبحوا عاجزين عن حمايتها ، ففتحت أبوابها لجيوش مثرداتس ، وأعلنت ولاءها له وللقضية التي نصب نفسه للدفاع عنها ، وقامت في يوم حدده لها ، وبناء على أمره ، بقتل كل من فيها من الإيطاليين رجالا كانوا أو نساء أو أطفالا وقد بلغ عددهم ثمانين ألفاً (٨٨ ق . م) ، وفي ذلك يقول أبيان :

« ومزق الإفسوسيون أجسام الفارين الذين احتموا في هيكل أرتميس وأمسكوا بصورة المعبودة ، ثم جزوا رؤوسهم . ورمى أهل برجموم بالسهام الرومان الذين احتموا في معبد اسكلبيوس Aesculpius . واقتفى أهل أدرميتيوم Adramyttium من أراد النجاة بالسباحة في البحر وقتلوهم وأغرقوا أطفالهم . وطارد أهل كونس Caunus (في كاريا) الإيطاليين الذين احتموا حول تمثال فستا ، وقتلوا الأطفال أمام أعين أمهاتهم ، ثم أتبعوهم بالأمهات ، ثم بالرجال . . . وقد اتضح من هذه الأعمال أن الذي دفعهم إلى ارتكاب هذه الفظائع لم يكن خوفهم من مثرداتس فحسب بل كان أيضاً كرههم للرومان »(٦٩) .

وما من شك في أن الطبقات الفقيرة التي قاست أكثر من غيرها مظالم

الحكم الروماني كانت لها اليد الطولى في هذه المذابح الجنونية ، وما من شك أيضاً في أن طبقات الملاك التي ظلت زمناً طويلا تتمتع بحماية الرومان لها قد استولى عليها الرعب حين أبصرت هذا الانتقام الرهيب . وأراد مثرداتس أن يهدئ ثائرة الطبقات الغنية بإعفاء المدن اليونانية من الضرائب مدة خمس سنين ، ويمنحها الاستقلال الذاتي التام ، لكنه « أعلن » في الوقت نفسه ، كما يقول أبيان « إلغاء الديون ، وحرر العبيد ، وصادر كثيراً من الضياع ، وأعاد توزيع الأراضي الزراعية على السكان » . ودبر زعماء العشائر مؤامرة لاغتياله ، فلما كشف سرها أمر بقتل ألف وستمائة من هؤلاء الزعماء . واستولت الطبقات الدنيا يساعدها الفلاسفة وأساتذة الجامعات[٧١] على زمام السلطة في كثير من المدن اليونانية ، ومنها أثينة واسپارطة نفسهما ، وأعلنت الحرب على رومة وعلى الطبقات الغنية معاً ، وقتل يونان ديلوس في نشوة الحرية عشرين ألف إيطالي في يوم واحد . واستولى أسطول مثرداتس على جزائر سكلديز كما استولى جيشه على عوبية ، وتساليا ، ومقدونية ، وتراقية . وكان خروج « آسية » الغنية عن سيطرة الرومان سبباً في وقف الخراج الذي كان يرسل منها إلى الخزانة الرومانية ، وفوائد الأموال التي كان يحصل عليها المستثمرون الرومان ، فانتابت إيطاليا أزمة مالية كانت ذات أثر في الحركة الثورية التي قام بها سترنينس Saturninus وسنا Cinna . وانقسمت إيطاليا على نفسها لأن السمنيين واللوكانيين عرضوا على ملك پنتس أن يعقدوا معه حلفاً .

ورأى مجلس الشيوخ الروماني الحرب والثورة تواجهانه في كل مكان ، فباع ما تجمع في الهياكل الرومانية من الذهب والفضة ليمول بها جيوش صلا . ولسنا نرى من واجبنا أن نعيد هنا كيف استولى صلا على أثينة ، وهزم جيوش الثوار ، وأنقذ الإمبراطورية لرومة ، وعقد مع مثرداتس صلحاً قوامه اللين انسحب الملك على أثره إلى عاصمة پنتس ، يجهز في هدوء جيشاً وأسطولا جديدين.

وقرر مورينا Murena المبعوث الروماني فى آسية أن يهاجمه قبل أن يشتد ساعده ؛ فلما أن هزم مورينا فى هذه الحرب المثرداتية الثانية (٨٣ — ٨١) لامه صلا على خرقه شروط المعاهدة وأعلن انتهاء الأعمال العدوانية . وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت أوصى نيقوميدس الثالث ببيثينيا إلى رومة ؛ وأدرك مثرداتس أن مملكته نفسها ستبتلعها رومة عن قريب إذا امتد سلطانها إلى حدود بفلجونيا وبنتس بعد أن سيطر على البسفور . وبذل فى الحرب المثرداتية الثالثة (٧٥ — ٦٣) آخر جهوده ، وحارب لوكلس وپمپي اثنى عشر عاماً ، وغدر به أحلافه وأعوانه ففر إلى بلاد القرم . وحاول الجندى الشيخ ، وكان وقتئذ فى التاسعة والستين من عمره ، أن يعد جيشاً يخترق به بلاد البلقان ، ويغزو إيطاليا من الشمال ، ولكن ابنه فرناسس شق عصا الطاعة عليه ، وأبى جيشه أن يساق إلى هذه المغامرة ؛ وحاول الملك بعد أن تخلى عنه الجيش أن ينتحر ، ولكن السم الذى تجرعه لم يكن له أثر فيه لما كان قد كسبه قبل من الحصانة ، وكانت يداه أضعف من أن تضغط على النصل الذى أراد أن يقتل به نفسه ، ثم أجهز عليه أصدقاؤه ومحاسيبه الذين أمرهم ولده أن يقتلوه بأن طعنوه بسيوفهم وحرابهم .

الفصل الثامن

النـــثر

مما يذكر بالحمد للحكم الرومانى أن مدن آسية الصغرى لم يمض عليها إلا قليل من الوقت حتى أفاقت من حمى هذه الحروب المتقطعة . وصارت نيقوميديا عاصمة ولاية بيثينيا — پنتس ، ثم أضحت عاصمة الإمبراطورية فى عهد دقلديانوس ؛ وخلد اسم نيقية فيما بعد أن انعقد فيها أخطر مجلس فى تاريخ الكنيسة المسيحية ، وأخذت المدينتان تتنافسان فى تشييد المبانى منافسة اضطر معها تراچان أن يرسل پلنى الأصغر ليحول بينهما وبين الإفلاس . وأهدت نيقوميديا إلى الأدب ابنها فلاڤيوس أريانس الذى سجل أحاديث إپكتتس ، كما سبق القول . وكان أريان هذا حاكماً على كپدوكيا ست سنين ، وأركونا لأثينة سنة واحدة ، ولكنه رغم هذه المشاغل وجد متسعاً من الوقت لكتابة عدة كتب فى التاريخ لم يبق منها إلا زحف الإسكندر المذيل بالإنديكا Indica . وقد كتبه بلغة يونانية واضحة سهلة لأنه اتخذ أكسنوفون مثلا له فى أسلوبه ، كما اتخذه مثلا له فى حياته . ويقول هو عن كتابه مفتخراً به كما يفخر الأقدمون :

« لقد كنت منذ صباى أنزل هذا الكتاب منزلة الوطن والأسرة والمنصب العام ، ولهذا فإنى لا أرى نفسى غير خليق بأن أعد بين أعظم المؤلفين فى اللغة اليونانية »[٧٢] .

وكانت هناك مدن أخرى على شاطئ البحر الأسود ذات مياه عظيمة وعلماء ذائعى الصيت . كان منها ميرليا Myrlea التى يبلغ عدد سكانها ٣٢٠٠٠٠٠[٧٣] وأمسارتس Amsartis (أمسرا Amsara) التى وصفها پلنى بأنها « مدينة أنيقة جميلة » ، والتى اشتهرت بما كان فيها من أشجار البقس الجميلة ؛ وسينوب

التى كانت مركزاً غنيا لصيد السمك ومنفذاً لخشب الإقليم المجاور لها ومعادنه ». وأميسس Amisus (سمسون) وطربيزس (طربزون) وكان أهلها يكسبون عيشهم بالاتجار مع سكوذيا (جنوبى روسيا) المقابلة لها على شاطئ البحر ، وأماسيا Amasea التى وُلد وعاش فيها استرابون أعظم الجغرافيين الأقدمين.

وكان استرابون ينتمى إلى أسرة غنية تنحدر ، كما يؤكد هو ، من ملوك بنتس ؛ وكان مصاباً بحول غريب(*) لا يزال يسمى باسمه حتى الآن[٧٤] ، وكان كثير الأسفار ، ويلوح أن أسفاره كانت فى بعثات دبلوماسية ، وكان ينتهز كل فرصة مستطاعة لجمع المعلومات الجغرافية والتاريخية . وكتب تاريخاً مكملا لتاريخ پولبيوس ولكنه فقد ؛ ثم أخرج فى عام ٧ ق . م كتابه العظيم الجغرافية الذى حفظت لنا الأيام جميع أجزائه السبعة عشر تقريبا . وقد بدأه كما بدأ أريان كتابه بالتحدث عن مزاياه فقال :

إنى أستسمح قرائى ، وأطلب إليهم ألا يلومونى لطول بحثى بدل أن يلوموا أولئك الذين يحرصون أشد الحرص على معرفة كل ما هو شهير وقديم . . . ولا بد لى فى هذا الكتاب من أن أغفل الصغير من الأشياء ، وأن أخص بالعناية ما هو نبيل وعظيم . . . سواء كان نافعا ، أو ذائع الصيت ، أو باعثاً للبهجة والمتعة : وكما أننا إذا أردنا أن نحكم على قيمة تمثال ضخم لا نبحث كل جزء من أجزائه بدقة وعناية ، بل ننظر إلى الأثر العام الذى ينطبع فى أذهاننا منه . . . فكذلك يجب أن يحكم على كتابى هذا بالطريقة عينها . ذلك بأنه هو أيضاً عمل ضخم . . . خليق بأن يكون عمل فيلسوف »[٧٥] .

وهو يعترف فى صراحة بأنه يأخذ عن پولبيوس ، وبسيدونيوس ، لكنه أقل صراحة فيما يأخذ عن أرتسثنيز ، ويشتد عليهم جميعاً فى نقد أخطائهم ،

(*) Strabismus (المترجم)

ويقول إن أخطاءه هو يجب أن يلام عليها من أخذ عنهم[٧٦] . وهو يعترف بالمراجع التي أخذ عنها في صراحة نادرة ويختار هذه المراجع في العادة بدقة وحسن تمييز . ومن أقواله أن امتداد الإمبراطورية الرومانية قد وسع المعلومات الجغرافية ، وأنه يعتقد مع ذلك أن قارات بأكملها لا تزال مجهولة — وربما كانت هذه القارات في المحيط الأطلنطي — وأن الأرض شبه كرة ، (ولكن اللفظ اليوناني قد يكون معناه « كريا ») وأن الإنسان إذا سافر من أسپانيا متجهاً نحو الغرب وصل بعد وقت ما إلى الهند . ويقول عن شواطئ البحار إنها في تغير دائم بفعل التعرية أو الانفجار ، ويظن أن اضطراب باطن الأرض قد يشق برزخ السويس ويصل البحرين . وكان كتابه تلخيصا جريئا لما يعرفه الناس في عصره عن الأرض ، وما من شك في أنه من جلائل الأعمال في العلم القديم .

وكان ديو كريسستوم — ديو ذو الفم الذهبي — (٤٠ — ١٢٠ م) أعظم شهرة في عصره من استرابون . وكانت أسرته قد اشتهرت في بروصة من زمن طويل ؛ فقد أفنى جده ثروته بما قدمه من الهبات لمدينته ، ثم جمع بعدئذ ثروة جديدة ؛ وحذا أبوه حذو جده ، وفعل ديو ما فعله الأب والجد[٧٧] . ولما كبر صار خطيباً وسوفسطائيا ، وسافر إلى رومة ، واعتنق مذهب الرواقية على يد موسنيوس روفس ، ونفاه دومتيان من إيطاليا وبيثينيا في عام ٨٢ ؛ ولما حرم عليه أن ينتفع بملكه أو دخله ، أخذ يضرب في الأرض ثلاثة عشر عاما وينتقل من قطر إلى قطر انتقال الفيلسوف المفلس ، يأبى أن يتقاضى أجراً على خطبه ، ويكسب قوته في معظم الأحوال بعمل يديه . ولما جلس نيرڤا على العرش بعد دومتيان ، تبدل نفي ديو تكريما ، فقد اصطفاه نيرڤا وتراجان ووهبا مدينته هبات جمة إجابة لطلبه . ولما عاد إلى بروصه أنفق معظم ثروته في تجميلها ، واتهمه فيلسوف آخر باختلاس الأموال العامة فحاكمه پلني ، ويلوح أنه برئ من هذه التهمة .

وخلف ديو وراءه ثمانين خطبة . ويبدو لنا في هذه الأيام أن معظمها ألفاظ

جوفاء ليس فيها كثير من المعانى ؛ ويؤخذ عليها ما فيها من إطناب ، وتشبيهات خداعة ، وحيل بيانية ؛ فهى تمط نصف المعنى حتى تملأ به مائة صفحة ؛ فلا عجب بعدئذ إذا صاح أحد المستمعين بعد أن سئم هذا الطول : « إنك قد جعلت الشمس تغرب طول أسئلتك التى لا آخر لها »(٧٨) . ولكن الرجل كان فصيح اللسان ساحر البيان ، ولولا ذلك لصعب عليه أن يكون أشهر خطباء القرن الذى عاش فيه ، ولما كانت الحروب تقف لكى يستمع الناس إلى خطبه . وقد قال له تراچان فى يوم من الأيام قولا صادقا صريحا : « لست أفهم ما تقول ، ولكننى أحبك بقدر حبى لنفسى »(٧٩) . وكان البرابرة الضاربون على ضفتى البورسثنيز Borysthenes (الدنيپر) يستمعون إليه فى ابتهاج لا يقل عن ابتهاج اليونان وهم مجتمعون فى أولمپيا ، أو ابتهاج أهل الإسكندرية المعروفين بسرعة الانفعال . وحدث أن جيشاً أوشك أن يتمرد على نيرڤا ، فهدأت سورته بعـــد أن استمع إلى خطبة ارتجلها الخطيب الطريد النصف العارى .

وأكبر الظن أن الذى أغرى الناس بالالتفاف حوله لم يكن أسلوبه اليونانى الأتكى الجميل بل كان هو جرأته فى التشهير ، ويكاد أن يكون هو الخطيب الوحيد فى العهود الوثنية القديمة الذى ندد بالدعارة ، وما أقل كتاب زمانه الذين هاجموا نظام الاسترقاق بمثل ما هاجمه هو من القوة والصراحة . (بيد أنه غضب بعض الغضب حين وجد أن عبيده فروا منه)(٨٠) . وكانت خطبته فى أهل الإسكندرية تنديداً عنيفاً بترفهم ، وتخريفهم ، ورذائلهم . وقد وقف يوما فى اليوم Ilium وألقى خطبة قال فيها إن طروادة لم توجد قط ، وإن « هومر كان أجرأ كاذب فى التاريخ » ؛ ثم وقف يوما آخر فى قلب رومة وأخذ يذكر فضائل الريف على المدن ، وصور فقر الريف تصويراً مؤثراً فى أسلوب قصصى واضح جذاب ، وأنذر مستمعيه أن الناس أخذوا يهملون الأرض ، وأن

الأساس الزراعي للحضارة قد انهار . ووقف مرة فى أولمبيا ليخطب فى جمع كبير من الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها ، وأخذ يصف أهل ذلك العصر من الأبيقوريين والملحدين . وكان مما قاله فى هذه الخطبة ، إن الصورة التى لدى الناس عن الإله قد تكون باطلة سخيفة ، ولكن الرجل العاقل يدرك أن العقل الساذج يحتاج إلى أفكار ساذجة ورموز تصويرية . والحق أن أحداً من الناس لا يستطيع أن يدرك صورة الكائن الأعلى ، وحتى التمثال الجليل الذي نحته فدياس نفسه لم يكن إلا فرضا مجسدا لا يليق بمقامه كما لا يليق به تصوره نجما أو شجرة . ونحن وإن كنا لا نعرف حقيقة الله ، ندرك بفطرتنا أنه موجود ، ونشعر أن الفلسفة بغير الدين شيء مظلم لا يرجى منه خير ؛ وأن الحرية الحقة الوحيدة هى الحكمة — أي أن يعرف الإنسان ما هو حق وما هو باطل ؛ وأن سبيل الحرية ليست هى السياسة أو الثورة ، بل أن سبيلها هى الفلسفة ، وليست الفلسفة الحقة هى الأفكار التى فى بطون الكتب ، بل هى اتباع طريق الشرف والفضيلة كما ينادى بها من داخلنا صوت هو كما يقول المتصوفة كلمة الله مستكنة فى قلب الإنسان(٨١) .

الفصل التاسع

التيار الشرقى الجارف

استعاد الدين فى القرن الثانى بعد الميلاد ما كان له من سلطان منذ أقدم العهود حين أقرت الفلسفة بعد أن غلبتها الأبدية والآمال البشرية بعجزها عن تحقيق تلك الأبدية وهذه الآمال ، فتخلت عما كان لها من سلطان . وكان الدين قبل أن يستعيد سلطانه هذا قد انزوى وأخذ يغذى جذوره ويترقب الفرص المواتية له . ولم يكن الناس أنفسهم قد فقدوا إيمانهم ، فقد قبلت كثرتهم الغالبة مجمل ما وصف به هومر الحياة الآخرة[٨٢] . وكانت تقرب القرابين فى خشوع قبل البدء برحلة من الرحلات ، وتضع أبلة فى فم الميت ليؤدى بها أجر عبوره نهر استيكس كما كانت تفعل فى الزمن القديم . وكانت سياسة الحكم الرومانية ترحب بالعون الذى تلقاه من الكهنة الرسميين وتسعى للحصول على تأييد الشعب بإقامة الهياكل الفخمة للآلهة المحلية ، وظلت ثروة الكهنة تزداد زيادة مطردة فى جميع أنحاء فلسطين ، وسوريا ، وآسية الصغرى ؛ وظل السوريون يعبدون هداد Hadad وأترجاتس Atargatis ، وكان لهذين الإلهين مزار رهيب فى هيرابوليس ؛ وبقيت مدن سوريا ترحب ببعث الإله تموز وتنادى قائلة « لقد قام أدنيس (الرب) » ، وتحتفل فى آخر مناظر عيده بارتفاعه إلى السماء[٨٣] . وكانت مواكب أخرى من هذا النوع تخلد آلام ديونيسس وموته وبعثه بطقوس يونانية . وانتشرت عبادة الإلهة ما Ma من كپدوكيا إلى أيونيا وإيطاليا ، وكان كهنتها (المسمون بالهيكليين fanatici أى المنتمين إلى الفانوم fanum أو الهيكل) يرقصون فى نشوة شديدة على أصوات الأبواق والطبول ، ويطعنون

أنفسهم بالمدى ، ويرشون دماءهم على الإلهة وعبادها الخاصين(٨٤) . ودأب الناس على خلق آلهة جدد ؛ فألّهوا قيصر ، والأباطرة ، وأنطنيوس ، وكثيراً من العظماء المحليين فى حياتهم وبعد مماتهم . وأخذت هذه الآلهة يمتزج بعضها ببعض بتأثير التجارة والحرب فيزداد عددها ويعظم شأنها فى كل مكان ، وتقام الصلوات بألف لغة لألف إله أملا فى النعيم والنجاة ؛ فلم تكن الوثنية والحالة هذه ديناً واحداً ، بل كانت جمة من العقائد المتشابكة ، المتناقضة ، المتنافسة ؛ وكثيراً ما كان يتدخل بعضها فى بعض وتختلط اختلاطاً متعمداً مختاراً .

وثبتت عبادة سيبيل فى ليديا وفريجيا ، وإيطاليا ، وأفريقية ، وغيرها من الأقاليم ، وظل كهنتها يُخْصُون أنفسهم كما فعل حبيبها أتيس ؛ فإذا أقبل عيدها الربيعى صام عبادها ، وصلوا ، وحزنوا لموت أتيس ؛ وجرح كهنتها سواعدهم ، وشربوا دماءهم ، وحمل الإله الشاب إلى قبره باحتفال مهيب . فإذا كان اليوم الثانى ضجت الشوارع بأصوات الفرح الصادرة من الأهلين المحتفلين ببعث أتيس وعودة الحياة إلى الأرض من جديد ، وعلا صوت الكهنة ينادى أولئك العباد : « قوّوا قلوبكم أيها العباد المتصوفون ، لقد نجا الإله ، وستكون النجاة حظكم جميعاً »(٨٥) . وفى آخر يوم من أيام الاحتفال تحمل صورة الأم العظمى فى موكب للنصر ، ويخترق حاملوها صفوف الجماهير تحييها وتناديها فى رومة باسم «أمّنا» (Nostra Domina)(٨٦) .

وكانت إيزيس الإلهة المصرية ، والأم الحزينة ، والمواسية المحبة ، وحاملة هبة الحياة الخالدة ، كانت هذه الإلهة تلقى من التكريم أكثر مما تلقاه سيبيل ؛ وكانت كل شعوب البحر الأبيض المتوسط تعرف كيف مات زوجها العظيم ، وكيف قام بعدئذ من بين الموتى ؛ وكان يحتفل بهذا البعث السعيد فى كل مدينة كبيرة قائمة على شواطئ هذا البحر التاريخى أروع احتفال وأفخمه ؛ وكان عباده المبتهجون يتنادون : « لقد وجدنا أوزريس من جديد »(٨٧) . وكانوا يرمزون

إلى إيزيس بصور وتماثيل تحمل بين ذراعيها حورس ابنها الإلهى ، ويسمونها فى الأوراد والأدعية « ملكة السماء » ، و « نجم البحر » ، و « أم الإله »(٨٨). وكانت هذه الطقوس أقرب العبادات الوثنية إلى المسيحية ، لما انطوت عليه قصة الإلهة من الحنو والرأفة ، وما اختصت به طقوسها من الرقة ، وما كان يسود هياكلها من جو مرح خال من العنف ، وما تشتمل عليه صلواتها المسائية من ألحان موسيقية مؤثرة ، وما يقوم به كهنتها الحليقو الرؤوس ذوو الثياب البيض من أعمال البر والخير(٨٩) ، وما كانت تتيحه هذه الإلهة لهؤلاء الكهنة من فرص لمواساة النساء وإدخال السرور على قلوبهن ، ولترحيبها الشامل بالناس جميعاً على اختلاف أممهم وطبقاتهم . وانتشر دين إيزيس من مصر إلى بلاد اليونان فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ثم انتشر إلى صقلية فى القرن الثالث ، وإلى إيطاليا فى القرن الثانى ، ثم انتشر بعدئذ فى جميع أجزاء الإمبراطورية . وقد عثر على صورها المقدسة على ضفاف نهرى الدانوب والسين ، وكشف عن آثار معبد لها فى لندن(٩٠) .

وقصارى القول أن شعوب البحر الأبيض المتوسط لم تنقطع قط عن عبادة ما للنساء من قوة مقدسة خلاقة ، وما يتصفن به من رعاية للأمومة .

وكانت عبادة مثراس Mithras الإله الذكر تنتقل فى هذه الأثناء من فارس إلى أقصى تخوم الإمبراطورية الرومانية ؛ وكان مثراس هذا فى المراحل المتأخرة من الدين الزرادشتى ابن أهورا – مزدا إله النور ، وكان هو أيضاً إلهاً للنور ، والحق ، والطهر ، والشرف ؛ وكان يقال أحياناً إنه هو الشمس ، وإنه يقود الحرب العالمية ضد قوى الظلمة ، وإنه يشفع على الدوام لأتباعه عند أبيه ، ويحميهم ، ويشجعهم فى كفاحهم الدائم للشر والكذب ، والدنس ، وغيرها من أعمال أهرمان أمير الظلام . ولما أن نقل جنود بمبى هذا الدين من

كپدوكيا إلى أوربا صور فنان يونانى مثراس راكعا على ظهر ثور يطعنه بخنجر فى عنقه ، وأضحت هذه الصورة هى الرمز الرسمى لذلك الدين ؛

وكان اليوم السابع من كل أسبوع يوما مقدسا لإله الشمس ، وكان أتباعه يحتفلون فى الأيام الأخيرة من ديسمبر بمولد مثراس « الشمس التى لاتغلب » والإله الذى نال نصره السنوى على قوى الظلمة فى يوم الانقلاب الشتائى ، والذى بدأ من ذلك اليوم يفيض على العالم ضياء يزداد يوما بعد يوم[٩١] . ويحدثنا ترتليان Tertullian عن كهنة مثراسيين على رأسهم « حبر أكبر » وعن عزاب وعذارى فى خدمة الإله » ؛ وكانت القرابين تقرب إليه على مذبحه فى كل يوم ، كما كان عباده يشتركون فى تناول طعام مقدس من الخبز والنبيذ ، وكانت الإشارة التى يختتم بها عيده هى دقات ناقوس[٩٢] . وكان يحتفظ على الدوام بنار متقدة أمام القبو الذى يمثل فيه الإله الشاب يطعن الثور بخنجره . وكان الدين المثراسى يحض على الخلق الكريم ، ويطلب إلى « جنوده » ألا ينقطعوا طول حياتهم عن محاربة الشر بجميع أنواعه . ويقول كهنته إن الناس كلهم سيحشرون لا محالة أمام مثراس ليحكم بينهم ، ثم تسلم الأرواح الدنسة إلى أهرمان لتعذب على يديه عذاباً أبدياً ، أما الأرواح الطاهرة فترتفع خلال طباق سبعة حتى تصل إلى بهاء السماء حيث يستقبلها أهورا — مزدا نفسه[٩٣] . وانتشرت هذه الأساطير التى تبعث فى نفس أصحابها الأمل والقوة فى القرنين الثانى والثالث من التاريخ الميلادى فى غربى آسية ، وانتقلت منه إلى أوربا (متخطية بلاد اليونان) ، وشادت معابدها متجهة نحو الشمال حتى وصلت إلى سورهدريان . وروّع الآباء المسيحيين ما وجدوه من أوجه الشبه بين دينهم وبين المثراسية ، وقالوا إن الثانية قد سرقت هذه العبادات عن المسيحية ، أو أنها فى المثراسية حيل مضللة احتال بها عليهم الشيطان (صورة من أهرمان) . وليس من

السهل أن نعرف أى الدينين أخذ عن الآخر ، ولعل الاثنين قد تسربت إليهما أفكار كانت وقتئذ منتشرة فى جو بلاد الشرق .

وكانت فى كلا الدينين العظيمين اللذين يسودان إقليم البحر الأبيض المتوسط « طقوس خفية » تتخذ عادة صورة احتفالات تطهير ، وتضحية ، وتثبيت ، ووحى ، تدور كلها حول موت الإله وبعثه . وكان الأعضاء الجدد يدخلون فى دين سيبيل بوضعهم عراة فى حفرة يذبح فوقها ثور ، فيسقط دم الحيوان الذبيح على الطالب الجديد ويطهره من خطاياه ويهبه حياة روحية جديدة خالدة إلى أبد الدهر . وكانت أعضاء التذكير فى الثور ، وهى التى تمثل الخصوبة المقدسة ، توضع فى إناء خاص ، وتهدى إلى الإلهة[٩٤] . وكان فى المثراسية طقس شبيه بهذا يعرفه العالم اليونانى والرومانى القديم باسم الثور بليوم taurobolium أو رمى الثور ويصف أبوليوس فى عبارات جزلة رائعة المراحل التى يمر خلالها خادم إيزيس — فترة الصوم المبدئية الطويلة ، والورع والتقشف ، والتطهير بالانغماس فى الماء المقدس ، ثم تظهر له فى آخر الأمر الرؤى الصوفية للألهة لتهبه النعيم الأبدى . ويلتزم الطالب فى إلوسس أن يعترف بخطاياه (وقد كان هذا مما أخاف نيرون وأفقده شجاعته) ، وأن يصوم بعض الوقت عن أنواع خاصة من الأطعمة ، ويستحم فى الخليج ليتطهر من الدنس الجسمى والروحى ، ثم يقرب القربان ، وهو فى العادة خنزير . وفى عيد دمتر كان الطلاب المبتدئون يندبون معها اختطاف ابنتها إلى الجحيم ، ويقتصرون فى أثناء حزنهم هذا على تناول الكعك المقدس ، وخليط رمزى من الدقيق والماء والنعناع . وفى الليلة الثالثة تعرض مسرحية دينية تمثل بعث پرسفونى ، ويعد الكاهن الذى يقوم بالخدمة الدينية كل من تطهرت روحه بأن يبعث كپرسفونى بعثاً جديداً[٩٥] . وقد صورت الطائفة الأرفية ، متأثرة بالآراء الهندوكية أو الفيثاغورية ، موضوع هذه الطقوس فى جميع الأراضى اليونانية ، فقالت إن الروح تحبس فى طائفة متسلسلة من الأجساد المذنبة ، وإن

فى مقدورها أن تنطلق من هذا التجسد الثانى المشين بأن تسمو حتى تتحد اتحاداً هياميا بديونيشس . وكان الإخوان الأرفيون فى اجتماعهم يشربون دم ثور يضحون به للمنقذ الميت الذى يكفر عن خطاياهم ويوحدون بينه وبين هذا المنقذ . وكان الاشتراك الجماعى فى تناول الطعام والشراب المقدسين من المظاهر الكثيرة الحدوث فى أديان البحر الأبيض المتوسط ، وكثيراً ما كان أهل هذه الأديان يعتقدون أن هذا الطعام ستحل فيه بهذا التقديس قوى الإله ، ثم تنتقل منه بطريقة سحرية خفية إلى المشتركين فى تناوله(٩٦)

وكانت الشيع الدينية كلها تؤمن بالسحر ، فقد نشر المجوس فنهم هذا فى أنحاء الشرق وسموا الشعوذة القديمة باسم جديد ؛ وكان عالم البحر الأبيض المتوسط غنيا بمن فيــه من السحرة ، وصانعى المعجزات ، والمتنبئين ، والمنجمين ، والزهاد القديسين ، ومفسرى الأحلام العلميين . وكانت كل حادثة غير عادية تتخذ نذيراً إلهيا بما سيقع من الحوادث فى المستقبل ، وأصبح لفظ أسكسيز Askesis ، الذى كان معناه عند اليونان تدريب الجسم تدريبا رياضيا ، يقصـــد به وقتئذ إخضاع الجسم لسلطان الروح ؛ فكان الناس يضربون أنفسهم بالسياط ، ويبترون أعضاءهم ، ويجيعون أنفسهم ، أويقيدون أجسامهم بالسلاسل فى مكان واحد ؛ ومنهم من كانوا يموتون نتيجة لهذا التعذيب أو الحرمان(٩٧) الذاتى . ولجأ جماعة من اليهود وغير اليهود رجالا ونساء إلى الصحراء المصرية القريبة من بحيرة مريوط . يعيشون فيها منفردين فى صوامع وبيع ، ويحرمون على أنفسهم جميع العلاقات الجنسية ، ويجتمعون فى يوم السبت للصـــلاة الجامعـــة ويسمون أنفسهم **معالجى النفوس** (Therapeutae)(٩٨) . وقال الملايين من الناس إن الكتابات المعزوة إلى أرفيوس ، وهرمس ، وفيثاغورس ، والعرافات ومن إليهم قد أملاها أو أوحى بها إله من الآلهة . وكان الوعاظ الذين يدعون أن الوحى قد هبط عليهم من السماء يجوبون الأقطار متنقلين من مدينة إلى مدينـــة ،

يعالجون الناس بما يبدو فى نظرهم أنه من المعجزات . من ذلك أن الإسكندر الأبونوتيكى Alexander of Abonoteictus قد درب أفعى على أن تخفى رأسها تحت ذراعه ، وتقبل أن يثبت فى ذيلها قناع شبيه بوجه الإنسان ، ثم أعلن أن الأفعى هى الإله أسكليبوس ، وأن هـذا الإله قد جاء إلى الأرض لينبئ الناس بما سوف يقع فى المستقبل ، وقد استطاع أن يجمع ثروة طائلة بتفسير الأصوات الحادثة من الأعشاب التى يضعها فى رأسها المستعار(٩٩).

وأكبر الظن أنه كان إلى جانب هؤلاء المشعوذين آلاف من المبشرين المخلصين المؤمنين بالعقائد الوثنية . وقد صور فيلوستراتس فى أوائل القرن الثالث صورة مثالية لأحد هؤلاء المبشرين فى كتابه حياة أبولونيوس التيانالى of Tyana ، فوصفه بأنه حين بلغ السادسة عشرة من عمره قيد نفسه بقيود الإخوان الفيثاغوريين الصارمة ، فحرم على نفسه الزواج ، وأكل اللحم ، وشرب الخمر ، ولم يحلق لحيته قط ، وامتنع عن الكلام خمس سـنين كاملة(١٠٠) ، ووزع المال الذى تركه له والده على أقاربه ، وأخذ يطوف ، كما يطوف الرهبان المعدمون ، فى فارس ومصر ، وغربى آسية ، وبلاد اليونان ، وإيطاليا ؛ وأتقن علوم المجوس ، والبراهمة ، والزهاد المصريين . وكان يزور هياكل الأديان على اختلافها ، ويدعو كهنتها إلى الامتناع عن التضحية بالحيوان ، ويعبد الشمس ؛ ويؤمن بجميع الآلهة ، ويعلم الناس أن من ورائها كلها إله واحد أعلى لا يحيط به العقل . وكانت حياة التقى وإنكار الذات التى فرضها على نفسه مما جعل أتباعه يدعون أنه ابن إله ، أما هو فلم يكن يصف نفسه بأكثر من أنه ابن أبلونيوس . وتعزو إليه الروايات المتواترة كثيراً من المعجزات : فقد كان الناس يقولون إنه يمر من خلال الأبواب المغلقة ، ويفهم جميع اللغات ، ويطرد الشياطين ، وإنه رفع بنتا من بين الأموات(١٠١) . لكنه كان فى واقع الأمر فيلسوفا أكثر منه ساحراً ،

يعرف الأدب اليونانى ويحبه ، ويدعو إلى مبادئ أخلاقية بسيطة ولكنها صارمة . وكان يتوسل إلى الآلهة بقوله : « علمنى ألا يكون لى إلا القليل وألا أرغب فى شىء » . ولما سأله أحد الملوك أن يختار لنفسه هدية يهديها إليه أجابه بقوله : « الفاكهة اليابسة والخبز(١٠٢) » . وكان يبشر بتجسد الروح بعد مفارقتها الجسد ، ولهذا أمر أتباعه ألا يؤذوا مخلوقا حيا ، وأن يمتنعوا عن أكل اللحم ؛ وحضهم على تجنب العداء ، واغتياب الناس ، والغيرة ، والكراهية ؛ ومن أقواله لهم : « إذا كنا فلاسفة ، فلن نستطيع أن نكره بنى جنسنا »(١٠٣) . ويقول فيلوستراتس إنه « كان فى بعض الأحيان يناقش المبادئ الشيوعية ويعلم الناس أن من واجبهم أن يعين بعضهم بعضاً »(١٠٤) . ولما اتهم بأنه يثير نقع الفتنة ، ويعلم الناس السحر ، جاء طائعا إلى رومة ليبرئ نفسه أمام دومتيان من هاتين التهمتين ، فسجن ، ولكنه فر من سجنه ومات حوالى سنة ٩٨ م . بعد أن عمر طويلا . وادعى أتباعه أنه ظهر لهم بعد موته وأنه رفع بعدئذ إلى السماء(١٠٥) .

ترى ما هى الصفات التى جعلت نصف رومة ونصف الإمبراطورية ينضويان تحت ألوية هذه الأديان الجديدة ؟ من هذه الصفات ما تنطوى عليه هذه الأديان من عدم التفرقة بين الأجناس والطبقات ؛ فقد كانت تقبل بين أتباعها خلائق من جميع الأمم ، وجميع الأحرار ، وجميع الأرقاء . ولا تلقى بالا إلى ما بين الناس من فروق فى الأنساب أو الثراء ، وكان هذا من أسباب السلوى لهؤلاء الأتباع . وقد بنيت هياكلها بحيث تتسع لكل من يؤمها من الخلائق العباد وللإله المعبود . وكانت سيبيل وإيزيس الإلهتين أمين ثاكلتين ذاقتا مرارة الحزن كما ذاقته ملايين الأمهات الثاكلات ، وكان فى مقدورهما أن تدركا ما لا تستطيع أن تدركه الآلهة الرومانية — ألا وهو فراغ قلوب المغلوبين . إن الرغبة فى العودة إلى أحضان الأم أقوى من غريزة الاعتماد على الأب ، واسم الأم هو الذى يخرج

من تلقاء نفسه إلى الشفتين إذا ما صادف الإنسان سرور عظيم أو حلت به كارثة أليمة . ومن أجل هذا كان الناس رجالهم ونساؤهم على السواء يجدون لهم سلوى وملجأ فى إيزيس وسيبيل ، بل إن العابد التقى فى بلاد البحر الأبيض المتوسط فى هذه الأيام يلجأ إلى مريم أكثر مما يلجأ إلى الأب أو الابن ، وإن الصلاة الحبيبة التى يرددها أكثر من سائر الصلوات هى الصلاة التى لا يوجهها إلى العذراء بل إلى الأم التى بورك فيها بمن ولدته من بطنها .

ولم تكن قوة الأديان الجديدة مقصورة على أنها أعمق أثراً فى قلوب الناس بل كان من أسباب قوتها فوق ذلك أنها أعظم أثراً فى خيال الناس وحواسهم لما فيها من مواكب ، وترانيم ، تنتقل من الحزن إلى السرور ، وما تحتويه من طقوس ذات رموز تنطبع فى الخيال وتبعث الشجاعة من جديد فى النفوس التى أثقلتها الحياة الرتيبة المملة . ولم تكن مناصب الكهانة الجديدة يملؤها ساسة يرتدون الثياب الكهنوتية من حين إلى حين بل كان يشغلها رجال ونساء من كافة الطبقات ، يتدرجون فيها من المبتدئ المتقشف الزاهد إلى الخادم الدينى الذى لا ينقطع عن مواساة الناس . وكان فى مقدور الروح التى تدرك ما ارتكبته من ذنوب أن تتطهر منها ؛ وكان يستطاع فى بعض الأحيان شفاء الجسم الذى أنهكته العلة ، بكلمة أو طقس موح ؛ وكانت المراسم السرية الخفية التى يمارسونها ترمز إلى ما يتردد فى صدور الناس من رجاء فى أن يتغلبوا على كل شىء حتى الموت نفسه .

لقد سما الناس فى وقت من الأوقات بما كانوا يتوقون له من عظمة وخلود ، فجعلوهما مرتبطين بمجد الأسرة والقبيلة والإبقاء عليهما ، ثم انتقلوا بهما إلى مجد الدولة التى كانت من صنعهم والتى هى نفوسهم مجتمعة . أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فكانت الحدود الفاصلة بين القبائل تذوب فى حركة السلم الجديدة ، ولم تكن الدولة الإمبراطورية تعبر إلا عن الطبقات العليا السائدة ، ولم تكن تمثل

جماهير الشعب التي لا حول لها ولا طول . وكان على رأس الدولة ملكية مطلقة تحول بين المواطن وبين اندماجه فيها واشتراكه في أعمالها ، وكانت تخلق بعملها هذا الفردية في أسفلها وتشيعها بين الدهماء من السكان . وكان ما في الأديان الشرقية وما في المسيحية . التي أخذت منها خلاصتها ثم امتصتها وقضت عليها ، من وعد بالخلود الشخصي ، وبالسعادة الدائمة بعد حياة المذلة ، والفاقة ، والمحن ، والكدح ، كان هذا كله إغراء لا تستطيع الدهماء مقاومته . ولاح أن العالم كله أخذ يأتمر ليمهد السبيل إلى المسيح .

الباب الخامس والعشرون

رومة واليهودية

١٣٢ ق . م — ١٣٥ م

الفصل الاول

پارثيا

بين بحر پنتس وجبال القوقاز تقوم جبال أرمينية ذات القلل الشمّاء التي رست عليها سفينة نوح ، كما تقول قصة الطوفان . وفى أوديتها الخفية كانت تمتد الطرق التي تصل پارثيا وأرض الجزيرة بالبحر الأسود ، ومن أجل هذا كانت الإمبراطوريات تتنافس على امتلاك أرمينية . وكان سكانها من الجنس الهندورپى يمتون بصلة القربى للحثيين والفريجيين ، ولكنهم ظلوا محتفظين بأنفهم الأناضولى . وكانوا فى الأيام الماضية شعباً قوياً صبوراً على أعمال الزراعة ، يحذق الصناعات اليدوية ، ولا يجاريه شعب آخر فى براعته التجارية ؛ استغلوا أرضهم الضنينة أحسن استغلال ، وأنتجوا من الثروة ما يكفى لأن يعيش ملوكهم معيشة الترف ، وإن لم يكسبهم الكثير من القوة والسلطان . وقد ذكر دارا الأول فى نقش بهستوم (٥٢١ ق . م) اسم أرمينية بين الولايات التابعة لبلاد الفرس ، وكانت فيما بعد تابعة تبعية اسمية لدولة السلوقيين ثم تداولتها أيدى پارثيا ورومة مراراً عدة ، ولكنها استطاعت لبعدها أن تحتفظ باستقلالها الفعلى . وكان أشهر ملوكها ترجرانس الأكبر Tirgranes (٩٤ - ٥٦ ق . م) الذى فتح كپدوكيا وأضاف إلى أرتكساتا Artaxata عاصمة ثانيــة هى ترجانوسترا Triganocetra ،

وانضم إلى متر داتس فى ثورته على رومة ؛ ولما أن قبل بمبي عذره ، أهدى إلى القائد المنتصر ٦٠٠٠ وزنة (٢١ر٦٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكى) ، و ١٠ر٠٠٠ درخمة (٦٠٠٠ ريال أمريكى) لكل قائد مائة ، وخمسين درخمة لكل جندى فى الجيش الرومانى . واعترفت أرمينية بسيادة رومة فى عهد قيصر وأغسطس ونيرون وأصبحت فى فترة من الزمان فى عهد تراجان ولاية رومانية . لكن ثقافتها كانت رغم هـذا ثقافة إيرانية ، وكانت ميولها فى العادة نحو پارثيا .

وكان الپارثيون قد ظلوا عدة قرون يحتلون الإقليم الواقع جنوب بحر الخزر بوصفهم رعايا الملوك الأكيمينيين ثم الملوك السلوقيين . وكان هؤلاء الپارثيون من العنصر السكوذى — التورانى أى أنهم من جنس الشعوب الضاربه فى الجنوب الشرقى من روسيا وفى بلاد التركستان . وفى عام ٢٤٨ ق . م خرج زعيم سكوذى يدعى أرساسيس على حكم السلوقيين ، يجعل پارثيا دولة مستقلة ذات سيادة ، وأنشأ فيها أسرة أرساسية مالكة . ولما ضعف الملوك السـلوقيون على أثر هزيمة رومة لأنتيخوس الثالث (١٨٩ ق . م) عجزوا عن حماية بلادهم من الپارثيين الهمج المتهورين ، فلم يكد يختتم القرن الثانى قبل الميلاد حتى كانت أرض الجزيرة وفارس بأكملها قد ضمت إلى الإمبراطورية الپارثية الجديدة . وكان للملوك الپارثيين الجدد ثلاث عواصم يقيمون فيها فى فصول السنة المختلفة : هكتومپيلس Hecatompylus فى پارثيا ، وإكبتانا (محل همذان) فى ميديا ، وطشقونة Ctesiphon على المجرى الأدنى لنهر دجلة . وعلى الضـفة الأخرى للنهر المقابلة لطشقونة كانت تقوم العاصمة السلوقية القديمة وهى مدينة سلوقيا التى ظلت عدة قرون مدينة يونانية فى مملكة پارثية . وقد احتفظ الحـكام الأرساسيون بالنظام الإدارى الذى أقامه السلوقيون ، لكنهم غشوه بنظام إقطاعى أخذوه عن الملوك الأكيمينيين . وكانت جمهرة الشـعب تتألف من أقنان الأرض والرقيق ؛ وكانت الصـناعة متأخرة وإن كان صاهرو الحديد الپارثيون قد استطاعوا أن يخرجوا منه نوعاً جيداً ،

وكانت « صناعة عصر الخمر تدر أرباحاً طائلة »[٢] ؛ وكان جزء من ثروة البلاد يأتي عن التجارة التي تنقل في الأنهار الكبرى ، وينقل بعضها في طرق القوافل التي تجتاز بارثيا في طريقها بين أقاصي آسية وبلاد الغرب . واشتبكت رومة مع بارثيا في حرب من سنة ٥٣ ق . م حين هزم البارثيون كراسس Crassus في كارى Carrhae إلى سنة ٢١٧ م حين ابتاع مكرينس Macrinus الصلح من أرتبانس Artabanus ، بغية السيطرة على هذه الطرق وعلى البحر الأحمر .

وكان البارثيون أغنى أو أفقر من أن يهتموا بالأدب ؛ فقد كان الأشراف ، يفضلون فن الحياة على حياة الفن كشأنهم في كل العصور ؛ وكان أقنان الأرض أميين لا يعرفون للأدب معنى ، وكان الصناع منهمكين في عملهم لا يجدون متسعاً من الوقت للاهتمام بالأدب ، وكان التجار مشغولين بتجارتهم عن إنتاج فن عظيم أو كتب قيمة . وكان الأهلون يتكلمون اللغة الفهلوية ، ويكتبون بالآرامية على الجلود ، وكانت الآرامية قد حلت وقتئذ محل الكتابة المسمارية ؛ ولم تبق لنا الأيام سطراً واحداً من الآداب البارثية ، لكننا نعلم أن المسرحيات اليونانية كانت تمثل في طشقونة كما كانت تمثل في سلوقيا ، وذلك لأن رأس كراسس قد ظهر في أحد أدوار الباخيين ليوربيديز . أما الصور والتماثيل التي كشفت في تدمر ، ودور — أوربس ، وأشور فكانت في أكبر الظن من صنع الفنانين الإيرانيين ؛ وكان امتزاج الطرازين اليوناني والشرقي ذلك الامتزاج الساذج ذا أثر في فن العصور التي تلت ذلك العصر في جميع بلاد آسية من الصين إلى القسطنطينية . وقد بقي لنا نقش واضح يمثل رامياً بالسهام على ظهر جواد ، ويوحي بأنه لو بقي لنا من فن البارثيين أكثر مما عثرنا عليه منه لكان تقديرنا لهـذا الفن أعلى من تقديرنا الحالي[٣] . وقد شاد أمـير إقطاعي عربي من أتباع ملك بارثيا قصراً من حجر الجير في حترا Hatra القريبة من الموصل (٨٨ ق . م ؟) يحتوي على سبعة أبهاء ذات عقود وقباب ، وشاده على طراز قوي ولكنه همجي . غير أن

أعمالا فنيه بارثية من طراز حسن قد بقيت لنا فى الأدوات الفضية وفى الحلى ؛

لكن البارثيين نبغوا فى الفن المحبب إلى بنى الإنسان — ونعنى به زينة الأجسام . لقد كان رجالهم ونساؤهم على السواء يعقصون شعورهم ، وكان الرجال يطيلون لحاهم المجعدة وشواربهم المتهدلة ، ويرتدى الواحد منهم قيصا وسروالا منتفخا يعلوهما فى العادة ثوب متعدد الألوان . أما النساء فكن يرتدين أثوابا مطرزة تطريزا دقيقا جميلا ، ويزين شعرهن بالأزهار ، وكان أحرار البارثيين يسلون أنفسهم بالصيد ، ويكثرون من الطعام والشراب ، ولا يمشون على أقدامهم إذا استطاعوا الركوب . وكانوا محاربين شجعانا ، وأعداء شرفاء ، يحسنون معاملة الأسرى ، ويقبلون الأجانب فى المناصب الكبرى ، ويحمون اللاجئين ، غير أنهم كانوا فى بعض الأحيان يبترون أعضاء المدنى من الأعداء ، ويعذبون الشهود ، ويعاقبون على الذنوب الصغيرة بضرب السياط . وكان من عادتهم تعدد الزوجات إذا أمكنتهم مواردهم من ذلك التعدد ، وكانت نساؤهم محجبات معزولات عن الرجال ، وكانوا يعاقبون نساءهم على الخيانة الزوجية بأقسى العقوبات ، ولكنهم يبيحون الطلاق للرجال والنساء على السواء لا يكادون يقيمون فى سبيله عقبة ما[3] . ولما أن زحف سرينا Surena القائد البارثى بجيشه على كراسس اصطحب معه مائتى حظية وألف بعير محملة بلوازمه[4] .

والصورة التى تنطبع فى أذهاننا عن البارثيين فى جملتهم هى أنهم كانوا أقل حضارة من الفرس الأكيمينيين ، وأشرف وأكرم أخلاقا من الرومان . فقد كانوا متسامحين مع من يخالفونهم فى الدين ، يجيزون لليونان ، واليهود ، والمسيحيين المقيمين بين ظهرانيهم أن يقيموا شعائر دينهم دون أن يتدخلوا فى شؤونهم . أما هم أنفسهم فقد انحرفوا بعض الانحراف عن الزرادشتية الصحيحة ، فكانوا يعبدون الشمس والقمر ، ويفضلون مثراس عن أهورا — مزدا فكانوا من هذه الناحية كثيرى الشبه بالمسيحيين

إذ يفضلون المسيح على يهوه . وقد كان لكهنة المجوس يد فى القضاء على الأسرة الأرساسية لأنهم لم يلقوا من ملوكها المتأخرين ما كانوا يتطلعون إليه من الرعاية .

ولما توفى ملكهم فلوجاسس الرابع (٢٠٩ م) تنازع ولداه فلوجاسس الخامس وأرتبانس الرابع على عرش المملكة . وانتصر أرتبانس فى هذا النزاع ثم هزم الرومان فى نزيب Nisibis . ودامت الحرب بين الإمبراطوريتين ثلاثة قرون ثم انتهت بانتصار البارثيين نصرا غير حاسم لأن سهول أرض الجزيرة كانت توائم خيالة البارثيين أكثر مما توائم فيالق الرومان . ثم تورط أرتبانس بعدئذ فى حرب داخلية لقى فيها حتفه وأعلن أردشير أو أرتخشتر الشريف الإقطاعى فى بلاد الفرس والذى غلبه على أمره ملك الملوك (٢٢٧ م) وأسس الأسرة الساسانية . وعاد الدين الزرادشتى إلى سابق عهده ، وبدأ فى بلاد الفرس عهد من أعظم العهود التى مرت بها فى تاريخها الطويل .

الفصل الثانى

الحسمونيون

انتهز سيمون مكابى فى عام ١٤٣ ق . م فرصة النزاع القائم بين البارثيين ، والسلوقيين ، والمصريين ، والرومان فانتزع استقلال بلاد اليهود من أيدى الملوك السلوقيين . واختارته جمعية وطنية قائداً وكاهنا أعلى للدولة اليهودية الثانية (١٤٢ ق . م — ٧٠ م) ، وجعلت ثانى المنصبين وراثيا فى أسرته الحسمونية ، وصارت بلاد اليهود مرة أخرى دولة دينية تحكمها هذه الأسرة أسرة الكهنة — الملوك ، ذلك أن من أخص خصائص المجتمعات السامية ارتباط السلطتين الروحية والزمنية فى الأسرة وفى الدولة لأنها تأبى أن يكون لها سيد إلا الله وحده ؛

وأدرك الحسمونيون ضعف مملكتهم الصغيرة فقضوا جيلين كاملين يوسعون حدودها بالدبلوماسية تارة وبالقوة تارة أخرى ، فلم يحل عام ٧٨ ق . م حتى كانوا قد ضموا إليهم السامرة ، وإدوم ، ومؤاب ، والجليل ، وإدوميا ، وما وراء نهر الأردن ، وجدارا ، وبلا ، وجراسا ، ورافيا (رفح) ، وغزة ، ووسعوا حدود فلسطين إلى ما كانت عليه فى عهد سليمان . وفرض خلفاء هؤلاء المكابيين البواسل الذين قاتلوا دفاعا عن حريتهم الدينية الدين اليهودى والختان على رعاياهم الجدد بحد السيف[٥] . وفقد الحسمونيون فى الوقت نفسه غيرتهم الدينية ، واستسلموا شيئاً فشيئاً لما كان فى العناصر التى ضموها إلى بلادهم من نزعة هلنستية رغم احتجاج الفريسيين(*) الشديد . غير أن الملكة شالوم اسكندرة

(*) شيعة يهودية تمتاز بتمسكها الشديد بالشرائع والأوامر الدينية ؛ وتطور معنى هذا اللفظ فى الزمن الحديث فصار يطلق على من يستمسك فى الدين بالشكل دون الجوهر أى المرائى .
(المترجم)

(٧٨ — ٦٩ ق . م) عكست هذا الاتجاه ، وعقدت الصلح مع الفريسيين ، لكن ولداها هركانس الثانى ، وأرستبولس الثانى أخذا يتنازعان العرش قبل موتها ، وعرضت الطائفتان أمرهما على بمبى ، وكان وقتئذ واقفا على رأس فيالقه المنتصرة فى دمشق (٦٣ ق . م) ، فلما انتصر بمبى لهركانس تحصن أرستبولس وجيشه فى بيت المقدس ، فحاصر بمبى تلك العاصمة ، واستولى على أجزائها السفلى ؛ ولكن أتباع أرستبولس احتموا بأفنية الهيكل المسورة ، وظلوا يقاومون بمبى ثلاثة أشهر . ويقول المؤرخون إن تقواهم أعانت بمبى على هزيمتهم ، فقد شاهد أنهم لا يحاربون فى يوم سبتهم ، فأمر رجاله بأن يعدوا فى كل سبت الربا والكباش الهدامة التى سيستخدمها فى اليوم التالى ، ولم يكونوا يلقون مقاومة من اليهود فى ذلك الاستعداد ، بل كان الكهنة يقضون يومهم فى الهيكل يبتهلون ويقربون القرابين كعادتهم كل الأوقات . فلما أن تهدمت الأسوار ذبح من اليهود اثنى عشر ألفاً ، ولم يقاوم منهم إلا عدد قليل ، ولم ينج منهم أحد ، وقفز الكثيرون من فوق الأسوار فلاقوا حتفهم[٦] . وأمر بمبى رجاله بألا يمسوا ما فى الهيكل من كنوز ، ولكنه فرض على الأمة اليهودية غرامة قدرها عشرة آلاف وزنة (٦٠٠٠٠٠٠ر٣ ريال أمريكى) ، ونقلت المدن التى كان الهسمونيون قد فتحوها من حكم اليهود إلى حكم الرومان ، ونصب هركانس الثانى حاخاما أعظم ، وحاكما بالاسم على بلاد اليهود ، ولكنه كان فى حراسة أنتپاتر الإيدومينى الذى أعان رومة فى هذه الحرب . وهكذا قضى على المملكة المستقلة وأصبحت بلاد اليهود جزءاً من ولاية سوريا الرومانية .

وبينا كان كراسس فى طريقه إلى طشقونة فى عام ٥٤ ق . م — وهى الحملة التى قطع فيها رأسه وجىء به ليمثل فى بلاط ملك الپارثيين دور پنثيوس فى مسرحية الباخيين — نهب ما أبقى عليه بمبى من كنوز الهيكل ، وكان يبلغ مقدارها عشرة آلاف وزنة . ولما أن جاء البشير بأن كراسس هزم وقتل

اغتنم اليهود هذه الفرصة ليستعيدوا حريتهم ، ولكن لنجينس الذى عين واليا على سوريا بعد كراسس أخمد الثورة وباع ثلاثين ألفاً من اليهود فى أسواق الرقيق (٤٣ ق . م)[٧] . ومات أنتباتر فى تلك السنة ، وزحف البارثيون على بلاد اليهود مخترقين الصحراء وعينوا أنتجونس آخر الحسمونيين ملكا على البلاد يأتمر بأمرهم ويخضع لمشيئتهم . وقابل أنطونيوس وأكتافيان هذا العمل بتعيين هيرود بن أنتباتر ملكا على بلاد اليهود وأعانوا جيشه اليهودى بالأموال الرومانية . فطرد هيرود البارثيين من البلاد وحمى أورشليم من السلب والنهب ، وأرسل أنتجونس إلى أنطونيوس ليعدمه ، وذبح جميع زعماء اليهود الذين عاونوا الملك الصورى ، وتهيأت له بذلك أسباب حكم يعد من أكثر العهود إشراقا فى التاريخ (٣٧ — ٤ ق . م) .

الفصل الثالث

هيرود الأكبر

كانت أخلاقه مثالا من أخلاق عصره الذى أنجب كثيراً من الرجال الذين كانوا أذكياء لا خلاق لهم ، قادرين لا ضمير لهم ، شجعاناً مجردين من الشرف . لقد كان صورة مصغرة من أغسطس فى بلاد اليهود : فعل فيها ما فعله أغسطس فى رومة فاستبدل بفوضى الحرية نظاماً دكتاتورياً ، وجمل عاصمته بالمبانى والتماثيل اليونانية الطراز ، ووسع رقعة مملكته ، ونشر فيها الرخاء ، وكسب بالختل والسياسية أكثر مما كسبه بقوة السلاح ، وتزوج كثيراً من النساء ، وقضت عليه خيانة أبنائه ، واستمتع بكل ما يتيحه له الحظ المواتى عدا السعادة . ويصفه يوسفوس بأنه رجل قوى البأس ، عظيم المهارة ، بارع رمى السهام والحراب ، صياد عظيم اقتنص فى يوم واحد أربعين وحشاً . وكان « محارباً لا يستطيع إنسان أن يقف فى وجهه »[٨] . وما من شك فى أنه أضاف إلى هذه الصفات شخصية جذابة ، فقد كان فى وسعه على الدوام أن يتغلب بقوة الحجة أو بكثرة الرشا على أعدائه الذين حاولوا أن يشوا به عند أنطونيوس أو كليوبطرة ، أو أكتافيان . وقد خرج من كل الأزمات التى حدثت بينه وبين الحكومة الثلاثية فى رومة وهو أقوى سلطاناً وأوسع ملكا مما كان ، وسرعان ما اقتنع أغسطس بأن له « روحاً أعظم من أن تسعها أملاكه الصغيرة » ، فأعاد إلى مملكته مدائن فلسطين المسمونية ، وتمنى لو أن هيرود قد حكم سوريا ومصر بالإضافة إلى أملاكه[٩] . ولقد كان « الإديومى Idumean » رجلا كريماً خلا قلبه من الرحمة ، أفاء على رعاياه من النعم ما لا يعادله إلا ما أصابهم به من الأذى .

ولقد كان من العوامل التى شكلت أخلاقه ، ما كان يضمره له الذين غلبهم

على أمرهم أو قتل أهلهم من بغض شديد ، وما يكنه له الشعب المتعض من طغيانه والمشمئز من أصله الأجنبي من عداء واحتقار : وقد ارتفع إلى العرش بمساعدة رومة وأموالها ، وبقى إلى آخر عمره صديقاً وخاضعاً للسلطة التي كان الشعب يأتمر بالليل وبالنهار ليخلع عنه نيرها ويسترد حريته منها . وقد أثقل عبء الضرائب التي فرضها على بلاده ذات الموارد الاقتصادية الضئيلة ليستمتع بها بلاطه المترف ويحقق بها منهاجه الضخم في البناء الذي لا تطيقه الثروة القومية . وما لبث هــذا العبء الثقيل أن قصم ظهرها واستنزف جميع مواردها . وحاول هيرود أن يهدئ ثائرة شعبه بمختلف الوسائل ، ولكن جهوده كلها لم تجده نفعاً . من ذلك أنه نزل عن المتأخر من الضرائب عن السنين الماضية ، وأقنع رومة بأن تخفض مقــدار الجزية المفروضة على بلاده ، وحصل لليهود على مزايا في البلاد الأجنبية ، وأنقذ البلاد إنقاذاً عاجلا من القحط وغيره من الكوارث ، وحافظ على الأمن والنظام في الداخل وسلامة البلاد من الأعداء في الخارج ، ونمى موارد البلاد الطبيعية . وفي عهده قضى على اللصوص وقطاع الطريق ، ونشطت التجارة ودب دبيب الحياة في الأسواق والثغور . لكن الملك في الوقت نفسه أثار غضب الشعب بفساد أخلاقه ، وقسوته العقاب ، وموت أرستبولس حفيد هركانس الثاني والوارث الشرعي لعرش البلاد غريقاً « مصادفة » في الحمام ؛ وأخذ الكهنة الذين قضى على سلطتهم ، والذين عين هو رؤساءهم ، يأتمرون به ، وحقد عليه الفرسيون لما بدا من أنه يعتزم صبغ بلاد اليهود بالصبغة اليونانية .

ذلك أن هيرود كان يحكم كثيراً من المدن التي كانت يونانية أكثر منها يهودية سكانها وثقافتها ؛ وقد تأثر بما تمتاز به الحضارة الهلنية من رقة وتنوع ؛ هذا إلى أنه لم يكن يهودياً في أصله أو مؤمناً بهذا الدين عن عقيدة ؛ وقد دعاه هذا كله بطبيعة الحال إلى العمل على توحيد ثقافة مملكته ، وخلع مظاهر الروعة والجلال على حكمه بتشجيع أساليب الحياة ، والملابس ، والأفكار

والآداب ، والفنون اليونانية . وقد أحاط نفسه بالعلماء اليونان ، وعهد إليهم الإشراف على الشئون العليا فى الدولة ، وعين نقولاس الدمشقى ، وهو رجل يونانى ، مستشاره ومؤرخه الرسمى . وقد أنشأ فى أورشليم داراً فخمة للتمثيل ومدرجاً وزينهما بتماثيل لأغسطس وغيره من الوثنيين ، وأنفق فى ذلك أموالا طائلة ، وأدخل فى بلاده الألعاب الرياضة والمباريات الموسيقية اليونانية ، وصراع المجتلدين الرومانى[١٠] ، وجمل أورشليم بمبان أخرى على طراز معمارى بدا للشعب أنه طراز أجنبى ، وأقام فى الأماكن العامة تماثيل يونانية أثارت دهشة اليهود وغضبهم بعريها كما أثار غضبهم عرى المصارعين فى الألعاب الرياضية . وقد شاد لنفسه قصراً أقامه بلا ريب على الطراز اليونانى وملأه بالذهب والرخام والأثاث الفخم الثمين ، وأحاطه بحدائق واسعة محتذياً فى ذلك حذو أصدقائه الرومان . وقد صدم مشاعر الشعب بقوله إن الهيكل الذى شاده زرب بابل منذ خمسة قرون كان ضيقاً ، وإنه يعتزم أن يهدمه ويقيم فى مكانه هيكلا أوسع منه . ولم يبال باحتجاج الأهلين ومخاوفهم ، وحقق رغبته بأن أقام المعبد الفخم الذى دمره تيتس فيما بعد .

وقد سوى على جبل موريا أرضاً تقرب مساحتها من سبعمائة وخمسين قدماً مربعة ، وأقام على أطرافها أروقة ذات سقف من خشب الأرز « ذات نقوش عجيبة » تعتمد على صفوف متعددة من العمد الكورنثية ، كل عمود من كتلة واحدة من الحجر تبلغ من الضخامة حداً يصعب معه على ثلاثة رجال أن يطوقوها بأذرعهم . وكان فى هذا البهو الرئيسى مظلات للصرافين ، الذين يبدلون نقود الأجانب بالنقود التى تقبل فى الهيكل . وكان فيها أيضاً المرابط التى يستطيع الإنسان أن يشترى منها ما يريد أن يقربه من الحيوانات ، والغرف أو الأروقة التى يجتمع فيها الطلاب لتعلم اللغة العبرية والشريعة ، والمتسولون الصخابون الذين لا مفر من وجودهم فى كل مكان . ومن هذا « الهيكل الخارجى » يصعد بمجموعة من الدرج إلى فضاء داخلى مسور يحرم على غير اليهود أن يدخلوه . وكان

فى هذا الفضاء « بهو النساء » الذى « يأوى إليه الطاهرون من الرجال مع نسائهم »(١١) . ومن هذا الحرم الثانى يصعد العابد على مجموعة أخرى من الدرج ويمر خلال أبواب مصفحة بالفضة والذهب إلى « بهو الكهنة » حيث يقوم فى الهواء الطلق المذبح الذى تقرب فيه المحرقات إلى يهوه . وتلى هذه درج أخرى يمر الصاعد فوقها خلال أبواب من البرنز يبلغ ارتفاعها خمسا وسبعين قدماً واتساعها أربعا وعشرين ، تعلوها كرمة ذهبية ذائعة الصيت ، وتؤدى إلى بناء الهيكل الرئيسى الذى لا تفتح أبوابه إلا للكهنة وحدهم . وقد شيد هذا البناء كله من الرخام الأبيض على هيئة طباق تتدرج فى الصغر كلما علت ، وصفحت واجهته بالذهب ، وقسم داخله قسمين يفصلهما ستار مزركش يمتد فى عرض فراغه ، فيه من الألوان الأزرق والأرجوانى والقرمزى . وأمام هذا الستار كانت الماثلة(*) الذهبية ذات الفروع السبعة ، ومذبح البخور والمائدة وعليها « خبز التقدمة » غير المختمر الذى يقدمه الكهنة ليهوه ومن خلف الستار قدس الأقداس . وكان الهيكل القديم يحتوى على مبخرة ذهبية وعلى تابوت العهد ، ولكن هذا التابوت لم يكن يحتوى على « شىء قط » كما يقول يوسفوس . ولم تكن قدم الإنسان تطأ هذا المكان إلا مرة واحدة فى العام وذلك فى يوم الكفارة حين يدخله الكاهن الأكبر وحده . وقد استغرق بناء الأجزاء الرئيسية من هذا الصرح التاريخى ثمانية أعوام ، أما أعمال نقشه وتزيينه فقد ظلت قائمة ثمانين عاماً ، ولم تتم إلا قبيل مجىء فيالق تيتس(١٢) .

وكان الناس يفخرون بهذا الهيكل العظيم الذى كان يعد من عجائب العالم فى عهد أغسطس ، وكادوا لعظمته وبهائه يتجاوزون عن وجود عمده الكورنثية القائمة عند أبوابه ، وعن النسر الذهبى الذى يتحدى عقيدة اليهود

(*) الماثلة منارة المسرجة وقد استعرناها الشمعدان (المترجم)

فى تحريم الصور المنحوتة ، والذى كان يرمز عند مدخل الهيكل لرومة عدوة اليهودية وسيدتها . وكان اليهود العائدون إلى مدائن فلسطين ينقلون أنباء العمائر اليونانية الخالصة التى كان هيرود يجدد بها تلك المدائن ، وكيف ينفق أموال الأمة والذهب (كما تقول الشائعات) الذى كان مخبوءا فى قبر دواد[١٣] فى إنشاء مرفأ عظيم عند قيصرية ، وفى إهدائه بسخاء للمدن الأجنبية أمثال دمشق ، وببلوس ، وبيروت ، وصور ، وصيدا ، وأنطاكية ، ورودس ، وبرجموم ، وأسپارطة ، وأثينة . واتضح لهم أن هيرود يريد أن يكون معبود العالم اليونانى لا ملك اليهود فحسب ، لكن اليهود كانوا يعيشون بدينهم ، وبإيمانهم بأن يهوه سينقذهم من الرق والظلم فى يوم من الأيام ؛ ومن أجل هذه كان انتصار الروح الهلنية على الروح العبرانية فى شخص حاكمهم نذيراً لهم بكارثة مدلهمة لا تقل عما حل بهم من الاضطهاد على يدى أنتيخس . ولذلك أخذوا يحيكون المؤامرات لقتل هيرود ، وكشف هو هذه المؤامرات وقبض على المشتركين فيها وعذبهم وقتلهم ، ولم يكتف بقتلهم وحدهم بل قتل أسرهم كلها فى بعض الأحيان[١٤] . وأطلق عيونه بين الشعب وتخفى ليتجسس بنفسه على رعاياه ، وكان يعاقبهم على كل كلمة تشتم منها رائحة العداء له[١٥] .

واستطاع أن يرد كيد أعدائه فى نحورهم عدا كيد أزواجه وأبنائه . وكان له من الأزواج عشر اجتمعت منهن تسع فى وقت واحد ، أما الأبناء فكان له منهم أربعون . وكانت مريمنى Mariamne زوجته الثانية حفيدة هركانس الثانى وأخت أرستبولس اللذين قتلهما هيرود . ويصفها يوسفوس بأنها امرأة عفيفة ، ولكنها فظة بعض الفظاظة بغريزتها ، تعامل زوجها بغطرسة وكبرياء لأنها رأته مغرماً بها غراماً يخضعه لها كأنه ملك يمينها . . . . وكانت فضلا عن فظاظتها تشهر بأمه وأخته علناً ، لأنهما من أصل حقير ، وتستطيل فى عرضهما إلى حد « امتلأت معه القلوب » فى بيت الملك « بغضاً وحقداً » . واستطاعت أخت

هيرود أن تقنعه بأن مريمنى تأتمر به لتدس له السم ، فوجه هذه التهمة لزوجته أمام أعضاء المحكمة ؛ فحكموا عليها بالإعدام ونفذ فيها الحكم . غير أن هيرود كان يرتاب فى جريمتها ، فجن جنونه من فرط الندم فترة من الزمان ، وأخذ يردد اسمها جهرة ، ويرسل خدمها ليستدعوها ، واعتزل المناصب العامة ، وآوى إلى الصحراء « يعذب فيها نفسه أشد العذاب » حتى جيء به إلى قصره محموماً شارد العقل . واشتركت أم مريمنى مع جماعة آخرين فى مؤامرة ترمى إلى خلعه ، ولكنه استرد قواه العقلية وعرشه فجاءة ، وأعدم المتآمرين . وبعد قليل من ذلك الوقت قدم له أنتپاتر ابنه من زوجته الأولى أدلة تثبت وجود مؤامرة دبرها ولداه من مريمنى ألكسندر وأرستبولس ، فعرض الأمر على مجلس مؤلف من مائة وخمسين رجلا حكموا على الشابين بالإعدام (٦ ق . م) . ولم يمض على ذلك عامان حتى اتهم نقولاس الدمشقى أنتپاتر نفسه بأنه يتآمر على انتزاع العرش من أبيه . وأمر هيرود بابنه فجيء به إليه . « وأخذ يبكى ويذكر ما لقيه من النكبات على يدى أبنائه »[١٦] وطاف بقلبه طائف الرحمة ساعة من الزمان أمر فيها بسجن ولده .

وكانت قوى الملك الشيخ فى هذه الأثناء تنهار بتأثير الحزن والمرض ؛ فقد أصيب بداء الإستسقاء ، والقروح ، والحمى ، والتشنج ، والنفس الكريه الرائحة . وحاول أن يقتل نفسه بعد أن أحبط ما أحبط من المؤامرات لاغتياله ، ولكنه منع من تنفيذ قصده . ولما سمع أن أنتپاتر يحاول إرشاء حراسه ليطلقوا سراحه أمر هيرود بقتله ، ولم تمض على ذلك إلا خمسة أيام حتى مات هيرود نفسه (٤ ق . م) فى التاسعة والستين من عمره مكروها من جميع شعبه . ويقول أعداؤه عنه إنه « تسلل إلى العرش تسلل الثعلب ، وحكم حكم النمر ، ومات ميتة الكلب » .

الفصل الرابع

الشريعة وأنبياؤها

أوصى هيرود قبل وفاته أن تقسم مملكته بين أبنائه الثلاثة الباقين أحياء . فحكم فليب الإقليم الشرقى المعروف باسم بنتانيا Bantanea ، الذى يحتوى على مدائن بيت سيده ، وكپتولياس ، وچراسا ، وفلدلفيا ، وبصرى . وحكم هيرود أنتپاس پيريا Peraea (الأرض الواقعة وراء نهر الأردن) ، والجليل فى الشمال حيث توجد أزدريلا ، وطبرية ، والناصرة . وكان نصيب أركلوس سمريتس ، وإيدوميا ، ويهوذا . وكان فى هذا القسم الأخير كثير من المدن والبلدان الشهيرة أمثال بيت لحم ، وحبرون ، وبير سبع ، وغزه ، وجدارا ، وإموس ، ويمنيا ، ويافا ،وقيصرية ، وأريحة ، وأورشليم . وكانت بعض المدن الفلسطينية تغلب عليها الصبغة اليونانية ، وبعضها تغلب عليه الصبغة السورية ، ويدل وجود الخنازير فى جدارا على وجود غير اليهود فيها . وكان الوثنيون هم الكثرة الغالبة فى المدن الساحلية ما عدا يافا ، ويمنيا فى « المدن العشر » القائمة على شاطئ نهر الأردن أما فى الداخل فيكاد السكان أن يكونوا كلهم من اليهود . وكان هذا الانقسام العنصرى ، غير المحبب إلى رومة ، مأساة فلسطين .

وإذا أردنا أن نفهم سبب اشمئزاز اليهود الصالحين من شرك المجتمع الوثنى وما كان يسوده من فساد خلقى فعلينا أن نرجع إلى زمن المتطهرين المتزمتين فى إنجلترا . لقد كان الدين عند اليهود مصدر شريعتهم ،و دولتهم ،وآمالهم،وكانوا يظنون أنهم إذا رضوا أن يذوب هذا الدين فى نهر الهلنية الجارف كان هذا بمثابة انتحار لقوميتهم ؛ ومن ثم نشأت تلك البغضاء بين اليهود وغير اليهود التى جعلت تلك الأمة الصغيرة تقضى حياتها كلها فى نزاع عنصرى واضطراب سياسى ،

وحروب متقطعة ، يخبو نارها كلها تارة ثم تعود فتلتهب من جديد . يضاف إلى هذا أن يهود يهوذا كانوا يحتقرون أهل الجليل ويصفونهم بالمروق من الدين ، بينما كان أهل الجليل يحتقرون أهل يهوذا ويصفونهم بأنهم أرقاء وقعوا فى شراك الشريعة . هـذا إلى ما كان هناك من نزاع لا ينقطع بين أهل يهوذا والسامريين لأن هؤلاء يدعون أن يهوه لم يختر صهيون موطناً له بل اختار موطنه تل جرزيم الواقع فى بلادهم ، وإلى رفضهم جميع أسفار الكتاب المقدس ما عدا أسفار موسى الخمسة[١٥] . وكان الذى يجمع بين هـذه الأحزاب كلها هو كراهيتها لسيطرة الرومان ، التى كانت تتقاضى من البلاد ثمناً باهظاً نظير ميزة السلم غير المحببة إليهم .

وكان يسكن فلسطين وقتئذ نحو مليونين ونصف مليون من الأنفس يقيم منهم فى أورشليم وحدها نحو مائة ألف[١٩] . وكان معظمهم يتكلمون اللغة الآرامية ، وكان كهنتهم وعلماؤهم يفهمون العبرية ، أما الموظفون والأجانب ومعظم المؤلفين فكانوا يستعملون اللغة اليونانية . وكان معظم السكان يشتغلون بالزراعة ، يحرثون الأرض ويسقون الزرع ، ويعنون بالحدائق والكروم ، ويرعون الضأن . وكانت فلسطين فى حياة المسيح تنتج من القمح ما يكفى أهلها وتبقى منه فضلة تصدر منها إلى الخارج[٢٠] . وكان بلحها ، وتينها ، وعنبها ، وزيتونها ، ونبيذها ، وزيتها غالية الثمن يبتاعها الناس من جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط ، وكان أهلها لا يزالون يعملون بالأمر القديم الذى يحتم عليهم أن يتركوا الأرض بوراً فى السنة السبتية(*) . وكانت الصناعات اليدوية وراثية فى أغلب الأحيان، وكان الصناع ينتظمون عادة فى طوائف . وكان اليهود يعظمون العامل وكان معظم العلماء يعملون بأيديهم كما يعملون بألسنتهم . وكان الأرقاء أقل عدداً منهم فى أى بلد آخر من بلاد البحر الأبيض المتوسط . وازدهرت التجارة الصغرى فى البلاد ، ولكن عدد التجار اليهود ذوى الثراء والتجارة الواسعة كان لا يزال قليلا فيها .

(*) أى السنة السابعة التى تترك فيها الأرض للراحة . (المترجم)

وفى ذلك يقول يوسفوس : « لسنا أمة تجارية ، فنحن نعيش فى بلد (بلاد اليهود الشرقية) عديم السواحل ، ولا نميــل إلى الاشتغال بالتجارة (الخارجية) »[٢٢] . وظلت الأعمال المالية ضيقة النطاق حتى ألغى هلل Hillel القانون الوارد فى سفر تثنية الاشتراع (الأصحاح الخامس عشر ١ — ١١) والذى يطلب فيه إلغاء الديون مرة كل سبع سنين ، وكان الهيكل نفسه مصرفهم القومى .

وكان فى داخل الهيكل بهو الجازيث ، ملتقى السنهدرين أو المجلس الأعظم المكون من كبراء إسرائيل . وأكبر الظن أن هذا المجلس قد نشأ فى أثناء حكم السلوقيين (حوالى عام ٢٠٠ ق . م) ليحل محل المجلس الأول الوارد ذكره فى سفر العدد (الآية السادسة عشرة من الأصحاح الحادى عشر) والذى يسدى فيه النصح لموسى . وكان الحاخام الأعظم هو الذى يختار فى بادئ الأمر أعضاء المجلس من بين طبقة الأشراف الكهنوت ، ثم أصبح من حقه فى عهد الرومان أن يختار أعضاؤه لعضويته عــدداً متزايداً من الفرسيين ، وعدداً قليلا من فقهاء الشريعة الموسوية المحترفين[٢٣] . وكان أعضاؤه البالغ عددهم واحداً وسبعين عضواً يدعون أنهم أصحاب السلطة العليا على جميع اليهود أيا كان موطنهم ، وكان اليهود المستمسكون بدينهم فى كل مكان على الأرض يعترفون لهم بهذه السلطة ؛ أما الهسمونيين ، وهيرود ، ورومة فلم يكونوا يعترفون لهم إلا بسلطانهم على من يخرج على الشريعة اليهودية من يهود بلادهم الأصلية ، فقد كان فى وسعهم أن يحكموا بالإعدام على من فيها من اليهود إذا ارتكبوا جريمة دينيه ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون تنفيذ الحكم إلا إذا وافقت عليه السلطة المدنية[٢٤] .

وكان فى الجمعية حزبان يتناعان السيطرة عليها ، كما يتنازعان السيطرة على معظم الجمعيات الأخرى ، أحدهما حزب المحافظين الذين يتزعمهم كبار الكهنة والصدوقيون(*) ، والذين سموا بهذا نسبة إلى صدوق مؤسس هــذه الطائفة

(*) شيعة من اليهود الأرستقراط المتشككة عاشت فى أيام العهد الجديد لا تعتقد بالبعث ولا بالدار الآخرة . (المترجم)

وكان أعضاؤه وطنيين فى مبادئهم السياسية ، مستمسكين بدينهم ، ينادون بفرض التوراة أو الشريعة المكتوبة على الأمة اليهودية ، ولكنهم كانوا يرفضون ما عدا هذا من العقائد أمثال الأحاديث والقصص الشفوية التى يتناقلها رجال الدين ، والتفاسير الطليقة التى يقول بها الفرسيون . وكانوا يرتابون فى خلود الروح ، ويقنعون بامتلاك طيبات هذا العالم .

وكان الصدوقيون هم الذين سموا الفرسيين بهذا الإسم (البروشيم أى الانفصاليين) . ويقصدون بهذه التسمية أنهم قد فصلوا أنفسهم (كما انفصل البرهمة الصالحون) عن الذين تدنسوا بإهمال ما تفرضه عليهم طقوس التطهير[٢٥] . وكانوا هم خلفاء الكسديم أو نساك العصر المكابى الذين كانوا ينادون بوجوب التزام قواعد الشريعة الموسوية إلى أبعد الحدود . وقد عرفهم يوسفوس ، وهو منهم ، بأنهم « شيعة من اليهود يجهرون بأنهم أكثر استمساكا بالدين من سائر أبناء ملتهم ، وبأنهم أدق من غيرهم فى تفسير شرائعهم »[٢٦] . ولكى يصلوا إلى ما يبغونه من هذا التفسير الدقيق أضافوا إلى أسفار موسى الخمسة المكتوبة الأحاديث والروايات الشفوية المشتملة على التفسيرات والأحكام التى وردت على ألسنة معلمى الشريعة المعترف بهم . ويرى الفرسيون أن هذه التفاسير ضرورية لإزالة ما فى قوانين موسى من غموض ، ولبيان طريقة تطبيقها على الحالات الفردية ، ولتعديل حرفيتها فى بعض الأحيان حسب ضرورات الحياة وظروفها الدائمة التغير .

وقد جمع هؤلاء الناس بين الصرامة واللين ، فكانوا يخففون من صرامة الشريعة فى بعض المواضع كما فعلوا فى أوامر هلل الخاصة بالربا ، ولكنهم كانوا يحتمون على الناس أن يتقيدوا بالروايات الشفوية كما يتقيدون بالتوراة المنزلة نفسها . ذلك أنهم كانوا يحسون بأن لا نجاة لليهود من انقراضهم وامتصاص الشعوب الأخرى لهم إلا بإطاعة هذه الأوامر المسطورة والمتواترة . وإذ كان

الفرسيون قد ارتضوا أن يخضعوا لسلطان الرومان فقد كانوا يطلبون السلوى فيما يأملونه من الخلود الجثمانى والروحى . وكانوا يحيون حياة بسيطة ، يبتعدون فيها عن الترف ويندِّدون به ، ويكثرون من الصوم ، ويعنون بالاغتسال ، ويتباهون من حين إلى حين باستمساكهم بالفضيلة مباهاة تضايق السامعين . ولكنهم كانوا يمثلون قوة اليهود الأخلاقية ، وقد نالوا تأييد الطبقات الوسطى وغرسوا فى نفوس أتباعهم إيماناً وأحكاماً أنقذتهم من الانحلال والتضعضع حين ألمت بهم المصائب : ولما أن خرب الهيكل (٧٠م) فقد الكهنة نفوذهم ، وأصبح الفرسيون عن طريق الأحبار هم المعلمين والرعاة لذلك الشعب الذى تشتت فى بقاع الأرض ولكنه لم تحق به الهزيمة .

وكانت أكثر شيع اليهود تطرفاً شيعة الإسينية التى أخذت تنواها عن الكسدية ، وأكبر الظن أن اسمها مشتق من اللفظ الكلدى اسشاى Aschai (المستحم) ، وأن أعضاءها أخذوا عقائدهم وعباداتهم من نظريات الزهاد ونظمهم التى كانت منتشرة فى العالم فى القرن الأول قبل المسيح : ولعلهم قد تأثروا أيضاً بآراء البراهمة ، والبوذيين ، والمجوس عبدة النار ، والفيثاغوريين ، والكلبيين ، وهى الآراء التى جاءت إلى أورشليم ملتقى الطرق التجارية فى غرب آسية . وكان عددهم فى فلسطين يبلغ أربعة آلاف ، وقد نظموا أنفسهم فى هيئة مستقلة عن غيرها ، وكانوا يستمسكون أشد الاستمساك بالشريعة المكتوبة وغير المكتوبة ويعيشون معاً عيشة العزاب الزاهدين ، يزرعون الأرض فى واحة إنجادى Engadi وسط الصحراء الواقعة غرب البحر الميت . وكانوا يسكنون منازل تمتلكها الجماعة التى ينتسبون إليها ، ويطعمون مجتمعين وهم صامتون ، وينتخبون زعماءهم بالاقتراع العام ، ويخلطون متاعهم ومكاسبهم فى بيت مال مشترك ، ويعملون بالشعار : « مالى ومالك ملك لك »[٢٧] :

ويقول يوسفوس إن حياة الكثيرين منهم كانت تطول أكثر من مائة عام ،

مفضل طعامهم البسيط ، وحياتهم المنتظمة[٢٨] . وكان الرجل يلبس ثياباً من نسيج التيل الأبيض ، ويحمل معه فأساً صغيرة ليغطى بها فضلاته ، ويغتسل بعدها كما يغتسل البراهمة ، ويرى أن التبرز فى يوم السبت من أعظم الكبائر[٢٩] .

وكانت قلة منهم تتزوج وتعيش فى المدن العامرة ولكنهم كانوا يسيرون على القاعدة التى وضعها تولستوى وهى أنهم لايضاجعون أزواجهم إلا بقصد إنجاب الأطفال . وكان أعضاء هذه الشيعة يبتعدون عن جميع الملذات الجسمية ، ويسعون إلى الاتصال الصوفى بالله عن طريق التأمل والصلاة . وكانوا يأملون أن ينالوا بتقوى الله وبصيامهم واستغراقهم فى التأمل والتفكير علم الغيب وقوة السحر . وكانوا كمعظم معاصريهم يؤمنون بالملائكة ، والشياطين ، ويعتقدون أن المرض ناشئ من تسلط الأرواح الخبيثة على الآدميين ، فكانوا لذلك يحاولون طرد هذه الأرواح بالتعاويذ السحرية . ومن « عقيدتهم السرية » جاءت بعض « أجزاء القبلة »(*) . وكانوا ينتظرون نزول المسيح لينشئ على الأرض مملكة شيوعية سماوية (ملسوس شمايم) يتمتع الناس كلهم فيها بالمساواة ، ولا يدخلها إلا من كانت حياته نقية طاهرة[٣١] . وكانوا شديدى التحمس فى الدعوة إلى السلام ، يأبون أن يصنعوا شيئا من أدوات الحرب ، غير أنهم انضموا إلى غيرهم من الشيع اليهودية فى الدفاع عن مدينتهم وهيكلها حين هاجمت فيالق تيتس بيت المقدس والهيكل ، وظلوا يقاتلون حتى لم يكد يبقى منهم أحد . وإذا ما قرأنا وصف يوسفوس لعاداتهم وآلامهم وجدنا أننا قد دخلنا جو المسيحية :

« ومع أنهم قد عُذّبوا ، وحُرّقوا ، وقُطّعت أجسامهم ، ولاقوا جميع ألوان العذاب لكى يرغموا على التجديف فى حق صاحب شريعتهم ، أو أكل ما نهوا عن أكله ، فإنهم أبوا أن يفعلوا هذا أو ذاك ، أو أن

(*) تعليم تصوفى عند اليهود .

يتملقوا معذبهم ، أو تنحدر من أعينهم دمعة واحدة ، بل إنهم كانوا يتبسمون وسط آلامهم المبرحة ، ويضحكون ساخرين ممن يعذبونهم ، ويجودون بأرواحهم وهم مبتهجون ، كأنهم يتوقعون أن تعود لهم هذه الأرواح مرة أخرى » (٣٢) .

أولئك هم الصدوقيون ، والفرسيون ، والإسينيون ، أشهر الشيع الدينية اليهودية فى الجيل السابق لميلاد المسيح . أما الحكمون (Scribes) الذين يضمهم يسوع إلى الفرسيين فى كثير من الأحيان فلم يكونوا شيعة من شيع اليهود بل كانوا أبناء مهنة خاصة ؛ كانوا علماء متفقهين فى الشريعة ، يحاضرون فيها فى البيع ، ويعلمونها فى المدارس ، ويناقشونها فى المجتمعات العامة والخاصة ، ويطبقونها على الأحكام فى القضايا المختلفة . وكان عدد قليل منهم أحباراً ، وبعضهم صدوقيين ، وكثرتهم فرسيين . وكانوا فى القرنين السابقين لهلل كما كان الأحبار من بعده . كانوا هم فقهاء القانون فى بلاد اليهود ، وقد صارت فتاواهم القانونية ، التى صقلها الزمان ، وتداولتها الألسن ، وانتقلت بالسماع من المعلم إلى التلميذ ، صارت هذه الفتاوى جزءاً من الأحاديث الشفوية التى كان يعظمها الفرسيون كما يعظمون الشريعة المكتوبة ، وبفضل ما كان لهم من نفوذ وسلطان نمت شرائع موسى حتى ضمت آلافا من التعاليم المفصلة التى تواجه كل ظروف الحياة وأحوالها .

وأقدم شخصية واضحة معروفة بين معلمى القانون من غير رجال الدين هى شخصية هلل ، وحتى هذه الشخصية الواضحة تكاد تخفى معالمها فى ذلك النسيج الواهى من الخرافات التى حاكها حول اسمه الخلف المفتتن به . ويقول مؤرخوه إنه وُلد فى مدينة بابل (٧٥ ق م) من أسرة كريمة معروفة أخنى عليها الدهر . ثم جاء إلى أورشليم بعد أن اكتملت رجولته ، وأخذ يعول زوجته وأبناءه بالعمل اليدوى . وكان يؤدى نصف أجره اليومى ثمناً لقبوله فى المدرسة التى كان فيها أستاذان شهيران هما شمايا وأبتوليم يشرحان الشريعة . وعجز يوما من الأيام

عن أداء هذا الأجر ، فلم يسمح له بالدخول ، فتسلق العتبة السفلى لإحدى النوافذ « لكى يستمع إلى ألفاظ الإله الحى » . وتقول القصة إن جسمه تجمد من شدة البرد ، فسقط فوق الثلج ، وعثر عليه فى صباح اليوم الثانى وهو بين الحياة والموت(٣٣) . وصار هو فيما بعد حبرا محترما ، اشتهر بتواضعه ، وجلده ، ودماثة أخلاقه . وتقول إحدى القصص إن بعض الناس راهن على أن يغضب هلل وإنه خسر الرهان(٣٤) . وقد وضع ثلاث قواعد ليهتدى بها الناس فى حياتهم : حب الناس ، وحب السلم ، وحب الشريعة ومعرفتها . وسأله رجل يريد أن يهتدى أن يفسر الشريعة فيما لا يزيد من الزمن على الوقت الذى يستطيع أن يقف فيه على قدم واحدة ، فأجابه بقوله : « لا تفعل مع غيرك ما تكرهه لنفسك » (٣٥)(*) . وكان هذا القول صورة سلبية حذرة من تلك القاعدة الذهبية التى صاغها اللاويون فى صيغتها الموجبة من زمن بعيد .

ومن تعاليم هلل الأخرى قوله : « لا تحكم على جارك حتى تكون أنت فى مكانه »(٣٧) . وقد حاول أن يهدئ ثائرة الشيع المتنازعة بوضعه سبع قواعد لتفسير الشريعة . وكانت تفسيراته هى نفسها قائمة على الحرية والتسامح ، وأهم ما فيها أنه يسر إقراض المال ، والحصول على الطلاق . وكان هو نفسه ناشراً للسلام لا مصلحاً .

وكان من نصائحه للشبان الثائرين فى عصره : « لا تخرجوا على الجماعة » . وقد قبل هيرود على أنه شر لا بد منه ، وعُيّن فى عهده رئيساً للسنهدرين (٣٠ ق . م) ، وأحبته الأغلبية الفرسية حباً أبقاه رئيسا للمجلس الكبير إلى

(*) ويضيف التلمود إلى إجابة هلل ، العبارة الآتية : هذه هى الشريعة كلها ، وكل ما عدا ذلك شرح وتعليق عليها »(٣٦) .

يوم وفاته (١٠ م) . ثم جعل هذا المنصب من بعده وراثياً فى أسرته مدى أربعمائة عام تعظيما لذكراه .

وخص المجلس مكان الشرف الثانى فيه لمنافس هلل ، وهو الحبر شماى المحافظ . وكان يفسر الشريعة تفسيراً أدق وأضيق من تفسير هلل ، ولا يجيز الطلاق ، ويطالب بتطبيق التوراة تطبيقاً حرفيا ، لا يراعى فيه تغير الظروف . وكان انقسام المعلمين اليهود إلى محافظين وأحرار قائما قبل هلل بمائة عام وظل قائما حتى خرب الهيكل .

الفصل الخامس

الأمل الأكبر

تكاد الآداب اليهودية التي وصلت إلينا من ذلك العصر تكون كلها آداباً دينية . ذلك أنه قد بدا لليهودي المتمسك بدينه أن من الخطأ أن يكتب في الفلسفة أو الأدب إلا إذا كان الغرض النهائي من هذه الكتابة أن يحمد الله ويمجد الشريعة ، كما كان يبدو له أن صنع التماثيل للإله إثم كبير وأن تزيين الهياكل بالفنون التشكيلية امتهان لها وانتهاك لحرمتها . ولا حاجة إلى القول بأن هناك بعض حالات استثنيت من هذا التحريم قد تكون قصة سوزانة الطريفة مثلا لها . وخلاصة هذه القصة أن كبيرين تنقصهما المعرفة التامة اتهما زوراً فتاة يهودية جميلة بسوء السيرة ، وأنها برئت بفضل براعة شاب يدعى دانيال في مناقشة الشهود ، وقد وجدت هذه القصة طريقها إلى بعض طبعات سفر دانيال .

وقد يكون سفر يشوع بن سيراخ الذي نسميه سفر الحكمة مما كتب في ذلك العهد المتأخر . وهو واحد من أسفار كثيرة تسمى الأپوكريفا — أي « الخفية » أو غير الموثوق بها والتي لا يعترف اليهود بها ضمن أسفار العهد القديم المنزلة . وهي ملأى بالجمال والحكمة ؛ ومن أجل هذا فهي غير جديرة بأن تطرد من صحبة سفر الشريعة وسفر أيوب . ونجد في أصحاحاتها الأربعة والعشرين ما نجده في الأصحاح الثامن من سفر الأمثال عن عقيدة الكلمة المجسدة : « الرب قناني أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم : منذ الأزل مسحت ، منذ البدء منذ أوائل الأرض » . وبين عامي ١٣٠ ق . م ، ٤٠ . م نشر يهودي إسكندري — أو عدد من اليهود المتأغرقين — سفر أمثال سليمان ، وهو سفر يحاول ، كما حاول فيلو ، أن يوفق بين اليهودية والأفلاطونية ، ويهيب باليهود الذين ينادون بالاندماج في الثقافة اليونانية

أن يعودوا إلى الشريعة ، كل هذا فى نثر لا يقل فى جزالته وقوّته عن أى نثر آخر منذ عهد إشعيا . وأقل من هذا السفر قوة وجزالة سفر مزامير سليمان (حوالى ٥٠ ق . م) ، ويكثر فيه التنبؤ بظهور منقذ لإسرائيل .

ويسرى هذا الأمل فى النجاة من رومة ومن العذاب الدنيوى على يد منقذ إلهى فى كل ما كتب فى هذا العصر من أدب يهودى إلا القليل النادر منه . واتخذ الكثير منه صورة رؤى تهدف إلى إيضاح الماضى والتسامح فيه بعرضه على صورة إعداد لمستقبل مجيد يظهره الله على لسان رسول من عنده . وكان كتاب دانيال الذى كتب فى عام ١٦٥ ق . م ليشجع إسرائيل على الوقوف فى وجه أنتيخس إبفانيس ، لا يزال ذائعا بين اليهود الذين لم يكونوا يعتقدون أن يهوه سيتركهم طويلا تحت سيطرة الوثنيين . واتخذ كتاب أخنوخ ، وهو فى أكبر الظن من عمل عدة مؤلفين عامى ١٧٠ ، ٦٦ ق . م صورة رؤى نزلت على الأب الأكبر الذى « سار مع الرب » فى سفر التكوين (الآية ٢٤ من الإصحاح الخامس) . ويقص هذا السفر سقوط الشيطان ومن معه ، وما أدى إليه ذلك من حلول الشر والألم فى حياة البشر ، ثم نجاة بنى الإنسان على يد مسيح ، وحلول مملكة السماء . وحوالى عام ١٥٠ ق . م شرع كاتب يهودى ينشر نبوءات سيبيلية صور فيها نبيات تنتصر لليهودية على الوثنية ، وتتنبأ بفوز اليهود النهائى على أعدائهم .

والراجح أن فكرة الإله المنقذ قد جاءت إلى غربى آسية من بلاد فارس أو بابل[٣٨]. فالتاريخ كله والحياة كلها قد صوّرا فى الديانة الزرادشتية فى صورة صراع بين قوى النور المقدسة وقوى الظلمة الشيطانية ، ثم يأتى فى آخر الأمر منقذ — شوشيانت أو مثراس — ليحكم بين الناس ويقيم حكم العدالة والسلام الدائمين . وكان يبدو للكثيرين من اليهود أن حكم رومة جزء من انتصار الشر القصير الأجل ، ولهذا كانوا يندّدون بما فى حضارة « الكفار » من شراهة ، وغدر ، ووحشية ، ووثنية ، وما فى العالم الأبيقورى من « كفر بالله » وعبادة

للشهوات . وقد جاء فى سفر الحكمة أن المنافقين قالوا فى أنفسهم مفتكرين افتكاراً غير مستقيم :

« إن عمرنا هو يسير ومحزن ، ووفاة الإنسان ليس لها شفاء ، ولم يعرف قط المحلول من الجحيم ، لأننا ولدنا من لاشىء ، وبعد هذه نكون كأننا لم نكن لأن النسمة دخان فى أنوفنا ، والنطق شرارة فى تحريك قلوبنا ، وإذا أطفئت يصير الجسم رماداً ، والروح ينسكب كالهواء المبثوث . واسمنا سينسى فى الزمان ، ولا يذكر أحد أعمالنا ، ويزول عمرنا كزوال أثر الغمام ، ويضمحل كالضباب الذى بدده شعاع الشمس وتثقله حرارتها ، لأن عمرنا ظل عابر وليس لأجلنا إبطاء لأنه أمر محتوم ولن يرده أحد . فهلم إذن نتمتع بالخيرات الموجودة ، ونستعمل الملذات فى البرية ما دام زمان الشبوبية ، فنمتلئ من الخمر الفائقة والطيوب ، ولا يفوتنا نسيم زهر الربيع . نتكلل بفقاح الورد قبــل ذبوله ، ولا يكون مرج إلا يجوز عليه تنعمنا »(٣٩) .

ويقول صاحب هذا السفر إن ثلاثة من الأبيقوريين يداون بحجج باطلة . وإنهم يربطون عوبتهم بنجم ساقط لأن اللذة شىء باطل زائل :

« لأن رجاء المنافق كغبار تحمله الرياح ، وكرغوة رقيقة تقدها الزوبعة ، وكدخان ينحل فى الرياح ، وكذكر ضيف مكث يوما واحداً وارتحل : أما الصديقون فيحيون إلى الدهر ، وعند الرب ثوابهم ، وعند العلى اهتمامهم . فلهذا يتقلدون مملكة البهاء وتاج الكمال من يد الرب »(٤٠) .

وسيقضى على عهد الشر والإثم — كما تقول أسفار الرؤيا — إما بتدخل الله نفسه ، أو بإرساله إلى الأرض ابنه أو ممثله المسيح(*) . أو لم ينبئ به النبى إشعيا

(*) وقد وردت كلمة مسيح (وهى بالعبرية محسيح) فى كثير من المواضع فى العهد القديم . وترجمها اليهود الذين كتبوا الترجمة اليونانية السبعينية للتوراة (حوالى ٢٨ ق . م) باللفظ اليونانى christos أى الذى صب عليه الزيت المقدس أو مسح به .

قبل ذلك العهد بمائة عام إذ يقول : « لأنه يولد لنا ولد ونعطى إبناً وتكون الرياسة على كتفه ، ويدعى اسمه عجيباً مشيراً ، إلهاً قديراً ، أباً أبديا ، رئيس السلام »(٤١) .

وكان كثيرون من اليهود يتفقون مع إشعيا (١١ : ١) فيما وصف به المسيح من أنه ملك دنيوى يولد من بيت داود الملكى ؛ ومنهم من يسمونه باسم ابن الإنسان كأخنوخ ودانيال ، ويصوّرونه بأنه سينزل من السماء . أما الفيلسوف صاحب سفر الأمثال والشاعر صاحب حكمة سليمان(٤٢) فلعلهما قد تأثرا بأفكار أفلاطون أو بروح الأرض التى يقول بها الرواقيون فتصوروه الحكمة مجسدة التى هى أول شىء « قناها الرب » ، وهى الكلمة أو العقل (logos) التى لن تلبث أن يكون لها شأن عظيم فى فلسفة أفلاطون . ويكاد مؤلفو سفر الرؤيا كلهم يجمعون على أن المسيح سينتصر انتصاراً سريعاً ، ولكن إشعيا تصوره فى فقرة من أروع فقراته بأنه : محتقر ومخذول من الناس ، رجل أوجاع ومختبر الحزن . . . لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها . . . وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا . . . وبجبره شفينا . . . والرب وضع عليه إثم جميعنا . . . من الضغطة ومن الدينونة أخذ وفى جيله من كان يظن أنه قطع من أرض الأحياء . . . وهو حمل خطيئة كثيرين وشفع فى المذنبين »(٤٣)

بيد أنهم جميعا متفقون على أن المسيح سيخضع الكفار آخر الأمر ، ويحرر إسرائيل(٤٤) ويتخذ أورشليم عاصمة له ، ويضم إليه الناس جميعا ليؤمنوا بيهوه والشريعة الموسوية(٤٥) . ويسود بعد ذلك « عصر طيب » تسعد به الدنيا بأجمعها فتكون الأرض كلها خصبة ، وتحمل كل حبة قدر ماكانت تحمله ألف مرّة ، ويصير الخمر موفوراً ، ويزول الفقر ، ويصبح الناس كلهم أصحاء ، مستمسكين بالفضيلة ، وتسود العدالة والصداقة والسلام فى الأرض(٤٦)

وكان بعض الناس يظنون أن هذا العهد الصالح ستتخلله عهود غير صالحة ؛

وأن قوى الظلمة والشر ستبذل جهدها الأخير للهجوم على هذه المملكة السعيدة ، وأن العالم سيحترق فى الفوضى واللهب ؛ وسيقوم الموتى فى « يوم الدينونة الأخير » ليحاسبوا أمام «قديم الأيام» (يهوه) أو أمام « ابن الإنسان » ، وسيكون له السلطان المطلق الأبدى على العالم بعد أن تجدد وصلح ، أى على مملكة الله ؛ وسيُلقى الأشرار وهم صامتون « فى الجحيم » ، أما الأخيار فسيُستقبلون فى دار النعيم الأبدى .

ولقد كانت الحركة الفكرية فى بلاد اليهود فى جوهرها مماثلة للحركة الفكرية الدينية الوثنية المعاصرة لها : شعب كان فيما مضى إذا فكر فى المستقبل يحصر تفكيره فيما سوف يؤول إليه مصيره القومى ، ثم فقد الآن ثقته بالدولة التى ينتمى إليها ، وأخذ يفكر فى النجاة الروحية الفردية . وكان الدين ذو الطقوس الخفية الغامضة قد بعث هذا الأمل فى صدور الآلاف المؤلفة من اليونان ، وفى بلاد الشرق الهلنستى وإيطاليا ؛ ولكن هذا الأمل أو الحاجة إليه لم يكونا فى بلد من البلاد أقوى مما كان فى بلاد اليهود . فلقد كان الفقراء أو المحرومون ، والمظلومون أو المحتقرون فى هذه الأرض يتطلعون إلى أن يرسل لهم الله من ينجيهم ويرفع عنهم نير الذل والعذاب . وتقول أسفار الرؤيا إن هذا المنقذ لن يطول غيابه وإنه حين ينتصر سيرتفع إلى الجنة كل العادلين ، حتى من كان منهم فى القبور ، ليتمتعوا فيها بالنعيم السرمدى . وكان القديسون الشيوخ ، أمثال شمعون ، وكانت النساء المتصوفات أمثال أنا ابنة فانيول يقضون حياتهم حول المعبد ، صائمين يترقبون ، ويصلون ، ويتضرعون لعلهم يرون هذا المنقذ قبل وفاتهم . وكان هذا الترقب يملأ قلوب الناس :

الفصل السادس

الثـــورة

ظل اليهود يكافحون قرونا طويلة ، ولما أن مات هيرودس الأعظم نبذ الوطنيون نصائح هلل السلمية وأعلنوا الثورة على خليفته أركلوس وعسكروا فى خيام حول المعبد : فقتل جنود أركلوس ثلاثة آلاف ، كان كثيرون منهم قد جاءوا إلى أورشليم ليحتفلوا بعيد الفصح (٤ ق . م) ، لكن الثوار عادوا إلى التجمع فى عيد العنصرة وتعرضوا فى هذه المرة إلى ما تعرضوا له من قبل من قتل ، وحرقت أروقة الدير ونهب الجنود ما فيه من الكنوز ، واستحوذ اليأس على الكثيرين من اليهود فقتلوا أنفسهم . ثم تألفت عصابات من الوطنيين فى الريف وهددوا حياة كل من يؤيد رومة ، ومن هذه العصابات واحدة تحت قيادة يوداس الجولونى استولت على صفورة عاصمة الجليل : وزحف فارس حاكم سوريا على فلسطين بعشرين ألفاً من رجاله ، وهدم مئات من بلدانها ، وصلب ألفين من الثوار ، وباع ثلاثين ألفاً من اليهود فى أسواق الرقيق . وذهب وفد من زعماء اليهود إلى رومة وطلب إلى أغسطس أن يلغى الملكية فى بلاد اليهود . فاستجاب أغسطس لطلبه وعزل أركلوس وجعل البلاد ولاية رومانية من الدرجة الثانية وعين عليها حاكما مسئولا أمام والى سوريا (٣٦) .

ونعمت هذه البلاد المضطربة بفترة صغيرة من السلام فى عهد تيبيريوس ، فلما جلس كلجيولا على العرش أراد أن يجعل عبادة الإمبراطور ديناً يوحد به أجزاء الإمبراطورية المختلفة فأمر أن تشمل كل العبادات قرباناً يقرب لصورته وأصدر تعليماته إلى الموظفين فى أورشليم أن يضعوا تمثاله فى الهيكل .

وكان اليهود فى عهد أغسطس وتيبيريوس قد خطوا نصف الطريق إلى

ترضية الأباطرة بأن كانوا يضحون ليهوه باسم الإمبراطور ، ولكنهم كانوا ينفرون أشد النفور من وضع تمثال منحوت لرجل وثني في هيكلهم . وبلغ هذا النفور درجة دفعت آلافاً منهم — على حد قول الرواية المأثورة — إلى أن يذهبوا إلى حاكم سوريا ويطلبوا إليه أن يذبحهم وإن لم يرتكبوا ذنباً قبل أن ينفذ هذا المرسوم[٤٩] . وحلّ كلجيولا هذا المشكل بموته . وأقنع أجريا حفيد هيرودس الإمبراطور كلوديوس فعينه ملكاً على فلسطين كلها تقريباً (٤١) ، فلما مات أجريا انطلقت الفتنة مرة أخرى من عقالها ، وأعاد كلوديوس البلاد إلى ما كانت عليه في عهد أغسطس وعين عليها حاكماً من قِبَل رومة (٤٤) .

وكان معظم الرجال الذين اختارهم معاتيقه ليشغلوا هذا المنصب عاجزين أو سفلة . ومن هؤلاء فليكس الذي عينه أخوه پلاس Pallas والذي « حكم بلاد اليهود » — كما يقول تاستس — « بقوة الملك وروح الرقيق »[٥٠] . وكان فستس Festus أعدل من فليكس ، ولكنه توفي في أثناء هذه المحاولة . وجد ألبينس Albinus — إذ جاز لنا أن نصدق يوسفوس — في النهب وفرض الضرائب ، وجمع ثروة طائلة بإطلاق المجرمين من السجون نظير أجر يتقاضاه منهم حتى « لم يبق أحد في السجن إلا من لم يتقاض منه شيئاً »[٥١] . وسلك فلورس Florus — كما يقول هذا الكاتب صديق الرومان المعجب بهم — مسلك « الجلاد لا مسلك الحاكم » فنهب مدناً بأكملها ، ولم يكتف بأن يسرق هو نفسه ، بل تغاضى عن سرقات غيره إذا نال سهماً من الغنيمة . بيد أن هذه الأقوال يشتم منها رائحة العداوة الحزبية ؛ وما من شك في أن الحكام هم الآخرون كانوا يشكون من أن اليهود شعب مشاكس ليس من السهل إخضاعه .

وتألفت عصابات من « المتحمسين » و « الفدائيين » ليحتجوا على هذا الفساد . وأقسم أعضاؤها أن يغتالوا كل يهودي خائن ، فكانوا يندسون وسط الجماعات في الشوارع ويطعنون ضحاياهم من خلفهم ، ثم يختفون

بين الجماهير في الفوضى التي تعقب عملهم هذا[٥٢] . ولما أن اغتصب فلورس سبع عشرة وزنة (٢٠٠٠ ر ٦١ ريال أمريكى) من كنوز الهيكل ، اجتمع أمامه جمهور غاضب يطلبون عزله ، وأخذ جماعة من الشبان يطوفون بالمدينة وبأيديهم سلات يطلبون الصدقات له لأنه يعانى مرارة الفقر . لكن فيالق فلورس بددت شمل المجتمعين ، ونهبت مئات من البيوت ، وذبحت ساكنيها ، وقبض على زعماء الفتنة ، وجلدوا وصلبوا . ويقول يوسفوس إن ٣٦٠٠ يهودى قتلوا فى ذلك اليوم[٥٣] . وأخذ شيوخ العبرانيين وأثرياؤهم يدعون الناس إلى الصبر ، وحجتهم فى هذا أن الثورة على هذه الإمبراطورية القوية ليست إلا انتحاراً قومياً ؛ أما الشبان والفقراء فكانوا يتهمون هؤلاء بخور العزيمة ومحاباة الظالمين .

• وانقسمت المدينة ، وانقسمت كل أسرة تقريباً بين هذين الحزبين ، فاستولى أحدهما على الجزء الأعلى من أورشليم ، واستولى الآخر على جزئها الأدنى ، وأخذ كلاهما يهاجم الآخر بكل ما يصل إلى يده من سلاح . ووصل الأمر فى عام ٦٨ إلى نشوب معركة دامية بين الحزبين انتصر فيها المتطرفون وقتلوا ١٢٠٠٠ يهودى من بينهم الأغنياء كلهم تقريباً[٥٤] . وهكذا استحالت الفتنة ثورة . وأحاطت قوة من العصاة بالحامية الرومانية المعسكرة فى مسادا Massada ، وأقنعتها بأن تلقى سلاحها ، ثم قتلت رجالها عن آخرهم . وفى ذلك اليوم نفسه حدثت فى قيصرية عاصمة فلسطين مذبحة هائلة ذبح فيها غير اليهود من السكان عشرين ألفاً من اليهود ، وبيع آلاف غيرهم بيع الرقيق . وذبح غير اليهود من سكان دمشق عشرة آلاف يهودى فى يوم واحد[٥٥] . وقام اليهود المختفون بتدمير عدد كبير من المدن اليونانية فى فلسطين وسوريا ، وأحرقوا بعضها عن آخرها وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها كما قتل منهم هم أيضاً كثيرون ؛ ويقول يوسفوس فى هذا : « وكان من المناظر المألوفة فى ذلك الوقت أن نرى المدن مملوءة بجثث الموتى . . . ملقاة فيها دون أن تدفن ، وأن نشاهد جثث الشيوخ إلى جانب

جثث الأطفال وبينها جثث النساء عارية من كل غطاء[٥٦] » . وقبل أن يحل شهر سبتمبر عام ٦٦ كان الثوار قد إستولوا على أورشليم وعلى فلسطين كلها تقريباً ، وخذل حزب السلم وفقد أنصاره ، وانضم معظم أعضائه إلى الثوار .

وكان من بين هؤلاء كاهن يدعى يوسفوس ، وكان وقتئذ شابا في الثلاثين من عمره ، نشيطا ، نابها ، وهب من الذكاء ما يستطيع به أن يحيل كل شهوة من شهواته فضيلة . وكلفه الثوار بتحصين الجليل ، فدافع عن حصنها جوتوپاتا ضد قوات ڤسپازيان المحاصرة لها ، حتى لم يبق من حاميتها اليهودية على قيـــد الحياة غير أربعين جنديا اختبئوا معه فى كهف من الكهوف . وأراد يوسفوس أن يسلم لجنود ڤسپازيان ، ولكن رجاله أنذروه بالقتل إن حاول التسليم . وإذ كانوا يفضلون الموت على الأسر ، فقد أقنعهم بأن يحددوا بطريق القرعة الترتيب الذى يقتل به كل منهم على يد من يليه ؛ ولما ماتوا جميعاً ولم يبق إلا هو وواحد منهم أقنعه بأن ينضم إليه فى الاستسلام للعدو . وقبيل أن يرسلا إلى رومة مكبلين بالأغلال تنبأ يوسفوس أن ڤسپازيان سيصبح إمبراطورا ، فأطلقه ڤسپازيان من الأسر ، وقربه إليه شيئاً فشيئاً وجعله ناصحا أمينا له فى حربه ضد اليهود . ولما سافر ڤسپازيان إلى الإسكندرية صحب يوسفوس تيتس فى حصار أورشليم .

وكان اقتراب الفيالق الرومانية إيذانا بضم صفوف اليهود وتأليفهم وحدة حانقة متعصبة وإن جاء ذلك بعد فوات الأوان . ويقول تاستس إن ٦٠٫٠٠٠ من الثوار تجمعوا فى المدينة ؛ وإن « كل من يستطيع الانخراط فى سلك الجندية قد تسلح ونزل إلى الميدان » ، وإن الروح العسكرية فى النساء لم تكن أقل منها فى الرجال[٥٧] . ونادى يوسفوس من بين صفوف الرومان أهل المدينة المحاصرين إلى الاستسلام ، ولكنهم اتهموه بالخيانة ، وحاربوا إلى آخر رجل

فيهم . وحاول اليهود بعد أن نفدت مؤونتهم اختراق الصفوف للحصول على الطعام . فأسر الرومان آلافا منهم وصلبوهم ، ويقول يوسفوس إن « هؤلاء بلغوا من الكثرة حدا لم تتسع معه الأرض لإقامة الصلبان ، ولم يوجد من الصلبان ما يكفي لأجسامهم » . وازدحمت شوارع المدينة بجثث الموتى في المراحل الأخيرة من الحصار الذي دام خمسة أشهر . وكانت جماعات من النهابين تطوف بالموتى وتقطع أجسامهم وتنهب مالهم ، ويقال إن ١١٦٫٠٠٠ جثة ألقيت من فوق أسوار المدينة وإن بعض اليهود بلعوا قطعا من الذهب وخرجوا خلسة من أورشليم ، وإن الرومان أو السوريين الذين قبضوا عليهم شقوا بطونهم أو بحثوا في برازهم ليحصلوا على ما ابتلعوه من الذهب[٥٨]. ولما استولى تيتس على نصف المدينة عرض على الثوار شروطا ظنها لينة ، فلما رفضوها أضرمت فرق الحراقين الرومان النار في الهيكل فلم يلبث هذا الصرح العظيم ، وكان معظمه مشيداً من الخشب ، أن احترق بأكمله . وقاتل الباقون من المدافعين عن المدينة قتال الأبطال ، فخورين كما يقول ديو بموتهم في حرمه[٥٩] . فنهم من قتل بعضهم بعضاً ، ومنهم من ألقوا بأنفسهم على سيوفهم ، ومنهم من قفزوا في اللهب . ولم يرحم المنتصرون أحداً ، بل قتلوا كل من استطاعوا أن يقبضوا عليه من اليهود . وقد قبض على ٩٧٫٠٠٠ وبيعوا في أسواق الرقيق ، ومات كثيرون منهم في المجتلدات بعد أن سيقوا مرغمين إلى الألعاب التي أقيمت ضمن احتفالات النصر في بيروت ، وقيصرية ، وفلپاي ، ورومة . ويقدر يوسفوس عدد من هلك من اليهود في هذا الحصار وما أعقبه من حوادث بمليون ومائة وسبعة وتسعين ألفاً . أما تاستس فيقدرهم بستمائة ألف (٧٠ م[٦٠]) .

ودامت المقاومة في أماكن متفرقة حتى عام ٧٣ ، ولكن تدمير الهيكل كان في واقع الأمر نهاية الفتنة ونهاية الدولة اليهودية . وصودرت أملاك الذين اشتركوا فيها وبيعت ، وكادت الدولة اليهودية أن تخلو من اليهود .

وعاش من بقى منهم فيها عيش الكفاف . وكان أفقر فقرائهم برغم على أن يؤدى للهيكل الوثنى فى رومة نصف الشاقل الذى كان العبرانيون الصالحون يؤدونه فى كل عام لصيانة هيكل أورشليم . وألغيت مناصب كبار الكهنة والسنهدرين : واتخذت اليهودية الصورة التى احتفظت بها إلى أيامنا هذه : صورة دين بلا معبد مركزى ، ولا كهنوت مسيطرين عليه ، ولا قرابين . واختفت طائفة الصدوقيين ، وأصبح الفرسيون والأحبار زعماء شعب لا وطن له ، لم يبق له إلا معابده .

الفصل السابع

التشتيت

لقد كانت هجرة مليون من اليهود أو تشريدهم مما عجل انتشارهم فى جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط . ومن أجل هذا أرخ علماؤهم تشتيتهم من الوقت الذى دمر فيه هيرودس الهيكل . ولقد رأينا أن هذا التشتيت بدأ بالسبي أو الأسر البابلي قبل ذلك الوقت بستة قرون وأنه تجدد باستيطانهم فى الإسكندرية . وإذ كانت كثرة التناسل مما يحتمه الدين اليهودى والشريعة اليهودية على الصالحين المتقين ، وإذ كان وأد الأطفال محرما عليهم. فإن انتشار اليهود كانت له أسباب من علم الأحياء نفسه فضـــلا عن الأسباب الاقتصادية ؛ وكان لا يزال لليهود بعض الشأن القليل فى تجارة العالم . وقد قال عنهم استرابون قبل سقوط أورشليم بخمسين عاماً قولا لا يخلو من المغالاة التى أملتها عليه نزعته المعادية للسامية : « يصعب على الإنسان أن يجد فى العالم المعمور كله مكاناً واحداً خالياً من هـــذا الجنس من الناس ، أو غير مملوك له »[٦١] . ووصف فيلو قبل التشتيت بعشرين عاماً « القارات . . . الملأى بالمحلات اليهودية ومثلها ... الجزائر وبلاد بابل كلها تقريباً »[٦٢] . وما وافى عام ٧٠ من بعد الميلاد حتى كان آلاف من اليهود فى سلوقية على نهر دجلة وفى غيرها من مدائن بارثيا . وكانوا كثيرى العدد فى بلاد العرب ، ومنها عبروا البحر إلى بلاد الحبشة ، وكانوا فى سوريا وفينيقية وكانت لهم جالية كبيرة فى طرسوس ، وأنطاكية ، وميليتس ، وإفسوس ، وسرديس ، وأزمير . وكانوا أقل من ذلك بعض الشيء فى ديلوس ، وكورنثة ، وأثينة وفلپاى وبيريه ، وسلانيك . أما فى غرب البحر الأبيض فكانت هناك جماعات من اليهود فى قرطاجنة ، وسرقوسة ، ونيتيولى ، وكپوا ، وپمپى ، وروما ، وحتى

فنوزيا موطن هوراس نفسها لم تكن تخلو من اليهود . وفى وسعنا أن نقدر عدد اليهود فى الإمبراطورية الرومانية إجمالا بنحو سبعة ملايين أى نحو ٧٪ من سكانها وضعفى نسبتهم إلى سكان الولايات المتحدة الأمريكية فى هذه الأيام(٦٣) .

وقد أثاروا بكثرة عددهم ، ولباسهم ، وطعامهم ، وختانهم ، وفقرهم ، وطمعهم ، ورخائهم ، وعزلتهم ، وذكائهم ، ونفورهم من الصور وتشددهم فى مراعاة السبت رغم ما يسببه ذلك من العنت لهم ، أثاروا بهذا كله حركة عداء للسامية تختلف من المزاح فى الملاهى ، والسخرية بهم فى أقوال چوڤنال وتاستس ، إلى ذبحهم فرادى فى الشوارع ، وقتلهم زرافات فى المذابح المدبرة . وقد نصب أپيون الإسكندرى نفسه مدافعاً عن هذه الهجمات ، ورد عليه يوسفوس برسالة صارمة شديدة اللهجة(*) .

وسافر يوسفوس مع تيتس إلى رومة بعد سقوط أورشليم ، وصحب قاهر بنى جنسه فى موكب نصر عرض فيه أسرى اليهود والمغانم اليهودية . ومنحه ڤسپازيان حق المواطنية الرومانية ، ووظف له معاشا وخصص له مسكنا فى قصره وأقطعه أرضا خصبة فى بلاد اليهود(٦٤) . وتسمى يوسفوس نظير هذا باسم أسرة ڤسپازيان ، وهو فلاڤيوس ، وكتب تاريخ حرب اليهود (حوالى عام ٧٥) ، ليدافع عن أعمال تيتس فى فلسطين ، ويبرر انشقاقه على بنى جنسه ، ويثبط عزائم اليهود إذا ما فكروا فى الخروج على رومة مرة أخرى بإظهاره قوتها وبأسها . واشتد إحساسه بعزلته فى شيخوخته فألف كتاباً فى قدم اليهود أراد به أن يستعيد عطف بنى جنسه بأن يصور لغير اليهود ما قام به هذا الشعب من جلائل الأعمال ، ويصف عاداتهم وأخلاقهم . وقصصه فى هذا الكتاب واضح قوى ،

(*) وقد ابتهج يوسفوس حين علم أن قرحة قد اضطرت أپيون إلى الاختتان .

ووصفه لهيرودس الأكبر لا يقل إمتاعاً عن وصف أفلوطرخس ، ولكن تحيزه والغرض الذى يكتب من أجله يفسدان موضوعية الكتاب . وقد تطلب قدم اليهود عدة سنين وأنهك قوى المؤلف ، فلم يستطع أن يتمه ، وكتب أمناء سره الكتب الأربعة الأخيرة من العشرين كتاباً التى يتألف منها هذا المجلد الضخم مستعينين على كتابتها بمذكراته(٦٦) . ولم يكن يوسفوس قد جاوز الخامسة والستين من عمره حين نشر الكتاب ، ولكنه كان قد ضعفت قواه متأثرة بحياة المغامرات ، والجدل ، والعزلة الأخلاقية .

واستطاع اليهود أن يعيدوا بالتدريج بناء حياتهم الاقتصادية والثقافية فى فلسطين . وبينا كان الحصار مضروباً على أورشليم فر من المدينة تلميذ شيخ من تلاميذ هلل يدعى يوهنان بن زكاى لأنه خشى أن يبيد المعلمون كلهم فى المذبحة فلا يبقى من ينقذ الأحاديث الشفوية . ولما خرج من المدينة أقام مجمعا علميا فى كرم عند يبنى أو يمنيا قرب شاطئ البحر الأبيض المتوسط . ولما سقطت أورشليم نظم يوهنان سنهدريناً جديداً فى يمنيا ، ولم يؤلفه من الكهنة ، والسياسيين ، والأثرياء بل ألفه من الفرسيين والأحبار أى معلمى الشريعة . ولم يكن لهذا المجلس المعروف باسم بيت الدين أية سلطة سياسية ، ولكن معظم يهود فلسطين كانوا يعترفون بسلطانه فى جميع الشئون المتعلقة بالدين والأخلاق . وكان الحاخام الذى يختاره المجلس رئيسا له يعين الموظفين الإداريين المشرفين على الجماعات اليهودية ، وكان من حقه أن يخرج من حظيرة الدين من لا يرضى عنهم من اليهود . وكان من أثر النظام الصارم الذى فرضه الحاخام جماليل الثانى (حوالى سنة ١٠٠ م) أن توثقت الرابطة بين أعضاء المجلس أولا ، ثم بين يهود يمنيا ، ثم بين يهود فلسطين كلها فيما بعد . وحدث فى أيامه أن أعيد النظر فى التفسيرات المتناقضة للشريعة وهى التفسيرات التى نقلها هلل وشماى ، ثم أخذ الرأى عليها ، وكانت النتيجة أن قبلت معظم

تفسيرات هلل وفرض على اليهود جميعهم أن يعملوا بها .

وإذ كانت الشريعة قد أصبحت وقتئذ الرابطة القوية التي لا غنى عنها والتي تؤلف بين اليهود المشتتين الذين لا تؤلف بينهم دولة ، فقد أصبح تعليم هذه الشريعة أهم عمل تقوم به الكنائس في جميع البلاد التي شتت فيها اليهود . وحل المجمع محل الهيكل ، كما حلت الصلاة محل التضحية ، وحل الربان محل الكاهن ، وأخذ الشراح (التنايم) يفسرون مختلف القوانين اليهودية المنقولة بطريق السماع (هلاكا) ، وكانوا يؤيدون شروحهم في العادة بعبارات يقتبسونها من الكتاب المقدس ، يضيفون إليها قصصا وعظات أو غيرها من المواد (هجاداً) ويوضحونها بها في بعض الأحيان . وأشهر هؤلاء التنايم هو الربان عكيبا بن يوسف . وقد انضم هذا الربان ، وهو في سن الأربعين ، إلى ابنه البالغ من العمر خمس سنين ، وذهبا معاً إلى المدرسة فتعلم القراءة ، واستطاع في زمن قليل أن يتلو عن ظهر قلب جميع أسفار موسى . وبعد دراسة دامت ثلاثة عشر عاما افتتح له مدرسة تحت شجرة تين في قرية قريبة من يمنيا . وقد كانت حماسته ، ومثاليته ، وشجاعته ، وفكاهته ، بل وتعسفه الشديد سبباً في التفاف كثيرين من الطلاب حوله . ولما جاءت الأنباء في عام ٩٥ ، أن دومتيان سيتخذ إجراءات جديدة ضد اليهود ، اختير أكيبا وجماليل واثنان آخران من اليهود ليتصلا اتصالا شخصيا بالإمبراطور . وبينا هم في رومة إذ توفي دومتيان . واستمع نيرفا إلى رسالتهم وأظهر العطف على مطالبهم ، وألغى الضريبة المفروضة على اليهود لإعادة بناء رومة .

ولما عاد أكيبا إلى يمنيا أخذ على عاتقه أن يقوم بذلك العمل الشاق الذي قضى فيه بقية حياته وتعني به تقنين الهلاكا ، وأتم هذا العمل من بعده تلميذه الربان مير Meir وخليفتهما الأب يهوذا (حوالى ٢٠٠ م) . وقد بقيت الهلاكا حتى في هذه الصورة المصنفة جزءاً من الأحاديث الشفوية ، يتناقلها العلماء والحفاظ المحترفون جيلا بعد جيل — فكانوا هم النصوص الحية للشريعة الموسوية .

وكان في الطرق التي جرى عليها أكيبا من السخف بقدر ما في النتائج التي وصل إليها من الصحة . وقد فسر الشريعة المسطورة تفسيراً عجيبا إذ جعل لكل حرف من حروفها معنى خفيا ثم استمد من هذا التفسير مبادئ حرة ؛ ولعل الباعث له على هذا التفسير ما لاحظه من أن الناس لا يقبلون الشيء المعقول إلا إذا كان في صورة غامضة خفية . وعن أكيبا أخذ هذا التنظيم وذلك العرض لعلمي الدين والأخلاق اللذين انتقلا عن طريق التلمود إلى ابن ميمون ، ثم انتقلا آخر الأمر إلى أساليب الفلاسفة المدرسيين .

ولما بلغ سن التسعين وضعفت قواه وأصبح من الرجعيين ألفى نفسه ، كما كان في أيام شبابه ، محوطا بالثورة من كل الجوانب . ذلك أن يهود قورينة ، ومصر ، وقبرص ، وأرض الجزيرة ، رفعوا لواء الثورة على رومة مرة أخرى في عامى ١١٥ — ١١٦ ، وأخذ اليهود يقتلون غير اليهود ، وهؤلاء يقتلون أولئك حتى أصبح التقتيل هو العادة المألوفة في تلك الأيام . ويقول ديو إن ٢٢٠,٠٠٠ قتلوا في قورينة ، و٢٤٠,٠٠٠ في قبرص . وتلك أرقام لا يقبلها العقل بطبيعة الحال ، ولكنا نعرف أن قورينة لم تنتعش قط بعد هذا التخريب ، وأن اليهود ظلوا عدة قرون بعد ذلك الوقت لا يسمح لهم قط بدخول قبرص . ثم أخمدت الفتن ، ولكن من بقي من اليهود ظلوا محتفظين بأملهم القوى في ظهور مسيح يعيد بناء الهيكل ويعيدهم هم ظافرين إلى أورشليم . وأشعل الرومان ، بحمقهم وبلاهتهم ، نار الثورة من جديد . ذلك أن هدريان أعلن في عام ١٣٠ أنه يعتزم بناء ضريح لجوبتر في في مكان الهيكل ، ثم أصدر في عام ١٣١ مرسوماً بتحريم الختان وتعليم الشريعة اليهودية علنا(٦٧) . وكانت آخر وقفة وقفها اليهود في التاريخ القديم لاستعادة حريتهم في عام ١٣٢ بزعامة شمعون باركوشيبا الذي ادعى أنه هو المسيح . وبارك أكيبا هذه الثورة رغم أنه كان طول حياته يدعو إلى السلم ، وذلك حين اعترف باركوشيبا أنه هو المنقذ .

وظل الثوار ثلاث سنين مستبسلين في قتال الفيالق الرومانية حتى هزموا آخر الأمر بعد أن نفد طعامهم وعتادهم . ودمر الرومان ٩٨٥ مدينة فى فلسطين وذبحوا ٥٨٠,٠٠٠ يهودي ويقال إن الذين ماتوا من الجوع والمرض والحريق كانوا أكثر من هذا العدد . وخربت بلاد اليهود كلها تقريباً ، وخرّ باركوشيبا نفسه صريعاً أثناء دفاعه عن بيثار . وكان الذين بيعوا من اليهود فى أسواق الرقيق من الكثرة بحيث انخفض ثمن الواحد منهم حتى ساوى ثمن الحصان . واختبأ آلاف منهم فى سراديب تحت الأرض مفضلين ذلك على الأسر ؛ ولما أحاط بهم الرومان هلكوا من الجوع واحداً بعد واحد ، وكان الأحياء منهم يأكلون جثث الموتى(٦٨) .

وأراد هدريان أن يقضى على ما فى اليهودية من رجولة وقدرة على الانتعاش ، فلم يكتف بتحريم الختان بل حرم معه الإسبات والاحتفال بأى عيد من أعياد اليهود أو إقامة أى طقس من الطقوس اليهودية علناً(٦٩) . وفرضت ضريبة شخصية جديدة أكبر من الضريبة السابقة على جميع اليهود ، وحرم عليهم دخول بيت المقدس إلا فى يوم واحد محدد فى العام يسمح لهم فيه بالمجيء إلى دمشق ليبكوا أمام خرائب الهيكل . وقامت فى مواضع أورشليم مدينة إيليا كپتولينا الوثنية ، وشيد فيها ضريحان لجوبتر وڤينوس ، وساحات للرياضة وملاهٍ وحمامات ، وحل مجلس يمنيا وحرم على أعضائه الاجتماع ، وأجيز لمجلس عاجز أصغر منه أن يجتمع فى لدا Lydda . أما تعليم الشريعة جهرة فقد منع منعاً باتاً ، وأنذر كل من خالف ذلك بالإعدام ، وأعدم بالفعل عدد من الأحبار الذين خالفوا . وأصرّ أكيبا ، وكان وقتئذ فى الخامسة والتسعين من عمره ، على أن يعلم تلاميذه ، فزج فى السجن ثلاث سنين ، ولكنه لم ينقطع عن التعليم فى سجنه ، فحوكم ، وأدين ، وأعدم وهـو ينطق بالعقيدة اليهودية الأساسية : « اسمع ، يا إسرائيل ، الرب إلهنا ، والرب واحد »(٧٠) .

وظل اليهود قروناً عدة يعانون آثار النكبة التى حلت بهم بعد ثورة

باركوشيبا ، وإن كان أنطونينس بيوس قد خفف من صرامة مراسيم هدريان ، ودخلوا من هذه اللحظة فى دور الكهولة ، وتخلوا عن كل العلوم الدنيوية ما عدا الطب ، ونبذوا الهلنستية على اختلاف صورها ، ولم يتلقوا السلوى أو الوحدة إلا من أحبارهم ، وشعرائهم الصوفيين وشريعتهم . ولسنا نعرف شعباً آخر قد طال نفيه كما طال نفى اليهود ، أو عانى من الأهوال مثل ما عانوا . لقد حرم عليهم أن يدخلوا المدينة المقدسة ، وأرغموا على تسليمها للوثنية ثم للمسيحية ، وشرّدوا فى كل ولاية من ولايات الدولة الرومانية وإلى ما وراء حدود تلك الدولة ، وضُربت عليهم الذلة والمسكنة ، ولم يجدوا لهم صديقاً حتى بين الفلاسفة والقديسين ، فابتعدوا عن المناصب العامة وعكفوا فى عزلتهم على الدرس والعبادة ، واستمسكوا أشد الاستمساك بأقوال علمائهم ، وأخذوا يتأهبون لكتابتها آخر الأمر فى تلمود بابل وفلسطين . وهكذا اختبأت اليهودية فى ظلمات الخوف والفزع ، بينما كانت وليدتها المسيحية تخرج لفتح العالم وسيادته .

الكتاب الخامس

شباب المسيحية

من ٤ ق . م إلى ٣٢٥ م

ثبت مسلسل

كل التواريخ ما عدا أولها بعد الميلاد ، وكل ما كان منها قبل عام ١٥٠ مشكوك فيه

---

٤ ق . م : مولد المسيح .
٣٠ م : صلبه ، هداية بولس .
٤٥ — ٤٧ : بعثة بولس الأولى .
٥٠ — ٥٣ : بعثة بولس الثانية .
٥١ : بولس فى أثينة .
٥٣ — ٥٧ : بعثة بولس الثالثة .
٥٨ — ٦٠ : فلكس يسجن بولس .
٦٤ : اضطهاد نيرون للمسيحيين .
موت بطرس وبولس .
٦٥ : ليتس أسقف رومة .
٧٧ : كليتس أسقف رومة .
٦٠ — ١٠٠ : الأناجيل الأربعة .
٨٩ : كلمنت الأول أسقف رومة .
٩٠ : رسائل يوحنا .
٩٨ : إواستس أسقف رومة .
١٠٦ : ألكسندر الأول أسقف رومة .
١١٦ : أكسيتس الأول أسقف رومة .
١٢٦ : تلسفورس أسقف رومة .
١٣٧ : هيجينس أسقف رومة .
١٤١ : بيوس الأول أسقف رومة .
١٥٠ : معذرة جستين الأولى .
١٥٦ : أنتسيتس أسقف رومة .
١٦٦ : استشهاد دبوليكارب .
١٧٥ : إليوثيريوس أسقف رومة .
١٧٧ : استشهاد ليون .
١٧٨ : أرينايس أسقف ليون .
١٩٠ : ڤكتور الأول أسقف رومة .

ق . م

١٩٣ : پرتناكس وددیوس چليانس ، إمبراطوران .
١٩٣ — ٢١١ : سپتميوس سڤيرس ، إمبراطور .
١٩٤ : منتانس ؛ كلمنت الإسكندرى .
٢٠٠ : ليبر أپولوچتكس لترتليان .
٢٠٢ : زفرينس أسقف رومة .
٢٠٣ : توس سپتميوس سڤيرس ؛ أورجن .
٢٠٥ — ٢٧٠ : بلوتينس .
٢١١ — ٢١٧ : كركلا .
٢١٢ : كركلا يوسع نطاق المواطنية .
٢١٥ : حمامات كركلا ، مانى .
٢١٨ : كلستس الأول ، أسقف رومة .
٢١٨ — ٢٢٢ : إلاجابالس ، إمبراطور .
٢٢٢ : إربان الأول : أسقف رومة .
٢٢٢ — ٢٣٥ : الكسندر سڤيرس ، إمبراطور .
٢٢٨ : اغتيال ألپيان .
٢٣٥ — ٢٥٨ : مكسمينس ، إمبراطور .
٢٣٦ : ڤابيان ، أسقف رومة .
٢٣٨ — ٢٤٤ : جوردیانس الأول ، والثانى والثالث ، أباطرة .
٢٤٠ — ٢٧٢ : شابور الأول ، ملك الفرس .
٢٤٤ — ٢٤٩ : ڤليب العربى ، إمبراطور .
٢٤٨ : سبريان ، أسقف قرطاجنة ، ضد سلسم لأورجن .
٢٤٩ — ٢٥١ : ديسيوس ، إمبراطور ؛ ديوفانتس العالم الرياضى .
٢٥١ : كورنليوس ، أسقف رومة .
٢٥١ — ٢٥٣ : جالس ، إمبراطور .
٢٥٣ — ٢٦٠ : ڤلريانس ، إمبراطور .
٢٥٣ — ٢٦٨ : جليينس ، إمبراطور .
٢٥٤ : المركانيون يغيرون على شمالى إيطاليا .
٢٥٥ : شابور يغزو سوريا .
٢٥٧ : مرسوم ڤلريان ضد المسيحية .
٢٥٩ : القوط يجتاحون آسية الصغرى .
٢٦٠ : مرسوم التسامح الأول
٢٦٠ — ٢٦٦ : أدناثس فى تدمر .
٢٦٦ — ٢٧٣ : زنوبيا ولنچينس فى تدمر .
٢٦٨ — ٢٧٠ : كلوديوس الثانى ، إمبراطور .

ق . م

٢٧٠ – ٢٧٥ : أورليان ، إمبراطور .
٢٧١ : البرابرة يغيرون على إيطاليا .
٢٧٥ – ٢٧٦ : تاكتس ، إمبراطور .
٢٧٦ – ٢٨٢ : پروبس ، إمبراطور .
٢٨٢ – ٢٨٣ : كارس ، كرنيس ، نمريانس ، أباطرة .
٢٨٤ – ٣٠٥ : دقلديانوس ، إمبراطور .
٢٨٦ – ٣٠٥ : مكسميانس مع أغسطس .
٢٩٢ : جلريوس ، وقنسطنطيوس ، قيصران .
٢٩٥ : حمامات ، دقلديانوس .
٢٩٦ : مرسينس ، أسقف رومة .
٣٠١ : ثمن مرسوم دقلديانوس .
٣٠٣ – ٣١١ : اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين .
٣٠٦ : قسطنطين يصبح قيصراً .
٣٠٧ : مكنشيوس ومسكيان كلاهما أغسطس ؛ باسلقا مكسنتيوس .
٣٠٧ – ٣٠٩ : مارسلس الأول ، أسقف رومة .
٣٠٧ – ٣١٠ : يوسبيوس ، أسقف رومة .
٣١٢ : واقعة جسر ملڤي ، مرسوم ميلان .
٣١٥ : تاريخ الكنيسة ليوسبيوس .
٣١٣ – ٣٢٣ : قسطنطين وليسينوس يقتسمان الإمبراطورية .
٣١٤ : مجلس أرليس .
٣١٤ – ٣٣٦ : سلفستر الأول ، أسقف رومة .
٣١٥ : قوس قسطنطين .
٣٢٣ : هزيمة لوسنيوس عند أدرنه .
٣٢٤ – ٣٣٧ : قسطنطين إمبراطور وحده .
٣٢٥ : مجلس نيقية .
٣٢٦ : قسطنطين يقتل ابنه وابن أخيه وزوجته .
٣٣٠ : القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية .
٣٣٧ : موت قسطنطين .

الباب السادس والعشرون

عيسى أو يسوع

٤ ق . م – ٣٠ م

الفصل الأول

المراجع

هل وجد المسيح حقاً ؟ أو أن قصة حياة مؤسس المسيحية وثمرة أحزان البشرية ، وخيالها ، وآمالها – أسطورة من الأساطير شبيهة بخرافات كرشنا ، وأوزريس ، وأتيس ، وأدنيس ، وديونيشس ، ومثراس ؟ لقد كان بولنجبرك والملتفون حوله ، وهم جماعة ارتاع لأفكارهم فلتير نفسه ، يقولون في مجالسهم الخاصة إن المسيح قد لا يكون له وجود على الإطلاق ، وجهر ڤلني Volney بهذا الشك نفسه في كتابه **خرائب الإمبراطورية** الذي نشره في عام ١٧٩١ ؛ ولما التقى نابليون في عام ١٨٠٨ بڤيلاند Wieland العالم الألماني لم يسأله القائد الفاتح سؤالا تافها في السياسة أو الحرب ، بل سأله هل يؤمن بتاريخية المسيح ؟

ولقد كان من أعظم ميادين نشاط العقل الإنساني في العصر الحديث وأبعدها أثراً ميدان « النقد الأعلى » للكتاب المقدس – التهجم الشديد على صحته وصدق روايته ، تقابله جهود قوية لإثبات صحة الأسس التاريخية للدين المسيحي ؛ وربما أدت هذه البحوث على مر الأيام إلى ثورة في التفكير لا تقل شأناً عن الثورة

التي أحدثتها المسيحية نفسها . وقد دارت رحى أولى المعارك فى هذه الحرب التي دامت مائتى عام كاملة فى صمت وسكون ، وكان الذى أدارها هو هرمان ريمارس Hermann Reimarus أستاذ اللغات الشرقية فى جامعة همبرج ، فقد ترك بعد وفاته فى عام ١٧٦٨ مخطوطاً عن حياة المسيح يشتمل على ١٤٠٠ صفحة حرص على ألا ينشره فى أثناء حياته . وبعد ست سنين من ذلك الوقت نشر جتهولد لسنج Gotthold Lessing أجزاء من هذا المخطوط ، رغم معارضة أصدقائه فى هذا النشر ، وسماه **قصاصات ولفنبتل** Wolfenbuttel Fragments . ويقول ريمارس إن يسوع لا يمكن أن يعد مؤسس المسيحية أو أن يفهم هذا الفهم ، بل يجب أن يفهم على أنه الشخصية النهائية الرئيسية فى جماعة المتصوفة اليهود القائلين بالبعث والحساب ، ومعنى هذا أن المسيح لم يفكر فى إيجاد دين جديد ، بل كان يفكر فى تهيئة الناس لاستقبال دمار العالم المرتقب ، وليوم الحشر الذى يحاسب فيه الله الأرواح على ما قدمته من خير أو شر . وفى عام ١٧٩٦ أشار هردر إلى ما بين مسيح متى ، ومرقس ، ولوقا ومسيح إنجيل يوحنا من فوارق لا يمكن التوفيق بينها ، وفى عام ١٨٢٨ لخص هنريخ پولس Heinrich Paulus حياة المسيح فى ١١٩٢ صفحة ، وعرض تفسيراً عقلياً للمعجزات : أى أنه آمن بوقوعها ، ولكنه عزاها إلى علل وقوى طبيعية . ثم جاء داڤد استروس David Strauss (١٨٣٥ — ١٨٣٦) فى كتابه عن **حياة المسيح** — وهو كتاب عظيم الأثر فى التاريخ — فرفض ما حاوله پولس من توفيق بين المعجزات والعلل الطبيعية ، وقال إن ما فى الأناجيل من خوارق الطبيعة يجب أن يعد من الأساطير الخرافية ، وإن حياة المسيح الحقيقية يجب أن تعاد كتابتها بعد أن تحذف منها هذه العناصر أيا كانت صورها . وقد أثارت مجلدات استروس الضخمة عاصفة قوية فى التفكير الألمانى دامت جيلا من الزمان . وفى نفس العام الذى ظهر فيه كتاب استروس

هاجم فردناند كرستيان بور Ferdinand Christian Bour رسائل بولس وقال إنها كلها مدسوسة عليه عدا رسائله إلى أهل غلاطية ، وكورنثوس ، (كورنثة) ورومية (رومة) . وفى عام ١٨٤٠ بدأ برونو بور Bruno Bauer سلسلة من الكتب الجدلية الحماسية يبغى بها أن يثبت أن يسوع لايعدو أن يكون أسطورة من الأساطير ، أو تجسيداً لطقس من الطقوس نشأ فى القرن الثانى من مزيج من الأديان اليهودية ، واليونانية ، والرومانية . وفى عام ١٨٦٣ أخرج إيرنست رينان Ernest Renan حياة يسوع الذى روع ملايين الناس باعتماده فيه على العقل وسحر لب الملايين بنثره الجزل . وقد جمع رينان فى هذا الكتاب نتائج النقد الألمانى ، وعرض مشكلة الأناجيل على العالم المثقف كله . وبلغت المدرسة الفلسفية صاحبة البحوث الدينية ذروتها فى أواخر القرن التاسع عشر على يد الأب لوازى Loisy الذى حلل نصوص العهد الجديد تحليلا بلغ من الصرامة حداً اضطرت معه الكنيسة الكاثوليكية إلى إصدار قرار بحرمانه هو وغيره من « المحدثين » . وفى هذه الأثناء وصلت المدرسة الهولندية مدرسة پيرسن Pierson ونابر Naber ، ومتثاس Matthas بالحركة إلى أبعد حدودها إذ أنكرت بعد بحوث مضنية حقيقة المسيح التاريخية . وفى ألمانيا عرض آرثر دروز Arthur Drews هذه النتيجة السالبة عرضاً واضحاً محدداً (١٩٠٦) ؛ وفى إنجلترا أدلى و . ب . أسمث W.B. Smith و ج . م . ربرتسن J. M. Robertson . بحجج من هذا النوع أنكرا فيها وجود المسيح . وهكذا بدا أن الجدل الذى دام مائتى عام سينتهى إلى إفناء شخصية المسيح إفناء تاماً .

وبعد فما هى الأدلة التى تثبت وجود المسيح ؟ إن أقدم إشارة غير مسيحية إليه هى التى وردت فى كتاب قدم اليهود ليوسفوس (٩٣ ؟ م) :

« وفى ذلك الوقت كان يعيش يسوع ، وهو رجل من رجال الدين ، إذا

جاز أن نسميه رجلا ، لأنه كان يأتى بأعمال عجيبة ، ويعلم الناس ، ويتلقى الحقيقة وهو مغتبط . وقد اتبعه كثيرون من اليهود وكثيرون من اليونان . لقد كان هو المسيح » ؟

قد تنطوى هذه السطور العجيبة على أصل صادق صحيح ؛ ولكن هذا الثناء العظيم الذى يثنى به على المسيح يهودى يريد به الزلفى للرومان أو اليهود — وكان كلاهما يناصبان المسيحية العداء فى ذلك الوقت — ، نقول إن هذا الثناء لما يبعث الريبة فى هذه الفقرة ، ولذلك يرفضها علماء المسيحية ، ولا يكادون يشكون فى أنها مدسوسة على يوسفوس[٣] . وفى التامود إشارات إلى يسوع الناصرى . ولكنها من عهد متأخر جداً يجعلها مجرد ترديد لأصداء الأفكار المسيحية[٤] . وأقدم ما لدينا من إشارات إلى المسيح فى أدب الوثنيين ما ورد فى خطاب كتبه پلنى الأصغر (حوالى ١١٠)[٥] ، يستشير فيـــه تراچان عمّا يعامل به المسيحين[*] وبعد خمس سنين من ذلك الوقت وصف تاستس[٦] اضطهاد نيرون للكرستيانى Christiani فى رومة ويقول إنهم فى ذلك الوقت كان لهم أتباع فى جميع أنحاء أوربا . وهذه الفقرة شبيهة بكتابات تاستس فى أسلوبه ، وقوته ، وتحيزه شبهاً لم يرتب معه أحد من الباحثين إلا درور وحده فى صدورها من هـــذا الكاتب[٧] . ويذكر سوتونيوس(حوالى ١٢٥)خبر هذا الاضطهاد نفسه[٨] ، كما يذكر نفى كلوديوس (حوالى ٥٢) « اليهودالذين أثاروا اضطرابات عامة بتحريض المسيح impulsore Chresto) »[٩] . وتتفق هذه الفقرة أشد الاتفاق مع ما ورد فى أصحاح أعمال الرسل من أن كلوديوس أصدر مرسوما أوجب فيه على « اليهود أن يخرجوا من رومة »[١٠] . وهـــذه الإشارات كلها تثبت وجود المسيحين لا المسيح نفسه ؛ ولكننا إذا لم تسلم بوجود المسيح فلا مناص لنا من أن نأخذ بالفرض

(*) نقلنا هذه الفقرة بعد ؟ ونجد نص الخطاب فى الجزء الاول من كتابنا « أشهر الرسائل العالمية » . (المترجم)

الضعيف جداً وهو أن شخصية يسوع قد اخترعت اختراعا فى جيل واحد ؛ ولا بد لنا من أنّ نفترض فوق ذلك أن الجالية المسيحية وجدت رومة قبل عام ٥٢ ببضع سنين ، وإلا لما كانت خليقة أن يصدر بشأنها مرسوم إمبراطورى .ويقول ثالس Thallus وهو كاتب وثنى عاش فى منتصف ذلك القرن الأول فى هتامه من كتاب احتفظ لنا به يوليوس أفركانس(١١) إن الظلمة العجيبة التى يقال إنها حدثت وقت موت المسيح ، كانت ظاهرة طبيعية محضة ، ولم تكن أكثر من مصادفة عادية . أما وجود المسيح فهو عند هذا الكاتب قضية مسلم بها مفروغ من صحتها .

وقصارى القول أن نكران ذلك الوجود لم يخطر على ما يظهر لأشد المخالفين لليهودية أو لليهود المعارضين للمسيحية الناشئة فى ذلك الوقت .

أما الأدلة المسيحية على وجود المسيح فتبدأ بالرسائل المعزوة إلى القديس بولس . وبعض هذه الرسائل لا يعرف كاتبها معرفة أكيدة ، ومنها عدة رسائل — تؤرخ بعام ٦٤ م ولكنها كتبت فى الحقيقة بعد ذلك التاريخ — لا يكاد يختلف الباحثون فى أنها فى جوهرها من كتابات بولس . ولم يشك أحد قط فى وجود بولس نفسه أو فى لقائه الكثير لبطرس ، ويعقوب ، ويوحنا ؛ ويعترف بولس بأن هؤلاء الرجال قد عرفوا المسيح فى أثناء حياته ويحسدهم على هذه المعرفة(١٢) . وكثيراً ما تشير الرسائل المعترف بنسبتها إليه إلى العشاء الأخير(١٣) وإلى حادث الصلب(١٤) .

هذا ما كان من أمر المسيح نفسه ، أما الاناجيل فليس أمرها بهذه السهولة . ذلك أن الأربعة الأناجيل التى وصلت إلينا هى البقية الباقية من عدد أكبر منها كثيراً ، كانت فى وقت ما منتشرة بين المسيحيين فى القرنين الأول والثانى . واللفظ الدال على الإنجيل "gospel" (وهو فى اللغة الإنجليزية القديمة godspel أى أخبارٌ طيبة) ترجمة للفظ اليونانى euangelion والذى يبدأ به إنجيل مرقس

ومعناه « أخبار سارة » — هي أن المسيح قد جاء ، وأن ملكوت الله قريبة المنال ، وأناجيل متى ، ومرقس ، ولوقا ، يمكن الإحاطة بها بنظرة واحدة : ذلك بأن محتوياتها وحوادثها يمكن ترتيبها فى أعمدة متوازية « والنظر إليها كلها مجتمعة » ؛ وقد كتبت كلها باللغة اليونانية الدارجة ، ولم تكن نماذج طيبة فى النحو أو فى الصقل الأدبى . بيد أن ما فى أسلوبها السهل من قوة وإيصال المعانى عن أقرب طريق ، وما فى تشبيهاتها والصور التى ترسمها من وضوح ، وما فى الإحساسات التى تصورها من عمق ، وما فى القصص التى ترويها من روعة ، كل هذا يكسبها حتى فى صورتها الأصلية الفجة جمالا فذاً ، زاده قوة عند العالم الإنجليزى الترجمة العظيمة البعيدة كل البعد عن الدقة ، والتى وضعت للملك چيمس .

وترجع أقدم النسخ التى لدينا من الأناجيل الأربعة إلى القرن الثالث . أما النسخ الأصلية فيبدو أنها كتبت بين عامى ٦٠ ، ١٢٠ م ، ثم تعرضت بعد كتابتها مدى قرنين من الزمان لأخطاء فى النقل ، ولعلها تعرضت أيضاً لتحريف مقصود يراد به التوفيق بينها وبين الطائفة التى ينتمى إليها الناسخ أو أغراضها . والكتّاب الذين عاشوا قبل نهاية القرن الأول الميلادى لا ينقلون قط شيئا عن العهد الجديد ، بل كل ما ينقلوله مأخوذ من العهد القديم ، ولسنا نجد إشارة لإنجيل مسيحى قبل عام ١٥٠ إلا فى كتابات پپياس Papias الذى كتب فى عام ١٣٥ إذ يقول إن « يوحنا الأكبر » وهو شخصية لم يستطع الاستدلال على صاحبها — قال إن مرقس ألف إنجيله من ذكريات نقلها إليه بطرس[١٥] .

ويضيف پپياس إلى هذا قوله : « وأعاد متى كتابة الكلمات بالعبرية » — ويبدو أن هذا الإنجيل مجموعة آرامية من أقوال المسيح . والراجح أن بولس كانت لديه وثيقة من هذا النوع ، وذلك لأنه ينقل أحياناً كلمات يسوع

بنصها(*) وإن كان لا يذكر الأناجيل قط . ويتفق الناقدون الثقاة بوجه عام على أسبقية إنجيل مرقس فى الزمن على سائر الأناجيل ، وفى تحديد تاريخه بين عامى ٦٥ و ٧٠ م . وإذ كان هذا الإنجيل يكرر المسألة الواحدة أحياناً فى عدة صور[١٦] فإن الكثيرين من الباحثين يعتقدون أنه يعتمد على الكلمات السالفة الذكر وعلى قصة أخرى قديمة العهد قد تكون هى الصورة الأولى لإنجيل مرقس نفسه . ويبدو أن إنجيل مرقس كان منتشراً أثناء حياة بعض الرسل أو حياة الرعيل الأول من أتباعهم ومريديهم . ولهذا فإنه يبدو من غير المحتمل أنه كان يختلف اختلافاً جوهريا عما كان لديهم من أقوال وعن تفسير المسيح لهذه الأقوال[١٧] . ومن حقنا إذن أن نحكم كما حكم شوتزر Schwetyer ذلك العالم النابه الحكيم بأن إنجيل مرقس فى جوهره « تاريخ صحيح »[١٨] .

وتقول الرواية المأخوذ بها إن إنجيل متى أقدم الأناجيل كلها ، ويعتقد إيرنيوس Irenaeus أنه كتب فى الأصل باللغة « العبرية » — أى الآرامية ، ولكنه لم يصل إلينا إلا باللغة اليونانية . وإذ كان يبدو لنا إنه فى هذه الصورة الأخيرة يردد أقوال إنجيل مرقس ، وأنه ينقل فى أكبر الظن من أقوال يسوع نفسها ، فإن النقاد يميلون إلى القول بأنه من تأليف أحد أتباع متى ، وليس من أقوال « العشار » نفسه . وحتى أكثر العلماء يرجعون به إلى تلك الفترة البعيدة المحصورة بين عامى ٧٥ — ٩٠ م[٢٠] . وإذ كان الغرض الذى يبتغيه متى هو هداية اليهود فإنه يعتمد أكثر من غيره من المبشرين على المعجزات التى تعزى إلى المسيح ، ويحرص حرصاً يدعو إلى الريبة على أن يثبت أن كثيراً من نبوءات

(*) كشف جرنفل Grenfell وهنت Hunt فى خرائب إحدى المدن القديمة فى مصر فى عامى ١٨٩٧ ، ١٩٠٣ من عشرين قطعة من « الكلمات » تتفق إلى حد ما مع فقرات مماثلة لها فى الأناجيل . ولا ترجع هذه البرديات إلى ما قبل القرن الثالث ولكنها قد تكون نسخاً من مخطوطات أقدم منها .

العهد القديم قد تحققت على يدى المسيح . بيد أنه رغم هذا أشد الأناجيل الأربعة تأثيراً فى النفس وإثارة للعاطفة . ولا يسعنا إلا أن نعده بين روائع الآداب العالمية ، وإن لم يدرك ذلك كاتبه القديم .

والإنجيل حسب نص القديس لوقا ، وهو النص الذى يعزى عادة إلى العقد الأخير من القرن الأول ، يعلن أنه يرغب فى تنسيق الروايات السابقة عن المسيح ، والتوفيق بينها ، وأنه يهدف إلى هداية الكفرة لا اليهود ، وأكبر الظن أن لوقا نفسه كان من غير اليهود ، وأنه كان صديق بولس ، ومؤلف سفر أعمال الرسل[٢١] . وهو يقتبس كثيراً من كتابات مرقس كما يقتبس منها متى[٢٢] . فإنك لتجد فى إنجيل متى ستمائة آية من الستمائة والإحدى والستين التى يشتمل عليها النص المعتمد لإنجيل مرقص ، وتجد منها ثلثمائة وخمسين فى إنجيل لوقا تكاد أن تكون هى بنصها[٢٣] . وفى إنجيل متى كثير من الفقرات التى توجد فى لوقا ولا توجد فى إنجيل مرقس ، وهنا أيضاً تكاد تكون هى بنصها ، ويبدو أن لوقا أخذ هذه عن متى ، أو أن لوقا ومتى أخذاها عن أصل مشترك ، لم نعثر عليه بعد . ويصقل لوقا هذه المقتبسات الصريحة بمهارة أدبية تحمل لينان على الظن بأن هذا الإنجيل أجمل ما ألف من الكتب .

ولا يدعى الإنجيل الرابع أنه ترجمة ليسوع ، بل هو عرض للمسيح من وجهة النظر اللاهوتية بوصفه كلمة الله ، وخالق العالم ، ومنقذ البشرية . وهو يناقض الأناجيل الأخرى فى كثير من التفاصيل وفى الصورة العامة التى يرسمها للمسيح[٢٥] . وإن ما يصطبغ به الكتاب من نزعة قريبة من نزعة القائلين بأن الخلاص لا يكون بالإيمان بل بالمعرفة ، وما فيه من تأكيد للآراء الميتافيزيقية ، قد جعلا الكثيرين من الباحثين فى الدين المسيحى يشكون فى صدق القول بأن واضعه هو الرسول يوحنا[٢٦] . بيد أن التجارب توحى إلينا بألا نعجل فى تكذيب الروايات القديمة ؛ ذلك بأن أسلافنا لم

يكونوا كلهم بلهاء . وتنزع الدراسات الحديثة إلى تحديد تاريخ الإنجيل الرابع بأواخر القرن الأول . والراجح أن الروايات المأثورة كانت صادقة إذ تعزو إلى المؤلف نفسه « رسائل يوحنا » ، ذلك بأنها تعرض الأفكار نفسها بالأسلوب نفسه .

وملاك القول أن ثمة تناقضاً كثيراً بين بعض الأناجيل والبعض الآخر ، وأن فيها نقطاً تاريخية مشكوكا فى صحتها ، وكثيراً من القصص الباعثة على الريبة والشبيهة بما يروى عن آلهة الوثنيين ، وكثيراً من الحوادث التى يبدو أنها وضعت عن قصد لإثبات وقوع كثير من النبوءات الواردة فى العهد القديم ، وفقرات كثيرة ربما كان المقصود منها تقدير أساس تاريخى لعقيدة متأخرة من عقائد الكنيسة أو طقس متأخر من طقوسها . لقد كان المبشرون بالإنجيل يرون كما يرى شيشرون وسالست ، وتاستس أن التاريخ وسيلة لنشر المبادئ الخلقية السامية ، ويبدو أن ما تنقله الأناجيل من أحاديث وخطب قد تعرضت لما تتعرض له ذاكرة الأميين من ضعف وعيوب ، ولما يرتكبه النساخ من أخطاء أو « تصحيح » .

فإذا سلمنا بهذا كله بقى الشىء الكثير . إن ما فى الأناجيل من تناقض لا يتعدى التفاصيل الجزئية إلى الحقائق العامة ، وإن الأناجيل الثلاثة الأولى لتتفق اتفاقاً عجيباً ، وتعرض فى مجموعها صورة متسقة للمسيح . ولقد دفعت حماسة الكشف كبار الناقدين إلى أن يقيسوا صحة أقوال العهد الجديد بمقاييس لو طبقت على مئات من العظماء الأقدمين أمثال حورابى ، وداود ، وسقراط — لزالوا كلهم من عالم الحقائق وهووا إلى عالم الخرافات(*) . وإن المبشرين بالإنجيل ، رغم ما يتصفون به من تحيز وميل مع الهوى ومن الأخذ بأفكار دينية سابقة ، ليسجلون كثيراً من الحادثات التى يعمد المخترعون الملفقون إلى إخفائها — كتنافس الرسل على المنازل العليا فى ملــكوت الله ، وفرارهم بعد القبض على

(*) يقول أحد كبار العلماء اليهود قالة لعلها أقوى مما ينبغى : « لو كانت لنا فى تاريخ الإسكندر أو قيصر مصادر كالتى نجدها فى الأناجيل لما خالجنا أقل الشك فى أمرها » — ج . كلوزنر J. Klausner فى كتابه « من يسوع إلى بولس » ص ٢٦٠ .

يسوع ، وإنكار بطرس ، وعجز المسيح عن إتيان المعجزات فى الجليل ، وإشارة بعض من سمعوه إلى ما عسى أن يكون مصاباً به من الجنون ، وتشككه الأول فى رسالته ، واعترافه بأنه يجهل أمر المستقبل ، وما كان يمر به من لحظات يمتلئ قلبه فيها حقداً على أعدائه ، وصيحة اليأس التى رفع بها عقيرته وهو على الصليب ؛ إن من يطلع على هذه المناظر لا يشك قط فى أن وراءها شخصية تاريخية حقة . ولو أن عدداً قليلا من الرجال السذج قد اخترعوا فى مدى جيل واحد هذه الشخصية الجذابة ، وهذه المبادئ الأخلاقية السامية ، وهذه النظرية الأخوية الملهمة ، لكان عملهم هذا معجزة أبعد عن المعقول من أية معجزة تسجلها الأناجيل . وإن الخطوط الرئيسية فى سيرة المسيح ، وأخلاقه ، وتعاليمه لتبقى بعد قرنين من النقد الشديد واضحة معقولة ؛ لتكون أروع ظاهرة فى تاريخ الغربيين وأعظمها فتنة للألباب .

الفصل الثانى

نشأة عيسى

يحدد متى ولوقا ميلاد المسيح فى « الأيام التى كان فيها هيرودس ملكا على بلاد اليهود »[٢٧] — أى قبل العام الثالث ق . م . على أن لوقا يقول عن يسوع إنه كان « حوالى الثلاثين من العمر » حين عمده يوحنا فى السنة الخامسة عشرة من حكم تيبيريوس »[٢٧أ] ، أى فى عام ٢٨ — ٢٩ م » وهذا يجعل ميلاد المسيح فى عام ٢ — ١ ق . م . ويضيف لوقا إلى هذا قوله : « وفى تلك الأيام صدر مرسوم من قيصر أغسطس يقضى بأن تفرض ضريبة على العالم كله . . . حين كان كويرنيوسQuirinius والياً على سوريا » . والمعروف أن كويرنيوس كان حاكماً لسوريا بين عامى ٦ —١٢م ؛ ويذكر يوسفوس أنه أجرى إحصاء فى بلاد اليهود ، ولكنه يقول إن هذا الإحصاء كان فى عام ٦—٧ م[٢٨] ، ولسنا نجد ذكراً لهذا الإحصاء إلا هذه الإشارة . ويذكر ترتليان[٢٩] إحصاء لبلاد اليهود قام به ستر نينس حاكم سوريا فى عام ٨ — ٧ ق . م ، فإذا كان هذا هو الإحصاء الذى يشير إليه لوقا فإن ميلاد المسيح يجب أن يؤرخ قبل عام ٦ ق . م . ولسنا نعرف اليوم الذى ولد فيه بالتحديد ، وينقل لنا كلمنت الإسكندرى (حوالى عام ١٠٠ م) آراء مختلفة فى هذا الموضوع كانت منتشرة فى أيامه ، فيقول إن بعض المؤرخين يحدده باليوم التاسع عشر من إبريل وبعضهم بالعاشر من مايو ، وإنه هو يحدده بالسابع عشر من نوفمبر من العام الثالث قبل الميلاد — وكان المسيحيون الشرقيون يحتفلون بمولد المسيح فى اليوم السادس من شهر يناير منذ القرن الثانى بعد الميـــلاد . وفى عام ٣٥٤ احتفلت بعض الكنائس الغربية ومنها كنيسة رومة بذكرى مولد المسيح فى اليوم الخامس والعشرين من

نوفمبر ، وكان هذا التاريخ قد عد خطأ يوم الانقلاب الشتائى الذى تبدأ الأيام بعده تطول ؛ وكان قبل هذا يحتفل فيه بعيد مثراس ، أى مولد الشمس التى لا تقهر . واستمسكت الكنائس الشرقية وقتاً باليوم السادس من ينـــاير ، واتهمت أخواتها الغربية بالوثنية وبعبادة الشمس ، ولكن لم يكد يختتم القرن الرابع حتى اتخذ اليوم الخامس والعشرون من ديسمبر عيداً للميلاد في الشرق أيضاً[٣٠](*) .

ويقول متى ولوقا إن مولد المسيح كان فى بيت لحم ، القائمة على بعد خمسة أميال جنوبى أورشليم ، ثم يقولان إن أسرته انتقلت منها إلى الناصرة فى الجليل ، أما مرقس فلا يذكر بيت لحم . ولا يذكر المسيح إلا باسم « يسوع الناصرى »(**) . وقد سمى بالاسم العادى المألوف « يسوع » Yeshu'a ومعناه معين يهوه ؛ وحرفه اليونان إلى Iesous ، والرومان إلى Iesus .

ويبدو أنه كان ينتسب إلى أسرة كبيرة ، وشاهد ذلك أن جيرانه أدهشتهم تعاليمه القوية فأخذوا يتساءلون قائلين : « ترى أنى له هذه الحكمة ، والقدرة على القيام بهذه العجائب ؟ أليس هو ابن النجار ؟ أليست أمه تسمى مارية Mary ، أليس أخوته هم يعقوب ، ويوسف ، وشمعون ويهوذا ؟ ألا تقوم أخواته هنا بيننا ؟ »[٣١] . ويحدثنا لوقا عن البشرى بأسلوب أدبى بليغ وينطق مريم — مارية — بتلك العبارات البليغة ، وهى من أروع القصائد التى يشتمل عليها العهد الجديد .

وتأتى شخصية مريم فى القصة بعد شخصية ولدها فى الروعة والتأثير : فهى تربيه وتتحمل فى تربيته مسرات الأمومة المؤلمة ، وتفخر بعلمه فى أيام شبابه ،

(*) الذى نعرفه أن الكنائس الشرقية لا تزال تحتفل بعيد الميلاد فى اليوم السادس من يناير . (المترجم) .

(**) يظن الناقدون أن متى ولوقا قد اختارا بيت لحم ليقووا بذلك الادعاء بأن يسوع هو المسيح ، وأنه من نسل داود — كما تتطلب ذلك النبوءة اليهودية . وذلك لأن أسرة داود كانت تقيم فى بيت لحم . ولكننا لا نجد ما يؤيد هذا الظن .

وتدهش فيما بعد من تعاليمه ومطالبه ، وترغب فى أن تبعده عن جموع أتباعه المثيرين ، وأن تعيده إلى بيته الهادئ الشافى (لقد بحثت أنا وأبوك عنك محزونين)(*) ، وشاهدته وهو يصلب ، وعجزت عن إنقاذه ، ثم تلقت جسده بين ذراعيها ؛ فإذا لم يكن هذا تاريخاً فهو الأدب السامى ، لأن صلات الآباء والأبناء تؤلف مسرحيات أعمق مما تؤلفه عاطفة الحب الجنسى . أما القصص التى أذاعها سلسس Celsus وغيره فيما بعد عن مريم وجندى رومانى فالنقاد مجمعون على أنها « افتراء سخيف »[٣٢] . وأقل من هذا سخفاً تلك القصص التى تذكر أكثر ما تذكر فى الأسفار المحذوفة عن مولد المسيح فى كهف أو اصطبل ، وعن سجود الرعاة والمجوس له وعبادتهم إياه ، وعن مذبحة الأبرياء ، والفرار إلى مصر ، وإن كان العقل الناضج لا يرى ضيراً فى هذا الشعر الشعبى . ولا يذكر بولس ويوحنا شيئاً عن مولده من عذراء ، وأما متى ولوقا اللذان يذكرانه فيرجعان نسب يسوع إلى داود عن طريق يوسف ، بسلاسل أنساب متعارضة ؛ ويلوح أن الاعتقاد فى مولد المسيح من عذراء قد نشأ فى عصر متأخر عن الاعتقاد بأنه من نسل داود .

ولا يذكر أصحاب الأناجيل إلا القليل الذى لا يغنى عن شباب المسيح . فهم يقولون إنه اختتن حين بلغ الثامنة من عمره . ولقد كان يوسف نجاراً ، وإن ما كان فى ذلك العصر من توارث المهن ليوحى بأن يسوع قد احترف هذه الحرفة اللطيفة وقتاً ما ، وكان يعرف من ينتمى إلى حرفته من الصناع ، كما كان يعرف الملاك ، ورؤساء الخدم ، والمستأجرين ، والأرقاء وكل ما كان يحيط به فى الريف ؛ ويتردد ذكر هؤلاء جميعاً فى أحاديثه . وكان يحس بما فى الريف من جمال طبيعى ، وما للزهر من لون جميل ، وما يحيط بالأشجار المثمرة من هدوء وسكون . وليست قصة أسئلته للتلاميذ فى الهيكل مما لا يقبله العقل . وكان

(*) نقلنا هذه الأقوال وما بعدها كما هى وإن خالفت بعض عقائد المسلمين والمسيحيين . (المترجم)

ذا عقل يقظ طلعة ، والشاب متى بلغ الثانية عشرة من عمره فى بلاد لشرق أوشك أن يبلغ سن النضوج . لكنه لم يتعلم تعلما منظما ، وشاهد ذلك أن جيرته كانوا يتساءلون : «كيف يستطيع هذا الرجل أن يقرأ وهو لم يذهب قط إلى المدرسة ؟ »[٣٣] . وكان يتردد على المجمع الدينى ، ويستمع إلى تلاوة الكتاب المقدس ، ويبدو عليه السرور حين يسمعه . وقد انطبعت فى ذاكرته الأقوال الواردة فى أسفار الأنبياء والمزامير بنوع خاص . وكان لها أثر كبير فى تشكيله . ولعله قرأ أيضاً سفرى دانيال وأخنوخ ، لأنا نجد فى تعاليمه المتأخرة أثراً كبيراً من رؤى المسيح الموعود ، ويوم الحشر ، وعملكة السماء .

وكان الهواء الذى يتنفسه مشحوناً بالحماسة الدينية ، وكان آلاف من اليهود ينتظرون على أحر من الجمر مجىء منقذ إسرائيل . وكان السحر والشياطين ، والملائكة ، وحلول الشياطين فى أجسام الآدميين ، وإخراجها ، والمعجزات ، والنبوءات ، والاطلاع على الغيب ، والتنجيم ، كانت كل هذه عقائد مسلما بها فى كل مكان . ولعل قصة المجوسى كانت تسليما لا بد منه لعقائد المنجمين فى ذلك العصر[٣٤] ، وكان السحرة يطوفون بالمدن ؛ وما من شك فى أن عيسى قد عرف شيئاً عن الأسينيين وعن حياة الزهد الشبيهة كل الشبه بحياة البوذيين(*) ، وذلك فى خلال أسفار جميع الصالحين من يهود فلسطين إلى بيت المقدس فى أثناء عيد الفصح . ولعله قد سمع أيضاً عن شيعة تدعى « الناصرة Mazaranes » كان المنتمون إليها يعيشون فى بريه فى الناحية الأخرى من نهر الأردن ، وكانوا برفضون التعبد فى الهيكل ، ويأبون التقيد بالناموس[٣٦] . ولكن الذى

(*) وكان أشوكا قد بعث بمشيريه البوذيين حتى بلغوا مصر وقوريني غرباً[٣٣] ، وأكبر الظن إذن أنه بعثهم إلى بلاد الشرق الأدنى .

أثار حماسته الدينية هو عظات يوحنا ابن اليصابات قريبة مريم .

ويروى يوسفوس قصة يوحنا بشيء من التفصيل[٣٧] . فإذا قرأناها بدا لنا المعمدان شيخاً طاعناً فى السن ، أما الحقيقة فهى عكس هذا ، فهو فى الوقت الذى نتحدث عنه فى سن عيسى أو قريب منه ، ويصفه مرقس ومتى بأنه كان يرتدى ثوباً من الشعر ، ويعيش على الجراد الجاف وعسل النحل ، ويقف بجوار نهر الأردن ، ويدعو الناس إلى التوبة . وكان يماثل الإسينيين فى الزهد ، ولكنه يخالفهم فى اعتقاده أن التعميد يكفى أن يكون مرة واحدة ؛ وقد يكون اسمه « المعمدان » مرادفاً للفظ اليونانى « إسين » أى الاستحمام[٣٨] ، وقد أضاف يوحنا إلى عقيدة التطهير الرمزى تنديده الشديد بالنفاق ، وعدم التمسك بالأخلاق القويمة ، وطلبه إلى المذنبين أن يستعدوا إلى الدار الآخرة ، وإعلانه قرب حلول مملكة السماء[٣٩] ، وقوله إنه إذا تابت بلاد اليهود كلها وتطهرت من الخطيئة جاء المسيح وحلت مملكة السماء على الفور .

ويقول لوقا إنه فى « السنة الخامسة عشرة من حكم تيبريوس » أو بعدها بقليل جاء يسوع إلى نهر الأردن ليُعَمَّد على يديه . وهذا القرار الذى اتخذه رجل « يقرب من سن الثلاثين »[٤٠] شاهد على أن المسيح قد آمن بتعاليم يوحنا ؛ وأن تعاليمه هو لن تفترق فى جوهرها عن تلك التعاليم . أما أساليبه ، وأخلاقه فكانت تختلف عن أمثالها عند يوحنا : فهو لم يعمد أحداً[٤١] ، ولم يعش فى البيداء ، بل عاش فى العالم . ولم ينقض على هذا اللقاء بين عيسى ويوحنا إلا قليل من الوقت حتى أمر هيرودس أنتپاس « صاحب المدن الأربع » فى الجليل بسجن يوحنا . وتقول الأناجيل إن سبب القبض على يوحنا هو انتقاد هيرودس لأنه طلق زوجته ، وتزوج هيروديا وهى لا تزال زوجة لفليپ أخيه غير الشقيق . أما يوسفوس فيقول إن سبب القبض عليه هو خوف هيرودس أن

يكون يوحنا يستتر بستار الإصلاح الديني ليثير القلاقل السياسية في البلاد[٤٢] .
ويروى مرقس[٤٣] ومتى[٤٤] في هـذا المجال قصة سالوم ابنة هورديا س ، التي فتنت هيرودس برقصها أمامه حتى عرض عليها أن يقدم لها أية مكافأة تطلبها . ويقولان إنها طلبت إليه رأس يوحنا ، بتحريض من أمها ، وإن الحاكم أجابها وهو كاره إلى طلبها . وليس في الأناجيل شيء عن حب سالوم ليوحنا ، وليس في يوسفوس ما يشير إلى أنها كانت لها يد في موته .

الفصل الثالث

الرســالة

ولما سجن يوحنا أخذ عيسى يقوم بعمل المعمدان ويخطب فى الناس مبشراً بملكوت الله[٤٥] ، ويقول لوقا إنه « عاد إلى الجليل » ، وإنه « كان يعلم فى مجامعهم »[٤٦] . وليست لدينا صورة مطبوعة فى أذهاننا عن ذلك الشاب المثالى ، وهو يقوم بدوره فى قراءة الكتاب المقدس على المجتمعين الناصرة ، ويختار لهم فقرة من سفر إشعيا : « روح الرب علىّ لأن الرب مسحنى لأبشر المساكين ، أرسلنى لأعصب منكسرى القلب ، لأنادى للمسبيين بالعتق ، وللمأسورين بالإطلاق » « وللعمى بالبصر ، وأرسل المنسحقين فى الحرية »(*)، ويضيف لوقا « وجميع الذين فى المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه ، فابتدأ يقول لهم إنه اليوم قد تم هــذا المكتوب فى مسامعكم » ؛ وكان الجميع يشهدون ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فيه »[٤٨] . ولما عرف أن يوحنا قد قتل وأن أتباعه كانوا يبحثون عن زعيم جديد تحمل يسوع العبء وما يستتبعه من خطر ، وارتد أولا فى حذر وحيطة إلى القرى الهادئة وصار يتجنب على الدوام الجــدل السياسى ، ثم أصبح فى كل يوم أعظم جرأة فى إعلانه إنجيل التوبة ، والإيمان ، والنجاة ، حتى ظن بعض أتباعه أنه هو يوحنا قام من بين الموتى[٤٩] .

وإنا ليصعب علينا أن ننظر إليه نظرة موضوعية مجردة : وليس سبب هذه الصعوبة مقصوراً على أن كل ما نعرفه عنه منقول عن الذين كانوا يعبدونه ، بل إن من أكبر أسبابها أن تراثنا الأخلاق ومثلنا العليا وثيقا الصلة به ، تكونا

(*) هــذا الجزء من إنجيل لوقا ٤ : ١٨ وإن كان المؤلف يضيفه إلى الآيات السابقة المنقولة عن سفر إشعيا . (المترجم)

على منواله ، ولهذا فإنا نحس بما يصيبنا من أذى إذا وجدنا عيباً فى أخلاقه .
لقد بلغ شعوره الدينى من القوة حداً جعله يندد أشد التنديد بمن لا يشاركونه فى آرائه ، ويعفو عن كل الأغلاط إلا عدم الإيمان . وإن الإنسان ليجد فى الأناجيل فقرات قاسية مريرة لا تواثم قط ما يقال لنا عن المسيح فى مواضع أخرى منها ؛ ويبدو أنه قبل دون بحث وتمحيص أقسى ما كان يؤمن به معاصروه عن جهنم السرمدية التى يعذب فيها من لا يتوبون من الكفار والمذنبين بالنار التى لا تنطفئ أبداً والديدان التى لا تشبع من نهش أجسامهم[٥٠] . وهو يقول دون أن يحتج عليه أحد إن رجلا فقيراً فى الجنة لم يسمح له بأن يترك نقطة واحدة من الماء تسقط على لسان رجل غنى فى الجحيم[٥١] . وينصحنا بنبل وشرف ألا نحكم حتى لا يحكم علينا ، ولكنه يلعن الناس والمدن التى لم تؤمن برسالته ويلعن شجرة التين التى لم تكن تحمل ثمراً[٥٢] . ولعله كان قاسياً بعض القسوة على أمه[٥٣] . وكان يتصف بحماسة النبى العبرانى المتزمت أكثر من اتصافه بالهدوء الشامل الذى يمتاز به الحكيم اليونانى وكانت عقائده القوية تملأ قلبه ؛ كما كان غضبه للحق يطمس من حين إلى حين معالم إنسانيته العميقة ؛ ولكن أغلاطه كانت هى الثمن الذى أداه لذلك الإيمان القوى الذى استطاع أن يحرك به العالم . أما فيما عدا هذا فقد كان أحب الناس إلى القلوب . وليست لدينا صورة واضحة له ولم يترك لنا أتباعه وصفاً له دقيقاً ، ولكن الذى لا شك فيه أنه كان وسيما بعض الوسامة ، كما كان ذا روح جذابة ، استطاع بفضلهما أن يجمع حوله كثيرات من النساء وكثيرين من الرجال : وفى وسعنا أن نستدل من بعض العبارات المتفرقة[٥٤] ، على أنه كان يلبس ، كما كان يلبس أهل زمانه ، عباءة فوق جلباب ، وخفين فى قدميه ، ولعله كان يضع على رأسه غطاء ينزل على كتفيه ليقيه حر الشمس[٥٥] . وكانت كثيرات من النساء يجدن عنده شيئا من العطف والحنان يبعث فيهن إخلاصا عامراً تفيض به قلوبهن . وليس انفراد يوحنا بذكر المرأة التى ضبطت وهى تزنى

حجة على كذبها ، فليست هذه القصة مما يفيد يوحنا من الناحية الدينية ، وهى فوق هذا مما يتفق كل الاتفاق مع أخلاق المسيح(*) . ولا يقل جمالا عن هذه القصة قصة أخرى ليس فى طاقة أتباعه أن يخترعوها ، وهى قصة العاهر التى أثرت فى قلبها سرعة قبوله توبة المذنبين ، فخرت راكعة بين يديه ، ودهنت قدميه بالطيب الثمين ، وغسلتهما بدموعها ، وجففتهما بشعر رأسها ، وقال عنها عيسى إن خطاياها قد غفرت لها « لأنها أحبت كثيراً »(٥٧) . ويروى أن الأمهات كن يأتين إليه بأطفالهن ليمسهم بيديه ، وأنه « احتضنهم ووضع يديه عليهم وباركهم »(٥٨) .

ولم يكن عيسى من النساك الزاهدين كما كان الأنبياء الإسينيون والمعمدان . ويروى عنه أنه قدم كثيراً من الخمر فى حفل للزواج ، وأنه كان يعيش مع « العشارين والمذنبين » ، وأنه قَبِل عاهراً تائبة ضمن أتباعه . ولم يكن يأنف من مسرات الحياة الساذجة ، وإن كان قد قسا قسوة غير طبيعية على رجل كان يشتهى فتاة . وكان فى بعض الأحيان يقبل الدعوة إلى الولائم فى بيوت الأغنياء ، بيد أنه كان فى العادة يختلط بالفقراء ، وإن كانوا من الأحارين Amhaarez أشبه الناس بالمنبوذين الذين كان الفريسيون الصدوقيون يحتقرونهم ويتجنبونهم . وكان يدرك أن الأغنياء لن يؤمنوا برسالته ، فكان لذلك يبنى آماله على ما عساه يحدث من انقلاب يدخل الفقراء الوضيعين الأعلين فى ملكوت الله . ولم يكن يشبه قيصر إلا فى وقوفه إلى جانب الطبقات السفلى وفى اتصافه بالرحمة ، أما فيما عدا هذا فما أكبر الفرق بين الرجلين فى أخلاقهما ، ونظرتهما إلى الحياة ، وما يهتمان به فيها . لقد كان قيصر يرجو أن يصلح الناس بتبديل

(*) يوحنا ٧ : ٥٢ وما بعدها . وقد وردت القصة أيضاً فى نسخ خطية قديمة من إنجيل مرقس ولوقا ، ولكنها حذفت من نصيهما المتأخرين ، وليس سبب حذفها خوف الناشرين من أنها قد تساعد على فساد الأخلاق .

نظمهم وشرائعهم ؛ أما المسيح فكان يرغب فى أن يكون تغيير طبائع الناس وسيلة لتبديل النظم والاستغناء عن كثير من الشرائع . وكان قيصر هو الآخر ممن يغضبون أحياناً ؛ ولكن انفعالاته كانت على الدوام تحت سيطرة بصيرته النفاذة ؛ أما عيسى فلم يكن أيضاً غير ذى بصيرة ، وكان يجيب عن أسئلة الفريسيين الماكرة بمهارة تكاد تضارع مهارة المحامين . ولكنها لم تكن مهارة خالية من الحكمة ، ولم يكن فى وسع أحد أن يربكه ولو هدده بالقتل . لكن قواه العقلية لم يكن منشؤها اتساع عقله أو كثرة معارفه ، بل كان مبعثها نفاذ البصيرة ، وقوة الشعور ، ووحدة الغرض . ولم يكن يدعى العلم بكل شىء ، وكثيراً ما كان يفاجأ بالحوادث التى لا ينتظر وقوعها ، وكان الذى يحمله على المغالاة فى تقدير قواه ومواهبه هو جده وحرصه على الوصول إلى غرضه وتحمسه له ، كما حدث فى الناصرة وأورشليم . بيد أن قواه كانت غير عادية ، ولعل الذى يثبت هذا هو معجزاته .

وأكبر الظن أن معظم هذه المعجزات كانت تحدث فى أكثر الأحوال بقوة الإيحاء — أى بتأثير روح قوية واثقة من نفسها ، فى روح قابلة للتأثر . ولقد كان وجوده فى حد ذاته يبعث القوة فيمن حوله ، فكانت لمسته المبشرة بالخير تشفى المريض وتقوى الضعيف ، وليست رواية أمثال هذه القصص عن غيره من الناس فى الخرافات والتاريخ[٥٩] دليلا على أن معجزات المسيح هى الأخرى خرافات وأساطير ، فليس منها إلا عدد قليل ، لا يصدقه العقل ، ويمكن مشاهدة أمثالها فى كل يوم تقريبا فى لورد Lourdes ، وما من شك فى أنها كانت تحدث أثناء حياة المسيح فى إبدروس Epidaurus وغيرها من مراكز العلاج النفسانى فى العالم القديم ، وقد شفى الرسل أنفسهم حالات من هذا النوع . وهناك عاملان يدلان على أن هذه المعجزات ظاهرة نفسانية : أولها أن المسيح نفسه كان يعزو شفاء المرضى على يديه إلى « إيمان » من يشفيهم ، وثانيهما عجزه عن القيام

بمعجزات فى الناصرة ، لأن أهلها فيما يظهر كانوا ينظرون إليه على أنه « ابن النجار » ولا يؤمنون بقواه غير العادية ؛ ومن ثم كان قولهم إنه « ليس نبى بلا كرامة إلا فى وطنه وفى بيته »(٦٠) . ويقال لنا عن مريم المجدلية إن « سبعة شياطين قد أخرجت منها ، أى أنها كانت تشكو آلاما ونوبات عصبية ، (ويذكرنا هذا باعتقاد البعض أن الشياطين تتقمص أجسام الناس) » ؛ والظاهر أن هذه الآلام والنوبات كانت تخف حدتها فى حضرة عيسى ؛ ومن أجل هذا كانت تحبه لاعتقادها أنه أعاد إليها الحياة ، وأن قربه منها كان أمراً لا غنى عنه لسلامة عقلها . وأما ابنة بايروس فقد قال المسيح عنها فى صراحة : إن البنت لم تمت بل كانت نائمة — ولعلها كانت مصابة بالشخوص(*) . ولم يلجأ حين ناداها بأن تستيقظ إلى لهجته الرقيقة المعتادة بل قال بلهجة الآمر القوية : « طليثا قومى » (أى يا صبية قومى)(٦١) . ولسنا نقصد بهذا أن نقول إن عيسى كان يرى أن معجزاته ظواهر طبيعية محضة ؛ فقد كان يحس أنه لا يأتى بهذه المعجزات إلا بمعونة ما فيه من روح قدسية . ولسنا نعرف أنه كان مخطئا فى اعتقاده هذا ، كما أننا لا نستطيع حتى الآن أن ندرك حدود ما فى تفكير الإنسان وإرادته من إمكانيات وقوى كامنة . ويبدو أن عيسى نفسه كان يحس بخَوَر نفسانى بعد أن يقوم بمعجزاته ، وأنه كان يحاولها وهو كاره ، وينهى أتباعه عن إذاعتها ، ويؤنب من يطلب إليه « علامة » ، ولقد ساءه أن أكبر الأسباب التى دعت الرسل أنفسهم إلى الإيمان به هو ما أتاه من أفعال « عجيبة » .

ويصعب علينا أن نقول إن أولئك الرسل كانوا من طراز الذين يُختارون ليبدلوا أقوال العالم . فالأناجيل تظهر ما بين أخلاقهم من اختلاف واقعى ، وتكشف عيوبهم كشفاً صريحاً ؛ فهم لا يخفون مطامعهم ، ولما أراد

(*) ويسمى أيضاً بالتخشب والجمود أو داء الثبوت وهو مرض عصبى يتميز بفقد الإرادة وتصلب العضلات سببه مرض الجهاز العصبى المركزى (شرف) .

عيسى أن يهدئ من هذه المطامع وعدهم بأنهم سيجلسون فى يوم الحساب على اثنى عشر كرسيا يدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر[٦٢] . ولما أن سجن المعمدان انضم أندرو أحد أتباعه إلى عيسى وجاء معه بأخيه سيمون الذى سماه المسيح باسم كفاس ، أى « الصخرة » . وترجم اليونان اسمه إلى بطرس . وبطرس هذا شخصية بشرية لحما ودما ، فهو متهور ، جاد ، كريم ، غيور ، هياب يصل به الوجل فى بعض الأحيان إلى حد الجبن الذى لا يسع الإنسان إلا أن يعفو عنه . وقد كان هو وأندرو يصيدان السمك فى بحيرة الجليل ، وكذلك كان ولدا زبدى Zebedee يعقوب ويوحنا . وانتقل هؤلاء الأربعة بأعمالهم وأسرهم وأصبحوا دائرة ضيقة حول المسيح . وكان متَّى جابيا فى مدينة كپرنوم القائمة على الحدود ؛ أى أنه كان يقوم بعمل للدولة ، وإذن فقد كان فى منصبه هذا يخدم رومة ؛ لهذا كان مكروها من كل يهودى يتوّق إلى الحرية . وكان يهوذا الكريوثى وحده دون سائر الرسل الذى لم يأت من الجليل . وجمع الاثنا عشر كلهم جميع ما يملكون وعهدوا إلى يهوذا أن يتولاها نائبا عنهم ؛ وكانوا فى طوافهم مع المسيح فى رحلاته التبشيرية يعيشون على ما يقدمه لهم القرويون ، ويأخذون طعامهم آنا بعد آن مما يمرون به من الحقول ، ويقبلون ضيافة أصدقائهم ومن يهتدون بهديهم . وقد أضاف عيسى إلى الاثنى عشر اثنين وسبعين من الأتباع ، وبعث باثنين منهم إلى كل بلدة يريد أن يزورها ، وقال لهم « لا تحملوا كيسا ، ولا مزوداً ، ولا أحذية »[٦٣] . وانضمت بعض النساء الصالحات الرحيمات إلى أولئك الرسل والأتباع وقدمن لهم المعونة ، وأدين لهم تلك الأعمال المنزلية التى لا غنى عنها ، والتى هى أعظم سلوى لحياة الرجال . وعلى يد هذه الجماعة الصغيرة الوضيعة غير المتعلمة أرسل المسيح إنجيله إلى العالم .

الفصل الرابع

الإنجيـــل

وكان يعلم الناس بالبساطة التى تتطلبها حال مستمعيه ، ويمزج هذه التعاليم بالقصص الطريفة التى تجعل دروسه تنفذ إلى الأذهان ، وبالحِكَم والأمثال القوية بدل الحجج العقلية ، وبالاستعارات ، والمجازات التى لا تقل روعة عن أمثالها فى أى أدب من آداب العالم . وكانت طريقة القصص الرمزى التى يلجأ إليها مألوفة فى بلاد الشرق ، وقد أخذ بعض تشبيهاته الرائعة ، ولعله أخذها دون علم منه ، عن أنبياء بنى إسرائيل ، وكتاب المزامير ، وأحبار اليهود[٦٤] . بيد أن وضوح خطبه واتجاهها إلى هدفها مباشرة ، وروعة خياله وقوّته ، وإخلاصه العظيم ، قد رفعت أقواله إلى مستوى الشعر الملهم . ولسنا ننكر أن الغموض يكتنف بعض أقواله ، وأن بعضها يبدو لأول وهلة مما يتجافى مع العدالة[٦٥] ، وأن منها ما يشتمل على السخرية اللاذعة والحقد المرير ، ولكنها كلها تقريبا نماذج فى الإيجاز والوضوح والقوة .

وكانت بداية تعاليمه هى إنجيل يوحنا المعمدان ، وهذا الإنجيل نفسه يرجع إلى دانيال وأخنوخ ، إذ ليس فى التاريخ طفرات . ومن أقواله أن ملكوت الله قد حان أجلها ، وأن الله سيقضى عما قريب على عهد الشر والخبائث ، وأن ابن الإنسان سيأتى « على سُحُب السماء » ليحاسب جميع البشر الأحياء منهم والأموات[٦٦] . ومن أقواله إن الوقت الذى يجب أن يتوب فيه الإنسان من ذنوبه يمر مسرعا ، فأما من تاب وأناب ، وسلك سبيل العدالة ، وأحب الله ، وآمن برسوله ، فإنه يرث ملكوت السموات ، ويسمو إلى القوة والمجد فى عالم قد تحرر آخر الأمر من جميع الشرور والآلام والموت .

وكانت هذه الأفكار كلها مألوفة لسامعيه ، ولهذا فإن المسيح لم يحددها تحديداً واضحا ، ومن ثم نشأت فى وقتنا هذا صعاب جمة سببها ما فى هذه الأفكار من غموض . ترى ماذا كان يعنى بملكوت السموات ؟ أهى سماء خيالية خارجة عن مألوف الطبيعة ؟ يخيل إلينا أنها لم تكن كذلك ، لأن الرسل والمسيحيين الأولين كانوا على بكرة أبيهم ينتظرون أن توجد مملكة أرضية ، وكانت هذه هى الرواية اليهودية التى ورثها عنهم المسيح ، ومن أجل هذا كان يعلم أتباعه أن يصلوا إلى الأب قائلين « ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض » .

ولم يُنطق إنجيل يوحنا المسيح بقوله إن « مملكتى ليست من هذا العالم »[٦٧] إلا بعد أن خبا هذا الأمل . فهل كان يعنى بها حالة روحية أو طوبى مادية ؟ لقد كان يتحدث فى بعض الأحيان عن ملكوت الله بوصفها حالة من حالات الروح يصل إليها الأطهار المبرؤون من الذنوب — « ملكوت الله داخلكم »[٦٩] ؛ وكان فى أحيان أخرى يصورها كأنها مجتمع سعيد فى مستقبل الأيام ، حكامه هم الرسل ، ويأخذ من أعطى أو أوذى فى سبيل المسيح مائة ضعف[٧٠] . ويبدو أنه لم يكن يرى أن ملكوت الله هى الكمال الخلقى إلا مجازاً ، وأنه يرى أن هذا الكمال الخلقى إنما هو إعداد لهذا الملكوت وثمن يؤدى للحصول عليه ، وأنه هو الحال التى تكون عليها جميع الأرواح الناجية فى الملكوت إذا ما تحقق[٧١] .

ومتى يحين موعد هذا الملكوت ؟ قريبا . « الحق أقول لكم إنى لا أشرب بعد من نتاج الكرمة إلى ذلك اليوم حينما أشربه جديداً فى ملكوت الله » . ومن أقواله لأتباعه : « لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتى ابن الإنسان »[٧٣] . ثم أخره قليلا فيما بعد : « إن من القيام ههنا قوما لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتيا فى ملكوته »[٧٤] ؛ « لا يمضى هذا الجيل حتى يكون هذا

كله »[٧٥] . ومرّت به لحظات رأى فيها من حسن السياسة أن يحذر رسله بقوله : « وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين فى السماء ، ولا الابن إلا الأب »[٧٦] . وستسبقه علامات : « وسوف تسمعون بحروب وأخبار حروب . . . تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة ، وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل فى أماكن . . . يعثر كثيرون و . . . يبغض بعضهم بعضا . ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ، ويضلون كثيرين ، ولكثرة الإثم تبرد محبة الكثيرين »[٧٧] . وفى بعض الساعات جعـــل يسوع مجيء ملكوت الله ينتظر استحالة الإنسان إلها عادلا كما جعله موقوفاً على هذه الاستحالة ؛ وهو يجعل حلول الملكوت عادة عملا من أعمال الله ، وعطية ومعجزة يفاجأ بها الناس من قبل العناية الربانية .

وقد فهم الكثيرون ملكوت الله بأنه طوبى شيوعية ، وحسبوا المسيح ثائراً اجتماعيا[٧٨] . وإنا لنرى فى الأناجيل بعض الشواهد التى تؤيد هذا الرأى ، منها أن المسيح لا يخفى احتقاره للرجل الذى يجعل همه فى الحياة جمع المال والانغماس فى الترف[٧٩] ، فهو يتوعـــد الفتى البطين بالجوع والشقاء ، ويواسى بالتطويبات التى ضمن لهم بها ملكوت الله . ولما سأله شاب غنى عما يجب أن يفعله بعد أن حفظ الوصايا قال : « بع أملاكك ، وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء ، و... اتبعنى »[٨٠] . ويبدو أن الرسل كانوا يفسرون الملكوت بأنه انقلاب ثورى للعلاقات القائمة بين الأغنياء والفقراء ، وسوف نراهم هم والمسيحيين الأولين يؤلفون جماعة شيوعية : « وجميع الذين آمنوا كانوا معاً ، وكان عندهم كل شيء مشتركا »[٨١] . وكانت التهمة التى أدين من أجلها عيسى هى أنه كان يتآمر ليكون « ملك اليهود » .

ولكن فى وسع الرجل المحافظ أن يجد فى العهد الجديد شواهد يؤيد بها آراءه . منها أن المسيح قد اتخذ متّى صديقا له ، ومتّى هو الذى ظل كما كان

عاملا من قبل الرومان ؛ ومنها أنه لم يطعن قط على الحكومة المدنية ، ولم يكن له فيما نعلم نصيب فى الحركة اليهودية التى تهدف إلى الحركة القومية ، وأنه كان ينصح بالكياسة البعيدة أشد البعد عن الثورة السياسية . وقد نصح الفريسيين بأن يعطوا « ما لقيصر لقيصر وما لله لله »[٨٢] . ولسنا نجد فى قصة الرجل الذى « دعا عبيده » قبل سفره « وسلمهم أمواله »[٨٣] أية شكوى من الربا أو الاسترقاق ، بل إنها تسلم بهاتين السنتين بوصفهما من الأمور التى لا تقبل الجدل . ويبدو أن المسيح يقر ما فعله العبد الذى استثمر العشر الميقات (٦٠٠ ريال أمريكى) التى عهد بها إليه سيده ، فصارت عشرين ؛ وأنه لا يقر عمل العبد الذى تركت له منها واحـــدة فحبسها ولم يستثمرها حتى يعود سيده من غيبته ، ويُنطق هذا السيد بتلك العبارة القاسية : « إن كل من له يُعطى ، ومن ليس له فالذى عنده يؤخذ منه »[٨٤]، وهى خير ما تلخص به أعمال السوق التجارية ، إن لم نقل إنها خير خلاصة لتاريخ العالم . وفى قصة رمزية أخرى نرى العمال غاضبين على صاحب العمل الذى يؤجر من عمل ساعة بقدرِ ما يؤجِر الذين ظلوا يكدحون طول اليوم ؛ فينطق المسيح صاحب العمل بقوله : « أو ما يحل لى أن أفعل ما أريد بمالى ؟ »[٨٥] . ويبدو أن المسيح لم يفكر فى القضاء على الفقر ، لأن الفقراء دائما معه . فهو كالأقدمين جميعا يرى أن من الأمور المسلم بها أنه يجب على العبد أن يخدم سيده على خير وجه : « طوبى لذلك العبد الذى إذا جاءه سيده يجده يفعل هكذا »[٨٦] أى ما كلفه به . وهو لا يرى من شأنه أن يهاجم النظم الاقتصادية أو السياسية القائمة فى وقته ، بل يفعل عكس هذا فيهاجم ذوى النفوس الثائرة المتحمسة الذين يغتصبون ملكوت السموات[٨٧]. أما الثورة التى كان يفكر فيها فكانت أعمق من هذه الثورة وأبعد منها أثراً ، فهى ثورة إذا لم تحدث كانت كل الإصلاحات سطحية سريعة الزوال . فإذا استطاع أن يطهر قلوب الناس من الشهوات الأنانية ، ومن القسوة ، والفجور ، فإن الطوبى

تحل ، ولا يبقى أثر لتلك النظم التي تنشأ من شره الإنسان وعنفه ، وما تستتبعه من الحاجة إلى القوانين . وهذا إذا تم كان أعمق الثورات ، التي إذا قيست إليها الثورات جميعها كانت تغيراً موقوتاً يضـــع طبقة مكان طبقة ، وتظل الطبقة الغالبة تستغل الناس كما كانت تستغلهم الطبقة المغلوبة . وبهذا المعنى كان المسيح أعظم الثائرين ، أي محدثي الانقلابات في تاريخ العالم .

وليست أهم أعماله أنه يبشر بدوله جديدة ، بل أهمها أنه يضع الخطوط الرئيسية لمبادئ أخلاقية مثالية . وكانت تلك المبادئ الأخلاقية هي التي تنبأ بقيامها عند ما يحل موعد ملكوت الله(٨٨) ، والتي كان يقصد بها أن يكون الناس خليقين بالدخول في هذا الملكوت . ومن ثم كانت تلك « التطويبات » وما فيها من تمجيد للوداعة ، والفقر والرقة ، والسلام لم يسبق له مثيل ، وكانت نصيحته أن يدير الإنسان خده الثاني ، وأن يكون الناس كصغار الأطفال (لامثلا عليا للفضيلة !) ، وكان عدم اهتمامه بالشئون الاقتصادية ، وبالفقر ، وبشئون الحكم ، وتفضيله العزوبة على الزواج ، وأمره الناس بأن يتخلوا عن جميع الروابط العائلية لم تكن هذه قواعد للحياة العادية ، بل كانت نظاما يكاد يماثل نظام الأديرة يهيئ الرجال والنساء لأن يختارهم الله لمملكة مرتقبة ، لن تكون فيها شريعة ، ولا زواج ، ولا علاقات جنسية ، ولا فقر ، ولا حرب . وقد أثنى يسوع على الذين تركوا « بيتاً ، أو والدين ، أو إخوة ، أو امرأة ، وأولاداً » بل أثنى أيضاً على الذين « خصَوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات »(٨٩) . وما من شك في أن هذه التعاليم قد وضعت لتسير عليها أقلية دينية ورعة ، ولم توضع لمجتمع دائم . لقد كانت هـــذه مبادئ أخلاقية ، ضيقة في أغراضها ، ولكنها عامة في مجالها ، لأنها تطبق فكرة الأخوة والقاعدة الذهبية على الأجانب والأعـــداء كما تطبقها على الجيران والأصدقاء . وكانت تتطلع إلى زمن لا يعبد فيه الناس الله في الهياكل ، بل يعبدونه « بالروح ، والصدق » وبكل عمل يعملونه لا بالألفاظ الزائلة .

ترى هل كانت هذه المبادئ الأخلاقية جديدة ؟ ليس ثمة شيء جديد إلا الترتيب ، وإن الفكرة الرئيسية التي تدور حولها عظات المسيح — فكرة يوم الحساب وملكوت الله — هي من الأفكار التي وجدت عند اليهود قبل ذلك الوقت بمائة عام . ولقد نادت الشريعة بأخوة البشر قبل ذلك بزمن طويل . فقد جاء في سفر اللاويين : « تحب قريبك كنفسك » و « كالوطني منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم وتحبه كنفسك[٩٠] » . وكان اليهود قد أمِرُوا في سفر الخروج أن يحسنوا لأعدائهم[٩١] ، وكان إرميا[٩٢] وإشعيا[٩٣] ، قد أشارا عليهم أن يديروا خدهم لمن يلطمهم . وكان الأنبياء أيضا قد جعلوا الحياة الصالحة أعلى درجة من العداوة أيا كان نوعها ، وكان إشعيا[٩٤] وهوشع[٩٥] ، قد شرعا يبدلان يهوه من رب الجنود إلى إله الحب ، وكان هلل قد صاغ القاعدة الذهبية كما صاغها كنفوشيوس ؛ وليس من حقنا أن نأخذ على يسوع أنه ورث المبادئ الأخلاقية التي كانت سائدة بين شعبه ، وأفاد من تلك المبادئ .

وقد ظل المسيح زمنا طويلا لا يرى في نفسه إلا أنه أحد اليهود ، يؤمن بأفكار الأنبياء ، ويواصل عملهم ، ويجرى على سنتهم : فلا يخطب إلا في اليهود . ولما أرسل أتباعه لينشروا إنجيله لم يرسلهم إلا لمدن اليهود : « إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة السامرين لا تدخلوا »[٩٦] ؛ ومن ثم كان تردد الرسل بعد موته في أن يحملوا « الأنباء الطيبة » إلى عالم « الكفرة »[٩٧] ولما التقى بالسامرية عند البئر قال لها إن « الخلاص هو من اليهود »[٩٨] ، وإن لم يكن من حقنا أن نحكم عليه من أقوال لعلها قد تقولها عليه إنسان لم يكن حاضرا معه ، أو كتبها بعد ستين عاما من الحادثة التي قيلت فيها . ولما طلبت إليه امرأة كنعانية أن يشفي ابنتها أبى في أول الأمر وقال : « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة »[٩٩] . وقال للأبرص الذي شفاه من علته « اذهب وأر نفسك للكاهن وقدمَ القربان الذي أمر به موسى »[١٠٠] : « على كرسي موسى جلس الكتبـــة والفريسيون ،

فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ، لكن حسب أعمالهم لا تعملوا »[١٠١] ، ولما عرض يسوغ أن تعدل الشريعة اليهودية ، سار على سنة هلل فلم يفكر فى أنه ينقض هذه الشريعة : لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل »[١٠٢] « ولكن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس »[١٠٣][*] .

لكنه مع هذا قد بدل كل شىء بقوة أخلاقه وشعوره . فقد أضاف إلى الشريعة اليهودية أمره إلى الناس بأن يستعدوا للدخول فى الملكوت بأن يحيوا حياة العدالة ، والرأفة والبساطة . وزاد الشريعة صرامة فى مسائل الجنس والطلاق[١٠٥] ، ولكنه خففها بأن كان أكثر استعدادا للعفو[١٠٦] ، وذكر الفريسيين أن السبت قد وضع لخير الإنسان[١٠٧] ، وخفف الشروط الموضوعة على الطعام والطهارة ، وحذف بعض أوقات الصوم ، وأعاد الدين من المراسم والطقوس إلى الصلاح والاستقامة ، وندد بالجهر بالصلوات ، والتظاهر بالصدقات ، والاحتفالات الفخمة بالجنازات ، وترك الناس أحيانا يظنون أن الشريعة اليهودية سوف تمحى حين تحل الملكوت[١٠٨] .

وقد قاوم اليهود على اختلاف شيعهم هذه الإصلاحات عدا الإسينيين ، وكان الذى أغضبهم بنوع خاص ما ادعاه لنفسه من حق العفو عن الخطايا والتحدث باسم الإله . وقد هالهم أن يروه يختلط بعمال رومة المبغضين ، وبالنساء ذوات السمعة السيئة : وكان كهنة الهيكل وأعضاء السنهدرين يرقبون نشاطه بعين الريبة ، ويرون فى هذا النشاط ما كان يراه هيرودس فى نشاط يوحنا وهو أنه ستار يخفى تحته ثورة سياسية ، وكانوا يخشون أن يتهمهم الحاكم الرومانى بأنهم يتحللون مما هو مفروض عليهم من تبعات ليحافظوا بذلك على النظام الاجتماعى .

(*) ربما كانت هذه الفقرات مما تقوله عليه المسيحيون المتهودون الذين أرادوا أن يحطوا من شأن بطرس[١٠٤] ، ولكننا لا نستطيع أن نجزم بهذا إذ ينقصنا الدليل .

وقد أوجسوا فى نفوسهم خيفة من وعد المسيح بتدمير الهيكل ، ولم يكونوا واثقين من أن هذا التدمير إنما هو تدمير مجازى لايقصد به حرفيته . أما المسيح نفسه فقد ندد بهم تنديداً شديداً .

« الكتبة والفريسيون . . . يحزمون أحمالا ثقيلة عسرة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس ، وهم لا يريدون أن يحركوها بإصبعهم . وكل أعمالهم يعملونها لكى تنظرهم الناس ، فيعرضون عصائبهم ويعظمون أهداب ثيابهم ، ويحبون المتكأ الأول فى الولائم والمجالس الأولى فى المجامع . . . لكن ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون . . . أيها القادة العميان . . . أيها الجهال والعميان ! . . . تركتم أثقل الناموس — الحق والرحمة والإيمان . . . تنقون خارج الكأس والصحفة ، وهما من داخل مملوءان اختطافا ودعارة . . . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة ! . . . تظهرون للناس أبراراً ولكنكم من داخل مشحونون رياء ونفاقا . . . إنكم أبناء قتلة الأنبياء ، فاملأوا أنتم مكيال آبائكم ! أيها الحيات أولاد الأفاعى كيف تهربون من دينونة جهنم ؟ . . . إن العشارين والزوانى يسبقونكم إلى ملكوت الله »[١٠٩] .

ترى هل كان يوحنا عادلا فى حكمه على الفريسيين ؟ أكبر الظن أنه كان من بينهم من يستحقون هذا التقريع ، وأن منهم كثيرين كانوا يفعلون ما فعله المسيحيون بعد بضعة قرون من ذلك الوقت فيستبدلون بطهارة النفس مظاهر التقى الخارجية : غير أنه كان من بين الفريسيين كثيرون يرون أن الشريعة يجب أن تخفف وأن تكون أكثر إنسانية مما هى[١١٠] . ولعل عدداً كبيراً من هذه الطائفة كانوا رجالا مخلصين ، وأشرافاً ظرفاء إلى حد كبير ، يشعرون بأن القواعد الشكلية التى أغفلها يسوع يجب ألا يحكم عليها مستقلة عن غيرها من القواعد ، بل يجب أن تؤخذ على أنها جزء من الشرائع التى ساعدت على جميع كلمة اليهود ، وبعثت فيهم العزة والأدب وسط عالم يبغضهم ويعاديهم : وكان بعض

الفريسيين يعطفون على عيسى ، وقد جاءوه ليحذروه من المؤامرات التي كانت تدبر لاغتياله(١١١) ، ولقد كان نقوميدس **Nicomedus** أحد المدافعين عنه من أغنياء الفريسيين .

وحلت القطيعة الأخيرة بين عيسى وبينهم حين بدأ يعتقد أنه هو المسيح المنتظر ، ويعلن هذا فى صراحة ووضوح . لقد كان أتباعه ينظرون إليه فى أول الأمر على أنه خليفة يوحنا المعمدان ، ثم أخذوا يعتقدون شيئاً فشيئاً أنه هو المنقذ الذى سيرفع نير الرومان عن إسرائيل ، ويبسط حكم الله على الأرض . ولما أن سألوه « قائلين يارب هل فى هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل ؟ »(١١٢) لم يجبهم إلا بقوله « ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التى جعلها الرب فى سلطانه » وأجاب جواباً شبيهاً بهذا الجواب فى غموضه حين سأله رسل من عند المعمدان هل هو المسيح المنتظر ؛ وأراد أن يخرج من عقول أتباعه فكرة أنه مسيح سياسى فأنكر كل ادعاء بأنه من نسل داود(١١٣) . لكن يلوح أن ترقب أتباعه وآمالهم القوية ، وما تبينه من قواه النفسية غير العادية قد أقنعاه تدريجا بأنه رسول من عند الله جاء ليعد الناس لحكم الله فى الأرض لا ليعيد سيادة اليهودية ؛ ولم يقل (فى الأناجيل الثلاثة المتشابهة — متى ، ومرقس ، ولوقا) إنه هو والأب إله واحد أو يسوى نفسه به ، فقد سأل أتباعه : « لماذا تدعونى صالحاً ؟ ليس أحداً صالحاً إلا واحد وهو الله »(١١٤) وقال وهو يصلى فى جتسمانى : « ليكن لا ما أريد أنا ، بل ما تريد أنت »(١١٥) . وقد أخذ لفظ « ابن الإنسان » الذى جعله دانيال مرادفاً للفظ المسيح ، واستعمله فى بادئ الأمر دون أن يقصد به نفسه فى وضوح ثم انتهى آخر الأمر بإطلاق هذا اللفظ على نفسه فى مثل قوله : « فإن ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً »(١١٧) — وهى عبارة رآها الفريسيون تجديفا فى حق الله . وكان يدعو الله باسم « الأب » دون أن يقصد بهذا فى بعض الأحيان أباه هو نفسه ، بيد أنه أحيانا أخرى يقول : « أبى » . ويبدو أنه يقصد بهذا

أنه ابن الله بصفة أو درجة خاصة[١١٨] . وقد ظل وقتاً طويلا ينهى أتباعه عن أن يسموه المسيح ، ولكنه فى قيصرية فلبس رضى بقول بطرس إنه « المسيح ابن الله الحى »[١١٩] . ولما اقترب من أورشليم فى آخر يوم اثنين قبل وفاته ليوجه آخر دعوة إلى الناس ، حياه « جمهور التلاميذ » « قائلين مبارك الملك الآتى باسم الرب » ، ولما طلب إليه بعض الفريسيين أن ينتهر تلاميذه من أجل هذه التحية رد عليهم بقوله : « إنه لو سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ »[١٢٠] . وقد جاء فى الإنجيل الرابع أن الجماهير حيته بقولها إنه « ملك إسرائيل »[١٢١] . ويبدو أن أتباعه كانوا لا يزالون يعتقدون أنه مسيح سياسى سيقضى على سلطان الرومان ويجعل الكلمة العليا لليهودية . وكانت هذه الأصوات والتحيات هى التى قضت على المسيح بأن يموت ميتة الثوار .

الفصل الخامس

الموت والتجلى

اقترب عيد الفصح واجتمع فى أورشليم عدد كبير من اليهود ليقربوا القرابين للهيكل . وكان البهو الخارجى يضج بأصوات البائعين ينادون على الحمام وغيره من حيوانات الضحايا ، والصيارفة يعرضون النقود المتداولة فى هذا المكان بدل نقود الوثنيين المتداولة فى الإمبراطورية الرومانية . ولما زار عيسى الهيكل فى اليوم الثانى بعد دخوله المدينة هاله ما كان تحت المظلات من ضجيج وأعمال تجارية فانتابته هو وأتباعه نوبة من الغضب الشديد ، دفعتهم إلى قلب مناضد الصيارفة وتجار الحمام ، وبعثرة نقودهم على الأرض ، وإخراج التجار من ساحته بضرب العصى . وظل عدة أيام بعد مجيئه يعلم فى الهيكل دون أن يتعرض له أحد[١٢٢] . ولكنه كان يخرج منه ليلا ويبيت فى جبل الزيتون لخوفه أن يُقبض عليه أو يُغتال .

وكان عمال الحكومة — المدنيون منهم والدينيون ، الرومان واليهود — يراقبونه ، وأكبر الظن أن هذه المراقبة قد بدأت من يوم أن خلف يوحنا المعمدان فى دعوته . وكان عجزه عن أن يضم إليه عدداً كبيراً من الأتباع مما جعلهم يهملون أمره ، ولكن يبدو أن الاستقبال الحماسى الذى استقبل به فى أورشليم حير زعماء اليهود فصاروا يخشون أن تلتهب حماسة هذه الجماعات التى اجتمعت فى عيد فصح ، فتدفعها عواطفها الثائرة ونزعتها الوطنية إلى الثورة على السلطة الرومانية ثورة طائشة عقيمة لم يحن موعدها بعد ، فتكون عاقبتها القضاء على كل ما تستمتع به اليهودية من حكم ذاتى وحرية دينية . ومن أجل هذا دعا الحاخام الأكبر السنهدرين إلى الاجتماع ،

وقال له : « إنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها »[١٢٣] ووافقته أغلبية الحاضرين على رأيه وأمر المجلس بإلقاء القبض على المسيح .

ويبدو أن نبأ هذا القرار وصل إلى مسامع يسوع ، ولعل الذى أوصله إليه بعض أعضاء فى السنهدرين نفسه . ففى اليوم الرابع عشر من شهر نيسان العبرى (وهو اليوم الثالث من شهر إبريل) من العام الثلاثين فى أرجح الأقوال(*) أكل عيسى ورسله عشاء عيد الفصح فى دار صديق له فى أورشليم ، وكانوا ينتظرون أن ينجى المعلم نفسه بما له من معجزات ؛ لكنه لم يفعل شيئا من هذا ، ورضى بما قُدِّر له ؛ ولعله كان يأمل أن يتقبل الله موته على أنه تضحية يكفِّر بها عن ذنوب شعبه[١٢٤] . وقد قيل له إن أحد الاثنى عشر كان يأتمر به ليسلمه إلى أعدائه ؛ وفى هذا العشاء الأخير اتهم المسيح علناً يهوذا الإسخربوطى(**) . وقد جرى يسوع على السنن اليهودية فبارك الخمر الذى قدمه للرسل ليشربوه ، ثم غنوا جميعاً أغنية هاليل اليهودية[١٢٧] . ويقول يوحنا إنه قال لهم « يا أولادى أنا معكم زماناً قليلا بعد ... وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضا ... لاتضطرب قلوبكم . أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بى . فى بيت أبى منازل كثيرة ... أنا أمضى لأعد لكم مكاناً »[١٢٨] .

ويبدو أن من المعقول جداً أن يطلب المسيح إليهم فى هذه الساعة الرهيبة أن يكرروا هذا العشاء فى مواسم خاصة (كما تتطلب ذلك عادة اليهود) ، إحياء لذكراه ؛ وليس ببعيد أنه ، وهو ذو الإحساس الشرقى المرهف والخيال الشرقى

(*) ولقد طال الجدل حول الزمن الذى امتدت إليه رسالة المسيح ، والسنة التى مات فيها . ولقد رأينا أن لوقا يحدد تعميد المسيح بعام ٢٨ — ٢٩ . أما تاريخ بولس ، الذى يعتمد فيه على ما قاله هو نفسه فى رسالته إلى أهل غلاطية الإصحاح الأول والثانى ، وتواريخ الحكام الرومان الذين تولوا محاكمته ، والرواية المأثورة التى تقول إن موته كان عام ٦٤ ، كل هذا يتطلب أن يكون اعتناق بولس لدين المسيح فى عام ٣١ . انظر الفصل السابع والعشرين .

(**) لقد قيلت حجج كثيرة فى تفنيد قصة يهوذا[١٢٥] ، ولكنها حجج لا يقتنع بها العقل[١٢٦] .

الوثاب ، قد سألهم أن يتصوروا أن العيش الذى يأكلونه هو جسمه ، وأن الخمر التى يشربونها هى دمه .

ويقال إن الجماعة الصغيرة اختبأت تلك الليلة فى حديقة جثسيمانى فى خارج أورشليم : وفيها عثرت عليهم سرية من شرطة الهيكل[١٢٩] وقبضت على يسوع : وسيق أولا إلى بيت أونياس أحد كبار الكهنة السابقين ، ثم نقل منه إلى بيت قيافا ؛ ويقول مرقس إن « المجلس » — ولعل الأصح أن لجنة من أعضاء السنهدرين — اجتمعت فى ذلك المكان . وشهد عليه شهود كثيرون ، وذكروا بنوع خاص تهديده بتخريب الهيكل . ولما سأله قيافا هل هو « المسيح ابن الله ؟ » أجابه كما تقول الرواية « أنا هو »[١٣٠] . واجتمع السنهدرين فى صباح اليوم التالى وأثبت عليه جريمة التجديف (وكان عقابها الإعدام فى تلك الأيام) وقرر أن يسوقه أمام الحاكم الرومانى ، وكان قد جاء إلى أورشليم ليرقب الجماهير المحتفلة بعيد الفصح .

وكان پيلاطس البنطى رجلا قاسيا ، استدعى إلى رومة بعد وقت ما من هذه الحادثة متهماً بابتزاز المال واستخدام القسوة[١٣١] ، وعزل من منصبه . على أنه لم يبد له وقتئذ أن هـذا الواعظ الوديع الخلق خطر حقيقى على الدولة ؛ وسأل الرجل يسوع سؤالا يكاد يكون من قبيل المداعبة : « أأنت ملك اليهود ؟ » فأجاب يسوع ، حسب رواية متى بقوله « نعم » . ولا يسع الإنسان إلا أن يشك فى هذه التفاصيل التى تناقلها الناس مشافهة فى أغلب الظن ، ثم دونوها بعد وقوعها بزمن طويل . فإذا أخذنا بهـذا النص وجب علينا أن نجزم بأن يسوع كان قد قرر أن يموت ، وأن نظرية بولس عن التكفير تجد ما يؤيدها فى عمل المسيح نفسه . وينقل يوحنا عن يسوع أنه أضاف إلى جوابه السابق قوله : « لهذا قد ولدت أنا . . . لأشهد للحق » . وسأله پيلاطى « ما هو الحق ؟ » — وهو سؤال لعل الباعث عليه نزعة الإنجيل الرابع الميتافيزيقية ، ولكنه يدل بأجلى بيان على ما هنالك

من فروق بين ثقافة الرومان السوفسطائية الساخرة ومثالية اليهودى الواثقة المتحمسة . ومهما يكن من شيء فلم يكن أمام القانون بعد اعتراف المسيح إلا أن يدينه ، وبناء على هذا أصدر پيلاطى وهو كاره حكمه بالإعدام .

وكان الصلب من طرق العقاب الرومانية اليهودية . وكان الجلد يسبقه عادة ، فإذا ما جلد المذنب بقسوة أصبح جسمه كتلة من اللحم المتورم الدامى . ووضع الجنود الرومان تاجا من الشوك على رأس المسيح يسخرون بذلك من تلقيبه « ملك اليهود » ، كما نقشوا على صليبه باللغات الآرامية واليونانية واللاتينية « عيسى الناصرى هو ملك اليهود » Nazarathaeus Rek Joudeorum . وسواء كان يسوع من دعاة الثورة أو من غير دعاتها فليس ثمة ريب فى أن رومة قد حكمت عليه بوصفه من هؤلاء الدعاة ، وكذلك فهم تاستس الأمر على هذا النحو[١٣٤] . وكانت جماعة صغيرة ، لا يزيد عددها على ما يتسع له فناء بيت پيلاطس ، قد طالبت بإعدام المسيح ؛ فلما أن أخذ يصعد تل جمجمة « تبعه جمهور كبير من الشعب » كما يقول لوقا[١٣٥] ، والنساء اللواتى كن يلطمن وينحن عليه . وما من شك فى أن هذا الحكم لم يرق فى عين الشعب اليهودى .

وقد أذن لكل من يريد أن يشهد هذا المنظر الرهيب أن يشهده . وكان الرومان الذين يرون أن لا بد لهم أن يحكموا الناس بالإرهاب يختارون لتنفيذ حكم الإعدام فيمن يرتكبون الجرائم التى يحدد لها القانون هذه العقوبة الطريقة التى يسميها شيشرون « أقسى أنواع التعذيب وأبشعها »[١٣٦] . فكانت يد المذنب وقدماه تُدق (أو تربط فى حالات نادرة) إلى الخشبة ، وكانت فيها قطعة بارزة تسند العمود الفقرى أو القدمين . وإذا لم يُرحم المذنب فيُقتل فإنه يبقى على هذه الحال يومين أو ثلاثة أيام ، يقاسى فيها آلام عدم الحركة ، وهو عاجز عن طرد الحشرات التى تتغذى من لحمه العارى ، فتخور قواه ببطء حتى يقف القلب عن الحركة ويضع حداً لهذا العذاب الأليم .

وكان الرومان أنفسهم يشفقون على ضحايا هذا التعذيب فى بعض الأحيان ، ويقدمون لهم شراباً فيفقدهم وعيهم . ويقال إن الصليب كان يرفع « عند الساعة الثالثة أى فى الساعة التاسعة صباحا . ويقول مرقس إن لصين صلبا مع يسوع وإنهما كانا يسبانه . ويؤكد لنا لوقا أن واحداً منهما كان يدعو له[١٣٨] . ولم يكن مع عيسى أحد من الرسل إلا يوحنا وحده ، وكان معه ثلاث نساء تسمى كل واحدة منهن مريم ، أم المسيح ، ومريم أختها ، ومريم المجدلية (وكانت أيضا نساء ينظرن من بعيد)[١٣٩] . واقتسم الجند ثياب الميت كعادة الرومان ؛ وإذ لم يكن للمسيح إلا ثوب واحد فإنهم أخذوا يلقون القرعة ليروا من يأخذ الثوب . ولعلنا نقرأ فى هذا المعنى الآية الثامنة عشرة من المزمور الثانى والعشرين منسوبة إلى المسيح : « يقتسمون ثيابى بينهم وعلى لباسى يقترعون » : ويبدأ هذا المزمور نفسه بتلك الكلمات : « إلهى ، إلهى ، لماذا تركتنى ؟ » . وذلك هو نداء اليأس البشرى الذى يعزوه مرقس ومتى إلى المسيح وهو يحتضر . فهل يمكن أن يكون الإيمان العظيم الذى أعانه فى موقفه أمام پيلاطس قد انقلب فى تلك اللحظات المريرة إلى شك أسود ؟ ولعل لوقا قد رأى أن هذه العبارة لا تتفق مع عقائد بولس الدينية فبدلها بقوله : « يا أبتاه فى يديك أستودع روحى » — وهى عبارة تردد صدى الآية الخامسة من المزمور الحادى والثلاثين ترديداً يثير الريب لما فيه من دقة .

وأشفق جندى على المسيح الظمآن ، فجاء بإسفنجة مغموسة فى الخل وقربها من فيه ، فشرب عيسى وقال : « قد أكمل » . وفى الساعة التاسعة — الثالثة بعد الظهر — « نادى يسوع بصوت عظيم . . . وأسلم الروح » . ويضيف لوقا إلى هذا — ويدل بقوله على عطف اليهود — « وكل الجموع الذين كانوا مجتمعين لهذا المنظر . . . رجعوا وهم يقرعون صدورهم »[١٤١] . واستطاع اثنان من اليهود

الرحماء ذوى النفوذ أن يحصلا على إذن من بيلاطس بإنزال جثة المسيح عن الصليب فأنزلاها وحفظاها بالند والمر ووارياها التراب .

ترى هل مات حقا ؟ لقد كان اللصان اللذان إلى جانبه لا يزالان على قيد الحياة ، وقد كسر الجنود ساقهما حتى تتحمل أيديهما ثقل جسمهما ، فيؤثر ذلك فى حركة الدم ويقف القلب بعد قليل . غير أن هذا لم يحدث فى حالة عيسى ، وإن كان قد قيل إن جنديا طعنه فى قلبه بحربة ، فانبثق الدم من الجرح أولا ثم خرج بعده مصل الدم . وأبدى بيلاطس دهشته من أن يموت رجل بعد ست ساعات من صلبه ؛ ولم يوافق على أن يرفع جسد المسيح عن الصليب إلا بعـــد أن أكد له قائد المائة المكلف به أنه قد مات .

وبعد يومين من هذا الحادث زارت مريم المجدلية — وكان حبها ليسوع تمتزج به تلك النشوة العصبية التى تمتاز بها عواطفها كلها — قبر المسيح مع مريم أم يعقوب وسالومة فوجدنه فارغا ؛ فامتلأت قلوبهن خوفا وسروراً معاً ، وجرين لينقلن ذلك النبأ إلى تلاميذه : والتقين فى الطريق برجل حسبنه يسوع ، فانحنين احتراما له ، وأمسكن بقدميه : وفى وسعنا أن نتصور الأمل الذى انبعث فى النفوس الساذجة من هذا النبأ وما لقيه من ترحيب ؛ لقد قهر يسوع الموت وأثبت أنه هو المسيح المنتظر ابن الله ، وملأ ذلك النبأ قلوب « أهل الجليل » بنشوة جعلتهم على استعداد لأن يصدقوا أية معجزة وأى وحى . ويروى الرواة أن المسيح ظهر فى ذلك اليوم نفسه إلى تلميذين من تلاميذه فى الطريق الموصل إلى عمواس ، وتحدث إليهم ، وأكل معهم ، ولكن « أمسكت أعينهما عن معرفته » ثم « أخذ خبزاً وبارك وكسر . . . فانفتحت أعينهما وعرفاه ثم اختفى عنهما »[١٤٢] . ورجع التلاميذ إلى الجليل فلما « رأوه » بعد قليل « سجدوا له ، ولكن بعضهم شكوا »[١٤٣] . وبينا كانوا يصطادون السمك

رأوا المسيح ينضم إليهم ؛ فألقوا شباكهم ولم يستطيعوا أن يجذبوها من كثرة السمك[١٤٤] .

وجاء فى سفر أعمال الرسل أن المسيح صعد بجسمه إلى السماء بعد أربعين يوما من ظهوره إلى مريم المجدلية . لقد كانت فكرة « انتقال » القديس بجسمه وحياته إلى السماء من الأفكار الشائعة المألوفة بين اليهود ، فقد رووها عن موسى ، وأخنوخ ، وإليشع ، وإشعيا . وهكذا اختفى السيد المسيح بنفس الطريقة ، التى ظهر بها . ولكن يبدو أن معظم تلاميذه كانوا يعتقدون مخلصين أنه قد وجد معهم بجسمه بعد صلبه . وفى ذلك يقول لوقا : « ورجعوا إلى أورشليم بفرح عظيم ، وكانوا كل حين فى الهيكل يسبحون ويباركون الله »[١٤٥](*) .

(*) نكرر هنا ما قلناه من قبل وهو أننا ننقل أقوال المؤلف بنصها ، وأنه ليس لنا أن نعلق عليها أو نبدل فيها . (المترجم) .

الباب السابع والعشرون

الرسل

٣٠ – ٩٥ م

الفصل الأول

بطرس (*)

نشأت المسيحية من الإيحاء الغامض العجيب الخاص بحلول الملكوت ، واستمدت دوافعها من شخصية المسيح نفسه وتخيلاته ، كما استمدت قوتها

(*) إن أهم المراجع التي نعتمد عليها في كتابة تاريخ هذه الفترة هي « أعمال الرسل » . والمتفق عليه بوجه عام أن هذا السفر هو والإنجيل الثالث من وضع مؤلف واحد ، ولكن ليس ثمة ما يماثل هذا الإجماع على أن كاتب السفرين هو لوقا ، صديق بطرس الذي لم يكن من اليهود . وإذا كان سفر الأمثال لم يرد فيه شيء عن موت بولس ، فإن النسخة الأصلية منه تكون قد ألفت حوالى عام ٦٣ ليحاول بها صاحبها تسكين عداء الرومان للمسيحية ولبولس ؛ ولكن المرجح أن الكتاب قد ضمت إليه أجزاء أخرى كتبها مؤلف آخر جاء بعد مؤلفه الأول . ويكثر في هذا السفر ذكر خوارق الطبيعة ، ولكن قصته الأساسية يمكن اعتبارها تاريخاً صحيحاً(١) . وقد ضمت في القرن الثاني عدة « أعمال » و « رسائل » مختلفة مشكوك فيها حذفت من الكتاب المقدس تحتوى على عدد من القصص الخرافية تروى حياة الرسل بعد المسيح . وكانت هذه « الأعمال » بمثابة الروايات الخيالية التاريخية لذلك العصر ، ولم تكن بالضرورة محاولات يقصد بها الخداع والتمويه . وقد رفضتها الكنيسة المسيحية ، ولكن أتقياء المسيحيين آمنوا بها ، وخلطوها خلطاً متزايداً بالتاريخ الصحيح .

وينزع النقاد إلى الاعتقاد بصحة معظم ما جاء في رسالة بطرس الأولى وهي إحدى الرسائل السبع الواردة في العهد الجديد معزوة إلى الرسل الاثنى عشر ، وننزع كذلك إلى القول بأن صاحب رسالات يوحنا هو نفسه صاحب الإنجيل الرابع الذي لا يزال مؤلفه مثاراً النزاع . أما باقي الرسائل فيرفضونها لأنهم يشكون كثيراً في صحتها .

من عقيدة البعث والحساب ، والوعد بحياة الخلود ، واتخذت صورة العقائد الثابتة فى لاهوت بولس ، ثم نمت باستيعابها العقائد والطقوس الوثنية ؛ وأصبحت كنيسة ظافرة منتصرة ، بعد أن ورثت ما امتازت به رومة من أنماط وعبقرية منظمة .

ويبدو أن الرسل كانوا جميعاً يؤمنون بأن المسيح سيعود بعد قليل ليقيم ملكوت السموات على الأرض . انظر إلى قول بطرس فى رسالته الأولى : « نهاية كل شيء قد اقتربت فتعقلوا واصحوا للصلوات »[٣] . وتقول رسالة يوحنا الأولى : « أيها الأولاد ، هى الساعة الأخيرة ، وكما سمعتم أن ضد المسيح يأتى قد صار الآن أضداد كثيرون (نيرون ، فسپازيان ، دومتيان) . من هنا نعلم أنها الساعة الأخيرة »[٤] . وكان الاعتقاد بنزول مسيح ليطهر الأرض ويقيم ملكوت الله ، ويبعث الناس بأجسامهم ، وبعودته إلى الأرض ، هو القاعدة الأساسية للدين المسيحى فى أوائل عهده . على أن هذه العقائد لم تحل بين الرسل وبين استمرارهم فى التمسك بالدين اليهودى . وشاهد ذلك ما جاء فى أعمال الرسل : « وكانوا كل يوم يواظبون فى الهيكل بنفس واحدة »[٥] وأطاعوا قوانين التغذية والحفلات[٦] ، واقتصروا فى أول الأمر على دعوة اليهود وحدهم إلى دينهم ، وكثيرا ما كانوا يخطبون فيهم فى الهيكل[٧] .

وكانوا يعتقدون أنهم قد تلقوا عن المسيح أو عن الروح القدس قوى عجيبة من الإلهام ، وشفاء الأمراض والأقوال . وأقبل عليهم كثيرون من المرضى والعجزة ، ويقول مرقس[٨] إن بعضهم شفوا حين مسحوا بالزيت — وكان هذا المسح على الدوام من وسائل العلاج المنتشرة فى بلاد الشرق . ويصور مؤلف سفر أعمال الرسل صورة مؤثرة للاشتراكية القائمة على الثقة المتبادلة التى كانت سائدة بين هؤلاء المسيحيين الأولين إذ يقول :

« وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة ، ولم يكن أحد

يقول إن شيئا من أمواله له بل كان عندهم كل شيء مشتركا . . . لم يكن فيهم أحد محتاجا لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أرجل الرسل ، فكان يوزع على كل واحد كما يكون له احتياج »[٩] .

ولما كثر عدد المهتدين ، وكثر ما تحت أيدى الرسل من الأموال عينوا سبعة من شمامسة الكنيسة للإشراف على شئون هذه الجماعة ؛ وظل رؤساء اليهود فترة من الزمن لا يعارضون قيام هذه الشيعة لصغرها وانتفاء الأذى من وجودها ، فلما تضاعف عدد « الناصريين » (النصارى) فى بضع سنين قلائل وقفز عددهم من ١٢٠ إلى ٨٠٠٠[١٠](*) استولى الرعب على قلب الكهنة ، فقبض على بطرس وغيره وجيء بهم أمام السنهدرين لمحاكمتهم . وكان السنهدرين يريد أن يحكم بإعدامهم ، ولكن فريسيا يدعى غمالائيل — أكبر الظن أنه معلم بولس — أشار على المجلس أن يؤجل الحكم ؛ ثم وفق بين الرأيين بأن جلد المقبوض عليهم وأطلق سراحهم وحدث بعد ذلك بزمن قليل (٣٠ ؟ . م) أن استدعى أحد الشمامسة الذين عينوا للإشراف على جماعة المهتدين واسمه اصطفانوس (أو استيفن) للمثول أمام السنهدرين واتهم بأنه « يتكلم بكلام تجديف على موسى وعلى الله »[١١] ، فدافع الرجل عن نفسه دفاعا قويا غير مبال بما يتهدده من أخطار :

« يا قساة القلوب وغير المختونين بالقلوب والآذان ، أنتم دائما تقاومون الروح القدس ، كما كان آباؤكم كذلك أنتم ! أى الأنبياء لم يضطهده آباؤكم ، وقد قتلوا الذين سبقوا فأنبأوا بمجيء البار الذى أنتم الآن صرتم

(*) فى المرجع الذى يشير إليه المؤلف وهو أعمال الرسل ٤ : ٤ أن عددهم كان خمسة آلاف . (المترجم)

مسلميه وقاتليه ، الذين أخذتم الناموس بترتيت ملائكة ولم تحفظوه »[١٢](*).

وأثار هذا الدفاع القوى غضب السنهدرين فأمر بأن يجر إلى خارج المدينة ويرجم بالحجارة . وكان شاب فارسى يدعى شاول يساعد على هذا الهجوم ؛ وبعد ذلك صار هذا الشاب ينتقل من بيت إلى بيت فى أورشليم ويقبض على أتباع « الكنيسة » ويزجهم فى السجن[١٣] .

وفرّ اليهود المهتدون ذوو الأسمـــاء والثقافة اليونانية الذين يتزعمهم اصطفانوس إلى السامرة وأنطاكية وأنشأوا فيها جماعات مسيحية قوية . أما معظم الرسل الذين يبدو أنهم سلموا من الاضطهاد لأنهم ظلوا يراعون الناموس ، فقد بقوا فى أورشليم مع المسيحيين اليهوديين . وبينا كان بطرس يحمل الإنجيل إلى البلاد اليهودية صار يعقوب « العادل » « أخو الرب » رئيس الجماعة المقيمة فى أورشليم بعد أن قلّ عددها ونقصت مواردها . وكان يعقوب يبشر بالناموس بكلّ ما فيه من صرامة ، ولم يكن يقلّ عن الإسينيين تقشفاً وزهداً ، فلم يكن يأكل اللحم ، أو يشرب الخمر ، ولم يكن له إلا ثوب واحد ، ولم يقصّ شعره أو يحلق لحيته قط . وظل المسيحيون تحت قيادته سبعة أعوام لايمسهم أذى . ثم حدث حوالى عام ٤١ أن قُتل رجل يدعى يعقوب بن زبيدى ، فقُبض على بطرس ولكنه فر . ثم قُتل يعقوب العادل نفسه فى عام ٦٢ . وبعد أربعة أعوام من ذلك الوقت ثار اليهود على رومة . وأيقن المسيحيون المقيمون فى أورشليم أن « نهاية العالم » قد دنت ، فلم يأبهوا بالشئون السياسية ، وخرجوا من المدينة وأقاموا فى بلاد الوثنية الضالعة مع رومة والقائمة على الضفة البعيدة من نهر الأردن . وافترقت اليهودية والمسيحية من تلك الساعة ، فاتهم اليهود

(*) لايبعد أن تكون خطب اصطفانوس ، وبطرس ، وبولس وغيرهم كما وردت فى سفر أعمال الرسل من اختراع مؤلف هذا السفر كما جرت بذلك عادة المؤرخين الأقدمين .

المسيحيين بالخيانة وخور العزيمة ، ورحب المسيحيون بتدمير الهيكل على يد تيطس تحقيقاً لنبوءة المسيح . واتقدت نار الحقد فى قلوب أتباع كلا الدينين ، وأملت عليهم بعض ما كتبوا من أعظم آدابهم تقى وصلاحاً .

وأخذت المسيحية اليهودية من ذلك الوقت يقل عدد أتباعها وتضعف قوتها وترك الدين الجديد للعقلية اليونانية تشكله وتصبغه بصبغتها : وأصمت الجليل ، التى قضى فيها المسيح كل حياته تقريباً ، والتى عفت منها ذكرى المجدلية وغيرها من النساء اللاتى كن من بين أتباعه الأولين ، أصمت أذنها عن سماع الوعاظ الذين جاءوها يدعون أهلها للدخول فى دين الناصرى ابن الله . ذلك أن اليهود المتعطشين إلى الحرية ، والذين كانوا يذكرون كل يوم فى صلواتهم أن « الله واحد » لم يستسيغوا فكرة « المسيح » المنتظر الذى لا يأبه بكفاحهم فى سبيل الاستقلال ، ورأوا أن من العار أن يقال إن إلهاً قـد ولد فى كهف أو اصطبل فى إحدى قراهم . وظلت المسيحية اليهودية قائمة مدى خمسة قرون بين طائفة قليلة من المسيحيين السريان المسمين بالإبيونيم (« الفقراء ») الذين كانوا يجمعون بين التقشف المسيحى والناموس اليهودى الكامل ؛ فلما كان آخر القرن الثانى الميلادى حكمت عليهم الكنيسة المسيحية بالكفر وأخرجتهم من حظيرتها .

وكان الرسل والتلاميذ فى هـذه الأثناء قد نشروا الإنجيل بين اليهود المشتتين[١٤] بنوع خاص وهم المنتشرون فيما بين دمشق وروما . فهدى فليب عدداً من أهل السامرة وقيصرية ، وأوجد يوحنا جالية مسيحية قوية فى إفسوس وأخذ بطرس يعظ فى مدن سوريا . وفعل بطرس ما كان يفعله معظم الرسل فاصطحب معه فى أثناء تجواله « أختا » لتكون بمثابة زوجة له ومعينة[١٥] . وبلغ نجاحه فى شفاء المرضى حداً أغرى ساحراً يدعى سمعان المجوسى أن يعرض عليه مالا ليشركه معه فى قواه العجيبة . ففى يافا أقام تابيثا وكان يبدو أنها قد

ماتت ، وفى قيصرية هدى إلى المسيحية قائداً رومانياً على مائة . وجاء فى سفر أعمال الرسل أنه رأى رؤيا اقتنع على أثرها أن عليه أن يقبل المهتدين من الوثنيين واليهود على السواء ، ثم اقتصر من ذلك الوقت على تعميد المهتدين من غير اليهود بدل أن يعمدهم ويختنهم معا ، وذلك إذا استثنينا بعض حالات طريفـــة . وفى وسعنا أن نحس بما كان يعمر قلوب هؤلاء المبشرين الأولين من حماسة إذا أطلعنا على رسالة بطرس الأولى :

« بطرس رسول يسوع المسيح إلى المتغربين من شتات بنطس ، وغلاطية ، وكبدوكية وآسيا ، وبيثينية المختارين . . . لتكثر لكم النعمة والسلام . . . أيها الأحباء أطلب إليكم كغرباء ونزلاء . . . أن تكون سيرتكم بين الأمم حسنة لكى . . . يمجدوا الله فى يوم الافتقاد من أجـــل أعمالكم الحسنة التى يلاحظونها . . . فاخضعوا لكل ترتيب بشرى من أجل الرب . . . كأحرار وليس كالذين الحرية عندهم سترة للشر . . . أيها الخدام كونوا خاضعين بكل هيبة ، ليس للصالحين المترفقين فقط بل للعنفاء أيضاً . . . كذلكن أيتها النساء كن خاضعات لرجالكن حتى وإن كان البعض لا يطيعون الكلمة يربحون بسيرة النساء بدون كلمة ملاحظين سيرتكن الطاهرة بخوف . ولا تكن زينتكن الزينة الخارجية من ضفر الشعر والتحلى بالذهب ولبس الثياب ، بل . . . زينة الروح الوديع الهادئ . . . كذلكم أيها الرجال كونوا ساكنين بحسب الفطنة مع الإناء النسائى كالأضعف معطين إياهن كرامة كالوارثات أيضاً معكم نعمة الحيوة . . . غير مجازين عن شر بشر . . . ولكن قبل كل شىء لتكن محبتكم بعضـــكم لبعض شديدة لأن المحبة تستر كثرة من الخطايا »(١٦) .

ولسنا نعرف متى شق بطرس طريقه إلى رومة أو المراحل التى وصل بها إلى تلك المدينة . فأما جيروم (حوالى ٣٩٠) فيؤرخ وصوله إليها بعام ٤١ م . وقد بقيت الرواية القائلة بأنه كانت له اليد الطولى فى إنشاء الجالية المسيحية

فى عاصمة الدولة الرومانية صامدة للنقد[١٧] : ويحدثنا لكتانتيوس Lactantius عن قدوم بطرس إلى رومة فى عهد نيرون[١٨] ، وأكبر الظن أن الرسول زار رومة عدة مرات . وكان وهو طليق ، وبولس وهو سجين ، يبذلان ما وسعهما من جهد ويتنافسان لهداية أهلها حتى استشهد كلاهما فى سبيل هذه الغاية ، ولعل استشهادهما كان فى عام واحد هو عام ٦٤[١٩] . ويروى أرجن أن بطرس « صلب ورأسه مدلى إلى أسفل ، لأنه طلب أن يعذب بهذه الطريقة »[٢٠] ، ولعله كان يأمل أن يكون الموت بها أسرع إليه أو (كما يقول المؤمنون) لأنه يرى أنه غير خليق بأن يموت بالطريقة التى مات بها المسيح . وتقول النصوص القديمة إن زوجته قتلت معه ، وأنه أرغم على أن يراها تساق للقتل[٢١] . وتحدد إحدى القصص المتأخرة حلبة نيرون ، القائمة فى ميدان الفاتكان ، موضعاً لمقتله . وفى هذا المكان شيدت كنيسة القديس بطرس ، وقيل إنها تضم عظامه .

وما من شك فى أن تجواله فى آسية الصغرى ورومة قد ساعد على الاحتفاظ بكثير من العناصر اليهودية فى الدين المسيحى : فقد ورث هذا الدين عنه وعن غيره من الرسل ما فى الدين اليهودى من توحيد ، وتزمت ، واعتقاد فى البعث والنشور ؛ وهذه الرحلات ورحلات بولس هى التى جعلت العهد القديم الكتاب المقدس الوحيد الذى عرفته المسيحية فى القرن الأول ؛ وظلت المجامع اليهودية أهم الأماكن التى تبث فيها الدعوة للمسيحية كما ظل اليهود أهم الجماعات التى تبث بينهم هذه الدعوة حتى عام ٧٠ م . ولهذا انتقلت إلى الطقوس المسيحية أشكال العبادات العبرانية واحتفالاتها وملابسها . وتسامى حمل پسكال فصار هو حمل الله المكفر عن الخطايا فى القداس الكاثوليكى . كذلك أخذت المسيحية عن أساليب اليهود فى إدارة المجامع تنصيب جماعة من الكبراء (پرز بتيرى أى قساوسة) لتولى شئون الكنائس . وقبلت المسيحية فيها كثيراً من الأعياد اليهودية كعيد الفصح وعيد العنصرة ، وإن كانت قد غيرت أشكالها وتواريخها : وقد ساعد تشتت اليهود

فى أقطار العالم على انتشار المسيحية ، وكان مما مهد السبيل لهذا الانتشار كثرة انتقال اليهود من مدينة إلى مدينة ، والصلات القائمة بينهم فى جميع أنحاء أوربا ، وتجارتهم الواسعة ، والطرق الرومانية المعبدة ، والسلم الرومانية . وكانت المسيحية حسب تعاليم المسيح وبطرس يهودية ، ثم أصبحت فى تعاليم بولس نصف يونانية ، وأضحت فى المذهب الكاثوليكى نصف رومانية ، ثم عاد إليها العنصر اليهودى والقوة اليهودية حين دخلها المذهب البروتستنتى .

الفصل الثاني

بولس

١ — المضطهد

ولد واضع اللاهوت المسيحي في طرسوس من أعمال كليكيا حوالى السنة العاشرة من التاريخ الميلادى . وكان أبوه من الفريسيين ، ونشأ ابنه على مبادئ هذه الشيعة الدينية المتحمسة ؛ وظل رسول الأمم طوال حياته يعد نفسه فريسياً حتى بعد أن نبذ الشريعة اليهودية . كذلك كان والده مواطناً رومانياً ، أورث ابنه هذا الحق الثمين . وأكبر الظن أن اسم بولس كان هو اللفظ اليوناني المرادف للاسم العبرى شاول ، ولهذا ظل الاسمان يطلقان على هذا الرسول منذ طفولته[٢٢] . ولم يتلق تعليما راقياً ولم يدرس الكتب اليونانية لأن الفريسيين على بكرة أبيهم لم يكونوا يسمحون بأن يتأدب أبناؤهم بهذ الأدب اليوناني الخالص ، ولو أن كاتب الرسائل درس اليونانية لما كتبها بهذا الأسلوب اليوناني الركيك . على أنه عرف كيف يتحدث بهذه اللغة بطلاقة تمكنه من أن يخاطب بها المستمعين له من الأثينيين ، وأن يشير أحياناً إلى بعض الفقرات المشهورة فى الأدب اليونانى . ومن حقنا أن نعتقد أن بعض المبادئ الدينية والأخلاقية الرواقية انتقلت من البيئة المدرسية فى طرسوس إلى مسيحية بولس . فهو يستعمل اللفظ الرواقى نيوما (neuma) أى التنفس للدلالة على المعنى الذى يستعمل فيه مترجموه الإنجليز لفظ Spirit (الروح) . وكان فى طرسوس كما كان فى معظم المدن اليونانية أتباع للأرفية ، وغيرها من العقائد الخفية ، يعتقدون أن الله الذى يعبدونه قد مات من أجلهم ، ثم قام من قبره ، وإنه إذا دعى بإيمان حق ،

وصحب الدعاء الطقوس الصحيحة استجاب لهم وأنجاهم من الجحيم ، وأشركهم معه فى موهبة الحياة الخالدة المباركة[٢٣] . وهذه الأديان الغامضة الخفية هى التى أعدت اليونان لاستقبال بولس ، وأعدت بولس لدعوة اليونان .

وبعد أن تعلم الشاب حرفة صنع الخيام ، وتلقى العلم فى المجمع الدينى القائم فى المدينة ، أرسله أبوه إلى أورشليم وهناك كما يقول بولس نفسه : « تعلم عند قدمى غمالائيل على طريقة الناموس الدقيقة »[٢٤] . وكان المشهور عن غمالائيل أنه حفيد هلل ، وقد خلفه فى رياسة السنهدرين . وواصل السنّة القديمة سنة تفسير الناموس تفسيراً ليناً راعى فيه ضعف النفس البشرية . غير أن الفريسيين الذين كانوا أكثر منه تزمتاً هالهم أن يجدوه ينظر نظرة الإعجاب والتقدير للنساء الوثنيات أنفسهن[٢٥]. وقد بلغ من علمه أن اليهود ، الذين يجلون العلماء أعظم الإجلال ، أطلقوا عليه اسم « جمال الناموس » ، ولقبوه بما لم يلقب به إلا ستة رجال من بعده وهو « الربان » أى سيدنا . واتخذ بولس عنه وعن غيره تلك الطريقة الحصيفة ، والجدلية السوفسطائية فى بعض الأحيان ، فى تفسير الكتاب المقدس ، وهى التى ترى واضحة فى التلمود . وقد بقى بولس إلى آخر أيامه يهودياً فى عقله وخلقه على الرغم من تعلمه أوليات الهلنية ، ولم ينطق بكلمة يشتم منها أنه يشك فى أن شرائع موسى موحى بها من عند الله ، وظل يعتقد فى عزة وفخار كما يعتقد اليهود أن اختيار الله وحده هو طريق النجاة .

وهو يصف نفسه بقوله : « فى الحضرة ذليل بينكم »[٢٦] ويزيد على ذلك : « ولئلا أرتفع بفرط الإعلانات أعطيت شوكة فى الجسد ملاك الشيطان ليلطمنى لئلا أرتفع »[٢٧] ولا يزيد فى وصف نفسه على هذا . وتصوره الروايات المأثورة وهو فى سن الخمسين رجلا زاهداً متقشفاً مقوس الجسم ، أصلع الرأس ، ملتحياً عريض الجبهة ، أصفر الوجه صارمه ، نفاذ العينين . وعلى هذا النحو تخيله درور

فى صورة تعد من أروع آيات الفن فى العالم كله ؛ ولكن الحقيقة أن هذه الصور التى تمثله أدب وفن لا تاريخ .

أما عقله فكان من طراز شائع كثيراً بين اليهود : كان فيه من نفاذ البصيرة وشدة الانفعال أكثر مما فيه من الدماثة والظرف ؛ وكان فيه من الإحساس القوى والخيال أكثر مما فيه من نزاهة الحكم والنظرة الموضوعية إلى الأشياء . وكان قوياً فى العمل لأنه كان ضيق التفكير . وكان رجلا « أسكرته النشوة الإلهية » أكثر مما أسكرت اسپنوزا نفسه ، يلتهب صدره بالحماسة الدينية بالمعنى الحرفى للفظ الالتهاب — لقد كان صدره ينطوى « فى داخله على الإله » نفسه .

وكان يعتقد أنه ملهم موحى إليه قادر على فعل المعجزات . وكان إلى هذا ذا طبيعة عملية ، قادراً على الجد والتنظيم ، صبوراً إلى أقصى حد فى تأسيس العشيرة المسيحية والمحافظة عليها . وكانت عيوبه وفضائله شديدة الصلة بعضها ببعض لا غنى لكلتيهما عن الأخرى شأنه فى هذا شأن الكثيرين من الرجال . فقد كان شجاعا مندفعا ، متعسفا حاسما فى أحكامه ، مسيطراً مجداً ، متعصبا مبتدعا ، فخوراً أمام الناس متواضعا لله ، عنيفا فى غضبه قادراً على أن يستشعر أرق الحب والرحمة ، يشير على أتباعه أن يباركوا من يضطهدونهم ، ولكنه يتمنى لأعـداله الذين يختنون أن « يُقَطّعوا أيضاً »[٢٨] . وكان يدرك أسباب ضعفه ، ويحاول الخلاص منها ، ويقول لمن هداهم « ليتكم تحتملون غباوتى قليلا »[٢٩] . وتلخص الحاشية التى كتبت على رسالته الأولى لأهل كورنثوس أخلاقه حين تقول : « السلام بيدى أنا بولس ، إن كان أحد لا يحب الرب يسوع المسيح فليكن أنا ثيما ! ماران أثا ! نعمة الرب يسوع المسيح معكم ، محبتى مع جميعكم » . لقد كان الرجل ما لابد أن يكون لكى يستطيع أن يفعل ما فعل .

وبدأ بمهاجمة المسيحية دفاعا عن اليهودية ، وانتهى بنبذ اليهودية دفاعا عن المسيح ، وكان فى كل لحظة من لحظاته داعيا ورسولا . فلما هاله احتقار اصطفانوس

للناموس انضم إلى قتلته ، وتزعم الاضطهاد الأول للمسيحين فى أورشليم ؛ ولما سمع أن الدين الجديد أصبح له فى دمشق أتباع كثيرون « تقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات حتى إذا وجد أناساً من الطريق رجالا أو نساء يسوقهم موثقين إلى أورشليم » (٣١ ؟ م)[٣٠] ; ولربما كان تحمسه لاضطهادهم ناشئا من شكوك خفية سرت وقتئذ فى نفسه ، وكان فى مقدوره أن يقسو ، ولكن هذه القسوة لم تكن من النوع الذى لا يعقبه ندم . ولعل منظر اصطفانوس وهو يرجم بالحجارة حتى يموت ، ولعل لمحات من ذكريات الشباب — ذكريات صلب المسيح — كانت تعود إلى خياله فتضطرب بها ذاكرته وتثقل عليه فى سفره ، وتهيج خياله . ولما اقتربت جماعته من دمشق ، كما جاء فى سفر أعمال الرسل :

« فبغتة أبرق حوله نور من السماء ، فسقط على الأرض وسمع صوتاً قائلا له شاول ، شاول ، لماذا تضطهدنى ؟ فقال من أنت يا سيد ؟ فقال الرب(*) أنا يسوع الذى أنت تضطهده . . . . وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحداً . فنهض شاول من الأرض وكان وهو مفتوح العينين لا يبصر أحداً ، فاقتادوه بيده وأدخلوه إلى دمشق ، وبقى ثلاثة أيام لا يبصر . وليس فى وسع أحد أن يعرف العوامل التى أحدثت هذه التجربة وما أعقبها من انقلاب أساسى فى طبيعة الرجل . ولعل ما قاساه من التعب فى سفره الشاق الطويل فى شمس الصحراء اللافحة ، أو لعل ومضة برق فى السماء ناشئة من شدة الحرارة ، لعل شيئا من هذا أو ذاك كله قد أثر فى جسم ضعيف ربما كان مصاباً بالصرع ، وفى عقل يعذبه الشك والإجرام ، فدفع بالعملية التى كانت تجرى فى عقله الباطن إلى غايتها ، وأصبح ذلك المنكر الشديد الانفعال

(*) فى الأصل الإنجليزى « الصوت » ولكن لفظ « الرب » هو الوارد فى الترجمة العربية . (المترجم)

أقدر الداعين إلى مسيح اصطفانوس . وكان الجو اليونانى الذى يحيط به فى طرسوس يتحدث عن منقذ ينتشل البشرية ، كما كانت علوم بنى جنسة من اليهود تتحدث عن حياة (مسيح) منتظر ، ولم لا يكون يسوع صاحب الشخصية العجيبة الغامضة الفتانة ، الذى لا يتردد الناس فى استقبال الموت من أجله ، هو ذلك المسيح المنتظر ؟ فلما أحس فى آخر سفره وهو لا يزال ضعيفاً وأعمى بيدى يهودى مهتد ، رحيمتين ، تلمستان وجهه وتسكنان ألمه « فللوقت وقع من عينيه شىء كأنه قشور ، فأبصر فى الحال وقام واعتمد ، وتناول طعاما فتقوى »[٣٢] . وبعد بضعة أيام من ذلك الوقت دخل مجامع دمشق وقال للمجتمعين فيها إن عيسى ابن الله .

٢ — المبشر

وأصدر حاكم دمشق ، بإيعاز اليهود الذين ساءهم ما فعل بولس ، أمراً بالقبض عليه ، فما كان من أصدقائه الجدد إلا أن أنزلوه فى سلة من فوق أسوار المدينة . ويقول هو إنه ظل ثلاثة أيام يدعو إلى المسيح فى قرى بلاد العرب ، ولما عاد إلى أورشليم عفا عنه بطرس ، واتخذه صديقاً له ، وعاش معه فترة من الزمان . وكان معظم الرسل يرتابون فيه ، ولكن برنابا ، وهو مهتد حديث ، رحب به وقدم له كثيراً من المعونة ، وأقنع كنيسة أورشليم أن تحمل مضطهدها القديم بشرى مجىء المسيح الذى سيقيم عما قريب ملكوت الله . وحاول اليهود ، الذين يتكلمون اللغة اليونانية والذى جاءهم بالإنجيل ، أن يقتلوه ، ولعلّ الرسل خشوا أن تعرضهم حماسته الشديدة للخطر فأرسلوه إلى طرسوس .

وظل فى مسقط رأسه ثمانى سنين لا يعرف عنه التاريخ شيئاً ، ولعله شعر مرة أخرى بأثر التصوف الدينى المنتشرين اليونان وما فيه من تبشير بمجىء المنقذ . ثم أقبل عليه برنابا وطلب إليه أن يساعده على خدمة الدين فى أنطاكية .

وأخذ الرجلان يعملان معاً (٤٣ — ٤٤ ؟) فهديا كثيراً من الناس ، فلم تلبث أنطاكية أن فاقت سائر المدن فى عدد من بها من المسيحيين . وفيها أطلق الوثنيون على « المؤمنين » ، أو « التلاميذ » أو « القديسين » كما كانوا يسمون أنفسهم اسم الكرستيانوى أى أتباع المسيح أى الإنسان الممسوح . وهنا أيضاً انضمت « الأمم » أى غير اليهود إلى الدين الجديد . وكان معظم هؤلاء ممن « يخشون الله » وكانت كثرتهم من النساء اللاتى آمن ببعض طقوس اليهودية وبما فيها من دعوة إلى الوحدانية .

ولم يكن الإخوة فى أنطاكية فقراء كأمثالهم فى أورشليم ، فقد كانت فيهم أقلية لا بأس بها من طبقة التجار ، فاندفعوا بقوة هذه الحركة الفتية الناشئة إلى جمع قدر من المال ليستعينوا به على نشر الإنجيل ، « فوضع » رؤساء الكنيسة « أيديهم » على برنابا وبولس وبعثوهما فيما يسميه التاريخ « رحلة القديس بولس التبشيرية الأولى » (٤٥ — ٤٧ ؟) وهى تسمية تستخف بشأن برنابا . وأبحر الرجلان إلى قبرص ، ولقيا نجاحاً مشجعاً بين اليهود الكثيرين المقيمين فى تلك الجزيرة . ثم ركبا السفينة من يافوس إلى برجا فى بمفيلية واجتازا طرقا جبلية وعرة تعرضا فيها للخطر حتى وصلا إلى أنطاكية فى پسيديا Pisidia . واستمع إليهما الكنيس ورحب بهما فلما بدأا يعظان « الأمم » كما يعظان اليهود غضب عليهما اليهود المتمسكون بدينهم وحملوا موظفى البلدية على إخراج المبشرين من المدينة . ونشأت هذه الصعاب نفسها فى إقونيوم Iconium ، ورجم بولس فى لسترا بالحجارة وجر على وجهه إلى خارج المدينة ، وترك فى العراء ظناً من أعدائه أنه مات . بيد أن قلبى بولس وبرنابا كانا لا يزالان يفيضان غبطة بروح القدس فحملا الإنجيل إلى دوربى Derbe ثم عادا بالطريق نفسه إلى برجا وأبحرا منها إلى أنطاكية السورية ، وفيها واجهتهما أعقد مشكلة فى تاريخ المسيحية .

ذلك أن بعض التابعين الممتازين فى دمشق سمعوا أن المبشرين كانا يقبلان

المهتدين من « الأمم » دون أن يحتما عليهم الختان ، فجاءوا إلى أنطاكية « يعلمون الإخوة أنه إن لم تختتنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا »[٣٣] . ولم يكن الختان عند اليهودى من الطقوس التى توجبها صحة الجسم ، بقدر ما كان رمزاً مقدسا لعهده القديم الذى عاهد عليه الله ، ولهذا روع اليهودى المسيحى حين فكر فى نكث ذلك العهد . وأدرك بولس وبرنابا أنه إذا نال هؤلاء المبعوثون بغيتهم فإن المسيحية لن يقبلها إلا عدد قليل من غير اليهود ، وأنها ستبقى « بدعة يهودية » (كما سماها هينى فيما بعد) لا تلبث أن تزول بعد قرن من الزمان . ومن أجل هذا سافرا إلى أورشليم (٥٠ ؟) وعرضا المسألة على بساط البحث مع سائر الرسل ، وكانوا كلهم تقريبا لا يزالون يتعبدون مخلصين فى الهيكل . فأما يعقوب فقد تردد كثيراً فى قبول رأيهما ، وأما بطرس فقد دافع عن المبشرين ، واتفق الجميع آخر الأمر على ألا يطلب إلى المهتدين الوثنيين أكثر من أن يقلعوا عن الزنى ، وعن أكل المخنوقة والدم وما ذبح على النصب[٣٤] . ويبدو أن بولس يسر الأمر بأن وعد العشيرة المسيحية المعدمة فى دمشق بشىء من المال المطرد الزيادة فى كنيسة أنطاكية[٣٥] .

لكن هذه النتيجة كان لها من الخطر ما يحول دون البت فيها بهذه السهولة . فقد جاءت من أورشليم إلى أنطاكية طائفة أخرى من المسيحيين اليهود المستمسكين بدينهم ، ورأت بطرس يأكل مع الكفرة وأقنعته بأن ينفصل هو واليهود الذين اعتنقوا المسيحية عن المهتدين غير المختتنين ، ولسنا نعرف رأى بطرس فى هذه المسألة ، ولكن بولس يخبرنا أنه « قاوم بطرس مواجهة » فى أنطاكية[٣٦] ، واتهمه بالرياء ؛ ولعل بطرس لم يرغب ، كما لم يرغب بولس ، فى أكثر من أن تكون « كل الأشياء لكل الناس » .

والراجح أن بولس قام برحلته التبشيرية الثانية فى عام ٥٠ من التاريخ الميلادى . وكان قد اختلف مع برنابا الذى اختفى وقتئذ فى موطنه بجزيرة قبرص

ولم يعد له ذكر في التاريخ . وعاد بولس يزور مرة أخرى بنى ملته فى آسية الصغرى ، وضم إليه فى لسترا تلميذاً يدعى تيموثاوس أحبه من كل قلبه الذى ظل منذ زمن طويل متعطشا إلى من يحب . وسافرا معا واجتازا فريجيا وغلاطية حتى وصلا شمالا إلى اسكندرية ترواس ؛ وفيها تعرف بولس بلوقا وهو ممن اعتنقوا اليهودية من غير المختتنين ؛ وكان لوقا رجلا طيب القلب كبير العقل وهو فى أكبر الظن صاحب الإنجيل الثالث وسفر أعمال الرسل — وهما السفران اللذان خففا من حدة النزاع الذى امتاز به تاريخ المسيحية منذ بدايته . ثم أبحر بولس وتيموثاوس ومساعد آخر يدعى سيلاس من ترواس إلى مقدونية ، ووطئت أقدامهم لأول مرة أرضا أوربية . فلما وصلا إلى فلبى ، وهى المكان الذى هزم فيه أنطونيوس بروتس قبض عليهما بتهمة تكدير السلام ، وجلدا ، وزجا فى السجن ، ثم أطلق سراحهما حين عرف أنهما مواطنان رومانيان . وانتقلا من فلبى إلى تسالونيكى (سالونيك) ، وفيها دخل بولس المجمع وظل ثلاثة أسبات يخطب فى اليهود ، فآمن بدعوته عدد قليل منهم ، وأسسوا فيها كنيسة لهم ، وأثار غيرهم أهل المدينة عليه واتهموه بأنه يدعو لملك جديد ، واضطر أصدقاؤه أن يخرجوه خلسة إلى بيريه فى أثناء الليل . وهناك تقبل اليهود الدعوة بقبول حسن ، ولكن أهل تسالونيكى جاءوا يتهمون بولس بأنه عدو لليهودية ، فأقلع منها إلى أثينة على ظهر سفينة (٥١ ؟) وحيداً كسير القلب كاسف البال .

وهنا فى قلب الديانة الوثنية وعلومها وفلسفتها ألفى نفسه بلا صديق ، ولم يكن فى هذا البلد إلا عدد قليل من اليهود الذين يستمعون إلى مواعظه . وكان عليه أن يقف بين الناس فى السوق العامة كما يفعل أى خطيب حديث يريد أن يتحدث إلى الجماهير ، وينافس عشرات الخطباء فى إيصال دعوته إلى آذان المارة . وكان بعض من يستمعون إليه يناقشونه فيما يقول ، وبعضهم الآخر يسخرون منه ويسألون : « ترى ماذا يريد هذا المهذار أن يقول ؟ »[٣٧] : وأظهر عدد من

الناس اهتماما بقوله ، وأخذوه إلى الأريوبجس أو أكمة المريخ ليجد مكانا أهدأ من السوق العامة يسمع الناس فيه صوته . وقال لهم إنه رأى فى أثينة مذبحا نقش عليه « لإله مجهول » . وأكبر الظن أن هذا النقش كان يعبر عن رغبة من نقشوه فى التسبيح بحمد إله لا يعرفون اسمه على وجه التحقيق ، أو فى استرضاء هذا الإله ، أو طلب معونته ؛ ولكن بولس فسره بأنه اعتراف منهم بجهلهم كنه الله ، ثم أضاف إلى ذلك هذه الأقوال البليغة : « فالذى تتقونه وأنتم تجهلونه ، هذا أنا أنادى لكم به ، الإله الذى خلق العالم وكل ما فيه ، هذا إذاً هو رب السماء والأرض لا يسكن فى هياكل مصنوعة بالأيادى . . . هو يعطى الجميع حياة ونفسا وكل شىء . . . وصنع من دم واحد كل أمة من الناس . . . لكى يطلبوا الله لعلهم يلتمسونه فيجدونه مع أنه عن كل واحد منا ليس بعيداً لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد ، كما قال بعض شعرائكم أيضاً(*) ، لأننا أيضا ذريته ، فإذاً نحن ذرية الله لا ينبغى أن نظن أن اللاهوت شبيه بذهب أو فضة أو حجر نقش صناعة واختراع إنسان . فالله الآن يأمر جميع الناس فى كل مكان أن يتوبوا متغاضيا عن أزمنة الجهل ، لأنه أقام يوما هو فيه مزمع أن يدين المسكونة بالعدل برجل قد عينه مقدما للجميع إيمانا إذ أقامه من الأموات »(٣٨) .

ولقد كانت جرأة منه أن يحاول التوفيق بين المسيحية والفلسفة اليونانية(**) ومع هذا فإنه لم يتأثر بهذه المحاولة إلا عدد قليل ؛ ذلك أن ما سمعه الأثينيون من الآراء قبل ذلك الوقت قد بلغ من الكثرة ما يحول بينهم وبين التحمس لما يلقى إليهم منها أياً كان شأنه . وغادر بولس المدينة يائسا وذهب إلى كورنثة ، وكانت التجارة قد جمعت فيها جالية كبيرة من

(*) ينقل بولس هذه العبارة من « ترنيمة زيوس » لكلينثيز أو من فينومينا لأراتس Aratus' phainom na

(**) لعل من واجبنا أن نعزو هذه الخطبة إلى مؤلف سفر أعمال الرسل المتأدب بأدب اليونان .

اليهود . وأقام فى هذه المدينة ثمانية عشر شهراً (٥١ — ٥٢ ؟ م) يكسب فيها قوته بصنع الخيام ويخطب كل سبت فى كنيسها . وأفلح فى هداية رئيس الكنيس ، وعدد غيره من الأفراد بلغ من الكثرة حداً ارتاع له اليهود فاتهموا بولس أمام غاليون Gallio الحاكم الرومانى بأنه يستميل « الناس على أن يعبدوا الله بخلاف الناموس » . فأجابهم غاليون بقوله : « إذا كان مسألة عن كلمة وأسماء ، وناموسكم ، فتبصرون أنتم ، لأنى لست أشاء أن أكون قاضيا لهذه الأمور » ، ثم طردهم من المحكمة . وأخذت الطائفتان تتضاربان « ولكن لم يهم غاليون شىء من ذلك »[٣٩] . وعرض بولس الإنجيل على غير اليهود من أهل كورنثة ودخل كثيرون منهم فى دينه ، ولعل المسيحية قد بدت لهم أنها صورة أخرى من الأديان الخفية ، التى طالما حدثتهم عن المنقذين الذين يبعثون بعد موتهم ، ولعلهم حين قبلوها قد مزجوها بتلك العقائد القديمة ، وأثروا فى بولس فجعلوه يفسر المسيحية تفسيراً يألفه العقل الهلنستى .

ثم انتقل بولس من كورنثه إلى أورشليم (٥٣ ؟) ليسلم على الإخوة . ولكنه لم يلبث إلا قليلا حتى بدأ سفرته التبشيرية الثالثة ، وزار فيها الجاليات المسيحية فى أنطاكية وآسية الصغرى ، وبعث فيهم القوة والعزيمة بحماسته وثقته . وقضى فى إفسوس عامين ، وأتى فيها بأمثال عجيبة جعلت كثيرين من الناس يعتقدون أنه صانع معجزات ، وحاولوا أن يشفوا مرضاهم بلمس الأثواب التى لبسها ، ووجد صانعو التماثيل التى كان عابدو الأوثان يضعونها فى هيكل أرطيس أن تجارتهم كسدت ، ولعل بولس قد أعاد هنا ما أعلنه فى أثينة من تشهير بعابدى الصور أو الوثنيين . وقام رجل يدعى دمتريوس ممن كانوا يصنعون نماذج من فضة للضريح العظيم ليتبرك بها الحجاج الصالحون ، قام هذا الرجل بتنظيم مظاهرة احتجاج على بولس والدين الجديد ، وسار على رأس جماعة من اليونان إلى ملهى

المدينة ، وظلوا ساعتين كاملتين ينادون : « عظيمة هي أرطيس الإفسيين ! » وأفلح أحد موظفي المدينة في تفريق هذا الجمع الحاشد ، ولكن بولس رأى من الحكمة أن يغادرها إلى مقدونية

وقضى بضعة أشهر سعيداً وسط الجماعات التي أوجدها في فلبي ، وتسالونيكي وبيريه . ولما سمع أن الانشقاق والفساد أخذا يفتان في عضد الإخوة في كورنثة لم يكتف بلومهم الشديد في عدة رسائل بعث بها إليهم ، بل انتقل إليهم بنفسه (٥٦ ؟) ليواجه من كانوا يذمونه ويفترون عليه ؛ وكانوا قد ادعوا أنه يستفيد ماديا من عظاته ، ويسخرون من الرؤى التي كان يحدثهم عنها ، وطلبوا من جديد أن يتمسك المسيحيون جميعاً بالشريعة اليهودية . فأخذ بولس يذكر الإخوة الثائرين أنه كان حيثما حل يكسب قوته بعمل يديه ، وبأما الكسب المادى فقد سألهم هل يعرفون ما عاد عليه من أسفاره — لقد جلد سبع مرات ، ورجم مرة ، وتحطمت به السفينة ثلاث مرات ، وتعرض لمئات الأخطار من اللصوص ، والوطنيين المتحمسين ، والغرق في الأنهار[٤٠] . وتراءى إليه وهو في هذه المحنة أن « جماعة المختتنين » قد نقضوا ، على ما يبدو ، اتفاق أورشليم وذهبوا إلى غلاطية وطلبوا إلى جميع المهتدين أن يطيعوا الشريعة اليهودية إطاعة كاملة . فما كان منه إلا أن كتب إلى أهـــل غلاطية رسالة تفيض بالغضب ، انفصل بها نهائيا عن المسيحيين المتهودين ، وأعلن فيها أن الناس لا ينجون لاستمساكهم بشريعة موسى بل بإيمانهم القوى الفعال بالمسيح المنقذ ابن الله . ثم سافر إلى أورشليم ، وهو لا يعلم ماذا ينتظره فيها من محن وبلايا أشد ، ليدفع عن نفسه أمام الرسل ، وايحتفل في المدينة المقدسة بعيد العنصرة القديم . وكان يرجو أن يسافر من أورشليم إلى رومة ، وإلى أسبانيا نفسها ، ولا يستريح حتى تسمع كل ولاية من ولايات الإمبراطورية بأخبار المسيح الذى قام من بين الموتى وبما وعد به أتباعه الصالحين .

٣ ـ العالم الدينى

واستقبله زعماء الكنيسة الكبرى «أحسن استقبال» (٥٧ ؟) ولكنهم حين اختلوا به حذروه بأن قالوا له : «أنت ترى أيها الأخ كم يوجد ربوة من اليهود الذين آمنوا وهم جميعاً غيورون للناموس ، وقد أخبروا عنك أنك تعلّم جميع اليهود الذين بين الأمم الارتداد عن موسى قائلا ألا يختنوا أولادهم ولا يسلكوا حسب العوائد . . . سيسمعون أنك قد جئت ، فافعل هذا الذى نقول لك . عندنا أربعة رجال عليهم نذر . خذ هؤلاء وتطهر معهم وأنفق عليهم ، فسيعلم الجميع أن ليس شىء مما أخبروا عنك . بل تسلك أنت أيضا حافظا للناموس»[٤١] .

وتقبّل بولس النصيحة راضيا ، وأجرى طقوس التطهير ، ولكن بعض اليهود رأوه فى الهيكل فرفعوا عقيرتهم قائلين إنه «هو الرجل الذى يعلم الجميع فى كل مكان ضداً للشعب والناموس» . وقبض عليه نفر من الغوغاء ، وجرّوه خارج الهيكل «وبينما هم يطلبون أن يقتلوه» إذ أقبلت كتيبة رومانيه وأنقذته من القتل بأن قبضت عليه . والتفت بولس ليتحدث إلى الجماهير وأكد لهم أنه يهودى ومسيحى . فنادوا بقتله ، فأمر الضابط الرومانى بجلده ، ولكنه ألغى الأمر حين علم أن بولس يتمتع بحق المواطنية الرومانية . وجىء بالسجين فى اليوم الثانى أمام السنهدرين ، فخاطب بولس المجلس وأعلن أنه فريسى ، ونال بذلك بعض التأييد ، ولكن أعداءه المهتاجين حاولوا مرة أخرى أن يعتدوا عليه ، فأخذه الضابط إلى الثكنات . وجاءه فى تلك الليلة ابن أخت له يحذره ويقول له إن أربعين من اليهود قد أقسموا ألا يأكلوا أو يشربوا حتى يقتلوه . وخشى الضابط أن يحدث فى المدينة اضطراب يضر به ، فأرسل بولس ليلا إلى فيلكس والى قيصرية .

وجاء رئيس الكهنة ومعه بعض الشيوخ من بيت المقدس إلى قيصرية بعد

خمسة أيام من ذلك الوقت وقالوا إنهم وجدوا بولس « مفسداً ومهيج فتنة بين جميع اليهود الذين فى المسكونة » . وأقر بولس أنه يدعو إلى دين جديد ، وأضاف إلى ذلك قوله إنه يؤمن « بكل ما هو مكتوب فى الناموس » . فما كان من فيلكس إلا أن طرد الشاكين ، ولكنه مع ذلك أبقى بولس تحت الحراسة ومنع أحداً من أصحابه أن يأتى إليه . وبقى بولس على هذه الحال عامين كاملين (٥٨ — ٦٠ ؟) ، ولعل فيلكس كان يرجو أن يحصل على رشوة طيبة .

ولما عين فستوس والياً بعد فيلكس عرض أن يحاكم بولس أمامه فى دمشق ، ولكن بولس خشى هذا الجو المهتاج فلجأ إلى ما له من حق بوصفه مواطنا رومانيا ، وطلب أن يحاكم أمام الإمبراطور نفسه . وبينا كان الملك أغرباس (أجربا) ماراً بقيصرية أذن له بالمثول بين يديه مرة أخرى وحكم عليه بأن علمه الكثير قد جعله يهذى ولكنه فيما عدا هذا برىء . وقال أغرباس إنه « كان يمكن أن يطلق هذا الإنسان لو لم يكن قد رفع دعواه إلى قيصر » . وأركب بولس سفينة تجارية سافرت به على مهل ، وقضت فى البحر زمناً طويلا صادفتها فى أثنائه عاصفة شتوية قبل أن تصل إلى إيطاليا . ويقال إن العاصفة دامت أربعة عشر يوما ضرب فيها بولس للبحارة والمسافرين مثلا طيباً مشجعاً للرجل الذى يسمو على الموت ، الواثق من النجاة . وتحطمت السفينة على صخور مالطة ، ولكن من عليها جميعاً نجوا بالسباحة إلى الشاطئ . وبعد ثلاثة أشهر من هذه الحادثة وصل بولس إلى إيطاليا .

وعامله ولاة الأمور الرومان برفق ، وانتظروا حتى يأتى الشاكون من فلسطين ، وحتى يجد نيرون متسعا من الوقت يستمع فيه إلى قضيته . وسمح له أن يعيش فى بيت يختاره هو لنفسه ، وأن يوكل جندى بحراسته . ولم يكن فى مقدوره أن يتنقل فى المدينة بكامل حريته ، ولكنه كان يستطيع استقبال كل من يشاء . ولهذا دعا زعماء اليهود فى رومة أن يوافوه فى المنزل الذى يقيم فيه ، فجاءوا

واستمعوا إليه وهم صابرون ، ولكنهم لما رأوا أنه لا يعتقد بأن مراعاة الناموس اليهودى ضرورية للنجاة ، تولوا عنه ، فقد كان يبدو لهم أن الناموس هو عماد الحياة اليهودية وسلواها اللذان لا غنى لها عنهما . وناداهم بولس قائلا : « فليكن معلوما عندكم أن خلاص الله قد أرسل إلى الأمم وهم سيسمعون ! »[١٢] وغضبت الجالية المسيحية التى وجدها فى رومة من موقفه هذا كما غضب منه اليهود . ذلك أن هؤلاء الإخوان وجلهم من اليهود كانوا يفضلون المسيحية التى جاءت إليهم من أورشليم ، فكانوا يختتنون ، وكانت رومة لا تكاد تفرق بينهم وبين اليهود الأصليين . ورحب هؤلاء ببطرس ولكنهم قابلوا بولس بفتور ، واستطاع أن يهدى بعض سكان رومة من غير اليهود ، ومن بينهم بعض ذوى المناصب الكبرى ، ولكنه ضاق ذرعا بوحدته فى سجنه وأحس بوطأة القيود المفروضة عليه .

وكان يجد بعض السلوى فيما يبعث به من رسائل طويلة رقيقة إلى أتباعه البعيدين عنه ، وكان قد قضى عشر سنين يكتب مثل هذه الرسائل ، وما من شك فى أن مجموعها يزيد كثيراً على العشر التى وصلتنا منسوبة إليه(*) . ولم يكن يكتبها هو بقلمه ، بل كان يمليها ، وكثيراً ما يضيف إليها حاشية بخط يده غير الأنيق ويبدو أنه تركها دون أن يراجعها ، تركها بكل ما فيها من تكرار وغموض وخطأ نحوى . ولكن ما فيها من شعور عميق يفيض بالإخلاص ، وغيرة وغضبة قوية للقضية الكبرى التى وهب حياته للدفاع عنها ، وكثرة ما فيها من أقوال نبيلة رائعة ، كل هذا قد جعلها أقوى وأبلغ ما كتب من الرسائل فى أدب العالم كله ؛ وإن ما فى أدب شيشرون من سحر ليبدو ضئيلا إذا قيس إلى ما فيها من إيمان قوى فياض . فهى تشتمل على ألفاظ حب قوية

(*) وفى وسعنا أن نعد الرسائل الموجهة إلى أهل غلاطية ، وكورنثوس ، وروميه من رسائله بحق ؛ وأن نرجح أن الرسائل الموجهة إلى أهل تسالونيكى ، وفيلبى ، وكولوسى ، وفليمون هى أيضاً له ؛ بل إن الرسالة الموجهة إلى أهل إفسوس نفسها قد تكون أيضاً من رسائله .

ينطق بها رجل كانت كنائسه في منزلة أبنائه الذين يحميهم ويرد عنهم الأذى بأعظم ما يستطيع من قوة ، وفيها هجوم عنيف على أعدائه الذين لا حصر لهم ، وتأنيب شديد للمذنبين والمارقين ، والخصيمين الساعين إلى التفرقة ؛ ولا يخلو جزء منها من إنذار ونصح رحيم رقيق « وكونوا شاكرين ، لتكن فيكم كلمة المسيح بِغِنًى وأنتم بكل حكمة معلمون ومنذرون بعضكم بعضاً بمزامير وتسابيح وأغاني روحية بنعمة مترنمين في قلوبكم للرب »[٤٤] وهاهي ذي كلمات كبيرة يرددها العالم المسيحي كله ويعتز بها : « الحرف يقتل ، ولكن الروح يحيي »[٤٥] ، « المعاشرات الردية تفسد الأخلاق الجيدة »[٤٦] ، « كل شيء طاهر للطاهرين »[٤٧] . محبة المال أصل لكل الشرور »[٤٨] . وهاهي ذي اعترافات صريحة منه بعيوبه بل بريائه الشبيه برياء رجال السياسة :

« استعبدت نفسي للجميع لأربح الأكثرين ، فصرت لليهود كيهودي لأربح اليهود ، وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس ، وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس مع أني لست بلاناموس . . . لأربح الذين بلا ناموس . . . صرت للكل كل شيء لأخلص على كل حال قوما ، وهذا أنا أفعله لأجل الإنجيل لأكون شريكا فيه »[٤٩] .

وقد احتفظت بهذه الرسائل الجماعات التي وجهت إليها وكثيراً ما كانت تتلوها على الناس جهرة ، ولم يكد يختتم القرن الأول حتى كان الكثير منها معروفا واسع الانتشار ؛ فهاهو ذا كلمنت الروماني يشير إليها في عام ٩٧ ، ويشير إليها أيضا بعد قليل من ذلك الوقت كل من أجناسيوس Ignatius وپوليكارب Polycarp ؛ ولم تلبث أن دخلت في أخص خصائص اللاهوت المسيحي . ولقد أنشأ بولس لاهوتاً لا نجد له إلا أسانيد غامضة أشد الغموض في أقوال المسيح . وكانت العوامل التي أوحت إليه بالأسس التي أقام عليها ذلك اللاهوت هي انقباض نفسه ، وندمه ، والصورة التي استحال إليها المسيح في خياله ، ولعله قد

تأثر بنبذ الأفلاطونية والرواقية للمادة والجسم واعتبارهما شراً وخبثاً ؛ ولعله تذكر السنة اليهودية والوثنية سنة التضحية الفدائية للتكفير عن خطايا الناس :
أما هذه الأسس فأهمها أن كل ابن أنثى يرث خطيئة آدم ، وأن لا شيء ينجيه من العذاب الأبدى إلا موت ابن الله ليكفر بموته عن خطيئته(*)(٥٠).
وتلك فكرة كانت أكثر قبولا لدى الوثنيين منها لدى اليهود . ولقد كانت مصر ، وآسية الصغرى ، وبلاد اليونان تؤمن بالآلهة من زمن بعيد — تؤمن بأوزريس ، وأتيس وديونيشس — التي ماتت لتفتدى بموتها بني الإنسان . وكانت ألقاب مثل سوتر (المنقذ) واليوثريوس Eleutherios (المنجى) تطلق على هذه الآلهة ، وكان لفظ كريوس Kyrios (الرب) الذى سمى به بولس المسيح هو اللفظ الذى تطلقه الطقوس اليونانية — السورية على ديونيشس الميت المفتدى(٥٢) ، ولم يكن فى وسع غير اليهود من أهل أنطاكية وسواها من المدن اليونانية ، الذين لم يعرفوا عيسى بجسمه ، أن يؤمنوا به إلا كما آمنوا بآلهتهم المنقذين ، ولهذا ناداهم بولس بقوله : « هو ذا سر أقوله لكم » (٥٣) .

وأضاف بولس إلى هذا اللاهوت الشعبي المؤمن بعض آراء صوفية غامضة كانت قد ذاعت بين الناس بعد انتشار سفر الحكمة ، وفلسفة فليمون . من ذلك قول بولس إن المسيح هو « حكمة الله »(٥٤) و « ابن الله الأول » بكر كل خليقة ،

(*) لقد كان اليهود الأقدمون يشتركون مع الكنعانيين ، والموابيين ، والفينيقيين ، والقرطاجنين وغيرهم من الشعوب فى عادة التضحية بطفل ، بل بطفل محبوب ، لاسترضاء السماء الغضبى . ثم أصبح فى الإمكان على توالى الأيام أن يستبدل بالطفل مجرم محكوم عليه بالإعدام . وكان البابليون يلبسون هذا الضحية أثوابا ملكية ، لكى يمثل بها ابن الملك ، ثم تجلد وتشنق . وكان هذا نفسه يحدث فى رودس فى عيد كرونس . وأكبر الظن أن التضحية بحمل أو جدى فى عيد الفصح ليست إلا تخفيفاً لهذه التضحية البشرية اقتضاه تقدم المدنية . وفى ذلك يقول فريزر Frazer « وفى يوم الكفارة كاهن اليهود الأعظم يضع كلتا يديه على جدى حى ، ويعترف فوق رأسه بجميع ما ارتكبه بنو إسرائيل من مظالم ؛ حتى إذا ما حمل الحيوان خطايا الشعب على هذا النحو أطلقه فى البرية »(٥١) .

فإنه فيه خلق الكل . . . الكل به وله قد خلق ، الذى هو قبل كل شىء وفيه يقوم الكل »[٥٥] ، وليس هو المسيح المنتظر (المسيا) اليهودى ، الذى سينجى إسرائيل من الأسر ، بل هو الكلمة الذى سينجى الناس كلهم بموته . وقد استطاع بولس بهذه التفسيرات كلها أن يغض النظر عن حياة يسوع الواقعة وعن أقواله التى لم يسمعها منه مباشرة ، واستطاع بذلك أن يقف على قدم المساواة مع الرسل الأولين ، الذين لم يكونوا يجارونه فى آرائه الميتافيزيقية . لقد كان فى وسعه أن يخلع على حياة المسيح وعلى حياة الإنسان نفسه أدوارا عليا فى مسرحية فخمة تشمل النفوس على بكرة أبيها والأبدية بأجمعها . وكان فى وسعه فوق هذا أن يجيب عن الأسئلة المربكة أسئلة الذين قالوا إنه إذا كان المسيح إلها حقاً فلم رضى أن يقتل فقال : إن المسيح قد قتل ليفتدى بموته العالم الذى استحوذ عليه الشيطان بسبب خطيئة آدم . فكان لابد أن يموت ليحطم أغلال الموت ، ويفتح أبواب السماء لكل من نالوا رضوان الله .

ويقول بولس إن عاملين اثنين يقرران من سوف ينجيهم موت المسيح وهما اختيار الله والإيمان المصحوب بالتواضع . فالله يختار من بداية العالم إلى نهايته من ينالون نعمته ورضوانه ومن تحل بهم نقمته[٥٦] . ومع هذا فقد نشط بولس فى تقوية إيمان الناس حتى يكون إيمانهم هذا سبيلا إلى نيل رضاء الله . وقال : إن الروح لاتستطيع أن تحس بذلك التبدل العميق الذى يخلق صاحبها خلقاً جديداً ، ويوحد بين المؤمن وبين المسيح ، ويمكنه من الاشتراك فى ثمار موته . ويقول بولس إن الأعمال الطيبة ، وإطاعة كل ماجاء فى أوامر الشريعة اليهودية البالغ عددها ٦١٣ أمراً ، لايكفيان للنجاة ، لأن هذه الأعمال وتلك الطاعة لاتستطيع أن تبدل طبيعة الإنسان أو أن تطهر النفس من الذنوب . لقد اختتم عهد الناموس بموت المسيح ، ووجب ألا يكون الآن يهودى ويونانى ، أو عبد وحر ، أو ذكر وأنثى « لأنكم جميعا واحد فى المسيح »[٥٨] . لكن بولس لم يمل قط من أن يغرس

فى قلوب الناس فائدة العمل الطيب مقترناً بالإيمان ؛ وإن أشهر ما قيل من العبارات عن الحب نفسه لهى ألفاظه هو :

إن كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة ولكن ليس لى محبة فقد صرت نحاساً يطن أو صنجا يرن ، وإن كانت لى نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل علم ، وإن كان لى كل الإيمان حتى أنقل الجبال ، ولكن ليس لى محبة فلست شيئاً ؛ وإن أطعمت كل أموالى ، وإن سلمت جسدى حتى أحترق ولكن ليس لى محبة فلا أنتفع شيئاً ، المحبة تتأنى وترفق ، المحبة لا تحسد ، المحبة لا تتفاخر . . . ولا تطلب ما لنفسها . . . وتحتمل كل شىء . . . أما الآن فيثبت الإيمان والرجاء والمحبة ، هذه الثلاثة ولكن أعظمهن المحبة »[٥٩] .

أما الحب الجنسى فيجيزه بولس ، ولكنه لا يشجعه مطلقاً . ومن أقواله فقرة توصى[٦٠] . ولكنها لا تثبت ، أنه قد تزوج : « ألعلّنا (هو وبرنابا) ليس لنا سلطان أن نجول بأخت زوجة كباقى الرسل وإخوة الرب وصفا ؟ » ولكنه فى فقرة أخرى يسمى نفسه عزبا[٦١] . وكان يشبه يسوع فى تجرده من الشهوات الجسمية[٦٢] ، ولقد روع حين سمع بالشذوذ الجنسى بين الإناث والذكور[٦٣] . وسأل أهل كورنثه قائلا : « أولستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذى فيكم . . فمجدوا الله فى أجسادكم »[٦٤] ، وعنده أن بقاء البنات عذارى خير من الزواج ، ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا لأن التزوج أصلح من التحرق » وزواج المطلقين والمطلقات حرام ، إلا إذا كان المطلق زوجا لامرأة غير مؤمنة أو كانت المطلقة زوجة لغير مؤمن فإن لها بعد الطلاق أن يتزوجا . وعلى المرأة أن تطيع زوجها ، وعلى العبد أن يطيع سيده « الدعوة التى دعى فيها كل واحد (أى اعتنق المسيحية) فليلبث فيها ، دعيت وأنت عبد فلا يهمك ، بل وإن استطعت أن تصير حرا فاستعملها بالحرى ، لأن من دعى فى الرب وهو عبد فهو عتيق الرب ، كذلك أيضاً الحر المدعو هو عبد المسيح »[٦٥] .

ذلك أن الحرية والاسترقاق لم يكن لها شأن يذكر إذا كان العالم قريبا من نهايته . ولهذا السبب عينه لم يكن للحرية القومية شأن كبير « لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة ، لأنه ليس سلطان إلا من الله ، والسلاطين الكائنة هى مرتبة من الله »(٦٠) . لقد كان خليقاً بروما ألا تقضى على فيلسوف مجامل طيع إلى هذا الحد .

٤ – الشهيد

تقول الرسالة الثانية المشكوك فيها والموجهة إلى تيموثاوس : « بادر أن تجئ إلىّ سريعاً لأن ديماس قد تركنى ، إذ أحب العالم الحاضر . . . وكريسكيس وتيطس . . . لوقا وحده معى . . . فى احتجاجى الأول لم يحضر أحد معى ، بل الجميع تركونى . . . ولكن الرب وقف معى وقوّانى لكى تتم بى الكرازة ويسمع جميع الأمم ، فأنقذت من فم الأسد . . . فإنى أنا الآن أسكب سكيباً ووقت انحلالى قد حضر : قد جاهدت الجهاد الحسن ، أكملت السعى ، حفظت الإيمان »(٦٦) ؟

لقد كان فى حديثه شجاعاً جريئاً . وتقول إحدى الروايات القديمة إنه أطلق من السجن ، وإنه سافر إلى آسية وأسبانيا ، وعاد منهما إلى الدعوة ، وألقى نفسه مرة أخرى سجيناً فى رومة . ولكن أكبر الظن أنه لم يحرر . لقد كان بلا زوجة تؤنسه أو ولد يسليه ، وقد فارقه جميع أصدقائه إلا واحداً منهم ، فلم يبق له نصير إلا إيمانه القوى ، ولعل هذا الإيمان أيضاً قد تزعزع . ولقد كان يعيش كما يعيش غيره من المسيحيين فى ذلك العصر مؤملا أن يشهد عودة المسيح ، وكان قد كتب إلى أهل فلبى يقول : « ننتظر مخلصا هو الرب يسوع المسيح . . . الرب قريب » ، وقال إلى أهل كورنثة : « الوقت منذ الآن مقصّر لكى يكون الذين لهم نساء كأن ليس لهم . . . والذين يشترون كأنهم لا يملكون . . . لأن هيئة هذا العالم تزول » ... ماران أثا ، المسيح معكم »(٦٨) . لكنه فى رسالته الثانية لأهل

تسالونيكى لامهم لأنهم يهملون شئون العالم انتظاراً لقرب مجىء المسيح ، وقال إنه « لا يأتى إن لم يأت الارتداد أولا ويُستعلَن إنسان الخطيئة (الشيطان) مظهراً نفسه أنه إله »(٦٩) .

ويبدو لنا من رسائله الأخيرة أنه حاول فى أثناء سجنه أن يوفق بين عقيدته الأولى وبين تأخر مجىء المسيح للمرة الثانية ، وأخذ يضع أمله فى أن يراه بعد أن يموت ، وجعل سلواه ذلك التوفيق العظيم بين العقيدتين الذى أنجى المسيحية — وهو استبدال الأمل فى الاتحاد بالمسيح فى السماء بعد الموت بالعقيدة الأولى عقيدة عودة المسيح إلى هذه الأرض » . ويبدو أنه حوكم مرة أخرى وأدين ؛ وأن الحاكم السياسى وقف مع الرسول الدينى وجهاً لوجه ، وتغلب أولهما على الثانى . ولسنا نعرف حقيقة التهمة التى وجهت إليه ، وأكبر الظن أنه اتهم فى هذه المرة بما اتهم به هو وزملاؤه فى تسالونيكى وهو أنهم « يعملون ضد أحكام قيصر قائلين إنه يوجد ملك آخر يسوع »(٧٠) ؛ وكانت هذه جريمة كبرى يعاقب عليها بالإعدام . وليس لدينا سجل قديم لهذه المحاكمة ، ولكن ترتليان — وقد كتب بعد مائتى عام من وقوعها — يقول إن « بولس استشهد فى رومة فى عهد نيرون »(٧١) . ونرجح أنه وهو مواطن رومانى قد كرم بأن قتل بمفرده ، فلم يختلط بالمسيحيين الذين صلبوا بعد حريق عام ٦٤ ؛

وتقول إحدى الروايات إنه هو وبطرس استشهدا فى وقت واحد وإن كان كلاهما قد استشهد منفرداً ؛ وتصور إحدى القصص المؤثرة هذين الرجلين المتنافسين يرتبطان برباط الصداقة حين يلتقيان فى طريقهما إلى الموت . وقد شيد له فى القرن الثالث ضريح فى موضع على طريق أستيا Ostia يعتقد رجال الدين أن بولس أسلم فيه الروح . وجدد هذا الضريح أكثر من مرّة بعد ذلك الوقت ، وكان كلما جدد يزداد رونقاً وفخامة حتى أصبح الآن هو الباسلقا الشهيرة المعروفة باسم «القديس بولس وراء الجدران» San Paola fuori le Mura -

ذلك رمز خليق بنصره . لقد مات الإمبراطور الذى قضى بإعدامه ميتة الجبناء ، وسرعان ما زال من الوجود كل أثر لأعماله التى أسرف فى إقامتها أيما إسراف ، أما بولس المغلوب على أمره فهو الذى شاد صرح المسيحية الدينى ، كما أنه هو وبطرس وضعا نظام الكنيسة العجيب . لقد عثر بولس فى خبايا الشريعة اليهودية على حلم يصوّر لليهود فلسفة الحشر والنشر ، فحرره ووسّع نطاقه ، وجعله عقيدة ذات قوة تستطيع أن تحرك العالم بأسره ، واستطاع بصبره الشبيه بصبر رجال السياسة أن يمزج مبادئ اليهود الأخلاقية بعقائد اليونان فيما وراء الطبيعة ، وأوجد طقوساً خفية جديدة ووضع مسرحية للحشر جديدة استوعبت كل ما سبقها من مسرحيات تصور هذه العقيدة ، وعاشت بعدها كلها ، وأحل العقيدة محل العمل فى اختبار الفضيلة ، وكان من هـــذه الناحية بداية العصور الوسطى . ولسنا ننكر أن هذا كان تغيراً يؤسف له كل الأسف ، ولكن لعل الإنسانية هى التى شاءت أن يكون ؛ ذلك أن الذين يستطيعون أن يحذوا حذو المسيح هم أقلية من القديسين . ولكن نفوسا كثيرة قـــد تستطيع أن تسمو بآمالها فى الحياة الخالدة إلى مستوى رفيع من الإيمان والشجاعة .

ولم يشعر معاصرو بولس بأثره فى التو والساعة ، لأن الجماعات التى أنشأها كانت أشبه بجزائر صغرى فى بحر الوثنية الواسع الخضم ، ولأن كنيسة رومة كانت من صنع بطرس وبقيت وفيّة لذكراه ، ومن أجل هذا ظل بولس مائة عام كاملة بعد موته لا يكاد يذكره إنسان . فلما انقضت الأجيال الأولى من المسيحيين ، وأخذت أحاديث الرسل الشفهية تضعف ذكراها فى الأذهان ، وأخذ العقل المسيحى يضطرب بمئات من عقائد الزيغ والضلال ؛ لما حدث هذا أضحت رسائل بولس إطاراً لمجموعة من العقائد أضفت على الجماعات المتفرقة اتزاناً وألفت منها كنيسة واحدة قوية .

ومع هذا كله بقى الرجل الذى فصـــل المسيحية عن اليهودية من حيث

الجوهر والأساس يهوديا فى قوة خلقه ، وصرامة مبادئه ؛ ولما أن أراد رجال العصور الوسطى الدينيون أن يجعلوا الوثنيـــة كثلكة براقة لم يجدوا ما يتفق مع هذه النزعة ، فلم يقيموا له إلا قليلا من الكنائس ، وقلما كانوا يقيمون له تمثالا أو ينطقون باسمه ؛ ومرت خمسة عشر قرنا من الزمان قبل أن يجعل لوثر بولس رسول الإصلاح الدينى ، ويجد فيـــه كلفن Calvin النصوص القائمة التى أخذ عنها عقيدته الجبرية . وبهذا كانت البروتستنتية نصراً لبولس على بطرس ، وكان الاعتقاد بأن النجاة إنما تكون بالإيمان والعقيدة نصراً لبولس على المسيح .

الفصل الثالث

يوحنا

لقد شاءت أحداث التاريخ المفاجئة أن تنقل إلينا بولس فى صورة واضحة جلية إذا قيست إلى صورة غيره من رسل المسيح ، وأن تترك صورة يوحنا فى خفاء وغموض . ولقد انحدر إلينا مؤلَّفان كبيران مقرونان باسمه فضلا عن رسائل ثلاث . ويحاول النقاد أن يرجعوا سفر الرؤيا إلى عام ٦٩ — ٧٠[٧٢] ، ويعزوه إلى يوحنا آخر هو يوحنا « اللاهوتى » الذى ذكره پپياس Papias (١٣٥)[٧٣] . أما جستن مارتن Justin Martin (١٣٥) فيعزو هذا السفر القوى إلى الرسول « المحبوب »[٧٤] . لكن يوزبيوس ذكر من عهد بعيد يرجع إلى القرن الرابع أن بعض العلماء يشكون فى صحة نسبته إليه . وما من شك فى أن صاحب هذا السفر كان رجلا ذا مكانة عظيمة لأنه يخاطب كنائس آسية بلهجة المهدد صاحب السلطان . فإذا كان كاتبه هو الرسول نفسه (وسنظل نفترض مؤقتا أنه هو) ، فإن فى مقدورنا أن نفهم سبب تسميته : كما سمى أخوه يعقوب ، باسم بوانرجس Boanerges أى ابن الرعد . وكانت إفسوس ، وأزمير ، وپرغامس ، وسارديس وغيرها من مدن آسية الصغرى تنظر إلى يوحنا لا إلى بطرس أو بولس على أنه رئيس الكنيسة الأعلى . وتقول الروايات التى ينقلها يوزبيوس[٧٤] إن دومتيان نفى يوحنا إلى بطمس Patmos وإنه كتب فى هذه الجزيرة من جزائر بحر إيجه الإنجيل الرابع وسفر الرؤيا . وقد عمر يوحنا طويلا حتى قال الناس إنه مخلد .

ويشبه سفر الرؤيا سفرى دانيال وأخنوخ من حيث الشكل . ولقد كانت رؤى النبوءات الرمزية أحد الأساليب التى يلجأ إليها يهود ذلك العصر فى كثير من الأحوال ؛ ووجدت رؤى أخرى غير رؤى يوحنا ، ولكن

هذا السفر سما عليها جميعاً فى بلاغته الجذابة . ويستند الكاتب إلى العقيدة الشائعة التي تقول إن حلول ملكوت الله يسبقه حكم الشيطان ، وانتشار الشرور والآثام ، فيصف حكم نيرون بأنه هو بعينه عهد الشيطان ، ويقول إنه لما خرج الشيطان وأتباعه على الله غلبتهم الملائكة جيوش ميخائيل ، وقذفت بهم إلى الأرض فقادت العالم الوثنى فى هجومه على المسيحية . ونيرون هو الوحش وعدو المسيح فى هذا الكتاب فهو مسيح من عند الشيطان ، كما أن يسوع مسيح من قبل الله . ويصف رومة بأنها « الزانية العظيمة الجالسة على المياه الكثيرة التى زنى معها ملوك الأرض » ، « وسكر سكان الأرض من خمر زناها » وهى « زانية بابل » مصدر جميع الظلم والفساد ، والفسق والوثنية ، ومركزها وقتها . هنالك ترى القياصرة المجدفين المتعطشين للدماء ، يطلبون إلى الناس أن يخصوهم بالعبادة التى يحتفظ بها المسيحيون للمسيح .

ويبصر المؤلف فى عدة رؤى متتابعة ما سوف يحل برومة وبالإمبراطورية من ضروب العقاب . سترسل عليها أسراب من الجراد تظل خمسة أشهر تعذب سكانها أجمعين عدا المائة ألف والأربعة والأربعين ألفاً من اليهود الذين يحملون على جباههم خاتم المسيحية[٧٧] . وتأتى ملائكة أخرى فتصب سبع قوارير من غضب الله على الأرض ، فيصاب الناس بقروح شديدة ، ويتحول البحر إلى دم كدم الميت يموت منه كل ما فى البحر من الكائنات الحية . ويطلق ملك آخر حرارة الشمس بأجمعها على الذين لم يتوبوا ، ويلف ملك غيره الأرض فى ظلام دامس ، ويقود أربعة من الملائكة ضعفى عشرة آلاف مرة عشرة آلاف من الفرسان يذبحون ثلث أهل الأض ، ويخرج أربعة فرسان يقتلون الناس « بالسيف والجوع والموت وبوحوش الأرض »[٧٨] . ويحدث زلزال تندك منه الأرض ، وتسقط قطع ضخمة من البرد على من بقى من الكفار ، وتدمر رومة تدميرا تاما . ويجتمع ملوك الأرض ليقفوا وقفتهم الأخيرة فى وجه الله ،

ولكنهم يموتون عن آخرهم ، ويلقى بالشيطان وأتباعه إلى الجحيم بعد أن يمنوا بالهزيمة فى كل مكان . ولن ينجو من هذه الكارثة إلا المسيحيون الصادقون ؛ والذين عذبوا من أجل المسيح ، والذين غسلوا فى دم الخروف[٧٩] سيجزون الجزاء الأوفى » .

ثم يطلق الشيطان بعد ألف عام ليفترس بنى الإنسان ، وتعود الخطيئة فتفشو مرة أخرى فى عالم خال من الإيمان ، وتبذل قوى الشر آخر جهدها لتفسد عمل الله . ولكنها تغلب مرة أخرى ، ويلقى بالشيطان وأتباعه هذه المرة فى الجحيم حيث يبقون جميعاً إلى أبد الدهر . ثم يحل يوم الحساب الأخير فيقوم الموتى جميعاً من القبور ، ويخرج الغرقى من البحار . وفى ذلك اليوم الرهيب « يلقى فى البحيرة المتقدة بنار كبريت » كل « من لم يوجد مكتوبا فى سفر الحياة »[٨٠] ، ويجتمع المؤمنون ليأكلوا « لحوم ملوك ، ولحوم قواد ، ولحوم أقوياء ... ولحوم الكل حرا وعبدا ، صغيرا وكبيراً »[٨١] ، ممن لم يبالوا بدعوة المسيح . وستقوم سماء الله مهيأة لتكون جنة على الأرض ، وستكون أساساتها من الحجارة الكريمة ، ومبانيها من فضة أو ذهب شبه زجاج نقى ، وسورها يشب ، وكل باب من أبوابها الاثنى عشر لؤلؤة واحدة ، وسيجرى فيها نهر صاف من ماء حياة تنمو على ضفته « شجرة حياة » . ويقضى على حكم الشر إلى أبد الدهر ، ويرث الأرض مَن يؤمنون بالمسيح ، « والموت لا يكون فيما بعد ، ولا يكون حزن ، ولا صراخ ، ولا وجع فيما بعد »[٨٢] .

وقد كان لسفر الرؤيا أثر عاجل عميق دائم ، وكان ما تنبأ به من نجاة للمؤمنين الصادقين ومن عذاب لأعدائهم هو الدعامة القوية التى حفظت حياة الكنيسة فى عصور الاضطهاد . كذلك كانت فكرة العهد السعيد سلوى أولئك الذين أحزنهم طول انتظارهم عودة المسيح وسرى ما فيه من صور واضحة وعبارات مشرقة فى أقوال العالم المسيحى الشعبية والأدبية ، وظل الناس تسعة عشر قرناً

يفسرون حوادث التاريخ على أنها تحقيق لما فيه من رؤى ، ولا يزال يضفى لونه القاتم ومذاقه المرّ على عقيدة المسيح فى بعض البقاع النائية عن عالم الرجل الأبيض .

وقد يبدو من غير المعقول أن يكون كاتب سِفر الرؤيا هو نفسه كاتب الإنجيل الرابع . ذلك أن سفر الرؤيا سفر يهودى وأن الإنجيل فلسفة يونانية : ولعل الرسول كتب تلك الرؤى فى سورة الغضب التى أعقبت اضطهاد نيرون وكان لها من هذا الاضطهاد ما يبررها ، ثم كتب الإنجيل فى أيام نضجه وشيخوخته ونزعته الميتافيزيقية (٩٠ ؟ م) . وربما كانت ذكرياته عن السيد المسيح قد ذهب بعضها إن كان فى وسع الإنسان أن ينسى ذكريات المسيح ؛ وما من شك فى أنه قد سمع فى الجزائر والمدائن الأيونية أصداء كثيرة للتصوف اليونانى والفلسفة اليونانية . وكان بطليموس من قبله قد نشر تلك العقيدة الخطيرة القائلة إن « أفكار الله » هى النمط الذى شكلت بمقتضاه الأشياء كلها ؛ ثم جمع الرواقيون هذه الأفكار فى عبارتهم المعروفة *فكرة الله المخصبة* . ثم جسد الفيثاغوريون الجـدد هذه الأفكار فجعلوها شخصا قدسيا ، ثم استحالت على يد فيلون إلى عقل الله أى إلى عنصر قدسى ثان ، به يخلق الله الخلق ويتصل بالعالم .

وإذا ما ذكرنا كل هذا ونحن نقرأ بداية الإنجيل الرابع الذائعة الصيت ، واستبقينا لفظ Logos اليونانى بدل ترجمته الإنجليزية Word (أو العربية كلمة) أدركنا من فورنا أن يوحنا قد انضم إلى الفلاسفة :

« فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله . . . كل شىء به كان ، وبغيره لم يكن شىء مما كان ؛ فيه كانت الحياة ، والحياة كانت نور الناس . . . والكلمة صار جسداً وحل بيننا » .

وإذ كان يوحنا قد عاش مدى جيلين فى بيئة هلنستية فقد بذل جهده

لكي يصبغ بالصبغة اليونانية العقيدة الصوفية اليهودية القائلة بأن حكمة الله كانت شيئاً حياً(٨٣). والعقيدة المسيحية القائلة بأن عيسى هو المسيح المنتظر، كما أحس من قبل فيلون العالم المتضلع فى البحوث العقلية اليونانية بالحاجة إلى صياغة العقائد اليهودية من جديد كي توائم عقلية اليونان ذوى النزعة الفلسفية، ولقد واصل يوحنا ، عرف أو لم يعرف ، ما بدأه بولس من فصل المسيحية عن اليهودية فلم يعرض المسيح على العالم ، كما كان يعرض عليه من قبل ، بوصفه يهوديا يلتزم الشريعة اليهودية إلى حد ما ، قل ذلك أو كثر ، بل أنطقه فى خطابه لليهود بقوله « أنتم » وبحديثه عن الناموس بقوله « ناموسكم » . ولم يكن « مسيحاً منتظراً » ارسل لينجي خرا إسرائيل الضالة ، بل كان ابن الله الخالد معه ، ولم يكن المحكم بين الناس فى المستقبل فحسب ، بل كان هو الخالق الأول للكون . فإذا نظرنا إلى المسيح هذه النظرة ، كان فى وسعنا أن نغفل إلى حد ما حياة الرجل يسوع اليهودية إذ نراها تذوى ويذهب سناها كما يذهب عند الطائفة اللاأدرية غير المؤمنة ، أما فكرة المسيح الإله فقد هضمتها وامتصتها تقاليد العقل الهلنستى الدينية والفلسفية ، ومن ثم كان فى وسع العالم الوثنى — بل وفى وسع العالم المضاد للسامية — أن يحتضنها ويرضى بها .

إن المسيحية لم تقض على الوثنية ، بل تبنتها ، ذلك أن العقل اليونانى المتضر عاد إلى الحياة فى صورة جديدة فى لاهوت الكنيسة وطقوسها ، وأصبحت اللغة اليونانية التى ظلت قروناً عدة صاحبة السلطان على السياسة أداة الآداب ، والطقوس المسيحية ، وانتقلت الطقوس اليونانية الخفية إلى طقوس القداس الخفية الرهيبة ، وساعدت عدة مظاهر أخرى من الثقافة اليونانية على إحداث هذه النتيجة المتناقضة الأطراف . فجاءت من مصر آراء الثالوث المقدس ، ويوم الحساب ، وأبدية الثواب والعقاب ، وخلود الإنسان فى هذا أو ذاك ، ومنها جاءت عبادة أم الطفل ، والاتصال الصوفى

بالله ، ذلك الاتصال الذى أوجد الأفلاطونية الحديثة واللاأدرية ، وطمس معالم العقيدة المسيحية . ومن مصر أيضاً استمدت الأديرة نشأتها والصورة التى نسجت على منوالها : ومن فريجيا جاءت عبادة الأم العظمى ، ومن سوريا أخذت تمثيلية بعث أوتيس . وربما كانت تراقيا هى التى بعثت للمسيحية بطقوس ديونيشس ، وموت الإله ونجاته . ومن بلاد الفرس جاءت عقيدة رجوع المسيح وحكمه الأرض ألف عام ، وعصور الأرض ، واللهب الأخير الذى سيحرقها ، وثنائية الشيطان والله والظلمة والنور . فمن عهد الإنجيل الرابع يصبح المسيح نوراً « يضىء فى الظلمة والظلمة لم تدركه»[٨٤] ولقد بلغ التشابه بين الطقوس المثراسية والقربان المقدس فى القداس حداً جعل الآباء المسيحيين يتهمون إبليس بأنه هو الذى ابتدعه ليضل به ضعاف العقول[٨٥] .

وقصارى القول أن المسيحية كانت آخر شىء عظيم ابتدعه العالم الوثنى القديم .

الباب الثامن والعشرون

نمو الكنيسة

من ٩٦ إلى ٣٠٩ م

الفصل الأول

المسيحيون

كانوا يجتمعون فى حجراتهم الخاصة أو فى معابد صغيرة ، وقد نظموا أنفسهم على مثال المجامع اليهودية . وأطلقوا على كل جماعة منهم اسم « الإكليزيا » Ekklesia — وهو اللفظ اليونانى الذى كان يطلق على الجمعية الشعبية فى حكومات البلديات — وكانوا يرحبون بالعبيد كما كان يرحب بهم فى عبادات إيزيس ومثراس ، ولم تبذل أية جهود لتحريرهم ، ولكنهم كانوا يواسون بأن يقال لهم إنهم سيعيشون فى ملكوت يكون الناس فيه جميعاً أحراراً . وكان معظم الذين اعتنقوا الدين الجديد فى أول الأمر من الطبقات الدنيا بينهم عدد قليل من الطبقات الوسطى — الدنيا وعدد أقل من الأغنياء ، ولكنهم مع هذا لم يكونوا من « سفلة الناس » كما يدعى سلسس Celsus ؛ بل كانوا يحيون فى الغالب حياة نظام وجد ، يمدون بعثات التبشير بالمال ، ويجمعون الأموال لمساعدة الجماعات المسيحية الفقيرة . وقلما كانت تبذل فى ذلك الوقت جهود لكسب سكان الريف ، فلم يعتنق هؤلاء الدين

الجديد إلا آخر الأمر ؛ وكانت هذه الطريقة العجيبة هى السبب فى أن أطلق لفظ البجانيين Pagani (أى القرويين أو الفلاحين) على سكان دول البحر الأبيض المتوسط قبل اعتناقهم المسيحية .

وكان يسمح للنساء بالدخول فى المجامع الدينية ، وكان لهن بعض الشأن فى أداء الواجبات الصغرى ، ولكن الكنيسة كانت تطلب إليهن أن يحيين حياة التواضع والخضوع والعزلة حتى تستحى غير المسيحيات من حياتهن ؛ فكن يؤمرن بأن يأتين للصلاة والعبادة محجبات ، لأن شعرهن يعد من أكبر المغريات ، وكان يخشى أن يفتن به الناس والملائكة أنفسهم أثناء الصلاة[٢] ، بل إن القديس جيروم كان يرى أن يقص هذا الشعر كله[٣]. كذلك كان يطلب إلى النساء المسيحيات ألا يستخدمن أدهان التجميل أو الحلى ، وأن يتجنبن الشعر المستعار بنوع خاص ، لأن بركة القس إذا نزلت على الشعر الميت المأخوذ من رأس غير رأس لابسه صعب عليها أن تعرف أى رأس تباركه[٤] . وقد أصدر بولس أوامر صارمة لأتباعه فقال :

« لتصمت نساؤكم فى الكنائس لأنه ليس مأذوناً لهن أن يتكلمن . . . ولكن إذا كن يردن أن يتعلمن شيئاً فليسألن رجالهن فى البيت لأنه قبيح بالنساء أن تتكلم فى كنيسة » .

« فإن الرجل لا ينبغى أن يغطى رأسه لكونه صورة الله ومجده ، وأما المرأة فهى مجد الرجل ، لأن الرجل ليس من المرأة ، بل المرأة من الرجل ، ولأن الرجل يخلق من أجل المرأة ، بل المرأة من أجل الرجل ، لهذا ينبغى للمرأة أن يكون لها سلطان على رأسها من أجل الملائكة » .

هذه هى النظرة اليهودية واليونانية لا النظرة الرومانية للمرأة ، ولعلها كانت ثورة على الإباحية التى انزلقت إليها بعض النساء بإساءة استعمال ما أوتين من حرية ، ومن حقنا حين نقرأ هذه النذر أن نعتقد أن النساء المسيحيات قد أفلحن فى أن يكن فاتنات مغريات على الرغم من عطلهن من الحلى والعطور ،

وبمعونته براقعهن ، فارسن بدهائهن ما كان لهن من سلطان فى الزمن القديم . وقد وجدت الكنيسة للأرامل وغير المتزوجات من النساء أعمالا كثيرة نافعة ، فقد نظمتهن فى جماعات « الأخوات » ، وعهدت إليهن القيام ببعض أعمال الإدارة أو الصدقات ، وأنشأت على توالى الزمن طبقات مختلفة من الراهبات كانت أعمالهن الرحيمة أنبل ما تمثلت فيه المسيحية .

وقد وصف لوشيان حوالى عام ١٦٠ « أولئك البلهاء » ، المسيحيين ، الذين يزدرون الأشياء الدنيوية ويرون أنها ملك مشترك بينهم جميعا »[٦] ؛ وجاء ترتليان بعد جيل واحد فأعلن أننا « نحن » (المسيحيين) « نشترك جميعاً فى كل شىء عدا زوجاتنا » ، وأضاف إلى ذلك قوله بتهكمه اللاذع : « فإذا وصلنا إلى هذه النقطة حللنا شركتنا ، حللناها بالضبط عند النقطة التى يجعل غيرنا من الرجال اشتراكهم قويا فعالا »[٧] ؛ وليس من حقنا أن نأخذ هذه الأقوال بحرفيتها ؛ ذلك أن الشركة ، كما يفهم من فقرة أخرى فى أقوال ترتليان ، لا تعنى أكثر من أن كل مسيحى يجب عليه أن يسهم فى رصيد الجماعة المشتركة بقدر ما تمكنه موارده ؛ وما من شك فى أن الاعتقاد السائد بأن النظام القائم فى العالم سيقضى عليه بعد قليل قد جعل هذا التبرع سهلا على المسيحيين ؛ ولعل الأغنياء منهم قد اقتنعوا بأنهم يجب ألا يفاجأوا يوم القيامة وهم ملقون فى أحضان المال . وكان بعض المسيحيين الأولين يعتقدون كما يعتقد الإسينيون أن الرجل الغنى الذى لا يشرك الناس فيما لا حاجة له به من ماله لص[٩] . وقد هاجم يعقوب « أخو الرب » الثروة بألفاظ تنم عن ثورة نفسية مريرة :

« هلم الآن أيها الأغنياء ، ابكوا مولولين على شقاوتكم القادمة ، غناكم قد تهرأ ، وثيابكم قد أكلها العث ، ذهبكم وفضتكم قد صدئا . وصدأهما ... يأكل لحومكم كنار ، قد كثرتم فى الأيام الأخيرة ، هوذا أجرة الفعلة الذين حصدوا حقولكم المبخوسة منكم تصرخ وصياح الحاصدين قد دخل إلى أذنى

رب الجنود ... أما اختار الله فقراء هذا العالم ... ورثة الملكوت ؟ »[١٠] .

ويضيف إلى هـــذا أن الغنى سيذبل كما تذبل الأزهار فى حر الشمس اللافح[١١] .

وسرى فيما اعتاده المسيحيون من تناول وجبة الطعام المشتركة عنصر من عناصر الشيوعية ، فقـــد كان المسيحيون الأولون يجتمعون كثيراً فى عيد الحب Agapé ويكون ذلك عادة فى مساء يوم أحد السبوت . وكان العشاء يبدأ وينتهى بالصلاة وقراءة بعض فقرات من الكتاب المقدس ، وكان القس يبارك الخبز والخمر . ويبدو أن المؤمنين كانوا يعتقدون أن الخبز والخمر كانا هما لحم المسيح ودمه ، أو أنهما يمثلان لحمه ودمه[١٢] . وكان عباد ديونيشس ، وأتيس ، ومثراس يؤمنون بما يشبه هذه العقائد فى المآدب التى يأكلون فيها الأجساد المسحورة لآلهتهم أو رموز هـــذه الأجساد[١٣] . وكانت آخر مراسم عيد الحب هذا هى « قبلة الحب » وكانت هذه القبلة فى بعض المجتمعات يتبادلها الرجال فيما بينهم أو النساء فيما بينهن ؛ لكن هذا القيد الثقيل لم يكن يراعى فى البعض الآخر ، ثم وجد كثيرون من المشتركين فى هذا الحفل البهيج أن فيه من الملذات ما يأباه الدين ، وندد ترتليان وغيره بما أدى إليه من الإباحية الجنسية[١٤] . وكانت الكنيسة توصى بألا تفتح الشفاه فى أثناء التقبيل ، وألا تتكرر القبلة إذا أعقبتها لذة[١٥] . ثم أخذ عيد الحب يختفى تدريجاً فى القرن الثالث .

وفى وسعنا أن نصدق ما كان يعتقده الأقدمون من أن أخلاق المسيحيين الأولين كانت مثالا يزدجر به العالم الوثنى على الرغم من هذا الحادث السالف الذكر وأمثاله ، وعلى الرغم من تشهير الوعاظ الذين كانوا يطلبون إلى المؤمنين أن ينشدوا الكمال . لقد استطاعت هذه المبادئ الأخلاقية السماوية أن تهذب ما فى الإنسان من غرائز حيوانية ، وتضع له قانوناً أخلاقيا صالحا للحياة مهما يكن الثمن الذى تقاضته من حرية العقل والتفكير ، وذلك بعد أن ضعفت الأديان

الأديان القديمة وزال ما كان لها من أثر ضئيل فى تدعيم الحياة الخلقية ، وبعد أن أخفقت المحاولات التى بذلتها الرواقية لإيجاد قانون أخلاقى قريب من القانون الطبيعى ، فلم يكن لها أثر إلا فى الصفوة المختارة من الناس . لقد كان الاعتقاد بحلول ملكوت الله ينطوى كذلك على الاعتقاد بوجود حَكَم عدل مطلع على جميع أعمال البشر ، يعلم ما تخبئه الصدور ، لا يعزب عنه مثقال ذرة ، ولا يستطيع أحد أن يفر منه أو يخدعه : يضاف إلى هذه الرقابة القدسية رقابة أخرى من الناس بعضهم على بعض . ذلك أن الذنوب لم يكن من السهل إخفاؤها فى هذه الجماعات الصغيرة ، وأن المجتمع كان يوجه أشد اللوم علنا لمن يكشف أمرهم ممن يخالفون من أعضائه القانون الأخلاقى الجديد . وقد حرم على المسيحيين الإجهاض ووأد الأطفال وهما اللذان كانا يقضيان على عدد كبير من أفراد المجتمعات الوثنية ، وسوى بينهما وبين القتل العمد[١٦] . وكثيراً ما أنقذ المسيحيون الأطفال الذين تركوا فى العراء ليقضوا نحبهم ، وعمدوهم ، وربوهم مستعينين بما كان يقدم لهم من عون من مال الجماعة العام[١٧] . كذلك حرمت الكنيسة على المسيحيين الذهاب إلى [illegible] مشاهدة الألعاب العامة ، أو الاشتراك

الحفلات التى تقام فى الأعياد الوثنية ، وإن لم تفلح فى هذا بقدر ما أفلحت فى تحريم الإجهاض ووأد الأطفال[١٨] . وقصارى القول أن المسيحية أيدت وشددت ما كان لدى اليهود المتأهبين للقتال من صرامة أخلاقية . وكانت توصى بالعزوبة وبقاء البنات أبكارا وتعد ذلك من المثل الأخلاقية العليا ، ولم يكن يسمح بالزواج إلا لأنه مانع من الإباحية الجنسية ، ولأنه وسيلة سخيفة لحفظ النسل . ولكن الزوج والزوجة كانا يشجعان على الامتناع عن العلاقات الجنسية[١٩] . أما الطلاق فلم يكن يسمح به إلا إذا كان أحد الزوجين وثنيا وأراد أن يلغى زواجه بمن اعتنق المسيحية . وكانت الكنيسة تقاوم زواج الأرامل من النساء والرجال ، وقد حرم اللواط وذم ذمًا قل أن

يكون له مثيل فى شدته فى التاريخ القـــديم . وفى ذلك يقول ترتليان :
« أما من حيث المسألة الجنسية فإن المسيحى يقنع بالمرأة »[٢٠]

وكان كثير مما ورد فى هذا القانون الأخلاقى الصارم يستند إلى قرب عودة المسيح إلى الأرض ، فلما أن بدأ هـــذا الأمل يضمحل ، أخذت مطالب الجسد تقوى مرة أخرى ، وضعفت الأخلاق المسيحية . وشاهد ذلك أن رسالة لا يعرف كاتبها تسمى **راعى هرماس** (حوالى عام ١١٠) تندد بعودة البخل ، والخيانة ، وأصباغ الشفاه ، وصبغ الشعر ، وتلوين الجفون ، والسُّكر ، والزنى بين المسيحيين[٢١] . لكن الصورة العامة التى لدينا عن أخلاق المسيحيين فى ذلك العهد تنطق بالتقوى ، والوفاء المتبادل ، والإخلاص بين الزوجين ، والسعادة ، والطمأنينة ، والثقة ، والإيمان . ولم يسع پلنى الأصغر إلا أن يكتب إلى تراچان يقول إن المسيحيين يحيون حياة هادئة هى مضرب المثل فى الصلاح[٢٢] . ويصفهم جالينوس بأنهم « قد سموا فى تأيب أنفسهم » وفى . . . رغبتهم الشديدة فى الوصول إلى مستوى خلقى رفيع يجعلهم فى منزلة لا تقل عن منزلة الفلاسفة الحقيقيين[٢٣]. وقدقوى شعورهم بالخطيئة حين أخذوا يعتقدون أن البشر جميعهم قد تلوّثوا بسقوط آدم ، وأن العالم سينتهى عما قريب ، ويحلّ اليوم الذى يحكم فيه على الناس بالعذاب السرمدى أو النعيم المقيم .

وقد وجه كثير من المسيحيين همهم كله إلى العمل على أن يستقبلوا يوم الحساب الرهيب طاهرين من الدنس ، فكانوا لذلك يرون فى كل لذة من ملذات الحواس غواية من غوايات الشيطان ، ولهذا أخذوا ينددون بعالم الجسم ويعملون لكبت الشهوات بالصوم وبكثير من أنواع التعذيب البدنى ، وكانوا ينظرون بعين الريبة إلى الموسيقى ، والخبز الأبيض ، والخمور الأجنبية ، والحمامات الدفئة ، وحلق اللحية ، ويرون فى هذه الأعمال استهانة بإرادة الله الجلية الواضحة للعيان[٢٤] . واتخذت الحياة حتى عند المسيحى العادى نفسه لوناً أشد قتاماً

مما خلعته عليها الوثنية ، إلا حينما كانت تعمل على استرضاء الآلهة السفلى لدفع أذاها . وانتقل إلى يوم الأحد المسيحى ما كان يراعى فى السبت اليهودى من جد ووقار حين حل أولها محل الثانى فى القرن الثانى بعد الميلاد .

فقد كان المسيحيون يجتمعون فى ذلك اليوم المعروف عندهم بيوم الرب ، ليقيموا قداسهم الأسبوعى . فكان قساوستهم يتلون عليهم نبذاً من الكتاب المقدس ، ويؤمونهم فى الصلاة ، ويلقون عليهم مواعظ فى العقائد ، والتعاليم الأخلاقية ، والجدل الطائفى . وكان يسمح لأفراد الجماعة وخاصة النساء ، فى الأيام الأولى أن « ينطقوا » فى أثناء الغيبوبة أو النشوة بألفاظ لا يستطيع أن يشرح معناها إلا المفسرون الصالحون ؛ ولما أن أدت هذه الأعمال إلى كثير من التهييج والفوضى فى شئون الدين ، عمدت الكنيسة إلى عدم تشجيعها ثم منعتها آخر الأمر منعاً باتاً . ووجد القساوسة أنفسهم مضطرين عند كل خطوة إلى كبح جماح الخرافات لا إلى خلقها .

وقبل أن يختتم القرن الثانى كانت هذه الحفلات الأسبوعية قد اتخذت شكل القداس المسيحى . وأخذ هذا القداس ينمو نمواً بطيئاً بالاعتماد على صلاة الهيكل اليهودية ، وعلى الطقوس اليونانية الخاصة بالتطهير ، والتضحية البديلة ، والاشتراك عن طريق العشاء الربانى فى قوى الإله القاهرة للموت ، حتى صار فى آخر الأمر كومة من الصلوات ، والمزامير ، والقراءات ، والمواعظ ، والترتيلات ، وما هو أهم من هذا كله وهو التضحية الرمزية بحمل الله للتفكير عن الخطايا ، وهى التضحية التى حلت فى المسيحية محل القرابين الدموية فى الأديان القديمة . واستحال الخبز والخمر اللذان كانا يعدّان فى الطقوس القديمة هدايا توضع على المذبح أمام الإله بفضل تدشين القساوسة له إلى جسم المسيح ودمه ، وأصبحا يقدمان لله بوصفهما تكراراً لتضحية يسوع بنفسه على خشبة الصليب . ويلى هذا موكب مؤثر رهيب يشترك فيه العابدون فى حياة منقذهم ومادته نفسيهما .

وكانت هذه فكرة خلع عليها طول الزمن قداسة ، فلم يكن العقل الوثنى فى حاجة إلى شىء من التدريب لاستقبالها وإدماجها فى « طقوس القداس الخفية » وبها أضحت المسيحية آخر الأديان الغامضة وأعظمها . لقد كانت هذه عادة حقيرة فى منشئها[٢٥] ، جميلة فى تطورها ، وكان قبولها المسيحية وسيلة من أحكم الوسائل التى سلكتها لتوائم بينها وبين رموز العصر وحاجات أتباعها ؛ ولم يكن فى طقوسها كلها طقس يماثل القداس فى بعث الحماسة فى النفس الوحيدة المقفرة ، وتقويتها على مواجهة العالم الذى يناصبها العداء(*) .

وكان « منح البركة » للخبز والخمر أحد الأسرار السبعة المسيحية المقدسة ، وهى الطقوس التى يعتقد الناس أنهم ينالون بها البركة الإلهية . وهنا أيضاً تستخدم الكنيسة شعر الرموز لتخفف به من أعباء الحياة الإنسانية وتعلى مكانتها ، وتجدد فى كل مرحلة من مراحل الملحمة الإنسانية صلة الخالق بالمخلوق وهى الصلة التى تقويه على احتمال متاعب الحياة وآلامها . ولسنا نجد فى القرن الأول الميلادى إلا ثلاث شعائر دينية يؤمن المسيحيون بقداستها — التعميد ، والعشاء الربانى ، ورسامة الكهنوت ؛ ولكن سائر الشعائر كانت أصولها موجودة فى عادات المجتمعات الدينية من ذلك الوقت البعيد . ويلوح أنه كان من عادة المسيحيين الأولين أن يضيفوا إلى التعميد « وضع الأيادى » على من يعمدون ، وبذلك يُدخل الرسول أو القسيس الروح القدس فى المؤمنين[٢٨] ؛ ثم انفصل هذا العمل عن التعميد على توالى الأيام وأصبح هو تثبيت العماد[٢٩] .

ولما استبدل تعميد الأطفال شيئاً فشيئاً بتعميد الكبار شعر الناس بحاجتهم إلى التطهير الروحى بعد مرحلة الطفولة ؛ فاستحال الاعتراف العام بالخطيئة اعترافاً خاصاً أمام القس ، الذى يقول بأنه تلقى من الرسل أو خلفائهم من الأساتذة حق

(*) وكان الخبز والماء المقدسان يقدمان لأبناء مثراس فى أثناء طقوسه الخفية ، ولقد دهش الغزاة الفاتحون حين وجدوا طقوساً مماثلة لهذا ، منتشرة بين هنود المكسيك وبيرو .

« الربط والحل » أى فرض الكفارات وغفران الذنوب[٣٠].

ولقد كان فرض الكفارات هذا من الأنظمة التى يمكن أن يساء استخدامها لسهولة نيل المغفرة ، ولكنه مع هذا يمد المذنب بقوة تمكنه من إصلاح نفسه ، ويوفر على النفوس القلقة متاعب الندم العصيبة ».

وكان الزواج فى تلك القرون لا يزال من النظم المدنية ؛ ولكن الكنيسة أضافت إليه ضرورة الحصول على موافقتها ، وأخذت تطالب الزوجين به ، فرفعت الزواج بهذا العمل من عقد زمنى يستطاع حله إلى عهد مقدس لا يستطاع نقضه . وقبل أن يحل عام ٢٠٠ بعد الميلاد اتخذت عادة « وضع الأيادى » صور « الرسامة الكهنوتية » ، وبمقتضاها أصبح للأساقفة وحدهم حق رسامة القساوسة القادرين على إقامة القداس بصورته الصحيحة ؛ ثم استمدت الكنيسة فى آخر الأمر من رسالة يعقوب (٥ : ١٤) « دهن المريض بالزيت المقدس بعد الموت » وهى البركة الأخيرة التى يتلقاها من القس حين يدهن المسيحى المحتضر أعضاء الحس والأطراف ، فيطهره مرة أخرى من الخطايا ويهيئه للقاء الله . ولو أننا حكمنا على هذه الشعائر بما كان يعزوه إليها القائمون بها والمؤمنون بقوتها ، وأخذنا أقوالهم فيها بحرفيتها ، لكان هذا منتهى السخف منا والجهالة ، لكننا إذا أدركنا أنها تبعث فى النفوس البشرية الشجاعة والإلهام ، حكمنا من فورنا بأنها خير علاج للنفوس وأقربه إلى الحكمة .

وكانت طريقة الدفن المسيحية آخر ما تكرم به حياة المسيحى . ذلك أن من عقائد الدين الجديد عودة الحياة إلى الجسم والروح ، ولهذا كان يعنى بالميت أشد العناية ، فيقوم قسيس بالخدمة الدينية للميت وقت دفنه ، وتوضع كل جثة وحدها فى قبر خاص ، ثم أخذ المسيحيون حوالى عام ١٠٠ يتبعون العادات السورية والتسكانية القديمة فيدفنون موتاهم فى سراديب — وأكبر الظن أن هذا لم يكن بقصد إخفائها بل كان رغبة منهم فى الاقتصاد فى الأمكنة

والنفقات ، فكان العمال يحفرون طرقات طويلة تحت الأرض مختلفة البعد عن سطحها ، توضع فيها أجسام الموتى فى دياميس بعضها فوق بعض ممتدة على جانبى هذه الطرقات . وسار الوثنيون واليهود على هذه السنة نفسها ، ولعلهم فعلوا هذا ليسهلوا مشقة الدفن ونفقاته على الجمعيات التى كانت تقوم بهذه المهمة . ويبدو لنا أن بعض هذه الطرقات قد جعلت ملتوية عمداً ، وقد يبعث هذا على الظن بأنها كانت تستخدم مخابئ فى أوقات الاضطهاد ، فلما أن علا شأن المسيحية وانتصرت على أعدائها زالت عادة دفن الموتى فى السراديب ، وأضحت الدياميس أماكن معظمة يحج إليها الناس ؛ وقبل أن يحل القرن التاسع سدت السراديب ونسيها الناس ، ولم تكشف إلا بطريق المصادفة عام ١٥٧٨ .

وهذه السراديب وما فيها من نقوش بارزة ومظلات هى التى احتفظت بمعظم ما بقى لنا من الفن المسيحى الأول . فهنا ظهرت فى عام ١٨٠ الرموز التى أصبحت فيما بعد ذات شأن أيما شأن فى المسيحية : اليمامة الممثلة للروح بعد أن تحررت من سجن الجسم ، والفنقس(*) **Phoenix** الذى عادت الحياة إلى رماده بعد احتراقه ، وغصن النخلة شعار النصر ، وغصن الزيتون رمز السلام ، والسمكة وقد ضمت إلى الشعائر المسيحية لأن اسمها اليونانى **i-ch-th-u-s** يتكون من الحروف الأولى من العبارة **Jesous Christos theou uios soter** — « يسوع المسيح ابن الله ، المنقذ » ، وهنا أيضا نجد تلك الفكرة الذائعة الصيت ، فكرة الراعى الصالح ، ممثلة تمثيلا صريحاً على تمثال لعطارد يحمل معزى . وتتمثل فى هذه الرسوم أحياناً رشاقة رسوم بمبى ، ونشاهد ذلك فى الأزهار ، والكروم ، والطيور التى كان يزدان بها قبر دومتيان . وهذه النقوش فى العادة من أعمال صغار الصناع المغمورين الذين يفسدون وضوح الخطوط اليونانية والرومانية بالغموض

(*) طائر خرافى يقولون عنه إنه عاش خمسمائة عام وحيدا فى البرية ، وبعد أن حرق نفسه على كومة الحريق عادت الحياة إلى رماده ، ولهذا كان يعد رمزاً للخلود . (المترجم)

الشرق . ذلك بأن المسيحية كانت فى تلك القرون الأولى منهمكة فى شئون الدار الآخرة انهماكا يحول بينها وبين العناية بتزيين دار الدنيا . يضاف إلى هذا أنها سارت على السنة اليهودية سنة كراهية التماثيل ، وخلطت بين التصوير وبين عبادة الأوثان ، وذمت النحت والتصوير لأنهما فى أكثر الأحيان يمجدان العرى ، وكان من أثر هذه الآراء أن اضمحل الفن التشكيلى بنماء المسيحية ، أما الفسيفساء فكانت أكثر انتشاراً ، فكانت جدران الباسلقات وأماكن التعميد مرصعة برصائع من أوراق الأشجار وأزهارها وبخروف عيد الفصح ، وصور من العهد القديم .

وكانت صور شبيهة بهذه تنقش نقشاً غير متقن على التوابيت . وكان المهندسون المعماريون فى هذه الأثناء يعملون على تكييف الباسـلقات اليونانية — الرومانية للوفاء بحاجات العبادات المسيحية ؛ ولم تكن الهياكل الصغيرة التى كانت تضم الآلهة الوثنية نموذجا صالحا للكنائس المعدة لاستقبال الجماعات الكبيرة ، أما صحن الباسلقا الرحب وطرقاتها فكانت صالحة لهذا الغرض ، وكأن قباءها قد أعدّ لأن يكون هو المحراب ؛ وفى هذه الأضرحة ورثت الموسيقى المسيحية على استحياء النغم ، والوزن ، والسلم الموسيقى ؛ وكان كثير من رجال الدين يعارضون فى أن تغنى النساء فى الكنيسة ، بل كانوا يعارضون فى أن يغنين فى أى مكان عام ، لأن صوت النساء قد يثير رغبة دنسة فى الرجل القابل للتهيج على الدوام[٣١] : لكن المجتمعين فى الكنائس كثيراً ما كانوا يعبّرون بترانيمهم عن أملهم ، وشكرهم ، وبهجتهم ؛ وأضحت الموسيقى على توالى الأيام أجمل الزينات ، وأرق الوسائل لخدمة الدين المسيحى .

وهذا الدين فى جملته أعظم الأديان التى عرضت على بنى الإنسان جاذبية ، فهو يعرض نفسه دون ما قيد على جميع الأفراد ، والطبقات ، والأمم ؛ ولم يكن كالدين اليهودى مقصوراً على شعب بعينه أو على الأحرار فى أمة بعينها كما كانت الشعائر الرسمية فى رومة وبلاد اليونان ؛ والمسيحية إذ تجعل الناس

جميعاً وارثين لانتصار المسيح على الموت تعلن المساواة التامة الأساسية بين جميع بني الإنسان ، وتجعل كل الفروق في المراتب الدنيوية أموراً عارضة تافهة ؛ وقد وهبت البائسين ، والمحطمين ، والمحرومين ، والبائسين ، والأذلاء ، جميعاً فضيلة الرحمة التي لم يكن لهم بها عهد من قبل ، كما وهبتهم العزة والكرامة التي ترفع من قدرهم وتعلى شأنهم ، ووهبتهم فوق ذلك وحياً وإلهاماً ينبعث من صورة المسيح وقصته ومبادئه الأخلاقية ؛ وأضاءت حياتهم بما تبعث فيهم من أمل في ملكوت الله المقبلة ، وفي السعادة الدائمة بعد الموت ؛ ووعدت أشد الناس ذنوباً بالعفو عن ذنوبهم وبقبولهم في الناجين من العقاب في الدار الآخرة ؛ أما العقول التي أقلقها طول البحث في المشاكل المعقدة كمشاكل أصل الحياة ومصير الإنسان والشر والآلام فقد جاءت إليها بمجموعة من العقائد الموحى بها من عند الله تستطيع أكثر النفوس سذاجة أن تجد فيها السلوى والراحة العقلية ؛ وجاءت إلى الرجال والنساء الذين يحيون حياة الفاقة والكدح بمباهج العشاء الرباني والقداس ؛ وهما من الشعائر التي تجعل كل حادثة كبرى في الحياة منظراً خطيراً في مسرحية الله والإنسان ؛ وجاءت إلى الفراغ الخلقي الذي خلقته الوثنية المحتضرة ، وإلى فتور الرواقية وفساد الأبيقورية ، وإلى العالم الذي أنهكته علل الوحشية ، والقسوة ، والظلم ، والفوضى الجنسية ؛ وإلى الإمبراطورية الجانحة إلى السلم ، والتي بدت في غير حاجة إلى فضائل الرجولة القوية ، أو إلى آلهة الحرب ، جاءت إلى هذه كلها بقانون أخلاق جديد قائم على الأخوة ، والرحمة ، والتأديب ، والسلام .

وبعد أن تشكل الدين الجديد بحيث يفي بحاجات الإنسان أخذ ينتشر بين الناس بما أوتي من قدرة على الذيوع والانتشار ؛ فكان كل من اعتنق هذا الدين ينصب نفسه داعياً له بحماسة لا تقل في قوتها عن حماسة الثوار . وكانت طرق الإمبراطورية الرومانية ، وأنهارها ، وشواطئ بحارها ، ومسالكها التجارية

أهم العوامل التى عينت الخطوط الرئيسية لنماء الكنيسة المسيحية ، فاتجه هذا النماء شرقا من أورشليم إلى دمشق ، والرها ، ودورا ، وسلوقية ، وطشقونة ؛ واتجه منها جنوبا عن طريق بصرى ، وبطرا إلى بلاد العرب ؛ وغربا عن طريق سوريا إلى مصر ، وشمالا عن طريق أنطاكية إلى آسية الصغرى وأرمينية ؛ ومن إفسوس وترواس وراء بحر إيجه إلى كورنثة (كورنثوس) وتسالونيكى ، وإلى درهكيوم وراء الطريق الإجناسى ؛ ثم اخترق البحر الأدرياوى إلى برنديزيوم ، أو عن طريق سلا وكربيا-ن إلى بتيولى وروما ؛ وعن طريق صقلية ومصر إلى شمالى أفريقية ، واخترق البحر المتوسط أو جبال الألب إلى أسبانيا وغالة ، ومنها إلى بريطانيا . ثم سار الصليب على مهل فى أعقاب الحكم الرومانى ، وشق النسر الرومانى الطريق للمسيح ؛ وكانت آسية الصغرى فى ذلك الوقت حصن المسيحية الحصين ، ولم يكد يحل عام ٣٠٠ حتى كانت الكثرة الغالبة من سكان إفسوس وأزمير من المسيحيين(٣٢) . وعلا شأن الدين الجديد فى شمالى أفريقية ، فأضحت قرطاجنة وهپو مركزين رئيسيين للعلم والجدل المسيحيين ، وفيهما وجد آباء الكنيسة اللاتينية ، العظام — ترتليان ، وكپريان ، وأوغسطين ؛ وهنا اتخذت نصوص القداس اللاتينية وترجمة العهد القديم اللاتينية صورتيهما المعروفتين وبلغ عدد الجالية المسيحية فى رومة قبيل آخر القرن الثالث نحو مائة ألف ، وكان فى وسع الجالية أن تمد بمعونتها المالية غيرها من الجاليات ، وكانت من عهد بعيد تطالب لأسقفها بالسلطة العليا على سائر الكنائس .

ويمكننا أن نقول بوجه عام إنه لم يحل عام ٣٠٠ بعد الميلاد حتى كان رُبع سكان الشرق وجزء من عشرين جزءاً من سكان الغرب من المسيحيين . وفى ذلك يقول ترتليان (حوالى ٢٠٠) ، « يجهر الناس بأن الدولة مكتظة بنا ، ذلك أن الخلائق على اختلاف سنهم ، وأحوالهم ، ومراتبهم ، يهرعون إلينا ، وينضوون تحت لوائنا . إنا أبناء الأمس القريب ، ولكننا رغم هذا قد ملأنا العالم كله »(٣٣) .

الفصل الثانى

تنازع العقائد

لو أن عادات وعقائد مختلفة متناقضة لم تنشأ فى مراكز المسيحية المتعددة المستقلة بعضها عن بعض إلى حد ما والخاضعة إلى تقاليد وبيئات مختلفة ، لو أن هذا لم يحدث لكان عدم حدوثه أمراً شديد الغرابة . ولقد قدر للمسيحية اليونانية بنوع خاص أن يطغى عليها سيل من البدع الدينية بتأثير عادات العقل اليونانى الميتافيزيقية المولعة بالنقاش والجدل ؛ وليس من المستطاع فهم المسيحية على حقيقتها إلا إذا عرفنا ما دخل فيها من هذه البدع ، لأنها وإن غلبتها لم تسلم من بعض ألوانها وأشكالها .

وكان ثمة عقيدة مشتركة وحدت الجماعات المسيحية المنتشرة فى أنحاء العالم : هى أن المسيح ابن الله ، وأنه سيعود لإقامة مملكته على الأرض ، وأن كل من يؤمن به سينال النعيم المقيم فى الدار الآخرة . ولكن المسيحيين اختلفوا فى موعد عودة المسيح ؛ فلما أن مات نيرون ، وخرب تيطس الهيكل ، ولما أن دمر هدريان أورشليم ، رحب كثيرون من المسيحيين بهذه الكوارث وعدُّوها بشائر بعودة المسيح .

ولما أن هددت الفوضى الإمبراطورية فى أواخر القرن الثانى ، ظن ترتليان وغيره أن آخرة العالم قد دنت[٣٤] ؛ وسار أحد الأساقفة السوريين على رأس قطيعه إلى الصحراء ليلتقى بالمسيح فى منتصف الطريق ، وأفسد أسقف آخر فى بنطس نظام أتباعه بأن أعلن أن المسيح سيعود فى خلال عام واحد[٣٥] . ولما لم تصدق كل هذه العلامات ، ولم يعد المسيح ، رأى عقلاء المسيحيين أن يخففوا من وقع هذه الخيبة بتفسير موعد عودته تفسيراً جديداً ، فقيل فى رسالة معزوة إلى برنابا

إنه سيعود فى خلال ألف عام[٣٦] ؛ وقال أشد هؤلاء حذراً إن عودته ستكون حين ينقرض « جيل » اليهود أو شعبهم عن آخره ، أو حين لا يبقى أحد من غير اليهود لم يصل إليه الإنجيل ؛ أو كما يقول إنجيل يوحنا : إنه سيرسل بدلا منه الروح القدس أو المقرّى(*) ؛ ثم نقل الملكوت آخر الأمر من الأرض إلى السماء ، ومن حياة الناس فى هذه الدنيا إلى الجنة فى الدار الآخرة . بل إن الاعتقاد بعودة المسيح بعد ألف عام أصبح لا يلقى تشجيعاً من الكنيسة ، وانتهى الأمر بأن صارت تقاومه وتحكم على القائلين به بالزيغ والضلال .

وملاك القول أن الاعتقاد بعودة المسيح الثانية هى التى أقامت صرح المسيحية ، وأن الأمل فى الدار الآخرة هو الذى أبقى عليها(**) .

وإذا غضضنا النظر عن هذه العقائد رأينا أن أتباع المسيح قد انقسموا فى الثلاثة القرون الأولى من ظهوره إلى مائة عقيدة وعقيدة . ولو أننا عمدنا إلى ذكر العقائد الدينية المختلفة التى حاولت أن تستحوذ على الكنيسة الناشئة ثم عجزت عن الوصول إلى غرضها ، والتى اضطرت الكنيسة إلى أن تصمها واحدة بعد واحدة بأنها كفر وسعى إلى الانشقاق والتفريق ، لو أننا فعلنا هذا لكان ذلك جهلا منا بالغرض من كتابة التاريخ .

(*) إنجيل متى ١٤ : ١٦ : ٢٦ (المترجم)

(**) يفسر آلاف من المسيحيين ، ومنهم كثيرون من العاملين بها ، اضطرابات هذه الأيام بأنها النذر المنبئة بقرب عودة المسيح . ولا يزال ملايين من المسيحيين وغير المسيحيين والملحدين يعتقدون بأن ستكون على الأرض جنة تختفى منها الحروب والشرور . ويمكن تشبيه عقيدتى النعيم فى الدار الآخرة وجنة الدنيا بدلوين يتبادلان النزول فى بئر إذا نزلت إحداها ارتفعت الأخرى . فلما أن ضعف شأن الأديان اليونانية والرومانية القديمة ، ثارت الاضطرابات الشيوعية فى أثينة (٤٣١ ق . م) ، وبدأت الثورة فى رومة (١٣٣ ق . م) ، ولما أخفقت هاتان الحركتان ، نجحت العقائد القائلة بالبعث والنشور وبلغت ذروتها فى الدين المسيحى ؛ ولما أن ضعفت العقيدة المسيحية فى القرن الثامن عشر بعد الميلاد عادت الشيوعية إلى الظهور . وعلى هذا الاعتبار يكون مستقبل الدين مضمونا لا خوف عليه .

وجدير بنا أن نشير هنا إلى أن الأدرية(*) — أى طاب العلم الربانى (gnosis) عن طريق التصوف — لم تكن كفراً بالمسيحية بقدر ما كانت عقيدة منافسة لها : لقد نشأت هذه العقيدة قبل المسيحية ، وكانت تبشر بوجود المنقذ (Soter) قبل أن يولد المسيح[٣٧] . وأكبر الظن أن سمعان المجوسى السامرى الذى عاب عليه بطرس اتجاره بالرتب الكهنوتية كان هو نفسه مؤلف كتاب *المعرض الأكبر* الذى جمع فيه طائفة لا حصر لها من الأفكار الشرقية عن الخطوات المعقدة التى يستطيع بها العقل البشرى أن يصل إلى العلم اللدنى بالأشياء كلها . وفى الإسكندرية امتزجت الأرفية ، والفيثاغورية الجديدة ، والأفلاطونية الجديدة بفلسفة فيلون العقلية ودفعت بسيليدس Basilides (١١٧) ، وڤلنتينس Valentinus (١٦٠) وغيرهما إلى تكوين أنظمة عجيبة من « الفيض الربانى » و « إيوناب » العالم المجسدة(**) ؛ وأوجد بردسانس Bardesanes (٢٠٠) فى الرها اللغة السريانية الأدبية بوصفه هذه الإيونات شعراً ونثراً . وعرض ماركس الأدرى The Gnostic Marcus فى غالة أن يكشف للنساء أسرار ملائكتهن الحارسة ، وكان كل ما أوحى به إليهن إطراء لهن ونفاقاً ، وقبل فى نظير ذلك أن يستمتع بهن[٣٨] .

وكان أعظم الملاحدة الأولين من غير الأدريين ، ولكنه تأثر بآرائهم الدينية . وتتلخص قصة مرسيون Marcion وهو شاب ثرى من أهل سينوب فى أنه جاء إلى رومة حوالى عام ١٤٠ معتزماً أن يتم ما بدأه بولس وهو تخليص المسيحية من اليهودية . وكان مما قاله مرسيون إن المسيح حسب رواية الأناجيل ،

(*) مذهب شيعة كانت تقول إن المادة قديمة وإن الشر من طبيعتها وتخلط بين النصرانية ومذهب الماديين والمجوس . (المترجم)

(**) جمع إيون وهو فى الفلسفة القديمة صفة من صفات الله تجسدت وكان لها نصيب فى خلق العالم . (المترجم)

قد قال إن أباه إله رحيم ، غفور ، محب ؛ على حين أن يهوه ، كما يصفه العهد القديم ، إله غليظ القلب ، صارم فى عداله مستبد ، إله حرب ؛ ولا يمكن أن يكون يهوه هذا أباً للمسيح الوادع . وتساءل مرسيون قائلا أى إله خير تطاوعه نفسه بأن يقضى على البشر جميعاً بالشقاء لأن أباهم الأول أكل تفاحة ، أو رغب فى المعرفة أو أحب امرأة ؟ إن يهوه موجود ، وهو خالق العالم ، ولكنه خلق لحم الإنسان وعظامه من المادة ، ولهذا ترك روح الإنسان مسجونة فى قالب من الشر . وأراد إله أكبر من يهوه أن يطلق هذه الروح من ذلك السجن فأرسل ابنه إلى الأرض ؛ وظهر المسيح ؛ وكان عند ظهوره فى سن الثلاثين ، فى جسم طيفى غير حقيقى ، وكسب بموته لخيار الناس ميزة البعث الروحى الخالص . ويقول مرسيون إن الأخيار هم الذين يفعلون ما فعله بولس فينبذون يهوه والشريعة اليهودية ، ويرفضون الكتب العبرانية المقدسة ، ويتجنبون الزواج ، واللذات الجنسية جميعها ، ويتغلبون على الجسم بالزهد الشديد . وعمل مرسيون على نشر هذه الآراء بإصدار عهد جديد غير العهد المعروف يتكون من إنجيل لوقا ورسائل بولس ؛ وأصدرت الكنيسة قراراً بحرمانه ، وردت إليه المال الكثير الذى وهبه إليها حين جاء إلى رومة .

وبينا كانت الشيعتان الأدرية والمرسيونية آخذتين فى الانتشار السريع فى الشرق والغرب ظهر زعيم جديد لشيعة ضالة أخرى فى ميسيا Mysia . فقد قام فى عام ١٥٦ رجل يدعى منتانس Montanus يندد بتعلق المسيحيين المتزايد بشئون هذا العالم وبازدياد سلطان الأساقفة المطلق على الكنيسة ، وأخذ يطالب بالعودة إلى بساطة المسيحية الأولى وصرامتها ، ويرد حق التنبؤ أو القول الملهم إلى أعضاء الجماعات المسيحية . وآمنت امرأتان تدعيان بريسلا Priscilla ومكسمليا Maximillia بأقواله ، وأخذتا تنطقان فى أثناء غيبوبتهما الدينية بأقوال أصبحت النبوءات الباقية لهذه الشيعة . وكان منتانس نفسه يتنبأ فى أثناء نشوته الدينية بنبوءات بلغ من فصاحتها أن أتباعه الفريجيين أخذوا يلقبونه بالجدى الذى وعد

به المسيح ، ويلقونه بنفس الترحيب الحماسي الذي كان يصدر من أتباع ديونيشس . وكان مما تنبأ به أن ملكوت السموات قد دنت ساعتها ، وأن أورشليم الجديدة التي يقول بها سفر الرؤيا ستنزل من السماء على سهل قريب بعد زمن قليل . ثم سار بنفسه إلى هذه الأرض الموعودة على رأس حشد من الناس بلغ من الكثرة درجة خلت معها بعض المدن من سكانها . وحدث في هذا الوقت ماحدث في بداية عهد المسيحية فامتنع الناس عن الزواج وعن التناسل ، وجعلوا متاعهم ملكا مشاعاً بينهم ، وعمدوا إلى التقشف والزهد استعداداً لمجيء المسيح[٣٩]. ولما اضطهد أنطونينس الحاكم الروماني المسيحيين في آسية الصغرى هرع مئات من أتباع منتانس إلى محاكمه سعياً منهم إلى الاستشهاد ، ورغبة في الجنة . ولم يستطع أنطونينس أن يحاكمهم كلهم فاكتفى بإعدام بعضهم وطرد معظمهم وقال لهم : « أيها الخلائق التعساء ! إذا كنتم تريدون الموت حقاً ، فهل عدمتم الحبال وأجراف الصخر العالية ؟ »[٤٠] وأعلنت الكنيسة أن تعاليم منتانس كفر وضلال ، وأمر جستنيان في القرن السادس الميلادي بإبادة هذه الشيعة عن آخرها ، فاجتمع بعض أتباع منتانس في كنائسهم ، وأضرموا فيها النار ، واحترقوا فيها أحياء[٤١] .

أما الشيع الضالة الصغرى فقد كانت مما يخطئه الحصر ، فنها شيعة الزهاد التي عمدت إلى قمع شهواتها بمختلف الوسائل ، وقالت إن الزواج من الخطايا ؛ ومنها شيعة المتخيلة (Docetists) (*) القائلة بأن جسم المسيح لم يكن لحما ودماً بل كان شبحا أو خيالا ، ومنها الثيودوتية التي لم تكن ترى في المسيح أكثر من إنسان ، والمتبنية(**) ، وأتباع بولس السموساتي **Samosata** وكانت هاتان الطائفتان تعتقدان أن المسيح كان بمولده رجلا عاديا ولكنه وصل إلى درجة الألوهية بكماله الخلقي ؛ ومنها الظاهرية **Modalists** والسابلية

(*) والاسم مشتق من اللفظ اليوناني **dokein** أي يبدو . (المترجم)

(**) أي التي تقول إن المسيح ابن الله بالتبني لا بالطبيعة . (المترجم)

(أتباع سابليوس) القائلة بأن الأب والابن والروح القدس ليست أقانيم منفصلة بل هى صور مختلفة يظهر فيها الله للإنسان ، ومنها المنكرون وجود شخصية مستقلة للمسيح والقائلون إن ألوهيته ليست إلا قوة وهبت له . وهؤلاء كلهم يعتقدون أن الأب والابن شخص واحد ؛ واليعاقبة الذين يعتقدون أن للمسيح طبيعة واحدة ؛ ومنها القائلون بأن للمسيح مشيئة واحدة ، وتغلبت الكنيسة على هذه الشيع كلها بما كان لها من نظام خير من نظمها جميعا ؛ وبتمسكها الشـــديد بمبادئها ، وبفهمها طبائع الناس وحاجاتهم أكثر منها .

وظهر فى القرن الثالث خطر جديد فى بلاد الشرق يهدد كيان المسيحية ، ذلك أن شابا صوفيا فارسيا يدعى مانى الطشةونى أعلن عند تتويج شابور (٢٤٢) أنه المسيح المنتظر ، وأن الإله الحق أرسله إلى الأرض ليقوم حياة البشر الدينية والأخلاقية . وأخذ مانى عقائده من الزردشتية ، والمثراسية ، واليهودية ، والأدرية ؛ فقسم العالم مملكتين متناقستين هما مملكتا الظلمة والنور ؛ وقال إن الأرض تتبع مملكة الظلمة ، وإن الشيطان هو الذى خلق الإنسان ، ولكن ملائكة إله النور استطاعت بطريقة خفية أن تدخل إلى البشرية بعض عناصر النور وهى العقل والذكاء والتفكير . وقال مانى إن فى النساء أنفسهن بصيصاً قليلا من النور ، ولكن المرأة هى خير ما صنع الشيطان ، وهى عامله الأكبر فى إغواء الرجل وإيقاعه فى الذنوب . فإذا امتنع الرجل عن العلاقات الجنسية ، والكلف بالنساء وعن السحر ، وعاش عيشة الزهد ، ولم يطعم إلا الأغذية النباتية ، وصام عن الطعام بعض الوقت ، فإن ما فيه من عناصر النور يتغلب على الدوافع الشيطانية ، ويهديه إلى النجاة ، كما يهديه النور الرحيم . وظل مانى ينشر دعوته بنجاح ثلاثين عاماً صلب بعدها بناء على طلب كهنة المجوس ، وحشى جلده بالقش ، وعلق على أحد أبواب مدينة السوس ؛ وبعث استشهاده الناس حماسة قوية ، فانتشرت مبادئه فى غربى آسية وشمالى أفريقية ، واعتنقها أوغسطين مدى

عشرين عاما ، وعاشت بعد اضطهاد دقلديانوس ، وفتوح المسلمين ، وظلت تحيا حياة مضمحلة مدى ألف عام إلى أن ظهر جنكيزخان .

وكانت الأديان القديمة لاتزال هي أديان الكثرة الغالبة من سكان الإمبراطورية ؛ فأما اليهودية فقد ضمت في مجامعها المتفرقة المطرودين من أتباعها بعد أن عضهم الفقر بنابه ، وأخذت تنفس عن تقواها بترتيل التلمود ؛ وظل السوريون يعبدون بعل وإن أسموه بأسماء يونانية ، كما ظل الكهنة المصريون قائمين على خدمة آلهتهم الحيوانية الكثيرة بإخـــلاص وولاء ؛ واحتفظت سيبيل ، وإيزيس ، ومثراس ، بأتباعها إلى آخر القرن الرابع ؛ واستحوذت مثراسية جديدة على الدولة الرومانية في عهد أورليان ؛ واستمرت النذور والقرابين ترسل إلى آلهة الرومان القديمة في هياكلها ، وظل المبتدئون والطلاب يرحلون إلى اليوزيا ، والمواطنون الذين يتطلعون إلى المراكز العليا في الدولة يؤدون مناسك دين الأباطرة في مختلف أنحائها ؛ لكن هذه الأديان القديمة فقدت حيويتها ، ولم تعد تثير في الناس ذلك الإخلاص القلبي الذي يبعث الحياة في الدين اللهم إلا في أماكن قليلة متفرقة ؛ ولم يكن سبب هذا الضعف أن اليونان والرومان قد تركوا أديانهم التي كانت في يوم من الأيام إما جميلة محببة أو قوية صارمة ؛ بل كان سببه أنهم فقدوا إرادة الحياة ، وعمدوا إلى الإسراف في تحديد النسل إلى أبعد الحدود ، أو إنهاك الجسم ، أو الحروب المدمرة ، فقل عددهم إلى الحد الذي أفقد الهياكل عبادها في الوقت الذي فقدت فيه الأرض زراعها .

وبينا كان أورليوس يقاتل المركمانيين على ضفاف الدانوب في عام ١٧٨ حاولت الوثنية محاولة خطيرة أن تحمي نفسها من المسيحية ؛ وكل ما نعرف عن هذه المحاولة مستمد من كتاب أرجن Origen المسمى ضد سلسس Againist Celsus وما فيه من عبارات نقلت في غير عناية من كتابه كلمة الحق لسلسس .

وكان سلسس هذا — وهو ثانى رجل نذكره فى قصتنا بهذا الإسم — رجلا من رجال الدنيا الذين يمتعون أنفسهم بنعيمها ، ولم يكن من الفلاسفة ؛ وكان يحس أن الحضارة التى يستمتع بها مرتبطة أشــد الارتباط بالدين الرومانى ، ولذلك أخذ على عاتقه أن يدافع عن هذا الدين بأن يهاجم المسيحية التى كانت وقتئذ أكبر أعدائه وأشدهم بأساً . وعمد إلى دراسة الدين الجديد دراسة دهش من غزارتها أرجن العالم النحرير . ثم أخذ يهاجم ما فى الكتاب المقدس من أمور لا تجوز ، على حد قوله ، إلا على بسطاء العقول ، كما هاجم صفات يهوه ، وما يعزى إلى معجزات المسيح من أهمية ، وما بين موت المســيح وقدرته الإلهية من تناقض . وسخر من اعتقاد المسيحيين بالنار التى سيحترق بها العالم آخر الأمر ، وبيوم الحساب ، وبعقيدة البعث والنشور :

« من السخف أن نظن أنه حين يأتى الله بالنار ، كما يفعل الطهاة ، سيحترق بها سائر البشر ولا يبقى إلا المسيحيون — لا الأحياء منهم وحدهم ، بل من ماتوا من زمن طويل ، فيقوم هؤلاء من قبورهم فى الأرض بأجسامهم التى كانت لهم قبل الموت . الحق أن هذا هو أمل الدود ! . . . وليس فى وسع المسيحيين أن يُقنعوا بهذه العقائد إلا المغفلين ، الأراذل ، ضعاف العقول من العبيــد والنساء والأطفال ماشطى الصوف ، والأساكفة ، والقصارين أجهل الناس وأسافلهم ؛ وكل من هو مذنب آثم ، أو أبله أضله الله سواء السبيل »[٤٢] .

وقد روع سلسس انتشار المسيحية ، وعداؤها للوثنية وازدراؤها إياها ، هى أو الخدمة العسكرية ، والدولة ؛ وقال فى نفسه : كيف تستطيع الإمبراطورية أن تحمى نفسها من البرابرة الذين يحومون حول أطرافها فى جميع جهاتها إذا خضع أهلها لهذه الفلسفة المسالمة ؟ وكان يرى أن من واجب المواطن الصالح أن

يدين بدين بلاده والعصر الذى يعيش فيه ، دون أن ينتقد علناً ما فيه من سخافات ، لأن هذه السخافات لا أهمية لها ، أما الشيء المهم حقا فهو أن يكون للدولة دين يوحدها ، ويعين على الخلق الكريم ، ويثبت قواعد الولاء لها .

ونسى سلسس ما صبه على المسيحيين من إهانات ، فدعاهم إلى أن يعودوا إلى الآلهة القديمة ، وأن يعبدوا عبقرية الإمبراطور الحارسة ، وأن ينضموا إلى سائر مواطنيهم فى الدفاع عن الإمبراطورية التى يتهددها الخطر . غير أن أحداً لم يلق بالا إلى هذه الدعوة ؛ ولسنا نجـد له ذكراً فى الآداب الوثنية ، وكان قسطنطين أكثر منه حكمة فأدرك أن الدين الميت لا يستطيع أن ينجى رومة .

الفصل الثالث

افلوطينس

يضاف إلى هذا أن سلسس كان متقدما عن العصر الذى يعيش فيه ؛ فقد كان يطلب إلى الناس أن يتخلقوا بأخلاق السادة المهذبين المتشككين فى وقت كانو يعتزلون فيه مجتمعاً استعبد الكثيرين منهم إلى عالم متصوف يجعل من كل إنسان إلهاً . وكان شعور الناس بهذه القوى التى لاتدركها الحواس ، وهو الشعور الذى يقوم عليه الدين ، قد أخذ ينتشر انتشاراً واسعاً ويتغلب على مادية العصر الذى كان يزدهى بما فيه ، والذى كانت تسوده المادية والجبرية . وكانت الفلسفة فى ذلك الوقت تتخلى عن تفسير التجارب الحسية التى هى ميدان العلوم الطبيعية ، وتوجه همها كله إلى دراسة العالم الغير المنظور . وأنشأ الفيثاغوريون الجدد والأفلاطونيون الجدد من نظرية فيثاغورس فى تناسخ الأرواح ، وآراء أفلاطون فى الأفكار الإلهية ، نظاما من الزهد أرادوا به أن يقووا الإدراك الروحى بإماتة الحواس الجسمية ، وأن يعودوا بتطهير أنفسهم إلى صعود الدرج التى انحطت بها الروح من عالم السماوات وسكنت فى جسم الإنسان .

وكان أفلوطينس أكبر الممثلين لهذه الفلسفة الدينية الصوفية . وكان مولده فى ليقوپوليس عام ٢٠٣ م ، أى أنه كان قبطيا مصريا ذا اسم رومانى وتربية يونانية . وعثر على الفلسفة فى سن الثامنة والعشرين ، وأخذ ينتقل من معلم إلى معلم دون أن يجد فى أحد منهم بغيته حتى وجد طلبته فى الإسكندرية ، فقد كان فيها وقتئذ أمونيوس سكاس Ammonius Saccas ، وهو رجل مسيحى ارتد إلى الوثنية ، وكان يحاول التوفيق بين المسيحية والأفلاطونية ، كما فعل تلميذه أرجن من بعده . وبعد أن تتلمذ أفلوطينس على أمونيوس عشر سنين انضم إلى جيش موجه إلى بلاد

الفرس لعله يتلقى الحكمة عن المجوس والبراهمة أنفسهم . فلما وصل إلى أرض الجزيرة قفل راجعا إلى أنطاكية ، ثم ذهب إلى رومة (٢٤٤) وبقى فيها حتى توفى . وقد انتشر مذهبه الفلسفى وأصبح طراز ذلك العصر ، فضمه الإمبراطور جالينوس Gallienus إلى حاشيته ، ورضى أن يساعده على أن ينشئ فى كمبانيا مدينة أفلاطونية تُحكَم على مبادئ جمهورية أفلاطون ، لكن جالينوس رجع فيما بعد عن وعده ، ولعله فعل ذلك ليوفر على أفلوطينس إخفاقه المخزى .

وأعاد أفلوطينس إلى الفلسفة سمعتها الطيبة بأن عاش معيشة القديسين وسط ترف رومة ورذائلها ؛ فلم يكن يعنى بجسمه ؛ بل إنه « كان يستحى أن يكون لروحه جسد » على حد قول پرفيرى Porphyry[٤٣] . ومن الأدلة الناطقة باحتقاره جسده أنه أبى أن يقف أمام المصورين بحجة أن جسمه أقل أجزائه شأنا — وفى ذلك إشارة إلى الفن بأن يعنى بالروح لا بالجسم . وحرم على نفسه اللحم ، ولم يأكل من الخبز إلا قليلا : وكان بسيطا فى عاداته رحيما فى أخلاقه ، وابتعد عن كل العلاقات الجنسية ، وإن لم يذمها . وكان تواضعه هو الخليق بالرجل الذى يرى الجزء فى ضوء الكل . ولما حضر أرجن درسه علت وجه أفلوطينس حمرة الخجل وأراد أن يختم محاضرته فقال : « إن تحمس المحاضر يزول حين يحس بأن مستمعيه لا يجدون ما يتعلمونه منه »[٤٤] . ولم يكن أفلوطينس خطيبا مصقعا . ولكن عنايته الشديدة بموضوعه ، وإيمانه بما يُحدِّث عنه قد عوضاه خير العوض عن البلاغة . ولم يسجل آراءه الفلسفية كتابة إلا متأخراً وسجلها مع ذلك وهو كاره . ولم يراجع قط مسودته الأولى ، ولا تزال الإنيادات رغم ما بذله پرفيرى من عناية فى نشرها أكثر المؤلفات اضطرابا فى تاريخ الفلسفة[*] .

(*) وقد رتب پرفيرى هذه الرسائل الأربع والخمسين فى تسع مجموعات زاعماً أن ٩ هو الرقم الكامل فى نظرية فيثاغورس ، لأنه مربع ٣ الثالوث الكامل الانسجام[٤٥] .

لقد كان أفلوطينس ذا نزعة مثالية يعترف متفضلا بوجود المادة ، ولكنه يقول إن المادة فى حد ذاتها هى إمكانية الشكل غير المتشكلة ، وكل شكل تتخذه المادة تعطيه إياها طاقتها الداخليـــة أى النفس (Psyche) ، والطبيعة هى مجموع الطاقة أو النفس التى تنتج كلية الأشكال فى العالم ؛ والحقيقة الدنيا لا تنتج الحقيقة العليا ؛ أما الكائن الأعلى وهو النفس فينتج الأدنى — الصورة المجسدة . ونمو الإنسان الفرد من بداية خلقه فى الرحم وتكون أعضائه البطىء عضواً بعد عضو حتى يكتمل نموه من عمل النفس أو المبدأ الحيوى الذى فيه ؛ والجسم يتشكل تدريجا بتوقان النفس أو توجيهها . ولكل شىء نفس — أى طاقة داخلية — هى التى تخلق الصورة الخارجية ، وليست المادة خبيثة إلا لأنها لم تتلق الصورة الناضجة ، فهى تطور وقف دون الكمال ؛ والشر هو إمكانية الخير .

ولسنا نعرف المادة إلا عن طريق الفكر — عن طريق الإحساس ، والإدراك ، والتفكير . وليس ما نسميه مادة إلا مجموعة من الأفكار (كما قال هيوم فيما بعد) ، وهى أكثر ما تكون شىء افتراضى مراوغ يضغط على أطراف أعصابنا (« إمكانية الإحساس الدائمة » التى يقول بها مل) ؛ وليست الأفكار شيئاً ماديا ؛ وما من شك فى أن فكرة الامتداد فى المكان لا تنطبق عليها ؛ والقدرة على تحصيل الأفكار واستخدامها هى العقل ؛ وهو قمة الثالوث البشرى المكون من الجسم ؛ والنفس ، والعقل . والعقل مقدار محدد من حيث اعتماده على الإحساس ؛ وهو حر لأنه أرقى صور النفس المبدعة المشكلة .

والجسد عضو النفس وسجنها معا ؛ والنفس تدرك أنها نوع من الحقيقة أرقى من الجسد ؛ وتشعر بما لها من صلة بنفس أكبر منها وأوسع ، أى بحياة وقدرة كونيتين من نوع ما ؛ وهى حين تعمل لتبلغ بالفكر إلى حد الكمال تأمل أن تتصل مرة أخرى بتلك الحقيقة الروحية العليا التى سقطت منها على ما يبدو فى أثناء كارثة أو محنة حدثت فى بداية الخليقة . وهنا يستسلم أفلوطينس فى بعض

ثوبات من تفكيرِهِ إلى الأدرية التي يقول إنه يرفضها ، ويصف سقوط النفس درجة بعد درجة من السماء إلى الإنسان ذى الجسد ؛ وهو على العموم يفضل الفكرة الهندية التي تقول إن النفس تنتقل من صور الحياة الدنيا إلى العليا أو من صورها العليا إلى الدنيا ، حسب فضائلها ورذائلها ، في كل صورة من صور الحياة تنتقل إليها . وهو يبدو فى بعض الأحيان فيثاغوريا مازحا ، كما نراه فى قوله : « إن الذين يسرفون فى حب الموسيقى يصبحون فى تجسدهم الثانى طيوراً مغردة ، والفلاسفة الذين يتجاوزون الحد فى التفكير يتحولون إلى نسور(٤٦) . وكلما كانت النفس أكثر رقيا كانت أكثر إصراراً فى سعيها إلى أصلها القدسى ، ومثلها فى ذلك كمثل الطفل الذى ضل من أبويه أو كمثل الجائل المشتاق إلى العودة إلى وطنه . والنفس قادرة على أن تبلغ الفضيلة ، أو الحب الحقيقى ، أو الإخلاص إلى ربات الفن ، أو الفلسفة التى تحتاج إلى صبر طويل ؛ وستعثر على السُّلم الذى نزلت عليه ، وترقاه إلى ربها . فلتتطهر النفس إذن ، ولترغب رغبة صادقة فى الجوهر غير المرئى ، ولتفقد العالم عن طريق التأمل ؛ ولعلها فى لحظة من اللحظات التى تخفت فيها كل ضوضاء الحواس ، وتنقطع المادة عن طرق أبواب العقل ، ستحس فجاءة بأنها مستغرقة فى محيط الكينونة ، فى الحقيقة الروحية النهائية (وقد كتب ثورو وهو يطفو لاهيا على بركة والدن يقول : « لقد فارقت الحياة فى بعض الأحيان ، وبدأت أكون ») : ويقول أفلوطينس :

« فإذا حدث هذا ترى النفس الإلوهية إلى الحد الذى يحق لها أن تصل إليه فى رؤيتها . . : وتشهد نفسها قد أضيئت ، أى ملئت بنور عقلى ؛ أو بعبارة أصح تدرك أنها ضياء خالص ، غير مثقلة ، نشيطة ، خفيفة ، تسير فى طريقها إلى أن تكون إلها »(٤٧) .

ولكن ما هو الإله ؟ يقول أفلوطينس إنه « هو » أيضاً ثالوث — من الوحدة (hen) ، والفكر (nous) ؛ والنفس (psyche) . و « من وراء

الكائن يوجد الواحد » ؛ وفى خلال الفوضى الظاهرية البادية فى التعدد الدنيوى تسرى الحياة الموحِّدة . ولا نكاد نعرف عن هذا الواحد إلا أنه موجود ، وكل صفة موجبه نصفه بها ، أو ضمير متحيف نحله محله ، تحديد له غير لائق به . وكل ما نستطيع أن نسميه به هو أنه ، واحد ، وأول ، وخيّر ، وأنه هدف رغبتنا العليا . وينشأ من هذه الوحدة العقل العالمى ، وهو المقابل عند أفلاطون للأفكار أى النماذج المشكلة ، والقوانين المتحكمة فى الأشياء ؛ أو أنها أفكار الله أو عقل الواحد ، أو نظام العالم ومعقوليته . وإذ كانت هذه الأفكار تبقى مع أن المادة صور متغيرة من الأشكال التى تأتى وتروح ، فإن هذه الأفكار هى الحقيقة الصحيحة الباقية . ولكن الوحدة والعقل ، وإن أمسكا الكون وحفظاه من التفكك ، لا يخلقانه ؛ بل الذى يخلقه هو العنصر الثالث من عناصر الألوهية — أى العنصر الذى يبعث الحياة والذى يملأ الأشياء جميعها ويكسبها قوتها وصورتها المقررة لها . ولكل شىء ، من الذرّة الصغيرة إلى الكوكب الكبير ، نفس تبعث فيه النشاط ، هى فى ذاتها جزء من النفس العالمية ، والنفس الفردية ليست خالدة إلا من حيث هى باعثة الحياة أو الطاقة لا من حيث هى كائن متميز[٤٩] . وليس الخلود هو بقاء الشخصية ، بل هو اندماج النفس فى الأشياء التى لا تموت[٥٠] .

والفضيلة هى حركة النفس نحو الله ؛ وليس الجمال مقصوراً على التناسق والتناسب كما ظن أفلاطون وأرسطو بل هو النفس الحية ، أو الألوهية غير المنظورة التى فى الأشياء ، وهى غلبة الروح على الجسد ، والصورة على المادة ، والعقل على الأشياء ؛ والفن هو تحويل هذا الجمال العقلى أو الروحى إلى وسط آخر : ويمكن أن تدرب النفس على أن ترتفع من طلب الجمال فى المادة أو فى الصور البشرية إلى طلبه فى النفس الخفية ، فى الطبيعة وسننها ، وفى العلم ، وما يكشف عنه من نظام دقيق بديع ، وإلى طلبه آخر الأمر فى الوحدة القدسية التى تؤلف بين

الأشياء كلها ، بما فيها الأشياء المتنافرة المتعارضة ، وتجعل منها نظاماً متناسقاً سامياً يثير الدهشة والإعجاب[٥١] . والجمال والفضيلة شيء واحد فى نهاية الأمر — وهما اتحاد الجزء مع الكل وتعاونه معه .

« ارجع إلى نفسك وتأمل ، وإذا لم تجد نفسك جميلا فافعل مع ذلك ما يفعله صانع التمثال . . . فهو يقطع هنا ، ويصقل هناك ، ويجعل هذا الخط أخف ، وذاك أنقى ، حتى ينشأ لتمثاله وجه جميل . فافعل أنت مثل فعله : واقطع كل شيء زائد ، وقوّم كل معوج . . . ولا تنقطع عن نحت تمثالك حتى . . . ترى الطيبة الكاملة مستقرة فى الحرم النقى الطاهر »[٥٢].

إنا لنحس فى هذه الفلسفة بما نحس به فى المسيحية المعاصرة لها من جوّ روحانى — نحس بابتعاد العقول الغضة عن مطالب الحياة الدنيوية واتجاهها نحو الدين ، وفرارها من الدولة إلى الله . وليس بعجيب أن يكون أفلوطينس وأرجن تلميذين زميلين وصديقين ، وأن ينشئ كلمنت Clement أفلاطونية مسيحية فى الإسكندرية . وأفلوطينس هو آخر الفلاسفة الوثنيين العظام ، وهو مسيحى بلا مسيح ، مثله فى هذا كمثل إبكتتس وأورليوس . ولقد قبلت المسيحية كل سطر من أسطره تقريباً ، وما أكثر صحائف أوغسطين التى تردد نشوة هذا الصوفى الجليل . وعن طريق فيلون ، ويوحنا ، وأفلوطينس ، وأوغسطين ، غلب أفلاطون أرسطو ، وتعمق فى أبعد أغوار اللاهوت الكنسى ، وأخذت الثغرة القائمة بين الفلسفة والدين تضيق شيئاً فشيئاً ، ورضى العقل مدى ألف عام أن يسير فى ركاب الدين .

الفصل الرابع

حماة الدين

وهنا كسبت الكنيسة طائفة من المؤيدين كانوا أحصف عقول الإمبراطورية ، منهم أغناثيوس أسقف أنطاكية الذى أنشأ أسرة قوية من « الآباء » جاءوا بعد الرسل ، ووهبوا المسيحية فلسفة غلبوا أعداءها بحججها القوية . ومنهم جستين Justin الذى حكم عليه بأن يُلقى للوحوش لأنه أبى أن يرتد عن دينه ، فكتب ، وهو فى طريقه إلى رومة ، عدداً من الرسائل تفيض إخلاصاً وحماسة وتكشف عن الروح التى كان المسيحيون يلقون بها الموت :

« فليعلم جميع الناس أنى أموت طائعاً فى حب الله ، إذا لم يحل أحد بينى وبين الموت . وأتوسل إليكم ألا تأخذكم بى رأفة أرى أنها فى غير أوانها ، بل اتركونى تنهشنى السباع التى أستطيع أن أصل عن طريقها إلى الله . . . بل أغروا الوحوش بدلا من هذا أن تلتهمنى فلا تترك قطعة من جسدى ، حتى إذا نمت نومى الأخير لا أكون كلاًّ على أحد من الناس . . . ألا ما أشد شوقى إلى الوحوش التى أعدت لى . . . ألا فليكن من نصيبى النار والصليب [القتل صلباً] ، وقتال الوحوش ، والتقطيع والتمزيق ، وتهشيم العظام ، وبتر الأطراف ، وتحطيم جسمى كله ، وأقسى أنواع العذاب الشيطانى إذا كنت بهذه الطريقة أصل إلى يسوع المسيح »[٥٣] .

وكتب كودراتس Quadratus ، وأثينا جورس Athenagoras وكثيرون غيرهما « دفاعاً » عن المسيحية ، وكانوا يوجهون هذا الدفاع عادة إلى الإمبراطور . وكتب منوسيوس فلكس Minucius Felix حواراً رائعاً يكاد يضارع كتاب شيشرون فى بلاغته ، أجاز فيه لكاسليوس Caecilius

أن يدافع عن الوثنية دفاعاً قويا ، ولكنه جعل أكتافيوس يرد عليه بأدب جم كاد يقنع كاسليوس بأن يعتنق المسيحية . ولما جاء جستين Justin السامرى إلى رومة فى عهد أنطونينس افتتح فيها مدرسة لتعليم الفلسفة المسيحية ، وحاول فى « دفاعين » بليغين أن يقنع الإمبراطور و « فرسمس Verissimus الفيلسوف » بأن المسيحيين مواطنون مخلصون ، لا يتوانون عن أداء الضرائب ، وأنهم إذا عوملوا معاملة الأصدقاء قد يصبحون عوناً عظيم القيمة للدولة . وظل عدة سنين ينشر تعاليمه دون أن يصاب بأذى ، ولكن حدة لسانه خلقت له أعداء ، ولهذا استطاع أحد الفلاسفة المنافسين له أن يغرى ولاة الأمور فى عام ١٦٦ بالقبض عليه هو وستة من أتباعه وإعدامهم على بكرة أبيهم . وبعد ست سنين من ذلك الوقت قام إيرينيوس Irenaeus أسقف ليون بحملة قوية يدعو فيها إلى وحدة الكنيسة ، وذلك فى كتابه المسمى *معارضة الإلحاد* Adversus Haeresse وهو حملة قوية على كافة ضروب الإلحاد . وقد قال إيرينيوس إنه لا سبيل إلى منع المسيحية أن تتفرق فتصبح ألف شيعة وشيعة إلا أن يرضى المسيحيون بالخضوع لسلطة واحدة تحدد لهم مبادئ دينهم — وتلك السلطة هى قرارت مجالس الكنيسة الأسقفية .

وكان أجرأ المدافعين عن المسيحية فى تلك الفترة هو كونتس سپتميوس ترتليانس Quintus Septimius Tertuilianus القرطاجنى . وكان مولده فى تلك المدينة حوالى عام ١٦٠ ، وكان والده قائداً رومانيا على مائة ، ولما شب درس البلاغة فى نفس المدرسة التى تعلم فيها أبوليوس Apuleius ، ثم اشتغل بالمحاماة عاماً واحداً فى رومة . واعتنق المسيحية فى كهولته وتزوج بمسيحية ، ونبذ كل اللذائذ الوثنية ورسم قساً (كما يقول جيروم) . فلما تم له هذا استخدم جميع الفنون والأساليب التى عادت عليه من تعلم البلاغة للدفاع عن الدين المسيحى ، وضم إليها حماسة الرجل المؤمن المهتدى إلى دينه . لقد كانت المسيحية اليونانية فلسفة لاهوتية صوفية ؛ فلما اعتنق ترتليان دينـــه الجديد جعل المسيجية اللاتينية ديناً

أخلاقيا ، قانونيا ، عمليا ؛ وكانت له قوة شيشرون وحدته ، وفحش جوفنال فى هجائه وسفاهته ؛ وكان فى مقدوره أحياناً أن ينافس تيطس فى تركيز كل ما لديه من حقد وضغينة فى عبارة واحدة . وكان إيرنيوس قد كتب باللغة اليونانية ، فلما جاء منوسيوس وترتليان أصبحت الآداب المسيحية فى الغرب لاتينية ، وأصبح الأدب اللاتينى مسيحيا .

وبينا كان الحكام الرومان فى قرطاجنة يتهمون المسيحيين بعدم الولاء للدولة ويحاكمونهم على هذه التهمة ، وجه ترتليان فى عام ١٩٧ إلى محكمة خيالية أبلغ رسالة من رسائله كلها وهى المعروفة باسم الرفاع Apologeticus أكد فيها للرومان أن المسيحيين « لا ينقطعون عن الدعاء لجميع الأباطرة ، وسلامة الأسرة الحاكمة ، ويطلبون إلى الله أن يهب البلاد جيوشاً باسلة ، ومجلس شيوخ وفى أمين ، وأن يمن على العالم بالهدوء »[٥٤] . وامتدح عظمة التوحيد ، وقال إنه وجد أدلة عليه عند كتاب ما قبل المسيحية ! « انظروا إلى ما تشهد به النفس ، ذاتها وهى بقطرتها مسيحية »[٥٥] وبعد عام من ذلك الوقت انتقل بسرعة عجيبة من الدفاع المقنع إلى الهجوم العنيف ، وأصدر كتابه المسمى فى المسرح De Spectaculis وهو وصف ساخر للمسارح الرومانية التى قال عنها إنها حصون البذاءة ، وللمدرجات التى وصفها بأنها أكبر دليل على قسوة الإنسان عـلى أخيه الإنسان ، وختمها بذلك الوعيد المرير :

« وستشهدون مناظر أخرى — مناظر اليوم الخالد الأخير يوم الحساب : : » يوم يحترق هذا العالم الذى بلغ سن الشيخوخة ، ويحترق أهله جميعاً فى لهيب نار واحدة . ألا ما أوسع هذا المنظر فى ذلك اليوم ! وما أشد عجبى ، وأعلى ضحكى ، وأكثر ابتهاجى وطربى حين أرى هذا العدد الجم من الملوك — وكان يظن أنهم ينعمون فى ملكوت السموات — يئنون ويتوجعون فى أعماق الظلام ! — والحكام الذين اضطهدوا اسم يسوع تذوب أجسامهم فى لهب أشد حرارة من جميع

النيران التي أوقدوها . . . ضد المسيحيين ! — وأرى حكماء وفلاسفة تعلوهم حمرة الخجل أمام تلاميذهم وهم يحترقون معاً ! . . . وممثلي المآسي وهم الآن أعلى صوتاً في مأساتهم مما كانوا في أي يوم من أيام حياتهم ، واللاعبين ذوى الأجسام اللدنة في أعماق النار ، وسائقي المركبات تشوى لحومهم على عجلة اللهب ! »[٥٦] .

وهذا الخيال المفرط في القوة يخرج صاحبه عن قواعد الدين السليم . ذلك أنه لما تقدمت بترتليان السن انقلب ما كان فيه أثناء شبابه من نشاط فياض يطلب به اللذة ويصرفه فيها ، انقلب إلى تنديد شديد بجميع أسباب السلوى عدا سلوة الدين والأمل في نعيم الآخرة ، فكان يخاطب المرأة بأوقح الألفاظ ويصفها بأنها « الباب الذي يدخل منه الشيطان » ويقول لها « من أجلك مات يسوع المسيح »[٥٧] .

وكان ترتليان في يوم من الأيام قد أحب الفلسفة ، وألف فيها ، كتباً ككتاب في النفس De Anina حاول فيه أن يطبق على المسيحية مبادئ الرواقية فيما وراء الطبيعة . أما الآن فقد نبذ كل تفكير منطقي منفصل عن الإلهام والوحي ، وقصر أسباب بهجته على ما كان يحتويه دينه من أمور لا يصدقها العقل السليم . « لقد مات ابن الله : ذلك شيء معقول لا لشيء إلا أنه مما لا يقبله العقل . وقد دفن ثم قام من بين الموتى : وذلك أمر محقق لأنه مستحيل »[٥٨] . واستغرق الرجل في تزمت نكد مكتئب بلغ من أمره أن خرج وهو في الثامنة والخمسين من عمره على المبادئ السليمة للدين المسيحي ، لأنها في رأيه ملوثة بالأساليب الدنيوية ، واعتنق المبادئ المنتانية(*) لأنه يراها تطبيقا مستقيما سليما لتعاليم المسيح ، وندد بجميع المسيحيين الذين يقبلون أن يكونوا جنوداً ، أو فنانين ، أو موظفين في الدولة ، وبجميع الآباء الذين لا يحجبون بناتهم وبجميع الأساقفة الذين يغفرون خطايا المذنبين التائبين ، وانتهى به الأمر أن أطلق على البابا لقب « راعي الزانين » pastor moechorum[٥٩] .

(*) التي كان يقول بها منتانس الفريجي . وقد سبق الكلام عليها . (المترجم)

لكن الكنيسة ازدهرت فى أفريقية على الرغم من هذه الأفعال ، فقد قام فيها أساقفة مخلصون من طراز سبريان Cyprian رفعوا أبرشيه قرطاجنة إلى درجة من الغنى والنفوذ لا تقل عما بلغته رومة . أما فى مصر فقد كان نماء الكنيسة أبطأ منه فى قرطاجنة ، وقد اختفت مراحله الأولى من التاريخ فأصبحنا لا نعرف عنها شيئاً . غير أننا نسمع فجاءة فى أواخر القرن الثانى عن مدرسة لتعليم أصول الدين بالسؤال والجواب قائمة فى مدينة الإسكندرية قرنت المسيحية بالفلسفة اليونانية ، وأخرجت للعالم أبوين من أعظم آباء الكنيسة هما كلمنت وأرجن . وكان كلاهما واسع الاطلاع على الآداب الوثنية ، محبا لها على طريقته الخاصة . ولو أن الروح التى كانت تغمرهما سادت فى ذلك الوقت لما كان لانفصال الثقافة القديمة عن المسيحية ما كان له من أثر متلف شديد .

ولما بلغ أرچينيز ادمنتيوس Origenes Adamantius السابعة عشرة من عمره (٢٠٢) قبض على والده بتهمة أنه مسيحى ، وحكم عليه بالإعدام ؛ وأراد ابنه أن يشاركه فى السجن وفى الاستشهاد ، ولم تستطع أمه أن تمنعه من ذلك إلا بإخفاء ملابسه كلها ، فأخذ يبعث إلى أبيه رسائل يشجعه فيها على احتمال مصيره ؛ وقد جاء فى إحدى هذه الرسائل : « احذر أن ترجع عن آرائك من أجلنا »[٦٠] . وأعدم الوالد ووقع عبء كفالة الأم والأطفال الصغار على الشاب . وبعث ما شاهده من استشهاد كثيرين من المسيحيين فى نفس أرجن مزيداً من التقى والإيمان ، فعمد إلى حياة الزهد والتقشف ، وأكثر من الصوم ، وأقلل من ساعات النوم ، وافترش الأرض ، ومشى حافياً ، وعرض نفسه للبرد والعرى ؛ وأخيراً عمد إلى خصى نفسه(*) إطاعة للآية الثانية عشرة من الإصحاح التاسع عشر من إنجيل متى بعد أن ترمت تفسيرها أشد التزمت . وفى عام ٢٠٣ خلف كلمنت فى رياسة

(*) يقول جبن : « وإذ كان من عادة أرجن أن يفسر الكتاب المقدس تفسيراً مجازياً فإن مما يؤسف له فى رأينا أنه فى هذه الحالة وحدها اتبع المعنى الحرفى لتلك الآية »[٦١] .

المدرسة الأفريقية . ومع أنه لم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من العمر فقد اجتذب إليه علمه وبلاغته كثيرين من الطلبة وثنيين ومسيحيين على السواء ، وطبقت شهرته جميع أنحاء العالم المسيحى .

ويقدّر بعض القدامى عدد « كتبه » بستة آلاف ، وكان الكثير منها بطبيعة الحال نبذاً وجيزة ، وحتى على هـذا الاعتبار قال فيها چيروم متسائلا : « مَن منا يستطيع أن يقرأ كل ما كتب ؟ »[٦٢] ولقد قضى أرجن عشرين عاماً هائما بحب الكتاب المقدس ، واستخدم طائفة كبيرة من المختزلين والنساخين يضعون فى أعمدة متوازية النص العبرى للعهد القديم ، وإلى جواره ترجمة يونانية حرفية لهـذا النص ، وفى خانة أخرى ترجمة يونانية له منقولة عن الترجمة السبعينية ، وفى رابعة أكويلية وخامسة سياكوسية وسادسة ثيودوتية(*) .

ثم أخذ يوازن هذه التراجم المختلفة بعضها ببعض ، واستعان بمعرفته باللغة العبرية فأخرج للكنيسة ترجمة سبعينية مصححة ؛ ولكن هذا لم ينقع غلته فأضاف شروحاً بعضها غاية فى الإسهاب إلى كل سِفر من أسفار الكتاب المقدس . ويحتوى كتابه *المبادىء الأولى* Peri archon أول عرض فلسفى منظم للعقيدة المسيحية ؛ وفى كتابه *المتنوّرات* (Stromateis) أخذ على عاتقه أن يثبت جميع العقائد المسيحية بالرجوع إلى كتابات الفلاسفة الوثنيين . وأراد أن يخفف عن نفسه عبء هذا الواجب الثقيل فاستعان بالطريقة الرمزية الاستعارية التى استطاع بها الفلاسفة الوثنيون أن يوفقوا بين أقوال هومر وبين ما يقبله العقـل المنطق ، والتى بها وفق فيلون بين اليهودية والفلسفة اليونانية .

ومن أقوال أرجن فى هذا المعنى أن من وراء المعنى الحرفى لعبارات الكتاب

(*) ولم يبق من هذه التراجم الست إلا قطع قليلة . وقد ضاعت كذلك التراجم الرباعية المحتوية على التراجم اليونانية الأربع .

المقدس طبقتين من المعانى أكثر منه عمقاً — هما المعنى الخلقى والمعنى الروحى — لاتصل إليهما إلا الأقلية الباطنية المتعلمة . وكان يرتاب فى صحة ما ورد فى سفر التكوين إذا فهم بمعناه الحرفى ؛ ويفسر ماكان يلقاه بنو إسرائيل من يهوه من معاملة غير طيبة أحياناً بأن ما وصفت به هذه المعاملة إنما هو رموز ؛ وقال إن القصص الواردة فى الكتاب المقدس والتى تقول إن الشيطان صعد بعيسى إلى جبل عال وعرض عليه ملكوت الأرض ليست إلا أساطير(٦٣) . ويضيف إلى ذلك أن هذه القصص قد اخترعت فى بعض الأحيان لكى توضح بعض الحقائق الروحية(٦٤) . ويقول متسائلا :

« أى رجل عاقل يصدق أن اليوم الأول واليوم الثانى واليوم الثالث ، وأن المساء والصباح ، قد كانت كلها من غير شمس أو قمر أو نجوم ؟ وأى إنسان تصل به البلاهة إلى حد الاعتقاد أن الله قد زرع جنة عدن كما يزرع الفلاح الأرض ، وغرس فيها شجرة الحياة . . . حتى إذا ما ذاق إنسان ثمرتها نال الحياة ؟ »(٦٥) .

وإذا ما واصل أرجن أقواله اتضح لقارئه أنه رواقى ، وفيثاغورى حديث ، وأفلاطونى حديث ، وأدرى ؛ وأنه مع هذا كله مصر على أن يكون مسيحيا . ولو أننا طلبنا إلى رجل مثله أن يترك الدين الذى نشر فيه ألف كتاب وتخلى من أجله عن رجولته لكلفناه ضد طباعه . ولقد درس أرجن ، كما درس أفلوطينس على أمونيوس سكاس **Ammonius Saccas** ، وإنا ليصعب علينا أحياناً أن نفرق بين فلسفته وفلسفتهما . فالله عند أرجن ليس هو يهوه ، بل هو الجوهر الأول لجميع الأشياء . وليس المسيح هو الإنسان الآدمى الذى يصفه العهد الجديد ، بل هو العقل الذى ينظم العالم ؛ وهو بهذا الوصف قد خلقه الله الأب ، وجعله خاضعاً له(٦٦) . والنفس عند أرجن ، كما هى عند أفلوطينس ، تنتقل فى مراحل وتجسدات متتالية قبل أن تدخل الجسم ، وهى تنتقل بعد الموت فى مراحل متتالية

مثلها قبل أن تصل إلى الله . وجميع الأنفس حتى أطهرها تتعذب زمناً ما في المطهر ولكنها كلها تنجو آخر الأمر ، وسيكون بعد « اللهب الأخير » عالم آخر ذو تاريخ طويل ، ثم عالم ثالث ، ورابع . . . كل واحد منها خير من سابقه ، وهذه العوالم الكثيرة المتتالية ستحقق على مهل الخطة التي رسمها الله[٦٧] .

ولسنا نعجب إذا رأينا دمتريوس ، أسقف الإسكندرية ، ينظر بعين الريبة إلى الفيلسوف النابه الذي تزدان به أبرشيته والذي يراسل الأباطرة . وقد أدت هذه الريبة إلى أن رفض دمتريوس أن يرسمه قساً بحجة أن الخصاء يجعله غير أهل للكهنوت . ولكن أسقفين فلسطينيين رسماه أثناء سفره في بلاد الشرق الأدنى . واحتج دمتريوس على هذا العمل وقال إن فيه اعتداء على حقوقه ، وعقد مجمعاً من رجال الدين الذين كانوا تحت رياسته ، وألغى هذا المجمع رسامة أرجن ونفاه عن الإسكندرية ، فانتقل إلى قيصرية وواصل عمله في التدريس ، وكتب فيها دفاعه الشهير عن المسيحية المسمى ضد سلسس Contra Ce sum (٢٤٨) ، وقد بلغ من كرمه أن أقر بقوة الحجج التي أدلى بها سلسس ، ولكنه رد عليها بقوله إن كل صعوبة ، وكل فكرة بعيدة عن المعقول ، في العقيدة المسيحية يقابلها في الوثنية آراء أصعب منها وأبعد منها عن العقل ، ولم يستنتج من هذا أن كلتا العقيدتين باطلة ، بل استنتج أن الدين المسيحي يعرض أسلوباً للحياة أنبل مما يستطيع أن يعرضه دين محتضر يدعو إلى عبادة الأصنام :

وامتد اضطهاد ديسيوس للمسيحيين حتى وصل إلى قيصرية في عام ٢٥٠ ، وقبض على أرجن ، وكان وقتئذ في الخامسة والستين من عمره ، ومد على العذراء ، وقيد بالأغلال ، ووضع في عنقه طوق من الحديد ، وبقي في السجن أياما طوالا . ولكن الموت عاجل ديسيوس أولا وأطلق سراح أرجن ، غير أن حياته لم تطل بعد ذلك أكثر من ثلاث سنين ، لأن التعذيب ألحق أشد

الضرر بجسمه بعد أن هد الزهد المتواصل قواه ، ومات فقيراً كما كان حين بدأ يعلم الناس ، ولكنه كان أعظم المسيحيين شهرة فى زمنه :

ولما أن ذاعت بدعه ، ولم تعد سراً مقصوراً على عدد قليل من تلاميذه ، رأت الكنيسة أن لا بد لها أن تتبرأ منه ، وطعن البابا أنستيسيوس فى عام ٤٠٠ فى آرائه التجديفية . ولعنه مجلس القسطنطينية ، وأصدر عليه قرار الحرمان فى عام ٥٥٣ . لكننا لا نكاد نجد عالما مسيحيا ممن جاءوا بعده بعدة قرون لم يغترف من بحر علمه الفياض ، ولم يعتمد على كتبه ، وأثر دفاعه عن المسيحية فى عقول المفكرين الوثنيين كما لم يؤثر فيها « دفاع » آخر قبله . وبفضله لم تعد المسيحية دين سلوى وراحة للنفوس فحسب ، بل أضحت فوق ذلك فلسفة ناضجة كاملة النماء ، دعامتها الكتاب المقدس ، ولكنها تعتز باعتمادها على العقل .

الفصل الخامس

تنظيم السلطة الدينية

لعل للكنيسة عذرها فى الطعن على ارجن وحرمانه : ذلك أن تفسيراته الرمزية لم تجعل من المستطاع إثبات أى شىء فحسب ، بل إنها فضلا عن ذلك قضت بضربة واحدة على قصص أسفار الكتاب المقدس وعلى حياة المسيح الأرضية ، وأعادت للفرد حقه فى الحكم فى الوقت الذى كانت تقول فيه إنها تدافع عن الدين . يضاف إلى هذا أن الكنيسة ، وقد رأت نفسها وجهاً لوجه أمام حكومة قوية ، أحست بحاجتها إلى الوحدة ، ولم يكن فى وسعها أن تأمن على نفسها إذا رضيت أن تمزقها إلى مائة شيعة صغرى كل ريح تهب عليها من عقل رجل من أتباعها ، أو من عقل زنديق خارج عليها ، أو نبى مشغوف ، أو ابن نابه . وكان سلسس نفسه قد قال ساخراً : إن المسيحيين « تفرقوا شيعاً كثيرة ، حتى أصبح همّ كل فرد منهم أن يكون لنفسه حزباً »(٦٨) . واستطاع إيرينيوس أن يحصى فى عام ١٨٧ عشرين شيعة مختلفة من المسيحيين ، وأحصى إيفانيوس فى عام ٣٨٤ ثمانين ؛ وكانت الأفكار الأجنبية تتسرب إلى العقيدة المسيحية فى كل نقطة من نقاطها ، وأخذ المؤمنون المسيحيون ينضمون إلى هذه الشيع الجديدة . وأحست الكنيسة أن عصر شبابها التجريبى يوشك أن ينتهى ، وأن نضجها سيحل بعد قليل ، وأن عليها أن تحدد مبادئها ، وأن تعلن على الناس شروط العضوية فيها . وكان لا بد لذلك من ثلاث خطوات ليست فيها واحدة سهلة : وضع قانون عام مستمد من الكتاب المقدس ، وتحديد العقائد ، وتنظيم السلطة .

وتفيض الآداب المسيحية فى القرن الثانى بالأناجيل ، والرسائل ، والرؤى ،

و « الأعمال » . ويختلف المسيحيون أشد الاختلاف من حيث قبولهم هذه الكتابات على أنها تعبير صادق عن العقيدة المسيحية أو رفضها . فقد قبلت الكنائس الغربية مثلا سفر الرؤيا ، أما الكنيسة الشرقية فهي بوجه عام ترفضه . وهذه الكنائس الشرقية تعترف بالإنجيل ، كما يقول به العبرانيون ، وبرسائل يعقوب ، أما الكنيسةالغربية فترفضهما . ويذكر كلمنتالإسكندرى ضمن الكتب المقدسة رسالة كتبت فى أواخر القرن الأول الميلادية اسمها تعاليم الرسل الاثنى عشر .

ولما نشر مرسيون « عهداً جديداً » اضطرت الكنيسة إلى العمل لتحديد ما تعترف به وما لا تعترف به من الأناجيل . ولسنا نعرف متى حددت أسفار العهـــد الجديد التي نعرفها الآن واعتُرِف بها — أى اعترف بصحة نسبتها لأصحابها وبأنها موحى إليهم بها ؛ وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين أن هتامة لاتينية كشفها مراتورى Muratori فى عام ١٧٤٠ وسميت باسمه ، ويرجع الباحثون تاريخها إلى عام ١٨٠ تقريباً ، نفترض أن هذا التحديد تم قبل ذلك الوقت .

وتكرر اجتماع المجالس والمجامع الكنسية تكراراً متزايداً فى القرن الثانى ؛ واقتصرت فى القرن الثالث على الأساقفة ؛ وقبل أن يختتم ذلك القرن اعترف بأن هـــذه المجالس هى الفيصل الأخير العقيدة المسيحية « الكاثوليكية » أى العامة . وتغلب الدين القديم على البدع الدينية لأنه أشبع حاجة الناس إلى عقيدة محددة تخفف من حدة النزاع وتهدئ الشكوك ، لأنه كان مؤيداً بسلطان الكنيسة .

وكانت مشكلة التنظيم تنحصر فى تحديد مركز هذا السلطان . فقد يبدو أن المجامع الدينية المتفرقة ، بعد أن ضعف سلطان الكنيسة الأصلية فى أورشليم ، أخذت تمارس السلطات مستقلة عن هذه الكنيسة وعن بعضها بعضاً ، إلا إذا أنشأتها جماعات أخرى أو كانت تحت حماية هذه الجماعات . لكن

كنيسة رومة كانت تدعى أن الذى أنشأها هو الرسول بطرس وتستشهد بقول عيسى : « أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى ، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السموات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السموات »[٦٩]. لكن بعضهم يقول إن هذه العبارة مدسوسة عليه ، وإنها تورية لايلجأ إليها إلا شيكسپير . غير أنه يحتمل مع هذا أن بطرس ، إن لم يكن هو الذى أوجد الجالية المسيحية فى رومة ، كانْ يعظها ويخطب فيها ، وأنه عيّن لها أسقفها[٧٠] . وقد كتب إيرنيو (١٨٧) يقول إن بطرس : « عهد إلى لينس Linus بمنصب الأسقفية » . ويؤيد ترتليان (٢٠٠) هـذه الرواية ، ويهيب سپريان (٢٥٢) أسقف قرطاجنة المنافسة الكبرى لرومة بجميع المسيحيين أن يقبلوا زعامة كرسى رومة الأسقفى[٧١] .

ولم يترك الأساقفة الأولون الذين تربعوا على « عرش بطرس » أثراً فى التاريخ . ويبرز من بينهم ثالثهم البابا كلمنت(*) مؤلف رسالة باقية إلى الآن أرسلها حوالى عام ٩٦ إلى كنيسة كورنثة يدعو أعضاءها إلى نبذ الشقاق والمحافظة على النظام[٧٢] . وفى هذه الرسالة يتحدث أسقف رومة ، بعد جيل واحد من موت بطرس ، إلى مجمع دينى بعيد حديثَ من له سلطان عليه . وكثيراً ما كان الأساقفة الأخرون يتحدون سلطان أسقف رومة وحقه فى الإشراف على قراراتهم وإن كانوا يعترفون « بأولوية » هـذا الأسقف خليفة بطرس ووارثه . وكانت الكنائس الشرقية تحتفل بعيد القيامة فى اليوم الرابع عشر من شهر نيسان العبرى أيا كان ذلك اليوم فى الأسبوع ، أما الكنائس الغربية فقـد أجلت ذلك العيد إلى يوم الأحد التالى لهذا التاريخ .

(*) كان لفظ (بابا) «أب» الذى أصبح فى الإنجليزية Pope يطلق فى الثلاثة القرون الأولى على كل أسقف مسيحى .

ولما زار پوليكارب Polycarp ، أسقف أزمير ، مدينة رومة حوالى عام ١٥٦ حاول أن يقنع أنتسيتس Anticetus ، أسقف رومة ، بأن يحتفل بعيد القيامة فى اليوم الذى تحتفل به فيه الكنيسة الغربية ، لكنه لم يفلح فى محاولته ؛ ولما عاد إلى بلده رفض اقتراحاً ، عرضه عليه البابا ، يقضى بأن تقبل الكنيسة الشرقية التاريخ الغربى . وكرر البابا ڤكتور (١٩٠) طلب أنتسيتس وصاغه فى صيغة الأمر ، فأطاعه أساقفة فلسطين وعصاه أساقفة آسية الصغرى ، فما كان من ڤكتور إلا أن بعث برسائل إلى المجامع الدينية المسيحية يحرم فيها الكنائس التى عصت أمره ؛ واحتج كثيرون من الأساقفة فى الشرق وفى الغرب نفسه على هذا الإجراء الاستبدادى ، ويبدو أن ڤكتور لم يصر على تنفيذ رغبته .

وكان زفرينس Zfephyrinus الذى خلفه (٢٠٢ — ٢١٨) « رجلا ساذجا غير متعلم »(٧٣) ، ولهذا رفع إلى رياسة الشمامسة رجلا كان ذكاؤه أقل باعثاً للريبة من أخلاقه ، ليساعده فى إدارة شئون أسقفية رومة الآخذة فى الاتساع . ويقول أعداء كالستس Callistus إنه بدأ حياته عبداً ، ثم صار من رجال المال والمصارف ، واختلس الأموال المودعة عنده فحكم عليه بالأشغال الشاقة ، ثم أطلق سراحه ؛ وأثار شغباً فى أحد المجامع الدينية فحكم عليه بالعمل فى مناجم سردينية ؛ ولكنه هرب منها بأن احتال على وضع اسمه فى ثبت من أعفى عنهم ، وقضى عشر سنين يعيش فى أنتيوم Antium عيشة قاسى من هدوئها أشد الآلام . ولما عهد إليه زفرينس العناية بالمقبرة البابوية نقلها إلى طريق أپيا Appia فى السرداب المسمى باسمه ، ولما مات زفرينس واختير كالستس Callistus بابا أعلن هپولیتس Hippolytus وغيره من القساوسة أنه لا يصلح لمنصبه ، وأقاموا كنيسة وبابوية غير كنيسته وبابويته (٢١٨) . وزادت الخلافات المذهبية هوة الشقاق : ذلك أن كالستس كان يرى أن يعاد إلى حظيرة الكنيسة من ارتكبوا بعد تعميدهم

خطيئة يعاقب عليها بالإعدام ، (كالزنى ، والقتل ، والردة) ثم أعلنو توبتهم . أما هپوليتس فكان يرى أن هذا التساهل مضر أشد الضرر بالدين ، وكتب **دحضا لجميع البدع** مع تأكيد هذه البدعة بنوع خاص ؛ فما كان من كالستس إلا أن أعلن حرمانه ، وأنشأ للكنيسة إدارة حازمة ، وثبت دعائم سلطة كرسى رومة الأسقفى على جميع العالم المسيحى .

وانتهى انشقاق هپوليتس فى عام ٢٣٥ ؛ ولكن قسيسين — هما نوفاتس Novatus فى قرطاجنة ونوفاتيان Novatian فى رومة — أعادا هذه البدعة فى أيام البابا كرنليوس Cornelius (٢٥١ — ٢٥٣) ، فأقاما كنائس منشقة محرمة تحريماً قطعياً على الذين يرتكبون الذنوب بعد التعميد . وأخرج مجلس قرطاجنة برياسة سپريان Cyprian ، ومجلس رومة برياسة كرنليوس هاتين الشيعتين المنشقتين من الكنيسة المسيحية . وكانت استعانة سپريان بكرنليوس سبباً فى تقوية البابوية ؛ لكن الشقاق دب بين الكنيستين بعد قليل ، وكان سببه أن البابا استيفن (٢٥٤ — ٢٥٧) قرر أن لا ضرورة لتعميد من يعتنقون المسيحية من الطوائف غير المؤمنة ، فعقد سپريان مجمعا دينيا من أساقفة أفريقية تولى رياسته بنفسه ورفض هذا القرار . وفعل استيفن ما فعله كالستس من قبل فأعلن حرمان أولئك الأساقفة على بكرة أبيهم وشن عليهم حربا شعواء ؛ ولكن موته العاجل سكن هذا النزاع إلى حين ، وحال دون انشقاق كنيسة أفريقية القوية .

وظل كرسى رومة يزداد قوة على قوة فى كل عقد من العقود التالية رغم تجاوزه حقوقه فى فترة ونكوصه فى فترة أخرى ؛ وكان ثراؤه وكثرة صدقاته العامة مما رفع مكانته ؛ وكان العالم المسيحى بأجمعه يستشيره فى كل ما يصادفه من المشاكل الخطيرة ، وكان هو يقدم من تلقاء نفسه على تحريم البدع والضلالات ومقاومتها ، وعلى تحديد ما يجب الاعتراف به من الأسفار المقدسة .

لكنه كان ينقصه العلماء الأعلام ، فلم يكن فيه رجال يفخر بهم أمثال ترتليان ، وأرجن ، وسبريان ؛ وكان يعنى بالتنظيم أكثر مما يعنى باللاهوت ، فكان يبنى ويحكم ، ويترك الكتابة والكلام لغيره . وعصاه سبريان ولكن سبريان هو الذى نادى فى كتابه الكنيسة الكاثوليكية الموحدة بأن كرسى بطرس أو مقره هو مركز العالم المسيحى وأعلى مكان فيه ، وأعلن إلى العالم مبادئ التضامن ، والإجماع ، والثبات التى كانت ولا تزال أساس الكنيسة الكاثوليكية وعمادها[٧٤] . وقبل أن ينتصف القرن الثالث كان مركز البابوية ومواردها المالية قد بلغا من القوة حداً جعل ديسيوس يقسم أنه يفضل أن يكون فى رومة إمبراطور ثان ينافسه عن أن يكون فيها بابا[٧٥] . وهكذا أصبحت عاصمة الإمبراطورية عاصمة الديانة المسيحية .

وأمدت رومة المسيحية بالنظام كما أمدتها اليهودية بمبادئها الخلقية وكما أمدتها بلاد اليونان بفلسفتها الدينية . وقد دخلت هذه كلها فى بناء الدين المسيحى مع ما دخله وما امتصه من الأديان المعارضة . ولم يكن كل ما أخذته الكنيسة من رومة هو العادات والمراسم الدينية التى كانت سائدة فى رومة قبل قيام المسيحية — كالبطرشيل وغيره من ثياب الكهنة الوثنيين ، واستعمال البخور والماء المقدس فى التطهير ، وإيقاد الشموع ووضع ضوء دائم لا ينطفئ أمام المذبح ، وعبادة القديسين ، وهندسة الباسلقا ، وقوانين رومة التى اتخذتها أساسا للقانون الكنسى ، ولقب الحبر الأعظم Pontifex Maximus الذى أطلق على كبير الأساقفة مضافا إلى اللغة اللاتينية التى أضحت فى القرن الرابع الأداة الخالدة النبيلة للشعائر الكاثوليكية ؛ بل كان أهم من هذا كله نظام الحكم الواسع الذى أمسى بعد عجز السلطة الزمنية صرح الحكم الكنسى ، فلم يلبث الأساقفة ، لا الحكام الرومان ، أن صاروا هم مصدر النظام ومركز القوة والسلطان فى

مدائن الإمبراطورية ؛ وكان المطارنة وكبار الأساقفة أكبر عون لحكام الولايات إن لم يكونوا قد حلوا محلهم ، كما حل مجمع الأساقفة محل جمعيات الولايات ، وسارت الكنيسة الرومانية فى الطريق الذى سارت فيه قبلها الدولة الرومانية ، ففتحت الولايات ، وجملت العواصم ، وثبتت دعائم النظام والوحدة على طول الحدود ؛ وقصارى القول أن رومة قضت نحبها وهى تلد الكنيسة ، واكتمل نمو الكنيسة بأن ورثت التبعات الملقاة على رومة ورضيت أن تضطلع بها .

الباب التاسع والعشرون

انهيار الإمبراطورية

١٩٣ – ٣٠٥ بعد الميلاد

الفصل الأول

أسرة سامية

في أول يوم من شهر يناير سنة ١٩٣ اجتمع مجلس الشيوخ بعد ساعات قليلة من اغتيال كمودس ، في نشوة البهجة والغبطة واختار للجلوس على عرش الإمبراطورية عضواً من أجلّ أعضائه وأجدرهم بالاحترام ، استطاع بإدارته العادلة وهو حاكم للمدينة أن ينهج منهج الأنطونيين ويواصل أحسن تقاليدهم . وقَبِل برتناكس Pertinax ، وهو كاره ، هذا المنصب الخطير الذي يرفع صاحبه إلى مكانة سامية إذا سقط منها هوى إلى الدرك الأسفل . ويقول فيه هيروديان[1] إنه « سلك سلوك الرجل العادي » ، فكان يستمع إلى محاضرات الفلاسفة ، ويشجع الآداب ؛ وقد ملأ خزائن الدولة بالمال ، وخفض الضرائب ، وباع بالمزاد كل ما ملأ به كمودس القصر الإمبراطوري من ذهب وفضة ، وأقمشة مطرزة وحرير ، وجوار حسان . وفي ذلك يقول ديوكاسيوس : « والحق أنه فعل كل ما يجب على العاهل الصالح أن يفعله[2] . وائتمر المعاتيق الذين فقدوا بفضل سياسته الاقتصادية ما كان يعود عليهم من النفع مع الحرس البريتوري الذي ساءه عودة النظام . وفي الثامن عشر من شهر مارس اقتحم ثلثمائة من الجنود

أبواب القصر وقتلوه ، وحملوا رأسه إلى المعسكر على طرف رمح . وحزن الشعب ومجلس الشيوخ عليه وتوارى أعضاؤه عن الأنظار .

وأعلن قواد الحرس أنهم سيضعون التاج على رأس الروماني الذي يمنحهم أكبر عطاء . وأقنعت ديدوس چليانس Didius Julianus زوجته وابنته بأن يغادر مائدة الطعام ويعرض على زعماء الحرس عطاءه ، فسار إلى المعسكر ، حيث وجد منافساً له يعرض خمسة آلاف درخمة (٣٠٠٠ ريال أمريكى) هبة لكل جندى ثمناً لعرش الإمبراطورية . وصار سماسرة الحرس ينتقلون من متر إلى آخر ، يشجعونهم على زيادة العطاء ، فلما أن وعد چليانس كل جندى بـ ٦٢٥٠ درخمة أعلن الحرس اختياره إمبراطوراً .

وثارت ثائرة أهل رومة لهذه المذلة المنقطعة النظير ، فأهابوا بالفيالق الرومانية المعسكرة فى بريطانيا ، وسوريا ، وبنونيا أن تزحف على رومة وتخلع چليانس . وغضبت هذه الفيالق لأنها حرمت من العطاء ، فأخذ كل منها ينادى بقائده إمبراطوراً ، وزحفت كلها على رومة . وتفوق لوسيوس سپتميوس سڤيرس جيتا Luçius Septimius Severus Oeta قائد جيوش پنونيا على جميع القواد بفضل جرأته وسرعته ، وما قدمه من رشا : وقطع على نفسه عهداً أن يهب كل جندى ١٢٫٠٠٠ درخمة حين يجلس على العرش ؛ وزحف بهم من بلاد الدانوب حتى صار على بعد سبعين ميلا من رومة فى شهر واحد ؛ واستمال إليه الجنود الذين أرسلوا لصده ، وأخضع الحرس البريتورى بأن عرض عليهم أن يعفو عنهم إذا سلموا إليه قوادهم ، وخالف جميع السوابق بدخوله العاصمة ومعه جنوده بكامل سلاحهم ، ولكنه أرضى المستمسكين بالتقاليد القديمة بأن لبس ثياب المدنيين . وعثر طربيون على چليانس يبكى فى قصره من هول تلك الحوادث ، فأخذه إلى حمام وقطع رأسه (٢ يونيه سنة ١٩٣) .

وكانت أفريقية فى هذه الأثناء تهب المسيحية أعظم المدافعين عنها ، وقد ولد

فيها وقتئذ (١٤٦) سبتميوس واجتاز فيها أولى مراحل تعليمه ، وكانت نشأته فى أسرة فينيقية تتكلم بهذه اللغة ، ودرس الآداب والفلسفة فى أثينة ، واشتغل بالمحاماة فى رومة ، وكان رغم لهجته السامية من أحسن الرومان تربية وأكثرهم علماً فى زمانه ، وكان مولعاً بأن يجمع حوله الشعراء والفلاسفة ، ولكنه لم يترك الفلسفة تعوقه عن الحروب ، ولم يدع الشعر يرقق من طباعه . وكان رجلا وسيم الطلعة ، قوى البنية ، بسيطاً فى ملبسه ، قادراً على مغالبة الصعاب ، بارعاً فى الفنون العسكرية ، مقداماً لا يهاب الردى فى القتال ، قاسى القلب لا يرحم إذا انتصر . وكان لبقاً فكهاً فى حديثه ، نافذ البصيرة فى قضائه[٢] ، قديراً صارماً فى أحكامه[٣] .

وكان مجلس الشيوخ قد أخطأ إذ أعلن تأييده لمنافسه ألبينس Albinus فذهب إليه سبتميوس وحوله ستمائة من رجال الحرس ، وأقنعه بأن يؤيده فى ارتقاء العرش ؛ فلما تم له ذلك أعدم عشرات من أعضائه وصادر كثيراً من ضياع الأشراف حتى آلت إليه أملاك نصف شبه الجزيرة ؛ ثم ملأ الأماكن التى خلت فى مجلس الشيوخ بأعضاء اختارهم بنفسه من بلاد الشرق التى تدين بالنظام الملكى ، وأخذ كبار رجال القانون فى ذلك العصر — پاپنيان Papinian ، وبولس Paulus ، وألپيان Ulpian — يجمعون الحجج التى يؤيدون بها السلطة المطلقة ؛ وأغفل سبتميوس شأن المجلس إلا حين كان يبعث إليه بأوامره ؛ وبسط سلطانه الكامل على أموال الدولة على اختلاف مصادرها ، وأقام حكمه على تأييد الجيش دون خفاء ، وحول الزعامة إلى ملكية عسكرية وراثية ، وزاد عدد رجال الجيش ، ورفع رواتب الجند ، وعمد إلى الإسراف فى أموال الدولة حتى كاد ينضب معينها . ومن أعماله أنه جعل الخدمة العسكرية إلزامية ، ولكنه حرمها على أهل إيطاليا ؛ فأصبحت فيالق الولايات من ذلك الحين هى التى تختار الأباطرة لرومة بعد أن فقدت العاصمة قدرتها على الحكم .

ومن العجائب أن هذا المحارب الواقعي كان يؤمن بالتنجيم ، وأنه كان من أكثر الناس براعة في تفسير النذر والأحلام . من ذلك أنه لما أن ماتت زوجته الأولى قبل أن يرتقي العرش بستة أعوام عرض على سورية غنية دل طالعها على أنها ستجلس على عرش أن تتزوجه . وكانت هذه الزوجة هي چوليا دمنا Julia Domna إبنة كاهن غني لإلجابال Elgabal إله حمص . وكان نيزك قد سقط في تلك المدينة من زمن بعيد وأقيم له ضريح في هيكل مزخرف ، وأخذ الناس يعبدونه على أنه رمز الإله إن لم يكن هو الإله نفسه مجسما . وجاءت چوليا إلى قصر سپتميوس ، وولدت له ولدين هما كركلا وچيتا Geta ، وارتقت عرشها الموعود . وكانت أجمل من أن تقتصر على زوج واحد ، ولكن مشاغل سبتميوس لم تكن تترك له من الفراغ ما يسمح له بأن يغار عليها . وقد جمعت حولها ندوة من الأدباء ، وناصرت الفنون ، وأقنعت فيلوستراتس بأن يكتب سيرة أپلونيوس التياناني Apollonius of Tyana ويخلع عليه الكثير من أسباب المديح . وكانت قوة أخلاقها ونفوذها مما عجل السير بالملكية نحو الأساليب الشرقية التي وصلت إلى غايتها من الناحية الأخلاقية في عهد إيلجابالس Elgabalus ومن الناحية السياسية في عهد دقلديانوس .

وسلخ سپتميوس من حكمه الذي دام ثماني عشرة سنة في حروب سريعة وحشية قضى فيها على منافسيه ، ودك بيزنطية بعد حصار دام أربعة أعوام . فأزال بعمله هذا حاجزاً كان يقف في وجه القوط الآخذين في الانتشار ، وغزا پارثيا ، واستولى على طشقونة ، وضم بلاد النهرين إلى الإمبراطورية ، وعجل سقوط الأسرة الأرساسية المالكة . وأصيب في شيخوخته بداء النقرس . ولكنه لم يكن يرضى أن يضعف جيشه بعد أن قضى في السلم خمس سنين ، فزحف به على كلدونيا Caledonia ، وانتصر على الاسكتلنديين في عدة وقائع غالية الثمن ، فانسحب على أثرها إلى بريطانيا ، ثم آوى إلى يورك حيث وافته المنية (٢١١) .

ومما قاله عن نفسه : « لقد نلت كل شيء ، ولكن ما نلته لا قيمة له »[٤] ويقول هيرُودْيان إن « كركلا قد أغضبه أن تطول حياة أبيه ... فطلب إلى الأطباء أن يعجلوا بموت الشيخ بأية وسيلة فى متناول أيديهم »[٥] . وكان سپتميوس قد لام أورليوس حين سلم الإمبراطورية إلى كمودس ، ولكنه هو نفسه أسلمها إلى كركلا وجيتا ، بهذه النصيحة الساخرة : « وفرا المال للجنود كما ولا يهمكما شيء غير هذا »[٦] . وكان آخر إمبراطور مات فى فراشه فى الثمانين عاما التي سبقت وفاته .

ويبدو أن كركلا(*) قد خلق ، كما خلق كمودس ، لكى يثبت أن نصيب الرجل من النشاط قلما يكفى لأن يجعله عظيما فى حياته وفى قوته الجنسية معا . وقد كان فى صباه وسيما طيعاً ، فلما بلغ رشده أصبح همجيا مفتتنا بالصيد والحرب ، يقتنص الخنازير البرية ، وينازل أسداً بمفرده ، ويحتفظ بعدد من الآساد بالقرب منه فى قصره ، واتخذ واحد منها رفيقا له فى بعض الأحيان يجالسه على مائدته وينام معه فى فراشه[٧] . وكان يستمتع بصحبة المجالدين والجند بنوع خاص ، ويبقى أعضاء الشيوخ زمنا طويلا فى حجرات الانتظار حتى يفرغ من إعداد الطعام والشراب لرفاقه . ولم يكن يرضى أن يشترك معه أخوه فى حكم الإمبراطورية ، فأمر بقتل جيتا فى عام ٢١٢ ، فاغتيل الشاب وهو بين ذراعى أمه ، وخضب أثوابها بدمه . ويقال إنه حكم بالموت على عشرين ألفا من أتباع جيتا ، وعلى كثيرين من المواطنين ، وعلى أربع من العذارى الفستية ، اتهمن بالزنى[٨] . ولما تذمر الجيش على أثر مقتل جيتا أسكته بأن نفحه بهبة تعادل كل ما ادخره سپتميوس من الأموال . وكان يفضل الجنود والفقراء على رجال الأعمال والأشراف ؛ ولعل ما نقرؤه عنه

(*) وقد سمى نفسه بهذا الاسم نسبة إلى الجلباب الغالى الطويل الذى كان يلبسه ، أما اسمه الحقيق فهو بسيانيوس Bassianius ، ولما جلس على العرش سمى نفسه ماركس أورليوس أنطونينس كركلا .

من القصص التي يرويها ديوكاسيوس ليست إلا انتقاماً كتبه عضو في مجلس الشيوخ . واشتدت رغبته في جمع المال فضاعف ضريبة التركات بأن جعلها عشرة في المائة من مقدار التركة ؛ ولما رأى أنها لا تطبق إلا على المواطنين الرومان وسع دائرة هذه الحقوق حتى شملت جميع الراشدين من الذكور الأحرار في الإمبراطورية كلها (٢١٢) ؛ فنال هؤلاء حقوق المواطنين حين استتبعت أكثر ما يمكن أن تستتبعه من القروض وأقل ما تستتبعه من السلطان . وأضاف إلى زينات رومة قوساً أقامه لسبتميوس سفيرس لا يزال باقياً إلى اليوم ، وحمامات عامة تشهد خرائبها الضخمة بما كانت عليه من عظمة وجلال ، ولكنه ترك معظم شئون الحكم المدني لوالدته ، وشغل نفسه بالحروب .

وكان قد عين جوليا دمنا أمينة سره لشئون العرائض والرسائل . وكانت تشاركه أو تحل محله في استقبال رجال الدولة أو ذوي المكانة العالية من الأجانب . وهمس الوشاة بأن سلطانها عليه ناشئ من مضاجعته إياها ، وأثار الفكهون الجبناء من أهل الإسكندرية حنقه بتشبيههم لها وله بجوكستا Jocasta وأوديب : وأراد أن ينتقم لنفسه من هذه الإهانة وأمثالها من جهة ، ويأمن على نفسه من ثورة تتقد نارها في مصر أثناء حروبه لپارثيا من جهة أخرى ، فزار المدينة وأشرف بنفسه (كما يؤكد المؤرخون) على قتل جميع أهل الإسكندرية القادرين على حمل السلاح[٩] .

ومع هذا فقد كان منشئ الإسكندرية المثل الذي احتذاه والمطمع الذي يأمل أن يبلغه . وللوصول إلى هذه الغاية أنشأ فيلقاً من ١٦٫٠٠٠ جندي سماه « فيلق الإسكندر » وسلحه بأسلحة مقدونية من الطراز القديم ، وكان يأمل أن يخضع به پارثيا كما أخضع الاسكندر فارس . وبذل كل ما يستطيع من الجهد ليكون جندياً عظيما ، فكان يشارك جنوده في طعامهم وكدحهم ، وسيرهم الشاق الطويل ، وكان يساعدهم في حفر الخنادق ، وإقامة الجسور ، ويظهر

الكثير من ضروب البسالة فى القتال ، وكثيراً ما كان يتحدى أعداءه ويطلب إليهم أن يبارزوه رجلا لرجل ؛ ولكن رجاله لم يكن لهم مثل ما كان له من رغبة فى قتال البارثيين ، بل كان حبهم للغنائم أكثر من حبهم للقتال ، فقتلوه فى كارى Carrhae التى هزم فيها كراسس (٢١٧.) . ونادى مكرينس Macrinus قائد الحرس بنفسه إمبراطورا ، وأمر مجلس الشيوخ ، بعد أن أظهر بعض التردد ، بأن يتخذ كركلا إلهاً . ونفيت چوليا دمنا إلى أنطاكية بعد أن حرمت فى خلال ست سنين من الإمبراطورية ، ومن زوجها ، وأبنائها ، فأضربت عن الطعام حتى ماتت .

وكان لها أخت تدعى چوليا ميزا Julia Maesa لا تقل عنها قدرة وكفاية ، فعادت چوليا الثانية إلى حمص ووجدت فيها حفيدين يبشران بمستقبل عظيم . فأما أحدهما فكان ابن ابنتها چوليا سؤامياس Julia Soaemias ، وكان كاهناً شاباً من كهنة بعل ، يسمى ڤاريوس أڤيتس Varius Avitus ، وهو الذى سمى فيما بعد إلجابالس Elgabalus أى « الإله الخالق »(*) . أما الثانى فكان ابن چوليا ماميا Julia Mamaea ابنة ميزا ، وكان غلاماً فى العاشرة من عمره يدعى ألكسيانس Alexianus وهو الذى أصبح فيما بعد الكسندر سفيرس . ونشرت ميزا الشائعة القائلة إن ڤاريوس هو الابن الطبيعى لكركلا ، وإن كان فى واقع الأمر ابن ڤاريوس مرسلس ، وأطلقت عليه اسم بسيانس ؛ ذلك أن الإمبراطورية كانت أفضل عندها من سمعة ابنتها ، وماذا يضيرها بعد أن مات مرسلس والد الشاب . وكان الجنود الرومان فى سوريا قد ألفوا الشعائر الدينية السورية ، وكانوا يشعرون باحترام لهـذا القس الشاب الذى لا يتجاوز الرابعة عشرة من العمر تبعثه فى قلوبهم عاطفة دينية قوية . يضاف إلى هذا أن ميزا أوعزت إليهم بأنهم إذ

(*) وقد أخطأ الكتاب اللاتين فترجموا اسمه Heliogabalus إلى « إله الشمس » .

اختاروا ألجابالس إمبراطوراً فإنها ستنفحهم بعطية سنية . ووثق الجند بوعدها لهم وأجابوها إلى ما طلبت . وضمت ميزا بذهبها إلى صفها الجيش الذى سيره مكرينس لقتالها ، ولما أن ظهر مكرينس نفسه على رأس قوة كبيرة ، تردد مرتزقة السوريين فى ولائهم ، ولكن ميزا وسؤامياس قفزتا من مركبتيهما ، وقادتا الجيش المتردد إلى النصر ؛ لقد كان رجال سوريا نساء ، وكانت نساؤها رجالا .

ودخل ألجابالس رومة فى خريف عام ٢١٩ مرتدياً أثواباً من الحرير الأرجوانى موشاة بالذهب الإبريز ، وحذاءين مصبوغين باللون القرمزى ، وكانت عيناه تشعان بريقاً مصطنعاً وكان فى ذراعيه إسورتان غاليتا الثمن ، وفى جيده عقد من اللؤلؤ ، وعلى رأسه الجميل تاج مرصع بالجواهر . وركبت إلى جواره فى موكب فخم جدته وأمه . وكان أول ما فعله حين حضر إلى مجلس الشيوخ أول مرة أن طلب إليه الموافقة على جلوس أمه إلى جانبه لتستمع إلى المناقشات . وأوتيت سؤامياس من الحكمة ما أوحى إليها بالانسحاب ، وقنعت برياسة المجلس الأصغر مجلس النساء الذى أنشأته سابينا ، والذى كان يبحث المسائل المتعلقة بأثواب النساء وحليهن ، وترتيبهن فى الحفلات الرسمية ، وآداب اللياقة وما إليها ، وترك حكم الدولة للجدة ميزا .

وكان فى أخلاق الإمبراطور الشاب بعض العناصر المحببة . من ذلك أنه لم ينتقم ممن أيدوا مكرينس ، وأنه كان يحب الموسيقى ، ويجيد الغناء ، وينفخ فى المزمار والبوق ، ويضرب على الأرغن : وإذ كان أصغر من أن يحكم الإمبراطورية فإنه لم يطلب أكثر من أن يستمتع بها . ولم يكن معبوده بعل بل كان هذا المعبود هو الشهوة ، وكان معتزماً أن يعبدها بجميع صورها فى الذكور والإناث على السواء : وكان يدعو كل طبقة من الأحرار إلى زيارة قصره ، وكان أحياناً يأكل معهم ويشرب ويمرح ؛ ويوزع عليهم من آن إلى آن جوائز الاقتراع تختلف من بيوت مؤثثة إلى حفنة من الذباب . وكان يحب أن يمزح

مع ضيوفه : من ذلك أنه كان يجلسهم على وسائد منفوخة تنفجر من تحتهم فجاءة ، ويسكرهم حتى يفقدوا وعيهم حتى إذا ما استيقظوا وجدوا أنفسهم بين فهود ، ودببة ، وآساد أليفة غير مؤذية . ويؤكد لمبريديبوس Lampridius أن ألجابالس لم ينفق مرة أقل من ١٠٠ر٠٠٠ سسترس (١٠ر٠٠٠ ريال أمريكي) على وليمة واحدة لضيوفه ، وربما بلغت نفقات إحدى الولائم ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ . وكان يخلط قطع الذهب بالبازلا ، والعقيق بالعدس ، واللؤلؤ بالأرز ، والكهرمان بالفول . وكان يهدى الخيل والمركبات ، والخصيان ؛ وكثيراً ما كان يأمر كل ضيف أن يأخذ معه إلى منزله الصفحة الفضية والكؤوس التي كان يقدم له فيها الطعام والشراب . وكان يختار لنفسه أحسن كل شيء . فكان الماء الذى فى أحواض سباحته يعطر بروح الورد ، وكانت المشاجب التي فى حماماته من العقيق أو الذهب الخالص ،وكان طعامه من أندر المأكولات وأغلاها ثمناً ، وأثوابه مرصعة بالجواهر من تاجه إلى حذاءيه ، وتقول الشائعات إنه لم يلبس قط خاتماً مرتين . وكان إذا سافر احتاج إلى ٦٠٠ مركبة يحمل فيها متاعه وقواديه . ولما قال له عراف إنه سيموت ميتة عنيفة ، أعد وسائل غالية للانتحار يستخدمها إذا لزم الأمر : منها حبال من الحرير الأرجواني ، وأسياف من الذهب ، وسموم فى قنينات من الياقوت الأزرق أو الزمرد . غير أنه اغتيل فى مرحاض .

وأكبر الظن أن أعداءه من أعضاء مجلس الشيوخ ومن فى طبقتهم قد اخترعوا أو بالغوا فى بعض هذه القصص ؛ وما من شك فى أن القصص الخاصة بشذوذه الجنسي مما لا يصدقه العقل . وسواء كانت صحيحة أو كاذبة فإنه كان يعطر شهواته بتقواه ، ويعمل على أن ينشر بين الرومان عبادة إلهه السورى بعل ؛ يضاف إلى هذا أنه اختتن وفكر فى أن يخصى نفسه تكريماً لإلهه ؛ وأحضر من حمص الحجر الأسود المقدس وأخذ يعبده بوصفه رمزاً لإلجابال ، وشاد هيكلا مزخرفاً ليضعه فيه ، وحمل إليه الحجر مغلفاً بالجواهر فى عربة تجرها ستة جياد

بيض ، ومشى الإمبراطور أمامها متجهاً بوجهه نحوها وهو صامت إجلالا لهذا الحجر . ولم يكن يجد ما يمنعه أن يعترف بجميع الأديان الأخرى ، فكان يبسط حمايته على اليهودية ، وعرض أن يجعل المسيحية ديناً مشروعاً ، وكل ما كان يصر عليه فى إخلاص يدعو إلى الإعجاب هو أن يكون حجره أعظم الآلهة(١٢) .

وكانت أمه منهمكة فى علتها تنظر إلى هذه المهزلة الدينية نظرة المتسامح الذى لا يعنيه من أمرها شىء ، ولكن چوليا ميزا صممت ، حين عجزت عن وقفها ، على أن تتعجل الكارثة التى ستقضى على هـــذه الأسرة العجيبة من النساء السوريات . ولهذا أقنعت ألجابالس بأن يتبنى الإسكندر ابن عمه ويوصى به قيصراً وخليفة له ؛ وأخذت هى وماماثيا Mamaea تدربان الغلام على واجبات منصبه ، وسلكتا كل السبل التى تجعل مجلس الشيوخ والشعب ينظران إليه على أنه خير بديل للقس المأفون الذى أساء إلى رومة — لا بإسرافه أو فحشه — بل بإخضاعه چوپتر إلى بعل السورى . وكشفت سوامياس المؤامرة وأثارت الحرس البريتورى على أختها وابن أختها . لكن ميزا وماماثيا كانتا أقوى منها حجة إذا بسطتا أيديهما للحرس بالمال الوفير ، فقتل رجال الحرس ألجابالس وأمه ، وجروا جثته فى شوارع المدينة وحول ساحة الألعاب ، وألقوها فى نهر التيبر ، ثم نادوا بالإسكندر إمبراطوراً ، ووافق مجلس الشيوخ على هذه البيعة (٢٢٢) .

وجلس ماركس أورليوس سڤيرس ألكسندر على العرش ؛ كما جلس عليه سلفه ، فى الرابعة عشرة من عمره . وكانت أمه قد عنيت عناية منقطعة النظير بتدريب جسمه ، وعقله ، وخلقه . وزاد هو شهرته بالجد ورياضة الجسم ، فكان يسبح فى بركة من الماء البارد ساعة فى كل يوم ، ويشرب نحو نصف لتر من الماء قبل كل وجبة ، ويقتصد فى الطعام ، ولا يأكل إلا أبسط الأطعمة . ونشأ غلاماً وسيما ، طويل القامة ، قوى الجسم ، ماهراً فى جميع أنواع الألعاب وفنون الحرب ، ودرس الآداب اليونانية واللاتينية ، ولم يقلل من حبه لهما

وانهاكه فيهما إلا إصرار ماماثيا ، إذ تلت عليه أشعار ڤرچيل التى تهيب بالرومان أن يدعوا جمال الثقافة لغيرهم من الأجناس ، ويعدوا أنفسهم لإقامة دولة عالمية وحكمها فى سلام . وكان بارعاً « ممتازاً » فى التصوير والغناء ، يعزف على الأرغن والقيثارة ، ولكنه لم يكن يسمح لغير أهل بيته بمشاهدة هذه الأعمال . وكان بسيطاً متواضعاً فى ملبسه وأخلاقه « معتدلا فى استمتاعه بالحب ، ولم تكن له قط صلة بالمخنثين »[١٣] . وأظهر احتراماً عظيما لمجلس الشيوخ ، فكان يعامل أعضاءه كأنهم أكفاء له ، ويستضيفهم فى قصره ، وكثيراً ما كان يزورهم فى منازلهم وكان رحيما ، دمث الأخلاق ، يعود المرضى أيا كانت منزلتهم ، ويستمع إلى كل مواطن حسن السمعة ، ويسرع فى العفو عن معارضيه ، ولم يسفك قط دماء مدنى فى الأربعة عشر عاما التى قضاها فى الحكم[١٤] . وعابت عليه أمه لينه وقالت له : « لقد أسرفت فى لين الحكم ، وفى الإقلال من سلطان الإمبراطورية » ؛ فأجابها بقوله : « نعم ، ولكننى جعلتها أبقى أمداً وأقوى دعامة »[١٥] . لقد كان رجلا من ذهب مصفى ، غير مشوب بزغل يقويه على احتمال صعاب هذا العالم .

وأدرك السخف الذى تنطوى عليه جهود سلفه والتى كانت تهدف إلى استبدال إلجابال بجوپتر ، وتعاون مع والدته فى إعادة الهياكل والشعائر الرومانية إلى سابق عهدها ؛ ولكن عقله الفلسفى هداه إلى أن يرى أن الأديان جميعها أساليب مختلفة لعبادة قوة واحدة عليا ؛ ولهذا أراد أن يعظم جميع الأديان التى تدعو إلى الخير ، ووضع فى معبده الخاص الذى كان يتعبد فيه كل صباح صوراً لجوپتر وأرفيوس ، وأپلونيوس التياناتى ، وإبراهيم ، والمسيح . وكثيراً ما كان يكرر النصيحة اليهودية — المسيحية القائلة : « لا تعامل غيرك بما لا تحب أن يعاملك به الناس » ، وأمر بنقشها على جدران قصره وعلى كثير من جدران المبانى العامة . وكان يوصى شعبه بالتخلق بأخلاق اليهود والمسيحيين : ولكن الذين لم يتأثروا به من

أهل أنطاكية والإسكندرية الفكهين كانوا يلقبونه « رئيس الكنيس » وكانت أمه تفضل المسيحيين على غيرهم ، وقد بسطت حمايتها على أرجن ، واستدعته ليفسر للناس أصول دينه المرن .

وإذ كانت جوليا ميزا قد توفيت بعد قليل من اعتلاء الإسكندر العرش ، فقد كانت ماماثيا وكان ألپيان معلم الإسكندر هما اللذين يرسمان خططه السياسية ، وإصلاحاته الإدارية . ومن أعمالهما أنهما اختارا ستة عشر من أعضاء مجلس الشيوخ البارزين وألفا منهم مجلساً إمبراطورياً وقررا ألا ينفذ عمل من الأعمال الكبرى إلا إذا وافق عليه . ولما أن تزوج الإسكندر وأظهر تحيزاً ظاهراً لزوجته بسبب حبه لها أمرت ماماثيا بنفيها؛ ولم ير الإسكندر بداً من الاستسلام لوالدته . ولما كبر زاد نصيبه فى إدارة شئون الدولة فكان « يعنى بالشئون العامة قبل مطلع الفجر » ، كما يقول كاتب سيرته القديم ، « ويوالى النظر فى هذه الشئون زمناً طويلا ، دون ملل أو غضب ، بل يبقى على الدوام مرحاً هادئاً رضياً »[١٦] .

وكانت خطته الأساسية تهدف إلى إضعاف سيطرة الجيش المؤدية إلى انحلال الدولة ، وذلك بإعادة هيبة مجلس الشيوخ والأشراف ؛ فقد كان يبدو له أن حكم الأشراف ذوى الأصول السامية هو البديل الوحيد من حكم المال ، أو الخرافات ، أو السيف ؛ وقد استطاع بمعونة مجلس الشيوخ أن ينفذ مئات الخطط التى أدت إلى اقتصاد كبير فى نفقات الإدارة ، ففصل عدداً كبيراً من الموظفين الزائدين على الحاجة فى قصره ، وفى المناصب الحكوميه ، وفى الولايات ؛ وباع معظم ما كان فى خزائن الإمبراطور من جواهر ، وأودع ثمنها فى بيت المال .

وأصدر قرارات اعترف فيها بهيئات العمال والتجار ، وشجعها وأعاد تنظيمها ، وأجاز لهذه الهيئات أن تختار محامين عنها من بين أعضائها[١٧] . ولعل مجلس الشيوخ كان أقل رضاء عن هذا العمل منه عن أعماله الأخرى ، وقد فرض رقابة شديدة على الأخلاق العامة فأمر بالقبض على العاهرات ونفى

ذوى الميول الجنسية الشاذة . ومع أنه خفض الضرائب فقد أعاد بناء الكلوسيوم وحمامات كركلا ، وشاد مكتبة عامة وقناة ماء طولها أربعة عشر ميلا ، وحمامات للبادية جديدة ، وبذل المال بسخاء لإنشاء الحمامات وقنوات الماء والطرق فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، وعمل على تخفيض فائدة الديون التى كانت ترهق المدينين فأقرض المال من خزانة الدولة بفائدة أربعة فى المائة ، وأعطى الفقراء المال من غير فائدة ليشتروا به أرضاً زراعية . وكانت نتيجة هذه الأعمـــال أن عم الرخاء جميع أجزاء الإمبراطورية ، وأن قدرت له أعماله وأثنت عليه ، وأن خيل إلى جميع الناس أن أورليوس التقى العظيم قد عاد إلى الأرض وإلى السلطان .

ولكن الفرس والألمان اغتنموا فرصة وجود هذا الإمبراطور القديس على العرش ، كما اغتنموا فرصة وجود سميه الإمبراطور الفيلسوف ، فغزا أردشير رأس الأسرة الساسانية فى فارس بلاد النهرين فى عام ٢٣٠ وهدد سوريا . وبعث إليه الإسكندر برسالة فلسفية يلومه فيها على عنفه ويقول له إنه « يجب على كل إنسان أن يقنع بما لديه من أملاك »[١٨] ؛ واستنتج أردشير من هذه الرسالة أنه ضعيف خوار العود فرد عليه بأن طلب سوريا وآسية الصغرى ، فما كان من الإمبراطور الشاب إلا أن امتشق الحسام ونزل إلى الميدان مصحوباً بوالدته ، وخاض غمار موقعة غير فاصلة أظهر فيها من البسالة أكثر مما أظهر من الدهاء . ولا يذكر التاريخ إلا النزر اليسير عن انتصاراته وهزائمه ، ولكن الحرب أسفرت عن انسحاب أردشير من بلاد النهرين ، ولعله انسحب ليرد هجوماً وقع على حدوده الشرقية ؛ وتصور النقود الرومانية الإسكندر متوجاً بإكليل الظفر ومن تحت قدميه نهرا دجلة والفرات .

ورأت قبائل الألمان والمركمان أن حاميات الرين والدانوب قد سحبت لإمداد فيالق سوريا فاقتحمت الطرق الرومانية المحصنة وعاثت فساداً فى بلاد غالة الشرقية ، ولكن الإسكندر جاء إليها مع ماميا بعد الفراغ من احتفاله

بالنصر على الفرس ، وانضم إلى جيشه ، وسار على رأسه إلى ميز Mainz ،
وعمل بنصيحة والدته فأخذ يفاوض العدو ويعرض عليه مبلغاً سنوياً من
المال نظير احتفاظه بالسلم . ولكن جنوده رأوا فى هذا العمل ضعفاً واستسلاماً
فتمردوا عليه ، ولم يكونوا قد غفروا له شحه ، وتشدده فى حفظ النظام ،
وإخضاعهم لمجلس الشيوخ ولحكم امرأة ، ونادوا بيوليوس مكسمينس
قائد فيالق بانونيا إمبراطوراً . واقتحم جنود مكسمينس خيمة الإسكندر ،
وقتلوه هو وأمه وأصدقاءه (٢٣٥) .

الفصل الثاني

الفـــوضى

لم يكن من نزوات التاريخ أن أصبح الجيش صاحب السلطة العليا في القرن الثالث ، بل كان هذا أمراً طبيعياً . ذلك أن عوامل داخلية أضعفت الدولة وتركتها معرضة للغزو من جميع الجهات ، وكان وقف التوسع بعد أيام تراجان ، ثم بعد أيام سبتميوس ، إيذاناً ببدء الهجوم عليها ، فأخذ البرابرة يفتحون بلادها باتحادهم على غزوها ، كما كانت رومة تفتح بلادهم بتفريقهم . وزادت ضرورة الدفاع من قوة الجيش ورفعت مكانة الجندية ، وجلس القواد على العرش محل الفلاسفة ، وخضع آخر حكم الأشراف لعودة حكم القوة .

وكان مكسمينس جندياً طيباً لا أكثر ، وكان ابن فلاح تراقي . ونشأ صحيح الجسم قوي البنية ، ويؤكد المؤرخون أن طول قامته كان يبلغ ثماني أقدام ، وأن إبهامه كانت من الغلظة بحيث كان يلبس فيها إسورة زوجته كما يلبس الخاتم . ولم ينل شيئاً من التعليم : وكان يحتقر المعلمين ويحسدهم في وقت واحد ، ولم يزر رومة مرة واحدة في الثلاث السنين التي تولى فيها الملك بل كان يفضل حياة معسكره على الدانوب أو الرين . وقد اضطرته حاجته إلى المال لينفق منه في حروبه وفي استرضاء جنوده إلى فرض ضرائب فادحة على الأغنياء أغضبتهم فلم يلبثوا أن ثاروا على حكمه ، وقبل جرديانس حاكم أفريقية الثري المتعلم ترشيح جيشه له إمبراطوراً منافساً لمكسمينس . وإذ كان وقتئذ في الثمانين من عمره فقد أشرك معه ولده في هذا المنصب المهلك . وعجزا جميعاً عن الوقوف في وجه القوى التي سيرها عليهما مكسمينس وقتل الابن في ميدان القتال أما الأب فقتل نفسه ، وثأر مكسميفس لنفسه بأن حكم على عدد كبير من الأشراف بالقتل والنفي ، ومصادرة

أملاكهم حتى كاد يقضى على هذه الطبقة . وفى ذلك يقول هروديان Herodian « وكان فى وسع الإنسان أن يرى فى كل يوم أغنى الأغنياء بالأمس يصبح متسولا . »[١٩] . وقاومه مجلس الشيوخ الذى أعاد سفيرس تكوينه وقواه أشد المقاومة ، فأعلن أن مكسمينس خارج على القانون ، واختار اثنين من أعضائه هما مكسمس Maximus وبلبينس Balbinus إمبراطورين . وسار مكسمس على رأس جيش هزيل لملاقاة مكسمينس ، فانحدر هذا من جبال الألب وحاصر أكويليا Aquileia . وكان مكسمينس أفضل القائدين ، وكانت لديه أكبر القوتين ، ولاح أن مجلس الشيوخ وطبقات الملاك سيلقيان مصيرهما المحتوم ؛ ولكن جماعة من جنود مكسمينس الذين كانوا حانقين عليه لأنه وقع عليهم عقاباً وحشياً قتلوه غيلة فى خيمته . وعاد مكسمس ظافراً إلى رومة ، حيث اغتاله الحرس البريتورى هو وبلبينس ، واختار جرديانس الثالث إمبراطوراً ، وأيد مجلس الشيوخ هذا الاختيار .

ولسنا نريد أن نذكر بالتفصيل الممل أسماء الأباطرة الذين جلسوا على العرش فى هذا العصر الدموى الذى سادته الفوضى ، ولا أن نذكر وقائعهم الحربية وقتلهم ومماتهم . وحسبنا أن نقول إن سبعة وثلاثين رجلا نودى بهم أباطرة فى الخمسة والثلاثين عاماً الواقعة بين حكم ألكسندر سفيرس وأورليان : وقتل جرديان الثالث جنــودُه وهو يحارب الفرس (٢٤٤) ، وهزم ديسيوس Decius فليب العربى الذى خلفه على العرش وقتله فى فرونا Verona (٢٤٩) ؛ وكان فليب هذا رجلا من أهل إلبريا ، وكان ثرياً مثقفاً مخلصاً لرومة إخلاصاً خليقاً بالشرف الذى ناله فى القصص القديم ؛ وقد وضع فليب هذا فى أثناء فترات السلم التى تخللت حرب القوط برنامجاً واسعاً ليعيد به إلى رومة دينها وأخلاقها ، وعاداتها الصالحة ، وأصدر أوامره بالقضاء على المسيحية . ثم عاد إلى نهر الدانوب ، والتقى بالقوط ، وشهد بعينه مقتل ابنه إلى جانبه ، وأعلن فى جيشه الهياب المتردد أن خسارة فرد من الأفراد لا قيمة لها البتة ، وهاجم جيش العدو ، وقتل هو فى هزيمة .

من أقسى الهزائم التى أصابت الرومان فى تاريخهم كله (٢٥١) . وخلفه جالس Gallus الذى قتله جنوده (٢٥٣) ، وجاء بعدهما إيمليانس Aemilianus وقد قتله هو الآخر جنوده فى العام نفسه .

وكان ڤليريان Valerian الإمبراطور الجديد فى سن الستين. ، ولما جلس على العرش اضطر لملاقاة الفرنجة ، والألمان ، والمركمان ، والقوط ، والسكوذيين ، والفرس فى وقت واحد : ولهذا عين ابنه جلينس Gallienus حاكما على الإمبراطورية الغربية ، واحتفظ لنفسه بالشرق . وزحف بجيش على أرض النهرين ولكن كبر سنه أعجزه عن القيام بهذا الواجب الذى يحتاج إلى قوة أعظم من قوته فلم يلبث أن ناء به . وكان جلينس وقتئذ فى الخامسة والثلاثين من عمره ، وكان شجاعاً ، ذكياً ، مثقفاً ثقافة لا تكاد تتفق مع أحوال ذلك القرن الملىء بالحروب الوحشية وقد أصلح دولاب الإدارة المدنية فى الغرب ، وقاد جيشه من نصر إلى نصر على أعداء الإمبراطورية عدواً بعد عدو ، ووجد مع ذلك متسعاً من الوقت يأخذ فيه بناصر الفلسفة والآداب ، وأحيا الفن القديم إحياء لم يدم طويلا ، ولكن عبقريته المتعددة الجوانب لم تقو على مغالبة الشرور التى تجمعت فى ذلك الوقت .

ففى عام ٢٥٤ أغار المركمان على پنونيا وشمالى إيطاليا ، وفى عام ٢٥٥ غزا القوط مقدونية ودلماشيا ، وهاجم السكوذيون والقوط آسية الصغرى ، وأغار الفرس على سوريا . وفى عام ٢٥٧ استولى القوط على مملكة بسپورس ، ونهبوا المدن اليونانية الواقعة على شاطئ البحر الأسود ، وحرقوا طرابزون ، وساقوا أهلها عبيداً وإماء ، وأغاروا على پنطس . وفى عام ٢٥٨ استولوا على خلقدون ، ونيقوميديا . وبروصه ، وأپاميا ، ونيقية ؛ واستولى الفرس فى العام نفسه على أرمينية ، ونادى پستيومس بنفسه حاكما مستقلا على غالة . وفى عام ٢٥٩ أغار الألمان على إيطاليا ، ولكن جالينس هزمهم عند ميلان . وفى عام ٢٦٠ هزم الفرس

ڤلريان عند الرها ومات أسيراً في زمان ومكان غير معروفين إلى اليوم . وتقدم شابور الأول وفرســانه الخفاف الكثيرون مخترقين سوريا إلى أنطاكية ، وباغتوا أهلها وهم يشهدون الألعاب ، ونهبوا المدينة ، وقتلوا آلافاً من أهلها ، وساقوا آلافاً آخرين عبيداً ، واستولوا على طرسوس وخربوها ، وعاثوا فساداً في قليقية وكبدوكية ، وعاد شابور إلى بلاد الفرس مثقلا بالغنائم . وحلت بروما في مدى عشر سنين ثلاث مآس أذلتها وجللتها العار : ذلك أن إمبراطوراً رومانياً خر لأول مرة صريعاً مهزوماً في ميدان القتال ، وأسر العدو إمبراطوراً آخر ، وضحى بوحدة الإمبراطورية استجابة لضرورة ملاقاة الأعداء الذين أغاروا عليها من جميع الجهات . وضعضعت هذه الضربات وما صحبها من رفع الجنود الأباطرة على العرش واغتيالهم ، أركان الإمبراطورية ، وقضت على هيبتها ، وفقدت هذه القوى النفسية التي أنزلها الزمان منزلة القداسة وخلع عليها سلطاناً يألفه الناس ولا يسألون عن مبرراته ، نقول فقدت هذه القوى سيطرتها على أعداء رومة بل فقدتها أيضاً على رعاياها ومواطنيها ، فاندلع لهيب الثورة في كل مكان : ففي صقلية وغالة ثار الفلاحون الذين طال عليهم أمد الظلم ثورات عنيفة ، وفي پنونيا نادى إنچينس بنفسه حاكما مستقلا على الولايات الشرقية : وفي عام ٢٦٣ سار القوط بحراً بإزاء سواحل أيونيا ، ونهبوا إفسوس ، وأحرقوا هيكل أرتميس الفخم ، وساد الإرهاب جميع بلاد الشرق الهلنستي .

ولكن الإمبراطورية في آسية نجت على يدى حليف غير متوقع . ذلك أن أوناثس ، الذي كان يحكم تدمر خاضعا لسلطان رومة طرد الفرس من أرض الجزيرة ، وهزمهم في طشقونة (٢٦١) ، ونادى بنفسه ملكا على سوريا ، وقليقية ، وبلاد العرب ، وكبدوكية ، وأرمينية . ثم اغتيل في عام ٢٦٦ ، وورث ابن له شاب ألقابه ، وورثت أرملته سلطانه .

وقد جمعت زنوبيا ، كما جمعت كليوبطرة التي تدعى هي أنها من نسلها ،

إلى جمال الخلق ، براعة فى الحكم ، وكثيراً من أسباب ثقافة العقل . وقد درست آداب اليونان وفلسفتهم ، وتعلمت اللغات اليونانية ، والمصرية ، والسريانية ، وكتبت تاريخاً لبلاد الشرق . ويلوح أنها جمعت بين العفة والقوة والنشاط ، فلم تبح لنفسها من العلاقات الجنسية إلا ما يتطلبه واجب الأمومة[٢٠] . وعودت نفسها تحمل التعب والمشاق ، وكانت تستمتع بأخطار الصيد ، وتسير على قدميها أميالا طوالا على رأس جيشها . وجمعت فى حكمها بين الحكمة والصرامة ، وعينت الفيلسوف لنجينس رئيساً لوزرائها ، وأحاطت نفسها فى بلاطها بالعلماء والشعراء والفنانين ، وجملت عاصمة ملكها بالقصور اليونانية — الرومانية — الأسيوية التى يدهش لها عابر الصحراء فى هذه الأيام .

وأحست أن الإمبراطورية تتقطع أوصالها ، فاعتزمت إقامة أسرة حاكمة ودولة جديدتين ، وأخضعت لسلطانها كيدوكية ، وغلطية ، والجزء الأكبر من بيثينيا ، وأنشأت جيشاً عظيما وعمارة بحرية ضخمة ، فتحت بهما مصر واستولت على الإسكندرية بعد حصار هلك فيه نصف سكانها . وتظاهرت « ملكة الشرق الداهية » أنها تعمل نائبة عن الدولة الرومانية ، ولكن العالم كله كان يدرك أن انتصاراتها لم تكن إلا فصلا من مسرحية واسعة النطاق هى مسرحية انهيار رومة .

وعرف البرابرة ثروة الإمبراطورية وضعفها ، فتدفقوا على بلاد البلقان واليونان . وبينا كان السرماتيون يعيثون فساداً من جديد فى المدن القائمة على شواطئ البحر الأسود ، كان فرع من فروع القوط يسير فى خمسمائة سفينة مخترقا مضيق الهلسپنت إلى بحر إيجه ، ويستولى على جزائره جزيرة فى إثر جزيرة ، ويرسو فى ميناء بيريه ، وينهب أثينة ، وأرجوس ، واسپارطة ، وكورنثة ، وطيبة (٢٦٧) . وبينا كان أسطولهم يعيد بعض المغيرين إلى البحر الأسود ، كانت جماعة أخرى منهم تشق طريقها براً نحو موطنها على نهر الدانوب . والتقى

بهم جالينس على نهر نستس فى تراقية ، وانتصر عليهم فى معركة خسر فيها كثيراً ولكن جنوده اغتالوه بعد سنة واحدة من هذا النصر . وانقضت جموع أخرى من القوط فى عام ٢٦٩ على مقدونية وحاصرت تسالونيكى ، ونهبت بلاد اليونان ، ورودس ، وقبرص ، وشواطئ أيونيا . وأنقذ الإمبراطور كلوديوس الثانى تسالونيكى ، وطرد القوط إلى أعالى وادى الواردار ، وهزمهم عند نايسس (وهى نيش الحديثة) هزيمة منكرة قتل فيها منهم مقتلة كبيرة (٢٦٩) . ولو أنه خسر هذه المعركة لما وقف جيش بين القوط وإيطاليا .

الفصل الثالث

التدهور الاقتصادى

لقد عجلت الفوضى السياسية تدهور الإمبراطورية الاقتصادى ، كما عجل التدهور الاقتصادى انحلال البلاد السياسى ، فكان كلاهما سبباً للآخر ونتيجة له . وكن سبب الضعف الاقتصادى أن ساسة الرومان لم يقيموا قط فى إيطاليا حياة اقتصادية سليمة ، ولعل سهول شبه الجزيرة الضيقة لم تكن فى يوم من الأيام أساساً قوياً تبنى عليه آمال الدولة الإيطالية العالية ؛ وكان يقلل من إنتاج الحبوب منافسة الحبوب الرخيصة الواردة من صقلية ، وأفريقية ، ومصر ، كما أن الكروم العظيمة أخذت تفقد أسواقها التى استولت عليها كروم الأقاليم . وشرع الفلاحون يشكون من أن الضرائب الفادحة تستنفد مكاسبهم المزعزعة ولا تترك لهم من المال ما يحفظون به قنوات الرى والصرف صالحة ، فانطمرت القنوات ، وانتشرت المستنقعات ، وأنهكت الملاريا سكان كمپانيا ورومة . ويضاف إلى هذا أن مساحات واسعة من الأرض الخصبة قد حولت من الزراعة إلى مساكن للأثرياء أصحاب الضياع الواسعة ؛ وكان أصحاب هذه الضياع البعيدون عنها يستغلون العمال والأرض إلى أقصى حدود الاستغلال ، ويبررون عملهم هذا بمشروعاتهم الإنسانية فى المدن . وازدهرت العمائر الفخمة وألعاب الرياضة فى المدائن فى الوقت الذى أقفر فيه الريف ، ومن أجل ذلك هجر كثيرون من ملاك الأراضى وعمال الريف الأحرار المزارع إلى المدن وتركوا الجزء الأكبر من الأراضى الزراعية الإيطالية ضياعاً واسعة يقوم بالعمل فيها أرقاء كسالى مهملون : ولكن هذه الضياع نفسها قضت عليها السلم الرومانية ونقص عدد حروب الفتح فى القرنين الأول والثانى ، وما نشأ عن ذلك من قلة الإنتاج ، وارتفاع النفقات ، وكثرة الأرقاء .

وأراد كبار الملاك أن يغروا العمال الأحرار بالعودة إلى الأعمال الزراعية ، فقسموا أملاكهم وحدات أجروها إلى « الزراع » (Coloni) ؛ يتقاضون منهم أجوراً نقدية منخفضة أو عشر المحصول ، وجزءا من الوقت يقضونه فى العمل من غير أجر فى بيت المالك الريفى أو فى أرضه الخاصة . وقد وجد الملاك فى كثير من الأحيان أن من مصلحتهم أن يعتقوا العبيد ويجعلوهم زراعاً من هذا النوع ، وأخذ هؤلاء الملاك فى القرن الثالث يزدادون رغبة فى سكنى بيوتهم الريفية يدفعهم إلى هذا أخطار الغزو الأجنبى والثورات الداخلية فى المدن ؛ وحصنوا بيوتهم فاستحالت قلاعاً منيعة أصبحت بالتدريج قصور العصور الوسطى(*) .

وقوى نقص الأرقاء إلى وقت ما مركز العمال الأحرار فى الصناعة وفى الزراعة على السواء . ولكن فقر الفقراء لم ينقص على حين أن موارد الأغنياء التهمتها الحروب ومطالب الحكومة[22] . وكانت الأجور وقتئذ تتراوح بين ٦ و ١١ فى المائة من نظائرها فى الولايات المتحدة الأمريكية فى أوائل القرن العشرين ، وكانت الأثمان نحو ثلاثين فى المائة من أثمان الولايات المتحدة فى ذلك الوقت[23] . وكانت حرب الطبقات آخذة فى الاشتداد لأن الجيش المجند من فقراء الأقاليم كثيراً ما كان ينضم إلى من يهاجمون أصحاب الثروة ، وكان يشعر بأن ما يؤديه للدولة من خدمات يبرر ما تفرضه عليهم ضرائب تبلغ حد مصادرة أموالهم لتعطى

(*) وأكبر الظن أن هذا النظام الزراعى الذى وصفناه فى المتن قد بدأ على نطاق أوسع من هذا النطاق حين أسكن أورليوس الأسرى الألمان فى ضياع الإمبراطورية (١٧٢) ، وجعل هذه الضياع ملكاً لهم يتوارثونه ، مشترطاً عليهم أن يؤدوا له ضريبة سنوية ، وخدمة عسكرية إذا طلب إليهم أداءها ، وأن يتعهدوا له بألا يغادروا هذه الأملاك من غير إذن الدولة . وفرضت هذه الشروط عينها على الجنود الرومان القدامى الذين أقطعوا أرضاً على الحدود وخاصة فى « الأراضى العشورية (agri decumates) — على ضفاف الدانوب والرين[21] . وانتشر هذا النظام انتشاراً واسعاً فى عهد سبتميوس سفيرس ، إذ قسم الأراضى التى استولى عليها أجزاء يزرعها مستأجرون يؤدون عنها ضرائب نقداً أو عيناً . وحذا سبتميوس حذو البطالمة ، وحذا الملاك الأفراد حذوه . فبدأ هذا النظام الزراعى بالملوك ، ونشأ عنه النظام الإقطاعى الذى قضى على الملكية .

منها هبات لهم ، أو أن تنهب أموال الأغنياء نهباً سافراً[٢٤] . وتأثرت الصناعة بكساد التجارة ونقصت تجارة الصادر الإيطالية حين انتقلت الولايات من عميلات لإيطاليا إلى منافسات لها ؛ وجعلت الغارات والقرصنة الطرق التجارية غير مأمونة كما كانت قبل عهد بمبي ؛ وكان انخفاض قيمة العملة وتقلب الأثمان من العوامل غير المشجعة للمشروعات الطويلة الأجل ، ولما أصبحت إيطاليا عاجزة عن توسيع حدود الإمبراطورية ، لم يعد فى مقدورها أن تزدهر بأن تمد بالسلع دولة آخذة فى الاتساع ، أو أن تستغل موارد هذه الدولة ؛ وكانت فيما مضى من الأيام تجمع سبائك الذهب والفضة من البلاد المفتوحة ، وتملأ خزائنها بما تنهبه من أموال هذه البلاد ؛ أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فإن النقود كانت تهاجر إلى الولايات الهلنستية الأكثر تصنيعاً من إيطاليا ، وأخذت هى تزداد على مر الأيام فقراً ، فى الوقت الذى كانت فيه ثروة آسية الصغرى المطردة الزيادة تحتم أن تستبدل برومة عاصمة شرقية للإمبراطورية . واقتصرت المصنوعات الإيطالية على الأسواق المحلية ، ووجدت الأهلين أفقر من أن يبتاعوا السلع التى كان فى وسعهم أن ينتجوها[٢٥] . يضاف إلى هذا أن التجارة الداخلية كان يقف فى سبيلها قطاع الطرق ، والضرائب المتزايدة ، وتلف الطرق لقلة العبيد . وأضحت بيوت الأثرياء فى الريف تنتج حاجتها من السلع وتكفى نفسها بنفسها ، وحلت المقايضة فى التجارة محل النقود ، كما حلت الحوانيت الصغيرة عاما بعد عام محل الإنتاج الكبير وكانت تسد حاجة الإنتاج المحلى بنوع خاص .

وزاد الطين بلة كثرة الصعاب المالية ، ذلك بأن المعادن الثمينة أخذت تقل شيئا فشيئا لأن مناجم الذهب فى تراقية ومناجم الفضة فى آسية تناقص إنتاجها ، وكانت داشيا وما فيها من الذهب توشك أن تخرج من يد أورليان . وكانت الفنون والحلى تستنفد كثيراً من الذهب والفضة . وواجه الأباطرة من سبتميوس سفيرس ومن جاءوا بعده هذا النقص الشديد فى الوقت الذى كانت فيه الحروب

لا تخبو نارها أبداً ، فلجئوا أكثر من مرة إلى إنقاص نسبة ما فى النقود من ذهب أو فضة لكى يستطيعوا القيام بنفقات الدولة أو حاجات الحرب . فقد كان ما فى الدينار من معدن خسيس أيام نيرون عشرة فى المائة ، وبلغ فى عهد كومدس ثلاثين ، وفى عهد سبتميوس خمسين ، واستبدل به كركلا الأنطونينيانس Antoninianus المحتوى على خمسين فى المائة من وزنه فضة ؛ وقبل أن يحل عام ٢٦٠ نقصت نسبة ما فيه من فضة إلى خمسة فى المائة(٢٦) .

وأصدرت دور السك الحكومية كميات لم يسبق لها مثيل من العملة الرخيصة ، وكثيراً ما كانت الدولة ترغم الناس على أن يقبلوا هذه النقود بقيمتها الاسمية ، بدل قيمتها الحقيقية ، وكانت فى الوقت نفسه تأمر بأن تؤدى الضرائب ذهباً أو عينا(٢٧) . وأخذت الأثمان ترتفع ارتفاعا سريعا ، فزادت فى فلسطين إلى ألف فى المائة من القرن الأول إلى القرن الثالث(٢٨) . وفى مصر لم يعد فى مقدور الحكومة وقف تيار التضخم ، حتى صار مكيال القمح الذى كان يباع بثمان درخمات فى القرن الأول يباع بمائة وعشرين ألف درخمة فى أواخر القرن الثالث(٢٩) . ولم تصل الحال فى الولايات الأخرى إلى مثل هذا الحد ، ولكن التضخم فى عدد كبير منها خرب بيوت الكثيرين من أهل الطبقة الوسطى وأضاع أموال المواثقات والمؤسسات الخيرية وزعزع قواعد جميع الأعمال المالية ، فأحجم الناس عنها ، وأضاع جزءاً كبيراً من رؤوس الأموال المستخدمة فى التجارة والاستثمار والتى كانت تعتمد عليها حياة الإمبراطورية .

ولم يكن الأباطرة الذين جاءوا بعد پرتناكس ليسوءهم انعدام طبقة الأشراف وطبقة الملاك الوسطى على هذا النحو . ذلك بأنهم كانوا يشعرون بحقد طبقة أعضاء مجلس الشيوخ وكبار التجار عليهم بسبب أصلهم الأجنبى ، واستبدادهم العسكرى ، واغتصابهم أموالهم . ولذلك تجددت الحرب بين مجلس الشيوخ والأباطرة وكانت قد خبت نارها من عهد نيرون إلى عهد أورليوس ، وأقام الأباطرة سلطانهم

قاصدين متعمدين على ولاء الجيش ، وصعاليك المدن ، والفلاحين يشترونه بالهبات والأعمال العامة وتوزيع الحبوب عليهم من غير ثمن .

وعانت الإمبراطورية من البلاء مثل ما عانته إيطاليا وإن نقص عنه بعض الشيء . نعم إن قرطاجنة وشمالى أفريقية المبعدين عن الغزاة ، قد ازدهرتا ؛ ولكن مصر اضمحلت بسبب ما حل بها من الخراب الناشئ من تنازع الأحزاب ، ومن مذابح كركلا ، ومن غزو زنوبيا ، ومن فدح الضرائب ، ومن السخرة والتراخى فى العمل ، وما كانت تبتزه رومة من الحبوب فى كل عام . وكانت آسية الصغرى وسوريا قد قاستا الأمرين من الغزو والنهب ، ولكن صناعاتهما القديمة التى تعودت الصبر على الشدائد لم تقض عليها هذه الاضطرابات . وكانت بلاد اليونان ، وتراقية ، ومقدونية ، قد خربها البرابرة ، ولم تكن بيزنطية قد أفاقت من حصار سپتميوس . ولما جاءت الحرب بالحاميات الرومانية وبالمؤن إلى حدود القبائل الألمانية ، قامت مدائن جديدة على شواطئ الأنهار — ويانة ، وكارلزبرج ، واستراسبرج ، ومينز : وكانت غالة قد اضطرب فيها النظام ، وفترت همة أهلها بسبب غزو الألمان لها ، ذلك بأنهم نهبوا ستين مدينة من مدنها ، وأخذت الكثرة الغالبة من المدن والبلدان الأخرى تنكمش داخل أسوارها الجديدة ، وتتخلى عن طراز الشوارع العريضة المستقيمة الرومانية التخطيط والطراز ، لتحل محلها الأزقة الضيقة غير المستقيمة التى يسهل الدفاع عنها والتى كانت من مميزات العهود القديمة والعصور الوسطى . وحتى فى بريطانيا نفسها ، كانت رقعة المدن آخذة فى النقصان وكانت بيوت الريف آخذة فى الاتساع [٣٠] ؛ ذلك بأن حروب الطبقات والضرائب الفادحة بددت الثروة أو اضطرتها إلى الاختفاء فى الريف . وقصارى القول أن الإمبراطورية بدأت بسكنى المدن وبالتحضر ، وها هى ذى تختم حياتها بالعودة إلى الريف وبالهمجية .

الفصل الرابع

الوثنية تحتضر

يمكن القول بوجه عام إن الضعف الثقافى سار فى إثر الضعف الاقتصادى والسياسى ، ولكن حدث فى هذه السنين البئيسة أن نشأ علم الجبر ذو الرموز ، وبرزت أعظم الأسماء فى فقه القانون الرومانى ، وأروع نماذج النقد الأدبى القديم ، وطائفة من أفخم المبانى الرومانية ، وأقدم قصص الحب ، وأعظم الفلاسفة الصوفيين .

ويلخص الديوان اليونانى سيرة ديوفانتس Diophantus الإسكندرى (٢٥٠) تلخيصاً جبرياً فكهاً فيقول إن حداثته دامت سدس حياته ، وإن لحيته نبتت بعد أن انقضى $\frac{1}{12}$ من عمره بعد سن الحداثة ، وإنه تزوج بعد أن مضى $\frac{1}{7}$ آخر من حياته ، وإنه رزق بولده بعد خمس سنين أخرى ، وإن هذا الولد عاش حتى بلغت سنة نصف سن أبيه ، وإن الوالد مات بعد أربع سنين من موت الولد — أى إنه مات فى سن الرابعة والثمانين ، وأشهر ما بقى من مؤلفاته حتى الآن هو كتابه « الأرثماطيقى Arithmatica » (الحساب) — وهو رسالة فى الجبر . وفيه حل لمعادلات الدرجة الأولى ، والمعادلات الرباعية التى تؤدى إلى معرفة المجهول ، والمعادلات التى لا يمكن منها وحدها معرفة المجهول حتى الدرجة السادسة . وقد استخدم حرف سجما sigma اليونانى للدلالة على الكمية المجهولة التى نرمز لها نحن بحرف س (وفى الإنجليزية بحرف x) ، وسمى هذه العلامة أرثمس Arithmos (أى العدد) ، واستعمل حروف الهجاء اليونانية للدلالة على الأسس وكان جبر من نوع ما معروفاً قبل أيامه : فقد اقترح أفلاطون لتدريب عقول الشبان وتسليتهم مسائل متنوعة كتوزيع تفاحة بنسب معينة على عدد

من الأشخاص[٣٢] ، وأذاع أرخيدز ألغازاً من هذا النوع فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وكان المصريون واليونان يحلون بعض المسائل الهندسية بالطرق الجبرية دون الالتجاء إلى رموز علم الجبر . وأكبر الظن أن ديوفانتس لم يفعل أكثر من تنظيم طرق كان يعرفها معاصروه[٣٣] ، وأن مصادفات الزمان هي التى أبقت على أعماله ؛ وفى استطاعتنا أن نُرجِع إليه عن طريق العرب تلك الطريقة الجريئة الغامضة التى تهدف إلى صياغة جميع النسب الكمية فى العالم كله فى قانون واحد .

وعلا نجم بابنيان ، وبولس ، وألبيان ، أعظم الأسماء الثلاثة فى القانون الرومانى فى عهـــد سبتميوس سفيرس ؛ وكانوا كلهم رؤساء الحرس البريتورى وكانوا بحكم منصبهم هذا رؤساء الوزارة فى الدولة ؛ وكانوا كلهم يبررون قيام الحكم المطلق بحجة أن الشعب قد عهد بحقوقه فى السيادة إلى الإمبراطور . ويمتاز كتابا بابنيان **الأسئلة** Questiones ، **والأجوبة** Responsa بوضوحهما ، وإنسانيتهما وعدالتهما إلى حد جعل جستنيان يعتمد عليهما فى كثير من مجموعاته القانونية . ولما قتل كركلا جيتا أمر بابنيان أن يكتب دفاعاً قانونياً عن عمله هذا ، فأبى بابنيان وقال إن « قتل الإخوة أسهل من تبرير هذا القتل » ، فأمر كركلا بقطع رأسه . ونفذ أحد الجنود الأمر فقطع رأسه ببلطة فى حضرة الإمبراطور . وواصل دومنيوس ألبيانس جهود بابنيان القضائية والإنسانية . وسخر جهوده القضائية للدفاع عن العبيد لأنهم فى رأيه أحرار بالفطرة ، وعن النساء لأن لهن مثل ما للرجال من الحقوق[٣٤] ، وكانت كتاباته فى جوهرها تنسيقاً لأعمال من سبقوه شأنها فى هذا شأن جميع الأعمال الهامة فى تاريخ القضاء ؛ ولكن أحكامه كانت باتة جازمة إلى حد أبقى على ما يقرب من ثلثها فى **ملخص** جستنيان . ويقول عنه لمبرديوس : « لم يبلغ الإمبراطور ألكسندر سفيرس ما بلغه من سمو المنزلة إلا لأنه كان يحكم أكثر ما يحكم وفقاً لنصائح ألبيان »[٣٥] . بيد أن ألبيان قد عمل على قتل بعض

معارضيه ؛ ومن أجل هذا فإن بعض أعدائه من رجال الحرس قتلوه عام ٢٢٨ انتقاماً منه . وكانت أسباب قتله أقل انطباقاً على القانون من قتل معارضيه ولكنه أدى إلى نفس النتيجة . وشجع دقلديانوس مدارس القانون وأمدها بالمال ، وألف لجاناً لتقنين ما سن بعد تراجان من شرائع ، وجمعها كلها في القانون الجريجرياني Codex Gregorianus . ثم أتت على فقه القانون سنة من النوم دامت إلى أيام جستنيان .

وسار فن التصوير في القرن الثالث على الأنماط التي كان يسير عليها في بمبي والإسكندرية ، والقليل الذي أبقى عليه الزمان منه فج ، كاد الدهر أن يبليه . أما النحت فكان مزدهراً لأن الكثيرين من الأباطرة كانوا يطلبون أن تنحت لهم تماثيل ، غير أنه جمد حتى أصبح المنظر الأمامي للشخص المصور بدائي الطراز ؛ ولكن هذا العصر لم يفقه أي عصر بعده فيما أخرجه من صور تدهش الناظر إليها بصدقها وواقعيتها . ومما يدل على فضل كركلا ، أو يدل على غباوته ، أنه أجاز لمثال أن يصوره في صورة شخص فظ ، أكرت الشعر متجهم الوجه ، وهي الصورة المحفوظة إلى الآن في متحف نابلي . ولدينا تمثالان ضخمان من تماثيل ذلك العصر هما الثور الفرنيزي وهرقول الفرنيزي ، وكلاهما مبالغ في حجمه ، متوترة عضلاته توتراً غير مستحب ، ولكنهما يشهدان بما كان في هذا العصر من إتقان فني لم ينقص قط عن إتقان العصور السابقة . ومما يدل على أن المثالين كانوا لا يزالون قادرين على أن يجروا على النمط القديم تلك النقوش البارزة الناطقة بالعفة والطهارة والتي نراها على ثالوث ألكسندر سفيرس وهي ثالوث لدوفيزي . غير أن النقش الذي على قوس سبتميوس سفيرس في رومة ليس فيه شيء مما يمتاز به الفن الأتكي من بساطة وظرف ، بل يتصف بالخشونة والقوة الواضحتين اللتين تكادان تنبئان بعودة البربرية إلى إيطاليا .

وسار فن العمارة بالنزعة الرومانية التي ترى السمو في ضخامة الحجم إلى أقصى

حد ، فأقام سپتميوس على تل البلاتين آخر ما أقيم عليه من القصور الإمبراطورية وضم إليها جناحا جهة الشرق يعلو فى الجو سبعة طباق — وهو المعروف بالسپتزنيوم Septizonium . وقدمت جوليا دمنا ما يلزم من المال لإنشاء إيوان ڤستا ، وإقامة هيكل فستا الصغير الذى لا يزال باقيا فى السوق العامة . وشاد كركلا لسرپيس زوج إيزيس ضريحاً ضخماً احتفظ الزمان بقطع جميلة منه إلى اليوم . ومن أعظم خرائب العالم روعة حمامات كركلا التى تم بناؤها فى عهد ألكسندر سفيرس . نعم إنها لم تضف شيئا جديداً إلى هندسة البناء ، لأنها تسير فى جوهرها على طراز حمامات تراجان ، ولكن البناء الضخم القائم يعبر أحسن تعبير عن صاحبها قاتل چيتا وپاپنيان . وكان بناؤها الرئيسى المكون من الآجر والأسمنت المسلح يشغل ٢٧٠٫٠٠٠ قدم مربعـــة — أى أكبر من مسطح مجلس البرلمان الإنجليزى وبهو وستمنستر مجتمعين . وكانت درج حلزونية تؤدى إلى أعلى الجدران . وهناك جلس شلى وكتب قصيدة بروميثيوس الطليق . وكان بداخل الحمامات عـــدد كبير من التماثيل ، ويحمل سقفها ٢٠٠ عمود منحوتة من الحجر الأعبل والمرمر ، والحجر السماقى ، وكانت أرض الحمامات وجدرانها المبنية من الرخام مطعمة بمناظر من الفسيفساء ، وكان الماء يصب من أفواه ضخمة من الفضة فى برك وأحواض تتسع لاستحمام ١٦٠٠ شخص فى وقت واحد . وأنشأ جلينس وديسيوس حمامات مماثلة لها ، وفى هـــذه الحمامات الأخيرة أقام المهندسون الرومان قبة مستديرة فوق بناء ضخم ذى عشرة أضلاع متساوية وسندوها بدعامات عند زوايا البناء ذى العشرة الأضلاع وهى وسيلة لم تكن تستعمل إلا قليلا قبل ذلك الوقت ولكنها أصبحت كثيرة الاستعمال فى المستقبل . وفى عام ٢٩٥ شرع مكسميان فى بناء الحمام الحار الذى كان أضخم الحمامات الإمبراطورية الحارة الأحد عشر ، وسماه حمامات دقلديانوس ، وهو تواضـــع منه لم يكن معروفا فى وقته . وقد أعد لأن يستحم فيه ٣٦٠٠ شخص فى وقت واحد . وكان به فوق

ذلك مدارس للتدريب الرياضي ، وأبهاء للحفلات الموسيقية ، وقاعات للمحاضرات . وأنشأ ميكل أنجلو من حجرة واحدة من هذا الحمام كنيسة سانتا ماريا دجلي أنجيلي Santa Maria degli Angeli وهي أكبر كنيسة في إيطاليا بعد كنيسة القديس بطرس . وأنشئت في الولايات مبان لا تفوقها في ضخامتها إلا العمائر السالفة الذكر ، وأقام دقلديانوس نفسه كثيراً من المباني في نيقوميديا ، والإسكندرية ، وأنطاكية . وزين مكسميان ميلان وزين جليريوس سرميوم وجمل قسطنطيوس ثريف Treves .

وكان الأدب أقل ازدهاراً من العمارة ، لأنه قلما كان في مقدوره أن يصل إلى الثروة التي تجمت في أيدي الأباطرة . ومع هذا فقد زاد عدد دور الكتب ووسعها ، وكان لطبيب من أطباء القرن الثالث مجموعة تبلغ ٦٢٫٠٠٠ مجلد ، واشتهرت مكتبة ألبيان بما فيها من المخطوطات التاريخية ، وبعث دقلديانوس بالعلماء إلى الإسكندرية لينسخوا ما فيها من المخطوطات الأدبية اليونانية والرومانية القديمة ، ويأتوا بنسخ منها إلى مكتبات رومة . وكان العلماء كثيري العدد محببين إلى الأهلين ، وقد أشاد فيلوستراتس بذكرهم في كتابه حياة السوفسطائيين ؛ وواصل پرفيري عمل أفلوطين ، وهاجم المسيحية ، وأهاب بالعالم أن يقتصر على أكل الخضر ؛ وحاول أيمبليكس Iamblicus أن يوفق بين الأفلاطونية ومبادئ الديانة الوثنية ، وأفلح في ذلك إلى حد استطاع معه أن يوحي بآرائه إلى الإمبراطور چوليان . وجمع ديچين لبرتيوس سير الفلاسفة وآراءهم في مقتطفات وقصص رائعة فاتنة ؛ وبعد أن التهم أثينيوس النقراطيسي Athenaeus of Naucratis كل ما في مكاتب الإسكندرية أفرغ كل ما جمعه في كتابه المعروف باسم سوفسطائي مائدة الغداء وهو حوار ممل في الأطعمة ، ومرق التوابل ، والعاهرات ، والفلاسفة ، والمفردات اللغوية ؛ يخفف من ملله ما نجده في بعض أجزائه من كشف عن عادة قديمة ، أو ذكرى عظيم ؛ وكتب لنجينس ، وهو كاتب من پلميريا في أغلب

الظن ، رسالة لطيفة فى « السمو » قال فيها إن اللذة الخاصة التى يبعثها الأدب فى الإنسان ، منشؤها أنها « تسمو » بالقارئ عن طريق الفصاحة التى يستمدها الكاتب من قوة اقتناعه ، وإخلاصه ووفائه لأخلاقه(*) . وشرع ديوكاسيوس ككيانس من أهل نيقية فى بيثينيا يكتب *تاريخ روما* (٢١٠ ؟) وهو فى سن الخامسة والخمسين بعد أن قضى حياته يتقلب فى مناصب الدولة . وأتم هذا الكتاب فى الرابعة والسبعين وقص فيه تاريخ المدينة من رميولوس إلى أيامه ، ولم يبق من هذا الكتاب إلا أقل من نصف أسفاره الثمانين ، ولكن هذه الأسفار الباقية تشمل ثمانين مجلداً ضخماً . ويمتاز هذا العمل باتساع نطاقه أكثر مما يمتاز بعلو صفاته ، وفيه قصص واضحة حية ، وخطب مبينة ، واستطرادات فلسفية ليست سخيفة المعنى رثة العبارة مستمسكة بالقديم ، ولكن النبوءات والنذر تفسد الكتاب كما تفسد كتاب ليفى ، وهو مثل كتاب تاستس وصف مطول لمعارضة مجلس الشيوخ ، وهو كجميع كتب التاريخ الرومانية يعنى أكثر ما يعنى بتقلبات السياسة والحرب كأن الحياة لم تكن فى ألف عام إلا ضرائب وموت .

وأهم من هؤلاء الرجال والكرام فى نظر مؤرخ العقل هو ظهور الرواية الغرامية فى هذا القرن . وقد سبقها إعداد طويل تدرج من الفيروبيديا لزنوفون ، إلى القصائد الغزلية لكلماكس ، إلى القصص الخرافية التى تجمعت حول الإسكندر : « والحكايات الميليثية » التى يرويها أرستيديز وغيره فى القرن الثانى قبل الميلاد وما تلا ذلك القرن من أجيال . وقد أعجب بهذه القصص

(*) تعزو أقدم المخطوطات هذا المقال مرة إلى « ديونيسيوس لنجينس » ومرة أخرى إلى « ديونيسيوس أو لنجينس » ، ولا تذكر شيئاً غير هذا يستدل به على شخصية كاتبه . ولسنا نعرف أديباً يدعى لنجينس فى التاريخ القديم إلا كاسيوس لنجينس كبير وزراء زنوبيا . وقد اشتهر فى جميع أنحاء الإمبراطورية بغزارة علمه حتى لقد سماه يونابيوس Unapius « مكتبة حية » . ووصفه پرفيرى « بأنه زعيم النقاد »(٣٦) .

التى تروى أخبار المغامرات والحب جمهرة الأيونيين اليونان بتقاليدهم ، الشرقيين بمزاجهم ، ولعلهم وقتئذ قد أصبحوا شرقيين بدمائهم . وتطورت الرواية المنمقة تطورات شتى على أيدى پترونيوس فى رومة وأپوليوس فى أفريقية ، ولوشيان فى بلاد اليونان ، وأيمبليكس فى سوريا ، ولم تكن فى بادئ الأمر تعنى بالحب عناية خاصة ، حتى إذا كان القرن الأول بعد الميلاد امتزجت رواية المغامرات برواية الحب ، ولعل هذا الامتزاج كان استجابة منهما لزيادة عدد القارئات من النساء .

وأقدم الأمثلة الباقية من هذه الروايات هى « الإثيوبيكا Aethiopica » أو القصص المصرية التى كتبها هليودورس الحمصى ، وقد ثار الجدل الكثير حول تاريخ هذه القصص ، ولكن فى وسعنا أن نعزوها إلى القرن الثالث ؛ وتبدأ بأسلوب خلع عليه قدم العهد ثوباً من الجلال :

« افتر ثغر النهار عن بسمات البهجة ، وأرسلت الشمس أشعتها فأنارت قلل التلال ، حين وقف جماعة من الرجال يبدو من أسلحتهم ومظهرهم أنهم قراصنة ، وأخذوا ينظرون إلى البحر بعد أن صعدوا إلى قمة أحد المنحدرات المطل على مصب النيل الهرقليوتى . ولكنهم لم يجدوا هناك شراع سفينة يبشرهم بالغنيمة فوجهوا أبصارهم نحو الشاطئ الممتد من تحتهم ؛ وكان هذا هو الذى رأوه[٣٧] .

ونلتقى على حين غفلة بثياجينس Theagenès الشاب الغنى الوسيم وبالأميرة كركليا Chsriclea الجميلة الباكية . وكان القراصنة قد قبضوا عليهما ، وحلت بهما كثير من ضروب الشدائد المختلفة ، من سوء التفاهم ، والوقائع الحربية ، والقتـــل واللقاء ، تكفى لأن تكون مادة لجميع القصص التى تصدر فى فصل من فصول السنة فى هذه الأيام . وتختلف هذه القصة عن قصص پترونيوس وأپوليوس فى أن عفة العذارى فى رواية هليودورس مسألة غير ذات خطر كبير ، يمر عليها القارئ بسرعة ، بينا هى عند پترونيوس وأپوليوس جوهر القصة ومحورها الذى تدور عليه

خترى هليودورس يحافظ على عفة كركليز وينجيها من عشرات الأخطار ، ويدبج عدداً من العظات القوية المقنعة فى جمال الفضيلة النسوية ووجوب المحافظة عليها . ولعلنا نجد هنا شيئاً من تأثير المسيحية ؛ بل إن الرواية المتواترة تجعل مؤلف القصة أسقف تسالونيكى المسيحى فيما بعد . ولقد كانت الإثيوبيا ، على غير علم أو قصد من مؤلفها ، منشأ عدد لا يحصى من الروايات التى نسجت على منوالها ؛ فلقد كانت هى أنموذج قصة سرفنتيز Cervantes المسماة Pesilesy Sigismunda وقصة كورندا فى رواية إنقاذ أورشليم لتاسو ، وقصص السيدة ده اسكوديرى Mme de Scudéry فى هذه الرواية نجد جريمة الحب ، ودلائله ، والتوجع والإغماء والخاتمة السعيدة التى نجدها [illegible] ات الآلاف من القصص الممتعة ، وهنا نجد رواية كلارساهارلو Clarissa Harlow قبل كاتبها رتشردسن Richardson بألف وخمسمائة عام .

وأشهر قصص الحب جميعها فى النثر القديم قصة دفنيس وكلوئى Daphnis and Chloë . ولسنا نعرف عن مؤلفها إلا اسمــه لنجس Longus ، كما أننا نظن مجرد ظن أنها ألفت فى القرن الثالث بعد الميلاد . وتقول إن دفنيس عرض لتقلبات الجو القاسية وقت مولده ، وإن راعياً أنقذه وعنى بتربيته وإنه أصبح هو الآخر راعياً . وفى القصة فقرات رائعة فى وصف الريف توحى بأن لنجس كشف ما فيه من جمال بعد طول مقامه فى المدينة ، كما كشفه الشاعر ثيوكريتس الذى نسج هو على سواله . ويحب دفنيس فتاة حسناء أنقذت هى الأخرى بعد أن عرضت للجو القاسى فى طفولتها . ويرعى الفتى والفتاة قطعانهما وتتوثق بينها عرى الصداقة والألفة ، ويستحمان معاً وهما عريانين فى طهر وبراءة ، ويقبل كلاهما الآخر أول قبلة يسكران منها . ويشرح لها جارسنج نشوة حبهما ، ويصف لهما ما لاقاه فى أيام شبابه من آلام العشق فيقول « لم أكن أفكر فى طعامى ،

ولم أكن أذوق طعم الراحة ، وهجر الكرى عيني ، وأمضني الحزن ، وأسرعت ضربات قلبي ، وأحست أطرافي ببرودة الموتى[٣٨] . ويعرفهما أبواهما ، وكانا وقتئذ من أغنياء الناس ، ويهبانهما الكثير من المال ، ولكنهما لا يعبآن بالثراء ، ويعودان إلى حياة الرعي المتواضعة . والقصة مكتوبة ببساطة الفن الجميل المصقول وقد ترجمها أميو Amyot إلى اللغة الفرنسية بلسلسة المطواعة (١٥٥٩) فكانت هذه الترجمة هي المثال الذي احتذاه سان بيير في بول وفرجينيا كما أوحت بما لا يحصى من الرسوم والقصائد والقطع الموسيقية .

وشبيه بها قصيدة من الشعر تعرف باسم أسبيز فينوس . ولا يعرف أحد اسم منشئها أو متى أنشأها ، وأغلب الظن أنها من شعر ذلك القرن نفسه[٣٩] . وموضوعها هو موضوع خطب لكريشيوس التي تمتاز بما فيها من التفات ، ورواية لنجس الغرامية — وخلاصتها أن ربة الحب تلهب قلوب جميع الأحياء بالرغبة الجامحة ، وأنها لهذا السبب هي خالقة العالم الحقة !

غداً سيحب من لم يطف به طائف الحب ،
غداً سيحب من ذاق قبل طعم الحب ،
لقد أقبل الربيع النضر ، وأخذ يغني غناء الحب ،
وولدت الدنيا من جديد ، وها هو ذا حب الربيع ،
يدفع كل طير إلى قرينه ، وها هي ذي الغابات المترقبة
تنشر غدائرها لتستقبل شآبيب الربيع ،
غداً سيحب من لم يطف به طائفة الحب ،
وسيحب من ذاق قبل طعم الحب .

وعلى هذا النحو يسترسل الكاتب في شعره العذب الصافي ، ويجد الحب في المطر المخصب ، وفي أشكال الزهر ، وفي أهازيج الأعياد البهجة ، وفي التجارب .

الصعبة التى يعانيها الشباب المشتاق . وفى مواعيد اللقاء الوجلة ، وسط الغابات ؛ وبعد كل مقطوعة يتردد الوعد القوى الجامع : « غداً سيحب من لم يطف به طائف الحب ، وسيحب من ذاق قبل طعم الحب » . وإنا لنجد هنا فى آخر القصائد الغنائية الكبرى التى تغنت بها الروح الوثنية الوزن الشعرى لترانيم العصور التى تستبق أنغام شعراء الفروسية الغزليين بعدة قرون .

الفصل الخامس

المملكية الشرقيـة

لما مات كلوديوس الثانى فى أثناء انتشار وباء كان يفتك بالقوط والرومان على السواء (٢٧٠) اختار الجيش خليفة له ابن فلاح إلبراى : وكان دومتيوس أورليانس Domitius Aurelianus قد ارتفع من أوطأ الطبقات بقوة الجسم والإرادة ، وقد لقبوه من قبيل السخرية « يد على سيف » . وكان مما يشهد بعودة العقل إلى الجيش أنه اختار رجلا يطلب عند غيره من النظام ما يطلبه عند نفسه .

وبفضل قيادته صد أعداء رومة عن حدودها فى كل مكان عدا نهر الدانوب ، فهناك نزل أورليان عن داشيا للقوط لعلهم بذلك يقفون حاجزاً بين الإمبراطورية وبين غيرهم من البرابرة . ولعل هذا الاستسلام قد شجع الألمان والوندال على غزو إيطاليا ، ولكن أورليان انتصر عليهم فى ثلاث معارك وشتت شملهم . وكان يفكر فى القيام بحملات حربية على أجزاء قاصية ، ويخشى أن يهاجم الأعداء رومة فى أثناء غيابه ، فأقنع مجلس الشيوخ بأن يوافق على صرف المال اللازم لبناء أسوار جديدة حول العاصمة ، كما أقنع النقابات الطائفية بأن تقوم بهذا العمل . وأخذت المدن فى جميع أنحاء الأمبراطورية تشيد الأسوار حولها ، وكان قيامها بهذا العمل شاهداً على ضعف قوة الرومان وخاتمة السلم الرومانية .

ورأى أورليان أن الهجوم أفضل من الدفاع ، ولذلك اعتزم أن يعيد مجد الإمبراطورية بالهجوم على زنوبيا فى الشرق ، ثم على تتريكس Tetri cus الذى اغتصب السيادة على غالة بعد پستيوس . واسترد پروبس Probus قائد أورليان مصر من ابن زنوبيا فى الوقت الذى كان هو نفسه يخترق بجيوشه بلاد البلقان ،

ويعبر الهلسبنت ، ويهزم جيش هذه الملكة فى حمص ويحاصر عاصمتها .
وحاولت الملكة أن تفر ، وتستنجد بالفرس ولكنها أسرت ، واستسلمت
المدينة ونجت من التدمير ، ولكن لنجينس قتل (٢٧٢) . وبينا كان
الإمبراطور عائداً على رأس جيشه إلى الهلسبنت ، ثارت تدمر وقتلت الحامية
التى تركها فيها . فعاد إليها مسرعاً كسرعة قيصر ، وحاصر المدينة مرة أخرى
واستولى عليها بعد قليل من الوقت ، وأباحها لجنوده يسلبون وينهبون
ويعيثون فيها فساداً ، ودك أسوارها ، وقضى مرة أخرى على تجارتها ،
وتركها تعود قرية صحراوية ، وهكذا ظلت من ذلك الحين إلى الوقت
الحاضر . وسارت زنوبيا مكبلة بالأغلال تزين موكب أورليان وهو داخل
منتصر إلى رومة ، وسمح لها بأن تقضى البقية الباقية من عمرها حرة إلى حدما
فى تيبور Tibur(*) .

وفى عام ٢٧٤ هزم أوليان تتريكس عند شالون Châlons وعاد بعدئذ
إلى غالة . واغتبطت رومة بعودة سيادتها إليها فرحبت بالقائد الظافر
ولقبته « مرجع العالم » restitūtor orbis . ثم وجه عنايته إلى واجبات
السلم ، فأعاد إلى الإمبراطورية شيئاً من النظام الاقتصادى بإصلاح النقد
الرومانى ، وأعاد تنظيم الأداة الحكومية بأن طبق عليها نفس النظام
الصارم الذى رد به الحياة إلى الجيش . وكان يعزو بعض ما تعانيه
رومة من الفوضى الأخلاقية والسياسية إلى تعدد الأديان والمذاهب فيها ،
ويسعى لأن يوحد الأديان القديمة والجديدة ويوجهها إلى عبادة إله واحد
هو إله الشمس ، والإمبراطور نائبه فى الأرض . ولما أظهر الجيش ومجلس
الشيوخ تشككهما ، أبلغهما أن الله ، لا اختيارهما ولا تأييدهما ، هو
الذى جعله إمبراطوراً . وأنشأ فى رومة هيكلا للشمس رائع الجمال ، كان يرجو
أن يمتزج فيه بعل حمص وإله المثراسية . وكانت الملكية المطلقة والتوحيد تسيران

(*) انظر الرسالتين المتبادلتين بين زنوبيا وأورليان فى الجزء الأول من كتابنا « أشهر
الرسائل العالمية » . (المترجم)

وقتئذ جنباً إلى جنب ، وكانت كلتاهما تسعى لأن تستعين بالأخرى ، وكانت سياسة أورليان الدينية توحي بأن قوة الدولة آخذة فى الاضمحلال ، وأن قوة الدين آخذة فى الارتفاع ، وقد أصبح الملوك وقتئذ ملوكاً بنعمة الله . وكانت هذه هى فكرة الشرقيين عن الحكومة ، وهى فكرة وجدت فى مصر ، وبلاد الفرس ، وسوريا ؛ فلما قبلها أورليان عجل التيار الذى كان يحول الملكية إلى حكومة شرقية ، وهو التيار الذى بدأ من عهد أجابالس وانتهى عند دقلديانوس وقسطنطين .

وبينما كان أورليان يقود جيشاً مخترقاً به تراقية ليحسم الأمر بينه وبين فارس إذ اغتاله فى عام ٢٧٥ جماعة من ضباطه لأنهم خـــدعوا فظنوا أنه ينوى إعدامهم . وارتاع الجيش لكثرة ما ارتكبه هو نفسه من الجرائم فطلب إلى مجلس الشيوخ أن يختار من يخلف الإمبراطور القتيل ؛ ولم يكن أحد يرغب فى هذا الشرف الذى ينذر بالقتل على الدوام ؛ وانتهى الأمر بأن رضى به تاستس لأنه كان وقتئذ فى الخامسة والسبعين من عمره . وكان تاستس هذا يدعى أنه من نسل المؤرخ المسمى بهذا الاسم ، وكانت تتمثل فيه جميع الفضائل التى كان ينادى بها ذلك الكاتب الموجز المتشائم ؛ لكنه قضى نحبه من فرط الإعياء بعد ستة أشهر من جلوسه على العرش . وندم الجند على ندمهم ، فعادوا إلى الاستئثار بالسلطة ونادوا بپروبس Probus إمبراطوراً (٢٧٦) .

وكان ذلك اختياراً موفقاً ، كما كان پروبس خليقاً باسمه(*) لأنه كان يمتاز بالشجاعة والاستقامة . فقد طرد الألمان من غالة ، وطهر إليركم Illyricum من الوندال ، وشاد سوراً بين الرين والدانوب ، وأرهب الفرس بكلمة منه ، واستمتعت الإمبراطورية كلها فى أيامه بالسلم ؛ وسرعان ما عاهد شعبه على ألا تكون فى البلاد أسلحة ، ولا جيوش ، ولا حروب ، وعلى أن يعم الأرض كلها حكم القانون .

(*) يشير الكاتب إلى أن معنى الكلمة اللاتينية Probus هو طيب أو صالح . (المترجم)

وبدأ هذه الطوبى بأن أرغم جنوده على أن يصلحوا الأراضى البور ، ويجففوا المستنقعات ويغرسوا الكروم ، ويقوموا بضروب أخرى من الأعمال العامة . واستاء الجيش من هذا التسامى الذى لم يكن له به عهد ، فاغتاله (٢٨٢) ، وحزن عليه ، وأقام نصباً تذكاريا له :

ونادى برجل يدعى ديو قليز Diocles ابن معتوق دلماشى إمبراطوراً على الدولة . وكان ديو قليشيان أودقلديانوس — وهو الاسم الذى اختاره بعد ذلك لنفسه — قد ارتقى بمواهبه الفذة ومبادئه الأخلاقية المرنة حتى عين قنصلا ، وحاكما فى بعض الولايات ، وقائداً لحرس القصر . وكان رجلا أكثر دراية بشئون الحكم منه بالحرب . وقد جلس على العرش بعد عهد من الفوضى أشد من الفوضى التى عمت البلاد من أيام ابنى جراكس إلى أيام أنطونيوس ، ولكنه هدأ كل الأحزاب الثائرة المتنافرة ، وصد الأعداء عن جميع الحدود ، وبسط سلطان الحكومة وقواه ، وأقام حكمه على تأييد للدين ورضاء رجاله : وكان ثالث ثلاثة تدين لهم الإمبراطورية بالشىء الكثير — أغسطس وأورليان ، ودقلديانوس : فأما أغسطس فقد أنشأها ، وأما أورليان فقد أنقذها ، وأما دقلديانوس فقد نظمها تنظيما جديدا .

وكان أول قراراته الحاسمة قراراً كشف عن المستور من أحوال الدولة وعن أفول نجم رومة ، فقد هجر المدينة ولم يتخذها عاصمة لملكه ، واتخذ مقامه فى نيقوميديا وهى مدينة فى آسية الصغرى تبعد عن بيزنطية بقليل من الأميال جهة الجنوب ، وظل مجلس الشيوخ يعقـد جلساته فى رومة كما كان يعقدها قبل ، وظل القناصل يقومون بمراسمهم المألوفة ، وظلت الألعاب الصاخبة تدور كسابق عهدها والشوارع تموج بمن فيها من الناس على اختلاف أجناسهم ؛ ولكن السلطة والقيادة قد انتقلتا من هـذه المدينة التى أضحت مركز الانحلال الاقتصادى والأخلاقى . وكان الذى دفع دقلديانوس إلى هذا العمل هو الضرورة الحربية . ذلك أنه كان لا بد

من الدفاع عن أوربا وآسية ، ولم يكن الدفاع عنهما مستطاعا من مدينة فى جنوب جبال الألب وتبعد عن تلك الجبال هذا البعد الشاسع ؛ ولهذا أشرك معه فى الحكم قائداً محنكا يدعى مكسميان (٢٨٦) ، وعهد إليه الدفاع عن الغرب ، ولم يتخذ مكسميان رومة عاصمة له بل اتخذ بدلا منها مدينة ميلان . وبعد ست سنين من ذلك العام اتخذ كلا الأوغسطين Augusti « قيصراً » ليساعده فى أعباء الحكم وليكون خليفة له من بعده . فاختار ديوقليشان جلريوس Galerius واتخذ هذا عاصمته مدينة سرميوم Sirmium وهى متروفيكا Mitrovica على نهر الساف Save ، وعهد إليه حكم ولايات الدانوب ؛ وعين مكسميان قنسطنطيوس كلورس Constantius Chlorus (الأصغر) خلفاً له . واتخذ هذا حاضرته مدينة أوغسطا ترڤرورم Augusta Trevirorum (تريف Trèves) . وتعهد كل أغسطس أن يعتزل الملك بعد عشرين عاما ليخلفه قيصره ؛ وكان من حق هذا القيصر أن يعين هو الآخر « قيصراً » يعاونه ويخلفه . وزوج كل أغسطس ابنته « بقيصره » فأضاف بذلك رابطة الدم إلى رابطة القانون . وكان دقلديانوس يرجو بذلك أن يسد الطريق على حروب الوراثه ، وأن يعيد إلى الحكومة استقرارها ودوامها وسلطانها ، وأن تكون الإمبراطورية متأهبة لملاقاة الأخطار فى أربع نقاط هامة ، سواء أكانت هذه الأخطار ناشئة من الثورات الداخلية ، أم من الغزو الخارجى . لقد كان تنظيما باهراً ، جمع كل الفضائل إذا استثنينا فضيلتى الوحدة والحرية . فقد انقسمت الملكية ، ولكنها كانت ملكية مطلقة ، وكان كل قانون يصدره كل حاكم من الحكام الأربعة يصدر باسمهم جميعاً ، ويطبق فى أنحاء الدولة ، وكان قرار الحكام يصبح قانوناً ساعة صدوره ، من غير حاجة إلى تصديق مجلس الشيوخ فى رومة ؛ وكان الحكام هم الذين يعينون جميع موظفى الدولة ، ومدت أداة بيروقراطية ضخمة فروعها فى جميع أنحاء الدولة . وأراد دقلديانوس أن يزيد

من قوة هذا النظام فحول عبادة عبقرية الإمبراطور إلى عبادة شخصه بوصفه تجسيداً لجوبتر ، وتواضع لكسمليان فرضى أن يكون هو هرقول ؛ وهكذا هبطت الحكمة والقوة من السماء لتعيدا النظام والسلم إلى الأرض ، واتخذ دقلديانوس لنفسه تاجا – عصابة عريضة مرصعة باللآلى – وأثواباً من الحرير والذهب ، وأحذية مرصعة بالحجارة الكريمة ، وابتعد عن أعين الناس فى قصره ، وحتم على زائريه أن يمروا بين صفين من خصيان التشريفات والحجاب وأمناء القصر ذوى الألقاب والرتب ، وأن يركعوا ويقبلوا أطراف ثيابه . لقد كان فى الحق رجلا يعرف العالم حق المعرفة . وما من شك فى أنه كان يضحك فى السر من هذه الخرافات والأشكال ولكن عرشه كان يعوزه ما يخلعه الزمان عليه من شرعية ، وكان يأمل أن يدعمه وأن يقمع اضطراب العامة وعصيان الجيش بأن يخلع على نفسه مظاهر الألوهية والرهبة . وفى ذلك يقول أورليوس فكتور : « واتخذ لنفسه لقب السيد Dominus ، ولكنه كان يسير فى الناس سيرة الأب »[٤٠] وكان معنى إقامة هذا الطراز الشرقى من الحكم الاستبدادى على يد ابن عبد رقيق ، وهذا الجمع بين الإله والملك فى شخص واحد ، كان معنى هذا عجز الأنظمة الجمهورية فى العهود القديمة ، والتخلى عن ثمار معركة مرثون ، والعودة إلى مظاهر بلاط الملوك الإكيمنيين ، والمصريين ، والبطالمة ، والپارثيين ، والملوك الساسانيين ، وإلى النظريات التى كان يقوم عليها حكم هؤلاء الملوك كما عاد الإسكندر إليها من قبل . ومن هذه الملكية الشرقية الصبغة جاء نظام الملكيات البيزنطية والأوربية ، وهو النظام الذى ظل قائماً إلى أيام الثورة الفرنسية . ولم يبق بعد هذا إلا أن يتحالف الملك الشرقى عاصمة شرقية مع دين شرقى . ولقد بدأت الخواص البيزنطية فى الظهور أيام دقلديانوس .

الفصل السادس

اشتراكية دقلديانوس

وسار دقلديانوس فى عمله بنشاط لا يقل عن نشاط قيصر ، فأخذ يعيد تنظيم كل فرع من فروع الإدارة الحكومية . وبدل أحوال الأشراف بأن رفع إلى طبقتهم كثيرين من الموظفين المدنيين أو العسكريين ، وبأن جعلها طبقة وراثية ذات مراتب مختلفة على النظام الشرقى ، وألقاب كثيرة ، ومراسم معقدة متعددة . وقسم هو وزملاؤه الإمبراطورية إلى ست وتسعين ولاية تتألف منها اثنتان وسبعون أبرشية ، وأربع مقاطعات ، وعُيِّن لكل قسم حاكم مدنى وآخر عسكرى وأصبحت الدولة بذلك ذات حكومة مركزية صريحة ، ترى أن الاستقلال الذاتى المحلى ، وأن الدمقراطية نفسها ، ترف لا يصلح إلا لأوقات الأمن والسلم ، وتبرر سلطانها المطلق بحاجات الحرب القائمة أو المتوقعة . ودارت رحى الحرب فى تلك الأيام فعلا وأحرزت الدولة فيها انتصارات باهرة ؛ فاستعاد قنسطنطيوس بريطانيا التى ثارت عليه ، وأوقع جليريوس بالفرس هزيمة منكرة حاسمة أسلموا بعدها أرض النهرين و خمس ولايات وراء نهر دجلة ، وصد أعداء رومة عن حدودها جيلا من الزمان .

وواجه دقلديانوس وأعوانه فى زمن السلم المشاكل الناشئة من الانحلال الاقتصادى ، فأحل محل قانون العرض والطلب نظاماً اقتصادياً تسيطر عليه الدولة ليتغلب بذلك على الكساد ويمنع نشوب الثورات[٤١] . ووضع نظاماً نقدياً سليما بأن عين للعملة الذهبية وزناً وعياراً محددين ، احتفظت بهما الإمبراطورية الشرقية حتى عام ١٤٥٣ ، ووزع الطعام على الفقراء بنصف ثمنه فى السوق

أو بغير ثمن على الإطلاق ، وشرع يقيم كثيراً من المنشآت العامة ليوجد بذلك عملا للمتعطلين[٤٢] ، ووضع عدداً كبيراً من فروع الصناعة والتجارة تحت سيطرة الدولة ليضمن بذلك حاجات المدن والجيش ؛ وبدأ هذه السيطرة الكاملة باستيراد الحبوب فأقنع أصحاب السفن والتجار والبحارة المشتغلين بهذه التجارة أن يقبلوا إشراف الدولة عليها نظير ضمان الحكومة لعدم تعطلهم ولأرباحهم[٤٣] . وكانت الدولة من زمن قديم تمتلك معظم مقالع الحجارة ، ورواسب الملح ، والمناجم ، ولكنها خطت فى ذلك الوقت خطوة أخرى فحرمت تصدير الملح ، والحديد ، والذهب ، والخمر ، والحبوب ، والزيت ، من إيطاليا ، وفرضت نظاماً دقيقاً صارماً على استيراد هذه المواد[٤٤] . ثم انتقلت بعد ذلك إلى السيطرة على المؤسسات الصناعية التى تنتج حاجيات الجيش ، وموظفى الدولة وبلاط الأباطرة . وحتمت على مصانع الذخيرة ، والنسيج ، والمخابز ألا يقل إنتاجها عن قدر معين ، واشترت هذا القدر بالأثمان التى حددتها هى له ، وألقت على جمعيات الصناع تبعات تنفيذ أوامرها ومواصفات منتجاتها ، فإذا تبينت أن هذه الخطة لم تؤد إلى الغرض المقصود منها أممت هذه المصانع ، وجهزتها بعمال فرضت عليهم أن يعملوا فيها[٤٥] . وبهذا وضعت الكثرة الغالبة من المؤسسات الصناعية والنقابات الطائفية فى إيطاليا شيئاً فشيئاً تحت سيطرة الدولة المتحدة فى عهد أورليان ودقلديانوس . وخضع القصابون ، والخبازون ، والبناءون ، وصناع الزجاج ، والحديد والحفارون خضع هؤلاء جميعاً لنظم مفصلة وضعتها لهم الحكومة[٤٦] . ويقول رستوفتزف Rostovtzeff إن الهيئات الصناعية المختلفة كانت أشبه بمراقبات صغرى على مؤسساتها تقوم بهذا العمل نيابة عن الدولة ، كانت أشبه بهذه المراقبات منها بمالكة المؤسسات . وكانت خاضعة لسلطان موظفى المصالح الحكومية المختلفة ، ولقواد الوحدات العسكرية المتباينة »[٤٧] .

وحصلت جمعيات التجار والصناع من الحكومة على مزايا كثيرة متنوعة ،

وكثيراً ما كانت تؤثر تأثيراً كبيراً فى خططها ؛ وكانت فى نظير هذه المزايا وهذا التأثير تعمل كأنها أعضاء فى الإدارة القومية ، فكانت تساعد الحكومة على تجنيد الأيدى العاملة ، وجباية الضرائب للدولة من أعضائها(٤٨) . وامتدت وسائل من الإشراف الحكومى شبيهة بهذه الوسائل فى القرن الثالث وأوائل القرن الرابع إلى مصانع الأسلحة القائمة فى الولايات ، وإلى صناعة الأطعمة والملابس . وفى ذلك يقول بول – لوى Paul Louis :

« وكان فى كل ولاية رقيب خاص يشرف على نواحى النشاط الصناعى ، وأضحت الدولة فى كل مدينة كبيرة صاحب عمل وذات قوة كبيرة . . . تسيطر على جميع المصانع الخاصة التى كانت ترزح تحت أعباء الضرائب الفادحة »(٤٩) .

ولم يكن مستطاعا أن يسير هذا النظام إلا إذا سيطرت الدولة على أثمان السلع ، ولهذا أصدر دقلديانوس وزملاؤه فى عام ٣٠١ **قانون الأثمان** الذى حددت به أقل الأثمان والأجور التى يجيزها القانون لجميع السلع أو الخدمات الهامة فى جميع أنحاء الإمبراطورية . وهاجم القرار فى مقدمته الاحتكارات التى منعت البضائع من السوق فى الوقت الذى « قلت فيه السلع » لكى ترتفع أثمانها .

« ومنذا الذى . . . خلا قلبه من العاطفة الإنسانية فلا يرى أن ارتفاع الأسعار ظاهرة عامة فى أسواق مدننا ، وأن شهوة الكسب لا يحد منها وفرة السلع ولا أعوام الرخاء ؟ – ولهذا . . . يرى أشرار الناس أنهم يخسرون إذا ما توافرت الحاجات . . . إن من الناس من يجعلون همهم الوقوف فى وجه الرخاء العام . . . والجرى وراء الأرباح الباهظة القاتلة . . . . لقد عم الشره جميع العالم . . . . فحيثما اضطرت جيوشنا للذهاب لتأمين الناس بوجه عام ، رفع الجشعون الأثمان ، ولم يكتفوا بالحصول على سبعة أضعاف الثمن المعتاد أو ثمانية أضعافه ، بل زادوه إلى الحد الذى تعجز الألفاظ عن وصفه ، حتى لقد يضطر

الجندى إلى دفع مرتبه كله وإعانة الحرب فى شراء سلعة واحدة ، وبذلك يذهب كل ما يقدمه العالم كله لإمداد الجيش بحاجته فى جيوب أولئك اللصوص الجشعين(*)[٥٠] .

ولقد ظل هذا المرسوم حتى وقتنا الحاضر أعظم محاولة فى التاريخ كله لاستبدال القرارات الحكومية بالقوانين الاقتصادية . ولكن التجربة أخفقت إخفاقا عاجلا كاملا ، فقد أخفى التجار ما عندهم من السلع وشحت البضائع أكثر من ذى قبل ، واتهم دقلديانوس نفسه بالتغاضى عن ارتفاع الأسعار[٥٢] ؛ وحدثت عدة اضطرابات ؛ واضطرت الحكومة إلى التراخى فى تطبيق المرسوم لإعادة الإنتاج والتوزيع إلى حالتهما الطبيعية[٥٣] . وانتهى الأمر بإلغائه على يد قسطنطين .

وكانت علة ضعف هذا النظام الاقتصادى الخاضع للسيطرة الحكومية

(*) وتكشف أقصى الأثمان التى حددها ذلك المرسوم لبعض السلع عن مستوى الأسعار والأجور فى عام ٣٠١ م فالقمح ، والعدس والبسلة كان ثمن (البشل (Bushel) منها يعادل ٥ ر ٣ ريال أمريكى ، وكان الشعير ، والشيلم ، والفول بـ ١٠ ر ٢ ريال للبشل : والنبيذ بـ ٢١ — ٢٦ من مائة من الريال للپينت pint ؛ وزيت الزيتون بـ ٥ ر ٤١ من مائه من الريال للپينت ، ولحم الخنزير بـ ٥ و ١٠ من مائة من الريال للرطل الإنجليزى ، ولحم العجول أو الضأن بـ ٧ من مائه من الريال للرطل الإنجليزى ، والدجاج الصغير كل اثنتين بـ ٥ ر ٥٢ والزبابات (dormouse) كل عشر بـ ر ٣٥ ؛ وأحسن أنواع الكرنب والخس كل خمس منها بـ ٥ ر ٣ والبصل الأخضر كل ٢٥ بـ ٥ ر٣ ؛ وأحسن البزاناب (snails) كل عشرين بـ ٥ ر ٣ ؛ والتفاح أو الخوخ الكبير كل عشر بـ ٥ و ٣ ؛ والتين كل ٢٥ بـ ٥ ر٣ ؛ والشعر كل رطل إنجليزى بـ ٥ ر٣ ، والأحذية يتراوح ثمن الزوج منها بين ٦٢ من مائة و٣٨ ر١ ريال ، وكانت أجور عمال الزراعة بين ٢،٣ ، ٤٦ من مائة من الريال ، يضاف إليها الطعام ؛ وكان البناءون ، والنجارون ، والحدادون ، والخبازون ، يتقاضون ٤٦ من مائة من الريال مضافا إليها ثمن الطعام ؛ والحلاقون ٧٥ ر ١ ريال عن كل شخص ، والكتبه ٢٣ر عن كل ١٠٠ سطر ، ومدرسو المدارس الأولية ٤٦ ر عن كل تلميذ فى كل شهر ؛ ومدرسو الآداب اليونانيه أو اللاتينية أو الهندية ٨٤ ر ١ عن كل تلميذ فى الشهر ، والمحامون ٣٦ ر ٧ ريالات عن كل قضية ٥١

هي ما تطلبه تنفيذه من نفقات . فقد بلغت البيروقراطيه التي تطلبها تنفيذه من الاتساع درجة وصفها لكتنيوس بأنها احتاجت إلى نصف السكان ، ولا شك فى أنه بالغ فى هذا التقدير مبالغة كان الباعث عليها ميوله السياسية[٥٤]. ووجد الموظفون آخر الأمر أن عملهم هذا مما تنوء به العدالة الإنسانية ، وكانت رقابتهم متباعدة يستطيع الناس أن يفلتوا منها بما أوتوا من مكر ودهاء . وارتفعت الضرائب ارتفاعاً لم يكن له مثيل من قبل ، وفرضت على كل شيء لأداء أجور الموظفين ، ونفقات البلاط ، والجيش ، وبرنامج المنشآت العامة ، وإعالة العجزة والمتعطلين . ولم تكن الدولة قد كشفت بعد طريقة الاستدانة لتخفى بها إسرافها وتؤجل يوم حسابها ؛ فقد كانت أعمال كل عام ينفق عليها من إيراد العام نفسه . وأراد دقلديانوس أن يحتاط لما عساه أن يحدث من أداء الضرائب بعملة مخفضة ، فأمر بأن تؤدى الضرائب عيناً كلما كان ذلك مستطاعا ، وحتم على دافعى الضرائب أن يؤدوا ما عليهم إلى مخازن حكومية ، ووضع نظاما شاقا لنقل هذه الضرائب العينية من هذه المخازن إلى مقرها الأخير[٥٥] . وجعل موظفى البلديات فى كل بلدية مسئولين من الوجهة المالية عن كل تقصير فى تحصيل الضرائب المفروضة على إقليمهم[٥٦] .

وإذا كان من طبيعية كل ممول أن يحاول الهروب من أداء ما عليه من الضرائب ، فقد أنشأت الدولة قوة خاصة من الشرطة للفحص عن أملاك كل شخص ودخله ، واستخدمت وسائل التعذيب مع الزوجات ، والأطفال ، والعبيد لإرغامهم على الكشف عن ثروة بيوتهم أو مكاسبها ، وفرضت عقوبات صارمة على من يحاولون الهرب من أداء ما عليهم[٥٧] . ومع هذا كله فقد كاد الفرار من الضرائب أن يصبح وباء متفشياً فى الإمبراطورية كلها فى القرن الثالث ، وأضحى أكثر تفشياً فى القرن الرابع ؛ فكان الأغنياء يخفون ثروتهم ، وبدّل الأشراف طبقتهم ووضعوا أنفسهم فى عداد الطبقة الدنيا حتى لا يختاروا للوظائف

البلدية ؛ وهجر الصناع حرفهم ، وترك الزراع أرضهم المثقلة بالضرائب ليصبحوا أجراء عند غيرهم ، وأقفرت كثير من القرى وبعض البلدان الكبيرة (مثل طبرية في فلسطين) من أهلها لفدح الضرائب المفروضة عليها[٥٨] ؛ فلما كان القرن الرابع اجتاز عدد كبير من الأهلين حدود الإمبراطورية ولجأوا إلى البرابرة فراراً من الضرائب الفادحة .

وأكبر الظن أن الذي حمل دقلديانوس على الالتجاء إلى تلك الأعمال ، التي أوجدت في واقع الأمر نظام الاسترقاق الإقطاعي في الحقول ، والمصانع ، والنقابات الطائفية ، هو حرصه على منع هذه الهجرة التي تكلف الدولة كثيراً من النفقة ، وعلى ضمان ورود الطعام بانتظام للجيش والمدن ، والضرائب لبيت المال . وبعد أن جعلت الحكومة مالك الأرض بما فرضته عليه من الضرائب النوعية مسئولا عن حسن استغلال مزارعيه لأرضه ، قررت أن يبقى الزارع في أرضه حتى يؤدي جميع المتأخر عليه من الديون أو العشور . ولسنا نعرف متى صدر هذا القرار التاريخي ، ولكنا نعرف أن قسطنطين سن في عام ٣٣٢ قانوناً يفترض وجود هذا القرار ويؤكده ؛ ويجعل المستأجر « يرتبط كتابة » بالأرض التي يزرعها ، لا يستطيع تركها إلا برضاء مالكها ، فإذا بيعت الأرض بيع هو وأسرته معها[٦٠] . وليس فيما وصل إلينا من المعلومات ما يدل على أن الزارع قد احتج على هذه القيود ؛ ولعل هذا القانون قد قدم إليه ضماناً لأمنه وسلامته ، كما هو حادث في ألمانيا في هذه الأيام . وبهذه الطريقة وأمثالها انتقلت الزراعة في القرن الثالث من الاسترقاق إلى الحرية ثم إلى الاسترقاق الإقطاعي ، وبهـذا النظام استقبلت العصور الوسطى .

واتبعت في الصناعة وسائل من هذا النوع ليضمن بذلك استقرارها . فحرم على العمال تغيير عملهم ، أو الانتقال من مصنع إلى مصنع إلا بموافقة الحكومة ؛ وقصرت كل نقابة طائفية على حرفتها والعمل المقرر لها ، وحرم على أي إنسان أن

يغادر النقابة التى سجل اسمه فيها[٦١] ، وألزم كل من يعمل فى الصناعة أو التجارة بأن ينضم إلى نقابة من هذه النقابات الطائفية ، وحتم على الابن أن يشتغل بحرفة أبيه[٦٢] ؛ فإذا رغب إنسان فى أن يستبدل بمكانه أو حرفته مكاناً آخر أو حرفة أخرى، ذكرته الدولة بأن إيطاليا يحاصرها البرابرة ، وأن على كل رجل أن يبقى حيث هو .

ولما استهل عام ٣٠٥ نزل دقلديانوس ومكسيميليان عن سلطتهما باحتفالين مهيبين أقيما فى نيقوميديا وميلان ، وأصبح جالريوس ، وقنسطنطيوس أغسطسين إمبراطورين أولهما للشرق وثانيهما للغرب . ولم يكن دقلديانوس قد تجاوز وقتئذ الخامسة والخمسين من عمره ، ولكنه اختفى فى قصره الواسع القائم فى أسبالاتا Spalata ، وقضى فيه الثمانية الأعوام الباقية من حياته . وشهد بعد انهيار حكومته الرباعية فى غمار الحرب الأهلية . ولما أن ألح عليه مكسميان أن يستولى على أزمة الحكم مرة أخرى ، ويقضى على الشقاق والحرب ، قال إنه لو رأى مكسميان الكرنب الجيد الذى يزرعه فى حديقته لما طلب إليه أن يضحى بهذه المتعة جرياً وراء متاعب السلطان[٦٣] .

والحق أنه كان قميناً بكرنبه وراحته ، فقد قضى على الفوضى التى دامت خمسين عاماً ، وأقر من جديد سلطان الحكومة والقانون ، وأعاد الاستقرار إلى الصناعة ، ورد الأمن إلى التجارة ؛ وأذل فارس ، وخضد شوكة البرابرة ؛ وكان بوجه عام مشترعاً أميناً مخلصا ، وحاكما عادلا إذا ضربنا صفحا عن بعض الاغتيالات القليلة التى جرت على يديه .

ولسنا ننكر أنه أقام بيروقراطية باهظة الأكلاف ، وقضى على الاستقلال الذاتى للولايات ، وعاقب معارضيه أشد عقاب ، واضطهد الكنيسة التى كان فى وسعه أن يتخذها حليفة له فيما بذل من الجهود لإصلاح أحوال الدولة ، وجعل سكان الإمبراطورية مجتمعا من الطبقات ، فى أحد طرفيه زراع جهلاء وفى طرفه

الآخر ملك مستبد مطلق السلطان . ولكن الظروف التي واجهتها رومة لم تكن تسمح بانتهاج سياسة تقوم على مبادئ الحرية ؛ وقد جرب ماركس أورليوس وألكسندر سفيرس هذه السياسة وأخفقا فيها ، ورأت الدولة الرومانية نفسها محوطة بالأعداء من كل جانب ، ففعلت ما لا بد أن تفعله الأمم جميعها في أوقات الحروب التي يتقرر فيها مصيرها ، وقبلت طغيان زعيم قوي ، ورضيت أن يفرض عليها ما لا تكاد تطيقه من الضرائب ، وتخلت عن الحرية الفردية إلى أن تنال الحرية الجماعية . ولقد قام دقلديانوس بالأعمال التي قام بها أغسطس ، وإن كانت قد كلفت أولهما أكثر مما كلفت الآخر ، ولكنه والحق يقال قام بها في ظروف أقسى من ظروفه ؛ وقد أدرك معاصروه ومن جاءوا بعده الأخطار التي نجوا منها بفضل جهوده فلقبوه « أبا العصر الذهبي » . وسكن قسطنطين البيت الذي شاده له دقلديانوس .

الباب الثلاثون

انتصار المسيحية

٣٠٦ – ٣٢٥ م

الفصل الأول

النزاع بين الكنيسة والدولة

٦٤ – ٣١١ م

كانت الحكومة الرومانية فيما قبل أيام المسيحية تُظهر فى أغلب الأحيان للأديان المعارضة للدين الوثنى المقرر تسامحاً تظهر هذه الأديان مثله للشعائر الرسمية وللإمبراطورية ؛ فلم تكن تطلب من أتباع العقائد الجديدة إلا حركة يأتونها من حين إلى حين يمجدون بها الآلهة ورئيس الدولة . ولهذا آلم الأباطرة أن يجدوا أن المسيحيين واليهود ، دون سائر أتباع الأديان الخارجة على دين الدولة ، هم الذين يأبون أن يعظموا عبقريانهم . ذلك إن إحراق البخور أمام تمثال الإمبراطور كان قد أصبح دليل الولاء للإمبراطورية وتوكيداً لهذا الولاء ، فهو من هذه الناحية أشبه ما يكون بيمين الولاء التى تطلب إلى من ينالون حق المواطنية فى هذه الأيام . لكن الكنيسة كانت ترفض من ناحيتها الفكرة الرومانية القائلة بأن الدين خاضع للدولة ، وترى فى عبادة الإمبراطور نوعاً من الشرك وعبادة الأصنام ، ولذلك أمرت أتباعها أن يرفضوا هذه الشعائر مهما ينلهم من الأذى بسبب هذا الرفض . واستدلت الحكومة الرومانية من هذا على أن المسيحية

حركة متطرفة — بل لعلها حركة شيوعية — تعمل فى السر على قلب النظام القائم .

وقد استطاعت القوتان قبل عهد نيرون أن تعيشا معاً من غير أن يشتجر بينهما النزاع ، وكان القانون يعفى اليهود من أن يعبدوا الإمبراطور ؛ ونال المسيحيون فى أول أمرهم هذه الميزة لأنه لم يكن يستطاع التفريق بينهم وبين اليهود . ولكن مقتل بطرس وبولس ، وحرق المسيحيين ليزيد حرقهم ألعاب نيرون بهاء ، بدلا هذا التسامح المتبادل المشوب بالاحتقار من الجانبين عداء دائماً ، وحربا تندلع نارها بين الفينة والفينة . فلا غرابة أن وجه المسيحيون بعد هذا الإيذاء ، أسلحتهم كلها إلى صدر رومة — فنددوا بما فيها من فساد وعبادة للأصنام ، وسخروا بآلهتها ، وأظهروا الشماتة فيها حين حلت بها الكوارث[1] ، وتنبئوا بسقوطها بعد زمن قليل ، وأعلنوا ، فى حماسة الدين الذى أخرجه عن تسامحه عدم تسامح الدولة معه ، أن كل من أتيحت لهم الفرصة لاعتناق المسيحية ثم لم يعتنقوها سيعذبون عذاباً أبديا ؛ وقال الكثيرون منهم إن هذا سيكون أيضا مصير كل الخلائق الذين وجدوا قبل المسيحية ثم لم يعتنقوها لأى سبب من الأسباب ، وإن كان بعضهم قد استثنى سقراط وحده من هذا العذاب . ورد الوثنيون على هذا بأن سموا المسيحين « حثالة الناس » و « البرابرة الوقحين » ، واتهموهم بأنهم « أعداء الجنس البشرى » ، وقالوا إن الكوارث التى حلت بالإمبراطورية ليست إلا نتيجة غضب الآلهة الوثنية والسماح لمن يسبونها من المسيحيين بأن يبقوا أحياء[2] ؛ وأخذ كل فريق يفترى على الآخر آلاف الافتراءات ، فاتهم المسيحيون بأنهم سحرة متصلون بالشياطين ، وأنهم يقترفون الخطايا سراً ، ويشربون دماء الآدميين فى عيد الفصح[3] ، ويعبدون الحمار .

لكن النزاع كانت له أصول أعمق من هذا الخصام . ذلك أن الدولة كانت أساس الحضارة الوثنية فى حين أن الدين كان هو أساس الحضارة المسيحية . فالرومانى كان ينظر إلى دينه على أنه جزء من كيان الحكومة

وشعائرها ، وكانت الوطنية هي الذروة التي تنتهي عندها مبادئه الأخلاقية العليا . أما المسيحي فكان ينظر إلى دينه على أنه شيء منفصل عن المجتمع السياسي ، وأنه أسمى من هذا المجتمع مقاما ، وكان يدين بأعظم الولاء المسيح لا لقيصر . وقد وضع ترتليان المبدأ الثوري القائل بأن الإنسان غير ملزم بأن يطيع قانونا يعتقد أنه ظالم[٤] ، وكان المسيحي يعظم أسقفه ، بل يعظم قسيسه ، أكثر من تعظيمه الحاكم الروماني ، ويعرض ما يقع بينه وبين زملائه المسيحيين من مشاكل قانونية على رؤساء الكنيسة لا على موظفي الدولة[٥] . وكان اعتزال المسيحي للشئون الدنيوية يبدو للوثني كأنه هروب من الواجبات المدنية وضعف للروح القومي والإرادة القومية . وأشار ترتليان على المسيحيين بأن يرفضوا الخدمة العسكرية ، وعمل عدد كبير منهم بنصيحته كما يدل على ذلك نداء سلسس لهم بأن يضعوا حداً لهذا الرفض ، ورد أرجن عليه بأن المسيحيين سيدعون للإمبراطورية وإن أبوا أن يحاربوا من أجلها[٦] . وكان زعماء المسيحيين يحضونهم على أن يتجنبوا غير المسيحيين ، وأن يبتعدوا عن الألعاب الهمجية التي يقيمونها في أعيادهم ، وألا يغشوا دور تمثيلهم لأنها مباءة للفجور[٧] . وحرم على المسيحي أن يتزوج بغير مسيحية ، وعلى المسيحية أن تتزوج بغير مسيحي ، واتهم الوثنيون العبيد المسيحيين بأنهم يبذرون بذور الشقاق في الأسر بتحريضهم أبناء أسيادهم وزوجاتهم على اعتناق الدين المسيحي ، واتهم الدين المسيحي بأنه يعمل لتشتيت شمل الأسر وخراب البيوت[٨] .

على أن معارضة الدين الجديد قد جاءت من قبل الشعب أكثر مما جاءت من قبل الدولة . ذلك أن الحكام كانوا في كثير من الأحيان رجالا مثقفين متسامحين ولكن جمهور السكان الوثنيين قد ساءهم عزلة المسيحيين ، وتعاليهم ، وثقتهم بأنفسهم ؛ وأهابوا بحكامهم أن يعاقبوا أولئك الملحدين الذين يهينون الآلهة . ويشير ترتليان إلى « الكراهية العامة التي يحسون بها نحونا »[٩] .

ويلوح أن القانون الرومانى منذ أيام نيرون كان يعد الجهر بالمسيحية جريمة يعاقب عليها بالإعدام[١٠] ، ولكن معظم الأباطرة كانوا يتغاضون عن تنفيذ هذا القانون متعمدين[١١] ، فكان فى وسع المسيحى إذا اتهم بمخالفته أن ينجو عادة من العقاب بحرق البخور أمام تمثال الإمبراطور ؛ ويبدو أنه كان يسمح له بعد ذلك أن يمارس شعائر دينه غير مضيق عليه[١٢] . أما المسيحيون الذين يرفضون تقديم هذا الولاء للإمبراطور فكانوا يسجنون ، أو يجلدون ، أو ينفون ، أو يحكم عليهم بالعمل فى المناجم ، أو بالإعدام فى حالات نادرة . ويبدو أن دومتيان نفى بعض المسيحيين من رومة ولكنه « وهو الرجل الرحيم إلى حد ما ، لم يلبث أن وقف ما بدأه »[١٣] . ونفذ پلنى هذا القانون مدفوعاً إلى ذلك بفضول الرجل الهاوى الذى يبغى إظهار سلطانه على الناس (١١١) ، إذا جاز أن نحكم عليه من رسالته التى بعث بها إلى تراجان :

« إن الطريقة التى اتبعتها مع من اتهموا أمامى بأنهم مسيحيون هى هذه : لقد سألتهم هل هم مسيحيون ؟ فإذا اعترفوا بأنهم كذلك أعدت السؤال عليهم مرة أخرى ، وأنذرتهم فى الوقت نفسه بأنهم سيقتلون إذا أصروا على قولهم ؛ فإذا أصروا عليها أمرت بقتلهم . . . . إن الناس بعد أن هجروا المعابد ، فلا يكادون يطرقونها ، قد أخذوا الآن يعودون إليها . . . . وكثر الطلب على الضحايا من الحيوانات بعد أن قل الإقبال على شرائها »[*] .

وقد رد عليه تراجان بقوله :

« إن الخطة التى سرت عليها يا عزيزى پلنى فى بحث حالات من اتهموا أمامك بأنهم مسيحيون خطة حكيمة . . . . يجب ألا تجد فى البحث عن

(*) انظر نص هذه الرسالة كاملا ، ورد تراجان عليها فى كتابنا « أشهر الرسائل العالمية » الجزء الأول (المترجم) .

هؤلاء الناس ولكن إذا ما بلغت أمرهم وتثبت من جرمهم فعاقبهم ، فإذا أنكر الواحد منهم أنه مسيحي وأيد ذلك . . . بالابتهال إلى آلهتنا فاعف عنه . . . . فإذا بلغت عن أحدهم ولم يذكر فى البلاغ اسم المتَّهِم فلا تتخذه بينة على أحد »[١٤] .

وتوحي الفقرة التى أثبتناها هنا بخط الرقعة بأن تراجان لم ينفذ القانون القائم من قبل أيامه إلا مكرها ؛ ولكننا مع ذلك نسمع عن شهيدين بارزين فى أيام زعامته : أحدهما سمعان رئيس كنيسة أورشليم ، وثانيهما أغناثيوس أسـقف أنطاكية ، وأكبر الظن أنه قد استشهد غيرهما ممن هم أقل منهما شهرة .

وأمر هدريان ، المتشكك الذى يتسع عقله لقبول كل الآراء ، موظفيه بأن يفسروا كل شك فى مصلحة المسيحيين[١٥] ؛ أما أنطونينس ، الذى كان أكثر منه استمساكا بدينه ، فقد أباح اضطهادهم أكثر من هدريان . وحدث فى أزمير أن طالب الغوغاء فليب حاكم ولاية آسـية ألا يتهاون فى تنفيذ القانون ، فأجابهم إلى ما طلبوا وأمر بإعدام أحد عشر من المسيحيين فى المجتلد (١٥٥) ، ولكن هذا لم يطفئ من تعطش الغوغاء للدماء بل زادهم ظمأ إليه ، فأخذوا يطالبون بإعدام الأسقف بوليكارب وهو أب ورع فى السادسة والثمانين من العمر قيل إنه فى أيام صباه كان يعرف القديس يوحنا . وقد وجد الجنود الرومان هذا الشيخ فى بيت فى ضاحية من ضواحي المدينة ، فجاءوا به إلى الوالى وهو يشهد الألعاب دون أن يبدى الرجل أية مقاومة . وألح عليه فليب أن « أقسم اليمين ، وسب المسيح ، وسأصفح عنك » . ويقول أقدم سفر من **أعمال الشهداء** إن بوليكارب أجابه بقوله : « لقد ظللت خادما له ستا وثمانين سنة ؟ لم يسيء فيها إلىّ قط ، فكيف إذن أسب مليكي الذى أنجانى ؟ » ونادى الغوغاء بأنه ينبغى أن يحرق حيا . وتقول الوثيقة التى فاض بها قلب مفعم بالتقوى والإيمان إن النار

كانت برداً وسلاماً عليه ، « بل كان فيها كالخبز الذى يخبز ، وقد فاحت منه رائحة ذكية كالتى تنبعث من البخور أو غيره من الأفاوية الغالية » وأمر الطغاة آخر الأمر سيافاً أن يجهز عليه بسيفه ؛ فلما فعل خرجت منه يمامة ، وخرج دم بلغ من غزارته أن انطفأت منه النار وأثار ذلك دهشة الجماهير كلها »[١٦] .

وتجدد الاضطهاد فى عهد أورليوس الورع . ذلك أنه لما حلت بالبلاد الكوارث من فيضان ، ووباء ، وحرب ، فى حكمه الذى كان فى أول أمره حكماً موفقاً سعيداً ، ساد الاعتقاد بأن سبب هذه الكوارث هو إهمال آلهة الرومان أو إنكارها . وشارك أورليوس الجماهير فى ذعرها ، أو لعله خضع لها ، فأصدر فى عام ١٧٧ مرسوماً يقضى بعقاب الشيع الدينية التى تنشر الاضطراب « باستثارة أصحاب العقول غير المتزنة » بتلقينها عقائد جديدة . وثارت الجماهير الوثنية فى تلك السنة نفسها ثورة عنيفة على المسيحيين فى ڤينا وليون ورجموهم بالحجارة كلما تجرءوا على الخروج من بيوتهم . وأمر المرسوم الإمبراطورى بالقبض على زعماء المسيحيين فى ليون ، ومات الأسقف پوثينس ، وهو شيخ فى سن التسعين ، فى السجن من آثار التعذيب . وأرسل رسول إلى رومـــة ليسأل الإمبراطور عما يشير به فى معاملة سائر المسجونين ، فأشار ماركس بأن يطلق سراح من ينكر الدين المسيحى ، وأن يقتل من يعتنقه كما يقضى بذلك القانون ؛

وكان أهل ليون يحتفلون وقتئذ بعيد الأوغسطاليا كعادتهم فى كل عام ، وأقبلت الوفود من جميع بلاد الغالة حتى ازدحمت بهم عاصمة الولاية . وبينا كانت الألعاب قائمة على قدم وساق جىء بالمسيحيين المتهمين إلى المدرج ووجهت إليهم الأسئلة ، فأما من أنكروا فقد أخرجوا من المدرج ، وأصر سبعة وأربعون على الاستمساك بدينهم « فقتلوا بعد أن ذاقوا من ألوان العذاب ما لا مثيل له إلا فى أيام محاكم التفتيش . من ذلك أن أتلس الذى يلى پوثينس فى المراتب الكهنوتية قد أرغم على الجلوس على كرسى من الحديد المحمى الذى شوى جسمه وأزهق

روحه[١٧] . وظلت بلنديناBlandina وهى أمة صغيرة السن ، تعذب يوما كاملا ، ثم ربطت فى زكيبة ، وألقيت فى المجتلد ليفتك بها ثور وحشى . وتحملت الفتاة عذابها وهى صامتة ، ولذلك اعتقد كثيرون من المسيحيين أن المسيح كان يفقد شهداءه قوة الإحساس بالألم ، ولعل النشوة الدينية والخوف هما علة عدم الإحساس . وفى ذلك يقول ترتليان : « إن المسيحى كان يلهج بالشكر حتى حين يحكم عليه بالإعدام »[١٨](*) .

وخفت حدة الاضطهاد فى عهد كمودس ، ثم عاد إلى ما كان عليه فى عهد سبتميوس سفيرس ، وبلغ من شدته أن كان التعميد نفسه يعد جريمة تستحق العقاب . وفى عام ٢٠٣ استشهد كثيرون من المسيحيين فى قرطاجنة ومن هؤلاء أم فى مقتبل العمر تدعى بربتوا Berpetua تركت وراءها وصفاً يفتت الأكباد لأيامها التى قضتها فى السجن ، ورجاء أبيها لها أن تنكر الدين المسيحى . وقد ألقيت هى وأم شابة أخرى إلى أحد الأثوار الوحشية وافترسهما الثور . ولدينا فى أحد أسئلتها الأخيرة « حين ألقى بها إلى الثيران » دليل على ما يحدثه الخوف والغيبوبة من تخدير . وتصف لنا قصتها كيف وجهت بنفسها إلى عنقها خنجر المجالد الذى أمر على الرغم منه أن يقتلها[١٩] ، ولم تكن الإمبراطورات السوريات اللائى جلسن على العرش بعد سبتميوس يعنين كثيراً بالآلهة الرومانية . ولقيت المسيحية فى أيامهن شيئاً من التسامح الناشئ من عدم اهتمامهن بأمرها . ويبدو أن السلم قد سادت جميع الأديان المتنافسة فى أيام ألكسندر سفيرس .

وانتهت الهدنة بتجدد هجمات البرابرة . وإذا شئنا أن نفهم الاضطهاد فى عهد

(*) ومعلوماتنا عن الاضطهاد الذى حدث فى ليون مستمدة من رسالة بعث بها « خدام المسيح فى بلد لوم وفينا من أعمال غالة إلى إخوانهم فى آسية وفريجيا » وقد بقيت هذه الرسالة فى كتاب تاريخ الكنيسة ليوسبيوس » : ١ . ولعل بعض المغالاة قد سرت إلى هذا التقرير .

ديسيوس (أو أورليوس) على حقيقته وجب علينا أن نصور لأنفسنا أمة منهمكة فى حرب عوان ، تزعجها الهزائم المنكرة ، وتتوقع أن يغزو بلادها الأعداء . وتجتاح الإمبراطورية موجة من النشوة الدينية القوية فى عام ٢٤٩ ؛ ويهرع الرجال والنساء إلى الهياكل يحيطون بالآلهة ويضرعون إليها بالصلوات والدعوات ؛ وفى وسط هذه الحمى التى تتأجج فيها نيران الوطنية والخوف ، يقف المسيحيون عن بعد وقفة المشاهدين الذين لا يعنيهم الأمر ، ويظلون كسابق عهدهم يستنكرون الخدمة العسكرية ويقاومونها[٢٠] ، ويسخرون من الآلهة ، ويفسرون انهيار الإمبراطورية بأنه هو البشرى التى وردت فى النبوءات عن تدمير « بابل » وعودة المسيح . وأراد ديسيوس أن يتخذ من حال الشعب النفسية فرصة يستعين بها على تقوية روح الحماسة الوطنية والوحدة القومية فأصدر مرسوما يطلب فيه إلى جميع سكان الإمبراطورية أن يتقدموا إلى آلهة رومة بعمل يتقربون به إليها ويردون به غضبها . ويلوح أن المسيحيين لم يطلب إليهم أن ينكروا دينهم ، بل أمروا أن يشتركوا فى التوسل إلى الآلهة التى طالما أنجت رومة من الخطر المحدق بها كما يعتقد العامة . واستجابت كثرة المسيحيين إلى هذا الأمر ؛ ففى الإسكندرية « كانت الردة عامة » على حد قول الأسقف ديونيشيوس[٢١] ؛ وحدث ذلك بعينه فى قرطاجنة وأزمير ؛ وأكبر الظن أن المسيحيين من أهل تلك المدن وأمثالها كانوا يرون أن هذا التوسل لا يعدو أن يكون نوعاً من الوطنية ؛ ولكن أسقفى أورشليم وأنطاكية قضيا نحبهما فى غيابة السجن ، وأعدم أسقفا رومة وطولوز (٢٥٠) ، وألقى مئات من المسيحيين الرومان فى غيابة الجب ، وقطعت رءوس بعضهم ، ومات الكثيرون منهم على قوائم الإحراق ، وألقى عدد قليل منهم إلى الوحوش فى حفلات الأعياد . وخفت حدة الاضطهاد بعد عام من ذلك الوقت ، ولم يحل عيد الفصح فى عام ٢٥١ حتى انتهى أمرها أوكاد ؛ وبعد ست سنين من ذلك الوقت أمر ڤليريان ، فى خلال أزمة أخرى من أزمات الغزو والرعب ،

أن « يمثل كل شخص للشعائر الرومانية » ، وحرم كل الاجتماعات المسيحية . وعصى البابا سكتس Sixtus هذا الأمر فأعدم هو وأربعة من شمامسته ، وكذلك قطع رأس سبريان أسقف قرطاجنة ، وحرق أسقف طراقونة حيا . وفى عام ٢٦١ نشر جالينوس ، الذى جلس على العرش بعد أن أزال عنه الفرس ڤلبريان ، أول مرسوم يقضى بالتسامح الدينى اعترف فيه بأن المسيحية من الأديان المسموح بها وأمر بأن يرد إلى المسيحيين ما صودر من أملاكهم . وحدثت اضطهادات خفيفة فى السنين الأربعين التالية ، ولكن هذه السنين كانت فى معظمها سنى هدوء ونماء سريع للمسيحية لم تر لها مثيلا من قبل . فقد كان الناس فى خلال الفوضى والرعب السائدين فى القرن الثالث يفرون من الدولة الواهية المزعزعة الأركان إلى الذين يجدون فيهم سلواهم ، وقد وجدوا هذه السلوى فى المسيحية أكثر مما كانوا يجدونها فى غيرها من الأديان المنافسة لها . واعتنق المسيحية وقتئذ عدد من الأغنياء ، فشادت كنائس فخمة ، وأجازت لأبنائها أن يستمتعوا بطيبات العالم . وخبت نار الأحقاد الدينية بين الأهلين ، وأصبح المسيحيون أكثر حرية فى الاختلاط بالوثنيين ، بل إنهم تزوجوا منهم ، وبدا أن ملكية دقلديانوس الشرقية قد قدر لها أن تعزز الأمن والسلام فى الدين وفى السياسة على السواء .

بيد أن جلبريوس كان يرى أن المسيحية هى آخر العقبات القائمة فى سبيل السلطة المطلقة ، فأخذ يحرض رئيسه على أن يجمل العودة إلى العهود الرومانية السابقة عودة كاملة ، وذلك بإرجاع الآلهة الرومانية إلى منزلتها القديمة . وتردد دقلديانوس فى الأخذ بهذه المشورة ، لأنه كان عازفاً عن ركوب أخطار لا موجب لها ، ولأنه كان أكثر من جلبريوس تقديراً لثقل هذا العبء . ولكن حدث فى يوم من أيام القربان الإمبراطورية أن رسم المسيحيون علامة الصليب ليتقوا شر الشياطين الخبيثة ، ولما أن عجز العرافون عن أن يجدوا فى أكباد الحيوانات المذبوحة العلامات التى كانوا يرجون تفسيرها ألقوا الذنب على وجود أشخاص

كفار نجسين ، فأمر دقلديانوس أن يقرب جميع الحاضرين القرابين إلى الآلهة أو يجلدوا ، وأن يمتثل جميع جنود الجيش هذا الأمر أو يفصلوا من الخدمة (٣٠٢) . ومن أغرب الأشياء أن الكتاب المسيحيين يتفقون هنا مع الكهنة الوثنيين فيقول لكتنتيوس Lactantántius[٢٢] إن صلوات المسيحيين أبعدت الآلهة الرومانية ، وكتب الأسقف ديونيشيوس بهذا المعنى ذاته قبل ذلك بجيل . ولم يترك جليريوس فرصة إلا انتهزها للقول بأن الوحدة الدينية ضرورية لتدعيم الملكية الجديدة ، وما زال يلح على دقلديانوس حتى خضع له فى آخر الأمر . وأمر الحكامُ الأربعة فى عام ٣٠٣ أن تهدم كل الكنائس المسيحية ، وأن تحرق الكتب المسيحية ، وتحل المجتمعات المسيحية وتصادر أملاكها ، ويحرم المسيحيون من جميع المناصب العامة ، ويعاقب بالإعدام من يضبط منهم فى أى اجتماع دينى . وبدأت كتيبة من الجند هذا الاضطهاد بإحراق كنيسة نقوميديا وتدميرها عن آخرها .

وكان المسيحيون وقتئذ من الكثرة بحيث يستطيعون رد العدوان بمثله ، فقامت حركة ثورية فى سوريا ، وأضرم بعضهم النار مرتين فى قصر دقلديانوس بنقوميديا . واتهم جليريوس المسيحيين بجريمة الحرق عمداً ، واتهموه هم بنفس التهمة ، وقبض على مئات من المسيحيين وعذبوا ، ولكن الجريمة لم تثبت على أحد . وأصدر دقلديانوس فى شهر سبتمبر أمراً بأن يطلق سراح المسجونين من المسيحيين الذين يعبدون الآلهة الرومانية ، أما من يرفض ذلك منهم فلتسلط عليه جميع أنواع العذاب التى تعرفها رومة . فلما قاوم المسيحيون هذه الأوامر بازدراء استشاط غضباً من هذه المقاومة ، وأمر جميع كبار الحكام فى الولايات بأن يبحثوا عن كل مسيحى ، وأن يستخدموا معه كل وسيلة مستطاعة لإرغامه على استرضاء الآلهة . ولعله قد سره أن يترك هذه المقامرة التعسة إلى من يخلفه فاعتزل الملك .

ونفذ مكسميان هذا المرسوم فى إيطاليا تنفيذاً عسكريا كاملا صارما . وشجع جليريوس بعد أن صار أغسطس الاضطهاد فى الشرق بجميع وسائل التشجيع ، فزاد عدد الشهداء فى كل جزء من أجزاء الإمبراطورية عدا غالة وبريطانيا ، حيث اكتفى قنسطنطيوس بإحراق عدد قليل من الكنائس . ويؤكد لنا يوسبيوس ، ولعله يفعل ذلك فى سورة الغضب ، أن الناس كانو يجلدون حتى تنفصل لحومهم عن عظامهم ، أو أن لحمهم كان يقشر عن عظامهم بالأصداف ، وكان الملح أو الخل يصب فى جروحهم ، ويقطع لحمهم قطعة قطعة ويرمى للحيوانات الواقفة فى انتظارها ، أو يشدون إلى الصلبان فتنهش لحومهم الوحوش الجياع جزءاً جزءاً . ودقت عصى حادة الأطراف فى أصابع بعض الضحايا تحت أظافرهم ، وسملت أعين بعضهم ، وعلق بعضهم من يده أو قدمه وصب الرصاص المصهور فى حلوق البعض الآخر ، وقطعت رؤوس بعضهم أو صلبوا ، أو ضربوا بالعصى الغليظة حتى فارقوا الحياة ، ومزقت أشلاء البعض بأن شدت أجسامهم إلى غصون أشجار ثنيت ثنياً موقتاً[٢٣] وقد وصل إلينا علم ذلك كله عن المسيحيين ، أما الوثنيون فلم ينقلوا إلينا شيئاً من هذه الأخبار .

ودام الاضطهاد ثمانية أعوام ، وهلك بسببه نحو ألف وخمسمائة من المسيحيين ، بعضهم من أتباع الدين القويم ، وبعضهم من الملاحدة ، وقاسى عدد آخر يخطئه الحصر ألواناً مختلفة من العذاب . وارتد آلاف من المسيحيين عن دينهم ، وتقول بعض الروايات إن مرسلينس Marcellinus أسقف رومة نفسه أرغم بضروب من الأرهاب والتعذيب على أن يرتد عن دينه ، ولكن معظم من نالهم الاضطهاد ثبتوا على دينهم ، وكان منظر استبسالهم فى الإخلاص لدينهم ، أو كانت أخبار هذا الاستبسال ، رغم ما قاسوه من ألوان العذاب ، كان هذا وذاك سبباً فى شد عزيمة المترددين ، وضم أنصار جدد للجماعات الدينية المضطهدة . وأثارت ضروب الاضطهاد الوحشى المتزايدة الرحمة فى قلوب الأهلين الوثنيين ، ووجد الصالحون فى نفوسهم من الشجاعة ما دفعهم إلى التصريح بمقتهم لهذا الظلم الذى

لم يكن له مثيل في التاريخ الروماني كله . لقد كان الشعب في الأيام الخالية يدفع الدولة إلى القضاء على المسيحية ، أما الآن فقد وقف الشعب بعيداً عن الحكومة ، وعرض كثيرون من الوثنيين أنفسهم للموت بحماية المسيحيين أو إخفائهم حتى تنجلي هذه العاصفة[٢٤] . وقد انجلت فعلاً في عام ٣١١ ، ففي ذلك العام أصدر جلريوس مرسوماً بالتسامح مع المسيحيين واعترف فيه بالمسيحية ديناً مشروعاً ، وطلب إلى المسيحيين أن يدعوا له في صلاتهم نظير « رحمتنا التي وصلت إلى أقصى حدود الرقة »[٢٥] . وكان الباعث له على إصدار هذا المرسوم رجاء زوجته وتوسلها له أن يصالح إله المسيحيين الذي لم يهزم ؛ وكان جلريوس وقتئذ يشكو من داء عضال ، ويوقن بإخفاقه في القضاء على المسيحية .

وكان اضطهاد دقلديانوس أشد ما ابتليت به الكنيسة المسيحية ، كما كان في الوقت نفسه أعظم انتصار نالته على أعدائها . نعم إن هذا الاضطهاد أضعفها إلى حين ، بعد أن خرج منها بعض من انضموا إليها أو نشأوا في أحضانها خلال خمسين عاماً من أعوام الرخاء لم يتعرض لهم فيها أحد بسوء ؛ ولكن سرعان ما أخذ المرتدون يتوبون عن ذنبهم ويطلبون العودة إلى حظيرتها ؛ ذلك أن أخبار وفاء الشهداء الذين قضوا نحبهم ، أو عذبوا في سبيل دينهم ، أخذت تنتشر من مكان إلى مكان . ونسجت حول أعمال الاستشهاد هذه قصص خيالية مبالغ فيها مثيرة للعواطف محركة للنفوس ، كان لها شأن أيما شأن في إحياء العقيدة المسيحية ، وتثبيت دعائمها . وفي ذلك يقول ترتليان « إن دم الشهداء هو البذور » التي نبتت منها المسيحية[٢٦] . وليس في تاريخ البشرية قصة أعظم روعة من قصة فئة قليلة من المسيحيين توالت عليها ضروب الظلم والازدراء على يد سلسلة طويلة من الأباطرة ، ولكنها صبرت على هذه المحن جميعها واستمسكت بدينها ، وتضاعف عددها وهي هادئة ساكنة ، تقيم النظام وقت أن كان أعداؤها ينشرون الفوضى ، تصد القوة بالقوة ، والوحشية بالأمل ، ثم تهزم آخر الأمر أقوى دولة عرفها التاريخ . لقد التقى قيصر والمسيح في المجتلد ، فانتصر المسيح على قيصر .

الفصل الثانى

قسطنطين

شهد دقلديانوس ، وهو هادئ فى قصره بدلماشيا ، فشل الاضطهاد والحكومة الرباعية ، ذلك أن الإمبراطورية لم تشهد قط فى أيامها السابقة ما شهدته من الاضطراب بعد نزوله عن العرش . وقد استطاع جلريوس أن يقنع قنسطنطيوس بأن يعين سفيرس ومكسمينس دازا « قيصرين » (٣٠٥) . وما لبث مبدأ الوراثة أن أخذ يثبت دعواه ، فقد رغب مكسنتيوس Maxentius بن مكسميان أن يخلف أباه فى سلطانه ، وثارت هذه الرغبة نفسها فى قلب قسطنطين .

وكان فلافيوس ڤليريوس قسطنطينس قد بدأ حياته فى نايسس Naissus ابناً غير شرعى لقنسطنطيوس من محظيته الشرعية هلينا ، خادمة إحدى الحانات فى بيثينيا[٢٧] . فلما أصبح قنسطنطيوس قيصراً طلب إليه دقلديانوس أن يتنحى عن هلينا ويتزوج بثيودورا ربيبة مكسميان . ولم يتلق قنسطنطين من العلم إلا قليلا ، فقد انخرط فى سلك الجندية فى سن مبكرة ، وأظهر بسالته فى الحروب التى قامت ضد مصر وفارس : ولما خلف جليريوس دقلديانوس أبقى الضابط الشاب بالقرب منه ليكون رهينة لديه يضمن به حسن مسلك قنسطنطيوس . ولما طلب إليه قنسطنطيوس أن يرسل إليه الشاب ، تلكأ جليريوس فى إجابته إلى طلبه وأظهر فى ذلك كثيراً من الدهاء ، ولكن قسطنطين فرّ من حرّاسه ، واخترق أوربا راكباً ليلا ونهاراً لينضم إلى أبيه فى بولونى Boulogne ، ويشترك معه فى حرب ضد بريطانيا . وكان جيش غالة شديد الولاء لقنسطنطيوس لـمّا كان يتصف به من الرحمة ، فلما أبصر ابنه الوسيم ، الشجاع ، النشط ، أحبه حبا جما ؛ ولما مات والده فى يورك York (٣٠٦) ، لم يكتف الجند بأن ينادوا بقسطنطين

« قيصراً » فحسب بل نادوا به أُغسطسا — إمبراطوراً . لكنه رضى بأصغر اللقبين بحجة أنه لن يأمن على حياته إذا لم يكن من ورائه جيش يحميه . ولم يستطع جليريوس أن يتدخل فى الأمر لبُعده ، فاعترف به « قيصراً » ، وهو كاره . وحارب قسطنطين الفرنجة الذين غزوا الإمبراطورية وانتصر عليهم ، وأطعم وحوش المدرج الغالى ملوك البرابرة .

وفى هـــذه الأثناء نادى الحرس البريتورى فى رومة بمكسنتيوس إمبراطوراً ، لأنه كان يتوقّ لعودة الزعامة إلى العاصمة التليدة (٣٠٦) . وانقض عليه سفيرس من ميلان وهاجمه . وضاعف مكسميان الاضطراب والفوضى فعاد إلى لبس الأرجوان(*) إجابة لطلب ولده ، واشترك فى الحرب التى شبت نارها وقتئذ . وتخلى جنود سفيرس عنه وقتلوه (٣٠٧) ؛ وأراد جليريوس ، وكان فى ذلك الوقت شيخا طاعنا فى السن ، أن يقوى مركزه ليواجه الفوضى التى أخذت تضرب أطنابها فى البلاد ، فعيّن أُغسطسا جديداً — فلافيوس ليسنيوس Flavius Licinius ، فلما سمع قسطنطين بهذا اتخذ لنفسه أيضا هذا اللقب (٣٠٧) ؛ وبعد سنة واحدة لقب مكسمنيوس دازا نفسه باللقب عينه ، وبهذا أصبح فى الإمبراطورية ســتة أُغاطسة بدل الاثنين اللذين كانا على عهد دقلديانوس ، ولم يكتف واحد منهم بأن يكون قيصراً فقط . وتنازع مكسنتيوس مع والده ، وذهب مكسميان إلى غالة ليستغيث بقسطنطين ، وقد كان وقتئذ يحارب الألمان على ضفاف الرين . وحاول مكسميان أن يكون هو قائد الجيوش الغالية بدله ، واخترق قسطنطين غالة بجيشه ، وحاصر المغتصب فى مرسيليا ، وأسره ، وتفضل عليه بأن أجاز له أن ينتحر (٣١٠) .

وأزال موت جليريوس الحاجز الأخير بين الدسائس والحرب ، فائتمر

(*) أى عاد إمبراطورا كما كان من قبل (المترجم) .

مكسميانس ومكسنتيوس للقضاء على ليسنيوس وقسطنطين ، وائتمر الثانيان للقضاء على الأولين . ورأى قسطنطين أن يكون هو البادئ بالعمل ، فعبر جبال الألب ، وهزم جيشاً لعدويه قرب تورين Turin ، وزحف على رومة بسرعة مدهشة ونظام عسكرى يذكّران الإنسان بزحف قيصر من الربيكون Rubicon . والتقى فى السابع والعشرين من شهر اكتوبر عام ٣١٢ بقوى مكسنتيوس عند سكسا ربرا Saxa Rubra (الصخور الحمراء) ، التى تبعد تسعة أميال عن رومة جهة الشمال ، وأفلح بخططه الحديثة الفائقة أن يرغم عدوه على أن يقاتل ونهر التيبر من ورائه ، وليس له من طريق يسلكه إذا تقهقر إلا أن يعبر جسر ملفيوس ويقول يوسيبيوس[٢٨] إن قسطنطين شاهد بعد ظهر اليوم الذى دارت فيه المعركة صليبا ملتهبا فى السماء وعليه تلك العبارة اليونانية en touti mika ومعناها « بهذه العلامة انتصر »[*] .

وفى صباح اليوم الثانى — كما يقول يوسيبيوس ولكتنتيوس[٣١] رأى قسطنطين فيما يرى النائم أن صوتا يأمره بأن يرسم جنوده حرف X على دروعهم وفى وسطه خط يقطعه وينثنى حول أعلاه — علامة الصليب . فلما استيقظ من نومه صدع بالأمر وخاض المعركة خلف لواء « عرف من ذلك الوقت باسم اللبارم Labarum » رسم عليه الحرفان الأولان من لفظ المسيح يربطهما صليب . ولعل حقيقة الأمر أن قسطنطين رأى أن يربط حظه بحظ المسيحيين حين رأى مكسنتيوس يرفع لواء مثراس أورليان ، وهو لواء الشمس التى لا تقهر . وكان عدد جنوده المسيحيين وقتئذ كبيراً ، وبهذا جعل هذه المعركة نقطة التحول

(*) تنقلها الرواية المتواترة عادة فى صورتها اللاتينية in hoc vinci أو in hoc signo vinces « بهذه العلامة سوف تنتصر » . وعمدتنا الوحيد فى هذه الرؤيا هو يوسبيوس وهو باعترافه يميل إلى تأييدها[٢٩] إذ يقول : « وإذ كان الإمبراطور قد أقسم حين قصها على أنها صحيحة بعد أن اعتزمت أن أكتب تاريخه . . . فمن ذا الذى يستطيع أن يشك فى قوله ؟ »[٣٠]

فى تاريخ الأديان . ولم يكن الصليب يسىء إلى جنود قسطنطين من عُبّاد مثراس ، لأنهم طالما حاربوا تحت لواء يحمل شعاراً مثراسيًّا من الضوء[٣٢]. ومهما يكن من شىء فقد انتصر قسطنطين فى واقعة جسر ملفيوس وهلك مكسنتيوس هو وآلاف من جنوده فى نهر التيبر ، ودخل القائد الظافر رومة وحيّته المدينة وأصبح سيّد الغرب بلا مُنازع .

وتقابل قسطنطين وليسنيوس فى ميلان فى أوائل عام ٣١٣ لينسقا حكمهما : وأراد أولها أن يجعل تأييده للمسيحيين عاما يشمل الولايات جميعها ، فأصدر هو وليسنيوس « مرسوم ميلان » يؤكدان فيه التسامح الدينى الذى أعلنه جلبريوس ووسعا نطاقه حتى شمل الأديان كلها ، ويأمران بأن يعاد إلى المسيحيين ما انتزع من أملاكهم فى أثناء الاضطهاد الأخير . وعاد قسطنطين للدفاع عن غالة بعد هذا الإعلان التاريخى الذى كان فى واقع الأمر اعترافاً بهزيمة الوثنية ؛ واتجه ليسنيوس نحو الشرق ليكيل الضربات إلى مكسمينس (٣١٣) ؛ ولكن مكسمينس مات بعد قليل من ذلك الوقت فأصبح قسطنطين وليسنيوس حاكمى الإمبراطورية لا ينازعهما فيها منازع . وتزوج ليسنيوس أخت قسطنطين ، واغتبط الشعب الذى ملّ الحروب بمخايل السلام البادية فى الأفق .

ولكن كلا الحاكمين لم يفارقه قط أمله فى أن يكون صاحب السيادة وحده على الدولة جميعها ؛ ووصل العداء المتزايد بينهما فى ٣١٤ إلى امتشاق الحسام ، فغزا قسطنطين بانونيا ، وهُزم ليسنيوس ، واضطر إلى أن يسلم اه جميع أملاك الدولة الرومانية فى أوربا ما عدا تراقية . وانتقم ليسنيوس من المسيحيين المؤيدين لقسطنطين بالعودة إلى اضطهادهم فى آسية ومصر ؛ فطرد المسيحيين من قصره فى نقوميديا ، وحتم على كل جندى أن يعبد الوثنية ، وحرّم اجتماع الرجال والنساء فى أثناء العبادات المسيحية ، ثم حرّم آخر الأمر

جميع الشعائر المسيحية داخل المدينة ، وأمر بطرد من عصى من المسيحيين من خـــدمة الحكومة وحرمانهم من حق المواطنية ، ومن أملاكهم ، أو حريتهم أو حياتهم .

وظل قسطنطين يترقب الفرصة التى تمكنه من إنقاذ المسيحيين فى بلاد الشرق ومن إضافة الشرق نفسه إلى أملاكه . وأتيحت له هذه الفرصة حين غزا البرابرة تراقية وعجز ليسنيوس عن الزحف لملاقاتهم ، فسار قسطنطين على رأس جيشه إلى تسالونيكى لينقذ ولاية ليسنيوس من الغزاة . فلما أن صد البرابرة احتج ليسنيوس على دخوله تراقية ، وتجددت الحرب بين الملكين لأن كليهما لم يكن يجنح للسلم . والتقى حامى المسيحية ومعه ١٣٠٫٠٠٠ من رجاله بحامى الوثنية على رأس ١٦٠٫٠٠٠ فى أدرنة أولا ثم فى كريسبوليس Chrysopolis (أشقودرة) ، وانتصر وأصبح وحده إمبراطوراً على الدولة الرومانية (٣٢٣) . واستسلم ليسنيوس بعد أن وعده قسطنطين بالعفو عنه ، ولكنه أعدم فى السنة الثانية متهما بأنه عاد إلى دسائسه . واستدعى قسطنطين المنفيين من المسيحيين ، وأعاد إلى كل « المؤمنين » ما فقدوه من الامتيازات والممتلكات . ومع أنه كان لايزال يعلن أن الناس كلهم أحرار فيما يعبدون ، فقد أعلن وقتئذ صراحة اعتناقه الدين المسيحى ، ودعا رعاياه أن ينهجوا نهجة فى اعتناق الدين الجديد .

الفصل الثالث

قسطنطين والمسيحية

ترى هل كان قسطنطين حين اعتنق المسيحية مخلصاً في عمله هذا ؟ وهل أقدم عليه عن عقيدة دينية ، أو هل كان ذلك العمل حركة بارعة أملتها عليه حكمته السياسية ؟ أكبر الظن أن الرأى الأخير هو الصواب[٣٣] . لقد اعتنقت أمه هلينا الدين المسيحى حين طلقها قنسطنطيوس ؛ ولعلها أفضت إلى ولدها بفضائل المسيحية ، وما من شك فى أنه تأثر بما ناله من انتصارات فى المعارك الحربية التى خاض غمارها مستظلا بلواء المسيح وصليبه . ولكن المتشكك وحده هو الذى يحتال هذا الاحتيال على استخدام مشاعر الإنسانية الدينية لنيل أغراضه الدنيوية . ويقول صاحب كتاب **تاريخ أغسطس** Historia Augusta على لسانه : « إن الحظ وحده هو الذى يجعل الإنسان إمبراطوراً »[٣٤] — وإن كان قوله هذا تواضعاً منه لا اعتقاداً بسيطرة الظروف على مصائر الناس . وقد أحاط نفسه فى بلاطه ببلاد غالة بالعلماء والفلاسفة الوثنيين[٣٥] ، وقلما كان بعد اعتناقه دينه الجديد يخضع لما تتطلبه العبادات المسيحية من شعائر وطقوس ، ويتضح من رسائله التى بعث بها إلى الأساقفة المسيحيين أنه لم يكن يعنى بالفروق اللاهوتية التى كانت تضطرب بها المسيحية — مع أنه لم يكن يتردد فى القضاء على الانشقاق محافظة على وحدة الإمبراطورية . وقد كان فى أثناء حكمه كله يعامل الأساقفة على أنهم أعوانه السياسيون ؛ فكان يستدعيهم إليه ، ويرأس مجالسهم ، ويتعهد بتنفيذ ما تقره أغلبيتهم من آراء . ولو أنه كان مسيحيا حقا لكان مسيحيا أولا وحاكما سياسيا بعدئذ ؛ ولكن الآية انعكست فى حال قسطنطين ، فكانت المسيحية عنده وسيلة لا غاية .

ولقد شهد فى حياته كيف أخفق الاضطهاد ثلاث مرات ، وانطبع فى نفسه بلا ريب انتصار المسيحية رغم كل اضطهاد . نعم إن أتباع هذا الدين كانوا لا يزالون قلة فى الدولة ، ولكنهم كانوا إذا قيسوا إلى غيرهم قلة متحدة ، مستبسلة قوية ، على حين أن الأغلبية الوثنية كانت منقسمة إلى عدة شيع دينية ، وكان فيها عدد كبير من النفوس التى لا عقيدة لها ولا نفوذ فى الدولة . وكان المسيحيون كثيرين فى زومة بنوع خاص فى عهد مكسنتيوس ، وفى الشرق فى أيام ليسنيوس ؛ وقد أفاد قسطنطين من تأييد المسيحية اثنى عشر فيلقاً لاقى بها هذين القائدين . ولقد أعجب بجودة نظام المسيحيين إذا قيسوا بغيرهم من سكان الإمبراطورية ، وبمتانة أخلاقهم ، وحسن سلوكهم ، وبجمال شعائر المسيحية وخلوها من القرابين الدموية ، وبطاعة المسيحيين لرؤسائهم الدينيين ، وبرضاهم صاغرين بفوارق الحياة رضاء مبعثه أملهم فى أنهم سيحظون بالسعادة فى الدار الآخرة . ولعله كان يرجو أن يطهر هذا الدين الجديد أخلاق الرومان ، ويعيد إلى الزواج والأسرة ما كان لها من شأن قديم ، ويخفف من حدة حرب الطبقات . وقلما كان المسيحيون يخرجون على الدولة رغم ما لاقوه من ضروب الاضطهاد الشديد ، ذلك بأن معلميهم قــد غرسوا فى نفوسهم واجب الخضوع للسلطات المدنية ، ولقنوهم حق الملوك المقدس . وكان قسطنطين يأمل أن يكون ملكا مطلق السلطان وهذا النوع من الحكم يفيد لا محالة من تأييد الدين ، وقد بدا له أن النظام الكهنوتى وسلطان الكنيسة الدنيوى يقيمان نظاما روحيا يناسب نظام الملكية ؛ ولعل هذا النظام العجيب ، بما فيه من أساقفة وقساوسة ، يصبح أداة لتهدئة البلاد وتوحيدها وحكمها .

لكن قسطنطين اضطر إلى أن يتحسس كل خطوة يخطوها بحذر ، لأن الوثنية كانت هى الغالبة على العالم الذى يعيش فيه . ولذلك ظل يستخدم ألفاظا توحيدية يستطيع أن يقبلها كل وثنى ؛ وقام فى خلال السنين الأولى من سلطانه

المفرد فى صبر وأناة بجميع المراسيم التى يتطلبها منه منصب **الكاهن الأكبر** ، والتى تحتمها عليه الطقوس التقليدية ، وجدّد بناء الهياكل الوثنية ، وأمر بممارسة أساليب العرافة ، واستخدم فى تدشين القسطنطينية شعائر وثنية ومسيحية معاً ، واستعمل رقى سحرية وثنية لحماية المحاصيل وشفاء الأمراض[٣٦] .

ولما توطدت دعائم قوته أخذ يجهر تدريجا بمحاباة المسيحية ، فمحا بعد عام ٣١٧ من نقوده واحدة بعد واحدة ماكان على وجهها من صور وثنية ، ولم يحلّ عام ٣٢٣ حتى كان كل ما عليها من الرسوم نقوشاً محايدة لاهى مسيحية ولا وثنية . ومن المراسيم القانونية الباقية من عهده مرسوم مشكوك فيه ولكنه لم يثبت كذبه ، يخوّل الأساقفة المسيحيين حق الفصل فيما يقوم فى أبرشياتهم من منازعات قضائية[٣٧] ، وأعفت قوانين أخرى أملاك الكنيسة العقارية من الضرائب[٣٨] وجعلت الجماعات المسيحية شخصيات معنوية قضائية ، وأجازت لها امتلاك الأرض وقبول الهبات ، وجعلت الكنيسة هى الوارثة لأملاك الشهداء الذين لم يعقبوا ذرية[٣٩] . كذلك وهب قسطنطين أموالا إلى المجامع الدينية المحتاجة إليها ، وشاد عدداً من الكنائس فى القسطنطينية وغيرها من المدن ، وحرم عبادة الأوثان فى عاصمته الجديدة . وكأنه نسى مرسوم ميلان فحرّم اجتماع الشيع الدينية الملحدة ، وأمر آخر الأمر بتدمير مجامعهم الدينية[٤٠] ، وربى أبناءه تربية مسيحية سليمة ، وأعان بالمال أعمال البر المسيحية التى كانت تقوم بها أمه . وابتهجت الكنيسة بهذه النعم التى فاقت كل ما كانت تتوقعه ، وكتب يوسبيوس صحائف كانت فى واقع الأمر عقود مدح لقسطنطين وإقراراً بفضله . واحتشد المسيحيون فى جميع أنحاء الإمبراطورية ليعبّروا عن شكرهم لانتصار إلههم .

غير أن سحباً ثلاثاً كدرت صفو ذلك اليوم الذى « لا سحاب فيه » :

تلك هي انشقاق الأديرة ، والانشقاق الدوناني(*) ، والإلحاد الأريوسي(**) . وكانت الكنيسة ، في الفترة الواقعة بين اضطهادى ديسيودى ودقلديانوس ، قد أضحت أغنى الهيئات الدينية في الإمبراطورية ، وخففت من هجاتها على الثراء . فترى سبريان يشكو من أن أبناء أبرشيته قد أضل حُبُّ المال عقولهم ؛ ومن أن النساء المسيحيات يصبغن وجوههن ، وأن الأساقفة يتولون مناصب في الدولة تدرّ عليهم المال الكثير ، فأثروا ، وأقرضوا المال بربا فاحش ، وارتدوا عن دينهم إذا بدت لهم أول علامة من علامات الخطر[٤١] . ويبدى يوسبيوس حزنه من تناحر القساوسة في تنافسهم على المناصب الكنسية العليا[٤٢] ،

وقصارى القول أن الدنيا جعلت المسيحيين رجال دنيا في الوقت الذى هدت فيه المسيحية العالم إلى ذلك الدين ؛ وأظهرت الدنيا ما في الفطرة البشرية من غرائز وثنية . وقامت الرهبنة المسيحية احتجاجا على هذا التوفيق المتبادل بين الروح والجسم . ذلك أن أقلية من المسيحيين كانت ترغب في الابتعاد عن كل طاعة للشهوات البشرية ، وتطالب بالاستمرار على الانهماك المسيحى القديم في التفكير في الحياة الأبدية الخالدة . وجرى بعض هؤلاء الزهاد على سنّة الكلبيين ، فتخلوا عن جميع أملاكهم ، وارتدَوا ثوب الفلاسفة الخلق ، وعاشوا على ما يقدَّم لهم من صدقات . وذهب بعضهم ليعيشوا بمفردهم في الصحراء المصرية كما فعل بولس الناسك . وحدث حوالى عام ٢٧٥ أن بدأ راهب مصرى يدعى أنطونيوس ربع قرن من حياة العزلة قضى بعضها أولا في قبر ، وبعضها في حصن جبلى مهجور ، وبعضها الآخر في فجوة ضيقة نحتها في الصخور ، كانت تنتابه فيها أثناء الليل

(*) نسبة إلى دوناتس Donatus وهو زعيم شيعة مسيحية أفريقية ظهرت في القرنين الرابع والخامس ، وكانت تعارض أى نقص في احترام الشهداء ، وتطالب بإعادة تعميد من ينضمون إليها من أتباع الكنيسة الكاثوليكية (المترجم) .

(**) نسبة إلى أريوس الإسكندرى المتوفى عام ٣٣٦ م . والذى كان ينكر الوهية المسيح . (المترجم)

رؤى مخيفة وأحلام لذيذة تغلّب عليها كلها ، حتى اشتهر بالقداسة ، وعمّت هذه الشهرة جميع أنحاء العالم المسيحى ، وعمرت الصحراء بالنساك المنافسين له : وأحس باخوميوس فى عام ٣٢٥ أن اعتزال الناس أنانية فجمع الزهاد فى دير عند طابين فى مصر ، وأنشأ الرهبنة الجماعية التى صار لها أعظم الأثر فى بلاد الغرب . وقاومت الكنيسة حركة الرهبنة وقتا ما ، ثم رضيت بها لتوازن اهتمامها المتزايد بشئون الحكم .

وقبل أن يمضى عام واحد على اعتناق قسطنطين المسيحية حدث فيها انشقاق شديد الخطورة كاد يقضى عليها فى ساعة النصر . ذلك أن دوناتس Donatus أسقف قرطاجنة ، يؤيده قس اسمه كاسمه ومزاجه كمزاجه ، أصر على أن الأساقفة الذين أسلموا الكتاب المقدس لرجال الشرطة الوثنيين قد فقدوا بعملهم هذا أهليتهم لمنصبهم وسلطتهم ، وأن شعائر التعميد ورسامة القساوسة التى تجرى على أيدى هؤلاء الأساقفة باطلة ، وأن صحة العشاء الربانى يقف بعضها على الحالة الروحية للقائم بخدمته . ولما رفضت الكنيسة العمل بهذه العقائد الصارمة نصب الدوناتيون أساقفة جدداً فى كل مكان رأوا أن الأسقف الذى فيه لا تنطبق عليه شروطهم . وحزن قسطنطين أشد الحزن لمـّا أعقب هذه الحركة من فوضى وعنف ، وقد كان يظن أن المسيحية ستكون قوة تعمل على الوحدة ؛ ولعله قد تأثر بعض التأثر بالحلف الذى عقد إلى حين بين الدوناتيين وبين القائمين بالحركات المتطرفة بين الزراع الإفريقيين . ولهذا دعا الأساقفة إلى مجلس جامع يعقد فى أرليس (٣١٤) ، وأيد ما أصدره من قرار بالتشهير بالدوناتية ، وأمر المنشقين بالعودة إلى الكنيسة ، وقرر أن المجامع التى لا تطيع هذا القرار تفقد أملاكها وحقوقها المدنية (٣١٦) . وبعد خمس سنين من ذلك الوقت طافت بعقله فى فترة قصيرة ذكرى مرسوم ميلان ، فألغى هذه القرارات ، وتسامح مع الدوناتيين

تسامحاً مصحوباً بالسخرية . وبقيت هذه الشيعة حتى قضى العرب على أتباع الدين القويم وعلى الملحدين حين فتحوا أفريقية .

وفى هذه السنين نفسها شهدت الإسكندرية قيام أخطر حركة إلحادية فى تاريخ الكنيسة ؛ ذلك أن قساً مصريا تقدم إلى أسقفه حوالى عام ٣١٨ بآراء غريبة عن طبيعة المسيح ، ويصفه مؤرخ كاثوليكى عالم وصفاً كريماً فيقول :

« كان أريوس . . . طويل القامة ، نحيل الجسم ، مكتئب المظهر ، ذا منظر تبدو فيه آثار خشونة العيش . وكان معروفاً بأنه من الزهاد ، كما يستدل على ذلك من ملبسه — وهو جلباب قصير من غير كمين تحت ملحفة يستخدمها عباءة . وكانت طريقته فى الحديث ظريفة ، وخطبه مقنعة . وكانت العذارى اللاتى نذرن أنفسهن للدين ، وهن كثيرات فى الإسكندرية ، يبجلنه أعظم التبجيل ، وكان له من بين رجال الدين عدد كبير من المؤيدين »[٤٣] .

ويقول أريوس إن المسيح لم يكن هو والخالق شيئاً واحداً ، بل كان هو الكلمة أول الكائنات التى خلقها الله وأسماها . واحتج الأسقف ألكسندر على هذا القول ، ولكن أريوس أصر عليه وقال إنه إذا كان الابن من نسل الأب ، فلا بد أن تكون ولادته قد حدثت فى زمن ، وعلى هذا لايمكن أن يكون الابن متفقاً مع وجود الأب فى الزمن . يضاف إلى هذا أنه إذا كان المسيح قد خُلق فلابد أن يكون خلقه من لا شىء ، أى من غير مادة الأب ؛ لأن المسيح والأب ليسا من مادة واحدة . وقد وُلد الروح القدس من الكلمة ، وهو أقل ألوهيّة من الكلمة نفسها . ونحن نرى فى هذه العقائد استمرارا للأفكار المنحدرة من أفلاطون عن طريق الرواقيين ، وفيلون ، وأفلوطينس ، وأرجن إلى أريوس . وبذلك أصبحت الأفلاطونية التى كان لها أعظم الأثر فى اللاهوت المسيحى فى نزاع مع الكنيسة .

وارتاع الأسقف ألكسندر من هذه الآراء ، وازتاع أكثر من هذا من سرعة انتشارها بين رجال الدين أنفسهم . ولهذا دعا مجلساً من الأساقفة المصريين إلى الاجتماع فى الإسكندرية ، وأقنع أعضاءه بأن يحكموا بتجريد أريوس وأتباعه ؛ وأبلغ الإجراءات التى اتخذها المجلس إلى سائر الأساقفة ، فاعترض عليها بعضهم ، وأظهر بعض القساوسة عطفاً على أريوس ، واختلفت آراء رجال الدين والدنيا فى الولايات الأسيوية فى هذه المشكلة ، وترددت فى المدائن أصداء « الضجيج والاضطراب ... حتى كان الدين المسيحى » ، كما يقول يوسبيوس « موضوع السخرية الدنسة من الوثنيين ، حتى فى دور التمثيل نفسها »(٤٥) . ولما جاء قسطنطين إلى نقوميديا بعد أن هزم ليسنيوس ، سمع هذه القصة من أسقفها ، فأرسل إلى ألكسندر وإلى أريوس رسالة شخصية يدعوهما فيها أن يتخلقا بهدوء الفلاسفة ، وأن يوفقا بين آرائهما المختلفة فى سلام ، فإن لم يفعلا فلا أقلّ من أن يخفيا جدلهما عن آذان الجماهير . ويكشف هذا الخطاب ، الذى نقله لنا يوسبيوس ، فى صراحة عن قلة اهتمام قسطنطين بعلوم الدين ، وعن الهدف السياسى الذى كان يبتغيه من سياسته الدينية :

« لقد اقترحت أن أرد جميع آراء الناس فى الله إلى صورة واحدة ، لأنى قوىّ الاعتقاد بأنى إذا استطعت أن أوحّد آراءهم فى هذا الموضوع سهل علىّ كثيراً تصريف الشئون العامة . ولكنى مع الأسف الشديد أسمع أن بينكما من الخلاف أكثر مما كان قائما فى أفريقية من وقت قريب . ويبدو لى أن سبب هذا الخلاف بينكما صغير تافه غير جدير بأن يثير هذا النزاع الشديد . فأنت يا ألكسندر تريد أن تعرف رأى قساوستك فى إحدى النقاط القانونية ، فى جزء من سؤال هو فى حد ذاته عديم الأهمية ؛ وأما أنت يا أريوس فقد كان الواجب عليك ، إذا كانت لديك أفكار من هذا القبيل ، أن تظل صامتاً . . . ولم يكن ثمة حاجة إلى إثارة هذه المسائل أمام الجماهير . . . لأنها مسائل لا يثيرها إلا من ليس لديهم عمل

يشغلون به أنفسهم ، ولا يرجى منها إلا أن تزيد عقول الناس وحدة . . . تلك أعمال سخيفة خليقة بالأطفال العديمي التجربة لا برجال الدين أو العقلاء من الناس »[٤٦]

ولم يكن لهذه الرسالة أثر ما لأن مسألة اتفاق الأب والابن فى المادة لا مجرد تشابههما كانت فى نظر الكنيسة مسألة حيوية من الوجهتين الدينية والسياسية ، وكانت ترى أنه إذا لم يكن المسيح إلها فإن كيان العقيدة المسيحية كلها يبدأ فى التصدع ، وإذا ما سمحت باختلاف الرأى فى هذا الموضوع فإن فوضى العقائد قد تقضى على وحدة الكنيسة وسلطانها ، ومن ثم على ما لها من قيمة بوصفها عوناً للدولة . ولما انتشر الجدل فى هذه المسألة ، واشتعلت نيران الخلاف فى بلاد الشرق اليونانى ، اعتزم قسطنطين أن يقضى عليه بدعوة أول مجلس عام للكنيسة . ولهذا عقد مجلساً من الأساقفة عام ٣٢٥ فى نيقية البيثينية بالقرب من عاصمة نقوميديا ، وأعد ما يلزم من المال لنفقاتهم . وحضر الاجتماع عدد لا يقل عن ٣١٨ « يصحبهم » كما يقول واحد منهم « حشد كبير من رجال الدين الأقل منهم درجة »[٤٧] ، وهو قول يدل على مقدار نماء الكنيسة العظيم . وكان معظم الأساقفة من الولايات الشرقية ، لأن كثيراً من الأبرشيات الغربية تجاهلت هذا الجدل ، واكتفى البابا سلفستر الأول Silvester I بأن مثّله بعض القساوسة ، لأن المرض حال بينه وبين حضور الاجتماع بنفسه .

واجتمع المجلس فى بهو أحد القصور الإمبراطورية تحت رياسة قسطنطين ، وافتتح هو المناقشات بدعوة موجزة وجهها إلى الأساقفة يطلب إليهم فيها أن يعيدوا إلى الكنيسة وحدتها . ويقول يوسبيوس إنه كان يستمع بصبر عظيم إلى المناقشات ، ويهدئ من عنف الجماعات المتنازعة[٤٨] ، ويشترك فى المناقشات بنفسه . وأكد أريوس من جديد رأيه القائل بأن المسيح مخلوق ، لا يرقى إلى منزلة الأب ، ولكنه « مقدس بالاشتراك » معه لا غير . وقد أرغمته بعض الأسئلة

الحاذقة على أن يعترف بأنه إذا كان المسيح مخلوقاً ، وأن له بداية ، فإن فى مقدوره أن يتحول ، وأنه إذا استطاع أن يتحول ، فقد ينتقل من الفضيلة إلى الرذيلة .

وكانت إجاباته عن الأسئلة منطقية ، صريحة ، قاطعة . وقد أوضح أثناسيوس Athanasius ، رئيس الشمامسة البليغ المشاكس ، الذى جاء به الإسكندر معه ليقطع به لسان معارضيه ، أنه إذا لم يكن المسيح والروح القدس كلاهما من مادة الأب ، فإن الشرك لا بد أن ينتصر . وقد سلم بما فى تصوير أشخاص ثلاثة فى صورة إله واحد من صعوبة ، ولكنه قال بأن العقل يجب أن يخضع لما فيه الثالوث من خفاء وغموض . ووافقه الأساقفة جميعهم على رأيه عدا سبعة عشر منهم ووقعوا قراراً يعلنون فيه هـذا الرأى . ورضى مؤيدو أريوس أن يوقعوا معهم إذا سمح لهم بأن يضيفوا إلى هذا الإعلان نقطة واحدة وهى أن يستبدلو كلمة همويوسيون Homoiousion (أى مماثلا فى الجوهر) بكلمة هموْوسيون Homoousion أى من جوهر واحد . ولكن المجلس رفض هذا التعـديل وأصدر بموافقة الإمبراطور القرار الآتى .

« نحن نؤمن بإله واحد ، وهو الأب القادر على كل شىء ، خالق الأشياء كلها ما ظهر منها وما بطن وبسيد واحد هو المسيح ابن الله ، المولود ... غير المخلوق من نفس جوهر الأب ... وبأنه من أجلنا نحن البشر ومن أجل نجاتنا نزل وتجسد وصار إنساناً ، وتعذب ، وقام مرة ثانية فى اليوم الثالث ، وصعد إلى السماء ، وسيعود ليحاسب الأحياء والأموات ... (*) »

ولم يرفض توقيع هذه الصيغة إلا خمسة من الأساقفة ، نقصوا آخر الأمر إلى اثنين . وحكم المجلس على هذين الأسقفين وعلى أريوس الذى لم يتزحزح عن عقيدته أو يتوب عما صدر منه ، حكم عليهم باللعنة والحرمان ، ونفاهم الإمبراطور

(*) ويختلف هذا عن « العقيدة النيقية » المتبعة الآن والتى هى تعـديل لهذ القرار صدر فى عام ٣٦٢ .

من البلاد . وصدر مرسوم إمبراطورى يأمر بإحراق كتب أريوس جميعها ويجعل إخفاء أى كتاب منها جريمة يعاقب عليها بالإعدام(*)

واحتفل قسطنطين بانفضاض المجلس بأن دعا جميع الأساقفة الذين حضروه إلى وليمة ملكية ، ثم صرفهم بعد أن طلب إليهم ألا يمزق بعضهم أجساد بعض(٥١) ، ولكنه أخطأ إذ ظن أن النزاع قد وقف عند هذا الحد ، أو أنه هو لن يغير رأيه فيه . غير أنه كان على حق حين اعتقد أنه خطا خطوة كبيرة فى سبيل وحدة الكنيسة . فلقد أذاع المجلس عقيدة الكثرة العظمى من رجال الدين ، وهى أن نظام الكنيسة وبقاءها يتطلبان تحديد العقائد بطريقة ما ؛ وقد أثمر آخر الأمر ذلك الإجماع العملى على العقيدة الأساسية التى اشتق منها اسم الكنيسة فى العصور الوسطى وهو الكنيسة الكاثوليكة . وكان فى الوقت نفسه إيذانا باستبدال المسيحية بالوثنية وجعلها المظهر الدينى والعضد القوى للإمبراطورية الرومانية . واضطر قسطنطين أن يكون أكثر تصميما من ذى قبل على التحالف مع المسيحية ؛ وهكذا بدأت حضارة جديدة ، مؤسسة على دين جديد ، تقوم على أنقاض ثقافة مضعضعة وعقيدة محتضرة . لقد بدأت العصور الوسطى .

(*) وقرر المجلس أيضاً أن تحتفل الكنائس كلها بعيد القيامة فى يوم واحد يحدده كل عام أسقف الإسكندرية على أساس قاعدة فلكية ، ويذيعه أسقف رومة . أما مسألة بقاء رجال الكنيسة بلا زواج فإن المجلس كان يميل إلى أن يطلب إلى القساوسة المتزوجين أن يتعففوا عن العلاقات الجنسية ، ولكن بفنوتيوس **Paphntius** أسقف طيبة العليا أقنع زملاءه الأساقفة بأن يتركوا العادة المتبعة كما هى ، وكانت هذه العادة تحرم الزواج بعد الرسامة ، ولكنها تجيز للقس أن يجامع زوجته إذا كان قد بنى بها قبل الرسامة .

الفصل الرابع

قسطنطين والحضارة

أنشأ قسطنطين بعد سنة واحدة من اجتماع المجلس مدينة جديدة وسط خرائب بيزنطية سماها رومة الجديدة Nova Roma وسمتها الأجيال التى أعقبته باسمه . وفى عام ٣٣٠ أدار ظهره نحو رومة ونيقوميديا كلتيهما ، واتخذ القسطنطينية عاصمة له ، وأحاط نفسه فيها بأبهة الملوك الشرقيين وحاشيتهم ، لاعتقاده أن ما تحدثه هذه الأبهة من تأثير نفسانى فى الجيش والشعب سوف يجعل ما تحتاجه مظاهرها من المال الكثير اقتصاداً حقيقيا فى مطالب الحكم . وبسط رعايته على الجيش بما أوتى من حسن السياسة وقواه بأن أمده بالسلاح ، وخفف من نير الاستبداد بقراراته الرحيمة ، وناصر الآداب والفنون ، وشجع مدارس أثينة ، وأنشأ جامعة جديدة فى القسطنطينية ، كان فيها أساتذة يتناولون مرتبات من قِبَل الدولة ، ويعلّمون اللغتين اليونانية واللاتينية ، والآداب والفلسفة ، والبلاغة والقانون ، ويدربون الموظفين الذين تحتاجهم الإمبراطورية[٥٢] . وأيد ما كان للأطباء والمدرسين فى جميع الولايات من امتيازات ووسَّع نطاقها ، وأمر الحكام أن ينشئوا فى ولاياتهم مدارس للعمارة ، وأن يستجلبوا الطلاب إليها بمختلف الامتيازات والمكافآت ، وأعفى الفنانين من الواجبات المفروضة على غيرهم من المدنيين حتى يوفر لهم ما يكفى من الوقت لإتقان فنهم وتعليمه أبناءهم . وقد استعان بالكنوز الفنية فى جميع أنحاء الإمبراطورية على تجميل القسطنطينية حاضرته الجديدة .

وبدأت أعمال البناء فى رومة فى ذلك العهد على يدى مكسنتيوس ، فقد

بدأ هو (٣٠٦) وأتم قسطنطين باسلقا ضخمة كانت هى تاج العمارة القديمة فى الغرب . وعمد فى بنائها إلى طراز الحمامات الكبرى فعدله وشاد على طرازه المعدل صرحا عظيما تشغل قاعدته ٣٣٠ قدما فى ٢٥٠ . وكانت لردهتها الوسطى التى تبلغ ١١٤ قدما فى ٨٢ سقف مكون من ثلاث قباب متقاطعة مشيدة بالأسمنت المسلح يبلغ ارتفاعها ١٢٠ قدما يستند بعضها إلى ثمان دعامات عريضة تواجهها عمد كورنثية ذات حزوز غائرة يبلغ ارتفاعها ستين قدما . وكانت أرضها من الرخام الملوّن ؛ ووضعت بين الأعمدة عدة تماثيل ، وعلت جدران هذه الأجزاء التى بين الأعمدة فوق سقفها لكى تكون دعامات مرتفعة للقباب الوسطى . ولقد تعلم مهندسو القوط ومهندسو النهضة الشىء الكثير من هذه القباب والدعامات ، ولما أراد برامنتى Bramante أن يخطط كنيسة القديس بطرس اعتزم أن يتوّج صحن الكنيسة الواسع بقبـــة ضخمة ، أو « أن يقيم بناء الكنيسة الكبرى فوق باسلقا قسطنطين » .

وشاد أول الأباطرة المسيحيين كنائس كثيرة فى رومة ، وأكبر الظن أن الشكل الأول لكنيسة سان لورنزو التى فى خارج رومة كان من هذه الكنائس . وأراد أن يحتفل بذكرى نصره عند نهر ملفيوس فأقام فى عام ٣١٥ قوسا لا يزال يشرف على طريق النصر Via dei Trionfi ؛ وهو من أكمل الآثار الباقية فى رومة ، ولم ينقص من عظمته كثيراً ما انتزع من أجزائه آناً بعد آن . ويتركب من أربعة جذوع دقيقة التناسب ترتفع فوق القاعدة المنحوتة ، وتقسم الأقواس الثلاثة ، وتسند الدعامة المزخرفة المرتكزة عليها . وعلى الطبقة العليا نقوش بارزة وتماثيل مأخوذة من آثار لتراجان وأورليوس ، كما أن الحليات الوسطى التى بين الأعمدة مأخوذة من مبان شيدت فى عهد هدريان . وربما كان نقشان من النقوش البارزة من عمل فنانى قسطنطين ، ويشهد ما فى هذا الأثر من صور جالسة ، ومن اختلاط سمج بين الوجوه المصورة من الجانب والسيقان المصورة من الأمام ، ومن

تكديس الرءوس فوق الرءوس بدل أن يراعى الفنان قواعد المنظور . يشهد كل هذا بخشونة الذوق وعدم الإتقان الفنى . ولكن الحفر العميق وما يقع عليه من ضوء وظل ، يطبع فى الخيال صورة واضحة من العمق والسعة ؛ والحادثات التى تقصها تلك النقوش ممثلة بحيوية خشنة كأنما الفن الإيطالى قد اعتزم أن يعود إلى منبعه الأول .

ويبدو تمثال قسطنطين الضخم المحفوظ الكنسرڤتورى بدائيا إلى حد تشمئز منه النفس ، ولا يكاد العقل يصدق أن الرجل الذى تفضل فرأس مجمع نيقية يشبه البربرى الفظ إلى الحد الذى يطالع الإنسان فى هذا التمثال — إلا إذا كان الفنان قد أراد أن يوضح مقدماً تلك العبارة الجامعة الساخرة التى قالها جبن : « لقد وصفت انتصار الهمجية والدين » .

وفى أوائل هذا القرن الرابع أخذ فن جديد يتشكل ويظهر فى الوجود — ونعنى به « تزيين » المخطوطات بصور ملونة صغيرة . وكان معظم الأدب فى ذلك الوقت مسيحى الطابع . ومن أدباء ذلك العصر لوسيوس فرمنيانس لكتنتيوس Lucius Firminianus Lactantius الذى شرح المسيحية شرحا بليغا فى كتابيه **النظم المقدسة** Divinae Institiones (٣٠٧) **وفى الاضطهاد المميت** De Mortibus Persecutorum (٣١٤) الآلام الأخيرة التى عاناها الأباطرة مضطهدو المسيحيين ، ولم يكن هذا الوصف يقل عن وصف شيشرون بلاغة وحقداً . ومن أقواله فى هذا المعنى : « إن طبيعة الدين تحتم أن يكون حراً ، طليقاً ، غير متأثر بأى ضغط »[٥٥] ، وتلك بدعة لم تطل حياته حتى يكفر عنها . وكان يوسبيوس بمفيلى أسقف قيصرية أوسع منه شهرة . وقد بدأ حياته الأدبية كاتباً قسيساً وأمين مكتبة لسلفه الأسقف بمفيلس ، وقد بلغ من حبه لهذا الأسقف أن تسمى باسمه . وكان بمفيلس الأكبر قد حصل على مكتبة أرچن وضم إليها

أكبر مجموعة من الكتب المسيحية عرفت حتى ذلك الوقت . وعاش يوسبيوس بين هذه الكتب ، فأصبح بذلك أكثر رجال الدين علماً فى زمانه . وقضى بمفيلس نحبه أثناء اضطهادات جليريوس (٣١٠) ، وأخذ الناس يتساءلون فيما بعد كيف بقى يوسبيوس حيا بعد هذا الاضطهاد ، حتى أقضت هذه الأسئلة مضجع الرجل وآذت سمعته . وقد عاداه الكثيرون لموقفه الوسط بين أريوس والإسكندر ، ولكنه رغم هذا أصبح فى بلاط الإسكندر كما كان بوسويه Bossut فى بلاط لويس الرابع عشر ، وكلف بكتابة سيرة الإمبراطور ، وجمعت بعض كتاباته فى **تاريخ عام** — يعـد أوفى الكتب التاريخية القديمة . وقد رتب يوسبيوس التاريخين المقدس والدنس فى عمودين متوازيين يفصل بينهما صف من تواريخ السنين المشتركة فى كليهما ، وحاول أن يحدد السنة التى وقعت فيها كل حادثة خطيرة من أيام إبراهيم الخليل إلى أيام قسطنطين . وقد اعتمدت كل التواريخ المتأخرة على « قانونه » هذا :

ثم كسا يوسبيوس هذه العظام لحما ، ونشر فى عام ٣٢٥ **تاريخا كنسيا** يصف فيه نماء الكنيسة من أول عهدها إلى مجمع نيقية . ويحتوى الفصل الأول من هذا الكتاب — وكان نموذجا نسج على منواله بوسويه مرة أخرى — على أقدم ما كتب فى فلسفه التاريخ — فقد صور الزمان كأنه ميدان القتال بين الله والشيطان ، كما صور الحوادث جميعها على أنها معينة على انتصار المسيح . والكتاب سيئ الترتيب ولكنه حسن الأسلوب ؛ وقد فحص عن المراجع فحصاً دقيقاً راعى فيه الذمة والضمير ، وتبلغ أحكامه من الدقة ما تبلغه أحكام أى كتاب قديم فى التاريخ ؛ وهو فى كل خطوة يخطوها يجعل الخلف مديناً له وذلك بما ينقله عن وثائق خطيرة لولا هذا النقل لما عرف العالم عنها شيئاً . والأسقف المؤلف غزير المادة ، واسع الاطلاع إلى حد كبير ، وأسلوبه تسرى فيه العاطفة القوية ، والشعور الفياض ، ويسمو إلى أعلى الدرجات فى لحظات الكراهيـــة

الدينية وهو يعترف صراحة بأنه حذف من كتابه كل ما لا يقوّي إيمان قرائه المسيحيين أو يؤيد فلسفته ، ويحاول أن يكتب تاريخ المجلس العظيم — مجلس نيقية — دون أن يذكر اسم أريوس أو أثناسيوس . وهذا الغش الشريف نفسه هو الذي يجعل كتابه الآخر حياة قسطنطين تسبيحاً بحمد الرجل لا ترجمة له . فهو يبدؤه بثمانية فصول ملهمة عن تقوى الإمبراطور وأعماله الصالحة ، ويصف لنا كيف « حكم الإمبراطورية حكماً راعى فيه حدود الله أكثر من ثلاثين عاماً » . وليس فى مقدور الإنسان بعد أن يقرأ هذا الكتاب أن يظن أن قسطنطين قتل ولده وابن أخته وزوجته .

ذلك أن قسطنطين قد أحسن تدبير كل الأمور ما عدا أمور أسرته ، شأنه فى هذا شأن أغسطس . ولقد كانت صلاته بأمه طيبة سعيدة بوجه عام ، ويبدو أنها سافرت بتكليف منه إلى أورشليم ودمرت ذلك الهيكل الشائن ، هيكل أفروديتى الذى بنى ، كما يقول البعض ، فوق قبر المسيح المنقذ . ويقول يوسبيوس إن الضريح المقدس ظهر للعين فى ذلك المكان ، وفيه الصليب بعينه الذى مات عليه المسيح . وأمر قسطنطين أن تشاد كنيسة الضريح المقدس فوق القبر ، وحفظت الآثار المعظمة فى خزانة مقدسة خاصة . ومن ذلك الحين بدأ العالم المسيحى يجمع مخلفات المسيح والقديسين ويعبدها ، كما كان العالم الوثنى فى الأيام القديمة السابقة يعتز بمخلفات حرب طروادة ويعظمها ، وكما كانت رومة نفسها تفخر بتمثال أثينى إلهة الحكمة حامية طروادة . وقد غير العالم المسيحى مظهر هذه العبادة وجدد جوهرها كما يفعل الخلائق من أقدم العهود . وشادت هلينا كنيسة صغيرة فى بيت لحم فى الموضع الذى تقول الرواية إن يسوع ولد فيه ، وقامت فى تواضع بخدمة الراهبات اللائى كن يقمن بالخدمة فى هذه الكنيسة ، ثم عادت إلى القسطنطينية لتموت بين ذراعى ولدها .

وتزوج قسطنطين مرتين : أولاهما بمنيرفينا Minervina التى رزق منها بابنه كرسپس Cripus ؛ والثانية بفوستا Fausta ابنة مكسميان التى رزق منها بثلاثة بنين وثلاث بنات. وأصبح كرسپس جندياً ممتازاً ، وكان نِعم العون لأبيه فى حروبه ضد ليسنيوس . وفى عام ٣٢٦ قُتل كرسپس بأمر قسطنطين ؛ وامر الإمبراطور حوالى ذلك الوقت نفسه بقتل ليسنيانس Licinianus بن ليسنيوس من قنسطنطيا أخت قسطنطين ؛ وبعد قليل من ذلك الوقت أعدمت فوستا بأمر زوجها ؛ ولسنا نعرف سبب مقتل هؤلاء الثلاثة ، غير أن زوسمس Zosimus يؤكد لنا أن كرسپس غازل فوستا ، وأنها شكته إلى الإمبراطور ، وإن هلينا ، وكانت شديدة الحب لكرسپس ، انتقمت لموته ، بأن أقنعت قسطنطين أن زوجته قد استسلمت لولده[٥٧] . لكن الأرجح من هذا كله أن فوستا عملت على أن تبعد كرسپس من طريق ابنها الذى كانت تريده وارثا لعرش الإمبراطورية ، وربما كان سبب مقتل ليسنيانس أنه كان يحيك المؤامرات ليحصل على نصيب أبيه فى الدولة .

ونالت فوستا بغيتها بعد موتها ؛ ذلك بأن قسطنطين أوصى فى عام ٣٣٥ بأن تقسم الإمبراطورية بين من كان حيًّا من أولاده وأولاد أخته . وبعد سنتين من ذلك الوقت احتفل فى يوم عيد القيامة بمرور ثلاثين عاماً من حكمه ، وأحس بعد ذلك بدنو أجله ، فذهب ليستحم فى الحمامات الحارة فى أكويريون Aquyrior القريبة من القسطنطينية . ولما اشتد عليه المرض استدعى قساً ليجرى له مراسم التعميد المقدس الذى أخره عمداً إلى تلك الساعة . وكان يرجو أن يطهره هذا التعميد مما ارتكبه من الخطايا فى حياته المزدحمة بالأعمال . ثم خلع الحاكم المجهَد الأثواب الملكية الأرجوانية وارتدى الثوب الأبيض ثوب المسيحى الحديث التنصر وأسلم الروح .

لقد كان قسطنطين قائداً بارعاً ، وإداريا عظيما ، وسياسيا لا يشق له في شئون الحكم غبار ، ورث الأعمال التي كان يبغي بها دقلديانوس إعادة الدولة إلى سابق عهدها وأتمها ؛ وبفضله طال عمر الإمبراطورية ١٥٠ عاما . وقد واصل أنماط الحكم الملكي المطلق التي سار عليها أورليان ودقلديانوس مدفوعاً إلى هذا بأطماعه وكبريائه وباعتقاده أن الحكم المطلق هو العلاج الذي تتطلبه الفوضى السائدة في ذلك الوقت . وكان أكبر أخطائه تقسيمه الإمبراطورية بين أبنائه ؛ ولعله قد تنبأ بأن هؤلاء الأبناء سيتنازعون فيما بينهم ، يريد كل منهم أن ينفرد بالملك ، كما فعل هو من قبل ، ولكنه ظن أنهم سيقاتلون حتما إذا اختار وارثاً للملك غيرهم ؛ وهذا أيضاً هو الثمن الذي تبتاع به الملكية المطلقة . أما أوامره التي أصدرها بالإعدام فليس في مقدورنا أن نصدر حكما صحيحاً عليها لأننا لا نعرف أسبابها . وربما كانت مشاكل الحكم وأعباءه الثقيلة قد ناءت به فتغلبت المخاوف والغيرة على العقل والحكمة إلى حين ؛ وإن لدينا لشواهد على أنه في سنيه الأخيرة قد ندم أشد الندم على ما فعل . ويبدو أن عقيدته المسيحية ، التي كانت بدايتها خطة سياسية ، قد استحالت بالتدريج إلى إيمان صحيح استمسك به بإخلاص ، وأصبح أكثر المبشرين في دولته مثابرة على عمله ، واضطهد الملاحدة اضطهاد المؤمن المخلص لدينه ، وكان يعتمد على الله في كل خطوة يخطوها . وقد وهب الإمبراطورية الهرمة حياة جديدة بأن ربط بينها وبين دين فتي ، ونظام قوي ، ومبادئ أخلاقية ؛ وكان في عمله هذا أعظم حكمة من دقلديانوس . وبفضل معونته أضحت المسيحية دولة وديناً ، وأمست هي القالب الذي صبت فيه الحياة الأدبية والفكر الأوربي مدى أربعة عشر عاما . ولعل الكنيسة التي رأت أن تشكر له فضله عليها كانت محقة حين لقبته بأنه أعظم الأباطرة إذا استثنينا أغسطس وحده .

الخاتمة

الفصل الأول

لِمَ سقطت رومه ؟

يقول أحد العلماء النابهين فى هذه الأيام « إن أعظم ما يواجهه التاريخ من مشاكل مشكلتان : أولاهما كيف نفسر قيام الدولة الرومانية ، وثانيتهما كيف نفسر سقوطها[1] » . ولعلنا نقرب من فهم هاتين المشكلتين إذا تذكرنا أن سقوط رومة كقيامها لا يعزى إلى سبب واحد بل إلى كثير من الأسباب ، وأن هذا السقوط لم يكن حادثاً واحداً بل كان عملية امتدت إلى أكثر من ثلثمائة عام . والحق أن ثمة أمماً لم تدم حياتها بقدر ما استلزمه من الزمن سقوط رومة .

والحضارة العظيمة لا يقضى عليها من الخارج إلا بعد أن تقضى هى على نفسها من الداخل . وشاهد ذلك أنا نجد الأسباب الجوهرية لسقوط رومة فى شعب رومة نفسه ، أى فى أخلاقها ، وفى النزاع بين طبقاتها ، وفى كساد تجارتها ، وفى حكومتها الاستبدادية البيروقراطية ، وفى ضرائبها الفادحة الخانقة ، وحروبها المهلكة . ولقد كان الكتّاب المسيحيون شديدى الإدراك لهذا الضعف المتعدد الأسباب ، فلقد بشر ترتليان حوالى عام ٢٠٠ ، وهو جذلان ، بما سماه ipsa clausula saeculi أى « نهاية عهد » — معتقداً أنه فى أغلب الظن مقدمة لدمار العالم الوثنى . ورد سبريان قبيل عام ٢٥٠ على ما اتهم به المسيحيون من أنهم أصل ما حاق بالإمبراطورية من محن بأن هذه المحن ترجع إلى أسباب طبيعية :

«يجب أن تعلموا أن العالم قد شاخ ، ولم يبق ما كان له قبل من قوة ، وأنه يشهد بنفسه على اضمحلاله . إن مقدار ما يسقط من المطر وما تشعه الشمس من دفء آخذان في النقص ... ، وكادت المعادن ينضب معينها ، وقلّ ما ينتجه الزارع من غلة »[٢] .

وما من شك في أن هجمات البرابرة ، واستغلال العروق المعدنية الغنية الذي دام عدة قرون ، قد أنقصا ما تخرجه رومة من المعادن النفيسة ؛ وأن ما حدث في إيطاليا الوسطى والجنوبية من تقطيع الغابات ، وفعل التعرية والتّحات ، وإهمال قنوات الري الناشيء من نقص عدد الفلاحين ، واضطراب الحكومات — ما من شك في أن هذا كله قد ترك إيطاليا أفقر مما كانت في سابق عهدها . بيد أن السبب الحقيقي لم يكن ناشئاً من أن التربة قد استنفدت قدرتها على الإنتاج ، أو أن جو البلاد قد تغير ، بل كان ما حاق بأهلها من إهمال وعقم سببهما ما حل بهم من ضيق وتثبيط للعزيمة .

وكانت الأسباب الأحيائية(*) أهم من الأسباب السابقة وأعظم منها أثراً . فقد بدا نقص خطير في عدد السكان في الغرب بعد هدريان . ويشك بعض المؤرخين في هذا النقص ، ولكن إسكان البرابرة بالجملة في ولايات الدولة على أيدي أورليوس ، وڤلنتنيان ، وأورليان ، وبروبس ، وقسطنطين ، لا يكاد يترك مجالا للشك في حقيقة هذا النقص[٣] . ولما أراد أورليوس أن يسد ما حدث من النقص في جيشه جند العبيد ، والمجالدين ، ورجال الشرطة ، والمجرمين ؛ وهذا لا يحدث إلا إذا كان الخطر الذي يتهدد البلاد وقتئذ أشد من ذي قبل : أو أن السكان الأحرار كانوا أقل عدداً منهم في الأيام السابقة ؛ والذي لا شك فيه أن غير الأحرار من السكان قد نقصوا عما كانوا عليه من قبل . ولهذا السبب أقفرت

(*) نسبة إلى علم الأحياء biological (المترجم)

ضياع كثيرة وتركت أرضها بوراً ، وخاصة فى إيطاليا ، حتى لقد عرضها برتناكس من غير ثمن على من يرضى أن يفلحها . ويتحدث قانون سنّه سبتميوس سفيرس عن نقص الرجال hominum penuria[٤] . وقد ظل هذا النقص يجرى فى مجراه قروناً طوالا فى بلاد اليونان . وشاهد ذلك أن الأسقف ديونيشيوس يقول إن سكان الإسكندرية نقصوا فى أيامه (٢٥٠) إلى نصف ما كانوا عليه فى الأيام السابقة ، وكانت هذه المدينة فى تاريخها السابق تفخر بكثرة من فيها من السكان . وكان يؤلمه أن « يرى الجنس البشرى آخذاً فى النقصان والتبدد المستمر »[٣] . ولم يكن يزداد فى هذا الوقت إلا البرابرة والشرقيون فى خارج الإمبراطورية وفى داخلها .

ترى ما سبب هذا النقص فى عدد السكان ؟ إن أكبر أسبابه هو تحديد النسل ، وهو عملية كانت تلجأ إليها الطبقات المتعلمة أولا ، ثم سرت عدواها إلى الطبقات الدنيا المشهورة بكثرة أبنائها[٦] ؛ ولم يحل عام ١٠٠ بعد الميلاد حتى وصلت هذه العدوى إلى طبقات الزراع ، كما يدل على ذلك امتداد المعونة الإمبراطوريه إلى هذه الطبقة لتشجيعها على الإكثار من الأبناء ؛ وقبل أن يبدأ القرن الثالث عمت هذه العادة الولايات الغربية ، وأدت إلى نقص السكان فى غالة[٧] . وانتشرت عادة وأد الأطفال بازدياد الفقر على الرغم من أن القوانين كانت تعد هذا العمل جريمة[٨] . وربما كان الإفراط فى الصلات الجنسية قد أنقص الخصوبة البشرية ؛ وكان للامتناع عن الزواج أو تأخير وقته هذا الأثر بعينه . يضاف إلى هذا أن عادة الإخصاء أخذت تزداد بسبب سريان العادات الشرقية فى بلاد الغرب وليس أدل على انتشار هذه العادة من أن بلنتيانس Plantianus رئيس الحرس البريتورى أمر بإخصاء مائة غلام قدمهم هدية إلى ابنته بمناسبة زواجها[٩] .

ويلى تحديد النسل فى أسباب نقص السكان ما كان ينشأ عن الأوبئة

والثورات والحروب من مجازر بشرية : وقد قضت الأوبئة التى اجتاحت البلاد فى أيام أورليوس ، وجلينس ، وقسطنطين على عدد كبير من السكان ؛ ولم تكد تنجو أسرة واحدة فى الإمبراطورية كلها من الوباء الذى تفشى فيها بين عامى ٢٦٠ و ٢٦٥ ؛ ويقال إن خمسة آلاف كانوا يموتون فى رومة نفسها كل يوم ، وإن هذه الحال دامت أسابيع كثيرة[١٠] ؛ وقد شرع بعوض كمبانيا يتغلب على الآدميين الذين غزوا المستنقعات البنتية ، وأخذت الملاريا تضعضع قوى الأغنياء والفقراء على السواء فى لاتيوم وتسكانيا . ولقد كان لمجازر الحروب ، والثورات ، وربما كان لعادات منع الحمل ، والإجهاض ، ووأد الأطفال ، أثر فى نقص القدرة على النسل فضلا عن أثرها فى تقليل عدد السكان ؛ ذلك بأن أقدر الرجال كانوا أكثرهم تأخيراً لوقت الزواج ، وأقلهم نسلا ، وأقصرهم آجالا . وكانت معونة الدولة سبباً فى ضعف الفقراء ، كما كان الترف سبباً فى ضعف الأغنياء ، والسلم الطويلة الأجل سبباً فى حرمان الطبقات كلها فى شبه الجزيرة من الروح العسكرية والفنون الحربية . وكان الألمان الذين أخذوا من ذلك الوقت يسكنون شمالى إيطاليا ويكثر عددهم فى الجيش ، أصح أجساماً وأمتن أخلاقاً ممن بقى على قيد الحياة من سكان البلاد الأصليين . ولو أن الزمان سمح لهذا الجنس الجديد أن يمتزج بالسكان الأصليين على مهل لكان من الجائز أن يتثقف بثقافة الرومان ويبعث النشاط والقوة فى الدم الإيطالى ؛ ولكن الزمان لم يكن كريماً إلى هذا الحد . يضاف إلى هـذا أن سكان إيطاليا كانوا قد اختلطوا من زمن بعيد بأجناس شرقية ، أضعف من الجنس الرومانى جسما وإن جاز أن تكون أرق منه عقلا . ولم يكن فى مقدور الألمان الذين أخذوا يتكاثرون بسرعة أن يفهموا الثقافة الرومانية ؛ فلم يقبلوها ، ولم ينقلوها إلى غيرهم من الشعوب ؛ وكان الشرقيون الذين يتناسلون هم أيضاً بسرعة يميلون إلى تدمير هذه الثقافة ، أما أصحابها الرومان فقد ضحوا بها فى سبيل

الراحة التى يجلبها العقم ؛ وقصارى القول أن رومة لم يغلبها على أمرها غزو البرابرة لها من خارجها بل غلبها تكاثر البرابرة فى داخلها .

وعجل الفساد الخلقى هذا الانحلال . ذلك أن صفات الرجولة التى نشأت من بساطة العيش وتحمل المشاق ، ودعمها إيمان قوى — نقول إن هذه الصفات قد أضعفها بهرج الثروة وحرية عدم الإيمان . فقد أوتى الناس من أهل الطبقتين الوسطى والعليا فى ذلك الوقت الوسائل التى يتمكنون بها من إرضاء شهواتهم والخضوع لما يحيط بهم من غوايات ، لا يصدهم عن ذلك إلا ما عساه أن يكون لديهم من واجب مراعاة اللياقة والآداب العامة ؛ وضاعف ازدحام المـــدن بالسكان ضروب التعاقد والمشارطات العامة ، ومنعت رقابة الحكومة والأمة من الامتداد إليها ؛ وجاءت الهجرة بمائة أو نحوها من الثقافات التى لم يعد يهتم الناس بالتفريق بينها لكثرة ما بينها من فروق . وانحطت عند الناس معايير الخلق والجمال لتغلب طبقات الشعب وما أصبح لها من أثر كبير فى البلاد ، وتحررت الشهوات الجنسية من القيود فى الوقت الذى ضاعت فيه الحرية السياسية .

ويقول عظيم المؤرخين : إن المسيحية كانت أهم أسباب سقوط الدولة الرومانية[١١] ، لأن هذا الدين ، كما يزعم هو ومن يسير على نهجه[١٢] ، قد قضى على العقائد القديمة التى كانت هى الدعامة الخلقية للنفوس الرومانية ، والدعامة السياسية للدولة الرومانية ، ولأنه ناصب الثقافة القديمة العداء — فحارب العلم ، والفلسفة ، والأدب ، والفن ؛ وجاء بالتصوف الشرقى الموهن فأدخـــله فى الرواقية الواقعية التى كانت من خصائص الحياة الرومانية ؛ وحول أفكار الناس عن واجبات هذا العالم ووجههم إلى الاستعداد لاستقبال كارثة عالمية ، وهو استعداد مضعف للعزيمة ؛ وأغراهم بالجرى وراء النجاة الفردية عن طريق الزهد والصلاة ، بدل السعى للنجاة الجماعية بالإخلاص للدولة والتفانى فى الدفاع ؛ وحطم وحدة الإمبراطورية حين كان الأباطرة العسكريون يكافحون للاحتفاظ بها ؛ وشجع أتباعه على

الامتناع عن تولى المناصب العامة أو أداء الخدمة العسكرية ؛ وكان المبدأ الأخلاق الذى يدعو إليه هو مبدأ السلام وعدم المقاومة ، حين كان بقاء الإمبراطورية يتطلب تقوية الروح الحربية ، وبهذا كله كان انتصار المسيح إيذاناً بموت رومة .

ولا يخلو هذا الاتهام القاسى من بعض الحقيقة ؛ فقد كان للمسيحية ، على الرغم منها ، نصيب فى فوضى العقائد التى ساعدت على إيجاد ذلك الخليط من العادات التى كان لها نصيب فى انهيار رومة . ولكن نمو المسيحية وانتشارها كانا نتيجة لضعف رومة أكثر مما كانا سبباً فى هذا الضعف. ذلك أن تحطم قواعد الدين القديم قد بدأ قبل ظهور المسيح بزمن طويل ؛ وقد وجه إليه إنيوس Ennius ولكريشيوس Lucretius هجمات أشد عنفاً من كل ما وجهه إليه أى مؤلف وثنى بعدهما . أما الانحلال الخلقى فقد بدأ من وقت أن فتح الرومان بلاد اليونان ، وبلغ أوجه فى عهد نيرون ؛ ثم صلحت أخلاق الرومان بعدئذ ، وكان أثر المسيحية فى الحياة الرومانية من الناحية الخلقية أثراً طيباً بوجه عام . وبناء على هذا نقول إن المسيحية قد نمت هذا النماء السريع لأن رومة كانت وقتئذ فى دور الاحتضار ، فالناس لم يفقدوا إيمانهم بالدولة لأن المسيحية أبعدت عواطفهم عنها ، بل فقدوه لأن الدولة كانت تنصر الثروة على الفقر ، وتحارب لتستولى على العبيد ، وتفرض الضرائب على الكدح لتعين على الترف ، ولأنها عجزت عن حماية الشعب من المجاعات ، والأوبئة ، والغزو الأجنبى ، والفقر المدقع ؛ فهل يلام الناس بعد ذلك إذا تحولوا عن قيصر الذى يدعو إلى الحرب إلى المسيح الداعى إلى السلم ، ومن الوحشية التى لا يكاد يصدقها العقل إلى الإحسان الذى لم يسبق له مثل ، ومن حياة خالية من الأمل والكرامة إلى دين يواسيهم فى فقرهم ويكرم إنسانيتهم ؟ ألا إن نصيب المسيحية فى القضاء على الدولة الرومانية لم يكن أكثر من نصيب غزو البرابرة لها . لقد كانت هذه الدولة قشرة فارغة حين قامت المسيحية فى ربوعها ، وحين داهمها غزو البرابرة.

ولقد ذكرنا فى فصل سابق الأسباب الاقتصادية التى أدت إلى ضعف رومة، لأنا رأينا أن ذكرها كان ضرورياً لفهم إصلاحات دقلديانوس، ولسنا نحتاج إلى أكثر من تلخيصها هنا تذكرة للقراء . لنذكر اعتماد رومة على الحبوب المستوردة من الولايات اعتماداً مزعزعاً لا تؤمن مغبته ، وانقطاع ورود العبيد وانهيار الضياع الكبيرة ، وانحطاط وسائل النقل والأخطار التى تتعرض لها التجارة ، وفقد رومة أسواق الولايات بسبب منافسة هذه الولايات نفسها لها ، وعجز الصناعة الإيطالية عن تصدير ما يوازى واردات إيطاليا ، وما أدى إليه ذلك من انتقال المعادن الثمينة إلى الشرق ؛ والحرب المدمرة بين الأغنياء والفقراء ، وارتفاع نفقات الجيوش ، والمساعدات التى تقدم للعجزة والفقراء ، والأعمال العامة ، والبيروقراطية المطردة الزيادة ، وتثبيط همم النابهين ذوى الكفايات ، والحاشية المتطفلة التى لا تؤدى عملا من الأعمال ، ونفاد رؤوس الأموال المستثمرة لما كان يفرض عليها من الضرائب التى تبلغ حد المصادرة ، وهجرة رؤس الأموال والعمال ، واستخدام العبيد فى الأعمال الزراعية ، وفرض نظام الطبقات الصارم على الأعمال الصناعية ؛ كل هذا قد قوض الأسس المادية للحياة الإيطالية حتى أضحت قوة رومة فى آخر الأمر شبحاً سياسياً يعيش بعد موتها الاقتصادى .

وأما الأسباب السياسية التى أدت إلى انهيار الإمبراطورية فترجع كلها إلى أصل واحد — هو أن الاستبداد المتزايد قضى على شعور الفرد بحقوق المدنية ، وأنضب معين قدرته على القيام بأعباء الحكم . ولما عجز الرومانى عن التعبير عن إرادته السياسية إلا بالعنف ، فقد من أجل ذلك اهتمامه بشئون الحكم وانهمك فى أعماله ، وفى متعه ، وفى فيلقه ، أو فى نجاته الفردية . لقد كانت الوطنية والديانة الوثنية وثيقتى الارتباط إحداهما بالأخرى ، وها هما الآن يقضى عليهما معاً [١٣] . واستنام مجلس الشيوخ إلى الكسل والخمول ، واعتاد الخضوع أو الارتشاء بعد أن ظل يفقد سلطانه ومكانته شيئاً فشيئاً بعد برتناكس ،

فانهار بذلك الحاجز الأخير الذى كان يستطيع إنقاذ الدولة من أخطار العسكرية والفوضى . وأما الحكومات المحلية التى عدا عليها الرقباء والجباة فلم تعد تستهوى رجالا من الطراز الأول ، وأدت مسئولية الموظفين فى الولايات عن مجموع الضرائب المفروضة على أقاليمهم ، وما تتطلبه مناصبهم العليا من نفقات لا تؤديها إليهم الدولة ، وما تنتظره منهم من أموال ، وخدمات ، وأعمال بر وألعاب ، وما يتعرضون له من أخطار الغزو الأجنبي وحرب الطبقات ، أدت هذه كلها إلى تهرب المواطنين من المناصب تهرباً يشبه تهربهم من الضرائب ، والمصانع ، والمزارع ، فكان الناس يتعمدون جعل أنفسهم غير صالحين لتولى هذه المناصب بإنقاص الطبقة التى ينتمون إليها ؛ ومنهم من كان يهاجر إلى بلدة غير بلدته ، ومنهم من عمل زارعاً أو راهباً ، وفى عام ٣١٣ وسع قسطنطين نطاق الإعفاء من مناصب البلديات حتى شمل القساوسة المسيحيين ، كما أعفاهم من عدة أنواع من الضرائب ، وهو الإعفاء لذى اعتاد الكهنة الوثنيون أن يتمتعوا به .

وما لبثت الكنيسة ، بسبب هذا الإعفاء ، أن غمرتها موجة من طالبى الرسامة ، وأخذت المدن تشكو ما أصبها من نقص فى الإيراد وفى اللائقين من أهلها أن يكونوا شيوخاً ، حتى اضطر قسطنطين فى آخر الأمر أن يصدر قانوناً يقضى بألا يقبل فى الكهنوت أى رجل لائق لأن يشغل منصباً فى حكومات البلديات[١٤] . وكانت الشرطة الإمبراطورية تتعقب الفارين من المناصب العامة كما تتعقب من يتهربون من الضرائب أو الخدمة العسكرية ، وتعود بهم إلى مدنهم وترغمهم على العمل فى حكوماتها[١٥] ، ثم قررت فى آخر الأمر أن يرث الابن مركز أبيه الاجتماعى ، وأن يقبل المنصب العام الذى تؤهله إليه طبقته . إذا اختير له ؛ وهكذا كمل رق الوظيفة القيود الاقتصادية المفروضة على الطوائف المختلفة .

وخاف جليدس أن يثور عليه مجلس الشيوخ فأعفى أعضاءه من الخدمة فى

الجيش . ولما كانت الروح الحربية قد انعدمت فى إيطاليا فإن هذا القرار كان خاتمة الضعف العسكرى فى شبه الجزيرة ؛ فكان إنشاء جيوش من أبناء الولايات ومن الجنود المرتزقة ، والقضاء على الحرس البريتورى على يدى سبتميوس سفيرس ، وظهور قواد للجيش من بين أبناء الولايات ، واستيلاؤهم على عرش الإمبراطورية ، كان هذا كله سبباً فى القضاء على زعامة إيطاليا ، بل قل على استقلال إيطاليا ، قبل سقوط الإمبراطورية فى الغرب بزمن طويل . ذلك أن جيوش رومة لم تعد كما كانت من قبل جيوشاً رومانية ، بل كان معظمها يتألف من أبناء الولايات وأكثرهم من البرابرة ؛ ولم يكونوا يحاربون دفاعاً عن دينهم أو وطنهم ، بل كانوا يقاتلون لنيل أجورهم ، وهباتهم ، ومغانمهم . وكانوا يهاجمون مدن الإمبراطورية وينهبونها بنفس الحماسة التى يظهرونها فى مواجهة الأعداء ، وكان معظمهم من أبناء الفلاحين الذين يحقدون على الأغنياء وعلى المدن لأن الأولين يستغلون الفقراء ولأن الثانية تستغل الريف ؛ وكانت الحروب الداخلية تتيح لهم الفرصة لنهب المدن نهباً لا يكاد يترك فيها شيئاً يدمره البرابرة الأجانب[16] . ولما أصبحت المشاكل الحربية أعظم خطراً من الشئون الداخلية ، اتخذت المدن القريبة من الحدود مراكز للحكم ؛ وأضحت رومة مسرحاً للانتصارات ، ومظهراً للعمائر الإمبراطورية ، ومتحفا للآثار والأنظمة السياسية . يضاف إلى هذا أن تعدد العواصم وانقسام السلطة حطا وحدة البلاد الإدارية ، فلما أصبحت الإمبراطورية أوسع من أن يحكمها حكامها ، ومن أن تحميها جيوشها ، بدأت تتفكك .

ولما تركت غالة وبريطانيا وشأنهما تحميان نفسيهما بمفردهما من الألمان والأسكتلنديين دون معونة من الحكومة المركزية اختارت كلتاهما (إمبراطورها) الخاص بها وخلعت عليه السلطة العليا والسيادة الكاملة ؛ ثم انفصلت تدمر عن الدولة فى عهد زنوبيا ، ولم تلبث أسپانيا وأفريقية أن خضعتا دون مقاومة تذكر إلى الفاتحين البرابرة ؛ فلما جلس جلينس على العرش كان ثلاثون قائداً يحكمون

ثلاثين إقليما من أقاليم الإمبراطورية حكماً يكاد يكون مستقلا عن السلطة المركزية . وفى هذه المأساة المروعة ، مأساة دولة عظيمة تتقطع أوصالها ، كانت الأسباب الداخلية هى العوامل الخانقة الخفية ، أما الغزاة البرابرة فلم يدخلوها إلا بعد أن فتح لهم ضعفها الأبواب وهيأ هم السبل ، وبعد أن أسلم ضعف الحكام الأحيائى ، والخلقى ، والاقتصادى ، والسياسى ، المسرح إلى الفوضى ، واليأس ، والاضمحلال .

ومن الأسباب الخارجية التى عجلت بسقوط الإمبراطورية الغربية توسع الهون أو الشى أونج — نو Hsiung-nu وهجرتهم فى شمالى آسية الغربى . ذلك أنهم لما صدهم السور الصينى العظيم والجيوش الصينية فى زحفهم نحو الشرق اتجهوا نحو الغرب حتى وصلوا فى عام ٣٥٥ إلى نهرى الفلجا وجيحون . وضغطوا فى زحفهم هذا على السرماتيين فى الروسيا فاضطروهم إلى التحرك نحو البلقان ؛ وتضايق القوط من هذا الزحف فتحركوا مرة أخرى على الحدود الرومانيـــة ، وسمح لهم بأن يعبروا الدانوب ويستوطنوا موئيزيا Moesia (٣٧٦) ؛ ولما أساء الموظفون الرومان معاملتهم فى هذه الولاية ، ثاروا عليهم ، وهزموا جيشاً رومانيا كبيراً عنـــد أدريانوپل (أذرنه) (٣٧٨) وهددوا فى وقت ما القسطنطينية نفسها .

وفى عام ٤٠٠ قاد ألريك Alaric القوط الغربيين وعبر بهم جبال الألب وانقض على إيطاليا ، وفى عام ٤١٠ استولوا على رومة ونهبوها . وفى عام ٤٢٩ قاد جيسيرك Gaiseric الوندال لفتح أسپانيا وأفريقية ، وفى عام ٤٥٥ استولوا هم أيضاً على رومة ونهبوها . وفى عام ٤٥١ قاد أتلا Atilla الهون وهجم بهم على غالة وإيطاليا ، فهزموا عند شالون Chalons ، ولكنهم اجتاحوا لمباردیا . وفى عام ٤٧٢ عين قائد پانونى اسمه أرستيز Orestes ابنه إمبراطوراً وسماه رميولس أوغسطولس Romulus Augustulus ؛

وبعد ست سنين من ذلك الوقت خلع الجنود البرابرة المرتزقون ، الذين كانوا يسيطرون وقتئذ على الجيش الرومانى ، هذا « الأغسطس الصغير » ، وعينوا قائدهم أدوكر Odoacer ملكاً على إيطاليا ؛ وأقر أدوكر بالسيادة للإمبراطور الرومانى الجالس على العرش فى القسطنطينية ورضى هذا الإمبراطور به ملكاً تابعاً له . وظلت الإمبراطورية الرومانية فى الشرق قائمة حتى عام ١٤٥٣ ، أما فى الغرب فقد لفظت وقتئذ نفسها الأخير .

الفصل الثانى

ما قامت به رومة من جلائل الأعمال

إن تعليل سقوط رومة لأيسر من تعليل طول حياتها — وأهم عمل قامت به رومة هو أنها ، بعد أن استولت على عالم البحر الأبيض المتوسط ، تثقفت بثقافته ، ووهبته النظام ، والرخاء ، والسلم مدى مائتى عام ، وصدت عنه غارات البرابرة قرنين من الزمان ، وأورثت الغرب قبل موتها تراث اليونان والرومان .

وليس لرومة منافس قط فى فن الحكم . نعم إن الدولة الرومانية قد ارتكبت آلافاً من الأخطاء السياسية ، فقد أقامت صرحها على أرستقراطية أنانية ، وكهنوت ذى طقوس غامضة خفية ، وأنشأت دمقراطية من الأحرار ثم قضت عليها بالعنف والفساد ، واستغلت ما فتحته من البلاد لتزود بخيراتها إيطاليا الطفيلية ، فلما عجزت عن الاستغلال تقوضت دعائمها وانهارت . وخلفت فى أماكن متفرقة فى الشرق والغرب قفاراً وسمت هذا سلاماً . ولكنها أقامت وسط هذا الفساد كله نظاماً فخماً من الشرائع أمن الناس فى أوربا كلها تقريباً على أنفسهم وأموالهم وكان باعثاً قوياً على الجد والمثابرة من أيام المشترعين العشرة إلى أيام نابليون . وشكلت حكومة انفصلت فيها السلطة التشريعية عن السلطة التنفيذية ، وظل ما فيها من ضوابط وموازين مصدراً ملهماً لواضعى الدساتير إلى عهد الثورتين الأمريكية والفرنسية . ولقد جمعت زمنا ما بين النظم الملكية والأرستقراطية والدمقراطية ، ونجحت فى عملها هذا نجاحاً أثنى عليه الفلاسفة ، والمؤرخون ، ورعاياها وأعداؤها على السواء . ووضعت أنظمة الحكم البلدى المحلى ، وأمكنت نصف ألف مدينة من أن تستمتع بالحرية زمناً طويلا ، وأدارت شئون

إمبراطوريتها فى أول الأمر بشره وقسوة ، ثم بدلتهما تسامحاً وعدالة رضيت بهما الدولة العظيمة رضا لم نعرف له نظيراً فيما تلا ذلك الزمان . وجعلت الصحراء تزدهر بالحضارة ، وكفرت عن ذنوبها بما بسطته على بلادها من سلم دائمة طويلة ، وها نحن أولاء فى هذه الأيام نبذل أعظم الجهود لنحيي السلم الرومانية فى هذا العالم المضطرب .

فى هذا الإطار الذى لم يسم عليه إطار غيره شادت رومة صرح حضارة يونانية فى أصلها ، رومانية فى تطبيقها ونتائجها . ولسنا ننكر أن انهماكها فى شئون الحكم قد شغلها عن أن تنتج من الأعمال الذهنية مثل ما أنتجت بلاد اليونان ؛ ولكنها استوعبت التراث الصناعى ، والعقلى ، والفنى الذى تلقته عن قرطاجنة ومصر وبلاد الشرق ، وقدرته أعظم التقدير ، واستمسكت به أشد الاستمساك ؛ ولسنا ننكر كذلك أن العلوم لم تتقدم على يديها ، ولم تدخل شيئاً من التحسين الآلى على الصناعة ، ولكنها أغنت العالم بتجارة كانت تسير فى بحار آمنة ، وأنشأت شبكة من الطرق الباقية حتى الآن أضحت شرايين يجرى فيها دم الحياة الجياش : ولقد مرت فوق هذه الطرق ، وفوق ألف من الجسور الجميلة ، إلى عالم العصور الوسطى والعالم الحديث أساليب الزراعة والصناعات اليدوية ، والفنون ، وعلم إقامة المبانى التذكارية وأعمال المصارف والاستثمار وتنظيم الأعمال الطبية والمستشفيات العسكرية ، ونظام المدن الصحى ، وأنواع مختلفة من الفاكهة ، وأشجار النقل ، ونباتات الحقول والزينة ، التى جاءت بها من الشرق لتتأقلم فى الغرب ؛ وحتى سر التدفئة المركزية قد انتقل من الجنوب الدفىء إلى الشمال البارد . ولقد خلق الجنوب الحضارات ثم غلبها الشمال على أمرها فدمرها أو استعارها من أهلها .

ولم تخترع رومة نظم التربية ، ولكنها أتمتها ووسعتها إلى حد لم يعرف له مثيل من قبل ، وأمدتها بمعونة الدولة ، ووضعت المنهاج الذى ظل باقياً يعذبنا فى

أيام شبابنا . وفى العمارة لم تخترع الأقواس أو العقود أو القباء ، ولكنها استخدمتها بجرأة وفخامة جعلت بعض الطرز من عمائرها أرقى من جميع نظائرها إلى هذه الأيام ؛ ولقد أخذت الكنائس الكبرى فى العصور الوسطى جميع عناصرها من الباسلقا الرومانية . ولم تخترع رومة التماثيل ، ولكنها وهبتها قوة واقعية ، قلما سما إليها اليونان أصحاب هذه النزعة ؛ ولم تبتدع الفلسفة ولكن لكريشيوس وسنكا هما اللذان وجدت فيهما الأبيقورية والرواقية صورتيهما النهائيتين المصقولتين أعظم صقل . ولم تنشئ الأنماط الأدبية إنشاء ، لا نستثنى من ذلك الهجو نفسه ؛ ولكن من منا يستطيع أن يقدر حق التقدير ما كان لشيشرون من أثر فى فنون الخطابة ، والمقالة ، وأسلوب النثر ، أو أثر فرجيل فى دانتى ، أو تسو Tasso فى ملتن ، . . أوليفى وتاستس فى كتابة التاريخ ، أو هوراس وجوفنال فى دريدن ، وسوفت ، وپوپ؟

وقد أضحت لغتها بفضل ما دخل عليها من مسخ يبهر الإعجاب لغة إيطاليا ، ورومانيا ، وفرنسا ، وأسپانيا ، والبرتغال ، وأمريكا اللاتينية ، أى لغة نصف عالم الرجل الأبيض ؛ وقد ظلت تلك اللغة حتى القرن الثامن عشر اللغة الدولية للعلم والتبحر فى الدرس ، والفلسفة فى بلاد الغرب . وكانت هى المعين الذى اغترفت منه مفردات دولية سهلة لعلمى الحيوان والنبات ، ولقد بقيت حية فى الطقوس المنغمة والوثائق الرسمية للكنيسة الكاثوليكية ؛ ولا تزال تكتب بها تذاكر الأطباء ، وتتردد كثيراً فى المصطلحات القانونية ؛ ودخلت عن طريق اللغات الرومنسية(*) (مثل peasant, pagan, paganus ؛ و royal yegal, reyalis) لتزيد من ثروة اللغة الإنجليزية ومرونتها . وملاك القول أن ما ورثناه عن الرومان يظهر أمامنا آلاف المرات فى كل يوم .

ولما أن فتحت المسيحية رومة انتقل إلى الدين الجديد بناء الدين الوثنى

(*) أى المشتقة من اللغة اللاتينية كاللغات السالفة الذكر (المترجم) .

القديم ، انتقل إليه لقب الحبر الأعظم pontifex meximus ، وعبادة الأم العظمى ، وعدد لا يحصى من الأرباب التى بثت الراحة والطمأنينة فى النفوس ، والإحساس بوجود كائنات فى كل مكان لا تدركها الحواس ، وبهجة الأعياد القديمة أو وقارها ، والمظاهر الخلابة للمواكب القديمة التى لا يعرف الإنسان بدايتها ، نقول إن هذه كلها انتقلت إلى المسيحية كما ينتقل دم الأم إلى ولدها ، وأسرت رومة الأسيرة فاتحها ، وأسلمت الإمبراطورية المحتضرة أزمة الحكم والمهارة الإدارية إلى البابوية القوية ، وشحذت الكلمة المواسية بقوة سحرها ما فقده السيف المفلول من قوته ؛ فحل مبشرو الكنيسة محل جيوش الدولة ، وأخذ هؤلاء يجوبون الآفاق فى جميع الجهات متبعين الطرق الرومانية ؛ وعادت الولايات الثائرة بعد أن اعتنقت المسيحية إلى الاعتراف بسيادة رومة . وحافظت العاصمة القديمة على سلطانها ، خلال الكفاح الطويل الذى دام فى عصر الإيمان ، وما زال ينمو هذا السلطان ، ينمو ويقوى حتى خيل إلى العالم فى عصر النهضة أن الثقافة القديمة قد انبعثت من قبرها ، وأن المدينة الخالدة أضحت مرة أخرى مركز حياة العالم وثراثه وقمة تلك الحياة وذينك الثراء والفن . وقد احتفلت رومة فى عام ١٩٣٦ بمضى ٢٦٨٩ عاما على تأسيسها ، وكان فى وسعها أن تعود بنظرها إلى ما تمتاز به حضارتها من استمرار رائع فى تاريخ الإنسانيـــة . ألا ليتها تعود إلى حياتها الماضية .

شكراً لك أيها القارئ الصبور

المراجع مفصلة

CHAPTER XXI

1. Pliny, *Nat Hist*, iii, 6.
2. Dill, 239.
3. Eattorusso, J, *Wonders of Italy.* 473.
4. Herodoius, I, 196.
5. Strabo, v, 1-7.
6. Varro, *Rerum rust.*, i. 2.
7. Pliny, iii, 6.
8. Strabo, v, 4-5.
9. Varro, *sat Men*, frag. 44. in Friedländer, I, 338.
10. Boissier, *Cicero*, 168.
11. Seneca, *Epist.* li.
12. Strabo, v, 4.3.
13. Reid, 3.
14. Dio, lxvi, 22.
15. Pliny's *Letters*, vi, 16.
16. Ibid, 20.
17. Rostovtzeff, *Mystic Italy*, 52.
18. Mau, 491; Boissier, *Rome and Pompeii*, 430.
19. Id., *La rélligion romaine*, II, 296.
20. Mau, 226, 148.
21. Ibid. 16.
22. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 142; Dill. 194; Frank, *Economic Survey*, V. 98; Friedländer, II. 264.
23. CAH, XI, 587; Friedländer II, 228.
24. As at Antium, Lanuvium, Tibur, Aricia.

CHAPTER XXII

1. Cicero, *II, In Verren*, iii. 207.
2. Tacitus, *Annals*, xii. 31.
3. Cicero, *Pro lege Manilia*, 6.
4. Plutarch, *De reip. ger.*, 32.
5. Mommsen, *History*, II, 205.
6. Livy, xxv, 29.
7. Reid 288.
8. Toutain, 269.
9. Bouchier, E. *Life and Letters in Roman Africa*, 73.
10. St. Augustine, *Letters*, 185.
11. Friedländer, I, 312.
12. Boissier, *L' Afrique romaine*, 181-2; Devis, 200.
13. Bouchier, 83.
14. Juvenal, vii. 148.
15. Apuleius, 41; a fine example of Adlington's delectable translation 1566).
16. Book XI.
17. Book IV-VI.
18. Strabo, iii, 4-16.
19. Ibid., 3.7.
20. Ibid. 4-16-18.
21. Buchan, 310.
22. Gest. 201.
23. Caesar, *Bello Gallico*, ii, 30.
24. Pliny, xxxviii, 5.
25. Appian, iv, 7.
26. Strabo, iv, 4-5.
27. Ibid.
28. Caesar, v, 34.
29. Ammianus, xv, 12.
30. Caesar, vi, 14; Val. Max; ii, 6, Hammerton, J., *Universal History of the World*, III. 1524.
31. Caesar, vi, 14.
33. Arnold, W. P., *The Roman System of Provincial Administration*, 142.
34. Pliny, xviii, 72.
35. Frank, *Economic Survey*, V, 133f.
36. Pliny, xxxiv, 18.
37. Ibid, iii, 5.
38. Sidonius Apollinaris, *Poems*, xxiii, 37.
40. Jullian, C. *Histoire de la Gaule*, V, 35n.
41. In Mommsen, *Provinces*, I, 118.
43. See the statemer of their case in Barnes, H. E. *History of Western Civilization*, I, 434.
44. Nommsen *History*, V, 100.
45. Caesar, V, 12.

46. Tacitus, *Annals*, xiv, 29.
47. Tacitus, *Agricola*, 21.
48. Haverfield, F., *The Roman Occupotion of Britain*, 213.
49. Id., *The Romanization of Britain* 62. *Collingwood and Myres, Roman Britain*, 197; Home, G., *Roman London*, 98.
50. Strabo. iv, 5.2.
51. CAH, XII, 289.
52. *Tine*, Mar. 17, 1941.
53. Tacitus, *Germania*, 14.
54. Strabo, vii, 1.2.
55. Seneca, *De ira*, v, 10.
56. *Germania*, 22.
57. Sumner, W. G., *Folkways*, 380.
58. Ibid., 816.
59. *Germania* 20.

CHAPTER XXIII

1. Dio Chrysostom, *Orat.*, vii.
2. Plutarch. *"Demosthenes"*
3. In Trench, R.C., *Plutarch*, 40
4. Ibid., 41.
5. In Glover, T. R. *Conflict of Religions in the Early Roman Empire*. 85.
6. Plutarch, *Quaestiones Romani*; *De Isise et asiride.*
7. Plutarch, *Moralia*, introd., I, 15.
8. Ibid., 37.
9. Ibid, vol. II, pp 123, 128, 131-2, 178.
10. Ibid., 140B.
11. *De tranq. an.*, ix, 20.
12. Dio Chr, *Orat.*, xii.
13. Epictetus, *Discoures*, i, 6.26.
14. Lucian, "Of Pantomime," 2.
15. Id, "Demonax," 57.
16. Apuleius, book X.
17. Alciphron, *Letters*, vi, p. 175.
18. Dio. Chr., *Orat.*, lxxii.
19. Philostratus, *Lives of the Sophists*, 223f.
20. Renan, *Christian Church*, 167.
21. Our sole source for Demonax is an essay uncertainly ascribed to Lucian, and possibly colored with fiction.
22. Lucian, "Peregrinus Proteus".
23. Renan *Christian Church*, 166.
24. Lucian, "Demonax" 55; Epictetus *Discoures*, iii, 22.
25. Id., frag. 1.
27. I, 12. 21; vi, 25.
28. IV, 1.
29. I, 24.
30. II, 5.
31. I. 2.
32. *Encheiridion* 8.
33. *Discoures*, i, 6.
34. Ibid., 9.
35. 3, 9 : ii, 8.
36. I, 29.
37. III, 24 ; ii, 6,
38. I, 16.
39. I. 18, 19 : frag. 43.
40. III, 10.
41. Frag 42.
42. *Encheir.*, 33.
43. *Discourses*, ii, 10.
44. III, 12.
45. 13.
46. Frags. 54. 94
47. *Discourses*, ii 16.
48. I, 9.
49. Ibid, introd., xxviif.
50. In Sextus Empiricus, *Hypotyposes Pyrr.*, I. 36f, and Gellius, xi, 5.6. For details cf Owen, J., *Evenings with the Sceptics*. I, 323-5.
51. Sextus, *Hyp. Pyrr*, ii, 204.
52. III. 29; i, 135-8.
53. III. 210.
54. *Adv. Dogmaticos*, i, 148 ; *Hyp. Pyrr.*, iii, 9-11.
55. Ibid., i, 7.
56. Ibid., i, 8. 25.
57. III, 235; *adv. Dogm.*, i 49.
58. CAH, XII, 449.
59. Lucian, "Icaromenippus" 25.
60. "Zeus Cross-Examined" 2-18.
61. "Zeus Tragoedus," 53.
62. *Dialogues of the Dead*, x.
63. "Hermotimus," end.

64. "Charon," 2.
65. "Icaromenippus,"||17.
66. "Charon," 24.
67. "Menippus," 21.
68. Inge W., *Philosophy of Plotinus,* 82.

CHAPTER XXIV

1. Josephus, *Against Apion*. ii, p. 480.
2. Charlesworth, 26; Frank, *Economic Survey*, II, 330.
3. Ibid., 337.
4. 445; Rostovtzeff, *Social and Economic History of the Hellenistic World*, 1288.
5. Josephus, *Wors*, ii, 16.4; Frank V, 246.
6. Breccia, E., *Alexandria ad Aegyptum*, 41.
8. Dio Chr., xxxii, 69.
9. In Frank, V, 247; Mommsen, *Provinces*, II, 177.
10. Baron, S.W., *Social and Religous History, of the Jews*, ii, p. 489.
11. Edersheim, I, 61.
12. Josephus, *Against Apion*, ii p. 489.
13. Eusebius, *Ecclesiastical History*,
14. Graetz, *H. History of the Jews*, II, 186.
15. Philo, *Quod Deus sit immutabilis* 12.
16. Philo, *De mundi opificio*, i, 4; Inge. I, 98.
17. Philo, *De cofusione linguarum*, 28.
18, In Sachar, *A*, *History of the Jews*, 110.
19. Philo, *De vita contemplativa*
20. Usher, A., *History of Mechanical Inventions*, 40.
21. Bailey, 314.
22. Sarton, G., *Introduction to the History of Science*, I, 274.
23. Ibid., 202; Heath, Sir. T., *History of Greek Mathematics*, II, 306.
24. Ammianus, xxii, 16-19.
25. Philostratus, in Friedländer, I, 171.
26. Bailey, 283.
27. Sarton, 283.
28. Himes, 86.
29. Garrison, 30, 110.
30. Sarton, 282; Castiglione, 202.
31. Ibid ; Himes, 90.
32. Higgard, H., *Devils, Drugs, and Doctors*, 23.
33. Galen *On the Natural Faculties*, introd , xv.
34. Galen in Thondike, L, *History*
35 *of Magic and Experimental Science*. *I*, 117, 152.
36. Ibid , 148.
37. Williams, I; 174.
38. Castiglione, 275.
39. Thorndike, I, 171.
40. Strabo, xvi, 4.
41. Doughty, C., *Travels in Arabia Deserta*. I, 40.
42. Josephus, *Antiquities*, xv, 9.
43. MacGregor, R, *Greek Anthology*: v, 171.
44. Tr. by Goldwyn Smith in Symonds, J.A. *Greek Poets*, 521.
45. Leslie,S ,*Greek Anthology*,vii,476.
46. Ibid., p. 17.
47. Ibid., ix, 489.
48. *Greek Anthology*, ix, 570.
49. Strabo, xv, 2.23.
50. Frank. IV, 158.
51. Rostovtzeff, *Roman Empire*,135 ; CAH, II, 634.
52. Breasted J.H., *Oriental Forrunners of Byzantine Painting*, pref.
53. CAH, XI. 638.
54. Ibid., 646.
55. In Mahaffy, *Silver Age*, 211.
59. Philostratus, *Apollonius*, iv. 7.
60. Aelius Aristides, *Orat.*, xvii, 8, in Frank, IV, 750.
61. Philostratus, *Lives of the Sophits*, i, 25.
62. Ibid.

63 Longus, *Daphnis and Chloe*; *ad enit.*, in Heliodorus, *Greek Romances.*
64. Dio Cassius, lxx, 4.
65. Appian, *Roman History*, xiv, 16.
66. Ibid.
67. Pliny, xxv, 8.
68. Ibid., xxxiii, 14.
69. Appian, xiii, 4.
70. Ibid., 7.
71. Ferro, I, 83.
72. Arrian, *Anabasis of Alexander.*
73. Reid, 376.
74. Williams, I, 255.
75. Strabo, i, 1.22-3.
76. Ibid, 8.5.
77. Dio. Chr, xlvi, 3.
78. Ibid., x, 21.
79. In Bigg. C., *Neopplatonism*, 70.
80. Ibid., 78.
81. Dio. Chr., xii 10; xiii 28; xiv, 18; xxiii, 7.
82. Friedländer, III, 299.
83. Frazer, *Adonis, Attis,* and *Osiris*, 167.
84. Cumont, F., *Oriental Religions in the Roman Empire*, 58.
85. Ibid., 55.
86. Frazer. 306; Boissier, *La religion romaine*, 1, 383; Dill, 549f.
87. Plutarch, *Delside*; Dill, 577; Halliday, W., *Pagan Background of Early Christianity*, 240.
88. Tarn, 296; Dill, 582.
89. Cumont, 41, 93.
90. Breasted, J., *Ancient Times*, 660; Weigall, A. *The Pagamism in Our Christianity*, 129.
91. Dill, 610.
92. Ibid , 601, 628.
93. Cumont, 158.
94. Guignebert. C., *Christianity Past and Present*, 71.
95. Hatch, E, *Influenece of Greek Ideas upon the Christian Church*, 288.
96. Frazer, *Adomis*, 229, Halliday, 317.
97. Hatch, 147.
98. Philo, *De, vita contemplativa.*
99. Lucian, "Alexander the Oracle-Monger"
100. Philostatus, *Apollonius*, i, 14.
101. Ibid , 19; iv, 45.
102. I, 33-4.
103. Apollonius, epistles. xliii and xiv in Philostratus.
104. Philostratus, iv, 3.
105 Ibid, viii, 29-31.

CHAPTER XXV.

1. Appian *Roman History*, xii, 15.
2. Frank, IV, 197.
2a. In the State Museum, Berlin; reproduced in Pope, A., *Persian Art*, IV, 134A.
3. Rawlinson, G., *Sixth Great Oriental Monarchy*, 423.
4. Plutarch, "Cressus."
5. Sachar, 105.
6. Josephus, *Antiquities*, xiv, 2.9; Strabo, xvi, 2.40.
7. Josephus, xiv, 11.
8. Id., *Wars*, i, 21.
9. *Antiquities*, xv, 7; xv i 5.
10. Ibid., xv, 8
11. Ibid.; 11.
12. Ibid.; *Wars*, v, 5; Foakes-Jackson and Lake, *Beginnings of Christianity*, 1, 5-7; Tchürer, Div. I. Vol, 280.
13. *Antiquities*, xxi, 7
14. Our sole authority for this is Josephus ant. xv 8.1
15. Ibid , 10.
16. XVII, 5.
17. Klausner, J., *Jesus of Nozareth*, 145.
18. Moore, G., *Judaism*, 1.23.
19. Baron I, 131.
20. Ibid, 192-3.
21. *Antiquities*, iv, 10.
22. *Agoinst Apion*, p. 456.
23. Finkelstein, L., *Akiba*, 38.
24. Schürer, Div, II, Vol, I, 162; Moore, I, 82: Goguel, M., *Life*

of Jesus, 471 ; Graetz, II, 54-5.
25. Zeitlin, S., *The Jews*, 43 ; *id* ; *The Pharisees and the Gospels*, 237 ; CAH IX 408.
26. Josephus, *Wars*, i 8. 14.
27. Philo *Quod, omnis homo*, 86 ; *Hypothetica*. 11.4 and 12 ; Josephus, *Aniquities*, xviii. I.
28. Josephus. *Wars*, ii. 8.
29. Ibid, 9.
30. Graetz, II, 29; Ueberweg, F. *History of Philosophy*, I, 228.,
31. Klausner. 231 ; Graetz, II, 145.
32. Josephus, *Wars*, ii 8.
33. In Moore, I, 313.
34. Hastings. J., *Encyclopedia of Religion and Ethics*, s v. Hillel.
35. Philo. in Eusebius, *Praeparatio evangelica*, viii, 7.
36. Babylonian Talmud, Abort, i, 42. Shab, 31a.
37. Abot. ii, 4.
38. Foakes-Jackson. 134 ; CAH, IX, 420.
39. Book of Wisdom ii
40. Ibid., v.
41. Isaiah, ix, 6.
42. Book of Wisdom, xviii. 13f.
43. Isaiah, liii.
44. Daniel, ii, 44 ; vii, 13f ; Song of Solomon, xvii.
45. Sibyline Oracles, iii, 767f in Klausner. *From Jesus to Paul*, 159.
46. Isaiah, ii, 4 ; xi, 6 ; Book of Enoch, i-xxvi ; Sib. Or., ii. 303f in Klaunser. 150.
47. Book of Wisdom, iv ; Enoch, cviii.
48. Book of Wisdom, ii-iii.
49. Finkelstein, 263.
50. Tacitus, *Histories*, v, 9.
51. Josephus, *Wars*, ii. 14.
52. Graetz, II, 239.
53. Josephus, I.c.
54. Ibid., v., 1f ; Tacitus. v, 12.
55. Josephus, iii, 14.
56. Ibid., ii 18.
75. Tacitus, v. 13.
58. Iosephus, v, 11.
59. Dio Cassius, lxv, 4.
60. Josephus, x 3 : Tacitus, v, 13.
61. Strabo in Josephus, *Antiquities*, xiv, 7.
62. Philo, *Legatio ad Caium*, 36.
63. Baron, I, 132-3 ; Bevau, E. R. *Legacy of Istael*, 29.
64. Josephus, *Agrinst Apion*, ii 3.
65. Josephus, *Life of Flavius Josephus*, p. 540.
66. Finkelstein, 141.
67. Baron, I, 191.
68. Dio Cassius, lxix, 12f ; Renan, *The Christian Church. 106*.
69. Moore, *Judaism*, I, 93.
70. Finkelsteiu, 276.

CHAPTER XXVI

1. Reinach. *S., Short History of Christianity*, 22 ; Guignebert Jesus, 63.
2. Josephus, *Antiquities*, xviii. 3.
3. Scott, E., *First Age of Christianity*, 46 ; Schürer, I, 148. This conclusion applies also to the Slavonic version of Josephus ; cf. Guignebert, op. cit. 148.
4. Klausner, *Jesus*, 46; Goguel, 71.
5. Pliny the Younger, v, 8.
6. Tacitus, *Annals*, xv, 44.
7. Goguel, 94 ; Klausner, 60.
8. Suetonius, "Nero" 16.
9. Id., "Claudius" 25.
10. Acts of the Apostles, xviii, 2. Quotations from the New Testament are in most cases from the translation of E. J. Goodspeed.
11. In Goguel, 9, 184.
12. E.g., Galatians, i, 19 ; I corinthians. ix, 5.
13. I Cor., xi, 23-6.
14. Ibid, xv, 3 ; Gal , ii 20.
15. Eusebin s, *E.H.*, iii, 39.
16. E. g., vi, 30-45 ; viii, 1-13, 17-20.
17. Klausner. *From Jesus to Paul*, 260.

18. Schweitzer, A., *Quest of the Historical Jesus*, 335.
19. Irenacus, *Contra Haesese*, ii, 1-3.
20. Guignebert, *Jesus*, 30; CAH. XI, 260.
21. Guignebert. 467.
22. Foakes-Jackson and Lake, *Beginnings of Christianity*, I, 268.
23. *Enc. Brit.*, XIV, 587.
24. Ibid., XIV, 477.
25. Partially listed in *Enc. Brit*, XIII, 95.
26. Scott, *First, Age*, 217; *Enc. Brit.*, XIII, 98; Goguel, 150; CAH, XI, 261.
27. Matthew, ii, 1; Luke, i, 5.
27a. Luke. iii, 1. 23.
28. Josephus, *Wars*, ii, 8.
29. Tertullian, *Adv, Marcionem*, iv, 19.
30. *Enc. Brit.*, V, 642; III. 525.
31. Matt. xiii. 55; Mark, vi. 2.
32. Guignebert, *Jesus*, 127; Klausner 28.
33. John, vii, 15; Mark, vi, 2.
34. Thorndike, 471.
35. *Enc. Brit.*, XIII, 26.
36. Guignebert *Christianity* 58.
37. Josephus, *Antiqueties*, xiii, 5. On the authenticity of the passage cf. Foakes Jackson and Lake I, 10.
38. Graetz, II, 145.
39. Matt.. iii., 11-12.
40. Ibid,, 28.
41. John, iv, 2.
42. Josephus, *Antiquitics* xviii, 5..
43. Mark, vi, 14-29.
44. Matt., xiv, 1-12.
45. Mark. i, 14; Matt., iv, 12.
46. Luke. iv, 14;
47. Isaiah, lxi, 1-2.
48. Luke, iv, 19.
49. Lüke, vi, 14.
50. Mark. ix, 48; Matt., xiii, 3[illegible].
51, Luke, xvi. 25.
52. Mark, xi, 12-14.
53. Matt, xii, 46; Luke, viii, 19.
54. Mark, i, 7; Matt., v, 40 Luke, vi, 29.
55. Guignebert. *Jesus*, 186.
56. Klausuer, 69.
57. Luke, vii, 36-59.
58. Mark, x, 16.
59. Cf. Robertson. J.M.,*Christianity and Mythology*.
60. Matt., xiii, 57.
61. Mark, v, 35f.
62. Matt., xix, 28.
63. Luke, x. 1-4.
64. Guignebert, *Jesue*, 62, 253; Goguel, 282, 287.
65. E.g., Matt., xx, 1-16.
66. Matt., xxiv, 30.
67. John, xviii, 36.
68. Mark, iv, 11, 30; xii, 34.
69. Luke. xvii 20.
70. Matt., xix 29.
71. Cf. Schweitzer. 212; Guignebert, 341.
72. Mark, [illegible], 25.
73. Matt., x, 23
74. Matt, xvi, 28.
75. Mark, xiii, 30.
76. Mark, xiii, 32.
77. Matt., xxiv, 6-12.
78. E.g, Kautsky, K., *Ur prung des Christentums;* Kalthoff, A, *Rise of Christianity*.
79. Mark, x, 23; Matt, vi, 25; xix, 24; Luke, xvi, 13.
80. Matt., xix, 15.
81. Acts, ii, 44-5.
82. Matt., xxii, 21.
83 Matt., xxv, 14.
84. Luke, xix, 26.
85. Matt., xx, 15.
86. Matt., xxiv, 46; Luke, xvii, 7-10.
87. Matt., xi, 12.
88. Mark, i, 14-15; vi, 12; Matt., x.7.
89. Luke xviii. 29; xiv, 26; Matt., viii, 21f; x, 34; xix, 12.
90. Leviticus, xix, 17-18, 34.
91. Exodus, xxiii, 4-5.
92. Jeremiah, iii, 30.

93. Isaiah, i 6.
94. Ibid., i, 2.
95. Hosea, ii, I.
96. Matt , x, 5.
97. Acts, x-xi
98. John, iv, 22.
99. Matt., xv, 24f; Mark, vii, 27.
100. Matt. viii, 4.
101. Matt., xxiii, 1.
102. Matt., v. 17.
103. Luke, xvi, 17; Matt., v, 18.
104. Foakes-Jackson and Lake, I,316
105. Matt., v, 31-2.
106. Matt., v, 21-2.
107. Mark, ii, 25.
108. Luke xvi, 16; Matt., v, 18.
109. Matt., xxiii, 1-34; xxi, 31.
110. Cf. Mark, xxii, 32 - 3, and Klausner, jesus, 113.
111. Luke, xxiii, 31-3.
112. Acts, i, 6.
113. Mark, xii, 35-7.
114. Matt., xix 17.
115. Mark XIV 36.
116. Daniel, vii, 13.
117. Matt., xii, 8.
118. Matt., xi, 27; Luke. x, 22.
119. Matt., xvi, 16f.
120. Luke, xix, 37.
121. John, xii, 13.
122. Mark, xiv 49; Luke, xxi, 1; xxi, 37.
123. John, xi. 50
124. Mark, x, 45; xiv, 24.
125. E.g., Guignebert, *Jesus*, 454; Brandes, G., *Did Jesus Exist?*, 104.
1 6. Cf. Goguel, 497.
127. Mark, xiv, 26 : Klausner, 326.
128. John, xiii, 33, XIV 1-2.
129. Mark, xiv, 48.
130. Mark, xiv, 61; Matt., xxvi, 63.
131. Philo, *Legatio*, I, 38.
132. Matt., xxvii, 11.
133. John, xxviii, 38.
134. Tacitus, *Annals*, xv, 44.
135. Luke, xviii, 26.
136. Cicero, vin verrem 64.
137. Mark, xv, 32.
138. Luke, xxiii, 39-43.
139. John, xix 25; Mark, xv, 37.
140 Justinian, *Digest*, xlviii. 20. 6.
141. Luke, xxiii, 48.
142. Luke, xxiv, 13-32.
143. Matt., xxviii, 16-17.
144. John, xxi, 4.
145. Luke xxiv, 52

CHAPTER XXVII

1. Foakes - Jackson and Lake II, *passim*, and especially, 305 - 6; Scott, *First Age*, 110; CAH, XI, 257-8, Klausner, from jesus to Paul 215; Ramsay, W. M., *The Church in the Roman Empire*, 6-8; Renan, *Apostles*, P. v.
2. Shotwell, J., and Loomis, L., *The see of Peter*, 56-7.
3. I Peter, iv, 7.
4. I John, ii, 18.
5. Acts, ii, 46.
6. Ibid., xi, 8.
7. V, 20.
8. Mark, vi, 13.
9. Acts, iv, 32-6; ii, 44-5.
10. IV 4.
11. VI, 11.
12. VII, 51-3.
13. VIII. 2-3.
14. XI, 19.
15. I Cor., ix 5; Clement of Alexandria. *stromata*, vii, 11; Eusebius, *E.H*, iii, 30.
16. I Peter, i, i-iv, 8.
17. Shotwell and Loomis, 64-5.
18. Lactantius, *De Mortibus Persecutorum*, 2.
19. Eusebius, ii, 25.
20. Ibid., iii, I.
21. Renan *Antichrist*, 93.
22. Acts, xiii, 9; Coneybeare and Howson, *Life, Times, and Travels of St. Paul*, I, 46, 150
23. Guignebert, Chrisianity, 75-6;

Livingstone. R.W., The Legacy of Greece, 83, 54
24. Acts, xxi, 8.
25. Renan, *Jesus*, 167.
26. II Cor.,x. 1
27. Ibid., xii, 7.
28. Gal., v. 12.
29. II Cor, xi, 1.
30. Acts. ix, 1.
31. IX, 3-9.
32. IX, 18.
33. XV, 1.
34. XV,27-9.The account in Acts harmonizes sufficiently well. *pace* Renan and others, with Paul's report in Gal ii.
35. Gal. ii. 10.
36. Ibid., ii, iii
37. Acts. xvii, 18.
38. XVII, 22.
39. XVIII, 12.
40. II Cor., iii, 6.
41. Acts, xxi, 12-4.
42. XXVIII, 28.
43. Guignebert, *Christinity*, 65; Goguel. 105, CAH, XI, 257; Klausner, *Jesus*, 63.
44. Coloss., iii, 6.
45. II Cor., iii, 6.
46. I Cor., xv, 33.
47. Titus, i, 15.
48. I Timothy, vi, 10. The letters to Titus and Timothy, however,are of doubtful authenticity
49. I Cor, ix, 19; x, 33.
50. Romans, v. 12.
51. Frazer, Sir J., *The Scapegoat* 210, 413; Weigall, 70f.
52. Guignebert, *Christianity*, 88.
53. I Cor., xv, 51.
54. Ibid., i, 24.
55. Coloss., i, 15-17.
56. Rom., ix, 11, 18; xi, 5.
57. Hebrews, xi, 1. Probably not Paul's.
58. Gal, III 27.
59. I Cor., xii.
60. Ibid., ix, 5.
61. VII, 8.
62. Rom. xiii, 14.
63. Ibid., i, 26.
64. I Cor., vi. 15.
65. Ibid, vii, 20f.
66. Rom., xiii, 1.
66a. II Tim., iv, 9, 6.
67. Philippians, iii, 20., IV 6.
68. I Cor., vii, 29; cf. I Thessalonians, iv, 15.
69. II Thess., ii, 1-5.
70. Acts; xvii, 7.
71. Eusebius, *E.H.*, iii, 1
72. Revelation, xvii, 10.
73. Renan, *Antichrist*, 95; CAH, X. 726.
74. Duchesne, Mon. L., *Early History of the Christian Church*, I, 99.
75. Eusebius, iii, 25.
76. Ibid., iii, 33.
77. Rev., viii, 4; xiv, 1.
78. Ibid., vi, 2-8.
79. VII, 14.
80. XX, 15; xxi, 8.
81. XIX, 18.
82. XXI.
83. Proverbs, viii, 22-31.
84. John, i 5.
85 Justin, *Apology*, 166; Tertullian, *De Baptismo* 5; Halliday. 9.

CHAPTER XXXVIII

1. Duchesne, I, 38.
2. Tertullian, *Contra Marcionem*, v, 8.
3. Jerome, *Letters*, xciii.
4. Clement of Alexandria, *Paedagogus*, iii, 11.
5. Paul. I Cor., xi, 8. XIV 34.
6. Lucian, *Peregrinusa Proteus*.
7. Tertullian, *Apologeticus*, xxxix, 11-12
8. Ibid., 5.
9. Renan, *Marc Aurèle* 600.
10. James., v, 1; ii, 5.
11. Ibid., i 10.

12. Renan, *St. Paul*, 402.
13. Klausner. *From Jesus to Paul*, 133-4.
14. Tertullian, *De jejuniis*, i, 17; Duchesne, II, 253. Renan *Christian Church*, 211; Robertson, *History of Freebought*, I, 244
15. Clement of Alex-*Paedag*., iii, 11 Renan. *Marc Aurèle*, 520.
16. Tertullian, *Apol*. ix, 8.
17. Gibbon. I, 480.
18. Tertullian *De spectaculis*, I. 3.
19. Sumner., W. G. *War and Other Essays*, 54-5.
20. Tertullian, *Apol*., xlvi, 10.
21. Friedländer III, 204; Tertullian, *De exhort castitatis*, 13; Lea. H. C., *Historical Sketch of Sacerdotal Celibacy*, 41; Robertson, *History of Freethougg*, 1, 244.
22. Pliny the Younger. x 97.
23. Galen in Hammerton. IV, 2179.
24. Tertullian, *De spect*., 28.
25. Perhaps anthropophagic, cf. Sunner *Folkways* 451.
26. Renan, *St. Paul*, 268.
27. Frazer, Sir J, *Spirits of the Corn and Wild* II, 92-3; Carpenter, Edw., *Pagan and Christian Creeds*. 65-7.
28. Acts, viii. 14-17; xix, 1-6.
29. *Catholic Encyclopedia*, 217-8.
30. Matt., xvi, 18; John, xx, 23.
31. Friedländer. II. 364.
32. Renan. *Marc Aurèle*, 449.
33. Tertullian *Apol*, xxxvii, 4.
34. Id., *Ad uxorem*. i, 5; Renan, *Marc*. 561. Glover, *Conflict of Religions*. 341.
35. CAH, XII 456.
36. Lake. K., *Apostolic Fathers*. I. 395.
37. Murray. Sir G., *Five Stages of Greek Religion*, 196.
38. Renan, *Marc* 292.
39. Duchesne. I. 196.
40. Friedländer III. 192.
41. CAH, XII, 459.
42. Origen. *Contra Celsum*. in Glover. 262; Carpenter. 220.
43. Plotinus. *Enneads*. xliii.
44. Porphyry. *Life of Plotinus*. 14.
45. Mac Kenna. Stephen. *Essence of Plotinus*. 11n.
46. Plotinus *Euneads*. iii. 4.
47. Ibid. vi 9.
48. V. I.
49. IV. I; Inge. *Hhilosaphy of Plotinus* II 21-4. 92.
50. Plotinus. v. 1 iii. 7.
51. Ibid. v. 11.
52. Mac Kenna. intord. xx.
53. In Lake. *Apostolic Fathers*, 1. 23.
54. Tertullian *Apol*. xxx, 4.
55. Ibid. xvii. 6.
56. Id., *De spect*., 30.
57. Id. *De cultu feminarum*.
58. In Ueberweg. I. 308.
59 CAH. XII. 593.
60. Eusebius. vi. 2.
61. Gibbon. I. 467.
62. Jerome *Letters*. xxxiii
63. Shotwell. *Introduction*. 292.
64. Origen. *De principiis*. i. 15-16. in Hatch. 76.
65. Origen, op. cit., iv, 1, in Hatch 76.
66. Duchesne, I, 255f.
67. Inge, *Plotinus*, II, 19, 102.
68. In Watson,*Marcus Aurelius*,305.
69. Matt., xvi, 18.
70. Shotwell and Loomis, 64-5.
71. Ibid., 60-1, 84-6.
72. Lake. 1, 121.
73. Duchesne 1, 215.
74. CAH, XII, 198, 600.
75. Cyprian's Letter in Inge *Plotinus*. 1. 62.

CHAPTER XXXIX

1. Herodian. *History of Twenty Cases* II. 83.
2. Dio Casius. lxxiv, 5.
3. Herodian. II, 100, 103; III, 156.
4. *Historia Augusta*. "Septimius" Severus, xviii. 11.

5. Herodian, III. 189.
6. Lot, F. *End of the Ancient World* 10.
7. Dio, lxxxix, 7.
8. Ibid., lxxviii, 16.
9. Herodian,IV,210; Dio lxxviii, 22.
10. Dio, lxxix, 28.
11. *Historia Augusta* "Elagabalus," 19-32. Dio, lxxx, 13; Herodian, IV, 253.
12. Dio, lxxix, 14; Gibbon, I. 141.
13. *Historia Augusta* "Severus Alexander" 30, 39.
14. Herodian, VI, 5.
15. *Hist. Aug.* "Severus Alexander"20
16. Ibid., 29.
17. Ibid , 33.
18. Herodian, VI. 8.
19. In Rostovtzeff, *Social and Economic History of the Roman Empire*, 399.
20. Gibbon, I, 294.
21. Maine, *Ancient Law*, 177.
22. West, L., "Economic Collapse of the Roman Empire," in *Classical Journal* 1932 p. 106.
23. Abbott, *Common People*, 174.
24. Rostovtzeff, op. cit., 424, 442-3
25. Ibid., 305.
26. Frank, *Economic History*. 489,
72. Ferrero. *Ruin of Ancient Civilization*, 58; Rostovtzeff. *History, of the Ancient World*. II 317.
28. Frank, *Economic Survey*. IV, 220.
29. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 419.
30. Collingwood and Myres. 206.
31. Health, II, 448.
32. Plato, *Laws* 819.
33. Ball, W. W., *Short History of Mathematics*, 96.
34. Justinan, *Digest*, i 1.4.
35. *Hist. Aug.*,"SeverusAlexander,51
36, Roberts, W. R., introd. to "*Longinus*" *on the Sublime*, Loeb Library.
37. Heliodorus, *Greek Romances*, I.
38. Ibid., 289.
39. In *Catullus,Tibullus*, etc., p. 343
40. In Burckhardt. J., *Deil Zeit Constantantins*, 64.
41. CAH, XII, 273; Frank *Economic Survey* III, 633.
42. Ferrero, *Ancient Rome and Modren America*. 88.
43. Toutain. 326.
44. West, I. c. 102.
45. Rostovtzeff,*Ancient World*,II,329.
46. Toutain, 326. CAH XII, 271; *Cambridge Medieval History* 1,62
47. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 474.
48. Commingham, W. C., *Western Civilization in its Economic Aspects* I. 191-2.
49. Paul-Louis, 283-5.
50 Translation based on that of Elsa Glaser in Frank *Econmic Survey* V, 312.
51. Ibid., The prices are calculated on the valuation of gold at $35 per oz. in the United States of 1944.
52. Frank *Survey* III. 612.
53. Lactantius. *De Mortibus Persecutorum*. vii.
54. Ibid vii, 3.
55. Charlesworth, 98.
56. West, 105. Ferrero, *Ruin of Ancient Civilzation* 106.
57. Cunningham. I, 188.
58. Frank, *Survey* II, 245. IV, 241.
59. Reid,*Municipalities*;492; Arnold 265.
60. Heitland, 382.
61. Daivis. W. S., 233.
62. Frank, *Economic History*. 404. Rostovtzeff. *Roman Empire*. 409.
63. Gibbon. I. 377.

CHAPTER XXX

1. Renan, *Marc*, 592.
2. Tertullian *Apol.*. xl, 1.
3. Minucius Felix, *Octavius*, ix, 5 in Tertullian, *Apol.*
4. Guignebert. *Christianity*, 164.
5. I Cor. vi 1; Renan. *Marc*, 597.

6. Origen *Contra Celsum*, viii, 69, in Haliday, 27.
7. Tertullian, *Apol.*, xv, 1-7; Duchesne, I, 34.
8. Friedländer, III, 186.
9. Tertullian, *Apol*, iv, 1.
10. Ramsay, 258; CAH, X, 503.
11. Duchesne, I, 82.
12. Bury, J., *History of Freedom of Thought*, 42
13. Tertullian, *Apol.*, v, 4, Eusebius iii, 17.
14. Pliny the Younger, 96-7.
15. Recript of Hadrian in Eusebius, iv, 9. For a defense of its authenticity cf. Ramsay, 320.
16. From an account said to have been sent to the Christian churches by the elders of the church at Smyrna, in Lake, *Apostolic Fathers*, II, 321.
17. Renan, *Marc*, 331.
18. Tertullian, *Apol.*, xlv, 14.
19. *Memoirs of St. Perpetua*, in Davis and West, *Readings in Ancient History*, 287,
20. Rostovtzeff *Ancient World* II, 349.
21. Duchesne I, 267,
22. Lactantius, *De Mortibus Perecutorum*, x.
23. Eusebius, viii, 1f.
24. Gibbon, II, 57.
25. Eusebius, viii, 17.
26. Tertullian, *Apol.*, 1, 13.
27. Ambrose in *Enc. Brit*, VI, 297.
28. Eusebius, *Life of Constantine* i, 28
29. Eusebius, *E.H.*, viii, 2.
30. Id., *Life of Constine*, i, 28.
31. Lactantius, *De Mortibus*, xlv, 5.
32. *Cambridge Medieval History*, 1, 4.
33. For the detailed evidence cf. Burckhardt, 262f.
34. *Hist Aug.*, "Elagabalus," xxxiv, 4.
35. Lot, 29.
36. Flick, A. C., *Rise of the Medieval Church*, 123-4.
37. Duruy, V., *History of the Roman People* VII, 510.
38. Katthoff, 172; Lot, 98.
39. Eusebius, *Life*, ii, 36.
40. Ibid., iii, 62f.
41. Duchesne, I, 290.
42. Eusebius, *E.H.*, viii, 1.
43. Duchesne, II, 99.
44. Eusebius, *Historical View of the Council of Nice*, 6.
45. Ibid.
46. Eusebius *Life*, ii, 63, 70.
47. Eusebius, *Nice*, 6.
48. Ibid., 16.
49. *Cambridge Medieval History*, I, 121
50. Socrates, *Ecclesiastical History*, i, 8
51. Duchesne, II, 125.
52. Ferrero, *Ruin*, 170.
53. Gatteshi 24, Reinach, *Apollo*, 89.
54. Gibbon, VI, 553.
55. Lactantius, *Divinae Institions*, v, 19.
56. Eusebius, *Life*. i, 1.
57. *Cambridge Medieval History*, I, 15.

EPILOGUE

1. Reid. J, S., in *Cambridge Medieval History*, I, 64.
2. Cyprian, *Ad Demetrinm*, 3, in Inge, *Plotuns*, I, 25.
3. Cf. West, op. cit., 108.
4. Frank, *Survey*, III, 575.
5. In Eusebius, *E.H.*, vii, 21.
6. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 424.
7. Frank, *Survey*, III, 74.
8. Gibbon, I, 274.
9. Davis, *Influence of Wealth*, 214.
10. Gibbon, 274.
11. Id, chap. xvi, etc.
12. Renan, *Marc*, 589; Ferrero *Ruin* 7, 74; White, E.L., *Why Rome Fell*, *passim*.
13. Montesquieu, *Grandeur et décadence des Romains*, 36.
14. *Cambridge Medieval History*, I, 10
15. Abbott, 201.
16. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 445.

دار الجيل : ص.ب ٨٧٣٧ . ت: ٣٦١١٥٨ - ٦٠٨١١٥ . تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دارجيلاب . بيروت . لبنان

فهرس عام

بالأحداث التى أرخ لها فى الكتاب

مسلسلة حسب السنين

السنون قبل الميلاد ثم بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
١٤٣ قم — ٧٠ م	مدة الدولة اليهودية الثانية	١٦١
٥٣ قم — ٢١٧ م	حروب روما مع بارثيا	١٥٨
٥٠ قم	استرابون السرديسي يجمع ديوان شعر كله غزل فى الغلمان	١١٩
٥٠ قم	نشر سفر مزامير سليمان	١٨٠
٤٦ قم	٣٠٠ صاحب مصرف وبائع جملة فى روما	٣٤
٤٣ قم	بيع ثلاثين ألف يهودى فى أسواق الرقيق	١٦٣
٤٣ قم	ظهور الاضطرابات الشيوعية فى أثينة	٢٩١
٣٧ — قم	حكم هيرورد بن انتباتر	١٦٣
٣٠	تعيين هلل رئيساً للسنهدرين	١٧٧
٢٨	كتابة الترجمة السبعينية للتوراة	١٨١
٢٥	أغسطس إيليوس يبعث جالس ليضم مملكة مأرب والعرب	١١٦
٩ قم — ٤٠	حكم الملك ارتاس الرابع	١١٧
٩ قم — ٤٠	مملكة بصرى تبلغ ذرى مجدها	١١٧
٨ — ٧ قم	سترينس حاكم سوريا يحصى اليهود	٢١٢
٧ قم	استرابون يخرج كتابه العظيم (الجغرافية)	١٤٢
٦ قم	الحكم على ألكسندر وإستبولس ابنى هيرود بالإعدام	١٦٩
٤ قم	موت هيرود	١٦٩
٤ قم	جنود أركلوس يقتلون ٣٠٠٠ يهودى جاءوا إلى أورشليم للاحتفال بعيد الفصح	١٨٤
٤ قم — ٣٢٥	شباب المسيحية	١٩٧
٢ — ١	قدم مولد المسيح	٢١٢
٦ — ٧ م	إحصا عام فى بلاد اليهود	٢١٢
٦ — ١٢ م	كويرنيوس حاكم سوريا	٢١٢
١٠ م	وفاة هلل	١٧٨
٢٨ — ٢٩ م	يوحنا يعمد يسوع المسيح	٢١٢
٣٠	تشييد هيكل الشمس	١٢٤
٣٠ ؟	اتهام اصطفانوس الشماس بالتجديف	٢٤٣
٣٠ — ٩٥	حياة رسل المسيح	٢٢٥
٣١ ؟	بولس يتزعم الاضطهاد الأول للمسيحيين فى أورشليم	٢٥٢
٣٦	إلغاء الملكية فى بلاد اليهود وجعلها ولاية رومانية	١٨٥
٤٠	وفدان من اليونان واليهود يعرضان قضاياهما على كلجيولا	١٠٢
٤٠ — ٩٠	ديوسكريديز يكتب كتابه فى العقاقير	١١٠
٤٠ — ١٤٠	ديوكريستوم (ديوذو الفم الذهبى)	١٤٣

السنون بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
٤١ تقريبا	مقتل يعقوب بن زبيدى	٢٤٤
٤١	بطرس يشق طريقه إلى رومة ويصل إليها	٢٤٦
٤١	أجرپا ملكا على فلسطين	١٨٥
٤٣	كلوديوس يعبر القناة	٥٥
٤٣ — ٤٤ ؟	برنابا وبولس يعملان معا	١٥٤
٤٤	كلوديوس يعيد بلاد اليهود إلى ما كانت عليه فى عهد أغسطس ...	١٨٥
٤٥ — ٤٧	رحلة القديس بولس التبشيرية	١٥٤
٤٦	مولد سپتميوس سڤيرس	٣٣
٤٦ — ١٢٦	حياة أفلوطرخس القيرونيائى	٦٩
٥٠	كولونى تقام تكريماً لأم نيرون التى ولدت فيها	٦٢
٥٠	بولس يتم رحلته التبشيرية الثانية	٢٥٥
٥٠	مولد أبكتتس فى هيرابوليس	٨٣
٥٠ ؟	بولس وبرنابا يسافران إلى أورشليم	٢٥٥
٥٠ — ١٦٠	دموناكس الفيلسوف الكلبى	٨٠
٥١	بولس يقلع على ظهر سفينة إلى أثينة	١٥٦
٥١ — ٥٢	بولس يقيم فى كورنثة ثمانية عشر شهراً	٢٥٨
٥٢	كلوديوس ينفى اليهود لإثارتهم الاضطرابات العامة بتحريض المسيح	٢٠٥
٥٢	افتراض وجود الجالية المسيحية قبل هذا العام	٢٠٦
٥٣ ؟	انتقال بولس من كورنثة إلى أورشليم	٢٥٨
٥٤	رجوع بولس إلى كورنثة	٢٥٩
٥٧ ؟	استقبال زعماء الكنيسة لبولس	٢٦٠
٥٨ — ٦٠	القبض على بولس وإبقاؤه تحت الحراسة	٢٦١
٦٠ م — ١٢٠ م	الأناجيل الأربعة	٢٠٧
٦١	بودكا ملكة إحدى القبائل البريطانية تقود ثورة	٥٥
٦٢	يعقوب العادل يقتل نفسه	٢٤٤
٦٣	زلزال يدمر بعض پمپى	١٦
٦٣	النسخة الأصلية من سفر الأمثال	٢٢٥
٦٤	رسائل تعزى إلى بولس مؤرخة بهذا العام	٢٠٦
٦٤	استشهاد بولس وصلب بطرس	٢٤٧
٦٤	قتل المسيحيين بعد حريق هذا العام	٢٦٨
٦٤ — ٣١١ م	النزاع بين الكنيسة والدولة	٢٧٠
٦٦	استيلاء الثوار على أورشليم وفلسطين قبل سبتمبر	١٨٧
٦٨ ، ٧١	اندلاع الثورة بقيادة ڤندكس وسڤيلس	٤٨
٦٩ — ٧٠	سفر الرؤيا ليوحنا	٢٧١

السنون بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
٧٠ م	تخريب الهيكل	١٧٤
٧٠ م	مليون ومائة وسبعة وتسعون ألف يهودي يهلكون في الحصار	١٨٨
٧٠ م	تشتيت الآلاف من اليهود	١٩٠
٧٠ م	بقاء بث الدعوة المسيحية بين اليهود	٢٤٧
٧٣	مقاومة اليهود	١٨٨
٧٥	تاريخ حرب اليهود مؤلف ليوسفوس	١٩١
٧٨ — ٥٤ م	أجركولا حاكم بريطانيا	٥٥
٧٩	ثورة بركان فيزوف	١٦
٨٢	دومتيان ينفي ديوكريستوم من إيطاليا وبيثينيا	١٤٣
٨٥ — ٩٠	كتابة إنجيل متى	٢٠٨
٩٠ — ؟	يوحنا الرسول يكتب الإنجيل	٢٧٤
٩٣	أقدم إشارة غير مسيحية تثبت وجود المسيح	٢٠٤
٩٥	أنباء باتخاذ دومتيان إجراءات جديدة ضد اليهود	١٩٣
٩٦	البابا كلمنت يرسل رسالة إلى كنيسة كورنثة	٣١٦
٩١ — ٣٠٩	نمو الكنيسة	٢٧٧
٩٧	كلمنت يشير إلى رسائل بولس	٢٦٣
١٠٠	اقتسام التجار مكاسبهم مع الثالوث التدمري	١٢٤
١٠٠	الحاخام غماليل الثاني يفرض النظام الصارم	١٩٢
١٠٠	كلمنت الإسكندري وآراؤه حول مولد المسيح	٢١٢
١٠٠	دفن موتى المسيحيين في سراديب	٢٨٥
١٠٠	وصول عدوى تحديد النسل إلى طبقة الزراع	٤٠٦
١٠٦	تراجان يضم المملكة الشمالية إلى إمبراطوريته	١١٧
١١٠	أقدم الإشارات إلى المسيح في خطاب پلني الأصغر	٢٠٥
١١٠	كتابة رسالة راعي هرماس	٢٨٢
١١٥ ، ١١٦	يهود قورينة يرفعون علم الثورة على رومة	١٩٤
١١٦ م	سورانس الأفسوسي ينشر رسالة في أمراض النساء . وولادة الأطفال والعناية بهم	١١١
١١٧	إنشاء مدينة تمجاد	٣٤
١١٧	بسيليدس وأنظمة الفيض الرباني والأيونات المجسدة	٢٩٢
١١٧ — ١٨٧	إيليوس أرستيديز	١٣٢
١٢٢ — ١٢٧ م	هدريان يشيدسورا	٥٦
١٢٤ م	ميلاد لوسيوس أپوليوس	٣٦
١٢٧ م — ١٥١ م	كلوديوس بطليموس يرصد الأجرام السماوية	١٠٦

السنون بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
١٣٠	هدريان يعلن اعتزام بناء ضريح لجوبتر	١٩٤
١٣١	هدريان يصدر مرسوماً بتحريم الختان ويحرم تعليم الشريعة اليهوديه	١٩٤
١٣٢	آخر وقفة لليهود فى التاريخ القديم لاستعادة حريتهم	١٩٤
١٣٥	پپياس ينكر شخصية يوحنا الأكبر	٢٠٧
١٣٥	پپياس يعزو سفر الرؤيا إلى يوحنا اللاهوتى	٢٧١
١٣٥	جستن مارتن يعزو سفر الرؤيا إلى الرسول يوحنا	٢٧١
١٣٥	پپياس ينفرد بذكر الإشارة إلى إنجيل مسيحى	٢٠٧
١٤٠	مرسيون يصل إلى رومة لتخليص المسيحية من اليهودية	٢٩٢
١٤٥	سوتيونيوس يؤرخ اضطهاد نيرون للمسيحية	٢٠٥
١٤٦	مولد سبتميوس سفيرس	٣٢٢
١٥١	تاريخ الإدشارة إلى إنجيل مسيحى	٢٠٧
١٥٦	منتانس يندد بتعلق المسيحيين المتزايد بهذا العالم	٢٩٣
١٥٦	پوليكارب أسقف أزمير يزور رومة	٣١٧
١٦٠	مولد كونتس سبتميوس ترتليانس	٣٠٦
١٦٠	لوشيان يصف المسيحية	٢٧٩
١٦٠	ڤلنتينس وأنظمة الفيض الربانى والأيونات المجسدة	٢٩٢
١٦٤ – ١٦٨م	جالينوس يمارس الجراحة	
١٦٥	پرچرينس يجمع محرقته بنفسه ويوقد النار فيها ويحترق فى لهيبها ..	٨١
١٦٥	لوشيان يلقى عصا التسيار ويقيم فى أثينة	٩١
١٦٥	ملحمة الجالدين فى برجموم برومة	١١١
١٦٦	إعدام جستين السامرى مع ستة من أتباعه	٣٠١
١٦٩	ماركس أورليوس يستدعى جالينوس ليعنى بكمودس الصغير	١١٢
١٧٢	أورليوس يسكن الأسرى الألمان فى داخل الإمبراطورية	٢٤٢
١٧٨	أورليوس يقاتل المركمانيين على ضفاف الدانوب	١٩٦
١٨٠	برونوبور يبدأ سلسلة من الكتب الجدلية الحماسية	٢٠٤
١٨٠	ظهور الرموز المسيحية ذات الشأن	٢٨٦
١٨٠	تاريخ هتامة لاينيه كشفها مراتورى	٣١٥
١٨٧	أيرينيوس يحصى عشرين شيعة مختلفة من المسيحية	٣١٤
١٨٧	ايرنيو يكتب عن بطرس وعهده بمنصب الأسقفية للينس	٣١٦
١٩٠	البابا فكتور يكرر طلب انتسيتس ويصوغه فى صيغة الأمر ..	٣١٧
١٩٣	اجتماع مجلس الشيوخ واختيار برتناكس إمبراطورا بعد اغتيال كودس فى أول يوم من يناير	٣٢١

السنون بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
١٩٣	عثور طربيون على الإمبراطور جايانس يبكي في قصره وأخذه إلى حمام وقطع رأسه في ٢ يونية	٣٢٢
١٩٣ — ٣٠٥	إنهيار الإمبراطورية	٣٢١
٢٠٠	تقنين الهلاكا (الأحاديث الشفوية بين العلماء)	١٩٣
٢٠٠	اتخاذ عادة وضع الأيادي في الرسامة	٢٨٥
٢٠٠	ترتليان يذكر أن المسيحيين ملأوا العالم كله	٢٨٩
٢٠٠	بردسانس يصف الأيونات شعراً بلغة السريان الأدبية	٢٩٢
٢٠٠	ترتليان يؤيد إبرنيو في عهد بطرس	٣١٦
٢٠٠	ترتليان يبشر بسقوط الدولة الرومانية في كتابه (نهاية عهد) ...	٤٠٤
٢٠٢	القبض على والد أرجنيز أرمنتيوس بتهمة أنه مسيحي وإعدامه ...	٣٠٩
٢٠٢ — ٢١٨	زفرينس يخلف البابا فكتور	٣١٧
٢٠٣	أرجنيز أدمنتيوس يخلف كلمنت في رياسة المدرسة الأفريقية وهو في العشرين من عمره	٢٠٩
	مولد أفلوطينس في نيقوبولس	٢٩٩
٢٠٣	استشهاد كثير من المسيحيين في قرطاجنة	٢٧٦
٢٠٩	موت فلوجاسيس الرابع	١٦٠
٢١٠ ؟	ديوكاسيوس ككيانس يؤلف تاريخ رومة	٣٥١
٢١٢	فرض ضريبة ١٠ ٪ على التركات شاملة جميع الراشدين في الإمبراطورية	٣٢٦
٢١٧	مكرنيس يبتاع الصلح من ارتباس	١٥٨
٢١٧	هزيمة كراسس في كارى	٢١٧
٢١٨	إقامة كنيسة وبابوية بعد إعلان هيوليس للقساوسة أنه لا يصلح لمنصبه	٣٢٧
٢١٩	دخول أجابالس رومة في خريف العام	٣٢٨
٢٢٢	مجلس الشيوخ يبايع الإسكندر إمبراطوراً	٣٣٠
٢٢٥	فلستراتس يتحدث عن الإخصائيين في فروع علم الطب في مدينة الإسكندرية	١١٠
٢٢٧	أردشير يتغلب على ارتبانس	١٦٠
٢٢٨	مقتل البيان أكبر القانونيين في رومة	٢٤٨
٢٣٠	غزو أردشير بلاد النهرين وتهديده سوريا	٣٣٣
٢٣٥	نهاية انشقاق هيوليتس	٣١٨
٢٣٥	جنود مكسمينس يقتحمون خيمة الإسكندر ويقتلونه هو وأمه ...	٣٣٤
٢٤٢	مانى الطشقونى يتوج شابور ويعلن أنه المسيح المنتظر	٢٩٥
٢٤٤	مقتل جرديان الثالث بيد جنوده وهو يحارب الفرس	٣٣٦
٢٤٤	رحلة أفلوطينس إلى رومة وبقاؤه فيها إلى أن يموت	٣٠٠

السنون بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
٢٤٨	أرجن يكتب دفاعه المسمى ضد سلس	٣١٢
٢٤٩	فليب العربي يهزم ديسيوس ويقتله في ڤيرونا	٣٣٦
٢٥٠	وصول اضطهاد ديسيوس للمسيحيين إلى قيصرية والقبض على أرجن	٣١٢
٢٥٠	سيرة ديوفانتس الاسكندرية (الديوانى اليونانى)	٣٤٦
٢٥٠	إعدام اسقف رومة وطولوز	٣٧٧
٢٥٠	سبريان يرد على ما اتهم به المسيحيون من أنهم أصل ما حاق بالإمبراطورية	٤٠٤
٢٥٠	سكان الإسكندرية ينقصون إلى نصف ما كانوا عليه	٤٠٦
٢٥١	مقتل فليب العربي وهزيمته أشنع الهزائم	٣٣٦
٢٥١	نهاية حدة الاضطهاد الديني قبل عيد الفصح	٣٧٧
٢٥٢	سبريان أسقف قرطاجنة يهيب بجميع المسيحيين أن يقبلوا زعامة كرسى رومة الأسقفى	٣١٦
٢٥٣	الإمبراطور جالس ، قتله بيد جنوده	٣٣٧
٢٥٤ — ٢٥٧	البابا استيفن يقرر أنه لا ضرورة لتعميد من يعتنقون المسيحية من الطوائف غير المؤمنة	٣١٨
٢٥٥	القوط يغزون مقدونية ودلماشية	٣٣٧
٢٥٧	استيلاء القوط على مملكة بسپورس	٣٣٧
٢٥٨	استيلاء القوط على خلقدون وغيرها	٣٣٧
٢٥٩	الألمان يغيرون على إيطاليا	٣٣٧
٢٦٠	الفرس يهزمون ڤلديان عند الرها	٣٣٨
٢٦٠ — ٢٦٥	تفشى الوباء في الإمبراطورية وهلاك ٥٠٠٠ كل يوم في رومة لمدة أسابيع	٤٠٧
٢٦١	أوناثس يطرد الفرس من الجزيرة ويهزمهم في طشقونة	٣٣٨
٢٦٣	القوط يسيرون بحراً بسواحل أيونيا وينهبون إفسوس ويحرقون هيكل أرتميس	٣٣٨
٢٦٦	اغتيال أوناثس واستيلاء زنوبيا على العرش	٣٣٨
٢٦٧	فرع قوطي يستولى على جزائر بحر إيجه	٣٣٩
٢٦٩	كلوديوس الثانى يهزم القوط عند نايسس	٣٤٠
٢٦٩	انقضاض جموع القوط على مقدونية	٣٤٠
٢٧٠	موت كلوديوس الثانى أثناء وباء كان يفتك بالقوط والرومان على السواء	٢٥٦
٢٧٢	مقتل لنجينس	٢٥٧
٢٧٤	أورليان يهزم ثتريكس عند شالون	٢٥٧
٢٧٥	اغتيال الإمبراطور أورليان بيد جماعة من ضباطه	٢٥٨

السنون بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
٢٧٥	أنطونيوس الراهب المصرى يبدأ ربع قرن من حياة العزلة والتقشف	٣٩٠
٢٧٦	الجند ينادون بربوبس امبراطوراً	٣٥٨
٢٨٢	اغتيال الإمبراطور بروبس بيد الجيش	٣٦٩
٢٨٢	تنصيب دقلديانوس إمبراطوراً	٣٥٩
٢٨٦	إشراك الإمبراطور دقلديانوس القائد مكسميان معه فى الحكم	٣٦٠
٢٩٥	شروع مكسميان فى بناء الحمام الحار	٣٤٩
٣٠٠	ربع سكان الشرق وجزء من عشرين جزءاً من سكان الغرب مسيحيون	٢٨٩
٣٠٠	الكثرة الغالبة من سكان إفسوس وأزمير مسيحيون	٢٨٩
٣٠١	دقلديانوس يصدر قانون الأثمان والأجور... ... ... ٣٦٤ :	٣٦٥
٣٠٣	الحكام الأربعة يأمرون بهدم كل الكنائس المسيحية	٣٧٩
٣٠٥	الامبراطوران دقلديانوس ومكسيميان ينزلان عن سلطتهما	٣٦٧
٣٠٥	جالريوس وقنسطنطيوس أغسطين إمبراطوران بعد نزول دقلديانوس ومكسميان	٣٦٨
٣٠٥	تعيين سفيرس ومكسمينس دازا قيصرين	٣٨٢
٣٠٦ م – ٣٢٥ م	انتصار المسيحة	٣٧٠
٣٠٦	الحرس البريتورى فى روما ينادى بمكسنتيوس إمبراطوراً	٣٨٣
٣٠٦	بدء أعمال البناء فى رومة على يدى مكسنتيوس	٣٩٨
٣٠٧	ترتليان يوجه رسالة الدفاع	٣٠٧
٣٠٧	مقتل الإمبراطور مكسنتيوس	٣٨٣
٣٠٧	قسطنطين يتخذ لنفسه لقب (أغسطس)	٣٨٣
٣٠٧	لوسيوس فرينتانس يشرح المسيحية فى كتاب الأنظمة المقدسة ...	٣٩٩
٣٠٨	مكسمنيوس دازا يتخذ لنفسه لقب (أغسطس)	٤٨٣
٣١٠	قسطنطين يخترق غالة بجيوشه	٣٨٣
٣١٠	بمفيلس يقضى نحبه فى اضطهادات جلريوس	٤٠٠
٣١١	الإمبراطور جالريوس يصدر مرسوماً بالتسامح مع المسيحيين ...	٣٨١
٣١٢	قيصر يزحف من الريبكون ويلتقى بقوى مكسنتيوس عند سكساربرا	٣٨٤
٣١٣	قسطنطين وليسنيوس يتقابلان فى ميلان...	٣٨٥
٣١٣	ليسنيوس يتجه نحو الشرق ويكيل الضربات لمكسمينس	٣٨٥
٣١٣	قسطنطين يوسع نطاق الإعفاء من مناصب البلديات	٣٨٥
٣١٤	اشتداد النزاع بين قسطنطين وليسنيوس حاكمى الإمبراطورية وامتشاقهما الحسام	٣٨٥
١١٤	دوناتس أسقف قرطاجنة يدعو الأساقفة إلى مجلس جامع يعقد فى آرليس	٣٩١
٣١٤	لوسيوس فرسنيانس يشرح المسيحية فى كتابه الاضطهاد المميت ...	٢٩٩

السنون بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
٣١٥	إقامة قوس يشرف على طريق النصر	٣٩٨
٣١٦	دوناتس أسقف قرطاجنة يؤيد قرار التشهير بالدوناتية...	٣٩١
٣١٧	قسطنطين يمحو الصور الوثنية من النقود	٣٨٩
٣١٨	أريوس القس المصري يتقدم إلى أسقفه بآراء غريبة عن طبيعة المسيح تدعو إلى مجمع نيقية	٣٩٢
٣٢٣	انفراد قسطنطين بالإمبراطورية بعد انتصاره	٣٨٦
٣٢٣	قسطنطين يجعل نقوش النقود محايدة لا هي مسيحية ولا هي وثنية ...	٣٨٩
٣٢٤	إعدام ليستنيوس بتهمة العودة إلى الدسائس	٣٨٦
٣٢٥	باخوميوس يجمع الرهبان في دير عند طابين في مصر	٣٩١
٣٢٥	نشأة الرهبنة الجماعية	٣٩١
٣٢٥	عقد مجمع الأساقفة في نيقية (مجمع نيقية)	٣٩٤
٣٢٥	يوسبيوس ينشر تاريخا كنسيا عاما	٤٠٠
٣٢٦	بناء رومة الجديدة وسط خرائب بيزنطية	٣٩٧
٣٢٦	قتل كرسپس بأمر والده قسطنطين	٤٠٢
٣٣٠	قسطنطين يتخذ القسطنطينية عاصمة له	٣٩٧
٣٣٢	قانون بقاء الزارع حتى يؤدي المتأخر عليه من الديون أو المشور ...	٣٦٧
٣٣٥	قسطنطين يوصي بتقسيم الإمبراطورية بين أولاده وأولاد أخته ...	٤٠٢
٣٣٧	الاحتفال بمرور ثلاثين عاماً من حكم قسطنطين	٤٠٢
٣٥٥	الهون أو الشيأونج – يو يصلون إلى نهري الفلجا وجيحون	٤١٣
٣٥٧ – ٣٥٨	الإمبراطور يوليان يقضي الشتاء في لوتيريا	٥٢
٣٧٦	السماح للقوط بعبور الدانوب واستيطان موئيزيا	٤١٣
٣٧٨	القوط يهزمون جيشاً رومانيا عند (أدرنه) ويهددون القسطنطينية	٤١٣
٣٨٤	إيفانيوس يحصي ثمانين شيعة مختلفة	٣١٤
٣٩٠	جيروم مؤرخ في القرن الرابع الميلادي	٢٤٦
٣٩٤	ثيودوس يمنع إقامة المباريات الأولمبية...	٧٥
٤٠٠	البابا أنستيسيوس يطعن في آراء أرجن التجديفية	٣١٣
٤٠٠	ألريك يقود القوط الغربيين ويعبر بهم جبال الألب	٤١٣
٤١٠	القوط يستولون على رومة وينهبونها	٤١٣
٤٢٩	جيسيرك يقود الوندال لفتح أسبانيا وأفريقية	٤١٣
٤٥١	أتلا يقود الهون ويهجم على غالة وإيطاليا ويجتاح لمبارديا رغم هزيمته عند شالون	٤١٣
٤٥٥	القوط يستولون على رومة ثانية...	٤١٣
٤٧٢	أرستيز القائد البانوني يعين ابنه رميولوس أوغسطولس إمبراطوراً	٤١٣
٤٨٦	الجنود البرابرة المرتزقة يخلعون الأغسطس الصغير رميولوس... ...	٤١٤

السنون بعد الميلاد	الحوادث	رقم الصفحة
٥٥٣	مجلس القسطنطينية يلعن أرجن ويصدر قراراً بحرمانه	٣١٣
٩٢٠	أخذ الشعر اليونانى شكله الحالى	١١٩
١٤٥٣	احتفاظ الإمبراطورية الشرقية بالعملة الذهبية وزناً وعياراً	٣٦٢
١٤٥٣	نهاية قيام الإمبراطورية الرومانية فى الشرق	٤١٤
١٥٥٩	أميو يترجم قصة دفنيس وكلوئى إلى الفرنسية السلسلة	٣٥٤
١٥٧٨	الكشف عن السراديب والدياميس التى كان المسيحيون يدفنون فيها موتاهم	٢٨٦
١٧٠٩	قائد نمساوى يحفر فى موضع هركيولانيم	١٧
١٧٤٠	مراتورى يكشف عن هتامة لاتينية سميت باسمه	٣١٥
١٧٤٩	الكشف عن پمپى	١٧
١٧٩١	نشر كتاب خرائب الإمبراطورية	٢٠٢
١٧٩٦	هردر يشير إلى ما بين مسيح متى ومرقس ولوقا ومسيح إنجيل يوحنا من فوارق	٢٠٣
١٨٨٧ ، ١٩٠٣	الكشف عن عشرين قطعة من كتاب الكلمات	٢٠٨
١٨٠٨	إلتقاء نابليون بڤيلاند العالم الألمانى	٢٠٢
١٨٢٨	هنريخ پولس يلخص حياة المسيح	٢٠٣
١٨٣٥ ، ١٨٣٦	كتاب داڤداستروس عن حياة المسيح	٢٠٣
١٨٦٣	كتاب ايرنست رينان عن حياة المسيح	٢٠٤
١٨٩٣	الكشف عن شوارع مدينة پرجموم	١٣١
١٩٠٦	آرثر درور يعرض نتائجه المحددة الواضحة	٢٠٤
١٩٣٦	احتفال رومة بمضى ٢٦٨٩ عاما على تأسيسها	٤١٨

٢ – فهرس الأعلام

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(د)

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(م)

(و)

(ى)

فهرس الأماكن

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

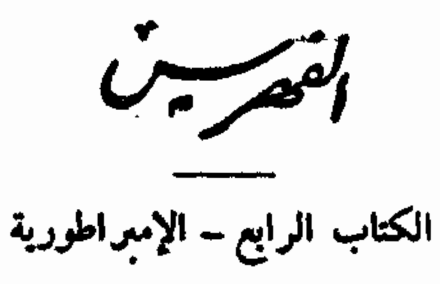
(ك)

(ل)

(و)

(لا)

(ى)



الكتاب الرابع – الإمبراطورية

الباب الحادى والعشرون : إيطاليا

الباب الثانى والعشرون : تمدين الغرب

الباب الثالث والعشرون : بلاد اليونان الرومانية

الباب الرابع والعشرون : اليقظة الهلنستية

الموضوع | الصفحة

الباب الخامس والعشرون : رومه اليهوديه

الكتاب الخامس — شباب المسحية

الباب السادس والعشرون : عيسى أو يسوع (عليه السلام)

الباب السابع والعشرون : الرسل

الباب الثامن والعشرون : نمو الكنيسة

الباب التاسع والعشرون : انهيار الإمبراطورية

الباب الثلاثون : انتصار المسيحية

الخاتمة

الفهارس

فهرس الأشكال والصور